الثاني والعش
من الجزء الثا

الجزء الثاني من تفسير القرآن للعلم العلامة والحبر البحر الفهامة

شيخ الاسلام ملك العلماء الاعلام

محمد الشربيني الخطيب تغمده

الله برحمته واسكنه فسيح

جنته وصلى الله

على سيدنا محمد

وعلى آله

وصحبه وسلم

109

35

BULAC

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر يا كريم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

سورة الاعراف مكية الا ثمان آيات من قوله تعالى واسئلهم عن القرية الى قوله واذ نتقنا الجبل وهي محكمة كلها وقيل الا قوله واعرض عن الجاهلين وعدد آيها مائتان وخمس آيات وكلماتها ثلاثة آلاف وثلثمائة وخمس وعشرون كلمة وحروفها اربعة عشر الفا وثلثمائة وعشرة احرف بسم الله الواحد الذي لا نفد احد ان نقدره قدر الرحمن الذي عم بنعمته البيان من اوجب عليهم شكره الرحيم الذي خص اهل وده فاجتنوا لهيه وامتثلوا امره المص سبق الكلام على معاني الحروف المقطعة في اول سورة البقرة وقوله تعالى كتاب خبر مبتدا محذوف تقديره هو او هذا او خبر المص والمراد بالكتاب السورة او القرآن وقوله تعالى انزل اليك صفته والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم فلا يكن في صدرك حرج اي ضيق منه اي لا تضيق صدرك بالابلاغ وتأدية ما ارسلت به مخافة ان تكذب لانه كان يخاف قومه وتكذيبهم له واعراضهم عنه واذاهم فكان يضيق صدره من الاداء المهلة في التأدية ولا يبسط له فامنه الله ونهاه عن المبالاة بهم وقيل الحرج الشك والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد امته وسمي الشك حرجا لان الشك ضيق الصدر كما ان اليقين منشرح الصدر وقوله تعالى لتنذر متعلق بانزل للانذار به وذكرى اي وتذكره للمؤمنين به وحذف المفعول بدل على عموم الرسالة لكل من امكن انذاره وتذكيره من العقلاء قال بعض المفسرين وهذا من الموخر الذي معناه التقديم تقديره كتاب انزلناه اليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه ويدل على هذا تعلق لتنذر بانزل وقوله تعالى اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم يعم القرآن والسنة لقوله تعالى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ولقوله تعالى وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا اي قل لهم يا محمد اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم وذروا ما انتم عليه من الشرك ولا تتبعوا من دونه اي ولا تتخذوا من دون الله اي غيره اولياء تطيعونهم من شياطين الانس والجن فيما امروكم به من عبادة الاصنام واتباع البدع والاهواء الفاسدة قليلا ما تذكرون اي تتعظون وقرا ابن عامر بيا قبل التاء وتخفيف الذال وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال ولا يا قبل التاء والباقون بتشديد الذال ولا يا قبل التاء وكم من قرية اهلكناها اي اهلكنا اهلها وقيل لا حتياج الى تقدير مضاف لان القرية تهلك كما يهلك اهلها وانما يقدر في جاءها لاجل قوله او هم قائلون وكم خبرية مفعول اهلكنا ومعنى التكثير والاهلاك على حقيقتهما ويقدر ارادة اهلاكها لقوله تعالى فجاءها اي اهلها بأسنا اي عذابنا فان مجيء البأس قبل الاهلاك فيقدر الارادة وقيل الاهلاك الحذلان وعلى هذا فلا حاجة الى التقدير بياتا اي وقت الاستكنان في البيوت ليلا كما جاء قوم لوط عليه السلام او نهم قائلون اي نائمون وقت القائلة وهي نصف النهار او مستريحون من غير نوم كما اهلكنا قوم شعيب عليه السلام اي مرة جاءها ليلا ومرة نهارا وانما خص هذين الوقتين لانهما وقت دعة واستراحة فيكون مجيء العذاب فيهما اقطع وفي هذا وعيد وتحذير للكفار كانه قيل لا تغتروا بانتفاء البأس والراحة فان عذاب الله تعالى اذا نزل نزل دفعة واحدة فما كان دعواهم اي قولهم اذ جاءهم بأسنا اي عذابنا الا ان قالوا اي اعترفوا انا كنا ظالمين اي فيما كنا عليه حيث لم نتبع ما انزل الينا من ربنا ولكن حين لا ينفعهم الاعتراف فلنسئلن الذين ارسل اليهم اي المرسل اليهم وهم الامم بسؤالهم الله تعالى عن قبول الرسالة واجابتهم

الرسل

الرسل ولنسألن المرسلين اي عما اجيبوا به كما قال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم وقيل يسأل المرسلين عن الابلاغ والمراد من هذا السؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم والمنفي في قوله تعالى ولا يسأل عن ذنوبهم المحمول سؤال الاستعلام اذ الاول هو وقت الحساب وهذا عند حصولهم على العقوبة فلنقصن عليهم اي الرسل والمرسل اليهم بعلم اي لنخبرنهم عن علم بما فعلوه باطنا وظاهرا وما قالوا سرا وعلانية وما كنا غائبين عنهم لنخفى علينا شئ من احوالهم وافعالهم والوزن اي الصحائف الاعمال بميزان له لسان وكفتان ينظر اليها الخلائق اظهارا للعدالة وقطعا للعذر وما يسألهم عن اعمالهم فتعترف بها السنتهم وتشهد بها جوارحهم ويويده ما روي ان الرجل يوتى به الى الميزان ويسلم اليه تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر فيخرج له بطاقة فيها كلمة الشهادة فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة والبطاقة رقعة صغيرة تجعل في طي الثوب يكتب فيها ثمنه وقيل يوزن الاعمال روي عن ابن عباس فتوفى الاعمال الحسنة عاصفون حسنة والاعمال السيية على صورة قبيحة فتوضع في الميزان وقيل توزن الاشخاص لما روي عنه عليه الصلاة والسلام انه قال ليأتين الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة وقوله تعالى يومئذ اي يوم السؤال المذكور وقيل يوم القيامة خبر المبتدا الذي هو الوزن وقوله تعالى الحق اي العدل الذي هو صفته فمن ثقلت موازينه اي رجحت على ما يعهد في الدنيا بصحايف اعماله او بحسناته او به على الاقوال الماضية وعن الحسن وحق الميزان ان يوضع فيه الحسنات ان يثقل وحق الميزان ان يوضع فيه السيات ان يخف فان قيل الميزان واحد فما وجه تمر الجمع اجيب بان المعرف قد تقع لفظ الجمع على الواحد وقيل انه ينصب لكل عبد ميزان وقيل انما جمعه لان الميزان يشتمل على الكفتين واللسان والشاهون ولابد للوزن من الامور الثلثة كلها وقيل جمع باختلاف الموزونات وتعدد الجمع بجمع موزون او ميزان فاولئك هم المفلحون الفائزون بالنجاة والثواب ومن خفت اي طاشت موازينه اي السيات اي بسببها فاولئك الذين خسروا انفسهم اي بتصييرها الى النار بما كانوا بآياتنا يظلمون اي يجحدون ولقد مكناكم يا بني آدم في الارض اي من سكناها وتزرعها والتصرف فيها وجعلنا لكم فيها معايش جمع معيشة اي اسبابا تعيشون بها ايام حياتكم من انواع التجارات والصنايع والمآكل والمشارب وذلك بمفضل الله تعالى وانعامه على عبيده وكثرة الانعام توجب الطاعة للمنعم والشكر له عليها ثم بين تعالى انه مع هذا الافضال على عباده وانعامه عليهم لا يقومون بشكرها كما ينبغي فقال تعالى قليلا ما تشكرون اي على ما صنعت اليكم وانعمت به عليكم وفيه دليل على انهم قد يشكرون لان الامتنان قد يذكر ليتمكن الله فيشكره عليها فلا يخلوا في بعض الاوقات من الشكر على المنعم وحقيقة الشكر تصوير النعمة واظهارها ونقيضها الكفر وهو تنسيان النعمة وسترها ولقد خلقناكم اي اباكم ادم ثم صورناكم اي اباكم ادم والمعنى خلقنا اباكم ادم طينا غير مصور ثم صورناه ثم اخرجنا ذريته من صلبه يصورين ثم نخرج الكل ويصورهم وقيل خلقناكم في اصلاب الرجال ثم صورناكم في ارحام النساء ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فان قيل ثم للترتيب والتراخي وهي ظاهرة على القول الاول فما وجهها على الثاني اجيب بانها تكون بمعنى الواو اي وقلنا للملائكة اسجدوا لادم سجود تحية بالانحناء فسجدوا اي الملائكة كلهم لادم الا ابليس ابا الجن كان بين الملائكة لم يكن من الساجدين ممن سجد له قال

الله تعالى لابليس ما منعك أن لا تسجد اي ان تسجد اذ أمرتك فلا زائدة للتاكيد كما في قوله تعالى لا
اقسم اي اقسم وقوله تعالى وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون اي يرجعون نعم ان حمل ما منعك
على ما حملك لم تكن زائدة قال ابليس مجيبا له تعالى انا خير منه فان قيل كيف يكون قوله انا
خير منه جوابا لما منعك وانما الجواب ان يقول منعني كذا اجيب بانه جواب من حيث المعنى
استانف به استبعادا لان يكون مثله مامورا بالسجود لمثله كانه قال المانع اني خير منه ولا يحسن
للفاضل ان يسجد للمفضول فكيف يحسن ان يومر به فهو الذي سن التكبر وقال بالحسن والقبح
العقليين اولا وعلل الخيرية بقوله خلقتني من نار اي فهي اغلب اجزائي وهي مشرقة معصية
عالية غالية وخلقته من طين اي هو اغلب اجزائه وهو كدر مظلم سافل مغلوب فكل منهما
ركب من العناصر الاربعة فالاضافة الى ما ذكر باعتبار الجزء الغالب قال ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما اول من قاس ابليس فاخطا فمن قاس الدين بشيء من رايه قرنه الله تعالى مع ابليس
قال ابن سيرين وما عبدت الشمس الا بالقياس وانما اخطا ابليس لانه راى الفضل كله باعتبار
العنصر وغفل عما يكون باعتبار الفاعل كما اشار اليه بقوله تعالى ما منعك ان تسجد لما خلقت
بيدي اي بغير واسطة وباعتبار الصورة كما نبه عليه تعالى بقوله ونفخت فيه من روحي
فقعوا له ساجدين وباعتبار الغاية وهي ملائكة ولذلك امر الملائكة بالسجود لما بين لهم
انهم اعلم منهم وان له خواص ليست لغيره وقال محمد بن جرير ظن الخبيث ان النار خير من الطين
ولم يعلم ان المفضل ما جعل الله له الفضل وقد فضل الطين على النار من وجوه منها ان من جوهر
الطين الرزانة والوقار والحلم والصبر وهو الداعي لادم بعد السعادة التي سبقت له الى التوبة
والتواضع والتضرع فاورثته الاجتبا والتوبة والهداية ومن جوهر النار الخفة والطيش والحدة
والارتفاع وهو الداعي لابليس بعد الشقاوة التي سبقت له الى الاستكبار والاصرار فاورثته
اللعنة والشقاوة ولان الطين سبب جميع الاشيا والنار سبب تفرقها ولان التراب سبب
الحياة لان حياة الاشجار والنبات لا يكون الا مع الطين والنار سبب الهلاك فان قيل لم سال
الله تعالى عن المانع من السجود وهو عالم بما منعه اجيب بانه للتوبيخ ولاظهار معاندته
وكفره وكبره وافتخاره باصله وازدرائه اصل ادم عليه السلام قال الله تعالى له فاهبط منها
اي من الجنة وقيل من السما الى الارض والهبوط الانزال والانحدار من فوق على سبيل القهر
والهوان والاستخفاف فما يكون اي فما يصح لك ان تتكبر فيها عن امري لان الجنة او السما
مكان الخاشع المطيع لامر الله تعالى وفيه تنبيه على ان التكبر لا يليق باهل الجنة والسما وانه تعالى
انما طرد ابليس لتكبره لا لمجرد المعصية قال صلى الله عليه وسلم كما رواه البيهقي من تواضع لله
رفعه الله ومن تكبر وضعه الله وعن عمر رضي الله تعالى عنه من تواضع لله رفعه الله
حكمته ومن تكبر وعدا طوره هضمه الله الى الارض فاخرج منها انك من الصاغرين اي الكفرة
الاذلا المهانين والصغار الذل والمهانة قال الزجاج استكبر عدو الله ابليس فابتلاه
الله بالصغار والذلة وقيل كان له ملك الارض فاخرجه الله منها الى جزائر البحر الاخضر
وعرشه عليه فلا يدخل الارض الا خائفا كهيئة السارق مثل شيخ عليه اطمار رثة يروع
فيها حتى يخرج منها قال اي ابليس عند ذلك انظرني اي اخرني ولا تمتني ولا تعجل عقوبتي
الى يوم يبعثون اي الناس وهو النفخة الاخيرة عند قيام الساعة وهذا من جهالة ابليس
الخبيث لانه سال ربه الامهال وقد علم انه لا سبيل لاحد من الخلق الى البقا في الدنيا ولكنه كره ان

يذوق

يدوق الموت فطلب النعاد الخلود فلم يجب الى ما سأل بل اجابه الله تعالى بقوله قال انك من المنظرين
لا الى ذلك الوقت بل الى الوقت المعلوم كما بينه تعالى في سورة الحجر بقوله انك لمن المنظرين
الى يوم الوقت المعلوم وذلك هو النفخة الاولى التي يموت فيها الخلق فان قيل لم اجيب
الى الانتظار وانما استنظر ليفسد عباده ويغويهم اجيب بانه اجابه الى ذلك من ابتلاء
العباد ولما في مخالفته من عظيم الثواب وجلالة مكانه عند الله في الدنيا من صنوف الزخارف
وانواع الملاذ والملاهي وما ركب في الانفس من الشهوات ليستمتع بها عباده قال اي ابليس
فبما اغويتني اي فبا غوائك لي والباء للقسم اي اقسم بإغوائك وحوابه لاقعدن لهم اي لبني ادم
صراطك المستقيم اي على الطريق الموصل اليك وانما اقسم بالاغواء لانه كان تكليفا والتكليف
من احسن افعال الله لكونه تعريضا لسعادة الابد فكان جديرا ان يقسم به ويجوز ان
تتعلق الباء بفعل القسم المحذوف تقديره فبما اغويتني اقسم بالله لاقعدن اي بسبب اغوائك
اقسم ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم اي من جميع
الجهات الاربع ولذلك لم يقل من فوقهم ومن تحت ارجلهم قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
ولا يستطيع ان يأتي من فوقهم ليحول بين العبد وبين رحمة ربه وقيل لم يقل من تحتهم لان
الاتيان منه يوحش وعنه انه قال من بين ايديهم من قبل الآخرة اي فيخبرهم بانه لا بعث ولا
جنة ولا نار ومن خلفهم من قبل الدنيا اي فيزينها لهم وعن ايمانهم من قبل حسناتهم اي
فيثبطهم عنها وعن شمائلهم من قبل سيئاتهم اي فيزين لهم المعاصي ويدعوهم اليها وانما عدي
الفعل الى الاولين بحرف الانتهاء لانه منها متوجه اليهم والى الاخيرين بحرف المجاوزة
فان الاتي منها كالمنحرف عنهم المار على عرضهم وبطونهم فولهم جلست عن يمينه
وعن شقيقه تمام صباح الاقعدن الشيطان على اربع مقاصد من بين يدي لهم من خلفي
وعن يميني وعن شمالي امامن من يدي يقول لا تخف فان الله غفور رحيم فاقرأ واني
لغفار لمن تاب وامن وعمل صالحا واما من خلفي يخوفني الضيعة على عيالي فاقرأ وما
من دابة في الارض الا على الله رزقها واما من قبل يميني فيأتيني من قبل الكتاب فاقرأ
والعاقبة للمتقين واما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين
ما يشتهون ولا تجد اكثرهم شاكرين اي مطيعين فان قيل كيف علم الخبيث ذلك اجيب
بانه انما قاله ظنا لقوله تعالى ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فما اتبعوه اي فهم متبدلا لشر
متعددا وهو الشيطان والنفس والهوى وعبدا الخير واحدا وهو الملك الملهم وقيل سمع
ذلك من الملائكة قال الله تعالى لابليس حين طرده عن بابه وابعده عن جنابه بسبب
مخالفته وعصيانه اخرج منها اي الجنة او السماء فما مصدر فانه لا يبغي ان تكون هي مذءوما
اي محقورا ممقوتا مدحورا اي مبعدا مطرودا عن الرحمة وقوله تعالى لمن تبعك منهم
اي من الناس اللام فيه لتوطئة القسم وجوابه لاملان جهنم منكم اجمعين وهو ساد مسد جواب
الشرط وهو من اتبعك اياها لان يجعلهم منك بدءا ويملأ من الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب
ويا ادم اي وقلنا يا ادم اسكن بهذه القصة معطوفة على فاذكر تقديره قلنا للملائكة وقد قال تعالى
انت تاكيد للضمير المستكن ليعطف عليه وزوجك اي حواء والمراد الجنة وذلك بعد ان اهبط منها
ابليس واخرجه وطرده من الجنة فكلا من حيث شئتما من ثمار الجنة اي من اي مكان شئتما فان
قيل قال تعالى في سورة البقرة وكلا بالواو وههنا بالفاء فما الفرق اجاب الفخر الرازي بان

الواو تفيد الجمع المطلق والفا تفيد الجمع على سبيل التعقيب والمفهوم من الفا نوع داخل
تحت المفهوم من الواو ولا منافاة بين النوع والجنس ففي سورة البقرة ذكر الجنس وهنا ذكر النوع
ولا تقربا هذه الشجرة اي بالاكل منها مشيرا الى شجرة بعينها او نوعها وهي الحنطة وقيل شجرة الكرم
وقيل غيرهما فتكونا من الظالمين بالاكل منها اي فتصيرا بذلك من الذين ظلموا انفسهم وتكونا
يحتمل الجزم عطفا على تقربا والنصب على جواب النهي فوسوس لهما الشيطان اي ابليس بما مكنه
الله تعالى منه من انه يجري من الانسان مجرى الدم ويلقي له في سره ما يميل به قلبه الى ما يريد
وهو احقر واقل ان يكون له فعل وانما الكل بيده سبحانه وتعالى هو الذي جعله الة لمراده منه
ومنهم فان من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون ثم بين علة الوسوسة
بقوله ليبدي اي ليظهر لهما ما ووري اي ستر وغطي عنهما من سوآتهما اي عوراتهما وكانا
لا يريانها من انفسهما ولا احدهما من الاخر وفيه دليل على ان كشف العورة في الخلوة وعند الزوج
من غير حاجة قبيح مستهجن في الطباع قالت عائشة رضي الله تعالى عنها ما رايت منه
صلى الله عليه وسلم ولا راى مني اي الفرج وقال اي ابليس لادم وحوا ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة
اي كراهة ان تكونا ملكين اي في عدم الشهوة وفي القدرة على الطيران
والتشكل وغير ذلك من خواصهم او تكونا من الخالدين اي الذين لا يموتون ولا يخرجون
من الجنة اصلا كما في اية اخرى هل ادلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وقاسمهما اي اقسم
لهما بالله على ذلك واخرجه على زنة المفاعلة للمبالغة وقيل اقسما له بالقبول وقيل اقسما
عليه بالله انه لمن الناصحين فاقسم لهما اني لكما لمن الناصحين فجعل ذلك مقاسمة وقال
قتادة حلف لهما بالله حتى خدعهما وقد يخدع المومن بالله فقال اني حلفت قلبكما
وانا اعلم فاتبعاني ارشدكما وفيه تنبيه على الاحتراز من الحالف وان الاغلب ان كل حلاف
كاذب فانه لا يحلف الا عند ظنه ان سامعه لا يصدقه ولا يظن ذلك الا وهو معتاد للكذب
وقال بعض العلما من خادعنا بالله خدعنا له وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما انه كان اذا راى
من عبده طاعة وحسن صلاة اعتقه وكان عبيده يعقلون ذلك طلبا للعتق فقيل له
انهم يخدعونك فقال من خدعنا بالله انخدعنا له وابليس لعنه الله تعالى اول من حلف بالله
تعالى كاذبا فلما حلف ظن ادم ان احدا لا يحلف بالله كاذبا فاغتر به فدلاهما بغرور اي خدعهما
يقال ما زال يدلي لفلان بالغرور يعني ما زال يخدعه ويكلمه بزخرف القول الباطل وقيل
حطهما من منزلة الطاعة الى حالة المعصية والغرور اظهار النصح مع ابطان الغش فلما ذاقا الشجرة
اي اكلا من ثمرها وفي ذلك دليل على انهما تناولا اليسير من ذلك قصدا الى معرفة طعمه اذ الذوق
يدل على الاكل اليسير وروي عن ابن عباس انه قال قبل ازدرادهما اخذتهما العقوبة والعقوبة
هي قوله بدت ظهرت لهما سوآتهما اي عوراتهما وتهافت عنهما لباسهما حتى ابصر كل واحد منهما
ما ووري من سوآة صاحبه بان راى قبل نفسه وقبل صاحبه ودبره وكانا لا يريان ذلك
وسمي كلا منهما سوآة لان انكشافه يسوء صاحبه قال وهب كان لباسهما من النور يحول بينهما
وبين النظر وقال قتادة كان ظفرا البسهما الله من الظفر لباسا فلما وقعا في الذنب بدت لهما
سوآتهما فاستحيا وطفقا اي فاقبلا وجعلا يخصفان اي يلزقان عليهما من ورق الجنة
اي من ورق التين قاله البغوي حتى صار كهيئة الثوب قال الزجاج يجعلان ورقة على ورقة
ليستترا سوآتهما روي عن ابي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان ادم رجلا طويلا

كانه

كانه نخلة سحوق كثير شعر الراس فلما وقع في الخطيئة بدت له سوأته وكان لا يراها فانطلق
هاربا في الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها ارسليني فقالت
لست بمرسلتك فناداه ربه عز وجل يا ادم امني تفر فقال لا يا رب ولكني استحييتك
وناداهما اي خاطبهما ربهما بقوله الم انهكما عن تلكما الشجرة اي عن الاكل من ثمرها واقل
لكما ان الشيطان لكما عدو مبين اي بين العداوة لكما وقد بان لكما عداوته بترك السجود
بغيا وحسدا وفي ذلك عتاب على مخالفة النهي وتوبيخ على الاغترار بقول العدو ودليل
على ان مطلق النهي للتحريم قال محمد بن قيس لما اكل ادم من الشجرة ناداه ربه يا ادم اكلت من الشجرة
التي نهيتك عنها قال حوا امرتني وقال لحوا لم اطعمت ادم قالت امرتني الحية قال
للحية لم امرتها قالت امرني ابليس قال الله تعالى اما انت يا حوا فكما ادميتي الشجرة
فتدمين في كل شهر واما انت يا حية فاقطع قوائمك فتمشين على وجهك وسيشدخ راسك
من لقيك واما انت يا ابليس فملعون مدحور وفي رواية لابن عباس انه قال لحوا فاني اعطيتها
ان لا تحمل الا كرها ولا تضع الا كرها قالا ربنا ظلمنا انفسنا اي ضررناها بمخالفة امرك وطاعة
عدونا وعدوك فان لم تتب علينا لنستمر عاصين وان لم تغفر لنا اي تمحوا ما عملناه عينا
واثرا وترحمنا اي فتعلي درجاتنا لنكونن من الخاسرين في الارض فاعربت الاية انهما فزعا
الى الاتصاف بالاعتراف بذنبهما وان كان انما هو خلاف الاولى لانه بطريق النسيان كما في
سورة طه قال قتادة قال ادم ارايت ان تبت اليك واستغفرتك قال اذا ادخلك الجنة
واما ابليس فلم يسال التوبة وسال النظرة فاعطي كل واحد منهما ما ساله وقال الضحاك
في قوله تعالى قالا ربنا ظلمنا انفسنا هي الكلمات التي تلقاها ادم من ربه تعالى وقد
استدل من يرى صدور الذنب من الانبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الاية ورد بان درجة
الانبياء في الرفعة والعلو والمعرفة بالله تعالى في اعلا الدرجات ولكن يواخذ بما لم يواخذ
به غيرهم وانهم ربما عوتبوا بامور صدرت منهم على سبيل التاويل فهم بسبب ذلك
خائفون وجلون وهي ذنوب بالاضافة الى علو منصبهم ومعاص بالنسبة الى كمال طاعتهم
لا انها ذنوب كذنوب غيرهم ومعاص كمعاصي غيرهم فكان ما صدر منهم مع طهارتهم ونزاهتهم
وعمارة بواطنهم بالرجاء السماوي والذكر القدسي وعمارة ظواهرهم بالعمل الصالح والخشية لله
تعالى ذنوب بالنسبة الى احوالهم فقالا ذلك على عادة المقربين في استعظام الصغير من السيئات
وتحقير العظيم من الحسنات وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة البقرة ومن جملة ذلك ان ادم
انما اكل من الشجرة قبل النبوة قال الله تعالى اهبطوا اي ادم وحوا بما اشتملتما عليه من ذريتكما
ويدل لذلك قوله تعالى في سورة طه اهبطا بضمير التثنية بعضكم اي بعض الذرية لبعض
عدو اي من ظلم بعضهم بعضا وقيل يعود الضمير لادم وحوا وابليس وقيل لادم وحوا وابليس
والحية وعلى هذين العداوة ثابتة بين ادم وابليس والحية وذرية كل واحد من ادم وابليس
ولكم في الارض اي جنسها مستقر اي موضع استقرار ولكم فيها متاع اي تمتع الى حين اي
انقضاء اجالكم وقيل الى انقطاع الدنيا وعن ثابت البناني رحمه الله تعالى لما اهبط ادم
وحضرته الوفاة احاطت به الملائكة فجعلت حوا تدور حولهم فقال لها خلي ملائكة ربي
فانما اصابني الذي اصابني فيك فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا وحنطته وكفنته
في وتر من الثياب وحفروا له ولحد وابس نديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم بعده

وانما

ذريتكما

BULAC

قال الله تعالى فيها اى الارض تحيون اى تعيشون ايام حياتكم وفيها تموتون اى وفيها وفاتكم وبوضع
تقدير كمد ومنها تخرجون اى يوم القيامة تخرجون للحشر والجزاء وقرا ابن ذكوان وحمزة والكسائى
بفتح التاء وضم الراء والباقون بضم التاء وفتح الراء يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا اى خلقناه لكم
بتدبيرنا فنسبة انزاله كنسبة انزال الماء والسحاب نازلة من مطر ونحوه وتنظير قوله تعالى وانزل لكم من الانعام
وقوله تعالى وانزلنا الحديد وقيل كل بركات الارض منسوبة الى السماء يوارى اى يستر سوآتكم
اى عوراتكم وكان العرب كما تواطوفون بالبيت عراة ويقولون لا نطوف فى ثياب عصينا
الله تعالى فيها وكان الرجال يطوفون بالليل والنساء بالنهار عراة قال قتادة كانت
المراة تطوف وتضع يدها على فرجها وتقول اليوم يبد بعضه او كله وما بدا منه فلا احله
فنزلت قال البيضاوى ولعله سبحانه وتعالى ذكر قصة ادم تقدمة لذلك حتى يعلم ان انكشاف العورة
اول سوءات الانسان من الشيطان وانه عدوهم فى ذلك كما اعدى ابويهم وريشا اى ولباسا
يتجملون به والريش للطائر معروف وهو لباسه وزينته كما ان الشعر للانسان فاستعير
للانسان لانه لباسه وزينته والمعنى وانزلنا عليكم لباسين لباسا يوارى سوآتكم ولباسا
لزينتكم لان الزينة غرض صحيح كما قال لتركبوها وزينة وقال تعالى ولكم فيها جمال
وقال صلى الله عليه وسلم ان الله جميل يحب الجمال وقال ابن عباس وريشا اى مالا يقال
من يبنى الرجل اذا تمول ولما ذكر سبحانه وتعالى اللباس الحسى وقسمه الى ساتر ومزين اتبعه
اللباس المعنوى فقال ولباس التقوى قال ابن عباس هو العمل الصالح ثم زاد الله تعالى فى تعظيم
المعنوى بقوله ذلك خير اى ولباس التقوى هو خير من لباس الثياب لكونه اعم للناسبين
لان نزعه يكشف العورة الحسية والمعنوية فلو تحلى الانسان باحسن الملابس وغير متقى
كان كله سوءات ولو كان متبعا ولبس عليه الاخرى عورته كان فى غاية الجمال
والتعفف والكمال وانشدوا فى المعنى

اذا انت لم تلبس ثيابا من التقى عريت وان وارى القميص قميص وقال قتادة لباس التقوى
هو الاعمال وقال الحسن هو الحياء لانه بعث على التقوى وقال عثمان بن عفان هو الشمت
الحسن وقال ابن الزبير هو خشية الله والعمل الصالح يشمل هذه الامور كلها وقرا نافع وابن
عامر والكسائى بنصب التاء عطفا على لباسا والباقون بالرفع على الابتداء والخبر ذلك خير
ذلك ايما نزال اللباس من آيات الله الدالة على فضله ورحمته لعلهم يذكرون فيعرفون
نعمته ويتعظون فينزعون عن القبائح وهذه الاية واردة على سبيل الاستطراد عقب
ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها اظهار للمنة فيما خلق من اللباس ولما فى العرب
وكشف العورة من الخيانة والفضيحة واظهار ان النشر بان عظيم من ابوى التعرى
يا بنى آدم ايما الذى خلقته بيدى واسكنته جنتى ثم انزلته الى دار محنتى لا يفتننكم
اى يضلنكم الشيطان اى البعيد الخير قرئ الذئوب اى لا يتبعوه فتفتنوا فيتعلم به لكن مرد خول الجنة
وبد خلكم النار كما اخرج ابويكم من الجنة بفتنته بعد ان كانا سكناها وتمكنا فيها ونوطنا
وقد علمتم ان الدفع اسهل من الرفع وقوله تعالى ينزع عنهما لباسهما حال من ابويكم او من فاعل
اخرج وانما اضاف نزع اللباس الى الشيطان وان لم يباشر ذلك لان نزع لباسهما بسبب وسوسة
الشيطان وغروره فاسند اليه واختلفوا فى اللباس الذى نزع عنهما فقال ابن عباس وقتادة كان
لباسهما الظفر فلما اصابا الخطيئة فزع عنهما وبقيت الاظفار وذكر قرظية ومنافع وقال وهب

ابن عيينة كان نورا يحول بينهما وبين الشجرة وتقدم بعض ذلك وقال المحاسبي كان لباسهما التقوى
وقيل كان لباسهما من ثياب الجنة قال بعض المفسرين وهذا اقرب لان اطلاق اللباس يطلق على علانية
وان النزع لا يكون الا بعد اللبس انتهى وتقدم الكلام على قوله لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا اي الشيطان
إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ اي جنوده وقال ابن عباس قبيله وولده وقال ابن زيد نسله وانما اعاد الكناية
في قوله هو لان الجن اصناف والقبيل جمع قبيلة وهي الجماعة المجتمعة التي يقابل بعضهم بعضا
مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اي للطافة اجسامهم وعدم الوانهم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
قال ان الله تعالى جعل الجن يجرون من ابن ادم مجرى الدم وجعل صدور بني ادم مساكن لهم
الا من عصمه الله تعالى كما قال تعالى الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس يعني من بني ادم
وبنو ادم لا يرونهم وعن مجاهد قال ابليس جعل الله لنا اربعة نرى ولا نرى ويخرج من
تحت الثرى ويعود شيخا فانيا وعن بن زياد ان عدو ابرا ان ولا نزاه لشد بلية المرء الامين
عصمه الله ومنع الرؤية اما لانوار على خلقتهم الاصلية والا فقد يرى احيانا متشكلا بصورة
حيوان او طير او غيره ذلك فان للجن قوة التشكل وهذا امر شايع ذايع وقد يرى ابليس
على صورة شيخ ويتمثل للكثير من العباد على صورة حية قيل قال شيخنا القاضي زكريا والحق جواز
رؤيتهم حتى من ذلك الجهة كما هو ظاهر الاحاديث الصحيحة وتكون الاية مخصوصة بهما فيكون
مزينين في بعض الاحيان لبعض الناس دون بعض إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ اي اعوانا وقرناء
لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ لما بينهم من التناسب في الطباع وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً كالشرك وطوافهم
بالبيت عراة فنهوا عنها قَالُوا معللين لارتكابهم اياها بِأمر من احد بما قولهم وَجَدْنَا عَلَيْهَا اي
الفاحشة آبَاءَنَا فاقتدينا بهم والثاني قولهم وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا افترى عليه فاعرض الله تعالى عن الاول
لظهور فساده ورد الثاني بقوله قُلْ لهم يا محمد إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ لان عادته سبحانه وتعالى
جرت على الامر بحاسن الافعال والحث على مكارم الخصال أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
انه قاله فانكم لم تسمعوا الكلام الله من غير واسطة ولا اخذتموه عن الانبياء الذين هم وسايط بين
الله وبين عباده وهو استفهام انكار يتضمن النهي عن الافتراء على الله وقد ناقض وابن كثير
وابو عمرو بابدال الهمزة الثانية ياء مع الوصل والباقون بالتحقيق قل يا محمد لهؤلاء الذين يقولون
ذلك أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ اي بالعدل وهو الوسط من كل امر المنجاني عن طرفي الافراط والتفريط
وقال ابن عباس بلا اله الا الله وَأَقِيمُوا اي وقال لهم اقيموا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ اي اخلصوا
له سجودكم فان قيل قال امرني ربي وخبر وافيموا وجوهكم امر وعطف الامر على الخبر لا يجوز اجيب
بان فيه اضمارا وحذفا فتقدير قل امرني ربي بالقسط وقال اقيموا او التقدم تقديره
بحذف قل لدلالة الكلام عليه وقيل معنى اقيموا وجوهكم حيث ما كنتم في الصلاة
الى الكعبة وقيل معناها صلوا اي متى حضر تكم الصلاة لا تؤخروها حتى تعودوا
لها مع احد كم وَادْعُوهُ اي اعبدوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ اي الطاعة ولا تشركوا به شيئا فان اليه
مصيركم كَمَا بَدَأَكُمْ اي كما انشاكم الله تَعُودُونَ اي بعد كم احياء يوم القيامة حالة تكونكم
فريقين فَرِيقًا هَدَى اي خلق الهداية في قلوبهم فحق لهم ثواب الهداية وَفَرِيقًا حَقَّ
اي ثبت ووجب عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ اي بمقتضى القضاء السابق وقيل ان الله تعالى لما خلق آدم مر مومنا
وكافرا كما قال تعالى هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مومن ثم يعيدكم يوم القيامة كما خلقكم
مومنا وكافرا وقيل يبعثون على ما ماتوا عليه وروي انه صلى الله عليه وسلم قال يبعث كل عبد

على ما مات عليه المؤمن على ايمانه والكافر على كفره وقيل من ابتدأ الله خلقه على الشقوة صار
اليها وان عمل عمل اهل السعادة كما ان ابليس كان يعمل باعمال اهل السعادة ثم صار الى الشقاوة
ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة صار اليها وان عمل اعمال اهل الشقاوة كما ان السحرة كانوا
يعملون بعمل اهل الشقاوة فصاروا الى السعادة روي انه صلى الله عليه وسلم قال ان
العبد يعمل فيما يرى الناس بعمل اهل الجنة وانه من اهل النار وانه ليعمل فيما يرى الناس
بعمل اهل النار وانه من اهل الجنة وانما الاعمال بالخواتيم وانتصاب فريقا بفعل
يفسره ما بعده اي وخذل فريقا وقوله تعالى انهم اتخذوا الشياطين اولياء من دون
الله اي دونه تعليل لخذلانهم وتحقيق لضلالتهم ويحسبون اي يظنون انهم مع ضلالتهم
مهتدون اي على هداية وحق وفيه دليل على ان الكافر الذي يظن انه في دينه على الحق
والجاحد والمعاند في الكفر سواء يا بني آدم خذوا زينتكم اي لستر العورة والتجمل عند الاجتماع
للعبادة عند كل مسجد اي كلما صليتم او طفتم وكانوا يطوفون عراة وعن طاوس رحمه الله
لم يامرهم بالحرير والديباج وانما احدهم كان يطوف عريانا ويضع ثيابه وراء المسجد وان طاف وهي
عليه ضرب وانتزعت منه لانهم قالوا لا نعبد الله في ثياب اذنبنا فيها وقيل نقاء ولا يستعروا
من الذنوب كما تعروا من الثياب وقيل الزينة المشط وقيل الطيب والسنة ان ياخذ الرجل
احسن هيئته للصلاة وكان بنو عامر في ايام حجهم لا ياكلون الطعام الا قوتا ولا ياكلون
دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون فانا احق ان نفعل فقيل لهم وكلوا واشربوا
ولا تسرفوا بتحريم الحلال او بالتقوي الى الحرام او بافراط الطعام والشره عليه وعن ابن عباس رضي
الله تعالى عنهما كل ما شئت والبس ما شئت ما اخطاتك خصلتان سرف ومخيلة
وروي ان الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي ابن الحسين بن واقد ليس في كتابكم من علم
الطب شيء والعلم علمان علم الاديان وعلم الابدان فقال له قد جمع الله الطب كله في نصف
اية من كتاب الله قال وما هي قال قوله تعالى وكلوا واشربوا ولا تسرفوا فقال النصراني
ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب فقال جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في الفاظ يسيرة
قال وما هي قال قوله المعدة بيت الداء والحمية راس كل دواء واعط كل بدن ما عودته فقال
النصراني ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا انه لا يحب المسرفين اي لا يرتضي فعلهم ففي الاية الوعيد
الشديد على الاسراف قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يطوفون بالبيت عراة من حرم
زينة الله التي اخرج لعباده من الثياب وكل ما يتجمل به فيدخل تحته انواع الملبوس والحلي ولولا
النص ورد بتحريم استعمال الذهب والحرير على الرجال لدخل في هذا العموم ولكن ورد النص في تحريمه
على الرجال دون النساء وايضا لهؤلاء الجهلة الذين كانوا لا ياكلون دسما يعظمون بذلك حجهم من حرم
الطيبات من الرزق التي اخرج لعباده وخلقها لهم فيدخل تحت ذلك كل ما يستلذ ويشتهى
من سائر المطعومات الا ما ورد نص بتحريمه وقد دلت الاية على ان الاصل في الملابس وانواع
التجملات والمطاعم الاباحة الا ما ورد النص بخلافه لان الاستفهام في من للانكار قل هي اي
الزينة والطيبات للذين امنوا في الحياة الدنيا اي بالاصالة والكفرة وان شاركوهم فيها
فتبع ولذا لم يقل تعالى للذين امنوا ولغيرهم خالصة يوم القيامة لا يشاركهم فيها غيرهم وقرا
نافع برفع التاء على انها خبر بعد خبر والباقون بالفتح على الحال كذلك اي مثل هذا التفصيل
البديع نفصل الايات اي نبين احكامها ونميز بعض المشتبهات من بعض لقوم يعلمون اي يتدبرون

فانهم

فانهم المنتفعون بها قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يطوفون بالبيت عراة ويحرمون اكل الطيبات
من الرزق وغير ذلك مما احل الله انما حرم ربي الفواحش اي الكبائر والكبيرة ما توعد عليها بنحو
غضب او لعن بخصوصه في الكتاب والسنة غالبا كالزنا جمع فاحشة وقرا حمزة بسكون الياء
والباقون بفتحها ما ظهر منها وما بطن اي جهرها وسرها وحرم الاثم اي الصغائر وهي ما عدا
الكبائر كالنظر الى بدن اجنبية وحرم البغي على الناس اي الظلم والكبر وافرده بالذكر مع انه من الكبائر
للمبالغة وقوله تعالى بغير الحق متعلق بالبغي مؤكد له معنى وحرم ان تشركوا بالله ما لم ينزل
به اي باشراكه سلطانا اي حجة وفي ذلك تهكم بالمشركين وتنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل
عليه برهان وقرا ابن كثير وابو عمرو بالتخفيف والباقون بالتشديد وحرم ان تقولوا على
الله ما لا تعلمون من تحريم ما لم يحرم وغيره ولكل امة اجل اي وقت معلوم وفي ذلك وعيد
لاهل مكة بالعذاب النازل في اجل معلوم عند الله كما نزل بالامم الماضية فاذا جاء اجلهم
اي وقت اجلهم لا يستاخرون ساعة عنه ولا يستقدمون ساعة عليه وانما ذكرت الساعة
وان كان دونها لذلك لانها اقل اسم للاوقات في العرف وذلك حين سالوا نزول العذاب فانزل
الله تعالى هذه الاية وقرا قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى مع المد والقصر وورش
وقنبل سهلا الثانية وابدلاها حرف مد والباقون بالتحقيق فيها يا بني ادم اما فيه ادغام
نون ان الشرطية فيما المزيدة ياتينكم رسل منكم اي من نوعكم من عند ربكم يقصون عليكم اياتي اي يقرون
عليكم كتابي وادلة احكامي وشرائعي التي شرعت لعبادي وجواب الشرط قوله تعالى فمن اتقى الشرك
ومخالفة رسلي واصلح عمله الذي امرته به رسلي فعمل بطاعتي وتجنب معصيتي وما نهيته عنه
فلا خوف عليهم حين يخاف غيرهم يوم القيامة من العذاب ولا هم يحزنون اي متجددا لهم في وقت
ما حزن على شيء فانهم لان الله يعطيهم ما تقر به اعينهم والذين كذبوا باياتنا اي جحدوها وكذبوا
رسلنا واستكبروا اي تكبروا عنها اي عن الايمان بها وذكر الاستكبار لان كل مكذب وكافر
متكبر قال تعالى انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون اولئك هؤلاء البعداء البغضاء
اصحاب النار هم فيها خالدون اي لا يخرجون منها ابدا وادخال الفاء في خبر المبتدا الاول دون
خبر الثاني للمبالغة في الوعد والمسامحة في الوعيد فمن اي لاحد اظلم ممن افترى على الله كذبا
اي بنسبة الشريك والولد اليه او قال عليه ما لم يقله او كذب باياته اي القران اولئك ينالهم
اي يصيبهم نصيبهم اي حظهم من الكتاب اي ما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الرزق والاجل
وغير ذلك حتى اذا جاءتهم اي هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب رسلنا اي ملك الموت
واعوانه يتوفونهم بقبض ارواحهم عند استكمال اعمارهم وارزاقهم وقوله تعالى قالوا جواب
اذا اي قال الرسل لهم تنكيتا وتوبيخا وتقريعا اين ما كنتم تدعون اي تعبدون من دون الله
اي غيره ادعوهم ليدفعوا عنكم ما نزل بكم وقيل ان هذا يكون في الاخرة اي اذا جاءتهم ملائكة
العذاب يتوفونهم اي يستوفون عددهم عند حشرهم الى النار قالوا اي الكفار مجيبين
للرسل ضلوا اي غابوا عنا وتركونا عند حاجتنا اليهم فلم ينفعونا وشهدوا على انفسهم
اي بالغوا في الاعتراف عند الموت او عند معاينة العذاب انهم كانوا كافرين اي جاحدين وحدانية
الله تعالى قال الله تعالى لهم يوم القيامة او احد من الملائكة ادخلوا في امم اي في جملة جماعات
وفرق ام بعضها بعضا قد خلت اي مضت وسلفت من قبلكم من الجن والانس اي كفار الامم
الماضية من الفريقين وقوله تعالى في النار متعلق بادخلوا كلما دخلت امة اي جماعة النار

لعنت أختها اي التي ضلت بالاقتدا بها حتى إذا اداركوا اي تلاحقوا واستقروا فيها اي النار
جميعا قالت أخراهم اي منزلة او دخولا وهم الاتباع لأولاهم اي لاجلهم وهم المتبوعون
اذ الخطاب مع الله تعالى لا معهم ربنا هؤلاء اي الاولون أضلونا اي لانهم اول من سن الضلال
وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الهمزة الثانية يا في الوصل والباقون بالتحقيق
فآتهم اي اذقهم بسبب ذلك عذابا ضعفا اي يكون بقدر عذاب غيرهم مرتين لانهم
ضلوا واضلوا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيمة
ومنه لا تقتل نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه اول من سن القتل
ثم اكدوا شدة العذاب بقولهم من النار قال الله تعالى لكل اي منكم ومنهم ضعف
اي عذاب مضعف اما القادة فبكفرهم وتضليلهم واما الاتباع فبكفرهم وتقليدهم
لهم ولكن لا تعلمون اي ما اعد الله تعالى لكل فريق من العذاب وقرا شعبة يعلمون بالياء
على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب وقالت أولاهم اي في الكفر وهم القادة لأخراهم
اي الاتباع فما كان لكم علينا من فضل اي لانكم لم تكفروا بسببنا فقد جاءتكم الرسل والنذر فما
رجعتم عن ضلالتكم وكفركم فنحن وانتم سوا قال الله تعالى لهم فذوقوا العذاب بما كنتم اي بسبب ما
تكسبون اي من الكفر والاعمال الخبيثة إن الذين كذبوا بآياتنا اي بدلايل التوحيد فلم يصدقوا
ولم يتبعوا رسلي واستكبروا عنها اي وتكبروا عن الايمان بها والانقياد لها والعمل بمقتضاها
لا تفتح لهم أبواب السماء لصعود اعمالهم ولا لدعائهم ولا لارواحهم ولا لنزول البركات
عليهم لانها طاهرة عن الارجاس الحسية والمعنوية فاذا صعدت ارواحهم الخبيثة
بعد الموت مع ملائكة العذاب اغلقت الابواب دونها ثم القيت من هناك الى سجين بخلاف
المؤمن فيفتح له ويصعد بروحه الى السماء السابعة كما ورد في حديث وقرا ابو عمرو وحمزة والكسائي
بسكون الهاء وتخفيف التاء بعدها الا ان ابا عمرو يقرا بالتاء على التانيث وحمزة والكسائي
بالياء على التذكير وقرا الباقون بالتانيث وفتح الفاء وتشديد التاء بعدها ولا يدخلون
الجنة اي التي هي اظهر المنازل واشرفها حتى يكون ما لا يكون بان يلج اي يدخل الجمل
على كبره في سم الخياط اي ثقب الابرة وهو غير ممكن فكذا دخولهم فهو تعليق على محال وعن
ابن مسعود انه سئل عن الجمل فقال زوج الناقة استجهالا للسائل واشارة الى ان طلب
معنى آخر تكلف وكذلك اي ومثل ذلك الجزاء بهذا العذاب وهو ان دخولهم محال عادة
نجزي المجرمين اي الكافرين لانه تقدم من صفتهم انهم كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها
وهذه صفة الكفار فوجب حمل لفظ المجرمين على انهم الكفار ولما بين تعالى ان الكفار
لا يدخلون الجنة ابدا بين انهم من اهل النار ووصف ما اعد لهم فيها فقال تعالى لهم
من جهنم مهاد اي فراش واصل المهاد والمهد الذي يقعد عليه ويضطجع عليه كالبساط
ومن فوقهم غواش اي اغطية من النار جمع غاشية والتنوين فيه عوض عن الياء التي
هي حرف علة وقيل عن حركتها وكذلك نجزي الظالمين عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين
اخرى اشعارا بانهم بتكذيبهم الآيات اتصفوا بهذه الاوصاف الذميمة وذكر المجرم
مع الحرمان من الجنة والظلم مع التعذيب بالنار تنبيها على انه اعظم الاجرام وقوله تعالى والذين
آمنوا وعملوا الصالحات مبتدا وقوله تعالى لا نكلف نفسا إلا وسعها اي طاقتها من العمل
اعتراض بينه وبين خبره وهو اولئك اصحاب الجنة هم فيها خالدون وانما حسن وقوع ذلك

بين

بين المبتدا والخبر لانه من جنس هذا الكلام ٢ ارد الله تعالى لما ذكر عملهم الصالح ذكر ذلك على ان ذلك
العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم وفيه تنبيه للكفار على ان الجنة مع عظم
قدرها ومحلها يوصل اليها بالعمل اليسير من غير عمل كلفة ولا مشقة صعبة واشعر
الوعد بالوعد على عادته تعالى ونزعنا ما في صدورهم من غل اى غش وعداوة كانت
فمن كان في قلبه على احد غل في الدنيا نزع منه فسلمت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم
الا التواد والتعاطف وعن علي رضي الله تعالى عنه اني لارجو ان اكون انا وعثمان
وطلحة والزبير منهم وروى انه صلى الله عليه وسلم قال يخلص المؤمنون من النار فيحبسون
على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا
هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لاحدهم اهدى منزلا في الجنة منه
بمنزله في الدنيا وقال السدي في هذه الاية ان اهل الجنة اذا اشرفوا الى الجنة وجدوا عند
باب كل شجرة في اصل ساقها عينان فشربوا من احدهما فنزع ما في صدورهم من غل وهو
الشراب الطهور واغتسلوا من الاخرى فجرت عليهم بنضرة النعيم فلن تشعث رؤسهم ولن تغبر
بعدها ابدا وقيل ان درجات الجنة متفاوتة في العلو والكمال فبعض اهل الجنة اعلا من بعض
فاخرج الله تعالى الغل والحسد من قلوبهم صدورهم وازاله عنهم ونزعه من قلوبهم
فلا يحسد صاحب الدرجة النازلة صاحب الدرجة العالية تجري من تحتهم الانهار اى تحت
قصورهم زيادة في لذتهم وسرورهم وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا اى لهذا النعيم
اذ دخلوا الجنة قالوا الحمد لله الذي وفقنا وارشدنا للعمل الصالح الذي هذا ثوابه
وتفضل علينا برحمته واحسانا وصرف عنا عذابه بفضله وكرمه قله الحمد على ذلك
وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله اى لولا هداية الله وتوفيقه واللام لتوكيد النفي
وجوابه لولا محذوف دل عليه قوله تعالى وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ونقديره
لولا هداية الله لنا موجودة لشقينا وما كنا مهتدين وقرا ابن عامر بحذف الواو وقبل
ما والباقون بالواو واذا دخل اهل النعيم الجنة ورأوا ما اعد الله تعالى فيها من النعيم
قالوا لقد جاءت رسل ربنا بالحق فاهتدينا بارشادهم يقولون ذلك سرورا واغتباطا
بما نالوا وتلذذا بالتكلم به وتسببا بان ما عملوه بقيسا في الدنيا صار لهم عين النعيم الاخرة
وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال والباقون بالادغام ونودوا اى نادى
منادي من بعيد او ينادي ملك بعد ملك بصوت الله تعالى او الملائكة بامر الله تعالى
ان تلكم الجنة التي كانتا رسل ربكم ان تعملوا بها في الدنيا وروي ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى منادي ان لكم ان تحيوا فلا تموتوا ابدا وان
لكم ان تصحوا فلا تسقموا ابدا وان لكم ان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان لكم ان تنعموا فلا تبأسوا
ابدا فذلك قوله تعالى ونودوا ان تلكم الجنة التي اورثتموها اى اعطيتموها بما كنتم تعملون
اى بسبب اعمالكم الصالحة التي عملتموها لان الجنة جعلت جزاء وثوابا لهم على الاعمال
الصالحة ولا يقارض هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لن يدخل الجنة احد بعمله
انما يدخلونها برحمة الله فان الباء في الحديث للعوض وهي الداخلة على الاثمان نحو اشتريت
الفرس بالف فلا تكون الجنة مشتراة لم بعمله فيكون عمله ثمنا لها او ان دخول الجنة برحمة
الله واما تمام الدرجات بالاعمال او ان العمل الصالح لن ينال المؤمن ولن يبلغه الا برحمة الله

وتوفيقه فاذا كان العمل الصالح بسبب الرحمة كان دخول الجنة في الحقيقة برحمة الله وخلقها
الله تعالى ثوابا وجزاء لهم على تلك الاعمال الصالحة التي عملوها في دار الدنيا وروي ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال من احد الا وله منزل في الجنة ومنزل في النار واما الكافر فيرث
المؤمن منزله من الجنة والمؤمن يرث الكافر منزله من النار وان في المواضع
الخمسة التي فيها المناداة والتاذين هي المخففة او المفسرة لان المناداة والتاذين
من القول وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الثاء عند التاء والباقون
بالادغام ونادى اصحاب اي اهل الجنة اصحاب اي اهل النار اي يقول اهل الجنة يا اهل النار
ان قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا اي في الدنيا على لسان الرسل من الثواب على الايمان به
وبرسله وطاعته حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم اي من العذاب على الكفر حقا قالوا اي قال
اهل النار مجيبين لاهل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا وهذا النداء انما يكون بعد استقرار
اهل الجنة في الجنة واهل النار في النار فان قيل الجنة نعم وجدنا ذلك حقا وهذا النداء انما
يكون بعد استقرار اهل الجنة في الجنة واهل النار في النار في السماء او النار في الارض
فكيف يصح ان يقع هذا النداء اجيب بان الله تعالى قادر على ان يقوي الاصوات والاسماع
فيصير البعيد كالقريب فان قيل هذا النداء من اهل الجنة لكل اهل النار او من البعض
للبعض اجيب بان ظاهر الاية العموم ويحتمل ان كل واحد من اهل الجنة ينادي من كان يعرفه
من الكفار في دار الدنيا والله اعلم بحقيقة ذلك وقرا الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح
وهما لغتان فاذن مؤذن اي وهو اسرافيل صاحب الصور كما قاله ابن عباس وقيل واحد من الملائكة
واصل الاذان في اللغة الاعلام والمعنى نادى منادي بينهم اي الفريقين اسمعهم ان لعنة الله
على الظالمين وقرا ابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد ان ونصب التاء والباقون بتخفيف
ان ورفع التاء ثم فسر الظالمين منهم بقوله تعالى الذين يصدون عن سبيل الله اي يمنعون
الناس عن الدخول في دين الاسلام ويبغونها اي يطلبون السبيل عوجا اي معوجة قال ابن عباس
يصلون لغير الله ويعظمون ما لم يعظمه الله والعوج بكسر العين في الدين والامر وكل ما لم
يكن قائما وبالفتح في كل ما كان قائما كالحائط والرمح وهم بالاخرة كافرون اي وهم بكون
الاخرة واقعة جاحدون منكرون لها وبينهما اي اهل الجنة واهل النار حجاب لقوله تعالى
فضرب بينهم بسور او بين الجنة والنار ليمتنع وصول اثر احدهما الى الاخرى وعلى الاعراف
وهو سور الجنة جمع عرف وهو اسم للمكان المرتفع ومنه عرف الديك لارتفاعه على ما سواه
من جسده وقال السدي سمي ذلك السور اعرافا لان اصحابه يعرفون الناس اي اهل الجنة
والنار رجال اي طائفة من الموحدين استوت حسناتهم وسيئاتهم كما في الحديث فقصرت
بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هناك حتى يقضي الله تعالى
فيهم ما يشاء ثم يدخلون الجنة بفضل الله تعالى ورحمته وهم اخر من يدخل الجنة وعن ابن
مسعود رضي الله تعالى عنه انه قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته اكثر
من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته اكثر من حسناته بواحدة دخل النار
ثم قرا قوله تعالى فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه
فاولئك الذين خسروا انفسهم ثم قال ان الميزان تخف بمثقال حبة او ترجح قال ومن استوت
حسناته وسيئاته كان من اصحاب الاعراف وقيل هم قوم خرجوا الى الغزو بغير اذن ابائهم

فقتلوا

د فقتلوا فاعتقوا من النار بقتلهم في سبيل الله وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم فهم آخر
د من يدخل الجنة وقتلهم الذين ماتوا في الفترة ولم يبدلوا دينهم وقتلهم اطفال المشركين
يعرفون اي اصحاب الاعراف رجالا من اهل الجنة والنار بسيماهم اي بعلامتهم وهي بياض
الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين وقيل لهم اذ موضعهم عال ونادوا اي ونادى
اصحاب الاعراف اصحاب الجنة ان سلام عليكم اي اذا نظروا اليهم سالوا عنهم لم يدخلوها
اي اصحاب الاعراف الجنة وهم يطمعون في دخولها قال الحسن لم يطمعهم الا الكرامة التي رأوها بهم
وروى الحاكم عن حذيفة قال بين ما هم كذلك اذ طلع عليهم ربك فقال قوموا ادخلوا الجنة
فقد غفرت لكم وقال مجاهد اصحاب الاعراف قوم صالحون فقهاء علماء وعلى هذا انما يكون
لبعضهم على الاعراف على سبيل النزهة ولبري غيرهم شرفهم وفضلهم وحكى الانباري انهم انبياء
وعلى هذا انما اجلسهم هناك ليعاينوا اهل الجنة فيتميزوا بالنظر الى فضلهم وعلو
مرتبتهم وليكونوا مشرفين على اهل الجنة والنار ومطلعين على احوالهم ومقادير ثواب
اهل الجنة وعقاب اهل النار وقال ابو مخلد يمر بهم ملائكة بدون في صورة الرجال والاقوال
الاول تدل على ان اصحاب الاعراف دون اهل الجنة في الدرجات وان كانوا يدخلون الجنة
برحمة الله والاقوال الاخيرة تدل على انهم افضل من اهل الجنة لانهم اعلى منهم منزلة وافضل
واذا صرفت ابصارهم اي اصحاب الاعراف تلقاء اي جهة اصحاب النار ونظروا اليهم والى سواد
وجوههم وما هم فيه من العذاب قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين اي الكافرين والنار
قال ابن عباس ان اصحاب الاعراف اذا نظروا الى اصحاب النار وما هم فيه تضرعوا الى الله تعالى
وسألوه ان لا يجعلهم منهم وقرأ قالون والبزي وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وابدالها
ورش وقنبل حرف مد وسهلاها والباقون بالتحقيق ونادى اصحاب الاعراف رجالا اي
كانوا عظماء الدنيا من اهل النار يعرفونهم بسيماهم اي بسيما اهل النار قالوا اي اصحاب
الاعراف لهؤلاء الذين عرفوهم في النار ما اغنى عنكم جمعكم اي ما كنتم تجمعون من الاموال في الدنيا
وما كنتم تستكبرون اي وما اغنى عنكم تكبركم عن الايمان ثم قال الكلبي نادوهم على السور
يا وليد بن المغيرة يا ابا جهل بن هشام يا فلان ويا فلان ثم ينظرون الى الجنة فيرون فيها
الفقراء والضعفاء ممن كانوا يستهزئون بهم مثل سلمان وخباب وصهيب وبلال وامثالهم
فيقول اصحاب الاعراف لهؤلاء الكفار اهؤلاء لفظ استفهام اي لهؤلاء الضعفاء الذين اقسمتم
اي حلفتم يا لله لا ينالهم الله برحمة اي لا يدخلون الجنة وقد قيل لهم ادخلوا الجنة لا خوف
عليكم ولا انتم تحزنون وقيل ان اصحاب الاعراف اذا قالوا لاهل النار ما قالوا قال لهم اهل
النار ان دخل وليكم فانتم لم تدخلوها فيعيرونهم بذلك ويقسمون انهم لا يدخلون الجنة
ولا ينالهم الله برحمة فتقول الملائكة الذين حبسوا اهل الاعراف ادخلوا الجنة برحمة الله لا خوف
عليكم ولا انتم تحزنون وهذا ظاهر على الاقوال الاول وقرأ ابو عمرو وعاصم وحمزة يكسرون
رحمة في الوصل وابن ذكوان بوجهين الضم والكسر والباقون بالضم ونادى اصحاب النار اصحاب
الجنة ان افيضوا علينا من الماء اي صبوه وهو دليل على ان الجنة فوق النار او مما رزقكم الله اي
من سائر الاشربة ليلائم الافاضة لان الافاضة ملائمة للماء وسائر المايعات فحملت افاضة
الماء على افاضة جميع المايعات او من الشامل للمشروب والمأكول بتضمين افيضوا القاء كقوله
علفتها تبنا وماء باردا حتى غدت همالة اي فافيضه عينا هاقالوا اي اهل الجنة محيبين لهم

إن الله حرمهما أي منعهما على الكافرين أي منعهم طعام الجنة وشرابها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه
ويحظر كقوله حرام على عيني أن تطعما الكرام وقيل لما كانت شهواتهم في الدنيا في لذة الأكل والشرب
عذبهم الله في الآخرة بشدة الجوع والعطش فسألوا ما كانوا يعتادونه في الدنيا من طلب الأكل
والشرب فأجيبوا بأن الله حرم عليهم طعام الجنة وشرابها على الكافرين ثم وصف الله تعالى
الكافرين بقوله الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وهو ما زين لهم الشيطان من تحريم البحيرة
والتصدية حول البيت وسائر الخصال الذميمة التي كانوا يفعلونها في الجاهلية وقيل
كانوا إذا دعوا إلى الإيمان سخروا ممن دعاهم إليه وهزؤا به واللهو صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف
به واللعب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به وغرتهم الحيوة الدنيا أي وخدعهم عاجل ما هم فيه
من رغد العيش والدعة وشغلهم ما هم فيه من ذلك عن الإيمان بالله ورسوله ومن الأخذ
بنصيبهم في الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على ذلك والقوة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان
في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات فإذا حصل له ذلك صار
محجوبا عن الدين وطلب الخلاص لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك ولما وصفهم
الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال فاليوم أي يوم القيامة ننساهم أي نتركهم
في النار ونعرض عنهم فلا نجيب دعاءهم ولا نرحم ضعفهم وذلهم كما نسوا لقاء يومهم هذا
أي كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا كفعل الناسين فلم يخطر ببالهم ولم يهتموا به وأعرضوا عن
الإيمان فقابل الله تعالى جزاء نسيانهم بالنسيان على المجاز لأن الله تعالى متعال أن ينسى شيئا
فهو كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها وما كانوا بآياتنا يجحدون أي وكما كانوا منكرين
أنها من عند الله عز وجل ولقد جئناهم أي هؤلاء الكفار بكتاب أي قرآن أنزلناه عليك يا محمد
فصلناه أي بينا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ مفصلة على علم أي عالمين وجه
تفصيله وقوله تعالى هدى ورحمة لقوم يؤمنون أي به حال من منصوب فصلناه كما
أن على علم حال من مرفوعه هل ينظرون أي ما ينتظرون إلا تأويله أي إلا عاقبة أمره وما
يؤول إليه من تبيين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد يوم يأتي تأويله
أي يوم القيامة لأنه يوم الجزاء يقول الذين نسوه من قبل أي تركوه ترك الناسي قد جاءت رسل
ربنا بالحق أي قد تبين لهم أي اعترفوا يوم القيامة بأن ما جاءت به الرسل من الإيمان والحشر
والنشر والبعث والثواب والعقاب حق حين لا ينفعهم ذلك الاعتراف ولما رأوا أنفسهم
في العذاب قالوا فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا اليوم أو نرد أي وهل نرد إلى الدنيا وقولهم
فنعمل غير الذي كنا نعمل فيها فنبدل الكفر بالإيمان والتوحيد والمعاصي بالطاعة والإنابة
جواب الاستفهام الثاني قد خسروا أنفسهم أي إذ صاروا إلى الهلاك لأنهم كانوا في الدنيا
أول مرة فلم يعملوا بطاعة الله ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما كانوا عليه من الكفر والعصيان
لسابق علم الله تعالى فيهم وضل أي ذهب عنهم ما كانوا يفترون أي من دعوى الشريك
فلم ينفعهم إن ربكم أي سيدكم ومولاكم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم ومدفع
المكاره عنكم هو الله الذي خلق السموات والأرض أي ابتدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال
سبق في ستة أيام أي من أيام الدنيا وقيل من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة فإن قيل اليوم من
أيام الدنيا عبارة عن مقدار من الزمان وذلك المقدار من طلوع الشمس إلى غروبها ولم يكن إذ ذاك
شمس ولا سماء أجيب بأن معنى ذلك في مقدار ستة أيام فهو كقوله تعالى لهم رزقهم فيها بكرة

وعشيا

وعشيا اي على مقادير البكر والعشي في الدنيا لان الجنة لا ليل فيها ولا نهار قال سعيد بن جبير
كان الله عز وجل قادرا على خلق السموات والارض في لمحة ولحظة فخلقهن في ستة ايام تعليما
لخلقه التثبت والتاني في الامور وقد جا في الحديث التاني من الله والعجلة من الشيطان
واختلف العلما في اليوم الذي ابتدا الله تعالى خلق الاشيا فيه فقيل هو يوم السبت لخبر مسلم
عن ابي هريرة قال اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت
وخلق فيها الجبال يوم الاحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثا وخلق
النور يوم الاربعا وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق ادم بعد العصر من يوم الجمعة
في اخر الخلق في اخر ساعة من النهار فيما بين العصر الى الليل وقيل يوم الاحد لقول بعضهم
سمي يوم الاثنين لانه ثاني الايام والخميس لانه خامس الايام قال الاسنوي والصواب الاول
للخبر المذكور ثم استوى على العرش اي استوى امره وقال اهل السنة الاستوا على العرش
صفة الله بلا كيف يجب الايمان به ويكل العلم فيه الى الله تعالى والمعنى ان له سبحانه وتعالى استوا
على العرش على الوجه الذي عناه منزه عن الاستقرار والتمكن وسال رجل مالك بن انس
عن قوله تعالى الرحمن على العرش استوى فاطرق راسه مليا وعلاه الرحضا ثم قال الاستوا
غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسوال عنه بدعة وما اظنك الا ضالا ثم امر
به فاخرج وروي عن سفيان الثوري والاوزاعي والليث بن سعد وغيرهم من علما السنة
في هذه الايات التي جات في الصفات المتشابهة امروها كما جات اقروها بلا كيف
واجماع السلف منعقد على ان لا يزيدوا على قراة الاية والعرش في اللغة هو السرير قال
كعب ان السموات في العرش كالقنديل معلق بين السما والارض وقال عوس الطاي العرش ياقوتة
حمرا وشذ قوم فقالوا العرش بمعنى الملك وهذا عدول عن الحقيقة الى التجوز مع مخالفة
الاثر الم تسمعوا قوله تعالى وكان عرشه على الما اتراه كان الملك على الما وكيف يكون الملك ياقوتة
حمرا وبعضهم يقول استوى بمعنى استولى ويحتج بقول الشاعر استوى بشر على العراق من غير
سيف ودم مهراق وقال اخرهما استويا بفضلهما جميعا على عرش الملوك بغير زور هذا
منكر عند اهل اللغة قال ابن الاعرابي لا يعرف استولى فلان على كذا الا اذا كان بعيدا عنه
غير ممكن منه ثم تمكن منه والله تعالى لم يزل مستوليا على الاشيا والبيتان قال ابن فارس
اللغوي لا يعرف قايلهما ولو صحا لا حجة فيهما لما بينا من استيلا من لم يكن مستوليا نعوذ
بالله من تعطيل الملحدة وتسمية المجسمة وقيل هو ما على فاطل ومنه عرش الكرم يغشي الليل
النهار اي يغطيه ولم يذكر عكسه اما للعلم به واما لان اللفظ يحتملهما بان يكون المعنى انه يلحق
الليل بالنهار والنهار بالليل وقرا شعبة وحمزة والكسائي بفتح الغين وتشديد الشين والباقون
بسكون الغين وتخفيف الشين يطلبه اي يطلب كل منهما الاخر طلبا حثيثا اي سريعا
فهو صفة مصدر محذوف ويحتمل ان يكون حالا من الفاعل بمعنى حاثا والمفعول بمعنى المحثوث
والشمس والقمر والنجوم مسخرات اي مذللات لما يراد منهن من طلوع وافول وسير على حسب
ارادة المدبر لهن بامره اي بقضايه وتصريفه وقرا ابن عامر برفع الاربعة على الابتدا والخبر
والباقون بالنصب عطفا على السموات ومسخرات منصوب بالكسر الا له الخلق جميعا
والامر كله فانه الموجد والمتصرف في ذلك وفي هذا رد على من يقول ان الشمس والقمر والكواكب
تخلق وله الامر المطلق وليس لاحد امر غيره فهو الامر والناهي الذي يفعل ما يشا ويحكم ما يريد

هذا الذم

لا اعتراض لاحد من خلقه عليه واستخرج سفيان بن عيينة من كلام الله تعالى ليس بمخلوق
فقال ان الله تعالى فرق بين الخلق والامر فمن جمع بينهما فقد كفر ان جعل الامر الذي هو كلام الله من جملة
ما خلقه فهو كفر لان المخلوق لا يقوم بمخلوق تبارك الله رب العالمين اي تعالى بالوحدانية وتعظم
بالتفرد في الربوبية قال البيضاوي وتخصيص الاسم بهذا الوصف لانه والله اعلم ان الكفرة كانوا معترفين بان ربها فيما
تقدم ان المستحق للربوبية واحد وهو الله تعالى لانه الذي له الخلق والامر فانه تعالى خلق العالم
على ترتيب مقوم وتدبير محكم فابدع الافلاك ثم زينها بالكواكب واشار اليه بقوله تعالى فقضاهن
سبع سموات في يومين وقدر في كل سماء امرها والكواكب مخلوقة له والامر صفاته وليس الامر بمعنى الشأن
الى ايجاد الاجرام السفلية فخلق جسما قابلا للصور المختلفة والهيئات المتخالفة ثم قسمها
بصور نوعية متضادة الاثار والافعال واشار اليه بقوله تعالى خلق الارض في يومين اي
ما في جهة السفل في يومين ثم انشأ انواع المواليد الثلاثة اي وهي النبات والحيوان والمعدن
بتركيب موادها اولا وتصويرها ثانيا كما قال تعالى بعد قوله خلق الارض في يومين وجعل فيها
رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام اربع اليومين الاولين اللذين خلق
فيهما السموات لقوله تعالى في سورة السجدة قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له
اندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام سواء للسائلين
ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين فقضاهن سبع
سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم
فان قلت كيف قال ائتيا طوعا او كرها وقالتا اتينا طائعين وهذا يدل على النطق والفهم قلت قال
الامام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى هذا تمثيل وتصوير والمعنى انه تعالى اراد خلق السماء والارض
وما بينهما في ستة ايام ثم لما تم لم يعالم الملك عما الى تدبيره كالملك الجالس على عرشه لتدبير المملكة فدبر الامر من السماء
الى الارض بتحريك الافلاك وتسيير الكواكب وتكوير الليالي والايام ثم صرح بما هو نتيجة ذلك فقال
الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ثم امرهم ان يدعوه منفردين بالتضرع اليه بقوله
تعالى ادعوا ربكم لان الدعاء هو السؤال والطلب وهو ينبئ عن العبادة لان الداعي لا يقدم على
الدعاء الا اذا عرف من نفسه الحاجة الى ذلك المطلوب وهو عاجز عن تحصيله وعرف ان امره قبضة
سبحانه وتعالى يسمع الدعاء ويعلم حاجته وهو قادر على ايصالها الى الداعي فعندئذ لكن يعرف
العبد نفسه بالعجز والنقص ويعرف ربه بالقدرة والكمال وهذا المراد من قوله تعالى تضرعا
اي ادعوا ربكم تذللا واستكانة وهذا ظاهر والذل في النفس والخشوع يقال ضرع فلان
لفلان اذا ذل له وخشع وخفية اي سرا في انفسكم وهو ضد العلانية والادب في الدعاء
ان يكون خفيا لهذه الاية وعن ابي موسى الاشعري رضي الله تعالى عنه قال كنا نجهر مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
ايها الناس ارجعوا على انفسكم انكم لا تدعون اصم ولا غائبا انكم تدعون سميعا بصيرا وهو معكم
قال ابو موسى وانا خلفه اقول لا حول ولا قوة الا بالله في نفسي فقال يا عبد الله بن قيس الا
ادلك على كنز من كنوز الجنة قلت بلى قال لا حول ولا قوة الا بالله وقال الحسن بن دعوة السر
والجهر سهوان ضعفا ولعذكان المسلمون يجهرون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت فان كانا لا يسمعان نفسيهما
وبين ربهما وذلك لان الله سبحانه وتعالى يقول ادعوا ربكم تضرعا وخفية فان الله تعالى اثنى
على زكريا صلى الله عليه وسلم فقال اذ نادى ربه نداء خفيا وعن الحسن ايضا ان الله يعلم القلب
التقي والدعاء الخفي ان كان الرجل ليجمع القرآن وما يشعر به جاره وان كان الرجل ليفقه الفقه
الكثير ولا يشعر الناس به وان كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة وعنده الرواد وما يشعرون
به ولقد ادركنا اقواما ما كان على الارض من عمل يقدرون على ان يعملوه في السر فيكون علانية
ابدا انه تعالى لا يحب المعتدين اي المجاوزين ما امروا به في الدعاء وغيره منه على ان الداعي ينبغي
له ان لا يطلب ما لا يليق به كرتبة الانبياء والصعود الى السماء روي ان عبد الله بن مغفل سمع

ابنه

ابنه يقول اللهم اني اسالك القصر الابيض عن يمين الجنة اذا دخلتها فقال يا بني سل الله الجنة وتعوذ
من النار فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيكون في هذه الامة قوم يعتدون
في الطهور والدعا وقيل اراد به الاعتدا في الجهر قال ابن جريج من الاعتدا رفع الصوت والندا
بالدعا والصياح وعنه صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون في الدعا وحسب المرء ان
يقول اللهم اني اسالك الجنة وما قرب اليها من قول وعمل واعوذ بك من النار وما قرب اليها
من قول وعمل ثم قرا انه لا يحب المعتدين **ولا تفسدوا في الارض** اي بالشرك والمعاصي **بعد اصلاحها**
اي ببعث الرسل وشرع الاحكام وقيل لا تفسدوا في الارض فيمسك الله المطر ويهلك الحرث
بمعاصيكم وعلى هذا فمعنى قوله تعالى بعد اصلاحها اي بعد اصلاح الله اياها بالمطر والخصب
وادعوه خوفا منه ومن عذابه **وطمعا** اي فيما عنده من مغفرته وثوابه وقال ابن جريج
خوف العدل وطمع الفضل **ان رحمت الله قريب من المحسنين** اي المطيعين وفي ذلك ترجيح
للطمع وتنبيه على ما يتوسل به الى الاجابة وتذكير قريب المخبر به عن رحمة لاضافتها الى الله
تعالى وقال سعيد بن جبير الرحمة هاهنا الثواب فرجع النعت الى المعنى دون اللفظ وقيل
ان تانيث الرحمة ليس بحقيقي وما كان كذلك جاز فيه التانيث والتذكير عند اهل اللغة وقيل
ذكرها للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره حيث يجب التانيث في الاول فيقال
فيه فلانة قريبة مني اي في النسب ويجوز في الثاني فيقال فيه فلانة قريبة وقريب
مني في المكان وكون الرحمة قريبة من المحسنين لان الانسان في كل ساعة من الساعات
في ادبار عن الدنيا واقبال على الاخرة واذا كان كذلك كان الموت اقرب اليه من الحيوة وليس
بينهم وبين رحمة الله التي هي الثواب في الاخرة الا الموت وهو قريب من الانسان فائدة
رحمت تكتب هنا بالتا المجرورة فوقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسائي بالها والباقون
بالتا وامالها الكسائي في الوقف على اصله وقوله تعالى **وهو الذي يرسل الرياح** عطف على ما قبله
والمعنى ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض وهو الذي يرسل الرياح وقرا ابن كثير وحمزة
والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع **نشرا بين يدي رحمته** اي متفرقة قدم المطر الذي هو من
اجل النعم واحسنها اثرا فان الصبا تثير السحاب والشمال تجمعه والجنوب تدره والدبور تفرقه
وقرا عاصم بالبا الموحدة والشين اي مبشرا وحمزة والكسائي بالنون مفتوحة وسكون الشين على انه
مصدر في موضع الحال بمعنى باشرات او مفعول مطلق فان الارسال والنشر متقاربان
وابن عامر بالنون مضمومة وسكون الشين تخفيفا والباقون بضم النون والشين جمع نشور
بمعنى ناشر **حتى اذا اقلت** اي حملت الرياح **سحابا ثقالا** اي بالمطر يقال اقل فلان الشي اذا حمله
واشتقاق الاقلال من القلة فان من يدفع شيا يراه قليلا **سقناه** اي السحاب وافرد الضمير
باعتبار اللفظ وفيه التفات عن الغيبة ولو حمل على المعنى كالثقال لانث كما لو حمل الوصف
على اللفظ لقيل ثقيلا والسحاب جمع سحابة وهو الغيم فيه ما او لم يكن فيه ما سمي سحابا لانسحابه
في الهوا قال السدي ان الله تبارك وتعالى يرسل الرياح فتاتي بالسحاب من بين الخافقين وهو طرف
السما والارض حيث يلتقيان فتخرجه ثم تنشره فيبسطه في السما كيف يشا ثم يفتح له ابواب السما
فيسيل الما على السحاب ثم تمطر السحاب بعد ذلك **لبلد ميت** اي لا نبات به اي لا حيا به وقرا ابن
كثير وابو عمرو بتخفيف اليا والباقون بالتشديد **فانزلنا به** اي بالبلد او السحاب **الماء**
فاخرجنا به اي بذلك الما لان انزال الما كان سببا لاخراج الثمرات **من كل الثمرات**

اي من كل انواعها قال الازهري قال الليث البلد من كل موضع من الارض عامرا او غير عامر خال او مسكون
والطائفة منها بلدة والجمع بلاد كذلك اي مثل هذا الاخراج نخرج الموتى احيا من قبورهم بعد فنائهم
ودرس اثارهم لعلكم تذكرون اي لكي تعتبروا وتذكروا الخطاب لمنكري البعث يقول انكم شاهدتم
الاشجار وهي مزهرة مورقة مثمرة في ايام الربيع والصيف ثم انكم شاهدتموها يابسة عارية
من تلك الاوراق والثمار ثم ان الله تعالى احياها مرة اخرى فالقادر على احيائها بعد موتها
قادر على ان يحيي الاجساد بعد موتها قال ابو هريرة وابن عباس اذا مات الناس كلهم في النفخة
الاولى ارسل الله تعالى عليهم مطرا كمني الرجال من ما تحت العرش فينبتون في قبورهم نبات الزرع
حتى اذا استكملت اجسادهم نفخ فيها الروح ثم يلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم ثم يحشرون
بالنفخة الثانية وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم واعينهم فعند ذلك يقولون يا ويلنا
من بعثنا من مرقدنا وقرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد
والبلد الطيب اي والارض الكريمة التربة السهلة السمحة يخرج نباته باذن ربه اي بمشيئته
وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه وغزارة نفعه لانه اوقعه في مقابلة والذي
خبث اي والبلد الذي خبث ارضه فهي سبخة لا يخرج نباته الا نكدا اي عسرا بمشقة وكلفة
قال المفسرون وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر فشبه المؤمن بالارض الطيبة وشبه
نزول القران على قلبه بنزول المطر على الارض الطيبة فاذا نزل المطر عليها خرجت انواع
الازهار والثمار فكذلك المؤمن اذا سمع القران امن به وانتفع به وظهر منه الطاعات
والعبادات وانواع الاخلاق الحميدة وشبه الكافر بالارض الردية الغليظة السبخة
التي لا ينتفع بها وان اصابها المطر فكذلك الكافر اذا سمع القران لا ينتفع به ولا يصدقه
ولا يزيده الا عتوا وكفرا وان عمل الكافر حسنة في الدنيا كانت بمشقة وكلفة ولا ينتفع
بها في الاخرة وقيل هو مثل ضربه الله تعالى لادم وذريته كلهم منهم طيب ومنهم خبيث
كذلك اي كما بينا ما ذكر نصرف اي نبين الايات الدالة على التوحيد والايمان اية بعد اية
وحجة بعد حجة لقوم يشكرون نعمة الله فيتفكرون بها ويعتبرون بها وانما خص الشاكرين
بالذكر لانهم هم الذين ينتفعون بسماع القران ولما ذكر الله تعالى في الايات المتقدمة
دلايل اثار قدرته الدالة على توحيده وربوبيته واقام الادلة القاطعة على صحة
البعث بعد الموت اتبع ذلك بقصص الانبيا عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم
مع اممهم فقال لقد جواب قسم محذوف تقديره والله لقد ارسلنا نوحا عليه السلام الى قومه
ولا تكاد تطلق هذه اللام الا مع قد لانها مظنة التوقع فان المخاطب اذا سمعها توقع وقوع
ما صدر بها ونوح هو بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو ادريس عليه السلام وهو اول نبي
بعثه الله تعالى بعد ادريس وكان نجارا بعثه الله تعالى الى قومه وهو بن خمسين سنة قال
ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو ابن اربعين سنة وقيل وهو بن مائة وستة وقيل وهو ابن
مائتين وخمسين سنة وقال ابن عباس سمي نوحا لكثرة ما ناح على نفسه واختلفوا في سبب
نوحه فقال بعضهم لدعوته على قومه بالهلاك وقيل لمراجعته ربه في شان ابنه كنعان
وقيل لانه مر بكلب مجذوم فقال له اخسا يا قبيح فاوحى الله اليه اعبتني او عبت الكلب وفي
ذكر القصص تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن اعراض قومه عن قبول الحق فقط
بل قد اعرض عنه غالب الامم الخالية والقرون الماضية وفيه تنبيه على ان عاقبة اولئك الذين كذبوا

الرسل

الرسل كاف للخسار والهلاك في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم فمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم من قومه
كان عاقبته مثل اولئك الذين خلوا من قبلهم من الامم المكذبة وفيه دليل على صحة نبوة محمد صلى
الله عليه وسلم لانه كان اميا لا يقرا ولا يكتب ولم يلق احدا من علماء زمانه وقد اتى بمثل هذه
القصص والاخبار عن القرون الماضية والامم الخالية مما لم ينكره عليه احد علم بذلك انه
انما اوتي من عند الله وانه اوحي اليه ذلك فكان ذلك دليلا واضحا وبرهانا قاطعا على
صحة نبوته صلى الله عليه وسلم فقال نوح بعد ارساله لقومه يا قوم اعبدوا الله اي
اعبدوه وحده لقوله تعالى ما لكم من اله غيره فانه الذي يستحق العبادة لا غيره وقرا الكسائي
بكسر الراء والهاء على انه صفة لاله والباقون برفعهما على البدل من محله اني اخاف عليكم
ان لم تقبلوا ما امركم به من عبادة الله واتباع امره وطاعته عذاب يوم عظيم هو يوم
القيامة او يوم نزول الطوفان واهلاكهم فيه وقال اخاف على الشك وان كان يقينا من حلول
العذاب بهم ان لم يؤمنوا به لانه لم يعلم وقت نزول العذاب بهم ايعاجلهم ام تاخر عنهم
العذاب الى يوم القيمة وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون
قال الملأ من قومه اي الاشراف منهم فانهم يملؤن العيون منظرا انا لنراك في ضلال اي
خطا وزوال عن الحق مبين اي بين قال نوح مجيبا لهم يا قوم ليس بي ضلالة اي ليس بي شيء
مما تظنون من الضلال فان قيل لم يقل ليس بي ضلال كما قالوا اجيب بان الضلالة اخص
من الضلال فكانت ابلغ في نفي الضلال عن نفسه كما لو قيل الك تمر فقلت ما لي تمرة فقد
بالغ في النفي كما بالغوا في الاثبات وقوله ولكني رسول من رب العالمين استدراك باعتبار
ما يلزمه وهو قوله على هدى كانه قال ولكني على هدى في الغاية لاني رسول الله ابلغكم رسالات
ربي وانصح لكم والنصح ارادة الخير لغيره كما يريده لنفسه ويقال نصحته ونصحت له كما يقال
شكرته وشكرت له وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على امحاض النصيحة وانما وقعت خالصة
للمنصوح له مقصودا بها جانبه لا غير فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعا ولا
نصيحة امحض من نصيحة الله ورسوله وقيل حقيقة النصح تعريف وجه المصلحة
مع خلوص النية من شوائب المكروه قال بعض المفسرين والفرق بين ابلاغ الرسالة وبين
النصيحة هو ان تبليغ الرسالة ان يعلمهم جميع اوامر الله تعالى ونواهيه وجميع انواع
التكاليف التي اوجبها الله تعالى عليهم واما النصيحة فهي ان يرغبهم في قبول تلك الاوامر
والنواهي والعبادات ويحذرهم عقابه ان عصوه وقرا ابو عمرو بسكون الياء وتخفيف اللام
من الابلاغ كقوله تعالى لقد ابلغتكم رسالات ربي وقرا الباقون بفتح الياء وتشديد اللام
من التبليغ كقوله تعالى بلغ ما انزل اليك واعلم من الله ما لا تعلمون
اي من صفات الله تعالى واحواله يعني قدرته الباهرة وشدة بطشه على اعدائه وان باسه
لا يرد عن القوم المجرمين وقوله تعالى اوعجبتم الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف اي
كذبتم وعجبتم ان جاءكم اي من ان جاءكم ذكر اي موعظة من ربكم على رجل منكم اي من جنسكم او من
جملتكم تعرفون نسبه وذلك انهم كانوا يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون
ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين يعنون ارسال البشر ولو شاء ربنا لانزل ملائكة لينذركم
اي لاجل ان ينذركم عاقبة الكفر والمعاصي ولتتقوا اي ولاجل ان تتقوا الله ولعلكم ترحمون
بالتقوى ان وجدت منكم لان المقصود من ارسال الرسل الانذار والمقصود من الانذار

BULAC

التقوى عن كل ما لا ينبغي والمقصود بالتقوى الفوز بالرحمة في الدار الآخرة وفائدة حرف الترجي
التنبيه على ان التقوى غير موجبة والترحم من الله تعالى محض تفضل وان المتقي ينبغي ان لا يعتمد على
تقواه ولا يأمن من عذاب الله فكذبوه اي نوحا فأنجيناه والذين آمنوا به معه من الغرق
وكانوا اربعين رجلا واربعين امرأة وقيل تسعة بنوه ثلاثة سام وحام ويافث وستة ممن آمن به
وقوله تعالى في الفلك متعلق بمعه كأنه قيل والذين استقروا معه في الفلك او صحبوه في الفلك
او بأنجيناه اي انجيناهم في السفينة من الطوفان وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا بالطوفان
إنهم كانوا قوما عمين اي عمي القلوب عن الحق غير مبصرين يقال رجل عم في البصيرة واعمى
في البصر والشد واقول زهير واعلم ما في اليوم والامس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
وإلى عاد اي وارسلنا الى عاد وهو عاد ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح وهي عاد الاولى أخاهم
هودا اي اخاهم في النسب لا في الدين وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوص
ابن ارم بن سام بن نوح وقيل هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح واختلف في نسب
الاخوة من اين حصلت على وجهين الاول قال الزجاج انه كان من بني آدم ومن جنسهم لا من الملائكة
ويكفي هذا القدر في تسمية الاخوة والمعنى انا ارسلنا الى عاد واحدا من جنسهم من البشر ليكون
الفهم والانس بكلامه اتم واكمل ولم يبعث اليهم من غير جنسهم مثل الملك والجن والوجه الثالث
انه اخاهم بمعنى صاحبهم والعرب تسمي صاحب القوم اخاهم وكانت منازل عاد بالاحقاف
باليمن والاحقاف الرمل الذي عند عمان وحضرموت قال يا قوم اعبدوا الله اي وحدوه
ولا تجعلوا معه اله آخر ما لكم من إله غيره فان قيل لم حذف العاطف من قوله قال ولم يقل
فقال كما في قصة نوح اجيب بان هذا على تقدير سؤال سائل قال فما قال لهم هود فقيل
قال يا قوم وقيل ان نوحا كان مواظبا على دعوة قومه غير متوان فيها لان الفاء تدل على
التعقيب واما هود فلم يكن كذلك بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء فاخبر الله تعالى
عنه بقوله قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون اي الله اي افلا تخافون
عقابه فتؤمنون ولما كانت هذه القصة مسوقة على قصة قوم نوح وقد علم ما حل
بهم من الغرق حسن قوله هنا افلا تتقون اي افلا تخافون ما نزل بهم من العذاب ولما
لم يكن قبل واقعة قوم نوح شيء حسن تخويفهم من العذاب فقال هناك اني اخاف عليكم
عذاب يوم عظيم قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة اي في حمق وجهالة
وضلالة عن الصواب فان قيل لم قال قوم نوح انا لنراك في ضلال مبين وقوم هود انا
لنراك في سفاهة اجيب بان نوحا لما خوف قومه بالطوفان وطفق في عمل السفينة
في ارض ليس فيها من الماشي قال له قومه انا لنراك في ضلال مبين حيث تتعب في اصلاح
سفينة في هذه الارض واما هود عليه السلام لما زيف عبادة الاصنام ونسب من عبدها
الى السفه وهو قلة العقل قابلوه بمثله فقالوا انا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين
اي في ادعائك انك رسول من رب العالمين قال هود لهؤلاء الملأ الذين نسبوه الى السفه
يا قوم ليس بي سفاهة اي ليس الامر كما تزعمون ان بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين
اليكم أبلغكم رسالات ربي اي اؤد اليكم ما ارسلني به من اوامره ونواهيه وشرائعه وتكاليفه
وأنا لكم ناصح اي فيما امركم به من عبادة الله تعالى وترك ما سواه أمين اي مأمون على تبليغ الرسالة
واداء النصح والامين الثقة على ما اؤتمن عليه فان قيل لم قال نوح وانصح لكم بصيغة الفعل وقال

هود

هود وانا لكم ناصح بصيغة اسم الفاعل اجيب بان صيغة الفعل تدل على تجدده ساعة بعد
ساعة وكان نوح يدعو قومه ليلا ونهارا كما اخبر الله تعالى عنه بقوله قال رب اني
دعوت قومي ليلا ونهارا فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال وانصح
لكم واما هود فلم يكن كذلك بل كان يدعوهم وقتا دون وقت فلهذا قال وانا لكم
ناصح امين فان قيل مدح النفس باعظم صفات المدح غير لائق بالعقلاء اجيب
بانما فعل هود ذلك لانه كان يجب عليه اعلام قومه بذلك ومقصوده الرد عليهم في قولهم
وانا لنظنك من الكاذبين فوصف نفسه بالامانة وانه امين في تبليغ ما ارسل به من
عند الله وفيه دليل على جواز مدح الانسان نفسه في موضع الضرورة الى مدحها
أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ سبق تفسيره تنبيه في اجابة
الانبياء الكفرة عن كلماتهم الحمقاء بما اجابوا والاعراض عن مقالتهم كمال النصح والشفقة وهضم
النفس وحسن المجادلة وهكذا ينبغي لكل ناصح وَاذْكُرُوا نعمة الله تعالى عليكم إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ
مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ اي خلفتموهم في الارض او جعلكم ملوكا في الارض فان شداد بن عاد ممن ملك
معمورة الارض من رمل عالج وهو موضع بالبادية بها رمل الى شحر عمان وهو بفتح الشين المعجمة
وكسرها وبالحاء المهملة ساحل البحر بين عمان وعدن وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً اي طولا وقوة قال
الجلال المحلي في سورة الفجر كان طول الطويل منهم اربعمائة ذراع وقال السدي كانت قامة الطويل
منهم مائة ذراع وقامة القصير ستين ذراعا وقال ابو حمزة اليماني سبعون ذراعا وعن ابن
عباس ثمانون ذراعا وقال مقاتل كان طول كل رجل اثني عشر ذراعا اخرج ابن عساكر عن وهب
بذراعهم اي على الاقوال كلها وقال وهب كان راس احدهم مثل القبة العظيمة وكان عين الرجل
اي بعد موته يفرخ فيها الضباع وكذا مناخرهم وقرا نافع والبزي وشعبة والكسائي بالصاد
وابو عمرو وهشام وقنبل وحفص وخلف بالسين واما ابن ذكوان وخلاد فقرا بالصاد والسين
فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ اي انعمه اي اعملوا بما يليق بذلك الانعام وهو ان تؤمنوا به وتتركوا ما انتم
عليه من عبادة الاصنام لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ اي تفوزون بالنعيم المقيم في الاخرة قَالُوا اي قوم هود
مجيبين له أَجِئْتَنَا يا هود لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ اي نترك مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا اي
من الاصنام استبعدوا اختصاص الله تعالى بالعبادة والاعراض عما اشرك به اباؤهم ومعنى
المجيء في اجئتنا اما لان هودا كان معتزلا عن قومه كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم بحراء قبل
المبعث فلما اوحي اليه جاء قومه يدعوهم او يريدون به الاستهزاء لانهم كانوا يعتقدون
ان الله تعالى لا يرسل الا الملائكة فكانهم قالوا اجئتنا من السماء كما يجيء الملك او ان القصد
على المجاز كما يقال ذهب يشتمني ولا يراد حقيقة الذهاب فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا اي من العذاب
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ اي في قولك اني رسول الله قَالَ هود مجيبا لهم قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ اي نزل عليكم
مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ اي عذاب وَغَضَبٌ اي سخط أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا اي وضعتموها أَنْتُمْ
وَآبَاؤُكُمْ اي من عند انفسكم والاستفهام للانكار عليهم لانهم سموا الاصنام بالالهة يعبدونها
من دون الله مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا اي بعبادتها مِنْ سُلْطَانٍ اي حجة وبرهان لان المستحق للعبادة
بالذات هو الموجد للكل وانها لو استحقت كان استحقاقها بجعله تعالى اما بانزال اية او نصب
حجة فَانْتَظِرُوا اي نزول العذاب بسبب تكذيبكم لي إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ذلك فارسلت
عليهم الريح العقيم فَأَنْجَيْنَاهُ اي هودا وَالَّذِينَ مَعَهُ من المؤمنين بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ

BULAC

لنعبد إلهنا أي اسنادهم وقوله تعالى وثمود الذين عطف على كذبوا وروى أن قوم
هود كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله تعالى إليهم هودا فكذبوا وازدادوا عتوا فأمسك الله
تعالى القطر عنهم ثلاث سنين فجهدهم وكان الناس حينئذ مسلطهم وكافريهم إذا نزل بهم
بلاء توجهوا إلى البيت الحرام وطلبوا من الله تعالى الفرج فجهز وا إلى الحرم قبيل بن عنز ومرثد
ابن سعد في سبعين من عيانهم وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أو الأمليق بن لاوذ بن سام
وسيدهم معاوية بن بكر فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله
وأصهاره فلبثوا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجاريتان قينتان لمعاوية وكان اسم إحداهما
وردة والأخرى جرادة فسميتها جاريتين فلما تغلب والقينة الأمة مغنية أو عن مغنية
فلما رأى ذلك هالهم فعلم بالله هو عما بعثوا له أمهد لذلك وأستحى أن يكلمهم فيه مخافة أن يظنوا به ثقل
مقامهم عليه فذكر ذلك للقينتين فقالتا قل شعرا تغنيهم به ولا يدرون من قاله
فعلم القينتان معاوية الا يا قيل ويحك قم فهينم والهينمة الصوت الخفي إرادة الدعاء العال
الله يسقينا غماما والغمام هنا المطر فيسقي أرض عاد إن عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس يرجو به الشيخ الكبير ولا الطفل ما عشنا به أن نعجم وذلك وقالوا
ان قومكم يستغوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أطعمتم عليهم فادخلوا الحرم واستسقوا
لقومكم فقال لهم مرثد بن سعد والله لا يسقون بدعائكم ولكن إن أطعتموني سقيتم وتبتم إلى الله
سبحانه وأظهر إسلامه فقالوا لمعاوية احبس عنا مرثدا لا يقدمن معنا مكة فانه قد اتبع دين
هود وترك دينك ودخلوا مكة فقال اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم فانشأ الله تعالى
سحابات ثلاثا بيضا وحمرا وسودا ثم ناداه منادمن السماء يا قيل اختر لنفسك ولقومك
فقال اخترت السوداء فانها أكثر ما خرجت على عاد من وادٍ لهم يقال له المغيث فاستبشروا
به وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم منها ريح عقيم فاهلكتهم وبخا هود والمؤمنون معه
وانو امكة فعبدوا الله تعالى فيها حتى ماتوا ويروى أن النبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه
عليهم اجمعين إذا هلك قومه فهاجروا الصالحون معه الى مكة يعبدون الله تعالى فيها حتى يموتوا
وروي عن علي رضي الله تعالى عنه ان قبر هود بحضرموت في كثيب احمر وقال عبد الرحمن
ابن سابط بين الركن والمقام وزمزم قبر تسعة وتسعين نبيا وان قبر هود وشعيب وصالح
واسماعيل في تلك البقعة وإلى ثمود أي وأرسلنا الى ثمود قبيلة اخرى من العرب سموا باسم
ابيهم الأكبر وهو ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وقيل سموا به لقلة مائهم من الثمد
وهو الماء القليل وكان مسكنهم الحجر وهو بكسر الحاء موضع بين الحجاز والشام الى وادي القرى
واتفق القراء السبعة على عدم صرف ثمود لتأويلهم اياه بالقبيلة وقرئ مصروفا في غير هذه
السورة بتأويل الحي او باعتبار الأصل وهو انه اسم لأبيهم الأكبر والأول أقل. أخاهم صالحا
اي واحدا منهم في النسب لا في الدين وهو صالح بن عبيد بن آسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر
ابن ثمود قال لهم صالح حين أرسله الله تعالى اليهم يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره اي فلا تستحق
ان يعبد سواه قد جاءتكم بينة من ربكم اي معجزة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي وصدق ما اقول
وادعوا اليه من عبادة الله ثم فسر تلك البينة بقوله هذه ناقة الله لكم آية اي علامة على صدقي
وانما نصبه على الحال عاملها ما دل عليه اسم الاشارة من معنى الفعل كأنه قيل اشير اليها آية لكم
بيانا لمن هي له آية موجبة عليه الايمان خاصة وهم ثمود لانهم عاينوها وسائر الناس اخبروا عنها

وليس الخبر كالمعاينة كأنه قال لكم خصوصا وانما اضيفت الى الله تعالى تعظيما لها وتفخيما لشأنها
كما يقال بيت الله ولانها جاءت من عند الله تعالى بلا وسائط واسباب معهودة ولذلك كانت
آية فذروها اي اتركوها تأكل في ارض الله العشب فليست الارض لكم ولا ما فيها من النبات
من انباتكم ولا تمسوها بسوء اي بشيء من انواع الاذى لا بعقر ولا بغيره وقوله تعالى فيأخذكم
عذاب اليم اي بسبب اذاها جواب للنهي واذكروا اذ جعلكم خلفاء في الارض من بعد
عاد اي الله تعالى اهلك عادا وجعلكم تخلفونه في الارض وتعمرونها وبوأكم اي اسكنكم
وانزلكم في الارض اي ارض الحجر تتخذون من سهولها قصورا اي تبنون القصور من سهولة
الارض لان القصور انما تبنى من اللبن والآجر المتخذ من الطين السهل اللين غالبا
وتنحتون الجبال بيوتا اي وتنقبون في الجبال البيوت وكانوا في الصيف يسكنون
بيوت الطين وفي الشتاء بيوت الجبل وقرأ ورش وابو عمرو وحفص بضم الياء والباقون
بخفضها فاذكروا آلاء الله اي فاذكروا نعمه عليكم واشكروه عليها فانكم منعمون مرفهون
بمساكن في الصيف ومساكن في الشتاء ولا تعثوا في الارض مفسدين والعيث اشد الفساد وقال
قتادة معناه لا تسيروا في الارض مفسدين وقيل اراد به النهي عن عقر الناقة قال
الملأ الذين استكبروا من قومه اي تكبروا عن الايمان به للذين استضعفوا اي للذين
استضعفوهم واستبدلوهم وقوله تعالى لمن آمن منهم بدل من الذين استضعفوا بدل الكل
ان كان الضمير لقومه وبدل البعض ان كان للذين وقرأ ابن عامر وقال الملأ بالواو والباقون
بلا واو أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه اي ان الله تعالى ارسله الينا واليكم قالوا ذلك
على الاستهزاء قالوا اي الضعفاء انا بما ارسل به اي صالح من الدين والهدى مؤمنون اي مصدقون
وانما عدلوا عن الجواب السوي الذي هو نعم تنبيها على ان ارساله اظهر من ان يشك فيه عاقل
ويخفى على ذي رأي قال الملأ الذين استكبروا عن امر الله والايمان به وبرسوله صالح عليه السلام
انا بالذي آمنتم به كافرون اي جاحدون منكرون فعقروا الناقة اي عقرها قذار بامرهم فاسند
العقر اليهم والعقر قطع عرقوب البعير ثم جعل النحر عقرا فانه قتلها بالسيف لان ناحر البعير
يعقره ثم ينحره وعتوا عن امر ربهم اي تكبروا عن امر ربهم وعصوه وكذبوا نبيهم صالحا عليه
السلام وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا اي من العذاب ان كنت من المرسلين اي ان كنت تزعم
انك رسول الله فان الله ينصر رسله على اعدائه وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مكذبين في كل
ما اخبرهم به من العذاب فأخذتهم الرجفة اي الزلزلة الشديدة من الارض والصيحة
من السماء فأصبحوا في دارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين روي ان عادا لما اهلكت
عمرت ثمود بلادهم وخلفوهم في الارض وكثروا وعمروا اعمارا طوالا حتى ان الرجل كان
يبني البيت المحكم فينهدم في حياته فينحتوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورخاء
من العيش فعتوا وافسدوا في الارض وعبدوا الاصنام فبعث الله تعالى اليهم صالحا
عليه السلام من اشرافهم غلاما شابا فدعاهم الى الله تعالى حتى كبر لا يتبعه الا قليل
مستضعفون فلما الح عليهم صالح بالدعاء والتبليغ واكثر عليهم التحذير والتخويف سألوه
آية فقال لهم اي آية تريدون قالوا يخرج معنا الى عيدنا في يوم نقاوم لهم في السنة
فندعوا الهك وندعوا الهنا فان استجيب لك اتبعناك وان استجيب لنا اتبعنا
قال لهم صالح نعم فخرجوا باوثانهم الى عيدهم وخرج صالح معهم ودعوا اوثانهم وسألوها

BULAC

الاستجابة فلم يجبهم ثم قال سيدهم جندع بن عمرو واشار الى صخرة منفردة في ناحية الجبل يقال
لها الكاثبة اخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وبرا والمخترجة هي التي شاكلت
النحت والجوفاء ذات الجوف والوبر ازات الوبر فان فعلت ذلك صدقناك فاخذ عليهم
صالح مواثيقهم لئن فعلت ذلك لنؤمنن ولنصدقن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت
الصخرة اي تحركت للولادة بمخض الفتوح بولدها فانصدعت اي انشقت عن ناقة
عشراء وهي التي اتى عليها من يوم ارسل فيها الفحل عشرة اشهر جوفاء وبرا كما وصفوا لا يعلم
ما بين جنبيها الا الله عظما وعظما وهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها في العظم فامن
به جندع ورهط من قومه واراد اشراف ثمود ان يؤمنوا به ويصدقوه فنهاهم ذؤاب
ابن عمرو بن اسد والحباب صاحبا اوثانهم ورباب بن كاهنهم وكانوا من اشراف ثمود
فلما خرجت الناقة قال لهم صالح هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم فمكثت
الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء وكانت ترد غبا فاذا كان يومها وضعت راسها
في البير فما ترفعه حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج وهو بتقديم الحاء المهملة على الجيم مثل
التفسح وهو ان يفرج بين رجليه فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ اوانيهم فيشربون ويدخرون
وكانت تصيف اي تقيم زمن الصيف بظهر الوادي فتهرب منها انعامهم الى بطنه وتشتو
اي تقيم زمن الشتاء ببطنه فتهرب مواشيهم الى ظهره فيشق ذلك عليهم وزينت عقرها
لهم امراتان عنيزة ام غنم وصدقة بنت المختار لما اضرت به من مواشيهما وكانتا
كثيرتي المواشي فعقروها واقتحموا لحمها فرقي سقبها وهو بفتح السين والقاف ولدها
الذكر جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا وكان صالحا عليه السلام قال لهم ادركوا الفصيل عسى ان
يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجت وهو بتشديد الجيم اي انفتحت الصخرة بعد
رغائه فدخلها فقال لهم صالح تصبحون غدا ووجوهكم مصفرة وبعد غد ووجوهكم
محمرة واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ثم يصبحكم العذاب فلما راوا العلامات طلبوا
ان يقتلوه فانجاه الله تعالى الى ارض فلسطين فلما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا
بالصبر وتكفنوا بالانطاع فاتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا وسياتي
لهذه القصة زيادة ان شاء الله تعالى في سورة النمل ويروى ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لاصحابه لا يدخلن احد منكم القرية ولا تشربوا من
مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذبين الا ان تكونوا باكين ان يصيبكم مثل الذي اصابهم وقال
صلى الله عليه وسلم لعلي اتدري من اشقى الاولين قال الله ورسوله اعلم قال عاقر ناقة صالح عليه
السلام اتدري من اشقى الاخرين قال الله ورسوله اعلم قال قاتلك فتولى اي اعرض صالح
عنهم وفي هذا التولي قولان احدهما انه تولى عنهم بعد ان ماتوا وهلكوا ويدل عليه قوله تعالى
فاصبحوا في دارهم جاثمين فتولى عنهم والفاء للتعقيب فدل على انه جعل هذا التولي بعد جثومهم
وهو موتهم والقول الثاني انه تولى عنهم وهم احياء قبل هلاكهم ويدل عليه انه خاطبهم وقال يا قوم
لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين وهذا الخطاب لا يليق الا بالاحياء
وعلى هذا القول يحتمل ان في الاية تقديما وتاخيرا تقديره فتولى عنهم وقال يا قوم لقد
ابلغتكم رسالة ربي ولكن لا تحبون الناصحين فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين
واجيب من جهة الاول بانه خاطبهم بعد هلاكهم توبيخا وتقريعا كما خاطب النبي صلى الله عليه وسلم

الكفار

الكفار في قتلى بدر حين القوا في القليب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يناديهم باسمائهم الحديث
في الصحيحين وفيه قال عمر يا رسول الله امواتا قد جيبوا فقال ما انتم باسمع لما اقول منهم ولكن
لا يجيبون وقيل انما خاطبهم صالح عليه السلام بذلك ليكون عبرة لمن ياتي من بعدهم فيزجرون
عن مثل تلك الطريقة وروي ان عقرهم الناقة كان يوم الاربعاء ونزل بهم العذاب يوم السبت
وروي انه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي فالتفت فراى الدخان ساطعا فعلم
انهم قد هلكوا وكانوا الفا وخمسمائة دار وروي انه رجع بمن معه من المسلمين فسكنوا ديارهم
وقال قوم من اهل العلم توفي صالح بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة واقام في قومه عشرين
سنة ولوطا اي وارسلنا لوطا وهو لوط بن هاران بن تارخ بن اخي ابراهيم اذ قال لقومه
اي وقت قوله لهم وقيل معناه واذكر لوطا ويبدل منه اذ قال لقومه وهم اهل سدوم قال
التفتازاني هو بفتح السين قرية قوم لوط والذال معجمة في رواية الازهري دون غيره انتهى
وصوبه صاحب القاموس وغلط الجوهري في قوله انها مهملة وذلك ان لوطا عليه السلام لما هاجر
مع عمه ابراهيم عليه السلام الى الشام فنزل ابراهيم عليه السلام ارض فلسطين وانزل لوطا الاردن
وهو بضم الهمزة والدال وتشديد النون نهر وكورة باعلى الشام فارسله الله تعالى الى ارض سدوم
يدعوهم الى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وهو قوله اتاتون الفاحشة اي اتفعلون
الفاحشة الخبيثة التي هي غاية القبح وكانت فاحشتهم اتيان الذكران في ادبارهم كما ياتي
ما سبقكم بها من احد من العالمين اي ما فعلها احد قبلكم والباء للتعدية ومن الاولى زائدة
لتوكيد النفي وافادة معنى الاستغراق والثانية للتبعيض والجملة استيناف مقرب للانكار
وتجهم اولا باتيان الفاحشة ثم باختراعها فانه اسوا قال عمرو بن دينار ما يرا ذكر على ذكر
في الدنيا حتى كان قوم لوط ثم بين الفاحشة بقوله اينكم لتاتون الرجال اي في ادبارهم شهوة
من دون النساء اي ان ادبار الرجال اشهى عندكم من فروج النساء وقرا نافع وحفص بكسر الهمزة
ولا يا بينها وبين النون على الخبر وشهوة اما مفعول له واما مصدر في موضع الحال وفي
التقييد بها وصفهم بالبهيمية الصرفة وتنبيه على ان العاقل ينبغي ان يكون الداعي
له الى المباشرة طلب الولد وبقاء النوع لا قضاء الوطر وقرا ابن كثير بهمزتين الاولى مفتوحة
والثانية مكسورة مسهلة ولا مد بينهما وابو عمرو كذلك الا انه يمد بين الهمزتين وهشام بتحقيق
الهمزتين بينهما مدة والباقون بتحقيقهما من غير مدة بينهما وقوله بل انتم ايها القوم قوم
مسرفون اي مجاوزون الحلال الى الحرام اضراب عن الانكار الى الاخبار عنهم بالحال التي توجب
ارتكاب القبائح ويدعوا الى اتباع الشهوات وانما ذمهم الله تعالى وغيرهم ووبخهم بهذا الفعل
الخبيث لان الله تعالى خلق الانسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمارة الدنيا
وجعل النساء محلا لتلك الشهوة وموضع النسل فاذا تركهن ووضع الشيء في غير محله الذي خلق
له فقد اسرف وجاوز واعتدى لان وضع الشيء في غير محله الذي وضع له اسراف لان ادبار الرجال
ليس محلا للولادة التي هي مقصودة بتلك الشهوة المركبة في الانسان روي ان اول من عمل عمل
قوم لوط ابليس لعنه الله تعالى لان بلادهم اخصبت بالثمار والزرع وانتجعها اهل
البلدان فتمثل لهم ابليس لعنه الله تعالى في صورة شاب ثم دعى الى نفسه فكان اول من نكح في دبره
وقال محمد بن اسحاق كانت لهم ثمار وقرى لم يكن في الارض مثلها فقصدهم الناس فاذوهم فعرض
ابليس لعنه الله تعالى في صورة شيخ وقال لهم ان فعلتم بهم كذا وكذا نجوا منها فابوا فلما الح عليهم

BULAC

فصدوهم فاصابوا غلمانا حسانا فاستحيوا واستحكم ذلك فيهم وما كان جواب قومه
له حين وبخهم على فعلهم القبيح وارتكابهم ما حرم الله تعالى عليهم من العمل الخبيث الا ان قالوا
اي قال بعضهم لبعض اخرجوهم من قريتكم اي ما جاؤا بما يكون جوابا عما كلمهم به لوط عليه
السلام من انكار الفاحشة وتعظيم امرها ولكنهم جاؤا بشيء اخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته
من الامر باخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم سخريتهم وبما يسمعونه من وعظهم
ونصحهم وقولهم انهم اناس يتطهرون اي يتنزهون عن فعلكم وعن ادبار الرجال
سخرية بهم وبتطهيرهم من الفواحش وافتخار بما كانوا فيه من القاذورات كما تقول
الفسقة لبعض الصلحاء اذا وعظهم ابعدوا عنا هذا المتقشف واريحونا من هذا
المتنزه فانجيناه اي لوطا واهله اي من امن به وقوله تعالى الا امرأته استثناء من اهله
فانها كانت تسر الكفر موالية لاهل سدوم كانت من الغابرين اي من الذين غبروا اي
بقوا في ديارهم فهلكوا وروي انها التفتت فاصابها حجر فماتت وانما قال تعالى من الغابرين
ولم يقل من الغابرات لانها هلكت مع الرجال فغلب الذكور على الاناث وامطرنا عليهم
مطرا اي نوعا من المطر عجيبا وهو مبين بقوله تعالى وامطرنا عليهم حجارة من سجيل اي
قد عجنت بالكبريت والنار يقال مطرت السماء وامطرت وقال ابو عبيدة يقال في العذاب
امطر وفي الرحمة مطر وقيل خسف بالمقيمين منهم وامطرت الحجارة على مسافريهم فانظر
اي ايها الانسان كيف كان عاقبة المجرمين روي ان تاجرا كان منهم كان في الحرم فوقف
الحجر اربعين يوما حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه وقال مجاهد نزل جبريل
عليه السلام فادخل جناحه تحت مداين قوم لوط فاقتلعها ورفعها الى السماء ثم قلبها
فجعل اعلاها اسفلها ثم اتبعوا بالحجارة كما قال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وامطرنا
عليهم حجارة من سجيل والى مدين اي وارسلنا الى ولد مدين بن ابراهيم خليل الرحمن
اخاهم في النسب لا في الدين شعيبا بن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء
لحسن مراجعته قومه عليه الصلاة والسلام وكان قومه اهل كفر ونجس للمكيال والميزان
قال اي شعيب عليه الصلاة والسلام يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره قد جاءتكم
بينة اي معجزة تدل على صدق ما جئت به من ربكم اوجبت عليكم الايمان بي والاخذ
بما امركم به فان قيل ما كانت معجزته اذ لم يذكر له معجزة اجيب بانه قد وقع العلم بانه
كان له معجزة لقوله قد جاءتكم بينة من ربكم ولانه لا بد لمدعي النبوة من معجزة تشهد
له وتصدقه والا لم تصح دعواه وكان متنبيا لا نبيا غير ان معجزته لم تذكر في القرآن
كما لم تذكر اكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه ومن معجزات شعيب عليه السلام الواردة
في غير القرآن ما روي عن محاربة عصى موسى عليه السلام التنين حين دفع اليه الغنم وولادة
الغنم الدرع حين وعده ان يكون له الدرع من اولادها والدرع بوزن الصرد وهي الغنم
التي اوابلها سواد واخرها بياض ووقوع عصى ادم عليه السلام على يده في المرات السبع
وغير ذلك من الايات لان هذه كلها كانت قبل ان يستنبأ موسى عليه الصلاة والسلام وكانت
معجزة لشعيب وهذا اولى من جعله كرامة لموسى او ارهاصا وهو علامة تظهر قبل النبوة وقيل
اراد بالبينة الموعظة وهي قوله فاوفوا الكيل والميزان اي اتموهما ولا تبخسوا اي تنقصوا
الناس اشياءهم فتطففوا الكيل والوزن يقال بخس فلان الكيل والوزن اذا انقصه وطففه

فان

فان قيل هلا قال المكيال والميزان كما في سورة هود اجيب بانه اريد بالكيل آلة الكيل وهو
المكيال او سمي ما يكال به بالكيل او اريد فاوفوا الكيل ووزن الميزان وانما قال اشياءهم لانهم
كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبايعاتهم او كانوا مكاسين لا يدعوا شيئا الا مكسوه كما
يفعل امراء الجور ولا تفسدوا في الارض اي بالكفر والمعاصي بعد اصلاحها اي بعد ما اصلح
امرها واهلها الانبياء واتباعهم بالشرائع ذلكم اي الذي ذكرت لكم وامرتكم به من الايمان
ووفاء الكيل والميزان ترك المظالم والبخس خير لكم اي مما انتم عليه من الكفر وظلم الناس
ان كنتم مؤمنين اي مصدقين بما اقول لكم ومعنى خير لكم في الانسانية وحسن ما يتحدث
به وجمع المال لان الناس ارغب في متاجرتكم اذا عرفوا منكم الامانة والسوية ولا تقعدوا
بكل صراط اي طريق من طرق الدين توعدون اي تمنعون الناس من الدخول فيه وتهددونهم
على ذلك وذلك انهم كانوا يجلسون على الطرقات فيخبرون من اتى عليهم ان شعيبا الذي
تريدون كذاب فلا يفتنكم عن دينكم وقيل كانوا يقطعون الطريق على الناس او يقعدون
لاخذ المكس منهم وقوله تعالى وتصدون اي تصرفون الناس عن سبيل الله اي دينه
من آمن به على ان المراد بالصراط سبيل الحق فان قيل صراط الحق واحد قال تعالى
وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله فكيف
قيل بكل صراط اجيب بان صراط الحق وان كان واحدا لكنه يتشعب الى معارف وحدود
واحكام كثيرة مختلفة وكانوا اذا راوا احدا يشرع في شيء منها اوعدوه وصدوه وتبغونها
اي تطلبون الطريق عوجا يصفونها للناس بانها سبيل معوجة عن الحق غير مستقيمة
ليصدوهم عن سلوكها والدخول فيها او يكون ذلك تهكما بهم وانهم يطلبون لها ما هو محال
لان طريق الحق لا يعوج واذكروا نعمة الله تعالى عليكم وامنوا به اذ كنتم قليلا فكثركم
اي كثر عددكم بعد القلة وكثركم بالغنا بعد الفقر وكثركم بالقدرة بعد الضعف
قيل ان مدين بن ابراهيم تزوج بنت لوط عليه السلام فولدت فربى الله في نسلها
بالبركة والنما فكثروا ونموا وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين قبلكم بتكذيبهم رسلهم
اي اخر امرهم من الهلاك واقرب الامم اليكم قوم لوط فانظروا كيف ارسل الله تعالى
عليهم حجارة من السما لما عصوه وكذبوا رسوله وان كان طائفة منكم آمنوا بالذي ارسلت
به وطائفة لم يؤمنوا به اي وان اختلفتم في رسالتي وصرتم فرقتين فرقة امنت بي وصدقت
برسالتي وفرقة كذبت وجحدت برسالتي فاصبروا اي فتربصوا حتى يحكم الله بيننا
اي بين الفرقتين فيعز المؤمنين المصدقين وينصرهم ويهلك المكذبين الجاحدين ويعذبهم
وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين وهو خير الحاكمين اذ لا حيف في حكمه ولا معقب
له لانه تعالى منزه عن الجور والميل في حكمه وانما قال خير الحاكمين لانه قد يسمى بعض
الاشخاص حاكما على سبيل المجاز والله تعالى هو الحاكم في الحقيقة قال الملأ اي الجماعة
الذين استكبروا اي تكبروا من قومه عن الايمان بالله وبرسوله وتعظموا عن اتباع
شعيب عليه السلام لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن
اي ترجعن في ملتنا اي لا بد من احد الامرين اما اخراجك ومن اتبعك على دينك من بلدنا
او عودكم في الكفر فان قيل شعيب لم يكن قط على ملتهم حتى يرجع الى ما كان عليه اجيب
بان اتباع شعيب كانوا على ملة اولئك الكفار فخاطبوا شعيبا واتباعه جميعا

BULAC

فدخل تحوّل الخطاب وان لم يكن على ملتهم قط لان الانبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقا فاستعمل العود في حقهم على سبيل المجاز وحمل بعضهم على ان العود يستعمل بمعنى صار فيكون حقيقة كما يستعمل بمعنى رجع فلا يستلزم الرجوع الى حالة سابقة بل هو انتقال من حال سابقة الى حالة مستأنفة قال القائل فان تكن الايام احسن مرة الي فقد عادت لهن ذنوب اراد فقد صارت لهن ذنوبا ولم يرد ان ذنوبا كانت لهن قبل الاحسان قال لهم شعيب على سبيل استفهام الانكار او لو كنا كارهين على سبيل استفهام الانكار قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم بعد اذ نجانا الله منها والجواب عن هذا مثل ما اجيب به عن الاول وهو ان يقول ان الله نجا قومه الذين امنوا به من تلك الملة الباطلة الا ان شعيبا يظهر نفسه في جملتهم وان كان بريا مما كانوا عليه من الكفر فاجرى الكلام على حكم التغليب وما يكون لنا ان نعود فيها الا ان يشاء الله ربنا الا ان يشاء الله ان يردنا فيحملنا على بعض قضاء الله تعالى فينا ويتعذر حكمه علينا وفيه دليل على ان الكفر بمشيئة الله تعالى وقيل اراد به حسم طمعهم في العود بالتعليق على ما لا يكون وسع ربنا كل شيء علما اي وسع علمه كل شيء فلا يخفى عليه شيء كان وما يكون منا ومنكم على الله توكلنا فان يثبتنا على الايمان ويخلصنا من الاشرار ولما ايس شعيب من ايمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال ربنا افتح ايها افض واقض واحكم بيننا وبين قومنا بالحق اي بالعدل الذي لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف وانت خير الفاتحين اي الحاكمين وقال الملأ الذين كفروا من قومه اي قال جماعة من اشراف قوم شعيب من كفرهم لآخرين منهم لئن اتبعتم شعيبا على دينه وتركتم دينكم وما انتم عليه انكم اذا لخاسرون اي مغبونون لفوات ما تجدونه لكم بالبخس والتطفيف الى الاستبدال ضلالة بهداكم وجواب القسم الذي وطيئة اللام في لئن اتبعتم شعيبا وجواب الشرط فنزلم انكم اذا لخاسرون فهو سادّ مسدّ الجوابين فاخذتهم الرجفة اي الزلزلة الشديدة فاصبحوا في دارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فتح الله تعالى عليهم بابا من جهنم فارسل عليهم حرا شديدا فاخذ بانفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الاسراب لتبردوا فيها فوجدوها اشد حرا من الظاهر فخرجوا هاربين الى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلتهم وهي الظلة فوجدوا الظل والماء باردا وينعما فنادى بعضهم بعضا حتى اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم فلما تكاملوا تحتها امطر الله تعالى عليهم نارا وارجفت بهم الارض واحترقوا كما يحترق الجراد المقلي وصار رمادا وروي ان الله تعالى حبس عنهم الريح سبعة ايام ثم سلط عليهم الحر سبعة ايام ثم رفع لهم جبل من بعيد فاتاه رجل فاذا اتحته انهار وعيون فاتاهم واخبرهم فاجتمعوا تحته كلهم فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله تعالى عذاب يوم الظلة وقال قتادة بعث الله تعالى شعيبا الى اصحاب الايكة واصحاب مدين فاما اصحاب الايكة فاهلكوا بالظلة واما اصحاب مدين فاخذتهم الصيحة فصاح بهم جبريل عليه السلام فماتوا مهلكوا جميعا قال ابو عبد الله البجلي كان ابو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان كلامهم بالرومي شعيب يوم الظلة كلمن فاهلكت ثلاث اسنة شعاثر بثيه وتبكيه كانوا هذه ركني هلكه وسط المحلة سيد القوم اتاه الحتف تحت ظله فعلينا نارا عليهم واريهم كالمضمحله وقوله تعالى الذين كذبوا شعيبا مبتدا خبره كان لم يغنوا فيها محذوف اي كانهم لم يقيموا او يزرعوا فيها اي يعيشوا ويتمتعوا يوما من الدهر يقال غنيت بالمكان

بالمكان اي اقيمت به والمغاني المنازل التي بها اهلها واحدها مغنى قال الشاعر ولقد غنوا
فيها بانعم عيشة في ظل ملك ثابت الاوتاد اراد اقاموا فيها وقيل كان لم يعيشوا فيها
متنعمين يقال غنى الرجل اذا استغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر قال الشاعر
غنينا زمانا بالتصعلك والغنا وكلا سقانا بكاسيهما الدهر فما زادنا كغبا على ذي قرابة
غنا ولا ازرى باحسابنا الفقر قال الزجاج يعني غنينا غنا والتصعلك الفقر يقال
للفقير الصعلوك الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين اي دينا ودنيا دون الذين
اتبعوه فانهم الرابحون في الدارين واكد ذلك باعادة الموصول وغيره للرد عليهم في قولهم
السابق فتولى اي اعرض شعيب عنهم اي عن قومه وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالات
ربي ونصحت لكم اي قال ذلك لما تيقن نزول العذاب تاسفا وحزنا عليهم لانهم كانوا كثيرين
وكان يتوقع منهم الاستجابة والايمان ثم انكر على نفسه فقال فكيف اسى اي احزن
على قوم كافرين لانهم ليسوا اهل حزن لاستحقاقهم ما نزل عليهم بسبب كفرهم وقيل
انه قال ذلك اعتذارا عن عدم شدة حزنه عليهم والمعنى لقد بالغت في الابلاغ
والانذار وبذلت وسعي في النصح فلم يصدقوا قولي فكيف احزن عليهم وقوله تعالى
وما ارسلنا في قرية من نبي فيه اضمار وحذف تقديره فكذبوه الا اخذنا اهلها بالباساء
والضراء قال ابن مسعود الباساء الفقر والضراء المرض وقيل الباساء الشدة وضيق العيش
والضراء الضر وسوء الحال لعلهم يتضرعون اي فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا والتضرع
التذلل والخضوع والانقياد لامر الله تعالى ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة اي اعطيناهم
بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة كقوله تعالى وبلوناهم بالحسنات
والسيئات فاخبر الله تعالى بهذه الاية انه ياخذ اهل المعاصي والكفر تارة بالشدة وتارة
بالرخاء على سبيل الاستدراج وهو قوله تعالى حتى عفوا اي كثروا ونموا في انفسهم واموالهم
يقال عفى الشعر اذا كثر وطال ومنه قوله صلى الله عليه وسلم واعفوا اللحى اي وفروها
واكثروا شعرها وقالوا كفرا للنعمة قد مس اباءنا الضراء والسراء وهذه عادة الدهر قديما وحديثا
لنا ولابائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضراء عقوبة لنا من الله تعالى على ما نحن عليه
فكونوا على ما انتم عليه كما كان اباؤكم من قبل فانهم لم يتركوا دينهم لما اصابهم من الضراء والسراء قال
الله تعالى فاخذناهم بغتة اي فجاة امن ما كانوا ليكون ذلك اعظم لحسرتهم وهم لا يشعرون
اي بنزول العذاب بهم والمراد بذكر هذه القصة وغيرها من القصص اعتبار من سمعها
لينزجر عما هو عليه من الذنوب ويرجع الى الله تعالى ويزداد الذين امنوا ايمانا ولو ان اهل
القرى اي المكذبين امنوا بالله ورسوله واتقوا اي الشرك والمعاصي لفتحنا عليهم بركات من السماء
والارض اي لاتيناهم بالخير من كل وجهة وقيل بركات السماء المطر وبركات الارض النبات
والثمار والانعام وجميع ما فيها من الخيرات وكل ذلك من فضل الله واحسانه على عباده اي فعلنا
بهم ذلك ليؤمنوا فما امنوا ولكن كذبوا وقرا ابن عامر بتشديد التاء والباقون بالتخفيف
ولكن كذبوا اي فعلنا بهم ذلك ليؤمنوا فما امنوا ولكن كذبوا الرسل فاخذناهم اي
عاقبناهم بانواع العذاب بما اي بسبب كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي وقوله تعالى
افامن اهل القرى عطف على قوله تعالى فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون وما بينهما
اعتراض والمعنى ابعد ذلك امن اهل القرى ان ياتيهم باسنا اي عذابنا بياتا اي ليلا

وقوله تعالى وهم نائمون حال من ضمير بأسنا البارز والمستتر في بياتا أو هم قائلون
هو استئناف بمعنى الانكار وفيه وعيد وتهديد وزاجر والمراد بالقرى مكة وما حولها
وقيل هو عام في كل اهل القرى الذين كفروا وكذبوا وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر يكون
الواو والباقون بفتح الواو أن بأسنا هم بالنهار أو هم يلعبون
ايوهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم وقوله تعالى أفأمنوا مكر الله تقرير لقوله
تعالى فأمن اهل القرى ومكر الله استعارة لاستدراج العبد أي بالنعم الدنيا
واخذه من حيث لا يحتسب فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون أي انه لا يأمن استدراج
اياهم بالنعم واخذهم بغتة الا من خسر في اخراه وهلك مع الهالكين فعلى العاقل ان يكون
وجوفه من مكر الله كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة وعن الربيع
ابن خثيم رحمه الله تعالى انه بيت فاتته صلاة العشاء فقال لم ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام
قال يا أبتاه ان ابيت خفت البيات فرد قوله تعالى ان بأسنا بياتا أو هم قائلون
اي بين الذين يرثون الأرض اي يسكنون من بعد اهلها الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم
وخلفوهم فيها أن لو نشاء أصبناهم بالعذاب بذنوبهم كما اصبنا من قبلهم واللام للتوبيخ وان لم
تقع اذ من وقوع ما علق عليها او لم يعد للذين يخلفون من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون
ارضهم هذا الشان وهو ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم اي بسببها كما اصبنا من قبلهم واهلكنا
الوارثين كما اهلكنا المورثين وانما عدي فعل الهداية باللام لانه بمعنى التبيين كما مر ونطبع
على قلوبهم عطف على اصبناهم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بابدال الهمزة الثانية واوا في الوصل
والباقون بتحقيقها وقوله تعالى ونطبع اي نختم عطف على اصبناهم معطوف عليه اي لو
كانه قيل نفعل ونطبع على قلوبهم او عطف على يرثون الأرض او يكون منقطعا
بمعنى ونحن نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون موعظة اي لا يقبلونها ومنه سمع الله لمن حمده
قال الشاعر دعوت الله حتى خفت ان لا يكون الله يسمع ما اقول تلك القرى اي القرى
التي ذكرناها لك يا محمد امرها واخبار اهلها وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط
وشعيب نقص عليك يا محمد من انبائها اي نخبرك عنها وعن اهلها وما كان من امرهم وامر رسلهم
الذين ارسلوا اليهم لتعلم انا لنصر رسلنا والذين امنوا معهم على اعدائهم من اهل الكفر
والعناد وكيف اهلكنا هم بكفرهم وتكذيبهم رسلهم وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه
وسلم وتحذير للكفار وترتيب لانتصارهم مثل ما انتصر اسلافهم ولقد جاءتهم اي اهل تلك القرى
رسلنا بالبينات اي بالمعجزات الباهرات والحجج القاطعات الدالة على صدقهم وقرأ نافع وابن كثير
وابن ذكوان وحفص بالاظهار والباقون بالادغام وامال حمزة وابن ذكوان الالف وسكن
السين ابو عمرو ورفعها الباقون فما كانوا ليؤمنوا اي عند مجيئهم بما كذبوا اي كفروا به
من قبل اي عند مجيء الرسل بالاسمر واما الكفر واللام لتاكيد النفي والدلالة على انهم ما صلحوا
للايمان لمنافاة حالهم حال التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم كذلك اي كما طبع الله على قلوب
كفار الامم الخالية واهلكهم نطبع على قلوب الذين اعتدوا في السبت حيتانهم يوم سبتهم شرعا
الذين كتب عليهم انهم لا يعملون فيه شيئا من وقت ما وما وجدنا لاكثرهم اي لاكثر الناس على الاطلاق
او لاكثر الامم الحالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك والله الاستغراقي فقال
من عهد اي من وفاء بالعهد الذي عهدناه اليهم واوصيناهم به يوم اخذ الميثاق والاية على

الاولى عن امن وعلى الثانى من تتمة الكلام السابق وان مخففة وانا وحدنا اى علمنا فى عالم الشهادة انهم لنا سبقونا اى خارجون عن قدرتنا لتمهد طرق ما كنا نفعله منهم فى عالم الغيب وما ابرزناه فى عالم الشهادة الا لنقيم عليهم به الحجة على ما يتعارفونه بينهم فى مجارى عاداتهم ومدارك عقولهم ثم بعثنا من بعدهم الى الرسل المذكورين نوحا وهودا وصالحا ولوطا وشعيبا عليهم السلام والائمة المهلكين موسى عليه السلام بآياتنا اى بمعجزاتنا الدالة على صدقه كاليد والعصا الى فرعون هو علم جنس لملوك مصر ككسرى لملوك فارس وقيصر لملوك الروم والنجاشى لملوك الحبشة وكان اسم فرعون موسى عليه السلام قابوس وقيل الوليد بن مصعب ابن الريان وكان ملك القبط وملائه اى عظماء قومه وخصهم بالذكر لانهم اذا اذعنوا اذعن من دونهم فكانهم المقصودون وانما ارسل اليهما رسالا الى الكل فاستكبروا اى كفروا بها اى بسبب رؤيتها خوفا على رياستهم وملكهم الفانية ان يخرج من ايديهم وكانوا قوما جبابرة بعين البصيرة ليت كان عاقبة اى اخبر امر المفسدين اى كيف فعلنا بهم وكيف اهلكناهم وقال موسى لما دخل على فرعون يا فرعون خاطبه بما يعجبه امتثالا لامر الله تعالى له ان يلين فى خطابه وذلك لان فرعون لغب مدح لمن ملك مصر انى رسول اى مرسل اليك والى قومك من رب العالمين سماه بقوله من رب العالمين اى الاله الذى خالق الخلق وهو سيدهم ومالكهم وقوله حقيق على ان لا اقول على الله الا الحق جواب لتكذيب فرعون اياه فى دعوى الرسالة وانما لم يذكره لدلالة قوله تعالى فظلموا بها والحق هو الثابت الدائم والحقيق مبالغة فيه وكان المعنى انا ثابت مستمر على ان لا اقول الا الحق وقرأ نافع على انا بالتشديد فحقيق مبتدأ خبره ان وما بعده والباقون بالسكون وعلى هذا الكون على بمعنى الباء او يضمن حقيق معنى حريص وان لا مقطوعة فى الرسم اى النون من لام الالف قد جئتكم ببينة ان يجعل من ربكم على صدق فيما ادعى من الرسالة وهى العصا واليد البيضاء ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تبليغ رسالة ربه عاد لكن الحكم قوله فارسل معى بنى اسرائيل اى فخلهم حتى يرجعوا معى الى الارض المقدسة التى وطنها ابوهم وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الاعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما قال فرعون لعنه الله تعالى مجيبا لموسى عليه السلام ان كنت جئت بآية اى علامة على صحة رسالتك فات بها ان كنت من الصادقين فى دعواك عندى وتثبت فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين اى ظاهر امره لا يشك احد فى انه ثعبان والثعبان الذكر العظيم من الحيات قال قيل ليس فى دوابه ما يقوم كهيأتها جان والجان الحية الصغيرة اجيب بانها كانت كالجان فى الخفة والحركة وهى فى جثتها حية عظيمة روى انه لما القاها صارت حية عظيمة صعر اشعر افاغرة فاها بين لحييها ثمانون ذراعا وارتفعت من الارض فتقدر مبلوقامت على ذنبها واضعة لحيها الاسفل على الارض والاعلى على سور القصر ونقب جهت نحو فرعون لتتناوله فوثب فرعون عن سريره هاربا واحدث فيقال اخذته البطن فى ذلك اليوم اربعين مرة وقد قيل انه كان ياكل البوز حتى لا يسقط وحملت على الناس فانهزموا وقاتل بعضهم بعضا وماتوا منهم خمسة وعشرون الفا ودخل فرعون البيت وصاح يا موسى انشدك الله الذى ارسلك ان تاخذها وانا اومن بك وارسل معك بنى اسرائيل فاخذها موسى فعادت عصى كما كانت ثم قال هل معك اية اخرى قال نعم ونزع يده اى اخرجها من جيبه وقيل من تحت ابطه

بعد ان اراها مختزقة اذ ما كانت وهي عنده فاذا هي بيضاء نورانية للناظرين لها
شعاع غلب شعاع الشمس قال ابن عباس كان لها نور ساطع يضيء ما بين السماء والارض لمعان
مثل لمعان البرق فخروا على وجوههم ثم ردها الى جيبه فاذا هي كما كانت ولما كان البياض
المفرط عيبا في الجسد وهو البرص قال الله تعالى في اية اخرى من غير سوء اي من غير برص فان
قيل بم تتعلق قوله تعالى للناظرين اجيب بانه متعلق بقوله تعالى بيضاء والمعنى فاذا هي
بيضاء للنظارة ولا يكون بيضاء للنظارة الا اذا كان بياضها بياضا عجيبا خارجا عن العادة
يجتمع لنظر الناس للنظر اليه كما يجتمع النظارة للعجايب فان قيل احد هذين الامرين
اما العصى واما اليد كان كافيا فما فايدة الجمع بينهما اجيب بان كثرة الدلايل توجب
القوة في اليقين وزوال الشك وقول بعض المحدثين المراد بالثعبان وباليد البيضاء شيء واحد
وهو ان حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة قاهرة من حيث انها ابطلت اقوال
المخالفين وقاومت فسادها كانت كالثعبان العظيم الذي تتلقف حجج المبطلين ومن
انها كانت ظاهرة في نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال للعرف للعلان يد بيضاء في العلم
الفلاني اي قوية كاملة ومرتبة ظاهرة مردود اذ حمل هذين المعجزتين على هذا الوجه
يجري مجرى رفع التواتر وتكذيب الله ورسوله ولما اتى بالبيان واقام واضح البرهان
قال للملا اي الاكابر من قومه فرعون ان هذا اي موسى لساحر عليم اي عالم بالسحر ما ظهر فيه
فاخذ بها عين الناس وبسيهم الشر بحالا وما هو عليه حتى يحيل اليهم ان العصا صارت حية وان
الادم ابيض كما ارانيم يده بيضاء وهو ادم اللون وانما قالوا ذلك لان السحر كان هو الغالب في ذلك
الزمان قال فان قيل قد اخبر الله تعالى في هذه السورة ان هذا الكلام من قول الملا لفرعون وقال
في سورة الشعراء وقال فرعون للملا حوله ان هذا لساحر عليم فكيف الجمع بينهما اجيب عن ذلك
بجوابين الاول لا يمتنع ان يكون قاله فرعون اولا ثم انهم قالوه بعده فاخبر الله تعالى عنهم
هنا واخبر عن فرعون في سورة الشعراء الثاني ان فرعون قال هذا القول ثم ان الملا من
قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم ابلغوه الى العامة فاخبر الله تعالى هنا عن الملا واخبر
هناك عن فرعون يريد اي موسى ان يخرجكم اي القبط من ارضكم مصر فماذا تامرون
اي اي شيء تشيرون ان نفعل به فقوله ماذا تامرون من قول فرعون والم يذكر وقيل
من قول الملا وتم كلام فرعون عند قوله يريد ان يخرجكم من ارضكم فقال الملا لفرعون
فماذا تامرون وانما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك في التعظيم والتفخيم
والمعنى فما تريدون ان نفعل به والقول الاصح لسياق الاية التي بعدها وهي قوله تعالى قالوا
ارجه اي موسى واخاه هارون عليهما السلام اي اخر امرهما ولا تعجل فيه حتى تنظر امرهما
والارجاء اللغة التاخير وقيل الحبس اي احبسه واخاه ورد باس فرعون ما كان يقدر على حبس موسى
بعد ما راى من امر العصى صار ايه وقرا ابن كثير وابن عمرو وابن عامر ارجه بهمزة ساكنة والباقون
بغير همز وارسل في المدائن جمع مدينة واشتقاقها من مدن بالمكان اي اقام به اي مدائن صعيد
مصر حاشرين اي ارسل رجالا من اعوانك وهو الشرط بضم السين وفتح الراء طايفة من اعوان الولاة
يحشرون اليك السحرة من جميع مدائن الصعيد فان عليهم موسى صدقناه وتبعناه وان غلبوه
علمنا انه ساحر فذلك قوله تعالى ياتوك اي الشرط بكل ساحر عليم اي ماهر بصناعته والباء تحتمل
ان تكون بمعنى مع ويحتمل ان تكون باء التعدية وقرا حمزة والكسائي بتشديد الخاء مفتوحة والف

وكان رسما الحكم بن يقظان المصري

بعدها

بعدها ولا الف قبلها والباقون بتخفيف الحا مكسورة والف قبلها ولا الف بعدها ولم يختلفوا
في سورة الشعرا انه سحار قيل الساحر الذي يعلم السحر ولا يعلم والسحار من يديم السحر روي ان فرعون
لما راى من سلطان الله وقدرته في العصى ما راى قال انا لا نقاتل موسى الا بمن هو اقوى منه فاتخذ
غلمانا من بني اسرائيل وبعث بهم الى مدينة يقال لها الفوما يعلمونهم السحر فعلموهم سحرا كثيرا
وواعد فرعون موسى موعدا ثم بعث الى السحرة الذين ارسلهم فجاوا ومعلمهم معهم فقال
فرعون للمعلم ماذا صنعت فقال قد علمتهم سحرا لا يطيقه اهل الارض الا ان ياتي امر من السما
فانه لا طاقة لهم به ثم بعث فرعون في مملكته فلم يترك في سلطانه ساحرا الا اتى به وهذا يدل
على ان السحرة كانوا كثيرين في ذلك الزمان وهو يدل على صحة ما يقوله المتكلمون من انه تعالى
يجعل معجزة كل نبي من جنس ما كان غالبا على اهل ذلك الزمان فلما كان السحر غالبا على اهل زمان
موسى كانت معجزته مشبهة بالسحر وان كان مخالفا للسحر في الحقيقة ولما كان الطب غالبا على اهل
زمان عيسى كانت معجزته من جنس الطب ولما كانت الفصاحة غالبة على اهل زمان محمد صلى الله
عليه وسلم كانت معجزته من جنس الفصاحة واختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فمن مقلل ومن مكثر
وليس في الاية ما يدل على المقدار والكيفية والعدد ولذلك اختلف في عددهم فقال مقاتل كانوا
اثنين وسبعين اثنان من القبط وهما روسا القوم وسبعون من بني اسرائيل وقال الكلبي كان
الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من اهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وكانوا سبعين غير زنهم
وقال كعب الاحبار كانوا اثنا عشر الفا وقال محمد بن اسحاق كانوا خمسة عشر الفا وقال عكرمة كانوا
سبعين الفا وقال محمد بن المنكدر كانوا ثمانين الفا قال مقاتل وكان رئيس السحرة سمعون
وقال ابن جريج كان رئيسهم يوحنا وجا السحرة فرعون بعد ما ارسل الشرط في طلبهم قالوا ائن لنا
لاجرا اي جعلا وعطا تكرمنا ان كنا نحن الغالبين اي لموسى فان قيل هلا قيل فقالوا بالفا اجيب
بانه على تقدير سايل سال ما قالوا اذ جاوا فاجيب بقوله ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين
وقرا ابن كثير وحفص بهمزة مكسورة ونون بعدها مشددة على الخبر والباقون بهمزتين وسهل
الثانية ابو عمرو وادخل الفا بينهما والباقون بتخفيفهما وادخل بينهما الفا هشام والباقون
بغير الف بينهما قال لهم فرعون نعم اي لكم الاجر والعطا وقرا الكسائي بكسر العين والباقون بالفتح
وقوله تعالى وانكم لمن المقربين عطف على محذوف سد مسد الجواب كانه قيل جوابا لقولهم ائن لنا
لاجرا ان لكم اجرا وانكم لمن المقربين اراد اني لا اقتصر بكم على الثواب بل ازيدكم عليه وتلك الزيادة
اني اجعلكم من المقربين عندي قال الكلبي يكونون اول من يدخل واخر من يخرج من عندي والاية
تدل على ان كل الخلق كانوا عالمين بان فرعون كان عبدا ذليلا مهينا عاجزا والا لما احتاج
الى الاستعانة بالسحرة في دفع موسى وتدل ايضا على ان السحرة ما كانوا قادرين على قلب الاعيان
والا لما احتاجوا الى طلب الاجر والمال من فرعون لانهم لو قدروا على قلب الاعيان لقلبوا التراب
ذهبا ولنقلوا ملك فرعون الى انفسهم ولجعلوا انفسهم ملوك العالم وروسا الدنيا والمقصود
من هذه الايات تنبيه الانسان لهذه الدقايق وان لا يغتر بكلمات اهل الاباطيل والاكاذيب
قالوا اي السحرة يا موسى اما ان تلقي عصاك واما ان نكون نحن الملقين اي عصينا وحبالنا
فراعوا مع موسى عليه السلام حسن الادب حيث قدموه على انفسهم في الالقا فعوضهم الله تعالى
حيث تادبوا مع نبيه عليه الصلاة والسلام ان من عليهم بالايمان والهداية ولما راعوا الادب
اولا واظهروا ما يدل على رغبتهم قال لهم موسى القوا انتم فقدمهم على نفسه في الالقا فان قيل

كيف جاز لنبي الله تعالى موسى ان يامر بالالقا وقد علم انه سحر وفعل السحر حرام او كفر اجيب عن ذلك
باجوبة احدها ان معناه ان كنتم محقين في فعلكم فالقوا والا فلا تلقوا الثاني ان القوم انما جاؤا
لالقا تلك الحبال والعصي وقد علم موسى عليه السلام انه لا بد وان يفعلوا ذلك ووقع التخيير في التقديم
والتاخير فعند ذلك اذن لهم في التقديم ازدرا لشانهم وقلة مبالاتهم وثقة بما وعده الله
تعالى من التاييد والتقوية وان المعجزة لا يغلبها سحر ابدا الثالث انه عليه السلام كان
يريد ابطال ما اتوا به من السحر وابطاله ما كان يمكن الا بتقديمهم فاذن لهم في الاتيان بذلك
ليمكن الاقدام على ابطاله فلهذا المعنى امرهم بالالقا اولا فلما القوا حبالهم وعصيهم
سحروا اي صرفوا اعين الناس عن ادراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل وهذا
هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر وبين معجزة الانبيا الذي هو فعل الله تعالى وذلك
لان السحر ليس فيه قلب الاعيان وانما فيه صرف اعين الناس عن ادراك ذلك الشي بسبب
تلك التمويهات والمعجزة قلب الشي حقيقة كقلب عصى موسى عليه السلام حية تسعى واسترهبوهم
اي ارهبوهم والسين زايدة قاله المبرد وقال الزجاج استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم
الناس وذلك بان بعثوا جماعة ينادون عند لقا ذلك ايها الناس احذروا فهذا هو
الاسترهاب وجاؤا اي السحرة بسحر عظيم روي ان السحرة قالوا قد علمنا سحرا لا يطيقه
سحرة اهل الارض الا ان يكون امر من السما فانه لا طاقة لنا به وذلك انهم القوا حبالا
غلاظا وخشبا طوالا فاذا هي حيات تسعى كامثال الحبال قد ملات الوادي يركب بعضها
بعضا ويقال انهم طلوا تلك الحبال بالزيبق وجعلوا داخل تلك العصي زيبقا ايضا والقوها
على الارض فلما اثر حر الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض حتى تخيل للناس انها حيات
يتحرك ويلتوي باختيارها ويقال ان الارض كان سعتها ميلا في ميل فصارت كلها حيات
وافاعي ففزع الناس من ذلك واوجس في نفسه خيفة موسى وهذه الخيفة لم تحصل لموسى
عليه السلام لاجل سحرهم لانه كان على ثقة ويقين من الله انهم لن يغلبوه وهو غالبهم وكان
عالما بان ما اتوا به على وجه المعارضة لمعجزته فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل
ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى وانما كان خوفه عليه السلام لاجل فزع الناس
واضطرابهم مما راوا من امر تلك الحبال فخاف موسى عليه السلام ان يتفرقوا قبل ظهور
معجزته وحجته فلذلك اوجس في نفسه خيفة موسى واوحينا الى موسى ان الق عصاك
فالقاها فصارت حية عظيمة قد سدت الافق قال ابن زيد كان اجتماعهم بالاسكندرية
وقال بلغ ذنب الحية من ورا البحر ثم فتحت فاها ثمانين ذراعا فاذا هي تلقف بحذف
احدى التائين من الاصل اي تبتلع ما يافكون اي ما يزورونه من الافك وهو الصرف
وقلب الشي عن وجهه روي انها ابتلعت كلما اتوا به من السحر فكانت تبلع حبالهم وعصيهم
واحدا واحدا حتى ابتلعت الكل ثم اقبلت على الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع
الزحام عليهم فمات منهم بسبب ذلك الزحام خمسة وعشرون الفا ثم اخذها موسى عليه
السلام فصارت في يده عصى كما كانت اول مرة فلما راى السحرة ذلك عرفوا انه امر من السما
وليس بسحر وعرفوا ان ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم فعند ذلك خروا سجدا وقالوا امنا
برب العالمين وذلك قوله تعالى فوقع الحق اي فظهر الحق الذي جا به موسى وبطل ما
كانوا يعملون اي من السحر وذلك ان السحرة قالوا لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا

وعصينا

وعصيانا فلما فقدت وتلاشت في عصى موسى علموا ان ذلك من امر الله تعالى وقدرته اي فرعون
وجموعه وفرا حصر تلفت بسكون اللام وتخفيف القاف والباقون بفتح اللام وتشديد
القاف وبتشديد التاء الزمخشري فغلبوا اي فرعون وجموعه هنالك اي عند ذلك الامر العظيم العالي
المرتبة وانقلبوا صاغرين اي رجعوا الى المدينة اذلاء مقهورين والقي السحرة ساجدين
اي بان الله تعالى الهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين اراد بهم كيد موسى
وتنقلب الامر عليه قال لاخفش من سرعة ما سجدوا كانهم القوا قالوا امنا برب العالمين
قال فرعون اياي يعنون قالوا لا بل برب موسى فقال اياي تعنون لاني انا الذي ربيتك
موسى فلما قالوا وقد زالت الشبهة وعرف الكل انهم كفروا اتبع فرعون واسوا له الشما قال فما قال
قال موسى لكبير السحرة فمن سيء ان غلبتك فقال لاني بسحر لا يغلبه سحر ولئن غلبتني لاومنن بك
وفرعون ينظر اليهما ويسمع كلامهما فهذا قول فرعون ان هذا لمكر حكروه وتعالوا الجبال
والعصي التي كانت مع السحرة كانت حمل ثلثمائة بعير فلما ابتلعت عصى موسى عليه السلام كلها
قال بعضهم لبعض هذا امر خارج عن هذا السحر وما هو الا من امر السما فامنوا وصدقوا
فان قيل كان يجب ان يأتوا بالايمان قبل السجود فما فايدة تقديم السجود على الايمان اجيب
بان الله تعالى لما قذف في قلوبهم الايمان والمعرفة خروا سجدا لله تعالى شكرا على ما هداهم اليه
والهمهم من الايمان بالله وتصديق رسوله ثم اظهروا بعد ذلك لقومهم قال قتادة كانوا اول
النهار كفار سحرة وفي اخره شهدا بررة وعن الحسن رضي الله عنه ولد في الاسلام وبقايا المسلمين بسبع
دينه بكذا وكذا وهو لاء كفار ينشبوا في الكفر بدلوا الفهم لله تعالى قال فرعون للسحرة منكرا
عليهم سوء بحالهم بقوم آمنتم له اي صدقتموه اي موسى وبالله والاستفهام فيه للانكار والتوبيخ
ما لن هنا ثلاث همزات جميع الوزا بدا الثانية الفا وحقق الثانية شعبة
وحمزة والكسائي وهشام بخلف عنه ونافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر واما حفص فانه اسقط الاولى وابدل الثانية
قبل الوصل واوا قبل ان اذن لكم اي قبل ان امركم بذلك واذن لكم فيه ان هذا لمكر مكرتموه
ايها ان هذا الصنع لحيلة احتلتموها انتم وموسى في المدينة اي مصر قبل ان تخرجوا منها اهلها
وذلك ان فرعون راى موسى حدث كبير السحرة فظن فرعون ان موسى وكبير السحرة تواطيا على ذلك
وعلى اهل مصر ليستولوا على مصر كما قاله لتخرجوا منها اهلها اي القبط وتخلصوا لكم ولبني اسرايل
وقوله فسوف تعلمون فيه وعيد وتهديد اي فسوف تعلمون ما افعل بكم ثم فسر ذلك
الوعيد بقوله لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف اي مخالف الطرف الذي يقطع منه
اليد الطرف الذي تقطع منه الرجل قال الكلبي لاقطعن ايديكم اليمنى وارجلكم اليسرى ثم لاصلبنكم
اي اعلى جذوع النخل ممدودة ايديكم لتشهير واعلا هيئة الصليب اوحتى تنقطر صلبتكم
وهو الزعن الذي فيكم اجمعين اي لا اترك منكم احدا نفقتلكم وتنكيلا لامثالكم قال ابن عباس
اول من صلب وقطع الايدي والارجل فرعون اي انه اول من سن ذلك فشرع الله تعالى للقطاع
تقطيع الجرم وذلك شفاء محاربة الله ورسوله ولكن على التخفيف لقطع رحمته قالوا اي السحرة
مجيبين لفرعون حين وعدهم باذكر انا الى ربنا منقلبون اي راجعون اليه في الاخرة وما
تنقم اي تنكر منا اي ما فعلك ذلك بنا وتعيب علينا الا ان امنا بايات ربنا لما جاءتنا اي الا لما هو افضل
الفواضل وهو الايمان اللهم افرغ علينا صبرا لم تنثر خير عن معرفة الصدق وهذا يوجب
الاكرام لا الانتقام ثم توجهوا الى الله تعالى فقالوا ربنا افرغ علينا صبرا عند ما توعدهم فرعون

بنا اي اصبب علينا صبرا كاملا تاما ولهذا اتى بلفظ التكثير وتوفنا مسلمين اي وافضنا
على دين الاسلام وهو دين خليل الله ابراهيم عليه السلام قال ابن عباس ما قالوا ولكنهم سجدوا
وفي احوالنا وشهدا قال الكلبي ان فرعون قطع ايديهم وارجلهم وصلبهم وقال غيره انه لم يقدر
عليهم لقوله تعالى لا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون تنبيه في الاية فوائد
الاول قولهم افرغ علينا صبرا اكمل من قولهم انزل علينا صبرا لان افراغ الاناء هو صب ما فيه
بالكلية فكانهم طلبوا من الله كمال الصبر لانقضاء الثانية ان قولهم صبرا مذكور بصيغة التنكير
وذلك يدل على تمام الكمال اي صبرا كاملا تاما الثالثة ان ذكر الصبر من قبلهم ومن اعمالهم انهم
طلبوا من الله وذلك يدل على ان فعل العبد لا يحصل الا بتخليق الله وقضاياه الرابعة احتج
القاضي بهذه الاية على ان الايمان والاسلام واحد فقالوا انهم قالوا اولا امنا بآيات ربنا ثم قالوا
ثانيا وتوفنا مسلمين فوجب ان يكون هذا الاسلام هو ذلك الايمان وذلك يدل على
ان احدهما هو الاخر واعلم ان فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض لموسى لانه كلما اراد
موسى عليه السلام خافه اشد الخوف فلهذا السبب لم يتعرض له الا ان القوم لم يعرفوا ذلك
فقالوا له اتذر موسى وقومه كما حكى الله ذلك عنهم بقوله وقال الملا اي الاشراف من قوم فرعون
له اتذر اي اتترك موسى وقومه من بني اسرائيل ليفسدوا في الارض اي ارض مصر واراد وا بالفساد
فيها انهم يامرون بمخالفة فرعون وهو قولهم ويذرك وآلهتك اي فلا يعبدك ولا يعبدك
ولا يعبدها قال ابن عباس كان لفرعون بقرة يعبدها وكان اذا راى بقرة حسنة امرهم
بعبادتها ولذلك اخرج لهم السامري عجلا وقال السدي كان فرعون اتخذ لقومه اصناما
وكان يامرهم بعبادتها وقال لهم انا ربكم ورب هذه الاصنام وذلك قولهم انا لهم الاعلى فان قيل
ان فرعون لم يكن كامل العقل لم يجز في حكمة الله تعالى ارسال الرسول اليه وان كان عاقلا
لم يجز ان يعتقد في نفسه كونه خالق السموات والارض لان فساده معلوم بالضرورة اجيب
بان الاقرب ان يقال انه كان دهريا منكرا لوجود الصانع وكان يقول مدبر هذا العالم
السفلي هو الكواكب واتخذ اصناما على صورة الكواكب وكان يعبدها ويامر بعبادتها
وكان يقوله لا نعتقد انه المطاع المخدوم في الارض ولهذا قال انا ربكم الاعلى قال فرعون
مجيبا للملا حين قالوا له اتذر موسى وقومه سنقتل ابناءهم المولودين ونستحيي نساءهم
اي نترکهم احيا كما كنا نفعل من قبل ليعلم انا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ولا يتوهم
انه المولود الذي حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكك على يده وفرانا فوقهم وانا كثير
بفتح الميم وتشديد القاف ومعناه التاكيد والباقون بضم الميم وفتح القاف وكسر
التاء مشددة وانا فوقهم قاهرون اي غالبون وهم مقهورون تحت ايدينا ولا اثر
لعلية موسى لنا في هذه المناظرة فاعادوا عليهم القتل فشكت بنو اسرائيل لموسى فامرهم
بالصبر كما قال تعالى قال موسى اي لبني اسرائيل استعينوا بالله واصبروا اي استنصروا بالله
على فرعون وقومه فيما ينزل بكم من البلاء فان الله هو الكافي لكم واصبروا على ما تلقون من الكاره
في انفسكم وابنائكم ان الارض اي ارض مصر وان كانت الارض كلها لله تعالى لان الكلام فيها
يورثها من يشاء من عباده وهذا تسلية لهم وتقرير للامر بالاستعانة بالله عز وجل والتثبت
في الامر وقوله والعاقبة اي المحمودة للمتقين اي لله وعدهم بالنصر وتذكير لما وعدهم
به من اهلاك القبط وتقريرهم ديارهم وتخفيف لما سمع بنو اسرائيل ما قال فرعون

من بعده

من توعده لهم بالقتل من ثانية قالوا لموسى أوذينا من قبل أن تأتينا اي بالرسالة وذلك
ان بني اسرائيل كانوا مستضعفين بيد فرعون وقومه وكان يأخذ منهم الجزية ويستعملهم
في الاعمال الشاقة الى نصف النهار ومنعهم من الترفه والتنعم وقتل ابنائهم ويستحي نساءهم
فلما جاء موسى بالرسالة وجرى له ما جرى تمدد فرعون في استعمالهم فكان يستعملهم جميع النهار
بلا اجر وارادان يعيد القتل عليهم فقالوا اوذينا من قبل ان تاتينا ومن بعد ما جئتنا
اي بالرسالة فان قيل ظاهر هذا الكلام يوهم ان بني اسرائيل كرهوا مجيء موسى بالرسالة وذلك كفر
اجيب عن هذا الايهام بان موسى عليه السلام كان قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة
والمشقة فظنوا ان ذلك يكون على الفور فلما راوا ان المشقة قد زادت عليهم قالوا ذلك
اي فحتى يكون ما وعدتنا به من زوال ما نحن فيه فاجاب موسى عليه السلام عسى ربكم ان يهلك
عدوكم اي فرعون وقومه ويستخلفكم في الارض اي ويجعلكم تخلفونهم في ارضهم بعد هلاكهم قال
البيضاوي ولعله اتى بفعل الطمع اي يعسى لعدم جزمه بانهم المستخلفون باعيانهم او لاوصافهم
وقد روي ان حصرا نما فتح لهم في زمن داود عليه السلام ثم سبب عن الاستخلاف قوله فينظر
لهم محذرا من سطوات نقمه فينظر اي وانهم خلفا متملكون كيف تعملون اي بعا ملكم معاملة
المختبر وهو في الازل اعلم بما تعملون منكم بعد ايقاعكم للاعمال ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة
عليكم على مجاري عاداتكم روي عن عمر وعن عبيد انه دخل على المنصور قبل الخلافة وعاين
ما بنته زبيدة اوزعيفان فطلبه زيادة لعمر وقلم يجد فقرا عمر وهذه الابنية ثم دخل عليه بعد
ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقي فينظر كيف تعملون ولقد اخذنا ال فرعون
اي فرعون وقومه بالسنين اي بالقحط والجوع سنة بعد سنة فان السنة تطلق بالغلبة
على ذلك كما نطلق على العام ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلها عليهم سنينا كسني يوسف
ونقص من الثمرات اي بالعاهات قال قتادة اما السنين فلاهل البوادي واما النقص
الثمرات فلاهل الامصار وعن كعب قال فيما نجد ان الناس رهان لاعمل المخلوق الا مرة لعلهم يذكرون
اي يتعظون فيؤمنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصي لان الشدة ترقق القلب
وترغب فيما عند الله تعالى من الخير والدليل على ذلك قوله تعالى واذا مسكم الضر في البحر ضل
من تدعون الا اياه وقوله تعالى واذا مسته الشر فذو دعاء عريض قال سعيد بن جبير عاش
فرعون اربعمائة سنة لم ير مكروها في ثمانين وعشرين سنة ولو اماته في تلك المدة وجع
او جوع او حمى لما ادعى الربوبية ثم بين سبحانه وتعالى انهم عند نزول تلك المحن عليهم يقدمون
على ما يزيد في كفرهم ومعصيتهم فقال فاذا جاءتهم الحسنة قال ابن عباس العشب والخصب
والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية والسلامة قالوا لنا هذه اي نحن مستحقون
على العادة التي جرت لنا من كثرة نعمنا وسعة ارزاقنا ولم يخطروا ببالهم ان الله تعالى يشكروه
على انعامه وان تصبهم سيئة اي محط وجدب وضيق من البلاء وما يكرهون في انفسهم
يطيروا اي يتشاءموا واصله يتطيروا بموسى ومن معه من المؤمنين ويقولون ما اصابنا
الا بشومهم وهذا ادل على فرط جهلهم بالعبادة والفساد فان الشدائد ترقق القلوب
وتذلل العرائك وتزيل التماسك سيما بعد مشاهدة الايات وهي لم تؤثر فيهم بل ارادوا عندها
عتوا وانهماكا في الغي واتى بالحسنة وذكرها مع اداة التحقيق لكثرة وقوعها
وتعلق الارادة باحدا ثها بالذات وبالسيئة وانما هو حرف الشك لندورها وعدم القصد

BULAC

لها الا بالتبع **الا انما طائرهم عند الله** اى بسبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمه ومشيئته او سبب شؤمهم عند الله تعالى وهو اعمالهم المكتوبة عنده فانها التى ساقت اليهم ما يسوءهم **ولكن اكثرهم لا يعلمون** اى ان ما يصيبهم من الله تعالى وذلك لان اكثر الخلق يضيفون الحوادث الى الاسباب المحسوسة ويغلطون فى غير ذلك والله وتقديره والحق ان الكل من الله تعالى لان كل موجود اما ان يكون واجب لذاته او ممكن لذاته والواجب لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته لا يوجد الا بايجاد الواجب لذاته وبهذا الطريق يكون الكل من الله فاسنادها الى غير الله يكون جهلا بحال الله تعالى **وقالوا** اى فرعون وقومه لفظ لموسى عليه السلام **مهما تاتنا به من اية** اى من عندرك بيان لهما واما سموها اية على زعم موسى لا اعتقادهم ولذلك قالوا **لتسحرنا بها** اى لتخرفنا عما نحن عليه من الدين **فما نحن لك بمؤمنين** اى بمصدقين بشبهة اختلف فى اصل مهما فقيل اصلها ما ما الاولى هى الشرطية والثانية ما الزائدة ضمت اليها للتاكيد ثم قلبت الفها هاء استثقالا لتكرير المتجانسين فصار مهما هذا قول الخليل والبصريين وقيل اصلها مه التى بمعنى الكف وما الجزائية كانهم قالوا اكفف ما تاتنا به من اية لنسحرنا بها فهو كقولك اوعدنى بما تعطى فهذا قول الكسائى وهى مركبة على هذين القولين والمعتمد الذى جرى عليه ابن هشام وغيره انها بسيطة لان دعوى التركيب لم يقم عليها دليل وزنها فعلى والفها للالحاق او للتانيث والصحيح ان فى اية وبها راجعة لهما لا لاحدهما ذكرا باعتبار اللفظ والثانى انث باعتبار المعنى لانه فى معنى الاية ونحوه قوله زهير ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها على الناس تعلم قال فى الكشاف وهذه الكلمة فى عداد الكلمات التى تحير فيها من لا بد له فى علم العربية فيضعها فى غير موضعها ويحسب انها بمعنى متى ويقول لها خبيبى اعطيك قال ابن عباس ان القوم لما قالوا لموسى مهما تاتنا به من اية لتسحرنا بها فنحن لك بمؤمنين ولى عندنا من باب السحر ونحن لا نؤمن بها البتة وكان موسى عليه السلام رجلا حديدا فغضب ذلك ودعا عليهم فاستجاب الله تعالى له تعالى فقال **فارسلنا عليهم الطوفان** وقال سعيد بن جبير لما امنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا الى هو وقومه الا الاقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله تعالى عليهم الايات واخذهم اولا بالسنين وهو القحط وتنقص الثمرات وابرام قبل ذلك من الحجرات اليد والعصا فلم يؤمنوا فدعا عليهم موسى وقال يا رب ان عبدك فرعون علا فى الارض وبغى وعتى وان قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم اية وعبرة فبعث الله تعالى عليهم الطوفان وهو الماء فارسل الله تعالى عليهم المطر من السما وبيوت بنى اسرايل وبيوت القبط متشبكة مختلطة فامتلات بيوت القبط حتى قاموا فى الما الى تراقيهم ومن جلس منهم غرق ولم يدخل من ذلك الما فى بيوت بنى اسرايل وركب ذلك الما على ارضهم فلم يقدروا ان يحرثوا ولا يعملوا شيا ودام ذلك عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت حتى كان الرجل منهم لا يرى شمسا ولا قمرا ولا يستطيع الخروج لمعاشه فصرخوا الى فرعون فاستغاثوا به فارسل الى موسى عليه السلام فقال اكشف عنا العذاب فقد صار بحرا واحدا فان كشفت هذا العذاب لنعبدنك فقال الله تعالى عنهم المطر وارسل الريح فجففت الارض وخرج من النبات ما لم يروا مثله قط فقالوا هذا الذى سالناه منه خيرنا لكنا لم نشعر فلا والله لا نؤمن بك ولا نرسل معك بنى اسرايل وقيل المراد بالطوفان الجدرى وهو

بغم

بضم الجيم وفتح الدال وبفتحها قروح في البدن تنفط وتفتح وقيل هو الموتان بضم الميم
موت في الماشية وقيل هو الطاعون فنكثوا العهد ولم يؤمنوا واقاموا شهرا في عافية فارسل الله
تعالى عليهم الجراد فاكل النبات والثمار واوراق الشجر حتى كان ياكل الابواب وسقوف البيوت
ومسامير الابواب من الحديد وابتلي الجراد بالجوع فكانت لا تشبع ولم يصب بني اسرائيل شيء
من ذلك وعظم الامر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطي الشمس ووقع بعضها على بعض
في الارض ذراعا فضجوا من ذلك وقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن
لك واعطوه عهد الله وميثاقه فدعى موسى عليه السلام فكشف الله تعالى عنهم الجراد
بعد ما اقام عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت وفي الخبر مكتوب على صدر كل جرادة جند الله
الاعظم ويقال ان موسى عليه السلام برز الى الفضا واشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت
الجراد من حيث جاءت وقيل ارسل الله تعالى ريحا فاحتمل الجراد فالقاه في البحر وكان قد بقي
من زروعهم وغلاتهم بقية فقالوا قد بقي لنا ما يكفينا فما نحن بتاركي ديننا ولم يؤمنوا
واقاموا شهرا في عافية وعادوا الى اعمالهم الخبيثة فارسل الله تعالى عليهم القمل واختلفوا
في القمل فعن ابن عباس انه السوس الذي يخرج من الحنطة وعن قتادة انه اولاد الجراد قبل
نبات اجنحتها وعن عكرمة انه الحمنان وهو ضرب من القراد وعن عطا هو القمل المعروف
فاكل ما ابقاه الجراد ولحس الارض وكان يدخل بين ثوب احدهم وبين جلده فيمصه وكان
احدهم ياكل طعاما فيمتلي قملا وكان احدهم يخرج عشرة اجوبة الى الرحى فلا يرد منها الا شيا يسيرا
وعن سعيد بن جبير كان الى جنبهم كثيب اعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار
قملا فاخذت في ابشارهم واشعارهم واشفار عيونهم وحواجبهم ولزم جلودهم كانه الجدري
ومنعهم النوم والقرار فصاحوا وصرخوا هم وفرعون الى موسى عليه السلام وقالوا انا نتوب
فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلا فدعى موسى فرفع الله القمل عنهم بعد ما اقام عليهم سبعة
ايام من السبت الى السبت فنكثوا وعادوا الى خبث اعمالهم وقالوا انما كنا احق ان نستيقن
انه ساحر منا اليوم جعل الرمل دواب ولم يؤمنوا فدعى موسى عليه السلام عليهم بعد ما اقاموا
شهرا في عافية فارسل الله تعالى عليهم الضفادع فامتلات منها بيوتهم واطعمتهم وابنيتهم
فلا يكشف احدهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب الا وجد فيه الضفادع وكان الرجل يجلس في الضفادع
الى رقبته وهم ان يتكلم فيثب الضفدع في فيه وكان يثب في قدورهم فيفسد عليهم طعامهم
ويطفي نيرانهم وكان احدهم يضطجع فيركبه الضفادع فيكون عليه ركاما حتى لا يستطيع
ان ينصرف الى شقه الاخر ويفتح فاه لاكلته فيسبق الضفدع اكلته الى فيه ولا يعجن عجينا ولا
يفتح قدرا الا امتلات ضفادع وعن ابن عباس ان الضفادع كانت برية فلما ارسلها الله تعالى
على ال فرعون سمعت واطاعت فجعلت تلقي نفسها في القدور وهي تغلي وفي التنانير
وهي تفور فاثابها الله بحسن طاعتها برد الما فلقوا منها اذا شديدا فشكوا الى موسى عليه السلام
وقالوا ارحمنا هذه المرة فما بقي الا ان نتوب التوبة النصوح ولا نعود فاخذ عهودهم ومواثيقهم
ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بان اماتها بان ارسل عليها المطر والريح فاحتملتها الى البحر بعد ما اقام
عليهم سبعة ايام من السبت الى السبت ثم نكثوا العهد ولم يؤمنوا وعادوا لكفرهم واعمالهم الخبيثة
فدعى عليهم موسى بعد ما اقاموا شهرا في عافية فارسل الله تعالى عليهم الدم فصارت مياههم
كلها دما فما يستقون من بير ولا نهر الا وجدوه دما عبيطا احمر فشكوا الى فرعون وقالوا ليس لنا

BULAC

شراب فقال انه قد سحركم فقالوا من اين سحرنا ونحن لا نجد في اوعيتنا شيا من الما الا دما عبيطا
وكان فرعون لعنه الله تعالى يجمع بين القبطي والاسرايلي على الانا الواحد فيكون ما يلي الاسرايلي
ما وما يلي القبطي دما ويقومان الى الجرة فيها الما فيخرج الاسرايلي ما والقبطي دما حتى كانت
المراة من ال فرعون تاتي المراة من بني اسرايل حين جهدهم العطش فتقول اسقني مايك
فتصب لنا من قربتها فيعود في الانا دما حتى كانت تقول اجعليه في فيك ثم مجيه في في
فتاخذه في فيها ما فاذا مجته في فيها صار دما واعترى فرعون العطش حتى انه ليضطر
الى مضغ الاشجار الرطبة فاذا مضغها صار ما وهادما فمكثوا على ذلك سبعة ايام لا يشربون
الا الدم فاتوا موسى وشكوا اليه ما يلقونه وقالوا يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا
الدم فنومن بك ونرسل معك بني اسرايل فدعى موسى عليه السلام ربه فكشفه عنهم وقيل
الدم الذي سلط الله تعالى عليهم هو الرعاف وقوله تعالى ايات نصب على الحال مفصلات
اي مبينات لا يشكل على عاقل انها ايات الله تعالى ونعمته عليهم او مفصلات لامتحان
احوالهم اذا كان بين كل ايتين منها شهر وكان امتداد كل واحدة اسبوعا كما مرت الاشارة
الى ذلك وقيل ان موسى عليه السلام لبث فيهم بعد ما غلب السحرة وامنوا به عشرين سنة
يريهم هذه الايات على مهل فاستكبروا عن الايمان فلم يومنوا وكانوا اي فرعون وقومه
قوما مجرمين اي كافرين ولما وقع عليهم الرجز اي نزل بهم العذاب وهو ما ذكره الله تعالى
من الطوفان وما بعده وقال سعيد بن جبير الرجز الطاعون وهو العذاب السادس
بعد الايات الخمس التي تقدمت فنزل بهم الطاعون حتى مات من القبط في يوم واحد
سبعون الفا وتركوا غير مدفونين قال الامام الرازي والقول الاول اقوى لان لفظ
الرجز مفرد محلى بالالف واللام فينصرف الى المعهود السابق وههنا المعهود السابق هو الانواع
الخمسة التي تقدم ذكرها واما غيرها فمشكوك واما غيرها فمشكوك فيه فحمل اللفظ على المعلوم
اولى من حمله على المشكوك وعن اسامة بن زيد الطاعون رجز ارسل على طايفة من بني اسرايل
وعلى من كان قبلكم فاذا سمعتم به بارض فلا تقدموا عليه واذا وقع بارض وانتم فيها فلا تخرجوا
فورا منه يا موسى ادع لنا ربك ولم يقولوا ربنا كبرا وعتوا بما عهد عندك اي بعهده عندك
وهو النبوة وسميت عهدا لان الله تعالى عهد ان يكرم النبي وهو عهد ان يستقل باعبايها
او بالذي عهده اليك ان تدعوه به فيجيبك كما اجابك في اياتك والبا اما ان تتعلق
بقوله ادع لنا ربك على وجهين احدهما اسعفنا الى ما نطلب اليك من الدعا لنا بحق ما عندك
من عهد الله وكرامته بالنبوة او ادع الله لنا متوسلا اليه بعهده عندك واما ان يكون
قسما مجابا بقوله لئن كشفت عنا الرجز لنومنن لك اي اقسمنا بعهد الله تعالى عندك
لئن كشفت عنا الرجز لنومنن لك ولنرسلن معك بني اسرايل اي لنصدقنك بما جيت به
ولنخلين بني اسرايل ليذهبوا حيث شاوا فلما كشفنا عنهم الرجز اي بدعا موسى عليه السلام
الى اجل هم بالغوه اي الى حد من الزمان هم بالغوه لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم
لهم من الامهال وكشف العذاب الى حلوله وهو وقت اهلاكهم بالغرق في اليم وقوله تعالى
اذا هم ينكثون جواب لما اي فلما كشفنا عنهم فاجوا النكث من غير توقف وتامل فيه فان
قيل ان الله تعالى علم من حال هولا انهم لا يومنون بتلك المعجزات فما الفايدة في تواليها عليهم
واظهار الكثير منها اجيب بان الله تعالى يفعل ما يشا ويحكم ما يريد لا يسال عما يفعل قال تعالى

قالوا

فانتقمنا

فانتقمنا منهم اي كافيناهم على سوء صنيعهم واصل الانتقام في اللغة سلب النعمة بالعذاب لانه
تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم وبلغوا الاجل الذي اجل
لهم انتقم منهم بان اهلكهم كما قال تعالى فاغرقناهم في اليم اي في البحر الذي لا يدرك قعره
وقيل هو لجة البحر ومعظم مائه واشتقاقه من التيمم لان المنتفعين به يقصدونه قال
الازهري ويقع اليم على البحر المالح والبحر العذب ويدل على ذلك قوله تعالى فاقذفيه في اليم
والمراد نيل مصر وهو عذب واغراقهم بانهم اي بسبب انهم كذبوا باياتنا الدالة على وحدانيتنا
وصدق رسولنا وكانوا عنها غافلين اي لا يتدبرونها وقيل الضمير في عنها يرجع للنقمة
التي دل عليها قوله تعالى فانتقمنا اي وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين فان قيل
الغفلة ليست من فعل الانسان ولا تحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة اجيب
بان المراد بالغفلة هنا الاعراض عن الايات وعدم الالتفات اليها فهم اعرضوا عنها حتى
صاروا كالغافلين عنها فان قيل اليس قد ذمهم اي التكذيب والغفلة معاصي كثيرة فكيف
يكون الانتقام لهذين دون غيرهما اجيب بانه ليس في بيان انه تعالى انتقم منهم لهذين دلالة
على نفي ما عداهما قال الرازي والاية تدل على ان الواجب في الايات النظر فيها فلذلك ذمهم
بان غفلوا عنها وذلك يدل على ان التقليد طريق مذموم ولما بين تعالى اهلاك القوم بالغرق
على وجه العقوبة بين تعالى ما فعله بالمؤمنين من الخيرات وهو انه تعالى اورثهم ارضهم وديارهم
فقال تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون اي بالاستعباد وذبح الابناء واخذ الجزية
والاعمال الشاقة وهم بنو اسرائيل مشارق الارض ومغاربها اي ارض الشام وهي من الفرات
الى بحر سرف والموضع الذي خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون واله كما نقله البقاع في المائدة
عن التورية وقيل المراد جملة الارض لانه خرج من جملة بني اسرائيل داود وسليمان وقد ملكا
الارض ويدل للاول قوله تعالى التي باركنا فيها اي بالخصب وسعة الارزاق وذلك لا يليق الا
بارض الشام وتمت كلمت ربك الحسنى وهي قوله ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض
الى اخره والحسنى تانيث الاحسن صفة للكلمة ومعنى تمت على بني اسرائيل اي مضت عليهم واستمرت
من قولهم تمت عليه الامر اذا مضى عليه وانجاز الوعد التي تقدم باهلاك عدوهم واستخلافهم
في الارض وانما كان الانجاز تماما للكلام لان الوعد بالشيء يبقى كالشيء المعلق فاذا حصل الموعود
به فقد تقدم ذلك الوعد وكمل فائدة رسمت كلمت بالتاء المجرورة ووقف عليها بالهاء
ابن كثير وابو عمرو والكسائي ووقف الباقون بالتاء وانما حصل لهم ما ذكر بما صبروا اي بسبب صبرهم
وحسبك به حاثا على الصبر ودالا على ان من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى اليه ومن قابله
بالصبر وانتظار النصر ضمن الله تعالى له الفرج ودمرنا اي اهلكنا قال الليث الدمار الهلاك التام
ما كان يصنع فرعون وقومه في ارض مصر من القصور والعمارات وما كانوا يعرشون اي من الجنات
وما كانوا يرفعون من البنيان المشيدة كصرح هامان وقرا ابن عامر [illegible] بضم الراء
والباقون بالجر وهذا اخر ما اقتص الله من نبا فرعون والقبط وتكذيبهم بايات الله
وظلمهم ومعاصيهم ثم اتبعه اقتصاص نبا بني اسرائيل وما احدثوه بعد انقاذهم من مملكة
فرعون واستبعاده ومعاينتهم الايات العظام بقوله تعالى وجاوزنا ببني اسرائيل البحر
اي قطعناه بهم روي ان جوازهم كان يوم عاشوراء وان موسى عليه السلام صامه شكرا لله تعالى
على انجائهم واهلاك عدوهم ومع النعم التي انعم الله تعالى بها عليهم لم يراعوها حق رعايتها

اي الايات

BULAC

كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله فأتوا على قوم اي مروا عليهم يعكفون على اصنام لهم
اي يقيمون على عبادتها قال ابن جريج كانت تماثيل بقر وذلك اول شان العجل وقيل كانوا
قوما من لخم وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانوا من الكنعانيين الذين امر موسى بقتالهم وقرا
حمزة والكسائي بكسر الكاف والباقون بالضم قالوا اي قال بعضهم لانه كان مع موسى السبعون
المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل وهو قولهم يا موسى سموه
كما ترى باسمه جفاء وغلظة اجعل لنا الها اي صنما نعتكف عليه وهذا يدل على غاية جهلهم
وذلك انهم توهموا انه يجوز عبادة غير الله بعد ما راوا الايات الدالة على وحدانية الله
تعالى وكمال قدرته وهي الايات التي توالت على قوم فرعون حتى غرقهم الله تعالى في البحر بكفرهم
وهو عبادتهم غير الله فحملهم جهلهم الى ان قالوا لنبيهم موسى عليه السلام اجعل لنا الهة
كما لهم الهة وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم مما راى من بني اسرائيل بالمدينة وتذكره لحال
الانسان وانه ظلوم جهول كنود الا من عصمه الله وقليل من عبادي الشكور قال موسى ردا
عليهم انكم قوم تجهلون وصفهم بالجهل المطلق واكده لبعد ما صدر عنهم بعد ما راوا من الايات
العظمى والمعجزة الكبرى لانه لا جهل اعظم مما راى منهم ولا اشنع ان هؤلاء اي القوم متبر اي هالك
مدمر ما هم فيه اي ان الله تعالى يهدم دينهم الذي هم عليه ويحطم اصنامهم ويجعلها رضاضا
وباطل اي مضمحل ما كانوا يعملون من عبادتها وان قصدوا بها التقرب الى الله تعالى لان
الاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفة الله تعالى من القلب والمقصود من العبادة رسوخ
معرفة الله تعالى في القلب فكان هذا ضد الغرض ونقيضا للمطلوب قال موسى عليه السلام
مجيبا لهم على سبيل التعجب والانكار عليهم اغير الله ابغيكم الها واصله ابغي لكم اي اطلب لكم
معبودا وهو اي والحال انه وحده فضلكم على العالمين اي ان الاله ليس شيئا يطلب ويلتمس ويتخذ
بل الاله هو الذي يكون قادرا على الانعام بالايجاد واعطاء الحياة وجميع النعم فهذا الموجود
هو الاله الذي يجب على الخلق عبادته فكيف يجوز العدول عن عبادته الى عبادة غيره وفي
تفضيلهم على العالمين قولان الاول انه تعالى فضلهم على عالمي زمانهم الا ما يخصه العقل
من الانبياء والملائكة والثاني انه تعالى خصهم بتلك الايات القاهرة ولم يحصل مثلها لاحد
من العالمين وان كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال مثاله رجل تعلم علما واخر تعلم علوما كثيرة
سوى ذلك العلم فصاحب العلم الواحد مفضل على صاحب العلوم الكثيرة بذلك العلم الواحد
في الحقيقة واذ انجيناكم من ال فرعون اي واذكروا صنعه معكم في هذا الوقت وقرا ابن
عامر بحذف الياء والنون والباقون باثباتهما وقوله تعالى يسومونكم اي يكلفونكم ويذيقونكم
سوء العذاب اي اشده استيناف لبيان ما انجاهم او حال من المخاطبين او من ال فرعون او
منهما وقوله تعالى يقتلون ابناءكم ويستحيون اي يستبقون نساءكم بدل من يسومونكم سوء
العذاب وفي ذلكم اي الانجاء او العذاب بلاء اي نقمة او محنة من ربكم عظيم اي فلا تتعظون
فتنتهون عما قلتم ووعدنا موسى ثلاثين ليلة تكملة عند انتهائها بان يصوم ايامها
روي ان موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل بمصر ان ياتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى
فيه بيان ما ياتون ويذرون فلما هلك سال ربه وامر بصوم ثلاثين وهو شهر ذي القعدة
فصامه فلما تمت انكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة كنا نشم منك رائحة المسك فافسدته
بالسواك وقيل اوحى الله تعالى اليه اما علمت ان خلوف فم الصائم اطيب عندي من ريح المسك

فامره

فامره الله بعشرة اخرى ليكلمه بخلوف فمه كما قال تعالى وأتممناها بعشر اي من ذي الحجة فتم
ميقات ربه اي وقت وعده بكلامه اياه اربعين ليلة وقيل امره ان يتخلى ثلاثين بالصوم والعبادة
ثم انزل عليه التورية في العشر وكلمه فيها ولقد اجمل ذكر الاربعين في سورة البقرة وفصلها
هنا وقرا ابو عمرو ووعدنا بغير الف قبل العين والباقون بالالف فان قيل ما فايدة
قوله تعالى فتم ميقات ربه اربعين ليلة مع ان كل احد يعلم ان الثلاثين مع العشر تكون
اربعين اجيب بانه تعالى انما قال اربعين ليلة ازالة التوهم ان ذلك العشر من الثلاثين
لانه يحتمل اتممناها بعشر من الثلاثين كانه كان عشرين ثم اتمه بعشر فصار ثلاثين فازال
هذا الايهام تنبيه الفرق بين الميقات والوقت ان الميقات ما قدر فيه عمل من الاعمال
والوقت وقت للشي قدره مقدر ام لا وقوله تعالى اربعين نصب على الحال اي تم بالغا
هذا العدد وليلة نصب على التمييز وقال موسى لاخيه وقوله هارون اي عطف بيان لاخيه
اي قال له عند ذهابه الى الجبل للمناجاة اخلفني اي كن خليفتي في قومي واصلح
اي ما يجب ان يصلح من امورهم او كن مصلحا ولا تتبع سبيل المفسدين ومن دعاك منهم
الى الافساد فلا تتبعه ولا تطعه فان قيل هارون كان شريك موسى عليه السلام في النبوة
فكيف جعله خليفة لنفسه فان شريك الانسان اعلا حالا من خليفته ورد الانسان
من منصبه الاعلى الى الادون يكون يكون اهانة له اجيب بان الامر وان كان كما ذكر
الا ان موسى عليه السلام كان هو الاصل في تلك النبوة فان قيل لما كان هارون نبيا
والنبي لا يفعل الا الاصلاح فكيف وصى اليه بالاصلاح اجيب بان المقصود من هذا
الامر التوكيد كقول الخليل ولكن ليطمئن قلبي ولما جاء موسى لميقاتنا اي للوقت الذي
وعدناه بالكلام فيه وكلمه ربه دلت الاية الكريمة على انه تعالى كلم موسى عليه السلام والناس
مختلفون في كلام الله تعالى فقال الزمخشري في كشافه كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم
الملك وتكليمه ان يخلق الكلام منطوقا به في بعض الاجرام كما خلقه مخطوطا في الالواح
انتهى وهذا مذهب المعتزلة ولا شك في بطلانه وفساده لان ذلك الجرم كالشجرة لا يقول
انا الله لا اله الا انا فاعبدني واقم الصلاة لذكري فثبت بذلك بطلان ما قالوه وذهب
بعض الحنابلة والحشوية ان كلام الله حروف واصوات منقطعة وانه قديم قال الامام
الرازي وهذا القول اخس من ان يلتفت اليه العاقلة والذي عليه اكثر اهل العلم السنة
والجماعة ان كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والاصوات وان موسى عليه
السلام سمع تلك الصفة الازلية الحقيقية قالوا كما انه لا يبعد روية ذاته مع ان ذاته ليس
جسما ولا عرضا فكذلك لا يبعد سماع كلامه مع ان كلامه لا يكون حرفا ولا صوتا وفيما
روي ان موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة تنبيه على ان سماع كلامه
تعالى القديم ليس من جنس كلام المحدثين وهل سبحانه وتعالى كلم موسى وحده او مع اقوام
اخرين ظاهر الاية يدل للاول لان قوله تعالى وكلمه ربه يدل على تخصيص موسى عليه
السلام بهذا التشريف والتخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم فيما عداه وقال القاضي بل
الشيعون المختارون سمعوا ايضا كلام الله تعالى قال لان الغرض باحضارهم ان يخبروا
قوم موسى عليه السلام عما يجري هناك وهذا المقصود لا يتم الا عند سماع الكلام وايضا
فان تكليم الله موسى على هذا الوجه معجز وقد تقدمت نبوة موسى عليه السلام

BULAC

فلا بد من ظهور هذا المعنى لغيره ولما سمع موسى عليه السلام ربه اشتاق الى رؤيته
قال رب ارني انظر اليك قال في الكشاف ثاني مفعولي ارى محذوف اي ارني نفسك انظر اليك
فان قيل الرؤية غير النظر فكيف قيل ارني انظر اليك اجيب بان معنى ارني نفسك اجعلني متمكنا
من رؤيتك بان تتجلى لي فانظر اليك واراك وفي هذا دليل على ان رؤيته تعالى جائزة
في الجملة لان طلب المستحيل من الانبياء محال خصوصا ما يقتضي الجهل بالله تعالى ولذلك
رده بان قال له لن تراني دون لن ارى ولن اريك ولن تنظر الي تنبيها على انه قاصر
عن رؤيته لتوقفها على معد في الرائي لم يوجد فيه بعد وجعل السؤال لتبكيت قومه
الذين قالوا ارنا الله جهرة كما قاله الزمخشري اشد خطا اذ لو كانت الرؤية ممتنعة لوجب
ان يجهلهم ويزيل شبهتهم كما فعل بهم حين قالوا اجعل لنا الها والاستدلال بالجواب
وهو قوله تعالى لن تراني على استحالتها اشد خطا اذ لا يدل الاخبار عن عدم رؤيته اياه
على انه لا يراه ابدا وان لا يراه غيره اصلا فضلا من ان يدل على استحالته فان اهل
البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة قالوا لن تكون لتابيد النفي وهو خطا لانها
لو كانت للتابيد لزم التناقض بذكر اليوم في قوله تعالى فلن اكلم اليوم انسيا ولزم
التكرار بذكر ابدا في قوله تعالى ولن يتمنوه ابدا ولم يجتمع مع ما هو لانتهاء الغاية نحو قوله
تعالى فلن ابرح الارض حتى ياذن لي ابي واما تابيد النفي في قوله تعالى لن يخلقوا
ذبابا فلامر خارجي لا من مقتضيات لن ولا تقتضي تاكيد النفي ايضا خلافا للزمخشري
في كشافه بل قولك لن اقوم يحتمل لان تريد به انك لا تقوم ابدا او انك لا تقوم في بعض
ازمنة المستقبل وهو موافق لقولك لا اقوم في عدم افادة التاكيد وقوله تعالى
ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني استدراك يريد ان يبين به
انه لا يطيق الرؤية وفي تعليق الرؤية بالاستقرار ايضا دليل على جوازها لان استقرار
الجبل عند التجلي ممكن وتراني في الحرفين اليا ثابت وقفا ووصلا وقرا ولكن انظر
ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون والباقون بالضم والمعلق على الممكن ممكن قال وهب بن
منبه ومحمد بن اسحاق لما سال موسى ربه الرؤية ارسل الله الضباب والصواعق والظلمة
والظلمة والرعد والبرق حتى احاطت بالجبل الذي عليه موسى عليه السلام اربعة فراسخ من كل
جانب وامر الله تعالى ملائكة السموات ان يعرضوا على موسى فمرت به ملائكة السماء الدنيا كثيران
البقر تتبع افواههم بالتسبيح والتقديس اصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ثم مرت
به ملائكة السماء الثانية كامثال الاسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع مما راى
وسمع واقشعرت كل شعرة في راسه وجسده ثم قال لقد ندمت على مسئلتي فهل
ينجيني من مكاني الذي انا فيه شيء فقال له راس الملائكة يا موسى اصبر لما سالت فقليل
من كثير ما رايت ثم مرت به ملائكة السماء الثالثة كامثال النسور لهم قصف ورجف
ولجب شديد وافواههم تتبع بالتسبيح والتقديس كلجب الجيش العظيم الوانهم كلهب النار
ففزع موسى واشتد فزعه وايس من الحياة فقال له رئيس الملائكة مكانك يا ابن عمران
حتى ترى ما لا صبر لك عليه ثم مرت به ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شيء من الذين مروا به
الوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الابيض اصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم
شيء من اصوات الذين مروا به قبلهم فاصطكت ركبتاه وارعب قلبه واشتد بكاؤه

بان يجعل الله له قوة على ذلك والمعلق على الممكن ممكن صح

فقال

فقال له راس الملائكة يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض ما لا تصبر عليه ثم مرت به ملائكة السما
السادسة وفي يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نورا اشد ضوا من الشمس ولباسهم كلهب
النار اذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة
اصواتهم سبوح قدوس رب العزة ابدا لا يموت في راس كل واحد منهم اربعة اوجه
فلما راهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكي ويقول يا رب اذكرني ولا تنس عبدك
لا ادري اتغلت مما انا فيه ام لا ان خرجت احترقت وان مكثت مت فقال له راس الملائكة
قد اوتيك يا ابن عمران ان اشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذي سالت ثم امر الله
تعالى ان يحمل عرشه ملائكة السما السابعة فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الله
تعالى ورفعت الملائكة اصواتهم يقولون سبحان الملك القدوس رب العزة ابدا لا يموت
بشدة اصواتهم فارتج الجبل واندك وذلك قوله تعالى فلما تجلى ربه اي اظهر من نوره قدر
نصف انملة الخنصر كما في حديث صححه الحاكم للجبل اي جبل زبير بفتح الزاي والاضافة فيه
بيانية لقول الجوهري الزبير اسم الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام جعله دكا اي مدكوكا
مفتتا وحكي عن سهل بن سعد الساعدي ان الله تعالى اظهر من سبعين الف حجاب نورا قدر الدرهم
فجعل الجبل دكا مستويا بالارض والدك والدق اخوان وقال ابن عباس جعله ترابا وقال
سفيان ساح الجبل في الارض حتى وقع في البحر فهو يذهب فيه وقال الكلبي كسر جبالا صغارا
قال البغوي ووقع في بعض التفاسير صار لعظمته ستة اجبل وقعت ثلاثة بالمدينة
احد وورقان ورضوى وثلاثة بمكة ثور وثبير وحرا وقرا حمزة والكسائي بالف بعد الكاف
وهمزة مفتوحة من غير تنوين وصلا ووقفا اي مستويا ومنه ناقة دكا للتي لا سنام
لها والباقون بالتنوين بعد الكاف والوقف على الف التنوين وخر اي وقع موسى
صعقا اي مغشيا عليه من هول ما راى غشيه كالموت وروي ان الملائكة مرت عليه وهو
مغشي عليه فجعلوا يلكزونه بارجلهم ويقولون يا ابن النسا الحيض اطمعت في روية رب
العزة فلما افاق من غشيته قال تعظيما لما راى سبحانك اي تنزيها لك من النقائص
كلها تبت اليك اي من الجراة والاقدام على السوال بغير اذن وقيل لما كانت الروية مختصة
بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها قال سبحانك تبت اليك من سوالي ما ليس لي وقيل لما سال
الروية ومنعها قال تبت اليك من هذا السوال وحسنات الابرار سيات المقربين وانا اول
المومنين اي في زماني وقيل انا اول من امن بانك لا ترى في الدنيا اي لكل الانبيا والا فالروية
ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الاسرا على الصحيح وللزمخشري هنا في كشافه على
مذهبه الفاسد من عدم الروية مطلقا تاويلات فلتحذر قال يا موسى اني اصطفيتك
اي اخترتك على الناس اي الموجودين في زمانك وهارون وان كان نبيا مرسلا كان مامورا
باتباعه ولم يكن كليما ولا صاحب شرع وقرا ابن كثير وابو عمرو بفتح يا اني والباقون بالسكون
وقوله تعالى برسالاتي اي باسفار التورية قراة نافع وابن كثير بغير الف بعد اللام
على التوحيد والباقون بالالف بعد اللام على الجمع وبكلامي اي وبتكليمي اياك فخذ ما
اتيتك اي اعطيتك من الرسالة وكن من الشاكرين لانعمي لان موسى عليه السلام لما منع
الروية عدد الله تعالى عليه وجوه نعمه العظيمة التي له عليه وامره ان يشتغل
بشكرها كانه قال له ان كنت منعتك الروية فقد اعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا

BULAC

فلا يضيق صدرك بسبب منع الرؤية وانظر الى سائر انواع النعم التي خصصتك بها
واشتغل بشكرها والاشتغال بشكرها انما يكون بالقيام بلوازمها عملا وعلما والمقصود
موسى عليه السلام عن منع الرؤية قال الامام الرازي وهذا ايضا احد ما يدل على ان
الرؤية جايزة على الله تعالى اذ لو كانت ممتنعة في نفسها لما كان الى ذكر هذا العذر حاجة
وروي ان موسى عليه السلام كان بعد ما كلمه ربه لا يستطيع احد ان ينظر اليه لما غشي
وجهه من النور ولم يزل على وجهه برقع حتى مات وقالت له زوجته انا لم ار منك كالمك
ربك فكشف لها عن وجهه فاخذها مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها
وخرت ساجدة وقال اسئل الله ان يجعلني زوجتك في الجنة قال ذاك انك لم تتزوجي بعدي
فان المرأة لآخر زوج لها وكتبنا له اي لموسى في الالواح اي الواح التوراة قال النقاش في
الحديث كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعا وجاء في الحديث خلق الله آدم
بيده وكتب التوراة بيده وغرس الجنة بيده والكل بيده قدرته وقيل كانت
من زبرجد خضراء وقيل من ياقوتة حمراء وقيل من صخرة صماء امر الله تعالى موسى فقطعها
بيده واما كيفية الكتابة فقال ابن جريج كتبها جبريل بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من
النور وقال وهب سمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر وكان ذلك في اول يوم من ذي
القعدة وقيل ان موسى خر صعقا يوم عرفة فاعطى التوراة يوم النحر وكانت الالواح عشرة
على طول موسى وقيل كانت تسعة وقيل كانت سبعة وقال مقاتل وكتبنا له في الالواح كتبنا
الحلال والحرام وقال الربيع بن انس نزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير يقرأ الجزء منها في سنة ولم
يقرأها الا اربعة لعزير موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام ايام محفوظا ويقرأها عن ظهر
قلب الاحبار الاربعة قال الامام الرازي وليس في لفظ الآية ما يدل على كيفية تلك الالواح
وعلى كيفية تلك الكتابة فان ثبت ذلك بالتفصيل بدليل منفصل فذاك وحينئذ يجب المصير اليه والاوجب
السكوت عنه واما قوله تعالى من كل شيء فلا شبهة في انه ليس على العموم بل ما يحتاج اليه موسى عليه
السلام وقومه من امر الدين وقوله تعالى موعظة وتفصيلا اي تبيينا لكل شيء بدل من الجار والمجرور
قبله اي كتبنا له كل شيء من المواعظ وتفصيل الاحكام وقوله تعالى خذها بقوة على اضمار القول عطفا
على كتبنا او بدلا من قوله فخذ ما اتيتك والهاء للالواح او للكل على انه بمعنى الاشياء او للرسالة
وعن كعب الاحبار ان موسى عليه السلام نظر في التوراة فقال اي امة خير الامم اخرجت للناس
يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويومنون بالكتاب الاول والكتاب الآخر ويقاتلون
اهل الضلالة حتى يقاتلوا الاعور الدجال ربي اجعلهم امتي قال تلك امة محمد يا موسى فقال يا رب
اني اجد امة سيماهم الحامدون رعاة الشمس المحكمون اذا اراد احدهم امرا قالوا نفعل ان شاء الله فاجعلهم
امتي قال هم امة محمد قال يا رب اني اجد امة ياكلون كفاراتهم وصدقاتهم وكان الاولون
يحرقون صدقاتهم بالنار وهم المستجابون والمستجاب لهم الشافعون والشفوع لهم
فاجعلهم امتي قال هم امة محمد قال يا رب اني اجد امة اذا اشرف احدهم على شرف كبر الله واذا
هبط وادي حمد الله الصعيد لهم طهور والارض لهم مسجد حيثما كانوا يتطهرون من الجنابة
طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لا يجدون الماء يحملون بطونهم اثار الوضوء فاجعلهم امتي
قال هم امة محمد قال يا رب اني اجد امة اذا هم احدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة فان عملها
وان عملها كتبت له بعشر امثالها الى سبعمائة ضعف فاجعلهم امتي قال هم امة محمد قال اني اجد امة

مرحومة

مرحومة ضعفا يرثون الكتاب الذين اصطفينا منهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات فعلا اجدا احدا الامر حوما فاجعلهم امتي قال تلك امة محمد قال يا رب اني اجد امة
مصاحفهم في صدورهم يلبسون الوانا شبابا اهل الجنة يصفون في صلاتهم كصفوف الملائكة
اصواتهم في مساجدهم كدوي النحل لا يدخل النار احد منهم ابدا الا من برئ من الحسنات
مثل ما برئ الحجر من ورق الشجر فاجعلهم امتي قال تلك امة محمد فالهمت موسى من الخير الذي
اعطاه الله محمدا وامته قال يا ليتني من اصحاب محمد فاوحى الله تعالى اليه يا موسى اني
اصطفيتك الى اخره فرضي موسى كل الرضى ومعنى بقوة اي بجد وعزيمة وامر قومك يأخذوا
بأحسنها فان قيل ظاهر هذا يقتضي ان فيه ما ليس بحسن وانه لا يجوز لهم الاخذ به وذلك
مستناقض واجيب عن ذلك باجوبة الاول ان تلك التكاليف منها ما هو حسن ومنها ما هو
احسن كالاقتصاص والعفو والانتصار والصبر فحرم ان يحملوا انفسهم على الاخذ بما هو اقل
في الحسن وكذا في الثواب كقوله تعالى واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم وقوله تعالى الذين يستمعون
القول فيتبعون احسنه هذا ما اجاب في الكشاف وتبعه البيضاوي والامام الرازي لكن قال
القفال في هذا نبأ عما تقدم من ان المكتوب على بني اسرائيل هذه الفضائل قطعا والجواب انه
مثال للجنس والاحسن لا كونه في التوراة بعينه جدا فان قيل يلزم عليه ايضا منع الاخذ بالحسن
وذلك يقدح في كونه حسنا اجيب عن هذا بان الاخذ بالاحسن على سبيل الندب فلا يقدح
في منع الاخذ بالحسن الثاني ان الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح والاحسن هو لا
الثلاثة الواجب الثالث ان المراد بالاحسن البالغ في الحسن مطلقا لا بالاضافة وهو المأمور
به كقولهم الصيف احر من الشتاء اي وصيف احر ابلغ من الشتاء في برده فكذا هنا المأمور به
ابلغ في الحسن من المنهي عنه في القبح سأريكم دار الفاسقين اي دار فرعون وقومه والقرون
الذين اهلكهم الله لفسقهم في عصرهم على ما سنعادكم وقيل المراد منازل عاد وثمود وسبا بمصر
كيف اقفرت منهم ودمرت لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل
ما نكل بهم وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين اهلكهم الله لفسقهم في عصرهم على ما سنعادكم
وقيل المراد دار ابليس في الاخرة وهي جهنم سأصرف عن آياتي المنصوبة في الافاق والانفس
كخلق السموات والارض وما بينهما الذين يتكبرون في الارض اي اصرفهم عنها بالطبع
على قلوبهم فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها وقال سفيان بن عيينة سأمنعهم فهم
القرآن وقوله تعالى بغير الحق صلة يتكبرون اي يتكبرون على الناس بغير حق وهو دينهم الباطل
فان الظلم والكبر على الغير قد يكون بالحق فان للمحق ان يتكبر على المبطل وفي الكلام تنبيه
التكبر على المتكبر صدقة وان يروا كل اية اي معجزة لا يؤمنوا بها اي لعنادهم
وتكبرهم وان يروا سبيل الرشد اي الهدى الذي هو عند الله تعالى لا يتخذوه سبيلا
اي طريقا يسلكونه بقصد منهم ونظر وتدبر ان يسلكوه فمن غير قصد وقرأ حمزة والكسائي
بفتح الراء والشين والباقون بضم الراء وسكون الشين وان يروا سبيل الغي اي الضلال
يتخذوه سبيلا اي لغاية الشهوة والتعمد والاعتماد تسلوكه ذلك اي هذا الصرف العظيم
الذي هو ازعن مطلق الصرف بالعمى عن الايمان واتخاذ الضلالة بأنهم اي بسببهم انهم
كانوا اي الدالة على وجدانهم كذا عنها غافلين اي كانوا يمرون معاملتهم
اياها بالاعراض عنها حتى كانها مغفول عنها فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها غفلة وانهماكا

فيها يشغلهم عنها من شهواتهم وعن الفضيلين عبادتهم ذكرنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انا عظمت
امتي الدنيا نزع عنها هيبة الاسلام واذا تركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت عليهم بركة
الوحي وايذن بحلول النقم وانقطاع النعم ايكذبوا بلقاء الله بالدار الآخرة التي هي موعد الثواب
والعقاب فهي من اضافة المصدر الى المفعول به ويجوز ان يكون من اضافة المصدر الى الظرف
بمعنى ولقاء ما وعد الله في الآخرة حبطت اي بطلت عملهم اي ما عملوه في الدنيا من خير كصلة رحم
وصدقة فلا ثواب لهم لعدم شرطه هل اي ما يجزون الا جزاء ما كانوا يعملون اي من التكذيب
والمعاصي واتخذ قوم موسى من بعده اي من بعد ذهابه الى المناجاة من حليهم اي التي استعاروها
من القبط بسبب عرس فبقي عندهم فان قيل كيف قال من حليهم وكان نقدهم فالجواب
بانه لما اهلكهم الله تعالى وقسم فرعون فغنت تلك الاموال في ايديهم وصارت ملكا لهم
كغنايم املاكهم بدليل قوله تعالى كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة
كانوا فيها فاكهين كذلك واورثناها قوما اخرين وقرا حمزة والكسائي بكسر الحاء والباقون
بضمها عجلا اي صاغه لهم منها السامري وقوله تعالى جسدا بدل منه اي صار بدنا ذا لحم ودم
له خوار اي صوت البقر روي ان السامري لما صاغ العجل القى في فمه قبضة من تراب
اثر فرس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر فصار حيا له خوار وقيل صاغه بنوع من الحيل فدخل
الريح جوفه ويخرج وانما نسب الاتخاذ اليهم وهو فعله اما لانهم رضوا به او لان المراد اتخاذهم
اياه الها وقيل انه ما خار الا مرة واحدة وقيل انه كان يخور كثيرا فاذا خار سجدوا واذا
سكت رفعوا رؤوسهم وقال وهب كان يسمع منه الخوار وهو لا يتحرك وقال السدي كان
يخور ويمشي وقوله تعالى ألم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا توبيخ عاجل وتسفيه
واخلال بالنظر لان هذا العجل لا يمكنه ان يتكلم بصواب ولا يهدي الى رشد ولا يقدر على ذلك
ومن كان كذلك كان جمادا او حيوانا ناقصا عاجزا وعلى كلا التقديرين لا يصلح ان يعبد
ثم وصفهم الله تعالى بالظلم بقوله اتخذوه اي العجل الها وكانوا ظالمين اي واضعين الاشياء
في غير موضعها فلم يكن اتخاذ العجل ببعض منهم ولا اول من اكبرهم واختلفوا هل كل قوم موسى
عبدوا العجل او بعضهم قال الحسن كلهم عبدوا العجل غير هارون واجتمع عليه بوجهل
الاول عموم هذه الآية والثاني قول موسى عليه السلام في هذه القصة رب اغفر لي ولاخي
قال خص بعضه واخاه بالدعاء وذلك يدل على ان من كان بمقابلة ما كان اهلا للدعاء
ولو بقوا على الايمان لما كان الامر كذلك ولقال العذر بل كان قد بقي من بني اسرائيل من ثبت على
ايمانه وان ذلك الكفر انما وقع في قوم مخصوصين والدليل عليه قوله تعالى ومن قوم موسى
امة يهدون بالحق وبه يعدلون ولما سقط في ايديهم اي ولما ندموا على عبادة العجل
تقول العرب لكل نادم على امر قد سقط في يده وذلك لان من شان من اشتد ندمه
على امر ان يعض يده ثم يضرب بخبر فتصير يده ساقطة لان السقوط عبارة عن المرور
من اعلى الى اسفل ورأوا اي علموا انهم قد ضلوا عن الطريق الواضح باتخاذ العجل قالوا توبة
ورجوعا الى الله تعالى كما قال ابو بهم ادم عليه الصلاة والسلام لئن لم ترحمنا ربنا الذي لم يقطع
فضل احسانه عنا فيكف عضه وبديم احسانه وتغفر لنا اي يحدث توبتنا عيبنا وانت
ليلا تتمم منا في المستقبل لنكونن من الخاسرين اي فيتم منا بذنوبنا وهذا كلام
من عرف تعظيم ما تقدم عليه من الذنب وندم على ما صدر منه ورغب الى الله تعالى في ان قال

عشرته وانما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه السلام اليهم كما قال تعالى ولما رجع موسى اي من
مناجاته الى قومه غضبان اي من جهتهم اسفا لان الله تعالى كان قد اخبره انه قد فتن قومه
وان السامري قد اضلهم فكان موسى في حال رجوعه غضبان اسفا قال ابو الدردا الاسف
اشد الغضب وقال ابن عباس الاسف الحزن والاسيف الحزين قال الواحدي والقولان
متقاربان لان الغضب من الحزن والحزن من الغضب وقرا حمزة والكسائي بالخطاب
في ترحمنا وتغفر لنا وتصبر بنا والباقون بالغيبة ورفع اليا قال موسى لهم بئسما
خلفتموني من بعدي اي بئس الفعل فعلتم بعد فراقي اياكم وهذا الخطاب يحتمل ان يكون لعبدة
العجل من السامري واتباعه اي بئسما خلفتموني حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة
الله وان يكون لهرون والمومنين اي بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوهم من عبادة غير
الله تعالى والمخصوص بالذم محذوف تقديره بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم
فائدة اتفقوا على وصل بئسما هنا في الرسم اعجلتم امر ربكم اي اتركتموه غير تام كانه
ضمن عجل معنى سبق فعدي تعديته او اعجلتم وعد ربكم الذي وعدنيه من الاربعين
وقدرتم موتي وغيرتم بعدي كما غيرت الامم بعد انبيائهم روي ان السامري قال لهم اخرج
لهم العجل وقالوا هذا الهكم واله موسى ان موسى لن يرجع وانه قد مات وروي انهم عدوا
عشرين يوما بلياليها فجعلوها اربعين ثم احدثوا ما احدثوا والقى الالواح اي الواح التورية
اي طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر اي عند استماعه حديث العجل حمية للدين وكان
في نفسه حديدا شديد الغضب روي ان التورية كانت سبعة اسباع في سبعة الواح فلما
القاها انكسرت فرفع ستة اسباعها اي ستة اسباع ما فيها لا ستة اسباعها نفسها لقوله تعالى
بعد واخذ الالواح وكان فيها تفصيل كل شي وبقي سبع فرفع ما كان من اخبار الغيب وبقي
ما فيه المواعظ والاحكام والحلال والحرام قال الرازي ولقائل ان يقول ليس في القران الا
اية القى الالواح فاما اية القاها بحيث تكسرت فهذا ليس في القران وانه جراة عظيمة
على كتاب الله تعالى ومثله لا يليق بالانبيا واخذ براس اخيه اي بشعر راسه بيمينه وبشعر لحيته
بشماله يجره اي اخاه اليه غضبا وكان هارون عليه السلام اكبر من موسى بثلاث سنوات
واحب الى بني اسرائيل من موسى عليه السلام لانه كان الين منه جانبا فقال هارون عند ذلك يا ابن
ام قرا ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بكسر الميم واصله يا ابن امي فحذف اليا اكتفا بالكسرة
تخفيفا كالمنادى المضاف الى اليا والباقون بالنصب زيادة في التخفيف لطوله او تشبيها
بخمسة عشر فان قيل هارون وموسى من اب وام فلماذا ناداه بالام فقط اجيب بانه
انما ذكرها لانها كانت مومنة عند نفسها ولانها التي قاست هذه المخاوف والشدائد
فذكره بحقها ليرتقه عليه والطاعنون في عصمة الانبيا يقولون اخذ براس اخيه يجره على
سبيل الاهانة والاستخفاف والمثبتون لعصمة الانبيا قالوا جر راس اخيه الى نفسه
يساره ويستكشف منه كيفية تلك الواقعة فان قيل فلماذا قال يا ابن ادم ان القوم
اي الذين عبدوا العجل استضعفوني اي فيما قد بذلت وسعي في كفهم فاستذلوني وقهروني
وكادوا اي قاربوا يقتلونني فلا تشمت بي الاعدا اي فلا تفعل بي ما يشتموني لاجله واصل
الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك يقال شمت فلان بفلان اذا سر بمكروه نزل به
اي لا تسر الاعدا بما تنال مني من مكروه اجيب بان هارون انما قال ذلك خوفا من ان يتوهم

جهال بني اسرائيل ان موسى غضبان عليه كما انه غضبان على عبدة العجل فلا تفعل بي ما تشمت
به اعدائي فيهم اعداؤك فان القوم يحملون هذا الفعل الذي تفعله بي على الاهانة لاعلى
الاكرام **وكذلك نجزي القوم المفترين** اي الذين عبدوا العجل مع براءتنا منهم بالمباعدة او
بشبهة التقصير ولما اعتذر اليها خوه وذكر له شماتة الاعداء **قال رب اغفر لي** اي ما
حملني عليه الغضب مما صنعت باخي **ولاخي** اي اغفر له ما فرط في كفهم عن عبادة العجل
ان كان وقع منه تفريط وضمه الى نفسه في الاستغفار ترضية له ودفعا للشماتة عنه
وادخلنا في رحمتك مزيدا لانعامك علينا **وانت ارحم الراحمين** فانت ارحم بنا منا على انفسنا
قال الله تعالى **ان الذين اتخذوا العجل** اي الها يعبدونه من دون الله فهذا هو المفعول الثاني
من مفعولي الاتخاذ **سينالهم غضب** اي عقوبة **من ربهم وذلة في الحياة الدنيا** وهي خروجهم
من ديارهم والمفترين هذه الاية ظرفيات الاولى ان المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا
عبادة العجل فان قيل اوليس قد تاب الله عليهم بسبب ان قتلوا انفسهم في معرض التوبة
على ذلك الذنب فاذا تاب الله عليهم فكيف يناله الغضب والذلة اجيب بان ذلك الغضب
انما حصل لهم في الدنيا وهو نفس القتل لان ذلك القتل عضا عليهم والمراد بالذلة هو
استسلامهم انفسهم للقتل واعترافهم على انفسهم بالضلال والخطا وقيل اخرجوا من ديارهم
لان ذل الغربة مثل المضروب فان قيل التي في قوله سينالهم للاستقبال فكيف تكون
للماضي اجيب بان هذا انما هو خبر عما اخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين اخبره بافتتان
قومه واتخاذهم العجل ثم اخبر الله تعالى في ذلك الوقت انه سينالهم غضب من ربهم
وذلة فكان هذا الكلام سابقا للوقت وهو القتل الذي امر به الله تعالى به بقوله فاقتلوا
الثاني ان المراد بالذين اتخذوا العجل الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فوصف
اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل وان كان ما فعل ذلك الا اباؤهم
لانهم رضوا بفعلهم لان العرب تعير الابناء بقبائح افعال الاباء كما تفعل ذلك في المثالب يقولون
للامر افعلتم كذا وكذا وانما فعل ذلك من مضى من اباءهم ثم حكم عليهم بانهم سينالهم
غضب من ربهم في الاخرة وذلة في الحياة الدنيا كما قال تعالى في صفتهم **وضربت عليهم الذلة**
والمسكنة **وكذلك** اي كما جزيناهم **نجزي المفترين** اي كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله
في الاخرة والذلة في الدنيا قال مالك بن انس ما من مبتدع الا ويجد في قلبه ذلة ثم قرا
هذه الاية لان المبتدع مفتر في دين الله **والذين عملوا السيئات** اي عملوا الاعمال السيئة
ويدخل في ذلك كل ذنب حتى الكفر **ثم تابوا** اي رجعوا عنها الى الله تعالى **من بعدها** اي بعد
اعمالهم السيئة **وامنوا** اي وصدقوا بالله تعالى بانه لا الهة غيره وانه يقبل توبة التائب
ويغفر الذنوب **ان ربك** اي يا محمد او يا ايها الانسان التائب **من بعدها** اي التوبة
لغفور اي يستر عليهم ما كان منهم لهم **رحيم** بهم اي يصنع عليهم بالجنة وفي الاية دليل
على ان التائب اذا عاد الى ذنبه بعد توبته فان الله تعالى يغفر ذنوبه السالفة والحادثة
ورحمته فان عفوه وكرمه اعظم واجل وهذا من اعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين
التائبين او تقدير الاية ان من اتى بجميع السيئات ثم تاب الى الله تعالى واخلص التوبة فان
الله تعالى يغفرها له ويقبل توبته **ولما سكت** اي سكن **عن موسى الغضب** اي عما عند ذهابه
اوبتوبتهم فعند ذلك سكن غضبه وهو الوقت الذي قال رب اغفر لي ولاخي وفي هذا

الكلام استعارتان استعارة بالكناية في الغضب عن الشخص الناطق واستعارة تصريحية
او تخييلية في السكوت عن ظفر موسى وسكون هيجانه وغليانه وقال عكرمة ان المعنى سكت موسى
عن الغضب فقلت كما قالوا ادخلت القلنسوة في راسي والمعنى ادخلت راسي في القلنسوة
أخذ الألواح اي وكما دعا لاخيه منبها بذلك على زوال غضبه عليه فكذلك اخذ الالواح التي
القاها منبها على زوال غضبه قال الامام الرازي وظاهر هذا يدل على ان شيئا منها لم ينكسر
ولم يبطل وان الذي قيل من ان ستة اسباع التورية رفعت السماء ليس الامر كذلك ومرت
الاشارة الى ما يدل على الجمع بين هذا وبين ما مر وفي نسختها اي ما نسخ فيها اي كتب والنسخ عبارة
عن النقل والتحويل فاذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نسخت ذلك الكتاب
فهو نقلك ما في الاصل الى الفرع لان الالواح نسخت من اللوح المحفوظ والنسخة فعلة بمعنى مفعول
كالخطبة وقيل ان موسى عليه السلام لما القى الالواح تكسرت فنسخ منها نسخة اخرى وقال ابن
عباس لما القى موسى عليه السلام الالواح فتكسرت صام اربعين يوما فردت عليه في لوحين
وعلى قول من قال ان الالواح لم تكسر واخذها موسى بعينها بعد ما القاها يكون المعنى وفي نسختها
اي المكتوب فيها هدى اي بيان للحق ورحمة اي ارشاد الى الصلاح والخير وقال ابن عباس
هدى من الضلالة ورحمة من العذاب لربهم يرهبون اي يخافون فان قيل التقدير الذين
يرهبون ربهم فما الفائدة في اللام في قوله لربهم اجيب باوجه الاول ان تاخير الفعل
عن مفعوله يكسبه ضعفا فدخلت اللام للتقوية ونظيره قوله تعالى للرؤيا تعبرون الثاني
انها لام اجل والمعنى الذين هم لاجل ربهم يرهبون لا رياء ولا سمعة الثالث انه قد زاد حرف
الجر في المفعول وان كان الفعل متعديا كقولك قرات السورة وقرات بالسورة واختار موسى
قومه اي من قومه فحذف الجار واوصل الفعل اليه فنصب يقال اخترت من الرجال زيدا واخترت
الرجال زيدا وانشدوا قول الفرزدق • ومنا الذي اختير والرجال سراحة وجودا اذا هب
الرياح الزعازع • قال ابو علي والاصل في هذا الباب من الافعال ما يتعدى الى المفعول
الثاني بحرف الجر ثم يتسع فيحذف حرف الجر فيتعدى الى المفعول الثاني من ذلك قولك
اخترت من الرجال زيدا ثم يتسع فيقال اخترت الرجال زيدا واستغفر الله من ذنبي
واستغفر الله ذنبي قال الشاعر استغفر الله ذنبا لست محصيه ويقال امرت زيدا
بالخير وامرت زيدا الخير قال الشاعر امرت الخير فافعل ما امرت به قال الرازي وعندي
فيه وجه اخر وهو ان يكون التقدير واختار موسى قومه لميقاتنا واراد بقومه المعتبرين
منهم اطلاقا لاسم الخبر على ما هو المقصود منهم سبعين رجلا لميقاتنا عطف بيان
وعلى هذا الوجه فلا حاجة الى ما ذكره من التكليفات فلما اخذتهم الرجفة روي انه تعالى
امره ان ياتيه في سبعين من بني اسرائيل فاختار من كل سبط ستة فزاد اثنان فقال لتتخلف
منكم رجلان فيتشاجرا فقال لمن قعد اجر من خرج فقعد كالب ويوشع وذهب مع الباقين
وروي انه لم يصب الا ستين شيخا فاوحى الله تعالى اليه ان يختار من الشبان عشرة فاختارهم
فاصبحوا شيوخا وقيل كانوا ابناء ما عدا العشرين ولم يتجاوزوا الاربعين فذهب عنهم
الجهل والصبا فامرهم موسى عليه السلام ان يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ثم خرج
بهم الى طور سينا لميقات ربه وكان امره ان ياتيه في سبعين من بني اسرائيل فلما دنى موسى
من الجبل وقع عليه عمود من الغمام حتى غشي الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم

وقوله

ادنوا وكان موسى عليه السلام اذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع احد من بني
ادم ان يحيط اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى دخلوا في الغمام ووقعوا سجدا فسمعوه
يكلم موسى يامره وينهاه افعل لا تفعل فلما فرغ من امره ونهيه وانكشف عن موسى الغمام
فاقبل اليهم فقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتهم الصاعقة وهي الرجفة
فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه قال رب لو شئت اهلكتهم من قبل
واياي معهم فلا تهلكنا بما فعل السفهاء منا اذ لك ولاية هي ان اذا رجعت من قبل خرورجهم
الى المنقلب اليهم وتمانيهم معي اذ عنى بذلك انك قدرت على اهلاكهم قبل ذلك عمل فرعون
على اهلاكهم وباغراقهم في البحر وغيرهما فترحمت عليهم بالانقاذ منه فان ترحمت عليهم
مرة اخرى لم يعد من عجمهم احسانك وقال وهب لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم
لما راوا تلك الهيئة اخذتهم الرجفة حتى كادت ان تبين منهم مفاصلهم فلما راى ذلك موسى
رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد عليه فقدهم وكانوا لم يزالوا على الخير سامعين مطيعين
فعند ذلك دعا وبكا وناشد ربه فكشف الله تعالى عنهم تلك الرجفة واطمانوا وسمعوا
كلام ربهم وذلك قوله تعالى قال اي موسى رب لو شئت اهلكتهم من قبل اي من قبل اذ عبادة
العجل واياي تعني القبطي اتهلكنا بما فعل السفهاء منا اي عبدة العجل وظن موسى انهم عوتبوا
باخذ بني اسرائيل العجل وقال هذا على طريق السؤال وقال المبرد حرف استفهام استفهم
اي لا تهلكنا وقد علم موسى عليه السلام ان الله تعالى اعدل من ان ياخذ بجريرة الجاني غيره
وقيل بما فعل السفهاء من العناد والتحاسر على طلب الرؤية وكان ذلك قالم بعضهم وقولهم
ان اي ما هي الا فتنتك قال الواحدي الكناية في هي ترجع الى القصة كما تقول انه هو الا زيد
والمعنى ان تلك القصة التي وقع فيها السفهاء لم تكن الا فتنتك اي اختبارك وابتلاؤك
وهذا تاكيد لقوله اتهلكنا بما فعل السفهاء منا لان معناه لا تهلكنا بفعلهم فان تلك
الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء اضللت بها قوما فاستنوا بان اوحدت في العجل
خوارا فراعوه اذا سمعتهم كلامك حين طمعوا في الرؤية وهديت قوما فعصمتهم حتى
ثبتوا على دينك فذلك معنى قوله تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء ولما اثبت ان الكل بيده
تعالى استانف سوال من يتعلل بهذا الاصل فقال انت اي وحدك ولينا اي نعتقد
انه لا قدرة على عمل مصالحنا غيرك وانت لا تفعل لك في شيء من الامرين ولا غرض الا الكل بالنسبة
اليك على حد سواء ونحن على بصيرة من ان افعالك لا تعلل بالاغراض معقول عنا
ينفعنا واتقاءك يضرنا ونحن لا حجر لك قد انقطعنا اليك وحططنا رحال
افتقارنا لديك فاغفر لنا اي امح ذنوبنا وارحمنا اي واشملنا برحمتك التي وسعت كل شيء
وانت خير الغافرين اي لان غيرك يتجاوز عن الذنب طلبا للثناء او الثواب او دفعا
للصفة الخسيسة وهي صفة الحقد ونحوه وانت منزه عن ذلك فتغفر السيئة وتبدلها
بحسنة واكتب اي اوجب واثبت لنا اي بمسدة اجابتك لنا في هذه الدنيا اي
الحافرة والدنية حسنة اي حسن عيشة وتوفيق طاعة وفي الاخرة اي واكتب لنا في الجنة
الاخرة حسنة وهي الجنة تمم علينا ذلك بقولنا انا هدنا اي تبنا اليك اي عملا لا يليق بجنابك
واصل الهود الرجوع برفق والهود جمع هائد وهو التائب وبعضهم يراكب هذه هذه
وانجد كانه هذه هذه قال بعضهم وبه سميت اليهود وكان اسم مدح قبل نسخ شريعتهم

ثم صار

ثم صار ذم بعد نسخها قال الله تعالى لموسى عذابي أصيب به من أشاء من خلقي أذنب أو لم يذنب
لا اعتراض علي ورحمتي وسعت أي عمت وشملت كل شيء من خلقي في الدنيا ما من مسلم ولا كافر ولا
مطيع ولا عاصي إلا وهو متقلب في نعمتي وهذا معنى حديث أبي هريرة في الصحيحين إن رحمتي سبقت
وفي رواية غلبت غضبي وأما في الآخرة فقال تعالى فسأكتبها للذين يتقون الله ويؤتون الزكاة
وخصها بالذكر لنفعها المتعدي ولأنها كانت أشق عليهم قال قتادة لما نزل ورحمتي وسعت
كل شيء قال إبليس أنا من ذلك الشيء فقال تعالى فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين
هم بآياتنا يؤمنون ولا يكفرون بشيء منها لأن جميع التكاليف محصورة في نوعين النوع الأول
التروك وهي الأشياء التي يجب على الإنسان تركها والاحتراز عنها ولا يقربها وإليه الإشارة بقوله
الذين يتقون والثاني الأفعال المأمور بها وتلك الأعمال بدنية أو قلبية أما البدنية فإليه الإشارة
بقوله ويؤتون الزكاة وهذه وإن كانت في حق المال لكن يختص البدن بإخراجها وأما الأعمال
القلبية فالإيمان والمعرفة وإليه الإشارة بقوله والذين هم بآياتنا يؤمنون فأيس إبليس منها
وتمناها اليهود والنصارى وقالوا نحن نتقي ونؤمن بآيات ربنا فأخرجهم الله تعالى بقوله
الذين يتبعون الرسول النبي الأمي وإنما سماه رسولا بإضافته إلى الله عز وجل لأنه الواسطة
بين الله تعالى وبين خلقه لرسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ونبيا لأنه رفيع الدرجة
عند الله تعالى ثم وصفه بالأمي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ وهي صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
قال صلى الله عليه وسلم أنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون
ولا يقرأون أي الخط والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك قال أهل التحقيق وكونه أميا بهذا
التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه الأول أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ
عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته والخطيب
من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير
ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ يتلو كتاب الله تعالى من غير زيادة
ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات وإليه الإشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى
الثاني أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متهما في أنه ربما طالع كتب الأولين فجعل هذه العلوم
من تلك المطالعة فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا
مطالعة كان ذلك من المعجزات وهذا هو المراد من قوله تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب
ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون الثالث أن تعلم الخط شيء سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة
يتعلمون الخط بأدنى سعي فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم ثم إنه تعالى أتاه
علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من الخلق ومع
تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل
الخلق عقلا وفهما كان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين
وذلك من الأمور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات وهذا الاتباع تارة يكون بالقوة
فقط لمن تقدم موته على زمانه صلى الله عليه وسلم وتارة يخرج من القوة إلى الفعل ممن لحق
زمان دعوته فمن علم الله تعالى منه أنه لا يتبعه إذا أدركه لا يغفر له ولو عمل جميع الطاعات
غير ذلك وعرفهم لهم بجميع خواصه حتى لا يتطرق إليه عند مجيئه ريب ولا يتعلل في أمره بعلة
ولذلك اتبعه بقوله الذي يجدونه أي علماء بني إسرائيل مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل

باسمه ونعته ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسدا منهم وخوفا على زوال رياستهم وقد
حصل لهم ما كانوا يخافونه فقد زالت رياستهم ووقعوا في الذل والهوان وعن عطا بن يسار
قال لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله تعالى عنهما فقلت اخبرني عن صفة رسول
الله صلى الله عليه وسلم في التورية فقال اجل انه الموصوف في التورية ببعض صفته في القران
يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين انت عبدي ورسولي سميتك
المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن
يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العرجا بان يقولوا لا اله الا الله ويفتح
به اعينا عميا واذانا صما وقلوبا غلفا شرح غريب الفاظه الفظ السيء الخلق والغليظ
الجافي القاسي والسخاب بالسين والصاد الكثير الصياح والاعوجاج ضد الاستقامة
والملة العرجا الكفر والقلب الاغلف الذي لا يصل اليه شيء ينفعه كانه في غلاف وقوله
تعالى يأمرهم بالمعروف قال الزجاج يجوز ان يكون استينافا ويجوز ان يكون المعنى يجدونه
مكتوبا عندهم انه يامرهم بالمعروف قال الرازي ومجامع الامر بالمعروف في قوله عليه
الصلاة والسلام التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وذلك لان الموجود
اما واجب الوجود لذاته واما ممكن لذاته اما الواجب لذاته فهو الله تعالى ولا معروف
اشرف من تعظيمه واظهار عبوديته واظهار الخضوع والخشوع على باب عزته والاعتراف
بكونه موصوفا بصفات الكمال مبرا عن النقائص والافات منزها عن الاضداد والانداد
واما الممكن لذاته فان لم يكن حيوانا فلا سبيل الى ايصال الخير اليه لان الانتفاع مشروط
بالحياة ومع ذلك فانه يجب النظر الى كلها بعين التعظيم من حيث انها مخلوقة لله تعالى ومن
حيث ان كل ذرة من ذرات المخلوقات لما كانت دليلا قاهرا وبرهانا باهرا على توحيده
وتنزيهه فانه يجب النظر اليه بعين الاحترام ومن حيث ان الله تعالى في كل ذرة من ذرات
المخلوقات اسرارا عجيبة وحكما خفية فيجب النظر اليها بعين الاحترام واما ان كان ذلك
المخلوق من جنس الحيوان فانه يجب اظهار الشفقة عليه باقصى ما يقدر الانسان عليه ويدخل
فيه بر الوالدين وصلة الارحام وبث المعروف فثبت ان قوله صلى الله عليه وسلم التعظيم
لامر الله والشفقة على خلق الله كلمة جامعة لجميع جهات الامر بالمعروف وينهاهم عن المنكر
وهو اضداد الامور المذكورة وقال عطا يامرهم بالمعروف بخلع الانداد وبمكارم الاخلاق
وبصلة الارحام وينهاهم عن المنكر عبادة الاوثان وقطع الارحام ويحل لهم الطيبات اي ما
حرم عليهم من شرعهم كالشحوم ويحرم عليهم الخبائث كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ويضع
عنهم اصرهم اي ثقلهم الذي كان يحمل عليهم وقرا ابن عامر بفتح الهمزة الممدودة والصاد والف
بعد الصاد على الجمع والباقون بكسر الهمزة وسكون الصاد ولا الف بعدها على التوحيد والاغلال
التي كانت عليهم اي وقطع الاثقال والشدايد التي كانت عليهم من الدين والشريعة وذلك
مثل قتل النفس في التوبة وقطع الاعضا الخاطية وفرض النجاسة من البدن والثوب
بالمقراض وغير ذلك من الشدايد التي كانت على بني اسرايل شبهت بالاغلال مجازا لان
التحريم يمنع من الفعل وقيل شبهت بالاغلال التي تجمع اليد الى العنق كما ان اليد لا تمتد
مع وجود الغل فكذلك لا تمتد الى الحرام التي نهيت عنه وكانت هذه الاثقال في شريعة
موسى عليه السلام فلما جا محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله صلى الله

عليه

عليه وسلم بعثت بالحنيفية السهلة السمحة فالذين آمنوا به اي بمحمد صلى الله عليه وسلم وعزروه
اي وقروه وعظموه واصل التعزير المنع والنصرة وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه
واجلاله ودفع الاعداء عنه ونصروه على اعدائه واتبعوا النور الذي انزل معه اي القرآن سمي نورا
لان به يستنير قلب المؤمن فيخرج من ظلمات الشك والجهالة الى ضياء اليقين والعلم وقيل
الهدى والبيان والرسالة وقيل الحق الذي بيانه في القلوب كبيان النور فان قيل كيف يمكن حمل
النور هنا على القرآن والقرآن ما انزل مع محمد وانما انزل مع جبريل اجيب بان معناه
انه نزل مع نبوته لان نبوته ظهرت مع ظهور القرآن ثم انه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال
اولئك هم المفلحون اي الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة ولما تم ما نظمه تعالى في اثناء هذه
القصص من جواهر اوصاف هذا النبي الكريم حثا على الايمان به وايجابا له على وجه يعلم منه انه
رسول الله الى كل مكلف تقدم زمانه او تأخر قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم الخطاب
عام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا الى كافة الثقلين بل والى الملائكة كما
قاله السبكي واما سائر الرسل والبقاعي وغيرهما وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه
وسلم وان خالف في ذلك بعضهم واما سائر الرسل فمبعوثون الى اقوامهم فقط لقوله
صلى الله عليه وسلم اعطيت خمسا لم يعطهن احد قبلي ارسلت الى الاحمر والاسود وجعلت
لي الارض طيبة مسجدا وطهورا ونصرت على عدوي بالرعب يرعب مني مسيرة شهر واطعمت الغنيمة
دون من قبلي وقيل لي سل تعطه فاخبأتها شفاعتي لامتي فان قيل كان آدم مبعوثا الى جميع
اولاده ونوح لما خرج من السفينة كان مبعوثا الى الذين كانوا معه مع جميع الناس في ذلك
الزمان فما كان الا ذلك القوم اجيب بان ذلك لم يكن لعموم رسالتهما بل للحصر المذكور فليس
ذلك من باب عموم الرسالة وقوله جميعا حال من اليكم اي ان الكل يشترط عليهم الايمان
بي والاتباع لي وقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم الى كل افق وتغلل في كل نفق
ولم يبق الله اهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر في مشارق الارض ومغاربها
الا وقد القاه اليهم وملأ به مسامعهم والزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة وفي
الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه حين رفع اليه الذراع فنهش منها فقال
انا سيد الناس يوم القيامة وعن جابر رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال انا اول الناس خروجا اذا بعثوا وانا قائدهم اذا وفدوا وانا خطيبهم اذا انصتوا
وانا مستشفعهم اذا حبسوا وانا مبشرهم اذا ايسوا لواء الحمد يومئذ بيدي وانا اكرم ولد
آدم على ربي ولا فخر وعن ابي بن كعب رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا كان
يوم القيامة كنت امام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر وعن ابن عباس رضي
الله تعالى عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الا وانا حبيب الله ولا فخر وانا حامل لواء الحمد
يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر وانا اول شافع واول مشفع يوم القيامة
ولا فخر وانا اكرم الاولين والآخرين ولا فخر وعن ابي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال انا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد
ولا فخر وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه الا تحت لوائي والفخر ادعاء العظمة والكبر والشرف
اي لا اقوله تبجحا ولكن شكرا وتحدثا بالنعمة وما اجتمع بهم في مجمع الا كان امامهم
قبل موته وبعده اجتمع بهم ليلة الاسراء في بيت المقدس فصلى بهم اماما ثم اجتمع بهم

في السما فصلى بجميع اهل السما اماما واما يوم الجمع الاكبر والكرب الاعظم فيحيل الكل عليه وما
احال بعض الاكابر على بعض الاعلما منهم بان الختام يكون به ليكون اظهر للاعتراف بامامته
والانقياد لطاعته لان المحيل على المحيل على الشي محيل على ذلك الشي والحاصل انه صلى الله عليه
وسلم تظهر في ذلك الموقف رسالته بالفعل الى الخلق كافة فيظهر سر هذه الاية الذين يتبعون
الرسول قال البقاعي ولما دل بالاضافة الى اسم الذات ما يدل على جميع الصفات على عموم دعوته
وشمول رسالته حتى للجن والملايكة ابدا ذلك بقوله الذي له ملك السموات والارض فيكون
محله جرا على الوصف وان حيل بين الصفة والموصوف بقوله اليكم جميعا لانه متعلق المضاف فهو
كالمتقدم عليه قال الزمخشري والاحسن ان يكون محله نصبا باضمار اعني وهو الذي يسمى النصب
على المدح قال البيضاوي او مبتدا خبره لا اله الا هو اي فالكل منقادون لامره خاضعون
له ثم علل ذلك بقوله يحيي ويميت اي له هاتان الصفتان مختصا بهما ومن كان كذلك
كان منفردا بما ذكر قال البقاعي واذا راجعت ما ياتي ان شا الله تعالى في اول الفرقان مع
ما مضى في اوايل الانعام لم يبق عندك شك في دخول الملايكة عليهم السلام في عموم الدعوة
انتهى وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما امر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بان يقول
للناس اني رسول الله اليكم جميعا امر الله تعالى جميع خلقه بالايمان به وبرسوله بقوله
فامنوا بالله ورسوله وذلك ان الايمان بالله هو الاصل والايمان برسوله فرع عليه فلهذا
بدا بالايمان بالله ثم ثنى بالايمان برسوله ثم وصفه تعالى بقوله النبي الامي وتقدم
معناهما الذي يؤمن بالله وكلماته اي بما انزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه
وقال قتادة المراد بكلماته القران وقال مجاهد عيسى بن مريم لانه خلق بقوله كن فكان
ولم يكن من نطفة تمنى ولهذا سمي كلمة الله وقيل هي الكلمة التي يكون عنها عيسى وجميع خلقه
وهي قوله كن واتبعوه اي واقتدوا به ايها الناس فيما يامركم به وينهاكم عنه لعلكم تهتدون اي
لكي تهتدوا وترشدوا جعل تعالى رجا الاهتدا اثر الايمان والاتباع تنبيها على ان من صدقه
ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعد في خطبة الضلالة ومن قوم موسى اي من بني اسرايل امة
اي جماعة يهدون بالحق اي يهدون الناس محقين او بكلمة الحق وبه اي الحق يعدلون
اي يحكمون والمراد بتلك الامة الثابتون على الايمان القايلون بالحق من اهل زمان موسى
عليه السلام اتبع ذكر المرتابين الكافرين من بني اسرايل بذكر اضدادهم كما هو عادة القران
تنبيها على ان تعارض الخير والشر وتزاحم اهل الحق والباطل امر مستمر وقيل الذين
اسلموا من اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام واصحابه
واعترض بانهم كانوا قليلين في العدد ولفظ الامة يقتضي الكثرة واجيب بانهم لما كانوا
مخلصين في الدين جاز اطلاق لفظ الامة عليهم كما في قوله تعالى ان ابراهيم كان امة قانتا
وقيل ان بني اسرايل لما قتلوا انبياهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطا تبرا سبط منهم
مما صنعوا واعتذروا وسالوا الله تعالى ان يفرق بينهم وبين اخوانهم ففتح الله تعالى
لهم نفقا في الارض فساروا فيه سنة ونصفا حتى خرجوا من وراء الصين وهم هناك حنفا
مسلمون يستقبلون قبلتنا وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان جبريل ذهب به ليلة الاسرا
نحوهم فكلمهم فقال لهم جبريل عليه السلام هل تعرفون من تكلمون قالوا لا قال هذا
محمد النبي الامي فامنوا به وقالوا يا رسول الله ان موسى عليه السلام اوصانا ان من ادرك

الصين

منكم

منكم احمد فليقرأ عليه مني السلام فرد محمد على موسى صلى الله عليه وسلم السلام ثم اقرأهم عشر
سور من القرآن نزلت بمكة ولم تكن فريضة نزلت غير الصلاة والزكاة وامرهم ان يقيموا
مكانهم وكانوا يسبتون فامرهم ان يجمعوا ويتركوا السبت لا يتظالمون ولا يتحاسدون
ولا يصل اليهم منا احد ولا الينا منهم احد قال بعض المحققين هذا القول ضعيف
اي وان كان البغوي صححه لوجوه الاول كونه اقرأهم عشر سور وقد نزل عليه اكثر من ذلك
وكان فرض الزكاة بالمدينة فكيف يامرهم بها وينهاهم قبل فرضها الثاني كون جبريل
ذهب به ليلة اسري به لم يرد بذلك نقل صحيح ولا رواه احد من ائمة الحديث الثالث
ان احدا منا لا يصل اليهم ولا يصل الينا منهم احد فمن الذي اوصل خبرهم الينا فثبت
بذلك بطلان هذا القول فان قيل ان ياجوج وماجوج قد وصل خبرهم الينا ولم يصل
خبرنا اليهم اجيب بالمنع فمن اين يعرف انه لم يصل خبرنا اليهم ثم قال فالمختار في تفسير
هذه الآية انها اما ان تكون قد نزلت في قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل
والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك واما ان تكون قد نزلت فيمن اسلم من اليهود على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام واصحابه وقطعناهم اي فرقنا بني اسرائيل
وقوله تعالى اثنتي عشرة حال وتانيثه حملا على الامة وقوله اسباطا بدل منه ولذلك
جمع اي قبائل والاسباط اولاد الولد وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولدا من ولد
يعقوب عليه السلام وقوله تعالى امما بدل بعد بدل او نعت لاسباطا وقطعناهم امما
لان كل سبط كان امة عظيمة وجماعة كثيرة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما
تؤمه الاخرى لا تكاد تأتلف واوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه اي حين استسقوه في التيه
اذ اضرب بعصاك الحجر فانبجست اي انفجرت والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة
يقال بجست الماء فانبجس اي فجرته فانفجر قاله الجوهري وعلى هذا التقدير فلا تباين بين
الانبجاس المذكور هنا وبين الانفجار المذكور في سورة البقرة وقال آخرون الانبجاس
خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة وطريق الجمع ان الماء ابتدأ بالخروج قليلا
ثم صار كثيرا وهذا الفرق مروي عن ابي عمرو بن العلاء فان قيل هلا قيل فضربه فانبجست
اجيب بانه انما حذفه للايماء على ان موسى لم يتوقف في الامتثال وان ضربه لم يكن مؤثرا
يتوقف عليه الفعل في ذاته منه اي من الحجر اثنتا عشرة عينا اي بعدد الاسباط
قد علم كل اناس اي كل سبط منهم مشربهم اي لا يدخل سبط على سبط في مشربهم وظللنا عليهم
الغمام اي في التيه من حر الشمس وانزلنا عليهم المن اي الترنجبيل والسلوى اي الطير
السماني بتخفيف الميم والقصر جعل الله ذلك طعاما لهم في التيه وقيل المن الخبز والسلوى
الادام وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السماني وخاصيته ان اكل لحمه يلين القلوب القاسية
يموت اذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى ان يسكن جزائر
البحر التي لا يكون فيها مطر ولا رعد الى انقضاء اوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينبش
في الارض كلوا اي وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم مما لم تعالجوه نوع معالجة وقوله
تعالى وما ظلمونا ولكن كانوا انفسهم يظلمون فيه حذف ترك ذكره للاستغناء عنه ودلالة
الكلام عليه تقديره ظلموا من طيبات ما رزقناكم فامتنعوا من ذلك وساموه وقالوا لن نصبر
على طعام واحد وسألوه غير ذلك لان المكلف اذا امر بشيء فتركه وعدل عنه الى غيره يكون عاصيا.

اقرأهم

BULAC

بفعله لكن فلهذا قال تعالى وما ظلمونا اي بشيء مما قابلوا فيه الاحسان بالكفران ولكن كانوا
انفسهم يظلمون بمخالفتهم ما امروا به وقد سبق تفسير هذه الاية في سورة البقرة واذ قيل لهم
اي واذكر يا محمد لقومك اذ قيل لبني اسرائيل اسكنوا هذه القرية اي بيت المقدس وكلوا
منها اي القرية حيث شئتم وقولوا امرنا حطة وادخلوا الباب اي باب القرية سجدا اي
سجودا تحيتا وقوله تعالى نغفر لكم خطاياكم قراءة نافع بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة
ممدودة وبعد الهمزة تاء مضمومة على الجمع وابن عامر كذلك الا انه يقصر الهمزة على التوحيد وابو
عمرو بفتح الخاء والطاء وبعد الطاء الف بعدها ياء وبعد الياء الف على وزن قضايا والباقون
بكسر الطاء بعدها همزة مفتوحة ممدودة بعدها ياء مكسورة سنزيد المحسنين اي بالطاعة ثوابا
فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فقالوا حبة في شعرة ودخلوا يزحفون على استاههم
اي ادبارهم فارسلنا عليهم رجزا اي عذابا من السماء بما كانوا يظلمون وهذه القصة ايضا قد
تقدمت في سورة البقرة لكن الفاظ هذه الاية تخالف الفاظ الاية المذكورة في سورة البقرة
من وجوه الاول انه قال هناك واذ قلنا ادخلوا هذه القرية وهنا قال واذ قيل لهم اسكنوا
هذه القرية والثاني انه قال هناك فكلوا بالفاء وهنا وكلوا بالواو والثالث انه قال هناك
رغدا واسقطه هنا والرابع انه قال هناك وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وقال هنا
على التقديم والتاخير والخامس انه قال هناك نغفر لكم خطاياكم وهنا قال نغفر لكم خطيئاتكم
والسادس انه قال هناك فانزلنا على الذين ظلموا وقال هنا فارسلنا عليهم وسنزيد المحسنين
وهنا حذف حرف الواو والسابع انه قال هناك فانزلنا على الذين ظلموا وهنا قال فارسلنا
عليهم والثامن انه قال هناك بما كانوا يفسقون وقال هنا بما كانوا يظلمون بين هذه الالفاظ
المختلفة اما الاول وهو انه قال هناك ادخلوا هذه القرية وقال هنا اسكنوا فلا
منافاة بينهما لان كل ساكن في موضع لا بد من الدخول فيه واما الثاني وهو قوله
هناك فكلوا بالفاء وقال هنا وكلوا بالواو فالفرق بينهما ان الدخول حالة مقتضية
للاكل عقب الدخول فحسن دخول الفاء التي هي للتعقيب ولما كان السكن حالة استمرار حسن
دخول الواو عقب السكنى فيكون الاكل حاصلا متى شاء فظهر الفرق واما الثالث وهو انه
ذكر هناك رغدا واسقطه هنا ان الاكل عقب الدخول الذ واكمل واما الاكل مع السكنى والاستمرار
فليس كذلك فحسن دخول لفظة رغدا هناك بخلافه هنا واما الرابع وهو قوله هنا ادخلوا
الباب سجدا وقوله حطة وقال هنا على التقديم والتاخير فلا منافاة في ذلك لان المقصود
من ذلك تعظيم امر الله واظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم
والتاخير واما الخامس وهو انه قال هناك خطاياكم وقال هنا خطيئاتكم فهو اشارة الى
هذه الذنوب سواء كانت قليلة ام كثيرة فهي مغفورة عند الاتيان بهذا الدعاء
والتضرع واما السادس وهو قوله تعالى هناك وسنزيد بالواو وقال هنا بحذفها
فالفائدة في جواب الواو انه تعالى وعد شيئين بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب
واسقاط الواو لا يخل بذلك المعنى لانه استيناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا حصل
بعد الغفران فقيل انه سنزيد المحسنين واما السابع وهو الفرق بين انزلنا وبين
ارسلنا فلان الانزال لا يشعر بالكثرة والارسال يشعر بها فكانه تعالى بدا بانزال العذاب القليل
ثم جعله كثيرا وهو نظير ما تقدم في الفرق بين انبجست وانفجرت واما الثامن وهو الفرق

بين قوله

الخامس والعشرون
31

بين قوله تعالى يظلمون وبين قوله يفسقون لانهم لما ظلموا انفسهم فيما غيروا وبدلوا
فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله فوصفوا بكونهم ظالمين لاجل انهم ظلموا انفسهم
وبكونهم فاسقين لانهم خرجوا عن طاعة الله فالفايدة في ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول
هذين الامرين هذا ملخص كلام الرازي رحمه الله تعالى ثم قال وتمام العلم بذلك عند الله
تعالى واسألهم اي اسأل يا محمد هولاء اليهود الذين هم جيرانك سوال توبيخ وتقريع
عن القرية اي عن خبرها وما وقع باهلها لا سوال استفهام لانه صلى الله عليه وسلم كان قد علم
حال هذه القرية بوحي الله تعالى اليه واخباره اياه حالهم وانما القصد من هذا السوال تقرير
اعتدا اليهود واقدامهم على الكفر والمعاصي قديما وان اصرارهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم
وانكار نبوته ومعجزاته ليس بشي قد حدث الان في زمانه بل اصرارهم على الكفر كان حاصلا في قديم
الزمان وفي الاخبار بهذه القصة معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم لانه كان اميا لم يقرا الكتب
القديمة ولم يعرف اخبار الاولين ثم اخبرهم بما جرى لاسلافهم في قديم الزمان وانهم بسبب
مخالفتهم امر الله تعالى مسخوا قردة واختلفوا في هذه القرية فقال ابن عباس هي قرية
يقال لها ايلة بين مدين والطور على شاطي البحر وقال الزهري هي طبرية الشام وقيل مدين والعرب
تسمي المدينة قرية وعن ابي عمرو بن العلا ما رايت قرويين افصح من الحسن والحجاج يعني
رجلين من اهل المدن التي كانت حاضرة البحر اي مجاورة بحر المتلزم على شاطيه والحضور نقيض
الغيبة كقوله تعالى ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام اذ اي حين يعدون اي يعتدون
في السبت اي يتجاوزون حدود الله تعالى فيه بالصيد وقد نهوا عنه وقوله تعالى اذ تاتيهم
حيتانهم ظرف ليعدون يوم سبتهم شرعا اي ظاهرة على الماء كثيرة جمع شارع وقال
الضحاك منتابعة وعن الحسن تشرع على ابوابهم كانها الكباش البيض والحيتان السمك واكثر ما
تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة والسبت مصدر سبتت اليهود اذا عظمت سبتها بترك الصيد
والاشتغال بالتعبد فمعناه يعدون في تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله يوم سبتهم معناه يوم
تعظيمهم امر السبت يدل عليه قوله تعالى ويوم لا يسبتون اي لا يعظمون السبت اي ساير الايام
لا تاتيهم اي الحيتان ابتلا من الله تعالى كذلك اي مثل ذلك البلا الشديد نبلوهم بما
اي بسبب ما كانوا يفسقون وقوله تعالى واذ معطوف على اذ قبله قالت امة اي جماعة
منهم اي من اهل القرية لم تصد ولم تنه لمن نهى لم تعظون قوما الله مهلكهم في الدنيا بعذاب
من عنده لانهم لا ينتهون عن الفساد ولا يتعظون بالمواعظ او معذبهم عذابا شديدا في الاخرة
لتماديهم في العصيان قالوا اي الواعظون موعظتنا معذرة نعتذر بها الى ربكم اي لئلا ننسب الى
تقصير في ترك النهي فان النهي عن المنكر يجب وان علم الناهي ان مرتكبه لا يقلع عن معصيته وقيل اذا علم
الناهي حال المنهي وان النهي لا يوثر فيه سقط النهي وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث الا ترى
انك لو ذهبت الى المكاسين القاعدين على الماصر او الجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما
هم فيه كان ذلك عبثا منك ولم يكن الا سببا للتلهي بك ولعلهم يتقون اي وجايز عندنا ان ينتفعوا
بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه من الصيد اذ الياس لا يحصل الا بالهلاك فلما نسوا اي تركوا
ترك الناسي ما ذكروا اي وعظوا به فلم يرجعوا انجينا الذين ينهون عن السو واخذنا الذين
ظلموا اي بالاعتدا ومخالفة امر الله تعالى بعذاب بئيس اي شديد بما اي بسبب ما كانوا يفسقون
روي عن عكرمة عن ابن عباس انه قال اسمع الله تعالى يقول انجينا الذين ينهون عن السو واخذنا

BULAC

الذين ظلموا بعذاب بئيس فلا ادري ما فعلت القرية الثالثة وجعل يبكي قال عكرمة فقلت
جعلني الله تعالى فداك الا تراهم قد انكروا وكرهوا امرهم علانية قالوا لم تعظون قوما الله
مهلكهم وانما بغيل الله لخبثهم لم يغل اهلكتهم قال فاعجبه قولي ورضي به وامرلي بحلة من
ماله سيناها وقال لخت العشاء لغة وقال عثمان بن رزيان نجت الطائفتان الذين قالوا لم تعظون
قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة والله انجا الذين اخذوا الخبث وهذا قول الحسن
فان قيل اترك الوعظ معصية والنهي ابضا عنه معصية فوجب ان يحل هؤلاء التاركين للوعظ
الناهين عنه تحت قوله واخذنا الذين ظلموا ولهذا قال ابن زيد نجت الناهية وهلكت
الفرقتان اجيب بان هذا غير لازم لان النهي عن المنكر انما يجب على الكفاية فاذا قام به البعض
سقط عن الباقين فلما عتوا عما نهوا عنه قال ابن عباس ابوا ان يرجعوا عن المعصية والعتو
عبارة عن الاباء والعصيان اي فلما عتوا اي تكبروا عن ترك ما نهوا عنه وتمردوا في العصيان
من اعتدائهم في السبت واستحلالهم ما حرم الله تعالى عليهم من صيد السمك في يوم السبت
واكله قلنا لهم كونوا قردة خاسئين اي صاغرين فكانوا كما قال تعالى انما قولنا لشئ اذا اردناه
ان نقول له كن فيكون وهذا يقتضي ان الله تعالى عذبهم او لا بوعذاب شديد فعتوا
بعد ذلك فمسخهم ويجوز ان تكون الاية الثانية تفسيرا وتفصيلا للاولى وروي ان اليهود
امروا باليوم الذي امر نبيه وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وحرم
عليهم فيه الصيد وامروا بتعظيمه فكانت الحيتان تاتيهم يوم السبت شرعا بيضا
بعضها على بعض كانها المخاض لا يرى الماء من كثرتها ويوم لا يسبتون لا تاتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر
ثم جاء ابليس فقال لهم انما نهيتم عن اخذها يوم السبت فاخذوا حيتانا فشووها فوجدوا ريحها
الحيتان اليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها ويتاخذونها يوم الاحد واخذ رجل منهم حوتا
وربط في ذنبه خيطا الى خشبة في الساحل وشواه يوم الاحد فوجد جاره ريح السمك فتطلع
اليه فقال اراك يا اخي سمكا فهل لك في شئ فاخذ منه فلما لم ير عذاب اخذ في السبت القابل حوتين
فلما راوا ان العذاب لا يعاجلهم صادوا واكلوا وملحوا وباعوا وكانوا يخرجون من سبعين الفا
فصار اهل القرية اثلاثا ثلثا نهوا وكانوا نحو من اثني عشر الفا وثلثا قالوا لم تعظون قوما
وثلثا هم اصحاب الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون انا لا نساكنكم فقسموا القرية بجدار للمسلمين
باب وللمعتدين باب ولفتهم داود عليه السلام فاصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من
المعتدين احد فقالوا ان للناس شانا فعلوا الجدار فنظروا فاذا هم قردة فتحوا الباب ودخلوا
عليهم فعرفت القرود انسباءها من الانس والانس لا يعرفون انسباءهم من القرود فجعل القرد ياتي
ياتي نسيبه فيشم ثيابه ويبكي فيقول الم ننهكم فيقول برأسه بلى وقيل صار الشبان قردة والشيوخ
خنازير فلبثوا كذلك ثلاثة ايام ثم ماتوا ولم يعش مسخ فوق ثلاثة ايام ولم يتوالدوا ولم يبق
واثقطع نسلهم لا دلالة في الاية على شئ من ذلك وعن الحسن اكلوا والله واوخم اكلة اكلها احد
اتكلها حرمانا لدنيا واطولها عذابا في الاخرة وعن ابن عباس بين العبد وبين رفقه حجاب فان صبر
خرج اليه والا هتك الحجاب ولم ينل الا ما قدر له قال الزمخشري هذا والله ما حوذ اخذ
قوم فاكلوه اعظم عند الله من قتل رجل مسلم ولكن الله تعالى جعل موعد الساعة والساعة
ادهى وامر وقوله تعالى واذ عطف على واسالهم اي واذكرلهم حين تاذن اي اعلم ربك واجرى مجرى
القسم كعلم الله وشهد الله ولذلك اجيب بجوابه وهو ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم

سوء العذاب اي بالاهانة والذل واخذ الجزية منهم فبعث الله تعالى عليهم سليمان وبعده
بخت نصر فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية فكانوا يؤدونها الى المجوس الى ان بعث الله
تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ولا تزال مضروبة عليهم الى اخر الدهر حتى ينزل
عيسى بن مريم فانه لا يقبل الجزية ولا يقبل الا الاسلام فان قيل انه يحكم بشريعة نبينا
صلى الله عليه وسلم وشريعته اخذ الجزية او الاسلام اجيب بان شريعته مغياة بذلك
الى نزول عيسى عليه السلام وقوله تعالى ان ربك لسريع العقاب اي لمن اقام على الكفر
كهيئة الذليل على انه يجمع لهم مع ذل الدنيا عذاب الاخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم في الدنيا
والاخرة ثم انه تعالى ختم الاية بقوله وانه لغفور اي لمن امن منهم ورجع عن الكفر
واليهودية ودخل في دين الاسلام رحيم بهم وقطعناهم اي فرقناهم في الارض امما اي فرقا بحيث
لا تكاد تخلو قطر منهم تتمة لادبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط وامما مفعول ثان او حال
وقوله تعالى منهم الصالحون صفة او بدل منه وهم الذين امنوا بالمدينة ونظراؤهم ومنهم اي اناس
دون ذلك اي منحطون عن الصلاح وهم كفرتهم وفسقتهم وبلوناهم اي اختبرناهم جميعا
الصالح وغيره بالحسنات اي بالخصب والعافية والسيئات اي بالجدب والشدة لعلهم يرجعون اي
كي يرجعوا الى طاعة ربهم ويتوبوا اليه قال اهل المعاني وكل واحد من الحسنات والسيئات
يدعوا الى الطاعة اما النعم فلاجل الترغيب واما النقم فلاجل الترهيب فخلف من بعدهم
اي هولاء الذين وصفناهم خلف والخلف القرن الذي يجي من بعد قرن وهو بسكون اللام
شايع في الشر وبفتحها في الخير يقال خلف صدق بفتح اللام وخلف سوء بسكونها وقد تحرك
في الذم وتسكن في المدح قال حسان بن ثابت في المدح لنا القدم الاولى اليك وخلفنا
لاولنا في طاعة الله تابع فسكن اللام وقال لبيد في الذم ذهب الذين يعيش في اكنافهم
وبقيت في خلف كجلد الاجرب فحرك اللام والخلف مصدر نعت به ولذلك يقع على الواحد
والجمع والمراد به الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورثوا الكتاب اي التورية
من اسلافهم يقرونها ويقفون على ما فيها ياخذون عرض هذا الادنى اي حطام هذا الشي
الادنى اي الدنيا وما يتمتع به فيها وفي قوله هذا الادنى تخسيس وتحقير والادنى اما من الدنو
بمعنى القرب لانه عاجل قريب واما من دنو الحال وسقوطها وقلتها والعرض بالفتح جميع
متاع الدنيا كما يقال الدنيا عرض حاضر ياكل منها البر والفاجر والعرض بسكون الراء جميع
المال سوى الدراهم والدنانير وجمعه عروض والمعنى انهم ياخذون الرشا في الاحكام وعلى
تبديل الكلام وتغييره وذلك الذين ياخذون حطام الدنيا وهو الشي التافه الخسيس
الحقير لان الدنيا باسرها فانية حقيرة والراغب فيها احقر منها فاليهود ورثوا التورية
وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه واخذوا الرشا في الاحكام ويعلمون انه حرام
ومع اقدامهم على هذا الذنب العظيم واصرارهم عليه يقولون سيغفر لنا اي لا يواخذنا الله
تعالى بذلك فيتمنون على الله الاماني الباطلة وعن شداد بن اوس ان النبي صلى الله عليه وسلم
قال الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله
الاماني ومعنى دان نفسه اي حاسبها في الدنيا قبل ان يحاسب يوم القيامة وموضع
الاستشهاد على الاية قوله تمنى على الله الاماني لان اليهود كانوا يقدمون على الذنوب
ويقولون سيغفر لنا وهذا هو التمني بعينه وقوله تعالى وان ياتهم عرض مثله ياخذوه

BULAC

الواو فيه للحال اي يرجون المغفرة وهم مصرون عايدون الى مثل فعلهم غير تايبين وليس في التورية
وعد المغفرة مع الاصرار وقوله تعالى **لم يوخذ** استفهام تقرير **عليهم ميثاق الكتاب** اي التورية
والاضافة بمعنى في **ان لا يقولوا على الله الا الحق** اي المعلوم ثباته وليس من المعلوم ثباته
اثبات المغفرة على القطع بغير توبة بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب وقوله تعالى
ودرسوا ما فيه اي ما في ذلك الميثاق الذي في الكتاب او الكتاب بتقدير القراءة للحفظ
عطف على الم يوخذ من حيث المعنى فانه تقرير او على ورثوا ولم يوخذ اعتراض
والدار الاخرة خير اي وما في الدار الاخرة ما اعده الله **للذين يتقون** الله ويخافون
عقابه **افلا يعقلون** اي حين اخذوا ما يشقيهم ويغني بذل ما يسعدهم ويبقى ان الدار
الاخرة خير وقرا نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب ويكون المراد الاعلام بتناهي
الغضب والباقون بالياء على الغيبة **والذين يمسكون بالكتاب** يقال مسكت بالشيء وتمسكت
به واستمسكت به وامسكت به والتمسك بالكتاب العمل بما فيه واحلال حلاله وتحريم حرامه
واقامة حدوده والتمسك باحكامه وقرا شعبة بسكون الميم وتخفيف السين والباقون
بفتح الميم وتشديد السين **واقاموا الصلاة** اي وداوموا عليها قامتها في مواقيتها وانما افردها
بالذكر وان كانت الصلاة داخلة في التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وانها من اعظم العبادات
بعد الايمان بالله تعالى وهذه الاية نزلت في الذين امنوا من اهل الكتاب كعبد الله بن سلام
واصحابه وقوله تعالى **انا لا نضيع اجر المصلحين** الجملة خبر الذين وفيه وضع الظاهر موضع
المضمر اي اجرهم **واذ** اي واذكر يا محمد اذ **نتقنا** اي رفعنا **الجبل** اي من اصله **فوقهم** اي بني اسرائيل
كانه ظلة قال ابن عباس كانه سقيفة والظلة كلما اظلك من سقف بيت او سحابة او جناح
حايط والجمع ظلل وظلال **وظنوا** اي ايقنوا **انه واقع بهم** اي ساقط عليهم بوعد الله اياهم بوقوعه
ان لم يقبلوا احكام التورية روي انهم لم يقبلوا احكام التورية لغلظها وثقلها فرفع الله تعالى
الطور على روسهم مقدار عسكرهم فكان فرسخا في فرسخ وقيل لهم ان قبلتموها بما فيها والا
ليقعن عليكم فلما نظروا الى الجبل خر كل واحد منهم ساجدا على حاجبه الايسر وهو ينظر بعينه
اليمنى خوفا من سقوطه فلذلك لا ترى يهوديا يسجد الا على حاجبه الايسر ويقولون هي السجدة
التي رفعت عنا بها العقوبة وقوله تعالى **خذوا** هو اما على اضمار القول اي قلنا خذوا
او قايلين خذوا **ما اتيناكم** اي من الكتاب وقوله تعالى **بقوة** اي بجد وعزم على تحمل مشاقه حال
من واو خذوا **واذكروا ما فيه** اي بالعمل به ولا تتركوه كالمنسي **لعلكم تتقون** اي فضايح الاعمال
ورذايل الاخلاق **واذ** اي واذكر يا محمد حين **اخذ ربك من بني ادم** وقوله تعالى **من ظهورهم**
بدل اشتمال مما قبله باعادة الجار كما قاله السيوطي او بدل بعض كما قاله البيضاوي **ذرياتهم**
اي بان اخرج بعضهم من صلب بعض نسلا بعد نسل كنحو ما يتوالدون كالذر ونصب لهم
دلايل على ربوبيته وركب فيهم عقلا عرفوا به كما جعل للجبال عقولا حين خوطبوا بقوله
تعالى يا جبال اوبي معه والطير وكما جعل تعالى للبعير عقلا حتى يسجد للنبي صلى الله عليه وسلم
وكذا للشجرة حين سمعت لامره وانقادت وكذا للنملة حين قالت يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم
وقرا نافع وابو عمرو وابن عامر بالف بعد الياء وكسر التاء على الجمع والباقون بغير الف وفتح التاء على التوحيد
واشهدهم على انفسهم قال **الست بربكم قالوا بلى** اي انت ربنا وعن مسلم بن يسار الجهني انه قال
ان عمر بن الخطاب سيل عن هذه الاية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين سيل

عنها

عنها فقال ان الله تبارك وتعالى خلق ادم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت
هولا للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال جعلت هولا للنار
وبعمل عمل اهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيما العمل فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على
عمل من اعمال اهل الجنة فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار
حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخل به النار وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه
انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله تعالى ادم مسح ظهره فسقط من ظهره
كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة وجعل بين عيني كل انسان وبيصا من نور وعرضهم
على ادم قال اي رب من هولا قال ذريتك فراى رجلا منهم فاعجبه وبيص ما بين عينيه
فقال يا رب من هذا قال داود قال يا رب كم جعلت عمره قال ستين سنة قال يا رب
زده من عمري اربعين سنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انقضى عمر ادم الا الاربعين
جاه ملك الموت فقال ادم اولم يبق من عمري اربعون سنة قال اولم تعطها ابنك داود فجحد
ادم فجحدت ذريته ونسي ادم فاكل من الشجرة فسيت ذريته وخطي فخطيت ذريته
اخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وعن بن عباس انه ابصر ادم في ذريته قوما لهم نور
فقال يا رب من هم فقال الانبيا وراى واحدا هو من اشدهم نورا فقال من هو قال داود
قال فكم عمره قال ستون سنة قال ادم هو قليل وكان عمر ادم الف سنة فقال يا رب زده من عمري
اربعين سنة فلما تم عمر ادم تسعمائة وستون سنة اتاه ملك الموت لقبض روحه فقال
بقي من اجلي اربعون سنة فقال الست قد وهبتها من ابنك داود فقال ما كنت الا اجعل
لاحد من اجلي شيا فعند ذلك كتب لكل نفس اجلها وعن مقاتل ان الله تعالى مسح صفحة
ظهر ادم اليمنى فخرج منه ذرية بيض كهيئة الذر تتحرك ثم مسح ظهره اليسرى فخرج منه ذرية
سود كهيئة الذر فقال يا ادم هولا ذريتك ثم قال الست بربكم قالوا بلى فقال للبيض
هولا للجنة برحمتي وهم اصحاب اليمين وقال للسود هولا في النار ولا ابالي وهم اصحاب الشمال
واصحاب المشامة ثم اعادهم جميعا في صلب ادم فاهل القبور محبوسون حتى يخرج اهل
الميثاق كلهم من اصلاب الرجال وارحام النسا وقال تعالى فبما نقض العهد الاول وما
وجدنا لاكثرهم من عهد وقال بعض المفسرين ان اهل السعادة اقروا طوعا وقالوا
بلى واهل الشقاوة قالوا تقية وكرها وذلك معنى قوله تعالى وله اسلم من في السموات
والارض طوعا وكرها واختلفوا في موضع الميثاق فقال بن عباس ببطن نعمان وهو واد
لما جنب عرفة وعنه ايضا انه بدهنا من ارض الهند وهو الموضع الذي اهبط فيه ادم
وقال الكلبي بين مكة والطايف فان قيل ما معنى قوله تعالى ~~ما معنى قوله تعالى~~ واذ اخذ
ربك من بني ادم من ظهورهم وانما اخرجهم من ظهر ادم اجيب بان الله تعالى اخرج ذرية
ادم بعضهم من بعض على ما يتوالدون فالابنا من الابا في الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر
ادم لما علم انهم كلهم بنوه واخرجوا من ظهره فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره وقولهم
شهدنا اي على انفسنا بذلك وانما اشهدهم على انفسهم كراهة ان يقولوا يوم القيامة انا كنا
عن هذا التوحيد غافلين اي لعدم الادلة فلذلك اشركنا عطف على ان يقولوا وقرا ابو عمر
بالياء فيهما على الغيبة والباقون بالتاء على الخطاب او يقولوا اي لو لم يرسل اليهم الرسل

صفحة

بلى
فيمن

ظهور

إنا أشركنا آباؤنا من قبل أي بتوحيد وكنا ذرية من بعدهم أي فلم نعرفه لنا تنبه بأيها المخاطبون فكيف تأخذنا بما فعل غيرنا أفتهلكنا بما فعل المبطلون أي من آبائنا قال أبو حيان والمعنى أن الكفر لم يوجد عليهم عهد ولا أخذ عليهم ميثاق وإنما أخذ الميثاق على الأنبياء وأممهم وذكر بما تضمن العهد من توحيد الله وعبادته فتلك ليست لهم حجة لأحد بها كما غافلين والآخر كما تبعا الأسلاف فكيف والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلنا انتهى فإن قيل كيف يكون ذكر الميثاق عليهم حجة فإنهم لما أخرجوا من ظهر آدم ركب فيهم العقل وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلبه بطل صار كأنه لم يكن فتوالدوا وأنسوا ذلك الميثاق فأجيب بأن التذكير به على لسان صاحب المعجزة قائم مقام ذكره في النفوس وبذلك قامت الحجة عليهم أيضا يوم القيامة لأخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق في الدنيا فمن أنكره كان معاندا لما اقتضاه العهد ولزمتهم الحجة ولا تسقط الحجة عنهم بنسيانهم وعدم حفظهم بعد إخبار الصادق وصاحب الزرع والمعجزات الباهرات والمقصود من إيراد هذا الكلام هنا إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعد ما ألزمهم بالميثاق المخصوص منهم والاحتجاج عليهم بالحجج الشمعية والعقلية ومنعهم من التقليد وحملهم على النظر من الاستناد لا كما قال تعالى وكذلك أي ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع نفصل الآيات أي كما فصلنا لك ما لا يتوقع جانبنا جهلا لعدم الدليل ولعلهم يرجعون أي عن التقليد واتباع الباطل واتل يا محمد عليهم أي اليهود نبأ أي خبر الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها أي خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها وهو بلعم بن باعور من علماء بني إسرائيل وقيل من أكفائهم بين سيل أن يدعو على موسى والذي إليه نمى قد عافا فتقلب عليه وائتلع لسانه على صدره وفصته على ما ذكره ابن عباس وغيره أن موسى عليه السلام لما فأتبعه الشيطان لحقه وأدركه وصيره لنفسه تابعا في معصية الله فكان من الغاوين أي الضالين الهالكين وقصته على ما ذكره ابن عباس وغيره أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين وترك أرض التيه كنعان من أرض الشام أي قوم بلعم إلى بلعم وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير وإنه قد جاء ليخرجنا من بلادنا ويقتلنا وبني إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله تعالى أن يرد هم عنا فقال ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما لا تعلمون وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي فراجعوه وألحوا عليه فقال حتى أؤامر ربي وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام فؤامر بالدعاء عليهم فقيل له في المنام لا تدع عليهم فقال لقومه قد آمرت ربي وإني رأيت إن دعوت عليهم فاهدوا إليه هدية فقبلها وزاجعوه فقال حتى أؤامر ربي فلم يؤمر بشيء فقال قد أمرت ربي فلم يأمرني بشيء فقالوا له اكره ربك إن تدعو عليهم لنا كان كما نهاك في المرة الأولى فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بني إسرائيل يقال له حسبان فلما سار على أتانه غير بعيد ربضت فنزل عنها وضربها فقامت فتركها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت فعلها ذلك مرارا فأدخل الله تعالى لها في الكلام وأنطقها لتكلمه حجة عليه فقالت ويحك يا بلعم إلى أين تذهب أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي ويحك انزجر عما أنت عليه من الذهاب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم فلم ينزجر فخلى الله تعالى سبيل الأتان فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسبان ومعه قومه فجعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشيء إلا صرفه الله تعالى به

لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير الا صرف الله تعالى به لسانه الى بني اسرائيل فقال له قومه
يا بلعم اتدري ما تصنع انما تدعو لهم وتدعو علينا فقال هذا ما لا املكه هذا شيء قد غلب
الله عليه فاندفع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت الان مني الدنيا والاخرة ولم يبق
الا المكر والحيلة فسامكر لكم واحتال احملوا النسا وزينوهن واعطوهن السلع ثم ارسلوهن
الى عسكر بني اسرائيل يبعنها فيه ومروهن ان لا تمنع امراة نفسها من رجل ارادها فانه ان زنا
رجل بواحدة كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النسا العسكر مرت امراة من الكنعانيين على
رجل من عظما بني اسرائيل وكان راس سبط شمعون ابن يعقوب فقام الى المراة واخذ
بيدها حتى اعجبه جمالها ثم اقبل بها حتى وقف على موسى وقال اني لاظنك ان تقول
هذه حرام عليك قال اجل هي حرام عليك لا تقربها قال فوالله لا نطيعك في هذا ثم دخل
بها قبته فوقع عليها فارسل الله تعالى عليهم الطوفان في الوقت الطاعون في الوقت
فهلك منهم سبعون الفا في ساعة من النهار وقيل الاية نزلت في امية بن صلت كان
قد قرا الكتب وعلم ان الله تعالى يرسل رسولا في ذلك الزمان ورجا ان يكون هو فلما بعث
الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حسده وكفر به وقيل نزلت في منافقي اهل الكتاب الذين كانوا
يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون ابناءهم وقيل انها نزلت في البسوس وهو
رجل من بني اسرائيل وكان قد اعطي ثلاث دعوات مستجابات وكان له امراة له منها اولاد
فقالت له اجعل لي منها دعوة فقال لك منها واحدة فما تريدين قالت ادع الله ان يجعلني
اجمل امراة في بني اسرائيل فدعا لها فصارت اجمل النسا في بني اسرائيل فلما علمت انه ليس في بني اسرائيل
اجمل منها رغبت عنه فغضب ودعا عليها فصارت كلبة نباحة فذهبت فيها دعوتان
فجانبوها وقالوا ليس لنا على هذا قرار قد صارت امنا كلبة نباحة وقد عيرنا الناس بها ادعوا
الله ان يردها الى الحال التي كانت عليها فدعا الله تعالى فعادت كما كانت فذهب فيها الدعوات
كلها وقيل غير ذلك ويدل للقول الاول قوله **ولو شئنا لرفعناه** اي منازل الابرار **بها**
اي بسبب تلك الايات **ولكنه اخلد الى الارض** اي مال الى الدنيا قال البيضاوي والسفالة
قال الجوهري وغيره السفالة بالضم نقيض العلو وبالفتح الندالة **واتبع هواه** اي في اثار
الدنيا واسترضا قومه واعرض عن مقتضى الايات وانما علق رفعه بمشيئة الله تعالى
ثم استدرك عنه بفعل العبد تنبيها على ان المشيئة سبب لفعله الموجب لرفعه وان
عدمه دليل عدمها دلالة انتفا المثبت على انتفا سببه وان السبب الحقيقي هو
المشيئة وان ما نشاهده من الاسباب وسايط معتبرة في حصول المسبب من حيث
ان المشيئة تعلقت به كذلك وكان مقتضى ظاهر الكلام ان يقول ولكنه اعرض عنها
واوقع موقعه اخلد الى الارض واتبع هواه مبالغة وتنبيها على ما حمله عليه وان حب الدنيا
راس كل خطيئة وهذه الاية من اشد الايات على اصحاب العلم وذلك لانه تعالى بعد
ان خص هذا الرجل باياته وعلمه الاسم الاعظم وخصه بالدعوات المستجابة لما اتبع الهوى
انسلخ من الدين فصار في درجة الكلب وذلك يدل على ان كل من كانت نعم الله تعالى
في حقه اكثر فاذا اعرض عن متابعة الهوى واقبل متابعة الهوى كان بعده عن
الله اعظم واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم من ازداد علما ولم يزدد هدى فلم يزدد
من الله الا بعدا **فمثله** اي فصفته التي هي مثل في الخسة **كمثل الكلب** اي كمثله في اخس اوصافه

BULAC

وهو ان تحمل عليه اي بالطرد والزجر يلهث اي يدلع لسانه او تتركه يلهث فهو يلهث دائما سواء حمل عليه بالزجر والطرد او ترك وليس غيره من الحيوان كذلك فيقال لكل شيء يلهث انما يلهث من اعيا او عطش الا الكلب فانه يلهث في حال الكلال والراحة لان اللهث طبيعة اصلية فيه فكذلك حال من كذب بايات الله ان وعظته فهو ضال وان تركته فهو ضال وكذا حال الحريص على الدنيا ان وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه وان تركته ولم تعظه فهو حريص ايضا لان الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما ان اللهث طبيعة لازمة للكلب وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الكلب منقطع الفؤاد يلهث ان حمل عليه او لم يحمل عليه ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال كانه قيل كمثل الكلب ذليلا دائم الذلة لاهثا في الحالتين وقيل لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره وجعل يلهث كما يلهث الكلب ذلك اي المثل مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فعم بهذا المثل جميع من كذب بايات الله وجحدها ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث انهما اذا حملت عليهما الحكمة لم يهتديا واذا تركتا بوعظ لم يهتديا وقيل لو ضللت على كل حال فاقصص القصص اي فاخبر يا محمد قومك هذه الاخبار العظيمة التي تتبعت بها مواقع الكواذب واثار الاعيان حتى لم يدع في شيء منها البتة على كل من يسمع لكن من اليهود وغيرهم لعلهم يتفكرون اي يتدبرون فيها فيؤمنون بك اي بعيس مثلا القوم اي مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا اي بعد قيام الحجة عليهم بها وعلمهم بها وانفسهم كانوا يظلمون اي كان ذلك من طبعهم جبلة لهم لا لتقدير غير الله تعالى على تغييره وتقديم المفعول به للاختصاص كانه قيل وخصوا انفسهم بالظلم لم يتعدها الى غيرها وقوله تعالى من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون تقرير لباب الهدى والضلال من الله تعالى وان هداية الله تعالى تختص ببعض دون بعض وانها مستلزمة للاهتداء والافراد في الاول والجمع في الثاني باعتبار اللفظ والمعنى تنبيه على ان المهتدين كواحد لاتحاد طريقهم بخلاف الضالين لاقتضاء الاخبار عمن هدى الله بالمهتدي تعظيم شان الاهتداء وتنبيه على انه في نفسه كما لجسيم ونفع عظيم لو لم يحصل له غيره لكفاه وآية المستلزم للفوز بالنعم الاجلة والعنوان له ولقد ذرأنا اي خلقنا لجهنم كثيرا من الجن والانس اخبر تعالى انه خلق كثيرا من الجن والانس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الازلية بالشقاوة ومن خلقه الله تعالى للنار فلا حيلة له في الخلاص منها روي عن عايشة رضي الله تعالى عنها انها قالت دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة صبي من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال او غير ذلك يا عايشة ان الله تعالى خلق الجنة وخلق لها اهلا وهم في اصلاب ابائهم وخلق النار وخلق لها اهلا وهم في اصلاب ابائهم اخرجه مسلم قال النووي في شرح مسلم اجمع من يعتد به من علماء المسلمين ان من مات من اطفال المسلمين فهو من اهل الجنة لانه ليس مكلفا ونقف فيه من لا يعتد به لهذا الحديث واجاب العلماء عنه بان رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله نهاها عن المسارعة الى القطع من غير ان يكون عندها دليل قاطع كما انكر على سعد بن ابي وقاص قوله اعطه فاني لاراه مؤمنا فقال او مسلما قال بعضهم ويحتمل انه صلى الله عليه وسلم قاله قبل ان يعلم ان اطفال المسلمين في الجنة فلما علم قال ذلك واما اطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الاكثرون هم في النار تبعا لابائهم ويتوقف طائفة فيهم

والثالث وهو الصحيح الذي ذهب اليه المحققون انهم من اهل الجنة واستدلوا بما منها
حديث ابراهيم الخليل حين رآه النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة وحوله اولاد الناس قالوا يا رسول
الله واولاد المشركين قال واولاد المشركين رواه البخاري في صحيحه ومنها قوله تعالى وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول الرسول حتى
يبلغ وهذا متفق عليه وفي الآية دليل وحجة واضحة لمذهب اهل السنة في ان الله تعالى
خالق افعال العباد جميعا خيرها وشرها لانه تعالى بين باللفظ الصريح انه خلق كثيرا من الجن
والانس للنار ولا مزيد على بيان الله تعالى ولان العاقل لا يختار لنفسه دخول النار فلا يعمل
عملا يوجب عليه دخول النار به علم ان لم يضطر الى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله
تعالى وقالت المعتزلة ان اللام في قوله تعالى لجهنم لام العاقبة واستندوا لهذه الدلالة
بايات واشعار من الايات فقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا
وحزنا وهم ما التقطوه لهذا الغرض ومنها قول موسى عليه السلام ربنا انك آتيت
فرعون وملأه زينة واموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ومن الاشعار قول
بعضهم والموت نغدو والولادات نحتها كالخراب الدهر تبنى للخراب وقال آخر لدوا
للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى التراب وقال آخر وام شمال فلا تجزعي فللموت
ما تلد الوالدات وهذا مردود لان المصير الى الشيء لا يسمى غاية له الا اذا كان
على امتناع حمل اللفظ على ظاهره فاذا لم يثبت كان المصير الى الشيء مثل هذا
المقام عبثا فالحق مذهب اهل الحق جعلنا الله تعالى واهل مودتهم ممن يحمد والرم وصفه
الله تعالى بقوله الذين ضلهم بقوله تعالى لهم قلوب لا يفقهون بها اي لا يتفكرون بها
في آيات الله ولا يتدبرون وهم اعين لا يبصرون بها اي لا يبصرون بها طريق الحق والهدى
وهم آذان لا يسمعون بها اي الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر قال اهل المعاني
ان الكفار لهم قلوب تفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ولهم اعين يبصرون بها
المبصرات واذان يسمعون بها الكلمات ولهذا لا تكليف فيه ولما وصفهم الله تعالى بانهم لا
يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكة علم ان المراد من ذلك
ترجع الى مصالح الدين وبما فيه لتفهم الآخرة والعرب تقول لصاحب ذلك لمن ترك
استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له ومنه قول الشاعر وعور الكلام صممت عنها
واني لسامعها سميع فانه اثبت لها صمما مع وجود السمع ولما سلب عنهم هذه المعاني كانت
النتيجة اولئك اي لبعدهم من المعاني الانسانية كالانعام اي في انهما لا تفهم ولا تتفكر وذلك
لان الانسان وسائر الحيوانات مشتركة في هذه الحواس الثلاث التي هي القلب والبصر
والسمع وانما فضل الانسان على سائر الحيوان بالعقل والادراك والفهم المؤدي الى معرفة
الحق من الباطل والخير من الشر فاذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه كان الا فرق بينه
وبين البهيمة في ان لا تدرك شيأ ولما كانوا قد زادوا على ذلك بتعطيل منفعة هذه الحواس قال تعالى
بل هم اضل من الانعام لان الانعام تعرف ما يضرها وما ينفعها فاذا رأت نارا مثلا لا تقع
فيها واذا رأت كلأ مثلا دخلت فيه والكافر لا يعرف ذلك ولان الحيوان لا قدرة له على تحصيل
هذه الفضائل العظيمة مع القدرة على تحصيلها ومن اعرض عن اكتساب الفضائل العظيمة
مع القدرة على تحصيلها كان اخس حالا ممن لم يكسبها مع العجز عنها ولان الانعام مطيعة

فلما

وقال وخير ما تبكي لك العين يوم لدوا
للموت وابنوا للخراب

لله تعالى والكافر غير مطيع ولان الانعام تعرف ربها وتذكره وهم لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه
ولانها تضل اذا لم يكن معها مرشد فاذا كان معها مرشد فقل ان تضل وهولاء الكفار قد جاءهم
الانبياء وانزل عليهم الكتب وهم يزدادون في الضلال ثم انه تعالى ختم الاية بقوله
اولئك هم الغافلون قال عطا عما اعد الله تعالى لاوليائه من الثواب ولاعدائه من العقاب
ولله الاسماء الحسنى ذكر ذلك في اربع سور اولها هذه السورة وثانيها في اخر بني اسرائيل في قوله
تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وثالثها في اول طه وهو قوله
تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ورابعها في اخر الحشر وهو قوله تعالى هو الله الخالق
البارئ المصور له الاسماء الحسنى والحسنى مونث الاحسن كالكبرى والصغرى فادعوه بها
اي فسموه بتلك الصفات وللدعا شروط منها ان يعرف الداعي معاني الاسماء التي يدعو بها
ومنها ان يستحضر في قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ومنها ان يخلص النية في دعائه
وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان لله تسعة وتسعين
اسما مائة الا واحدا من احصاها دخل الجنة انه وتر يحب الوتر وكان صلى الله عليه وسلم يقول
يا الله يا رحمن فقال المشركون ان محمدا واصحابه يزعمون انهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا
يدعوا اثنين فانزل الله تعالى هذه الاية والاسماء الحسنى كما في الحديث الله الذي لا اله
الا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المومن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق
البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط
الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم
الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع
الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي
المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الاحد الصمد القادر
المقتدر المقدم المؤخر الاول الاخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب
المنتقم العفو الرؤف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني
المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور رواه الترمذي
قال النووي اتفق العلماء على ان هذا الحديث ليس فيه حصر لاسمائه تعالى وليس معناه
انه ليس له اسماء غير هذه التسعة والتسعين من احصاها دخل الجنة والمراد الاخبار عن دخول
الجنة باحصائها لا الاخبار وتحصر الاسماء ولهذا جاء في حديث اخر اسالك بكل اسم سميت
به نفسك واستاثرت به في علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ ابو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم
ان لله الف اسم قال بن العربي وهذا قليل وقوله صلى الله عليه وسلم من احصاها دخل الجنة قال
البخاري من حفظها وهو قول اكثر المحققين ويعضده الرواية الاخرى من حفظها دخل الجنة
وقيل من احضر بباله الجنة عند ذكرها معناها وتفكر في مدلولها وقوله صلى الله عليه وسلم
ان الله وتر يحب الوتر الفرد ومعناه في وصف الله تعالى الواحد الذي لا شريك له ولا نظير
له واختلفوا هل الاسم الاعظم الله او الحي القيوم وهل الاسم الاعظم عين المسمى او غيره في ذلك
خلاف وقد حققت ذلك في مقدمتي على الحمدلة والبسملة وذروا اي اتركوا الذين يلحدون اي يميلون
عن الحق في اسمائه اي حيث اشتقوا منها اسما لالهتهم كاللات والعزى من العزيز ومنات من المنان
وقال اهل المعاني الالحاد في اسمائه تعالى وهو ان تسميه بما لم يسم الله تعالى به نفسه ولم يرد فيه نص

من كتا

من كتاب ولا سنة لان اسماءه تعالى كلها توقيفية فيجوز ان يقال يا جواد ولا يجوز ان يقال يا سخي
ويجوز ان يقال يا عالم ولا يجوز ان يقال يا عاقل ويجوز ان يقال يا حكيم ولا يجوز ان يقال يا طبيب
سيجزون اي في الاخرة جزاء ما كانوا يعملون وهذا قبل الامر بالقتال وقرأ حمزة يلحدون بفتح الدال
والحاء من لحد والباقون بضم التاء وكسر الحاء من الحد ولما ذكر سبحانه وتعالى انه خلق للنار طائفة
ضالين عن الحق ذكر انه تعالى خلق للجنة امة هادين بالحق عادلين في الامر بقوله تعالى وممن خلقنا
امة اي جماعة يهدون بالحق وبه اي الحق خاصة يعدلون اي يجعلون الامور متعادلة لا زيادة في شيء
منها على ما ينبغي ولا نقص لانا وفقناهم فكشفنا عن ابصارهم حجاب الغفلة التي الزمناها اولئك
واستدل بذلك على صحة الاجماع لان المراد منه ان في كل قرن طائفة بهذه الصفة واكثر المفسرين
انهم امة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله صلى الله عليه وسلم لا تزال من امتي طائفة على الحق الى ان ياتي
امر الله رواه الشيخان وعن معاوية رضي الله تعالى عنه قال وهو يخطب سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول لا تزال من امتي امة قائمة بامر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم
حتى ياتي امر الله وهم على ذلك اذ لو اختص بعهد الرسول او غيره لم يكن لذكره فائدة فانه معلوم
وعن الكلبي هم الذين امنوا من اهل الكتاب وقيل هم العلماء والدعاة الى الدين والذين كذبوا
باياتنا اي القران او غيره من اهل مكة او غيرهم سنستدرجهم اي سنستدنيهم الى الهلاك
قليلا قليلا واصل الاستدراج الاستبعاد والاستنزال درجة بعد درجة من حيث
لا يعلمون اي ناخذهم قليلا قليلا من حيث لا يحتسبون وذلك ان الله تعالى يفتح عليهم من النعم
ما يغبطون به ويركنون اليه ثم ياخذهم على غرة اغفل ما يكونون وقيل سنقربهم الى ما يهلكهم
ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم لانهم كانوا اذا اتوا بذنب فتح
الله تعالى عليهم من ابواب الخير والنعمة في الدنيا فيزدادوا بذلك تماديا في الغي والضلالة
ويتدرجوا في الذنوب والمعاصي بسبب ترادف النعم يظنون ان تواتر النعم تقريب من الله تعالى
وانما هي خذلان منه وتبعيد فهو استدراج الله تعالى فياخذهم الله اخذة واحدة اغفل ما
يكونون عليه وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما حمل اليه كنوز كسرى قال اللهم اني اعوذ
بك ان نكون مستدرجا واني سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون واملي لهم
اي وامهلهم واطل مدة اعمارهم ليتمادوا في الكفر والمعاصي ولا اعاجلهم بالعقوبة ولا افتح
لهم باب التوبة ان كيدي اي اخذي متين اي شديد وانما سماه كيدا لان ظاهره احسان وباطنه
خذلان اولم يتفكروا فيعلموا ما بصاحبهم محمد صلى الله عليه وسلم من جنة اي جنون روي انه صلى
الله عليه وسلم صعد على الصفا فدعاهم فخذا فخذا يا بني فلان يا بني فلان يحذرهم
باس الله تعالى فقال قائلهم ان صاحبكم لمجنون بات يهوت الى الصباح فنزلت وهو يهوت
يصوت يقال هيت به وصوت به اي صاح قاله الجوهري وانما نسبوه الى الجنون وهو بريء منه
لانهم راوا انه صلى الله عليه وسلم خالفهم في الاقوال والافعال لانه كان معرضا عن الدنيا وازاتها
مقبلا على الاخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء الى الله تعالى وانذارهم باسه ونقمته ليلا ونهارا
من غير ملال ولا ضجر فعند ذلك نسبوه الى الجنون فبراه الله تعالى من الجنون بقوله تعالى
ان اي ما هو الا نذير مبين اي بين الانذار بحيث لا يخفى على ناظر اولم ينظروا اي نظر اعتبار
واستدلال في ملكوت السموات والارض اي ملكهما البالغ وما اي وفيما خلق الله من شيء
اي غيرهما مما يقع عليه الشيء من الاجناس التي لا يمكن حصرها ليدل لهم على كمال قدرة صانعها

ووحدة مبدعها وعظم شان مالكها ومتولي امرها ليظهر لهم صحة ما يدعوهم اليه وقوله تعالى
وان عسى ان يكون قد اقترب اي دنى اجلهم عطف على ملكوت وان مخففة من الثقيلة واسمها ضمير
الشان وكذا اسم يكون ولا يصح ان يكون ان مصدرية خلافا للبيضاوي ويقال للفتاة زاي لان
المصدرية لا تدخل الافعال غير المتصرفة لا مصادر لها والمعنى لم ينظروا في اقتراب اجلهم
ويتوقعوا حلولها فيسارعوا الى طلب الحق والتوجه الى ما ينجيهم قبل مفاجاة الموت ونزول العذاب
فلعل اجلهم قد اقترب فيموتون على الكفر قبل ان يؤمنوا فيصيروا الى النار فيجب عليهم العاقل
المبادرة الى التفكر والاعتبار والنظر المودي الى الفوز بالنعيم الدايم فبأي حديث اي كتاب
بعده اي الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يؤمنون اي يصدقون وليس بعد محمد صلى
الله عليه وسلم نبي ولا بعد كتابه كتاب لانه خاتم الانبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحي
بعده صلى الله عليه وسلم فان قيل وقوله تعالى فبأي حديث بعده يومنون يدل على القران ان
حادث فما تمسك به بعض المعتزلة اجيب بان ذلك محمول على الالفاظ
من الكلمات والاختلاف في حدوثها ثم ذكر تعالى علة اعراضهم عن الايمان بقوله تعالى من يضلل
الله فلا هادي له بوجه من الوجوه اي ان اعراضهم هو لاجل الايمان لا ضلال اليد اياهم
ولعدم هدايتهم لا منه ونذرهم اي نتركهم في طغيانهم اي ضلالتهم وتمادهم في الكفر يعمهون
اي يترددون متحيرين لا يهتدون سبيلا وقرا نافع وابن كثير وابو عامر ونذرهم بالنون
والباقون بالياء وجزم حمزة والكسائي الراء قال سيبويه انه تخفيف على توالي الحركات وما تؤذنها
من قوله فلا هادي له لان موضع الفاء وما تعقبها جزم لجواب الشرط ورفعها الباقون
استيناف او هو مقطوع عما قبله والباقي تعالى التوحيد والنبوة والمعاد والعدل الاربعة
المعاد ليكمل المطالب الاربعة التي هي مجامع مطالب القران مبتدئا ما استمل عليه الكلام
من تبليدهم في الغمرة وتلددهم في شراك الشبه بقوله تعالى يسئلونك يا محمد سؤال
استهزاء عن الساعة اي عن وقتها واختلفوا في ذلك السائل فقال ابن عباس رضي الله عنهما من اليهود
قالوا يا محمد اخبرنا متى تقوم الساعة ان كنت نبيا كما تقول فانا نعلم متى هي فنزلت هذه الاية
وقال الحسن وقتادة انقرشا قالوا يا محمد بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة وقال
من الاشياء الغائبة كالنجم للرمي وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة او لان حساب
الخلق يقع فيها في ساعة واحدة وسميت بالساعة لقلة الشيب او لانها على طولها عند الله
كساعة واحدة وقوله تعالى ايان سؤال للتهويل عن الوقت الذي تقوم فيه القيامة وهو اي
متى مرساها قال ابن عباس متنتها والمرسى هنا مصدر بمعنى الارساء للفعل تعالى يقال اللهم مرساها
ومرساها اي اجراؤها وارساؤها والارساء الاثبات يقال رسا يرسو اذا ثبت قال تعالى
والجبال ارساها قل لهم يا محمد انما علمها اي متى يكون عند ربي اي لا يعلم الوقت الذي تقوم
فيه الساعة الا الله تعالى استاثر الله تعالى بعلمها فلم يطلع عليه احدا من خلقه وهذا
لما سال جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال متى الساعة فقال عليه الصلاة
والسلام ليس المسؤول عنها باعلم من السائل قال المحققون والسبب في اخفاء الساعة عن العباد
انهم اذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها فتكون عند ذلك داعية الى الطاعة وزاجرة عن المعصية
ثم انه تعالى اكد هذا المعنى فقال لا يجليها اي يظهرها لوقتها اي لوقتها المعين فاللام بمعنى
في وبيانه ولي من قوله البيضاوي وسماه للتنافيت لا يجليها لا يقدر على اظهارها لوقتها المعين الاعلام

والاخبار

والاخبار الا هو ثقلت اي عظمت في السموات والارض اي ثقل امرها وخفي علمها على اهل السموات
والارض وكل شيء فهو ثقيل شديد وقال الحسن اذا جاءت ثقلت وعظمت على اهل السموات
والارض وانما ثقلت عليهم لان فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب وقوله تعالى
لا تأتيكم الا بغتة تاكيد ايضا لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجيء الا فجاة على حين غفلة من الخلق
وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه تعالى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لتقومن الساعة
وقد نشر الرجلان ثوبا بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد
انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ولتقومن
الساعة والرجل قد رفع اكلته الى فيه فلا يطعمها اللقحة بفتح اللام وكسرها الناقة القريبة
العهد بالنتاج وقوله يليط حوضه ويروى يلوط حوضه اي يطينه ويصلحه يقال لاط حوضه
يليطه ويلوطه اذا طينه والاكلة بضم الهمزة اللقمة وفي رواية ان الساعة تهيج بالناس
والرجل يصلح حوضه والرجل يسقي ماشيته والرجل يقوم سلعته في سوقه والرجل يخفض
ميزانه ويرفعه رواه بمعناه الشيخان يسألونك اي يسألك قومك عن الساعة كأنك حفي
عنها اي عالم بها من قولهم احفيت في المسئلة اذا بالغت في السؤال عنها حتى علمتها وقيل
الحفي البار اللطيف ومنه قوله تعالى انه كان بي حفيا اي بارا لطيفا يجيب دعائي اذا دعوته اي
يسألونك كأنك يا رب بهم لطيف العشرة معهم وهذا قول الحسن ويؤيده ما روي في تفسيره
ان قريشا قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم ان بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة والمعنى
يسألونك عنها كأنك حفي فتحفي بهم اي فتخصهم لاجل قرابتك بتعليم وقتها وتروي علمها عن
غيرهم ولو اخبرت بوقتها لمصلحة علمها الله تعالى في اخبارك به كنت مبلغه القريب
والبعيد من غير تخصيص كسائر ما اوحي اليك وقيل كأنك حفي بالسؤال عنها تحبه وتؤثره اي انك
تكره السؤال عنها لانه من علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه ولم يؤته احدا من خلقه
كما قال تعالى قل يا محمد انما علمها عند الله اي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلم متى الساعة الا هو
فان قيل قوله تعالى يسألونك عن الساعة ايان مرساها وقوله تعالى ثانيا يسألونك كأنك حفي
عنها فيه تكرار اجيب بانه لا تكرار لان السؤال الاول عن وقت قيام الساعة والثاني عن كنه
ثقل الساعة وشدتها ومهابتها فلم يلزم التكرار وقيل ذكر الثاني للتاكيد ولما جاء به من زيادة
قوله كأنك حفي عنها وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة
ومنهم محمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة رحمهما الله تعالى فان قيل لم اجاب عن الاول
بقوله انما علمها عند ربي وعن الثاني بقوله انما علمها عند الله اجيب بان السؤال الاول
لما كان واقعا عنده وقت قيام الساعة والثاني كان واقعا عن مقدار شدتها ومهابتها عبر
عن الجواب فيه بقوله علم ذلك عند الله لانه اعظم اسمائه تعالى مهابة وعظمة ثم انه تعالى
ختم هذه الاية بقوله ولكن اكثر الناس لا يعلمون اي لا يعلمون السبب الذي من اجله
اخفيت معرفة علم وقت قيامها المغيب عن الخلق وقيل لا يعلمون ان علمها عند الله تعالى
وانه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه وروي ان اهل مكة قالوا يا محمد الا تخبر بالسعر الرخيص
قبل ان يغلوا فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء وبالارض التي تريد ان تجدب فنرحل عنها الى ما
قد اخصبت فانزل الله تعالى قل لهم لا املك لنفسي نفعا اي اجتلاب نفع بان اربح فيما اشتريه
ولا ضرا اي ولا اقدر ان ادفع عن نفسي ضرا نزل بها بان ارتحل الى ارض الخصبة وعن الارض الجدبة الا ما شاء

الله فيلهمني اياه ويوفقني له وقيل انه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة بني المصطلق
جاءت ريح في الطريق فغرت الدواب منها فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة وكان
فيها غيظ للمنافقين وقال صلى الله عليه وسلم انظروا اين ناقتي فقال عبد الله ابن ابي
المنافق مع قومه الا يعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف
اين ناقته فقال صلى الله عليه وسلم ان ناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتي
في هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال صلى الله عليه وسلم فانزل
الله تعالى هذه الاية ولو كنت اي من ذاتي اعلم الغيب اي جنسه لاستكثرت اي اوجدت
لنفسي كثيرا من الخير وما مسني السوء اي ولو كنت اعلمه لخالفت حالي ما هي عليه من استكثار
المنافع ويدخل فيه ما يتصل بالخصب واجتناب الضار حتى لا يمسني سوء ان اي ما انا
الا نذير بالنار للكافرين وبشير بالجنة لقوم يؤمنون اي يصدقون وقيل لقوم يؤمنون
متعلق بنذير وبشير لانهم المنتفعون بهما هو الذي خلقكم اي ولم تكونوا شيئا من نفس واحدة
اي خلقها ابتداء من تراب وهي ادم عليه السلام وجعل منها اي من جسدها من ضلع من اضلاعها
وقيل من جنسها كقوله تعالى جعل لكم من انفسكم ازواجا زوجها اي حوا قالوا والحكمة في كونها
خلقت منه ان الجنس الى الجنس اميل والجنسية علة الضم ليسكن اليها اي ليانس بها ويطمئن اليها
اطمئنان الشيء الى جزئه او جنسه وانما ذكر الضمير في ليسكن بعد ان انث في قوله من نفس
واحدة ذهابا الى معنى النفس ليناسب تذكير الضمير في قوله فلما تغشاها اي جامعها
ولئلا يوهم لو انثه نسبة السكون الى الانثى والامر بخلافه ازالة لاستيحاشه فكانت
نسبة المؤانسة اليه اولى حملت حملا خفيفا اي خف عليها ولم تلق منه ما يلقى منه الحوامل
غالبا من الاذى او محمولا خفيفا وهو النطفة فمرت به اي فعالجت به اعمالها وقامت
وقعدت ولم يفقها عن شيء من ذلك لخفته فلما اثقلت اي صارت ذا ثقل بكبر الولد في بطنها
دعوا الله اي ادم وحوا عليهما السلام ربهما مقسمين لئن اتيتنا صالحا اي ولدا سويا لا عيب فيه
لنكونن من الشاكرين اي جنس الولد الصالح في تمام الولد الصالح في تمام الخلق بدنا وقوة
اي نحن واولادنا على نعمتك علينا وذلك انهما جوزا ان يكون غير سوي لقدرة الله تعالى
على كل ما يريد لانه الفاعل المختار فايدة اتفق القراء على ادغام تا التانيث الساكنة
في الدال فلما اتاهما صالحا اي جنس الولد الصالح في تمام الخلق بدنا وقوة وعقلا فكثروا
في الارض وانتشروا في نواحيها ذكورا واناثا جعلا اي النوعين من اولادهما الذكور والاناث
لان صالحا الولد وهو الجنس فيشمل الذكر والانثى والقليل والكثير فكانه قيل فلما اتاهما
اولادا صالحي الخلقة من الذكور والاناث جعل النوعان له شركاء اي بعضهم اصناما وبعضهم
نارا وبعضهم شمسا وبعضهم غير ذلك وقيل جعلا فيما اتاهما اي في ما اتى اولادهما
فسموه عبد العزى وعبد مناف على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ويدل
عليه قوله تعالى فتعالى الله عما يشركون ايشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون
اي الاصنام فان قيل كيف وحد خلق ثم جمع فقال وهم يخلقون اجيب بان لفظ ما يقع
على الواحد والاثنين والجمع فوحد بحسب ظاهر اللفظ وجمع باعتبار المعنى فان قيل كيف جمع
بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس اجيب بانه لما اعتقد عابدوا
الاصنام انها تعقل وتميز ورد هذا الجمع بناء على ما يعتقدونه وقيل لما حملت حوا اتاها ابليس

اي اولادهما شركاء له صح

في صورة

صورة رجل فقال لها ما يدريك ما في بطنك ولعله بهيمة او كلب وما يدريك من اين يخرج فخافت
من ذلك وذكرت لآدم فهما منه وهو بضم الهاء وتشديد الميم من الهم وهو هنا الحزن ثم عاد اليها وقال
اني من الله بمنزلة فان دعوت الله ان يجعله خلقا سويا مثلك ويسهل عليك خروجه فتسميه عبد الحارث
وكان اسم ابليس حارثا في الملائكة فقبلت وولدته سمته عبد الحارث فان قيل قد قال البيضاوي
وامثال ذلك لا تليق بالانبياء ويحتمل ان يكون الخطاب لبعض اخلافهم لا آل قصي من قريش فانهم خلقوا
من قصي وكان له زوجة من جنسه عربية قرشية وطلبا لمن له الولد فاعطاهما اربعة
بنين فسماهم عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الدار ويكون الضمير في يشركون لهما
ولاعقابهما للمعتدين بهما انهى اجيب بانه نظر فيه ذلك الى الظاهر والا فقد روى انه صلى الله
عليه وسلم قال لما ولدت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث
فانه يعيش فسمته فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وامره رواه الحاكم وقال صحيح والاثر
وقال حسن غريب وروي عن ابن عباس انه قال كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد
الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت فاتاها ابليس فقال ان سركما ان يعيش لكما ولد فسمياه عبد
الحارث فسمياه فعاش وجا في حديث حذعا ابليس مرتين مرة في الجنة ومرة في الارض وهو قول
كثير كمجاهد وسعيد بن المسيب وهذا كما قال البغوي ليس شركا في العبادة ولا ان الحارث
بهما فان دم كان نبيا معصوما من الشرك ولكن قصدا الى ان الحارث كان سبب نجاة الولد
وسلامة امه وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به انه مملوك كما يطلق اسم الرب على من لا يراد
به انه معبود هذا كالرجل اذا نزل به ضيف يسمي نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع
لا على وجه ان الضيف ربه قال الراغب وفي لعبد الضيف ما دام ثاويا ولا يسمى في غير هذا
تشبيه العبد ويقول للغير انا عبدك قال الزاري ورايت بعض الافاضل كتب على عنوان
كتابه عبد وحيد فلان وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر انه ربي ولم يرد به معبوده
كذلك هذا فقوله فتعالى الله عما يشركون ابتدا كلام واريد به اشراك اهل مكة وقرا
سبعة شركا بكسر السين وسكون الراء والف منونة بعد الكاف في الوصل وفي الوقف بغير
تنوين اي شركة والباقون بضم السين وفتح الراء وبعد الكاف الف بعدها همزة مفتوحة
فان قيل المطاع ابليس فكيف يعبر بالجمع اجيب بان من اطاع ابليس فقد اطاع جميعهم لان
بعد ان حملنا هذه الآية على الغضة المشهورة اما اذا لم يحمل به فلا حاجة الى التاويل
ولا يستطيعون لهم اي الاصنام نصرا اي لعابديهم اي لا تقدر على نصرهم من العذاب وعبدها ولا تنصر من عصاها
والمعبود الذي يجب عبادته يكون قادرا على ايصال النفع والضر وهذه الاصنام كيفيت كذلك
فكيف تليق بالعبادة قال ابن عطية وهذا ان اريد به الكفار فالامر ظاهر وان اريد به
عموم من عبد فان اراد كسرها فقد يقدر عليه وهي لا تقدر على دفعه عنها ولا استنهم للبيع
ثم خاطب المومنين بقوله تعالى وان تدعوهم اي المشركين الى الهدى اي الى الاسلام لا يتبعوكم
اي لان الله تعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلوا الهداية وقرا نافع بتخفيف النون وكسر التاء وفتح
الياء الموحدة والباقون بفتح التاء مشددة وكسر الباء موحدة سواء عليكم ادعوتموهم
الى الهدى ام انتم صامتون اي سواء كنتم عن دعائهم فيما في كلا الحالين لا دعوتموهم وقيل
الضمير في تدعوهم للاصنام اي ان هذه الاصنام التي تعبدها المشركين معلوم من حالها
انها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها الى خير فكيف بعبدها وذلك ان المشركين كانوا اذا دعوا

في شدة وبلا تضرعوا الى اصنامهم واذا لم يكن لهم الى الاصنام حاجة سكتوا فقيل لهم
لا فرق بين دعائكم لاصنامكم وسكوتكم عنها فانها عاجزة في كل حال ان الذين تدعون اي تعبدون
من دون الله عباد اي مملوكة امثالكم فهي لا تملك ضرا ولا نفعا فان قيل كيف وصفها بانها عباد
مع انها جماد اجيب بان المشركين لما ادعوا ان الاصنام تضر وتنفع وجب ان يعتقدوا فيها
كونها عاقلة فاهمة فوردت هذه الالفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا
ولذلك قال فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين في كونها الهة ولم يقل فادعوهن
فليستجبن وقال ان الذين ولم يقل التي وبان هذا اللفظ انما ورد في معرض الاستهزاء بالمشركين
لانهم لما نحتوها بصورة الاناسي قال لهم ان قصارى امرهم ان يكونوا احياء عقلاء امثالكم
فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض فلم جعلتم انفسكم عبيدا وجعلتموها
الهة وارباب ثم ابطل ان يكونوا عبادا امثالكم بقوله تعالى الهم ارجل يمشون بها اي بل ام
لهم ايد جمع يد يبطشون بها اي بل ام لهم اعين يبصرون بها اي بل ام لهم اذان يسمعون
بها وهذا استفهام انكاري اي ليس لهم شيء من ذلك كما هو لكم فكيف تعبدونهم وانتم اتم
حالا منهم اذ لا يليق بالانسان العاقل ان يشتغل بعبادة الاخس الادون الارذل ونظير
هذا قول ابراهيم الخليل عليه السلام لابيه لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا
فان قيل تعلق بعض الجهال بهذه الاية في اثبات هذه الاعضاء لله تعالى فقالوا انه تعالى
جعل عدم هذه الاعضاء لهذه الاصنام دليلا على عدم الهيتها فلو لم تكن هذه الاعضاء موجودة
لله تعالى لكان عدمها دليلا على عدم الالهية وذلك باطل فوجب القول باثبات هذه الاعضاء
لله تعالى اجيب بان المقصود من هذه الاية بيان ان الانسان افضل فاكمل حالا من الصنم
لان الانسان له رجل ماشية ويد باطشة وعين باصرة واذن سامعة والصنم رجله غير ماشية
ويده غير باطشة وعينه غير مبصرة واذنه غير سامعة فكان الانسان افضل واكمل حالا من الصنم
فاشتغال الاكمل الافضل بحال الاخس الادون جهل فهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام
لا ما ذهب اليه وهم هؤلاء الجهال قل ادعوا اي وقل يا محمد لهؤلاء المشركين شركاءكم اي الى هلاكي
ثم كيدون قال الحسن كانوا يخوفونه صلى الله عليه وسلم بالهتهم فقال الله تعالى له قل لهم
ادعوا شركاءكم ثم كيدوني اي ليظهر لكم انه لا قدرة لها على ايصال المضار الي بوجه وقرأ
ابو عمرو باثبات الياء وصلا ووقفا وهشام له فيها وجهان الاثبات والحذف وصلا ووقفا
والباقون يحذفونها وصلا ووقفا ثم تهكم عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله فلا تنظرون
اي فاعجلوا في كيدي انتم وشركاؤكم فانكم لا تقدرون على ذلك وعلل عدم قدرتهم على ذلك
بقوله ان وليي الله اي الذي يتولى حفظي ونصرتي هو الله الذي نزل الكتاب المشتمل على هذه
العلوم العظيمة النافعة في الدين وهو القرآن وهو اي الله يتولى الصالحين اي بنصره وحفظه
فلا يضرهم عداوة من عاداهم قال ابن عباس يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئا ولا
يعصونه فمن عادته تعالى ان يتولى الصالحين من عباده فضلا عن انبيائه وفي هذا
مدح للصالحين فان من تولاه الله تعالى بحفظه لا يضره شيء وعن عمر بن عبد العزيز انه ما
كان يدخل اولاده شيئا فقيل له فيه فقال ولدي اما ان يكون من الصالحين او من المجرمين
فان كان من الصالحين فوليه هو الله تعالى ومن كان الله تعالى له وليا فلا حاجة له الى مالي وان كان
من المجرمين فقد قال تعالى فلن اكون ظهيرا للمجرمين ومن رده الله لم اكن مشتغلا باصلاح مهماته

والذين

والذين تدعون من دونه اي الله لا يستطيعون نصركم ولا انفسهم ينصرون اي فكيف ابالي بهم فان
قيل هذه الاشيا قد صارت مذكورة في الايات المتقدمة فما الفايدة في تكريرها اجيب
بان الاول مذكور على جهة التقريع وهذا مذكور على جهة الفرق بين من يجوز له العبادة
وبين من لا يجوز كانه قيل الاله المعبود يجب ان يكون بحيث يتولى الصالحين وهذه الاصنام
ليست كذلك فلا تكون صالحة للالهية وان تدعوهم اي الاصنام الى الهدى لا يسمعوا دعاكم
وتراهم يا محمد ينظرون اليك اي يقابلونك كالناظر وهم لا يبصرون لانهم صوروا بصورة من
ينظر الى من يواجهه وقال الحسن المراد بهذا المشركون ومعناه ان تدعوا ايها المومنون
المشركين الى الهدى لا يسمعوا دعاكم لان اذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون اليك يا محمد
وهم لا يبصرون اي ببصاير قلوبهم ولما بين تعالى ان الله تعالى هو الذي يتولاه وان الاصنام وعابديها
لا يقدرون على الايذا والاضرار بين ما هو المنهج القويم والصراط المستقيم في معاملة الناس
بقوله تعالى خذ العفو اي اقبل الميسور من اخلاق الناس واعمالهم من غير تجسس وذلك
مثل قبول الاعتذار ويدخل في ذلك ترك التشديد في كل ما يتعلق بالحقوق المالية ويدخل
فيه ايضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة كما قال تعالى ولو كنت
فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك وقال صلى الله عليه وسلم يسروا ولا تعسروا وبشروا
ولا تنفروا وقال الشاعر خذي العفو مني تستدعي مودتي ولا تنطقي في صورتي حين اغضب
وقال عكرمة لما نزلت هذه الاية قال عليه الصلاة والسلام يا جبريل ما هذا قال لا ادري
حتى اسال ثم رجع فقال ان الله يامرك ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفوا عمن
ظلمك وامر بالعرف اي المعروف وقال عطا بلا اله الا الله واعرض عن الجاهلين اي
فلا تقابلهم بالسفه وذلك مثل قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وذلك
سلام المتاركة وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه ليس في القران اية اجمع لمكارم الاخلاق
من هذه الاية وعن عايشة رضي الله تعالى عنها انها قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا
ولا متفحشا ولا سخابا في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وعن جابر
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله بعثني بمكارم الاخلاق وتمام
محاسن الافعال قال ابو زيد لما نزل قوله تعالى واعرض عن الجاهلين قال النبي صلى الله عليه
وسلم كيف يا رب والغضب فنزل واما فيه ادغام نون ان الشرطية فيما الزايدة ينزغنك
من الشيطان نزغ اي وسوسة وقوله تعالى فاستعذ اي استجر بالله جواب الشرط وجواب
الامر محذوف اي يدفعه عنك تنبيه احتج الطاعنون في عصمة الانبيا بهذه الاية
وقالوا لولا انه يجوز من النبي الاقدام على المعصية والذنب لم يحتج الى الاستعاذة واجيب
عن ذلك باجوبة الاول ان معنى هذا الكلام ان حصل في قلبك نزغ فاستعذ بالله كما انه
تعالى قال لين اشركت ليحبطن عملك ولم يدل ذلك على انه اشرك الثاني على تقدير انه
لو حصل وسوسة من الشيطان لكن الله تعالى قد عصم قلبه صلى الله عليه وسلم من قبولها
وثباتها في قلبه وانما القادح لو قبل صلى الله عليه وسلم وسوسته والاية لا تدل على ذلك
وروي انه صلى الله عليه وسلم قال ما من انسان الا ومعه شيطان وفي رواية ما منكم من احد
الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملايكة قالوا واياك يا رسول الله قال
واياي الا ان الله تعالى اعانني عليه فاسلم فلا يامرني الا بخير وفي رواية لكنه اسلم

بعون الله فلقد اتاني فاخذت بحلقه ولولا دعوة سليمان لاصبح في المسجد طريحا قال النووي
يروى هاشم بفتح الميم وضمها فمن ضمها فمعناه فاسلم انا من شره وفتنته ومن فتحها قال
معناه ان القرين اسلم فصار مسلما فلا يامرني الا بخير الثالث ان الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد به غيره اي وان يأتينك ايها الانسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله كقوله
تعالى واذا قرأت القرآن فاستعذ بالله انه سميع للقول عليم بالفعل وفي الآية
دلالة على ان الاستعاذة باللسان لا تفيد الا اذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة
فكأنه تعالى قال اذكر لفظ الاستعاذة بدعائك اني سميع واستحضر معاني الاستعاذة
بعقلك وقلبك واني عليم بما هو مفيد لك وفي الحقيقة القول اللساني بدون المعارف
القلبية عديم الفائدة والاثر ان الذين اتقوا اذا مسهم اصابهم طيف شيء اي شيء الم بهم
من الشيطان تذكروا عقاب الله وثوابه فاذا هم مبصرون الحق من غيره فيرجعون
وقرأ ابن كثير وابو عمرو والكسائي بياء ساكنة بعد الطاء والباقون بالف بعد الطاء
بعدها همزة مكسورة واخوانهم اي واخوان الشياطين من الكفار يمدونهم اي يمد الشياطين
في الغي اي يزيدونهم في الضلالة بالتزيين والحمل عليها ثم لا يقصرون اي لا يكفون
عن الضلالة ولا يتركونها وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لان المؤمن اذا اصابه
طيف الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر والكافر يشتهي ضلاله
لا تتذكر ولا يرعوي واذا لم تأتهم اي باهل مكة اية اي مما اقترحوها كقولهم وقالوا
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا قالوا لولا اجتبيتها اي هلا تقولتها من عند
نفسك كسائر ما تقترحه لانهم كانوا يقولون انك ما اتيت الا افكا افتراه وتقول العرب
احسنت الكلام اختلقته واقتلعته وانتحلته من عندك او هلا طلبتها من ربك
منزلة عليك مقترحة قال الله تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين انما اتبع ما يوحى الي
من ربي اي ليس لي ان اقترح على ربي وامره من الامور وانما انتظر الوحي
فكل شيء اراهنيه قلت والا فالواجب السكوت وترك الاقتراح ثم بين ان عدم الاتيان
بتلك المعجزات التي اقترحوها لا تقدح في الغرض لان ظهور القرآن عليا وقد تحداهم
معجزة بالغة باهرة فاذا ظهر بهذه المعجزة الواحدة كانت كافية في تصحيح النبوة
فكان طلب الزيادة من باب التعنت وقد كرر في وصف القرآن الفاظا للدلالة او كلها قوله
هذا ابصائر من ربكم اي هذا القرآن فيه حجج وبراهين واصل البصائر الابصار وهو ظهور
الشيء حتى يبصره الانسان ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول ودلائل التوحيد
والنبوة والمعاد اطلق عليه لفظ البصيرة فهو من باب تسمية الشيء باسم المسبب وغايتها
فقوله وهدى اي هو هدى وتاليها قوله ورحمة اي وهو رحمة لقوم يوقنون فان قيل
ما الفرق بين هذه المراتب الثلاث اجيب بانهم متفاوتون في درجات العلوم فمنهم
من بلغ الغاية في علم التوحيد حتى صار كالمشاهد وهم اصحاب عين اليقين ومنهم من بلغ
درجة الاستدلال والنظر وهم اصحاب علم اليقين وهم المسلم المستسلم وهم عامة المؤمنين
وهم اصحاب حق اليقين فالقرآن هدى في حق القسم الاول وهم السابقون بالخيرات وفي حق القسم
الثاني وهم المقتصدون هدى وفي حق القسم الثالث وهم عامة المؤمنين رحمة واذا قرئ
القرآن فاستمعوا له وانصتوا اي عن الكلام لعلكم ترحمون اي لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما امركم

به من اوامره واختلفوا في سبب نزول هذه الاية فذهب قوم الى انها نزلت في الصلاة
كانوا يتكلمون فيها فامروا باستماع قراءة الامام والانصات وروي عن ابي هريرة رضي
الله تعالى عنه انهم كانوا يتكلمون في الصلاة بحوائجهم فامروا بالسكوت والاستماع الى
قراءة القران وقال قوم نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الامام وروى زيد بن اسلم
عن ابيه عن ابي هريرة قال نزلت هذه الاية في رفع الاصوات وهم خلف رسول الله
صلى الله عليه وسلم في الصلاة وقال الكلبي كانوا يرفعون اصواتهم في الصلاة حين يسمعون
ذكر الجنة والنار وعن ابن مسعود انه سمع ناسا يقرؤون مع الامام فلما انصرف قال اما آن لكم
ان تفقهوا واذا قرئ القران فاستمعوا له وانصتوا كما امركم الله وهذا قول الحسن والزهري
ان الاية نزلت في القراءة في الصلاة وقال سعيد بن جبير وعطا ومجاهد الاية نزلت في الخطبة
امروا بالانصات لخطبة الامام يوم الجمعة وقال عمر بن عبد العزيز الانصات لكل واعظ
وقيل معناه واذا تلي عليكم الرسول القران عند نزوله فاستمعوا له وقيل معنى فاستمعوا
له فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوا قال البغوي والاول اولاها وهو انها في القراءة في الصلاة
لان الاية مكية والجمعة وجبت بالمدينة قال البيضاوي وظاهر اللفظ يقتضي وجوبهما
حيث يقرا القران مطلقا وعامة العلما على استحبابهما خارج الصلاة واحتج به من لا يرى
القراءة على الماموم وهو ضعيف انتهى اي مردود بخبر الصحيحين لا صلاة لمن لم يقرا بفاتحة
الكتاب وقوله تعالى واذكر ربك في نفسك عام في الاذكار من القراءة والدعا وغيرهما
والمراد بالذكر في النفس ان يستحضر في قلبه عظمة الله تعالى جل جلاله لان الذكر باللسان
اذا كان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لان فائدة الذكر حضور القلب واشعاره
عظمة المذكور تعالى قال الرازي سمعت ان بعض الاكابر من اصحاب القلوب كان اذا اراد ان
يامر واحدا من المريدين بالخلوة والذكر امره اربعين يوما بالخلوة والتصفية ثم عند استكمال
هذه المدة وحصول التصفية التامة يقرا عليه الاسما التسعة والتسعين ويقول
لذلك المريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الاسما بكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوي
تاثره وعظم شوقه فاعلم ان الله انما يفتح ابواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على
ذكر ذلك الاسم بعينه وهذا طريق حسن لطيف في هذا الباب وقيل ذلك امر للماموم بالقراءة
سرا بعد فراغ الامام من قراءة الفاتحة كما هو مذهب الشافعي رحمه الله تعالى تضرعا
اي تذللا وخيفة اي خوفا منه فائدة انما قال تعالى واذكر ربك ولم يقل واذكر الهك
ولا غيره من الاسما وانما سماه في هذا المقام باسم كونه ربا واضاف نفسه اليه وكل ذلك يدل
على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والاحسان والمقصود منه ان يصير العبد فرحا مبتهجا
عند سماع هذا الاسم لان لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل وعند سماع هذا الاسم
يتذكر العبد اقسام انعام الله تعالى عليه وبالخفيفة لا يصل عقله الى اقل اقسامها كما قال
تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فعند انكشاف هذا المقام في القلب يقوى الرجا
فاذا سمع بعد ذلك قوله تضرعا وخيفة عظم الخوف وحينئذ يحصل في القلب موجبات
الرجا وموجبات الخوف وعنده يكمل الايمان كما قال عليه الصلاة والسلام لو وزن خوف
المومن ورجاؤه لاعتدلا وهذا جرى عليه بعضهم في حال الصحة فيكون الخوف والرجا
مستويان والذي جرى عليه الغزالي وهو التحقيق انه ان قوي رجاؤه يقوى جانب الخوف

BULAC

وبالعكس بالمعكس واما حال المرض فيكون جانب الرجا ارجح وعن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك قال ارجو الله
يا رسول الله واني اخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب
مؤمن في مثل هذا الموطن الا اعطاه الله ما يرجو منه وآمنه ما يخاف **ودون الجهر**
من القول اي ومتكلما كلاما فوق السر ودون الجهر اي قصدا بينهما فانه ادخل في الخشوع
والاخلاص **بالغدو** جمع غدوة وقيل انه مصدر **والآصال** جمع اصيل وهو ما بين صلاة
العصر الى المغرب وانما خص هذين الوقتين بالذكر لان الانسان يقوم بالغداة من النوم
الذي هو اخر الموت الى اليقظة التي هي كالحيوة فاستحب له ان يستقبل حالة
الانتباه من النوم وهو وقت الحياة من موت النوم بالذكر ليكون اول اعماله
ذكر الله تعالى واما وقت الاصال وهو اخر النهار فان الانسان يريد ان يستقبل النوم
الذي هو اخر الموت فيستحب الذكر لانه حالة تشبه الموت ولعله لا يقوم من تلك النومة
فيكون موته على ذكر الله تعالى وهو المراد من قوله تعالى **ولا تكن من الغافلين** اي عن
ذكر الله وقيل انما خصا بالذكر لان الصلاة بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر
مكروهة فاستحب للعبد ان يذكر الله تعالى فيهما ليكون في جميع اوقاته مشتغلا بما يقربه
الى الله تعالى من صلاة وذكر وقيل ان اعمال العباد تصعد اول النهار واخره فيصعد عمل الليل
عند صلاة الفجر وتصعد عمل النهار بعد العصر الى المغرب فاستحب له الذكر فيهما ليكون
ابتدا عمله بالذكر وختامه بالذكر **ان الذين عند ربك** اي الملائكة المقربين بالفضل والكرامة
لا يستكبرون اي لا يتكبرون **عن عبادته** لانهم عبيد خاضعون لعظمته وكبريائه **ويسبحونه**
اي وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون سبحان الله ربنا **وله يسجدون** اي ويخصونه
اي ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره وفي هذا اشارة الى ان الاعمال تنقسم
الى قسمين اعمال القلوب واعمال الجوارح فاعمال القلوب هي تنزيه الله تعالى عن كل سوء
وهو الاعتقاد القلبي عبر عنه بقوله ويسبحونه وعبر عن اعمال الجوارح بقوله
وله يسجدون ليوافق الملائكة المقربين في عبادتهم وعن سعدان قال سالت رسول الله
صلى الله عليه وسلم قلت حدثني حديث انتفعني الله به قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ما من عبد يسجد لله سجدة الا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة وفي رواية
قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد
سجدة الا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وعن عبد الله بن عمر رضي الله
تعالى عنهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرا القران فيقرا سورة فيها سجدة فيسجد
ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته في غير وقت صلاة وعن ابي هريرة
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قرا ابن ادم السجدة فسجد اعتزل
الشيطان يبكي يقول يا ويلتي امر ابن ادم بالسجود فسجد فله الجنة وامرت بالسجود فابيت فلي
النار والحديث الذي ذكره البيضاوي تبعا للزمخشري وهو من قرا سورة الاعراف جعل
الله يوم القيامة بينه وبين ابليس سترا وكان ادم شفيعا له يوم القيمة حديث موضوع

سورة الانفال مدنية قيل والا واذ يمكر بك الذين كفروا الايات السبع مكية وهي خمس
او ست او سبع وسبعون اية والف وخمس وسبعون كلمة وخمسة الاف وثمانون حرفا

سورة الانفال مدنية

بسم الله

السادس والعشرون وهو
الخامس والعشرون
بالنسبة الى الجزء الثاني

بسم الله الذي له العظمة الظاهرة والحكمة الباهرة الرحمن الذي عم جميع خلقه بنعمه المتواترة
الرحيم الذي خص من اراد من عباده بما يرضيه فكان حامدا لله وشاكره يسألونك اي يا اشرف
الخلق عن الانفال اي الغنائم لمن هي وكيف مصرفها وانما سميت الغنيمة نفلا لانها عطية
من الله تعالى وفضل منه كما سمي به ما يشرطه الامام لمقتحم خطر عطية له وزيادة على سهمه
قل يا محمد لهم الانفال لله والرسول يجعلانها حيث شاءا واكثر المفسرين ان سبب نزولها
اختلاف المسلمين في غنائم بدر كيف تقسم فقال الشبان هي لنا لانا باشرنا القتال وقال
الشيوخ كنا ردا لكم ولو انكشفتم لفئتم الينا فنزلت وقيل شرط رسول الله صلى الله عليه وسلم
لمن كان له غنا وهو بفتح المعجمة والمد النفع ان ينفله فسار شبانهم حتى قتلوا سبعين
واسروا سبعين ثم طلبوا نفلهم وكان المال قليلا فقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند
الرايات كنا ردا اي عونا لكم وفئة ينحازون فنزلت فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم
على السوا رواه الحاكم في المستدرك وعن عبادة بن الصامت نزلت فينا معشر اصحاب بدر
حين اختلفنا في النفل وساءت فيه اخلاقنا فنزعه الله من ايدينا فجعله لرسوله صلى الله عليه
وسلم فقسمه بين المسلمين على السوا وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله واصلاح ذات
البين وعن سعيد بن ابي وقاص رضي الله تعالى عنه انه قال لما كان يوم بدر قتل اخي عمير وقتلت
به سعيد ابن العاص واخذت سيفه فاتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوهبته
منه فقال هذا ليس لي ولا لك اطرحه في القبض وهو بفتحتين ما قبض من الغنائم فطرحته وبي
ما لا يعلمه الا الله تعالى من قتل اخي واخذ سلبي فما جاوزت الا قليلا حتى نزلت سورة الانفال
فقال لي رسول الله سالتني السيف وليس لي دابة قد صار لي فاذهب فخذه وقيل انها نزلت فيما
وصل من المشركين الى المسلمين بغير قتال من عبد او امة او متاع فهو للنبي صلى الله عليه وسلم
يضع فيه ما يشا واختلفوا هل هذه الاية منسوخة او لا فقال مجاهد وعكرمة هي منسوخة
بقوله تعالى واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول الاية فكانت الغنائم
يومئذ للنبي صلى الله عليه وسلم فنسخها الله تعالى بالخمس وقال بعضهم هي ناسخة من وجه
وذلك ان الغنائم كانت حراما على الامم الذين من قبلنا في شرايع انبيائهم فاباحه الله
تعالى بهذه الاية لهذه الامة وجعلها ناسخة لشرع من قبلنا ثم نسخت باية الخمس
وقال عبد الله ابن زيد بن اسلم هي ثابتة غير منسوخة ومعنى الاية قل الانفال لله والرسول
يضعها حيث امره الله تعالى وقد بين الله تعالى مصارفها في قوله واعلموا انما غنمتم
من شيء فان لله خمسه الاية فان قيل ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول اجيب بان معناه
ان حكم الغنيمة مختص بالله ورسوله بامر الله بقسمتها على ما يقتضيه حكمته وتمثيل الرسول صلى
الله عليه وسلم امر الله تعالى فيها وليس الامر في قسمتها مفوضا الى راي احد فاتقوا الله
بطاعته واتقوا مخالفته واتركوا المخاصمة والمنازعة في الغنائم واصلحوا ذات بينكم
اي واصلحوا الحال فيما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم امر الغنائم الى الله ورسوله
واطيعوا الله ورسوله فيما يامركم به وينهاكم عنه ان كنتم مؤمنين حقا فان الايمان
يقتضي ذلك انما المؤمنون اي الكاملون الايمان الذين اذا ذكر الله وجلت اي خافت
وخضعت ورقت قلوبهم اي ان المؤمن انما يكون مؤمنا كاملا اذا كان خائفا من الله
تعالى ونظيره قوله تعالى والذين هم من عذاب ربهم مشفقون وقوله تعالى الذين هم في صلاتهم

اي وعيده

خاشعون فان قيل انه تعالى قال هنا وجلت قلوبهم وفي اية اخرى وتطمئن قلوبهم بذكر الله
فكيف الجمع بينهما اجيب بانه لا منافاة بينهما لان الوجل هو خوف العقاب والاطمينان
انما يكون من اليقين وشرح الصدر بمعرفة التوحيد وهذا مقام الخوف والرجاء وقد اجتمعا
في اية واحدة وهو قوله تعالى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم
عند رجاء ثواب الله وقال اهل التحقيق الخوف على قسمين خوف العقاب وهو خوف العصاة
وخوف الجلال والعظمة وهو خوف الخواص لانه تعالى غني بذاته عن كل الموجودات فمحتاجون
اليه والمحتاج اذا حضر عند الملك الغني هابه وخافه وليست تلك الهيبة من العقاب
بل مجرد علمه بكونه غنيا عنه وكونه محتاجا اليه يوجب تلك المهابة وذلك الخوف واما
العصاة فيخافون عقابه والمومن اذا ذكر الله وجل قلبه وخافه على قدر مرتبته واذا
تليت عليهم اياته زادتهم ايمانا اي تصديقا ويقينا لان زيادة الايمان بزيادة التصديق
وذلك على وجهين الوجه الاول وهو الذي عليه عامة اهل العلم على ما حكاه الواحدي
ان كل من كانت عنده الدلايل اكثر واقوى كان ازيد ايمانا لان عند حصول كثرة الدلايل وقوتها
يزول الشك ويقوى اليقين فتكون معرفته بالله اقوى فيزداد ايمانه واليه الاشارة بقوله
عليه الصلاة والسلام لو وزن ايمان ابي بكر بايمان اهل الارض لرجح الوجه الثاني
وهو انهم يصدقون بكل ما يتلى عليهم من عند الله ولما كانت التكاليف متوالية في زمنه
صلى الله عليه وسلم فكلما يجدد تكليف كانوا يزدادون تصديقا واقرارا ومن المعلوم
ان من صدق انسانا في شيئين كان اكثر ممن يصدقه في شيء واحد فقوله تعالى واذا تليت
عليهم اياته زادتهم ايمانا معناه انهم كلما سمعوا اية جديدة اتوا باقرار جديد فكان ذلك
زيادة في الايمان والتصديق فان قيل ان تلك الايات لا توجب الزيادة وانما الموجب
هو سماعها او معرفتها اجيب بان ذلك هو المراد من الاية واختلفوا هل الايمان يقبل
الزيادة والنقصان او لا فالذين قالوا ان الايمان عبارة عن التصديق القلبي قالوا
لا يقبل الزيادة ولا النقصان والذين قالوا انه مجموع الاعتقاد والاقرار والعمل
قالوا يقبل الزيادة والنقصان واحتجوا بهذه الاية من وجهين الاول ان قوله تعالى
زادتهم ايمانا يدل على ان الايمان يقبل الزيادة ولو كان عبارة عن التصديق فقط لما
قبل الزيادة واذا قبل الزيادة فقد قبل النقص الوجه الثاني انه تعالى ذكر في هذه
الاية اوصافا متعددة من احوال المومنين ثم قال تعالى بعد ذلك اولئك هم المومنون
حقا وذلك يدل على ان تلك الاوصاف داخلة في مسمى الايمان وروي عن ابي هريرة رضي
الله تعالى عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الايمان بضع وسبعون
شعبة اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق والحياء
شعبة من الايمان ففي الحديث دليل على ان للايمان ادنا واعلا فيكون قابلا للزيادة
والنقص وقال عمير بن حبيب ان للايمان زيادة ونقصانا قيل له فما زيادته وما نقصانه
فقال اذا ذكرنا الله وحمدناه فذلك زيادته واذا سهونا وغفلنا فذلك نقصانه
وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي ان للايمان فرايض وشرايط وحدودا وسننا
فمن استكملها فقد استكمل الايمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ثم وصف الله
تعالى الايمان المومنين الكاملين بصفة اخرى ثالثة وهي الاتكال عليه بقوله تعالى

وعلى

وعلى ربهم يتوكلون اي يفوضون جميع امورهم اليه لا يرجون غيره ولا يخافون سواه لان
المومن اذا كان واثقا بوعد الله ووعيده كان من المتوكلين عليه لا على غيره وهذه الحال
مرتبة عالية ودرجة شريفة وهي ان الانسان بحيث يصير لا يبقى له اعتماد في امر من الامور
الا على الله تعالى وهذه الصفات الثلاث مرتبة على احسن صفات الترتيب فان المرتبة
الاولى هي الوجل عند ذكر الله والمرتبة الثانية هي الانقياد لمقامات تكاليف الله والمرتبة
الاخيرة الانقطاع بالكلية عما سوى الله والاعتماد عليه بالكلية على فضل الله بل الفنا
بالكلية عما سوى الله ثم ان هذه المراتب الثلاث احوال معتبرة في القلوب والبواطن
ثم انتقل منها الى رعاية احوال الظاهر فقال تعالى الذين يقيمون الصلوة اي الذين
يودونها بحقوقها ومما رزقناهم اي اعطيناهم ينفقون في طاعة الله لان راس الطاعات
المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة وبذل المال في مرضات الله ويدخل في ذلك
صلاة الفرض والنفل والزكوات والصدقات والانفاق في الجهاد والانفاق على المساجد
والقناطر ثم قال تعالى اولئك اي الموصوفون بهذه الصفات الخمسة هم المومنون حقا
لانهم حققوا ايمانهم بان ضموا اليه مكارم اعمال القلوب من الخشية والاخلاص والتوكل
ومحاسن افعال الجوارح التي هي المعيار عليها وهي الصلاة والصدقة وحقا مصدر موكد
للجملة التي هي اولئك هم المومنون كقولك هو عبد الله حقا اي احق ذلك حقا تنبيه
اختلف العلماء في انه هل للشخص ان يقول انا مومن حقا او لا فقال اصحاب الشافعي رضي الله تعالى
عنه الاولى ان يقول الرجل انا مومن ان شاء الله تعالى ولا يقول انا مومن حقا وقال اصحاب
ابي حنيفة رحمه الله تعالى الاولى ان يقول انا مومن حقا ولا يجوز ان يقول انا مومن ان شاء
الله واستدل للاول بوجوه الاول ان قوله انا مومن ان شاء الله على سبيل الشك ولكن
الشخص اذا قال انا مومن فقد مدح نفسه باعظم المدائح فربما حصل له بذلك عجب
فاذا قال ان شاء الله زال ذلك العجب وحصل له الانكسار الثاني ان الله تعالى ذكر في اول
الاية ما يدل على الحصر وهو قوله انما المومنون هم كذا وكذا وكلمة انما تفيد الحصر
وذكر في اخر الاية قوله اولئك هم المومنون وهذا ايضا يفيد الحصر فلما دلت هذه
الاية على هذا المعنى ثم ان الانسان لا يمكنه القطع على نفسه بحصول هذه الصفات الخمسة
فكان الاولى له ان يقول له ان يقول ان شاء الله وعن الحسن ان رجلا سأله امومن انت فقال
الحسنى الايمان ايمانان فان كنت سألتني عن الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الاخر والجنة والنار والبعث والحساب فانا مومن بها وان كنت سألتني عن قوله
تعالى انما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم الاية فلا ادري انا منهم ام لا وقال
سفيان الثوري من زعم انه مومن حقا عند الله تعالى ثم لم يشهد انه من اهل
الجنة فقد امن بنصف الاية وهذا الزام منه اي كما انه لا يقطع انه من اهل الجنة
قطعا فلا يقطع بانه مومن حقا الثالث ان قوله انا مومن ان شاء الله للتبرك فهو كقوله
صلى الله عليه وسلم وانا ان شاء الله بكم لاحقون مع العلم القطعي انه لاحق باهل القبور
الرابع ان المومن لا يكون مومنا حقا الا اذا ختم له بالايمان ومات عليه وهذا لا يحصل
الا عند الموت فلهذا السبب حسن ان يقول انا مومن ان شاء الله فالمراد بصرف هذا
الاستثناء الى الخاتمة الخامس ان ذكر هذه الكلمة لا ينافي حصول الجزم والقطع الا ترى انه

BULAC

لقد

تعالى قال لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله وهو تعالى منزه عن الشك
والريب فثبت انه تعالى انما ذكر ذلك تعليما منه لعباده فالاول ذكر هذه الكلمة الدالة
على تفويض الامور الى الله تعالى حتى يحصل بتركه هذه الكلمة دوام الايمان واستدل
للثاني بوجهين الاول ان المتحرك يجوز ان يقول انا متحرك ولا يجوز ان يقول انا متحرك
ان شاء الله وكذا القول في القائم والقاعد فكذا هنا الثاني انه تعالى قال اولئك هم
المؤمنون حقا فقد حكم الله تعالى لهم بكونهم مؤمنين حقا فكان قوله ان شاء الله يوجب
الشك فيما قطع الله لهم به وذلك لا يجوز واجاب الاول عن قولهم المتحرك لا يجوز
ان يقول انا متحرك ان شاء الله بالفرق بين وصف الانسان بكونه مؤمنا وبين وصفه
بكونه متحركا كما ان الايمان يتوقف حاله على الخاتمة والحركة فعل يقيني فحصل الفرق
بينهما وعن قولهم انه تعالى قال اولئك هم المؤمنون حقا فحكم لهم بكونهم مؤمنين حقا بانه
تعالى انما حكم للموصوفين بتلك الصفات المذكورة في الاية بكونهم مؤمنين حقا اذا
اتوا بتلك الاوصاف الخمسة على الحقيقة ونحن لا نعلم ذلك فثبت حينئذ ان الصواب
مع اصحاب القول الاول لهم اي للموصوفين بتلك الصفات درجات اي منازل في الجنة
عند ربهم بعضها اعلى من بعض لان المؤمنين تتفاوت احوالهم في الاخذ بتلك الاوصاف
المذكورة فلهذا تتفاوت منازلهم في الجنة على قدر اعمالهم قال عطاء درجات الجنة يرتفعوا
فيها باعمالهم وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم ان في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مائة عام وعن ابي سعيد الخدري
رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال في الجنة مائة درجة لو ان
العالمين اجتمعوا في احداهن لوسعتهم ومغفرة اي لما فرط منهم ورزق كريم اعد لهم
في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي امده فان قيل اليس المفضول اذا علم حصول الدرجات
العالية للفاضل وحرمانه عنها فانه يتألم قلبه وينغص عيشه وذلك يجب ان يكون الثواب
رزقا كريما اجيب بان استغراق كل احد في سعادته الحاضرة يمنعه من حصول النظر
الى غيره وبالجملة فاحوال الاخرة لا تناسب احوال الدنيا الا بالاسم وقوله تعالى
كما اخرجك ربك من بيتك بالحق يقتضي تشبيه شيء بهذا الاخراج واختلفوا في تقدير
ذلك فقال المبرد تقديره الانفال لله والرسول وان كرهوا كما اخرجك ربك
من بيتك بالحق الى القتال وان كانوا كارهين قال الرازي وهذا الوجه احسن الوجوه
المذكورة في هذا المواضع وقال عكرمة تقديره فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم
فان ذلك خير لكم كما ان اخراج محمد من بيته خير لكم وان كرهه فريق منكم وقال الكسائي
الكاف تتعلق بما بعده وهو قوله يجادلونك في الحق والتقدير كما اخرجك ربك من بيتك
بالحق على كره فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال ويجادلونك فيه وقيل الكاف
بمعنى على تقديره امض على الذي اخرجك ربك وقيل الكاف بمعنى اذ تقديره واذكر اذ اخرجك
ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون الخروج والجملة حال من كاف
اخرجك وقيل كما خبر مبتدا محذوف اي هذه الحالة في كراهتهم لها مثل اخراجك في حال
كراهتهم وقد كان خيرا لهم فكذلك ايضا وذلك ان ابا سفيان قدم بعير من الشام في اربعين
راكبا من كفار قريش منهم عمرو بن العاص ومخرمة ابن نوفل الزهري وفيها تجارة كثيرة فاخبر

جبريل

جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبر المسلمين فاعجبتهم تلقي العير لكثرة المال
وقلة العدو فلما سمع ابو سفيان بمسير النبي صلى الله عليه وسلم استاجر ضمضم بن عمرو الغفاري
وبعثه الى مكة وامره ان ياتي قريشا فيستنفرهم ويخبرهم ان محمدا واصحابه قد خرجوا لعيرهم
فخرج ضمضم سريعا الى مكة وكانت عاتكة اخت العباس بنت عبد المطلب قبل قدوم
ضمضم مكة بثلاث ليال رات يوما رويا فقالت لاخيها اني رايت عجبا رايت راكبا
اقبل على بعير له حتى وقف بالابطح ثم صرخ باعلى صوته الا انفروا يا ال غدر لمصارعكم في ثلاث
فما راى الناس قد اجتمعوا عليه ورايت كان ملكا نزل من السما فاخذ صخرة من الجبل ثم حلق
بها ورمى اي رمى بها الى فوق فلم يبق بيت من بيوت مكة الا اصابه حجر من تلك الصخرة
فقال العباس اكتمها فلا تذكرها لاحد ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة ابن ربيعة
ابن عبد شمس وكان صديقا له فذكرها له واستكتمه فذكرها الوليد لابيه عتبة فغشي
الحديث حتى تحدثت به قريش قال العباس فغدوت اطوف بالبيت وابو جهل بن هشام
في رهط من قريش قعود يتحدثون برويا عاتكة فلما راني ابو جهل قال يا ابا الفضل
اذا فرغت من طوافك فاقبل علينا قال فلما فرغت اقبلت حتى جلست معهم فقال
ابو جهل يا بني عبد المطلب متى حدثت هذه النبية فيكم قلت وما ذاك قال الرويا
التي رات عاتكة قلت وما رات قال يا بني عبد المطلب اما رضيتم ان يتنبا رجالكم حتى
تتنبا نساوكم قد زعمت عاتكة في رويا ها انه قال انفروا في ثلاث تتربص بكم الثلاث
فان يك ما قالت حقا فسيكون وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شي يكتب عليكم كتابا
انكم اكذب اهل بيت في العرب قال العباس فوالله ما كان مني اليه كثير امر الا ان جحدت
ذلك وانكرت الا يكون عاتكة رات شيا ثم تفرقنا فلما امسيت لم تبق امراة من بني عبد
المطلب الا اتتني فقالت اقررتم لهذا الفاسق الخبيث ان يقع في رجالكم ثم قد تناول
النسا وانت تسمع ثم لم يكن عندك غيرة لشي مما سمعت قال قلت والله ما كان مني اليه
من شي وايم الله لا تعرضن له فان عاد لاكفينكنه قال فغدوت في اليوم الثالث من رويا
عاتكة وانا حديد مغضب ارى ان قد فاتني منه امر احب ان ادركه منه قال فدخلت
المسجد فرايته فوالله اني لامشي نحوه اتعرضه ليعود لبعض ما قال فاقع به وكان ابو جهل
رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر اذا خرج نحو باب المسجد يشتد قال
قلت في نفسي ما له لعنه الله اكل هذا فرقا مني ان اشاتمه قال فاذا هو قد سمع ما لم
اسمع صوت ضمضم بن عمرو وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره وقد حول
رحله ومشق قميصه وهو يقول يا معشر قريش هذه اموالكم مع ابي سفيان وقد
عرض لها محمد واصحابه فنادى ابو جهل فوق الكعبة يا اهل مكة النجا النجا وهو
بالمد الاسراع منصوب على الاغرا اي الزموا الاسراع على كل صعب وذلول اي اسرعوا
مجتمعين ولا تفقن لان تختاروا للركوب ذلولا دون صعب عيركم اموالكم ان اصابها
محمد لم تفلحوا بعدها ابدا فخرج ابو جهل بجميع اهل مكة وهم النفير في المثل السائر
لا في العير وتلاقى النفير فقيل له ان العير اخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس
فقال والله لا يكون ذلك ابدا حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ونقيم القينات والمعازف
ببدر فيتسامع جميع العرب بمخرجنا وان محمدا لم يصب العير وانا قد اعضضناه فمضى بهم

BULAC

هكذا الضبط في خط المؤلف

الى بدر وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوق يوم ما في السنة ونزل جبريل عليه السلام وقال
يا محمد ان الله وعدكم احدى الطائفتين اما العير واما قريشا فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم
اصحابه وقال ما يقولون ان القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول فالعير احب
اليكم ام النفير قالوا بل العير احب الينا من لقاء العدو فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه
وسلم ثم رد عليهم وقال ان العير قد مضت عن ساحل البحر وهذا ابو جهل قد اقبل فقالوا
يا رسول الله عليك بالعير ودع العدو فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم ابو بكر وعمر
رضي الله تعالى عنهما فاحسنا الكلام واما لاه ان المضي الى العدو ثم قام سعد بن عبادة
فقال انظر امرك فامض فوالله لو سرت الى عدن ابين وهي مدينة معروفة باليمن
وابين وهو بوزن ابيض اسم رجل من حمير عدن بها اي اقام ما تخلف عنك رجل من الانصار
ثم قال المقداد بن عمرو يا رسول الله امض لما امرك الله فانا معك حيثما احببت لا نقول
لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام اذهب انت وربك فقاتلا انا ها هنا
قاعدون ولكن اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون فتبسم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم قال اشيروا علي ايها الناس وهو يريد الانصار لانهم قالوا له حين بايعوه على
العقبة انا براء من ذمامك حتى تصل الى ديارنا فاذا وصلت الينا وانت في ذمامنا نمنعك
مما نمنع منه ابناءنا ونساءنا فكان صلى الله عليه وسلم يتخوف الا يكون الانصار ترى عليهم
نصرته الا على عدو دهمه بالمدينة فقام سعد بن معاذ فقال لكانك تريدنا يا رسول
الله قال اجل قال فقد امنا بك وصدقناك وشهدنا ان ما جئت به هو الحق واعطيناك
على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما اردت فوالله الذي
بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد
وما نكره ان تلقى بنا عدونا وانا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا
ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله تعالى فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه
قول سعد رضي الله تعالى عنه ثم قال سيروا على بركة الله تعالى وابشروا فان الله وعدني
احدى الطائفتين والله لكاني الآن انظر الى مصارع القوم وعن انس بن مالك رضي
الله تعالى عنه ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حدثه عن اهل بدر قال ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان يرينا مصارع اهل بدر بالامس يقول هذا مصرع فلان
غدا ان شاء الله وهذا مصرع فلان غدا ان شاء الله قال عمر فوالذي بعثه بالحق نبيا ما اخطا
الحدود التي حدها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فجعلوا في بئر بعضهم على بعض فانطلق
رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اتاهم فقال يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم
الله ورسوله حقا واني وجدت ما وعدني الله حقا فقال عمر كيف تكلم اجسادا لا ارواح فيها
فقال ما انتم اسمع لما اقول لهم منهم غير انهم لا يستطيعون ان يردوا علي شيئا وروي انه
قتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر غلبك يا محمد العير ليس دونها
ابو العباس وهو رديفه اي قيده وكان العباس حينئذ مأسورا مقيدا فاصلح فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم قال ان الله وعدك احدى الطائفتين وقد اعطاك ما وعدك فكانت
الكراهة من بعضهم لقوله وان فريقا من المؤمنين لكارهون تحاربوا لوقاية من العير اي القتال
بعد ما تبين اي انك لا تصنع شيئا الا بامر ربك كما تبين اسوقهم الموت وهم ينظرون اليه

اي يكرهون القتال كراهة من يساق الى الموت وهو يشاهد اسبابه وذلك ان المؤمنين
لما ايقنوا بالقتال كرهوا ذلك وقالوا لم يعلمنا انا نلقى العدو فنستعد للقائهم وانما خرجنا
لطلب العير اذ روي انهم كانوا رجالة وما كان فيها الا فارسان وفيه ايما الى ان مجادلتهم كانت
لفرط فزعهم ورعبهم وَإِذْ اي واذكر اذ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ اي العير او النفير واحدى
ثاني مفعولي يعدكم وقد ابدل عنها أَنَّهَا لَكُمْ بدل اشتمال وَتَوَدُّونَ اي تريدون أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ
الشَّوْكَةِ اي القوة والشدة والسلاح وهي العير تَكُونُ لَكُمْ لقلة عددها وعددها اذ لم يكن فيها
الا اربعون فارسا بخلاف النفير لكثرة عددهم وعددهم وقرا ابو عمرو بادغام التا في التا
بخلاف عنه وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ اي يظهر الاسلام بِكَلِمَاتِهِ اي بآياته المنزلة في محاربة
ذات الشوكة وبما امر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من اسرهم وقتلهم وطرحهم في
قليب بدر وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ اي يستاصلهم والمعنى انكم تريدون ان تصيبوا مالا ولا
تلقوا مكروها والله تعالى يريد اعلاء الدين واظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين لِيُحِقَّ الْحَقَّ
اي يثبت الاسلام وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ اي ويمحق الكفر وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ اي المشركون ذلك فان قيل
فان قيل قوله تعالى ليحق الحق بعد قوله ان يحق الحق يشبه التكرار اجيب بان المعنيين
متباينان وذلك ان الاول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت والثاني لبيان
الداعي الى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة على غيرها ونصره عليها إِذْ اي واذكر اذ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ واستغاثتهم انهم لما علموا ان لا محيص عن القتال اخذوا يقولون اي رب انصرنا على عدوك
اغثنا يا غياث المستغيثين وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه عليه الصلاة والسلام نظر الى
المشركين وهم الف والى اصحابه وهم ثلثمائة فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو اللهم انجز لي
ما وعدتني اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض فما زال كذلك حتى سقط رداؤه
فاخذه ابو بكر رضي الله تعالى عنه فالقاه على منكبه والتزمه من ورائه وقال يا نبي الله كفاك
مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال اذ
عند التاء والباقون بالادغام فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي اي باني فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب
محله مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ اي متتابعين يردف بعضهم بعضا وقرا نافع بفتح
الدال وقيل بالفتح والكسر والباقون بالكسر وعددهم بالالف اولا ثم صارت ثلاثة الاف ثم خمسة
كما في آل عمران فقيل نزل جبريل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها ابو بكر رضي الله
تعالى عنه وميكائيل عليه السلام في خمسمائة ملك على الميسرة وفيها علي رضي الله تعالى عنه في صور
الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قد ارخوا اذنابها بين اكتافهم فقاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا
يوم الاحزاب ويوم حنين وروي ان ابا جهل قال لابن مسعود من اين كان ذلك الصوت
الذي كنا نسمع ولا نرى شخصا قال من الملائكة فقال ابو جهل هم غلبونا لا انتم وروي ان رجلا
من المسلمين بينما هو يشتد في طلب رجل من المشركين اذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه
فنظر الى المشرك فدخر مستلقيا وشق وجهه فحدث الانصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال صدقت ذاك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يوم بدر سبعين واسروا سبعين وعن ابي داود
المازني تبعت رجلا من المشركين لاضربه يوم بدر فوقع راسه بين يدي قبل ان يصل اليه سيفي
وروى ابو امامة بن سهل ابن حنيف عن ابيه قال لقد رايتنا يوم بدر وان احدنا ليشير بسيفه
الى المشرك فتقع راسه عن جسده قبل ما يصل اليه السيف وقيل انهم لم يقاتلوا وانما كانوا يكثرون

السواد ويثبتوا المؤمنين والا فملك واحد كاف في اهلاك اهل الدنيا كلهم فان جبريل عليه السلام
اهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط واهلك بلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة وقيل
يدل على هذا قوله تعالى وما جعله الله الا بشرى اي وما جعل الارداف بالملائكة الا بشرى لكم
ولتطمئن به قلوبكم فيزول ما بها من الوجل لقتلكم وذلتكم والصحيح انهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا
فيما سواه لما تقدم وما النصر الا من عند الله عند غيره واما امداد الملائكة وكثرة العدد والاهب
ونحوها فهي وسائط لا تاثير لها فلا تحسبوا ان النصر منها ولا ييأسوا منه بفقدها وفي ذلك
تنبيه على ان الواجب على المسلم ان لا يتوكل الا على الله في جميع احواله ولا يثق بغيره قال تعالى
فان الله تعالى بيده النصر والاعانة ان الله عزيز اي انه تعالى قوي منيع لا يقهره شيء ولا يغلبه
غالب بل هو يقهر كل شيء ويغلبه حكيم في تدبيره ونصره ينصر من يشاء ويخذل من يشاء من عباده اذ
اي واذكر اذ يغشاكم النعاس وهو النوم الخفيف امنة اي امنا بما حصل لكم من الخوف من عدوكم
منه اي الله تعالى لانهم لما خافوا على انفسهم لكثرة عدوهم وعددهم وقلة المسلمين وقلة عددهم
وعطشوا عطشا شديدا القى الله تعالى عليهم النوم حتى حصلت لهم الراحة وزال عنهم الكلال
والعطش وتمكنوا من قتال عدوهم كان ذلك النوم نعمة في حقهم لانه كان خفيفا بحيث لو قصدهم
العدو لعرفوا وصوله اليهم وقدروا على دفعه عنهم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما النعاس
في القتال امنة من الله وفي الصلاة وسوسة من الشيطان وقرا نافع بضم الياء وكسر الشين مخففة
وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والشين مع التخفيف فيهما والباقون بضم الياء وكسر الشين مشددة
ورفع السين من النعاس ابن كثير وابو عمرو ونصبها الباقون على ان الله هو الفاعل وينزل عليكم
من السماء ماء اي مطرا ليطهركم به اي من الاحداث والجنابات وقرا ابن كثير وابو عمرو بسكون النون
وتخفيف الزاي والباقون بفتح النون وتشديد الزاي وذلك ان المسلمين نزلوا يوم بدر
على كثيب رمل اعفر تسوخ فيه الاقدام وحوافر الدواب فقاموا فاحتلم اكثرهم وكان المشركون
قد سبقوهم على ماء بدر فنزلوا عليه واصبح المسلمون على غير ماء وبعضهم محدث وبعضهم جنب واصابهم
العطش فوسوس اليهم الشيطان وقال لهم المنافقون تزعمون انكم على الحق وفيكم نبي الله صلى
الله عليه وسلم وانتم اولياء الله وقد غلبكم المشركون على الماء وانتم تصلون محدثين فكيف ترجوا
ان تظهروا على عدوكم فانزل الله تعالى مطرا وما يستطرون بكم الا ان يجهدكم العطش فاذا قطع
العطش اعناقكم مشوا اليكم فقتلوا من احبوا وساقوا بقيتكم الى مكة فحزنوا حزنا شديدا
واشفقوا فانزل الله تعالى مطرا اسال منه الوادي فشرب منه المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا
وسقوا الدواب وملاوا الاسقية وطفا الغبار وعظمت النعمة من الله تعالى عليهم بذلك
وكان دليلا على حصول النصر والظفر وزالت عنهم وسوسة الشيطان كما قال تعالى ويذهب
عنكم رجز الشيطان اي وسوسته التي القاها في قلوبكم وقيل الجنابة لانها من تخييله
فان قيل يلزم على هذا التكرار لان هذا تقدم في قوله ليطهركم به واجيب عنه بان المراد
من قوله ليطهركم به حصول الطهارة الشرعية ومن قوله يذهب عنكم رجز الشيطان ان الرجز
هو عين المني فانه شيء مستخبث وطابت انفسهم كما قال تعالى وليربط اي يحبس على قلوبكم
باليقين والصبر وليدت الارض حتى ثبت عليها الاقدام كما قال تعالى ويثبت به الاقدام اي
ان تسوخ في الرمل والضمير في به للماء ويجوز كما قال الزمخشري ان يكون للربط لان القلب اذا تمكن
فيه الصبر والجراة ثبتت القدم في مواطن القتال وقوله تعالى اذ يوحي ربك متعلق بيثبت

او بدل

او بدل من اذ يعدكم اى اذكروا اذ يوحى ربك الى الذين امنوا بهم المسلمين وقوله تعالى انى معكم اى بالعون والنصر
مفعول يوحى فثبتوا الذين امنوا اى قووا قلوبهم بان تقاتلوا المشركين معهم وقيل بالتبشير
والاعانة فكان الملك يمشى فى صورة رجل امام الصف ويقول ابشروا فان الله ناصركم عليهم
فاثبتوا يعبد ونه وهو لا يعبد ونه وقيل بالقاء الايهام فى قلوبهم كما ان للشيطان قوة فى القاء
الوسوسة فى قلب ابن ادم بالشر فكذلك للملك قوة فى الالقاء الالهام فى قلب ابن ادم بالخير
وسمى ما يلقى الشيطان وسوسة وما يلقى الملك الهاما ثم بين تعالى الحق بقوله تعالى
سالقى فى قلوب الذين كفروا الرعب اى الخوف فلا يكون لهم ثبات وكان ذلك نعمة من
الله تعالى على المومنين بحسن العون الخوف فى قلوب المشركين وقرا ابن عامر والكسائى برفع
النون والباقون بالسكون وقوله تعالى فاضربوا خطاب للمومنين وللملائكة فوق الاعناق
اى اعالى الذى هى المذابح والمفاصل او الرؤس وكفا فوق الاعناق وقيل المراد الاعناق وفوق
صلة او بمعنى على اى اضربوا الاعناق واضربوا منهم كل بنان قال عطية يعنى كل مفصل
وقال ابن عباس يعنى الاطراف والبنان جمع بنانة وهى اطراف الاصابع من اليدين
والرجلين وقال ابن الانبارى كانت الملائكة لا تعلم كيف تقاتل بنى ادم فعلمهم الله تعالى
فقيل لهم اضربن الرامز والبنان بالذكر لان الراس اعلى الجسد واشرف الاعضاء والبنان
اضعف الاعضاء فيدخل فى ذلك كل عضو فى الجسد وقيل امرهم بضرب الراس وبه هلاك
الانسان وبضرب اللسان وبه تبطل حركته عن القتال لان باللسان يتمكن من سداد السلاح
وحمله والضرب به فاذا قطع بنانه تعطل عن ذلك كله ذلك اى التسليط العظيم الذى وقع
من القتل والاسر يوم بدر والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم او لكل احد بانهم اى الذين تحزبوا
بالكفر شاقوا الله اى الذى لا يطاق انتقامه ورسوله اى خالفوهما فى الامر والنواهى والمشاقة
المخالفة واصلها المجانبة كانهم صاروا فى شق وجانب غير شق الذى هو صيانه ومن
يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب له فان الذى اصابهم فى ذلك اليوم من الاسر
والقتل شى قليل فيما اعد الله تعالى لهم من العقاب يوم القيامة وقوله تعالى ذلكم خطاب
للكفرة على طريق الالتفات من الغيبة فى شاقوا اى ذلكم الذى عجل لكم ببدر من الاسر
والقتل فذوقوه عاجلا وان للنار عذاب النار ووضع الظاهر فيه موضع المضمر
للدلالة على ان الكفر سبب للجمع بين العاجل والاجل يا ايها الذين امنوا اذا لقيتم الذين
كفروا زحفا اى مجتمعين كانهم لكثرتهم يرجفون اى يدبون دبيبا من زحف الصبى اذا دب
على استه قليلا قليلا سمى به وجمع على حروف وانتصابه على الحال وهو مصدر موصوف
به كالعدل والرضى ولذلك جمع فلا تولوهم الادبار اى منهزمين عنهم وان كنتم اقل منهم
ومن يولهم يومئذ اى يوم لقائهم دبره اى يجعل ظهره منهم مما الا متحرفا اى منعطفا لقتال بان
يرى انه منهم خداعا ثم يكر عليهم وتقوا ب من مكايد الحرب او متحيزا اى منضما وصائرا
الى فئة اى جماعة اخرى من المسلمين سوى الفئة التى تقوده على الضرب يستحيد بها
ومنهم من لم يعتقد الضرب لما روى عن عمر رضى الله تعالى عنه انه كان فى سرية فحاص الناس
فرسول الله صلى الله عليه وسلم فمروا الى المدينة فقلت يا رسول الله نحن الفرارون
فقال بل انتم العكارون وفى رواية الكرارون اى المنعطفون الى الحرب وانا فئتكم
وانهزم رجل من القادسية فاتى المدينة الى عمر رضى الله تعالى عنه فقال يا امير

ای منعطفا

ای الیهم

المومنين هلكت ففررت من الزحف فقال عمر انا فيئتك فقد باء اي رجع بغضب من الله ومأواه جهنم
وبئس المصير اي المرجع هي وعن ابن عباس ان الفرار من الزحف من اكبر الكبائر هذا اذا لم يزد
العدد على الضعف لقوله تعالى الان خفف الله عنكم الاية وقيل هذا في اهل بدر خاصة لانه
ما كان يجوز لهم الانهزام يوم بدر لان النبي صلى الله عليه وسلم كان معهم قال مجاهد لما انصرف المسلمون
من قتال بدر كان الرجل يقول انا قتلت فلانا ويقول الاخر اني قتلت فلانا نزل قوله تعالى
فلم تقتلوهم اي بقوتكم ولكن الله قتلهم اي بنصره اياكم بان هزمهم لكم قال البيضاوي تبعا للزمخشري
والفا جواب شرط محذوف تقديره ان افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم انتهى ورده
ابن هشام بان الجواب المنفي بلم لا يدخل عليه الفا واختلف في سبب نزول قوله تعالى وما
رميت اي يا محمد اذ رميت ولكن الله رمى على ثلاثة اقوال الاول وهو قول اكثر المفسرين انها
نزلت في يوم بدر وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الى قتال بدر نزلوا بدرا
ووردت عليهم زوايا قريش وفيهم اسلم غلام اسود لبني الحجاج وابو يسار غلام لبني العاص
ابن سعد فاتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهما اين قريش فقالا هم وراء هذا
الكثيب الذي بالعدوة القصوى والكثيب العقنقل وهو الكثيب العظيم المتداخل الرمل
قاله الجوهري فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما كم القوم قالا كثير قال ما عدتهم
قالا لا ندري قال كم ينحرون كل يوم قالا يوما عشرة ويوما تسعة فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم القوم ما بين التسعماية الى الالف ثم قال لهما فمن فيهم من اشراف قريش قالا عتبة
ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وابو البختري ابن هشام وابو جهل بن هشام وعدا جماعة
اخر فقال صلى الله عليه وسلم هذه مكة قد القت اليكم افلاذ كبدها فلما طلعت
قريش من العقنقل قال عليه الصلاة والسلام هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها
يكذبون رسولك اللهم اني اسالك ما وعدتني فاتاه جبريل عليه السلام وقال له
خذ قبضة من تراب فارمهم بها فلما التقا الجمعان قال لعلي رضي الله تعالى عنه اعطني
قبضة من حصا الوادي فرمى بها في وجوههم وقال شاهت الوجوه اي قبحت فلم يبق
مشرك الا دخل في عينه وفيه ومنخره فانهزموا وردفهم المومنون يقتلونهم ويأسرونهم
والمعنى ان الرمية التي رميتها لم ترمها انت على الحقيقة لانك لو رميتها لما بلغ اثرها
الا ما يبلغه اثر البشر ولكنها كانت رمية الله حيث اثرت ذلك الاثر العظيم لان كفا
من الحصباء لا يملا عيون الجيش الكثير برمية بشر فاثبت الرمية لرسوله صلى الله عليه وسلم
لان صورتها وجدت منه ونفاها عنه لان اثرها الذي لا يطيقه البشر فعل الله
تعالى فكان الله هو فاعل الرمية على الحقيقة وكانها لم توجد من الرسول اصلا والقول
الثاني انها نزلت يوم خيبر روي انه عليه الصلاة والسلام اخذ قوسا وهو على باب
خيبر فرمى بينهما فاقبل السهم حتى قتل لبابة ابن ابي الحقيق وهو على فرسه فنزلت
والقول الثالث انها نزلت يوم احد في قتل ابي بن خلف وذلك انه اتى النبي صلى الله
عليه وسلم بعظم رميم وفتته وقال يا محمد من يحيي هذه وهي رميم فقال صلى الله
عليه وسلم يحييه الله ثم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك النار فاسر يوم بدر فلما افتدى
قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان عندي فرسا اعلفها كل يوم فرقا من ذرة اقتلك عليه
فقال صلى الله عليه وسلم بل انا اقتلك ان شاء الله فلما كان يوم احد اقبل ابي يركض ذلك الفرس

حتى دنى من النبي

حتى دنى من النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض له رجال من المسلمين ليقتلوه فقال صلى الله
عليه وسلم استأخروا ورماه بحربة كسر ضلعا من اضلاعه فحمل فمات ببعض الطريق والاصح
الاول والا ادخل في اثناء القصة كلاما اجنبيا عنها وذلك لا يليق وقال الرازي لا يبعد ان يدخل تحته
سائر الوقائع لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وقرا ابن عامر وحمزة والكسائي ولكن
الله قتلهم ولكن الله رمى بكسر النون مخففة ورفع الهاء من اسم الله فيهما والباقون بفتح النون
مشددة ونصب الهاء وقوله تعالى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا معطوف على قوله ولكن الله
رمى اي وليتم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ثم ختم الله تعالى هذه الاية بقوله ان الله سميع لاقوالكم
عليم باحوال قلوبكم وهذا جرى مجرى التحذير والترهيب لئلا يغتر العبد بظواهر الامور ويعلم
ان الخالق تعالى يطلع على ما في الضمائر والقلوب وقوله تعالى ذلكم اشارة الى البلاء الحسن ومحله
الرفع اي العوض لكم وقوله تعالى وان الله موهن كيد الكافرين معطوف على ذلكم اي المقصود ابلاء
المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وابطال حيلهم وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الواو وتشديد
الهاء وتنوين النون ونصب الدال وقرا حفص بسكون الواو وتخفيف الهاء وعدم تنوين النون
وخفض الدال والباقون بسكون الواو وتخفيف الهاء مع تنوين النون ونصب الدال وقوله تعالى
ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح اكثر المفسرين على انه خطاب للكفار روي ان ابا جهل لعنه الله قال
يوم بدر اللهم اينا كان افظع للرحم فاحجر فاهلكه الغداة وقال السدي ان اكثر المشركين لما ارادوا
الخروج الى بدر اخذوا استار الكعبة وقالوا اللهم انصر اعلى الجندين واهدى القبيلين واكرم
الحزبين بافضل الدينين فانزل الله تعالى هذه الاية اي ان تستنصروا لاهدى القبيلين وتستفتحوا
فقد جاءكم الفتح النصر خطاب للمؤمنين النصر بهلاك من هو كذلك وهو ابو جهل ومن قتل
معه دون النبي والمؤمنين وقيل خطاب للمؤمنين وذلك انه صلى الله عليه وسلم لما راى المشركين
وكثرة عددهم وعددهم استغاث بالله تعالى وطلب ما وعده الله تعالى به من احدى الطائفتين
وتضرع الى الله تعالى وكذلك الصحابة رضي الله تعالى عنهم فقال تعالى ان تستفتحوا اي ان تطلبوا
النصر الذي تقدم به الوعد فقد جاءكم الفتح اي حصل ما وعدتم فاشكروا الله تعالى والزموا الطاعة
قال القاضي وهذا القول اولى لان قوله فقد جاءكم الفتح لا يليق الا بالمؤمنين انتهى وقال
البيضاوي انه خطاب لاهل مكة على سبيل التهكم انتهى ويدل له قوله تعالى وان تنتهوا اي
عن الكفر ومعاداة الرسول فهو خير لكم اي لتضمنه سلامة الدارين وخير المنزلتين وان تعودوا
اي لقتال النبي صلى الله عليه وسلم نعد لنصرته عليكم ولن تغني اي تدفع عنكم فئتكم اي جماعتكم
شيئا لان الله تعالى على الكافرين فيخذلهم ولو كثرت فئتكم وان الله تعالى مع المؤمنين بالنصر
والمعونة وقرا نافع وابن عامر وحفص بفتح الهمزة على ولان الله والباقون بالكسر على
الاستئناف يا ايها الذين امنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا اي تعرضوا عنه اي الرسول صلى
الله عليه وسلم بمخالفة امره فان المراد من الاية الامر بطاعته والنهي عن الاعراض عنه وذكر
طاعة الله للتوطئة والتنبيه على ان طاعة الله في طاعة الرسول كقوله تعالى من يطع الرسول
فقد اطاع الله وقيل الضمير للجهاد وانتم تسمعون اي القران والمواعظ سماع فهم وتصديق
ولا تكونوا كالذين قالوا اي بالسنتهم سمعنا وهم لا يسمعون سماعا ينتفعون به وهذه صفة
صفة المنافقين ان شر الدواب عند الله اي ان شر من دب على وجه الارض من خلق الله عنده
الصم عن سماع الحق البكم اي عن النطق بالحق فلا يقولونه الذين لا يعقلون امر الله سماهم دواب

لقلة انتفاعهم بعقولهم كما قال تعالى اولئك كالانعام بل هم اضل قال ابن عباس هم نفر
من بني عبد الدار ابن قصي كانوا يقولون نحن صم بكم عما جاء به محمد فقتلوا جميعا باحد
وكانوا اصحاب اللوا ولم يسلم منهم الا رجلان مصعب بن عمير وسويبط ابن حرملة
ولو علم الله فيهم خيرا اي سعادة كتبت لهم او انتفاعا بالايات لاسمعهم سماع تفهم
ولو اسمعهم على سبيل الفرض وقد علم ان لا خير فيهم لتولوا عنه ولم ينتفعوا به او ارتدوا
بعد التصديق والقبول وهم معرضون لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره وقيل انهم
كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم احي لنا قصيا فانه كان شيخا مباركا يشهد
لك بالنبوة فنؤمن بك فقال الله تعالى ولو اسمعهم كلام قصي لتولوا عنه وهم معرضون
يا ايها الذين امنوا استجيبوا لله وللرسول اي اجيبوهما بالطاعة ووحد الضمير في قوله
تعالى اذا دعاكم لان دعوة الله تعالى تسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم وروى الترمذي
انه صلى الله عليه وسلم مر على ابي ابن كعب وهو يصلي فدعاه فعجل في صلاته ثم جا فقال
له صلى الله عليه وسلم ما منعك عن اجابتي قال كنت اصلي قال الم تجد فيما اوحي الي استجيبوا
لله وللرسول ويوخذ من ذلك ان اجابته صلى الله عليه وسلم بالقول لا تقطع الصلاة
وهو كذلك بل ولا بالفعل الكثير كما قاله بعض اصحابنا وهو ظاهر الحديث ايضا ولما كان اجتنا
ثمرة الطاعة في غاية القرب نبه على ذلك باللام دون الى فقال لما يحييكم من العلوم الدينية
فانها حياة القلوب والجهل موتها قال ابو الطيب لا تعجبن الجهول حليته فذاك ميت وثوبه كفن
او مما يورثكم الحياة الابدية في النعيم الدائم من العقائد والاعمال وقال السدي هو الايمان
لان الكافر ميت فيحيى بالايمان وقال ابن اسحاق هو الجهاد اعزكم الله تعالى به بعد الذل
وقال العتبي هو الشهادة لقوله تعالى بل احياء عند ربهم يرزقون واعلموا ان الله يحول
بين المرء وقلبه اي انه يميته فيفوته الفرصة التي هي واجدها وهي التمكن من اخلاص القلب
ومعالجة ادوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله تعالى فاغتنموا هذه الفرصة واخلصوا
قلوبكم لطاعة الله ورسوله وقال الضحاك يحول بين المومن والمعصية وبين الكافر والطاعة
وقال السدي يحول بين المرء وقلبه فلا يستطيع ان يومن ولا ان يكفر الا باذنه وقال مجاهد
يحول بين المرء وقلبه فلا يعقل ولا يدري ما يعمل وعن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه انه قال
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قالوا
يا رسول الله امنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال القلوب بين اصبعين من اصابع
الله يقلبها كيف يشاء وانه اي واعلموا انه تعالى اليه تحشرون لا الى غيره ولا تتركون مهملين
معطلين فيجازيكم باعمالكم وفي هذا تشديد في العمل وتحذير عن الكسل والغفلة واتقوا فتنة
اي ذنبا قيل هو اقرار المنكر بين اظهرهم وقيل اقتراف الكلمة وقيل فتنة عذابا وقوله
تعالى لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة جواب الامر والمعنى ان اصابتكم لا تصيب الظالمين
منكم خاصة ولكنها تعمكم كما يحكى ان علماء بني اسرائيل لم ينهوا عن المنكر فعمهم الله تعالى بالعذاب
فان قيل كيف جاز ان تدخل النون المؤكدة في جواب الامر اجيب بان فيه معنى النهي كقولك انزل
عن الدابة لا تطرحك ولا تطرحنك وكقوله تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان
واعلموا ان الله شديد العقاب لمن خالفه واذكروا يا معشر المهاجرين اذ انتم اي في اوائل
الاسلام قليل اعددكم مستضعفون اي لا منعة عندكم في الارض اي ارض مكة واطلقها لانها

منعة

لعظمها

لعظمها كأنها هي الارض كلها او لان حالهم كان في بغيتنا البلاد كحالهم فيها او تربيا من ذلك ولهذا
عبر بالناس في قوله تخافون ان يتخطفكم الناس اي تاخذكم الكفار بسرعة كما يتخطف الجوارح الصيد
فآواكم الى المدينة او جعل لكم ماوى تتحصنون به على اعاديكم وايدكم اي قواكم بنصره اي بامداد
الملائكة يوم بدر او بمظاهرة الانصار ورزقكم من الطيبات اي الغنائم احلها لكم ولم يحلها
لاحد قبلكم لعلكم تشكرون هذه النعم العظيمة يا ايها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول
اي بان تضمروا خلاف ما تظهرون روي انه صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة احدى
وعشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح كما صالح اخوانهم بني النضير على
ان يسيروا الى اخوانهم باذرعات واريحا من الشام فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
يعطيهم ذلك الا ان ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فابوا وقالوا ارسل الينا ابا لبابة
واسمه رفاعة او مروان بن عبد المنذر وكان مناصحا لهم لان ماله وعياله عندهم فبعثه رسول
الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقالوا يا ابا لبابة ما ترى انزل على حكم سعد بن معاذ فاشار
ابو لبابة بيده الى حلقه انه الذبح اي ان حكم سعد هو القتل فلا تفعلوا فقال ابو لبابة
والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت اني قد خنت الله ورسوله ثم انطلق على وجهه
ولم يات رسول الله صلى الله عليه وسلم وشد نفسه على سارية من سواري المسجد وقال والله لا اذوق
طعاما ولا شرابا حتى اموت او يتوب الله علي فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
اما لو جاني لاستغفرت له واما ان فعل ما فعل فاني لا اطلقه حتى يتوب الله تعالى عليه فمكث سبعة
ايام لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه فقيل له تيب عليك فحل
نفسك فقال لا والله لا احلها حتى ياتي رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فحله بيده فقال
ان من تمام توبتي ان اهجر دار قومي التي اصبت فيها الذنب وان انخلع من مالي فقال له صلى الله
عليه وسلم يجزيك الثلث ان تتصدق به فنزلت هذه الآية وعن المغيرة نزلت في قتل عثمان
ابن عفان وعن جابر بن عبد الله ان ابا سفيان خرج من مكة فعلم النبي صلى الله عليه وسلم خروجه
وعزم على الذهاب اليه فكتب رجل من المنافقين اليه ان محمدا يريدكم فخذوا حذركم فنزلت
وقيل معنى لا تخونوا الله بان تعطلوا فرائضه ورسوله بان لا تستنوا به واصل الخوف النقص
كما ان اصل الوفاء التمام واستعماله في ضد الامانة لتضمنه اياه وقوله تعالى وتخونوا اماناتكم
اي ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره مجزوم بالعطف على الاول اي ولا تخونوا او منصوب بان مضمرة
بعد الواو على جواب النهي اي لا تجمعوا بين الخيانتين كقوله لا تنه عن خلق وتاتي مثله
وانتم تعلمون انكم تخونون اي او انتم عالما مميزون الحسن من القبيح واعلموا انما اموالكم
واولادكم فتنة اي محنة من الله تعالى ليبلوكم فيهم فلا يحملنكم حبهم على الخيانة كابي لبابة
لانه يشغل القلب بالدنيا ويصيره حجابا عن خدمة المولى ثم انه تعالى نبه بقوله وان الله عنده
اجر عظيم على ان سعادات الآخرة خير من سعادات الدنيا لانها اعظم في الشرف واعظم في القوة
واعظم في المدة لانها تبقى بقاء لا نهاية لها فهذا هو المراد من وصف الله الاجر الذي عنده بالعظم
قال الرازي ويمكن ان يتمسك بهذه الآية في بيان ان الاشتغال بالنوافل افضل من الاشتغال
بالنكاح لان الاشتغال بالنوافل يفيد الاجر العظيم عند الله والاشتغال بالنوافل افضل
من الاشتغال بالنكاح يفيد الولد ويوجب الحاجة الى المال وذلك فتنة ومعلوم ان ما
يفضي الى الاجر العظيم عند الله هو خير مما يفضي الى الفتنة انتهى لكن محله في غير المحتاج الى النكاح

الواحد اهبته والا فالنكاح حينئذ اولى من التخلي للعبادة ولما حذر تعالى عن الفتنة بالاموال
والاولاد رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الاموال والاولاد بقوله
يا ايها الذين امنوا ان تتقوا الله اي بالامانة وغيرها يجعل لكم فرقانا اي هداية في قلوبكم تفرقون بها
بين الحق والباطل ويكفر عنكم سيئاتكم اي يسترها ما دمتم على التقوى ويغفر لكم اي يمحوا ما كان منكم
غير صالح عينا واثرا وقيل السيئات الصغاير والذنوب الكباير وقيل المراد ما تقدم وما تاخر
لانها في اهل بدر وقد غفرها الله تعالى لهم وقوله تعالى والله ذو الفضل العظيم تنبيه
على ان ما وعده لهم على التقوى تفضل منه واحسان وانه ليس مما يوجبه تقواهم عليه كالسيد
اذا وعد عبده انعاما على عمله ولما ذكر الله سبحانه وتعالى المومنين نعمة عليهم بقوله
تعالى واذكروا اذ انتم قليل الى اخره عطف عليه قوله تعالى واذ يمكر بك الذين كفروا فذكر
رسوله صلى الله عليه وسلم نعمه عليه وهو رفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه وهذه السورة
مدنية وهذا المكر كان بمكة ولكن الله تعالى ذكره بالمدينة مكر قريش به حين كان بمكة
ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم واستيلايه عليهم وكان ذلك المكر على ما ذكره بن عباس
وغيره من المفسرين ان قريشا لما اسلمت الانصار وبايعوه فرقوا ان يتفاقم امر رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعت روساوهم كابي جهل وعتبة وشيبة ابن ربيعة
وابي سفيان وهشام بن عمرو وطعيمة بن عدي والنضر ابن الحارث وابي البختري بن هشام
في دار الندوة متشاورين في امره فدخل عليهم ابليس لعنه الله تعالى في صورة شيخ فلما راوه قالوا
من انت قال شيخ من نجد سمعت باجتماعكم فاردت ان احضركم ولن تقدموا مني رايا ونصحا
قالوا ادخل فدخل فقال ابو البختري رايي ان تحبسوه في بيت وتسدوا باب البيت غير
كوة يلقون اليه طعامه وشرابه منها وتتربصوا به ريب المنون حتى يهلك مثل ما هلك
من قبله من الشعرا فصرخ عدو الله النجدي وقال بيس الراي رايتم والله لين حبستموه في بيت
ليأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من ايديكم قالوا صدق الشيخ النجدي فقال
هشام بن عمرو رايي ان تحملوه على جمل وتخرجوه من بين اظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتم
فقال النجدي بيس الراي تعمدون الى رجل قد افسد سفهاكم فتخرجوه الى غيركم فيفسدهم
الم تروا الى حلاوة منطقه وطلاوة لسانه واخذ القلوب ما يسمع من حديثه والله لين فعلتم
ذلك فيذهب ويستميل قلوب قوم ثم يسير بهم اليكم ويخرجكم من بلادكم قالوا صدق والله
الشيخ النجدي فقال ابو جهل لعنه الله تعالى والله لاشيرن عليكم براي لا راي غيره اني ارى ان
تاخذوا من كل بطن من قريش شابا وتعطوه سيفا صارما فيضربوه ضربة رجل واحد
فيفرق دمه في القبايل فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم فاذا طلبوا العقل
عقلناه واسترحنا فقال ابليس الملعون صدق هذا الفتى هو اجودكم رايا القول ما قال
لا ارى غيره فتفرقوا على قول ابي جهل مجمعين على قتله فاتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله
عليه وسلم فاخبره بذلك وامره ان لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه واذن الله تعالى
له عند ذلك بالخروج الى المدينة فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله تعالى عنه
فقام في مضجعه وقال له اتشح ببردي فانه لن يخلص اليك امر تكرهه ثم خرج النبي صلى
الله عليه وسلم فاخذ قبضة من تراب واخذ الله تعالى ابصارهم عنه وجعل ينثر التراب
على روسهم واخذ الله تعالى ابصارهم عنه وهو يقرا انا جعلنا في اعناقهم اغلالا الى قوله تعالى

فهم

فهم لا يبصرون ومضى الى الغار هو وابو بكر وخلف عليا بمكة حتى يودي عنه الودايع التي كانت
عنده وكانت الودايع تودع عنده لصدقه وامانته وبات المشركون يحرسون عليا على فراش
رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسبون انه النبي صلى الله عليه وسلم فلما اصبحوا بادروا اليه فراوا
عليا فقالوا له واين صاحبك قال لا ادري فاقتصوا اثره وارسلوا في طلبه فلما بلغوا
الغار راوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخله لم تكن نسج العنكبوت على بابه فمكث
فيه ثلاثا ثم قدم المدينة وابطل الله مكرهم وهذا معنى قوله تعالى واذ يمكر بك الذين
كفروا ليثبتوك اي يوثقوك ويحبسوك او يقتلوك كلهم قتلة رجل واحد او يخرجوك
من مكة ويمكرون بك ويمكر الله برد مكرهم عليهم بتدبير امرك بان اوحى اليك ما دبروه وامرك
بالخروج الى المدينة واخرجهم الى بدر وقلل المسلمين في اعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا والله
خير الماكرين اي اعلمهم به فلا يؤبه بمكرهم دون مكره قال البيضاوي واسناد امثال هذا
انما يحسن للمزاوجة ولا يجوز اطلاقها ابتداء لما فيه من ايهام الذم انتهى واعترض عليه بانه
لا يتعين في مثل ذلك المشاكلة بل يجوز ان يكون ذلك استعارة لان اطلاق المكر على اخفاء
الله تعالى ما اوعد لمن استوجبه ان جعل باعتبار صورته تشبيه صورة المكر فاستعارة
او باعتبار الوقوع في صحبة مكر العبد فمشاكلة وعلى ذلك لا يحتاج كما قال الطيبي الى
وقوعه في صحبة مكر العبد قال ومنه قول علي رضي الله تعالى عنه من وسع الله تعالى عليه
في دنياه ولم يعلم انه مكر به فهو مخدوع في عقله واذا تتلى عليهم اياتنا اي القران
قالوا اي هؤلاء الذين ايتمروا في امر صلى الله عليه وسلم قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا وهذا غاية
مكابرتهم وفرط عنادهم اذ لو استطاعوا ذلك لفعلوا والا فما منعهم لو كانوا مستطيعين
وقد تحداهم وقرعهم بالعشر عشر سنين ثم قارعهم بالسيف فلم يعارضوا سواه مع انفتهم
وفرط استنكافهم ان يغلبوا خصوصا في باب البيان وقيل قايله النضر بن الحارث المقتول
صبرا لانه كان ياتي الحيرة يتجر فيشتري كتب اخبار العجم ويحدث بها اهل مكة واسناده الى الجمع
اسناد ما فعله رئيس القوم اليهم فكانه كان قاضيهم وقد اسره المقداد يوم بدر فامر النبي
صلى الله عليه وسلم بقتله فقال المقداد رضي الله تعالى عنه اسيري يا رسول الله فقال انه كان
يقول في كتاب الله ما يقول فعاد المقداد لقوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اغن
المقداد من فضلك فقال ذاك الذي اردت يا رسول الله فقتله النبي صلى الله عليه وسلم فانشدت
اخته ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لو بلغني هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه ان اي ما هذا القران الا اساطير الاولين اي
اخبار الامم الماضية واسماؤهم وما سطر الاولون في كتبهم والاساطير جمع اسطورة وهي
المكتوبة من قولهم سطرت اي كتبت وقيل اساطير جمع سطور واسطار جمع سطر واذ قالوا
اللهم ان كان هذا اي الذي يقرؤه يا محمد هو الحق المنزل من عندك فامطر علينا حجارة من السماء
او ائتنا بعذاب اليم اي مولم على انكاره غير الحجارة قاله النضر او غيره استهزاء وايهاما انه
على بصيرة وجزم ببطلانه وعن معاوية رضي الله تعالى عنه انه قال لرجل من سبا ما اجهل
قومك حين ملكوا عليهم امراة قال اجهل من قومي قومك قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق الاية
وما قالوا ان كان هذا هو الحق فاهدنا به فان قيل قد حكى الله تعالى هذه المقالة
عن الكفار وهي من جنس نظم القران فقد حصلت المعارضة في هذا القدر وايضا حكى الله عنهم

انهم قالوا في سورة بني اسرائيل وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الاية وذلك ايضا
كلام الكفار فقد حصل من كلامهم ما يشبه نظم القران وذلك يدل على حصول المعارضة اجيب
بان الاتيان بهذا القدر لا يكفي في حصول المعارضة لانه كلام قليل لا يظهر فيه وجوه الفصاحة
والبلاغة لان اقل ما وقع به التحدي سورة او قدرها قال الله تعالى وما كان الله ليعذبهم
بما سالوه وانت فيهم اي لان العذاب اذا نزل عم ولم يعذب امة الا بعد خروج نبيها والمؤمنين
منها وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون اي وفيهم من يستغفر وهم المسلمون بين اظهرهم
ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين وعن ابي موسى الاشعري رضي الله
تعالى عنه كان في هذه الامة امانان اما النبي صلى الله عليه وسلم فقد مضى واما الاستغفار فهو كائن
فيكم الى يوم القيامة فاللفظ وان كان عاما الا ان المراد بعضهم كما يقال قدم اهل البلدة العلانية
على القتال والمراد بعضهم وما لهم ان لا يعذبهم الله بالسيف بعد خروجك والمستضعفين فنفى
تعالى الاية انه لا يعذبهم ما دام الرسول والمؤمنون فيهم وذكر في هذه انه يعذبهم اذا
خرجوا من بينهم وقال الحسن الاية الاولى منسوخة بهذه ورد بان الاخبار لا يدخلها نسخ واختلفوا
في هذا العذاب فقال بعضهم لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر وقيل يوم فتح مكة
وقال ابن عباس هذا العذاب هو عذاب الاخرة والعذاب الذي نفى عنهم هو عذاب الدنيا
ثم بين تعالى ما لاجله يعذبهم فقال وهم يصدون اي يمنعون النبي والمسلمين عن المسجد الحرام
اي يطوفوا به وذلك عام الحديبية ونبه تعالى على انهم يصدون لادعائهم انهم اولياؤه فكانوا
يقولون نحن ولاة البيت والحرم فيصد من نشاء وندخل من نشاء ثم بين تعالى بطلان هذه
الدعوى بقوله تعالى وما كانوا اولياءه كما زعموا ان اي ما اولياؤه الا المتقون الذين
يتحرزون من المنكرات الذين لا يعبدون فيه غيره وقيل الضمير ان لله ولكن اكثرهم اي الناس
لا يعلمون اي لا ولاية لهم عليه وكانه نبه بالاكثر على ان منهم من يعلم ويعاند واراد به الكل
كما يراد بالقلة العدم وما كان صلاتهم عند البيت اي دعاؤهم او ما يسمونه صلاة او ما
يضعون موضعها الا مكاء اي صفيرا وتصدية اي وتصفيقا قال ابن عباس كانت قريش يطوفون
بالبيت عراة يصفرون ويصفقون وقال مجاهد كان نفر من بني عبد الدار يعارضون النبي
صلى الله عليه وسلم في الطواف ويستهزؤن به ويدخلون اصابعهم في افواههم ويصفرون
ويخلطون عليه طوافه وصلاته فالمكاء جعل الاصابع في الشدق والتصدية الصفير وقال
مقاتل كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد الحرام قام رجلان عن يمينه ورجلان عن يساره
يصفران ويصفقان ليخلطوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاته فذوقوا العذاب
اي عذاب القتل والاسر ببدر في الدنيا وعذاب النار في الاخرة بما اي بسبب ما كنتم تكفرون
اعتقادا وعملا ولما ذكر تعالى عبادة الكفار البدنية وهي المكاء والتصدية ذكر عقبه عبادتهم
المالية التي لا جدوى لها في الاخرة بقوله تعالى ان الذين كفروا ينفقون اموالهم في حرب
النبي صلى الله عليه وسلم ليصدوا عن سبيل الله اي ليصرفوا عن دين الله نزلت في المطعمين
يوم بدر وكانوا اثني عشر رجلا منهم ابو جهل بن هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وكلهم من
قريش وكان يطعم كل واحد منهم يوم بدر عشر جزور وفي ابي سفيان استاجر يوم احد الفين
من العرب سوى من استجاش اي اتخذه جيشا من العرب واتفق عليهم اربعين اوقية والاوقية
اثنان واربعون مثقالا وفي اصحاب العير فانهم لما اصيبت قريش ببدر قيل لهم اعينوا بهذا

المال على حرب محمد لعلنا ندرك منه ثارنا ففعلوا فاستضعفوهم ثم ماتوا اى فى عاقبة الامر عليهم
حسرة اى ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه ثم تغلبون اى اخر الامر وان كان الحرب بينهم سجالا
قبل ذلك كما اتفق لهم فى بدر فانهم انهزموا مع الكثرة والقوة ولم يغن عنهم شئ من ذلك بل كان
وبالا عليهم فانه كان سببا لخزيهم حتى قتلوا فى الحقيقة الا قوة للمؤمنين والذين كفروا
اى ثبتوا على الكفر الى جهنم يحشرون اى يساقون اليها يوم القيمة فهم يخزون فى الدنيا والاخرى
فان قيل لم يقل تعالى والى جهنم يحشرون فاجيب بانه اسلم منهم جماعة كابى سفيان
ابن حرب والحارث بن هشام وحكيم بن حزام بل ذكر ان الذين يثبتوا على الكفر يكونون كذلك
ليميز الله اى العريق الكافر من خبثه اى من العريق المؤمن ويجعل الخبث بعضه على بعض
فيركمه جميعا اى يجمعه منزاكما تعضه على بعض كقوله تعالى كادوا يكونون عليه لبدا اى يركب
ارديا هم وقيل ليميز المال الخبيث الذى انفقه الكافر على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم
من المال الطيب الذى انفقه المؤمن وجه ذلك كما تعاقبا فى بدر وعثمان فى نصرة النبى
صلى الله عليه وسلم فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم وحمل ما يعذبون به كقوله تعالى فتكوى
بها جباههم وجنوبهم وظهورهم الا تراه والام فى هذا استغلقة تكون من قوله تعالى ثم تكون
عليهم حسرة وعلى الاول متغلقة بيحشرون او تغلبون وقرا بميم مضمومة وفا مكسورة والكسائى بضم الياء
الاولى وفتح الميم وتشديد الياء الثانية مع الكسر والباقون بفتح الياء الاولى وكسر
الميم وسكون الياء الثانية وقوله تعالى أولئك اشارة الى الذين كفروا هم الخاسرون
اى الكاملون فى الخسران لانهم خسروا انفسهم واتوا لهم يا محمد قل للذين كفروا ان ينتهوا
واصحابه ان ينتهوا عن قتالهم فى الشهر الحرام يغفر لهم ما قد سلف اى قبل لاجلهم هذا القول وهو ان ينتهوا عن
الكفر وقتال النبى صلى الله عليه وسلم يغفر لهم ما قد سلف من ذلك ولو كان يعنى خاطبهم به لقيل ان
ينتهوا يغفر لكم وان يعودوا الى كفرهم وقتال النبى صلى الله عليه وسلم فقد مضت سنت
الاولين اى بما هلاك اعدائه ونصر انبيائه واوليائه فاينما رسمت سنت بالتاء مجرورة
واجمع العلماء ان الاسلام يجب ما قبله واختلفوا هل الكافر الاصلى يخاطب بفروع الشريعة
وهل يسقط عن المرتد باسلامه ما مضى فى حال ردته كالكافر الاصلى كما هو ظاهر الاية ويقبل
الردة تحبط ما مضى من العبادات قبلها ذهب اصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه الى ان
مخاطب بدليل قوله تعالى ما سلككم فى سقر قالوا لم نك من المصلين الاية والى ان المرتد لا يسقط
عنه العبادات الغابية فى الردة تغليظا عليه والى ان الردة تحبط ما مضى وقد تقدم
الكلام على ذلك فى الغاية وعن يحيى بن معاذ انه قال سوء حيدلم يجز عن بعدم ما قبله
من كفر رجوا ان لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنوب لما بين تعالى ان ذهبوا الكفار ان انتهوا
عن كفرهم حصل لهم الغفران وان عادوا فهم متوعدون بسنة الاولين اتبعه بالامر بقتالهم
اذا اصروا فقال وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة اى شرك كما قاله ابن عباس وقال الربيع حتى لا يفتن
احد عن دينه لان المؤمنين كانوا يفتنون عن دين الله فى بدء الدعوة فافتتن من المسلمين
بعضهم وامرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخرجوا عن الحبشة وفتنة ثانية وهو انه
لما بايعت الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة فوامرت قريش ان يفتنوا المؤمنين
بمكة عن دينهم فاصاب المؤمن جهد شديد فامر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة
ويكون الدين كله خالصا لله وحده لا يعبد غيره فان انتهوا عن الكفر فان الله بما يعملون بصير

والاية تقال لاهل كل عصر فى عباد انهم الذين
والاية التى ترشد بهم الطريق الصواب فى كل عصر

اي فيجازيهم به وان تولوا عن الايمان فاعلموا ان الله مولاكم اي ناصركم ومتولي اموركم نعم المولى هو
فانه لا يضيع من تولاه ونعم النصير اي الناصر فلا يغلب من ينصره فمن كان في جماعة هذا
المولى وفي حفظه وكفايته كان امنا من الآفات مصونا عن المخافات واعلموا انما غنمتم اي اخذتم
من الكفار الحربيين من شيء اي مما يقع عليه اسم شيء مما هو لهم ولو اختصاصا فان لله خمسه
وللرسول واعلم ان الغنيمة والفيء اسمان لما يصيبه المسلمون من الحربيين والصحيح انهما مختلفان
والفيء ما حصل لنا مما هو لهم بلا ايجاف كجزية وعشر تجارة وما جلوا عنه ولو لغير خوف كضراضاتهم
وتركه مرتد وكافر معصوم بلا وارث وكذا الفاضل عن وارث له غير جائز وسيأتي حكمه ان شاء الله
تعالى عند قوله تعالى ما افاء الله على رسوله واما الغنيمة فهي ما حصل لنا منهم مما هو لهم
بايجاف او سرقة او التقاط وكذا ما انهزموا عنه عند التقاء الصفين ولو قبل شهر السلاح
او اهداه الكافر لنا والحرب قائمة ولم تحل الغنائم لاحد قبل الاسلام بل كانت الانبياء اذا غنموا
مالا جمعوه فتأتي نار من السماء تأخذه ثم احلت للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت في صدر الاسلام
له خاصة لانه كالمقاتلين نصرة وشجاعة بل اعظم ثم نسخ ذلك واستقر الامر على انها تجعل خمسة
اقسام متساوية ويؤخذ خمس رقاع ويكتب على واحدة لله او للمصالح وعلى اربع للغانمين ثم
تدرج في بنادق مستوية ويخرج لكل خمس رقعة فما خرج لله او للمصالح حصل بين اهل الخمس
على خمسة اصناف وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومن ذكر معه وذكر الله تعالى في الآية للتبرك واما
ما كان له صلى الله عليه وسلم فهو لمصالح المسلمين كسد الثغور وارزاق علماء بعلوم تتعلق بمصالحنا
كتفسير وفقه وحديث والصنف الثاني ما ذكره الله تعالى بقوله ولذي القربى اي قرابة النبي
صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب دون من عداهم لاقتصاره صلى الله عليه وسلم في القسم
عليهم مع سؤال غيرهم من بني عميهم نوفل وعبد شمس له ولقوله صلى الله عليه وسلم اما بنو هاشم
وبنو المطلب فشيء واحد وشبك بين اصابعه فيعطون ولو اغنياء ويفضل الذكر على الانثى كالارث
لانه عطية من الله تعالى يستحق بقرابة الاب كالارث فلا تعطى اولاد البنات من بني هاشم
والمطلب شيئا لانه صلى الله عليه وسلم لم يعط الزبير وعثمان مع ان ام كل واحد منهما كانت هاشمية
والصنف الثالث ما ذكره الله تعالى بقوله واليتامى واليتيم صغير ولو انثى لخبر لا يتم بعد
احتلام لا اب له وان كان له ام وجد ومن فقد امه فقط يقال له منقطع واليتيم في البهائم
من فقد امه وفي الطير من فقد اباه وامه والصنف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله
والمساكين الصادقين بالفقراء والمسكين من له مال او كسب لائق به يقع موقعا من كفايته ولا
يكفيه العمر الغالب وقيل سنة كمن يملك او يكسب سبعة او ثمانية ولا يكفيه الا عشرة والفقير من لا
مال له وله ذلك ولا يقع موقعا من كفايته كمن يحتاج الى عشرة ولا يملك او لا يكسب الا
درهمين او ثلاثة والخامس ما ذكره الله تعالى بقوله وابن السبيل وهو المسافر المحتاج ولا
معصية بسفره والاخماس الاربعة الباقية للغانمين وهم من حضر القتال ولو في اثنائه بنية
القتال وان لم يقاتل او حضر بلا نية وقاتل كاجير لحفظ امتعة وتاجر ومحترف وقوله تعالى
ان كنتم آمنتم بالله متعلق بمحذوف دل عليه واعلموا اي ان كنتم آمنتم بالله فاعلموا انه جعل
الخمس لهؤلاء فسلموه اليهم واقنعوا بالاخماس الاربعة الباقية فان العلم العملي اذا امر به
لم يرد منه العلم المجرد لانه مقصود بالعرض والمقصود بالذات هو العمل وقوله تعالى وما عطف على
بالله انزلنا على عبدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والملائكة والنصر يوم الفرقان اي يوم بدر

فانه

فانه فرق فيه بين الحق والباطل يوم التقى الجمعان اي جمع المؤمنين وجمع الكافرين وهو يوم بدر
وهو اول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان راس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم
الجمعة لتسعة عشر او لسبعة عشر من رمضان واصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ
ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الالف والتسعمائة فهزم الله تعالى المشركين وقتل
منهم سبعون واسر منهم مثل ذلك والله على كل شيء قدير فيقدر على نصر القليل على الكثير والذليل
على العزيز كما فعل ذلك بكم ذلك اليوم وقوله اذ انتم بالعدوة الدنيا اي البعدى من المدينة وهو
مما يلي مكة وكان الماء بها وكان استظهار المشركين من هذا الوجه اشد اي القربى من المدينة بدل من
يوم الفرقان او يوم التقى الجمعان او منصوب باذكروا مقدرا والعدوة الدنيا مما يلي المدينة
وهم بالعدوة القصوى اي البعدى من المدينة وهي مما يلي مكة وكان الماء بها وكان استظهار
المشركين من هذا الوجه اشد والقصوى تانيث الاقصى وكان قياسه قلب الواو كالدنيا
والعليا ولكن لم تقلب تفرقة بين الاسم والصفة فانها تقلب في الاسم دون الصفة على الاكثر
وقيل بالعكس وعلى الاول القصوى وان كان صفة للعدوى في الاية كالدنيا لكن غلب عليها الاسمية
لترك الوصف بها في اكثر الاستعمالات كما قاله ابن جني والقصوى بالواو على القولين شاذ بالنظر الى
اسميتها في الاول والى وصفيتها في الثاني ومثال الصفة الخالصة حلوى تانيث الاحلى فهو بالواو
مقيسة على الاول شاذة على الثاني ومثال الاسم الخالص حزوى اسم مكان فهو بالواو شاذ على الاول
مقيس على الثاني وقرا ابن كثير وابو عمرو العدوى هي شط الوادي وبكسر العين فيهما والباقون
بضم العين فيهما واما الدنيا والقصوى فامالهما حمزة والكسائي مخففة وابو عمرو بين بين وورش
بالفتح وبين اللفظين والعير اي العير التي خرجوا لها التي يقودها ابو سفيان اسفل منكم
اي في اسفل منكم الى ساحل البحر على ثلاثة اميال من بدر واسفل نصب على الظرف معناه مكانا
اسفل من مكانكم وهو مرفوع المحل لانه خبر للمبتدا ولو تواعدتم انتم والنفير للقتال
لاختلفتم في الميعاد وذلك ان المسلمين خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج وخرج الكفار
مرعوبين مما بلغهم عن تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ليمنعوها من المسلمين فالتقوا على
غير ميعاد ولو تواعدوا لاختلفوا في الميعاد لقلتهم وكثرة عددهم ولكن جمع الله تعالى بينهم على
هذه الحالة من غير ميعاد ليقضي الله امرا كان مفعولا في علمه وهو نصر اوليائه واعزاز دينه
واعلاء كلمته وقهر اعدائه وقوله تعالى ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن
بينة بدل من ليقضي او متعلق بقوله مفعولا واستعير الهلاك والحياة للكفر والاسلام
اي ليصدر كفر من كفر عن وضوح بينة لا عن مخالجة شبهة حتى لا يبقى له على الله حجة ويصدر
اسلام من اسلم ايضا عن يقين وعلم بانه دين الحق الذي يجب الدخول فيه والتمسك به فان
وقعة بدر من الايات الواضحات التي من كفر بها بعدها كان مكابرا لنفسه مغالطا لها
وقرا نافع والبزي وشعبة بياءين الاولى مكسورة والثانية مفتوحة والباقون بياء واحدة
مشددة ثم انه تعالى جنح الى الاية بقوله وان الله لسميع عليم اي يسمع دعاكم ويعلم حاجتكم
ولا يخفى عليه خافية اذ اي واذكر يا محمد نعمة الله تعالى عليك اذ يريكهم الله اي المشركين في
منامك اي نومك قليلا فاخبرت به اصحابك فسروا وقالوا رؤيا النبي حق وصار ذلك سببا
لجرأتهم على عدوهم وقوة لقلوبهم فان قيل رؤيا الكثير قليلا غلط فكيف يجوز على الله ذلك
اجيب بان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يسأل عما يفعل او انه تعالى اراه بعضهم دون بعض

محكم صلى الله عليه وسلم على اولئك الذين رأيتم بانهم قليلون وقال الحسن ان هذه الاية كانت في اليقظة
قال والمراد من المنام العين التي يوضع النوم ولو اراكهم كثيرا لفشلتم اي ولو اراكهم كثيرا في الكرة
للقوم ولو سمعوا ذلك لفشلوا اي جبنوا ولتنازعتم اي اختلفتم في الامر اي امر القتال ولتفرقت
اراؤكم بين القتال والفرار ولكن الله سلم اي سلمكم من الفشل والتنازع فيما بينكم وقتل سلم من الهزيمة
والقتل انه تعالى عليم بذات الصدور اي بما في القلوب من الجراة والجبن والصبر
والجزع وغير ذلك واذ يريكموهم اي المؤمنون اذ التقيتم في اعينكم قليلا اي ان الله تعالى قلل عدد
المشركين في اعين المؤمنين يوم التقوا ازاء القتال ليتقاللا في اليقظة كما اراه النبي صلى الله عليه وسلم
في منامه واخبر به اصحابه ويقوي ذلك قلوب المؤمنين ويزداد جراتهم عليهم ولا يجبنوا عن
قتالهم قال ابن مسعود لقد قللوا في اعيننا حتى قلت لرجل الى جنبي اترانهم سبعين قال اراهم مائة
واسيرا رجلا منهم فقلنا لهم كنتم قال الغوث والظهران معقولا يرى وقليلا حال من الثاني ويقللكم
في اعينهم اي ويقللكم يا معشر المؤمنين في اعين المشركين ليلا يتهيبوا واذا استقلوا عدد المسلمين
لم يبالغوا في الاستعداد والتاهب لقتالهم فيكون ذلك سببا لظهور المؤمنين قال السدي قال
ناس من المشركين ان العير قد انصرفت فارجعوا فقال ابو جهل الان اذ بدر لكم محمد واصحابه
فلا ترجعوا حتى تشنوا صلوبهم وانما محمد واصحابه اكلة جزور يعني جمع اكل اي قليل وشبههم
جزور واحد يضرب به مثلا في القلة والامر الذي لا يبقيا به ثم قال لا تقتلوهم واربطوهم بالحبال
اراد بقوله ذلك القدرة والعزة فان قيل كيف يمكن تقليل الكثير وتكثير القليل اجيب بان ذلك
ممكن في قدرة الله تعالى وان الله على ما يشاء قدير ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم
والمعجزة هي من خوارق العادات فلا ينكر ذلك او ان الله تعالى قبض عنهم بعضه بساتر او
يحدث في عيونهم ما يتشاغلون به الكثير كما احدث في اعين الجيوش ما يرون له الواحد اثنين فقيل
لبعضهم ان الاحول يرى الواحد اثنين وكان بين يديك فقال ما ارى هذين الديكين اربعة وهذا
قبل التحام القتال فلما التحم اراهم اياهم مثليهم كما قال في عمران ليقضي الله امرا كان مفعولا
ليعلمه وهو اعلاء كلمة الاسلام ونصر اهله واذلال كلمة الشرك وخذلان اهله فان قيل قد تقدم
ذلك في الاية المتقدمة فكان في ذكره هنا محض تكرار اجيب بان المقصود من ذكره في الاية المتقدمة
هو انه تعالى فعل ذلك الافعال لتحصيل استيلاء المؤمنين على الكافرين على وجه يكون
معجزة دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم والمقصود من ذكره هنا ليس هو ذلك المعنى بل المقصود
انه تعالى ذكر هنا انه قلل عدد المؤمنين في اعين الكفار فبين تعالى هنا انه انما فعل ذلك
ليصير ذلك سببا لهلاك الكفار في الحال الا ستعداد والحذر فيصير ذلك سببا لانكارهم
والى الله ترجع الامور كلها فلا تستعدوا لامر ترجعوا فيه فلا تخبروا الامور على ما يظنه العباد
وفي هذه الاية تنبيه على ان امور الدنيا غير معقودة لذواتها وانما المراد منها ما يصلح ان يكون زادا ليوم
المعاد ولما ذكر تعالى انواع نعمه على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم اداب
التقوى في الغيبة وهم الجماعة من المحاربين نوعين من الادب بقوله تعالى يا ايها الذين امنوا اذا
لقيتم اي قاتلتم لان اللقاء اسم للقتال غالبا فئة اي جماعة كافرة فاثبتوا للقتال بعد
كما تشتهون ولا تحدثوا انفسكم بفرارها هذا هو النوع الاول والنوع الثاني قوله تعالى واذكروا
الله كثيرا بقلوبكم والسنتكم قال ابن عباس امرهم الله اولا بذكره في اشد احوالهم تنبيها على
ان الانسان لا يجوز ان يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله ولان رجلا اقبل من المغرب الى المشرف

السابع والعشرون
وهو السادس بالنسبة
الى الجزء الثاني

وينفق الاموال سخا والاخر من المشرق الى المغرب يضرب بسيفه في سبيل الله لكان الذاكر الله
اعظم اجرا وقيل المراد من هذا الذكر الدعا بالنصر والظفر لان ذلك لا يحصل الا بمعونة الله تعالى
لعلكم تفلحون اي تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة فان قيل هذه الاية توجب الثبات على
كل حال وذلك يوهم انها ناسخة لاية التحرف والتحيز اجيب بان المراد من الثبات الجد
في المحاربة وان التحرف والتحيز لا يقدح في حصول الثبات في المحاربة بل كان الثبات في هذا
المقصود لا يحصل الا بذلك التحرف والتحيز ثم قال تعالى موكدا لذلك واطيعوا الله ورسوله
في ساير ما يامران به لان الجهاد لا ينفع الا مع التمسك بساير الطاعات ولا تنازعوا اي تختلفوا
فيما بينكم فتفشلوا اي تجبنوا وتذهب ريحكم اي قوتكم ودولتكم فالريح مستعارة للدولة
شبهها في نفوذ اثرها بالريح ثم ادخل المشبه في جنس المشبه به ادعا واطلق اسم المشبه
به على المشبه وقيل المراد بها الحقيقة لانه لم يكن قط نصر الا بريح يبعثها الله تعالى وفي
حديث الشيخين نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور وعن النعمان بن مقرن قال شهدت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان اذا لم يقاتل من اول النهار اخر القتال حتى تزول
الشمس وتهب الرياح وينزل النصر اخرجه ابو داود واصبروا اي عند لقا العدو ولا تنهزموا
عنه ان الله مع الصابرين بالنصر والعون روي انه صلى الله عليه وسلم قال ايها الناس لا
تتمنوا لقا العدو واسالوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت
ظلال السيوف ثم قال صلى الله عليه وسلم اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الاحزاب
اهزمهم وانصرنا عليهم ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم اي ليمنعوا غيرهم ولم يرجعوا بعد
نجاتها بطرا اي فخرا وطغيانا في النعمة وذلك ان النعم اذا كثرت من الله تعالى على العبد فان صرفها
في المفاخرة على الاقران وكاثر بها ابنا الزمان وانفقها في غير طاعة الرحمن فذلك هو البطر
في النعمة وان صرفها في طاعة الله وابتغا مرضاته فذلك شكرها صح ورئاء الناس اي ليثنوا عليهم بالشجاعة
والسماحة وذلك انهم لما بلغوا الجحفة واتاهم رسول ابي سفيان ان ارجعوا فقد سلمت غيركم
فقال ابو جهل لا والله حتى نقدم بدرا وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم فيها سوق
في كل عام ويشرب بها الخمور وتعزف علينا القينات والعزف اللعب بالمعازف وهي الدفوف
وغيرها مما يضرب به قاله ابن الاثير وغيره والقينات الجواري ونطعم بها من حضرنا من العرب
فذلك بطرهم ورياهم الناس باطعامهم فوافوها وسقوا كاس المنايا مكان الخمر وناحت
عليهم النوائح مكان القينات فنهى الله تعالى المومنين ان يكونوا امثالهم بطرين مرائين
باعمالهم وامرهم بان يكونوا اهل تقوى واخلاص من حيث ان النهي عن الشي امر بضده ويصدون
عن سبيل الله اي ويمنعون الناس الدخول في دين الله والله بما يعملون محيط لا يخفى عليه
شي لانه محيط باعمال العباد كلها فيجازيهم باعمالهم واذ اي واذكروا ايها المومنون نعمة
الله عليكم اذ زين لهم اي المشركين الشيطان اي ابليس اعمالهم الخبيثة بان شجعهم على لقا
المسلمين لما خافوا الخروج من اعدايهم بني بكر بن الحارث جا ابليس في جند من الشياطين معه رايه
فتبدا لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الشاعر الكناني وكان من اشرافهم وقال
غارا لهم في انفسهم لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم اي مجير لكم من كنانة فلما تراءت
الفئتان اي التقى الفريقان راى ابليس الملايكة قد نزلوا من السما علم عدو الله ابليس انه لا طاقة
له بهم نكص على عقبيه قال الضحاك ولى مدبرا وقال النضر بن شميل رجع القهقرى على قفاه هاربا

وقال اني بريء منكم قال الكلبي لما التقى الجمعان كان ابليس في صف المشركين عاصبا رأسه براية وكان مالكه وهو آخذ بيد الحارث بن هشام فنكص على عقبيه فقال له الحارث الى اين تخذلنا في هذه الحالة فقال له عدو الله ابليس اني ارى ما لا ترون ودفع في صدر الحارث وانطلق وانهزموا فقال الحسن رأى ابليس جبريل يدرأ في صدور المشركين بالسلاح وفي يده اليمنى زج يقود الفرس ما ركب قتادة قال ابليس اني ارى ما لا ترون وصدق وقاله اني اخاف الله وكذب وما به مخافة الله ولكن علم انه لا قوة له ولا صنعة فاورديهم واسلمهم وذلك عادة عدو الله اياس لعنه الله لمن اطاعه اذا التقى الحق والباطل اسلمهم وبرأ منهم وقال عطاء خاف ابليس ان يهلكه الله فيمن يهلك وقيل لحاف الله عليكم وقيل انه لما رأى جبريل خافه وقيل لما رأى الملائكة تنزل من السماء خاف فوات الوقت الذي انظر اليه فدحض فقال لما قال اشفاقا على نفسه ولما انهزموا وبلغوا مكة قالوا هزم الناس سراقة فبلغه ذلك فقال والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما اسلم اعلموا انه الشيطان وقوله تعالى والله شديد العقاب يجوز ان يكون من كلام ابليس اي اني اخاف الله لانه شديد العقاب وان يكون مستأنفا اي والله شديد العقاب لمن خالفه وكفر به فان قيل كيف يقدر ابليس ان يتصور باصوان البشر واذا تشكل بصورة البشر فكيف يسمى شيطانا اجيب بان الله تعالى اعطاه قوة واقدره على فعل ذلك كما اعطى الملائكة قوة واقدرهم على ان يتشكلوا باصوان البشر لكن النفس الباطنية لم تتغير فلم يلزم من تغير الصورة تغير الحقيقة روي انه صلى الله عليه وسلم قال ما رؤي ابليس يوما هو فيه اصغر ولا اذحر ولا احقر ولا اغيظ منه يوم عرفة وما ذاك الا لما يرى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام الا ما كان من يوم بدر اني واذ كر اذ يقول المنافقون اي من اهل المدينة والمنافق هو من يظهر الاسلام ويخفي الكفر كما ان المرائي هو من يظهر الطاعة ويخفي المعصية والذين في قلوبهم مرض اي شك وارتياب وهم قوم من اهل مكة تكلموا بالاسلام ولم تقو الايمان في قلوبهم ولم يتمكن فلما خرج قريش الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا معهم الى بدر فلما نظروا الى قلة المسلمين ارتابوا وارتدوا وقالوا غر هؤلاء المسلمين دينهم اي خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توهما انهم ينصرون بسببه فقتلوا جميعا منهم قيس بن الوليد بن المغيرة وعلي ابن امية بن خلف الجمحي والعاص ابن امية بن الحجاج قال الله تعالى ردا عليهم ومن يتوكل على الله اي يثق به يغلب فان الله عزيز اي غالب على امره حكيم اي صنعه يفعل بحكمته الباهرة ما يستبعده العقل ويعجز عن ادراكه ولما شرح الله تعالى احوال الكفار شرح احوالهم والعذاب الذي يصل اليهم في ذلك الوقت بقوله تعالى ولو ترى اي ولو عاينت وشاهدت يا محمد اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة اي يقبض ارواحهم عند الموت يضربون وجوههم وادبارهم اي ظهورهم واستاههم قال البيضاوي ولعل المراد تعميم الضرب اي يضربون ما قبل منهم وما ادبر بمقامع من حديد ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق اي النار قال ابن عباس كان المشركون اذا اقبلوا بوجوههم الى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيف واذا ولوا ضربوا ادبارهم فلا جرم قالهم الله تعالى لهم في وقت نزع الروح وجواب لو محذوف والتقدير لرأيت منظرا هائلا وامرا فظيعا وعقابا شديدا والملائكة مرفوعة بالفعل ويضربون حال منهم ويجوز ان يكون في قوله يتوفى ضمير الله تعالى والملائكة مرفوعة بالابتداء ويضربون خبر

ذلك اي الذي نزل بكم من القتل والضرب والحريق بما اي بسبب ما قدمت اي كسبت ايديكم
من الكفر والمعاصي وانما عبر بالايدي دون غيرها لان اكثر الافعال تزاول بها والتحقيق ان
الانسان جوهر واحد وهو الفعال وهو الدراك وهو المومن وهو الكافر وهو المطيع وهو
العاصي وهذه الاعضا آلة له وادوات في الفعل فاضيف الفعل في الظاهر الى الآلة
وهو في الحقيقة مضاف الى جوهر ذات الانسان وان الله ليس بظلام للعبيد فلا يعذب
احدا من خلقه بغير ذنب وظلام للتكثير لاجل العبيد او انه بمعنى ذي ظلم كداب اي داب هولا
الكفار بكفرهم مثل داب آل فرعون وهو عادتهم وعملهم الذي دابوا فيه اي داموا عليه فجوزي
هولا بالقتل والاسر يوم بدر كما جوزي آل فرعون بالاغراق واصل الداب في اللغة ادامة العمل
يقال فلان داب في كذا اي داوم عليه وسميت العادة دابا لان الانسان مداوم على عادته مواظب
عليها والذين من قبلهم اي من قبل آل فرعون وقوله تعالى كفروا بآيات الله تفسير لداب آل فرعون
فاخذهم الله بذنوبهم اي بسبب كفرهم كما اخذ هولا ان الله قوي اي على ما يريد فينتقم ممن كفر
به وكذب رسله شديد العقاب لمن كفر به وكذب رسله وقوله تعالى ذلك اشارة الى ما حل
بهم من العقاب بان اي بسبب ان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم اي مبدلا لها بالنقمة
حتى يغيروا ما بانفسهم بان يبدلوا ما بهم من الحال الى حال اسوا منه فان قيل فما كان من تغيير
آل فرعون او مشركي مكة حتى غير الله تعالى نعمته عليهم ولم تكن لهم حال مرضية فغيروها الى حال
مسخوطة اجيب بانه تعالى كما يغير الحال المرضية الى المسخوطة يغير الحال المسخوطة الى
الى اسخط منها واولئك كانوا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كفرة عبدة الاصنام فلما بعث
اليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في اراقة دمه غيروا حالهم
الى اسوا مما كانت عليه فغير الله تعالى ما انعم به عليهم من الامهال وعاجلهم بالعذاب
وان الله سميع لما يقولون عليم بما يفعلون كداب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات
ربهم فاهلكناهم بذنوبهم اي اهلكنا بعضهم بالرجفة وبعضهم بالخسف وبعضهم بالحجارة
وبعضهم بالريح وبعضهم بالمسخ كذلك اهلكنا كفار قريش بالسيف واغرقنا آل فرعون
اي هو وقومه فان قيل ما فائدة تكرير هذه الآية مرة ثانية اجيب بان فيها فوائد منها ان الكلام
الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الاول لان الكلام الاول فيه ذكر اخذهم وفي الثاني ذكر اغراقهم
وذلك تفصيل ومنها انه ذكر في الآية الاولى انهم كفروا بآيات الله وفي الآية الثانية انهم كذبوا
بآيات ربهم ففي الآية الثانية اشارة الى انهم كذبوا بها مع جحودهم لها وكفرهم بها ومنها ان تكرير
هذه القصة للتاكيد ولما نيط به من الدلالة على كفران النعم بقوله بآيات ربهم وبيان
ما اخذوا به آل فرعون ومنها ان الاول لسببية الكفر والاخذ به والثاني لسببية التغيير
في النعمة بسبب تغييرهم ما بانفسهم وكل اي من الغرق المكذبة او من غرقى القبط وقتلى قريش
كانوا ظالمين انفسهم بالكفر والمعاصي وغيرهم بالاضلال واضعين الآيات في غير مواضعها وهم يظنون
بانفسهم العدل ولما وصف تعالى كل الكفار بقوله وكل كانوا ظالمين افرد بعضهم بمزية في الشر
والفساد بقوله ان شر الدواب عند الله اي في حكمه وعلمه الذين كفروا اي اصروا على الكفر
فهم لا يؤمنون اي لا يتوقع منهم ايمان وقوله تعالى الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم
في كل مرة بدل البعض من الذين كفروا اي الذين عاهدتهم من الذين كفروا وهم يهود قريظة عاهدهم
رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لا يمالئوا اي يساعدوا عليه فنكثوا بان اعانوا مشركي مكة

بالسلاح وقالوا نسينا واخطانا ثم عاهدهم فنكثوا وما ليوا سعهم يوم الخندق وانطلق كعب
ابن الاشرف الى مكة فحالفهم وانما جعلهم الله شر الدواب لان شر الناس الكفار وشر الكفار المصرون
منهم وشر المصرين الناكثون العهود وهم لا يتقون الله في غدرهم فاما فيه ادغام نون
ان الشرطية في ما الزائدة تثقفنهم اي تجدن هولا الذين نقضوا العهد وظفرت بهم في الحرب
فشرد قال ابن عباس فنكل بهم اي بهولا الذين نقضوا العهد من خلفهم اي من وراهم من اهل
مكة واليمن وغيرهما فيخافون ان نفعل بهم كفعل هولا وقال عطا اثخن فيهم القتل حتى يخافك
غيرهم لعلهم اي الذين خلفهم يذكرون اي يتعظون بهم واما تخافن اي تعلمن يا محمد من قوم
عاهدتهم خيانة في العهد بامارات تلوح لك كما ظهر من قريظة والنضير فانبذ اي
اطرح عهدهم اليهم وقوله تعالى على سوا حالي اي مستويا انت وهم في العلم بنقض العهد بان
تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر اذا نصبت الحرب معهم ان الله لا يحب الخائنين اي في نقض
العهد او غيره روي ان معاوية كان بينه وبين الروم عهد وكان يسير نحو بلادهم ليقرب حتى
اذا انقضى العهد غزاهم فجا رجل على فرس او برذون وهو يقول الله اكبر الله اكبر وفا
لا غدرا فاذا هو عمرو بن عبسة فارسل اليه معاوية يساله فقال سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول من كان بينه وبين قوم عهد فلا ينبذ عقده ولا يحلها حتى ينقضي امدها
او ينبذ اليهم على سوا فرجع معاوية قال الرازي وحاصل الكلام في هذه الاية انه تعالى
امره بقتل من ينقض العهد على اقبح الوجوه وامره ان يتباعد على اقصى الوجوه من كل ما يوهم
نكث العهد ونقضه قال اهل العلم اذا ظهرت اثار نقض العهد ممن عاهدهم الامام من المشركين
بامر ظاهر مستفيض اما ان يظهر ظهورا محتملا او ظهورا مقطوعا به فان كان الاول
وجب الاعلام عليه على ما هو مذكور في هذه الاية وذلك ان قريظة عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم
ثم اجابوا ابا سفيان ومن معه من المشركين لما ظاهرتهم على النبي صلى الله عليه وسلم فحصل
للنبي صلى الله عليه وسلم خوف الغدر به وباصحابه فههنا يجب على الامام ان ينبذ اليهم على سوا
ويعلمهم بالحرب واما اذا ظهر نقض العهد ظهورا مقطوعا به فههنا لا حاجة الى نبذ العهد
بل يفعل بهم كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم باهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة
وهم في ذمة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرعهم الا وجيش النبي صلى الله عليه وسلم بمر الظهران
وذلك على اربع فراسخ من مكة ولما بين تعالى ما يفعله صلى الله عليه وسلم في حق من يجده
في الحرب ويتمكن منه وذكر ايضا ما يجب ان يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد بين ايضا حال
من فاته في يوم بدر وغيره لكيلا يبقى حسرة في قلبه فقد كان فيه من بلغ في اذية النبي صلى
الله عليه وسلم مبلغا عظيما بقوله تعالى ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا اي خلصوا من القتل
والاسر يوم بدر انهم لا يعجزون الله اي لا يفوتونه بهذا السبق في الانتقام منهم اما في الدنيا
بالقتل واما في الاخرة بعذاب النار وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيمن فاته من المشركين
ولم ينتقم منهم فاعلمه الله تعالى انهم لا يعجزونه وقرا ابن عامر وحمزة وحفص يحسبن بالياء
على الغيبة على ان الفعل للذين كفروا والباقون بالتاء على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولما امر
الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ان يشرد من صدر منه نقض العهد وان ينبذ العهد الى
من خاف منه النقض واتفق لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في قصة بدر انهم قصدوا الكفار
بلا الة ولا عدة امرهم في هذه الاية بالاعداد لهولا الكفار بقوله تعالى واعدوا لهم اي

الغدر

لقتالهم

لقتالهم ما استطعتم من قوة الاعداد اتخاذ الشيء لوقت الحاجة اليه وفي المراد بالقوة اقوال
احدها الرمي وقد جاءت مفسرة به عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه عقبة بن عامر قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول واعدوا لهم ما استطعتم من قوة
الا ان القوة الرمي ثلاثا اخرجه مسلم وعن ابي اسيد رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصففوا لنا اذا كبتوكم فعليكم بالنبل
وفي رواية ليس من اللهو محمود الا ثلاثة تاديب الرجل فرسه وملاعبته اهله ورميه بقوسه اي
نبله فانهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فانها نعمة تركها او كفرها اخرجه
الترمذي والثاني انها الحصون والثالث انها جميع الاسلحة والالات التي تكون لكم
قوة في الحرب على قتال عدوكم وقوله تعالى ومن رباط الخيل مصدر بمعنى حبسها في سبيل الله
سواء كانت ذكورا ام اناثا وقال عكرمة المراد الاناث وروي عن خالد بن الوليد انه قال لا يركب
في القتال الا الاناث لقلة صهيلها وعن ابن محيريز انه قال كانت الصحابة يستحبون ذكور
الخيل عند الصفوف واناث الخيل عند البيات والغارات وقيل ربط الفحول اولى لانها اقوى
على الكر والفر ويدل للاول ما روي عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده وان شبعه وريه وروثه
وبوله في ميزانه يوم القيامة يعني حسنات وعن عروة البارقي رضي الله تعالى عنه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم وسئل
صلى الله عليه وسلم عن الحمر فقال ما انزل علي فيها الا هذه الاية الجامعة الفاذة فمن يعمل
مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ترهبون اي تخوفون به اي بتلك القوة
وبذلك الرباط عدو الله وعدوكم اي الكفار من اهل مكة وغيرهم وذلك ان الكفار اذا علموا ان
المسلمين متاهبون للجهاد مستعدون له مستكملون لجميع الاسلحة والات الحرب واعداد
الخيل مربوطة للجهاد خافوهم فلا يقصدون دخول دار الاسلام بل يصير ذلك سببا لدخول الكفار
في الاسلام او بذل الجزية للمسلمين وترهبون اخرين من دونهم اي غيرهم وهم المنافقون
لقوله تعالى لا تعلمونهم لانهم معكم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم الله يعلمهم اي انهم
منافقون فان قيل المنافقون لا يخافون القتال فكيف يوجب ما ذكر الارهاب اجيب
بان المنافقين اذا شاهدوا قوة المسلمين وكثرة الاتهم واسلحتهم كان ذلك مما يخوفهم
ويقطع طمعهم من ان يصيروا غالبين فيحملهم ذلك على ان يتركوا الكفر في قلوبهم وبواطنهم
ويصيروا مخلصين في الايمان وقيل هم اليهود وقيل الفرس وما تنفقوا من شيء وان قل
في سبيل الله اي طاعته جهادا كان او غيره يوف اليكم قال ابن عباس اجره لا يضيع في الاخرة
اجره ويعجل الله عوضه في الدنيا وانتم لا تظلمون اي لا تنقصون من اي الثواب ولما سئل
ابن عباس عن هذا التفسير تلا قوله تعالى اتت اكلها ولم تظلم منه شيئا ولما بين تعالى ما يرهب
به العدو من القوة والاستظهار بين جواز الصلح بقوله تعالى وان جنحوا اي مالوا للسلم
اي الصلح فاجنح لها اي مل وعاهدهم وتانيث الضمير في لها لحمل السلم مع انه مذكر على ضده
وهو الحرب قال الشاعر السلم تاخذ منها ما رضيت به والحرب يكفيك من انفاسها جرع
فانث ضمير السلم في تاخذ حملا على ضده وهو الحرب وعن ابن عباس هذه الاية منسوخة بقوله
تعالى قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله وعن مجاهد بقوله تعالى فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم

وقال غيرهما الصحيح ان الامر موقوف على ما يرى فيه الامام صلاح الاسلام واهله من حرب
او سلم وليس بحتم ان يقاتلوا ابدا او يجابوا الى الهدنة ابدا وهذا ظاهر وقرا شعبة بكسر السين
والباقون بالفتح وتوكل على الله اي فوض امرك اليه فيما عقدته معهم ليكون عونا لك
في جميع احوالك انه هو السميع لاقوالهم العليم فهو يسمع كلما ابرموه في ذلك وفي غيره كما يسمعه صلى
الله عليه وسلم علانية العليم بنياتهم فهو يعلم كلما اخفوه كما انه يعلم كلما اعلنوه وان يريدوا
اي الكفار ان يخدعوك اي باظهار الصلح ليستعدوا لك فان حسبك اي كافيك الله هو الذي
ايدك بنصره في ساير ايامك فان امر النبي صلى الله عليه وسلم من اول حياته الى وقت وفاته كان امرا
الهيا وتدبيرا علويا وما كان لكسب الخلق فيه مدخل وايدك بالمؤمنين اي الانصار فان قيل
فاذا كان الله تعالى مؤيدة بنصره فاي حاجة مع نصره تعالى الى المؤمنين اجيب بان التاييد
ليس الا من الله تعالى دايما لكنه على قسمين احدهما ما يحصل من غير واسطة اسباب معلومة معتادة
والثاني ما يحصل بذلك فالاول هو المراد من قوله تعالى ايدك بنصره والثاني هو المراد من قوله
تعالى وبالمؤمنين والله تعالى هو مسبب الاسباب وهو الذي اقامهم بنصره ثم بين تعالى كيف
ايده بالمؤمنين بقوله تعالى والف اي جمع بين قلوبهم وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث الى
قوم انفتهم شديدة وحميتهم عظيمة حتى لو ان رجلا من قبيلة لطم لطمة واحدة لقاتلت عنه
قبيلته حتى يدركوا ثاره ثم انهم انقلبوا عن تلك الحالة حتى قاتل الرجل اباه واخاه وابنه
واتفقوا على الطاعة وصاروا انصارا واعوانا فازالة تلك العداوة الشديدة وتبديلها بالمحبة القوية
مما لا يقدر عليها الا الله تعالى وصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
ولهذا قال تعالى لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم اي تناهت عداوتهم
الى حد لو انفق منفق في اصلاح ذات بينهم ما في الارض من الاموال لم يقدر على الالفة والصلاح
بينهم ولكن الله الف بينهم بقدرته البالغة فانه تعالى المالك للقلوب يقلبها كيف يشا انه
اي الله عزيز اي غالب على امره لا يعصى عليه ما يريد حكيم لا يخرج شي عن حكمته وقيل الاية في الاوس
والخزرج كان بينهم من الحروب والوقايع ما اهلك سادتهم ورؤساهم فانساهم الله تعالى ذلك
والف بين قلوبهم بالاسلام حتى تصادقوا وصاروا انصارا وما ذاك الا بلطيف صنعه وبليغ
قدرته يا ايها النبي حسبك اي كافيك الله فان قيل هذا مكرر اجيب بانه تعالى لما وعده بالنصر عند
مخادعة الاعدا وعده بالنصر والظفر في هذه الاية مطلقا على جميع التقديرات فلا يلزم
حصول التكرار لان المعنى في الاية الاولى ان ارادوا اخداعك كفاك الله تعالى امرهم والمعنى
في هذه الاية عام في كل ما يحتاج اليه في الدين وقوله تعالى ومن اتبعك من المؤمنين اما في محل
نصب على المفعول معه كقول الشاعر فحسبك والضحاك سيف مهند يروى الضحاك بالنصب
على انه مفعول معه والمعنى كفاك وكفى اتباعك من المؤمنين الله ناصرا او رفع عطفا على اسم الله
اي كفاك الله وكفاك المؤمنون وهذه الاية نزلت بالبيدا في غزوة بدر قبل القتال وعن
سعيد بن جبير اسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم اسلم
عمر فتم الله تعالى به الاربعين فنزلت هذه الاية يا ايها النبي حرض المؤمنين اي حثهم على القتال
للكفار والتحريض في اللغة كالتحضيض وهو الحث على الشي ان يكن منكم عشرون صابرون
يغلبوا مائتين منهم وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا وهذا خبر بمعنى الامر اي ليقاتل
العشرون منكم المائتين والمائة الالف قتال عشرة امثالكم تنبيه تقييد ذلك بالصبر يدل

على انه

على انه تعالى انما اوجب هذا الحكم الا بشرط كونه صابرا قادرا على ذلك وانما يحصل هذا الشرط عند
حصول اشياء منها ان يكون شديد الاعضاء قويا جلدا ومنها ان يكون قوي القلب شديد البأس
شجاعا غير جبان ومنها ان يكون غير منحرف الا لقتال او متحيزا الى فئة فان الله تعالى استثنى هاتين
الحالتين في الايات المتقدمة فعند حصول هذه الشروط كان يجب على الواحد ان يثبت
للعشرة فان قيل حاصل هذه الاخبار العبارة المطولة ان الواحد مثبت للعشرة فما الفائدة
في العدول الى هذه العبارة المطولة اجيب بان هذا انما ورد على وفق الواقعة فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث السرايا والغالب ان تلك السرايا ما كان ينقص عددها
عن العشرين وما كانت تزيد على المائة فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين وقرا نافع
وابن كثير وابن عامر بالتاء على التانيث والباقون بالياء على التذكير بانهم اي بسبب انهم
قوم لا يفقهون اي جهلة بالله تعالى واليوم الاخر فلا يقاتلون لطلب ثواب وخوف عقاب
انما يقاتلون حمية فاذا صدقتموهم في القتال لا يثبتون معكم وكان هذا يوم بدر فرض الله تعالى
على الرجل الواحد من المومنين قتال عشرة من الكافرين فثقلت على المومنين قال عطاء عن ابن
عباس لما نزل التكليف بهذه الاية صاح المهاجرون وقالوا يا رب نحن جياع وعدونا شباع
ونحن في غربة وعدونا في اهلهم ونحن قد اخرجنا من ديارنا واموالنا وعدونا ليس كذلك فنسخها
الله تعالى بقوله تعالى الان خفف الله عنكم ايها المومنون وعلم ان فيكم ضعفا اي في قتال الواحد
للعشرة فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين منهم وان يكن منكم الف يغلبوا
الفين منهم باذن الله اي بارادته فردوا من العشرة الى اثنين فاذا كان المسلمون على قدر
النصف من عدوهم لا يجوز لهم ان يفروا وقال عكرمة انما امر الرجل ان يصبر لعشرة والعشرة لمائة
حال ما كان المسلمون قليلين فلما كثروا خفف الله تعالى عنهم ولذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
ايما رجل فر من ثلاثة فلم يفر فان فر من اثنين فقد فر والله مع الصابرين بالنصر والمعونة
فكيف لا يغلبون قال سفيان بن بشير مه وارى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل ذلك نزل
لما اخذوا الفداء من اسرى بدر ما كان اي ما صح وما استقام لنبي ان يكون له اسرى قرا ابو عمرو
بالتاء على التانيث والباقون بالياء على التذكير حتى يثخن في الارض اي يكثر قتل الكفار ويبالغ
فيه حتى يذل الكفر ويقل حزبه ويعز الاسلام ويستولي اهله لان الملك والدولة انما تقوى
وتشتد بالقتل قال الشاعر لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم روي
انه صلى الله عليه وسلم اتى يوم بدر بسبعين اسيرا فيهم العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم
وعقيل بن ابي طالب فاستشار فيهم فقال ابو بكر رضي الله تعالى عنه قومك واهلك استبقهم
لعل الله تعالى يتوب عليهم وخذ منهم الفدية يقوي بها اصحابك فقال عمر رضي الله تعالى عنه كذبوك
واخرجوك فقدمهم واضرب اعناقهم فان هولاء ائمة الكفر وان الله اغناك عن الفداء مكن عليا
من عقيل وحمزة من العباس ومكني من فلان نسيب له فنضرب اعناقهم وقال عبد الله بن رواحة
يا رسول الله انظر واديا كثير الحطب فادخلهم فيه ثم اضرم عليهم نارا فقال له العباس قطعت
رحمك فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم ثم دخل فقال ناس ياخذ بقول ابي
بكر وقال ناس ياخذ بقول عمر وقال ناس ياخذ بقول ابن رواحة ثم خرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال ان الله ليلين قلوب رجال حتى يكون الين من اللبن وان الله ليشدد قلوب
رجال حتى يكون اشد من الحجارة وان مثلك يا ابا بكر مثل ابراهيم قال فمن تبعني فانه مني ومن عصاني

BULAC

فانك غفور رحيم ومثل عيسى في قوله وان تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم ومثلك يا عمر مثل
نوح قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ومثل موسى حيث قال ربنا اطمس على اموالهم
ومال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى قول ابي بكر روي انه قال لعمر يا ابا حفص وذلك اول
ما كناه تامرني ان اقتل العباس فجعل عمر يقول ويل عمر ثكلته امه ثم قال لاصحابه انتم اليوم
عالة ولا يفلتن احد منهم الا بفدا او ضرب عنق فقال بن مسعود الا سهيل بن بيضا
فاني سمعته يذكر الاسلام فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد خوفي
فما رايتني في يوم اخاف ان يقع علي الحجارة من السما من ذلك اليوم حتى قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم الا سهيل بن بيضا وعبيدة السلماني ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
للقوم ان شئتم قتلتموهم وان شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم فقالوا بلى ياخذ
الفدا فاستشهدوا باحد وكان فدا الاسارى عشرين اوقية والاوقية اربعون درهما فيكون
مجموع ذلك الف وستمائة درهم وقال قتادة كان الفدا يومئذ لكل اسير اربعة الاف اربعة
الاف قال عمر رضي الله تعالى عنه فلما كان من الغد جئت فاذا برسول الله صلى الله عليه وسلم
وابو بكر رضي الله تعالى عنه يبكيان قلت يا رسول الله اخبرني من اي شي تبكي انت وصاحبك فان
وجدت بكا بكيت وان لم اجد بكا تباكيت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابكي على اصحابك في اخذهم الفدا
ولقد عرض علي عذابهم ادنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه تريدون ايها المومنون عرض الدنيا
باخذكم الفدا من المشركين وانما سمي منافع الدنيا عرضا لانها لا ثبات لها ولا دوام فكانها تعرض
ثم تزول بخلاف منافع الاخرة فانها دائمة لا انقطاع لها والله يريد لكم الاخرة اي ثوابها
بقهركم المشركين ونصركم الدين والله عزيز لا يقهر ولا يغلب حكيم اي لا يصدر منه فعل الا وهو
في غاية الاتقان قال بن عباس كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل فلما كثروا
واشتد سلطانهم انزل الله تعالى في الاسرى فاما منا بعد واما فدا فجعل الله تعالى نبيه
والمومنين في امر الاسرى بالخيار ان شاوا قتلوهم وان شاوا فادوهم وان شاوا اعتقوهم
اي فهذه الاية نسخت تلك قال بن عباس رضي الله تعالى عنهما كانت الغنايم حراما
على الانبيا والامم وكانوا اذا اصابوا مغنما جعلوه للقربان وكانت تنزل نارا من السما
فتاكله فلما كان يوم بدر اسرع المومنون في الغنايم واخذ الفدا فانزل الله تعالى
لولا كتاب من الله سبق اي لولا قضا سبق في اللوح المحفوظ بانه يحل لكم الغنايم لمسكم
اي لنالكم فيما اخذتم من الفدا عذاب عظيم وقال الحسن ومجاهد لولا كتاب من الله سبق انه
لا يعذب احدا ممن شهد بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم قال بن اسحق لم يكن من المومنين احد
الا احب الغنايم الا عمر بن الخطاب فانه اشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل
الاسرى وسعد بن معاذ قال يا رسول الله كان الاتخاذ في القتل احب الي من استبقا الرجال
فقال صلى الله عليه وسلم لو نزل من السما عذاب ما نجى منه غير عمر بن الخطاب وسعد روي لما نزلت
هذه الاية كف اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ايديهم ان ياخذوا من الفدا فنزل
فكلوا مما غنمتم اي من الفدا فانه من جملة الغنايم حلالا طيبا فاحل الله الغنايم بهذه
الاية لهذه الامة وقال صلى الله عليه وسلم احلت لي الغنايم ولم تحل لاحد قبلي
وروي انه صلى الله عليه وسلم قال لم تحل الغنايم لاحد قبلنا ثم احل لنا الغنايم ذلك
بان الله راى ضعفنا وعجزنا فحلها لنا فان قيل ما معنى الفا في قوله تعالى فكلوا اجيب

بانها

بايها للتنبيه والتنبيه محذوف تقديره انتم الغنائم فكلوا ونحوه تنبيه من زعم ان الامر
الوارد بعد الحظر للاباحة وحلالا احال من المغنوم او صفة للمصدر اى اكلا حلالا او فايدته
الاباحة ما وقع في نفوسهم منه بسبب تلك المقارنة ولذلك وصفه بقوله طيبا واتقوا
الله في مخالفته ان الله غفور لكم ذنبكم رحيم اباح لكم ما اخذتم فقوله تعالى واتقوا الله
اشارة الى المستقبل وقوله تعالى ان الله غفور رحيم اشارة الى الحالة الماضية ولما اخذ رسول
الله صلى الله عليه وسلم الفداء من الاسارى وشق اخذ اموالهم منهم ذكر الله تعالى هذه
الاية امتنانا لانهم فقال عز من قائل يا ايها النبي قل لمن في ايديكم من الاسارى قرا ابو عمرو
بضم الهمزة وفتح السين بعدها الف والباقون بفتح الهمزة وسكون العين بلا الف بعدها
وامال الالف بعد الراء ابو عمرو وحمزة والكسائي بخلفه وورش بين بين ان يعلم الله في قلوبكم
خيرا اى خلوص ايمان وصحة نية يؤتكم خيرا مما اخذ منكم من الفداء قال ابن عباس نزلت في العباس
وعقيل بن ابي طالب ونوفل بن الحارث كان العباس اسر يوم بدر ومعه عشرون اوقية من الذهب
اخرجها لنطعم الناس فكان احد العشرين الذين ضمنوا الطعام لاهل بدر فلم تبلغه النوبة
حتى اسر فقال العباس كنت مسلما الا انهم اكرهوني فقال صلى الله عليه وسلم ان يكن ما تذكر
حقا فالله يجزيك واما ظاهر امرك فقد كان علينا قال العباس وكلمت رسول الله صلى
الله عليه وسلم ان يترك ذلك لي فقال اما شيء خرجت به تستعين به علينا فلا قال
فاين انت عن اثنين اتيت بهما ام الفضل حين خرجت من مكة وقلت لها ما ادري ما يصيبني في وجهي هذا
ان حدث بي حادث فهو لك ولعبد الله ولعبيد الله والفضل فقال العباس وما يدريك فقال اخبرني به ربي قال
العباس فانا اشهد انك صادق فاسلم وان لا اله الا الله وانك عبده ورسوله والله لم يطلع عليه
احد الا الله ولقد دفعته اليها في سواد الليل ولقد كنت مرتابا في امرك فاما اذ اخبرتني
بذلك فالرب قال العباس فابدلني الله خيرا مني في ذلك المال عشرون عبدا وان ادناهم ليضرب
في عشرين الفا واعطاني زمزم ما احب ان لي بها جميع اموال اهل مكة وانا انتظر المغفرة
من ربي وروي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم عليه مال البحرين ثمانون الفا فتوضا
لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه وامر العباس ان يأخذ منه فاخذ ما قدر على حمله وكان يقول
هذا خير مما اخذ مني وانا ارجو المغفرة من ربي بمعنى الموعودة بقوله تعالى ويغفر لكم والله
غفور رحيم واختلف المفسرون في ان الاية نزلت في العباس خاصة او في جملة الاسارى
قال بعضهم انها في العباس خاصة وقال اخرون انها نزلت في الكل قال القاضي وهذا اولى
لان ظاهر الاية يقتضي العموم من ستة اوجه احدها قوله تعالى قل لمن في ايديكم وثانيها
قوله تعالى من الاسارى وثالثها قوله تعالى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا ورابعها قوله تعالى
ويغفر لكم فقد يوتكم خيرا وخامسها عقوله تعالى مما اخذ منكم وسادسها قوله تعالى ويغفر لكم
فدلت هذه الالفاظ الستة على العموم فالموجب للتخصيص اقتضى ما في الباب ان يقال
سبب نزول الاية تعلق العباس الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وان يريدوا
اى الاسارى خيانتك اى بما اظهروا من القول فقد خانوا الله بالكفر ونقض ميثاقه
الماخوذ بالعقد من قبل اى قبل بدر فامكن منهم يوم بدر قتلا واسرا فليتوقعوا مثل ذلك

ان عادوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بما في قلوبهم وضمايرهم من ايمان وتصديق وخيانة حَكِيمٌ اي بالغ الحكمة فهو يتقن كل ما يريده فهو يعرف كيدهم ويتقن ما يقابلهم به فيلحقهم لا محالة لذلك فعل تعالى في امر عزة الجمحي فانه سأل النبي صلى الله عليه وسلم في الحاح ان يعفو عنه فلم يفعل وعاد الى غزوه وعاد عليه ان لا يظاهر عليه احدا ثم خان فظفر به في غزوة حمراء الاسد فعقب يوم احدا سيرا فاعتذر اليه وسأله في العفو عنه فقال لا لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين وامر به فضربت عنقه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بالله ورسوله وَهَاجَرُوا اي وافقوا الهجرة من بلاد الشرك وهم المهاجرون الاولون هجروا اوطانهم وعشايرهم واخبارهم حبا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وَجَاهَدُوا اي وافقوا الجهاد وهو بذل الجهد في نوعي الكفر بِأَمْوَالِهِمْ وكان في بداية الغزوة في اول الامر وَأَنْفُسِهِمْ باقدامهم على القتال مع شدة الاعداد وكثرتهم وقدم المال لانه سبب قيام النفس اي بانفاقهم لها في الجهاد ويصيب بعضها بالهجرة من الديار والنخيل وغيرها واخر قوله تعالى فِي سَبِيلِ اللَّهِ لذلك وفي سبيله ايمجاهدوا بسببه حتى لا يصدعنه صاد ويسهل المرور فيه من غير قاطع وَالَّذِينَ آوَوا اي من هاجر اليهم من النبي واصحابه فاسكنوهم ديارهم وقسموا لهم من اموالهم وعرضوا عليهم ان ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجهن وَنَصَرُوا اي الله ورسوله والمؤمنين وهم الانصار رضي الله تعالى عنهم حازوا هذين الوصفين كما نوا في الدرجة من كملي الحسنيين ولكن المهاجرون الاولون اعلا منهم لسبقهم في الايمان الذي هو رئيس الفضائل ولجمعهم الاذى من الكفار زمانا طويلا وصبرهم على فرقة الاهل والاوطان واشار تعالى الى القسمين بادأة البعد لعلو مقامهم فقال أُولَئِكَ اي العالو الرتبة بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ اي دون اقاربهم من الكفار قال ابن عباس في الميراث فكانوا يتوارثون بالهجرة فكان المهاجرون والانصار يتوارثون دون ذوي الارحام وكان من امن ولم يهاجر لا يرث من قريبه المهاجر حتى كان فتح مكة انقطعت الهجرة وتوارثوا بالارحام حيث كانوا وصار ذلك منسوخا بقوله تعالى واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا اي امنوا واقاموا بمكة مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ اي ارثهم مِنْ شَيْءٍ اي فلا ارث بينكم وبينهم ولا نصيب لهم في الغنيمة حَتَّى يُهَاجِرُوا اي الى المدينة وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ولم يهاجروا فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ اي فيجب عليكم ان تنصروهم على المشركين إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ اي عهد فلا تنصروهم عليهم وتنقضوا عهدهم وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ في ذلك تنبيه على العمل بما حث عليه من الايمان والهجرة وغير ذلك مما تقدم وترهيب من العمل باضدادها وفي البصير اشارة الى العلم بما يكون من ذلك خالصا او مشوبا فعنيه مزيد حث على الاخلاص وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ اي في النصر كان كفار مكة كانوا معاونين للهود فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقاتلهم تعاونوا عليه جميعا وفي الميراث فورث بعضهم بعضا ولا ارث بينكم وبينهم إِلَّا تَفْعَلُوهُ اي ما امرتم به من التواصل بينكم وتولي بعضكم لبعض حتى في الميراث وقطع العلائق بينكم وبين الكفار تَكُنْ اي تحصل فِتْنَةٌ اي غلبة فِي الْأَرْضِ بضعف الايمان وقوة الكفر وَفَسَادٌ كَبِيرٌ في الدين ولما فرغت انواع المؤمنين المهاجر والناصر والقاعد وذكر احكامهم الا انهم اخذ بين بعضا وبعضهم في الفضل بقوله وَالَّذِينَ آمَنُوا اي بالله ورسوله وما اتى به وَهَاجَرُوا في الله من معادن شبه سائر بغيض وَجَاهَدُوا أَوْ سَبِيلِ اللَّهِ بما تقدم من المال والنفس وغيرهما فبذلوا الجهد في ازالة الكفار ولم يذكر الجهاد لانهما مع تقدم ذكرهما لازمة وَالَّذِينَ آوَوْا اي من هاجر اليهم

وَنَصَرُوا

ونصروا اي حزب الله اولئك هم المؤمنون اي الكاملون في الايمان حقا اي لانهم حققوا ايمانهم
بتحصيل مقتضاه من الهجرة والجهاد وبذل المال ونصرة الحق ثم وعدهم الموعد الكريم بقوله
تعالى لهم مغفرة اي لزلاتهم وهفواتهم لان مبنى الادمي على العجز اللازم عند التقصير وان اجتهد
فلن يشاد الدين احد الا غلبه ولما ذكر تطهيرهم بالمغفرة ذكر تزكيتهم بالرحمة بقوله تعالى
ورزق اي من الغنائم وغيرها في الدنيا والاخرة كريم اي لا تبعة ولا منة فيه ثم الحق بهم في الامرين
من استلحق بهم وتبسم بسمتهم بقوله تعالى والذين امنوا من بعد اي بعد السابقين الى الايمان
والهجرة وهاجروا اي لاحقين للسابقين وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انهم من هاجر بعد
الحديبية قال وهي الهجرة الثانية وجاهدوا معكم اي من تجاهدونه من حزب الشيطان فاولئك
منكم اي من جملتكم ايها المهاجرون والانصار فلهم ما لكم وعليهم ما عليكم من المواريث والمغانم
وغيرها لان الوصف الجامع هو المدار للاحكام وان تاخرت رتبتهم عنكم بما افهمته اداة البعد
واولوا الارحام اي ذوو القرابات بعضهم اولى ببعض قال ابن عباس كانوا يتوارثون بالهجرة والاخا
حتى نزلت هذه الاية فبين الله تعالى بها ان سبب القرابة اقوى واولى من سبب الهجرة والاخا
ونسخ بها ذلك التوارث في قوله تعالى في كتاب الله اي في حكمه في اللوح المحفوظ او القران وتمسك
اصحاب ابي حنيفة رحمه الله تعالى بهذه الاية على توريث ذوي الارحام واجاب عنه الشافعي رحمه
الله تعالى بانه لما قال في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذي بينه في سورة النسا فصارت
هذه السورة مقيدة بالاحكام التي ذكرها في سورة النسا في قسمة المواريث واعطا اهل الفروض
فروضهم وما بقي فللعصبات فوجب ان يكون المراد من هذا هو ذاك فقط فلا يتعدى الى
توريث ذوي الارحام ثم قال تعالى في ختم السورة ان الله بكل شيء عليم اي ان هذه الاحكام
التي ذكرتها وفصلتها كلها حكمة وصواب وصلاح وليس فيها شيء من العبث والباطل لان العالم
بجميع المعلومات لا يحكم الا بالصواب ونظيره ان الملائكة لما قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك
الدما قال تعالى مجيبا لهم اني اعلم ما لا تعلمون اي كما علمتم كوني عالما بكل المعلومات
فاعلموا ان حكمي يكون منزها عن الغلط كذا هنا وقول البيضاوي في بعض النسخ تبعا للزمخشري
وعن النبي صلى الله عليه وسلم من قرا سورة الانفال وبراءة فانا شفيع له يوم القيمة وشاهد
انه بري من النفاق واعطي عشر حسنات بعدد كل منافق ومنافقة وكان العرش وحملته
يستغفرون له ايام حياته في الدنيا حديث موضوع • سورة التوبة مدنية الا الايتين
من قوله تعالى لقد جاءكم رسول من انفسكم وهي اخر ما نزلت وايها مائة وثلاثون وقيل وتسع
وعشرون وعدد كلماتها الفان واربعمائة وسبع وتسعون كلمة وحروفها عشرة الاف وثمانمائة
وسبعة وثمانون حرفا ولها عدة اسما التوبة • براءة • المقشقشة • البحوثة بفتح البا
المبعثرة • المنقدة • المثيرة • الحافرة • المخزية • الفاضحة • المنكلة • المشردة • المدمدمة
سورة العذاب وانما سميت بذلك لما فيها من التوبة للمومنين والقشقشة من النفاق
وهي التبرا منه والبحث عن حال المنافقين واثارتها والحفر عنها وما يحزنهم ويفضحهم
وينكلهم ويشردهم ويدمدم عليهم ولم تكتب فيها البسملة لانه صلى الله عليه وسلم لم يامر
بذلك كما يوخذ من حديث رواه الحاكم واخرج في معناه عن علي ان البسملة امان وهي
نزلت لرفع الامن بالسيف وعن حذيفة انكم تسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب
وروى البخاري عن البرا انها اخر سورة نزلت وقيل كان صلى الله عليه وسلم اذا نزل عليه سورة

سورة التوبة

او اية بين موضعها فتوفي ولم يبين موضعها وكانت قصتها تشابه قصة الانفال
وتناسبها لان في الانفال ذكر العهود وفي براة نبذها فضمت اليها قال القاضي يبعد ان يقال
انه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الانفال لان القران مرتب
من قبل الله تعالى ومن قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي نقل ولو جوزنا
في بعض السور ان لا يكون ترتيبها من الله تعالى على سبيل الوحي لجوزنا مثله في ساير السور
وفي ايات السور وفي ايات السورة الواحدة وذلك يخرجه عن كونه حجة بل الصحيح انه عليه
الصلاة والسلام امر بوضع هذه السورة بعد سورة الانفال وحيا وانه عليه الصلاة
والسلام حذف بسم الله الرحمن الرحيم من اول هذه السورة وحيا والقول بان قصتها تشابه
قصتها وتناسبها فضمت اليها انما يتم اذا قلنا انهم انما وضعوا هذه السورة بعد الانفال
من قبل انفسهم لهذه العلة وقيل ان الصحابة اختلفوا في ان سورة الانفال وسورة براة
سورة واحدة ام سورتان فقال بعضهم هما سورة واحدة لان كلتيهما نزل في القتال
ومجموعهما هذه السورة السابعة من الطوال وهي سبع وبعدها المايون لانهما معا مايتان
وست ايات فهما بمنزلة سورة واحدة وبينهم من قال سورتان فلما ظهر الاختلاف
من الصحابة في هذا تركوا بينهما فرجة تنبيها على قول من يقول هما سورتان وما كتبوا
بسم الله الرحمن الرحيم بينهما تنبيها على قول من يقول هما سورة واحدة وقال بعض اصحاب
الشافعي رضي الله تعالى عنه لعل الله لما علم من بعض الناس انهم ينازعون في كون بسم الله الرحمن الرحيم
من القران امر ان لا يكتب هاهنا ليدل ذلك على كونها اية من كل سورة فانها لما لم تكن
اية من هذه السورة وجب كونها اية من كل سورة وقيل غير ذلك والصحيح من هذه الاقوال
ما ذهب اليه القاضي من ان القران مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله صلى الله عليه
وسلم على الوجه الذي نقل وانه صلى الله عليه وسلم حذف بسم الله الرحمن الرحيم من هذه
السورة وحيا وانما ذكرت هذه الاقوال تشحيذا للاذهان وقوله تعالى براة خبر مبتدا
محذوف اي هذه براة وقوله تعالى من الله ورسوله من ابتدائية متعلقة بمحذوف تقديره
واصلة من الله ورسوله ويجوز ان تكون براة مبتدا لتخصيصها بصفتها والخبر الى الذين عاهدتم
اي اوقعتم العهد بينكم وبينهم من المشركين اي وان كانت معاهدتكم لهم انما كانت باذن من الله
ورسوله فكما فعلتم المعاهدة باذنهما فافعلوا النقض تبعا لهما ودل سياق الكلام وما
حواه من بدايع الانتظام ان العهد انما هو لاجل المومنين واما الله ورسوله فغنيان عن ذلك
اما الله فبالغنى المطلق واما الرسول صلى الله عليه وسلم فبالذي اختاره للرسالة لانه ما فعل ذلك
الا وهو قادر على نصره بسبب وبغير سبب روي ان النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج الى تبوك كان
المنافقون يرجفون الاراجيف وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول
الله صلى الله عليه وسلم فامر الله تعالى بنقض عهودهم وذلك قوله تعالى واما تخافن
من قوم خيانة فانبذ اليهم الاية ونقض العهد بما يذكر في قوله تعالى فسيحوا اي سيروا امنين
ايها المشركون في الارض اربعة اشهر لا يتعرض لكم فيها ولا امان لكم بعدها وكان ابتدا هذه الاشهر
يوم الحج الاكبر وانقضاوها الى عشر من ربيع الاخر وقال الازهري هي شوال وذو القعدة
وذو الحجة والمحرم لانها نزلت في شوال وقيل هي عشرون من ذي الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع
الاول وعشر من شهر ربيع الاخر وكانت حرما لانهم اومنوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم او على

التغليب

التغليب لان ذا الحجة والمحرم منها قال البغوي الاول هو الاصوب وعليه الاكثرون انتهى وقيل
العشر من ذي القعدة الى عشرين شهر ربيع الاول لان الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت
للنسي الذي كان فيهم ثم صار في السنة الثانية في ذي القعدة وكان نزولها في سنة تسع
من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان وكان الامير فيها عتاب بن اسيد فامر رسول الله صلى
الله عليه وسلم ابا بكر رضي الله تعالى عنه على موسم سنة تسع ثم اتبعه عليا رضي الله تعالى عنه
راكب العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقراها على اهل الموسم فقيل له لو بعثت
بها الى ابي بكر فقال لا يودي عني الا رجل مني فلما دنى علي من ابي بكر الرغاء فوقف وقال هذا
رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم واصل العضب ما شق في الاذن ولم تكن ناقته
صلى الله عليه وسلم كذلك ولكن كان ذلك علما عليها والرغاء بالمد صوت ذوات الخف قاله الجوهري
فلما لحقه قال امير او مامور فقال مامور روي ان ابا بكر رضي الله تعالى عنه لما كان
ببعض الطريق هبط جبريل وقال يا محمد لا يبلغن رسالتك الا رجل منك فارسل عليا رضي
الله تعالى عنه فرجع ابو بكر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله امشي
نزل من السما قال نعم فسر وانت على الموسم وعلي ينادي بالآي فلما كان قبل التروية
خطب ابو بكر وحدثهم عن مناسكهم وقام علي يوم النحر عند جمرة العقبة فقال ايها
الناس اني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم فقالوا بماذا فقرا عليهم ثلاثين او اربعين
اية وعن مجاهد ثلاث عشرة ثم قال امرت باربع اي بان اخبر وانادي بها ان لا يقرب
البيت بعد هذا العام مشرك ولا يطوف به عريان ولا يدخل الجنة الا كل نفس مؤمنة
وان يتم الى كل ذي عهد عهده فقالوا عند ذلك يا علي ابلغ ابن عمك انا قد نبذنا العهد
وراء ظهورنا وانه ليس بيننا وبينه عهد الا طعن بالرماح وضرب بالسيوف ثم حج صلى الله
عليه وسلم سنة عشر حجة الوداع فان قيل قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لان
يودي عنه كثير ولم يكونوا من عترته اجيب بان هذا ليس على العموم بل هو مخصوص بالعهود
لان العرب عادتها ان لا يتولى العهد ونقضه على القبيلة الا رجل من الاقارب فلو تولاه ابو
بكر لجاز ان يقولوا هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض العهود فربما لم يقبلوا فازيحت علتهم
بتولية ذلك عليا ويدل على ذلك في بعض الروايات لا ينبغي لاحد ان يبلغ هذا الا رجل من اهلي
وقيل لما خص ابا بكر بتولية امر الموسم خص عليا بهذا التبليغ تطييبا للقلوب ورعاية
للجوانب وقيل قرر ابا بكر على الموسم وبعث عليا خليفة لتبليغ هذه الرسالة
حتى يصلي خلف ابي بكر ويكون ذلك جاريا مجرى تنبيه علي على امامة ابي بكر فان قيل
ما وجه اطباق اكثر العلما على جواز مقاتلة المشركين في الاشهر الحرم وقد صانها الله تعالى
عن ذلك اجيب بانهم قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وابيح قتال المشركين فيها واعلموا
انكم غير معجزي الله لا تفوتونه وان امهلكم وان الله مخزي الكافرين اي مذلهم في الدنيا
بالقتل والاسر وفي الاخرة بالعذاب واذان اي اعلام واقع من الله ورسوله الى الناس
اذ الاذان في اللغة الاعلام ومنه الاذان للصلاة فانه اعلام بوقتها وارتفاعه
كارتفاع براة على الوجهين فان قيل لم علقت البراة بالذين عاهدوا من المشركين
وعلق الاذان بالناس اجيب بان البراة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم واما الاذان
فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث يوم الحج الاكبر

اي يوم عيد النحر لان معظم افعاله من طواف ونحر وحلق ورمي يقع فيه ولان الاعلام كان فيه ولما
روي انه صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في حجة الوداع اي يوم هذا فقالوا يوم
النحر فقال هذا يوم الحج الاكبر وروي ان عليا رضي الله تعالى عنه خرج يوم النحر على بغلة بيضا
يريد الجبانة فجاءه رجل فاخذ بلجام دابته وسأله عن يوم الحج الاكبر فقال يومك هذا
خل سبيلها وقيل يوم عرفة لقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة وقيل ايام منى كلها لان اليوم
قد يطلق ويراد به الحين والزمان كقولك يوم صفين ويوم الجمل لان الحرب دامت في هذه
الايام ويطلق عليها يوم واحد وقيل هو الذي حج فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم
لانه اجتمع فيه حج المسلمين وعيد اليهود وعيد النصارى وعيد المشركين ولم يجتمع مثل
ذلك قبله ولا بعده ووصف الحج بالاكبر لان العمرة تسمى الحج الاصغر وانما قيل لها الاصغر لنقصان
اعمالها عن الحج وقيل وصف بذلك لموافقة حج النبي صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان
ذلك اليوم يوم الجمعة وودع الناس فيه وخطبهم وعلمهم مناسكهم وقيل وصف بذلك
لاجتماع اعياد الملل في ذلك اليوم وقيل لانه ظهر فيه عز المسلمين وذل المشركين وقوله تعالى
ان الله بريء من المشركين اي من عهودهم فيه حذف تقديره واذان من الله ورسوله
بان الله بريء من المشركين وانما حذف الجار لدلالة الكلام عليه وقوله تعالى ورسوله مرفوع
على انه مبتدا حذف خبره اي ورسوله كذلك وحكي ان اعرابيا سمع رجلا يقرا ورسوله بالجر
فقال ان كان الله بريء من رسوله فانا منه بريء فلبثه الرجل الى عمر رضي الله تعالى عنه
فحكى الاعرابي قراءته فعندها امر عمر رضي الله تعالى عنه بتعليم العربية وحكي ايضا ان اعرابيا
قدم في زمن عمر فقال من يقرا لي مما انزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم فاقراه رجل براءة فقال
ان الله بريء من المشركين ورسوله بالجر فقال الاعرابي او قد برئ الله من رسوله ان يكن الله
بريء من رسوله فانا بريء منه فبلغ عمر رضي الله تعالى عنه فقال له الاعرابي فدعاه فسأله
فاخبره الاعرابي بذلك فقال عمر ليس هكذا يا اعرابي فقال فكيف هي يا امير المؤمنين فقال ان الله
بريء من المشركين ورسوله فقال الاعرابي وانا والله ابرا مما برا الله ورسوله منه فامر عمر ان لا
يقرا القران الا عالم باللغة وامر ابا الاسود الدؤلي فوضع النحو فان تبتم اي عن الكفر والغدر
فهو اي ذلك الامر العظيم وهو المتاب خير لكم اي من الاقامة على الشرك وهذا ترغيب
من الله في التوبة والاقلاع عن الشرك الموجب لدخول النار وان توليتم اي اعرضتم عن
الايمان والتوبة من الشرك فاعلموا انكم غير معجزي الله وذلك وعيد عظيم واعلام بان الله تعالى
قادر على انزال اشد العذاب بهم كما قال تعالى وبشر الذين كفروا بعذاب اليم اي مؤلم
وهو القتل والاسر في الدنيا والنار في الاخرة ولفظ البشارة هنا ورد على سبيل
الاخبار او على سبيل الاستهزاء كما يقال محبتهم الضرب واكرامهم الشتم وقوله تعالى الا الذين
عاهدتم من المشركين استثناء من المشركين وهم بنو ضمرة حي من كنانة امر الله تعالى رسوله
صلى الله عليه وسلم باتمام عهدهم الى مدتهم وكان قد بقي من مدتهم تسعة اشهر وكان السبب
فيه انهم لم ينقضوا كما قال تعالى ثم لم ينقصوكم شيئا اي من عهودهم التي عاهدتموهم عليها
ولم يظاهروا اي ولم يعاونوا عليكم احدا من عدوكم فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم
اي الى انقضائها ولا تجروهم مجرى الناكثين وقوله تعالى ان الله يحب المتقين تعليل وتنبيه
على ان تمام عهدهم من باب التقوى فاذا انسلخ اي انقضى وخرج الاشهر الحرم اي التي حرم

عليكم

عليكم فيها قتالكم وضربت اجلا لسياحتهم والتعريف فيها مثله فارسلنا الى فرعون رسولا فعصى
فرعون الرسول والمراد من كونها حرما ان الله تعالى حرم القتل والقتال فيها وقيل هي رجب
وذو القعدة وذو الحجة والمحرم قال البيضاوي وهذا مخل بالنظم اي نظم الاية
ان نظمها يقتضي توالي الاشهر المذكورة فاقتلوا المشركين اي الناكثين الذين ضربتم لهم هذا
الاجل احسانا وكرما حيث وجدتموهم اي في حل او حرم في شهر حرام او غيره وخذوهم اي بالاسر
واحصروهم اي بالحبس عن اتيان المسجد الحرام والتصرف في بلاد الاسلام في القلاع والحصون
حتى يضطروا الى القتل او الاسلام واقعدوا لهم اي لاجلهم خاصة فان ذلك من افضل
العبادات كل مرصد اي طريق يسلكونه لئلا يتسطوا في البلاد وانتصاب كل على الظرف
كقوله لاقعدن لهم صراطك المستقيم وقيل على نزع الخافض قال الحسن بن الفضل نسخت
هذه الاية كل اية فيها ذكر الاعراض عن المشركين والصبر على اذى الاعداء فان تابوا
اي عن الكفر بالايمان واقاموا الصلاة واتوا الزكاة اي تصديقا لتوبتهم وايمانهم
وصلوا ما بينهم وبين الخالق وما بينهم وبين الخلائق فخلوا سبيلهم اي فدعوهم ولا تتعرضوا
لهم بشيء من ذلك وفي هذه الاية دليل على ان تارك الصلاة او مانع الزكاة لا يخلى سبيله
لانه ان كان جاحدا لوجوبها فهو مرتد والا قتل بترك الصلاة واخذت منه الزكاة قهرا
وقوتل على ذلك كما نقل عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه قال لما توفي النبي صلى الله
عليه وسلم واستخلف ابو بكر وكفر من كفر من العرب قال عمر رضي الله تعالى عنه لابي بكر كيف
تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم امرت ان اقاتل الناس حتى
يقولوا لا اله الا الله فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بحقها وحسابه
على الله فقال ابو بكر رضي الله تعالى عنه لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان
الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها وفي رواية عقالا كانوا يؤدونه
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها فقال عمر فوالله ما هو الا ان رايت ان الله
شرح صدر ابي بكر للقتال فعرفت انه الحق ان الله غفور اي بليغ المحو للذنوب التي تاب
صاحبها عنها رحيم به وان احد من المشركين اي الذين امرت بقتالهم استجارك اي طلب
ان تعامله في الاكرام معاملة الجار بعد انقضاء مدة السياحة فامره اي فامنه ودافع
عنه من يقصده بسوء حتى يسمع كلام الله اي القران بسماع التلاوة الدالة عليه فيعلم بذلك
ما يدعى اليه من المحاسن ويتحقق انه ليس من كلام الخلق ثم ان اراد الانصراف ولم يسلم
ابلغه مامنه اي الموضع الذي يامن فيه وهو دار قومه ليسطر في امره ثم بعد ذلك يجوز
لك قتلهم وقتالهم من غير عذر ولا خيانة قال الحسن هذه الاية محكمة الى يوم القيمة
تنبيه احد مرفوع بفعل مضمر يفسره الظاهر وتقديره وان استجارك احد ولا يجوز ان
يرتفع بالابتداء لان ان من عوامل الفعل فلا تدخل على غيره ذلك اي الامر بالاجارة للغرض
المذكور بانهم اي بسبب انهم قوم لا يعلمون اي لا علم لهم لانه لا عهد لهم بنبوة ولا رسالة ولا كتاب
فاذا علموا وشك ان ينفعهم العلم وقوله تعالى كيف يكون للمشركين عهد عند الله
وعند رسوله استفهام معناه الجحد اي لا يكون لهم عهد عند الله ولا عند رسوله وهم يغدرون
وينقضون العهد الا الذين عاهدتم اي من المشركين عند المسجد الحرام يوم الحديبية وهم المستثنون
قبل فما استقاموا لكم اي اقاموا على العهد ولم ينقضوه فاستقيموا لهم اي على الوفا

عليهم

وهو كقوله تعالى فاتموا اليهم عهدهم الى مدتهم غير مطلق وهذا مقيد وما يحتمل الشرطية والصدق
إن الله يحب المتقين اى من اتقى الله يوفى بعهده لمن عاهده وقد استقام صلى الله عليه وسلم على عهدهم
حتى نقضوا او اعانة ابى بكر على خزاعة وقوله تعالى كيف تكرار للاستبعاد بثبات المشركين على العهد
وحذف الفعل لكونه معلوما اى كيف يكون لهم عهد ثابت ان اى والحال انهم مضمرون لكم الغدر
والخيانة فهم ان يظهروا عليكم اى يعلموا امرهم على امركم بان يظفروا بكم بعد العهد والميثاق
لا يرقبوا اى لا يرعوا فيكم اى فى اذاكم بكل جليل وحقير الا اى قرابة تحققة فالحسان لو ترك
ان لك من قريش كالك الشعب من رأل النعام الشعب ولد الناقة والرأل ولد النعامة
والخطاب فى لعمرك لابى سفيان اى لاقرابته بينك وبين قريش كالاقرابة بين ولد الناقة
وولد النعام وقيل الا الله وقيل جبريل ولا ذمة اى عهد ابدا بعد وكم ما استطاعوا وقوله
تعالى ترضونكم بافواههم اى بكلامهم كلام مبتدأ فى وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن
مقرر لاستبعاد ثباتهم على العهد وتابى قلوبهم اى على الوفاء به لمخالفة ما فيها من الاضغان
واكثرهم فاسقون اى راسخون الاقدام فى الفسق فان قيل الموصوفون بهذه الصفة كفار
والكفر افحش واخبث من الفسق وكيف يحسن وصفهم بالفسق فى معرض المبالغة فى الذم وايضا
الكفار كلهم فاسقون فلا يبقى لقوله واكثرهم فاسقون فائدة اجيب بان الكافر قد يكون
عدلا فى دينه فلا ينقض العهد وقد يكون فاسقا خبيث النفس ردى دينه فينقضه فالمراد ان صفة
الكفار الذين عاهدتموهم بالفسق صار نقض العهد وكان من المشركين من وفى بعهده فلهذا
قال واكثرهم اى ان صفة الكفار الذين عاهدتموهم نقض العهد اكثرهم فاسقون فى دينهم وعند
اقوامهم وذلك يوجب المبالغة فى الذم وقال ابن عباس لا يبعد ان يكون نقض العهد اولئك
الكفار قد اسلم وتاب عن هذا العهد

يحرضون الاتباع على هذه الاعمال الباطلة وقال ابن عباس نزلت في ابي سفيان بن حرب
والحارث بن هشام وابي جهل وسائر رؤساء قريش وهم الذين نقضوا عهودهم وهموا باخراج
الرسول وفيه وضع الظاهر موضع المضمر وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الهمزة
الثانية المكسورة وحفص الباقون وقول البيضاوي والتصريح بالياء الحق بتبع فيه الكشاف
التابع للفراء وهو مردود والجمهور من النحاة والقراء على جواز قلب الهمزة الثانية حرف لين
فنعصهم على اجعلها بين بين وبعضهم على قلبها ياء خالصة وقوله تعالى انهم لا ايمان لهم
قرا ابن عامر بكسر الهمزة اي لا تصدقوا لهم ولا دين وليس في ذلك دلالة على ان توبة المرتد
لا تقبل والباقون بالفتح جمع يمين اي لا ايمان لهم على الحقيقة وايمانهم ليست بايمان
والا لما طعنوا ولم ينكثوا وفيه دليل على ان الذمي اذا طعن في الاسلام فقد نكث عهده
اي ان شرط ذلك عليه كما يقوله منا ومنكرا ابو حنيفة رحمه الله تعالى بهذا على ان
يمين الكافر لا تكون يمينا وعند الشافعي رحمه الله تعالى يمينهم منعقدة ومعنى هذه
الآية عنده انهم لما لم يوفوا بايمانهم صارت ايمانهم كانها ليست بايمان والدليل على ان
يمينهم منعقدة ان الله تعالى وصفها بالنكث في قوله وان نكثوا ايمانهم ولو لم تكن منعقدة
لما صح وصفها بالنكث وقوله تعالى لعلهم ينتهون متعلق بقاتلوا اي لكن غرضكم
في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظائم ان ينتهوا بانفسهم عما هم عليه من الكفر والطعن
في دينكم والمظاهرة عليكم وهذا في غاية كرم الله تعالى وفضله على الانسان وليس الغرض
بهذا القتال الا ذيتهم كما هو طريقة الموحدين ولما قال تعالى فقاتلوا ائمة الكفر انتهى
بذكر ثلاثة اسباب تبعثكم على مقاتلتهم كل واحد منها موجب مقاتلتهم لو انفرد فكيف بها
حال الاجتماع احدها ذكرها في قوله الا تقاتلون قوما نكثوا ايمانهم اي نقضوا عهودهم وهم
وهم الذين نقضوا عقد الصلح بالحديبية واعانوا بني بكر على خزاعة وهذا يدل على ان قتال
الناكثين اولى من قتال غيرهم من الكفار لكون ذلك زجرا لغيرهم وثانيها قوله تعالى
وهموا باخراج الرسول من مكة حين اجتمعوا في دار الندوة على ما ذكرناه في قوله تعالى واذ يمكر بك
الذين كفروا وقتلهم اياه وكتبوا عهد الرسول وهموا باخراجه من المدينة وهذا من اوكد
ما يجب القتال لاجله وثالثها قوله تعالى وهم بدؤوكم اي بالقتال اول مرة اي هم الذين كانت
منهم البداءة بالمقاتلة لان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم اولا بالكتاب المسطر وتحداهم به
فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها الى القتال فهم البادئون بالقتال والبادئ اظلم فلم
يمتنع من ان يقال لو لم يقاتلوهم بمثله وان يقصدوهم بالشر كما قصدوكم ويحتمل ان الله تعالى يترك
مقاتلتهم وحضهم عليها ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها وتقرر ان من كان في مثل صفاتهم
من نكث العهد واخراج الرسول خليقا بالقتال حتى عد موجب حقيق بان لا تترك
مقاتلته وان يوبخ من فرط فيها لتخشونهم اي اتخافونهم ايها الموحدون فتتركون قتالهم
فالله احق ان تخشوه فتقاتلوا اعداءه ان كنتم مؤمنين اي مصدقين بوعد الله ووعيده
لان فضيلة الايمان الصحيح ان لا يخشى الموحد من الاربه ولا يبالي بمن سواه لقوله تعالى ولا
يخشون احدا الا الله ولما وبخهم الله تعالى على ترك القتال حرضهم الامر بقوله تعالى
قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم اي بالقتل والاسر فاخبر اولا بالتعذيب ثم قال تعالى ويخزهم
واثبت فيهم فكيف قال بعد ذلك يعذبهم الله بايديكم اجيب بان المراد بالعذاب في الاية

الاولى عذاب الاستيصال وبهذه الاية القتل والاسر والفرق ان عذاب الاستيصال قد
يتعدى الى غير المذنب وان في حقه لمزيد الثواب وعذاب القتل مقصور على المذنب
وهذا كالتصريح بان مثل هذا الفعل وما عطف عليه فعله تعالى وان كان جار
على ايدي العباد كسبا ولا يرد على ذلك انه لا يقال يعذب الله المومنين بايدي الكافرين
لان ذلك انما امتنع لشناعة العبارة كما لا يقال يعذب الله المومنين يا خالق
القاذورات والابوال وان كان هو الخالق لها **ويخزهم** اي بالذل والفضيحة في الدنيا
والعذاب في الاخرة **وينصركم عليهم** يمكنكم من قتلهم واذلالهم **ويشف صدور قوم
مومنين** اي طائفة من المومنين وهم خزاعة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه
هم بطون من اليمن وسبا قدموا مكة فاسلموا فلقوا من اهلها اذى شديدا فبعثوا الى
رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه فقال ابشروا فان الفرج قريب **ويذهب غيظ
قلوبهم** اي كربها ووجدها وقد وفى الله تعالى بما وعد في الاية من المعجزات وقوله تعالى
ويتوب الله على من يشاء استيناف اي ان الله يهدي من يشاء الى الاسلام كما فعل بابي
سفيان بن حرب وعكرمة بن ابي جهل وسهيل بن عمرو فهولاء كانوا من ائمة الكفر ورؤسا
المشركين ثم من الله تعالى عليهم بالاسلام يوم فتح مكة فاسلموا وحسن اسلامهم **والله
عليم** اي فهو عليم بكل شيء فيعلم من يصلح للتوبة ومن لا يصلح لها ويعلم ما في قلوبكم من الاقدام
والاحجام **حكيم** اي احكم جميع اموركم يعلم ما سيكون كما يعلم ما قد كان فهو عليم بكل شيء فيعلم
من يصلح للتوبة ومن لا يصلح لها ويعلم ما في قلوبكم من الاقدام والاحجام **حكيم** اي احكم
جميع اموره **ام حسبتم** اي اظننتم **ان تتركوا** فلا تومروا بالجهاد ولا تمتحنوا ليظهر الصادق
من الكاذب الخطاب للمومنين حين كره بعضهم القتال وقيل للمنافقين وام بمعنى همزة
الانكار **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** اي علما ظاهرا تقوم به الحجة عليكم في مجاري عاداتكم
على مقتضى عقولكم بان يقع الجهاد في الواقع بالفعل وعبر تعالى بلا دون لم لدلالتها مع استغراق
الزمان على ان تبيين ما بعدها متوقع كاين وقوله تعالى **ولم يتخذوا من دون الله ولا
رسوله ولا المومنين وليجة** عطف على جاهدوا داخل في حيز الصلة كانه قيل ولما يعلم الله
المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله والوليجة فعيلة من ولج كالدخيلة
من دخل وهي البطانة من المشركين يتخذونهم يفشون اليهم اسرارهم وقال قتادة هي
الخيانة وقال عطا هي الاولياء **والله خبير بما تعملون** من موالاة المشركين وغيرها فيجازيكم
عليه قال ابن عباس ولما اسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم
واغلظ علي رضي الله تعالى عنه عليه القول فقال العباس ما لكم تذكرون مساوينا ولا
تذكرون محاسننا فقال له علي وهل لكم محاسن قال نعم نحن افضل منكم انا لنعمر المسجد الحرام
ونحجب الكعبة ونسقي الحجيج ونفك العاني اي الاسير فانزل الله تعالى ردا على العباس **ما كان
للمشركين ان يعمروا مسجد الله** اي ما ينبغي للمشركين ان يعمروا مسجد الله اي بدخوله والقعود فيه
وخدمته فان دخله بغير اذن مسلم عزر وان دخل باذنه لم يعزر لكن لا بد من حاجة
فيشترط للجواز الاذن والحاجة ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالاذن ان النبي صلى
الله عليه وسلم شد ثمامة بن اثال الى سارية من سواري المسجد وهو كافر وذهب جماعة الى ان
المراد منه العمارة المعروفة من بنا المسجد وترميمه عند خرابه فيمنع منه الكافر وقرا ابن كثير

وابو عمرو

وابو عمرو بسكون السين ولا الف بعدها على التوحيد وفي هذه الاية دلالة على ان المراد
المسجد الحرام والباقون بفتح السين والف بعدها على الجمع وفيه دلالة على ان المراد جميع
المساجد وقيل المراد على القراءتين المسجد الحرام وانما جمع لانه قبلة المساجد وامامها فعامره
كعامر الجميع وقوله تعالى شاهدين على انفسهم بالكفر حال من الواو في يعمروا اي ما استقام
لهم ان يجمعوا بين امرين متنافيين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته
ومعنى شهادتهم على انفسهم بالكفر ظهور كفرهم قال الحسن لم يقولوا نحن كفار ولكن كلامهم
بالكفر شاهد عليهم وعن ابن عباس شهادتهم على انفسهم بالكفر سجودهم للاصنام وذلك
ان كفار قريش كانوا نصبوا اصنامهم حول البيت وكانوا يطوفون بالبيت ويقولون
عراة ويقولون لا نطوف بثياب قد اصبنا فيها المعاصي وكلما طافوا اسبوعا سجدوا
لاصنامهم فلم يزدادوا من الله الا بعدا وقيل هو قولهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو
لك تملكه وما ملك وقال السدي شهادتهم على انفسهم بالكفر هو ان النصراني يسال من انت
فيقول نصراني واليهودي يقول يهودي والمشرك يقول مشرك اولئك حبطت اي بطلت
اعمالهم اي الاعمال التي عملوها من اعمال البر وافتخروا بها مثل العمارة والحجابة والسقاية
وفك العناة لانها مع الكفر لا تاثير لها وفي النار هم خالدون لجعلهم الكفر مكان الايمان
فاحتج اصحابنا بهذه الاية على ان مرتكب الكبيرة من اهل الايمان لا يبقى مخلد في النار
من وجهين الاول ان قوله تعالى وفي النار هم خالدون يفيد الحصر اي هم فيها خالدون
لا غيرهم ولما كان هذا وارد في حق الكفار ثبت ان الخلود لا يحصل الا للكافر الثاني
انه تعالى جعل الخلود في النار جزاء للكفار عن كفرهم فلو كان هذا الحكم جزاء لغير
الكافر لما صح تهديد الكافر به وفي الكشاف ان الكبيرة تهدم الاعمال وهو جار على
مذهبه الفاسد ولما بين تعالى ان الكافر ليس له ان يعمر مساجد الله بين من المستحق
لعمارتها بقوله تعالى انما يعمر مساجد الله من امن بالله واليوم الاخر واقام الصلاة
واتى الزكاة ولم يخش احدا الا الله فان قيل لم لم يذكر الايمان برسوله صلى الله عليه وسلم
مع ان الايمان به شرط في صحة الايمان اجيب بانه تعالى لما ذكر الصلاة والصلاة
لا تتم الا بالتشهد وهو مشتمل على ذكره كان ذلك كافيا وبما علم من ان الايمان بالله تعالى قرينه
وتمامه الايمان به فكان الايمان بالرسول مذكورا بطريق ابلغ هو طريق الكناية
لما علم من تقارنهما وعدم انفكاك احدهما عن الاخر وقيل ان المشركين كانوا يقولون
ان محمدا انما ادعى الرسالة الله طلبا للرياسة والملك فلذلك ترك ذكر النبوة كانه
يقول مطلوبي من تبليغ الرسالة ليس الا الايمان بالمبدا والمعاد فذكر المقصود الاصلي
وحذف ذكر النبوة تنبيها للكفار على انه لا مطلوب له من الرياسة فان قيل كيف قال
تعالى ولم يخش الا الله والمومن قد يخاف الظلمة والمفسدين اجيب بان المراد
من هذه الخشية الخوف والتقوى في ابواب الدين وان لا يختار على رضى الله تعالى رضى
غيره لتوقع مخوف واذا اعترضه امران احدهما حق الله تعالى والاخر حق نفسه ان يخاف
الله تعالى فيوثر حق الله تعالى على حق نفسه وقيل كانوا يخشون الاصنام ويرجونها
فاريد نفي تلك الخشية عنهم ومن عمارة المساجد ترميمها وفرشها وتنويرها بالسرج التي لا سرف
فيها وادامة العبادة فيها والذكر ومن الذكر درس العلم فيها بل هو اجله واعظمه وصيانتها
مما لم تبن المساجد له كحديث الدنيا روي انه صلى الله عليه وسلم قال ياتي في اخر الزمان

ناس من امتي ياتون المساجد فيقعدون حلقا ذكرهم الدنيا وحب الدنيا الا تجالسوهم فليس لله بهم
حاجة وفي الحديث الحديث في المسجد يا كل الحسنات كما تاكل البهيمة الحشيش وفي الكشاف
انه صلى الله عليه وسلم قال قال الله تعالى ان بيوتي في ارضي المساجد وان زواري فيها عمارها
فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور ان يكرم زائره قال شيخنا
سليمان بن حزم احد هكذا وفي الطبراني عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم من توضا
في بيته فاحسن الوضوء ثم اتى المسجد فهو زائر الله وحق على المزور ان يكرم زائره وروى
عنه صلى الله عليه وسلم من الف المسجد الفه الله وقال صلى الله عليه وسلم اذا رايتم الرجل
يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان وعن انس رضي الله تعالى عنه من اسرج في مسجد
سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوء وروى انه صلى الله عليه
وسلم قال من غدا الى المسجد وراح اعد الله له نزلا من الجنة كلما غدا وراح وقوله تعالى
فعسى اولئك اي الموصوفون بتلك الصفات ان يكونوا من المهتدين تبعيد للمشركين عن
مواقف الاهتداء وحسم اطماعهم والانتفاع باعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها او املوا
عاقبتها فانه تعالى بين ان الذين آمنوا وعملوا الاعمال بالشرايع وهم اليه الخشية من
الله فهو لاء حصول الاهتداء المهتدون بين فضل ومحتى فما بال هولاء المشركين يتطوون
بامهم مهتدون ويخرصون بظنهم بغير من عند الله ومنع للمومنين عن ان يغتروا باحوالهم
ويتكلوا عليها وذكر المفسرون في سبب نزول قوله تعالى اجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد
الحرام كمن امن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله اقوالا فعن النعمان بن بشير قال
كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل لا ابالي ان لا اعمل عملا بعد
ان اسقي الحاج وقال اخر انا ابالي ان لا اعمل عملا بعد ان اعمر المسجد الحرام وقال اخر الجهاد
في سبيل الله افضل مما قلتم فزجرهم عمر رضي الله تعالى عنه وقال لا ترفعوا اصواتكم عند
منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يوم الجمعة ولكن اذا صليت الجمعة دخلت فاستفتيته
فيما اختلفتم فيه فانزلت وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال العباس حين اسر يوم
بدر لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج فانزل
الله تعالى ان المشركين قالوا لليهود نحن سقاة الحجيج وعمارة المسجد الحرام فنحن افضل ام محمد
واصحابه فقالت لهم اليهود انتم افضل فانزلت وقيل ان عليا قال للعباس رضي الله
تعالى عنهما يا عم الا تهاجرون الا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اشتت
وافضل من الهجرة اسقي حاج بيت الله واعمر المسجد الحرام فلما نزلت قال العباس
ما ارى الا تاركا سقايتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقيموا على سقايتكم فانكم
فيها خير وكان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم بيده سقاية الحاج وكانوا يليها في الجاهلية
فلما جاء الاسلام واسلم العباس امره صلى الله عليه وسلم على ذلك وروى انه صلى الله
عليه وسلم جاء الى السقاية فاستسقى فقال العباس رضي الله تعالى عنه لابنه الفضل يا فضل
اذهب الى امك فات رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراب من عندها فقال صلى الله عليه
وسلم اسقني قال يا رسول الله تجعلون اوساخ الناس فيه فقال صلى الله عليه وسلم اسقني فشرب
منه ثم اتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها فقال اعملوا فانكم على عمل صالح وعن ابي بن
عبد الله المزني رضي الله تعالى عنهما قال كنت جالسا مع ابن عباس عند الكعبة فاتاه اعرابي
فقال ما لي اراك بني عمكم يسقون العسل وانتم تسقون النبيذ امن حاجة بكم ام من بخل

فقال

الثامن والعشرون

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحمد لله ما بتنا من حاجة ولا بحل اما قدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم على راحلته وخلفه اسامة فاستسقى فاتيناه بانا من نبيذ فشربه وسقى فضله اسامة وقال
احسنتم واجملتم كذا اصنعوا فلا نريد تغيير ما امر به رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيذ
تمرينتع في الماء عدوة ويشرب عشيا او ينقع عشيا ويشرب غدوة وهو حلال ما كان علا وحمض
حرم تنبيه السقاية والعمارة مصدران من سقى وعمر كالصيانة والوصاية فلا بد من مضاف
محذوف تقديره احعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن امن بالله ويجوز ان
يكون تقديره احعلتم سقاية الحاج كايمان من امن بالله لا يستوون عند الله اي لا
يستوي حال القوم الا الذين امنوا بالله وجاهدوا في الله تعالى من سقى الحاج وعمر المسجد الحرام وهو
مقيم على الكفر لان الله تعالى لا يقبل عملا لا مع ايمان به ومن عدم تسويتهم بقوله تعالى
والله لا يهدي القوم الظالمين اي الكفرة ظلمه بالشرك ومعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها
ان الضلالة تكبت بشاورون الذين جاهدهم الله تعالى ووفقهم للحق والصواب والمراد
بالظالمين الذين يسوون بينهم وبين المومنين الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله
باموالهم وانفسهم اعظم درجة عند الله اي اعلا رتبة واكثر كرامة ممن لم يستجمع هذه
الصفات والمراد من كون العبد عند الله بالاستغراق في عبودية وطاعته وكمل المراد
منه قطع العلاقة بحسب الجهة والمكان لان الارواح المقدسة اذا تطهرت عن دنس الاوصاف
البدنية وقبل اعظم درجة عند الله ممن افتخر بالسقاية وعمارة المسجد الحرام فان قيل
على هذا كيف قابلوا وفضلهم اعظم درجة مع ان ليس للكافر درجة اجيب بان هذا ورد على
حسب ما كانوا يعتقدون لانفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ونظيره قوله تعالى قل
آلله خير امما يشركون وقوله تعالى اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم واولئك اي من هذه صفته
هم الفائزون اي الظافرون بسعادة الدنيا والاخرة يبشرهم اي يخبرهم ربهم والبشارة
الخبر الذي تفرح الانسان عند سماعه وتنتشر بشرة وجهه عند سماع ذلك الخبر
الثابرهم ذكر سبحانه وتعالى الذي يبشرهم به بقوله تعالى برحمة منه ورضوان
وهذا اعظم البشارات لان الرحمة والرضوان من الله سبحانه وتعالى على العبد غاية مقصوده
وجنات اي بساتين كثيرة الاشجار والثمار لهم فيها اي الجنات نعيم اي خير اخالص عن كدر ما
مقيم اي غير منقطع وقوله تعالى خالدين فيها حال مقدرة وخلق الخلود بقوله تعالى
ابدا ولما ذكر الله تعالى هذه الاحوال فالله ان الله عنده اجر عظيم ولا شيء بالصفة
العظم بالتعظيم وخص هو لا المومنين بهذا الثواب المخبر عن واحد بهذه العبارات
الثلاث للغرونة بالعظم والاسم الاعظم فكان اعظم الثواب لان ايمانهم اعظم الايمان
وذكر المفسرون في سبب نزول قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا اباكم واخوانكم
اولياء اقوالا فقال مجاهد هذه الاية متصلة بما قبلها نزلت في العباس وطلحة واستاعما
من الهجرة وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما امر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة
فمنهم من تعلق به اهله وولده يقولون ننشدك الله ان لا تضيعنا فرق لهم فيقيم
عليهم ويدع الهجرة فنزلت فهاجروا فجعل الرجل يا بنيا بنيا وابوه اواخوه آو بعض
اقربائه فلا يلتفت اليه ولا يترك له ولا يتفق عليه حتى رخص لهم تعهد ذلك وقال مقاتل
نزلت في الشعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة اي لا تتخذوهم اولياء بمعونكم من الايمان

BULAC

ويصدوكم عن الطاعة لقوله تعالى إن استحبوا أي اختاروا الكفر على الإيمان أي أقاموا عليه وتركوا
الإيمان بالله ورسوله ومن يتولهم منكم أي ومن يختار المقام معهم على الهجرة والجهاد فأولئك
هم الظالمون أي فقد ظلم نفسه بمخالفة أمر الله واختيار الكفار على المؤمنين ولما نزلت
هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت
تجارتنا وخربت دورنا وقطعت أرحامنا فنزل قوله تعالى قل يا محمد لهؤلاء الذين قالوا
هذه المقالة إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم أي أقرباؤكم مأخوذ من العشرة
وقيل من العشرة فإن العشرة جماعة ترجع إلى عقد كعقد العشرة وأموال اقترفتموها
أي اكتسبتموها وتجارة تخشون كسادها أي عدم نفاقها بفراقكم لها ومساكن ترضونها
أي تستوطنونها راضين بسكناها أحب إليكم من الله ورسوله أي إلى الهجرة من الله ورسوله
ورسوله وجهاد في سبيله فقعدتم لأجل ذلك عن الهجرة والجهاد أي إن كانت رعاية هذه
المصالح الدنيوية عندكم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله من المجاهدة في سبيل الله فتربصوا
أي انتظروا متربصين فهو تهديد بليغ حتى يأتي الله بأمره قال مجاهد بقضائه أي عقوبة عاجلة
أو آجلة وقال مقاتل بفتح مكة والله لا يهدي القوم أي لا يخلق الهداية في قلوب
الفاسقين أي الخارجين عن طاعته وفي هذا دليل على أنه إذا وقع تعارض بين مصالح الدين
ومصالح الدنيا وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا لقد نصركم الله النصرة
المعونة على الأعداء بإظهار المسلمين عليهم في مواطن أي في أماكن للحرب كثيرة كبدر
وقريظة والنضير والمراد بذلك غزواته صلى الله عليه وسلم وسراياه وبعوثه وكانت
غزواته صلى الله عليه وسلم على ما ذكر في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم تسع عشرة غزوة
زاد بريدة في حديثه قاتل في ثمان سنين وأما جميع غزواته وسراياه وبعوثه
فقيل سبعون وقيل ثمانون ويوم أي واذكر يوم حنين وهو واد بين مكة والطائف
أي يوم قتالكم فيه هوازن وقوله تعالى إذ أعجبتكم كثرتكم بدل يوم حنين وكانت
قصة حنين على ما نقله الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة وقد بقي أيام
من شهر رمضان وخرج متوجها إلى حنين لقتال هوازن وثقيف واختلفوا في عدد
عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عطاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانوا
ستة عشر ألفا وقال الكلبي كانوا عشرة آلاف وقال قتادة كانوا اثني عشر ألفا
عشرة آلاف الذين حضروا فتح مكة وألفان انضموا إليهم من الطلقاء وهم الأسرى الذين
أخذوا يوم الفتح وأطلقوا وبالجملة كانوا عددا كثيرا وكان هوازن وثقيف أربعة
آلاف فلما التقوا قال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم من قلة إعجابا بكثرتهم فساء رسول
الله صلى الله عليه وسلم كلامه ووكلوا إلى كلمة الرجل وقيل قائلها أبو بكر رضي الله تعالى عنه كلامه
وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا القول بعيد جدا لأنه صلى الله عليه وسلم كان في أحواله
كلها متوكلا على الله تعالى منقطع القلب عن الدنيا وأسبابها ثم اقتتلوا قتالا شديدا فانهزم
المشركون وخلوا عن الذراري ثم تنادوا يا حماة السواد اذكروا الفضائح فتراجعوا وانكشف
المسلمون حتى بلغ منهزمهم مكة وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مركزه ليس معه إلا عمه
العباس آخذا بلجام بغلته وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وناهيك بهذا شهادة لرسول
الله صلى الله عليه وسلم على تناهي شجاعته قال البراء بن عازب كانت هوازن رماة فلما حملنا

عليهم

عليهم انكشفوا واكببنا على الغنائم واستقبلوا بالسهام وانكشف المسلمون عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ولم يبق معه الا العباس وابو سفيان قال البراء والذي لا اله الا هو
ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم دبره قط قال رايته وابو سفيان اخذ بالركاب
والعباس اخذ بلجام الدابة وهو يقول انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب فطفق
يركض بغلته نحو الكفار لا يلوي ثم قال للعباس وكان صيتا اصح بالناس فينادي يا عباد
الله يا اصحاب الشجرة وهم اصحاب بيعة الرضوان المذكورون في قوله تعالى لقد رضي
الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة يا اصحاب سورة البقرة قال الطيبي
وهم المذكورون في قوله تعالى امن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون وقيل
الذين انزل عليهم سورة البقرة فرجعوا جماعة واحدة يقولون لبيك لبيك ونزلت الملائكة
فالتقوا مع المشركين فقال عليه الصلاة والسلام هذا حين حمي الوطيس اذا اشتدت
الحرب ثم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفا من تراب فرماهم ثم قال انهزموا
ورب الكعبة فانهزموا وروي انه صلى الله عليه وسلم نزل عن البغلة ثم اخذ قبضة من تراب
الارض ثم استقبل به وجوههم ثم قال شاهت الوجوه قال سلمة بن الاكوع فما خلق
الله تعالى منهم انسانا الا ملا عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله
تعالى فلم تغن اي الكثرة عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت اي برحبها اي سعتها
لا تجدون فيها مقرا مطمئنا اليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه
مكانه ثم وليتم اي الكفار ظهوركم مدبرين اي منهزمين والادبار الذهاب الى خلف خلاف
الاقبال ثم انزل الله سكينته اي رحمته التي سكنوا بها وامنوا على رسوله
وعلى المؤمنين اي على الذين انهزموا فردوا الى النبي صلى الله عليه وسلم لما ناداهم العباس
باذنه صلى الله عليه وسلم وقاتلوا وقيل هم الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم حين وقع القرب وانزل جنودا اي ملائكة لم تروها باعينكم قال سعيد بن جبير مد
الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بخمسة الاف من الملائكة مسومين وقيل ثمانية الاف
وقيل ستة عشر الفا وروي ان رجلا من بني النضير قال للمؤمنين بعد القتال اين الخيل
الخيل البلق والرجال عليهم ثياب بيض ما كنا نراكم فيهم الا كهيئة الشامة وما قتلنا
الا بايديهم فاخبروا بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال تلك الملائكة وعذب الذين
كفروا بالقتل والاسر وسبي العيال وسلب الاموال وذلك جزاء الكافرين اي ما فعل بهم
جزاء كفرهم في الدنيا وروي انه صلى الله عليه وسلم لما قسم ما افاء الله تعالى عليه يوم حنين
في الناس وفي المؤلفة قلوبهم لم يعط الانصار شيئا فكانهم وجدوا اذ لم يصبهم ما اصاب
الناس فخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا معشر الانصار الم اجدكم ضلالا
فهداكم الله تعالى بي وكنتم متفرقين فالفكم الله تعالى بي وعالة فاغناكم الله تعالى بي كلما
قال شيئا قال الله ورسوله من قال ما يمنعكم ان تجيبوا رسول الله لو شئتم قلتم جئتنا
كذا وكذا اما ترضون ان يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي لما رحالكم
لولا الهجرة كنت امرا من الانصار لو سلك الناس واديا او شعبا لسلكت وادي الانصار
وشعبهم الانصار شعار والناس دثار انكم ستلقون بعدي اثرة فاصبروا حتى
تلقوني على الحوض وعن رافع بن خديج اعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا سفيان

BULAC

ابن حرب وصفوان ابن امية وعيينة ابن حصن والاقرع بن حابس كل انسان منهم مائة
من الابل واعطى عباس بن مرداس دون ذلك فقال عباس بن مرداس اتجعل نهبي ونهب العبيد
بين عيينة والاقرع فما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع وما كان دون امرئ منهما
ومن تخفض اليوم لا يرفع قال فاتم رسول الله صلى الله عليه وسلم له مائة ثم يتوب الله
من بعد ذلك على من يشاء منهم بالتوفيق والاسلام والله غفور رحيم فيتجاوز عنهم
ويتفضل عليهم روي ان ناسا منهم جاؤا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على
الاسلام وقالوا يا رسول الله انت خير الناس وابر الناس وقد سبي اهلونا واولادنا
واخذت اموالنا قيل سبي يومئذ ستة الاف نفس واخذ من الابل والغنم ما لا يحصى
فقال ان عندي ما ترون ان خير القول اصدقه اختاروا اما ذراريكم ونساؤكم او اما
اموالكم قالوا ما كنا نعدل بالاحسان شيئا والحسب ما يعده الانسان من مفاخر ابائه
كنوا بذلك عن اختيار الذراري والنساء على استرجاع الاموال لان تركهم في ذل الاسر
يفضي الى الطعن في احسابهم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان هؤلاء جاؤا
مسلمين وانا خيرناهم بين الذراري والاموال فلم يعدلوا بالاحساب شيئا فمن كان بيده
شيء وطابت نفسه ان يرده فشانه اي فيلزم شانه وامره ومن لا تطيب نفسه فليعطنا
وليكن قرضا علينا اي بمنزلة القرض حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه فقالوا رضينا
وسلمنا فقال اني لا ادري لعل فيكم من لا يرضى فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك الينا فرفعت
اليه العرفاء ان قد رضوا يا ايها الذين امنوا انما المشركون نجس اي ذو نجس لان معهم الشرك الذي
هو بمنزلة النجس او انهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات فهي ملابسة
لهم او جعلوا كانهم النجاسة بعينها مبالغة في وصفهم بها وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
اعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير وعن الحسن رحمه الله تعالى من صافح مشركا توضأ واهل
المذاهب على خلاف هذين القولين والنجس مصدر يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية
والجمع فلا يقربوا المسجد الحرام اي لنجاستهم وانما نهي عن الاقتراب للمبالغة وللمنع من
دخول الحرم قال العلماء وجملة بلاد الاسلام في حق الكفار على ثلاثة اقسام احدها الحرم
فلا يجوز للكافر ان يدخله ذميا كان او مستامنا لظاهر هذه الاية واذا جاء رسول
من دار الكفر الى الامام والامام في الحرم لا ياذن له في دخول الحرم بل يخرج اليه او
يبعث له من يسمع رسالته خارج الحرم وجوز ابو حنيفة واهل الكوفة للمعاهد
دخول الحرم القسم الثاني من بلاد الاسلام الحجاز فيجوز للكافر دخوله بالاذن
ولا يقيم فيه اكثر من ثلاثة ايام لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لاخرجن اليهود والنصارى من جزيرة
العرب حتى لا ادع الا مسلما واجلاهم عمر في خلافته واجل لمن قدم منهم تاجرا ثلاثا
وجزيرة العرب من اقصى عدن ابين الى ريف العراق في الطول واما في العرض
فمن جدة وما والاها من ساحل البحر الى اطراف الشام والقسم الثالث سائر بلاد
الاسلام يجوز للكافر ان يقيم فيها بذمة او امان ولكن لا يدخل المساجد الا باذن
مسلم وحاجة وقوله تعالى بعد عامهم هذا اشارة الى العام الذي حج فيه ابو بكر رضي
الله تعالى عنه ونادى علي رضي الله تعالى عنه ببراءة وهو سنة تسع من الهجرة وقيل

سنة

سنة حجة الوداع ولما امر صلى الله عليه وسلم عليا ان يقرا على مشركي مكة اول براءة
وينبذ اليهم عهدهم وان الله بري من المشركين ورسوله قال اناس يا اهل مكة ستعلمون
ما تلقون من الشدة لانقطاع السبل وفقد الحمولات وذلك ان اهل مكة كانت معايشهم
من التجارات وكان المشركون ياتون مكة بالطعام ويتجرون فلما امتنعوا من دخول
الحرم خافوا الفقر وضيق العيش فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانزل الله
تعالى وان خفتم عيلة اي فقرا وحاجة بانقطاع تجارتهم عنكم فسوف يغنيكم
الله من فضله اي من عطايه وتفضله من وجه اخر وقد انجز تعالى وعده بان ارسل
المطر عليهم مدرارا فكثر خيرهم واسلم اهل جدة وصنعا وتبالة وجرش وجلبوا الميرة
الكثيرة الى مكة فكفاهم الله تعالى ما كانوا يخافون وتبالة بفتح التا وجرش بضم الجيم
وفتح الراء وشين معجمة قريتان من قرى اليمن وقيد ذلك بقوله تعالى ان شاء لتنقطع
الامال اليه تعالى وليتنبه على انه متفضل في ذلك وان الغنى الموعود يكون لبعض دون
بعض وفي عام دون عام ان الله اي الذي له الاحاطة الكاملة عليم اي بوجوه المصالح
حكيم اي فيما يعطي ويمنع وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما القى الشيطان في قلوبهم
الخوف وقال من اين تاكلون فامرهم الله تعالى بقتال اهل الكتاب كما قال تعالى
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر فان قيل اليهود والنصارى يزعمون
انهم يؤمنون بالله واليوم الاخر فكيف اخبر الله تعالى عنهم بذلك اجيب
بان من اعتقد ان العزير ابن الله وان المسيح ابن الله فليس بمؤمن بل هو مشرك وبان
من كذب رسولا من الرسل فليس بمؤمن واليهود والنصارى يكذبون اكثر الانبيا ولا يحرمون
ما حرم الله ورسوله من الشرك واكل اموال الناس بالباطل وتبديل التوراة
والانجيل وغير ذلك ولا يدينون دين الحق اي الثابت الذي هو ناسخ لساير الاديان
وهو الاسلام كما قال تعالى ان الدين عند الله الاسلام وقوله تعالى من الذين
اوتوا الكتاب اي اليهود والنصارى بيان للذين لا يؤمنون حتى يعطوا الجزية
وهي الخراج المضروب على رقابهم في نظير سكناهم في بلاد المسلمين الاسلام امنين
ماخوذ من المجازاة لكفنا عنهم وقيل من الجزا بمعنى القضا قال تعالى واتقوا يوما
لا تجزي نفس عن نفس شيا اي لا تقضي وقوله تعالى عن يد حال من الضمير اي
منقادين مقهورين يقال لكل من اعطى شيا كرها من غير طيب نفس اعطى عن يد
وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعطونها بايديهم ولا يرسلون بها على يد غيرهم
وهل يجوز ان يوكلوا مسلما في دفعها ولا ينبني على تفسير الصغار المذكور في قوله
تعالى وهم صاغرون اي اذلا منقادون لحكم الاسلام ويكفي في الصغار ان يجري عليهم
الحكم بما لا يعتقدون حله وعلى هذا يجوز التوكيل وتفسيره بان يجلس الاخذ ويقوم
الكافر ويطاطي راسه ويحني ظهره ويضع الجزية في الميزان ويقبض الاخذ لحيته ويضرب
لهزمتيه وهما مجتمع اللحم بين الماضغ والاذن من الجانبين مردود بان هذه الهيئة
باطلة ودعوى سنها او وجوبها اشد بطلانا ولم ينقل ان النبي صلى الله عليه وسلم ولا
احدا من الخلفا الراشدين فعل شيا من ذلك وعلى تفسيرها بما ذكر يمتنع التوكيل اذا قيل
بوجوبه لا باستحبابه تنبيه مفهوم الاية يقتضي تخصيص الجزية باهل الكتاب

BULA

ولكن الحق بهم المجوس لانه صلى الله عليه وسلم اخذها من مجوس هجر وقال سنوا بهم سنة اهل
الكتاب وكذا زاعم التمسك بصحف ابراهيم وزبور داود صلى الله عليهما وسلم ومن احمق
ابويه كتابي والاخر وثني واولاد من تهود او تنصر قبل النسخ او شككنا في وقت التهود
والتنصر اكان قبل النسخ ام بعده فلا يعقد لاولاد من تهودا وتنصر بعد النسخ في ذلك
الدين ولا لعبدة الاوثان والشمس والملائكة والنار من والصابئون ان خالفوا اليهود
والنصارى في اصول دينهم فليسوا منهم والا فمنهم وعن مالك تؤخذ الجزية من كل كافر
الا المرتد وعن ابي حنيفة الامس مشركي العرب واقل الجزية دينار لكل سنة عن كل واحد
لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ ابن جبل لما بعثه الى اليمن خذ من كل حالم اي محتلم دينارا
صححه ابن حبان والحاكم وتؤخذ من زمن ومشايخ هرم وأعمى وراهب واجير وفقير
عجز عن كسب فاذا ائتنفت سنة وهو معسر فعي ذمته حتى يوسر وقال ابو حنيفة
على الغني ثمانية واربعون درهما وعلى المتوسط نصفها وعلى الفقير الكسوب ربعها
ولا شيء على فقير كسوب ولا بد ان يكون المأخوذ منه حرا ذكرا غير صبي ومجنون وتاخذ
افاقة جنون كثر فان قل زمن الجنون كساعة من شهر فلا اثر لها ولو بلغ ابن ذمي ولم
يعط جزية لحق بمأمنه وان اعطاها عقد له وقبل عليه كجزية ابيه ولا يحتاج الا
عقد انفا بعقد ابيه ولو مات من عقدت له الجزية او اسلم او جن او حجر عليه بفلس
او سفه بعد سنة فجزية كدين ادمي او في اثنائها فتقسط وتقسط بالاسلام والموت
عند ابي حنيفة **وقالت اليهود عزير ابن الله** واختلفوا في قائل هذه المقالة على اقوال
احدها قاله سعيد بن جبير انما قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص
ابن عازوراء وهو الذي قال ان الله فقير ونحن اغنياء وثانيها قال ابن عباس رضي
الله تعالى عنهما في رواية سعد بن جبير وعكرمة اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
جماعة من اليهود سلام ابن مشكم ونعمان بن اوفى وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف
فقالوا كيف نتبع ذلك وقد تركت قبلتنا وانت لا تزعم ان عزيرا ابن الله فانزل
الله هذه الاية وعلى هذين القولين القائل انما هو بعض اليهود الا ان الله تعالى نسب ذلك
الى اليهود بناء على عادة العرب في ايقاع اسم الجماعة على الواحد نحو قولك فلان يركب الخيول
ولعله لم يركب الا واحدا منها وفلان يجالس السلاطين ولعله لم يجالس الا واحدا وثالثها
انهذا المذهب لعله كان ثابتا فيهم ثم انقطع فحكى الله تعالى ذلك عنهم ولا عبرة بانكار
اليهود لذلك فان الاية تلبث عليهم فما انكروا ولا اذعنوا مع تهالكهم على التكذيب
واختلف في السبب الذي قالوا ذلك لاجله فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان اليهود
اضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق فانساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم
فتضرع عزير الى الله تعالى وابتهل اليه ان يرد اليه الذي نسخ من صدورهم فتضرع عزير
فبينما هو يصلي يبتهل الى الله تعالى نزل نور من السماء فدخل جوفه فعادت اليه
التوراة فاتى قومه وقال يا قوم قد اتاني الله التوراة ردها الي فعلقوا انه
يعلمهم ثم مكثوا اماشاء الله ثم ان التابوت نزلت بقذفها الله عنهم فلما راوا التابوت
عرضوا ما كان فيه على الذي كان يعلمهم عزير فوجدوه مثله فقالوا ما اوتي عزير
هذا الا انه ابن الله وقيل لما رفع الله تعالى عنهم التوراة خرج عزير وهو غلام يسيح

في الارض فاتاه جبريل عليه السلام فقال له الى اين تذهب قال اطلب العلم فحفظه التوراة واملاها
عليهم عن ظهر لسانه لا يجزم حرفا فقالوا ما جمع الله التوراة في قلبه وهو غلام الا انه ابنه
وقال الكلبي ان بخت نصر لما ظهر على بني اسرايل وقل من قرا التوراة وكان عزيرا ذكا صغيرا
فاستصغره فلم يقتله فلما رجع بنوا اسرايل الى بيت المقدس وليس فيهم من يقرا
التوراة بعث الله تعالى عزيرا ليجدد لهم التوراة ويكون لهم اية بعد ما اماته الله تعالى
ماية سنة وارسل اليه ملكا باناء فيه ما فسقاه فمثله التوراة في صدره فلما اتاهم
وقال لهم انا عزير فكذبوه وقالوا ان كنت كما تزعم فاتلوا علينا التوراة فكتبها لهم من
صدره ثم ان رجلا منهم قال ان ابي حدثني ان التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم
فانطلقوا معه حتى اخرجوها فعرضوا بها ما كتب عزيرا فلم يجدوه غادر منه حرفا فقالوا
ان الله لم يقذف التوراة في قلب عزير الا انه ابنه فعند ذلك قالت اليهود عزير بن الله
وقرا عاصم والكسائي عزير بالتنوين والباقون بغير تنوين قال الزجاج الوجه اثبات
التنوين فقوله عزير مبتدا وقوله بن الله خبره واذا كان كذلك فلا بد من التنوين في حال
السعة لان عزيرا ينصرف سوا كان عربيا ام عجميا وسبب كونه منصرفا امران احدهما انه
اسم خفيف فينصرف وان كان اعجميا كهود ولوط والثاني انه على صيغة التصغير وان
الاسما الاعجمية لا تصغر واما الذين تركوا التنوين فلهم فيه اوجه احدها انه اعجمي ومعرفة
فوجب ان لا ينصرف وثانيها قال الفرا نون التنوين ساكنة من عزير والبا في قوله
ابن الله ساكنة فجعل ها هنا التقا الساكنين فحذف التنوين للتخفيف ورد هذا الوجه
بانه مخالف لما تقرر من ان الوجه عند ملاقات التنوين للساكن التحريك لا الحذف وثالثها
ان الابن وصف والخبر محذوف والتقدير عزير بن الله معبودنا او صاحبنا ورد هذا ايضا
بانه يودي الى تسليم النسب وانكار الخبر المقدر لان من اخبر عن ذات موصوفة بصفة بامر
من الامور وانكره منكر توجه الانكار الى الخبر فكان المقصود بالانكار قولهم عزير بن الله
معبودنا وجعل تسليم كونه ابن الله ومعلوم ان ذلك كفر وقالت النصارى المسيح اي عيسى
ابن الله واختلف في السبب الذي قالوا ذلك لاجله فقيل انما قالوه استحالة لان يكون
ولدا بلا اب وقيل ان النصارى كانوا على دين الاسلام احدى وثمانين سنة بعد ما رفع عيسى
عليه الصلاة والسلام يصلون الى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع فيما بينهم وبين
اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بلوص قتل جماعة من اصحاب عيسى عليه
الصلاة والسلام ثم قال بلوص لليهود ان الحق مع عيسى وقد كفرنا ومصيرنا الى النار ونحن
مقبولون ان دخلوا الجنة ودخلنا النار فاني مستحتال واقتلهم حتى يدخلوا النار
وكان له فرس يقاتل عليه يقال له العقاب فعرقبه واظهر الندامة والتوبة ووضع التراب
على راسه وقال للنصارى نوديت من السما ليس لك توبة الا ان تنتصر وقد تبت فاتيتكم
فادخلوا الكنيسة ونصروه ودخل بيتا فيها مكث فيه ستة لا يخرج منه ليلا ولا نهارا
حتى تعلم الانجيل ثم خرج وقال نوديت ان الله قد قبل توبتك فصدقوه وجنوه وعلا
شانه فيهم ثم عمد الى ثلاث رجال اسم واحد نسطور والاخر يعقوب والاخر ملكا فعلم نسطور
ان عيسى ومريم والاله ثلاث وعلم يعقوب ان عيسى ليس بانسان ولا جسم ولكنه ابن الله وعلم ملكا
ان عيسى هو الاله لم يزل ولا يزال فلما اشتهر ذلك فيهم دعا كل واحد منهم وقال له انت

BULAC

حالصبي وادعوا الناس لما علمتك وامره ان يذهب الى ناحية من البلاد ثم قال لهم اني رايت عيسى
في المنام وقد رضي عني وقال لكل واحد منهم شأ فذبح نفسي تقربا الى عيسى ثم ذهب الى المذبح فذبح نفسه
وتفرقوا وليك الثلاثة فذهب واحد الى الروم وواحد الى بيت المقدس وواحد الى ناحية اخرى
واحكم كل واحد منهم لملة وعلما الناس لها فشعب عالم ذلك طوائف من الناس فتفرقوا واختلفوا
ووقع القتال فهذا هو السبب في وقوع الكفر في طوائف النصارى هذا ما حكاه الواحدي رحمه
الله تعالى قال الرازي عقب هذه الحكاية والاقرب عندي ان يقال ورد لفظ الابن في الانجيل
على سبيل التشريف كما ان العرب لاجل عداوة العرب بالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية
والجهال قبلوا ذلك وفشى هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام والله
اعلم بحقيقة الحال ذلك قولهم بافواههم اي لا مستند لهم عليه فان قيل اكل قول يقال الا بالفم
فما معنى بافواههم اجيب بانه قول لا يتعداه نزهان فما هو الا لفظ يعوهون به فارغ
من معنى تحته كالالفاظ المهملة التي لا تدل على معان وذلك ان القول يدل على معنى لفظ
مقول بالفم ومعناه هو تردد القلب وما لا معنى له متقول بالفم لا يقال ويراد بالقول المذهب
كقولهم قول الشافعي رحمه الله تعالى يريدون مذهبه وما يقال به كانه قيل ذلك مذهبهم
وديدنهم بافواههم لا يقولهم لانه لا حجة فيه ولا شبهة حتى يوتر في القلوب وذلك انهم اذا
اعترفوا انه لا صاحبة له لم يبق لهم شبهة في انتفاء الولد وقال اهل المعاني لم يذكر الله تعالى
قولا مزورا بالافواه والالسن لان كان ذلك زور يضاهون قال ابن عباس يشابهون
وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون قول الذين كفروا من قبل اي من قبلهم ولابد
من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قول الذين كفروا ثم حذف المضاف واقيم الضمير المضاف
اليه مقامه فانقلب مرفوعا والمعنى ان الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم
من اليهود والنصارى يقضاهي قولهم قول قدمائهم فالكفر قديم فيهم غير مستحدث او يضاهي
قول المشركين للملائكة بنات الله وقيل الضمير للنصارى اي يضاهي قولهم المسيح بن الله قول
اليهود عزير بن الله لانهم اقدم منهم وقرأ عاصم بكسر الهاء وبعدها همزة مضمومة والباقون
بضم الهاء ولا همز بعدها وقد سبق قاتلهم الله دعا عليهم بالهلاك بان من قاتله الله تعالى
هلك او تعجب من شناعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه قاتله الله ما اعجب فعله
وقيل لعنهم روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه قال كل شيء في القرآن مثل هذا فهو لعن
انى يؤفكون اي كيف يصرفون عن الحق الى الباطل مع قيام الدليل بان الله تعالى واحد احد فمجعلوا له
ولدا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وهذا التعجب راجع الى الخلق لان الله تعالى لا يتعجب من شيء
ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطباتهم فالله تعالى يحب نبيه صلى الله عليه وسلم مع
تركهم الحق وامرارهم على الباطل اتخذوا احبارهم ورهبانهم اي اتخذ اليهود احبارهم اي علمائهم والحبر
هو الاصل العالم من اي طائفة كان واختص في العرف بعلماء اليهود من ولد هارون وكان لهم هيئة
يقال واحد الاحبار حبر بالفتح لا غير وبكسر الكسر واتخذ النصارى رهبانهم اي عبادهم اصحاب
الصوامع والرهبنة في الاصل من تمكنت الرهبة من قلبه فظهر اثارها على وجهه ولباسه واختص
في العرف بعلماء النصارى اصحاب الصوامع اربابا من دون الله لانهم اطاعوهم في تحريم ما احل الله
وتحليل ما حرم الله كما يطاع الارباب في اوامرهم ونحوه تسمية اتباع الشيطان عبادة بقوله
يا بني ادم لا يفتننكم الشيطان كما فتن ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما يريهما سوءاتهما
به عبادة كما قال تعالى بل كانوا يعبدون الجن وقال ابراهيم الخليل عليه السلام يا ابت لا تعبد

الشيطان

الشيطان وعن عدي بن حاتم انه قال اتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب
فقال يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك فطرحته ثم انتهيت اليه وهو يقرأ سورة براءة
فوصل الى هذه الآية هذه فقلت انا لسنا نعبدهم فقال اليس يحرمون ما احل الله
فتحرمونه ويحلون ما حرمه الله فتحلونه قلت بلى قال فتلك عبادتهم قال عبد الله بن المبارك
وهل يدل الدين الا الملوك واحبار سوء ورهبانها فان قيل انه تعالى كفرهم بسبب ان اطاعوا
الاحبار والرهبان فما الفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره على ما هو قول الخوارج
اجيب بان الفاسق وان كان يقبل دعوى الشيطان الا انه لا يعظمه بل يلعنه ويستخف
به واما هؤلاء فكانوا يقبلون قول الاحبار والرهبان ويعظمونهم وينديبالغ بعض الجهال
في تعظيم شيخه بحيث يميل طبعه الى القول بالحلول والاتحاد قال الرازي وذلك الشيخ اذا
كان طالبا للدنيا بعيدا عن الربا بعيدا عن الدين قد يلتجئ اليهم انا الامر كما يقولون
ويعتقدون وعن الفضيل رضي الله تعالى عنه ما ابالي اطعت مخلوقا في معصية الخالق
او صليت لغير القبلة **وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** اي اتخذوه كذلك لكونهم جعلوه ابنا فاهلوه
للعبادة بذلك مع كونه ابن مريم فهو لاصلح للالهية بوجه لكونه للادمي من الحمل والولادة
والاكل والشرب وغير ذلك من احوال البشر المؤذنة للمنافاة للالهية **وَمَا أُمِرُوا**
اي في التوراة والانجيل **إِلَّا لِيَعْبُدُوا** اي ليطيعوا على وجه التعبد **إِلَٰهًا وَاحِدًا** اي لا يقبل
القسمة بوجه بالذات ولا بالمماثلة وهو الله تعالى واما طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم او طاعة
من امر الله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله تعالى وقوله تعالى **لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**
صفة ثانية او استئناف مقرر للتوحيد **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** اي تعالى وتنزه عن ان يكون
له شريك في العبادة والاحكام وان يكون له شريك في الالهية يستحق التعظيم والاجلال **يُرِيدُونَ**
اي رؤساء اليهود والنصارى **أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ** اي شرعه وبراهينه الدالة على وحدانيته
وتفرده عن الولد والقران او نبوة محمد صلى الله عليه وسلم **بِأَفْوَاهِهِمْ** اي باقوالهم الكاذبة وشركهم في مقتضى
دينه او القران او نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نورا ومعاندتهم اطفاءه باقوالهم كمثل الحالم
في طلبهم ان يسطعوا نور الله بالتكذيب والشرك كحال من يريد ان ينفخ في نور عظيم
منبث في الافاق يريد الله تعالى ان يزيده ويبلغه الغاية القصوى من الاشراق
والاضاءة العظيمة ليطفيه بنفخه ويطمسه **وَيَأْبَى اللَّهُ** اي يمنع **إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ** باعلاء التوحيد
واعزاز الاسلام فان قيل كيف جاز في الله الاباء ولا يليق كراهة او بغضت الا بدا
اجيب بانه اجرى الى الجزم لم يرد الا ترى كيف قوبل يريدون ان يطفوا بقوله ويابى الله
وكيفما وقع حق وقع ولا يريد الله الا ان يتم نوره وقوله تعالى **وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** محذوف الجواب
لدلالة ما قبله عليه اي ولو كرهوا عليه **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ** محمدا صلى الله عليه وسلم **بِالْهُدَىٰ**
اي بالقران الذي انزل عليه جبريل **وَدِينِ الْحَقِّ** اي دين الاسلام **لِيُظْهِرَهُ**
اي ليعليه **عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** اي جميع الاديان المخالفة له وهذا كالبيان لقوله تعالى ويابى الله الا ان
يتم نوره ولذلك كرر **وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** عبر انه وضع المشركون موضع الكافرون للدلالة على انهم صاروا
الكفر بالرسول الى الشرك بالله تعالى فان قيل الاسلام لم يصر عاليا لسائر الاديان في ارض
الهند والصين والروم وسائر اراضي الكفرة اجيب عن ذلك باوجه الاول انه لا دين
يخالف دين الاسلام الا وقد قهرهم المسلمون وظهروا عليهم في بعض المواضع وان لم يكن ذلك

من جميع مواضعهم فعبدوا اليهود واخرجوهم من بلاد العرب وغلبوا النصارى على بلاد الشام وما والاها الى ناحية الروم والمغرب وغلبوا المجوس على ملكهم وغلبوا عباد الاصنام على كثير من بلادهم مما يلي الهند والترك وكذا سائر الاديان فثبت ان الذي اخبر الله تعالى عنه في هذه الآية قد وقع وحصل فكان ذلك اخبارا عن الغيب فكان معجزا الوجه الثاني ما روي عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه قال هذا وعد من الله انه تعالى يجعل الاسلام عاليا على جميع الاديان وتمام هذا انما يحصل عند خروج عيسى فانه لا يبقى اهل دين الا دخلوا في الاسلام وقال السدي ذلك عند خروج المهدي لا يبقى احد الا دخل في الاسلام او ادى الخراج الوجه الثالث ان المراد اظهاره في جزيرة العرب وقد حصل ذلك بانه تعالى ما ابقى فيها احدا من الكفار وقال ابن عباس الهاء في ليظهره عائدة الى الرسول صلى الله عليه وسلم والمعنى ليعلمه شرايع الدين كلها ويظهره عليها حتى لا يخفى عليه شيء منها يا ايها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان اي علماء اليهود والرهبان اي عباد النصارى ليأكلون اي يأخذون اموال الناس بالباطل كالرشا وانما عبر بالاكل لانه معظم المراد من المال واشارة الى تحقير الاحبار والرهبان بان يجعلوا امانيا في مقابلة الذي اقاموا انفسهم فيه باظهار الزهد والمبالغة في التدين قال الرازي ولعمري من تامل في احوال اهل التلبيس في زماننا وجد هذه الآية كانها ما انزلت الا في شانهم وشرح احوالهم فترى الواحد منهم يدعي انه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وانه في الطهارة والعظمة مثل الملائكة المقربين حتى اذا آل الامر الى ان يجمع الواحد تراه يهتك عليه وعلى تلك الدناءة فتحصله ويصدون الناس عن سبيل الله اي دينه ولما كان مطلوب الخلق في الدنيا المال والجاه بين تعالى في صفة الاحبار والرهبان كونهم مشغوفين بهذين الامرين اما المال فهو المراد بقوله تعالى ليأكلون اموال الناس واما الجاه فهو المراد بقوله ويصدون عن سبيل الله فانهم لو آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم على الحق لزمهم متابعته وحينئذ كان يبطل حكمهم وتزول حرمتهم فلاجل الخوف من هذا المحذور كانوا يبالغون في المنع من متابعته صلى الله عليه وسلم وليأكلون اكل القاء الشبهات وفي استخراج وجوه المكر والخديعة وفي منع الخلق من قبول دينه الحق والانتفاع بمنهجه الصحيح قوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يحتمل ان يراد بقوله الذين اولئك الاحبار والرهبان فيكون مبالغة في وصفهم بالحرص الشديد على اخذ اموال الناس بقوله تعالى ليأكلون اموال الناس بالباطل ووصفهم ايضا بالبخل الشديد والامتناع من اخراج الواجبات على اموالهم بقوله تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ويحتمل ان يراد المسلمون الذين يجمعون المال ولا يودون حقه ويكون اقترانهم بالمرتشين من اليهود والنصارى تغليظا ودلالة على ان من يأخذ منهم السحت ومن لا يعطي منكم طيبة نفسه سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الاليم وان يراد كل من كنز المال ولم يخرج عنه الحقوق الواجبة سواء كان من الاحبار والرهبان او كان من المسلمين لما روي عن زيد ابن وهب قال مررت على ابي ذر بالربذة فقلت ما انزلك بهذه الارض قال كنا بالشام فقرات والذين يكنزون الذهب الآية فقال معاوية ما هذا فينا ما هذه الا في اهل الكتاب فقلت انها فينا وفيهم فصار ذلك سببا لوحشة بيني وبينه فكتب الي

عثمان

عثمان ان اقبل الي فلما قدمت المدينة انحرف الناس عني كانهم لم يروني من قبل فشكوت
ذلك الى عثمان فقال لي تنح قريبا قلت الي والله لن ادع ما كنت اقول واصل الكنز
في كلام العرب الجمع وكل شي جمع بعضه الى بعض فهو مكنون يقال هذا جسم مكتنز
الاجزا اذا كان مجتمع الاجزا واختلف علما الصحابة في المراد بهذا الكنز المذموم على قولين
الاول وهو ما عليه الاكثر انه المال الذي لم تؤد زكاته لما روي عن ابي هريرة رضي
الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من اتاه الله مالا فلم يؤد
زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة
ثم ياخذ بلهزمتيه يعني شدقيه ثم يقول انا مالك انا كنزك ثم تلى ولا يحسبن الذين
يبخلون بما اتاهم الله من فضله الاية والشجاع الحية والاقرع صفة له بطول عمره
لان من طال عمره تمرق شعره وذهب وهي صفة اخبث الحيات والزبيبتان
الزايدتان في الشدقين وروي لما نزلت هذه الاية كبر على المسلمين فذكر عمر رضي الله تعالى
عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان الله لم يفرض الزكاة الا ليطيب بها ما بقي
من اموالكم وقال ابن عباس في قوله تعالى ولا ينفقونها في سبيل الله يريد الذين لا يؤدون
زكاة اموالهم قال القاضي تخصيص هذا المعنى بمنع الزكاة لا سبيل اليه بل الواجب ان
يقال الكنز هو المال الذي ما اخرج عنه ما وجب اخراجه ولا فرق بين الزكاة وبين
ما يجب من الكفارات وبين ما يلزم من نفقة الحج وبين ما يجب اخراجه في الدين والحقوق
والانفاق على الاهل والعيال وضمان المتلفات وارش الجنايات فيجب في كل هذا
الاثام وان يكون داخلا في الوعيد والقول الثاني ان المال الكثير اذا جمع فهو الكنز المذموم
واحتج الذاهبون الى هذا القول بعموم الاية وبما روي انه صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت
هذه الاية تبا للذهب تبا للفضة قالها ثلاثا فقالوا له اي مال نتخذ قال لسانا ذاكرا
وقلبا خاشعا وزوجة تعين احدكم على دينه وقال عليه الصلاة والسلام من ترك صفرا
او بيضا كوي بها وتوفي شخص فوجد في ميزره دينار فقال صلى الله عليه وسلم كية وتوفي اخر فوجد
في ميزره ديناران فقال كيتان واجاب القايلون بالاول ان هذا كان من قبل فرض الزكاة
فاما بعد فرض الزكاة فالله اعدل واكرم ان يجمع عبده مالا من حيث اذن له فيه ويؤدي ما اوجب
عليه فيه ثم يعاقبه وقد روي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه انه سيل عن هذه الاية فقال كان
قبل ان تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها طهرة للاموال وقال ما ابالي لو ان لي مثل احد ذهبا
اعلم عدده ازكيه واعمل فيه بطاعة الله تعالى وروي انه صلى الله عليه وسلم قال نعم المال الصالح للرجل
الصالح وقال صلى الله عليه وسلم ما ادي زكاته فليس بكنز وكان في زمانه صلى الله عليه وسلم جماعة
معهم الاموال كعثمان وعبد الرحمن بن عوف وكان عليه الصلاة والسلام يعدهم من اكابر الصحابة
وما عابهم احد فمن اعرض عن الفتنة لان الاعراض اختيار للافضل والادخل في الورع
والزهد في الدنيا والاقتناء مباح موسع لا يذم صاحبه وكونه ادخل في الورع لامور
منها ان كسب المال شاق شديد وحفظه بعد حصوله اشد واشق واصعب فيبقى الانسان
طول عمره تارة في طلب التحصيل واخرى في تعب الحفظ ثم انه لا ينتفع منها الا بالقليل ومنها ان كثرة
المال والجاه تورث الطغيان كما قال تعالى ليطغى ان راه استغنى والطغيان يمنع من وصول
العبد الى مقام رضوان الرحمن ويوقعه في الخسران والخذلان ومنها انه تعالى اوجب الزكاة وذلك

سعى فى تنقيص المال ولو كان تكثيره فضيلة لما سعى الشرع فى تنقيصه فان قيل قال صلى الله عليه
وسلم اليد العليا خير من اليد السفلى اجيب بان اليد العليا انما افادته صفة الخيرية لانه
اعطى ذلك القليل بسبب انه حصل فى ماله ذلك النقصان القليل فحصل له الخيرية وبسبب انه
حصل للفقير بذلك الزيادة القليلة حصلت له المرجوحية فان قيل انه تعالى بين ذكر
شيئين وهما الذهب والفضة ثم قال ولا ينفقونها فلم افرد الضمير اجيب بان الضمير راجع
الى المعنى دون اللفظ لان لكل واحد منها جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم فهو كقوله
تعالى وان طائفتان من المومنين اقتتلوا وقيل ذهب به الى الكنوز وقيل الى الاموال
وقيل التقدير ولا ينفقون الفضة وحذف الذهب لانه داخل فى الفضة من حيث انهما
معا يشتركان فى تسمية الاثمان او ذكر احدهما يغنى عن الاخر كقوله تعالى واذا رأوا تجارة
او لهوا انفضوا اليها جعل الضمير للتجارة وقيل التقدير ولا ينفقونها والذهب كذلك كما ان
معنى قول القايل فانى وقيارتها لغريب اى وقيار كذلك فان قيل ما السبب فى كونه
خصهما بالذكر من سائر الاموال اجيب بانهما الاصل المعتبر فى الاموال وهما اللذان
يقصدان بالكنز ومن كنز اعندهما لم يعدم سائر اجناس المال فكان ذكرهما دليلا على ما
سواهما ثم ان الله تعالى لما ذكر من يكنز الذهب والفضة قال فبشرهم اى اخبرهم بعذاب اليم
اى مؤلم وعبر بالبشارة على سبيل التهكم يوم يحمى عليها اى الكنوز بان تدخل فى نار جهنم فتوقد
عليها فتكوى اى تحرق بها اى بعد الاموال جباههم وجنوبهم وظهورهم قال
ابن مسعود رضى الله تعالى عنه لا يوضع دينار على دينار ولا درهم على درهم ولكن يوسع
جلده حتى يوضع كل درهم ودينار له توضع على حدته وسيل ابو بكر الوراق لم خصت
الجباه والجنوب والظهور بالكى قال لان الغنى صاحب الكنز اذا راى الفقير قبض جبهته واذا
جلس الفقير بجنبه تباعد عنه وولى عليه ظهره وقيل المعنى انهم يكوون على الجهات الاربع
اما من مقدمه فعلى الجبهة واما من خلفه فعلى الظهر واما من يمينه ويساره فعلى الجنبين
وقيل لان جمعهم واعتمادكم المال كان لطلب الوجاهة بالغنى والتنعم بالمطاعم الشهية والملابس
البهية وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يودى منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صفحت
له صفايح من نار فاحمى عليها فى نار جهنم فيكوى بها جبهته وجنبه وظهره كلما بردت
عليه اعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله
اما الى الجنة واما الى النار وقوله تعالى هذا ما كنزتم لانفسكم اى لمنفعتها وكان عين مضرتها وسبب تعذيبها فذوقوا ما كنتم
تكنزون اى تمنعون حقوق الله تعالى منها اقول وعن ابى ذر رضى الله تعالى عنه قال
انتهيت الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى ظل الكعبة فلما راى قال هم الاخسرون
ورب الكعبة فقلت يا رسول الله فداك ابى وامى من هم قال هم الاكثرون اموالا الا من قال
هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ان عدة الشهور
اى عددها عند الله اثنا عشر شهرا وفى الحرم وصفر وشهر ربيع الاول وشهر ربيع الاخر
وجمادى الاولى وجمادى الاخرة ورجب وشعبان وشهر رمضان وشوال وذو القعدة
وذو الحجة هذه شهور السنة القمرية التى مبنية على سير القمر المنازل وهى شهور العرب

التى بعثه

التي يعتد بها المسلمون في صيامهم ومواقيت حجهم واعيادهم وسائر امورهم واحكامهم وايام
هذه الشهور ثلثمائة وخمسة وخمسون يوما والسنة الشمسية عبارة عن دور الفلك
الشمس في الفلك دورة تامة وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم فتنقص السنة
الهلالية من السنة الشمسية عشرة ايام فبسبب هذا النقصان يدور السنة الهلالية
فيقع الصوم والحج تارة في الشتاء وتارة في الصيف قال المفسرون وسبب نزول هذه الاية
من اجل النسي الذي كانت العرب تفعله في الجاهلية فكان يقع حجهم تارة في وقته وتارة في المحرم
وتارة في صفر وتارة في غيره من الشهور فاعلم الله تعالى ان عدة الشهور سنة المسلمين التي يعتدوا
بها اثنا عشر شهرا على منازل القمر وسيره فيها وهو قوله تعالى ان عدة الشهور عند الله اي في علمه
وحكمه اثنا عشر شهرا في كتاب الله اي في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه احوال مخلوقاته باسرها
على التفصيل وهو اصل للكتب التي انزلها على جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام وقيل
فيما اثبته واوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا يوم خلق السموات والارض اي ان هذا
الحكم حكم به وقضاه يومئذ ان السنة اثنا عشر شهرا منها اي الاشهر اربعة حرم ثلاثة
سرد ذو القعدة بفتح القاف وذو الحجة بكسر الحاء على المشهور فيهما وسميا بذلك
لقعودهم عن القتال في الاول ولوقوع الحج في الثاني والمحرم بتشديد الراء المفتوحة
سمي بذلك لتحريم القتال فيه وقيل لتحريم الجنة فيه على ابليس ودخلته اللام دون غيره من الشهور
لانه اولها فعرفوه كانه قيل هذا الشهر الذي يكون ابتداء اول السنة وواحد فرد وهو
رجب ويجمع على ارجاب ورجاب ورجوب ورجبات ويقال له الاصم والاصب وقيل
لم يعذب الله امة في شهر رجب ورد عليه بان الله تعالى اغرق قوم نوح فيه قاله
الثعلبي وهذا الترتيب الذي ذكرناه في عد الاشهر الحرم وجعلها من سنتين هو الصواب
كما قاله النووي في شرح مسلم ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع
الا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا
منها اربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين
جمادى وشعبان وعدها الكوفيون من سنة واحدة فقالوا المحرم ورجب وذو القعدة
وذو الحجة قال ابن دحية وتظهر فائدة الخلاف فيما اذا نذر صيامها مرتبة فعلى الاول
يبتدئ بذي القعدة وعلى الثاني بالمحرم ومعنى الحديث ان الاشهر رجعت الى ما كانت
عليه وعاد الحج في ذي الحجة وبطل النسي الذي كان في الجاهلية وقد وافق حجة الوداع
ذا الحجة وكانت حجة ابي بكر رضي الله تعالى عنه قبلها في ذي القعدة ومعنى الحرم ان
المعصية فيها اشد عقابا والطاعة فيها اكثر ثوابا والعرب كانوا يعظمونها جدا حتى
لو لقي الرجل قاتل ابيه لم يتعرض له فان قيل اجزاء الزمان متشابهة في الحقيقة
فما السبب في هذا التمييز اجيب بان هذا المعنى غير مستعمل في الشرائع فان امثلته
كثيرة الا ترى انه تعالى ميز البلد الحرام عن سائر البلاد بمزيد حرمة وميز يوم
الجمعة من سائر ايام الاسبوع بمزيد الحرمة وميز يوم عرفة من سائر الايام بتلك
العبادة المخصوصة وميز شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد حرمة وهو وجوب الصوم
وميز بعض ساعات اليوم بوجوب الصلاة فيها وميز بعض الليالي عن سائرها وهي
ليلة القدر وميز بعض الاشخاص عن سائر الناس باعطاء خلع الرسالة واذا كانت هذه

النسي

الامثلة ظاهرة مشهورة فاي استبعاد في تخصيص بعض الاشهر بمزيد الحرمة ذلك اي تحريم الاشهر الاربعة
الدين القيم اي المستقيم وهو دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام والعرب ورثوه منهما وقيل
المراد بالدين الحساب يقال الكيس من دان نفسه اي حاسبها والقيم معناه المستقيم فتفسير
الاية على هذا التقدير ذلك الحساب المستقيم الصحيح والعدد المستوي وقال الحسن ذلك
الدين القيم الذي لا يبدل ولا يغير فالقيم هذا بمعنى القايم الدايم الذي لا يزول وهو الدين
الذي فطر الناس عليه فلا تظلموا فيهن اي الاشهر الحرم انفسكم بالمعاصي فانها فيها اعظم وزرا
لان الله تعالى خص هذه الاشهر بمزيد احترام في اية اخرى وهو قوله تعالى الحج اشهر معلومات
فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج فهذه الاشياء غير جائزة في غير الحج
ايضا الا انه تعالى اكد في المنع منها في هذه الايام تنبيها على زيادتها في الشرف وقال ابن
عباس ان المراد فلا تظلموا في الشهور الاثني عشر انفسكم والمقصود منع الانسان من الاقدام
على الفساد مطلقا في جميع العمر قال الفراء والاول اولى لان العرب تقول فيما بين الثلاثة
الى العشرة فيهن فاذا جاوز هذا العدد قالوا فيها والاصل فيه ان جمع القلة يكنى عنه
كما يكنى عن جماعة مونثة ويكنى عن جمع الكثرة كما يكنى عن واحدة مونثة كما قال حسان
لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى واسيافنا يقطرن من نجدة دما قال يلمعن ويقطرن
لان الاسياف والجفنات جمع قلة ولو جمع جمع الكثرة لقال تلمع وتقطر هذا هو الاختيار
ثم يجوز اجرا احدهما مجرى الاخر كقول النابغة ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن
فلول من قراع الكتايب فقال بهن والسيوف جمع كثرة وقيل المراد بالظلم المقاتلة
في هذه الاشهر وقيل النسي الذي كانوا يعملونه فينقلون الحج من الذي امر الله باقامته
فيه الى شي اخر ويغيرون تكاليف الله تعالى والجمهور على ان حرمة المقاتلة في الاشهر
الحرم منسوخة وعن عطا لا يحل للناس ان يغزوا في الحرم والاشهر الحرم الا ان يقاتلوا
ويويد الاول ما روي انه عليه الصلاة والسلام حاصر الطايف وغزا هوازن بحنين
في شوال وذي القعدة وقوله تعالى وقاتلوا المشركين كافة اي جميعا في كل الشهور
كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين بالعون والنصر ومن كان الله معه نصر لا محالة
انما النسي اي التاخير لحرمة شهر الى اخر كما كانت الجاهلية تفعل كانوا اذا جا شهر حرام
وهم محاربون احلوه وحرموا مكانه شهرا اخر ورفضوا خصوص الاشهر واعتبروا مجرد العدد
فكانوا يوخرون تحريم المحرم الى صفر فيحرمون صفرا ويستحلون المحرم فاذا احتاجوا
الى تاخير تحريم صفر اخروه الى ربيع وهكذا بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة
كلها وكانوا يحجون في كل شهر عامين فحجوا في ذي الحجة عامين ثم حجوا في المحرم عامين ثم
حجوا في صفر عامين وكذا باقي شهور السنة فوافقت حجة ابي بكر رضي الله تعالى
عنه في السنة التاسعة قبل حجة الوداع بسنة ثم حج النبي صلى الله عليه وسلم
في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجة في شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع فوقف
بعرفة في اليوم التاسع وخطب الناس في اليوم العاشر واعلمهم ان الزمان قد
استدار لهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث المتقدم وامرهم بالمحافظة
على ذلك لئلا يبدل في مستانف الايام وقد رجع المحرم الى موضعه الذي وضعه الله
تعالى وذلك بعد دهر طويل وروي عن ابي بكر رضي الله تعالى عنه قال قال صلى الله عليه

وسلم

وسلم في خطبته لنا اي شهر هذا قلنا الله ورسوله اعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه
بغير اسمه قال اليس ذا الحجة قلنا بلى قال اي بلد هذا قلنا الله ورسوله اعلم فسكت حتى ظننا
انه سيسميه بغير اسمه قال اليس البلد الحرام قلنا بلى قال فاي يوم هذا قلنا الله ورسوله
اعلم فسكت حتى ظننا انه سيسميه بغير اسمه قال اليس يوم النحر قلنا بلى قال فان دماكم
واموالكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا وستلقون ربكم
فيسالكم عن اعمالكم افلا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض الا ليبلغ الشاهد
الغايب فلعل بعض من يبلغه ان يكون اوعى له من بعض من سمعه الا هل بلغت الا هل
بلغت الا هل بلغت قلنا نعم قال اللهم اشهد واختلفوا في اول من نسا النسي فقال ابن عباس
بنو مالك بن كنانة وكان يسميه ابو ثمامة وجنادة بن عوف ابن امية الكناني كان يقوم على جمل
في الموسم فينادي ان الهتكم قد احلت لكم المحرم فاحلوه ثم ينادي في قابل ان الهتكم قد
حرمت عليكم المحرم فحرموه وقال الكلبي اول من فعل ذلك رجل من بني كنانة يقال له نعيم
ابن ثعلبة وقيل اول من فعل ذلك عمرو بن لحي وهو اول من سيب السوايب وقال فيه النبي صلى
الله عليه وسلم رايت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار وقوله تعالى زيادة في الكفر معناه انه
تعالى حكى عنهم انواعا كثيرا من الكفر فلما ضموا اليها تحريم ما احل الله تعالى وتحليل ما حرمه
وهو كفر كان ضم هذا العمل الى تلك الانواع المتقدمة من الكفر زيادة في الكفر لان الكافر
كلما احدث معصية ازداد كفرا فزادتهم رجسا الى رجسهم كما ان المومن اذا احدث طاعة
ازداد ايمانا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وقرا ورش النسي بقلب الهمزة يا وادغام اليا فيها
فبقيت يا مضمومة مشددة والباقون بهمزة مضمومة هذا في الوصل واما الوقف
فورش يقف بيا مشددة ساكنة وحمزة كذلك وله فيه الروم والاشمام والباقون بهمزة
ساكنة يضل به اي بهذا التاخير الذي هو النسي الذين كفروا قرا حفص والكسائي بضم اليا
وفتح الضاد لقوله تعالى زين لهم سوء اعمالهم والباقون بفتح اليا وكسر الضاد على
معنى انهم هم الضالون لقوله تعالى يحلونه اي يحلون النسي من الاشهر الحرم عاما ويحرمون
مكانه شهرا اخر ويحرمونه عاما فيتركونه على حرمته وانما فعلوا ذلك ليواطئوا اي ليوافقوا
عدة اي عدد ما حرم الله من الاشهر فلا يزيدون على تحريم اربعة اشهر ولا ينقصون
عنها ولا ينظرون الى اعيانها فيحلوا ما حرم الله بمواطاة العدة من غير مراعاة الوقت الذي
يحلون اليه الاشهر الحرم زين لهم سوء اعمالهم قال ابن عباس زين لهم الشيطان هذا العمل اي حتى
حسبوا هذا القبيح حسنا والله لا يهدي القوم الكافرين اي هداية موصلة الى الاهتدا
لما سبق لهم في الازل انهم من اهل النار ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الطايف
الى المدينة وحث على غزوة تبوك وكان ذلك الوقت زمان عسرة وشدة حر وطابت
ثمار المدينة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى
كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل
سفرا بعيدا ومفاوز فخلى للناس امرهم ليتاهبوا اهبة غزوهم فشق عليهم الخروج
وتثاقلوا نزل يا ايها الذين امنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم
بادغام التا في الاصل في المثلثة واجتلاب همزة الوصل اذ اصله تثاقلتم ومعناه
تباطيتم وملتم عن الجهاد الى الارض والقعود فيها والاستفهام للتوبيخ قال المحققون

وانما تثاقل الناس من وجوه الاول شدة الزمان في الضيق والقحط والثاني بعد المسافة والحاجة
الى الاستعداد الكثير الزائد على ما جرت به عادتهم في سائر الغزوات والثالث ادراك الثمار
بالمدينة في ذلك الوقت والرابع شدة الحر في ذلك الوقت ثم قال لهم الله تعالى أرضيتم
بالحياة الدنيا وغرورها ولذاتها من الآخرة اي بدل الآخرة ونعيمها فما متاع الحياة
الدنيا في جنب متاع الآخرة الا قليل اي حقير لان متاع الدنيا ينفد عن قليل ونعيم الآخرة
باق على الدوام فلهذا السبب كان متاع الدنيا بالنسبة الى نعيم الآخرة قليلا وفي الآية دليل
على وجوب الجهاد في كل حال وفي كل وقت لان الله تعالى نص على ان تثاقلهم عن الجهاد
امر منكر فلو لم يكن الجهاد واجبا لما عاتبهم على التثاقل ويؤكد هذا الوعيد المذكور في قوله
تعالى الا اي بادغام نون ان الشرطية في لا في الموضعين تنفروا اي تخرجوا مع النبي صلى الله
عليه وسلم للجهاد يعذبكم عذابا اليما اي مؤلما في الآخرة لان العذاب الاليم لا يكون الا فيها
او بالاهلاك بسبب قطيع كقحط وظهور عدو وقيل احتباس المطر عنهم قال ابن عباس استنفر
رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا من احياء العرب فتثاقلوا فامسك الله عنهم المطر فكان
ذلك عذابهم ويستبدل قوما غيركم اي يأت بهم بدلكم قال ابن عباس هم التابعون وقال سعيد
ابن جبير ابنا فارس وقال ابو روق هم اهل اليمن قال الرازي وهذه الوجوه ليست
تفسير الآية لان الآية ليس فيها اشعار بها بل حمل لذلك المطلق على صورة معينة شاهدوها
وقال في الكشاف بعد ذكره ذلك والظاهر مستغن عن التخصيص ولا تضروه شيئا اي لا تقدح
تثاقلكم في نصر دينه شيئا فانه الغني عن كل شيء وفي كل امر وقيل الضمير راجع للرسول صلى الله
عليه وسلم اي ولا تضروه لان الله وعده ان ينصره ووعده كائن لا محالة والله على كل شيء قدير
اي فيقدر على التبديل وتغيير الاسباب والنصرة بلا عدد كما قال تعالى الا تنصروه
اي محمدا صلى الله عليه وسلم فقد نصره الله فانه المتكفل بنصرة رسوله صلى الله عليه
وسلم في اعزاز دينه واعلاء كلمته اعنتموه او لم تعينوه فانه قد نصره عند قلة الاولياء وكثرة
الاعداء فكيف به اليوم وهو في كثرة من العدد والعدد وقد نصره اذ اي حين اخرجه الذين
كفروا من مكة حين مكروا به حين تشاوروا في قتله او اخراجه او اثباته في دار الندوة
فكان ذلك لاذن الله له في الخروج من بينهم حالة كونه ثاني اثنين احدهما ابو بكر رضي الله
تعالى عنه لا ثالث لهما لم ينصرهما الا الله تعالى وقوله تعالى اذ بدل من اذ قبله هما في الغار
غار ثور الذي في اعلى الجبل المواجه للركن اليماني باسفل مكة على مسيرة ساعة منها
لما كمنا به ثلاث ليال ليفتر عنهما الطلب وذلك قبل ان يصلا اليكم او يعولا في النصر عليكم
وقوله تعالى اذ بدل ثان يقول صلى الله عليه وسلم لصاحبه ابي بكر الصديق رضي الله تعالى
عنه وثوقا بربه غير منزعج من شيء وقد قاله ابو بكر لما رأى اقدام المشركين لو نظر احدهم
تحت قدميه لابصرنا لا تحزن والحزن هم غليظ يتوجع يرق له القلب وانما كان خوفه
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهما لما وصلا الغار نزل ابو بكر الغار اولا يلتمس ما في
الغار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما لك فقال بابي انت وامي الغار ما وراء السباع
والهوام فان كان فيه شيء كان بي لا بك وكان في الغار حجر فوضع عقبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي
رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما طلب المشركون الاثر وقربوا بكى ابو بكر خوفا على رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال له صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا فقال له ابو بكر وان الله لمعنا

فقال

لمعنا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم نعم فجعل يمسح الدموع عن خده ويروى عن الحسن انه كان اذا
ذكر بكا ابي بكر بكى واذا ذكر مسحه الدموع مسح هو الدموع عن خده وروي لما طلع المشركون
فوق الغار اشفق ابو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان تغضب اليوم ذهب
دين الله فقال عليه الصلاة والسلام ما ظنك باثنين الله ثالثهما وروي لما دخلا
الغار بعث الله تعالى حمامتين باضتا في اسفله والعنكبوت نسجت عليه وقال صلى
الله عليه وسلم اللهم اعم ابصارهم فجعلوا يترددون حول الغار ولا يرون احدا
ويقولون لو دخلا هذا الغار تكسر بيض الحمام وانفسخ بيت العنكبوت تنبيه
دلت هذه الاية على فضيلة ابي بكر رضي الله تعالى عنه من وجوه احدها ان الهجرة
كانت باذن الله تعالى وكان في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من المخلصين
وكانوا في النسب الى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرب من ابي بكر فلولا ان
الله تعالى امره بان يستصحبه في تلك الواقعة الصعبة الهائلة والا لكان الظاهر انه
لا يخصه بهذه الصحبة وتخصيص الله تعالى له بهذا التشريف دل على منصب عال له في الدين
ومنها قوله صلى الله عليه وسلم له لا تحزن ان الله معنا ولا شك ان المراد من هذه المعية
المعية بالحفظ والنصرة والحراسة والمعونة وقد شرك صلى الله عليه وسلم بين نفسه
وبين ابي بكر في هذه المعية وكفى بها شرفا ومنها ان قوله لا تحزن نهي عن الحزن مطلقا والنهي
يوجب الدوام والتكرار وذلك يقتضي ان لا يحزن ابو بكر بعد ذلك البتة قبل الموت
وعند الموت وبعد الموت ومنها اطباق الكل على ان ابا بكر هو الذي اشترى الراحلة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ان عبد الرحمن بن ابي بكر واسما بنت ابي بكر هما اللذان
كانا ياتيانهما بالطعام وروي عن بن عمر رضي الله تعالى عنهما انه قال سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول لابي بكر انت صاحبي في الغار وصاحبي على الحوض قال الحسن بن الفضل
من قال ان ابا بكر لم يكن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر لانكار نص القران وفي
ساير الصحابة اذا انكر يكون مبتدعا لا كافرا واختلف في عود الضمير في قوله تعالى فانزل
الله سكينته اي طمانينته عليه هل هو للنبي صلى الله عليه وسلم او لابي بكر رضي الله تعالى عنه رجح
الثاني لوجوه الاول ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات واقرب المذكورات
المتقدمة في هذه الاية هو ابو بكر لانه تعالى قال اذ يقول لصاحبه والتقدير اذ يقول
محمد لصاحبه ابي بكر لا تحزن وعلى هذا التقدير فاقرب المذكورات السابقة هو ابو
بكر فوجب عود الضمير اليه والثاني ان الحزن والخوف كانا حاصلين لابي بكر لا للرسول
صلى الله عليه وسلم فانه كان امنا ساكن القلب فيما وعده الله تعالى ان ينصر على
قريش فلما قال لابي بكر لا تحزن صار امنا فصرف السكينة الى ابي بكر ليصير ذلك سببا
لزوال خوفه اولى من صرفها الى الرسول صلى الله عليه وسلم مع انه كان قبل ذلك ساكن
القلب قوي النفس الثالث انه لو كان المراد انزال السكينة على الرسول صلى الله عليه
وسلم لوجب ان يقال الرسول كان قبل ذلك خايفا ولو كان الامر كذلك لما امكنه ان يقول
لابي بكر لا تحزن ان الله معنا فمتى كان خايفا كيف يمكنه ان يزيل الخوف عن قلب غيره
ولو كان راجعا الى الرسول لوجب ان يقال فانزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لا تحزن
فيكون ذلك مما يدل على فضيلة ابي بكر ومنها حديث الهجرة على صاحبها افضل الصلاة
والسلام عن عايشة رضي الله تعالى عنها وعن ابويها قالت لم اعقل ابوي الا وهما يدينان

الدين ولم يمر علينا يوم الا ياتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفي النهار بكرة وعشية فلما
ابتلي المسلمون قال النبي صلى الله عليه وسلم لابي بكر اني اريت دار هجرتكم سبخة ذات نخل
بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بارض الحبشة
الى المدينة وتجهز ابو بكر رضي الله تعالى عنه قبل المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم على رسلك قال ارجو ان يؤذن لي فقال ابو بكر وهل ترجو ذلك يا رسول الله قال
نعم فحبس ابو بكر نفسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلف راحلتين كانتا
عنده من ورق السمر وهو الخبط اربعة اشهر قالت عايشة فبينما نحن جلوس في بيت
ابي بكر في حر الظهيرة قال قايل لابي بكر هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم
متقنعا في ساعة لم يكن ياتينا فيها فقال ابو بكر والله ما جا به في هذه الساعة
الا امر قالت فجا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستاذن فاذن له فدخل فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر اخرج من عندك فقال ابو بكر انما هم اهلك يا رسول
الله قال قد اذن لي في الخروج قال ابو بكر الصحبة يا رسول الله قال نعم قال ابو بكر فخذ
احدى راحلتي هاتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن قالت عايشة فجهزناهما
احب الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب فقطعت اسما بنت ابي بكر قطعة من نطاقها
فربطت به على فم الجراب فسميت بذلك ذات النطاقين قالت ثم لحق رسول الله صلى
الله عليه وسلم وابو بكر بغار في جبل فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الرحمن
ابن ابي بكر وهو غلام شاب فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبايت
فلا يسمع امرا يكادان به الا وعاه حتى ياتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام وكان يرعى عليهما
عامر بن فهيرة مولى ابي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشا ففعل ذلك
كل ليلة من الليالي الثلاث واستاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر رجلا من بني
الديل هاديا عارفا بالهداية وهو على دين كفار قريش فامناه ودفعا اليه راحلتيهما ووعداه
غار ثور بعد ثلاث ليال فاتاهما صبح ثلاث فارتحلا وانطلق معهما عامر بن فهيرة
والدليل الديلي واخذ بهم طريق الساحل فعلم بهم سراقة بن مالك المدلجي وكان كفار قريش
جعلوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر كل واحد منهما لمن قتله او اسره دية
قال سراقة فتبعتهم حتى دنوت منهم فعثرت فرسي فخررت عنها فقمت واهويت
بيدي الى كنانتي فاستخرجت منها الازلام فاستقسمت بها اضرهم ام لا فخرج الذي اكره
فركبت فرسي وعصيت الازلام فعرنت بي حتى سمعت قراة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو لا يلتفت وابو بكر يكثر الالتفات فساخت يدا فرسي في الارض حتى بلغت الركبتين
فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قايمة اذا لاثر يديها
غبار ساطع مثل الدخان فاستقسمت بالازلام فخرج الذي اكره فناديتهم الامان
فوقفوا فركبت فرسي حتى جيتهم ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم
ان سيظهر امر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له ان قومك جعلوا فيك الدية
واخبرتهم بما يريد الناس بهم واعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزاني ولم يسالاني
الا ان قالا اخف عنا فسالته ان يكتب لي كتاب امان فامر عامر بن فهيرة فكتب
له رقعة من ادم ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقي الزبير في ركب من المسلمين
كانوا تجارا اقبلن من الشام فكسى الزبير رسول الله صلى الله عليه وسلم وابا بكر رضي الله

تعالى

تعالى عنه نبأ بالخبر فلما قربا الى المدينة وصل الخبر الى الانصار فخرجوا مشرعين فلقوا بهم رسول
الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فاخذ بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف وذلك
يوم الاثنين من شهر ربيع الاول فقام فى بنى عمرو وهم اربع عشرة ليلة واسس المسجد الذى
اسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركب راحلته فسار يمشى
معه الناس حتى بركت عند مكان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وكان مربدا
لسهل وسهيل فساومهما صلى الله عليه وسلم ليتخذه مسجدا فقالا لا بل نهبه لك يا رسول
الله ثم بناه مسجدا وصار صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن فى بنائه ويقول وهو ينقل
اللبن هذا الحمال لا حمال خيبر هذا ابر ربنا واطهر ويقول ان الاجر اجر الاخرة فارحم الانصار
والمهاجرة قال ابن هشام ولم يبلغنى فى الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ببيت
سعد تام غير هذا فاطمة خرج به صلى الله عليه وسلم لابى بكر رضى الله تعالى عنه ما يدل على
فضيلته وفضائله رضى الله تعالى عنه وعن بقية الصحابة اجمعين كثيرة وفيما ذكرناه كفاية
واما الضمير فى قوله تعالى وَأَيَّدَهُ فالظاهر على انه للنبى صلى الله عليه وسلم فهو معطوف
على قوله تعالى فقد نصره الله بحنود لم تروها اى من الملائكة الكرام فى الغار ويوم بدر والاخزاب
وحنين وجميع مواطن قتاله وجعل كلمة اى دعوة الله هى الكفر السفلى اى المغلوبة
فخيبت سعيهم ورد كيدهم وكلمة الله اى دعوته الى الاسلام هى العليا اى الغالبة الظاهرة وقيل كلمة
الذين كفروا اما كانوا فدبروها بينهم من الكيد بالنبى صلى الله عليه وسلم وكلمة الله هى ما وعده
بالنصر والظفر لهم فكان ما وعد الله حقا وصدقا والله عزيز فى ملكه حكيم فى امره وتدبيره
لا يمكن ان ينقض شيء من مراده فلا يحيص عن نفوذ ما اراده ولما بلغت هذه المواعظ من الكلم
الواعية مبلغا هيأها به للقبول اقبل عليهم سبحانه وتعالى فقال انفروا خفافا وثقالا
اى على الصفة التى تخف عليكم الخروج فيها وعلى الصفة التى تثقل عليكم وهذان الوصفان
يدخل تحتهما اقسام كثيرة ولهذا اختلفت عبارات المفسرين فيها فقال ابن عباس شبانا
وغير شباب وقال الحسن شبانا وشيوخا وقال عطية العوفى ركبانا ومشاة وقال ابو صالح
فقراء واغنيا وقال الحكم بن عيينة مشاغيل وغير مشاغيل وقال مرة الهمدانى اصحاء واصحاب
مرض وعن صفوان بن عمرو كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه
من الهرم وهو يتوكأ على عصا وهو يريد الغزو فقلت يا عم لقد اعذر الله اليك فرفع حاجبيه
وقال استغفر لنا الله خفافا وثقالا الا الا الله الا من حبسه الله بمشيئته وعن الزهرى
خرج سعيد بن المسيب الى الغزو وقد ذهبت احدى عينيه فقيل له عذرك الله انت مريض
فقال استنفر الله الخفيف والثقيل فان لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع
وعن ابن ام مكتوم انه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم على ان انفر قال ما انت الا خفيف
او ثقيل فرجع الى اهله ولبس سلاحه ووقعه بين يديه صلى الله عليه وسلم فنزل قوله
تعالى ليس على الاعمى حرج اى فهى منسوخة بذلك وقال ابن عباس نسخت بقوله تعالى
ليس على الضعفاء ولا على المرضى الاية وقال السدى لما نزلت استثنى شيئا على المسلمين
فنسخها الله تعالى وانزل ليس على الضعفاء ولا على المرضى وقال عطا الخراسانى منسوخة
بقوله تعالى وما كان المؤمنون لينفروا كافة وقوله تعالى وجاهدوا بأموالكم
وانفسكم فى سبيل الله امر ايجاب للجهاد اى بما امكن لكم بهما كليهما او احدهما على حسب

الحال والحاجة ذلكم اي هذا الامر العظيم خير لكم اي خاص بكم ويجوز ان يكون افعل تفضيل اي عبادة
المجاهد بالجهاد خير من عبادة القاعد بغيره كما قال صلى الله عليه وسلم لمن ساله هل يمكن بلوغ درجة
المجاهد فقال هل تستطيع ان تقوم فلا تفتر وتصوم فلا تفطر ثم ختم تعالى الاية بقوله تعالى
إن كنتم تعلمون اي ان ما يحصل لهم من الخيرات في الاخرة على الجهاد لا يدرك الا بالتامل ولا يعرفه الا
المومن الذي عرف بالدليل ان القول بالقيمة حق وان القول بالثواب والعقاب صدق ونزل
في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لو كان اي ما يدعوهم اليه عرضا اي متاعا من الدنيا
يقال الدنيا عرض حاضر ياكل منه البر والفاجر قريبا اي سهل الماخذ وقوله تعالى وسفرا قاصدا
اي وسطا فحذف اسم كان وهو ما قدرته قال الزجاج لدلالة ما تقدم عليه وانما سمي السفر بذلك لان
المتوسط بين الافراط والتفريط يقال له مقتصد قال تعالى فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد
لان المتوسط بين الكثرة والقلة يقصده كل احد وقوله تعالى قاصدا اي ذو قصد كقولهم لابن
وتامر لاتبعوك اي وافقوك طلبا للغنيمة ولكن بعدت عليهم الشقة اي المسافة التي تقطع بمشقة
وسيحلفون اي المتخلفون بالله اذا رجعت من تبوك معتذرين لو استطعنا اي لو كان لنا
استطاعة للخروج بالبدن او العدة لخرجنا اي في هذه الغزاة معكم يهلكون انفسهم اي
بسبب هذه الايمان الكاذبة كما قال تعالى والله يعلم انهم لكاذبون في ذلك لانهم كانوا
مستطيعين الخروج عفى الله عنك لم اذنت لهم اي عفى الله تعالى عنك يا محمد ما كان منك
في اذنك لهولاء المنافقين الذين استاذنوك في ترك الخروج معك الى تبوك واختلفوا هل
في ذلك معاتبة للنبي صلى الله عليه وسلم ام لا فقال عمرو بن ميمون اثنان فعلهما رسول
الله صلى الله عليه وسلم لم يومر بهما اذنه للمنافقين واخذه الفدا من اسارى بدر فعاتبه
الله تعالى كما تسمعون وقال سفيان بن عيينة انظروا الى هذا اللطف بدا الله تعالى بالعفو
قبل ان يعيره وقال القاضي عياض في الشفا ان هذا امر لم يتقدم للنبي صلى الله عليه وسلم
فيه من الله تعالى نهي فيعد معصية ولا عده الله تعالى معصية عليه بل لم يعده اهل
العلم معاتبة وغلطوا من ذهب الى ذلك وليس عفى عفو غفر بل كما قال النبي صلى الله عليه
وسلم عفى الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق ولم يجب عليهم قط اي ان لم يكن يلزمكم ذلك
ونحوه للقشيري قال وانما يقول العفو لا يكون الا عن ذنب من لا يعرف كلام العرب وقال
مكي هو استفتاح كلام مثل اصلحك الله واعزك وقال السمرقندي ان معناه عافاك الله
وقال الرازي ان ذلك يدل على مبالغة الله تعالى في تعظيمه وتوقيره كما يقول الرجل لغيره اذا
كان معظما عنده عفا الله عنك ما صنعت في امري ورضي الله تعالى عنك ما جوابك
عن كلامي فلا يكون غرضه من هذا الكلام الا مزيد التبجيل والتعظيم اي كما كانت عادة
العرب في مخاطبتهم لاكابرهم بان يقولوا اصلح الله الامير والملك ونحو ذلك حتى يتبين لك
الذين صدقوا اي في اعتذارهم وتعلم الكاذبين اي فيما اظهروا من الايمان باللسان
لو لم ياذن لهم لقعدوا بلا اذن غير مراعين ميثاقهم الذي واثقوك عليه بالطاعة
في العسر واليسر والمنشط والمكره قال ابن عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف
المنافقين يومئذ حتى نزلت براة لا يستاذنك اي يطلب اذنك بغاية الرغبة فيه الذين
يومنون بالله واليوم الاخر اي الذي يكون فيه الجزا بالثواب والعقاب ان اي في ان
يجاهدوا وانما حسن هذا الحذف لظهوره باموالهم وانفسهم بل يبادرون الى الجهاد عند

اشارتك

التاسع والعشرون

اشارتك اليه وبعثتك عموما عليه فضلا عن ان يستاذنوك في التخلف عنه فان الخلص من المهاجرين
والانصار كانوا يقولون لا نستاذنه صلى الله عليه وسلم في الجهاد فان ربنا ندبنا اليه مرة
بعد مرة فاي فايدة في الاستيذان ولنجاهد معه باموالنا وانفسنا وكانوا بحيث لو امرهم
صلى الله عليه وسلم بالقعود لشق عليهم كما وقع لعلي رضي الله تعالى عنه في غزوة تبوك
لما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يبقى في المدينة شق عليه ولم يرض حتى قال له
النبي صلى الله عليه وسلم الا ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى والله عليم
بالمتقين اي الذين يتقون مخالفته ويسارعون الى طاعته انما يستاذنك يا محمد
في التخلف عن الجهاد معك من غير عذر الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وهم المنافقون
لانهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا وارتابت اي شكت قلوبهم في الدين وانما
اضاف الشك والارتياب الى القلب لانه محل المعرفة والايمان فاذا دخله الشك كان
ذلك نفاقا فهم اي فتسبب عن ذلك انهم في ريبهم يترددون اي ان المنافقين متحيرون
لا مع الكفار ولا مع المؤمنين تنبيه اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآيات
فقيل انها منسوخة بالآية التي في سورة النور وهي قوله تعالى انما يستاذنك الذين
لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فاذا استاذنوك لبعض شانهم فاذن لمن شئت منهم وقيل
انها محكمات كلها ووجه الجمع بين هذه الآيات ان المؤمنين كانوا يسارعون الى طاعة الله
تعالى وجهاد عدوهم من غير استيذان فاذا عرض لاحدهم عذر استاذن في التخلف فكان
رسول الله صلى الله عليه وسلم مخيرا في الاذن لهم بقوله تعالى فاذن لمن شئت منهم واما
المنافقون فكانوا يستاذنون في التخلف من غير عذر فعيرهم الله تعالى بهذا الاستيذان
لكونه بغير عذر ولو ارادوا الخروج اي الى الغزو معك لاعدوا له اي قبل حلوله عدة
اي قوة واهبة من المتاع والسلاح والكراع بحيث يكونون كالحاضرين في صلب الحرب
الواقفين في الصف فقد استعدوا لها بجميع عدتها ولما كان قوله ولو ارادوا الخروج معطى
معنى نفي خروجهم واستبعادهم للغزو اتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى
ولكن كره الله انبعاثهم اي لم يرد خروجهم معك الى الغزو فثبطهم اي حبسهم بالجبن
والكسل وقيل لهم اقعدوا مع القاعدين اي مع النساء والصبيان والمرضى واهل الاعذار
ومعنى قيل لهم اي قدر الله تعالى عليهم ذلك بان القى في قلوبهم القعود لما كره
انبعاثهم مع المؤمنين وقيل القايل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استاذنوه
بالقعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فان قيل خروج المنافقين مع النبي
صلى الله عليه وسلم اما ان يكون فيه مصلحة او مفسدة فان كان فيه مصلحة فلم قال
تعالى ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وان كان فيه مفسدة فلم قال لنبيه عفا الله
عنك لم اذنت لهم في ترك الخروج اجيب بان خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل
قوله تعالى لو خرجوا فيكم اي معكم ما زادوكم بخروجهم الا خبالا اي فسادا وشرا بتخذيل
المؤمنين وتقدم الكلام على قوله تعالى لم اذنت لهم تنبيه لا يصح ان يكون فيه
الا استثناء منقطعا لان الاستثناء المنقطع يكون المستثنى من غير جنس المستثنى
منه كقولك ما زادوكم خيرا الا خبالا والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور واذا لم
يذكر وقع الاستثناء من اعم العام كانه قيل ما زادوكم شيئا الا خبالا ولاوضعوا اي اسرعوا خلالكم

اي بينكم فيما يخل بكم بالمشي والنميمة يبغونكم الفتنة اي يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك
انهم يقولون للمومنين لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وانكم ستهزمون منهم
وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الاحاديث الكاذبة التي تخبيهم وفيكم اي والحال ان فيكم
سماعون لهم اي عيون لهم يودون لهم اخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس او
مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك انهم يلقون اليهم انواعا من
الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم فان قيل كيف يكون في المومنين المخلصين
من يطيع المنافقين اجيب بانهم ربما قالوا قولا لاثر في قلوب ضعفة المومنين في تغير
الاحوال وقوله تعالى والله عليم بالظالمين وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون
الفتن والشبهات بين المومنين لقد ابتغوا الفتنة اي الفتنة ونصبت الغوائل والشغب
في تشتيت شملك وتفريق اصحابك عنك كما فعل عبد الله بن ابي يوم احد وحين انصرف
بمن معه وعن ابن جريج وفقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة
وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به من قبل اي قبل غزوة تبوك وقلبوا لك الامور
اي ودبروا لك الحيل والكايد ودوروا الاراي في ابطال امرك حتى جاء الحق وهو نايدك
ونصرك وظهر امر الله اي وغلب دينه وعلا شرعه وهم كارهون له اي على رغم منهم
فدخلوا فيه ظاهرا ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك قال الجد بن
قيس وكان من المنافقين يا ابا وهب هل لك في جلاد بني الاصفر يعني الروم تتخذ منهم
سراريّ ووصفا فقال الجد بن قيس لا ارسول الله لقد عرف قومي اني مغرم بالنساء واني اخشى ان
رايت بنات الاصفر ان لا اصبر عنهن ايا ذن لي بالقعود ولا تفتني واعنك بمالي قال ابن عباس
اعتل الجد بن قيس ولم يكن له علة الا النفاق فاعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم
فانزل الله تعالى فيه ومنهم اي المنافقين من يقول ايذن لي اي في القعود في المدينة
ولا تفتني اي ببنات بني الاصفر وقيل لا توقعني في الفتنة وهي الاثم بان لا ياذن لي
فانك ان تمنعني من القعود وقعدت بغير اذنك وقعت في الاثم وقيل لا تلقني في الهلاك
فان الزمان زمان عسرة وحر ولا طاقة لي بها وقيل لا تفتني بسبب ضياع المال والعيال
اذ لا كافل لهم بعدي قال الله تعالى الا في الفتنة سقطوا اي ان الفتنة هي التي سقطوا
فيها وهي فتنة التخلف وظهور النفاق لا ما اخروا عنه وان جهنم لمحيطة بالكافرين
اي جامعة لهم لا محيص لهم عنها يوم القيمة او هي محيطة بهم الآن لان اسباب الاحاطة
معهم فكانهم في وسطها ان تصبك اي يا محمد في بعض الغزوات حسنة اي نصر وغنيمة تسؤهم
اي تحزنهم لما في قلوبهم من الضغن والمرض وان تصبك مصيبة اي نكبة وان صعرت
في بعض الغزوات كما وقع يوم احد يقولوا اي سرورا وتبجحا بسوء رايهم قد اخذنا امرنا
اي بالحذر والحزم في القعود عن الغزو ومن قبل اي قبل هذه المصيبة ويتولوا وهم فرحون
اي مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها قال الله تعالى قل يا محمد لهولاء الذين
يفرحون بما يصيبك من المصايب المكروهة لن يصيبنا الا ما كتب الله اي قدره لنا في اللوح
المحفوظ لان القلم جف بما هو كاين الى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر احد ان يدفع عن نفسه
مكروها نزل به او يجلب لنفسه نفعا ان اراد ما لم يقدر له هو مولانا اي ناصرنا
وحافظنا وهو اولى بنا من انفسنا في الموت والحياة ذلك بان الله تولى الذين امنوا

وان الكافرين

وان الكافرين لا مولى لهم وعلى الله فليتوكل المؤمنون في جميع امورهم لان غيرهم ان لا يتوكلوا
على غيره فليتوكلوا اما هو حقهم قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تربصون فيه حذف احدى التاءين
من الاصل اي تنتظرون ان ينفع بنا اي المنافقون الا احدى الحسنيين تثنية حسنى تانيث
احسن اي الا احدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما النصر والشهادة
وذلك ان المسلم اذا ذهب الى الجهاد في سبيل الله اما ان يسلم ويغنم فيحصل له المال واما ان يقتل
في سبيل الله فيحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته الا الجهاد
في سبيله وتصديق كلمته ان يدخله الجنة او يرجعه الى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال
من اجر وغنيمة ونحن نتربص بكم اي احدى السوءتين من الغوائل اما ان يصيبكم الله
بعذاب من عنده اي لا بسبب لنا فيه كان ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود
او بعذاب بايدينا اي بسببنا من قتل ونهب واسر وغير ذلك فتربصوا انا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ولا بد ان يلقى كلنا ما يتربصه لا يجاوزه قل يا محمد
لهؤلاء المنافقين انفقوا طوعا او كرها اي من غير الزام من الله ورسوله او ملزمين وسمي
الالزام اكراها لانهم منافقون فكان الزامهم الانفاق شاقا عليهم كالاكراه او طائعين من غير
اكراه من رؤسائكم لان رؤساء اهل النفاق كانوا يحملون على الانفاق لما يرون من المصلحة
فيه او مكرهين من جهتهم لن يتقبل منكم اي لن يتقبل منكم نفقاتكم على اي حال كان فان قيل
كيف امرهم بالانفاق ثم قال لن يتقبل منكم اجيب بان هذا امر بمعنى الخبر كقوله يقاتلوا
كل من كان له الصلاة قلت له الرحمن مدا اورد انها نزلت في الجد بن قيس حين تخلف
عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعذر اما لي اعينك بها فانزل الله تعالى
منع القبول بقوله تعالى انكم اي لانكم كنتم قوما فاسقين والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل
عليه قوله تعالى وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله اي وما
منعهم قبول نفقاتهم الا كفرهم وقرا حمزة والكسائي تقبل بالياء على التذكير لان تانيث
النفقات غير حقيقي والباقون بالتاء على التانيث ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى اي
متثاقلون لا يأتونها فط بنشاط ولا ينفقون اي نفقة من واجب وغيره الا وهم كارهون
اي في حال الكراهة وان ظهر خلافه لكن ذلك كله لعدم النية الصالحة وهذا الاتيان في طوعا
لانه لكن بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع فلا تعجبك يا محمد اموالهم اي وان انفقوها في سبيلي
وجهزوا بها الغزاة فان ذلك من غير اخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية ولا اولادهم
الذين يتحملون بهم فان ذلك استدراج ووبال كما قال تعالى انما يريد الله ليعذبهم
بها في الحياة الدنيا اي وان كان يترائى انها للذين لان ذلك من شان الحياة وتعذيبهم
فيها بسبب ما يكابدون بجمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب
فان قيل هذا لا يختص بالمنافق فما فائدة تخصيصه به اجيب بان الحزين قد علم انه مخلوق
للاخرة وانه شاب بالمصائب الحاصلة في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذابا والمنافق
لا يعتقد ذلك يبقى ما يحصل له في الدنيا من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد
عذابا عليه في الدنيا وتزهق اي تخرج انفسهم بسببها وهم اي والحال انهم كافرون
اي يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الاخرة وهذا كل من اراد

الله تعالى استدراجه في الغالب كثر ماله وولده فكثر اعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعمة الله
والاعجاب السرور بالشيء مع نوع الافتخار به ومع اعتقاد انه ليس لغيره ما يساويه وهذه
الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشيء وانقطاعه عن الله تعالى فانه لا يبعد في حكم
الله ان يزيل ذلك الشيء عن ذلك الانسان ويجعل لغيره والانسان متى كان متذكرا لهذا المعنى
زال اعجابه بالشيء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب
المرء بنفسه وكان صلى الله عليه وسلم يقول هلك المكثرون وقال ايضا ما لك من مالك الا ما
اكلت فافنيت او لبست فابليت او تصدقت فابقيت وروي من كثر ماله اشتد
حسابه ومن ازداد من السلطان قربا ازداد من الله بعدا والاخبار المناسبة لهذا الباب
كثيرة والمقصود منها الزجر عن الاطناب الى الدنيا والمنع من التهالك في حبها والافتخار
بها لان الانسان خلق للاخرة لا للدنيا فينبغي ان لا يشتد عجبه بالدنيا وان لا يميل
قلبه اليها فان السكن الاصلي له هو الاخرة لا الدنيا ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين
لكل مضار الدنيا والاخرة خاسئين عن جميع منافع الاخرة والدنيا عاد الى ذكر فضائحهم
وقبائحهم فمنها اقدامهم على الايمان الكاذبة كما قال تعالى ويحلفون اي المنافقون
بالله للمؤمنين اذا جاؤا معهم انهم لمنكم اي على دينكم وملتكم وما هم منكم اي لكفر قلوبهم
ولكنهم قوم يفرقون اي يخافون منكم ان يفعلوا بهم ما يفعلوا بالمشركين فيظهرون
الاسلام تقية لو يجدون ملجأ اي حصنا يلجؤون اليه وقيل لو وجدوا مهربا هربوا اليه
وقيل لو يجدون قوما يامنون عندهم على انفسهم منكم لصاروا اليهم ولفارقوكم او مغارات
اي سراريب جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه الانسان اي يستتر لو مدخلا اي
موضعا يدخلونه لولوا اليه والمعنى انهم لو وجدوا مكانا على احد هذه الوجوه الثلاثة
مع انها شر الامكنة لدخلوا اليه وتحرزوا فيه وهم يجمحون اي يسرعون في دخول ذلك المكان
اسراعا لا يرد وجوههم شيء ومن هذا يقال جمح الفرس وهو فرس جموح وهو الذي اذا حمل لا يرده
اللجام ثم ذكر الله تعالى نوعا اخر من قبائح المنافقين وهو طعنهم في رسول الله صلى الله عليه
وسلم بسبب اخذ الصدقات بقوله تعالى ومنهم من يلمزك اي يعيبك في الصدقات قال ابو علي
الفارسي ههنا محذوف والتقدير يعيبك في تفريق الصدقات واختلف في سبب نزول
هذه الاية فقال ابو سعيد الخدري بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا اذ اتاه ذو
الخويصرة وهو رجل من بني تميم راس الخوارج وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم
حنين فاستعطف قلوب اهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال يا رسول الله اعدل فقال
له صلى الله عليه وسلم ويلك ان لم اعدل فمن يعدل قد خبت وخسرت ان لم اكن اعدل
فقال عمر رضي الله تعالى عنه يا رسول الله ائذن لي فيه اضرب عنقه فقال له صلى الله
عليه وسلم دعه فان له اصحابا يحقر احدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون
القران لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية وقال الكلبي قال
رجل من المنافقين يقال له ابو الجواظ المنافق الى ترون الى صاحبكم يقسم صدقاتكم
في رعاة الغنم ويزعم انه يعدل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا انا لك انما كان
موسى راعيا انما كان داود راعيا فلما ذهب عليه صلى الله عليه وسلم قال احذروا هذا
واصحابه فانهم منافقون وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد الا من احب

ولا

ولا يؤثر بها الا هواه فنزلت وروى بكر الاصم في تفسيره انه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من اصحابه
ما علمك بفلان فقال ما لي به علم الا انك تدنيه في المجلس وتجزل له العطا فقال صلى الله
عليه وسلم انه منافق اداريه عن نفاقه واخاف ان يفسد علي غيره فقال لو اعطيت
فلانا بعض ما تعطيه فقال صلى الله عليه وسلم انه مؤمن اكمل ايمانه واما هذا فمنافق اراد به
خوف فساده فان اعطوا منها اي من الصدقات رضوا اي رضوا عنك في قسمتها وان لم
يعطوا منها اذا هم يسخطون اي وان لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا قال اهل المعاني
ان هذه الاية تدل على ركاكة اخلاق اولئك المنافقين ودناءة طباعهم وذلك لانه
لشدة شرههم الى اخذ الصدقات عابوا الرسول صلى الله عليه وسلم ونسبوه الى
الجور في القسمة مع انه كان ابعد خلق الله تعالى عن الميل الى الدنيا وقال الضحاك كان
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما اتاه الله من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون
يرضون بما اعطوا ويحمدون الله تعالى واما المنافقون فان اعطوا كثيرا فرحوا وان اعطوا
قليلا سخطوا وذلك يدل على ان رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لاجل الدين وكلمة اذا
للمفاجاة اي وان لم يعطوا منها فاجوا السخط ولو انهم اي المنافقين رضوا ما اتاهم الله ورسوله
ورسوله اي ما اعطاهم رسوله الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم او الصدقات او غيرها
وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على ان ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بامره
وقالوا اي مع الرضا حسبنا الله اي كافينا الله من فضله سيؤتينا الله من فضله ورسوله
اي من غنيمة او صدقة اخرى ما يكفينا انا الى الله اي في ان يغنينا عن الصدقة وعن غيرها
من اموال الناس ويوسع علينا من فضله راغبون اي عريقون في الرغبة فلذلك يكتفي
بما ياتي من قبله كائنا ما كان وجواب لو محذوف والتقدير لكان خيرا لهم نقل عن عيسى
عليه السلام انه مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال ما الذي حملكم عليه قالوا الخوف
من عقاب الله فقال اصبتم ثم مر على قوم يذكرون الله تعالى فقال ما الذي حملكم عليه
قالوا الرغبة في الثواب فقال اصبتم ومر على قوم ثالث يشتغلون بالذكر فسالهم
فقالوا لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة في الثواب بل لاظهار ذلة العبودية
وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالالفاظ الدالة على صفات
قدسه فقال انتم المحقون المحققون ثم بين سبحانه وتعالى مصارف الصدقات
تحقيقا لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل انما الصدقات
اي الزكوات مصروفة للفقراء والفقير هو الذي لا يجد ما يقع موقعا من كفايته
كان يحتاج الى عشرة دراهم وهو لا يجد الا درهمين او ثلاث ماخوذ من الفقار كانه
اصيب فقاره والمساكين والمسكين هو الذي يجد ما يقع موقعا من كفايته ولا يكفيه كان
يحتاج الى عشرة وهو يجد سبعة او ثمانية ماخوذ من السكون كان العجز اسكنه والمسكين
اعلى من فقير ويدل عليه قوله تعالى اما السفينة فكانت لمساكين وروي انه صلى
الله عليه وسلم سال المسكنة وروي انه تعوذ من الفقر وقيل الفقير اعلى لقوله تعالى
او مسكينا ذا متربة والعبرة عند الجمهور في عدم كفاية الفقير والمسكين بالعمر الغالب
بناء على انه يعطى كفاية ذلك والعاملين عليها اي الزكاة فيعطى العامل وان كان غنيا
ويدخل في اسم العامل الساعي وهو الذي يبعثه الامام لاخذ الزكوات والكاتب والقاسم

BULAC

والحاشر والعريف وهو الذي يعرف ارباب الاستحقاق والحاسب والحافظ للاموال والكيال
والوزان والعداد عمالك ان يستعين بهم الامام في اخذ الصدقات ويعطيهم منها اجرتهم
فان اجرتهم على المالك **والمؤلفة قلوبهم** وهم اما ضعفاء النية في الاسلام فيعطى
ليقوى اسلامه او شريف في قومه يتوقع باعطائه اسلام غيره او كافف لنا شره من
يليه من الكفار او من مانعي الزكاة فيعطى حيث اعطاوه اهون علينا من بعث جيش
واما مولفة الكفار لترغيبهم في الاسلام فلا يعطون من الزكاة ولا من غيرها للاجماع
ولان الله تعالى اعز الاسلام واهله واغنى عن التاليف **وفي الرقاب** وهم المكاتبون
كتابة صحيحة فيعطون ما يودون من النجوم ان عجزوا عن الوفاء ولو حل النجم
لان قوله تعالى وفي الرقاب كقوله تعالى وفي سبيل الله وهناك يعطى المال للمجاهدين
فيعطى للرقاب فلا يشترى به رقاب للعتق كما قيل به **والغارمين** وهم من لزمتهم الديون
وهي ثلاثة اضرب دين لزمه لمصلحة نفسه ودين لزمه بضمان لاصلاح ذات البين فتحملها
لتسكين فتنة ودين لزمه لتسكين فتنة وهو اصلاح ذات البين فمن استدان لمصلحة نفسه اعطى لان استدانته في
الحال تنافي عنه فيعطى اذا احتاج وكان بحيث لو قضى دينه مما معه افتقر فيترك له
ما يكفيه واعطى ما يقضي به بقية دينه ويعطى ولو قدر على قضائه بالكسب وكذا الكتابة
ويشترط حلول الدين في اعطاء الغرم وان ضمن لاصلاح فتنة وهو معسر يلتزم بما على
معسر اعطى ما يقضي به دينه واذا قضى به دينه لا يرجع على الاصيل وان ضمن باذنه
وانما يرجع اذا غرم من عنده ويعطى معسر يلتزم بما على موسر بلا اذن من الاصيل لانه
اذا غرم لا يرجع عليه بخلافه اذا ضمن باذنه ولا يعطى موسر يلتزم بما على موسر
وان ضمن موسر بما على معسر اعطى الاصيل دون الضامن والغارم لاصلاح ذات البين
يعطى مع الغنى ولو في غير دم ويعطى المستدين لغير ضيف وعمارة مسجد وبناء قنطرة ونحوه
اسير ونحو ذلك من المصالح العامة عند العجز عن النقد **وفي سبيل الله** وهم الغزاة المتطوعة
اي الذين لا رزق لهم في الفيء فيعطون ولو اغنياء اعانة لهم على الغزو ويحرم الزكاة على
الغازي المرتزق ولو كان عاميا لما قاله عدم الغنى واضطررنا الى المرتزق لكفينا شر
الكفار اعانه الاغنيا لا من الزكاة **وابن السبيل** اي الطريق وهو من ينشئ سفرا مباحا من محل
الزكاة فيعطى ولو كان موسرا او كان سفره نزهة ويعطى ايضا المسافر الغريب
المحتاج بمحل الزكاة وانما يعطيان ان لم يجدا معهما ما يكفيهما لسفرهما وقوله تعالى
فريضة من الله نصب بفعل المقدر اي فرض لهم الصدقات فريضة او حال من الضمير
المستكن في للفقراء **والله عليم** اي بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويوافق من قلوب
الورى **حكيم** يضع الاشياء في مواضعها وانما اضيفت الصدقات الى الاصناف الاربعة
الاولى بلام الملك والى الاربعة الاخيرة يعني الطرفية للاشعار بما لاف الملك في الاربعة
الاولى وتقييده في الاخيرة حتى اذا لم يحصل الصرف في مصارفها استرجع بخلافه في الاولى
ويجب تعميم الاصناف الثمانية في القسم ان امكن بان قسم الامام ولو سائبة ووجدوا
لظاهر الآية سواء ذلك زكاة الفطر وزكاة المال وان لم يمكن بان قسم المالك او العامل
او الامام ووجد بعضهم كان جعل عاملا باجزء من بيت المال فتعميم من وجد منهم
وعلى الامام تعميم احاد كل صنف من الزكوات الحاصلة عنده اذ لا يتعذر عليه ذلك وعلى

المالك

وعلى المالك ايضا ان يخبر الاحاد بالبلد بان يسهل عادة ضبطهم ومعرفة عددهم ووفى
بهم المال فان اخل احدهما بصنف ضمن ما لم ينحصروا ولم يف بهم المال وجب اعطاء ثلاثة
فاكثر من كل صنف لذكر فى الاية بصيغة الجمع وهو المراد فى سبيل الله وابن السبيل الذى
هو لجنس ولا عامل لو قسم المالك ويجوز حيث كانا ان يكون واحدا ان حصلت به الكفاية
كما يستغنى عنه فيما مر ويجب التسوية بين الاصناف غير العامل لا بين احاد الصنف
الا ان يقسم الامام وتتفاوت الحاجات فتجب التسوية لان عليه التعميم فعليه التسوية
بخلاف المالك اذا لم ينحصروا ولم يف بهم المال ولا يجوز ولا يجزيه تنقل الزكاة من بلد
وجوبها مع وجود المستحقين فيه الى بلد اخر ولو حال الحول والمال بباديته
فوقت الزكاة بأقرب البلاد اليه امام الامام ونوابه فله نقلها ولو امتنع
المستحقون من اخذها قوتلوا وشرط اخذ الزكاة من نقده الثمانية حريته واسلامه
وان لا يكون هاشميا ولا مطلبيا ولا قوتى لها كما بيناها لتسمة تعد امذهب الشافعى
رضى الله تعالى عنه وقال الرازى وغيره لا دلالة فى الاية على قول الشافعى رضى الله تعالى
من صرفها الى جميع الاصناف لانه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الاصناف واما
ان الصدقة زيد بعضها يجب توزيعها على الاصناف كلها فلا كما ان قوله تعالى واعلموا
انما غنمتم من شئ فان لله خمسه الاية توجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع
بالاتفاق وما ذهب اليه الشافعى رحمه الله تعالى قول عكرمة وما ذهب اليه الاية
الثلاث من جواز صرفها الى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة
من الصحابة والتابعين وكل على هدى من ربهم فانظر كيف وقعت هذه الاقسام
فى تضاعيف ذكر المنافقين وكأنه بديع احبيب بانه انما ذكر ذلك ليدل على ان هذه الاصناف
مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على اعلامهم بسوء منهم حسبما لاطلاعهم واشعارا باستحقاقهم
الحرمان وانهم بعداء عنها وعن مصارفها ومالها وماسات لطهم على التكلم فيها ولمن قاسمها
ومنهم اى المنافقين الذين يؤذون النبى هذا نوع اخر من جهالات المنافقين وهو
انهم كانوا يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم بعيبونه وينقلون حديثه ويقولون
اذا نهوا عن ذلك ليبلغه هو اذن اى يسمع كل ما يقاله لكم ويصدقه سمى بالجارحة
للمبالغة كانه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع كما سمى الجاسوس عينا لذلك واختلف
فى سبب نزول هذه الاية فقال ابن عباس نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يؤذون
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض لا تفعلوا فانا نخاف ان يبلغه ما تقولون
فنقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف
له فيصدقنا بما نقول فان محمدا اذن اى اذن سامعة يسمع كل ما يقال
له ويقبله وقال محمد بن اسحاق نزلت فى رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث
وكان رجلا ثائر الشعر احمر العينين اسفع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه صلى
الله عليه وسلم من اراد ان ينظر الى الشيطان فلينظر الى نبتل بن الحارث وكان نم حديث
النبى صلى الله عليه وسلم الى المنافقين فبلغه له لا تفعل ذلك فقال انما محمد اذن
من حدثه شاهدة فنقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا فانزلت وقال
الحسن كان المنافقون يقولون ما هذا الرجل الا اذن من سمع حديثه حتى شا اعزمنا له

ومقصود المنافقين بقولهم هو اذن انه ليس له ذكاء ولا بعد غور بل هو سليم القلب
سريع الاغترار بكل ما سمع فلهذا السبب سموه بانه اذن وقوله تعالى قل يا محمد
هو اذن المنافقين اذن خير لكم تصديق لهم بانه اذن لكن لا على الوجه الذي ذموه به بل
من حيث انه يسمع الخبر ويقبله ثم فسر تعالى ذلك بقوله تعالى يؤمن بالله اي يصدق
به لما قام عنده من الادلة ويؤمن للمؤمنين اي ويصدقهم ويقبل قولهم ولا يقبل
قول المنافقين فان قيل لم عدي فعل الايمان بالباء الى الله وبالى المؤمنين باللام اجيب
بان ايمان المتعدي الى الله المراد منه التصديق الذي هو نقيض الكفر فعدي بالباء والايمان المتعدي
الى المؤمنين معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم فعدي باللام كما في قوله وما انت بمؤمن
لنا ولو كنا صادقين وقوله فما امن لموسى الا ذرية من قومه وقوله المؤمن لكن وانتفاء الاذن لهم
وقوله ائتمر له فتأمل ان اذن لكم وقرأ نافع اذن بالموضعين بتسكين الذال والباقون
بالرفع ورحمة اي هو رحمة للذين آمنوا منكم اي لمن اظهر الايمان حيث يقبله ولا يكشف سره
وفيه تنبيه على انه ليس يقبل قولكم جهلا لحالكم بل رفقا بكم ورحما عليكم وقرأ حمزة ورحمة
بالجر عطفا على خير والباقون بالرفع ولما بين سبحانه وتعالى كونه سببا للخيرين ان كل
من اذاه استوجب العذاب الاليم بقوله تعالى والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب اليم
اي مؤلم لانه اذا كان يسعى في ايصال الخير والرحمة اليهم مع كونهم في غاية الخبث والخزي
ثم انهم مع ذلك يقابلون احسانه بالاساءة وخيره بالشر وقالوا كما انهم يستخفون
العذاب الشديد من الله ثم ذكر الله تعالى نوعا آخر من قبائح افعال المنافقين بقوله
تعالى يحلفون بالله لكم ايها المؤمنون ليرضوكم اي لتنزضوا عنهم واختلف في سبب نزول
هذه الآية فقال مقاتل والكلبي نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك
فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم اتوا يعتذرون اليهم ويحلفون معاذيرهم بالحلف
ليعذروهم ويرضوا عنهم وقال قتادة والسدي اجتمع اثنا عشر من المنافقين فيهم جلاس
ابن سويد ووديعة بن ثابت فحلفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا ان كان ما يقول
محمد حقا فنحن شر من الحمير وكان عنده غلام من الانصار يقال له عامر بن قيس
فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام وقال والله ما يقول محمد حق وانتم شر
من الحمير ثم اتى النبي صلى الله عليه وسلم فاخبره فدعاهم فسالهم فحلفوا ان عامرا كذب
وحلف عامر انهم كذبة فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو ويقول
اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت والله ورسوله احق ان يرضوه اي احق بالرضا
بالطاعة والوفاق وانما وحد الضمير لانه لا تفاوت بين رضى الله ورضى رسوله لتلازمهما
كقولك احسان زيد واجماله نعشني وخيرني او ان العائد محذوف اي

الذين ما يحتاجون اليه خاطب المنافقين بقوله تعالى الم يعلموا اي من شرايع الدين التي
علمهم رسولنا انه اي الشان من يحادد الله اي من يخالف الله ورسوله واصل المحادة في اللغة
المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحد يقال حاد فلان فلانا اي صار في حد
غير حده كقولك شاقه اي صار في شق غير شقه ومعنى يحادد الله اي يصير في حد غير
حد اوليا الله تعالى بالمخالفة وقوله تعالى فان له نار جهنم على حذف الخبر اي فحق ان له
لان الفا واقعة في جواب الشرط فتقتضي جملة وان له نار جهنم مفرد في موضع رفع على
الابتدا وقدر خبره مقدما لان ان لا يبتدا بها قال الرازي وان معناه فله نار جهنم
وان تكرير للتوكيد واعترض بان فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد باجنبي ثم قال
او جواب من محذوف والتقدير الم تعلموا انه من يحادد الله ورسوله يهلك فان له نار
جهنم خالدا فيها اي دايما من غير انقضا كما كانت نيته المحادة ابدا ثم نبه على عظم هذا
الجزا بقوله ذلك اي الامر البعيد الوصف العظيم الشان الخزي العظيم اي الهلاك الدايم
يحذر اي يخاف المنافقون ان تنزل عليهم اي المومنين سورة تنبئهم اي تخبرهم بما في قلوبهم
اي قلوب المنافقين من النفاق ومن الحسد والعداوة للمومنين كانوا يقولون فيما بينهم
ويستهزون ويخافون الفضيحة بنزول القران في شانهم قال قتادة هذه السورة كانت
تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة اثارت مخازيهم ومثالبهم قال ابن عباس انزل
الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين باسمايهم واسما ابايهم ثم نسخ ذكر الاسما رحمة
على المومنين لئلا يعير بعضهم بعضا لان اولادهم كانوا مومنين قل يا محمد لهولا المنافقين
استهزءوا امر تهديد ان الله مخرج اي مظهر ما تحذرون اخراجه من نفاقكم قال ابن كيسان نزلت
هذه الاية في اثني عشر رجلا من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة
لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به اذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شانه وتنكروا له
في ليلة مظلمة فاخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدروا وامره
ان يرسل اليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن
الطريق فلما نزل قال لحذيفة من عرفت من القوم قال لم اعرف منهم احدا فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم انهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم فقال حذيفة الا تبعث اليهم
فنقتلهم فقال اكره ان تقول العرب لما ظفر باصحابه اقبل يقتلهم بل يكفيناهم الله
ولئن اللام لام قسم سالتهم اي المنافقين عن استهزايهم بك والقران وهم سايرون
معك الى تبوك ليقولن معتذرين انما كنا نخوض ونلعب في الحديث لنقطع به الطريق ولم
نقصد ذلك قال قتادة كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه
ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزان بالقران والرسول والثالث يضحك قيل كانوا
يقولون ان محمدا يزعم انه يغلب الروم ويفتح مداينهم ما ابعده من ذلك وقيل كانوا يقولون
ان محمدا يزعم انه نزل في اصحابنا المقيمين بالمدينة قران وانما هو قوله وكلامه فاطلع الله
تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال احبسوا الركب علي فدعاهم وقال لهم قلتم
كذا وكذا فقالوا انما كنا نخوض ونلعب اي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لنقطع
الطريق بالحديث واللعب قال الله تعالى قل يا محمد لهولا المنافقين ابالله اي بفرايضه

BULAC

وحدوده واحكامه وآياته اي القرآن وسائر ما يدل على الدين الذي لا يمكن تبديله ولا يخفى على بصير
ولا بصيرة ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذي عظمته من عظمته وهو مجتهد في اصلاحكم وتشريفكم
واعلائكم كنتم تستهزئون توبيخا وتقريعا لهم على استهزائهم بما لا يصلح لاستهزائه والزاما
للحجة عليهم ولا تعبأ باعتقادهم الكاذب ولما كان الاستهزاء بذلك كفرا قال تعالى لا تعتذروا
اي لا تشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة قد كفرتم اي اظهرتم الكفر بقولكم هذا بعد ايمانكم
اي بعد اظهار الايمان فان قيل المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى قد كفرتم
بعد ايمانكم اجيب بانهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الايمان فلما حصل ذلك الاستهزاء
منهم وهو كفر فقد اظهروا الكفر بعد ما اظهروا الايمان كما تقرر ان نعف عن طائفة
منكم اي باحداثهم التوبة واخلاصهم الايمان بعد النفاق نعذب طائفة بانهم كانوا
مجرمين اي مصرين على النفاق والاستهزاء قال محمد بن اسحاق الذي عفي عنه رجل واحد وهو
مخشي بن حمير الاشجعي يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض وكان يمشي مجانبا لهم وكان ينكر
بعض ما يسمع والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فيقول خرج فلان الى مكة على الجمال والله
تعالى يقول الذين قال لهم الناس يعني نعيم بن مسعود فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه
وقال اللهم اني لا ازال اسمع آية تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب اللهم اجعل
وفاتي قتلا في سبيلك لا يقول احد انا غسلت انا كففت انا دفنت فاصيب يوم اليمامة
فلم يعرف احد من المسلمين مصرعه وقرأ عاصم نعف بنون مفتوحة وضم الفاء ونعذب طائفة
بنون مفتوحة وكسر الذال وطائفة بالنصب والباقون ان يعف بياء مضمومة ونعذب
بضم التاء وفتح الذال وطائفة بالرفع ثم بين الله تعالى نوعا آخر من انواع فضائحهم وقبائحهم
والمقصود منه بيان ان اناثهم كذكورهم في تلك الاعمال المنكرة والافعال الخبيثة بقوله
تعالى المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض اي متشابهة في النفاق والبعد عن الايمان
كابعاض الشيء الواحد كما يقول الانسان لغيره انا منك وانت مني اي امرنا واحد لا مباينة
فيه يأمرون بالمنكر اي يأمر بعضهم بعضا بالشرك والمعصية وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم
وينهون عن المعروف اي الايمان والطاعة وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم ويقبضون ايديهم
اي عن الانفاق في كل خير من زكاة وصدقة وانفاق في سبيل الله والاصل في
هذا ان المعطي يمد يديه ويبسطها بالعطاء فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده فقبض
اليد كناية عن الشح وهو قوله تعالى نسوا الله فنسيهم لا يمكن اجراؤه على ظاهره لانا
لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذما لان النسيان ليس في وسع البشر
ولخبر رفع عن امتي الخطأ والنسيان وايضا فهو في حق الله تعالى محال فلا بد من التأويل
وهو من وجهين الاول معناه انهم تركوا امره حتى صار بمنزلة المنسي فجازاهم
بان صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته وجاء هذا على مزاوجة الكلام كقوله
تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها الثاني النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله تعالى بالعبادة
والثناء على الله تعالى ترك الله تعالى ذكرهم بالرحمة والاحسان وانما حسن جعل النسيان
كناية عن ترك الذكر لان من نسي شيئا لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم ان
المنافقين هم الفاسقون اي الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ
عن كل خير وكفى المسلم زاجرا ان يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله

تعالى

تعالى به المنافقين حين بالغ في ذمهم وقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم ان يقول كسلت
لان المنافقين وصفوا بالكسل في قوله تعالى كسالى فما ظنك بالفسق ولما بين سبحانه
وتعالى كثيرا من احوال المنافقين والمنافقات وانه نسيهم اي جازاهم على تركهم التمسك
بطاعة الله اكد هذا الوعيد وضم المنافقين الى الكفار بقوله وعد الله المنافقين والمنافقات
والكفار اي المجاهرين في عنادهم يقال وعده بالخير وعدا ووعده بالشر وعيدا نار جهنم خالدين
فيها اي مقدرين الخلود ولا شك ان النار المخلدة من اعظم العقوبات هي حسبهم اي
كافيتهم في العذاب ولعنهم الله اي ابعدهم من رحمته ولما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن
الطويل فيكون بعده فرج نفى ذلك بقوله تعالى ولهم عذاب مقيم اي دائم لا ينقطع
وقوله تعالى كالذين من قبلكم رجوع من الغيبة الى خطاب الحضور والكاف في كالذين
للتشبيه والمعنى وفعلتم كافعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين
الذين كانوا من قبلهم في الامر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الايدي عن فعل الخير
والطاعة ثم انه تعالى وصف الكفار بانهم كانوا اشد من هؤلاء المنافقين قوة واكثر
اموالا واولادا بقوله تعالى كانوا اشد منكم قوة اي بطشا ومنعا واكثر اموالا واولادا
فاستمتعوا بخلاقهم اي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها
عوضا عن الاخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق للانسان وقدر له من خير او شر كما يقال
قسم له فاستمتعتم بخلاقكم اي فتمتعتم ايها المنافقون والكافرون بخلاقكم
فهو خطاب للحاضرين كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ذم الاولين باستمتاعهم بما
اوتوا من حظوظ الدنيا وحرمانهم عن سعادة الاخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ
العاجلة تمهيدا لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء اثرهم ولما بين تعالى مشابهة هؤلاء
المنافقين لاولئك المتقدمين في طلب الدنيا وفي الاعراض عن طلب الاخرة بين حصول
المشابهة بين الفريقين في تكذيب الانبياء وفي المكر والخديعة بقوله تعالى وخضتم
اي ودخلتم في الباطل والكذب على الله وتكذيب رسوله والاستهزاء بالمؤمنين كالذي خاضوا
اي كالذين خاضوا او كالفوج الذي خاضوا او كالخوض الذي خاضوه هذا كله اذا جعلنا
الذي موصولا اسميا فان جعلناه موصولا حرفيا فقدر مع صلته بمصدر اي كخوضهم
والفوج الجماعة فان قيل اي فائدة في قوله فاستمتعوا بخلاقهم وقوله تعالى كما
استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه كما اغنى قوله كالذي خاضوا عن ان يقال
وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا اجيب بان فائدة ذلك ان ذم الاولين بما مر
ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة كما تريد
ان تنبه بعض الظلمة على قبح ظلمه تقول انت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم
ويعذب من غير موجب واما وخضتم كالذي خاضوا فمعطوف على ما قبله مستند
اليه مستغن باسناده اليه عن تلك التقدمة اولئك اي هؤلاء الاشقياء
حبطت اي بطلت اعمالهم في الدنيا اي بزوالها عنهم ونسيان لذاتها والاخرة اي وفي الدار
الباقية لانهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم اعمالهم في الدارين بل يعاقبون عليها
وزاد في التنبيه على بعدهم ما قصدوا لانفسهم من النفع بقوله تعالى اولئك هم
الخاسرون اي الذين خسروا الدنيا والاخرة والمعنى انه كما بطل اعمال الكفار الماضين وخسروا

تبطل اعمالكم اى المنافقون وتخسرون وفى الالتفات الى المقام للخطاب اشارة الى تعذيب
كل سامع من مثل هذه الحالة قال بعض كبار التابعين ادركت ستين ممن راى النبى صلى الله
عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه وذكر ان منا لكا رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد
العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبى يا شيخ قم فاركع
فقام وركع ولم يحاجه بما يراه مذهبا فقيل له فى ذلك فقال خشيت ان اكون من الذين
اذا قيل لهم اركعوا لا يركعون وروى انه صلى الله عليه وسلم قال بيننا وبين المنافقين
شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما وقال تعالى لا يا تون الصلاة الا وهم كسالى
ينظر المنافق الى ما يسقط فيقابل اهل الفضل ويتغاضى عن محاسنهم كما روى ان الله
يبغض التارك لحسنة المرء من الاخذ لسيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوى
اهل المساوى فكيف عما يب اهل المحاسن والمنافق ياخذ من الدين ما ينفع فى الدنيا
ولا ياخذ ما ينفع فى العقبى ويجتنب ما يضر فى الدنيا ولا يجتنب ما يضر فى العقبى
ما لا يضر فى الدنيا ويذكر ان رجلا من صلحا المسلمين دخل كنيسة فقال الراهب فيها
دلنى على موضع طاهر اصلى فيه فقال له الراهب ظهر قلبك مما سواه وقم حيث شئت
قال المسلم فخجلت منه وقوله تعالى الم يا تهم فيه رجوع من الخطاب الى الغيبة اى الم
يات هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير اى قد اتاهم نبا
اى خبر الذين من قبلهم من الامم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف اهلكناهم حين خالفوا
امرنا وعصوا رسلنا والمراد به تعالى المنافقين بالكفار المتقدمين فى الرتبة فى الدنيا
وفى تكذيب الانبياء والمبالغة فى ايذائهم لرسلهم بين منهم ستة طوائف الطائفة الاولى
قوم نوح اهلكوا بالطوفان والثانية عاد وهم قوم هود اهلكوا بالريح والثالثة
ثمود وهم قوم صالح اهلكوا بالرجفة والرابعة قوم ابراهيم اهلكوا بسلب النعمة واهلاك
النمرود ببعوضة سلط الله تعالى عليه ما غفه فقتلته والخامسة اصحاب مدين وهم قوم
شعيب وقيل ابناء من ولد مدين بن ابراهيم اهلكوا بعذاب يوم الظلة والسادسة
المؤتفكات وهى قرى قوم لوط اى اهلها اهلكوا بان جعل الله تعالى عالى ارضهم سافلها
وامطر عليهم الحجارة واما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لان اثارهم باقية وبلادهم
بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من بلاد العرب فكانوا يمرون عليهم ويعرفون
اخبارهم وقوله تعالى اتتهم رسلهم راجع الى الكل هو الطوائف بالبينات اى المعجزات الباهرات
والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا امرنا كما فعلتم ايها الكفار والمنافقون
فاحذروا ان يصيبكم مثل ما اصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم وقرا ابو عمرو ويسكن
السين والباقون بالرفع فما كان الله ليظلمهم بتعجيل العقوبة لهم ولكن كانوا انفسهم
يظلمون حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب ولما بالغ سبحانه وتعالى فى وصف المنافقين
بالاعمال الفاسدة والافعال الخبيثة ثم ذكر عقيبه انواع الوعيد فى حقهم فى الدنيا والاخرة
ذكر بعده صفات المؤمنين بقوله تعالى والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض
فى الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة وهذا فى مقابلة قوله تعالى المنافقون والمنافقات
بعضهم من بعض فان قيل لم قال تعالى فى وصف المنافقين بعضهم من بعض وقال فى وصف
المؤمنين بعضهم اولياء بعض ما الحكمة فى ذلك اجيب بانه لما كان نفاق الاتباع حاصل

بسبب التقليد لاوليك الاكابر بسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم بعضهم من بعض
ولما كانت الموافقة الخالصة بين المومنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة
وهي النفس وصفهم بان بعضهم اوليا بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة وقوله
تعالى يامرون بالمعروف اي بالايمان بالله ورسوله واتباع امره والمعروف كل ما عرف
من الشرع من خير وطاعة وينهون عن المنكر اي الشرك والمعاصي والمنكر كل ما ينكره الشرع
وينفر منه الطبع ومقابله قوله تعالى في المنافقين يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف
ويقيمون الصلاة اي المفروضة ويتمون اركانها وشروطها وقوله تعالى ويؤتون الزكاة
اي الواجبة عليهم في مقابلة قوله تعالى في المنافقين ويقبضون ايديهم المعبر به عن البخل
وقوله تعالى ويطيعون الله ورسوله اي فيما يامرهم به في مقابلة قوله تعالى في المنافقين
نسوا الله فنسيهم ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المومنين
من الرحمة المستقبلة وهي ثواب الاخرة بقوله تعالى اولئك اي المومنين والمومنات الموصوفين
بهذه الصفات سيرحمهم الله بوعد لا خلف فيه ان الله عزيز اي غالب على كل شي لا يمتنع عليه
ما يريده حكيم اي لا يقدر احد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد
على سبيل الاجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى وعد الله المومنين والمومنات جنات
تجري من تحتها الانهار فذكر في هذه الاية ان الرحمة هي هذه الانواع المذكورة في هذه
الاية اولها قوله تعالى جنات تجري من تحتها الانهار اي فهي لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة
ولما كان النعيم لا يكمل الا بالدوام قال خالدين فيها والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الانهار
البساتين التي يجري في حسنها الناظر لانه تعالى قال ومساكن طيبة في جنات عدن
اي اقامة وخلود وهذا هو النوع الثاني فيكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها
والجنات الاخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فايدة المغايرة بين المعطوف
والمعطوف عليه وقد كثر كلام اصحاب الاثار في صفة جنات عدن فقال الحسن سالت
عمران بن الحصين عن قوله تعالى ومساكن طيبة فقال على الخبير سقطت سالت رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال قصر في الجنة من اللولو فيه سبعون دارا من ياقوتة
حمرا في كل دار سبعون بيتا من زمردة خضرا في كل بيت سبعون سريرا على كل سرير
سبعون فراشا على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مايدة على كل مايدة
سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المومن من القوة في
غداة واحدة ما ياتي على ذلك اجمع وعن ابي الدردا قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم عدن دار الله التي لم ترها عين ولم يخطر على قلب بشر اي دار الله التي اعدها لاوليايه
واهل طاعته والمقربين من عباده وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قلت يا رسول
الله حدثني عن الجنة ما بناوها فقال لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك
الاذفر وتربتها الزعفران وحصباوها الدر والياقوت فيه النعيم بلا بوس والخلود
بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه وقال ابن مسعود جنات عدن بطنان الجنة قال
الازهري بطنانها وسطها وقال عطا عن ابن عباس هي قصر في الجنة وسقفها عرش الرحمن وهي
المدينة التي فيها الرسل والانبيا والشهدا وايمة الهدى وساير الجنان حولها وفيها عين التسنيم
وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فيدخل عليهم كثبان

المسكر الاذفر وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما ان في الجنة قصرا يقال له عدن حوله
البروج والمروج له خمسة الاف باب لا يدخله الا نبي او صديق او شهيد وقال الحسن قصر من ذهب
لا يدخله الا نبي او صديق او شهيد او حكم عدل وقال عطاء ابن السائب عدن نهر في الجنة حيطانه
على حافتيه وقال الرازي حاصل الكلام ان في جنات عدن قولين احدهما انه اسم علم لموضع
معين في الجنة وهذه الاخبار والاثار تقوي هذا القول قال في الكشاف عدن علم بدليل
قوله تعالى جنات عدن التي وعد الرحمن عباده والقول الثاني انه صفة الجنة قال
الازهري يقال عدن بالمكان اذا اقام به يعدن عدونا فبهذا الاشتقاق قالوا
الجنات كلها جنات عدن جعلنا الله تعالى ومن يحبه من اهلها واحل علينا رضوانه فانه
المقصود الاعظم كما قال تعالى ورضوان من الله اكبر لانه المبدا لكل سعادة وكرامة والمودي
الى نيل الوصول والفوز بالمقصود روى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال ان الله تبارك وتعالى يقول لاهل الجنة يا اهل الجنة فيقولون لبيك
وسعديك والخير في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون ومالنا لا نرضى وقد اعطيتنا
ما لم تعط احدا من خلقك فيقول الا اعطيكم افضل من ذلك قالوا واي شيء افضل
من ذلك فيقول احل عليكم رضواني فلا اسخط عليكم ابدا وهذا هو النوع الثالث وفيه
بسعة ورضوان بضم الراء وابن كثير بكسرها ذلك اي الرضوان وجميع ما تقدم هو
الفوز العظيم اي الذي يستصغر دونه الدنيا وما فيها ولما وصف تعالى المنافقين بالصفات
الخبيثة وتوعدهم بانواع العقاب وكانت عادة الله تعالى في هذا الكتاب الكريم جارية
بذكر الوعد مع الوعيد لاجرم ذكر عقيبه وصف المومنين بالصفات الشريفة الطاهرة
الطيبة ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجات العالية عاد الى شرح احوال الكفار والمنافقين
بقوله تعالى يا ايها النبي جاهد الكفار اي المجاهرين والمنافقين اي بالشدة عليهم
فان قيل الاية تدل على وجوب مجاهدة المنافقين وهو غير جايز فان المنافق كما مر هو الذي
يستر كفره ويغير بلسانه ومتى كان كذلك لم يجز محاربته ومجاهدته اجيب بانه ليس في اللفظ
الا انه ما يدل على ان ذلك الجهاد بالسيف او باللسان او بطريق اخر وانما يدل على وجوب
الجهاد مع الفريقين وكيفية تلك المجاهدة انما يعرف من دليل اخر وقد دلت الدلايل المنفصلة
على ان المجاهدة مع الكفار يجب ان يكون بالسيف ومع المنافقين باللسان والحجة وحمل السلف
الحسن جهاد المنافقين على اقامة الحدود عليهم اذا ارتكبوا اسبابها قال القاضي وهذا ليس
بشيء لان اقامة الحد واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق ولما كان نبينا
صلى الله عليه وسلم مطبوعا على الرفق قال تعالى واغلظ عليهم اي الانتهار والمقت في الجهاد دون ما
نعاملهم به من اللين عند استدراجهم الى العقود وهذا بخلاف ما مضى وعيد
المنافقين حيث قدم لهم هناك المنافقون والمنافقات والكفار فقدم في كل سياق الايق
به ومأواهم اي مسكنهم في الاخرة جهنم وبئس المصير اي المرجع هي يحلفون اي المنافقون
بالله ما قالوا اي ما بلغك عنهم من السب والمعنون ذكروا في اسباب نزول هذه الاية
وجوها الاول روي انه عليه الصلاة والسلام اقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن
ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد لين كان ما يقول محمد في اخواننا الذين خلفناهم
بالمدينة حقا لنحن شر من الحمير فقال عامر بن قيس الانصاري للجلاس اجل والله ان محمدا

صادق وانت شر من الحمار فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما استحضر فحلف بالله ما قاله فرفع عامر يده وقال اللهم انزل على عبدك وبنيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزلت فقال الجلاس لقد ذكر الله التوبة في هذه الآية ولقد قلت هذا الكلام وصدقها ثم تاب وحسنت توبته الثانية انها نزلت في عبد الله بن ابي لما قال لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل واتى به الرسول صلى الله عليه وسلم فسمع زيد بن ارقم ذلك فبلغه للنبي صلى الله عليه وسلم فهم عمر رضي الله تعالى عنه بقتل عبد الله بن ابي فجاء عبد الله عبد الله بن ابي وحلف انه لم يقل الثالث ردي فتادة ان رجلين اقتتلا احدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفا الانصار فيظهر الجهني على الغفاري فقال عبد الله بن ابي للاوس انصروا اخاكم فوالله مثلنا ومحمد الا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك فسعى بها رجل من المسلمين الى النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليه فسأله بالله ما قاله فنزلت **ولقد قالوا كلمة الكفر** وهي سب النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هي كلمة الجلاس بن سويد وقيل هي كلمة عبد الله بن ابي **وكفروا بعد اسلامهم** اي واظهروا الكفر بعد اظهارهم الاسلام **وهموا بما لم ينالوا** اي من قتل النبي صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك فوافق خمسة عشر منهم اذا تسنم العقبة اي علاها بالليل فاخذ عمار بن ياسر بخطام ناقة نبيها وحذيفة يسوقها فبينما هما كذلك اذ سمع حذيفة وقع اخفاف الابل وبقعقعة السلاح فالتفت فاذا قوم متلثمون فقال اليكم اليكم يا عباد الله فهربوا وقيل تم المنافقون هموا بقتل عامر حين رد على الجلاس وقيل اراد وا ان يوقعوا بعبد الله بن ابي وان لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم **وما نقموا** اي ما انكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا **الا ان اغناهم الله ورسوله من فضله** فان اكثر اهل المدينة كانوا فقراء قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحرزون الغنيمة وبعد قدومه ماخذ والغنائم وفازوا بالاموال ووجدوا الدولة وذلك يوجب ان يكونوا مجبورين له محمدين في بذل النفس والمال لاجله وقيل للجلاس مولى فانزله رسول صلى الله صلى الله عليه وسلم بديته فاثرى واتى عشر الفا فاستغنى فالمنافقون عدوا ايضا الواجب فوضعوا موضع شكر النبي صلى الله عليه وسلم ان تمموا عليه وقال ابن قتيبة معناه ليس هناك شيء ينقمون منه ولا يعتبرون من الله الا الصنع وهذا كقول الشاعر ما نقموا من بني امية الا انهم يحلمون ان غضبوا ويكرم الناس ان جفوا وعيب فيهم غير ان سيوفهم لهن فلول من قراع الكتائب اي ليس فيهم عيب **فان يتوبوا** اي من كفرهم ونفاقهم **يك خيرا لهم** في العاجل والاجل من اصرارهم على ذلك وهذا الذي حمل الجلاس على التوبة والصبر في يك للجزم به **وان يتولوا** اي يعرضوا عن الايمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر **يعذبهم الله عذابا اليما في الدنيا** بالقتل والاسر والاذلال **والآخرة** بالعذاب الاكبر الذي لا خلاص لهم منه وهو خلودهم في النار **وما لهم في الارض** اي التي لا يعرفون غيرها يستقبل لهم **من ولي** يحفظهم منه **ولا نصير** ينعهم وانما لهم اقل من ان يطمعوا منه في شيء اصلا وغير لفظ الغيبة اذ سياق ان يرتقي فكرهم الى ما لها من العجائب وما بها من الجنود واعلم ان هذه السورة اكثرها في شرح احوال المنافقين ولما كانوا اقساما واصنافا فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل فيقول تعالى ومنهم الذين يلوذون النبي ومنهم من يلمزك

في الصدقات ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله
لنصدقن فيه ادغام التاء في الاصل في الصاد ولنكونن من الصالحين قال ابن عباس ان
ثعلبة بن حاطب ابطا عنه ماله بالشام فلحقه شدة فحلف بالله وهو واقف ببعض مجالس
الانصار لئن آتانا من فضله لاصدقن ولاودين منه حق الله والمشهور في سبب نزول
هذه الاية ان ثعلبة بن حاطب الانصاري قال يا رسول الله ادع الله ان يرزقني
مالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه
فراجعه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اما لك في رسول الله اسوة حسنة والذي
نفسي بيده لو اردت ان تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت ثم اتاه بعد ذلك وقال
يا رسول الله ادع الله ان يرزقني مالا والذي بعثك بالحق نبيا لئن رزقني الله
مالا لاعطين كل ذي حق حقه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالا فاتخذ
غنما فنمت كما ينمي الدود حتى كثرت ونزل بها واديا من اودية المدينة واشتغل بها
حتى صار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه باقي الصلوات
ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة ايضا فصار لا يشهد الا الجمعة ثم كثرت ونمت
حتى تباعد عن المدينة ايضا فصار لا يشهد لا جمعة ولا جماعة فكان اذا كان
يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الاخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذات يوم فقال ما فعل ثعلبة فقالوا يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنما ما
يسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح ثعلبة ثلاثا فنزلت اية
الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لاخذ الصدقة وكتب لهما
اسباب الصدقة وكيف ياخذان وقال لهما مرا بثعلبة وخذا صدقاته فاتياه وسالاه
الصدقة واقراه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه الا جزية او اخت الجزية
انطلقا حتى تفرغا ثم عودا الي فانطلقا فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا اليه فقال
كمقالته الاولى ولم يدفع اليهما شيئا فرجعا الى النبي صلى الله عليه وسلم واخبراه بالذي صنع
ثعلبة فانزل الله تعالى هذه الاية وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من اقارب
ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى اتاه فقال ويحك يا ثعلبة قد انزل الله تعالى فيك كذا وكذا
فخرج ثعلبة حتى اتى النبي صلى الله عليه وسلم وساله ان يقبل صدقته فقال ان الله
منعني ان اقبل صدقتك فجعل يحثو على راسه التراب فقال صلى الله عليه وسلم قد قلت
كذا فما اطعتني فرجع الى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الى ابي
بكر فلم يقبلها ثم جاء بها الى عمر في ايام خلافته فلم يقبلها فلما ولي عثمان اتاه فلم يقبلها
وهلك ثعلبة في خلافة عثمان فان قيل العبد اذا تاب تاب الله تعالى عليه فلم ذا
منع الله تعالى من قبول صدقته اجيب بان الله تعالى لما قال خذ من اموالهم
صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وكان هذا المقصود غير حاصل في ثعلبة مع نفاقه
فلهذا السبب امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من اخذ تلك الصدقة قال الله تعالى
فلما آتاهم من فضله بخلوا به اي منعوا حق الله تعالى منه وتولوا عن طاعة الله وهم
معرضون اي عن طاعة الله تعالى فاعقبهم اي صير عاقبتهم نفاقا متمكنا في قلوبهم
الى يوم يلقونه اي الله وهو يوم القيامة بما اخلفوا الله ما وعدوه اي بسبب اخلافهم

ما وعدوه

ما وعدوه من التصدق والصلاح لان الجزاء من جنس العمل وبما كانوا يكذبون اي يحددون الكذب
دائما مع الوعد ومنفكا عنه فقد استكملوا النفاق عاهدوا فغدروا ووعدوا فاخلفوا وحدثوا
فكذبوا وقد قال صلى الله عليه وسلم آية اي علامة المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد
اخلف واذا ائتمن خان الم يعلموا اي المنافقون ان الله يعلم سرهم اي ما اسروه في انفسهم
من النفاق والعزم على خلاف ما وعدوه ونجواهم اي ما تناجوا به بينهم من المطاعن في الدين
وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها فكيف يتجرون على النفاق الذي الاصل فيه الاستسرار
والتناجي فيما بينهم مع علمهم بانه تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر وانه يعاقب عليه
كما يعاقب على الظاهر وان الله علام الغيوب والعلام مبالغة في العالم والغيب والغيب
ما كان غائبا عن الخلق فكيف يمكن الاخفاء منه وقوله تعالى الذين مبتدا يلمزون اي
يعيبون المطوعين اي المتنفلين من المؤمنين اي الراسخين في الايمان في الصدقات والذين
لا يجدون الا جهدهم اي طاقتهم فياتون به فيسخرون منهم اي يستهزؤن بهم سخر الله
منهم اي جازاهم على سخريتهم ولهم عذاب اليم على كفرهم وهذا نوع اخر من اعمال
المنافقين القبيحة وهو لمزهم لمن ياتي بالصدقات روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
خطب ذات يوم وحث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف باربعة الاف درهم وقال
يا رسول الله مالي ثمانية الاف درهم جئتك باربعة الاف درهم فاجعلها في سبيل الله وامسكت
اربعة الاف لعيالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بارك الله لك فيما اعطيت وفيما
امسكت فبارك الله تعالى في مال عبد الرحمن حتى انه خلف امراتين يوم مات فبلغ ثمن
ماله لهما مائة وستين الف دينار وجاء عاصم بن عدي الانصاري بسبعين وسقا من تمر
وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة وجاء ابو عقيل الانصاري بصاع من تمر وقال اجرت
الليلة الماضية نفسي من رجل لارسال الماء الى نخله فاخذت صاعين من تمر فامسكت احدهما
لعيالي واتيتك بالاخر فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه في الصدقات فلمزهم
المنافقون فقالوا ما اعطى عبد الرحمن وعاصم الا رياء والله ورسوله لغنيان عن صاع
ابي عقيل ولكنه احب ان يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقة فنزلت وقوله تعالى
استغفر لهم يا محمد ان تستغفر لهم تخيير له صلى الله عليه وسلم في الاستغفار وتركه
قال صلى الله عليه وسلم اني خيرت فاخترت يعني الاستغفار رواه البخاري ان تستغفر
لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم روي ان عبد الله بن عبد الله بن ابي وكان
من المخلصين سال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض ابيه ان يستغفر له ففعل فنزلت
فقال عليه الصلاة والسلام سازيدن على السبعين وذلك لانه صلى الله عليه وسلم فهم
من السبعين العدد المخصوص لانه الاصل لجواز ان يكون ذلك حدا يخالفه حكم ما وراءه
فبين تعالى ان المراد به التكثير دون التحديد وانما خصت السبعين من العدد بالذكر
لان العرب كان يستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة
رضي الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولان احاد السبعين سبع وهو عدد شريف فان السموات
سبع والارضين سبع والايام سبع والاقاليم سبع والبحار سبع والنجوم سبع وقد
شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير لاستعمال السبعة على
جملة اقسام العدد اي عدد مراتبه الاصلية والفرعية مع ذكر اولى مراتب فروع فروعه

وهي سبعة احاد عشرات مبين احاد الوف عشرات الوف مبين الوف احاد الوف الوف وقوله تعالى
ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله اشارة الى ان الياس من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل
منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها والله لا يهدي القوم الفاسقين
اي المتمردين في كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبي صلى الله عليه وسلم في استغفاره وهو عدم ياسه عن ايمانهم
ما لم يعلم انهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى ما كان
للنبي والذين امنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم
فرح المخلفون عن غزوة تبوك بمقعدهم اي بقعودهم فهو اسم للمصدر خلاف رسول الله
هذا نوع اخر من قبائح اعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد والمخلف المتروك
ممن مضى فان قيل انهم احتالوا حتى تخلفوا فكانوا متخلفين لا مخلفين اجيب بان من
تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه الى الجهاد مع المومنين يوصف بانه تخلف
حيث لم ينهض واقام تنبيه قوله تعالى خلاف فيه قولان الاول وهو قول الزجاج بمعنى مخالفة
لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار واقاموا قال وهو منصوب لانه مفعول له والمعنى بان
قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني قال الاخفش ان خلاف بمعنى خلف ومعناه
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم
في سبيل الله تعريض للمومنين بتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل
انفسهم واموالهم وايثارهم ذلك على السكون والراحة وكره ذلك المنافقون وكيف لا يكرهون
وما فيهم ما في المومنين من باعث الايمان وداعي الايقان وقالوا اي قال بعضهم لبعض او قالوا
للمومنين تثبيطا لا تنفروا اي لا تخرجوا الى الجهاد في الحر وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فاجاب
الله تعالى عن هذا بقوله تعالى قل اي يا محمد لهولاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك
عن الجهاد في الحر نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون اي يعلمون ان بعد هذه الدار دار
اخرى وان بعد هذه الحياة حياة اخرى وان هذه مشقة منقضية وتلك مشقة باقية
ما تخلفوا ولبعضهم مسرة احقاب تلقيت بعدها يوم اربها شبه الصاب
فكيف بان تلقى مسرة ساعة وراء تقضيها مساة احقاب وقوله تعالى فليضحكوا قليلا
وليبكوا كثيرا اي في الاخرة وراء بصيغة الامر ومعناه الاخبار بانه سيحصل لهم هذه
الحالة ودليل ذلك قوله تعالى جزاء بما كانوا يكسبون اي ان ذلك البكاء في الاخرة جزاء لهم على
ضحكهم واعمالهم الخبيثة في الدنيا روي ان اهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقا لهم
دمع ولا يكتحلون بنوم ففرحهم وضحكهم طول اعمارهم في الدنيا قليل بالنسبة الى الاخرة
لان الدنيا فانية والاخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة الى الدائم الباقي قليل روي
عن انس انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا ايها الناس ابكوا فان لم
تستطيعوا فتباكوا فان اهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كانها جداول
حتى تنقطع الدموع فتسيل الدما فتفرغ العيون حتى لو ان سفنا اجريت فيها لجرت
وقال البيضاوي ويجوز ان يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغم والمراد من القلة
العدم فان رجعك اي ردك الله من غزوة تبوك الى طائفة منهم اي ممن تخلف بالمدينة
من المنافقين وانما قال الى طائفة منهم لان منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف واعتذر
بعذر صحيح وقيل لم يكن المخلفون كلهم منافقين واراد بالطائفة المنافقين منهم فاستاذنوك

للخروج

للخروج معك الى غزوة اخرى بعد تبوك فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على
نفاقهم لن تخرجوا معي أبدا اي في سفر من الاسفار ان الله تعالى قد اغناني عنكم واحوجكم الى
أنكم رضيتم بالقعود أول مرة تعليل له وكان استصوابهم عن بوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم
واول مرة هي الخرجة الى غزوة تبوك فاقعدوا مع الخالفين اي المتخلفين عن الغزو من النساء
والصبيان وغيرهم قال الرازي واعلم ان هذه الاية تدل على ان الرجل اذا اظهر من بعض اخوانه
مكرا وخداعا وارادا مشورة فيما نفاقي تقرير موجبا ته فانه يجب عليه ان يقطع العلقة بينه
وبينه وان يحترز عن مصاحبته ولما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين
من الخروج معه الى الغزوات اذ لا اهم امره بمنع الصلاة على من مات منهم اذ لا اهم
ايضا بقوله تعالى ولا تصل على احد منهم مات ابدا روي ان ابن ابي رأس المنافقين دعى
النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه فلما دخل عليه النبي صلى الله عليه
وسلم في مرضه الذي مات فيه حضره وجعل عليه النبي صلى الله عليه وسلم يسأله ان
يصلي عليه واذا مات يقوم على قبره ثم أرسل الى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه
قميصه ليكفن فيه فارسل اليه القميص العوقاني فرده وطلب الذي يلي جلده ليكفن
فيه فقال عمر رضي الله تعالى عنه لم نقط قميصك الرجس النجس فقال صلى الله عليه وسلم
ان قميصي لا يغني عنه من الله شيأ واني ارجو ان الله ان يدخل في الاسلام كثيرا بهذا
السبب فروي انه اسلم الف من الخزرج لما راوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلما مات جاء ابنه يعرفه وكان ابنه صحابيا مسلما خالصا صالحا
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل عليه وادفنه فقال الم تنهى ان تصلي عليه يا رسول الله
لم يصل عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه فقام عمر رضي الله تعالى عنه
بينه وبين القبلة فنزلت هذه الاية واخذ جبريل عليه السلام بثوب النبي صلى
الله عليه وسلم وقال لا تصل على احد منهم مات ابدا قال عمر فعجبت من جرأتي على النبي
صلى الله عليه وسلم يومئذ وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضي الله تعالى
عنه ولذلك ان الوحي ينزل وفق قوله في آيات كثيرة منها اية اخذ الفداء عن اسارى
بدر وقد سبق شرحه ومنها اية تحريم الخمر ومنها اية تحويل القبلة ومنها اية امر النساء بالحجاب
ومنها هذه الاية فصار نزول الوحي على طبق قول عمر فنصها عالما وله درجة
رفيعة في الآخرين ولهذا قال له حفصة عليه الصلاة والسلام لو لم أبعث
لبعثت يا عمر نبيا وانما لم يصل صلى الله عليه وسلم على المنافقين والقميص ونهى عن
الصلاة عليهم لان الصلاة شفاعة والكافر بالكفر لا يستحق الشفاعة بل
بقوله تعالى وانما السائل فلا تنهر ولان ابنه كان بالوصف المتقدم فاكرمه
النبي صلى الله عليه وسلم لمكان ابنه ولان الرحمة والرافة كانت غالبة عليه صلى الله عليه
وسلم ولانه كانت مكافاة لابا سيدنا العباس قميصه حين كان اسيرا ببدر والمراد من
الصلاة الدعا للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكافر فالمراد بالواحد مات
لا موضع جر لانه صفة للنكرة كانه قيل على احد منهم ميت وقوله ابدا متعلق بقوله
احد والتقدير ولا تصل ابدا على احد منهم منعا كليا دائما وقال البيضاوي مات ابدا
يعني الموت على الكفر فان احيا الكافر للتعذيب لا للتمتع فكانه لم يحي واختلف في تفسير

قوله تعالى ولا تقم على قبره فقال الزجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دفن الميت
وقف على قبره ودعا له فمنع هاهنا منه وقال الكلبي لا تقم لاصلاح مهمات قبره وهو من قولهم قام
فلان بامر فلان اذا كفاه امره وتولاه وقيل لا تقم عند قبره لدفن او زيارة والاول اولى لان النهي
للتحريم ثم انه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى انهم كفروا بالله
ورسوله وماتوا وهم فاسقون اي كافرون يعني لم يتوبوا قبل موتهم من كفرهم فسقط بذلك
ما قيل ان الفسق ادنى من الكفر فما الفائدة في وصفهم بعد ذلك بالفسق واجيب ايضا بان الكافر
قد يكون عدلا في دينه وقد يكون فاسقا فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد ان وصفه بالكفر
تنبيها على ان طريقة النفاق مذمومة عند كل اهل العالم فان قيل كيف هم صلى الله عليه وسلم ان يصلي
على هذا المنافق مع قيام الكفر به وقيل انه صلى عليه اجيب بان التكاليف مبنية على قوله
صلى الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر فانه كان ظاهره الاسلام فلما اعلمه
تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض ولا تعجبك اموالهم
واولادهم انما يريد الله ان يعذبهم بها في الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون سبق ذكر هذه
الاية في هذه السورة بعينها ولكن حصل بينهما تفاوت في الفاظ اربعة اولها ان في الاية
المتقدمة فلا تعجبك بالفاء وههنا بالواو لان الاية الاولى ذكرت بعد قوله تعالى ولا ينفقون
الا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للانفاق وانما كرهوا ذلك الانفاق لكونهم
معجبين بكثرة تلك الاموال والاولاد فلهذا المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الاعجاب بها التعقيب
واما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو ثانيها انه قال تعالى في الاية الاولى
فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم وههنا لا محذوفة لان مثل هذا الترتيب يبدا فيه
بالادون ثم يترقى الى الاشرف فيقال لا تعجبني امر الامير ولا امر الوزير وهذا يدل على
انه كان اعجاب اولئك الاقوام باولادهم فوق اعجابهم باموالهم وهذه الاية تدل
على عدم التفاوت بين الامرين عندهم ثالثها انه قال تعالى هناك انما يريد الله ليعذبهم
وههنا قال انما يريد الله ان يعذبهم فالفائدة فيه التنبيه على ان التعليل في احكام
الله تعالى محال وانه انما ورد حرف التعليل ومعناه ان كقوله تعالى وما امروا الا ليعبدوا
الله اي وما امروا الا بان يعبدوا الله رابعها انه ذكر في الاية الاولى في الحياة الدنيا وههنا
اسقط لفظ الحياة تنبيها على ان الحياة الدنيا بلغت في الخسة الى انها لا تستحق ان تسمى حياة
بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال دناءتها قال الرازي فهذه وجوه
في الفرق بين هذه الالفاظ والعالم بحقائق القران هو الله تعالى فان قيل ما الحكمة في التكرير
اجيب بان اشد الاشياء جذبا للقلوب وطلبا للخواطر الى الاشتغال بالدنيا هو الاشتغال
بالاموال والاولاد وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد اخرى في المطلوبية والمرغوبية
كما اعاد تعالى قوله في سورة النساء ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء
مرتين وقيل انما كرر هذا المعنى لان الاية الاولى في قوم منافقين لهم اموال واولاد
في وقت نزولها وهذه الاية في قوم اخرين والكلام الواحد اذا احتيج الى ذكره مع اقوام
كثيرين في اوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنيا عن ذكره مع اخرين وقوله تعالى
واذا انزلت سورة يحتمل ان يراد بالسورة تمامها وان يراد بعضها اي طائفة من القران وقيل
المراد بالسورة سورة براءة لان فيها الامر بالايمان والجهاد ان امنوا بالله اي بان امنوا ويجوز

ان تكون ان المضمرة وجاهدوا مع رسوله فان قيل كيف يامر المومنين بالايمان فان لم يكن تقتضي
الامر بتحصيل الحاصل وهو محال اجيب بان معناه الدوام على الايمان والجهاد في المستقبل وقيل
هذا الامر وان كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون اي اخلصوا الايمان
بالله وجاهدوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم وانما قدم الامر بالايمان على الامر بالجهاد لان الجهاد
بغير ايمان لا يفيد شيا ثم حكى الله تعالى عن عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى
استاذنك اولوا الطول منهم فالطول عباس يعني اهل الغنى وهم اهل القدرة والثروة
والسعة من المال وقيل يعني رؤساء المنافقين وكبارهم وقالوا اي اولوا الطول ذرنا
نكن مع القاعدين اي الذين تخلفوا والعذر كالمرض والزمنى وقيل مع النساء والصبيان ثم ذمهم
الله تعالى بقوله رضوا بان يكونوا مع الخوالف جمع خالفة اي النساء اللاتي تخلفن في البيوت
وقيل الخوالف الدنيا الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه اذا كان دونهم وانما خص
اولوا الطول بالذكر لان الدم لهم لازم لاجل كونهم قادرين على السفر والجهاد واما من لا مال له
ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج الى الاستيذان فقال المفسرون كان يصعب على المنافقين
تشبيههم بالخوالف وطبع اي وختم على قلوبهم اي هو لاء المنافقين فهم لا يفقهون اي لا
يعلمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاوة والهلاك ولما شرح سبحانه
وتعالى حال المنافقين من التزاريعن الجهاد بين ان حال الرسول والذين امنوا معه بالضد منه
بقوله لكن الرسول والذين امنوا معه جاهدوا باموالهم وانفسهم اي بذلوا المال
والنفس في طلب رضوان الله تعالى والتقرب اليه وفي قوله تعالى لكن قاعدة وهو ان
الضد يذكر بعد ضده لما ان تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو فقد توجه اليه من هو خير منهم واخلص نية
واعتقادا كقوله تعالى انكروا بها هو لا فقد وكلنا بها قوما ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة الى
الجهاد وذكر ما حصل لهم من الفوايد والمنافع وهو انواع اولها ما ذكره بقوله تعالى واولئك
لهم الخيرات اي منافع الدارين النصرة والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الاخرة وقيل
الخيرات الحور الحسان لقوله تعالى فيهن خيرات حسان ثانيها ما ذكره بقوله تعالى
واولئك هم المفلحون اي الفايزون بالمطالب المتخلصون من العقاب والعتاب
وثالثها ما ذكره بقوله تعالى اعد الله لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها
ذلك الفوز العظيم هذا بيان ما لهم من الخيرات الاخروية وجاء المعذرون بادغام
التاء في الاصل في الذال اي المعتذرون بمعنى المعذورون من الاعراب الى النبي صلى
الله عليه وسلم ليوذن لهم فاذن لهم واختلفوا في هو لا المعذورين
فقيل هم اسد وغطفان قالوا ان لنا عيالا وان بنا جهدا فاذن لنا في التخلف وقيل هم
رهط عامر بن الطفيل قالوا ان غزونا معك اغارت اعراب على اهالينا وموا شينا
فقال صلى الله عليه وسلم سيغنيني الله عنكم وقيل نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم
الله تعالى وعن قتادة اتوا كذبوا والاعتذار كلام العرب على قسمين تقول
اعتذرت اذا كذبت في عذر ومنه قوله تعالى يعتذرون اليكم اذا رجعتم اليهم فرد
الله تعالى عليهم بقوله تعالى قل لا تعتذروا فدل ذلك على انهم اعتذروا بعذر لم وكذبهم
فيه وقيل اعتذر اذا اتى بعذر صحيح كما في قول لبيد ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر
يريد فقد جاء بعذر صحيح وقيل هو التقصير يقال عذر يعذر

اذا حضروا ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل انهم كانوا صادقين في اعتذارهم وانهم كانوا كاذبين ومن المفسرين من قال انهم كانوا صادقين بدليل انه تعالى لما ذكر قال بعده وقعد الذين كذبوا الله ورسوله اي في ادعاء الايمان ثم منا فتى الاعراب عن المجيء للاعتذار فلما فصل بينهم وبينهم عن الكاذبين وذلك على انهم ليسوا كاذبين ويروى عن عمرو بن العلا انه لما قيل له هذا الكلام فقال ان افواما كلفوا اعذارا بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذرون وتخلف اخرون لا العذر والشبهة عذر جرأة على الله تعالى وبهم المراد بقوله تعالى وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم اي من الاعراب او من المعذرون فان منهم من اعتذر بكسله لا لكفره عذاب اليم في الدنيا بالقتل وفي الاخرة بالنار والمباين سبحانه وتعالى الوعيد في حق من تقدم العذر مع انه لا عذر له دكرا صحابا للاعذار الحقيقية وبين ان تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى ليس على الضعفاء كالشيوخ ومن خلق في اصل الفطرة ضعيفا ولا على المرضى كالزمنى والعرج والعمي ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون من الجهاد خرج اي اثم في التخلف عنه منفي سبحانه وتعالى عن هذه الاقسام الثلاثة الحرج فيحتمل ان يتخلفوا عن الغزو وليس في الاية تبيان انه حرم عليهم الخروج لان الواحد من هؤلاء الخروج ليعين المجاهدين بعذار قدرته على الحفظ متاعهم او لتكثير سوادهم بشرط ان لا يجعل نفسه كلا وبالا عليهم كان ذلك طاعة بمقتضاه ثم انه سبحانه وتعالى شرط لجواز هذا التاخر عن الغزو شرطا فيه بقوله اذا نصحوا لله ورسوله في حال قعودهم بالايمان والطاعة في السر والعلانية وان يحترزوا عن القاء الارجافات وعن اثارة الفتن ويسعوا في ايصال الخبر الى المجاهدين الذين سافروا اما ان يقوموا باصلاح مهمات بيوتهم واما ان يسعوا في ايصال الاخبار السارة من بيوتهم اليهم فان حملنا هذه الاعذار على ما يجري الاعانة على الجهاد وقوله تعالى ما على المحسنين في موضع ما عليهم لبيان احسانهم بنصحهم مع عذرهم من سبيل اي طريق الى تعنيفهم او لعقابهم والمعنى انه ستر باحاطة طريق العقاب ومن اعظم الاحسان من شهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله مخلصا من قلبه فان ما عليهم من سبيل في نفسه وبالجملة لا ناجحة الشرع بدليل منفصل اذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب والمحسن هو الاتي بالاحسان ورأس ابواب الاحسان ورئيسها هو قول لا اله الا الله محمد رسول الله والله غفور اي محا للذنوب رحيم اي بجميع عباده وفي ذلك اشارة الى ان الانسان محل التقصير وان اجتهد فلا يسعه الا العفو ولما ذكر سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء وبين انه يجوز لهذا التخلف عن الجهاد بشرط ان يكونوا ناصحين لله ورسوله ومن كونهم محسنين وانه ليس لاحد عليهم سبيل ذكر قسما رابعا من المعذورين بقوله تعالى ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم الى الغزو وتقدم البكاؤون سبعة من الانصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل وعلبة بن زيد اتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ابد لنا الخروج اي اشرعنا حاملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو افقال النبي صلى الله عليه وسلم لا احد ما احملكم عليه تولوا وهم يبكون ولذلك سموا بكائين وقيل هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة اخوة معقل وسويد والنعمان وقيل ابو موسى واصحابه وقيل نزلت في العرباض بن سارية ويحتمل انها نزلت في كل من ذكر

وقوله

وقوله تعالى تلبث لا أحد مما أحملكم عليه حال من الكاف في أتوك باضمار قد وقوله تعالى قولوا
جواب اذا وأعينهم تفيض اى تسيل دمع البيان دمع قال وبين للبيان كقولك افديك
من رجل وهو ابلغ من تفيض دمعها لانه يدل على ان العين صارت دمعا فياضا وقوله تعالى
حزنا منصوب على العلة وقوله تعالى ألا يجدوا اى ليلا يجدوا والمحل نصب على انه مفعول له
وناصبه المفعول له الذى هو حزنا ما ينفقون فى الجهاد ولما قال تعالى ما على المحسنين من سبيل
قال لى حق من يعتذر ولا عذر له إنما السبيل اى انما يتوجه الطريق بالعقوبة على الذين
يستأذنونك يا محمد فى التخلف عنك والجهاد وهم أغنياء اى قادرون على اهبة الخروج معك وقوله
تعالى رضوا بأن يكونوا مع الخوالف الخ استئناف كأنه قيل ما بالهم استأذنوا وهم اغنياء فقيل
رضوا بالدناءة والضعة والانتظام فى جملة الخوالف وهم النساء والصبيان وطبع الله على قلوبهم
اى ولاجل ذلك الطبع قال الله تعالى فهم لا يعلمون اى ما فى الجهاد من منافع الدارين اما فى الدنيا
فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو واما فى الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذى لا ينقطع
يعتذرون اى هؤلاء المنافقين إليكم اى فى التخلف إذا رجعتم من الغزو إليهم بالاعذار الكاذبة
الباطلة والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم وانما ذكر بلفظ الجمع تعظيما له ويحتمل ان يكون له وللمؤمنين
يروى انا الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع رسول
الله صلى الله عليه وسلم جاءوا يعتذرون اليه بالباطل قال الله تعالى قل لهم يا محمد لا تعتذروا
بالمعاذير الباطلة لن نؤمن لكم اى لن نصدقكم فيما اعتذرتم به وقوله قد نبأنا الله اى اعلمنا الله
من أخباركم اى بعض اخباركم التى انتم عليها من الشر والفساد على الانتقاض منهم لان الله تعالى
اذا اوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم الاعلام باحوالهم وما هم عليه من الشر والفساد لم يستقم
مع ذلك نقضه بنتهم فى معاذيرهم وسيرى الله عملكم ورسوله اى انتوبون من نفاقكم أم
تقيمون عليه ثم ترددون اى بالبعث الى عالم الغيب والشهادة اى العالم لكل المطلع على ما فى
ضمائركم من الخيانة والكذب واخلاف الوعد وغير ذلك من الخبائث التى انتم عليها فينبئكم
بما كنتم تعملون فيجازيكم عليه سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اى رجعتم اليهم من تبوك
انهم معذورون فى التخلف لتعرضوا عنهم اى لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم فأعرضوا عنهم
اى فدعوهم وما اختاروا لانفسهم من النفاق قال ابن عباس يريد ترك الكلام والسلام قال
مقاتل قال النبى صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم فانهم اهل نفاق
هو لا طلبوا اعراض الصفح فاعطوا اعراض المقت ثم ذكر الله تعالى علة الاعراض عنهم بقوله
تعالى إنهم رجس اى قذرة خبيثة باطنهم فما يجب الاحتراز عن النجاسة الجسمانية يجب الاحتراز
عن الارجاس الروحانية خوفا من سريانها الى الانسان وحذرا من ان يميل طبع الانسان
الى تلك الاعمال وقوله تعالى ومأواهم جهنم من تمام العلة بما كانوا يكسبون
من الاعمال الخبيثة فى الدنيا واختلف فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس نزلت
فى الجلاس بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهما كانوا ثمانين رجلا من المنافقين وقال النبى صلى
الله عليه وسلم حين قدم المدينة لا تجالسوهم ولا تكلموهم وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن
ابى حلف للنبى صلى الله عليه وسلم بالله الذى لا اله الا هو لا تخلف عنه بعدها وطلب النبى
صلى الله عليه وسلم ان يرضى عنه فانزل الله تعالى هذه الآية ونزل يحلفون لكم لترضوا عنهم
اى يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون لهم

BULAC

فان ترضوا عنهم اي فان رضيتم عنهم ايها المومنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم فان الله لا يرضى
عن القوم الفاسقين لانه تعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم والمقصود
من الاية عدم الرضى عنهم والاعتذار بمعاذيرهم بعد الامر بالاعراض وعدم الالتفات نحوهم ونزل
في سكان البادية الاعراب اي اهل البدو اشد كفرا ونفاقا اي من اهل الحضر لجفائهم وغلظ
طباعهم وبعدهم عن اهل العلم وقلة استماعهم للكتاب والسنة واستيلاء الهوا الحار اليابس عليهم
وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم وليسوا تحت سياسة سائس يسر
ولا تاديب مؤدب ولا ضبط ضابط فساوا كما شاوا ومن كان كذلك خرج على اشد الجهات نفاقا
ولو قابلت الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لعرفت الفرق بين اهل الحضر واهل البادية
قال العلما من اهل اللغة يقال رجل عربي اذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب كما يقال مجوسي
ويهودي ثم يحذف يا النسب في الجمع فيقال المجوس واليهود ورجل اعرابي بالالف اذا كان بدويا
يطلب مساقط الغيث والكلا سوا كان من العرب ام من مواليهم ويجمع الاعرابي على الاعراب
والاعاريب والاعرابي اذا قيل له يا عربي فرح والعربي اذا قيل له يا اعرابي غضب له فمن استوطن
القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم اعراب والذي يدل على الفرق بينهما انه صلى الله عليه
وسلم قال حب العرب من الايمان واما الاعراب فقد ذمهم الله تعالى في هذه الاية وقيل سموا بالعرب
لان السنتهم معربة عما في ضمايرهم ولا شك ان اللسان العربي مختص بانواع من الفصاحة
والجزالة لا يوجد في ساير الالسنة قال الرازي ورايت في بعض الكتب عن بعض الحكما
انه قال حكمة الروم في ادمغتهم لانهم لا يقدرون على التركيبات العجمية وحكمة الهند في
اوهامهم وحكمة يونان في افيدتهم وذلك لكثرة ما لهم من المباحث العقلية وحكمة
العرب في السنتهم وذلك لحلاوة السنتهم وعذوبة عباراتهم ثم حكم الله تعالى على الاعراب
بحكم اخر بقوله تعالى واجدر اي احق واولى ان اي بان لا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله
من الاحكام والشرايع فرايضها وسننها والله عليم بما في قلوب عباده حكيم فيما فرض من فرايضه
واحكامه ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق في سبيل الله مغرما اي غرامة وخسرانا والغرامة
ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لانه لا ينفق الا تقية من المسلمين وريا لا لوجه الله تعالى
وابتغا المثوبة عنده وهم بنوا اسد وغطفان ويتربص اي ينتظر بكم الدوائر اي دوائر
الزمان ان تنقلب عليكم فيموت النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون قال الله تعالى
عليهم دائرة السوء دعا عليهم معترض قال التفتازاني بين كلامين لا في اثنا كلام ولا في
اخره دعى عليهم بنحو ما دعوا به كقوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم
اي يدور عليهم البلا والحزن ولا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم واصحابه ودينه الا ما يسوءهم
ويكيدهم وقرا ابن كثير وابو عمرو بضم السين والباقون بالفتح مصدر اضيف اليه للمبالغة
كقولك رجل سوء في نقيض قولك رجل صدق والله سميع لاقوالهم عليم بما تخفي ضمايرهم
ولما بين سبحانه وتعالى انه حصل في الاعراب من يتخذ انفاقه في سبيل الله مغرما بين ان فيهم
ايضا قوما مومنين صالحين مجاهدين يتخذ انفاقه في سبيل الله مغنما بقوله
تعالى ومن الاعراب من يومن بالله واليوم الاخر كبعض جهينة ومزينة فوصفهم الله
تعالى بوصفين كونهم مومنين بالله واليوم الاخر والمقصود التنبيه على انه لا بد في جميع
الطاعات من تقديم الايمان وفي الجهاد ايضا كذلك والثاني ما ذكره تعالى بقوله

ويتخذ

ويتخذ ما ينفق قربات جمع قربة اي تقربة عند الله الذي لا اشرف من القرب منه ووسيلة الى
صلوات اي دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم لانه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة
ويستغفر لهم كقوله اللهم صل على آل ابي اوفى قال تعالى وصل عليهم اي ادع لهم ولما كان
ما ينفق سببا لذلك قيل يتخذ ما ينفق قربات وصلوات الا انها اي نفقاتهم قربة لهم
عند الله وهذا شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته
قربات عند الله وصلوات الرسول وقد اكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه وهو
قوله تعالى الا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى انها ثم زاد في التاكيد فقال سيدخلهم
الله في رحمته فان دخول السين يوجب مزيد التاكيد وهذه النعمة هي اقصى مرادهم وقرا
ورش قربة برفع الراء والباقون بالسكون والاصل هو الضم والاسكان تخفيف ان الله غفور
اي بليغ الستر لقبائح من تاب رحيم بهم ولما ذكر تعالى فضائل الاعراب الذين يتخذون
ما ينفقون قربات عند الله وما اعد لهم من الثواب بين تعالى ان فوق منزلتهم
منازل اعلا واعظم منها بقوله تعالى والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار
اما من المهاجرين فقال سعيد بن المسيب هم الذين صلوا الى القبلتين وقال عطاء بن رباح
هم اهل بدر وقال الشعبي هم اهل بيعة الرضوان وقال محمد بن كعب هم جماهير الصحابة وقيل
هم الذين اسلموا قبل الهجرة واختلف في اول الناس اسلاما بعد الاتفاق على ان خديجة
اول الخلق اسلاما واول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء
اول من اسلم بعد خديجة علي بن ابي طالب وهذا قول جابر واختلفوا في سنه وقت اسلامه
فقيل كان ابن عشر سنين وقيل اقل من ذلك وقيل اكثر سنين وقيل اقل من ذلك وقيل
اكثر وقيل كان بالغا والاكثرون على انه لم يكن بالغا وقت اسلامه وقال بعضهم اول من اسلم
بعد خديجة ابو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس وقال بعضهم اول من اسلم بعد خديجة زيد
ابن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول عروة بن الزبير وكان اسحاق بن ابراهيم
الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول اول من اسلم من الرجال ابو بكر ومن النساء خديجة
ومن الصبيان علي ومن الموالي زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهولاء الاربعة
سباق الخلق الى الاسلام واما من الانصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
ليلة العقبة وهي الاولى وكانوا ستة عشر نفرا ثم اصحاب العقبة الثانية من العام المقبل
وكانوا اثني عشر رجلا ثم اصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلا فهولاء سباق الانصار
وقيل المراد بالسابقين الاولين من سبق الى الهجرة والنصرة ويدل على هذا انه تعالى ذكر
كونهم سابقين ولم يبين انهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملا فلما قال تعالى من المهاجرين
والانصار وصفهم بكونهم مهاجرين وانصارا فوجب صرف ذلك اللفظ الى ما به صاروا
مهاجرين وانصارا وهو الهجرة والنصرة فوجب ان يكون المراد منه السابقون الاولون
في الهجرة وفي النصرة ازالة للاجمال عن اللفظ وايضا فان الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية
ومنقبة شريفة لانهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على اعدائه واووه وواسوه واووا
اصحابه وواسوهم فلذلك اثنى الله تعالى عليهم ومدحهم والذين اتبعوهم اي الفريقين الى
يوم القيامة باحسان اي في اتباعهم فلم يحولوا عن شيء من طريقهم وقال عطاء هم الذين يذكرون
المهاجرين والانصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم وقيل هم بقية

BULAC

المهاجرين والانصار سوى السابقين الاولين عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لا تسبوا اصحابي فلو ان احدكم انفق مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه
والمد ربع صاع والنصيف نصفه والمعنى لو ان احدا عمل مهما قدر عليه من اعمال البر والانفاق
في سبيل الله ما بلغ هذا القدر اليسير من عمل الصحابة وانفاقهم لانهم انفقوا وبذلوا المجهود
في وقت الحاجة وهو عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الناس قرني ثم الذين
يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا ادري اذكر بعده قرنين او ثلاثا والقرن الامة من الناس
يقارن بعضهم بعضا واختلفوا في مدته من الزمان فقيل منذ عشرين سنة وقيل من مائة
الى مائة سنة وهذا هو المشهور وقيل من مائة الى مائة وعشرين سنة ثم جمعهم الله تعالى
في الثواب فقال رضي الله عنهم فالسابقون مرتفع بالابتدا وخبره قوله رضي الله عنهم
بقبول طاعتهم وارتضا اعمالهم ورضوا عنه لما افاض عليهم من نعمه الجليلة في الدنيا والاخرة
واعد لهم جنات تجري من تحتها الانهار اي هي كثيرة المياه فكل موضع اردته نبع منه ما يجري
منه وقرا ابن كثير من تحتها بزيادة من وبجر التا بعد الحا والباقون بغير من وفتح التا
ثم نفى الانقطاع بقوله تعالى خالدين فيها واكد المراد من الخلود بقوله تعالى ابدا ثم
استانف مدح هذا الذي اعده لهم بقوله تعالى ذلك اي الامر العالي المرتبة الفوز العظيم
ولما شرح تعالى احوال منافقي المدينة ثم ذكر بعده احوال منافقي الاعراب ثم بين ان في الاعراب
من هو مومن صالح مخلص ثم بين ان روسا المومنين من هم وهم السابقون المهاجرون
والانصار ذكر ان جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى وممن حولكم
اي اهل بلدتكم وهي المدينة من الاعراب منافقون وهم جهينة واسلم واشجع وغفار كانوا
نازلين حولها وقوله تعالى ومن اهل المدينة عطف على خبر المبتدا الذي هو ممن حولكم ويجوز
ان تكون جملة معطوفة على المبتدا والخبر اذا قدرت ومن اهل المدينة قوم مردوا على
النفاق اي على ان مردوا صفة موصوف محذوف كقوله انا ابن جلا وطلاع الثنايا
اي انا ابن رجل جلا فحذف الموصوف واقام الصفة مقامه وقال الزجاج في الاية تقديم
وتاخير والتقدير وممن حولكم من الاعراب ومن اهل المدينة منافقون مردوا على النفاق
اي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه واصل المرود الملاسة ومنه صرح ممرد وغلام امرد
لا تعلمهم باعيانهم اي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم
ما يشكك في امرهم ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى نحن نعلمهم اي لا يعلمهم الا الله
تعالى ولا يطلع على سرهم غيره لانهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم ابطانا ويبرزون لك
ظاهرا كظاهر المخلصين لا تشك معه في ايمانهم وذلك انهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه
اليد الطولى واختلفوا في تفسير قوله تعالى سنعذبهم مرتين فقال الكلبي والسدي قام النبي صلى
الله عليه وسلم خطيبا يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فانك منافق اخرج يا فلان فانك منافق
فاخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم فهذا هو العذاب الاول والثاني عذاب
القبر فان قيل كيف هذا مع قوله تعالى لا تعلمهم نحن نعلمهم اجيب بانه تعالى اعلمه بهم بعد
ذلك وقال مجاهد الاول القتل والسبي والثاني عذاب القبر وقال ابن زيد الاول المصايب في الاموال
والاولاد والثاني عذاب الاخرة وقال ابن عباس الاول اقامة الحدود عليهم والثاني عذاب القبر
وقيل عذبوا بالجوع مرتين وقيل الاول ضرب الملايكة وجوههم وادبارهم عند قبض ارواحهم

والثاني

والثاني عذاب القبر وقيل الاول احراق مسجدهم مسجد الضرار والثاني احراقهم بنار جهنم كما قال
تعالى ثم يردون اي في الاخرة الى عذاب عظيم هو النار وقوله تعالى وآخرون اي وقوم آخرون
مبتدا وقوله تعالى اعترفوا بذنوبهم ولم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة نعته
والخبر خلطوا عملا صالحا اي وهو جهادهم قبل ذلك او اعترافهم بذنوبهم او غير ذلك وآخر
سيئا اي وهو تخلفهم عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم يتجاوز عن
التائب ويتفضل عليه نزلت في طائفة من المتخلفين عن غزوة تبوك واختلف في عددهم
فعن ابن عباس انهم كانوا ثلاثة عشر وروي عنه انهم كانوا خمسة وقال سعيد بن جبير
كانوا ثمانية وقيل كانوا ثلاثة ندموا لما بلغهم ما نزل بالمتخلفين وتابوا وقالوا يكون
في الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه في الجهاد واللأواء فلما رجع
رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا والله لنوثقن انفسنا بالسواري
فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقها ويعذرنا فربطوا انفسهم
في سواري المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على عادته في رجوعه
من سفره فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له انهم اقسموا ان لا يحلوا انفسهم حتى تحلهم
وترضى عنهم فقال وانا اقسم ان لا احلهم حتى اومر باطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو
مع المسلمين فانزل الله تعالى هذه الاية فارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فاطلقهم
وعذرهم فلما اطلقوا قالوا يا رسول الله هذه اموالنا وانما تخلفنا عنك بسببها خذها
فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما امرت ان
اخذ من اموالكم شيئا فنزل قوله تعالى خذ من اموالهم صدقة تطهرهم من الذنوب
اوجب المال المؤدى بهم الى مثله وتجري لهم مجرى الكفارة هذا قول الحسن كان يقول ليس
المراد من هذه الاية الصدقة وانما هي صدقة كفارة الذنب الذي صدر اي ويدل عليه
انه صلى الله عليه وسلم اخذ ثلث اموالهم وتصدق بها وابقى لهم الثلثين ولم ياخذ الجميع
لان الله تعالى قال خذ من اموالهم والصدقة الواجبة لا يؤخذ فيها ثلث المال وتزكيهم
اي وتنمي بها حسناتهم وترفعهم الى منازل المخلصين وصل عليهم اي واعطف عليهم بالدعاء
والاستغفار لهم والسنة ان يدعو اخذ الصدقة لصاحب الصدقة اذا اخذها وعن
الشافعي رضي الله تعالى عنه احب ان يقول الوالي عند اخذ الصدقة اجرك الله فيما اعطيت
وجعله طهورا وبارك لك فيما ابقيت ان صلواتك سكن لهم اي تسكن اليها نفوسهم
وتطمئن بها قلوبهم لان روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحا قوية مشرقة صافية
باهرة فاذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوة روحه الروحانية
على ارواحهم فاشرقت بهذا السبب ارواحهم وصفت اسرارهم وانتقلوا من الظلمة الى
النور ومن الجسمانية الى الروحانية فحصل لهم بذلك غاية الطمانينة وقرا حفص وحمزة
والكسائي صلاتك بغير واو بعد اللام ونصب التاء على التوحيد والباقون بالواو وكسر
التاء على الجمع لتعدد المدعو لهم وقيل ان هذه الاية كلام مبتدا والمقصود منها الخطاب
ايجاب اخذ الزكوات من الاغنياء وعليه اكثر الفقهاء اذا استدلوا بهذه الاية في ايجاب
الزكاة وقالوا في الزكاة انها طهرة والله سميع لاقوالهم واعترافهم ودعائهم لك عليم
بندامتهم ونياتهم ولما حكى الله سبحانه وتعالى عن القوم الذي تقدم ذكرهم انهم تابوا

BULAC

عن ذنوبهم وانهم تصدقوا وهناك لم يذكرا لا قوله عسى الله ان يتوب عليهم وما كان ذلك صريحا
في قبول التوبة ذكر بعد ذلك انه يقبل التوبة وانه يأخذ الصدقات ترغيبا لمن لم يتب في التوبة
ثم ترغيبا لكل العصاة في الطاعة بقوله ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ
اي يقبل الصدقات والضمير اما للتوب عليهم والمراد انه يكون في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد
بصدقاتهم واما لغيرهم والمراد به التخصيص عليها والاية وان ورد في صيغة الاستفهام الا ان
المراد منها التقرير في النفس ومن عادة العرب في افهام المخاطب وازالة الشك عنه ان يقولوا
اما علمت حق علمك يجب عليك خدمتي اما علمت ان من احسن اليك يجب عليك شكره فبشر
الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ترغيبا في التوبة وبدل الصدقات
وذلك انه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين هؤلاء كانوا
معنا بالامس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فانزل الله تعالى هذه الاية ترغيبا في التوبة
ثم زاد تاكيدا بقوله وأن الله هو التواب الرحيم اي وان من شانه قبول توبة التائبين
والتفضل عليهم وفي هذا تعظيم امر الصدقات وتشريفها وان الله يقبلها من عبده عن ابي
هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد
يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله الا طيبا ولا يصعد الى السما الا الطيب الا وضعها
في يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربي احدكم فلوه حتى ان اللقمة لتنامي يوم القيامة
وايها بمثل الجبل العظيم ثم قرا ان الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات
وقل اعملوا اي وقل لهم او للناس يا محمد اعملوا ما شئتم فسيرى الله عملكم فانه لا يخفى عليه
خير كما ان وعيده ترغيب عظيم للمطيعين ووعد عظيم للمذنبين فكانه قال اجتهدوا
في العمل المستقبل فان الله تعالى يرى اعمالكم ويجازيكم عليها ويرى ايضا رسوله والمؤمنون
اعمالكم امارة الرسول صلى الله عليه وسلم فيطلاع الله تعالى اياه على اعمالكم وامارة
المؤمنين فيقذف الله تعالى في قلوبهم من محبة الصالحين وبغضة المفسدين وستردون
الى عالم الغيب والشهادة اي وستردون يوم القيامة الى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا
يخفى عليه شئ من اعمالكم وبواطنكم وظواهركم فينبئكم اي فيخبركم بما كنتم تعملون من خير وشر
فيجازيكم على اعمالكم واعلم ان الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة اقسام اولهم المنافقون
الذين مردوا على النفاق والثاني التائبون وهم المرادون بقوله تعالى واخرون
اعترفوا بذنوبهم وبين تعالى انه قبل توبتهم والقسم الثالث الذين بقوا موقوفين
وهم المذكورون في قوله تعالى واخرون اي من المتخلفين مرجون اي مؤخرون عن التوبة
وقرا نافع وحفص وحمزة والكسائي بغير همز بين الجيم والواو والباقون بالهمز مضمومة
بين الجيم والواو لامر الله اي لحكم الله تعالى فيهم والفرق بين القسم الثاني وبين هذا الثالث
ان اولئك سارعوا الى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا اليها قال ابن عباس نزلت هذه الاية في كعب بن مالك
ومرارة بن الربيع وهلال بن امية وستاتي قصتهم عند قوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا
تخلفوا كسلا وميلا الى الراحة لا نفاقا ولم يعتذروا الى النبي صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف امرهم
خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم بعد اما يعذبهم بان يميتهم من غير توبة واما يتوب عليهم
ان تابوا فان قيل كلمة اما واما للشك والله تعالى منزه عن ذلك اجيب بان الترديد بالنسبة
للعباد اي ليكن امرهم عندكم على هذا في الخوف والرجا فان الله تعالى لا يخفى عليه خافية وفي هذا

وقيل على ان كلا الامرين بارادة الله تعالى والله عليم باحوال عباده حكيم فيما يفعل بهم ولما ذكر
تعالى اصناف المنافقين وطوائفهم المختلفة قال تعالى والذين اتخذوا مسجدا قال ابن عباس
وهم اثنا عشر رجلا من المنافقين بنوا مسجدا ضرارا اي مضارة لاخوانهم اصحاب مسجد قبا وكفرا
اي وتقوية للنفاق وقال ابن عباس يريد به ضرارا للمومنين وكفرا بالنبي صلى الله عليه وسلم
وما جاء به وقال غيره اتخذوه ليكفروا فيه بالطعن على النبي صلى الله عليه وسلم والاسلام
وتفريقا بين المومنين لانهم كانوا جميعا يصلون بمسجد قبا فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه
بعضهم فيودي ذلك الى الاختلاف وافتراق الكلمة وارصادا اي ترقبا لمن حارب الله
ورسوله وهو ابو عامر الراهب والد ابي حنظلة الذي غسلته الملائكة وكان قد ترهب
في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لانه زالت
رياسته وقال للنبي صلى الله عليه وسلم ما هذا الذي جئت به قال جئت بالحنيفية
دين ابراهيم قال له ابو عامر انا عليها قال له النبي صلى الله عليه وسلم انك ليس عليها فقال ابو عامر
انا عليها قال له النبي صلى الله عليه وسلم انك لست عليها فقال ابو عامر امات الله
الكاذب منا طريدا وحيدا غريبا فقال النبي صلى الله عليه وسلم امين وسماه الفاسق
فلما كان يوم احد قال ابو عامر لا اجد قوما يقاتلونك الا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله
الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج الى الشام وارسل الى المنافقين ان استعدوا
بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجدا فاني ذاهب الى قيصر ملك الروم فاتي
بجند من الروم فاخرج محمدا واصحابه فبنوا مسجد الضرار الى جنب مسجد قبا وانتظروا مجي
ابي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد وقوله تعالى من قبل متعلق بحارب اي حارب من قبل
مسجد الضرار او باتخذوا اي اتخذوا مسجدا من قبل ان ينافق هولا بالتخلف ولما وصف
الله تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الاربعة قال تعالى وليحلفن ان اردنا الا الحسنى اي
وليحلفن ما اردنا ببنائه الا الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين في التوسعة على اهل
الضعف والقلة والعجز عن المصير الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك انهم قالوا
لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المظلمة
والليلة الشاتية والله يشهد انهم لكاذبون في قولهم وحلفهم تنبيه قوله تعالى
والذين اتخذوا محله نصب على الاختصاص كقوله تعالى والمقيمين الصلاة او رفع على الابتدا
والخبر محذوف اي وممن ذكرنا الذين ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للاغراض الفاسدة
عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك وقالوا يا رسول الله بنينا
مسجدا لذي العلة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب ان تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة
فقال صلى الله عليه وسلم اني على جناح على سفر وحال شغل واذا قدمنا ان شا الله صلينا
فيه فلما قفل من غزوة تبوك سالوه اتيان المسجد نزل قوله تعالى لا تقم فيه ابدا
قال ابن عباس معناه لا تصلي فيه ابدا وقال الحسن هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يذهب
الى ذلك المسجد فنادى جبريل لا تقم فيه ابدا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك
ابن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشي فقال لهم انطلقوا الى هذا
المسجد الظالم اهله فاهدموه واحرقوه فخرجوا جميعا سريعا حتى اتوا بني سالم بن عوف
وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك انظروني حتى اخرج لكم بنار من اهلي فدخل

هكذا في المسودة

BULAC

الى اهله واخذ سعفا من النخل فاشعل فيه نارا ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه
اهله فهدموه واحرقوه وتفرق عنه اهله وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتخذ ذلك
الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات ابو عامر الراهب بالشام وحيدا فريدا
غريبا وقيل كل مسجد بني مباهاة وريا وسمعة او لغرض سوى ابتغا وجه الله او بمال
غير طيب فهو ملحق بمسجد الضرار وعن عطا لما فتح الله الامصار على عمر رضي الله تعالى
عنه امر المسلمين ان يبنوا المساجد وان لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار احدهما صاحبه
وقوله تعالى لمسجد اللام فيه للابتدا وقيل لام القسم تقديره والله لمسجد اسس
اي وضع اساسه وقوله تعالى على التقوى اي على تقوى الله تعالى من اول يوم اي من
اول ايام وجوده لان من تعم الزمان والمكان اي فاحاطت به التقوى لانها اذا احاطت
باوله احاطت باخره احق اي اولى ان يصلى فيه ان اي بان تقوم اي تصلي فيه واختلف
في هذا المسجد الذي اسس على التقوى فقيل هو مسجد المدينة قاله زيد بن ثابت وابو
سعيد الخدري قال ابو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه دخلت على رسول الله صلى الله
عليه وسلم في بيت بعض نسايه فقلت يا رسول الله اي المسجد الذي اسس على التقوى قال
فاخذ كفا من حصبا فضرب به الارض ثم قال هو مسجدكم هذا مسجد المدينة وعن ابي هريرة
رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض
الجنة ومنبري على حوضي وعن ام سلمة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوايم
منبري هذا رواتب في الجنة اي ثوابت وقيل هو مسجد قبا قاله سعيد بن جبير وقتادة
اسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه ايام مقامه بقبا وهي يوم الاثنين والثلاثا
والاربعا والخميس وخرج يوم الجمعة ويدل على هذا قوله تعالى فيه رجال يحبون ان يتطهروا
اي من المعاصي والخصال المذمومة طالبا لمرضات الله تعالى عليها والله يحب المطهرين
اي يثيبهم ويرضى عنهم ويدنيهم من جنابه ادنى المحب حبيبه روي انها لما نزلت مشى رسول
الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قبا فاذا الانصار جلوس
فقال امومنون انتم فسكت القوم ثم اعادها فقال عمر يا رسول الله انهم لمومنون وانا
معهم فقال عليه الصلاة والسلام اترضون بالقضا قالوا نعم قال اتصبرون على
البلا قالوا نعم قال اتشكرون في الرخا قالوا نعم قال عليه الصلاة والسلام مومنون
ورب الكعبة فجلس ثم قال يا معشر الانصار ان الله عز وجل قد اثنى عليكم فما الذي تصنعون
عند الوضو وعند الغايط فقالوا يا رسول الله نتبع الغايط الاحجار الثلاثة ثم نتبع
الاحجار الما فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يحبون ان يتطهروا وروى بن خزيمة
في صحيحه عن بن ساعدة انه صلى الله عليه وسلم اتاهم في مسجد قبا فقال ان الله تعالى قد
احسن عليكم الثنا في الطهر وفي قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به قالوا والله يا رسول
الله ما نعلم شيا الا انه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون ادبارهم من الغايط
فغسلنا كما غسلوا وفي حديث رواه البزار فقالوا نتبع الحجارة بالما فقال هو ذاك فعليكموه
وقيل كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون الما اثر البول وعن الحسن هو التطهر
من الذنوب بالتوبة وقيل يحبون ان يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن اخرهم
افمن اسس بنيانه اي بنيان دينه على تقوى من الله ورضوان اي على قاعدة قوية محكمة

وهي

وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس بنيانه على شفا أي طرف جرف أي جانب
هار أي على قاعدة وهي أضعف القواعد وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا
شفا جرف هار أي مشرف على السقوط فانهار به أي سقط مع بانيه في نار جهنم خير وهذا
تمثيل للبناء على ضد التقوى مما يؤول إليه والاستفهام للتقرير أي الأول خير وهو مثال مسجد
قباء والثاني مثال مسجد الضرار قال الرازي ولا ترى في العالم مثالا أحسن مطابقة لأمر المنافقين
من هذا المثال وحاصل الكلام أن أحد البنائين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه
والبناء الثاني قصد بانيه ببنيانه المعصية والكفر فكان البناء الأول شريفا واجب الإبقاء
وكان الثاني خسيسا واجب الهدم قيل حفرت بقعة في مسجد الضرار فروي الدخان يخرج منها
وقرأ نافع وابن عامر أفمن أسس بنيانه بضم الهمزة وكسر السين الأولى مع التشديد وضم النون
قبل الهاء والباقون بفتح الهمزة والسين مع التشديد أيضا ونصب النون قبل الهاء وقرأ
شعبة رضوان بضم الراء والباقون بالكسر ورسمت أم هنا مقطوعة من من والكلام
على أسس بنيانه كالكلام على التي قبلها وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة جرف بسكون الراء
والباقون بالرفع وأما شفا فلا تمال بخلاف هار فإن أبا عمرو وشعبة والكسائي يقرؤونه
بالإمالة المحضة وورش بالإمالة بين بين والباقون بالفتح وابن ذكوان بالفتح والإمالة
والله لا يهدي القوم الظالمين أي إلى ما فيه صلاح ونجاة لا يزال بنيانهم الذي بنوا
أي بناؤهم الذي بنوه وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبني وإطلاق لفظ المصدر
على المفعول مجاز مشهور يقال ضرب الأمير ونسج زيد والمراد مضروبه ومنسوجه وليس بجمع
خلافا للواحدي في تجويزه أن يكون جمع بنيانه لأنه وصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله ريبة
أي شكا في قلوبهم والمعنى أن بناء ذلك البنيان صار سببا لحصول الريبة في قلوبهم فحصل
نفس ذلك البنيان ريبة وإنما جعل سببا للريبة لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار
فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم في الأوقات وصاروا مرتابين في أنهم
هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم وقال الكلبي صار حسرة وندامة
لأنهم ندموا على بنائه وقال السدي لا يزال هدم بنائهم ريبة أي حزازة وغيظا
في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم قطعا إما بالسيف أو بالموت بحيث لا يبقى لها قابلية
الإدراك وقيل التقطيع بالتوبة ندما وأسفا والله عليم بأحوالهم وأحوال عباده
حكيم في الأحوال التي يحكم بها عليهم وعلى غيرهم ولما تقدم الإنكار على المتثاقلين عن النفر في
سبيل الله في قوله تعالى ما لكم إذا قيل لكم انفروا الآية ثم الجزم بالجهاد بالنفس والمال في قوله
انفروا خفافا وثقالا الآية ذكر فضيلة الجهاد وحقيقته بقوله تعالى إن الله اشترى
أي بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة من المؤمنين بالله وما جاء من عنده أنفسهم
أي التي تفرد بخلقها وأموالهم أي التي تفرد برزقها وهو يملكها دونهم وقدم النفس
إشارة إلى أن المبايعة سابقة على اكتساب المال ولما ذكر المبيع أتبعه الثمن بقوله بأن لهم
الجنة مثل الله تعالى أثابتهم الجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشرى وروي تاجرهم
الله فأغلى لهم الثمن وعن عمر رضي الله تعالى عنه فجعل لهم الشفقتين جميعا وعن الحسن أنفسنا
هو خلقها وأموالنا هو رزقها وروي أن الأنصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة
العقبة بمكة وهم سبعون نفسا قال عبد الله بن رواحة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال

حسرة

اشترط لربي ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ولنفسي ان تمنعوني ما تمنعون به انفسكم واموالكم قالوا فاذا
فعلنا ذلك فما لنا قال الجنة قالوا ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ومر اعرابي برسول الله صلى
الله عليه وسلم وهو يقرؤها فقال كلام من قال كلام الله قال والله بيع مربح لا نقيله ولا نستقيله
فخرج الى الغزو واستشهد وقال الحسن اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة بايع الله تعالى بها
كل مؤمن والله ما على الارض مؤمن الا وقد دخل في هذه البيعة والمراد بالاموال انفاقها في سبيل
الله وعلى انفسهم واهليهم وعيالهم وفي جميع وجوه البر والطاعات وقوله تعالى يقاتلون
في سبيل الله فيقتلون ويقتلون استيناف ببيان ما لاجله الشرا وقيل يقاتلون في معنى
الامر وقرا حمزة والكسائي بتقديم المقتولين قبل القاتلين لان الواو لا تقتضي الترتيب
ولان فعل البعض قد يسند الى الكل اي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي والباقون بتقديم
القاتلين وقوله تعالى وعدا عليه حقا مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف ثم اخبر تعالى بان هذا
الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت في التوراة كتاب موسى عليه السلام والانجيل
كتاب عيسى عليه السلام اي قد اثبته فيهما كما اثبته في القران اي الكتاب الجامع لكل ما قبله
ومن اوفى بعهده من الله اي لا احد اوفى منه لان الاخلاف لا يقدم عليه الكرام من الناس
فكيف يخالفهم الذي له الغنى المطلق وقوله تعالى فاستبشروا فيه التفات عن الغيبة اي فافرحوا
غاية الفرح ببيعكم الذي بايعتم به فانه اوجب لكم عظائم المطالب كما قال تعالى وذلك هو
الفوز العظيم تنبيه هذه الاية مشتملة على انواع من التاكيدات اولها قوله تعالى ان الله
اشترى من المؤمنين انفسهم بكون المشتري هو الله تعالى المقدس عن الكذب والخيانة
وذلك من ادل الدلائل على تاكيد هذا العهد ثانيها انه تعالى عبر عن ايصال هذا الثواب
بالبيع والشرا وذلك حق موكد ثالثها قوله تعالى وعدا ووعد الله تعالى حق رابعها قوله
تعالى عليه وكلمة على للوجوب خامسها قوله تعالى حقا وهو التاكيد للتحقيق سادسها قوله
تعالى في التورية والانجيل والقران وذلك يجري مجرى اشهاد جميع الكتب الالهية وجميع الانبيا
والرسل على هذه المبايعة سابعها قوله تعالى ومن اوفى بعهده من الله وهو غاية في التاكيد
ثامنها قوله تعالى فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وهو ايضا مبالغة في التاكيد
تاسعها قوله تعالى وذلك هو الفوز العظيم عاشرها قوله تعالى العظيم فثبت اشتمال
هذه الاية على هذه الوجوه العشرة في التاكيد والتقرير والتحقيق ولما ذكر الله تعالى في هذه
الاية انه اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بين ان اولئك المؤمنين هم الموصوفون
بهذه الصفات التسعة الاتية اولها قوله تعالى التائبون وهو مرفوع على المدح
اي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين في قوله اشترى من المؤمنين وقال الزجاج
لا يبعد ان يكون قوله التائبون مبتدا وخبره محذوف تقديره التائبون من اهل الجنة
وان لم يجاهدوا لقوله تعالى وكلا وعد الله الحسنى او خبره ما بعده اي التائبون عن الكفر
على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال والتائبون صفة عموم محلاة بالالف واللام فتتناول
التوبة من كل معصية والتوبة انما تحصل عند اربعة امور اولها احتراق القلب عند صدور
المعصية ثانيها الندم على ما مضى ثالثها العزم على الترك في المستقبل رابعها ان يكون الحامل له على
هذه الامور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته فان كان غرضه منها دفع مذمة الناس
وتحصيل مدحهم او لغرض من الاغراض الدنيوية فليس بتائب ولا بد من رد المظالم لاهلها ان كانت

الصفة

الصفة الثانية قوله تعالى العابدون اي الذين اخلصوا العبادة لله وقال الحسن هم الذين عبدوا
الله في السرا والضرا وقال قتادة قوم اخذوا من ابدانهم في ليلهم ونهارهم الصفة الثالثة
قوله تعالى الحامدون وهم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه دينا ودنيا ويجعلون
اظهار ذلك عادة لهم وعن بن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السرا والضرا الصفة الرابعة
قوله تعالى السائحون واختلف في المراد منهم فقال بن مسعود وابن عباس هم الصائمون
قال بن عباس كلما ذكر في القران من السياحة فهو الصوم وقال صلى الله عليه وسلم سياحة
امتي الصيام وعن الحسن هذا صوم الفرض وقيل هم الذين يديمون الصيام قال الازهري
قيل للصائم سائح لان الذي يسيح في الارض متعبدا لا زاد معه كان ممسكا عن الاكل
والصائم ممسك عن الاكل فلهذه المشابهة سمي الصائم سائحا وقال عطا السائحون الغزاة
في سبيل الله وروي عن عثمان بن مظعون انه قال قال يا رسول الله ايذن لنا في السياحة
فقال ان سياحة امتي الجهاد في سبيل الله وقال عطا السائحون هم طلاب العلم ينتقلون
من بلد الى بلد في طلب العلم والسياحة امر عظيم في تكميل النفس لانه يلقى افاضل مختلفين
فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يلقى الاكابر من الناس فيستحقر نفسه في مقابلتهم
وقد يصل الى المداراة الكثيرة فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف احوال اهل الدنيا بسبب
ما خلق الله تعالى في كل طرف من الاحوال الخاصة بهم فتستوي معرفته وبالجملة فالسياحة
لها اثر قوي في الدين الصفة الخامسة والسادسة قوله تعالى الراكعون الساجدون
اي المصلون وانما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لان بهما يتميز المصلي عن غيره بخلاف
حالة القيام والقعود لانهما حالة المصلي وغيره ولان القيام اول مراتب التواضع لله
تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية
التواضع والعبودية تنبيها على ان المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم الصفة
السابعة والثامنة قوله تعالى الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر اي الامرون
بالايمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ودخول الواو في والناهون
عن المنكر للدلالة على انه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة فكانه قال الجامعون بين
الوصفين ولان العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله تعالى وثامنهم كلبهم وقوله
تعالى في صفة الجنة وفتحت ابوابها ايذانا بان التعداد قد تم بالسابع من حيث
ان السبعة هو العدد التام والثامن ابتدا تعداد اخر معطوف عليه ولذلك تسمى واو
الثمانية وقيل ان الموصوفين بهذه الصفات الست هم الامرون بالمعروف والناهون
عن المنكر وعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون الى قوله الساجدون مبتدا خبره هم
الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر الصفة التاسعة قوله تعالى والحافظون
لحدود الله اي لاحكامه بالعمل بها والمقصود ان تكاليف الله تعالى كثيرة وهي محصورة في نوعين
احدهما ما يتعلق بالعبادات والثاني ما يتعلق بالمعاملات فان قيل ما الحكمة في ذكر
تلك الصفات الثمانية على التفصيل ثم ذكر تعالى عقيبها سائر اقسام التكاليف على سبيل
الاجمال في هذه الصفة التاسعة اجيب بان التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد
الله تعالى والسياحة والركوع والسجود والامر بالمعروف والنهي عن المنكر امور لا ينفك المكلف

عنها في اغلب اوقاته فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل واما البقية فقد ينفك المكلف
عنها في اكثر اوقاته مثل احكام البيع والشرا واحكام الجنايات ودخل في هذه الصفة التاسعة
رعاية احوال القلوب بل البحث عنها والمبالغة في الكشف عن حقايقها اولى لان اعمال الجوارح انما
يراد لاجل تحصيل اعمال القلوب ثم ذكر سبحانه وتعالى عقب هذه الصفات التسعة قوله
تعالى وبشر المؤمنين تنبيها على ان البشارة في قوله تعالى فاستبشروا لم يتناول الا المؤمنين
الموصوفين بهذه الصفات التسعة وحذف تعالى المبشر به للتعظيم فكانه قيل وبشرهم بما يجل
عن احاطة الافهام وتعبير الكلام واختلف في سبب نزول قوله تعالى ما كان للنبي والذين
آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى فقال سعيد ابن المسيب عن ابيه
انه نزل في شان ابي طالب وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم جا لعمه ابي طالب لما حضرته
الوفاة فوجد عنده ابا جهل وعبد الله ابن ابي امية فقال اي عم قل لا اله الا الله كلمة احاج لك
بها عند الله فقال ابو جهل وعبد الله بن ابي امية اترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل
صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليه الى تلك المقالة حتى قال ابو طالب آخر ما
كلمهم انا على ملة عبد المطلب وابى ان يقول لا اله الا الله قال صلى الله عليه وسلم والله
لاستغفرن لك ما لم انه عنك فنزل ذلك وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لعمه قل لا اله الا الله اشهد لك بها يوم القيامة قال لولا ان تعيرني
قريش يقولون انما حمله على ذلك الجزع لاقررت بها عينك فانزل الله تعالى انك لا تهدي
من احببت الاية وقال بريدة لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة اتى قبر امه آمنة
فوقف عليه حتى حميت الشمس رجا ان يؤذن له يستغفر لها فنزل ما كان للنبي والذين
الاية وقال ابو هريرة زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر امه آمنة فبكى وابكى من حوله
فقال استاذنت ربي ان استغفر لها فلم يؤذن لي واستاذنته ان ازورها فاذن لي
فزوروا القبور فانها تذكركم الموت وقال قتادة قال النبي صلى الله عليه وسلم لاستغفرن
لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله هذه الاية وقال علي بن ابي طالب رضي الله
تعالى عنه سمعت رجلا يستغفر لابويه وهما مشركان فقلت له تستغفر لهما وهما
مشركان فقال استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم
فنزلت هذه الاية وروى الطبري بسنده عن قتادة قال ذكر لنا ان رجالا قالوا يا نبي الله
ان من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم ويفك العاني افلا نستغفر لهم فقال صلى
الله عليه وسلم والله لاستغفرن لابي كما استغفر ابراهيم لابيه فانزل الله ما كان
للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم
اصحاب الجحيم اي بان ماتوا على الكفر قال البيضاوي وفيه دليل على جواز الاستغفار
لاحيائهم فانه طلب توفيقهم للايمان وبه دفع النقض باستغفار ابراهيم عليه السلام
لابيه الكافر فقال وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه اي
وعدها ابراهيم اياه بقوله لاستغفرن لك اي لاطلبن مغفرتك بالتوفيق للايمان فانه يجب
ما قبله وقرا عصام ابرهيم وان ابراهيم بالالف بعد الها في الموضعين والباقون بالياء فيهما
فلما تبين له انه عدو لله تبرا منه بان مات على الكفر واوحي اليه بانه لن يؤمن تبرا منه
اي قطع استغفاره ان ابراهيم لاواه اي كثير التضرع والدعا حليم اي صبور على الاذى

والجملة

والجملة بيان ما حمله على الاستغفار لابيه مع صعوبة خلق ابيه عليه وما كان الله ليضل قوما
اي يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لاجل ارتكابهم المنهي عنه بعد اذ هداهم للاسلام
حتى يبين لهم بيانا شافيا لداء العمى ما يتقون اي ما يجب اتقاؤه للنهي اما قبل
العلم والبيان فلا سبيل لهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم
وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار قبل ورود النهي عنه وقيل انه في قوم
مضوا على الامر الاول في القبلة والخمر وغير ذلك وفي الجملة دليل على ان الغافل غير مكلف
ان الله بكل شيء عليم اي بالغ العلم فهو يبين لكم جميع ما تأتون وما تذرون مما يتوقف
عليه الهدى وما تركه تعالى فانما يتركه رحمة لكم لا يضل ربي ولا ينسى ان الله له ملك السموات
والارض فلا يخفى عليه شيء فهو خبير بكل ما ينفعكم او يضركم يحيي ويميت اي يحيي من يشاء على
الايمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض عليه في حكمه
وعبيده وما لكم ايها الناس من دون الله اي غيره من ولي يحفظكم منه ولا نصير يمنع عنكم
ضرره لقد تاب الله اي ادام توبته على النبي والمهاجرين والانصار وافتتح الله
تعالى الكلام بذكر توبة النبي صلى الله عليه وسلم لانه كان سبب توبتهم فذكره معهم
كقوله تعالى فان لله خمسه وللرسول ونحوه وقيل هو بعث على التوبة والمعنى ما من
احد الا وهو محتاج الى التوبة حتى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والانصار لقوله
تعالى وتوبوا الى الله جميعا اذ ما من احد الا وله مقام يستنقص دونه ما هو فيه
والترقي اليه توبة من تلك النقيصة واظهار لفضلها بانها مقام الانبياء والصالحين من عباده
فائدة اتفق القراء على ادغام دال قد في التاء الذين اتبعوه في ساعة العسرة اي في وقت
العسرة لم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش
العسرة والعسرة الشدة فكانت عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن كان
العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه
كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر يخرجون ما معهم الا التمرات
اليسيرة بينهم فاذا بلغ الجوع من احدهم اخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها
صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى يأتي على آخرهم ولا يبقى من
التمرة الا النواة فمضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله تعالى
عنهم ورضي عنا بهم وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه خرجنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم الى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا اصابنا فيه عطش شديد
حتى ظننا ان رقابنا ستقطع وحتى ان الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه
ويجعل ما بقي على كبده وحتى ان الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن رقبته
ستقطع فقال ابو بكر رضي الله تعالى عنه يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيرا فادع
الله قال اتحب ذلك قال نعم فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعا
حتى اظلت السماء ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر
من بعد ما كاد يزيغ اي قرب ان تميل قلوب فريق منهم اي هم بعضهم عند تلك الشدة
العظيمة ان يفارق النبي صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب فلذلك قال تعالى ثم
تاب عليهم لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الامر اليسير فان قيل قد ذكر الله تعالى

التوبة اولا ثم ذكرها ثانيا فما فائدة ذلك التكرار اجيب بان الله تعالى ذكر التوبة اولا قبل ذكر
الذنب تفضلا منه وتطييبا لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك واردفه بذكر التوبة مرة اخرى تعظيما
لشانهم وليعلموا انه تعالى قد قبل توبتهم وعفى عنهم وقرا جعفر وحمزة يزيغ بالياء على التذكير لان
تانيث القلوب غير حقيقي والباقون بالتاء على التانيث وادغم ابو عمرو الدال من كاد في الياء
بخلاف عنه انه بهم رؤف رحيم هاتان صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب فالرأفة
عبارة عن السعي في ازالة الضر والرحمة عبارة عن السعي في ايصال المنفعة وقيل احدهما
للرحمة السابقة والاخرى للمستقبلة وقوله تعالى وعلى الثلاثة الذين خلفوا اي
عن غزوة تبوك وهم كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع معطوف على
الاية الاولى والتقدير لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه
في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بيان قبول
توبتهم وهذه الثلاثة كلهم من الانصار وهم المذكورون في قوله تعالى واخرون
مرجون لامر الله روي عن ابن شهاب الزهري قال اخبرني عبد الرحمن ابن عبد
الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال وكان اعلم قومه
واوعاهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سمعت كعب بن مالك يحدث
حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال كعب كان
من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ان لم اكن قط اقوى
ولا ايسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى
جمعتها في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها
حتى كانت تلك الغزوة فاخبرهم بوجهه الذي يريد فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم
والمسلمون معه فطفقت اغدو لكي اتجهز معهم فارجع ولم اقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى
بي حتى اسرعوا فهممت ان ارتحل فادركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك وكنت اذا
خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني ان لا ارى لي اسوة
الا رجلا مغموصا في النفاق او رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله
صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب فقال
رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال معاذ بن جبل بئس
ما قلت والله يا رسول الله ما علمت عليه الا خيرا فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال كعب فلما بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا حضرني همي وطفقت
اذكر الكذب واقول بما اخرج من سخطه غدا واستعنت على ذلك بكل ذي راي من اهلي
فلما قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اظل قادما زاح عني الباطل وعرفت اني
لم اخرج منه ابدا بشيء فيه كذب واصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان اذا قدم
من سفر بدا بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس وجاءه المخلفون يعتذرون اليه
ويحلفون له وكانوا تسعة وثمانين رجلا فقبل منهم صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم
واستغفر لهم ووكل سرائرهم الى الله تعالى فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضبان
ثم قال تعالى فجئت امشي حتى جلست بين يديه فقال لي ما خلفك الم تكن قد ابتعت
ظهرك قلت بلى يا رسول الله والله لو جلست عند غيرك من اهل الدنيا لرايت ان اخرج من سخطه

بعذر

بعذر ولقد اعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به
عني ليوشكن الله ان يسخط علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه اني لارجو فيه عفو الله
والله ما كان لي من عذر والله ما كنت قط اقوى ولا ايسر مني حين تخلفت عنك فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم اما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك فقمت وثار
رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا لي والله ما علمناك كنت اذنبت ذنبا قبل هذا وقد
كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لهم هل لقي هذا
معي احد قالوا نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت
من هما قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن امية فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما
اسوة فمضيت حين ذكراهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ايتها
الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتبدلوا لنا حتى تنكرت في نفسي الارض
فما هي التي اعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فاما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان واما انا فكنت اشب القوم واجلدهم فكنت
اخرج فاشهد الصلاة مع المسلمين واطوف في الاسواق ولا يكلمني احد واتي رسول الله صلى
الله عليه وسلم واسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فاقول في نفسي هل حرك شفتيه برد
السلام علي ام لا ثم اصلي قريبا منه واسارقه النظر فاذا اقبلت على صلاتي نظر الي واذا
التفت نحوه اعرض عني حتى اذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار
حائط ابي قتادة وهو ابن عمي واحب الناس الي فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام
فقلت يا ابا قتادة انشدك بالله هل تعلمني احب الله ورسوله فسكت فعدت له
فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال الله ورسوله اعلم ففاضت عيناي وتوليت
فبينا انا امشي في سوق المدينة اذا نبطي من انباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه يقول
من يدل على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني فدفع الي كتابا من ملك غسان
فاذا فيه اما بعد فقد بلغني ان صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة
فالحق بنا نواسك فقلت حين قرأتها وهذا ايضا من البلاء فتيممت به التنور فسجرته
بها حتى اذا مضت اربعون ليلة من الخمسين امرا ان يعتزل امرأتي فقلت
لامرأتي الحقي باهلك تكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر فقال كعب فجاءت امرأة
هلال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت ان هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم
هل تكره ان اخدمه قال لا ولكن لا يقربك قالت والله انه ما به حركة الى شيء والله لا يزال يبكي
منذ كان من امره ما كان الى يومه هذا فقال بعض اهلي لو استأذنت رسول الله صلى
الله عليه وسلم في امرأتك لاذن لك كما اذن لامرأة هلال بن امية ان تخدمه فقلت والله
لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول اذا استأذنته فيها
وانا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول
الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وانا على ظهر بيت
من بيوتنا فبينا انا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل في قوله حتى اذا ضاقت عليهم
الارض بما رحبت اي مع رحبها اي سعتها فلا يجدون مكانا يطمئنون اليه وضاقت عليهم
انفسهم اي قلوبهم بالغم والوحشة بنا حين تنوبهم فلا يسعها سرور ولا انس وظنوا
اي ايقنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم اي وفقهم للتوبة ليتوبوا

إن الله هو التواب الرحيم سمعت صوت صارخ أوفى على جبل يبلغ بأعلى صوته يا كعب
ابن مالك أبشر قال فخررت ساجدا وعرفت أنه جاء فرج وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
الناس بتوبة الله تعالى علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل
صاحبي مبشرون ورجل رجل إلى فرسا وسعى ساعي من أسلم فأوفى إلى الجبل فكان الصوت
أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي وكسوته إياهما
والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيلقاني الناس فوجا فوجا يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنئك توبة الله
عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس
فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين
غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو
يبرق وجهه من السرور أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية
وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح قال أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت
وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه ولما حكم تعالى بقبول توبة هؤلاء
الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن مثل فعل ما مضى وهو التخلف عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم والجهاد بقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله بترك معاصيه وكونوا
مع الصادقين أي مع النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله تعالى عنهم في الغزوات
ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت وقيل كونوا مع الذين صدقوا
في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة وقيل مع بمعنى من أي وكونوا
من الصادقين تنبيه في الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته ويدل عليه أيضا
أشياء منها ما روي عن ابن مسعود أنه قال عليكم بالصدق فإنه يقرب إلى البر والبر يقرب إلى الجنة
وإن العبد ليصدق فيكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يقرب إلى الفجور
والفجور يقرب إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ألا ترى أنه يقال
صدقت وبررت وكذبت وفجرت ومنها ما روي أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال
إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون
إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها فإن قنعت مني بترك واحدة منها فقال
صلى الله عليه وسلم اترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه
وسلم عرضوا عليه الخمر فقال إن شربت وسألني النبي صلى الله عليه وسلم عن شربها وكذبت
فقد نقضت العهد وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم أعرضوا عليه الزنا فجاء ذلك
الخاطر فتركه وكذا في السرقة فعاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال ما أحسن ما قلت
لما منعتني عن الكذب أنسد أبواب المعاصي علي وفات الكل ومنها ما قيل في قوله
تعالى حكاية عن إبليس فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين إن إبليس
إنما ذكر هذه الأشياء لأنه لو لم يذكره لصار كاذبا في ادعاء أغواء الكل فكأنه استنكف عن
الكذب فذكر هذا الاستثناء وإذا كان الكذب شيئا يستنكف منه إبليس فالمسلم أولى أن
يستنكف منه ومنه قول ابن مسعود الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم
لا ينجز له اقرؤوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين ما كان أي ما صح وما ينبغي بوجه من الوجوه

لأهل المدينة

لأهل المدينة اي دار الهجرة ومعدن النصرة ومن حولهم اي من جميع نواحي المدينة الشريفة
من الأعراب اي سكان البوادي وهم مزينة وجهينة واسلم واشجع وغفار وقيل عام في كل
الاعراب لان اللفظ عام وحمله على العموم اولى وقوله تعالى أن يتخلفوا عن رسول الله اي
عن حكمه نهي عبر عنه بصيغة الخبر للمبالغة وقوله تعالى ولا يرغبوا بانفسهم عن نفسه
اي بان يصونها عما عرض لنفسه من الشدايد يجوز فيه النصب والجزم على ان لا ما هنة روى
عن ابي خيثمة انه بلغ بستانه ما شتوى ونضح وله امراة حسناء فرشت له في الظل
وبسطت له الحصير وقربت له الرطب والماء البارد فقال ظل ظليل ورطب يانع اي ناضج
وماء بارد وامراة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ما هذا بخير
فقام فحمل ناقته واخذ سيفه ورمحه ومتزكا لزرع فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقه
الى الطريق فاذا بركب يزهاه السراب اي يدفعه وهو عبارة عن السرعة فقال صلى الله
عليه وسلم كن ابا خيثمة فكان هو فسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له
ذلك اي النهي عن التخلف بانهم اي بسبب انهم لا يصيبهم اي عطش ولا نصب اي تعب
ولا مخمصة اي مجاعة في سبيل الله اي طريق دينه ولا يطؤن اي يدوسون وقوله تعالى
موطيا مصدر اي وطيا او مكان وطي يغيظ اي يغضب الكفار اي وطيهم باراجلهم
او دوابهم ولا ينالون من عدو نيلا اي قتلا او اسرا او هزيمة او غنيمة او نحو ذلك قليلا
كان ذلك او يسيرا الا كتب لهم به اي بذلك عمل صالح اي ثواب جزيل عند الله يجازيهم به
ان الله لا يضيع اجر المحسنين اي لا يترك ثوابهم واظهر موضع الاضمار تنبيها على ان الجهاد
احسان بنبيه في هذه الاية دلالة على ان من قصد طاعة الله تعالى كان قيامه وقعوده
ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله وكذا القول في طرفي المعصية
فان حركة منها كلها سيئات فما اعظم بركة الطاعة وما اعظم ذلك المعصية الا ان يغفرها الله تعالى
عن ابي عبس رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من اغبرت
قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار ولا ينفقون في سبيل الله نفقة صغيرة تمرة فما
دونها ولا كبيرة اي كثيرة مثل ما انفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ولا يقطعون اي يجاوزون
واديا اي رضا في سيرهم متقبلين او مدبرين الا كتب لهم ذلك من الانفاق وقطع الوادي
ليجزيهم الله احسن ما كانوا يعملون اي يجزيهم الله جزاء هو احسن من اعمالهم واجل
وافضل وهو الثواب فائدة الوادي كل منفرج بين جبال واكام يكون منفذ السيل
وهو في الاصل فاعل من ودى اذا سال ومنه الودي وقد شاع في استعمال العرب بمعنى
الارض يقولون لا تصل لي وادي عمرو تنبيه في الاية دليل على فضل الجهاد والانفاق
فيه ويدل عليه ايضا ما روي عن ابن مسعود قال جاء رجل بناقة مخطومة فقال هذه
في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة
كلها مخطومة ومنها ما روي عن زيد بن خالد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جهز
غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا في سبيل الله فقد غزا ومنها
ما روي عن سهل بن سعد الساعدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رباط يوم في سبيل
الله خير من الدنيا وما فيها وموضع سوط احدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها وفي

رواية وما فيها ومنها ما روي عن ابي سعيد الخدري ان رجلا سال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اي الناس افضل قال مؤمن يجاهد بنفسه في سبيل الله قال ثم اي قال ثم رجل في شعب من الشعاب
يعبد الله وفي رواية يتق الله ويدع الناس من شره وقوله تعالى وما كان المؤمنون
لينفروا كافة فيه احتمالان الاول انه كلام مبتدا لا تعلق له بالجهاد والثاني ان يكون
من بقية احكام الجهاد فعلى الاول يقال وما استقام لهم ان ينفروا جميعا لنحو غزو
وطلب علم كما لا يستقيم لهم ان يتبسطوا جميعا فانه يخل بامر المعاش فلولا اي فهلا
نفر من كل فرقة اي قبيلة منهم طائفة اي جماعة ومكث الباقون ليتفقهوا اي ليتكلفوا
الفقاهة في الدين ويتجشموا مشاق تحصيلها ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا الى اوطانهم
ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم اي وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة
ارشاد القوم وانذارهم وتخصيصه بالذكر لانه اهم وفيه دليل على ان التفقه والتذكير
من فروض الكفاية وانه ينبغي ان يكون غرض المتعلم فيه ان يستقيم ويقيم لا التوقع على
الناس وصرف وجوههم اليه والتبسط في البلاد ليدخل في قوله صلى الله عليه وسلم من يرد
الله به خيرا يفقهه في الدين وفي قوله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد
كفضلي على ادناكم وفي قوله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله له
طريقا الى الجنة لعلهم يحذرون عقاب الله بامتثال امره ونهيه وعلى الاحتمال الثاني
يقال انه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنون الى التغير وانقطعوا عن التفقه
فامروا بان يتعرض كل فرقة طائفة الى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه
الذي هو الجهاد الاكبر لان الجدال بالحجة هو الاصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير
في ليتفقهوا ولينذروا للبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفي رجعوا
للطوائف ولينذروا للباقي قومهم النافرين اذا رجعوا اليهم بما حصلوا ايام غيبتهم
من العلوم قال ابن عباس فهذه مخصوصة بالسرايا والتي قبلها بالنهي عن تخلف احد
فيما اذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم يا ايها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار
امروا بقتل الاقرب منهم فالاقرب كما امر صلى الله عليه وسلم اولا بانذار عشيرته الاقربين
وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا
الشام وقيل هم قريظة والنضير وفدك وخيبر وقيل الروم لانهم كانوا يسكنون الشام
والشام اقرب الى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على اهل كل ناحية ان
يقاتلوا من وليهم ما لم يضطر اليهم الى اهل ناحية اخرى وليجدوا فيكم غلظة اي شدة
وصبرا على القتال والغلظة ضد الرقة اي اغلظوا عليهم واعلموا ان الله مع المتقين
بالعون والنصر والحراسة واذا ما انزلت سورة من القران فمنهم اي المنافقين من يقول
لاصحابه انكارا واستهزاء ايكم زادته هذه السورة ايمانا اي تصديقا قال تعالى فاما الذين
امنوا فزادتهم ايمانا بزيادة العلم الحاصل في تدبر السورة وانضمام الايمان بها وبما فيها
الى اعيانهم وهم يستبشرون اي يفرحون بنزولها لانه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع
درجاتهم واما الذين في قلوبهم مرض اي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضا لانه
فساد في القلب يحتاج الى علاج كالمرض في البدن اذا حصل يحتاج الى علاج فزادتهم
اي السورة اي نزولها رجسا الى رجسهم اي كفرا بها مضموما الى الكفر بغيرها وماتوا
اي هؤلاء المنافقون وهم كافرون اي وهم جاحدون لما انزل الله تعالى على رسوله صلى

الله

الله عليه وسلم قال مجاهد وفي هذه الآية دليل على ان الايمان يزيد وينقص وكان علي رضي
الله تعالى عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من الصحابة ويقول قم الوحتى نزداد ايمانا
وقوله تعالى أَوَلَا يَرَوْنَ قراءة حمزة بالتاء اي ايها المؤمنون والباقون بالياء على الغيبة اي المنافقون
أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ اي يبتلون فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ بالامراض والقحط والحرب والشدائد
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ من نفاقهم ونقض عهودهم الى الله تعالى وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ اي ولا يتعظون
بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم وتأييده وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فيها عيب المنافقين
وتوبيخهم وفضائحها صلى الله عليه وسلم نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ اي تغامزوا بالعيون انكارا لها
وسخرية او غيظا لما فيها من عيوبهم ويريدون الهرب يقولون هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ اي من
المؤمنين اذا قمتم فان لم يرهم احد قاموا وخرجوا من المسجد وان علموا ان احدا يراهم
ثبتوا على تلك الحال ثُمَّ انْصَرَفُوا على كفرهم ونفاقهم وقيل انصرفوا عن مواضعهم التي يستمعون
فيها ما يكرهون وقوله تعالى صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ اي عن الهدى يحتمل الاخبار والدعاء عليهم
اي بسبب انهم قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ اي يسوء فهمهم وعدم تدبرهم لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
اي من جنسكم عربي مثلكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه قال ابن عباس
ليس قبيلة من العرب الا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم وله فيهم نسب وقال جعفر بن
محمد الصادق لم يصبه شيء من ولاد الجاهلية من زمن ادم عليه السلام وعن الطبري قال صلى
الله عليه وسلم انا خرجت من نكاح ولم اخرج من سفاح من لدن ادم قال رسول الله صلى
الله عليه وسلم ما ولدني من سفاح اهل الجاهلية شيء ما ولدني الا نكاح كنكاح الاسلام
وعن واثلة بن الاسقع قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله اصطفى كنانة
من ولد اسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني
من بني هاشم وَأَصْطَفَانِي من بني هاشم وقرأ ابو عمرو وهشام وحمزة والكسائي بادغام دال
قد في الجيم والباقون بالاظهار عَزِيزٌ اي شديد شاق عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ اي عنتكم ولقاؤكم
المكروه وقيل يشق عليه ضلالتكم حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ اي ان تهتدوا وايصال الخير اليكم واصلاح
شانكم بِالْمُؤْمِنِينَ اي منكم ومن غيركم رَءُوفٌ اي شديد الرحمة بالمطيعين رَحِيمٌ بالمذنبين
وقدم الابلغ وهو الرؤف محافظة على الفواصل وعن الحسن بن الفضل لم يجمع الله
لاحد من الانبياء بين اسمين من اسمائه الا للنبي صلى الله عليه وسلم فسماه رؤفا رحيما
وقال تعالى انه بالناس لرؤف رحيم وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمد
الهمزة من رؤف والباقون بالقصر فَإِنْ تَوَلَّوْا اي فان اعرضوا عما دعوتهم اليه من الكفار والمنافقون
عن الايمان بالله وبرسوله وتاصبوك الحرب فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ اي يكفيني الله وينصرني
عليكم وانما كان كافيا لانه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فلا مكافي له فلا يراد لامره ولا معقب لحكمه
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ اي فلا ارجو ولا اخاف الا منه لان امره نافذ في كل شيء وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ اي الكرسي العظيم وخصه بالذكر لتشريفه له ولانه من اعظم مخلوقاته تعالى
روي عن ابي بن كعب قال اخر ما نزل من القرآن هاتان الايتان لقد جاءكم رسول
من انفسكم الى اخر السورة وقال هما احدث الايات بالله تعالى عهدا وما رواه
البيضاوي تبعا للكشاف من انه صلى الله عليه وسلم قال ما نزل علي القرآن الا اية
اية وحرفا حرفا ما خلا سورة براءة وقل هو الله احد فانهما نزلا علي ومعهما سبعون

الف صف من الملائكة حديث منكر ومخالف لما مر عن ابي من ان اخر ما نزل الايتان

سورة يونس عليه السلام مكية الا وان كنت في شك الايتين او الثلاث او ومنهم من يؤمن به الاية مائة وتسع او عشر ايات وعدد كلماتها الف وثمانمائة واثنان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة الاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفا وهي اول المئين ان جعلنا براءة مع الانفال من الطوال والا فبراءة اولاهن بسم الله جامع العباد بعد تفريقهم بما له من العظمة والامتنان الرحمن الذي عمهم بالايجاد وخص من شاء منهم بالايمان الرحيم الذي خص اولياءه بالرضوان المبيح للجنان الر قال ابن عباس والضحاك الر انا الله ارى والمر انا الله اعلم وارى وقيل انا الرب لا رب غيري وقال سعيد بن جبير الر وحم ونون حروف اسم الرحمن وقد سبق الكلام في حروف التهجي في اول البقرة واتفقوا على ان الر وحده ليس اية واتفقوا على ان قوله تعالى طه وحده اية والفرق ان قوله تعالى الر لا يشاكل مقاطع الاي التي بعده بخلاف قوله تعالى طه فانه يشاكل مقاطع الاي التي بعده وقرا قالون وابن كثير وحفص بفتح الرا والالف بعدها وورش بين اللفظين والباقون بالامالة المحضة تلك اي الايات العظيمة جدا التي اشتملت عليها هذه السورة او السور التي تقدمت هذه السورة او هذه الحروف المقطعة المشيرة الى ان القران كلام الله والا لما اعجز القادرين عن التلفظ بهذه الاحرف ايات الكتاب اي الذكر الجامع لكل خير وهو هذا القران الذي وافق كلما فيه من القصص كلما في التورية والانجيل من ذلك فدل ذلك على صدق الاتي به قطعا لانه لم يكن يعرف شيا من الكتابين ولا جالس احدا يعلمه الحكيم اي المحكم وقوله تعالى اكان للناس اي اهل مكة استفهام انكار للتعجب وقوله تعالى عجبا خبر كان والعجب تغير النفس بما لا يعرف سببه مما خرج عن العادة ثم ذكر الجامل على التعجب وهو اسم كان بقوله تعالى ان اوحينا اي ايحاءنا الى رجل منهم اي من اهل مكة ومن قريش وهو محمد صلى الله عليه وسلم يعرفون صدقه ونسبه وامانته قيل كانوا يقولون العجب ان الله لم يجد رسولا يرسله الى الناس الا يتيم ابي طالب وهو من فرط حماقتهم وقصور نظرهم على الامور العاجلة وجهلهم بحقيقة الوحي والنبوة وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن يقصر عن عظمائهم فيما يعتبر فيه الا في المال وخفة المال اهون شي في هذا الباب ولذلك كان اكثر الانبيا عليهم الصلاة والسلام قبله كذلك وقد قال تعالى وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ان انذر الناس عامة اي اعلمهم مع الخوف ما لقيهم من المبعث وغيره وان هي المفسرة لان الايحا فيه معنى القول وبشر الذين امنوا انما عمم في الانذار لانه قل ان يسلم احد من كبيرة او صغيرة او هفوة جليلة او حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات وخصص البشارة اذ ليس للكافر ما يصح ان يبشر به ان اي بان لهم قدم اي سلف صدق عند ربهم اختلفت عبارات المفسرين واهل اللغة في معنى قدم صدق فقال ابن عباس اجرا حسنا بما قدموا من اعمالهم وقال مجاهد هذه الاعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم وقال الحسن عمل صالح اسلفوه يقدمون عليه وقال عطا مقام صدق لا زوال له ولا يؤس فيه وقال زيد بن اسلم هو شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضيف القدم الى الصدق وهو نعت كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وحب الحصيد وقال ابو عبيدة كل سابق في خير او شر فهو عند

العرب

العرب قدم قال الشاعر صل لذي العرش واتخذ قدما ينجيك يوم العثار والندم وهو مؤنث
فيقال قدم حسنة وقدم صالحة وقوله تعالى قال الكافرون ان هذا لسحر مبين قراءة
نافع وابو عمرو وابن عامر بكسر السين وسكون الحاء على ان الاشارة للقرآن المشتمل على ذلك والباقون
بفتح السين والف بعدها وكسر الحاء على ان الاشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ان ربكم الموجد
لكم والمربي والمحسن هو الله الذي خلق اي قدر واوجد السموات والارض على اتساعهما وكثرة
ما فيهما من المنافع في ستة ايام من ايام الدنيا اي في قدرها لانه لم يكن ثم شمس ولو شاء
لخلقهما في لمحة والعدول عنه لتعليم خلقه التثبت فان قيل ان اليوم قد يراد به اليوم
مع ليلته وقد يراد به النهار وحده فما المراد اجيب بان الغالب في اللغة انه يراد باليوم
اليوم بليلته ولما اوجد سبحانه وتعالى هذا الخلق الكبير المتباعد الاقطار الواسع
الانتشار المفتقر الى عظيم التدبير ولطيف التصريف والتقدير عبر سبحانه وتعالى
عن عمله فيه عمل الملوك في ممالكهم بقوله مشيرا الى ان عظمته باداة التراخي ثم استوى
اي عمل في تدبيره واتقان ما فيه واحكامه على المعتنى بذلك على العرش المتقدم وصفه
في الاعراف بالعظمة وليست ثم للترتيب بل كناية عن علو الرتبة وبعد منازلها
ثم بين ذلك الاستواء بقوله يدبر الامر كله فلا يخفى عليه عاقبة امر من الامور
لان التدبير اعدل احوال الملك فالاستواء كناية عنه وقوله تعالى ما من شفيع الا
من بعد اذنه تقرير لعظمته جل وعلا ورد على من زعم ان الهتهم تشفع لهم عند
الله وفيه اثبات الشفاعة لمن اذن له ذلكم الله اي الموصوف بتلك الصفات المقتضية
للالوهية والربوبية ربكم اي الذي يستحق العبادة منكم فاعبدوه اي وحدوه ولا
تشركوا به بعض خلقه من ملك او انسان فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع فان عبادتكم
مع الشريك ليست عبادة ولولا فضله لم يكن لمن زال ادنى زلة طاعة وقوله تعالى
افلا تذكرون قرا حفص وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام
التاء في الاصل اي فلا تتفكرون ادنى تفكر فينبهكم على انه المستحق للربوبية والعبادة
لا ما تعبدونه اليه تعالى مرجعكم اي رجوعكم بالموت والنشور حالة كونكم جميعا لا يتخلف
منكم احد فاستعدوا للقائه وقوله تعالى وعد الله مصدر منصوب بفعله المقدر مؤكد
لنفسه لان قوله تعالى اليه مرجعكم جميعا وعد من الله وقوله تعالى حقا اي صدقا لا خلف
فيه مصدر اخر منصوب بفعله المقدر مؤكد لغيره وهو ما دل عليه وعد الله انه يبدأ الخلق
اي يحييهم ابتداء ثم يعيده اي ثم يميتهم ثم يحييهم وفي هذا دليل على الحشر والنشر والمعاد وصحة
وقوعه ورد على منكري البعث ووقوعه لان القادر على خلق هذه الاجسام المؤلفة
والاعضاء المركبة على غير مثال سبق قادر على اعادتها بعد تفريقها بالموت والبلى فتركب
تلك الاجزاء المتفرقة تركيبا ثانيا وتخلق الانسان الاول مرة اخرى وكان يمكن تعلق
النفس بالبدن في المرة الاولى لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة اخرى فاذا ثبت القول بصحة
المعاد والبعث بعد الموت كان المقصود منه ايصال الثواب للمطيع والعقاب
للعاصي وهو قوله تعالى ليجزي الذين امنوا وعملوا الصالحات بالقسط اي بالعدل لا ينقص
من اجورهم شيئا والذين كفروا لهم شراب من حميم وهو ما جاز قد انتهى حره وعذاب اليم
اي بالغ في الايلام بما كانوا يكفرون اي بسبب كفرهم هو الذي جعل الشمس ضياء اي ذات

ضياء والقمر نورا اي ذات نور وخص الشمس بالضيا لانه اقوى واكد من النور وخص القمر بالنور لانه
اضعف من الضيا لان الشمس نيرة في ذاتها والقمر نير بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها
وقرا قنبل بهمزة مفتوحة ممدودة بعد الضاد والباقون بيا مفتوحة والضمير في قوله تعالى
وقدره منازل يرجع الى الشمس والقمر اي قدر مسير كل واحد منهما منازل او قدره ذا منازل
او يرجع الى القمر فقط وتخصيصه بالذكر لسرعة مسيره ومعاينة منازله واناطة احكام
الشرع به ولذلك علله بقوله تعالى لتعلموا عدد السنين والحساب اي حساب الاوقات
من الاشهر والايام في معاملاتكم وتصرفاتكم لان الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على روية
الاهلة والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية كما قال تعالى ان عدة الشهور
عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله فائدة منازل القمر ثمانية وعشرون منزلة
واسماوها الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة والذراع
والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعوا والسماك والغفر والزبانا والاكليل
والقلب والشولة والنعايم والبلدة وسعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود
وسعد الاخبية وفرغ الدلو المقدم وفرغ الدلو المؤخر وبطن الحوت وهذه
المنازل مقسومة على البروج وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور والجوزا والسرطان
والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت فكل برج
منزلان وثلث فينزل القمر كل ليلة منها منزلا فيستتر ليلتين ان كان الشهر ثلاثين
وان كان تسعا وعشرين فليلة واحدة فيكون انقضا الشهر مع نزوله تلك المنازل
ويكون مقام الشمس في كل منزلة ثلاثة عشر يوما فيكون انقضا السنة مع انقضائها
بانتفاع الخلق بضو الشمس وبنور القمر عظيم فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان
الليل وبحركة الشمس تنفصل السنة الى الفصول الاربعة وبالفصول الاربعة ينتظم
مصالح هذا العالم وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل والنهار يكون زمانا
طويلا للتكسب والطلب والليل يكون زمانا للراحة ما خلق الله ذلك المذكور الا بالحق
اي لم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا تعالى الله عن ذلك بل اظهار القدرة ودلايل وحدانيته
ونظيره قوله تعالى في ال عمران ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت
هذا باطلا وقال تعالى في سورة اخرى وما خلقنا السما والارض وما بينهما باطلا ذلك
ظن الذين كفروا يفصل اي يبين الايات اي الدلايل الباهرة واحدة في اثر واحدة بيانا
شافيا لقوم يعلمون فانهم المنتفعون بالتامل فيها وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص
بالياء والباقون بالنون ولما استدل سبحانه وتعالى على اثبات الالهية والتوحيد
بقوله تعالى ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض ثانيا باحوال الشمس والقمر
استدل ثالثا بقوله تعالى ان في اختلاف الليل والنهار اي بالمجي والذهاب والزيادة
والنقصان ورابعا بقوله تعالى وما خلق الله في السموات من ملايكة وشمس وقمر ونجوم
وغير ذلك وما خلق الله في الارض من حيوان وجبال وبحار وانهار واشجار وغير ذلك
فائدة اقسام الحوادث الهادية في هذا العالم محصورة في اربعة اقسام احدها
الاحوال الحادثة في العناصر الاربعة ويدخل فيها احوال الرعد والبرق والسحاب والامطار
ويدخل فيها ايضا احوال البحار والصواعق والزلازل والخسف وثانيها احوال المعارف

وهي

وهي عجيبة كثيرة وثالثها اختلاف احوال النبات ورابعها اختلاف احوال الحيوانات
وجملة هذه الاقسام الاربعة داخلة في قوله تعالى وما خلق الله في السموات والاستقصا
في شرح هذه الاحوال لا يدخل تحت الحصر بل كلما ذكر العقلا في اقسام احوال هذا العالم
فهو جزء مختصر من هذا الباب لآيات اي دلالات على قدرته تعالى لقوم يتقون
الله فانه يحملهم على الشكر والتذكر وخصهم بالذكر لانهم المنتفعون بها قال القفال من تدبر
في هذه الاحوال علم ان الدنيا مخلوقة لشقا الناس فيها وان خالقها وخالقهم ما اهملهم
بل جعلها لهم دار عمل واذا كان كذلك فلا بد من امر ونهي ثم من ثواب وعقاب ليتميز
المحسن من المسي فهذه الاحوال في الحقيقة دالة على صحة القول باثبات المبدا
واثبات المعاد ولما اقام سبحانه وتعالى الدلايل القاهرة على صحة القول باثبات
الاله الرحيم الحكيم وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر شرع في شرح احوال
من يكفر بها وقد ابتدا باولها ووصفه باربع صفات مبتدا باولها بقوله تعالى
ان الذين لا يرجون لقاءنا اي لا يخافونه لانكارهم البعث وذهولهم بالمحسوسات
عما وراها فهم يكذبون بالثواب والعقاب والرجا يكون بمعنى الخوف وبمعنى الطمع فمن
الاول قول العرب فلان لا يرجو فلانا بمعنى لا يخافه ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا
ومنه قول ابي ذويب الهذلي اذا لسعته النحل لم يرج لسعها اي لم يخفها ومن الثاني
قولهم فلان يرجو فلانا اي يطمع فيه والمعنى لا يطمعون في ثوابنا والصفة الثانية
قوله تعالى واطمانوا بها فيعملون لها عمل المقيم فيها مع ما يشاهدون من سرعة زوالها
منهمكين في لذاتها وزخارفها وسكنوا فيها سكون من لا يتزعزع عنها والصفة الرابعة
قوله تعالى والذين هم عن اياتنا اي دلايل وحدانيتنا غافلون تاركون النظر فيها
بمنزلة الغافل عن الشي الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشي وبالجملة فهذه
الصفات الاربعة دالة على شدة بعدهم عن طلب الاستعداد بالسعادات الاخروية
ويحتمل ان الصفة الاخيرة لفريق اخر ويكون المراد بالاولين من انكر البعث ولم يرد الا الحياة
الدنيا وبالاخيرين الهاه حب العاجل عن التامل في الاجل والاعداد له ولما وصفهم
الله تعالى بتلك الصفات قال تعالى اولئك ماواهم النار بما كانوا يكسبون من الشرك
والمعاصي ولما شرح احوال المنكرين الجاحدين شرح تعالى شرح من يومن بها بقوله
تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات والاعمال الصالحة عبارة عن الاعمال التي تحمل
النفس على ترك الدنيا وطلب الاخرة والاعمال المذمومة ما تكون بالضد من ذلك يهديهم
اي يرشدهم ربهم بايمانهم اي بسبب ايمانهم الى سلوك سبيل يودي الى الجنة او لما يرون
في الجنة او لادراك الحقايق كما قال صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم
وقال مجاهد المومنون يكون لهم نور يمشي بهم الى الجنة وروي انه صلى الله عليه وسلم قال
ان المومن اذا خرج من قبره صور له عمله صورة حسنة فيقول له انا عملك فيكون له نورا
وقايدا الى الجنة والكافر اذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول انا عملك
فينطلق به حتى يدخله النار ومفهوم ترتب الهداية على الايمان والعمل الصالح قد دل
على ان سبب الهداية هو الايمان والعمل الصالح لكن دل منطوق قوله جل وعلا بايمانهم
على استقلال الايمان بالسببية وان العمل الصالح كالتتمة والرديف ثم انه تعالى لما وصفهم

لا يرجوا فلانا صح

BULAC

بالايمان والاعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كرامتهم ومراتب سعادتهم وهي اربعة الاولى
قوله تعالى تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم اي يكونون في السرور على سرر مرفوعة
في البساتين والانهار تجري من بين ايديهم ينظرون اليها من اعالي اسرتهم وقصورهم ونظير هذا
قوله تعالى فذلك الذي يدع اليتيم فكلمة ذا هنا للتنبيه وهذه الانهار تجري من تحتي اي بين يدي فكذا هنا الثانية قوله تعالى دعواهم فيها
قال بعض المفسرين اي طلبهم لما يشتهون في الجنة ان يقولوا سبحانك اي ننزهك من كل سوء
ونقيصة اللهم اي يا الله فاذا اما طلبوه بين ايديهم عاموا بدل كل مائدة مثل ما مر على
كل مائدة سبعون الف صحفة في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه لونها لونا ولا طعمها طعما
فاذا فرغوا من الطعام حمدوا الله تعالى فذلك قوله تعالى واخر دعواهم ان الحمد لله رب
العالمين او ان المراد بقوله سبحانك اللهم اشتغال اهل الجنة بالتسبيح والتحميد
والتقديس لله تعالى والثناء عليه بما هو اهله وفي هذا الذكر سرورهم وانتهاء جهدهم
وكمال لذاتهم وقوله تعالى وهذا اولى ويدل عليه ما روى عن جابر رضي الله تعالى عنه انه قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اهل الجنة ياكلون فيها ويشربون ولا
يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام قال جشاء ورشح كرشح
المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس اي يخرج ذلك الطعام جشاء وعرق
الثالثة قوله تعالى وتحيتهم فيما بينهم وتحية الملائكة لهم فيها اي الجنة سلام
وتاتيهم الملائكة ايضا من عند ربهم بالسلام قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل
باب سلام عليكم وقال تعالى سلام قولا من رب رحيم الرابعة قوله تعالى وآخر
دعواهم اي واخر دعاهم ان الحمد لله رب العالمين اي ان يقولوا ذلك وان هي المخففة
من الثقيلة وقد ذكرنا ان بعض المفسرين حمل التسبيح والتحميد على احوال اهل الجنة
بسبب الماكول والمشروب فانهم اذا اشتهوا شيئا قالوا سبحانك اللهم فيحصل ذلك الشيء
فاذا فرغوا منه قالوا الحمد لله رب العالمين فترفع الموائد عند ذلك قال الرازي وهذا
القائل لما رأى في ظنه في بناء واخراه عن الماكول والمشروب وحقق مثل هذا الانسان
ان يعدل زمنا البهيم واما المحققون فقد تركوا ذلك ولا تبعة على هذه المناقشة
فقد قاله البغوي ونسبه جماعة من المفسرين وقال الخراج اعلم الله تعالى ان اهل
الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وبتنزيهه ويختمون بشكره والثناء عليه وقال
البيضاوي المعنى انهم اذا دخلوا الجنة ورأوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجدوه ونعتوه
بنعوت الجلال ثم حياتهم الملائكة بالسلام متعن الافات والغوائل صافا لكرامات
او الله تعالى مجدوه واثنوا عليه بصفات الاكرام ولما وصف تعالى الكفار بانهم لا يرجون
لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها وكانوا عن ايات الله غافلين بين ان من
غفلتهم ان الرسول متى انذرهم استعجلوا العذاب بحمقهم وسفههم بقوله تعالى
ولو يعجل الله للناس الشر اي ولو يعجل الله للناس اجابة دعائهم بالشر فيما لهم فيه مضرة
ومكروه استعجالهم بالخير اي كما يحبون ان يعجل لهم اجابتهم بالخير لقضي اليهم اجلهم اي
لاهلكهم ولكن عصمهم بذلك في النضر بن الحارث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك
فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم ويدل عليه قوله تعالى فنذر اي نترك

الذين

الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم اي في تمردهم وعتوهم يعمهون اي يترددون متحيرين
وقال ابن عباس هذا في قول الرجل عند الغضب لاهله وولده لعنكم الله لا بارك الله فيكم وقال
قتادة هو دعاء الرجل على نفسه واهله وماله بما يكره ان يستجاب له فيه وعن ابي هريرة
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اللهم اني اتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه انما انا بشر
فاي المؤمنين اذيته او شتمته او جلدته او لعنته فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة
تقربه بها الى يوم القيامة فان قيل كيف قابل التعجيل في الاية بالاستعجال وكان
مقتضى النظم ان يقابل التعجيل بالتعجيل والاستعجال بالاستعجال اجيب بان تقدير
الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم
بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقي عليه وقال في الكشاف اصل هذا الكلام ولو يعجل
الله للناس الشر تعجيله لهم بالخير الا انه وضع استعجالهم بالخير الا انه وضع استعجالهم
بالخير موضع تعجيله لهم بالخير اشعارا بسرعة اجابته لهم واسعافه بطلبتهم حتى كان
استعجالهم بالخير تعجيل لهم ولما حكى الله تعالى عنهم انهم يستعجلون في نزول العذاب
بين انهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال بقوله تعالى واذا مس الانسان اي الكافر
الضر اي المرض والفقر دعانا لجنبه اي على جنبيه مضطجعا او قاعدا او قائما وفائدة
التردد تعميم الدعاء لجميع الاحوال او لاصناف المضار والمعنى انه لو نزل بالاصناف ادنى
شيء يكرهه ويؤذيه فانه يتضرع الى الله تعالى في ازالته عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل
على انه ليس صادقا في طلب الاستعجال فلما كشفنا عنه ضره اي ازلنا عنه ما نزل به
مر اي مضى على ما كان عليه من الكفر كان لم يدعنا اي كانه فاسقط الضمير على سبيل
التخفيف ونظيره قوله تعالى الى ضر مسه قال الحسن نسي ما دعا الله فيه وما صنع الله
به في ازالة ذلك البلاء عنه وانما حمل الانسان في هذه الاية على الكافر لان العمل المذكور
لا يليق بالمسلم البتة وقول بعضهم كل موضع في القران ورد فيه ذكر الانسان فالمراد
هو الكافر مردود فقد قال تعالى هل اتى على الانسان حين من الدهر وقال تعالى
ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان ونعلم
ما توسوس به نفسه واما المؤمن اذا ابتلي ببلية ومحنة وجب عليه رعاية امور
اولها ان يكون راضيا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه وانما وجب عليه
ذلك لانه تعالى مالك على الاطلاق وملك بالاستحقاق فله ان يفعل في ملكه ما يشاء
ولانه تعالى حكيم على الاطلاق وهو منزه عن فعل العبث فكل ما فعله فهو حكمة وصواب
فيجب عليه الصبر وترك القلق فان ابقى عليه تلك المحنة فهو عدل وان ازالها عنه فهو
فضل وثانيها انه في ذلك الوقت ان اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلا عن الدعاء
كان افضل لقوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى من شغله ذكري عن مسئلتي
اعطيته افضل ما اعطي السائلين ولان الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق والاشتغال
بالدعاء اشتغال بطلب حظ النفس ولا شك ان الاول افضل وثالثها انه تعالى اذا ازال
عنه تلك البلية وجب عليه ان يبالغ في الشكر وان لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء
واحوال الشدة والرخاء فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء وحينئذ يكون
المؤمن على الضد من الكافر لان الكافر منهمك في الشهوات والاعراض عن العبادات

واسعافه

كان لم يلبثوا صح

BULAC

كما قال تعالى كذلك اي مثل ما زين لهولا الكافرين هذا العمل القبيح زين للمسرفين اي المشركين ما كانوا
يعملون من القبايح لاعراضهم عن الذكر واتباعهم الشهوات حين اشركوا وقوله تعالى وانما
سمي الكافر مسرفا لانه اتلف نفسه بتضييعها في عبادة الاوثان واتلف ماله في البحيرة
والسايبة والوصيلة والمزين هو الله تعالى لانه مالك الملك والخلق كلهم عبيد يتصرف
فيهم كيف يشا وقيل هو الشيطان وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك والا فهو اخس واحقر
ولقد اهلكنا القرون اي الامم الماضية من قبلكم يا اهل مكة لما ظلموا اي حين اشركوا وقوله تعالى
وجاتهم رسلهم بالبينات اي بالحجج الدالة على صدقهم حال من الواو باضمار قد او عطف
على ظلموا وما اي والحال انهم ما كانوا ليومنوا اي وما استقام لهم ان يومنوا ولو جاتهم
كل اية لعلمه تعالى بانهم يموتون على كفرهم واللام لتاكيد النفي كذلك اي مثل ذلك الجزا
العظيم وهو اهلاكهم لما كذبوا رسلهم نجزي القوم المجرمين اي نجزيكم يا اهل مكة بتكذيبكم
محمدا صلى الله عليه وسلم فوضع المظهر موضع المضمر للدلالة على كمال جرمهم وانهم اعلام فيه
ثم جعلناكم اي ايها المرسل اليهم اشرف رسلنا خلايف جمع خليفة في الارض من بعدهم
اي استخلفناكم فيها بعد القرون التي اهلكناها استخلاف من يختبر لننظر ونحن
اعلم بكم من انفسكم في علم الشهادة لاقامة الحجة كيف تعملون من خير او شر فنجازيكم به
وقد مر نظاير هذا ومنه قوله تعالى ليبلوكم ايكم احسن عملا وقال صلى الله عليه وسلم
ان الدنيا خضرة حلوة وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال قتادة صدق
الله ربنا ما جعلنا خلفا الا لينظر الى اعمالنا فاروا الله من اعمالكم خيرا بالليل والنهار
قال الزجاج وموضع كيف نصب بقوله تعملون اي لا معمول لننظر لانها حرف استفهام
والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله لان له صدر الكلام فلا يتقدمه عامله وظاهر كلامه
ان كيف مفعول لتعملون وجمهور النحاة على انه حال من ضمير تعملون واذا تتلى عليهم
اي واذا قرئ على هولا المشركين اياتنا اي القران بينات اي ظاهرات تدل على وحدانيتنا
او صحة نبوتك قال الذين لا يرجون لقانا اي لا يخافون عذابنا ولا يرجون ثوابنا
لانهم لا يومنون بالبعث بعد الموت وكل من كان منكرا للبعث بعد الموت فانه
لا يرجوا ثوابا ولا يخاف عقابا ائت اي من عندك بقران اي كلام مجموع جامع لما تريد
غير هذا في نظمه ومعناه او بدله بالفاظ اخرى والمعاني باقية وقد كانوا عالمين بانه
صلى الله عليه وسلم مثلهم في العجز عن ذلك ولكنهم قصدوا ان ياخذ في التغيير حرصا على اجابة
مطلوبهم فيبطل مدعاه او يهلك واختلف في هذا القايل فقال قتادة هم مشركوا
اهل مكة وقال مقاتل هم خمسة نفر عبد الله بن امية الجمحي والوليد بن المغيرة ومكرز
ابن حفص وعمرو بن عبد الله بن ابي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام قالوا للنبي
صلى الله عليه وسلم ان كنت تريد ان نومن بك فايت بقران ليس فيه ترك عبادة
اللات والعزى ومنات وليس فيه عيبها وان لم ينزلها الله فقل انت من عند نفسك
او بدله فاجعل مكان اية عذاب اية رحمة او مكان حرام حلالا او مكان حلال حراما
ولما كان كانه قيل فماذا اقول لهم قال الله تعالى قل لهم ما يكون اي ما يصح لي ولا يتصور
بوجه من الوجوه ان ابدله من تلقا نفسي وانما اكتفى بالجواب عن التبديل لاستلزام
امتناعه امتناع الاتيان بقران اخر وقرا نافع وابو عمرو بفتح اليا والباقون بالسكون

اي قيل صح

ان

إن أي ما أتبع إلا ما يوحى إلي فيما أمركم به وأنهاكم عنه أي لا أتى بشيء ولا أذر شيئا من تلقاء ذلك
الا متبعا لوحي الله تعالى وأوامره ان بدلت آية نسخت الشيء وأبدلت آية مكان آية
اتبعت التبديل وليس إلي تبديل ولا نسخ إني أخاف إن عصيت ربي أي بتبديل هذا
يوم عظيم هائل مؤمن به غير مكذب ولا شاك كغيري ممن يتكلم الهذيان مما لا يحاط فعاقبته
وذلك اليوم الذي يذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت عن ولدها وفزعا ناقع وبئر كثير
وابن عمرو علي وافي بمنع الياء والباقون بالسكون يا محمد لهو لا المشركين الذين طلبوا منك تغيير
القرآن وتبديله لو شاء الله ما تلوته عليكم أي لو شاء الله لم ينزل هذا القرآن ولم يأمرني
بقراءته عليكم ولا أدراكم به أي ولا أعلمكم به على لساني وقرأ ابن كثير بخلاف عن البزي بخلف الهمزة
بعد اللام بجواب لو أي لأعلمكم به على لساني غيري والباقون بالمد المنفصل وقرأ نافع
فقد لبثت أي مكثت قراءة نافع وابن كثير وعاصم بإظهار الثاء عند التاء والباقون بالإدغام
فلم أتفكر سنين أربعين من قبله أي قبل أن يوحى إلي هذا القرآن أي لا أتلوه ولا أعلمه فعلى لكم
إشارة إلى أن هذا القرآن معجز خارق للعادة وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا
رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره إلى ذلك الوقت وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع
كتابا ولا تلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد ثم بعد أن قارب أربعين سنة جاءهم بهذا الوحي
جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول ودقائق علم الأحكام ولطائف علم الأخلاق
وأسرار قصص الأولين وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء وكل من له عقل سليم
فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بوحي والإلهام من الله تعالى أفلا تعقلون أنا لا نستطيع
عقولكم بالتدبر والتفكر لتعلموا مثل هذا الكتاب العظيم عمن لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع
كتابا ولم يمارس مجادلة أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي من الله تعالى لا من تلقاء نفسه وهذا جواب
عما تمسكوا به من قولهم إيت بقرآن غير هذا أو بدله أمر إضافة الافتراء إليه بقوله أقام صلى الله
عليه وسلم بعد ما أوحي إليه بمكة ثلاث عشرة سنة ثم هاجر فأقام بالمدينة عشر سنين وتوفي
وهو ابن ثلاث وستين سنة قال النووي وورد في عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث روايات إحداها
أنه توفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ستين سنة والثانية خمس وستون سنة والثالثة
ثلاث وستون سنة وهي صحيحة وأشهرها وأقواها ولو روايتان ستين بإسقاط الزاي فاقتصر فيها
على العقود وترك الكسر وروايتان الخمس فيهما متساويتان وحصل فيها اشتباه ولما أقمت
الدلائل على أن هذا القرآن من عند الله وجب أن يقال أنه ليس في الدنيا أحد أجهل
ولا أظلم على نفسه من منكر ذلك كما قال تعالى فمن أي لا أحد أظلم مما افترى أي تعمد على الله
كذبا إلهيا أي كذب كان من شركائي أو ولدا أو غير ذلك ومكان الأصل مبني على تقدير أن لا يكون
هذا القرآن من عند الله ولكنه وضع هذا الظاهر مكانه تفهيما وتغليظا للحكم بالوصف
أو كذب بآياته أي دلائل توحيده تكذيبا كما فعلتم أنتم وذلك من أعظم الكذب وقوله
تعالى إنه أي الشأن لا يفلح أي يوجد منه الفلاح المجرمون أي المشركون تأكيد لما سبق من هذين
الوصفين ويعبدون أي يعبد المشركون من دون الله ما لا يضرهم أي إن لم يعبدوه ولا
ينفعهم أي إن عبدوه وهو الأصنام لأنها جماد وجماد لا يضر ولا ينفع والكفار قادرون
على التعرف فيها تارة بالإصلاح وتارة بالإفساد وإذا كان المعبود أصلح حالا من المعبود
كانت العبادة باطلة لأن العبادة أعظم أنواع التعظيم فلا يليق إلا بمن يضر وينفع

أي عبدوهم

بان يثيب على الطاعة ويعاقب على المعصية وكان اهل الطايف يعبدون اللات واهل مكة
العزى ومناة وهبل واسافا ونايلة ويقولون هؤلاء اي الاصنام التي نعبدها شفعاؤنا
عند الله ونظيره قوله تعالى اخبارا عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقيل انهم
وضعوا هذه الاصنام والاوثان على صور انبيائهم واكابرهم وزعموا انهم متى اشتغلوا
بعبادة هذه التماثيل فان اولئك الاكابر يكونون شفعاء لهم عند الله قال الرازي
ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الاكابر على اعتقاد انهم اذا
عظموا قبورهم فانهم يكونون شفعاء لهم عند الله انتهى ولكن تعظيمهم لهؤلاء ليس كتعظيم
الكفار وفي هذه الشفاعة قولان احدهما انهم يزعمون انها تشفع لهم فيما يهمهم من امور
الدنيا في اصلاح معايشهم قاله الحسن لانهم كانوا لا يعتقدون بعثا بعد الموت والثاني
يزعمون انها تشفع لهم في الاخرة ان يكن بعث قاله بن جريج عن ابن عباس وكانهم كانوا
شاكين فيه وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة موجدهم الضار النافع الى عبادة
ما يعلم قطعا انه لا يضر ولا ينفع على توهم انه ربما يشفع لهم قال النضر بن الحارث اذا كان
يوم القيامة شفعت اللات والعزى وقوله تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين أتنبئون
اي اتخبرون الله وهو العالم بكل شيء المحيط بكل شيء بما لا يعلم اي لا يوجد له به علم في وقت
من الاوقات استفهام انكار وتهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الاصنام
واعلام بان الذي انبأوا به باطل غير منطو تحت الصحة فكانهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه
وقوله تعالى في السموات ولا في الارض تاكيد لنفيه لان ما لم يوجد فيهما فهو منتف
معدوم وهذا على طريق الالزام والمقصود نفي علم الله بذلك الشفيع وانه لا وجود له
البتة لانه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى
وجب الا يكون موجودا وهذا مثل مشهور في العرب فان الانسان اذا اراد نفي شيء عن نفسه
يقول ما علم الله ذلك مني ومقصوده انه ما حصل ذلك الشيء منه قط ولا وقع سبحانه
اي تنزيها له عن كل شائبة نقص وتعالى عما يشركون ما مصدرية او موصولة اي عن اشراكهم
او عن الشركاء الذين يشركونهم به وقرا حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لقوله اتنبئون
الله والباقون بالياء على الغيبة فكانه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم قل انت سبحانه
وتعالى عما يشركون ويجوز ان يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي نزه نفسه عما قالوه فقال
سبحانه وتعالى عما يشركون ولما اقام تعالى الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة
الاصنام بين السبب في كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد بقوله تعالى وما كان الناس
الا امة واحدة اي جميعا على الدين الحق وهو دين الاسلام وقيل على الضلال في فترة الرسل
واختلف القائلون بالاول انهم متى كانوا كذلك فقال بن عباس ومجاهد كانوا على دين
الاسلام من لدن ادم الى ان قتل قابيل هابيل وقال قوم الى زمن نوح وكانوا عشرة قرون
ثم اختلفوا في عهد نوح فبعث الله تعالى اليهم نوحا وقال اخرون كانوا على دين الاسلام
من زمن نوح بعد الغرق الى ان ظهر الكفر فيهم وقال اخرون من عهد ابراهيم عليه السلام
حيث لم يذر الله على الارض من الكافرين ديارا الى ان ظهر الكفر فيهم وقال اخرون من عهد
ابراهيم عليه السلام الى زمن عمرو بن لحي وهذا القائل قال المراد من الناس في قوله
تعالى وما كان الناس الا امة واحدة العرب خاصة فاختلفوا بان ثبت بعض وكفر بعض

ولولا

ولولا كلمة سبقت من ربك وهو تاخير الحكم الى يوم القيامة وقيل تلك الكلمة هي قوله
سبحانه سبقت رحمتي غضبي فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة
اسبال الستر على الجاهل الضال وامهاله الى وقت الوجدان لقضي بينهم اي الناس
بنزول العذاب في الدنيا دون يوم القيامة فيما فيه يختلفون من الدين باهلاك المبطل
وابقاء المحق وكان ذلك فصلا بينهم ويقولون اي كفار مكة لولا اي هلا انزل عليه
اي محمد صلى الله عليه وسلم اية من ربه اي غير ما جاء به كما كان للانبياء من الناقة
والعصا واليد فقل يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين انما الغيب اي ما غاب عن
العباد امره لله اي هو المختص بعلمه ومنه الايات فلا ياتي بها الا هو وانما على
التبليغ فانتظروا اي نزول ما اقترحتموه وقيل نزول العذاب ان لم تؤمنوا اني معكم
من المنتظرين اي لما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحودكم الايات وكفى بالقران
وحده اية باقية على وجه الدهر بديعة في الايات رقية المسلك بين المعجزات مع عجزكم
عن معارضته بتبديل او غيره فاي عناد اعظم من هذا واذا اذقنا الناس اي كفار
مكة رحمة اي صحة وسعة من بعد ضراء اي شدة وبلاء مستهم سلط الله تعالى القحط
سبع سنين على اهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم فانزل عليهم المطر الكثير حتى
اخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك فلم يتعظوا بذلك بل رجعوا الى العناد والكفر
كما قال تعالى اذا لهم مكر في اياتنا بالاستهزاء والتكذيب وقيل لا يقولون هذا
من رزق الله انما يقولون سقينا بنوء كذا وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان الله
تعالى ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها فيصبح طائفة منهم بها كافرين يقول مطرنا بنوء كذا
والنوء عند العرب هي منازل القمر اذا طلع نجم سقط نظيره قل الله اي قل لهم يا محمد الله
اسرع مكرا منكم اي اعجل عقوبة واشد اخذا واقدر على الجزاء ومعنى الوصف بالاسرعية
انه قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم والمكر اخفاء الكيد وهو من الله تعالى اما
الاستدراج او الجزاء على المكر فانهم لما قابلوا نعمة الله تعالى بالمكر قابل مكرهم باشد
منه وهو امهالهم الى يوم القيمة ان رسلنا اي الحفظة الكرام الكاتبين يكتبون
ما تمكرون لانهم وكلوا بكم قبل كونكم نطفا ولم يوكلوا بكم الا بعد علم موكلهم بكل ما تفعلون
ولا يكتبون مكركم الا بعد اطلاعهم عليه واما هو سبحانه وتعالى فانه اذا قضى قضاء لا يمكن
ان يطلع عليه رسله الا باطلاعه فكيف بغيرهم واذا تبين انه عالم بامورهم وهم جاهلون
بامور علم انه لا يدعهم يدبرون كيدا الا وقد سبب له ما يجعله في نحورهم وقرا ابو عمرو
بسكون السين والباقون بالرفع ثم اخذ سبحانه وتعالى يبين ما تتضح به اسرعية مكره
في مثال دال على ما في الاية قبلها لان المعنى الكلي لا يصل الى افهام السامعين الا بذكر مثال جلي
واضح ينكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي فقال هو الذي يسيركم اي يحملكم على السير في كل
وقت تسيرون فيه لا تقدرون على الانفكاك عنه ويمكنكم منه في البر والبحر اي يسبب
لكم اسبابا يوجب سيركم فيهما وقرا ابن عامر بعد الياء الاولى بنون ساكنة بعدها شين
معجمة مضمومة والباقون بسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة ولما كان
العطب بسير البحر اظهر مع ان السير فيه من اكبر الايات واوضح البينات بينه معرضا
عن ذكر البر بقوله حتى اذا كنتم اي كونا لا براح لكم منه في الفلك اي السفن فان قيل كيف جعل

الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر مع ان الكون في الفلك متقدم لا محالة على السير في البحر
اجيب بانه لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير بل تقدير الكلام كانه قيل هو الذي يسيركم
حتى اذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا ولفظ الفلك تطلق
على الواحد وعلى الجمع فان اريد الواحد كان كبنا فقل او الجمع كان كبنا حمر والمراد هنا الجمع
لقوله تعالى وجرين بهم اي بمن فيها وعدل عن الخطاب الى الغيبة للمبالغة كانه يذكر لغيرهم
حالهم لتعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح والالتفات في الكلام من الغيبة الى الحضور
والعكس في فصيح الكلام الغريب بريح طيبة اي لينة الهبوب فرحوا بها اي بتلك الريح
وبالفلك الجارية بها وقوله تعالى جاءتها جواب اذا والضمير للفلك او للريح الطيبة
بمعنى تلقتها ريح عاصف اي شديدة الهبوب فازعجت سفنهم وانسانهم وجاءهم الموج
اي وجاء ركاب السفينة الموج وهو ما ارتفع وعلا من اضراب الماء في البحر وقيل هو شدة حركة
الماء واختلاطه من كل مكان اي يعتاد مجيء الموج منه فارجف قلوبهم وظنوا انهم احيط بهم
اي وظنوا ان الهلاك قد احاط بهم وسدت عليهم مسالك الخلاص كمن احاط به العدو دعوا الله
مخلصين اي من غير اشتراك بدله الدين اي الدعاء لانهم لا يدعون حينئذ غيره لان الانسان
في هذه الحالة لا يطمع الا في فضل الله ورحمته ويصير منقطعا عن جميع الخلق ويصير
بقلبه وروحه وجميع اجزائه متضرعا الى الله تعالى وقوله تعالى لئن انجيتنا من هذه
الشدائد التي نحن فيها وهي الريح العاصفة والامواج الشديدة لنكونن من الشاكرين
على ارادة القول او مفعول دعوا لانه من جملة القول اي لنكونن من الشاكرين لك بالايمان
والطاعة على انعامك علينا بانجائنا مما نحن فيه من هذه الشدة فلما انجاهم اي هؤلاء
الذين ظنوا انهم احيط بهم من الشدة التي كانوا فيها اجابة لدعائهم اذا هم يبغون اي
فاجؤوا الفساد وسارعوا الى ما كانوا عليه من الكفر والمعاصي في الارض اي جنسها
بغير الحق فان قيل البغي لا يكون بحق فما معنى قوله تعالى بغير الحق اجيب بانه قد يكون
بحق كاستيلاء المسلمين على ارض الكفرة وهدم دورهم واحراق زروعهم وقلع وقطع
اشجارهم كما فعل صلى الله عليه وسلم ببني قريظة فان ذلك افساد بحق قال صاحب
المفردات البغي على ضربين احدهما غير محمود وهو مجاوزة الحق الى الباطل والى الشبهة اي
والاخر كفعل المسلمين بما ذكر يا ايها الناس انما بغيكم اي ظلمكم على انفسكم لعود وباله
عليها خاصة قال صلى الله عليه وسلم اسرع الخير ثوابا صلة الرحم واعجل الشر عقابا البغي
واليمين الفاجرة وروي ثنتان يعجلهما الله تعالى في الدنيا البغي وعقوق الوالدين وعن
ابن عباس لو بغى جبل على جبل لاندك الباغي وكان المامون يتمثل بهذين البيتين
يا صاحب البغي ان البغي مصرعة ۞ فاربع فخير فعال الخير اعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل ۞ لاندك منه اعاليه واسفله ۞ وعن محمد بن كعب
ثلاث من كن فيه كن عليه البغي والنكث والمكر وعلى تقدير الانتفاع بالبغي هو غرض زائل
كما قال تعالى متاع الحياة الدنيا اي لا يتهيأ لكم بغي بعضكم على بعض الا اياما قليلة وهي مدة
حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها الينا بعد البعث مرجعكم في القيامة فننبئكم اي فنخبركم
بما كنتم تعملون في الدنيا من البغي والمعاصي فنجازيكم عليها وقد خفض متاع بنصب العين
على انه مصدر مؤكد اي تتمتعون متاع الحياة الدنيا والباقون بالرفع على انه خبر بغيكم وعلى

انفسكم

انفسكم صلته او خبر مبتدا محذوف تقديره ذلك متاع الحياة الدنيا وعلى انفسكم خبر بغيكم ولما
قال تعالى يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم متاع الحياة الدنيا اتبعه بمثل عجيب هزيه
لمن يبغي في الارض ويغتر بالدنيا ويشتد تمسكه بها ويقوى اعراضه عن امر الاخرة والتاهب
لها بقوله تعالى انما مثل الحياة الدنيا اي حالها العجيب في سرعة تقضيها وذهاب
نعيمها بعد اقبالها واغترار الناس بها والمثل قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالاول
كما انزلناه وحقق امره وبينه بقوله تعالى من السماء فاختلط به اي بسببه نبات الارض
اي اشتبك بعضه ببعض والاختلاط تداخل الاشياء بعضها في بعض مما ياكل الناس
من الحبوب والثمار ونحو ذلك ومما ياكل الانعام من الحشيش ونحوه حتى اذا اخذت
الارض زخرفها اي حسنها وبهجتها من النبات وازينت باظهار الوان زهرها من ابيض واصفر
واحمر وغير ذلك من الزهور كالعروس اذا اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فالتبستها
وتزينت بغيرها من الوان الزين واصل ازينت تزينت ابدلت التاء زايا وادغمت
في الزاي وظن اهلها اي اهل تلك الارض انهم قادرون عليها اي متمكنون من تحصيل جذاذها
وحصادها اتاها امرنا اي قضاؤنا من البرد والحر المفرط او غيره ليلا او نهارا اي في
الليل او في النهار فجعلناها اي زرعها حصيدا اي كالمحصود بالمناجل وقوله تعالى كان
مخففة اي كانها لم تغن اي لم تكن بالامس تلك الزروع والاشجار قائمة على ظهر الارض وحذف
المضاف من فجعلناها ومن لم تغن للمبالغة تنبيه تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات
يحتمل وجوها الاول ان عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفعها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا
النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع الياس منه لان الغالب ان المتمسك بالدنيا
اذا وضع قلبه عليها وعظمت رغبته فيها ياتيه الموت وهو معنى قوله تعالى حتى اذا فرحوا بها
اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون اي خاسرون الدنيا او قد انفقوا اعمارهم فيها
وخاسرون من الاخرة مع انهم توجهوا اليها الثاني انه تعالى بين انه كما لم يحصل لذلك الزرع
عاقبة محمودة فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل لها عاقبة تحمد مع ان المنافع
التي يحصل فيها مخلوطة بالمضار والمتاعب وان سعادة الدنيا غير خالصة عن الافات
بل هي ممزوجة بالبليات والاستقراء يدل عليه ولذلك قال صلى الله عليه وسلم من طلب
ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل يا رسول الله وما هو قال مسرور يوم بتمامه
الثالث ان مالك ذلك البستان لما عمرها باتعاب النفس وكد الروح وعلق قلبه على الانتفاع
بها فاذا حصل ذلك السبب المهلك صار العناء الشديد الذي يحمله في الماضي سببا لحصول
الشقاء الشديد له في المستقبل وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات فكذا حال من وقع قلبه
على الدنيا واتعب نفسه في تحصيلها فاذا مات وفاته كلما فات صار العناء الذي يحمله
في تحصيل اسباب الدنيا سببا لحصول الشقاء العظيم له في الاخرة كذلك اي مثل
هذا التفصيل الذي ذكرناه نفصل الايات اي نبينها لقوم يتفكرون لانهم المنتفعون
بها ولما نفر تعالى الغافلين عن الميل الى الدنيا بالمثل السابق رغبهم في الاخرة بقوله
تعالى والله يدعو اي يعلق دعاءه على سبيل التجدد والاستمرار بالمدعوين الى دار السلام
قال قتادة السلام هو الله وداره الجنة وسمي سبحانه وتعالى بالسلام لانه واجب الوجود
لذاته فقد سلم من العناء والتغير وسلم في احتياجه في ذاته وصفاته من الافتقار

لم تغن

الى الغير وهذه الصفة ليست الا له تعالى كما قال تعالى والله الغني وانتم الفقراء وقال
تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله وقيل السلام بمعنى السلامة وقيل المراد بالسلام الجنة
سميت الجنة دار السلام لان اهلها يحيي بعضهم بعضا بالسلام والملائكة تسلم عليهم قال
الله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ومن كمال رحمته وجوده وكرمه
على عباده اذ دعاهم الى جنته التي هي دار السلام وفيه دليل على ان فيها ما لا عين رات ولا
اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لان العظيم لا يدعوا الا الى عظيم ولا يوصف الا عظيما
وقد وصف الله تعالى الجنة في ايات كثيرة من كتابه وعن جابر قال جاءت ملائكة الى النبي
صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقالوا ان لصاحبكم هذا مثلا مثله كرجل بنى دارا وجعل فيها
مادبة وبعث داعيا فمن اجاب الداعي دخل الدار واكل من المادبة ومن لم يجب الداعي
لم يدخل الدار ولم ياكل من المادبة والدار الجنة والداعي محمد صلى الله عليه وسلم والله يهدي
من يشاء من عباده بما يخلق في قلبه من الهداية الى صراط مستقيم وهو دين الاسلام عمم سبحانه
وتعالى بالدعوة اولا اظهارا الى الحجة وخص بالهداية ثانيا اظهارا للقدرة لان الحكم له في خلقه
فقال الجنيد الدعوة عامة والهداية خاصة بل الهداية عامة والصحبة خاصة بل الصحبة
عامة والاتصال خاص وقيل يدعو بالايات ويهدي للحقائق والمعارف وقيل الدعوة
لله والهداية من الله وقال بعضهم لا تنفع الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية للذين
احسنوا اي بالايمان الحسنى وهي الجنة وزيادة وهي النظر اليه تعالى في الاخرة كما في الحديث
الصحيح اذا دخل اهل الجنة الجنة نودوا ان يا اهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون اليه
فوالله ما اعطاهم الله شيئا هو احب اليهم منه والزمخشري في كشافه قال في هذا وزعمت المشبهة
والمجبرة لان المعتزلة ينكرون الرؤية ويرد عليهم قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة
الى ربها ناظرة واثبت الله تعالى لاهل الجنة امرين احدهما النضارة وهي حسن الوجوه
وذلك من نعيم الجنة والثاني النظر الى الله تعالى وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحسنى الجنة
والزيادة عشرة امثالها وعن الحسن عشر امثالها الى سبعمائة ضعف وعن مجاهد الزيادة
مغفرة من الله ورضوان وعن زيد بن شجرة الزيادة ان تمر السحابة باهل الجنة فتقول
ما تريدون ان امطركم فلا يريدون شيئا الا امطرتهم ولا مانع ان تفسر الزيادة بذلك كله
اذ لا تنافي فيها والفضل واسع ولا يرهق اي يغشى وجوههم قتر اي سواد ولا ذلة
اي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان اولئك اي هؤلاء الذين وصفهم الله هم اصحاب
الجنة وقوله تعالى هم فيها خالدون اشارة الى كونها دائمة امنة من الانقطاع ولا زوال
فيها ولا انقراض بخلاف الدنيا وزخارفها ولما بين تعالى حال الفضل فيمن احسن بين حال
العدل فيمن اساء بقوله تعالى والذين كسبوا السيئات اي الشرك جزاء سيئة منهم بمثلها
بعدل الله من غير زيادة وفي ذلك اشارة الى الفرق بين الحسنات والسيئات لان الحسنات
يضاعف ثوابها لعاملها من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة تفضلا
منه تعالى وتكرما واما السيئة فانه يجازي عليها بمثلها عدلا منه تعالى وترهقهم اي تغشاهم
ذلة عكس اهل الجنة ما لهم من الله من عاصم يمنعهم من عذاب الله تعالى اذا نزل بهم
كانما اغشيت اي البست وجوههم قطعا من الليل مظلما لفرط سوادها وظلمتها وقرا
ابن كثير والكسائي بسكون الطاء اي جزءا والباقون بفتحها جمع قطعة اي اجزاء اولئك اي هؤلاء

الاشقياء

الاشقيا اصحاب النار يقرنهم حالهم لا يتمكنون من مفارقتها واذكر يوم نحشرهم اي
الفريقين الناجين والهالكين العابدين منهم والمعبودين من كل جانب وناحية الى موقف
الحساب حال كونهم جميعا لا يتخلف منهم احد وهو يوم القيمة والحشر الجمع بكره الى موقف
واحد ثم نقول للذين اشركوا مكانكم ايها الزموا مكانكم لا تبرحوا منه حتى تنظروا ما يفعل
بكم وقوله تعالى انتم تاكيد للضمير المستتر في الفعل المقدر ليعطف عليه وشركاؤكم
ايمن كنتم تعبدونه من دون الله فزيلنا فرقنا بينهم اي بين المشركين وشركائهم وقطعنا
ما كان بينهم من التواصل في الدنيا وذلك حين يرا كل معبود من دون الله ممن عبده
وقيل فرقنا بينهم وبين المؤمنين كما في اية وامتازوا اليوم ايها المجرمون والاول
انسب بقوله تعالى وقال شركاؤهم لهؤلاء المشركين ما كنتم ايانا تعبدون اي ما كنتم
تعبدون الشياطين حيث امروكم ان تتخذوا من دون الله اندادا ما طعنوهم واختلفوا في المراد
بهؤلاء الشركاء فقال بعضهم الملائكة واستشهدوا بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول
للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون وبعضهم من قال هي الاصنام والدليل عليه ان هذا الخطاب
مشتمل على التهديد والتوبيخ وذلك لا يليق بالملائكة المقربين وسموا شركاء لانهم جعلوا
نصيبا من اموالهم لتلك الاصنام فصيروهم شركاء لانفسهم في تلك الاموال ثم اختلفوا
في هذه الاصنام كيف ذكرت هذا الكلام فقال بعضهم ان الله تعالى خلق الحياة والعقل
والنطق فيها فقدرت على ذكر هذا الكلام وقال اخرون ان الله تعالى خلق فيها الكلام من غير
ان يخلق منها الحياة حتى سمع منها ذلك الكلام والاول اظهر لان ظاهر قوله تعالى وقال
شركاؤهم يقتضي ان يكون فاعل ذلك القول هو الشركاء فان قيل اذا احياها الله تعالى
هل ينفعها او يضرها اجيب بان الكل يحتمل فان الله تعالى يفعل ما خلقها ما شاء من احوال
العقلاء غير معلومة الا القليل الذي اخبر الله تعالى عنه في القرآن وعلى لسان انبيائه
وقال بعضهم المراد بهؤلاء الشركاء كل من عبد من دون الله من انسي وملك وجني وشمس وقمر
وصنم وهذا اظهر وعلى هذا الاول سموا شركاء لان الله تعالى لما خاطب العابدين
والمعبودين بقوله تعالى مكانكم صار واشركاء في هذا الخطاب والحاق الهم شركاؤهم ذلك
قالوا بل كنا نعبدكم فقال شركاؤهم فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم فانه تعالى العالم بكنه الحال
ان كنا عن عبادتكم لغافلين اي لم نامرهم ولم نعلم بها وعلى القول بانها الاصنام فتقول
ما كنا نسمع ولا نبصر ولا نفعل لانها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور البتة تبلو
اصلها تختبر من التبلية واللام هي الفارقة بين الخفيفة والثقيلة هنالك اي في ذلك
الموقف من الكائنة في الزمان العظيم الاهوال المتوالي الزلزال تبلوا اي تختبر كل نفس طاعة
وعاصية ما اسلفت اي ما قدمت من عمل فتعلم من نفعه وضره هل يودي الى سعادة
او شقاوة وقد احرز والكناية تتلو من التلاوة اي تقرا ذكر ما قدمت او من المتلوا
فتتبع كل شخص عمله فيقوده الى الجنة والى النار والتالوة بعد التاء ثاء موحدة من
البلوى وهو الاختبار ورد وا الى الله اي الى حكمه ايا هم عما اشركوا فلم يكن لهم قدرة
على قصد غيره مولاهم الحق اي ربهم ومتولي امرهم الخ فتعلقة والالتفات الى سواه لمن ذلك
الا باطيل بل انقطع رجاؤهم من كل شيء كما تواجد عبوديته في الدنيا وهو المراد بقوله تعالى وضل
عنهم اي ذهب وبطل وضاع ما كانوا يفترون اي يتعمدون كذبه من ان معبوداتهم

شركا ويتقنوا في ذلك المقام ان توليهم لغير الله كان باطلا غير حق ولما بين تعالى فضايح عبدة
الاوثان اتبعها بذكر الدلايل على فساد هذا المذهب بحجج الحجة الاولى قوله تعالى قل اي قل يا كفرة
المشركين من يرزقكم من السما بالمطر والارض بالنبات وانحصر الرزق في ذلك اما من السما
فبنزول الامطار واما من الارض فلان الغذا اما ان يكون نباتا او حيوانا اما النبات فلا
ينبت الا من الارض واما الحيوان فهو محتاج ايضا الى الغذا ولا يمكن ان يكون غذا كل حيوان
حيوانا اخر والا لزم الذهاب الى ما لا نهاية له وذلك محال فثبت ان اغذية الحيوانات
تحت انتهاوها الى النبات وثبت ان تولد النبات من الارض فثبت القطع ان الارزاق
لا تحصل الا من السما والارض امن يملك السمع اي الاسماع والابصار اي من يستطيع خلقهما
وتسويتهما على الحد الذي سويا عليه من الفطرة العجيبة عن علي رضي الله تعالى عنه كان
يقول سبحان من بصر بشحم واسمع بعظم وانطق بلحم او يحميهما ويحصنهما من الافات
مع كثرتها في المدد الطوال وهما الطيفان يوذيهما ادنى شي بكلالة وحفظه ومن يخرج الحي من الميت
كان يخرج الانسان من النطفة والطاير من البيضة ويخرج الميت من الحي كان يخرج النطفة
من الانسان والبيضة من الطاير وقيل المراد ان يخرج المومن من الكافر والكافر من المومن
وقرا نافع وحفص وحمزة والكسائي ميت في الموضعين بعد الميم بكسر اليا مشددة والباقون
بعد الميم بسكون اليا ومن يدبر الامر اي ومن يلي تدبير امر الخلايق وهو تعميم بعد
تخصيص وذلك لان اقسام تدبير الله تعالى في العالم العلوي وفي العالم السفلي وفي عالمي
الارواح والاجساد امور لا نهاية لها وذكر كلها كالمتعذر فلما ذكر بعض تلك التفاصيل عقبها
بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بين تعالى ان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا سالهم عن مدبر
هذه الاحوال فسيقولون الله اي لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه
واذا كانوا يقرون بذلك فقل لهم يا محمد افلا تتقون الشرك مع اعترافكم بان كل الخيرات في الدنيا
والاخرة انما تحصل من فضل الله واحسانه فذلكم الله ربكم الحق اي الثابت ربوبيته
ثباتا لا ريب فيه واذا ثبت ان هذا هو الحق وجب ان يكون ما سواه ضلالا لان النقيضين
يمتنع ان يكونا حقين وان يكونا باطلين فاذا كان احدهما حقا وجب ان يكون ما سواه باطلا
كما قال تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال اي لا واسطة بينهما فهو استفهام تقرير اي ليس
بعده غيره فمن اخطى الحق وهو عبادة الله تعالى وقع في الضلال ولذلك سبب عنه قوله
تعالى فانى اي فكيف ومن اي جهة تصرفون اي تعدلون عن عبادته وانتم مقرون بان الله
هو الحق كذلك اي كما حقت الربوبية لله تعالى او ان الحق بعده الضلال او انهم مصروفون
عن الحق حقت كلمة ربك في الازل على الذين فسقوا اي تمردوا في كفرهم وخرجوا عن حد
الاستصلاح وقوله تعالى انهم لا يومنون بدل من الكلمة اي حق عليهم انتفا الايمان
وعلم الله منهم ذلك والمراد بالكلمة العدة بالعذاب وهي لاملان جهنم الاية وانهم لا يومنون
تعليل بمعنى لانهم لا يومنون او ذلك تفسير لكلمة التي حقت وقرا نافع وابن عامر كلمة
بالف مع الميم على الجمع والباقون بغير الف بعد الجيم على الافراد الحجة الثانية قوله تعالى قل اي
قل لهم يا محمد هل من شركايكم اي الذين زعمتموهم شركا واشركتموهم في اموالكم وفي انعامكم
وزرعكم من يبدا الخلق كما بدانه ليصح لكم ما ادعيتم من الشركة ثم يعيده كما كان فان قيل
هم غير معترفين بالاعادة فكيف احتج عليهم تعالى بها كالابتدا في الالزام بها اجيب بانها

لظهور

ظهور برهانه وان لم يقروا به وضعت موضع ما ان دفعه دافع كان مكابرا واراد الظاهر البين
الذي لا مدخل للشبهة فيه دلالة على انهم في انكارهم لها منكرون امرا معلوما معترفا بصحته
عن العقلاء ولذلك امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يثوب عنهم في الجواب بقوله تعالى
قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده لان لجاجهم لا يدعهم اي يعترفوا بانه فانى اي فكيف تؤفكون
عن عبادته مع قيام الدليل فان قيل ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل الشوال والاستفهام
اجيب بان الكلام اذا كان ظاهرا جليا ثم ذكر على سبيل الاستفهام كان ذلك ابلغ واوقع في القلب
الحجة الثالثة قوله تعالى قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق نصب الحجج وخلق الاهتداء
وارسال الرسل ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق ذكر الله ومعاندين امر الله تعالى رسوله
صلى الله عليه وسلم ان يجيب عنه بقوله تعالى قل الله الذي له الاحاطة الكاملة يهدي للحق من يشاء
لا احد ممن زعمتموهم شركاء لاشتغال كل منهم بعبادة او غيرها بجهل محض قال الزجاج
يقال هديت الى الحق وهديت للحق بمعنى واحد والله تعالى ذكرهما بين اللغتين في قوله تعالى
من يهدي الى الحق وفي قوله تعالى قل الله يهدي للحق افمن يهدي الى الحق اي يرشد الله تعالى
احق ان يتبع امن لا يهدي اي لا يهتدي الا ان يهدى اي الا ان يتكلف ان يهتدي فيحتاج
اي الاول احق مالكم كيف تحكمون هذا الحكم الفاسد من اتباع من لا يستحق الاتباع وقوله
تعالى وما يتبع اكثرهم في تفسيره وجهان الاول وما يتبع اكثرهم في اقرارهم بالله تعالى الا ظنا
لانه قول غير مستند الى برهان عندهم بل يسمعونه من اسلافهم الثاني وما يتبع اكثرهم
في قولهم للاصنام انها شفعاء عند الله الا ظنا حيث قلدوا فيه آباءهم الرازي
والقول الاول اقوى لانا في القول الثاني نحتاج الى تفسير الاكثر بالكل ان الظن لا يغني من الحق
شيئا فيما المطلوب فيه العلم شيئا من الاغناء دلت هذه الآية على ان كل من كان ظانا في شيء
من اصول دينه ما كان قاطعا لا يكون مؤمنا فان قيل المقلد ظان مع انه يحكم بايمانه
وجوابه ان الجزم الذي يحصل للمقلد اقوى من الظن الذي يحصل للناظر فان قيل
فيلزم ان يكون ايمان المقلد اقوى من ايمان الناظر وهو باطل قلنا لا نسلم ان الجزم
الحاصل للمقلد اقوى من الجزم الحاصل للناظر الرازي ان الظن لا يغني من الحق
شيئا من الاغناء دلت هذه الآية على ان كل من كان ظانا في شيء من

ما كتب الله من الاحكام وغيرها لا ريب اى لا شك فيه وقوله تعالى من رب العالمين متعلق بتنزيل
او بمترل المحذوف ام اى بل اتقولون افتراه اى اختلقه محمد ومعنى الهمزة فيه للانكار فاذا
فعل ذلك فقل لهم يا محمد ان كان الامر كما يقولون فاتوا بسورة مثله فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم فانتم
عرب مثله فى البلاغة والفطنة فان فعل هذا تناول لذلك جميع السور الصغار والكبار فان قيل خص
بالسور الكبار اجيب بان هذه الاية فى سورة يونس وهى مكية فيكون المراد مثل هذه السورة
لانها اقرب ما يمكن ان يشار اليه هكذا اجاب الرازى والاولى التناول لجميع السور فانهم لا يقدرون
ان ياتوا باقصر سورة فان قيل لم قال فى سورة البقرة من مثله وهنا بسورة مثله اجيب بانه
صلى الله عليه وسلم لم يقرا ولم يكتب ولم يتلمذ لاحد فقيل له فى سورة البقرة فاتوا بالسورة من مثله
بناء على ان الضمير يرجع للنبى صلى الله عليه وسلم اى فليات بانسان يساوى محمدا عليه الصلاة والسلام
فى عدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوى هذه السورة وحيث ظهر
العجز ظهر المعجز فهذا الاية تدل على ان السورة فى نفسها معجزة وكذلك تدل على ان ظهور مثل هذه
السورة من انسان مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى عدم التعلم والتلمذ معجزة بين تعالى فى هذه
السورة ان تلك السورة فى نفسها معجزة فان الخلق وان تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا لا يمكنهم
الاتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور وهو المراد من قوله تعالى وادعوا من
استطعتم اى فاستعينوا ممن امكنكم ان تستعينوا به من دون الله اى غيره فانه تعالى وحده
قادر على ذلك ان كنتم صادقين اى فى انى اتيت به من عندى لان العاقل لا يجزم بشىء الا اذا
كان عنده منه مخرج وذلك لا يكون الا عن دليل ظاهر وسلطان قاهر وبرهان نير مزاحة مدارك تحدى
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن مستند او لها انه تحداهم بكل القرآن كما قال تعالى
قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيرا ثانيها انه تحداهم بعشر سور قال تعالى فاتوا بعشر سور مثله مفتريات
ثالثها انه تحداهم بسورة واحدة كما قال تعالى فاتوا بسورة من مثله رابعها انه تحداهم
بحديث مثله خامسها ان فى تلك المراتب الاربعة كان يطلب منهم ان ياتوا بالمعارضة رجلا
بعد رجل او كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحداهم فى عدم التلمذ والتعلم فى هذه السورة طلب
منهم معارضة واحدة من اى انسان شاء التعلم العلوم ام لم يتعلم سادسها ان فى المراتب
المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق وفى هذه المرتبة تحدى جميعهم وجوز ان يستعين
البعض بالبعض فى الاتيان بهذه المعارضة كما قال تعالى وادعوا من استطعتم من دون
الله وههنا اخر المراتب فهذا مجموع الدلائل التى ذكرها الله تعالى فى اثبات ان القرآن معجز
ثم ان الله تعالى ذكر الشبهة التى لاجلها كذبوا بالقرآن فقال تعالى بل كذبوا اى اوقعوا التكذيب
الذى لا تكذيب اشنع منه من غير روية فى ذلك بما لم يحيطوا بعلمه اى القرآن اول ما سمعوه قبل
ان يتدبروا ايا ته من غير بهتة اصلا بل عنادا وطغيانا ويقرب منه مما لا مجال دفعه فهو من باب
من جهل شيا عاداه والاحاطة ادارة ما هو كالحايط حول الشى فاحاطة العلم بالشى العلم به
من جميع وجوهه ولما يأتهم اى الى زمن تكذيبهم تاويله اى تاويل ما فيه من الاخبار
بالغيوب وعاقبة ما فيه من الوعد حتى يتبين لهم انه صدق ام كذب ومعنى التوقع فيما
انه قد ظهر لهم بالاخرة مجازه لما كرر عليهم التحدى بحروفهم فى معارضته فصعرت
وضعفت دونها ومع هذا لم يقلعوا عن التكذيب تمردا وعنادا كذلك اى مثل تكذيبهم هذا

التكذيب

التكذيب العظيم في الشناعة قبل تدبر المعجز كذبت الذين من قبلهم اي من كفار الامم الخالية فعاملوا فاهلكناهم بظلمهم فانظر يا محمد كيف كان عاقبة الظالمين تكذيب الرسل الى اخرهم من الهلاك فكذلك كذبك فيهلك من كذبك من قومك وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ويحتمل ان يكون الخطاب لكل فرد من الناس والمعنى فانظر ايها الانسان كيف كان عاقبة من ظلم فاحذر ان تفعل مثل فعله ومنهم اي من قومك يا محمد من يستمع اليك بالقرآن ليصدق به في نفسه ويعلم انه حق ولكنه يعاند بالتكذيب ومنهم من لا يؤمن به في نفسه لعناده وقلة تدبره او منهم من يؤمن به في المستقبل بان تتوب عن الكفر ويبدو له بالايمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر وانما فسرت هذه الاية بهذين الوجهين لان كلمة من تصلح للحال والاستقبال وانكنة اكنة اغطية جمع كنان ما يغطى به الشيء وهو ما يستر به الشيء كالجعبة للسهام والغلاف للسيف اي اغطية عظيمة على قلوبهم ان يفقهوه اي كراهة ان يفقهوه اي يعلموه ويفهموه وفي اذانهم وقرا اي صمما عن سماع الحق والمعنى على التفسير الاول وبالمصر على التفسير الثاني وفي ذلك تهديد لهم وان يروا كل اية اي وان يشاهدوا كل معجزة تدل على صدقك يا محمد بعد الزام الحجة عنادهم من الطاعنة حتى اذا جاءوك يجادلونك اي حتى اذا حضروا عندك وجاءوا عقابه اي فتشاوروا فيما بينهم فقد اعذرت والمعنى لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم حقا كان او باطلا انتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون للمؤاخذون بعملي ولا اؤاخذ بعملكم واختلف في معنى ذلك فقيل معناه الامر الزجر والردع وقيل بل معناه الاستمالة قلوبهم وقال قائل والكلي هذه الاية منسوخة بآية السيف قال الرازي وهذا بعيد لان شرط الناسخ ان يكون دافعا لحكم المنسوخ ومدلول هذه الاية اختصاص كل واحد بافعاله وثمرات افعاله من الثواب والعقاب وذلك لا ينقض حرمة القتال ماية القتال ما رفعت سام من هذه الاية فكان القول بها نسخ باطلا انتهى ولا تنفي هذه المبالغة مع مثل من ذكر وقد تبعهما جماعة من المفسرين ولما قسم تعالى الكفار الى قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به قسم من لا يؤمن به قسمين منهم من كونه نهاية البغض له والعداوة ثم ونهاية النفرة عن قبول دينه ومنهم من لا يكون كذلك فوصف القسم الاول في قوله تعالى ومنهم اي ومن هؤلاء المشركين من يستمعون اليك اذا قرأت القرآن وعلمت السرائر باسمائهم الظاهرة ولانتفعهم لشدة عداوتهم وبغضهم لك فان الانسان اذا انوى بغضه لآخر وعظمت نفرته منه صارت نفسه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه افانت تسمع الصم اي انت تقدر على سماعهم ولو كانوا لا يسمعون الصم لا يعقلون اي لان العاقل ربما تفرس واستدل اذا وقع لاصماخه دوي الصوت فاذا جمع سلب السمع والعقل جميعا فقد تم الامر فكانك لا تقدر على اسماع الاصم الذي لا يعقل لا تقدر على اسماع من اصمه الله تعالى قلبه فان الله صرف قلوبهم عن الانتفاع بما يسمعون ولم يوفقهم لذلك فشبههم بالصم في عدم الانتفاع بما تلى عليهم ثم ومنهم القسم الثاني في قوله تعالى ومنهم من ينظر اليك اي يعاينون دلائل نبوتك ولا بصيرة فوتك افانت تهدي العمي اي انت تقدر على هدايتهم ولو كانوا مع العمى لا يبصرون اي لا بصيرة لهم لان الاعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن واما العمى مع الحمق مجتمعا البتة فلا تقدر على هدايته من اعمى الله تعالى بصيرته فهو لاء في الناس من ان يقتلوا وبصدقوا كالصم والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر فلا يقدر على اسماعهم وهذا بين الا ان الله تعالى تبسط اختلف في ان السمع افضل او البصر فمنهم من قال السمع واحتج على ذلك بامور منها تقدمه في الاية ومنها ان القوة السامعة تدرك المسموع من جميع

الاصم ح

اصم ح

الجوانب والقوة الباصرة لا تدرك المرئي الا من جهة واحدة وهي المقابل ومنها ان الانسان
انما يستفيد العلم من التعلم من الاستاذ وذلك لا يكون الا بقوة السمع فاستكمال النفس
بالكمالات العلمية لا تحصل الا بقوة السمع ومنها ان الانبيا عليهم الصلاة والسلام يراهم
الناس ويسمعون كلامهم فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية وانما
حصلت بسبب ما معهم من الاحوال المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرايع وبيان
الاحكام ومنها ان المعنى الذي يمتاز به الانسان من ساير الحيوانات هو النطق بالكلام
وانما ينتفع بذلك بالقوة السامعة فمتعلق النطق السمع الذي يحصل به شرف
الانسان ومتعلق البصر ادراك الالوان والاشكال وذلك امر مشترك فيه بين الناس
وبين ساير الحيوانات ومنهم من قال البصر واحتج بامور منها ان الة القوة الباصرة
هي النور والة القوة السامعة هي الهوا والنور اشرف من الهوا ومنها ان جمال الوجه
يحصل بالبصر وبذهابه عينيه وذهاب السمع لا يورث الانسان عيبا في جمال وجهه والعرب
تسمي العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا وفي الحديث يقول الله تعالى من اذهبت
كريمتيه فصبر واحتسب لم ارض له ثوابا دون الجنة ومنها انهم قالوا في المثل المشهور
ليس وراء العيان بيان وذلك يدل على ان اكمل وجوه الادراكات هو الابصار ومنها
ان كثيرا من الانبيا سمع كلام الله تعالى واختلفوا في انه هل راه احد منهم ام لا وايضا
فان موسى عليه السلام اسمعه الله تعالى كلامه من غير سبق سوال والتماس فلما طلب الروية
قال لن تراني وذلك يدل على ان حال الروية اعلا من حال السماع وهذا هو الظاهر ولما
حكم الله تعالى على اهل الشقوة بان الشقاوة لقضايه وقدره السابق فيهم اخبر تعالى ان
تقدير الشقوة عليهم ما كان ظلما منه بقوله تعالى ان الله لا يظلم الناس شيا لانه تعالى
في جميع احواله متفضل وعادل فيتصرف في ملكه كيف يشا والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف
في ملكه بالفضل والعدل لا يكون ظالما وانما قال تعالى ولكن الناس انفسهم يظلمون
لان فعلهم منسوب اليهم بسبب الكسب وان كان قد سبق قضا الله تعالى وقدره فيهم ففي ذلك
دليل على ان للعبد كسبا وانه ليس مسلوب الاختيار كما زعمت المجبرة وقرا حمزة والكسائي
بكسر النون مخففة ورفع الشين والباقون بنصب النون مشددة ونصب الشين ولما وصف
تعالى هولا الكفار بقلة الاصغا وترك التدبر اتبعه بالوعيد بقوله تعالى ويوم يحشرهم
اي واذكر يا محمد يوم يحشر هولا المشركين لموقف الحساب واصل الحشر اخراج الجماعة وازعاجهم
عن مكانهم كان اي كانهم لم يلبثوا في دنياهم والجملة في موضع الحال من ضمير يحشرهم البارز
اي متشبهين بمن لم يلبثوا الا ساعة حقيرة من النهار اي يستقصرون مدة مكثهم في الدنيا
وفي القبور لهول ما يرون يتعارفون بينهم اي يعرف بعضهم بعضا اذا بعثوا ثم ينقطع
التعارف لشدة الاهوال والجملة حال مقدرة او متعلق الظرف والتقدير يتعارفون
يوم يحشرهم وقوله تعالى قد خسر الذين كذبوا بلقا الله اي بالبعث يحتمل وجهين الاول
ان يكون على ارادة القول اي يتعارفون بينهم قايلين ذلك الثاني ان يكون كلام الله تعالى
فيكون شهادة من الله تعالى عليهم بالخسران والمعنى ان من باع اخرته بالدنيا فقد خسر
لانه اعطى الكثير الشريف الباقي واخذ القليل الخسيس الفاني وما كانوا مهتدين اي
الى رعاية مصالح هذه التجارة وذلك لانهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة فصاروا

لمن راى

الثاني والثلاثون

كمن رأى زجاجة خسيسة فطمع جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه فما اعرضه
على الناقد من خاب سعيه وفات امله ووقع في حرقة الروع وعذاب القلب وقوله تعالى وإما
فيه ادغام نون ان الشرطية في ما الزائدة نرينك يا محمد بعض الذي نعدهم به من العذاب
في حياتك وجواب الشرط محذوف اي فذاك أو نتوفينك قبل ان نريك ذلك الوعد
في الدنيا فانك ستراه في الاخرة وهو قوله تعالى فإلينا بعد البعث مرجعهم فنريك هناك ما هو
اقر لعينك واشر لقلبك وقوله تعالى ثم الله شهيد على ما يفعلون فيه وعيد وتهديد
لهم اي انه تعالى سيشهد على افعالهم التي فعلوها في الدنيا فيجازيهم عليها يوم القيامة وليس
في نفي حال محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه بعد ان حال كل الانبياء عليهم السلام مع
اقوامهم كذلك لقوله تعالى ولكل أمة اي من الامم التي خلت من قبلك رسول يدعوهم
الى الله تعالى وقوله تعالى فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط فيه اضمار بتقديره فاذا
جاء رسولهم ليبلغهم ما ارسل به اليهم فكذبه قوم وصدقه آخرون قضي اي حكم وفصل بينهم
بالقسط اي العدل وفي وقت هذا القضاء والحكم بينهم قولان احدهما انه في الدنيا بان يهلك
الكافرين وينجي رسوله والمؤمنين لقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا والثاني
في الاخرة وذلك ان الله تعالى اذا جمع الامم يوم القيامة للحساب والفصل بين المؤمن
والكافر والطائع والعاصي جيء بالرسل لتشهد عليهم لقوله تعالى وجيء بالنبيين والشهداء
وقضي بينهم والمراد منه المبالغة في ظهور العدل وهو قوله تعالى وهم لا يظلمون وجيء
اعلم ان هذا شامل يجازى كل احد على قدر عمله فكذلك يفعل بهؤلاء ويقولون متى هذا الوعد
اي الذي تعدنا به يا محمد من نزول العذاب او من قيام الساعة وانما قالوا ذلك على وجه
التكذيب والاستبعاد إن كنتم صادقين اي فيما تعدونا به وانما قالوا بلفظ الجمع على
سبيل التعظيم او خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين او ان كل امة قالت كرسولها
مثل ذلك وهو الموافق لقوله تعالى ولكل امة رسول قال الله تعالى قل اي قل لهم يا محمد
لا املك لنفسي ضرا من مرض او فقر ادفعه ولا نفعا من صحة او غنى اجلبه إلا ما شاء الله ان
يقدرني عليه فكيف املك لكم ذلك حتى تطلبوا مني العذاب او قيام الساعة ولا تقدر على ذلك احد الا الله
تعالى لكل أمة أجل اي مدة مضروبة إذا جاء أجلهم اي انقضت مدة اعمارهم فلا يستأخرون
اي لا يتأخرون عنه ساعة ثم عطف على الجملة الشرطية بمثلها ولا يستقدمون اي ولا يتقدمون
فلا تستعجلوا فان الوفاء بالعهد لا بد منه والتنبيه فيه بعني الوجدان لا يوجد لهم العفو الذي صنع
منه الفعل ويجوز كون المعنى لا يوجدون التأخر ولا التقدم وان اجتهدوا وفي الطلب فتكون
في التبين بمعنى الطلب ويدل الآية على ان احدا لا يموت الا بانقضاء اجله وكذا المقتول لا يقتل الا
على هذا الوجه وقرأ قالون وابن ذكوان وابو عمرو باسقاط الهمزة الاولى وسهل ورش وقنبل
الثانية وابدلها ايضا حرف مد والباقون بالتحقيق قال الله تعالى قل اي قل لهم يا محمد ايضا
أرأيتم إن أتاكم عذابه اي الذي تستعجلون به بياتا اي ليلا بغتة وانتم نائمون كما يفعل
العدو أو نهارا اي وقت انتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب ماذا اي شيء
يستعجل منه اي من عذابه وعذابه كله مكروه لا يحتمل شيء منه المجرمون اي المشركون
وضع المجرمون موضع المضمر للدلالة على انهم لجرمهم ينبغي ان يقرعوا من مجيء الوعيد لا ان
يستعجلوه وجملة الاستفهام جواب الشرط كقولك ان اتيتك ماذا تعطيني والمراد به
التهويل اي ما اعظم ما استعجلوه وقيل جواب الشرط محذوف وتقديره ندموا على الاستعجال

BULAC

او تعرفوا الخطأ فيه أثم إذا ما وقع أي حل بكم آمنتم به أي آمنتم بالله أو العذاب وقت نزول
العذاب وهو وقت اليأس والهمزة لإنكار التأخير فلا يقبل منكم وقوله تعالى آلآن
على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا وقت نزول العذاب الآن وقد كنتم به تستعجلون
تكذيبا واستهزاء تنبيه اتفق قالون مع ورش على النقل هنا واتفق القراء كلهم على همزة الوصل
التي بعد همزة الاستفهام إن فيها وجهان وهما البدل والتسهيل وقوله تعالى ثم قيل للذين
ظلموا عطف على قيل المقدر أي من أي قائل كان استهانة بهم وقرأ هشام والكسائي بإشمام
القاف وهو أن تضم القاف قبل الياء والباقون بالكسر ذوقوا عذاب الخلد أي الذي
تخلدون فيه والإتيان بثم إشارة إلى تراخي ذلك عن الإهلاك في الدنيا بالمكث في البرزخ
أو إلى أن عذابه أدنى من عذاب يوم الدين هل أي ما تجزون إلا ما كنتم تكسبون في الدنيا
من الكفر والمعاصي ويستنبئونك أي يستخبرونك يا محمد أحق هو أي ما وعدتنا به من نزول
العذاب وقيام الساعة وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء قاله يحيى بن أخطب لما قدم
مكة قل لهم في جوابهم إي وربي إنه لحق أي كائن ثابت لا بد من نزوله بكم تنبيه أي بمعنى
نعم وهو من لوازم القسم ولذلك توصل بواو في التصديق فيقال أي والله ولا ينطقون
به وحده وما أنتم بمعجزين أي بفائتين العذاب لأن من عجز عن شيء فقد فاته ولو أن لكل
نفس ظلمت أي أشركت ما في الأرض من الأموال لافتدت به من عذاب يوم القيامة
لم ينفعها الفداء لقوله تعالى ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون وأسروا الندامة لما رأوا
العذاب أي حين عاينوه وأبصروه صاروا مبهوتين متحيرين فلم يطيقوا عنده بكاء
ولا صراخا سوى إسرار الندم كالحال فيمن ذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتا متحيرا
لا ينطق بكلمة وقيل إنهم أخلصوا لله في تلك الندامة ومن أخلص في الدعاء أسره وفيه تهكم
بهم وبإخلاصهم لأنهم إنما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته بل كان من الواجب عليهم
أن يأتوا به في دار الدنيا ووقت التكليف وقيل المراد بالإسرار الإظهار وهو من الأضداد
لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة وفي القيامة بطل
هذا فوجب الإظهار وليس هناك تجلد فإن قيل أسروا جاء على لفظ الماضي والقيامة من الأمور
المستقبلة أجيب بأنها لما كانت واجبة الوقوع جعل الله تعالى مستقبلها كالماضي
وقضي بينهم أي بين الخلائق بالقسط أي بالعدل وهم لا يظلمون فإن قيل هذه الآية
مكررة أجيب بأن الأولى في القضاء بين الأنبياء ومكذبيهم وهذه عامة وقيل بين المؤمنين
والكفار وقيل بين الرؤساء والأتباع فإن الكفار وإن اشتركوا في العذاب فلا بد
أن يقضي الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه
فيكون في ذلك القضاء تخفيف عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لأن العدل
يقتضي أن يتنصف المظلومين من الظالمين ولا سبيل إليه إلا أن يخفف من عذاب
المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين وقوله تعالى ألا إن لله ما في السموات والأرض
تقريرا لقدرته تعالى على الإثابة والعقاب ألا إن وعد الله أي ما وعد به على لسان
نبيه صلى الله عليه وسلم من البعث للجزاء ومن ثواب الطائع وعقاب العاصي حق لا شك
فيه ولكن أكثرهم أي الناس لا يعلمون أي غافلون عن حقيقة ذلك فهم باقون على الجهل
معدودون مع البهائم لقصور عقلهم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا هو أي الذي يملك ما في
السموات والأرض يحيي ويميت أي قادر على الإحياء والإماتة لا يتعذر عليه شيء مما أراد

واليه

وإليه ترجعون بعد الموت للجزاء وقوله تعالى يا أيها الناس خطاب عام وقيل لأهل مكة
قد جاءتكم موعظة من ربكم أي كتاب فيه ما لكم وعليكم وهو القرآن وشفاء أي ودواء لما في الصدور
أي القلوب من داء الجهل لأن داء الجهل أضر للقلب من المرض للبدن وأمراض القلب هي الأخلاق
الذميمة والعقائد الفاسدة والجهالات المهلكة فالقرآن مزيل لهذه الأمراض كلها لأن فيه
المواعظ والزواجر والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير فهو الشفاء لهذه
الأمراض القلبية وإنما خص تعالى الصدر بالذكر لأنه موضع القلب وغيره وهو أعز موضع
في الإنسان لمكان القلب فيه وهدى من الضلالة ورحمة أي إكرام عظيم للمؤمنين لأنهم هم
الذين انتفعوا به دون غيرهم واختلف في تفسير قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته
فقال مجاهد وقتادة فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله وقال ابن عباس والحسن
فضل الله الإسلام ورحمته القرآن وعن أبي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قل
بفضل الله وبرحمته فقال بكتاب الله والإسلام وقال ابن عمر فضل الله الإسلام ورحمته
يزينه في قلوبنا وقيل فضل الله الإسلام ورحمته الجنة وقيل فضل الله القرآن ورحمته
السنن ولا مانع أن تفسر الآية بجميع ذلك إذ لا تنافي بين هذه الأقوال والباء في بفضل الله
متعلقة بمحذوف يفسره ما بعده تقديره قل فليفرحوا بفضل الله وبرحمته والتكرير للتأكيد
والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف
أحد المفعولين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل إن فرحوا بشيء فليفرحوا
فإنه لا مفروح به أحق منهما هو أي المحدث عنه من الفضل والرحمة خير مما يجمعون أي من حطام
الدنيا ولذاتها الفانية وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة قل يا محمد
لكفار مكة أرأيتم أي أخبروني ما أنزل أي خلق الله لكم من رزق أو أنه تعالى جعل الرزق منزلا
لأنه مقدر في السماء يحصل بأسباب منها فجعلتم منه أي من ذلك الرزق حراما وحلالا وهو
مثل ما ذكروه من تحريم السائبة والوصيلة والحام ومثل قولهم هذه أنعام وحرث
حجر ومثل قولهم ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ومثل
ثمانية أزواج من الضأن اثنين قل لهم يا محمد الله أذن لكم في هذا التحريم والتحليل أم أي بل
على الله تفترون أي تكذبون على الله بنسبة ذلك إليه وما ظن الذين يفترون أي
يتعمدون على الله الكذب أي أي شيء ظنهم به يوم القيامة أيحسبون أن لا يؤاخذهم
ولا يجازيهم على أعمالهم فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع والتهديد والوعيد
العظيم لمن يفتري على الله الكذب إن الله لذو فضل على الناس بنعم كثيرة لا تحصى منها
إنزال الكتب مفصلا فيها ما يرضيه وما يسخطه ومنها إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام
لبيانها بما يحتمله عقول الخلق منها ومنها طول إمهالهم على سوء أفعالهم ومنها إنعامه
عليهم بالعقل ولكن أكثرهم أي الناس لا يشكرون هذه النعم ولا يستعملون العقل في دلائل
الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله وقوله تعالى
وما تكون خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في شأن أي عمل من الأعمال وجمعه شئون والضمير
في قوله تعالى وما تتلوا منه إما للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم بل هو معظم شأنه وإما للتنزيل كأنه قيل وما تتلوا من التنزيل
من قرآن أي لأن كل جزء منه قرآن والإضمار قبل الذكر تفخيم له وإما لله تعالى والمعنى وما تتلوا

BULAC

من الله من قرآن نازل عليك وقوله تعالى ولا تعملون من عمل اي اي عمل كان تعميم للخطاب
بعد تخصيصه بمن هو رئيسهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك ذكر حيث خص بما فيه
فخامة وهو الشأن وذكر حيث عم بقوله تعالى من عمل بما يتناول الجليل والحقير وقيل
ان الكل داخلون في الخطابين الاولين ايضا لانه من المعلوم انه اذا خوطب رئيس القوم
كان القوم داخلين في ذلك الخطاب كما في قوله تعالى يا ايها النبي اذا طلقتم النساء الا كنا عليكم
شهودا اي رقبا نحصي عليكم اعمالكم لان الله تعالى رقيب على كل شيء وعالم بكل شيء اذ لا محدث
ولا خالق ولا موجد الا الله تعالى فكل ما يدخل في الوجود من احوال العباد واعمالهم
الظاهرة والباطنة داخل في علمه وشاهد عليه اذ تفيضون اي الله شاهد عليكم حين
تدخلون وتخوضون فيه اي ذلك العمل وقيل الافاضة الدفع بكثرة وقال الزجاج اذ
تنتشرون فيه يقال افاض القوم في الحديث اذا انتشروا فيه وما يعزب اي يغيب عن ربك
يا محمد من مثقال اي وزن ذرة وهي النملة الحمراء الصغيرة خفيفة الوزن جدا وقيل المراد بها
الهباء وهو الشيء المنبث الذي تراه في البيت من ضوء الشمس وقرأ الكسائي بكسر الزاي والباقون
بالضم ومن صلة على القراءتين وانما قيد بقوله تعالى في الارض ولا في السماء تقريبا لعقول العامة
فان قيل قدم ذكر الارض على السماء وقدم ذكر السماء على الارض في سورة سبأ حيث قال لا يعزب
عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض فما فائدة ذلك اجيب بان الكلام هنا في حال اهلها
والمقصود منه هو البرهان على احاطة علمه بها على ان العطف بالواو حكمه حكم التثنية ولا اصغر
من ذلك اي الذرة ولا اكبر اي منها الا في كتاب مبين اي بين وهو اللوح المحفوظ وقرأ حمزة برفع
الراء من اصغر واكبر على الابتداء والخبر والباقون بالنصب على ان ذلك اسم لا وفي كتاب خبرها الا ان
اولياء الله اي الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة لا خوف عليهم من لحوق مكروه
ولا هم يحزنون بفوات مأمول وفسرهم بقوله تعالى الذين آمنوا وكانوا يتقون
الله بامتثال امره ونهيه وهذا الذي فسر الله تعالى به الاولياء لا مزيد عليه وعن علي
رضي الله تعالى عنه وهم قوم صفر الوجوه من السهر عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى
وعن سعيد بن جبير ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من اولياء الله فقال هم الذين
يذكرون الله برؤيتهم يعني السمت والهيئة وعن ابن عباس الاخبات والسكينة وعن عمر
رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان من عباد الله عبادا
ما هم بانبياء ولا شهداء تغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة مكانهم من الله قالوا
يا رسول الله خبر بامرهم وما اعمالهم فلعلنا نحبهم قال هم قوم تحابوا في الله بغير
ارحام بينهم ولا اموال يتعاطونها فوالله ان وجوههم لنور وانهم لعلى منابر من نور
لا يخافون اذا خاف الناس ولا يحزنون اذا حزن الناس ثم قرأ الآية ونقل النواوي
في مقدمة شرح المهذب عن الامامين الشافعي وابي حنيفة رضي الله تعالى عنهما
ان كلا منهما قال اذا لم تكن العلماء اولياء الله فليس لله ولي وذلك في العالم العامل بعلمه
وقال القشيري من شرط الولي ان يكون محفوظا كما ان من شرط النبي ان يكون معصوما
فكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع فالولي هو الذي توالت افعاله
على الموافقة ولما نفى الله تعالى عنهم الخوف والحزن زادهم فقال تعالى مبينا لتوليته
لهم بعد ان شرح توليتهم له لهم البشرى اي الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة اما

البشرى

اما البشرى في الدنيا ففسرت بأشياء منها الرؤيا الصالحة فقد ورد انه صلى الله عليه وسلم
قال البشرى هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن او ترى له وقال صلى الله عليه وسلم وهبت
النبوة وبقيت المبشرات وقال الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فاذا حلم احدكم
حلما يخافه فليتفل عن شماله ثلاث مرات فانه لا يضره وقال الرؤيا
الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة ومنها محبة الناس له وذكرهم اياه بالثنا
الحسن عن انس رض قال قلت يا رسول الله ان الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال تلك
عاجل بشرى المؤمن ومنها البشرى عند الموت قال تعالى تتنزل عليهم الملائكة
ان لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة واما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة اياهم
مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم واعطاء الصحائف
بايمانهم وما يفوزون به ومنها سلام الله تعالى عليهم كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم
وغير ذلك من البشارات مما بشر الله تعالى به عباده المتقين في كتابه وعلى السنة انبيائه
من جنسه وكريم قوابه فان لفظ البشارة مشتق من خير يظهر اثره في بشرة الوجه
فكلما كان كذلك دخل في هذه الآية ثم انه تعالى لما ذكر صفة اوليائه وشرح احوالهم
قال تعالى لا تبديل اي بوجه من الوجوه لكلماته اي لا تغيير لاقواله ولا اخلاف لمواعيده
والكلمة والقول شيء واحد بدليل قوله تعالى ما يبدل القول لدي وقوله تعالى ذلك اشارة
الى كونهم مبشرين في الدارين هو الفوز العظيم هذه الجملة والتي قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به
وتعظيم شانه وليس من شرطه ان يقع بعد كلام يتصل بما قبله ولا يحزنك يا محمد قولهم
اي هؤلاء المشركين اي لا تهتم لتكذيبهم وتهديدهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وابطال امرك
وتدابير ما يتكلمون به في شانك وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من احزنه والباقون بفتح
الياء وضم الزاي وهما بمعنى وقوله تعالى ان العزة لله جميعا استئناف بمعنى التعليل كانه
قيل لماذا لا احزن فقيل ان العزة لله جميعا اي ان الغلبة والقهر في مملكة الله جميعا لا يملك
احد شيأ منها لاهم ولا غيرهم فهو يغلبهم ويقهرهم على ما قال تعالى كتب الله لاغلبن انا ورسلي
وقال تعالى انا لننصر رسلنا وقيل ان المشركين كانوا يتعززون بكثرة اموالهم واولادهم
وعبيدهم فاخبر الله تعالى ان جميع ذلك في ملكه فهو قادر على ان يسلبهم جميع ذلك
ويذلهم بعد العز وهو السميع اي البليغ السمع لاقوالهم العليم اي المحيط العلم بضمائرهم
وجميع احوالهم فهو الباقع القادر على كل شيء فيجازيهم وهو تعليل للتفرد بالعزة
لانه تفرد بهذين الوصفين فانتفيا عن غيره ومن انتفيا عنه كان دون الحيوانات
العجم فما يكون له عزة فان قيل قوله تعالى ان العزة لله جميعا يضاد قوله تعالى ولله العزة
ولرسوله وللمؤمنين اجيب بالمنع لان عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله هي لله
الا ان لله من في السموات ومن في الارض ملكا وخلقا فان قيل قد ذكر الله تعالى في الآية
المتقدمة الا ان لله ما في السموات والارض بلفظ ما وقال هنا بلفظ من فما فائدة
ذلك اجيب بانه تعالى غلب في الآية الاولى ما لا يعقل على من يعقل لكثرته وفي هذه
غلب العاقل على غيره لشرفه وقيل مجموع الآيتين دال على ان الكل خلقه وملكه وقيل
ان المراد بمن في السموات الملائكة ومن في الارض الثقلان وانما خصهم بالذكر لشرفهم
واذا كان هو الآمر ملكه وبخت قهره فما لا يعقل منها احق ان لا يكون لله ند او شريك

فهو كالدليل على قوله تعالى وما يتبع الذين يدعون اي يعبدون من دون الله اي غيره
اصناما شركا له على الحقيقة وان كانوا يسمونها شركا تعالى الله عن ذلك ان اي ما يتبعون
في ذلك الا الظن اي ظنهم انها الهة تشفع لهم وانها تقربهم الى الله تعالى ثم بين تعالى ان هذا
الظن لا حكم له بقوله تعالى وان اي ما هم الا يخرصون اي يكذبون في ذلك ويجوز ان يكون
وما يتبع في معنى الاستفهام اي واي شي يتبعون وشركا على هذا نصب بيدعون وعلى
الاول يتبع وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركا شركا فاقتصر
على احدهما للدلالة وقوله تعالى هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه اي ليزول
عنكم التعب والكلال فيه مما تقاسون في نهاركم ومن تعب التردد في المعاش والنهار
مبصرا اي مضيئا يبصرون فيه مطالب ارزاقكم ومكاسبكم تنبيه على كمال قدرته وعظيم
نعمته المتوحد هو بهما ليدلهم على تفرده باستحقاق العبادة واضافته الابصار
الى النهار مع انه يبصر فيه على طريق نقل الاسم من المسبب الى السبب كقولهم ليل نائم
لان الليل سبب للسكون قال قطرب تقول العرب اظلم الليل اي صار ذا ظلمة واضاء
النهار اي صار ذا ضياء ان في ذلك المذكور لايات اي دلالات على وحدانيته تعالى لقوم يسمعون
سماع اعتبار وتدبر فيعلمون بذلك ان الذي خلق هذه الاشيا كلها هو الاله المعبود
المنفرد بالوحدانية في الوجود ثم ذكر الله تعالى نوعا من اباطيل الكفار بقوله تعالى
قالوا اي اليهود والنصارى ومن زعم ان الملائكة بنات الله اتخذ الله ولدا قال الله تعالى
سبحانه اي تنزيها له عن الولد هو الغني عن كل احد وانما يطلب الولد من يحتاج اليه ثم بين
تعالى غناه بقوله تعالى له ما في السموات وما في الارض من ناطق وصامت ملكا وخلقا ولما بين
تعالى بالدليل الواضح امتناع ما اضافوا اليه عطف عليهم بالانكار والتوبيخ فقال ان اي ما
عندكم من سلطان اي حجة بهذا اي الذي تقولونه ثم بالغ تعالى في ذلك بالانكار عليهم بقوله
تعالى اتقولون على الله ما لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون اليه ما لا يجوز اضافته
اليه تعالى جهلا منكم والاستفهام للتوبيخ قل يا محمد لهولا الذين يختلقون على الله الكذب يتقولون
عليه الباطل ويزعمون ان له ولدا ان الذين يفترون اي يتعمدون على الله الكذب لا يفلحون اي لا
ينجحون في سعيهم ولا يفوزون بمطلوبهم بل خابوا وخسروا فانهم لا ينجون من النار ولا
يفوزون بالجنة ومن الناس من اذا فاز بشي من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة
ظن انه قد فاز بالمقصد والله سبحانه وتعالى ازال هذا الخيال بان قال متاع في الدنيا
وفيه اضمار تقديره لهم متاع في الدنيا على انه مبتدا خبره محذوف ويصح ان يكون خبر المبتدا
محذوف تقديره افتراوهم متاع في الدنيا وهي ايام يسيرة بالنسبة الى طول بقائهم في العذاب
ثم الينا مرجعهم بالموت ثم نذيقهم العذاب الشديد بعد الموت بما بعد الموت كانوا يكفرون
ولما ذكر سبحانه وتعالى في هذه السورة من احوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد
شرع بعد ذلك في قصص الانبيا وما جرى لهم مع اممهم وذكر تعالى منهم في هذه السورة
ثلاثة قصص القصة الاولى قصة نوح عليه السلام المذكورة بقوله تعالى وقل يا محمد عليهم اي كفار قريش
نبا اي خبر نوح وذلك ليكون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه اسوة بمن سلف من الانبيا
فانه صلى الله عليه وسلم اذا سمع ان معاملة هولا الكفار مع كل الرسل ما كان الا على هذا الوجه
خف ذلك على قلبه كما يقال المعصية اذا عمت خفت ولان الكفار اذا سمعوا هذه القصص وعلموا

ان

ان الجهال وان بالغوا في ايذاء الانبياء المتقدمين الا ان الله تعالى اعانهم بالاخر ونصرهم وايدهم
وقهر اعداهم كان سماع هؤلاء الكفار لامثال هذه القصص سببا لانكسار قلوبهم وموقوع الخوف
والوجل في صدورهم وان الكلام اذا طال يتغير الى نوع من انواع العلوم فربما حصل نوع
من انواع الملالة فاذا انتقل الانسان من ذلك الفن من العلم الى فن اخر ينشرح صدره
ويطيب قلبه ويحدث نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة ونشاطا قويا ولهذا قال صلى الله عليه وسلم
لما لم يتعلم علما ولم يطالع كتابا ثم ذكر هذه القصص من غير تفاوت ومن زيادة ومن غير
نقصان ذلك بالوحي والتنزيل وسدل من بنا
نوح اذ قال لقومه وهم بنو اقابيل يا قوم ان كان كبر اي شق وعظم عليكم مقامي اي لبثي بينكم
الف سنة الا خمسين عاما وتذكيري اي وعظي اياكم بآيات الله اي بحججه وبيناته فعزم من
على قتلي وطردي فعلى الله توكلت اي فهو حسبي وتعتمدي وقباني على الدعوة لانهم كانوا
اذا وعظوا الجماعة قاموا على رجلهم يعظونهم لئلا يرى منكاتهم بيناو بلاهم مشمرا كما حكى
عن موسى عليه السلام انه كان يعظ الحواريين قائما وهم قعود فاجمعوا امركم اي فاعزموا
على امر تفعلونه في اذاي بالاهلاك او غيره وشركاءكم اي وادعوا شركاءكم الى الوافقتي في
اي مع شركائكم وهي الاصنام وانما حثهم على الاستعانة بها بناء على مذهبهم الفاسد واعتقادهم
انها تضر وتنفع مع اعتقاده انها جماد لا تضر ولا تنفع تبكيتا وتوبيخا لهم ثم لا يكن
امركم اي الذي تقصدون به علكم عليه اي مستورا من غم اذا استتر بل اظهروه وجاهروني به
مجاهرة فانه لا معارضة لي لنصر الله الذي يستوي عنده السر والجهر ثم اقضوا الي اي امضوا
ما في انفسكم وامر عوا منه يقال قضى فلان اذا مات وقضى دينه اذا فرغ منه وقيل
معناه توجهوا الي بالقتل والمكروه وقيل فاقضوا ما انتم قاضون وهذا مثل قول
السحرة لفرعون فاقض ما انت قاض اي اعمل ما انت عامل ولا تنظرون اي ولا تؤخرون
بعد اعلامكم اياي ما انتم عليه واخافاذ لك اظهارا لقلة مبالاته وثقته بما وعده ربه
من كلاءته وعصمته وانهم لن يجدوا اليه سبيلا فان تولتم اي اعرضتم عن تذكيري فما
سالتكم من اجر اي من جعل وعوض على تبليغ الرسالة فسعركم عني وتهمتي لاجله من طمع في اموالكم
وطلب اجر على عظتكم ومتى كان الانسان فارغا عن الطمع كان قوله اقوى تاثيرا في القلب
ان اجري الا على الله وهو الثواب الذي يتبسبني به في الاخرة اي مما انصحكم الا لوجه الله لا لغرض
من اغراض الدنيا وهكذا ينبغي لكل من شغع الناس بعلم او ارشاد الى طريق الله تعالى وامرت
ان اكون من المسلمين اي مامورا بالاستسلام لكل مكروه يصيبني منكم لاجل هذه الدعوة وقيل
بدين الاسلام وانا ماض فيه غير تارك له فان تولوا فلم تقبلوه ام لم تقبلوه فقد تبوا اي اصروا على تكذيبه
بعد ما الزمهم الحجة وبين ان تولتهم ليس لالعنادهم وغرضهم لاحرم حقت عليهم كلمة العذاب
فاغرقناهم من الغرق وهو متعد في افعاله اي الشفينة وكانوا ثمانين فجعلناهم اي الذين اخذناهم
منهم في الفلك خلائف في الارض يخلفون الهالكين بالغرق واغرقنا الذين كذبوا باياتنا
بالطوفان وقوله تعالى فانظر ايها الانسان ناويا محمد كيف كان عاقبة المنذرين
تعظم لما جرى عليهم وتحذير لمن انذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله وتسلية
له وهذه الفقرة اذا سمعها من صدق النبي صلى الله عليه وسلم ومن كذب به كان زجرا للكافرين
من حيث يخافون ان ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح ويكون واعية للمؤمنين على الثبات

ايضا ٢

على الايمان ليصلوا الى مثل ما وصل اليه قوم نوح وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير
اذا اجريت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت ابلغ من الوعيد المبتدأ ومن هذا الوجه
اكثر تعالى ذكر قاصيص الانبياء عليهم السلام ثم بعثنا من بعده اي نوح ورسلا الى قومهم
لم يسم هنا تعالى من كان بعد نوح من الرسل وقد كان بعده هود وصالح وابراهيم ولوط
وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم فجاؤهم بالبينات اي بالمعجزات الواضحات التي
تدل على صدقهم فما كانوا ليؤمنوا اي فيما استمر لهم ان يؤمنوا لشدة عنادهم وخذلان
الله تعالى اياهم بما اي بسبب ما كذبوا به من قبل اي انهم كانوا قبل بعثة الرسل
اليهم اهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها
كانه لم يبعث اليهم احد كذلك اي مثل ما طبعنا على هؤلاء بسبب تكذيبهم الرسل
نطبع اي نختم على قلوب المعتدين اي كل من كان من شأنه العدوان فيما لا يحل له فلا تقبل
الايمان لانها كالحر في الضلال واتباعهم المألوف وفي امثال ذلك دليل على ان الافعال
واقعة بقدرة الله تعالى وبكسب العبد القصة الثانية قصة موسى عليه السلام المذكورة
بقوله تعالى ثم بعثنا من بعدهم اي بعد الرسل موسى بآياتنا الى فرعون وملائه
اي اشراف قومه وعبر بهم عن بقية القوم لكونهم هم المرسل اليهم الجميع بآياتنا التسع فاستكبروا عن
اتباعها والايمان بها وهي اعظم الكثير وهوانها من الله تعالى على العبد بارسال رسله اليهم بعد تبيينها
وبتعظيمهم عن قبولها وكانوا قوما مجرمين اي كفارا ذوي اثام عظام فلذلك استكبروا
عنها فلما جاءتهم اوائلها الحق اي جاء فرعون وقومه من عندنا اي جاءه موسى
من عندنا به وعرفوا انه ليس من عند موسى وهرون لتظاهر المعجزات الظاهرات المزيحة
للشك قالوا اي عرضا ملين له ولا ناظرين في امره لفرط عنادهم لسحر مبين اي بين ظاهر
تعرفه كل احد وهم يعلمون ان الحق اجل من ان يشتبه بالسحر الذي لا يظهر الا على كافر او فاسق
وقوله تعالى قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم اسحر هذا فيه حذف تقديره القولون
للحق لما جاءكم هو سحر اسحر هذا الحذف الاول لافادة الاستفهام الثاني والحذف الثاني
لافادة الاول والاستفهام الاول للانكار والثاني للتقرير ثم قال اسحر هذا
فحذف الاول لافادة الاستفهام الثاني للانكار ثم قال بعد اسحر هذا وهو استفهام على سبيل
الانكار بمعنى انه ليس بسحر ثم اخبر عن صحة قوله تعالى ولا يفلح الساحرون فانه لو كان سحرا لاضمحل
ولم يبطل سحر السحرة فغلب العصى هي حية وفلق البحر معلوم بالضرورة انه ليس من باب
التمويه والتخييل فثبت انه ليس بسحر قالوا اي قوم فرعون لموسى أجئتنا لتلفتنا
اي لتفردنا وتصرفنا واللفت والفتل اخوان عما وجدنا عليه آباءنا اي من الدين وعبادة الاصنام
ثم قالوا لموسى وهرون وتكون لكما الكبرياء اي الملك والعز في الارض اي ارض مصر قالوا انما
سمي الملك كبرياء لانه اكبر ما يطلب من امر الدنيا وايضا الملوك موصوفون بالكبر ولهذا
وصف الله الرقيات مصعبا في قوله ملكه ملك ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
ينفي ما علمه الملوك من ذلك ويجوز ان يقصد وا بذلك ذمهما وانهما ان ملكا ارض مصر تجبرا
وتكبرا كما قال الغنطي لموسى عليه السلام ان تريد الا ان تكون جبارا في الارض وما نحن لكما
بمؤمنين اي لمصدقين فيما جئتمانا به وقال فرعون لقومه ارادة المناظرة لما اتى موسى عليه
السلام ائتوني بكل ساحر عليم اي بالغ في علم السحر ليدافع قوته شيء من السحر فيناخر البعض
وقراءة حمزة والكسائي بغير الف بين السين والحاء وتشديد الحاء مفتوحة والف بعدها بصيغة

فعال

فعال دالة على الطلب زيادة قلق فرعون والباقون بالف بعد السين وتخفيف الحا مكسورة
ولا الف بعدها فلما جاء السحرة اي كل من في ارض مصر منهم قالوا لموسى اما ان تلقي واما ان
نكون نحن الملقين قال لهم موسى القوا جميع ما انتم ملقون فان قيل كيف امرهم بالكفر
والسحر والامر بالكفر كفر اجيب بانه انما امرهم بالقا ما معهم من الحبال والعصي التي معهم ليظهر
للخلق انما اتوا به عمل فاسد وسعي باطل لا على طريق انه عليه السلام امرهم بالسحر فلما القوا
ما معهم من الحبال والعصي وخيلوا بسحرهم اعين الناس انها تسعى قال موسى منكرا عليهم ما جئتم
به السحر قراه ابو عمرو بهمزتين الاولى همزة الاستفهام فهي مفتوحة والثانية همزة وصل
له فيها وجهان التسهيل والبدل فما استفهامية مبتدا وجئتم به خبرها والسحر بدل
منه وقرا الباقون بهمزة وصل فيسقط في الوصل اي الذي جئتم به هو السحر لا ما سماه فرعون
وقومه سحرا ثم اخبر موسى عليه السلام بقوله ان الله سيبطله اي يهلكه ويظهر فضيحة
صاحبه ان الله لا يصلح عمل المفسدين اي لا يثبته ولا يقويه وقول البيضاوي وفيه
دليل على ان السحر افساد وتمويه لا حقيقة له محمول على ما يفعله اصحاب الحيل بمعونة
الالات والادوية والافلة حقيقة فهو حق عند اهل السنة وهو علم بكيفية استعدادات
تقتدر بها النفوس البشرية على ظهور التاثير في عالم العناصر ويحق اي يثبت ويظهر الله
الحق بكلماته اي بقضائه ووعده الصادق لموسى عليه السلام وقد اخبر الله تعالى في غير
هذه السورة انه كيف ابطل ذلك السحر وذلك بسبب ان ذلك الثعبان قد تلقف تلك الحبال
والعصي ولو كره المجرمون ذلك ولما بين تعالى ان قوم موسى شاهدوا هذه المعجزات ومع ذلك
لم يومن منهم الا قليل كما قال تعالى فما امن لموسى الا ذرية من قومه وانما ذكر تعالى ذلك
تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه كان يغتم بسبب اعراض القوم عنه واستمرارهم
على الكفر فبين تعالى ان له في هذا الباب بسائر الانبيا اسوة لان الذي ظهر من موسى عليه السلام
من المعجزات كان امرا عظيما ومع ذلك فما امن له الا ذرية من قومه والذرية اسم يقع على
القليل من القوم قال ابن عباس الذرية القليل والها التي في قومه هي راجعة الى موسى
اي فما امن من قومه وذلك انه دعا الابا فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته
طائفة من ابنائهم مع الخوف الا طائفة من ذراري بني اسرائيل كانه قيل الا اولاد من اولاد
قومه وذلك انه دعا الابا فلم يجيبوه خوفا من فرعون واجابته طائفة من ابنائهم
مع الخوف وقيل راجعة الى فرعون والذرية امراته آسية ومومن آل فرعون وخازن
فرعون وامراة خازنه وماشطة على خوف من فرعون وملائهم اي خوف منهم لانه كان
شديد البطش وكان قد اظهر العداوة مع موسى واذا علم ميل القوم الى موسى كان يبالغ
في ايذائهم فلهذا السبب كانوا خائفين منه ومن اشراف قومه والضمير لفرعون وجمعه على
ما هو المعتاد في ضمير العظمة لانه ذو اصحاب يأتمرون به وقيل المراد بفرعون آله كما
يقال ربيعة ومضر ان يفتنهم اي يصرفهم ويصدهم عن الايمان وان فرعون لعال اي متكبر
قاهر في الارض اي ارض مصر وانه لمن المسرفين اي المجاوزين الحد فانه كان من اخس العبيد
ادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب لبني اسرائيل وقال موسى لقومه يا قوم ان كنتم امنتم
بالله اي صدقتم به وبآياته فعليه توكلوا اي ثقوا به واعتمدوا عليه فانه ناصر اوليائه ومهلك
اعدائه ان كنتم مسلمين اي مستسلمين لقضاء الله تعالى مخلصين له وقيل ان كنتم امنتم بالقلب

واستقيم بالظاهر فقالوا مجيبين له على البناء توكلنا اي عليه اعتمدنا لا على غيره ثم دعوا ربهم فقالوا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين اي لا تسلطهم علينا فيفتنونا ونجنا اي وخلصنا برحمتك من القوم الكافرين اي من ايدي قوم فرعون لانهم كانوا يستعبدونهم ويستعملونهم في الاعمال الشاقة وانما قالوا ذلك لانهم كانوا مخلصين لا جرم ان الله تعالى قتل فرعون واجاب دعاءهم وانجاهم واهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في الارض ففي تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على ان الداعي ينبغي ان يتوكل اولا على الله ثم يدعوه ولما شرح الله تعالى خوف المومنين من الكافرين وما ظهر فيهم من التوكل على الله تعالى انعم بان امر موسى وهرون عليهما السلام باتخاذ البيوت بقوله تعالى واوحينا الى موسى واخيه اي الذي طلب موازرته ومخاصدته ان تبوءا اي اتخذا لقومكما بمصر بيوتا تسكنون فيها او ترجعون اليها للعبادة واجعلوا بيوتكم قبلة اي تلك البيوت قبلة مصلى او مساجد كما في قوله تعالى في بيوت اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه موجهة نحو القبلة اي الكعبة وكان موسى عليه السلام يصلي الى قبلة وقارون وابو عمرو وحفص بيوتا وبيوتكم برفع الباء والباقون بالخفض واقيموا الصلاة فيها فللمفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوه الثلاثة الاول ان موسى عليه السلام ومن معه كانوا في اول امرهم مامورين بان يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة ليلا تظهر واعليهم فيوذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المومنون على هذا الحال في اول الاسلام بمكة الثاني انه قيل انه تعالى لما ارسل موسى اليهم امر فرعون بتخريب مساجد بني اسرائيل ومنعهم من الصلاة فامرهم الله تعالى ان يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفا من فرعون الثالث انه تعالى لما ارسل موسى اليهم واظهر فرعون تلك العداوة القديمة امر الله تعالى موسى وهرون وقومهما باتخاذ المساجد عازمهم الاعداء وتكفل الله تعالى بان يصونهم عن شر الاعداء وقد خص الله تعالى موسى وهرون بهذه الاية بالخطاب بقوله تعالى ان تبوءا لقومكما لان التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما تشاطاه روس القوم للتشاور ثم عم بعد الخطاب فقال واجعلوا بيوتكم قبلة لان جعل البيوت مساجد والصلاة فيها مما يتبغي ان يفعله كل احد ثم خص موسى عليه السلام في اخر الكلام بالخطاب فقال تعالى وبشر المومنين اي بما يضر به الدنيا والجنة في العقبى لان الغرض الاصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة فخص الله تعالى موسى بها ليدل على ان الاصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وان هرون عليه السلام تبع ثم ان موسى عليه السلام لما بالغ في اظهار المعجزات القاهرة الظاهرة ورأى القوم مصرين على الجحد والعناد والانكار اخذ يدعو عليهم وهو حق من يدعو على الغير ان يذكر او لا سبب اقدامه على تلك الجرائم وكان جرمهم هو لاجل امر الدنيا يتركوا ولهذا السبب قال موسى ربنا انك اتيت فرعون وملاه اي اشراف قومه وغلمانهم عليه من الكبر والكبر زينة اي عظمة تتزينون بها من الحلية واللباس وغيرهما من الدواب والغلمان واثاث البيت الفاخر ونحو ذلك واموالا اي كثيرة من الذهب والفضة وغيرهما في الحياة الدنيا روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانت لهم من قسطاط مصر الى ارض الحبشة حصائد فيها مقادين من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت ثم بين غايتها لهم فقال ربنا ليضلوا عن سبيلك اي ليصدوا الناس عن دينك فاللام للعاقبة وهي متعلقة باتيت لقوله تعالى فالتقطه ال فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقيل لام كي اي اتيتهم كي يضلوا الناس وقيل هو دعاء عليهم بما علم من مآل عاقبة امرهم انه

لا يكون

لا يكون غيره كقولك لعن الله ابليس واخزى الله الكفرة مع علمك انه لا يكون غير ذلك وقرا
عاصم وحمزة والكسائي بضم اليا والباقون بالفتح والباقون بالفتح ربنا اطمس على اموالهم
اي امسخها وغيرها عن هيئتها قال قتادة صارت اموالهم وحروثهم وزراعاتهم وجواهرهم
حجارة وقال محمد بن كعب جعل الله سكرهم حجارة وقال ابن عباس بلغنا ان الدراهم والدنانير
صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وانصافا واثلاثا وارباعا ودعا عمر بن عبد
العزيز بخريطة فيها اشيا من بقايا آل فرعون واخرج منها البيضة مشقوقة والجوزة
مشقوقة وانها لحجر قال السدي مسخ الله اموالهم حجارة والنخيل والثمار والرقيق
والاطعمة فكانت احدى الايات التسع واشدد على قلوبهم اي اطبع عليها واستوثق حتى
لا تنشرح للايمان وقوله تعالى فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم جواب للدعا او دعا
بلفظ النهي او عطف على ليضلوا وما بينهما دعا معترض وقوله تعالى قال قد اجيبت
دعوتكما فيه وجهان الاول قال ابن عباس ان موسى كان يدعوا وهارون كان يؤمن فلذلك
قال دعوتكما وذلك لان من يقول عند دعا الداعي امين فهو ايضا داعي لان قوله امين
تاويله استجب فهو سايل كما ان الداعي سايل ايضا الثاني ان يكون كل منهما ذكر هذا الدعا
غاية ما في الباب ان يقال انه تعالى حكى هذا الدعا عن موسى بقوله تعالى وقال موسى ربنا
وهذا لا ينافي ان يكون هارون قد ذكر الدعا ايضا واما قوله تعالى فاستقيما فمعناه
اثبتا على الدعوة والرسالة والزيادة في الزام الحجة فقد لبث نوح في قومه الف سنة
الا خمسين عاما فلا تستعجلا قال ابن جريج ان فرعون لبث بعد هذا الدعا اربعين سنة
ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون اي الجاهلين الذين يظنون انه متى كان الدعا مجابا
كان المقصود حاصلا في الحال فربما اجاب الله تعالى دعا انسان في مطلوبه الا انه انما يوصله
اليه في وقته المقدور والاستعجال لا يصدر الا من الجهال وهذا كما قال تعالى لنوح عليه السلام
اني اعظك ان تكون من الجاهلين وهذا النهي لا يدل على ان ذلك قد صدر من موسى عليه السلام
كما ان قوله تعالى لئن اشركت ليحبطن عملك لا يدل على صدور الشرك منه صلى الله عليه وسلم
وقرا ابن ذكوان بتخفيف النون والباقون بتشديدها لان نون التوكيد تثقل وتخفف
ولما اجاب الله تعالى دعا نبيا امر بني اسرائيل وكانوا ستمائة الف بالخروج من مصر في الوقت
المعلوم ويسر لهم اسبابه وفرعون كان غافلا عن ذلك فلما سمع انهم خرجوا وعزموا على
مفارقة مملكته خرج في عقبهم كما قال تعالى وجاوزنا اي قطعنا ببني اسرائيل اي عبدنا المخلص لنا
البحر حتى بلغوا الشط حافظين لهم فاتبعهم فرعون وجنوده اي لحقهم وادركهم يقال
تبعه واتبعه اذا ادركه ولحقه بغيا وعدوا اي ظلما وعدوانا وقيل بغيا في القول وعدوا
في الفعل فلما ادركهم فرعون قالوا لموسى اين المخلص والمخرج البحر امامنا وفرعون ورانا
قد كنا نلقى من فرعون البلا العظيم فاوحى الله تعالى الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فضربه
فانفلق لموسى وقومه فكان كل فرق كالطود العظيم فاوحى الله تعالى الى موسى وكشف عن
وجه الارض وايبس لهم البحر فلما وصل فرعون بجنوده الى البحر هابوا دخوله وكان فرعون على
حصان وكان معه في عسكره ثمانمائة الف حصان على لون حصانه وميكائيل يسوقهم حتى لم يشذ
منهم احد فلما خرج اخر بني اسرائيل من البحر تقدمهم جبريل على فرس وخاض البحر فلما وجد
الحصان ريح الانثى لم يملك فرعون من امره شيا فنزل البحر واتبعه جنوده حتى اذا كملوا جميعا

في البحر واتبعه جنوده وهم اولهم بالخروج النظم عليهم البحر فلما اتاه الغرق اتى بكلمة الاخلاص
كما قال تعالى حتى اذا ادركه اي لحقه الغرق قال امنت انه اي بانه لا اله الا الذي امنت
به بنوا اسرائيل وانا من المسلمين فان قيل انه امن ثلاث مرات اولها قوله امنت وثانيها
قوله لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل وثالثها قوله وانا من المسلمين فما السبب
في عدم القبول اجاب العلما عن ذلك باجوبة منها انه انما امن عند نزول العذاب والايمان
والتوبة عند معاينة الملائكة والعذاب غير مقبول ويدل عليه قوله تعالى فلم يك ينفعهم
ايمانهم ودس جبريل في فيه من حما البحر مخافة ان تناله الرحمة وقال له الان تؤمن وقد
عصيت قبل وضيعت التوبة في وقتها واثرت دنياك الفانية على الاخرة الباقية وكنت
من المفسدين بضلالك واضلالك عن الايمان فلم يرجع فرعون الى الايمان والتوبة
حتى اغلق بابها بحضور الموت ومعاينة الملائكة وانما قال له وكنت من المفسدين في مقابلة
قوله وانا من المسلمين ومنها ان فرعون انما قال هذه الكلمة ليتوصل بها الى دفع ما نزل به
من البلية الحاضرة ولم يكن قصده الاقرار بوحدانية الله تعالى والاعتراف له بالربوبية
فلم ينفعه ما قال في ذلك الوقت ومنها ان فرعون كان من الدهرية المنكرين لوجود الصانع
الخالق سبحانه وتعالى ولهذا قال امنت انه لا اله الذي امنت به بنوا اسرائيل فلم
ينفعه ذلك لحصول الشك في ايمانه ومثل هذا الاعتقاد الفاسد لا تزول ظلمته الا بنور
الحجة القطعية والدلائل اليقينية ومنها ما روي في بعض الكتب ان بعض اقوام بني اسرائيل
لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل فلما قال فرعون امنت انه لا اله الا الذي امنت
به بنوا اسرائيل انصرف ذلك الى العجل الذي امنوا بعبادته في ذلك الوقت فكانت هذه
الكلمة في حقه سببا لزيادة الكفر ومنها ان الايمان انما كان يتم بالاقرار بوحدانية الله تعالى
وبالاقرار بنبوة موسى عليه السلام وفرعون لم يقر بالنبوة فلم يصح ايمانه ونظيره ان الواحد
من الكفار لو قال الف مرة اشهد ان لا اله الا الله فانه لا يصح ايمانه الا اذا قال معه واشهد
ان محمدا رسول الله فكذا هنا ومنها ان جبريل عليه السلام اتى فرعون بفتوى ما قول
الامير في عبد نشا في مال مولاه ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادعى السيادة دونه فكتب
فرعون فيه يقول ابو العباس الوليد ابن مصعب جزا العبد الخارج عن سيده الكافر بنعمته
ان يغرق في البحر ثم ان فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام اليه خطه فان قيل ما فائدة
دس جبريل في فم فرعون ذلك لانه في تلك الحالة اما ان يكون التكليف ثابتا ام لا فان كان
فكيف يمنعه من التوبة وان كان غير مكلف فلا فائدة في ذلك اجيب بان ذلك التكليف
كان ثابتا وجبريل عليه السلام لم يفعل ذلك من قبل نفسه فانه عبد مامور والله تعالى
يفعل ما يشا كما قال تعالى وان الله يضل من يشا ويهدي من يشا وقال تعالى
ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة فاخبر الله تعالى ان قلب افئدتهم على تركهم
الايمان اول مرة وهكذا فعل بفرعون منعه من الايمان عند الموت جزا على تركه الايمان اولا فدس
الحما في فم فرعون من جنس الختم والطبع على القلب ومن الناس من قال قائل هذا القول هو الله
تعالى لانه ذكر بعده فاليوم ننجيك اي نخرجك من البحر ببدنك اي جسمك الذي لا روح فيه كاملا
سويا لم يتغير او نخرجك من البحر عريانا من غير لباس او ان المراد بالبدن الدرع قال الليث
البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين وهذا منقول عن ابن عباس قال كان عليه درع من ذهب

يعرف

يعرف به فاخرجه الله تعالى من الماء مع ذلك الدرع ليعرف لتكون لمن خلفك اي بعدك آية
اي عبرة فيعرفوا عبوديتك ولا يقدموا على مثل فعلك وعن ابن عباس ان بعض بني اسرائيل
شكوا في موته فاخرج لهم ليروه وليشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه
قوله انا ربكم الاعلى فيعلموا ان دعواه كانت باطلة وان ما كان فيه من عظم الشان وكبرياء
الملك آل امره الى ما يرون لعصيانه ربه وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون اي لا
يعتبرون بها وهذا الكلام ليس الا كلام الله تعالى ولكن القول الاول اشهر ولقد بوأنا
اي انزلنا بني اسرائيل مبوأ صدق اي منزلا صالحا مرضيا وهو مصر والشام وانما وصف
المكان بالصدق لان عادة العرب اذا مدحت شيئا اضافته الى الصدق تقول العرب
هذا رجل صدق وقدم صدق والسبب فيه ان الشيء اذا كان كاملا صالحا لا بد ان يصدق الظن
فيه وقيل ارض الشام والفرس والاردن لانها بلاد الخصب والخير والبركة ورزقناهم من الطيبات
اي الحلالات المستلذات من الفواكه والحبوب والالبان والاعسال وغيرها فاورث
تعالى بني اسرائيل جميع ما كان تحت ايدي فرعون وقومه من الناطق والصامت والحرث
والنسل كما قال تعالى واورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها
فما اختلفوا اي هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني اسرائيل في امر دينهم حتى جاءهم العلم
اي جاءهم ما كانوا به عالمين وذلك انهم كانوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مقرين به
مجمعين على نبوته غير مختلفين فيه لما يجدونه مكتوبا عندهم وكانوا يخبرون ببعثه وصفته
ونعته ويفتخرون بذلك على المشركين فلما بعث صلى الله عليه وسلم اختلفوا فيه فآمن به بعضهم
كعبد الله بن سلام واصحابه وكفر به بعضهم بغيا وحسدا وايثارا لبقاء الرياسة لهم
او انهم ما اختلفوا في دينهم الا من بعد ما قرؤوا التوراة وعلموا احكامها ان ربك يا محمد يقضي بينهم
يوم القيمة اي الذي هو اعظم الايام فيما كانوا اي بافعالهم الجبلية فيه يختلفون فيميز الحق
من الباطل والصديق من الزنديق ويسكن كلا داره واختلف المفسرون فيمن المخاطب بقوله
تعالى فان كنت في شك مما انزلنا اليك فاسئل الذين يقرؤون الكتاب اي التوراة من قبلك
اي فانه ثابت عندهم يخبروك بصدقه فقيل هو النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر والمراد
امته كقوله تعالى يا ايها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين وكقوله تعالى
لئن اشركت ليحبطن عملك وكقوله تعالى لعيسى عليه السلام أأنت قلت للناس اتخذوني
وامي الهين من دون الله ومن الامثلة المشهورة اياك اعني واسمعي يا جارة والذي يدل
على صحة ذلك وجوه الاول قوله تعالى في آخر السورة يا ايها الناس ان كنتم فبين ان المذكور
في اول الآية على سبيل الرمز هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح الثاني انه
لو كان صلى الله عليه وسلم شاكا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته اولى وهذا يوجب
سقوط الشريعة بالكلية الثالث اذا قدر ان يكون شاكا في نبوة نفسه فكيف يزول ذلك
الشك باخبار اهل الكتاب عن نبوته مع انهم في الاكثر كفارا فثبت ان الخطاب وان كان
في الظاهر معه صلى الله عليه وسلم الا ان المراد هو الامة ومثل هذا معتاد فان السلطان
اذا كان له امير وتحت راية ذلك الامير جمع فاذا اراد ان يامر الرعية بامر مخصوص
فانه لا يوجه خطابه عليهم بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الامير الذي جعله اميرا عليهم
ليكون ذلك اقوى تاثيرا في قلوبهم وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم على حقيقته

ولكن الله تعالى علم انه صلى الله عليه وسلم لا يشك في ذلك الا ان المقصود انه متى سمع هذا
الكلام فانه يصرح ويقول يا رب لا اشك ولا اطلب الحجة من قول اهل الكتاب بل اكتفي بما
انزلته علي من الدلايل الظاهرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لا اشك ولا اسال وعن ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما والله ما شك طرفة عين ولا سال احدا منهم ونظير هذا قوله تعالى للملايكة
اهولا اياكم كانوا يعبدون والمقصود ان يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا سبحانك انت
ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن وكما قال لعيسى عليه السلام ءانت قلت للناس اتخذوني
وامي الهين والمقصود منه ان يصرح عيسى عليه السلام بالبراة عن ذلك فكذلك هنا وقرا
ابن كثير والكسائي بنقل حركة الهمزة الى السين والباقون بالهمزة وسكون السين وقيل الخطاب
لكل من يسمع اي ان كنت ايها السامع في شك مما انزلنا على لسان نبينا اليك وفيه تنبيه
على ان من خالجته شبهة في الدين ينبغي ان يسارع الى حلها بالرجوع الى اهل العلم واظهر
هذه الاقوال اولها وهذه الاقوال تجري في قوله تعالى لقد جاءك الحق من ربك
اي بالايات القاطعة لا مدخل للمرية فيه فلا تكونن من الممترين اي الشاكين فيه وفي قوله تعالى
ولا تكونن من الذين كذبوا بايات الله فتكون من الخاسرين اي الذين خسروا
انفسهم ان الذين حقت عليهم كلمة ربك اي ثبت عليهم قول الله تعالى الذي كتبه
في اللوح المحفوظ واخبر به الملايكة انهم لا يؤمنون اي يموتون كفارا فلا يكون غيره
اذ لا يكذب كلامه ولا ينتقض قضاوه ولو جاءتهم كل اية فان السبب الاصلي لايمانهم
وهو تعلق ارادة الله تعالى به مفقود فان الدليل لا يهدي الا باعانة الله تعالى
فاذا لم تحصل تلك الاعانة ضاعت تلك الدلايل حتى يروا العذاب الاليم فحينئذ لا
ينفعهم الايمان كما لم ينفع فرعون وقرا نافع وابن عامر كلمة بالف بعد الميم على الجمع
والباقون بغير الف على الافراد القصة الثالثة قصة يونس عليه السلام المذكورة
بقوله تعالى فلولا اي فهلا كانت قرية اي واحدة من قرى الامم الماضية التي اهلكناها
امنت اي امن اهلها عند اتيان الايات او عند روية اسباب العذاب فنفعها
اي فتسبب عن ايمانها ذلك انه نفعها ايمانها بان يقبله الله تعالى منها وكشف عنها العذاب
وقوله تعالى الا قوم يونس استثنا منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما امنوا اي لما اخلصوا
الايمان اول ما راوا اية العذاب ولم يوخروه الى حلوله كشفنا عنهم عذاب الخزي
في الحياة الدنيا ويجوز ان يكون متصلا والجملة في معنى النفي لتضمن حرف التحضيض معناه
كانه قيل ما امنه اهل قرية من القرى الهالكة فنفعهم ايمانهم الا قوم يونس ومتعناهم
الى حين اي الى انقضا اجالهم روي عن ابن مسعود وغيره ان قوم يونس كانوا بارض نينوى
من ارض الموصل فارسل اليه تعالى عليهم يونس عليه السلام يدعوهم الى الايمان فدعاهم
فابوا فقيل له ان العذاب مصبحهم الى ثلاث فاخبرهم بذلك فقالوا انا لم نجرب عليه كذبا
فانظروا فان بات فيكم تلك الليلة فليس بشي وان لم يبت فاعلموا ان العذاب مصبحكم
فلما كان في جوف تلك الليلة خرج يونس عليه السلام من بين اظهرهم فلما اصبحوا تغشاهم
العذاب فكان فوق روسهم قدر ميل وقال وهب غامت السما غيما اسود هايلا
يدخن دخانا شديدا فهبط حتى غشي مدينتهم واسودت سطوحهم فلما راوا ذلك
ايقنوا بالهلاك فطلبوا يونس بينهم فلم يجدوه وقذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فخرجوا

مصبحهم

الى الصعيد

الى الصعيد بانفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ولبسوا المسوح واظهروا الايمان والتوبة
واخلصوا النية وفرقوا بين كل والدة وولدها من الناس والدواب فحن بعضها على بعض
وعلت اصواتها واختلطت باصواتهم وعجوا وتضرعوا الى الله تعالى وقالوا امنا
بما جاء به يونس عليه السلام فرحمهم الله تعالى واستجاب دعاءهم وكشف عنهم العذاب
بعد ما اظلهم وكان ذلك يوم عاشوراء يوم الجمعة وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه لقد
ان نرى الطير الجبال ان ترفرف من شدة ما يرى بها من العذاب وعن ابن عباس رضي الله عنهما
فيرده وقيل خرجوا الى شيخ من بقية علمائهم فقالوا قد نزل بنا العذاب فما ترى فقال
لهم قولوا يا حي حين لا حي ويا حي محيي الموتى ويا حي لا اله الا انت فقالوها فكشف
عنهم وعن الفضل بن عباس اللهم انا نوبنا عذ عظمت وجلت وانت اعظم منها واجل
افعل بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله وستاتي القصة ان شاء الله تعالى في سورة
والصافات فان قيل قد حكى الله تعالى عن فرعون انه تاب في آخر الامر ولم تقبل توبته
وحكى عن قوم يونس انهم امنوا وقبل توبتهم ما الفرق بين الحالين اجيب بان فرعون
انما تاب بعد ان شاهد العذاب وهو وقت الياس من الحياة واما قوم يونس فانهم
تابوا قبل ذلك فانهم لما ظهرت لهم امارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل ان ينزل
بهم ولم يباشرهم فكانوا كالمريض يخاف الموت ويرجو العافية وان الله تعالى قد علم
صدق نياتهم في التوبة قبل توبتهم بخلاف فرعون فانه لم تصدق ايمانه ولا اخلص
فلم يقبل منه قال الله تعالى ولو شاء ربك يا محمد لآمن من لك وصدقك من في الارض كلهم
يشترك فيه احد جميعا اي مجتمعين على دين واحد لا يختلفون في شيء منه ولكن لم تشا
ان يصدقك ويومن بك الا من سبقت له السعادة في الازل وفي هذا تسلية للنبي صلى الله
عليه وسلم فانه كان حريصا على ايمانهم كلهم فاخبره الله تعالى انه لا يومن به الا من قد سبقت
له السعادة الازلية فلا تشتغ نفسك على ايمانهم وهو قوله تعالى افانت تكره الناس
اي الذين لم يرد الله ايمانهم حتى يكونوا مومنين اي ليس ايمانهم اليك حتى تكرههم عليه وتحرص
عليه انما ايمان المومن واضلال الكافر بمشية الله تعالى وقضائه وقدره ليس لاحد ذلك
سواه كما قال تعالى وما كان اي وما ينبغي وما يتاتى لنفس اي واحدة فما فوقها ان تومن
ايمانا يعتد به في وقت ما الا باذن الله اي بارادته لها بالايمان فان هدايتها الى الله
هو المهدي والمضل وقال ابن عباس بامر الله وقال عطاء بعصمة الله ويجعل
الرجس اي العذاب والخذلان فانه بسببه وقراة شعبة وحده بالنون على امن لا يعقلون
اي لا يتدبرون في ايات الله فينتفعون بها وهم يدعون انهم اعقل الناس فيشاهدون
في سماوي الخلائق وهم يدعون انهم اسعد الناس بها فلا يذهب نفكر عليهم حسرات لما
بين تعالى هذه الايات الناطقة ان الايمان لا يحصل الا بخلق الله تعالى ومشيته امر بالنظر
والاستدلال بهذه الدلائل بقوله تعالى قل انظروا اي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يسالونك
الايات ماذا اي الذي في السموات والارض اي من الايات واوضح الدلالات من عجائب
صنعه لدلكم على وحدانيته وكمال قدرته في العالم العلوي الشمس والقمر وسائر دلائل
على الليل والنهار والنجوم وحركات الافلاك ومقاديرها واوضاعها والكواكب وما يختص
بذلك من المنافع وفي العالم السفلي الجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان

وخصوصا حال الانسان كل ذلك من الايات الدالات على وحدانية الله تعالى وانه خالقها كما قال
التآمل وفي كل شيء له اية تدل على انه واحد وفرا عاصم وحمزة في الوصل بكسر اللام والباقون
بضمها واما الهمز من انظروا فكل القراء يبتدؤون به بالضم وما تغني الايات اي وان كانت في غاية
الوضوح والله جمع نذير اي الرسل عن قوم لا يؤمنون في علم الله وحكمه تنبيه قال النحويون
ما هنا يحتمل وجهين الاول ان تكون نفيا بمعنى ان هذه الايات والنذر لا تفيد الغاية في حق
من حكم الله تعالى عليه بانه لا يؤمن كقولك ما يغني عنك المال اذا لم تتفق والثاني ان يكون
استفهاما كقولك لاي شيء يغني عنهم وهو استفهام بمعنى الانكار فهل اي ما ينتظرون اي اهل
مكة بتكذيبك الا انا ما اي وقايع مثل ايامي وقايع الذين من قبلهم اي من مكذبي الامم كالنبط
وقوم نوح وما انطوى بينهما من الامم اي مثل وقايعهم من العذاب قل اي قل لهم يا محمد
فانتظروا العذاب اني معكم من المنتظرين اي لنزول العذاب بكم وقوله تعالى ثم
ننجي رسلنا والذين امنوا عطف على محذوف دل عليه قوله تعالى الا مثل ايام الذين خلوا
من قبلهم كانه قيل يهلك الامم ثم ننجي رسلنا ومن امن بهم على حكاية الاحوال الماضية
وقرا ابو عمرو وحده بسكون النون كذلك اي كما انجينا رسلنا والذين امنوا معهم من الهلاك
كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين اي ننجيك يا محمد ومن امن معك وصدقك من الهلاك والعذاب
فان قيل قوله تعالى حقا يقتضي الوجوب والله تعالى لا يجب عليه شيء اجيب بان ذلك حق
بحسب الوعد والحكم لا انه حق بسبب الاستحقاق لما ثبت ان العبد لا يستحق على خالقه
شيئا وهو اعزامن بين المشبه والمشبه به ونصب نفعل المقدر وقيل بدل من كذلك
وقرا حفص والكسائي بسكون النون الثانية والباقون بفتحها واما الوقف على جميع
القراء فعلى النون على الجيم لانها مرسومة في المصحف بالجيم بلا ياء هكذا في القرآن وقفا ووصلا الا ابا
لجميع القراء ولما ذكر تعالى الدلائل على اقصى الغايات وابلغ النهايات امر رسوله صلى
الله عليه وسلم باظهار دينه فقال قل يا محمد يا ايها الناس اي الذين ارسلت اليهم فشكوا في امري
ولم يؤمنوا بك ان كنتم في شك من ديني اي الذي ادعوكم اليه انه حق واصر بهم على ذلك وعددهم
الاصنام التي لا تضر ولا تنفع فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله اي غيره وهي
الاصنام التي لا قدرة لها على شيء ولكن اعبد الله الذي يتوفاكم اي يقبض ارواحكم التي
لاجلي عندكم بعدها فانه الذي يستحق العبادة وانما خص الله تعالى بهذه الصفة
للتهديد وقيل انهم لما استعجلوا بطلب العذاب فاجابهم بقوله تعالى ولكن اعبد الله
الذي هو قادر على اهلاككم ونصري عليكم وامرت ان اكون من المؤمنين اي الصدقين
بما جاء من عند الله وقيل انه لما ذكر العبادة وهي من اعمال الجوارح اتبعه ذكر الايمان
لانه من اعمال القلوب فان قيل كيف قال ذلك وهم كفار يعتقدون بطلان ما جاء به اجيب
بانه كان فيهم مؤمنون اوانهم لما رأوا الايات اضطربوا وشكوا في امره صلى الله عليه وسلم
وقوله تعالى وان اقم وجهك للدين عطف على ان اكون غير ان صلة ان المصدرية بصيغة
الامر ولا فرق بينهما في الغرض لان المقصود وصلها بما تضمن معنى المصدر ليصح عطفه
عليه وصيغ الافعال كلها كذلك سوا الخبر منها او الطلب والمعنى وامرت بالاستقامة
في الدين والاستمرار فيه باداء الفرايض والانتهاء عن المناهي وفي الصلاة استقبال
القبلة وقوله حنيفا حال من فاعل اقم او من الدين او من الوجه ومعناه مستقيما مايلا الى الدين

غير مفوج عنه الى دين اخر وقوله تعالى ولا تكونن من المشركين اي ممن يشرك بالله في عبادته
غيره فيهلك خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره اي ولا تكونن ايها الانسان وكذا قوله
تعالى ولا تدع اي تعبد من دون الله اي غيره ما لا ينفعك ان عبدته ولا يضرك ان لم تعبده فان
فعلت ذلك فانك اذا من الظالمين لنفسك لانك وضعت العبادة في غير موضعها
والظلم وضع الشيء في غير موضعه فاذا كان ما سوى الحق معزولا عن التصرف كان اضافة
التصرف الى ما سوى الحق وضعا للشيء في غير موضعه فيكون ظلما ولما ذكر تعالى الاوثان وبين
انها لا تقدر على ضر ولا نفع بين تعالى انه هو القادر على كل شيء وانه ذو الجود والكرم والرحمة
بقوله تعالى وان يمسسك اي يصبك الله بضر كفقر ومرض فلا كاشف اي دافع له الا هو لانه
الذي انزله بك وان يردك بخير كرخاء وصحة فلا راد اي دافع لفضله الذي اراد بك به يصيب
به اي الخير من يشاء من عباده وهو الغفور اي البليغ الستر للذنوب الرحيم اي البالغ
في الاكرام وقرا ابو عمرو وقالون والكسائي بسكون الهاء والباقون بالضم فرجح سبحانه
وتعالى جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة اوجه الاول انه تعالى لما ذكر امتناع الضر بين
انه لا كاشف له الا هو وذلك يدل على انه تعالى يزيل المضار لان الاستثناء من النفي اثبات
ولما ذكر الخير لم يقل بانه يدفعه بل قال انه لا راد لفضله وذلك يدل على ان الخير مطلوب
بالذات وان الشر مطلوب بالعرض كما قال صلى الله عليه وسلم عن ربه تعالى انه قال سبقت
رحمتي غضبي الثاني انه تعالى قال في صفة الخير يصيب به من يشاء من عباده وذلك يدل
على ان جانب الخير والرحمة اقوى واغلب الثالث انه تعالى وهو الغفور الرحيم وهذا ايضا
يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الاية انه سبحانه وتعالى بين انه منفرد
بالخلق والايجاد والتكوين والابداع وانه لا موجود سواه ولا معبود الا اياه وان جميع الممكنات
مستندة اليه وجميع الكائنات محتاجة اليه فالايدي مرفوعة اليه والحاجات منتهية اليه
والعقول والهة فيه والرحمة والجود فايض منه ولما قرر تعالى الدلائل المذكورة في التوحيد
والنبوة والمعاد وزين امر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدا بالخلق
والابداع والتكوين والاختراع ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية لئلا يبقى لاحد عذر
بقوله تعالى قل يا محمد يا ايها الناس اي الذي ارسلت اليهم قد جاءكم الحق من ربكم هو رسوله صلى الله عليه
وسلم جاء بالحق من الله تعالى والقرآن فلم يبق لكم عذر فمن اهتدى اي امن بالنبي صلى الله عليه وسلم
وعمل بما في الكتاب فانما يهتدي لنفسه لانه تبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل فانقذ
نفسه من النار واوجب لها الجنة ومن ضل اي كفر بها او بشيء منها فانما يضل عليها اي على
نفسه لان وبال ضلاله عليها لان من ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء فقد غر نفسه
ثم قال صلى الله عليه وسلم وما انا عليكم بوكيل اي حفيظ موكول الي امركم وانما انا بشير ونذير
قال ابن عباس وهذه الاية منسوخة باية السيف قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم واتبع
يا محمد ما يوحى اليك بالامتثال والتبليغ واصبر اي على دعوتهم وتحمل اذيتهم حتى يحكم الله
اي ينصرك عليهم واظهار دينك او بالامر بالقتال وهو خير الحاكمين اذ لا يمكن الخطا في حكمه
تعالى لاطلاعه على السرائر اطلاعه على الظواهر فحكم بقتل المشركين والجزية على اهل الكتاب
يعطونها عن يد وهم صاغرون وانشد بعضهم في الصبر • ساصبر حتى يعجز الصبر عن صبري
واصبر حتى يحكم الله في امري • ساصبر حتى يعلم الصبر انني • صبرت على شيء امر من الصبر

وروي ان ابا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الانصار ثم دخل
المدينة فقال له مالك لم تلقنا قال لم اكن عندنا دواب قال فاين النواضح قال فقطعنا
بها طلحة وطلب ابو ايوب بدرا وقد قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار انكم ستلقون بعدي
اثرة قال معاوية فما ذا قال فاصبروا حتى تلقوني قال فاصبر قال اذن فاصبر
فقال عبد الرحمن بن حسان الا ابلغ معاوية بن حرب امير الظالمين بغيا قال اي بالنصارى
منظرة ام اي قوم التغابن والخصام وقول البيضاوي تبعا للزمخشري عند سؤال ابن هلي
الله عليه وسلم من قرأ سورة يونس اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق
بيونس وكذب به وبعدد من غرق فرعون حديث موضوع تسورة هود مكية الا اقم
الصلاة الاية او الا فلعلك تارك الاية واولئك يومنون به الاية مائة وثنتان
او ثلاث وعشرون اية وكلماتها الف وسبعمائة وخمس عشرة وحروفها سبعة الاف وسبعمائة
وخمسة احرف وعن ابن بكر رضي الله تعالى عنه قال قلت يا رسول الله اعجل اليك الشيب
قال شيبتني هود واخواتها الحاقة والواقعة وعم يتساءلون وهل اتاك حديث الغاشية
بسم الله اي الذي له تمام العلم وكمال الحكمة وجميع القدرة الرحمن لجميع خلقه بعموم الشارة
والنذارة الرحيم لاهل ولايته بالحفظ في سلوك سبيله وقوله تعالى الر كتاب مبتدا
وخبرا وكتاب خبر مبتدا محذوف ونقدم الكلام على وآل السور اول سورة البقرة وقرا
ابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة والباقون بالفتح وقوله تعالى
احكمت اياته صفة لكتاب وفسر الاحكام بوجوه الاول احكمت اياته اي نظمت نظما محكما
لا يقع فيه نقص ولا خلل كالبناء المحكم المرصف ولا يعتريه اخلال من جهة اللفظ والمعنى ولا يستطيع
احد نقض شيء منه ولا الطعن في شيء من بلاغته وفصاحته الثاني ان الاحكام عائد عن منع
العاصي الشر بقوله احكمت اياته اي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرايع قاله ابن
عباس الثالث انها احكمت بالحج والدلايل وجعلت حكمة منقول من حكم بالضم اذا صار حكيما
لانها مشتملة على امهات الحكم النظرية والعملية وقوله تعالى ثم فصلت صفة اخرى للكتاب
اي بينت بالاحكام والقصص والمواعظ والاخبار او بالانزال نجما نجما او وصل فيها وخص ما
يحتاج اليه او جعلها سورا وقال الحسن احكمت بالامر والنهي ثم فصلت بالوعد والوعيد
تنبيه معنى ثم في قوله تعالى ثم فصلت ليس للتراخي في الوقت لكن في الحال كما تقوله في جملة
احسن الاحكام ثم مفصلة لحسن التفصيل وفلان كريم الاصل وكريم الفعل وقوله تعالى من لدن
حكيم خبير اي الله تعالى صفة اخرى للكتاب والتقدير الركتاب من حكيم خبير او خبر بعد خبر والتقدير
الر من لدن حكيم خبير او صلة لاحكمت وفصلت اي احكمت وفصلت من لدن حكيم خبير
وعلى هذا التقدير قد جعل بين اول هذه الاية وبين اخرها مناسبة لطيفة كانه يقول
تعالى احكمت اياته من لدن حكيم وفصلت من لدن خبير عالم بكيفيات الامور وقوله تعالى ان لا
تعبدوا الا الله يحتمل وجوها الاول ان يكون مفعولا له والتقدير كتاب احكمت اياته ثم
فصلت لاجل ان لا تعبدوا الا الله الثاني ان تكون ان مفسرة لان في تفصيل الايات معنى القول
قال الرازي والحمل على هذا اولى لان قوله تعالى وان استغفروا معطوف على قوله تعالى
ان لا تعبدوا فيحسن ان يكون معناه اي لا تعبدوا والكون الامر معطوفا على النهي فان كونه
بمعنى لان لا تعبدوا فيمنع عطف الامر على النهي الثالث ان يكون كلاما مبتدا منقطعا عما قبله

على لسان النبي صلى الله عليه وسلم اعرامنه على اختصاص الله تعالى بالعبادة ويدل عليه قوله
صلى الله عليه وسلم اني لكم منه اني الله نذير بالعقاب على الشرك وبشير بالثواب على التوحيد
كانه قال اترك عبادة غير الله تعالى عنها اتركوها اني لكم منه نذير وبشير كقوله تعالى
فضرب الرقاب تنبيه هذه الآية الكريمة مشتملة على اشياء مترتبة الاول انه تعالى
امر ان لا تعبد والا الا الله لان ما سواه محدث مخلوق مربوب وانما حصل بتكوين الله
تعالى وايجاده والعبادة عبارة عن اتم الخضوع والخشوع ونهاية التواضع والتذلل
وذلك لا يليق الا بالخالق المدبر الرحيم المحسن فتبين ان عبادة غير الله تعالى منكر المرتبة
الثانية قوله تعالى وان استغفروا ربكم المرتبة الثالثة قوله تعالى ثم توبوا اليه
واختلفوا في بيان الفرق بين هاتين المرتبتين على وجوه الاول ان معنى قوله تعالى وان
استغفروا اي اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ثم ابن الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة
فقال ثم توبوا اليه لان الداعي الى التوبة والمحرك عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب
المغفرة فالاستغفار مطلوب بالذات والتوبة مطلوبة لكونها من مهمات الاستغفار
وما كان آخرا في الحصول كان اولا في الطلب فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة
الثاني وان استغفروا من الشرك والمعاصي ثم توبوا اي ارجعوا اليه بالطاعة الثالث الاستغفار
طلب من الله تعالى ازالة ما لا ينبغي والتوبة سعي من الانسان في ازالة ما لا ينبغي فقدم
الاستغفار ليدل على ان المؤمن يجب عليه ان لا يطلب الا من مولاه فانه هو الذي يقدر
على تحصيله ثم تعقب الاستغفار ذكر التوبة لانها عمل يأتي به الانسان ويتوسل به الى دفع
المكروه والاستعانة بفضل الله تعالى تقدم على الاستعانة بسعي النفس ثم انه تعالى
لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار المطلوبة ومن المعلوم
ان المطالب محصورة في نوعين لانه اما ان يكون حصولها في الدنيا او في الآخرة اما المنافع
الدنيوية فهي المراد من قوله تعالى يمتعكم متاعا حسنا اي يطيب عيشكم وسعة رزقكم
الى اجل مسمى وهو الموت فان قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم قال الدنيا سجن المؤمن
وجنة الكافر وقال ايضا اشد البلاء بالانبياء ثم الاولياء ثم الامثل فالامثل وقال تعالى
ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة فهذه
النصوص دالة على ان نصيب المشتغل بالطاعات في الدنيا هو الشدة والبلية ومقتضى
هذه الآية ان نصيب المشتغل بالطاعات الراحة في الدنيا فكيف الجمع بينهما اجيب
بان المشتغل بعبادة الله ومحبته مشتغل بحب شيء يمتنع تغيره وزواله وفناؤه فكل
ما كان اتصاله في ذلك الطريق اكثر وتوغله فيه اتم كان انقطاعه عن الخلق اتم واكمل وكلما
كان الكمال في هذا الباب اكثر كان الابتهاج والسرور اكمل لانه امن من تغير مطلوبه
وامن من زوال المحبوب واما من كان مشتغلا بحب غير الله كان ابدا في الم الخوف من فوات
المحبوب وزواله وكان عيشه منغصا وقلبه مضطربا ولذلك قال تعالى في صفة المشتغلين
بخدمته فلنحيينه حياة طيبة وقيل المراد بالمتاع الحسن عدم العذاب بعذاب الاستيصال
كما استأصل اهل القرى الذين كفروا وسمى سبحانه وتعالى منافع الدنيا بالمتاع لاجل التنبيه
على حقارتها وقلتها وبينه تعالى على كونها منقضية بقوله تعالى الى اجل مسمى فصارت هذه
الآية دالة على كونها حقيرة خسيسة منقضية واما المنافع الاخروية فتعدد ذكرها

بقوله تعالى ويؤت اي في الاخرة كل ذي فضل اي في العمل فضله اي جزاه لان مراتب السعادات
في الاخرة مختلفة لانها متقدرة بمقدار الدرجات الحاصلة في الدنيا فلما كان الاعراض عن غير
الحق والاقبال على عبودية الحق درجات غير متناهية فكذلك مراتب السعادات
الاخروية غير متناهية فلهذا السبب قال تعالى ويؤت كل ذي فضل فضله وقال ابو العالية
من كثرت طاعته في الدنيا زادت درجاته في الاخرة وقال بن عباس من زادت حسناته
على سيئاته دخل الجنة ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار ومن استوت سيئاته
وحسناته كان من اهل الاعراف ثم يدخلون الجنة وقال بن مسعود من عمل سيئة كتبت
له سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فان عوقب بالسيئة التي عملها
في الدنيا بقيت له عشر حسنات فان لم يعاقب بها في الدنيا اخذ من حسناته العشر
واحدة وبقي له تسع حسنات ثم يقول ابن مسعود هلك من غلب احاده اعشاره وقوله
تعالى وان تولوا فيه حذف احدى التائين اي وان تعرضوا عما جئتكم به عن الهدى فاني اي فقل لهم اني
اخاف عليكم عذاب يوم كبير هو يوم القيمة وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل وقيل يوم
الشدائد وقد ابتلوا بالقحط حتى اكلوا الجيف الى الله مرجعكم اي رجوعكم في ذلك اليوم وهو
على كل شيء قدير اي قادر على جميع المقدورات لا دافع لقضائه ولا مانع لمشيئته ومنه الثواب
والعقاب وفي ذلك دلالة على قدرة عالية وجلالة عظيمة لهذا الحاكم وعلى ضعف لهذا العبد
والملك القاهر العالي اذا راى عاجزا مشرفا على الهلاك فانه يخلصه من الهلاك ومنه المثل
المشهور ملكت فاسجح اي فاعف يقول مصنف هذا الكتاب قد افنيت عمري في خدمة
العلم ومطالعة الكتب ولا رجا لي في شيء الا اني في غاية الذلة والقصور والكريم اذا قدر
غفر فاسالك يا اكرم الاكرمين وارحم الراحمين وساتر عيوب المعيوبين ان تفيض سجال
رحمتك علي وعلى والدي واولادي واخواني واحبابي وان تحصني واياهم بالفضل والتجاوز والجود
والكرم واختلفوا في سبب نزول قوله تعالى الا انهم يثنون صدورهم فقال بن عباس نزلت
في الاخنس بن شريق وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بما يحب وينطوي بقلبه على ما يكره فمعنى قوله تعالى يثنون صدورهم يخفون ما في صدورهم
من الشحناء والعداوة وقال عبد الله بن شداد نزلت في بعض المنافقين كان اذا مر برسول
الله صلى الله عليه وسلم ثنى صدره وظهره وطاطا راسه وغطى وجهه كي لا يراه النبي صلى
الله عليه وسلم وقال قتادة كانوا يحنون ظهورهم لكيلا يسمعوا كلام الله تعالى ولا
ذكره وروى البخاري عن بن عباس انها نزلت فيمن كان يستحيي ان يتخلى او يجامع فيفضي
الى السماء وقيل كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخي ستره ويتغشى بثوبه ويقول هل
يعلم الله ما في قلبي وقال السدي يثنون صدورهم اي يعرضون بقلوبهم من قولهم
ثنيت عناني ليستخفوا منه اي من الله تعالى بسرهم فلا يطلع رسوله صلى الله عليه وسلم
والمؤمنين عليه وقيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قيل انها نزلت في طائفة
من المشركين قالوا ان ارخينا علينا ستورا واستغشينا ثيابا وطوينا صدورنا على عداوة
محمد كيف يعلم الا حين يستغشون ثيابهم اي يأوون الى فراشهم ويتغطون بثيابهم يعلم
تعالى ما يسرون في قلوبهم وما يعلنون بافواههم اي انه لا يفاوت في علمه تعالى بين اسرارهم
واعلانهم فلا وجه لتوصلهم الى ما يريدون عن الاستخفاء انه تعالى عليم بذات الصدور

اي بالقلوب

اي بالقلوب واحوالها ولما اعلم تعالى انه يعلم ما يسرون وما يعلنون اردفه بما يدل على كونه
عالما بجميع المعلومات بقوله تعالى **وما من دابة في الارض الا على الله رزقها** فذكر تعالى
انه رزق كل حيوان انما يصل اليه من الله تعالى فلو لم يكن عالما بجميع المعلومات لما
حصلت هذه المهمات والدابة اسم كل حيوان دب على وجه الارض ولا شك ان اقسام
الحيوانات وانواعها كثيرة وهي الاجناس التي تكون في البر والبحر والجبال والله تعالى عالم
بكيفية طباعها واعضائها واحوالها واغذيتها ومساكنها وما يوافقها وما يخالفها
فالاله المدبر لاطباق السموات والارض ولطبائع الحيوان والنبات كيف لا يكون عالما
باحوالها روي ان موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه تعلق قلبه باحوال اهله
فامره الله تعالى ان يضرب عصاه على صخرة فانشقت وخرج منها صخرة ثانية
ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت منها صخرة ثالثة ثم ضربها بعصاه فانشقت
فخرجت منها دودة كالذرة وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله تعالى الحجاب
عن سمع موسى عليه السلام فسمع ان الدودة كانت تقول سبحان من يراني ويسمع كلامي
ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني فان قيل ان كلمة على للوجوب فيدل على ان ايصال الرزق
الى الدابة واجب على الله تعالى اجيب بانه انما اتى بذلك تحقيقا لوصوله بحسب الوعد
والفضل والاحسان وحملا على التوكل فيه وفي هذه الاية دلالة على ان الرزق قد يكون
حراما لانه ثبت ان ايصال الرزق الى كل حيوان واجب على الله تعالى بحسب الوعد والله تعالى
لا يخل به ثم قد نرى ان انسانا لا ياكل من الحلال طول عمره فلو لم يكن الحرام رزقا لكان الله
تعالى ما اوصل رزقه اليه فيكون تعالى قد اخل بالواجب وذلك محال فعلمنا
ان الحرام قد يكون رزقا **ويعلم** تعالى **مستقرها** قال ابن عباس هو المكان الذي تاوي اليه
وتستقر فيه ليلا ونهارا **ومستودعها** هو الذي تدفن فيه اذا ماتت وقال عبد
الله بن مسعود المستقر ارحام الامهات والمستودع المكان الذي يموت فيه وقال
عطا المستقر ارحام الامهات والمستودع اصلاب الاباء وقيل المستقر الجنة او النار
والمستودع القبر لقوله تعالى في صفة الجنة والنار حسنت مستقرا وساءت مستقرا
ومقاما ولا مانع ان يفسر ذلك بهذا كله **كل** اي كل واحدة من الدواب ورزقها ومستقرها
ومستودعها **في كتاب** اي ذكرها مثبت في اللوح المحفوظ **مبين** اي بين كما قال تعالى
ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ولما اثبت تعالى بالدليل المتقدم كونه عالما
بالمعلومات اثبت كونه تعالى قادرا على كل المقدورات بقوله تعالى **وهو الذي خلق
السموات والارض في ستة ايام** اي من ايام الدنيا اولها الاحد واخرها الجمعة وتقدم الكلام
على تفسير ذلك في سورة الاعراف **وكان عرشه على الماء** قال كعب خلق الله تعالى ياقوتة
خضراء ثم نظر اليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد ثم خلق الريح فجعل الماء على متنها ثم
وضع العرش على الماء وقال ابو بكر الاصم ومعنى قوله تعالى وكان عرشه على الماء كقولهم
السماء على الارض وليس ذلك على سبيل كون احدهما ملتصقا بالاخر وقال ضمرة ان الله
عز وجل كان عرشه على الماء ثم خلق السموات والارض وخلق القلم فكتب به ما هو خالق
وما هو كائن من خلقه ثم ان ذلك الكتاب مسح الله تعالى ومجده الف عام قبل ان يخلق شيئا
من خلقه ففي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى لان العرش مع كونه اعظم من السموات

والارض كان على الما وقد امسكه الله تعالى من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وقوله تعالى
ليبلوكم متعلق بخلق اي خلقهما وما فيهما منافع لكم ومصالح لنختبركم وهو اعلم بكم منكم ايكم احسن
عملا اي اطوع لله واورع عن محارم الله وهذا لقيام الحجة عليهم وقد مر امثال ذلك
ولما بين تعالى انه انما خلق هذا العالم لاجل ابتلا المكلفين وامتحانهم وهذا يوجب
القطع بحصول الحشر والنشر لان الابتلا والامتحان يوجب تخصيص المحسن بالرحمة
والثواب وتخصيص المسي بالعقاب وذلك لا يتم الا مع الاعتراف بالمعاد والقيامة
خاطب تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ولئن قلت يا محمد لهولا الكفار من قومك
انكم مبعوثون من بعد الموت اي للحساب وللجزا ليقولن الذين كفروا ان هذا اي
القران بالبعث او الذي يقوله الا سحر مبين اي بين وقرا حمزة والكسائي بفتح السين والف
بعدها وكسر الحا فيكون ذلك راجع للنبي صلى الله عليه وسلم وقرا الباقون بكسر السين وسكون
الحا ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم يكذبون رسوله صلى الله عليه وسلم حكى عنهم نوعا اخر
بقوله تعالى ولئن اخرنا عنهم العذاب الى مجي امة اي جماعة من الاوقات معدودة
اي قليلة ليقولن اي استهزا ما يحبسه اي ما يمنعه من الوقوع قال الله تعالى
الا يوم ياتيهم كيوم بدر ليس مصروفا اي مدفوعا العذاب عنهم وحاق اي نزل
بهم من العذاب ما كانوا به يستهزءون اي الذين كانوا يستعجلون لان استعجالهم
كان استهزا فان قيل لم قال تعالى وحاق على لفظ الماضي مع ان ذلك لم يقع اجيب
بانه وضع الماضي موضع المستقبل تحقيقا ومبالغة في التاكيد والتقرير والتهديد
ولما ذكر تعالى ان عذاب الكفار وان تاخر الا انه لا بد وان يحيق بهم ذكر بعده ما يدل
على كفرهم وعلى كونهم مستحقين لذلك العذاب بقوله تعالى ولئن اذقنا الانسان اي الكافر
منا رحمة اي نعمة كغنى وصحة بحيث يجد لذتها ثم نزعناها اي سلبنا تلك النعمة منه انه
ليوس اي قنوط من رحمة الله لقلة صبره وعدم ثقته به كفور اي جحود لنعمتنا عليه
واما المسلم الذي يعتقد ان تلك النعمة من جود الله تعالى وفضله واحسانه فانه
لا يحصل له الياس بل يقول لعله تعالى يردها علي بعد ذلك احسن واكمل وافضل
ما كانت ولئن اذقناه اي الكافر نعما بعد ضرا مسته كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم
وفي اختلاف الفعلين وهما اذقناه ومسته من حيث الاسناد اليه تعالى في الاول
والى الضر في الثاني نكتة عظيمة وهي ان النعمة صادرة من الله تعالى تفضلا منه لخبر ما احد
يدخل الجنة الا برحمة الله تعالى ولا انت يا رسول الله قال ولا انا والضر صادر من
العبد كسبا لانه السبب فيه باجتلابه اياه بالمعاصي غالبا لقوله تعالى ما اصابك
من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ولا ينافي ذلك قوله تعالى قل كل من عند
الله فان الكل منه ايجادا غير ان الحسنة احسان وامتحان والسيئة مجازاة وانتقام
لخبر ما من مسلم يصيبه وصب ولا نصب حتى الشوكة يشاكها وحتى انقطاع شسع
نعله الا بذنب وما يعفوا الله اكثر ليقولن اي الذي اصابه الصحة والغنى ذهب السيئات
اي المصايب التي اصابتني عني ولم يتوقع زوالها ولا يشكر عليها انه لفرح فخور اي فرح بطر
فخور على الناس بما اذاقه الله تعالى من نعمايه قد شغله الفرح والفخر عن الشكر فبين
سبحانه وتعالى في هذه الاية ان احوال الدنيا غير باقية بل هي ابدا في التغير والزوال

والغنى

والتحول

والتحول والانتقال فان الانسان اما ان يتحول من النعمة الى المحنة ومن اللذات الى الافات
كالقسم الاول واما ان يكون بالعكس من ذلك وهو ان ينتقل من المكروه الى المحبوب كالقسم
الثاني ولما بين تعالى ان الكافر عند الابتلا لا يكون من الصابرين وعند الفوز بالنعما
لا يكون من الشاكرين بين حال المتقين بقوله تعالى الا اي لكن الذين صبروا على الضرا وعملوا
الصالحات في النعما فانهم ان اصابتهم شدة صبروا وان نالتهم نقمة شكروا اولئك لهم
مغفرة واجر كبير فجمع لهم تعالى بين المطلوبين احدهما زوال العقاب والخلاص منه وهو المراد
من قوله تعالى لهم مغفرة والثاني الفوز بالثواب وهو دخول الجنة وهو المراد من قوله تعالى
واجر كبير فلعلك يا محمد تارك بعض ما يوحى اليك فلا تبلغهم اياه لتهاونهم به فانهم كانوا
يستهزؤن بالقران ويضحكون منه وقرا حمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين
والباقون بالفتح وضائق به صدرك اي بتلاوته عليهم لاجل ان يقولوا لولا اي هلا انزل عليه
كنز ينفقه في الاستتباع كالملوك او جاء معه ملك يصدقه كما اقترحنا وروي عن ابن عباس
ان روسا مكة قالوا يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا ان كنت رسولا وقال اخرون ايتنا
بالملائكة ليشهدوا بنبوتك فقال لا اقدر على ذلك فنزلت انما انت نذير فلا عليك الا
البلاغ لا الاتيان بما اقترحوه والله على كل شيء وكيل فتوكل عليه فانه عالم بحالهم وفاعل
بهم جزا افعالهم واقوالهم ام اي بل يقولون اي كفار مكة افتراه اي اختلقه من تلقاء
نفسه وليس هو من عند الله قال الله تعالى قل لهم يا محمد فاتوا بعشر سور مثله في البيان وحسن
النظم مفتريات فانكم عربيون مثلي قال ابن عباس هذه السور التي وقع بها هذا التحدي معينة
وهي سورة البقرة وال عمران والنسا والمائدة والانعام والاعراف والانفال والتوبة ويونس وهود
وقيل التحدي وقع بمطلق السور وهو متقدم على التحدي بسورة واحدة والتحدي بسورة
واحدة ورد في سورة البقرة وفي سورة يونس اما تقدم هذه السورة على سورة البقرة فظاهر
لان هذه السورة مكية وسورة البقرة مدنية واما في سورة يونس فلان كل واحدة من هاتين
السورتين مكية فتكون سورة هود متقدمة في النزول على سورة يونس كما قاله الرازي
وانكر المبرد هذا وقال بل سورة يونس اولا وقال معنى قوله في سورة يونس فاتوا بسورة مثله
اي مثله في الخبر عن الغيب والاحكام والوعد والوعيد فعجزوا فقال لهم في سورة هود ان عجزتم
عن الاتيان بسورة مثله في الاخبار والاحكام والوعد والوعيد فاتوا بعشر سور من غير
وعد ولا وعيد وانما هي مجرد البلاغة وادعوا اي وقل لهم يا محمد ادعوا للمعاونة على ذلك
من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين في انه مفتري والضمير في قوله تعالى فان لم
يستجيبوا لكم اي باتيان ما دعوتموهم اليه للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين لانه صلى الله عليه
وسلم والمؤمنين كانوا يتحدونهم وقال تعالى في موضع اخر فان لم يستجيبوا لك فاعلم او لتعظيم
النبي صلى الله عليه وسلم فاعلموا انما انزل ملتبسا بعلم الله اي بما لا يعلمه الا الله من نظم
معجز للخلق واخبار بغيوب لا سبيل لهم اليه ولا يقدر عليه سواه وقوله تعالى وان مخففة
من الثقيلة اي وانه لا اله الا هو فهل انتم مسلمون اي ثابتون على الاسلام راسخون مخلصون
فيه اذ تحقق عندكم اعجازه مطلقا وقيل الخطاب للمشركين والضمير في لم يستجيبوا لمن استطعتم
اي فان لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله الى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه
وان طاقتهم اقصر من ان تبلغه فاعلموا انه منزل من عند الله وان ما دعاكم اليه من التوحيد

وحده وان توحيده واجب
والاشراك به ظلم عظيم

حق فهل انتم بعد هذه الحجة القاطعة مسلمون اي اسلموا وفي مثل هذا الاستفهام ايجاب بليغ لما فيه
من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر واختلف في سبب نزول قوله تعالى من كان
يريد الحياة الدنيا وزينتها اي بعمله الذي يعمله من اعمال البر نوف اليهم اعمالهم اي التي عملوها
من خير كصدقة وصلة رحم وهم اي الدنيا فيها لا يبخسون اي نوصل اليهم اجور اعمالهم وافية
كاملة من غير بخس في الدنيا وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الاولاد
ونحو ذلك اولئك الذين ليس لهم في الاخرة الا النار وحبط اي بطل ما صنعوا اي عملوا فيها اي الاخرة فلا ثواب
له وباطل ما كانوا يعملون لانه لغير الله تعالى فقال مجاهد نزلت في اهل الريا قال صلى
الله عليه وسلم ان اخوف ما اخاف عليكم الشرك الاصغر قالوا يا رسول الله وما الشرك الاصغر
قال الريا والريا هو ان يظهر الانسان الاعمال الصالحة ليحمده الناس ويعتقدوا فيه الصلاح فهذا
هو العمل الذي لغير الله نعوذ بالله من الخذلان وقال اكثر المفسرين انها نزلت في الكافر واما
المومن فيريد الدنيا والاخرة وارادته الاخرة غالبة فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها
في الاخرة وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله لا يظلم المومن بحسنة يثاب
عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الاخرة واما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى اذا افضى
الى الاخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيرا وقيل نزلت في المنافقين الذين يطلبون
بغزوهم مع النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم من دون ان يومنوا بالاخرة وثوابها وقيل
في اليهود والنصارى وهو منقول عن انس ولما ذكر تعالى الذين يريدون باعمالهم الحياة
الدنيا وزينتها ذكر كل من كان يريد بعمله وجه الله تعالى والدار الاخرة بقوله تعالى
افمن كان على بينة من ربه قيل هو النبي صلى الله عليه وسلم والبينة هي القران ويتلوه
اي يتبعه شاهد بصدقه منه اي من الله تعالى وهو جبريل ومن قبله اي القران كتاب موسى
وهو التوراة شاهد له ايضا وقوله تعالى اماما اي كتابا موتما به في الدين ورحمة اي على
المنزل عليهم لانه الوصلة الى الفوز بخير الدارين حال من كتاب موسى والجواب محذوف
لظهوره والتقدير افمن كان على بينة من ربه كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها وليس لهم
في الاخرة الا النار ليس مثله بل بينهم تفاوت بعيد وتباين بين وقيل هو من امن من اليهود
كعبد الله بن سلام وغيره والمراد بالبينة هو البيان والبرهان والمراد بالشاهد
القران ومنه اي من الله ومن قبله كتاب موسى اي ويتلوه ذلك البرهان من قبل مجي القران
كتاب موسى اي ويتلوه ذلك البرهان في دلالته على هذا المطلوب لا في الوجود قال
الرازي وهذا القول هو الاظهر لقوله تعالى اولئك يومنون به وهذه صيغة جمع ولا يجوز
رجوعه الى محمد صلى الله عليه وسلم انتهى ويجوز ان يكون للتعظيم او له صلى الله عليه وسلم ومن تبعه
وربما يكون هذا اولى كما جرى عليه بعض المفسرين والاشارة الى من كان على بينة والضمير
في به للقران واذا كان ذلك الفريق ليس له في الاخرة الا النار فهذا الفريق ليس له في الاخرة
الا الجنة ومن يكفر به اي النبي صلى الله عليه وسلم او القران من الاحزاب اي اصناف الكفار
فيدخل فيهم اليهود والنصارى والمجوس روى سعيد بن جبير عن ابي موسى ان النبي صلى الله
عليه وسلم قال لا تسمع في يهودي ولا نصراني فلا يومن بي الا كان من اهل النار قال ابو موسى
فقلت في نفسي ان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا الا عن القران فوجدت الله
تعالى يقول ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده قال بعض العلما ولما دلت الاية على ان

فيها اي الدنيا

من يكفر

من يكفر به فالنار موعده دلت على ان من لا يكفر به كانت الجنة موعده وهو قوله تعالى
فلا تك في مرية اي شك منه اي القرآن او الموعد انه الحق من ربك خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم
والمراد غيره لانه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ويؤيد ذلك قوله تعالى ولكن اكثر الناس لا يؤمنون
اي لا يصدقون بما اوحينا اليك او من ان موعد الكفار النار ثم وصف الله تعالى هؤلاء المنكرين
الجاحدين بصفات الله كثيرة في معرض الذم الصفة الاولى كونهم مفترين على الله كما قال تعالى
ومن اي لا احد اظلم ممن افترى على الله كذبا بنسبة الشريك والولد اليه او اسند اليه ما لم ينزله
او نفى عنه ما انزله الصفة الثانية انهم يعرضون على الله تعالى في موقف الذل والهوان كما قال
تعالى اولئك يعرضون على ربهم اي يوم القيامة فان قيل هم لا يختصون بهذا العرض لان العرض
عام في كل العباد كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا اجيب بانهم يعرضون فيفتضحون بشهادة
الاشهاد عليهم كما قال تعالى ويقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم فيحصل لهم من الخزي
والنكال ما لا مزيد عليه وهذه هي الصفة الثالثة واختلف في هؤلاء الاشهاد فقال مجاهد هم الملائكة
الذين يحفظون اعمالهم عليهم في الدنيا وقال مقاتل بل هم الناس كما يقال على رؤوس الاشهاد اي
على رؤوس الناس وقال قوم هم الانبياء كما قال تعالى فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين
والفائدة في اعتبار قول الاشهاد المبالغة في اظهار الفضيحة فان قيل العرض على الله يقتضي
ان يكون الله في حيز وهو منزه تعالى عن ذلك اجيب بانهم يعرضون على الاماكن المعدة للحساب
والسؤال او ان يكون ذلك عرضا على من يوبخ بامر الله تعالى من الانبياء والمؤمنين والاشهاد جمع
شاهد كصاحب واصحاب او جمع شهيد كشريف واشراف قال ابو علي الفارسي وكان هذا ارجح
لان ما جاء من ذلك في التنزيل جاء على فعيل كقوله تعالى وجئنا بك شهيدا وعن عبد الله بن عمر
ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله يدني المؤمن يوم القيامة فيستره من الناس فيقول
اي عبدي تعرف ذنب كذا وكذا فيقول نعم حتى اذا قرره بذنوبه قال تعالى سترتها عليك في الدنيا
وقد غفرتها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته واما الكافر والمنافق فيقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا
على ربهم ولما اخبر تعالى عن حالهم في عقاب القيامة اخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى
الا لعنة الله على الظالمين فبين تعالى انهم في الحال ملعونون من عند الله وهذه هي الصفة الرابعة
ثم وصفهم الله تعالى بالصفة الخامسة بقوله تعالى الذين يصدون عن سبيل الله اي دينه
ثم وصفهم بالصفة السادسة بقوله تعالى ويبغونها اي يطلبون السبيل عوجا اي معوجة
اي كما انهم ظلموا انفسهم بالتزام الكفر والضلال فقد اضافوا اليه المنع من الدين الحق والقاء
الشبهات وتعويج الدلائل المستقيمة لانه لا يقال في العامي انه يبغي عوجا وانما يقال ذلك فيمن يعرف
كيفية الاستقامة وكيفية العوج بسبب القاء الشبهات وتقرير الضلالات ثم وصفهم
بالصفة السابعة بقوله تعالى وهم اي والحال انهم بالآخرة هم كافرون وتكرير لفظة هم لتاكيد
كفرهم وتوغلهم فيه الصفة الثامنة كونهم عاجزين عن الفرار من عذاب الله كما قال تعالى اولئك
لم يكونوا معجزين في الارض اي ما كانوا معجزين الله في الدنيا ان يعاقبهم اذ لا يمكنهم ان يهربوا من عذابه
فان هرب العبد من عذاب الله تعالى محال لانه تعالى قادر على جميع الممكنات ولا تتفاوت قدرته
بالبعد والقرب والقوة والضعف الصفة التاسعة انهم ليس لهم اولياء يدفعون عقاب الله تعالى
عنهم كما قال تعالى وما كان لهم من دون الله اي غيره من اولياء اي انصار يمنعونهم من عذابه
الصفة العاشرة مضاعفة العذاب كما قال تعالى يضاعف لهم العذاب اي بسبب اضلالهم

BULAC

غيرهم وقيل لانهم كفروا بالله وكفروا بالبعث والنشور الصفة الحادية عشر قوله تعالى ما كانوا
يستطيعون السمع قال قتادة صم عن سماع الحق فلا يسمعون خيرا فينتفعوا به
وما كانوا يبصرون خيرا فيأخذوا به قال ابن عباس اخبر الله تعالى انه احال بين اهل
الشرك وبين طاعة الله في الدنيا وفي الاخرة اما في الدنيا فانه قال ما كانوا يستطيعون
السمع وما كانوا يبصرون واما في الاخرة فانه قال لا يستطيعون خاشعة ابصارهم
الصفة الثانية عشر قوله تعالى اولئك الذين خسروا انفسهم فانهم اشتروا عبادة
الالهة بعبادة الله تعالى فكان مصيرهم الى النار المؤبدة عليهم وذلك اعظم وجوه
الخسرانات الصفة الثالثة عشر قوله تعالى وضل اي غاب عنهم ما كانوا يفترون
على الله تعالى من دعوى الشريك وان الالهة تشفع لهم الصفة الرابعة عشر قوله تعالى
لا جرم انهم في الاخرة هم الاخسرون اي لا احد ابين واكثر خسرانا منهم تنبيه قال الفرا
ان لا جرم بمنزلة قولنا لا بد ولا محالة ثم كثر استعمالها حتى صارت بمنزلة حقا تقول
العرب لا جرم انك محسن على معنى حقا انك محسن وقال الزجاج ان كلمة لا نفي لما ظنوا انه
ينفعهم وجرم معناه كسب ذلك الفعل والمعنى لا ينفعهم ذلك وكسب ذلك الفعل
لهم الخسران في الدنيا والاخرة قال الازهري وهذا من احسن ما قيل في هذا
الباب وقال سيبويه لا رد على اهل الكفر كما مر وجرم معناه احق والمعنى انه احق
كفرهم وقوع العذاب والخسران بهم واحتج سيبويه بقول الشاعر ولقد طعنت
ابا عيينة طعنة جرمت فزارة بعدها ان يغضبوا اراد حقت الطعنة فزارة ان
يغضبوا ولما ذكر تعالى عقوبة الكافرين وخسرانهم اتبعه بذكر احوال المؤمنين في الدنيا
وربحهم في الاخرة بقوله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات واخبتوا الى ربهم
اي اطمانوا اليه وخشعوا اليه اذ الاخبات في اللغة هو الخشوع والخضوع وطمانينة
القلب ويتعدى بالى وباللام فاذا قلت خبت فلان الى كذا فمعناه اطمان اليه
واذا قلت اخبت له فمعناه خشع وخضع له فقوله تعالى ان الذين امنوا وعملوا الصالحات
اشارة الى جميع عمل الجوارح وقوله تعالى واخبتوا اشارة الى اعمال القلوب وهي الخضوع
والخشوع لله تعالى وان هذه الاعمال الصالحة لا تنفع في الاخرة الا بحصول اعمال القلب
وهي الخشوع والخضوع اولئك اي الذين هذه صفتهم اصحاب الجنة هم فيها خالدون فاخبر
تعالى عن حالهم في الاخرة بانهم من اهل الجنة التي لا انقطاع لنعيمها ولا زوال ولما ذكر
سبحانه وتعالى احوال الكفار وما كانوا عليه من العمى عن طريق الحق ومن الصمم عن سماعه
وذكر احوال المؤمنين وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة ذكر فيه
مثالا مطابقا بقوله تعالى مثل اي صفة الفريقين اي الكفار والمؤمنين كالاعمى والاصم
هذا مثل الكافر شبه بالاعمى لتعاميه عن ايات الله وبالاصم لتصامه عن استماع كلام
الله وتابيه عن تدبر معانيه والبصير والسميع هذا مثل المؤمن شبه بالسميع والبصير
لان امره بالضد من الكافر فيكون كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين او يشبه الكافر
بالجامع بين العمى والصمم والمؤمن بالجامع بين ضديهما على ان تكون الواو في الاصم وفي السميع
لعطف الصفة على الصفة بخلافه على التشبيه الاول فانه لعطف الموصوف على الموصوف
ويعبر عنه بعطف الذات على الذات هل يستويان اي هل يستوي الفريقان مثلا اي

تشبيها

تشبيها اى لا يستويان ويصح ان يكون مثلا صفة لمصدر محذوف اى استوا مثلا وان يكون
حالا من فاعل يستويان وقوله تعالى افلا تذكرون فيه ادغام التا في الاصل اى تتعظون
بضرب الامثال والتامل فيها وقرا حفص وحمزة والكسائى بتخفيف الذال والباقون بالتشديد
وقد جرت عادة الله تعالى يا ايها ورد على الكفار انواع الدلايل اتبعها بالتفصيل ليصير
ذكرها موكدا لتلك الدلايل وفى هذه السورة ذكر انواع من التفصيل القصة الاولى قصة
نوح عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى ولقد ارسلنا نوحا الى قومه وقوله انى لكم
قراه ابن كثير وابو عمرو والكسائى بفتح الهمزة اى بانى والباقون بكسرها على ارادة القول
نذير مبين اى بين الانذار اخوفكم من العقاب لمن خالف الله تعالى وقوله الا تعبدوا الا الله
بدل من انى لكم او معمول لمبين ان اخاف عليكم ايمان غيره عذاب يوم اليم اى مؤلم
موجع فى الدنيا او الاخرة قال ابن عباس بعث نوح بعد اربعين سنة ولبث يدعو
قومه تسعمايه وخمسين سنة وقال مقاتل بعث وهو ابن مايتى سنة وقيل وهو
ابن خمسين سنة وقيل وهو ابن مايتين وخمسين سنة ومكث يدعو قومه تسعمايه
وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان مايتين وخمسين فكان عمره الف سنة واربعمايه
وخمسين سنة ولما حكى تعالى عن نوح عليه السلام انه دعا قومه الى عبادة الله تعالى
حكى عنهم انهم طعنوا فى نبوته بثلاثة انواع من الشبهات بقوله تعالى فقال الملا الذين
كفروا من قومه وهم الاشراف ما نراك الا بشرا مثلنا هذه الشبهة الاولى اى انك بشر مثلنا
لا مزية لك علينا تختص بالنبوة ووجوب الطاعة وانما قالوا هذه المقالة وتمسكوا
بهذه الشبهة جاهلا منهم لان الله تعالى اذا اصطفى عبدا من عباده واكرمه بنبوته
ورسالته وجب على من ارسله اليهم اتباعه الشبهة الثانية ما ذكرها الله تعالى عنهم فى
قوله تعالى وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا اى اسافلنا كالحاكة واهل الصنايع
الخسيسة وهو جمع ارذل بفتح الزاى كقوله تعالى كابر مجرميها وقوله صلى الله عليه وسلم
احاسنكم اخلاقا او جمع ارذل بضم الذال جمع رذل بسكونها فهو على الاول جمع مفرد وعلى
الثانى جمع جمع ثم قالوا ولو كنت صادقا لاتبعك الاكابر من الناس والاشراف منهم وانما
قالوا ذلك جهلا منهم ايضا لان الرفعة بالدين واتباع الرسول لا بالمناصب العالية
والمال بادى الراى اى اتبعوك فى اول الراى من غير تثبت وتفكر فى امرك ولو تفكروا
ما اتبعوك ونصبه على الظرف اى وقت حدوث اول رايهم وقرا ابو عمرو وباري بالهمزة
مفتوحة بعد الذال والباقون بيا مفتوحة وابدل السوسى همزة الراء الفا وقفا ووصلا
واما حمزة فابدلها وقفا لا وصلا الشبهة الثالثة ما ذكرها الله تعالى عنهم فى قوله تعالى
وما نرى لكم اى لك ولمن تبعك علينا من فضل اى بالمال والشرف والجاه فتستحقون بذلك الاتباع
منا وهذا ايضا جهل منهم لان الفضيلة المعتبرة عند الله بالايمان والطاعة لا بالشرف
والرياسة وقولهم بل نظنكم كاذبين خطاب لنوح عليه السلام فى دعوى الرسالة وادرجوا
قومه معه فى الخطاب وقيل خاطبوه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم وقيل كذبوه فى دعوى
النبوة وكذبوا قومه فى دعوى العلم بصدقه فغلب المخاطب على الغايبين ولما ذكر الله هذه
الشبهة لنوح عليه السلام قال لهم يا قوم ارايتم اى اخبروني ان كنت على بينة من ربى
اى حجة شاهدة بصحة دعواى من ربى وآتانى رحمة اى نبوة ورسالة من عنده من فضله

واحسانه فعميت عليكم ووحد الضمير اما لان البينة في نفسها هي الرحمة واما لانه لكل واحدة منهما
وقرا حفص وحمزة والكسائي بضم العين وتشديد الميم والباقون بفتح العين وتخفيف الميم
أنلزمكموها اي انكرهكم على قبولها وأنتم لها كارهون لا تختارونها ولا تتاملون فيها
لا تقدر على ذلك قال قتادة والله لو استطاع نبي الله لالزمها قومه ولكنه لا يملك ذلك
واتفق القراء على ضم النون من انلزمكموها لاتصالها باللام رسما وحيث اجتمع ضميران
وليس احدهما مرفوعا وقدم الاعرف منهما جاز في الثاني الوصل كما في الاية والفصل
بكاف يقال انلزمكم اياها ويا قوم لا اسألكم عليه اي على تبليغ الرسالة وهو وان لم يذكر
فمعلوم مما ذكر مالا اي جعلا تعطونيه ان اي ما اجري الا على الله اي ما ثواب تبليغي
الا عليه فانه المامول منه وقرا ابن كثير وشعبة وحمزة والكسائي بسكون الياء والباقون
بالفتح وقول نوح عليه السلام وما انا بطارد الذين امنوا جواب لهم حين طلبوا
طردهم فانهم طلبوا من نوح عليه السلام ان يطرد الذين امنوا وهم الارذلون في زعمهم
فقال ما يجوز لي ذلك انهم ملاقوا ربهم اي بالبعث فيخاصمون طاردهم عنده
وياخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم او انهم يتلاقونه ويفوزون بقربه فكيف اطردهم
ولكني اراكم قوما تجهلون اي هؤلاء المؤمنين خير منكم او عاقبة امركم او تتسفهون عليهم
بان تدعوهم اراذل ويا قوم من ينصرني اي يمنعني من الله اي من عقابه ان طردتهم عني وهم
مؤمنون مخلصون افلا اي فهلا تذكرون اي تتعظون وقرا حفص وحمزة والكسائي
بتخفيف الذال والباقون بالتشديد بادغام التاء في الاصل في الذال ولا اقول لكم عندي
خزائن الله اي خزائن رزقه فكما اني لا اسألكم مالا فكذلك لا ادعي اني املك مالا ولا اعرض
في المال لا اخذا ولا دفعا وقوله تعالى ولا اعلم الغيب عطف على عندي خزائن الله
اي ولا اقول لكم انا اعلم الغيب حتى اصل به الى ما اريده لنفسي ولاتباعي ولا اقول اني
ملك فاتعاظم به عليكم حتى تقولوا ما انت الا بشر مثلنا بل طريقتي التواضع والخضوع
ومن كان هذا شانه وطريقته كذلك فانه لا يستنكف عن مخالطة الفقراء والمساكين
ولا يطلب مجالسة الامراء والسلاطين ثم اكد ذلك بقوله ولا اقول للذين تزدري
اي تحتقر اعينكم اي لا اقول في حقهم لن يؤتيهم الله خيرا فان ما اعد الله تعالى
لهم في الاخرة خير مما اتاكم في الدنيا الله اعلم بما في انفسهم وهذا كالدلالة على انهم كانوا
ينسبون اتباعه مع الفقر والذلة الى النفاق اني اذا اي ان فعلت ذلك لمن الظالمين
لنفسي ومن الظالمين لهم فان قيل هذه الاية تدل على تفضيل الملائكة على الانبياء
عليهم الصلاة والسلام فان الانسان اذا قال لا ادعي كذا وكذا انما يحسن اذا كان ذلك
الشيء اشرف من احوال ذلك القائل اجيب بان نوحا عليه السلام انما ذكر ذلك جوابا
عما ذكروه من الشبه فانهم طعنوا في اتباعه بالفقر فقال ولا اقول لكم عندي خزائن الله
حتى اجعلهم اغنياء وطعنوا فيهم ايضا بانهم منافقون فقال ولا اعلم الغيب حتى اعرف
كيفية باطنهم وانما تكليفي بناء الاحوال على الظواهر وطعنوا فيه انه من البشر فقال ولا اقول
اني ملك حتى ينفوا عني ذلك وحينئذ فالاية ليس فيها ذلك فان قيل في هذه الاية
دلالة على ان طرد المؤمنين لطلب مرضاة الكفار من اصول المعاصي فكيف طرد محمد
صلى الله عليه وسلم بعض فقراء المؤمنين لطلب مرضاة الكفار حتى عاتبه الله تعالى في قوله

ولا تطرد الذين

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي اجيب بان الطرد المذكور في هذه الاية محمول
على الطرد المطلق على سبيل التابيد والطرد المذكور في واقعة محمد صلى الله عليه وسلم محمول
على التبعيد في اوقات معينة لرعاية المصلحة ولما ان الكفار اوردوا تلك الشبه واجاب
نوح عليه السلام عنها بالجوابات الموافقة الصحيحة اوردوا عليه كلامين الاول ما حكاه الله
تعالى عنهم بقوله تعالى قالوا يا نوح قد جادلتنا اي خاصمتنا فاكثرت جدالنا اي فاطنبت
فيه وهذا يدل انه عليه السلام كان اكثر الجدال معهم وذلك الجدل ما كان الا في اثبات التوحيد
والنبوة والمعاد وهذا يدل على ان الجدال في تقرير الدلايل وازالة الشبهات حرفة الانبيا
عليهم الصلاة والسلام وعلى ان التقليد والجهل حرفة الكفار الثاني ما ذكره الله تعالى عنهم في قوله
تعالى فاتنا بما تعدنا اي من العذاب ان كنت من الصادقين في الدعوى والوعيد فان مناظرتك
لا تؤثر فينا قال لهم عليه السلام في جواب ذلك انما ياتيكم به الله ان شا تعجيله لكم فان امره
اليه ان شا عجله وان شا اخره لا الي وما انتم بمعجزين اي بفايتين الله ولما اجاب نوح عليه
السلام عن شانهم ختم الكلام بخاتمة قاطعة فقال ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم
ان كان الله يريد ان يغويكم اي يضلكم وجواب الشرط دل عليه لا ينفعكم نصحي وتقدير الكلام
ان الله يريد ان يغويكم فان اردت ان انصح لكم فلا ينفعكم نصحي فهو من باب اعتراض الشرط
على الشرط ونظير ذلك ما لو قال رجل لزوجته انت طالق ان دخلت الدار ان كلمت زيدا فدخلت
ثم كلمت لم تطلق فيشترط في وجوب الحكم وقوع الشرط الثاني قبل وقوع الاول وفي الاية
دليل على ان الله تعالى قد يريد الكفر من العبد فانه اذا اراد منه ذلك فانه يمتنع صدور الايمان
منه هو ربكم اي خالقكم والمتصرف فيكم وفق ارادته واليه ترجعون فيجازيكم على اعمالكم قال تعالى
ام اي بل يقولون افتراه اي اختلقه وجا به من عند نفسه والها يرجع الى الوحي الذي بلغه
اليهم قل لهم ان افتريته فعلي اجرامي وهذا من باب حذف المضاف لان المعنى فعلي اثم اجرامي
والاجرام اقتراف المحظور وفي الاية محذوف اخر وهو ان المعنى ان كنت افتريته
فعلي عقاب جرمي وان كنت صادقا وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب الا انه حذف
هذه البقية لدلالة الكلام عليها وانا بريء مما تجرمون اي من عقاب جرمكم في اسناد الافترا
الى تنبيه اكثر المفسرين على ان هذا من بقية كلام نوح عليه السلام مع قومه وقال مقاتل
ام يقولون اي المشركون من كفار مكة افتراه اي محمد صلى الله عليه وسلم اختلق القران من عند
نفسه وهذه الاية وقعت في قصة محمد صلى الله عليه وسلم في اثنا قصة نوح عليه السلام
قال الرازي وقوله بعيد جدا واوحي الى نوح انه لن يؤمن من قومك اي لن يستمر على الايمان
لقوله تعالى الا من قد امن قال بن عباس ان قوم نوح كانوا يضربون نوحا حتى يسقط فيلقونه
في اليد ويلقونه في بيت يظنون انه قد مات فيخرج في اليوم الثاني ويدعوهم الى الله تعالى وروي
ان شيخا منهم جا متوكا على عصاه ومعه ابنه فقال لابنه لا يغوينك هذا الشيخ المجنون
فقال يا اباه امكني من العصاه فاخذها من ابيه وضرب بها نوحا عليه السلام حتى شجه شجة
منكرة فاوحى الله تعالى اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد امن فلا تبتئس اي تحزن عليهم فاني
مهلكهم بما اي بسبب ما كانوا يفعلون من الشرك ومنقذك منهم فحينئذ دعا عليهم نوح عليه
السلام فقال رب لا تذر على الكافرين ديارا وحكى محمد بن اسحق عن عبيد بن عمير الليثي انه
بلغه انهم كانوا يبطشون به فيحتفونه حتى يغشى عليه فاذا افاق قال رب اغفر لقومي فانهم

على الارض

BULAC

لا يعلمون حتى تمادوا في المعصية واشتد عليه منهم البلاء وهم ينظرون من الجبل الى الجبل فلا يأتي قرن الا كانوا اخبث من الذين قبلهم ولقد كان يأتي القرن الآخر منهم فيقول قد كان هذا الشيخ مع آبائنا واجدادنا هكذا مجنونا فلا يقبلون نصحه فشكى الى الله تعالى فقال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا واني قال رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا فاوحى الله تعالى اليه واصنع الفلك اي السفينة بأعيننا قال بمرأى منا وقال ابن عباس بعلمنا وقيل بحفظنا ووحينا اي بأمرنا لك كيف تصنعها ولا تخاطبني في الذين ظلموا اي ولا تراجعني في الكفار ولا تدعني في استدفاع العذاب عنهم انهم مغرقون اي محكوم عليهم بالاغراق فلا سبيل الى كفه وقيل لا تخاطبني في انك كنفان وامرأتك راعلة فانهما هلكا مع القوم ويروى ان جبريل اتى نوحا انه ربك يأمرك ان تصنع الفلك قال كيف اصنع ولست بنجار فقال ان ربك يقول اصنع فانك باعيننا فاخذ القدوم وجعل ينحر ولا يخطي فصنعها مثل جوجر الطير وفي قوله تعالى ويصنع الفلك قولان احدهما انه حكاية حال ماضية اي في ذلك الوقت كان يصدق عليه ان يصنع الفلك الثاني التقدير فانتظر فيما يصنع الفلك فاقتصر على قوله ويصنع الفلك ثم ان نوحا عليه السلام اقبل على عمله وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه وجعل قومه يمرون عليه ويسخرون منه كما قال تعالى وكلما مر عليه ملأ اي جماعة من قومه سخروا منه اي استهزؤا به ويقولون يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة فما عظم الله ارحام نسائهم فلا يولد لهم فقال ان عند الله تعالى نوح السفينة في سنتين وكان طول السفينة ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعا طولها في السماء ثلاثين ذراعا وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون فجعل في البطن الاول الوحوش والهوام وفي البطن الاوسط الدواب وركب هو ومن معه البطن الاعلى مع ما يحتاج اليه من الزاد وقال قتادة كان بابها في عرضها وروي عن الحسن كان طولها الف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه السلام لو بعث لنا رجلا يشهد السفينة نجدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فاخذ كفا من ذلك التراب فقال اتدرون من هذا قالوا الله ورسوله اعلم قال هذا كعب بن حازم قال فضرب الكثيب بعصاه فقال قم باذن الله تعالى فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام هكذا هلكت قال لا ولكن مت وانا شاب ولكني ظننت انها الساعة فمن ثم شبت قال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها الف ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحوش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال له عد باذن الله كما كنت فعاد ترابا قال البغوي والمعروف ان طولها ثلثمائة ذراع وعن زيد بن اسلم قال لبث نوح مائة سنة يغرس الاشجار ومائة سنة يجعل الفلك وعن كعب الاحبار ان نوحا عمل السفينة في ثلاثين سنة وروي انها كانت ثلاث طبقات الطبقة السفلى للدواب والوحوش والطبقة الوسطى فيها الانس والطبقة العليا فيها الطير فلما كثرت ارواث الدواب اوحى الله تعالى الى نوح عليه السلام ان اغمز ذنب الفيل فغمزه فخرج منه خنزير وخنزيرة فاقبلا على الروث ولما افسد الفار في السفينة فجعل يقرض حبالها فاوحى الله تعالى اليه ان اضرب بين عيني الاسد فضرب فخرج من منخريه سنور وسنورة وبين الفيل فاقبلا على الفار فاكلاه قال الرازي واعلم ان معرفة هذه المباحث لا تجدي لانها امور لا حاجة الى معرفتها بالبتة ولا يتعلق بمعرفتها فائدة البتة فكان الخوض فيها من باب الفضول لا سيما

مع القطع

مع القطع بانه ليس هاهنا ما يدل على الجانب الصحيح والذي نعلمه انها كانت في السعة بحيث
تسع المومنين من قومه ولما يحتاجون اليه وبحصول زوجين من كل حيوان لان هذا القدر
مذكور في القران وما امن معه الا قليل فاما تعيين ذلك القدر فغير معلوم قال لهم لما سخروا منه
ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون اذا نجونا وغرقتم فان قيل السخرية لا تليق بمنصب
النبوة اجيب بان ذلك ذكر على سبيل الازدواج في مشاكلة الكلام كما في قوله تعالى وجزا
سيئة سيئة مثلها والمعنى ان تسخروا منا فستترون عاقبة سخريتكم وهو قوله تعالى فسوف تعلمون
من ياتيه عذاب يخزيه اي يهينه في الدنيا وهو الغرق ويحل عليه في الاخرة عذاب مقيم وهو النار التي لا
انقطاع لها وقوله تعالى حتى اذا جاء امرنا اي باهلاكهم غاية لقوله ويصنع الفلك وما بينهما
حال من الضمير فيه او حتى هي التي يبتدا بعدها الكلام واختلف في التنور في قوله تعالى وفار
التنور فقال عكرمة والزهري هو وجه الارض وذلك انه قيل لنوح عليه السلام اذا رايت
الما فار على وجه الارض فاركب السفينة وروي عن علي رضي الله تعالى عنه قال فار التنور
وقت طلوع الفجر ونور الصبح وقال الحسن ومجاهد والشعبي انه التنور الذي يخبز فيه
وهو قول اكثر المفسرين ورواية عطية بن عباس لانه حمل الكلام على حقيقته ولفظ التنور
حقيقة هو الموضع الذي يخبز فيه وهو قول اكثر المفسرين فوجب حمل اللفظ عليه وهولاء
اختلفوا منهم من قال انه تنور لنوح ومنهم من قال انه كان لادم قال الحسن كان تنورا من حجارة
كانت حوى تخبز فيه فصار الى نوح فقيل لنوح عليه السلام اذا رايت الما يفور من التنور
فاركب السفينة انت واصحابك واختلفوا ايضا في موضعه فقال مجاهد والشعبي كان
في ناحية الكوفة وكان الشعبي يحلف بالله ما فار التنور الا من ناحية الكوفة وقال اتخذ
نوح السفينة في جوف مسجد الكوفة وكان التنور على يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان فوران
الما منه علما لنوح وقال مقاتل كان ذلك تنور ادم وكان بالشام بموضع يقال له عين وردة
وروي عن بن عباس انه كان بالهند ومعنى فار نبع على قوة وشدة تشبيها بغليان القدر عند قوة
النار ولا شبهة ان التنور لا يفور والمراد فار الما من التنور ولما فار امر الله تعالى نوحا عليه
السلام ان يحمل في السفينة ثلاثة انواع من الاشيا الاول قوله تعالى قلنا احمل فيها
اي السفينة من كل زوجين اثنين والزوجان عبارة عن كل شيئين يكون احدهما ذكرا والاخر
انثى والتقدير مكمل شيئين هما كذلك فاحمل منهما في السفينة اثنين واحد ذكر وواحد انثى وفي
قصة ان نوحا عليه السلام قال يا رب كيف احمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه
السباع والطير فجعل يضرب بيديه في كل جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في يده اليسرى
فحملهما في السفينة وقرا حفص بتنوين لام كل اي واحمل من كل شي بين اثنين الذكر زوج
والانثى زوج فان قيل ما الفايدة في قوله تعالى زوجين اثنين فالزوجان لا يكونان
الا اثنين اجيب بان هذا على الغالب مثال قوله تعالى لا تتخذوا الهين اثنين وقوله
تعالى نفخة واحدة والباقون بغير تنوين فهذا السوال غير وارد النوع الثاني من
الاشيا التي امر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها في السفينة قوله تعالى واهلك وهم ابناوه
وزوجته وقوله تعالى الا من سبق عليه القول اي بانه من المغرقين هو ابنه كنعان
وامه راعلة فكانا كافرين حكم الله تعالى عليهما بالهلاك بخلاف سام وحام ويافث
وزوجاتهم ثلاثة وزوجته المسلمة فان قيل الانسان اشرف من ساير الحيوانات فلم بدوا

٣ بيان عليه

بالحيوان اجيبت بان الانسان عاقل فهو لعقله كالمضطر الى دفع اسباب الهلاك عن نفسه فلا حاجة فيه
الى المبالغة في الترغيب بخلاف السعي في تخليص ساير الحيوانات فلهذا السبب وقع الابتداء به النوع
الثالث من الاشيا التي امر الله تعالى نوحا عليه السلام بحملها في السفينة قوله تعالى ومن امن اي
واحمل معك من امن معك من قومك واختلف في العدد الذي ذكر الله تعالى في قوله تعالى وما
امن معه الا قليل فقال قتادة وابن جريج لم يكن معه في السفينة الا ثمانية نفر وامراته المسلمة
وثلاث بنين له وهم سام وحام ويافث ونساوهم وقال ابن اسحاق كانوا عشرة سوى نسايهم نوح
وبنوه الثلاثة وستة اناس ممن كان امن به وازواجهم جميعا وقال مجاهد كانوا اثنين وسبعين
نفرا رجلا وامراة وعن ابن عباس قال كان في سفينة نوح ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نسا
وقال الطبري والصواب من القول في ذلك ان يقال كما قال الله تعالى وما امن معه الا قليل
فوصفهم بالقلة ولم نجد عددا بمقدار فلا ينبغي ان يجاوز في ذلك حد الله تعالى اذ لم يرد عدد في كتاب
الله تعالى ولا في خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم نحو ذلك عن الرازي وقال
مقاتل حمل نوح معه جسد ادم فجعله معترضا بين الرجال والنسا وقصد نوحا جميع الدواب
والطير ليحملها قال ابن عباس اول ما حمل نوح الذرة واخر ما حمل الحمار فلما دخل الحمار ودخل صدره
تعلق ابليس بذنبه فلم يستقل رجلاه فجعل نوح يقول ويحك ادخل فينهض فلا يستطيع حتى قال
نوح ويحك ادخل وان كان الشيطان معك كلمة زلت على لسانه فلما قالها خلى الشيطان سبيله
فدخل ودخل الشيطان معه فقال نوح ما ادخلك علي يا عدو الله قال ما لك بد ان تحملني معك
فكان معه على ظهر السفينة هكذا نقله البغوي قال الرازي واما الذي يروى ان ابليس دخل
السفينة فبعيد لانه من الجن وهو جسم ناري او هوائي فكيف يوثر الفرق فيه وايضا كتاب
الله تعالى لم يدل عليه ولم يرد في ذلك خبر صحيح فالاولى ترك الخوض فيه قال البغوي وروي
ان بعضهم ان الحية والعقرب اتيا نوحا عليه السلام فقالتا احملنا معك فقال انكما سبب البلا
فلا احملكما فقالتا احملنا فنحن نضمن لك ان لا نضر احدا ذكرك فمن قرا حين يخاف مضرتهما سلام على
نوح في العالمين لم يضراه وقال الحسن لم يحمل نوح في السفينة الا ما يلد ويبيض فاما ما تولد
من الطين من حشرات الارض كالبق والبعوض فلم يحمل منها شيا وقال نوح لمن معه اركبوا اي صيروا
فيها اي السفينة وجعل ذلك ركوبا لانها في الما كمركوب في الارض وقوله بسم الله مجراها
ومرساها متصل باركبوا حال من الواو اي اركبوا فيها مسمين الله او قايلين بسم الله وقت اجرايها
وارسايها قال الضحاك كان نوح اذا اراد ان تجري السفينة قال بسم الله جرت واذا اراد ان ترسو
قال بسم الله رست وقرا حفص وحمزة والكسائي بنصب الميم من جريت ورسيت اي جريها ورسوها
وهما مصدران والباقون بضم الميم من اجريت وارسيت اي بسم الله اجراوها وارساوها
وامال الالف بعد الرا ابو عمرو وحفص وحمزة والكسائي محضة وورش بين اللفظين والباقون
بالفتح وذكروا في عامل الاعراب في بسم الله وجوها الاول اركبوا بسم الله الثاني ابدوا بسم الله
الثالث بسم الله اجراوها وارساوها ان ربي لغفور رحيم اي لولا مغفرته لفرطاتكم
ورحمته اياكم لما نجاكم وقوله تعالى وهي تجري بهم متصل بمحذوف دل عليه اركبوا اي فركبوا مسمين
الله تعالى وهي تجري وهم فيها في موج وهو ما ارتفع من الما اذا اشتد عليه الريح كالجبال
في عظمه وارتفاعه على الما قال العلما بالسير ارسل الله تعالى المطر اربعين يوما وليلة
وخرج الما من الارض فذلك قوله تعالى ففتحنا ابواب السما بما منهمر وفجرنا الارض عيونا

فالتقى

فالتقى الماء على امر قد قدر فصار الماء نصفين نصف من السماء ونصف من الارض وارتفع الماء على اعلى
جبل وطوله اربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى اغرق كل شيء وروي انه لما كثر الماء في السكك
خافت امراة على ولدها من الغرق وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت به الى الجبل حتى بلغت
ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء ذهبت حتى استوت على الجبل
فلما بلغ الماء رقبتها رفعت الصبي بيديها حتى ذهب بها الماء فلو رحم الله تعالى احدا منهم لرحم هذه المراة
وما قيل من ان الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجري في جوفه كما تسبح السمكة فليس
بثابت قال البيضاوي والمشهور انه على على شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا فان صح اي انه طبق ما بين
السماء والارض فلعل ذلك اي ما ذكر من علو الموج بعد التطبيق ونادى نوح ابنه كنعان وكان
كافرا كما مر وقيل كان اسمه يام وكان في معزل عزل فيه نفسه اما عن ابيه او دينه ولم يركب
معه واما عن السفينة واما عن الكفار كانه انفرد عنهم وظن نوح عليه السلام ان ذلك انما كان
لانه احب مفارقتهم ولذلك ناداه بقوله يا بني اركب معنا في السفينة وقرا عاصم بفتح البا
اقتصارا على الفتح من الالف المبدلة من يا بالاضافة في قولك يا بنيا والباقون بالكسر
في الوصل ليدل على الاضافة المحذوفة كما قال الشاعر يا ابنة عما لا تلومي واهجعي ثم حذف
الالف للتخفيف ولا تكن مع الكافرين اي في دين ولا مكان فتهلك ولما قال له ذلك
قال سآوي التجئ واصير الى جبل يعصمني اي يمنعني من الماء قال له نوح عليه الصلاة والسلام
لا عاصم اليوم من امر الله اي من عذابه وقوله الا من رحم استثناء منقطع كان قيل
ولكن من رحمه الله فهو المعصوم كقوله تعالى ما لهم به من علم الا اتباع الظن وقيل
الا من رحم اي الا الراحم وهو الله تعالى وقيل الا مكان من رحمه الله فانه مانع من ذلك
وهو السفينة وحال بينهما اي بين نوح وابنه او بين ابنه والجبل الموج المذكور في قوله
موج كالجبال فكان ابنه من المغرقين اي فصار من المهلكين بالماء ولما تناهى الطوفان
اذا غرق قوم نوح قيل اي قال الله تعالى وملك بامره تعالى يا ارض ابلعي ماءك اي اشربيه
ويا سماء اقلعي اي امسكي ماءك ناداهما بما يناديه الحيوان المميز على لفظ التحضيض والاقبال
عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات ثم امرهما بما يؤمر به اهل التمييز والعقل
تمثيلا لكمال انقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما وهنا همزتان مختلفتان من كلمتين الاولى
مضمومة والثانية مفتوحة وقرا ابو عمرو ونافع وابن كثير بابدال الثانية واوا خالصة
والباقون بالتحقيق وغيض الماء اي نقص وذهب وقرا هشام والكسائي باشمام الغين وهو
ضم الغين قبل الياء والباقون بالكسر وقيل وقضي الامر اي وانجز ما وعد من اهلاك الكافرين
وانجاء المؤمنين واستوت استقرت السفينة على الجودي وهو جبل بالجزيرة قريب من الموصل
وقيل اي قال الله تعالى وملك بامره بعدا اي هلاكا للقوم الظالمين ومجيء اخباره على الفعل
المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء وان تلك الامور العظام لا تكون الا بفعل فاعل
قادر ويكون مكون قاهر وان فاعلها فاعل واحد لا يشارك في افعاله فلا يذهب
الوهم الى ان يقول غيره يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي ولا ان يقضي ذلك الامر الهائل
غيره ولا ان يستوي على متن الجودي ويستقر عليه الا بتسويته واقراره روي ان السفينة
لما استقرت بعث نوح عليه السلام الغراب ليأتيه بخبر الارض فوقع على جيفة فلم يرجع
فبعث الحمامة فجاءت بورق زيتون في منقارها ولطخت رجليها الطين فعلم نوح

وكذا لغة

ان الماء قد نضب فقيل انه دعى على الغراب بالخوف فكذا الا يالف البيوت وطوق الحمامة
الخضرة التى لا عنق لها ودعى لها بالامان فمن ثم تالف البيوت وروى ان نوحا ركب السفينة
لعشر مضت من رجب وجرت بهم السفينة ستة اشهر ومرت بالبيت العتيق وقد
رفعه الله تعالى من الغرق وبقى موضعه فطافت السفينة به سبعا واودع الحجر الاسود
ربوة جبل ابى قبيس وهبط نوح ومن معه فى السفينة يوم عاشوراء فصامه نوح وامر من معه
لصيامه شكرا لله تعالى وبنوا قرية نمرب الجبل وسميت سوق ثمانين فهى اول قرية
عمرت على وجه الارض بعد الطوفان وقيل انهم ربح احد من الكفار من الغرق غير عوج
ابن عنق وكان الماء يصل الى ركبته وهذا الاتى على القول باطباق الماء قال هذا القائل
وسبب نجاته ان نوحا احتاج الى خشب لسفينة فلم يمكنه نقله فحمله عوج الى بلده
من الشام فنجاه الله تعالى من الغرق بذلك فان قيل كيف اغرق الله تعالى من لم يبلغ الحلم
من الاطفال اجيب بانه تعالى متصرف فى خلقه لا يسئل عما يفعل وقيل ان الله اعقم ارحام
نسائهم اربعين سنة فلم تولد لهم تلك المدة ونادى نوح ربه اى دعاه وسأله فقال رب ان
ابنى من اهلى وقد وعدتنى ان تنجى اهلى وان وعدك الحق اى الصدق الذى لا خلف فيه
وانت احكم الحاكمين لانك اعلمهم واعدلهم فان قيل اذا كان الله هو قوله رب فكيف عطف
قال رب على نادى بالفا اجيب بان الفا تفصيل لمجمل نادى مثلها فى قوله فاغسلوا وقيل ونادى
ابتدا نداء فقال رب قال الله تعالى يا نوح انه اى هذا الابن الذى سالته نجاته ليس من اهلك
اى المحكوم بنجاتهم لايمانهم وكفره وبهذا علل قوله تعالى انه عمل غير صالح وقرا الكسائى بكسر
الميم ونصب اللام غير منون ونصب الراء اى عمل الكفر والتكذيب بكل هذا عمل غير صالح والباقون
بفتح الميم ورفع اللام منونة ورفع الراء اى ذو وعمل غير صالح او صاحب عمل غير صالح فجعل
ذات العمل للمبالغة كقولهم ناقة ضيفانة تزيغ فانما هى لقتال وادبار واختلف علماء
التفسير هل كان هذا الولد لنوح او لا على اقوال الاول وهو قول ابن عباس وعكرمة
وسعيد بن جبير والضحاك والاكثرون انه ابنه حقيقة ويدل عليه ان تعالى نص عليه
فقال ونادى نوح ابنه ونوح ايضا نص عليه فقال يا بنى وصرف هذا اللفظ الى انه
ربيبه والحق عليه اسم الابن لهذا السبب صرف الكلام عن حقيقته الى مجازه من غير
ضرورة القول الثانى انه كان ابن امرأته وهو قول محمد بن على الباقر وقول الحسن البصرى
القول الثالث وهو قول مجاهد والحسن انه ولد حسبة ولد على فراشه ولم يعلم نوح بذلك
واصل هذا القائل يقوله تعالى وامرأة نوح وامرأة لوط خانتا هما قال الرازى وهذا
قول خبيث يجب صون منصب الانبياء عن هذه الفضيحة لا سيما وهو خلاف نص القرآن
وقد قيل لابن عباس كانت تلك الخيانة فقال كانت امرأة نوح تقول انه مجنون
وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه اذا نزل به فلا تسألن ما ليس لك به علم اى علما
او صواب هو لان اللائق بامثالك من اولى العزم ان لا يسئلوا امورهم على التحقيق وقرأ نافع
وابن كثير وابن عامر بفتح اللام وتشديد النون والباقون بسكون اللام وتخفيف النون
واثبت اليائى الوصل دون الوقف ورش وابو عمرو وحذفها الباقون وقفا ووصلا
انى اعظك اى بموا عظى كراهة ان تكون من الجاهلين فسأل مثل ما يسالون وانما سمى نداءه
سؤالا لتضمن ذكر الوعد بنجاة اهله واستنجاز ان فى شان ولده قال نوح رب انى اعوذ بك ان

اى من ان

اى من انه انشاذكر فى مش من الاسيا ما ليس لك به علم ما وباد لكن وانفاظا بوعظك والانعرف
اى الان ما فرط منى وفى المستقبل ما ينفع منى وتوبتنى اى تستر لى وترحمنى وتكن من الخاسرين
اتم الخاسرين فى الخسارة فان قيل هذا يدل على عدم عصمة الانبيا لوقوع هذه الزلة من نوح عليه
السلام اجيب بان الزلة الصادرة من نوح انما هى كونه لم يستفسر ما يدل على نفاق ابنه وكفره لان
قومه كانوا على ثلاثة اقسام كافر مظهر لكفره وهو من علم اعانه ومنافق لا يفعل حاله فى نفس الامر
وقد كان حكم المومنين هو النجاة وحكم الكافرين هو الغرق فكان ذلك معلوما واما افعل النفاق
فيبقى امرهم محققا وكان ابن نوح منهم وكان يجوز فيه كونه مومنا وكان الشفقة المفرطة
التى تكون للاب فى حق الابن تحمله على حمل اعماله وافعاله لا على كونه كافرا بل على الوجه الصحيح
ما خطا فى ذلك الاجتهاد وقع لادم عليه السلام من الاكل من الشجرة فلم يصدر عنه الا الخطا
والاجتهاد فلم يصدر منه معصية فالجا الى ربه تعالى وخشع له ودعاه وسالم المغفرة والرحمة
كما قال ادم عليه السلام ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لان حسنات
الابرار سيات المقربين قيل اى قال الله تعالى او ملك يا مره يا نوح اهبط ايها نزل من السفينة
او من الجبل الى الارض المستوية بسلام اى بسلامة منا وذلك ان الغرق لما كان
عاما فى جميع الارض فعند ما خرج عليه السلام من السفينة علم انه ليس فى الارض شى مما ينتفع
به من النبات والحيوان فكان كالخايف فى انه كيف يعيش وكيف يرتفع حاجات الحاجات
عن نفسه من الماكول والمشروب فلما قال الله تعالى اهبط بسلام صار ذلك عنه لكل الخوف
لان ذلك يدل على حصول السلامة وان لا يكون كذلك الا مع الامن وسعة الرزق ثم انه تعالى
لما وعده بالسلامة اردفه ببان وعده بالبركة بقوله تعالى وبركات عليك وهو عبارة عن الدوام
والبقا والنبات لان الله تعالى صير نوحا ابا البشر لان جميع من بقى كانوا من نسله لان نوحا
لما خرج من السفينة مات من كان معه ممن لم يكن من ذريته ولم يحصل النسل الا من ذريته
فالخلق كلهم من نسله وانه لم يكن معه فى السفينة الا من كان من نسله وذريته وعلى التقديرين
فالخلق كلهم من ذريته ويدل على ذلك قوله تعالى وجعلنا ذريته هم الباقين فثبت ان نوحا
كان ادم الاصغر فكان ابا الانبيا والخلق بعد الطوفان كلهم منه ولهن ذريته وكان بين نوح
وادم ثمانية اجداد وقوله تعالى وعلى امم ممن معك يحتمل ان يكون من للبيان فيراد الامم
الذين كانوا معه فى السفينة لانهم كانوا جماعات وقيل لهم امم لان الامم تتشعب منهم
وان تكون لابتدا الغاية اى وعلى امم ناشئة ممن معك وبنى الامم الى آخر الدهر قال فى الكشاف
وهو الوجه وقوله تعالى وامم بالرفع على الابتدا وقوله تعالى سنمتعهم اى فى الدنيا
صفة فالخبر محذوف تقديره وممن معك امم سنمتعهم وانما حذف لان قوله ممن معك
يدل عليه والمعنى ان السلام صنا والبركات عليك وعلى امم مومنين ناشيا وممن معك
وممن معك امم مستمتعون فى الدنيا ثم يمسهم منا عذاب اليم فى الاخرة وهم الكفار وعن محمد
ابن كعب القرظى وحال ذلك السلام كلا مومن ومومنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع
والعذاب كل كافر وقيل المراد بالامم المحققة فوم صالح هود وشعيب والمراد بالله
تعالى قصة نوح عليه السلام على التفصيل قال تعالى تلك اى قصة نوح التى شرحناها ومحل
تلك رفع على الابتدا وخبرها من انبا الغيب اى من الاخبار التى كانت غايبة عن الخلق
وقوله تعالى نوحيها اليك خبر ثان والضمير لها اى موحاة اليك وقوله تعالى ما كنت تعلمها

أنت ولا قومك من قبل هذا اي نزول القرآن خبر آخر فالمعنى ان هذه القصة مجهولة عندك وعند
قومك من قبل ايحائنا اليك فيظهر هذا ان يقول انسان لآخر لا يعرف هذه المسئلة لا انت
ولا اهل بلدك فان يقل قد كان قصة طوفان نوح مشهورة عند اهل العلم اجيب بان ذلك
كان بحسب الاجمال فاما التفاصيل المذكورة فما كانت معلومة او بانه صلى الله عليه وسلم
كان اميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت امته ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه
وسلم فاصبر اي انت وقومك على اذا هؤلاء الكفار كما صبر نوح وقومه على اذا اولئك
الكفار ان العاقبة للمتقين عن الشرك والمعاصي وفي هذا تنبيه على ان الصبر عاقبته
النصر والفرج والسرور كما كان لنوح ولقومه فان قيل هذه القصة ذكرت في يونس
فما الحكمة والفائدة في اعادتها اجيب بان القصة الواحدة قد ينتفع بها من وجوه ففي
السورة الاولى كان الكفار يستعجلون نزول العذاب فذكر تعالى قصة نوح في بيان ان
قومه كانوا يكذبونه بسبب ان العذاب ما كان يظهر ثم في العاقبة ظهر فكذا في واقعة
محمد صلى الله عليه وسلم وفي هذه السورة ذكرت لاجل ان الكفار كانوا يبالغون في الايحاش
فذكرها الله تعالى لبيان ان اقدام الكفار على الايذاء والايحاش كان حاصلا في زمان نوح
عليه السلام فلما صبر فاز وظفر فكن يا محمد كذلك لتنال المقصود ولما كان وجه الانتفاع
بهذه القصة في كل سورة من وجه آخر لم يكن تكريرها خاليا عن الحكمة والفائدة القصة
الثانية من القصص التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة هود عليه السلام المذكورة
في قوله تعالى والى عاد اي فارسلنا الى عاد اخاهم فهو معطوف على قوله نوحا وقوله تعالى هودا
عطف بيان ومعلوم ان تلك الاخوة ما كانت في الدين وانما كانت في النسب لان هودا كان
رجلا من قبيلة عاد قبيلة من العرب كانوا بناحية اليمن فان قيل انه تعالى قال
في ابن نوح انه ليس من اهلك فبين ان قرابة النسب لا تفيد اذا لم تحصل قرابة الدين
وهنا اثبت هذه الاخوة مع الاختلاف في الدين اجيب بان قوم محمد صلى الله عليه وسلم
كانوا يستبعدون ان يكون رسولا من عند الله مع انه واحد من قبيلتهم فذكر الله تعالى
ان هودا كان واحدا من عاد وان صالحا كان واحدا من ثمود لازالة هذا الاستبعاد
ولما تقدم امر نوح عليه السلام مع قومه استشرف السامع الى معرفة ما قال هود عليه
السلام هل هو مثل قوله او لا فاستانف الجواب بقوله قال يا قوم اعبدوا الله اي
وحدوه ولا تشركوا معه شيئا في العبادة ما لكم من اله غيره اي هو الهكم لا هذه الاصنام
التي تعبدونها فانها حجارة لا تضر ولا تنفع فان قيل كيف دعاهم الى عبادة الله قبل
اقامة الدليل على ثبوت الاله اجيب بان دلائل وجود الله تعالى ظاهرة وهي دلائل
الآفاق والانفس وقل ما يوجد في الدنيا طائفة ينكرون وجود الاله ولذلك قال
تعالى في صفة الكفار ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقرأ الكسائي
بكسر الراء والهاء صفة على اللفظ والباقون بالضم صفة على محل الجار والمجرور ومن زائدة
ان انتم الا مفترون اي كاذبون في عبادتكم غيره وكرر قوله يا قوم للاستعطاف وقوله
لا اسألكم عليه اجرا ان اجري الا على الذي فطرني اي خلقني خاطب كل رسول قومه ازاحة
للتهمة وتمحيضا للنصيحة فانها لا تنجع ما دامت مشوبة بالمطامع افلا تعقلون اي افلا
تستعملون عقولكم فتعرفوا المحق من المبطل والصواب من الخطأ فتتعظون ثم قال

ويا قوم

ويا قوم ايضا لما ذكر استغفروا ربكم اي امنوا به ثم توبوا اليه من عبادة غيره لان التوبة
لا تصح الا بعد الايمان يرسل السماء اي المطر عليكم مدرارا اي كثير الدر ويزدكم قوة الى قوتكم
اي ويضاعف قوتكم وانما رغبهم بكثرة المطر وزيادة القوة لان القوم كانوا اصحاب زروع
وبساتين وعمارات حراصا عليها اشد الحرص فكانوا احوج شي الى الماء وكانوا مذلين غيرهم
بما اوتوا من شدة القوة والبطش والباس والنجدة منها بين في كل ناحية وقيل اراد القوة
في المال وقيل القوة على النكاح وقيل حبس المطر ثلاث سنين وعقمت ارحام نسائهم وعن
الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما انه قال وفد على معاوية فلما خرج تبعه بعض حجابه
فقال اني رجل ذو مال ولا يولد لي يعلمني شيا لعل الله يرزقني ولدا فقال عليك بالاستغفار
فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة فولد له عشرة بنين فبلغ ذلك
معاوية فقال هل لا سالته مما قال ذلك فوفد وفدة اخرى فساله الرجل فقال الم تسمع
قول هود ويزدكم قوة الى قوتكم وقول نوح ويمددكم باموال وبنين ولا تتولوا اي ولا
تعرضوا عن قبول قولي ونصحي حالة كونكم مجرمين اي مشركين ولما حكى الله تعالى عن هود ما ذكره
لقومه حكى ايضا ما ذكره قومه له وهو اشيا اولها ما ذكره تعالى بقوله قالوا يا هود ما
جئتنا ببينة اي بحجة تدل على صحة دعواك وسميت بينة لانها تبين الحق ومن المعلوم
انه عليه السلام كان قد اظهر لهم المعجزات الا ان القوم لجهلهم انكروها وزعموا انه ما جاء
بشي من المعجزات وثانيها قولهم وما نحن بتاركي الهتنا اي عبادتها وقولهم عن
قولك اي صادرين عن قولك حال من الضمير في تاركي وهذا ايضا من جهلهم فانهم
كانوا يعرفون بان النافع والضار هو الله تعالى وان الاصنام لا تضر ولا تنفع وذلك
حكم فطرة العقل وبديهة النفس وثالثها قولهم وما نحن لك بمؤمنين اي مصدقين
وفي ذلك اقناط له من الاجابة والتصديق ورابعها قولهم ان اي ما نقول في شانك
الا اعتراك اي اصابك بعض الهتنا بسوء لسبك اياها فجعلك مجنونا وافسدت عقلك
ثم انه تعالى ذكر انهم لما قالوا ذلك قال هود عليه السلام مجيبا لهم اني اشهد الله على
واشهدوا انتم ايضا على اني بريء مما تشركون من دونه اي الله وهو الاصنام التي كانوا
يعبدونها فكيدوني اي احتالوا في هلاكي جميعا انتم واصنامكم التي تعتقدون انها تضر
وتنفع فانها لا تضر ولا تنفع فايدة اتفق القراء على اثبات الياء في كيدوني هنا وقفا
ووصلا لثباتها في المصحف ثم لا تنظرون اي تمهلون وهذا فيه معجزة عظيمة لهود عليه
السلام لانه كان وحيدا في قومه وقال لهم هذه المقالة ولم يهبهم ولم يخف منهم مع ما هم
فيه من الكفر والجبروت ثقة بالله تعالى كما قال اني توكلت على الله ربي وربكم
اي فوضت امري اليه واعتمدت عليه ما من دابة تدب على الارض ويدخل في هذا
جميع بني ادم والحيوان لانهم يدبون على الارض الا هو اخذ بناصيتها اي مالكها وقاهرها
فلا يقع نفع ولا ضر الا باذنه والناصية كما قال الازهري عند العرب منبت الشعر
في مقدم الراس وسمي الشعر النابت هناك ناصية باسم منبته والعرب اذا وصفوا
انسانا بالذلة والخضوع قالوا ما ناصية فلان الا بيد فلان وكانوا اذا اسروا الاسير
وارادوا اطلاقه والمن عليه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا في القران
بما يعرفون من كلامهم ان ربي على صراط مستقيم اي طريق الحق والعدل فلا يظلمكم ولا يعمل

الا بالاحسان والانصاف فيجازي المحسن باحسانه والمسيء بعصيانه وقوله تعالى فان تولوا
فيه حذف احدى التاءين اي تعرضوا فقد ابلغتكم جميع ما ارسلت به اليكم فان قيل الابلاغ
كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط اجيب بان معناه فان تتولوا لم اعاتب على تقصير
من جهتي وصرتم محجوجين لانكم انتم الذين اصررتم على التكذيب وقوله ويستخلف ربي
قوما غيركم استيناف بالوعيد لهم بان الله تعالى يهلكهم ويستخلف قوما اخرين في
ديارهم واموالهم يوحدونه ويعبدونه ولا تضرونه اي الله باشراككم شيئا من الضرر
انما تضرون انفسكم وقيل لا تنقصونه شيئا اذا اهلككم لان وجودكم وعدمكم عنده سواء ان
ربي على كل شيء صغير او كبير حقير او جليل حفيظ اي رقيب عالم بكل شيء وقادر على كل شيء
فيحفظني ان تنالوني بسوء او حفيظ لاعمال العباد حتى يجازيهم عليها او حفيظ على كل شيء
يحفظه من الهلاك اذا شاء ويهلكه اذا شاء ولما لم يرجعوا ولم يرعووا ببينة ولا رغبة ولا رهبة
وجاء امرنا اي عذابنا وذلك هو ما نزل بهم من الريح العقيم عذبهم الله تعالى بها سبع ليال
وثمانية ايام ثم تدخل في مناخرهم وتخرج من ادبارهم وتضربهم على الارض على وجوههم حتى صاروا
كاعجاز نخل خاوية وهنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرا قالون والبزي وابو عمرو باسقاط
الاولى وقرا ورش وقيل بتحقيق الاولى وتسهيل الثانية والباقون بتحقيقهما نجينا هودا
والذين امنوا معه اي من هذه العذاب كانوا اربعة الاف برحمة منا لان العذاب
اذا نزل قد يعم المؤمن والكافر فلما انجا الله تعالى المؤمنين من ذلك العذاب كان برحمته وفضله
وكرمه ونجيناهم من عذاب غليظ هو عذاب الاخرة ووصفه بالغلظ لانه اعظم من عذاب
بالدنيا او نجينا هودا والذين امنوا معه من ان يصل اليهم الكفار بسوء مع اجتهادهم في ذلك ونجيناهم
من عذاب غليظ هو الريح المذكورة ولما ذكر الله تعالى قصة عاد خاطب امة محمد صلى الله عليه وسلم
فقال وتلك عاد وهو اشارة الى قبورهم واثارهم كانه تعالى قال سيحوا في الارض فانظروا اليها
واعتبروا ثم انه تعالى جمع اوصافهم ثم ذكر عاقبة احوالهم في الدنيا والاخرة اما اوصافهم فثلاثة
الصفة الاولى قوله تعالى جحدوا بايات ربهم اي بالمعجزات التي اتى بها هود عليه السلام الصفة
الثانية قوله تعالى وعصوا رسله اي هودا وحده وانما اتى به بلفظ الجمع اما للتعظيم او لان
من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لقوله تعالى لا نفرق بين احد من رسله الصفة الثالثة
قوله تعالى واتبعوا امر كل جبار عنيد اي ان السفلة كانوا يقلدون الرؤساء في قولهم ما هذا
الا بشر مثلكم فاطاعوا من دعاهم الى الكفر وما يرديهم وعصوا من دعاهم الى الايمان ولا يرديهم
والجبار المرتفع المتمرد والعنيد والعنود والمعاند وهو المنازع المعارض ولما ذكر الله تعالى اوصافهم
ذكر احوالهم بقوله تعالى واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة اي جعل اللعن رديفا
لهم ومتابعا ومصاحبا في الدنيا وفي الاخرة ومعنى اللعنة الابعاد من رحمة الله تعالى ومن كل
خير وقيل اللعنة في الدنيا من الناس وفي الاخرة لعنة على رؤوس الاشهاد ثم انه تعالى بين
السبب الاصلي في نزول هذه الاحوال المكروهة بهم بقوله تعالى الا ان عادا كفروا ربهم
اي كفروا بربهم فحذف الباء وان المراد بالكفر الجحد اي جحدوا ربهم وقيل هو من باب حذف المضاف
اي كفروا نعمة ربهم تنبيه الا اداة استفتاح لا تذكر الا بين يدي كلام يعظم موقعه ويجل خطبه
ثم قال الا بعدا لعاد دعا عليهم بالهلاك والمراد به الدلالة على انهم كانوا مستوجبين لما نزل
بهم بسبب ما حكي عنهم وانما كرر الا واعاد ذكرهم تفظيعا لامرهم وحثا على الاعتبار بحالهم

وقوله

وقوله تعالى قوم هود عطف بيان لعاد وفايدته تمييز عن عاد الثانية عاد ارم والايما
الى استحقاقهم للبعد بما جرى بينهم وبين هود القصة الثالثة التي ذكرها الله تعالى في هذه
السورة قصة صالح عليه السلام المذكورة في قوله تعالى وال ثمود وهم سكان الحجر اي وارسلنا
الى ثمود اخاهم فهو معطوف على قوله تعالى نوحا كما عطف عليه والى عاد وقوله تعالى صالحا
عطف بيان وتلك الاخوة كانت في النسب لا في الدين كما مر في هود ثم اخرج قوله عليه السلام
على تقدير سوال بقوله قال يا قوم اي يا من يعز علي ان يحصل لهم سوء اعبدوا الله اي وحدوه
وخصوه بالعبادة ما لكم من اله غيره هو الهكم المستحق للعبادة لا هذه الاصنام ثم ذكر
الدلايل الدالة على وحدانيته بقوله هو انشاكم اي ابتدا خلقكم من الارض وذلك انهم من بني
ادم وادم خلق من الارض او ان الانسان مخلوق من المني وهو متولد من الدم والدم متولد من
الاغذية وهي اما حيوانية واما نباتية فاما الحيوانات فحالها كحال الانسان فوجب انتهاء
الكل الى النبات والنبات تولد من الارض فثبت انه تعالى انشا الانسان من الارض وقيل من بمعنى
في كما في قوله تعالى اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة واستعمركم فيها اي جعلكم عمارها وسكانها
وقال الضحاك اطال اعماركم فيها حتى كان الواحد منهم يعاش ثلثمائة سنة الى الف سنة وكذا كان
قوم عاد وروي ان ملوك فارس قد اكثروا من حفر الانهار وغرس الاشجار وحصلت لهم
الاعمار الطويلة فسال نبي من انبياء زمانهم ربه ما سبب تلك الاعمار فاوحى اليه انهم عمروا بلادي
فعاش فيها عبادي واخذ معاوية في احياء ارض في اخر عمره فقيل له فقال ما حملني عليه الا قول القايل
ليس الفتى بفتى يستضاء به ولا يكون له في الارض اثار وقال مجاهد عمركم من العمرى اي جعلها لكم ما عشتم
فاذا متم انتقلت الى غيركم ولما بين عليه السلام لهم عظمة الله تعالى بين لهم طريق الرجوع اليه
بقوله فاستغفروه اي امنوا به ثم توبوا اليه من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان
وقد مر مثل ذلك ان ربي قريب من خلقه يعلمه لكل من اقبل اليه من غير حاجة الى حركة
مجيب لكل من ناداه لا كمعبوداتكم في الامرين ولما قرر لهم عليه السلام هذه الدلايل قالوا له
يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا اي القول الذي جيت به لما يرى فيك من مخايل
الرشد والسداد فانك كنت تعطف على فقيرنا وتعين ضعيفنا وتعود مرضانا فقوي رجاونا
فيك ان تنصر ديننا فكيف اظهرت العداوة ثم انهم اضافوا الى هذا التعجب الشديد فقالوا
اتنهانا ان نعبد ما كان يعبد اباؤنا من الالهة ومقصودهم بذلك التمسك بطرق التقليد
ووجوب متابعة الاباء والاسلاف ونظير هذا التعجب ما حكاه الله تعالى عن كفار مكة حيث قالوا
اجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب ثم قالوا وانا لفي شك مما تدعونا اليه مريب
اي موقع في الريبة وهي قلق النفس وانتفاء الطمانينة باليقين والرجاء تعلق النفس بمرغوب
يجي الخير على جهة الظن ونظيره الامل والطمع والنهي المنع من الفعل بصيغة لا تفعل
وقولهم هذا مبالغة في تزييف كلامه قال صالح عليه السلام مجيبا لهم يا قوم ارايتم
اي اخبروني ان كنت على بينة اي بيان وبصيرة من ربي واتى بحرف الشك على سبيل الجزم ليلايم
الخطاب حال المخاطبين واتاني منه رحمة اي نبوة ورسالة فمن ينصرني اي يمنعني
من الله اي عذابه ان عصيته اي ان خالفت امره في تبليغ رسالته والمنع عن الاشراك
به فما تزيدونني اي بامركم لي بذلك غير تخسير اي تضليل قال الحسن بن الفضل لم يكن صالح
في خسارة حتى يقول فما تزيدونني غير تخسير وانما المعنى فما تزيدونني بما تقولون

من التوحيد وترك عبادة الاصنام

الا نسبتي اياكم الى الخسارة ولما كانت العادة فيمن يدعي النبوة عند قوم يعبدون الاصنام
ان يطلبوا منه المعجزة وامر صالح عليه السلام هكذا كما يروى ان قومه خرجوا في عيد لهم فسالوه
ان ياتيهم باية وان يخرج لهم من صخرة معينة اشاروا اليها ناقة فدعا ربه فخرجت كما سالوا
اشار اليها بقوله ويا قوم هذه ناقة الله واضافتها الى الله اضافة تشريف كبيت الله لكم اية
اي معجزة من وجوه احدها انه خلقها الله تعالى من الصخرة ثانيها انه تعالى خلقها في جوف الجبل
ثم شق الجبل عنها ثالثها انه تعالى خلقها حاملا من غير ذكر ثم ولدت فصيلا يشبهها رابعها
انه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة خامسها ما روي انه كان لها شرب يوم ولكل
القوم شرب يوم اخر سادسها انه كان يحصل منها لبن كثير يكتفي الخلق العظيم به فكل واحد
من هذه الوجوه معجز قوي وليس في القران الا هذه الناقة كانت اية معجزة واما بيان
انها كانت معجزة من اي الوجوه فليس فيه بيان تنبيه اية نصب على الحال وعاملها معنى
الاشارة ولكم حال منها تقدمت عليها لتنكيرها ولو تاخرت لكانت صفة فلما تقدمت انتصب
على الحال ثم قال لهم فذروها اي اتركوها على اي حالة كان ترككم لها تاكل ما ارادت في ارض الله
من العشب والنبات فليس عليكم مؤنتها فصارت مع كونها اية لهم تنفعهم ولا تضرهم لانهم كانوا
ينتفعون بلبنها ثم انه عليه السلام خاف عليها منهم لما شاهدوا من اصرارهم على الكفر فان الخصم
لا يحب ظهور حجة خصمه بل يسعى في اخفائها وابطالها باقصى الامكان فلهذا السبب كان
يخاف من اقدامهم على قتلها فلهذا احتاط وقال ولا تمسوها بسوء اي بعقر او غيره ثم توعدهم
بقوله فياخذكم ان مسستموها بسوء عذاب قريب اي في الدنيا لا يتاخر عن مسكم لها الا يسيرا
وذلك تحذير شديد لهم في الاقدام على قتلها فخالفوه فعقروها وذبحوها فقال لهم عند بلوغه
الخبر تمتعوا اي عيشوا في داركم والتمتع التلذذ بالمنافع والملاذ التي تدرك بالحواس وذلك لا يحصل
الا للحي وفي المراد من الديار وجهان احدهما البلد وتسمى البلاد الديار لانه يدار فيها اي يتصرف فيقال
ديار بكر لبلادهم الثاني دار الدنيا اي تمتعوا في الدنيا ثلاثة ايام وذلك انهم لما عقروا الناقة
انذرهم صالح عليه السلام بنزول العقاب بعد هذه المدة قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
انه تعالى لما مهلهم الايام الثلاثة فقد رغبهم في الايمان ثم قالوا لصالح عليه السلام وما علامة
ذلك قال تصير وجوهكم في اليوم الاول مصفرة وفي الثاني محمرة وفي الثالث مسودة ثم ياتيكم العذاب
في اليوم الرابع فلما راوا وجوههم مسودة ايقنوا بالعذاب فتحنطوا واستعدوا للعذاب
فصبحهم اليوم الرابع كما قال تعالى ذلك الوعد الغالي الرتبة في الصدق وعد غير مكذوب اي فيه فاتسع
في الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله ويوم شهدناه اي ورب يوم
شهدنا فيه سليما وعامرا او غير مكذوب على المجاز او وعد غير كذب على انه مصدر وقوله
تعالى فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين امنوا معه برحمة منا في تفسيره وقراءة الهمزتين
وعدد الذين امنوا معه مثل ما تقدم في قصة عاد ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم
بالصيحة او ذلهم وفضيحتهم يوم القيامة وقرا نافع والكسائي بفتح الميم من يومئذ على البناء
لاضافتها الى مبني وكسرها الباقون على الاعراب والاول اكثر ان ربك هو القوي فهو يقلب كل شيء
العزيز اي القادر على منع غيره من غير ان يقدر احد عليه ثم اخبر الله تعالى عن عذاب قوم صالح
بقوله تعالى واخذ الذين ظلموا اي انفسهم بالكفر الصيحة اي صيحة جبريل عليه السلام
صاح بهم صيحة واحدة فهلكوا جميعا او اتاهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم

تلك ح

فماتوا جميعا

فماتوا جميعا كما قال تعالى فأصبحوا في ديارهم جاثمين اي باركين على الركب ميتين تنبيه انما
قال تعالى واخذ ولم يقل واخذت لان الصيحة محمولة على الصياح وايضا فصل بين الفعل والاسم
المونث بفاصل فكان الفاصل كالعوض من تا التانيث وقوله تعالى كأن مخففة من الثقيلة
واسمها محذوف اي كانهم لم يغنوا اي يقيموا فيها اي ديارهم ولم يسكنوها مرة من الدهر
تقول غنيت بالمكان اذا اقمت به وقوله تعالى الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود تفسيره
ما تقدم في قوله تعالى الا ان عادا كفروا ربهم الاية وقرا حفص وحمزة الا ان ثمود بغير تنوين
للتعريف والتانيث بمعنى القبيلة والباقون بالتنوين للذهاب الى الحي او الى الاب الاكبر ومن
نون وقف على الف بعد الدال ومن لم ينون وقف على الدال ساكنة وقرا الكسائي بعد الثمود
بتنوين ثمود مع الكسر لما مر والباقون بغير تنوين مع الفتح لما مر ايضا القصة الرابعة
التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة ابراهيم عليه السلام المذكورة في قوله تعالى
ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى اي باسحق ومن وراء اسحق يعقوب وقيل بشر بسلامة
لوط وباهلاك قومه والمراد بالرسل الملائكة ولفظ رسلنا جمع واقله ثلاثة واختلف في الزائد
على ذلك واجمعوا على ان الاصل فيهم كان جبريل عليه السلام واقتصر ابن عباس وعطا على اقل
الجمع فقالا كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل واسرافيل وهم الذين ذكرهم الله تعالى في سورة الذاريات
بقوله تعالى هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين وفي الحجر ونبئهم عن ضيف ابراهيم
المكرمين وقال الضحاك كانوا تسعة وقال محمد بن كعب القرظي كان جبريل ومعه سبعة
املاك وقال السدي كان جبريل ومعه احد عشر ملكا على صورة الغلمان الذين يكونون في غاية
الحسن قال النحويون ودخلت كلمة قد ههنا لان السامع لقصص الانبيا يتوقع قصة بعد
قصة وقد للتوقع ودخلت اللام في لقد لتاكيد الخبر قالوا سلاما اي سلمنا عليك سلاما
ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاما قال سلام اي امركم او جوابي سلام او وعليكم
سلام تنبيه قوله سلام اكمل من قوله السلام لان التنكير يفيد الكمال والمبالغة والتمام
ولهذا صح وقوعه مبتدا لان النكرة اذا كانت موصوفة جاز جعلها مبتدا واما لفظ
السلام فلانه لا يفيد الا الماهية فان قيل فلاي شي ما كفى الاول في التحلل من الصلاة عند
النووي اجيب بان ذلك سنة متبعة وقرا حمزة والكسائي بكسر السين وسكون اللام
ولا الف بعدها والباقون بفتح السين واللام والف بعدها قال الفرا ولا فرق بين
القراتين كما يقال حل وحلال وحرم وحرام وقيل سلم هو بمعنى الصلح اي نحن سلم صلح غير
حرب فما لبث ان جا بعجل حنيذ اي فما ابطا مجيئه به والحنيذ المشوي على الحجارة المحماة
في حفرة من الارض وكان سمينا يقطر ودكه كما قال تعالى في موضع اخر فجا بعجل سمين قال
قتادة كان عامة مال ابراهيم البقر وروي ان ابراهيم مكث خمس عشرة ليلة لم ياته ضيف
فاغتم لذلك وكان يحب الضيف ولا ياكل الا معه فلما جا الملائكة راى اضيافا لم ير مثلهم
فعجل قراهم وجا بعجل سمين مشوي فلما راى ايديهم اي الاضياف لا تصل اليه اي لا يمدون
ايديهم اليه نكرهم اي انكرهم وانكر حالهم وانما انكر حالهم لامتناعهم من الطعام واوجس
اي اضمر في نفسه منهم خيفة اي خوفا قال قتادة وذلك انهم كانوا اذا نزل بهم ضيف فلم
ياكل من طعامهم ظنوا انه لم يات بخير وانما جا بشر قالوا لا تخف يا ابراهيم انا ملائكة الله ارسلنا
الى قوم لوط بالعذاب وانما لم نمد له ايدينا لانا لا ناكل وامراته اي ابراهيم سارة وهي ابنة عم ابراهيم

BULAC

قائمة وراء الستر تسمع محاورتهم او على رؤسهم للخدمة فسمعت الثناء بالولد الذي دل على
انها مقص قوله بالبشرى فضحكت سرورا من ذلك البشرى لزوجها مع كبره وربما ظنته من عزوبها
لانها كانت عجوزا عقيما فازيل ذلك الظن عنها بقوله تعالى فبشرناها اي على لسان الملائكة بشرناها
لها وتخصيصها لشانها بالذكر وبشرناها بإسحاق ويعقوب اي يكون يعقوب عليه السلام
ابنا لاسحاق عليه السلام فتعيش حتى ترى ولد ولدها قال التتائي والذي يدل على هذا
التقدير من انهم بشروه بالولد قبل امرأته فسمعت فجيئت ما ياتي عن نص التوراة
وساق عن التوراة عبارة مطولة وقيل سبب سرورها زوال الخيفة او هلاك
اهل الفساد وقيل فضحكت حاضت كما قال الشاعر وعهدي بها تسلما ضاحكا في لبانة
اي حايضا وجماعة من النساء وهذا يرد الفراحيث قال فضحكت بمعنى حاضت لم تسمع
من لغة وقال الخر يضحك الضبع لقتلى هذيل اراد انها تختص فرجا تنبيه هما هنا
مكسورتان من كلمتين قرا قالون والبزي بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرا ورش وقنبل
بتسهيل الاولى مع المد والقصر وقرا هشام الثانية وابدالها ايضا حرف مد وقرا ابو عمرو
باسقاط احديهما مع المد والقصر والباقون بتحقيق الهمزتين والالف بينهما يا ويلتا
هذه كلمة تقال عند امر عظيم والالف بدل من ياء الاضافة ألد وانا عجوز وكانت
وكانت ابنة تسعين سنة في قول ابن اسحق وقيل مجاهد تسعة وتسعين سنة وهذا
بعلي اي زوجي سمي بذلك لانه قيم امرها وقولها شيخا نصب على الحال قال الواحدي وهذا
من لطيف النحو وغامضه فان كلمة هذا للاشارة فكان قولها وهذا بعلي شيخا قائم
مقام ان يقال اشير الى بعلي حال كونه شيخا والمقصود تعريف هذه الحالة المخصوصة
وهي الشيخوخة وكان ابن مائة وعشرين سنة في قول ابن اسحق وقال مجاهد مائة سنة
وكان بين الثناء والولادة سنة إن هذا لشيء عجيب اي ان الولد من عجوزين قهو استبعاد
من حيث العادة دون القدرة ولذلك قالوا اي الملائكة لسارة أتعجبين من امر الله منكرين
عليها ذلك اي لا تعجبي من ذلك فان الله تعالى قادر على كل شيء واذا اراد شيئا كان سريعا وافق
حوارق العادات باعتبار اهل بيت النبوة ومهبط المعجزات وتخصيصهم بمزيد النعم والكرامات
ليس بمستغرب رحمت الله وبركاته عليكم اهل البيت اي بيت ابراهيم واهل منصوب
على المدح او النداء القصد التخصيص كقولهم اغفر لنا ايتها العصابة وهذا اعلم معنى الدعاء
من الملائكة لهم بالخير والبركة وفي ذلك دليل على ان الزواج الرجل من اهل دريته انه تعالى
حميد اي محمود على ما عامل حاتي او فاعل ما يستوجب به الحمد مجيد اي كثير الخير والاحسان الفضل
الخامسة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة قصة لوط عليه السلام المذكورة في قوله
تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع اي الخوف وقوما او حبس من الخيفة حين انكر اضيافه
وامتنع فلما بعرفانهم وعلمه بانهم ملائكة الله جاءته البشرى بعد الروع بالولد اخذ يجادلنا اي يجادل رسلنا في شان
قوم لوط وجواب لما اخذ يجادلنا الا انه حذف هذا اللفظ لدلالة الكلام عليه وقيل تقديره
لما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى جادل ابراهيم الملائكة مع علمه بانهم لا يمكنهم
مخالفة امر الله وهذا منكر اجيب بان المراد من هذه المجادلة تاخير العذاب عنهم لعلهم
يومنون ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي لان الملائكة قالوا انا مهلكو اهل القرية
آوان مجادلته انما كانت في قوم لوط بسبب مقام لوط فيهم ولهذا قال ابراهيم عليه السلام ان فيها

لوكان

لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين انهلكونها قالوا لا قال واربعون قالوا لا قال فثلاثون
قالوا لا قال فعشرون قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا لا قال ارايتم لو كان فيها رجل مسلم تهلكونها
قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا وقد ذكر الله تعالى هذا في سورة العنكبوت فقال ولما
جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا اهل هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين
قال ان فيها لوطا قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امراته كانت من الغابرين
قال بن جريج وكان في قرى قوم لوط اربعة الاف الف ولو كانت هذه المجادلة مذمومة
ما مدحه الله تعالى بقوله تعالى ان ابراهيم لحليم اي لا يتعجل مكافاة غيره بل يتانى فيه
فيؤخر او يعفو ومن هذا حاله فانه يحب من غيره هذه الطريقة وهذا مدح عظيم من
الله تعالى لابراهيم ثم ضم الى ذلك ما يتعلق بالعلم وهو قوله اواه اي كثير التاوه من الذنوب
والتاسف على الناس منيب اي رجاع فلما اطال مجادلتهم قالوا له يا ابراهيم اعرض عن هذا
اي الجدال وان كانت الرحمة ديدنك فلا فائدة فيه انه قد جاء امر ربك اي قضاؤه الازلي بعذابهم
وهو اعلم بحالهم وانهم اتيهم عذاب غير مردود اي لا سبيل الى دفعه ورده ولما جاءت رسلنا لوطا
اي هؤلاء الملائكة الذين بشروا ابراهيم بالولد قال ابن عباس انطلقوا من عند ابراهيم الى لوط
وكان بن اخي ابراهيم عليهما السلام وبين القريتين اربع فراسخ ودخلوا عليه على صورة شباب
مرد من بني ادم وكانوا في غاية الحسن ولم يعرف لوط عليه السلام انهم ملائكة الله تعالى سيء بهم
اي حزن بسببهم وضاق بهم ذرعا اي صدرا يقال ضاق ذرع فلان بكذا اذا وقع في مكروه
لا يطيق الخروج منه وذلك ان لوطا نظر الى حسن وجوههم وطيب روائحهم فخاف عليهم خبث
قومه وان يعجز عن مقاومتهم وقيل ساءه ذلك لانه عرف بالاخرة انهم ملائكة الله تعالى وانهم
جاءوا لاهلاك قومه فرق قلبه على قومه وقال هذا يوم عصيب اي شديد كانه قد عصب
به الشر والبلاء اي شد به ماخوذ من العصابة التي تشد بالراس قال قتادة خرجت الملائكة
من عند ابراهيم نحو قومه لوط فاتوا لوطا نصف النهار وهو في ارض له يعمل فيها وروي انه
كان يحتطب وقد قال الله تعالى لهم لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط اربع شهادات فاستضافوه
وانطلق بهم فلما مضى ساعة قال لهم ما بلغكم من امر هذه القرية قالوا وما امرهم قال
اشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا يقول ذلك اربع مرات وروي ان الملائكة
جاءوا الى بيت لوط فوجدوه في داره ولم يعلم بذلك احد الا اهل بيت لوط فخرجت امراته
فاخبرت قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رايت مثل وجوههم قط وجاءه قومه
لما اعلموا بهم يهرعون اي يسرعون اليه قاله بن عباس وقال الحسن الاهراع المشي بين مشيتين
ومن قبل اي قبل مجيئهم الى لوط وقيل من قبل مجيء الرسول اليهم كانوا يعملون السيئات اي
الفعلات الخبيثة والفاحشة القبيحة وهو اتيان الرجال في ادبارهم قال لوط لقومه
حين قصدوا اضيافه وظنوا انهم غلمان من بني ادم يا قوم هؤلاء بناتي قال مجاهد وسعيد
ابن جبير اراد ببناته نساء قومه واضافهن الى نفسه لان كل نبي هو ابو امته كالوالد لهم اي
فتزوجوا منهن وقيل اراد بنات نفسه عرضهن عليهم بشرط الاسلام وقيل كان في ذلك
الوقت وفي تلك الشريعة يباح تزويج المراة المسلمة بالكافر كما زوج صلى الله عليه وسلم ابنته
من عتبة ابن ابي لهب واتى العاص بن وائل قبل الوحي وهما كافران وقيل كان لهم سيدان
مطاعان فاراد ان يزوجهما ابنتيه هن اطهر لكم اي انظف فعلا فان قيل افعل التفضيل

BULAC

يقتضي كون الحمل الذي يحملونه ظاهرا ومعلوم انه فاسد لانه لا يحمل رفقي انسان الرجال الاجنبية
بان هذا اجاري مجرى قولهم تعالى اذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم ومعلوم ان شجرة الزقوم لا خير فيها
وكقوله صلى الله عليه وسلم لما قالوا يوم احد اعل هبل فقال الله اعلا واجل ولا الهما ثلثة بين
الله تعالى والصنم وانما هو كلام خرج مخرج المقابلة ولهذا نظاير كثيرة فاتقوا الله واقبلوا
واتركوا ما انتم عليه من الكفر والمعاصي والمنكر وهي اي تفضحوني وضيفي اي اضيافي الست منكم رجل
رشيد يهتدي الى الحق فيما امر بالمعروف ونهى عن المنكر قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك
من حق اي حاجة وانك لتعلم ما نريد من اتيان الذكور وما لنا فيه الشهوة فعند ذلك قال
لوط عليه السلام لو ان لي بكم قوة اي مطاعة او اوي الى ركن شديد اي عشيرة تنصرني شبه
بركن الجبل لشدته وعنه صلى الله عليه وسلم رحم الله اخي لوط كان يأوي الى ركن شديد والركن
الشديد نصر الله ومعونته فكان النبي صلى الله عليه وسلم استغرب من لوط عليه السلام قوله
او اوي مع عدم تأدية الى ما يمكن اشد من الركن الذي كان يأوي اليه وجواب لو محذوف فلقد تقدر
لبطشت بكم او لدفعتكم وروي انه اغلق بابه دون اضيافه واخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا
الجدار فلما رأت الملائكة ما عالى لوط من الكرب قالوا يا لوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك
فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل ربه في عقوبتهم
فاذن له فقام في الصورة التي تهول فيها فشرجناحه ولد جناحان وعليه وشاح من در منظوم
وهو بين السنا بالمغرب بجناحه وجوههم فطمس عينهم كما قال تعالى فطمسنا اعينهم فصاروا
لا يعرفون الطريق ولا يهتدون الى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون النجاء النجاء ان في بيت لوط قوما
سحرة تنبيه لن يصلوا اليك جملة موضحة للتي قبلها لانهم اذا كانوا رسل الله لم يصلوا اليه ولم تقدروا
على ضرره ثم قالوا له فاسر بأهلك بقطع من الليل وقرأ نافع وابن كثير بقطع الفا بهمزة وصل
من السري والباقون بهمزة قطع من الاسراء ولا يلتفت منكم احد اي لا ينظر الى ورائه ليلا
يرى عظيم ما نزل بهم وقوله الا امرأتك قرأ ابن كثير وابو عمرو برفع التاء على انه بدل من احد
والباقون بالنصب على انه استثناء من الاهل اي فانها تتبعهم اما اصابهم فلم يخرج بها
وقيل خرجت والتفتت فقالت وا قوماه فجاءها حجر فقتلها وروي انه قال لهم متى موعد
هلاكهم فقالوا له ان موعدهم الصبح قال اريد اسرع من ذلك قالوا اليس الصبح بقريب
اي فاسرع للخروج بمن امرت بهم فلما جاء امرنا اي عذابنا باهلاكهم جعلنا عاليها اي قراها سافلها
وروي ان جبريل عليه السلام ادخل جناحه تحت قرى قوم لوط الموتفكات المذكورة في سورة براءة وكانت
خمس مدائن وفيها اربعمائة الف وقيل اربعة الاف الف فرفع المدائن كلها حتى سمع اهل السما
صياح الديكة وتصهيق الحمر ونباح الكلاب لم يكفأ لهم اناء ولم ينكس نائم ثم اسقطها مقلوبة
الى الارض وامطرنا عليها اي المدن بعد قلبها وقيل على شذاذ منها وهم نفر النسر المعجمة وبالنون
معجمتين او بالتاء مثناة وهم الذين ليسوا من اهلها يكونون في القوم وليسوا منهم حجارة من سجيل
اي من طين طبخ بالنار كما قال تعالى في موضع اخر حجارة من طين وقيل مثل السجل
وهو الدلو العظيمة منضود اي متتابع يتبع بعضه بعضا مسومة اي معلمة عليها اسم
من يرمى بها وقال ابو صالح رأيت منها عند دار هانئ وبني حجان فيها خطوط حمر على هيئة
الجزع وقال الحسن عليها امثال الخواتيم وقال لم يخرج كان عليها سيما يعلم بها انها ليست
من حجان الارض وقوله تعالى عند ربك ظرف لها وما هي اي تلك الحجارة من الظالمين اي

مشركي

اى مسرى مكة بعيد وقيل وقته وعيدهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل
فقال يعنى ظالمى امتك ما من ظالم منهم الا وهو يعرض عليه محمر سيخط عليه من ساعة الى
ساعة وقيل الضمير للعرب اى مع قربية من ظالمى مكة يمرون على ارضهم فى مسيرهم القصة الثامنة
التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة قصة شعيب عليه السلام المذكورة فى قوله تعالى
والى مدين اى وارسلنا الى مدين وهم قبيلة تنسب الى مدين بن ابراهيم عليه السلام وقيل هو اسم
مدينة بناها مدين المذكور وعلى هذا فالتقدير وارسلنا الى اهل مدين فحذف المضاف
لدلالة الكلام عليه اخاهم اى فى النسب لا فى الدين وشعيبا عطف بيان وكان قيل فما قال
ما قال لهم فقيل قال يا قوم اقبلوا على اخوانى من الانبياء فى البداءة باصل الدين يا قوم مستعطفا
لهم مظهرا لغاية الشفقة اعبدوا الله اى وحدوه ولا تشركوا به شيأ ما لكم من اله غيره
فلقد اتفقت كما ترى كلمتهم واتحدت الى الله تعالى دعوتهم وهذا وحده قاطع لكل قالة
عاصد فحال منهم لما علم قطعا من تباعد اعصارهم وتنائى ديارهم وان بعضهم لم يلم بالعلوم
ولا عرف اخبار الناس الا من الحى العتوم ولما دعاهم الى العدل فيما بينهم وبين الله تعالى وعلمهم
الى العدل فيما بينهم وبين عبيده فى فتح ما كانوا اتخذوه بعد التشريك ديدنا فقال
ولا تنقصوا بوجه من الوجوه المكيال والميزان اى لا الكيل ولا النقد ولا الوزن ولا النقد والكيل
تعديل الشئ بالالة فى القلة والكثرة والوزن تعديله فى الخفة والثقل فالكيل العدل
فى الكمية والوزن العدل فى الكيفية ثم علل ذلك بقوله انى اراكم بخير اى بثروة وسعة
تغنيكم عن التطفيف قال ابن عباس كانوا موسرين وقيل مخصبين وقال مجاهد كانوا فى خصب
وسعة فحذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة ان لم يؤمنوا او يتوبوا وهو
قوله تعالى واني اخاف عليكم ان لم تؤمنوا عذاب يوم محيط اى يحيط بكم فيهلككم جميعا
وهو عذاب الاستيصال فى الدنيا وعذاب النار فى الاخرة ومنه قوله تعالى وان جهنم
لمحيطة بالكافرين والمحيط من صفة اليوم فى الظاهر وفى المعنى من صفة العذاب ولكن
مجاز مشهور كقولهم نهاره صائم وليله قائم عصيب ويا قوم اوفوا اى اتموا تماما حسنا المكيال والميزان
اى الكيل والوزن والتماما فان قيل الهى عن النقصان امر بالايفاء فما فائدة قوله تعالى
اوفوا اجيب بانهم تعودوا ولا عن القبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لا
فى النفر بالقبيح نفيا على المهى وتقبيح الامر بالايفاء الذى هو حسن فى العقول
مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وتبعث عليه وحى به متعبدا بالقسط اى ليكن الايفاء على
وجه التعهد والتسوية من غير زيادة ولا نقصان امر ايجاب هو الواجب لان مجاوز العدل
فضل وامر مندوب اليه غير المامور به وقد يكون محظورا كما فى الربا وقوله ولا تبخسوا
الناس اشياءهم تعميم بعد تخصيص فانه اعم من ان يكون فى المقدار او فى غيره فانهم كانوا يأخذون
من كل شئ يباع شيأ كما يفعل السماسرة وكانوا يكسرون الناس وكانوا ينقصون من اثمان ما يشترون
من الاشياء فنهوا عن ذلك فظهر بهذا البيان ان هذه الاشياء مكررة بل فى كل واحد منها فائدة
زائدة والحاصل انه تعالى نهى فى الاية الاولى عن النقصان فى المكيال والميزان وفى الاية الثانية
امرنا باعطاء قدر من الزيادة والمحصل الجزم والبقين بادا الواجب الا عند اداء ذلك القدر من الزيادة
ولهذا قال الفقهاء انه تعالى امر بغسل الوجه وذلك لا يحصل الا عند غسل جزء من الراس فكانه تعالى
نهى اولا عن سعى الانسان فى ان يجعل ما لغيره ناقصا ليحصل له تلك الزيادة وفى الثانى امرنا ان نسعى فى

تنقيص مال نفسه ليخرج بالتعيين عن العهدة كما قيده بقوله تعالى بالقسط وفي الآية الثالثة
نهي عن النقص في كل الاشياء وكذا قوله تعالى ولا تعثوا في الارض مفسدين فان العثو يعم تنقيص
الحقوق وغيره من انواع الفساد ومفسدين حال مؤكدة لمعنى عاملها وفائدتها اخراج ما يقصد
به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام بقيت الله قال ابن عباس يعني ما ابقى الله لكم من الحلال
بعد ايفاء الكيل والوزن خير لكم مما تأخذون بالتطفيف وقال مجاهد ما يحصل لكم في الدنيا
من المال الحرام ان كنتم مؤمنين اي مصدقين بما قلت لكم وامرتكم به فائدة رسمت بقيت بالتاء
المجرورة وقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسائي والباقون وقفوا بالهاء وما انا عليكم بحفيظ
اعلم جميع اعمالكم واقدر على كفكم عما يكون منها فسادا ولما امرتهم شعيب عليه السلام بشيئين
بالتوحيد وترك البخس قالوا له يا شعيب سموه باسمه خفاء وغلظة وانكروا عليه مستهزئين به
اصلواتك تأمرك اي تفعل معك فعل من يأمر دائما بتكليفنا ان نترك ما يعبد على سبيل
المواطئة آباؤنا من الاصنام فحذف المضاف الذي هو التكليف لان الانسان لا يؤمر بفعل غيره
قالوا له ذلك في جواب امره لهم بالتوحيد او نترك ان نفعل اي دائما في اموالنا ما نشاء من قطع الدراهم
والدنانير وافساد المعاملة والمقامرة ونحوها ما يكون افسادا للمال قالوا له ذلك في جواب النهي
النهي عن التطفيف والامر بالايفاء وانما اضافوا ذلك الى صلاته تهكما واستهزاء بها واشعارا بان مثل
هذا لا يدعو اليه عقلي وانما دعاك اليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه وكان
شعيب عليه السلام كثير الصلاة في الليل والنهار وكان قومه اذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا
وقصدوا بقولهم اصلواتك تأمرك السخرية والهزو كما انك اذا رأيت معتوها يطالع كتبا ثم
يذكر كلاما فاسدا فيقال له هذا من مطالعة تلك الكتب على سبيل الهزو فكذا هنا وقرأ حفص
وحمزة والكسائي بالافراد والباقون بالجمع والتاء بالرفع في القراءتين وغلظ ورش اللام على اصله
وقولهم له انك لانت الحليم الرشيد تهكم به وقصدوا وصفه بضد ذلك كما يقال للبخيل
الخسيس لو رآك حاتم لسجد لك وعللوا انكار ما سمعوه منه واستبعاده بانه موسوم بالحلم
والرشد المانعين عن المبادرة الى مثل ذلك ثم اخرج قوله عليه السلام على تقدير سؤال بقوله
يا قوم مستعطفا لهم لما بينهم من عواطف القرابة منبها لهم على احسن النظر فيما ساقه
على سبيل الفرض والتهديد ليكون ادعى الى سبيل الوفاق والانصاف ارأيتم اي اخبروني ان
كنت على بينة اي برهان من ربي وعطف على جملة الشرط المستفهم عنه قوله ورزقني والضمير
في منه لله تعالى اي من عنده باعانته بلا كد مني في تحصيله وعظم الرزق بقوله رزقا حسنا
جليلا ومالا حلالا لم اظلم فيه احدا وجواب الشرط محذوف تقديره فهل يسع لي مع هذا
الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية ان اخون في وحيه فاخالفه في امره
ونهيه وهذا اعتذار عما انكروا عليه من تغيير المألوف والنهي عن دين الآباء وما اريد ان
اخالفكم اي واذهب الى ما انهاكم عنه فارتكبه ان اي ما اريد اي فيما امركم به وانهاكم عنه الا الاصلاح
اي ما اريد الا ان اصلحكم بموعظتي ونصيحتي وامري بالمعروف ونهيي عن المنكر ما استطعت
اي وهو الابلاغ والانذار فقط ولا استطيع اجباركم على الطاعة لان ذلك الى الله تعالى فانه يهدي
من يشاء ويضل من يشاء وما توفيقي اي لاصابة الحق والصواب الا بالله اي الا بمعونته وتأييده عليه
لا على غيره توكلت اي اعتمدت في جميع اموري فانه القادر على كل شيء وما عداه عاجز وهذه الصيغة
تفيد الحصر فلا ينبغي للانسان ان يتوكل على احد الا على الله تعالى وفيه اشارة الى محض التوحيد

داع

الذي

الذي هو اقصى مراتب المبدا واما قوله واليه انيب ففيه اشارة الى معرفة المعاد وهو ايضا يفيد
الحصر لان قوله واليه انيب يدل على انه لا مآب للخلق الا الى الله تعالى وروي عنه صلى الله عليه وسلم
انه كان اذا ذكر شعيبا قال ذلك خطيب الانبيا لحسن مراجعته قومه ويا قوم لا يجرمنكم اي لا
يكسبنكم شقاقي اي خلافي وهو فاعل يجرم والضمير مفعول اول والمفعول الثاني ان يصيبكم
عذاب العاجلة على كفركم وافعالكم الخبيثة قال في الكشاف جرم مثل كسب في تعديته الى مفعول
واحد والى مفعولين يقول جرم دينا وكسبه وجرمته دينا وكسبته اياه ومنه قوله تعالى لا يجرمنكم
شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح من الغرق او قوم هود من الريح العقيم او قوم صالح
من الرجفة وما قوم لوط منكم ببعيد لا في الزمان ولا في المكان لانهم كانوا حديثي عهد بهلاكهم
وكانوا جيران قوم لوط وبلادهم قريبة من بلادهم فان القرب في المكان وفي الزمان
يفيد زيادة المعرفة وكمال الوقوف على الاحوال فكانه يقول اعتبروا باحوالهم واحذروا من مخالفة
الله ومنازعته حتى لا ينزل بكم مثل ذلك العذاب فان قيل لم قال ببعيد ولم يقل ببعيدين
اجيب بان التقدير وما اهلاكهم بشيء بعيد وايضا يجوز ان يستوي في قريب وبعيد وكثير وقليل
بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنهيق ونحوهما واستغفروا ربكم
اي آمنوا به ثم توبوا اليه من عبادة غيره لان التوبة لا تصح الا بعد الايمان وقد مر مثل ذلك
ان ربي رحيم اي عظيم الرحمة للتائبين ودود اي محب لهم ولما بالغ عليه السلام في التقرير
والبيان اجابوه بانواع فاسدة الاول قالوا له يا شعيب ما نفقه اي نفهم كثيرا مما تقول
فان قيل انه كان يخاطبهم بلسانهم فلم قالوا ما نفقه اجيب بانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم لشدة
نفرتهم عن كلامه وهو كقوله تعالى وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه او انهم فهموه ولكنهم
ما اقاموا له وزنا فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة كما يقول الرجل لصاحبه اذا لم
يعبا بحديثه ما ادري ما يقول النوع الثاني قولهم له وانا لنراك فينا ضعيفا اي لا قوة لك
فتمتنع منا ان اردناك بسوء او ذليلا لا عز لك وقيل اعمى بلغة حمير قاله قتادة وفي هذا
دلالة على تجويز العمى على الانبيا الا ان هذا اللفظ لا يحسن الاستدلال به واثبات هذا
المعنى لانه ترك الظاهر من غير دليل وقيل ضعيف البصر قاله الحسن النوع الثالث قولهم له
ولولا رهطك اي عشيرتك وعزتهم عندنا لكونهم على ملتنا لا لخوف من شوكتهم لرجمناك
بالحجارة حتى تموت والرهط من الثلاثة الى العشرة وقيل الى السبعة والمقصود
من هذا الكلام انهم بينوا انه لا حرمة له عندهم ولا وقع له في صدورهم وانهم انما لم يقتلوه
لاجل احترام رهطه النوع الرابع قولهم له وما انت علينا بعزيز اي لا تعز علينا ولا تكرم
حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وانما يعز علينا رهطك لانهم من اهل ديننا ولم
يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا ولما خوف الكفار شعيبا بالقتل والايذا حكى الله
تعالى عنه ما ذكره في هذا المقام وهو نوعان الاول قال لهم يا قوم مستعطفا لهم
مع غلظتهم عليه ارهطي اعز عليكم من الله المحيط بكل شيء قدرة وعلما حتى نظرتم اليهم في لقرابتي
منهم ولم ينظروا الى الله تعالى في قولي منه بما ظهر علي من كرامته واتخذتموه وراءكم ظهريا
اي وجعلتموه كالمنسي المنبوذ وراء الظهر باشراككم به والاهانة برسوله قال في الكشاف والظهري
منسوب الى الظهر والكسر من تغييرات النسب ونظيره قولهم في النسبة الى الامس امسي
بكسر الهمزة وقوله ان ربي بما تعملون محيط اي انه عليم باحوالكم فلا يخفى عليه شيء منها

النوع الثاني في قوله ويا قوم اعملوا على مكانتكم والمكانة الحال التي يمكن صاحبها من عمله والمعنى
اعملوا حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة وكلما في وسعكم وطاقتكم من ايصال الشرور الي
اني ايضا عامل ما اتاني الله تعالى من القدرة والطاقة سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه
فمن موصولة مفعول العلم فان قيل لم لم يقل فسوف تعلمون اجيب بان ادخال الفا وصل ظاهر
بحرف موضوع للوصل واما حذف الفا فتجعله جوابا عن سؤال مقدر وهو المسمى في علم البيان
الاستيناف البياني تقديره انه لما قال ويا قوم اعملوا على مكانتكم اني عامل فكانهم قالوا فماذا
يكون بعد ذلك فقال سوف تعلمون فظهر ان حذف حرف الفا ههنا اكمل في بيان الفصاحة
والتهويل لانه استيناف وارتقبوا اي انتظروا عاقبة امركم اني معكم رقيب اي منتظر
والرقيب بمعنى الراقب من رقبه كالضرب والصريم بمعنى الضارب والصارم او بمعنى المراقب كالعشير
والنديم او بمعنى المرتقب كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمرتفع ولما جاء امرنا بعذابهم واهلاكهم
واهلاكهم نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة اي بفضل منا بان هديناهم للايمان ووفقناهم
للطاعة فان قيل لم جا قصة عاد وقصة مدين بالواو وقصة صالح ولوط بالفا اجيب بان قصة
عاد ومدين لم يسبقهما ذكر وعد يجري مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط فشانهما ذكرا بعد
الوعد وذلك قوله تعالى وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح فلذلك جا بالفا السببية
واخذت الذين ظلموا اي ظلموا انفسهم بالشرك والبخس الصيحة اي صيحة جبريل عليه السلام صاح
بهم صيحة خرجت ارواحهم وماتوا جميعا وقيل اتتهم صيحة من السما فاصبحوا في ديارهم
جاثمين اي باركين على الركب ميتين كان لم يغنوا فيها اي ديارهم مرة من الدهر ماخوذ
من قولهم غني بالمكان اذا اقام فيه مستغن به عن غيره الا بعدا اي هلاكا لمدين كما بعدت
ثمود انما شبههم بهم لان عذابهم كان ايضا بالصيحة لكن صيحتهم كانت من تحتهم وصيحة
مدين كانت من فوقهم قال ابن عباس لم يعذب الله تعالى امتين بعذاب واحد الا قوم شعيب
وقوم صالح فاما قوم صالح فاخذتهم الصيحة من تحتهم واما قوم شعيب فاخذتهم الصيحة
من فوقهم القصة السابعة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة وهي اخر قصصها قصة
موسى عليه السلام المذكورة في قوله تعالى ولقد ارسلنا موسى باياتنا اي التورية مع ما فيها من
الشرايع والاحكام وسلطان مبين اي برهان بين ظاهر على صدق نبوته ورسالته وقيل المراد
بالسلطان البين القضا لانها اظهر الايات وذلك لان الله تعالى اعطى موسى تسع ايات بينات
وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص من الثمرات والسنين ومعهم
من ابدل نقص الثمرات والسنين باظلال الجبل ونتق البحر قال بعض المحققين سميت الحجة
سلطانا لان صاحب الحجة يقهر من لا حجة له كالسلطان يقهر غيره والعلما سلاطين بسبب
كمالهم في القوة العلمية والملوك سلاطين بحسب ما معهم من القدرة والمكنة الا ان سلطنة
العلما اكمل واقوى من سلطنة الملوك لان سلطنة العلما لا تقبل النسخ والعزل وسلطنة الملوك
تقبلهما ولان سلطنة الملوك تابعة لسلطنة العلما لان سلطنة العلما من جنس سلطنة الانبيا
وسلطنة الملوك من جنس سلطنة الفراعنة الى فرعون طاغية القبط وملايه اي اشراف قومه
الذين يتبعهم الاذناب لان القصد الاكبر رفع ايديهم عن بني اسرايل فاتبعوا امر فرعون اي اتبعوا
طريقة فرعون المنهمك في الضلال والطغيان الداعي الى ما لا يخفى فساده على من له ادنى مسكة
من العقل ولم يتبعوا موسى الهادي الى الحق المويد بالمعجزات الظاهرة الباهرة لفرط جهالتهم

اي كانهم لم يتبعوا

وعدم

وعدم استنصارهم **وما أمر فرعون برشيد** اى سديد ولا حميد العاقبة ولا يدعوا الى خير وقيل رشيد ذو رشد واصلاح وفرعون من الرشد كان ظاهرا لانه كان ذهبا نافعا للصنائع والمعاد وكان يقول لا اله للعالم وانما يجب على اهل كل بلد ان يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم وكل الرشد فى عبادة الله تعالى ومعرفته فلما كان هو نافيا لهذين الامرين كان حاليا عن الرشد بالكلية **يقدم قومه يوم القيامة** الى النار كما كان يقدمهم فى الدنيا الى الضلال وكما تقدم جنوده فى الدنيا فادخلهم فى اليم واغرقهم فكذا يتقدمهم فى القيامة فيدخلهم النار كما قال تعالى **فأوردهم النار** فان قيل لم يقل يقدم قومه فيوردهم النار بل قال بلفظ الماضى اجيب بانه اتى بلفظ الماضى مبالغة فى تحقيقه وتنزيل النار لهم منزلة الماء فسمى اتيانها موردا ولهذا قال تعالى **وبئس الورد المورود** اى وردهم لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار ضده فان قيل لفظ النار مؤنث فكان مقتضى ذلك ان يقال وبئست الورد المورود اجيب بان لفظ الورد مذكر فكان التذكير والتانيث جائزين كما تقول نعم المنزل دارك ونعمت المنزل دارك فمن ذكر غلب المنزل ومن انث نبى على ان ثبت الدار **وأتبعوا فى هذه** اى الدنيا **لعنة** اى طردا وبعدا عن الرحمة **ويوم القيامة** اى وانبعوا يوم القيامة لعنة اخرى فهم ملعونون فى الدنيا والاخرة ونظيره قوله تعالى فى سورة القصص وانبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين **وبئس الرفد** اى العون **المرفود** روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رجلا قال له يا ابن عباس ما معنى قوله تعالى وبئس الرفد المرفود فقال هو اللعنة بعد اللعنة وقال قتادة زيدت عليهم لعنتان من الله لعنة فى الدنيا ولعنة فى الاخرة ونظيره قوله تعالى فى سورة القصص وانبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين وكل شئ جعلته عونا لشئ فقد رفدته به وسميت اللعنة عونا لانها اذا اتبعتهم فى الدنيا ابعدتهم عن الرحمة واعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفدا اى عونا لهذا المعنى على التهكم كقول القائل بخيبة بلقيهم ضربت وجميع وسميت مقابحا لانها ارفدت هى الاخرة بلعنة اخرى لكونها مؤدية الى طرد الجحيم ولما ذكر تعالى قصص الاولين قال تعالى **ذلك** اى المذكور وهو مبتدا خبره **من انباء القرى** اى اخبار اهل القرى وهم الامم السالفة فى القرون الماضية وقوله تعالى **نقصه عليك** اى نخبرك به يا محمد خبرا بعد خبر وحاديثا ذكر هذه القصص على النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم السامع ان الموحد يخرج من الدنيا مع الثناء الجميل فى الدنيا والثواب الجزيل فى الاخرة وان الكافر يخرج من الدنيا مع اللعن فى الدنيا والعقاب فى الاخرة فاذا تكررت هذه الاقاصيص على السمع فلا بد وان يلين القلب وتخضع النفس وتزول العداوة وتحصل فى القلب حالة فيحمله على الاستظهار والاستدلال وفى اخباره صلى الله عليه وسلم بهذه القصص من غير مطالعة كتب ولا تلمذ دلالة على نبوته فان ذلك لا يكون الا بوحى من الله تعالى **منها** اى القرى **قائم** اى باق كالزرع القائم **هلكنا اهلها** دونه **ومنها حصيد** اى عاف الاثر كالزرع المحصود هلك مع اهله **وما ظلمناهم** اى اهلكناهم بغير ذنب **ولكن ظلموا انفسهم** بالكفر والمعاصى وقال ابن عباس يريد وما نقصنا منهم فى الدنيا من النعيم والرزق ولكن نقصوا حظ انفسهم حيث استحقوا بالكفر الخلود فى النار تعالى الله **فما اغنت** اى دفعت **عنهم آلهتهم** اى اصنامهم **التى يدعون** اى يعبدون **من دون الله** اى غير **من شئ** اى شيأ من **لما جاء امر ربك** اى عقابه **وما زادوهم** بعبادتهم **غير تتبيب** اى تخسير وقيل تدمير ولما اخبر تعالى بقوله

صلى الله عليه وسلم في كتابه بما فعله بامم من تقدم من الانبيا عليهم السلام لما خالفوا الرسل وما ورد
عليهم من عذاب الاستقبال وبين انهم ظلموا انفسهم فحل بهم العذاب في الدنيا قال تعالى بعده
وكذلك اي ومثل ذلك الاخذ العظيم اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي اي القرى ظالمة والمراد اهلها ونظيره
قوله تعالى وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها وقوله تعالى وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة فبين تعالى
ان عذابه ليس بمقصور على من تقدم بل الحال في اخذ كل الظالمين يكون كذلك ولما بين تعالى كيفية
اخذ الامم المتقدمة ثم بين انه تعالى انما ياخذ جميع الظالمين على ذلك الوجه اتبعه بما يزيده تاكيدا
وتقريرا بقوله تعالى ان اخذه اليم اي مولم شديد اي صعب مفتت للقوى وعن ابي موسى الاشعري
رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم
يفلته ثم قرا وكذلك اخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة ان اخذه اليم شديد وفي هذه الاية
الكريمة والحديث الشريف دلالة على ان من اقدم على ظلم فانه يتداركه بالتوبة والانابة ورد الحقوق
الى اهلها ان كان الظلم للغير لئلا يقع في هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن ان هذه
الاية مختصة بظالمي الامم الماضية بل هي عامة في كل ظالم ويعضده الحديث ان في ذلك اي ما ذكر من
عذاب الامم الماضية واهلاكهم لاية اي لعبرة وموعظة لمن خاف عذاب يوم الحياة الاخرة
لانه ينظر ما احل الله تعالى بالمجرمين في الدنيا وما هو الا انموذج ما اعد لهم في الاخرة فاذا راى
عظمه وشدته اعتبر به عظيم العذاب الموعود فيكون له عبرة وعظة ولطفا في زيادة التقوى
والخشية من الله وقوله تعالى ذلك اشارة الى يوم القيامة لان عذاب الاخرة دل عليه
يوم مجموع له اي فيه الناس اي ان خلق الاولين والاخرين كلهم يحشرون في ذلك اليوم ويجمعون
ثم وصفه تعالى بوصف اخر بقوله تعالى وذلك يوم مشهود اي يشهده اهل السموات واهل
الارض وما نؤخره اي ذلك اليوم وهو يوم القيامة الا لاجل اي وقت معدود اي معلوم
محدود وذلك الوقت لا يعلمه الا الله تعالى يوم ياتي ذلك اليوم لا تكلم فيه حذف احدى
التائين اي لا تتكلم نفس الا باذنه تعالى وقرا نافع وابو عمرو والكسائي بالثاء بعد التاء من ياتي
وصلا ووقفا وحذفها الباقون واما التاء من تكلم فشددها البزي في الوصل وخففها
الباقون فان قيل كيف يوفق بين قوله تعالى يوم تاتي كل نفس تجادل عن نفسها وقوله
تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون اجيب بان ذلك اليوم يوم طويل
له مواقف ومواطن ففي بعضها يجادلون عن انفسهم وفي بعضها يكفون عن الكلام ولا يؤذن
لهم وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون وفي بعضها يختم على افواههم وتكلم ايديهم وتشهد ارجلهم
فمنهم اي الناس شقي ومنهم سعيد اي فمنهم من سبقت له الشقاوة فوجبت له النار
بمقتضى الوعيد ومنهم من سبقت له السعادة فوجبت له الجنة بموجب الوعد
وعن علي رضي الله تعالى عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله وبيده مخصرة ثم نكت بها الارض ساعة ثم قال ما نفس
منفوسة الا قد كتب مكانها من الجنة والنار فقالوا يا رسول الله افلا نتكل على كتابنا
فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له اما من كان من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة
ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير لعمل اهل الشقاوة ثم قرا فاما من اعطى واتقى وصدق
بالحسنى فسنيسره لليسرى الاية وبقيع الغرقد هو مقبرة اهل المدينة الشريفة ومدفنهم فيه
والمخصرة كالسوط والعصا ما يمسكه الانسان بيده والنكت بالنون والتاء المثناة من فوق

ضرب

ضرب الشي بتلك المخصرة وباليد ونحو ذلك حتى يوثر فيه فأما الذين شقوا في علمه تعالى ففي
النار لهم فيها زفير وهو صوت شديد وشهيق وهو صوت ضعيف وقيل الزفير اخراج النفس
والشهيق رده وقيل الزفير بمنزلة ابتدا صوت الحمير بالنهيق والشهيق بمنزلة اخر صوت
الحمار اذا رده في صدره وقيل الزفير في الحلق والشهيق في الصدر وعلى كل المراد منهما الدلالة
على شدة كربهم وغمهم خالدين فيها وقوله تعالى ما دامت السموات والارض فيه وجهان
احدهما سموات الاخرة وارضها وهي دائمة مخلوقة للابد والدليل ان لها سموات وارضا
قوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى واورثنا الارض نتبوا من الجنة
حيث نشا ولانه لابد لاهل الاخرة مما يقلهم ويظلهم اما سما يخلقها الله تعالى او يظلهم العرش
وكلما اظلك فهو سما وكلما استقر عليه قدمك فهو ارض والوجه الثاني ان المراد مدة دوامهما
في الدنيا الا اي غير ما شا ربك من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له وذلك هو الخلود فيها ابدا
ان ربك فعال لما يريد من غير اعتراض واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها
ما دامت السموات والارض الا ما شا ربك كما تقدم ودل عليه فهم قوله تعالى عطا غير مجذوذ
اي مقطوع وقيل الاستثنا في اهل الشقاوة يرجع الى قوم من الموحدين يدخلهم الله تعالى
النار بذنوب اقترفوها ثم يخرجهم منها وذلك كاف في صحة الاستثنا لان زوال الحكم عن الكل
يكفيه زواله عن البعض فيكون ذلك استثنا من غير الجنس لان الذين اخرجوا من النار سعدا
في الحقيقة استثناهم الله تعالى من الاشقيا لما روي عن جابر انه صلى الله عليه وسلم قال
يخرج قوم من النار بالشفاعة وفي رواية ان الله يخرج ما شا من النار فيدخلهم الجنة وفي رواية
انه صلى الله عليه وسلم قال ليصيبن قوما سفع من النار بذنوب اصابوها عقوبة ثم
يدخلهم الله بفضله ورحمته الجنة وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم قال يخرج قوم من النار
بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم فيدخلون الجنة فيسمون الجهنميين وعن عبد الله بن عمرو بن
العاصي ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه ابوابها ليس فيها احد اي من اهل الكبائر من امة محمد صلى
الله عليه وسلم تاركوا طبقتهم التي كانوا فيها وان نازع في ذلك الزمخشري على مذهبه الفاسد
من ان اهل الكبائر مخلدون في النار واما الاستثنا في اهل السعادة فيرجع الى مدة لبثهم
في النار قبل دخولهم الجنة او ان الاستثنا راجع الى الفريقين فانهم مفارقوا الجنة ايام عذابهم
وان التابيد من مبدا معين ينتقض باعتبار الابتدا كما ينتقض باعتبار الانتها وهو لا وان شقوا
بعصيانهم فقد سعدوا بايمانهم ولا يقال فعلى هذا لو كان لم يكن قوله تعالى فمنهم شقي وسعيد
تقسيما صحيحا لان شرطه ان يكون صفة كل قسم منتفية عن قسيمه لان ذلك الشرط حيث
التقسيم لانفصال حقيقي او مانع من الجمع وههنا المراد ان اهل الموقف لا يخرجون عن القسمين
وان حالهم لا يخلوا عن السعادة والشقاوة وذلك لا يمنع اجتماع الامرين في شخص باعتبارين
وقيل انهم مفارقوا الجنة والنار مدة تعميرهم في الدنيا واحتباسهم في البرزخ وهو ما بين
الموت الى البعث ومدة وقوفهم للحساب ثم يدخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فيكون
المعنى خالدين في الجنة والنار الا هذا المقدار وقيل معناه لو شا ربك لاخرجهم منها ولكنه
لا يشا لانه تعالى حكم لهم بالخلود وقال الفرا هذا استثنا استثناه الله تعالى ولا يفعله
كقولك والله لاضربنك الا ان ارى غير ذلك وعزيمتك ان تضربه وقال اهل المعاني هذا
عبارة عن التابيد على عادة العرب يقولون لا اتيك ما دامت السموات والارض

ولا يكون كذا ما اختلف الليل والنهار يعنون ابدا وقيل ان اهل النار ينقلون منها للزمهرير
وغيره من العذاب احيانا وكذلك اهل الجنة ينعمون بما هو اعلى من الجنة وهو الفوز برضوان
الله تعالى ولقائه كما قال تعالى وعد الله المومنين والمومنات جنات تجري من تحتها
الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر وقرا حفص وحمزة
والكسائي سعدوا بضم السين على البنا للمفعول من سعده الله بمعنى اسعده والباقون
بفتحها وعطاء نصب على المصدر المؤكد اي اعطوا عطاء او الحال من الجنة ولما شرح الله تعالى
اقاصيص عبده الاوثان ثم اتبعه باحوال الاشقيا واحوال السعدا شرح للرسول صلى
الله عليه وسلم احوال الكفار من قومه فقال فلا تك يا محمد في مرية اي شك مما يعبد
هؤلاء المشركون من الاصنام انا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه
وسلم ما يعبدون الا كما يعبد اباؤهم اي كعبادتهم من قبل وقد عذبناهم وانا لموفوهم
مثلهم نصيبهم اي مثل حظهم من العذاب غير منقوص اي كاملا غير ناقص ولما ذكر تعالى في هذه الاية
اعراضهم عن الاتباع مع ما اتى به من المعجزات وانزل عليه من الكتاب سلاه باخيه موسى
عليه السلام بقوله ولقد اتينا موسى الكتاب اي التورية الجامعة للخير فاختلف فيه
اي الكتاب فامن به قوم وكفر به قوم كما اختلف هؤلاء في القران ولولا كلمة سبقت
من ربك بتاخير الحساب والجزا للخلايق يوم القيامة لقضي اي لوقع القضا بينهم
اي بين من اختلف في كتاب موسى في الدنيا فيما اختلفوا فيه بانزال ما يستحقه المبطل لتمييز
به المحق ولكن سبقت الكلمة ان القضا الكامل انما يكون يوم القيامة كما قال تعالى في سورة
يونس عليه السلام فما اختلفوا حتى جاءهم العلم الاية ولما كان الاختلاف قد يكون بغير
الكفر بين تعالى انه به لان كل طايفة من اليهود تنكر شكها فيه وفعلها فعل الشاك فقال
تعالى مؤكدا وانهم لفي شك اي عظيم محيط بهم منه اي من الكتاب او القضا مريب
اي موقع في الريب والتهمة والاضطراب مع ما راوا من الايات التي منها سماع كلام الله تعالى
ورؤية ما كان يتجلى في جبل الطور من خارق الاحوال وقيل الضمير في انهم راجع للكفار مكة
ومنه للقران وان كلا اي كل الخلايق وقوله تعالى لما ما زايدة واللام موطية لقسم مقدر
تقديره والله ليوفينهم ربك اعمالهم فيجازي المصدق على تصديقه الجنة ويجازي
المكذب على تكذيبه النار وقرا نافع وابن كثير وشعبة بتخفيف ان والباقون بالتشديد
وقرا ابن عامر وعاصم وحمزة بتشديد ميم لما والباقون بالتخفيف فايدة قال بعض الفضلا
انه تعالى لما اخبر عن توفية الاجرية على المستحقين في هذه الاية ذكر فيها سبعة انواع من
التوكيدات اولها كلمة ان وهي للتاكيد وثانيها لفظة كل وهي ام الباب في التاكيد وثالثها
اللام الداخلة على خبر ان تفيد التاكيد ايضا ورابعها حرف ما اذا جعلناه على قول الفرا
موصولا وخامسها المضمر وسادسها اللام الثانية الداخلة على جواب القسم وسابعها النون
المؤكدة في قوله تعالى ليوفينهم فجميع هذه الالفاظ السبعة الدالة على التوكيد في هذه
الكلمة الواحدة يدل على ان امر الربوبية والعبودية لا يتم الا بالبعث والقيامة وامر الحشر
والنشر ثم اردفه بقوله تعالى انه بما تعملون خبير وهو من اعظم المؤكدات فانه تعالى لا يخفى
عليه شي من اعمال عباده ففيه وعد للمحسنين ووعيد للمكذبين الكافرين ولما بين تعالى
امر الوعد والوعيد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فاستقم اي على دين ربك والعمل والدعا

اليه

اليه كما امرت والامر في ذلك للتاكيد فانه صلى الله عليه وسلم كان على الاستقامة لم يزل عليها
فهو كقولك للقايم قم حتى اتيك اي دم على ما انت عليه من القيام حتى اتيك وتوطئة
لقوله تعالى ومن تاب معك اي وليستقم ايضا على دين الله والعمل بطاعته من امن معك قال
عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاستقامة ان يستقيم على الامر والنهي ولا يروغ عنه روغان
الثعلب واشار صلى الله عليه وسلم الى شدة الاستقامة بقوله هود واخواتها وعن ابن
عباس رضي الله تعالى عنهما ما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم اية اشد ولا اشق من هذه
الاية وعن بعضهم رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له نروي عنك انك قلت
شيبتني هود واخواتها وعن بعضهم رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له
سورة هود فقال نعم فقلت باي اية قال قوله تعالى فاستقم كما امرت وعن سفيان
ابن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولا لا اسال عنه احدا
غيرك قال قل امنت بالله ثم استقم قال الامام الرازي ان هذه الاية اصل عظيم في الشريعة
وذلك لان القران لما ورد بالامر باعمال الوضوء مرتبة في اللفظ وجب اعتبار الترتيب فيها
لقوله تعالى فاستقم كما امرت ولما ورد الامر في الزكاة باداء الابل من الابل والبقر من البقر
وجب اعتبارها وكذا القول في كلما ورد امر الله تعالى به انتهى ولما كانت الاستقامة
هي التوسط بين الافراط والتفريط نهى عن الافراط بقوله تعالى ولا تطغوا اي تتجاوزوا
الحد فيما امرتم به او نهيتم عنه بالزيادة افراطا فان الله تعالى انما امركم ونهاكم لتهذيب انفسكم
لا لحاجته الى ذلك ولن تطيقوا ان تقدروا الله حق قدره والدين متين لن يشاده احد الا
غلبه كما ورد عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم قال ان الدين يسر ولن
يشاد الدين احد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوة والروحة
وشيء من الدلجة فقوله صلى الله عليه وسلم ان الدين يسر ضد العسر واراد به التسهيل في الدين
وترك التشديد فان هذا الدين مع يسره وسهولته قوي فلن يغالب ولن يقاوى وقوله
وسددوا اي اقصدوا السداد في الامر وهو الصواب وقاربوا اي اطلبوا المقاربة وهي
القصد الذي لا غلو فيه ولا تقصير والغدوة الرواح بكرة والرواح الرجوع عشاء والمراد منه
اعملوا بالنهار واعملوا بالليل ايضا وقوله واستعينوا بشيء من الدلجة اشارة الى تقليله
ولما نهى تعالى عن الافراط وهو الزيادة تصريحا افهم النهي ولما نهى الله تعالى عن الافراط وهو الزيادة
تصريحا افهم النهي عن التفريط وهو النقص عن المامور تلويحا من باب اولى ثم علل ذلك موكدا
تنزيلا لمن تفرط او مفرط منزلة المنكر فقال انه بما تعملون بصير اي عالم باعمالكم ايها الناس لا يخفى
عليه شيء منها فيجازيكم عليها ولا تركنوا اي تميلوا الى الذين ظلموا ادنى ميل فتمسكم النار
اي تصيبكم بحرها والنهي متناول للانحطاط في هواهم والانقطاع اليهم ومصاحبتهم ومجالستهم
وزيارتهم ومواهبتهم والرضا باعمالهم والتشبه بهم والتزيي بزيهم ومد العين الى زهرتهم
وذكرهم بما فيه تعظيم لهم وتامل قوله تعالى ولا تركنوا الى الذين ظلموا فان الركون هو الميل
اليسير وحكي ان الموفق صلى خلف الامام فقرا هذه الاية فغشي عليه فلما افاق قيل له فقال
هذا فيمن ركن الى من ظلم فكيف بالمظالم ولما خالط الزهري السلاطين كتب اليه اخ له في الدين
عافانا الله واياك ابا بكر من الفتن فقد اصبحت بحال ينبغي لمن عرفك ان يدعو الله لك ويرحمك
اصبحت شيخا كبيرا وقد اثقلتك نعم الله بما فهمك من كتابه وعلمك من سنة نبيه وليس كذلك

اخذ الله الميثاق على العلماء قال الله سبحانه وتعالى ليبينه للناس ولا تكتمونه واعلم ان اشر ما ارتكبت
واخف ما احتملت انك انست وحشة الظالم وتسهلت سبيل الغي بدنو من لم يود حقه
ولم تترك باطلا حين ادناك اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم وجسرا يعبرون عليك الى بلائهم
وسلما يصعدون فيك الى ضلالهم يدخلون الشك بك على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء
فما ايسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك وما اكثر ما اخذوا منك فيما افسدوا عليك من دينك
مما يومنك ان تكون ممن قال الله تعالى فيهم فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات
فسوف يلقون غيا فانك فيما امرت من الاجتهاد وضغط عليك من لا يفضل قدره ودينك فقد حكمه
سقم وبي نادى فقد حضر النفر البعيد وما على الله من مشقة في الارض ولا في السماء والسلام وقال
شعبان في جهنم واد لا يسكنه الا القراء الزائرون للملوك وعن الاوزاعي ما من شيء ابغض الى الله من عالم
يزور عاملا اي من الظلمة وعن محمد بن مسلمة الذباب على العسل رزقة احسن من قارئ على باب نفولا
وقال صلى الله عليه وسلم من عالط الظالم بالغا فقد احب ان يعصي الله في ارضه ولقد سيل سفيان
عن ظالم اشرف على الهلاك به برية هل يسعني شربة ماء فقال لا اعجل له تموت فقال دعه يموت وقوله تعالى
وما لكم من دون الله من ولي اي اعوان وانصار يمنعونكم من عذابه حال من قوله فتمسكم النار
اي فتمسكم النار وانتم على هذه الحالة ثم لا تنصرون اي لا تجدون من ينصركم ويخلصكم من عذاب
الله في الغيبة ففي الاية وعيد لمن ركن الى الظلمة بان تمسه النار فكيف يكون حال الظالم في نفسه
ولما امر الله تعالى بالاستقامة اردفه بالامر بالصلاة بقوله تعالى وأقم الصلاة وذلك يدل
على ان اعظم العبادات بعد الايمان بالله تعالى هو الصلاة وقوله تعالى طرفي النهار الغداة
والعشي اي الصبح والظهر والعصر وقوله تعالى وزلفا جمع زلفة اي طائفة من الليل اي المغرب والعشا
ان الحسنات كالصلوات الخمس يذهبن اي يكفرن السيئات اي الذنوب الصغائر لما رواه مسلم
انه صلى الله عليه وسلم قال الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر
وفي رواية اخرى ورمضان الى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر وعن ابي هريرة
انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ارايتم لو ان نهرا بباب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات
ما تقولون هل يبقى من درنه شيء قالوا لا يا رسول الله لا يبقى من درنه شيء فقال فذلك مثل الصلوات
الخمس يمحو الله بها الخطايا وعن جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار
غمر على باب احدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات وعن الحسن ان الحسنات قول العبد سبحان الله والحمد
لله ولا اله الا الله والله اكبر وسبب نزول هذه الاية ما رواه الترمذي عن ابي اليسر بن عمرو قال
اشتهى امراة من زوجها بعد النبي صلى الله عليه وسلم بعث فقالت بعني بدرهم تمرا قال
فاعجبني فقلت ان في البيت تمرا هو اطيب من هذا فالحقيني فدخلت معي البيت فاهويت
اليها فغلبتها فاتيت ابا بكر فذكرت ذلك له فقال استتر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له
ذلك فقال استر على نفسك وتب ولا تخبر احدا فاتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له
ذلك فقال اخنت رجلا غازيا في سبيل الله في اهله بمثل هذا حتى تمنى انه لم يكن اسلم الا تلك
الساعة حتى ظن انه من اهل النار قال واطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلا فاتى اوحى النبي
واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل الى قوله تعالى ذلك ذكرى للذاكرين اي عطفة للمتعظين
قال ابو اليسر فاتيته فقلت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا اضجابه يا رسول الله الهذا خاصة
ام للناس عامة قال بل للناس عامة قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وعن عبد الله بن مسعود

يحيى خير

الرجال

أن رجلا اصاب من امراة قبلة فاتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فنزلت فقال رجل يا رسول
الله الهذا خاصة فقال بل للناس كافة وعن معاذ بن جبل قال اتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال
يا رسول الله ادارت رجلا التى امراة ليس بينهما معرفة فليس ياتى الرجل الى امراة شيئا الا قد اتى هو
اليها الا انه لم يجامعها فقال فانزل الله تعالى هذه الاية وامره النبي صلى الله عليه وسلم ان يتوضا
ويصلي فقال معاذ فقلت يا رسول الله اهي له خاصة ام للمومنين عامة قال بل للمومنين عامة قال العلما الصغاير
من الذنوب تكفرها الاعمال الصالحة مثل الصلاة والصدقة والذكر والاستغفار ونحو ذلك
من اعمال البر واما الكباير من الذنوب فلا يكفرها الا التوبة النصوح ولها ثلاث شرايط الاول
الاقلاع عن الذنب بالكلية الثاني الندم على فعله الثالث العزم التام على انه لا يعود اليه
المستقبل فاذا حصلت هذه الشرايط صحت التوبة وكانت مقبولة ان شا الله تعالى والاشارة
في قوله تعالى ولكن ذكرى لما تقدم ذكره من قوله تعالى ما تشتهي كما امرنا الى ههنا وقيل هو اشارة الى
الهوا الذي هو قوله تعالى فاصبر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم اي فاصبر يا محمد على اذى قومك او على الصلاة
وهو كقوله تعالى وامر اهلك بالصلاة واصطبر عليها فان الله لا يضيع اجر المحسنين اي اجر
اعمالهم وعدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المعصوم ودليلا على ان الصلاة والصبر احسان
واتيانه لا يعتد بها الا ذوو الاخلاص والمراد بقوله تعالى ان الايم المتقدمين محل بهم عذاب الاستيصال
بين ان السبب فيه امران السبب الاول انهما كان فيهم قوم ينهون عن الفساد في الارض فقال
تعالى فلولا اي فهلا كان من القرون التي اهلكناها من قبلكم اولوا بقية اي ذوو رأي وخير وفضل ينهون عن الفساد في الارض
وسمي الفضل والجودة بقية لان الرجل يستبقي ما يخرجه اجوده وافضله فصار مثلا في الجودة والفضل
ويقال فلان من بقية القوم اي من خيارهم وبه فسر بيت الحماسة انذر شوائم يا بتي بقيكم ومنه قولهم
في المروات يا حبابا وفي الرجال يا فيا ويجوز ان تكون البقية بمعنى التقوى كالتقية بمعنى التقوى
اي فهلا كان منهم ذوا بقية على انفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه فان قيل حكي عن الخليل
انه قال كلما في القرآن من كلمة لولا فمعناه هلا الا التي في الصافات فالصاحب الكشاف وما
صحة هذه الحكاية من غير الصافات لولا ان فذاركبه نعمة من ربه ولولا رجال مومنون ولولا
ان ثبتناك كانتهى وقوله تعالى الا قليلا ممن انجينا منهم استثنا منقطع معناه ولكن قليلا
ممن انجينا من القرون نهوا عن الفساد وسايرهم تاركون للنهي السبب الثاني لنزول عذاب
الاستيصال قوله تعالى واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه اي ما انعموا فيه من الشهوات
واهتموا بتحصيل اسبابها واعرضوا عما وراء ذلك وكانوا مجرمين اي كافرين من تتمة قوله تعالى واتبع
الذين ظلموا ان كان معناه واتبعوا الشهوات كان معطوفا على مضمر لان المعنى الا قليلا ممن انجينا منهم
ممن انجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا شهواتهم فهو عطف على نهوا وان كان معناه واتبعوا
جزا الاترافهم فالواو للحال كانه قيل انجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاء اترافهم وقوله تعالى
وكانوا مجرمين عطف على اترفوا اي اتبعوا الاترافهم وكونهم مجرمين لان اتباع الشهوات مذموم بالاثام
او على اتبعوا اي اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك ثم بين تعالى انه ما اهلك اهل القرى ظلما بقوله
تعالى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم اي بشركهم وانهم مصلحون فيما بينهم والمعنى ان الله تعالى
لا يهلك اهل القرى بمجرد كونهم مشركين اذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم والحال ان
عذاب الاستيصال لا ينزل لاجل كون القوم مجرمين معتقدين للشرك بل انما تنزل ذلك العذاب
اذا اشاعوا في المعاملات وسعوا في الايذا والظلم ولهذا قال الفقها ان خوف الله تعالى عبادها

قال لا للمومنين عامة م

ان ذهب للمصنف من كلمة ... وقع الاجماع عليه

على المسامحة والمساهلة وحقوق العباد مبناها على الضيق والشح ويقال في الاثر الملك يبقى مع الكفر
ولا يبقى مع الظلم وانما نزل على قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عذاب الاستيصال لما حكى
الله تعالى عنهم من ايذا الناس وظلم الخلق **ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة** اي اهل ملة واحدة
وهي ملة الاسلام كقوله تعالى ان هذه امتكم امة واحدة وفي الاية دليل على ان الامر غير الارادة وانه تعالى
لم يرد الايمان من كل احد وان ما اراده يجب وقوعه والمعتزلة يحملون هذه الاية على مشيئة الالجا
والاجبار ولهذا قال الزمخشري يعني لاضطرهم الى ان يكونوا اهل ملة واحدة **ولا يزالون مختلفين**
اي على اديان شتى ما بين يهودي ونصراني ومجوسي ومشرك ومسلم فكل اهل دين من هذه الاديان
اختلفوا في دينهم ايضا اختلافا كثيرا لا ينضبط عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال تفترق اليهود على احدى وسبعين فرقة او اثنين وسبعين فرقة والنصارى
مثل ذلك وتفترق امتي على ثلاث وسبعين فرقة وفي رواية الا ان من قبلكم من اهل الكتاب
افترقوا على اثنين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فثنتان وسبعون
في النار وواحدة في الجنة والمراد بهذه الفرق اهل البدع والاهوا كالقدرية والمعتزلة والرافضة
والمراد بالواحدة هي فرقة السنة والجماعة الذين اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في اقواله وافعاله
فان قيل ما الدليل على ان الاختلاف في الاديان فلم لا يجوز ان يحمل على الاختلاف في الالوان
والالسنة والارزاق والاعمار اجيب بان الدليل عليه ما قبل هذه الاية وهو قوله تعالى ولو شاء ربك
لجعل الناس امة واحدة فيجب حمل الاختلاف على ما يخرجهم من ان يكونوا امة واحدة وما بعد هذه
الاية هو قوله تعالى **الا من رحم ربك** اي اراد لهم الخير فلا يختلفون فيه فيجب حمل هذا الاختلاف على معنى
يصح ان يستثنى منه ذلك وفي هذه الاية دلالة على ان الهداية والايمان لا يحصل الا بتخليق الله تعالى
لان تلك الرحمة ليست عبارة عن اعطا القدرة والعقل وارسال الرسل وانزال الكتب وازاحة
العذر فان كل ذلك حاصل في حق الكفار فلم يبق الا ان يقال تلك الرحمة هو انه سبحانه وتعالى خلق
فيه تلك الهداية والمعرفة **ولذلك خلقهم** اي خلق اهل الاختلاف للاختلاف واهل الرحمة
للرحمة روي عن ابن عباس انه قال خلق الله اهل الرحمة لئلا يختلفوا وخلق اهل العذاب لان يختلفوا
وخلق الجنة وخلق لها اهلا وخلق النار وخلق لها اهلا والحاصل ان الله تعالى خلق اهل الباطل
وجعلهم مختلفين وخلق اهل الحق وجعلهم متفقين فحكم على بعضهم بالاختلاف وهم اهل الباطل
ومصيرهم الى النار وحكم على بعضهم بالاتفاق وهم اهل الحق ومصيرهم الجنة ويدل لذلك قوله
تعالى **وتمت كلمة ربك** وهي **لاملان جهنم من الجنة** اي الجن **والناس اجمعين** وهذا صريح بان الله تعالى
خلق اقواما للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لاعمال اهل الجنة وخلق اقواما للضلالة والنار
فخذلهم ومنعهم من الهداية ولما ذكر تعالى القصص الكثيرة في هذه السورة ذكر نوعين من الفايدة
اولهما تثبيت الفواد بقوله تعالى **وكلا** اي وكل نبا **نقص عليك** وقوله تعالى **من انبا الرسل**
اي نخبرك به بيان لكل وقوله تعالى **ما نثبت به فوادك** بدل من كلا ومعنى تثبيت فواده
زيادة يقينه وطمانينة قلبه وثبات نفسه على ادا الرسالة وعلى الصبر واحتمال الاذى وذلك
لان الانسان اذا ابتلي بمحنة وبلية فاذا راى له فيه مشاركا خف ذلك على قلبه كما يقال المصيبة
اذا عمت خفت فاذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القصص وعلم ان حال جميع الانبيا
مع اتباعهم هكذا سهل عليه تحمل الاذى من قومه وامكنه الصبر عليه الفايدة الثانية قوله تعالى
وجاءك في هذه الحق اي في السورة وعليه الاكثر او في هذه الانبا المقتضية فيها وقال الحسن في هذه

الدنيا

الدنيا قال الامام الرازي وهذا بعيد غير لائق بهذا الموضع اي لانه اجمل للدنيا ذكر حتى يعود الضمير اليه فان قيل فذجاء الحق في غير هذه السورة قبل القرآن كله حق وصدق اجيب بانه انما خصها بالذكر تشريفا لها وموعظة وذكرى للمؤمنين وخصهم بالذكر لانتفاعهم بذلك بخلاف الكفار فذكر تعالى امور ثلاثة الحق والموعظة والذكرى اما الحق فهو اشارة الى البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة والمعاد واما الموعظة فهي اشارة الى الزجر عن الدنيا وتقبيح احوالها واما الذكرى فهي اشارة الى الارشاد الى الاعمال النافعة الصالحة في الدار الاخرة ولما بلغ تعالى الغاية في الانذار والاعذار والترغيب والترهيب اتبع ذلك بان قال لرسوله صلى الله عليه وسلم وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم اي حالتكم فيه وعيد وتهديد وان كانت صيغة صيغة الامر فهو كقوله تعالى لابليس واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وقرأ شعبة بعد النون بالالف على الجمع والباقون بغير الف على الافراد انا عاملون على حالتنا التي امرنا بها ربنا وانتظروا اي ما يعدكم من الشيطان به من الخذلان انا منتظرون اي ما حل بكم من نقم الله تعالى وعذابه نحو ما نزل على مثالكم وقيل انا منتظرون ما وعدنا الرحمن من انواع الغفران والاحسان ثم انه تعالى ذكر خاتمة شريفة عالية جامعة لكل المطالب الشريفة المقدسة فقال ولله غيب السموات والارض اي علم ما غاب فيهما فعلمه مختص به وتعالى فاذا رجع جميع المحاولة اليه حكم بها لا الى غيره وتوكل عليه اي اليه يرجع الامر كله اي امر الدنيا والاخرة وقرأ نافع وحفص تصم الياء وفتح الجيم على البناء للمفعول والباقون بفتح الياء وكسر الجيم والمكان اولى لرجاعة السير الى الله تعالى بعبوديته واخرها التوكل عليه قال تعالى فاعبده اي لا تشتغل بعبادة غيره وتوكل عليه اي ثق به في جميع امورك فانه كافيك وما ربك بغافل عما تعملون فيحفظ على العباد اعمالهم لا تخفى عليه منها خافية فيجزي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة قال بعضهم الحكمة في ختم هذه السورة بهذه الخاتمة الشريفة ان في سورة هود وقبل البيضا وفي هذه السورة ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق نوحا ومن كذب به وهود وصالح وشعيبا ولوطا وابراهيم وموسى وكان يوم القيامة من الشهداء حديث موضوع

سورة يوسف عليه السلام

سورة يوسف عليه السلام مكية كلها وهي مائة واحدى عشرة اية وعدد كلماتها الف وسبعمائة وست وسبعون كلمة وعدد حروفها تسعة الاف مائة وستة وسبعون حرفا بسم الله اي الذي وسع كل شيء رزقه وعلما الرحمن لجميع خلقه المبين لهم طريق الهدى الرحيم الذي خص حزبه بالابعاد عن مواطن الردى وقوله تعالى الر تقدم الكلام على اوائل السور اول سورة البقرة وقرأ ورش بين بين وابو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي بالامالة محضة والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول هذه السورة فعن سعيد بن جبير انه قال لما انزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يتلوه على قومه فقالوا لرسول الله لو قصصت علينا فنزلت هذه السورة فتلاها عليهم فقالوا لو حدثتنا فنزلت الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها فقالوا لو ذكرتنا فنزلت الم يان للذين امنوا ان تخشع قلوبهم لذكر الله وعن ابن عباس انه قال سألت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا حدثنا عن امر يعقوب وولده وشان يوسف فنزلت وقوله تعالى تلك اشارة الى اية هذه السورة اي تلك الايات التي انزلت اليك في هذه السورة المسماة بالمبين اية الكتاب القرآن المبين اي البين فيه الهدى والرشد والحلال والحرام المظهر للحق من الباطل الذي بينت فيه قصص الاولين والاخرين وشرحت فيه احوال المتعذبين انا انزلناه اي الكتاب قرانا عربيا اي بلغة العرب لكي تعقلوا معانيه وتفهموا ما فيه روي ان علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين اسألوا محمدا

لم انتقل آل يعقوب من الشام الى مصر وعن كيفية قصة يوسف فانزل الله تعالى هذه الآية وذكر فيها
انه تعالى عبر عن هذه القصة بالفاظ عربية ليتمكنوا من فهمها والتقدير انا انزلنا هذا الكتاب الذي
فيه قصة يوسف في حال كونه قرآنا عربيا وسمي بعض القرآن قرآنا لان قرآن اسم جنس يقع على الكل
والبعض لعلكم يا اهل مكة تعقلون اي ارادة ان تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ولو جعلناه
قرآنا عجميا لقالوا لولا فصلت آياته واختلف العلماء هل في القرآن شيء بغير العربية فقال ابو عبيدة
من زعم ان في القرآن لسانا غير العربية فقد اعظم على الله القول واحتج بهذه الآية انا انزلناه قرآنا
عربيا وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة ان فيه من غير لسان العربي من سجيل ومشكاة واليم
واستبرق ونحو ذلك وجمع بعض المفسرين بين القولين بان هذه الالفاظ لما تكلمت بها العرب
ودارت على السنتهم صارت عربية فصيحة وان كانت غير عربية في الاصل لكنهم لما تكلموا بها
نسبت اليهم وصارت لهم لغة وهو جمع حسن نحن نقص عليك احسن القصص اي احسن الاقتصاص
لانه اقتص على ابدع الاساليب والقصص اتباع الخبر بعضه بعضا واصله في اللغة من قص
الاثر اذا اتبعه وانما سميت الحكاية قصة لان الذي يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا والمعنى
انا نبين لك يا محمد اخبار الامم السالفة والقرون الماضية احسن البيان او قصة يوسف عليه السلام
خاصة وسماها احسن القصص لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا
وما فيها من سير الملوك والمماليك والغلمان ومكر النساء والصبر على اذى الاعداء وحسن التجاوز عنهم
بعد اللقاء وغير ذلك قال خالد بن معدان سورة يوسف ومريم يتفكه فيهما اهل الجنة في الجنة وقال
ابن عطاء لا يسمع سورة يوسف محزون الا استراح اليها بما اي بسبب ما اوحينا اي بايحائنا اليك يا محمد
هذا القرآن الذي قالوا فيه انه مفترى فنحن نتابع القصص القصة بعد القصة حتى لا يشك شاك
ولا يمتري ممتر انه من عند الله وان كنت من قبله اي ايحائنا اليك او هذا القرآن لمن الغافلين اي عن
قصة يوسف واخوته لانه صلى الله عليه وسلم انما علم ذلك بالوحي وقيل لمن الغافلين عن الدين
والشريعة وان هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وقوله تعالى اذ قال يوسف
لابيه بدل من احسن القصص او منصوب باضمار اذكر ويوسف اسم عبري وقيل عربي ورد بانه لو كان
عربيا لصرف وسئل ابو الحسن الاقطع عن يوسف فقال الاسف في اللغة الحزن والاسيف العبد واجتمعا
في يوسف فسمي به وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم
يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم وقوله يا ابت اصله يا ابي فعوض عن الياء التاء التانيث
لتناسبهما في الزيادة ولذلك قلبها ابن كثير وابن عامر هاء في الوقف ووقف الباقون بالتاء كالرسم
وفي الوصل بالتاء للجميع وفتح التاء في الوصل ابن عامر وكسرها الباقون اني رأيت احد عشر كوكبا
والشمس والقمر قال اهل التفسير رأى يوسف في منامه وكان ابن اثني عشر سنة وقيل سبع عشرة
وقيل سبع سنين ليلة الجمعة وكانت ليلة القدر كان احد عشر كوكبا نزلت من السماء ومعها الشمس والقمر
فسجدوا له فسروا الكواكب باخوته وكانوا احد عشر يستضاء بهم كما يستضاء بالنجوم والشمس والقمر بابيه
وامه فجعل الشمس للام لانها مؤنثة والقمر للاب لانه مذكر والذي رواه البيضاوي تبعا للكشاف
عن جابر من ان يهوديا قال للنبي صلى الله عليه وسلم اخبرني عن النجوم التي رآهن يوسف فاخبره باسمائها
فقال اليهودي اي والله وانها لاسماؤها قال ابن الجوزي انه موضوع وقوله رأيتهم لي ساجدين استئناف
بيان حالهم التي رآهم عليها فلا تكرير لان الرؤية الاولى تدل على انه شاهد الكواكب والشمس والقمر والثانية
تدل على مشاهدة كونها ساجدة له وقال بعضهم انه لما قال اني رأيت احد عشر كوكبا والشمس

والقمر

والقمر قيل له كيف رأيت فقال رأيتهم لي ساجدين وقال آخرون يجوز أن يكون أحدهما من الرؤية والآخر من
من الرؤيا وهذا القائل لم يبين أن أيهما تحمل على الرؤية وأيهما تحمل على الرؤيا قال الرازي فذكر قولا
مهملا غير مبين فإن قيل قوله رأيتهم وقوله ساجدين لا يليق إلا بالعقلاء والكواكب جمادات فكيف
جاءت ألفاظه المخصوصة بالعقلاء في حق الجمادات أجيب بأنها لما وصفت صارت كأنها تعقل وأخبر عنها
كما أخبر عمن يعقل كما قال تعالى في صفة الأصنام وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون وكما في قوله
تعالى يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم فإن قيل لم أفرد الشمس والقمر بالذكر مع أنهما من جملة الكواكب أجيب
بأنه أفردهما لفضلهما وشرفهما على سائر الكواكب كقوله تعالى والملائكة وجبريل وميكائيل وهل
المراد بالسجود نفس السجود أو التواضع كلاهما محتمل والأصل في الكلام حمله على الحقيقة قال أهل التفسير
إن يعقوب عليه السلام كان شديد الحب ليوسف عليه السلام فحسده إخوته لهذا السبب وظهر ذلك
ليعقوب فلما رأى يوسف هذه الرؤية وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له وخاف عليه حسدهم
وبغيهم قال له أبوه يا بني بصيغة التصغير للشفقة أو لصغر سنه على ما تقدم وقرأ حفص في الوصل
بفتح الياء والباقون بالكسر والتشديد للجميع لا تقصص رؤياك على إخوتك أي لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون
تأويلها فيكيدوا لك كيدا أي فيحتالوا في هلاكك فإن قيل لم لم يقل فيكيدوك كما قال وكيدوني
أجيب بأن هذه اللام تأكيد للصلة كقوله للرؤيا تعبرون وكقوله نصحتك ونصحت لك وشكرتك
وشكرت لك وقيل صلة كقوله لربهم يرهبون إن الشيطان للإنسان عدو مبين أي ظاهر العداوة
كما فعل بآدم وحواء فلا يألوا جهدا في تسويلهم وإثارة الحسد فيهم حتى يحملهم على الكيد وعن أبي قتادة
قال كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الرؤيا الصالحة من الله فإذا
رأى أحدكم ما يحبه فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به وليتفل عن يساره ثلاثا
وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وشرها فإنها لا تضره وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال إذا رأى أحدكم الرؤيا الصالحة يحبها فإنها من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها وإذا رأى
غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ بالله من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره وعن أبي
رزين العقيلي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءا من النبوة وهي على
رجل طائر ما لم يحدث بها فإذا حدث بها سقطت قال فأحسبه قال ولا يحدث بها إلا لبيبا
أو حبيبا وأضيفت الرؤيا المحبوبة إلى الله إضافة تشريف بخلاف الرؤية المكروهة وإن كانتا
جميعا من خلق الله تعالى وتدبيره وإرادته ولا فعل للشيطان فيها ولكنه يحضر المكروهة
ويرتضيها فيسن إذا رأى الشخص في منامه ما يحب أن يحدث به من يحب وإذا رأى ما يكره فلا يحدث
به وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم من شرها وليتفل ثلاثا وليتحول على جنبه الآخر
فإنها لا تضره فإن الله تعالى جعل هذه الأسباب سببا لسلامته من المكروه كما جعل الصدقة
سببا لوقاية المال قال الحكماء إن الرؤية الرديئة يظهر تعبيرها عن قريب والرؤية الجيدة
إنما يظهر تعبيرها بعد حين قالوا والسبب فيه أن رحمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الإعلام
بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل
متقدما على ظهوره بزمن طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حضور ذلك الخير
أكثر وأتم ولهذا لم تظهر رؤية يوسف عليه السلام إلا بعد أربعين سنة وهو قول أكثر المفسرين
وقال الحسن البصري كان بينهما ثمانون حين اجتمع عليه أبوه وإخوته وخروا له ساجدين
وكذلك أي وكما اجتباك ربك للاطلاع على هذه الرؤية العظيمة الدالة على شرف وعز وكمال

الدالة

نفس يجتبيك اي يختارك ويصطفيك ربك بالدرجات العالية واجتبا الله العبد تخصيصه
بفيض الهي فيحصل له منه انواع الكرامات بلا سعي من العبد وذلك مخصوص بالانبيا ولبعض
من يقاربهم من الصديقين والشهدا والصالحين وقوله ويعلمك كلام مستانف خارج عن
التشبيه والتقدير وهو يعلمك من بعض تاويل الاحاديث من الرويا وغيرها من كتب الله
تعالى والاخبار المروية عن الانبيا المتقدمين وكان يوسف عليه السلام عمله في تعبير الرويا
والتاويل ما يول اليه عاقبة الامر ويتم نعمته عليك بالنبوة قال ابن عباس لان منصب النبوة
اي مع الرسالة اعلا من جميع المناصب وكل الخلق دون درجة الانبيا فهذا من تمام النعمة عليهم
لان جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة والنبوة فالكمال المطلق والتمام المطلق في حق البشر
ليس الا النبوة والرسالة وقيل يجتبيك بالنبوة ويتم نعمته عليك بسعادات الدنيا وسعادات
الاخرة اما سعادات الدنيا فالاكثار من الاولاد والخدم والاتباع والتوسع في المال والجاه
والاجلال في قلوب الخلق وحسن الثنا والحمد واما سعادة الاخرة فالعلوم الكثيرة والاخلاق
الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى وعلى ال يعقوب اي اولاده وهذا يقتضي حصول
تمام النعمة لال يعقوب وتمام النعمة هو النبوة والرسالة كما مر فلزم حصولها لال يعقوب
وايضا ان يوسف عليه السلام قال اني رايت احد عشر كوكبا وكان تاويله احد عشر نفسا لهم
فضل وكمال ويستضي بعلمهم ودينهم اهل الارض لانه لا شي اضوا من الكواكب وبها يهتدى وذلك
يقتضي ان تكون جملة اولاد يعقوب انبيا ورسل فان قيل كيف يجوز ان يكونوا انبيا وقد اقدموا
على ما اقدموا عليه في حق يوسف عليه السلام اجيب بان ذلك وقع منهم قبل النبوة والعصمة
من المعاصي انما تعتبر بعد النبوة لا قبلها على خلاف فيه ان ربك عليم اي بليغ العلم حكيم اي بليغ الحكمة
وهي وضع الاشيا في اتقن مواضعها لقد كان في اي في خبر يوسف واخوته وهم احد عشر يهوذا
وروبيل وشمعون ولاوي وزبلون قال البقاعي بزاي موحدة ويشجر وامهم ليا بنت ليان
وهي ابنة خال يعقوب وولد له من سريتين احداهما زلفة والاخرى بلقم كذا قاله البغوي
وقال الرازي والاخرى بلهة اربعة اولاد واسما وهم دان ونفتالي قال البقاعي بنون مفتوحة
وفا ساكنة ومثنى فوقانية ولام بعدها يا وجاد واشر ثم توفت ليا فتزوج باختها راحيل
فولدت له يوسف وبنيامين وقيل جمع بينهما ولم يكن الجمع محرما حينئذ ايات اي علامات
ودلايل على قدرة الله وحكمته في كل شي للسايلين عن قصتهم قال الرازي ولمن لم يسال عنها
وهو كقوله تعالى في اربعة ايام سوا للسايلين وقيل ايات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
وذلك ان اليهود سالوه عن قصة يوسف وقيل سالوه عن سبب انتقال ولد يعقوب
من ارض كنعان الى ارض مصر فذكر لهم قصة يوسف فوجدوها موافقة لما في التورية
فعجبوا منه فكان دلالة على نبوته صلى الله عليه وسلم لانه لم يقرا الكتب المتقدمة ولم يجالس
العلما واصحاب الاخبار ولم ياخذ عنهم شيا فدل ذلك على ان ما ياتي به وحي سماوي اوحاه الله
تعالى اليه وعرفه به وهذه السورة تشتمل على انواع من العبر والمواعظ والحكم منها رويا
يوسف عليه السلام وما حقق الله تعالى فيها من حسد اخوته وما ال اليه امرهم في الحسد وما ال
اليه امره من الملك ومنها ما اشتمل على حزن يعقوب وصبره على فقد ولده وما ال اليه امره
من بلوغ المراد وغير ذلك من الايات التي اذا فكر فيها الانسان اعتبر وقرا ابن كثير اية على التوحيد
والباقون على الجمع اذ اي واذكر اذ قالوا اي بعض اخوة يوسف لبعض بعد ان بلغتهم الروية

وقالوا

وقالوا ما يرضى ان يسجد له اخوته حتى يسجد له ابواه ليوسف واخوه اي بنيامين احب الى ابينا
منا اللام لام الابتداء وفيها تاكيد وتحقيق لمضمون الجملة ارادوا ان زيادة محبته لهما امر ثابت
لا شبهة فيه وخبر المبتدا احب ووحد لان افعل من يسوى فيه بين الواحد وما فوقه مذكرا كان او
مؤنثا اذا لم يعرف او يضف وقيل اللام لام قسم تقديره والله ليوسف وانما قالوا اخوة وهم جميعا
اخوته لان امهما كانت واحدة والواو في قولهم ونحن عصبة واو الحال اي يفضلهما في المحبة
علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ونحن جماعة اقوياء نقوم بمرافقه فنحن
احق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما والعصبة والعصابة العشرة فما فوقها
وقيل الى الاربعين سموا بذلك لانهم جماعة يعصب بهم الامور ويستكفون النوائب ان ابانا
لفي ضلال اي خطا مبين اي بين في ايثاره حب يوسف واخيه علينا والقرب المقتضي للحب في كلنا
واحد لانا في النبوة سواء ولنا مزية تقتضي تفضلنا وهي انا عصبة لنا من النفع له والذب عنه
واكتساب ما ليس لهما تنبيه ههنا سؤالات الاول ان من المعلوم ان تفضيل بعض الاولاد على بعض
يورث الحقد والحسد فلم قدم يعقوب عليه السلام على ذلك اجيب بانه انما فضلهما في المحبة
والمحبة ليست في وسع البشر فكان معذورا فيه ولا يلحقه بسبب ذلك لوم الثاني كيف اعترضوا
على ابيهم فانهم ان كانوا مؤمنين بنبوته فلا يعترضون عليه والا فيوجب الكفر اجيب بانهم كانوا
مؤمنين بنبوته لكن جوزوا ان يكون فعله باجتهاد ثم ان اجتهادهم اداهم الى تخطئة ابيهم في ذلك
الاجتهاد ولكونهم اكبر سنا واكثر نفعا او غاب عنهم ان تخصيصهما بالبر كان لوجوه احدها ان امهما
ماتت ثانيها انه كان في يوسف من اثار الرشد والنجابة ما لم يجده في سائر اولاده ثالثها انه وان كان صغيرا
الا انه كان يخدم اباه بانواع من الخدمة اعلا واشرف مما كان يصدر عن سائر الاولاد والحاصل
ان هذه المسئلة كانت اجتهادية وكانت مخلوطة بميل النفس وموجبات الفطرة فلا يلزم من
وقوع الاختلاف فيها طعن احد الخصمين في دين الاخر الثالث انهم نسبوا اباهم الى الضلال المبين
وذلك مبالغة في الذم والطعن اجيب بان المراد الضلال عن رعاية مصالح الدنيا والبعد
عن طريق الرشد لا الضلال عن الدين الرابع ان قولهم ليوسف واخوه احب الى ابينا منا محض
حسد والحسد من امهات الكبائر لا سيما وقد اقدموا بسبب ذلك الحسد على امور مذمومة
منها قولهم اقتلوا يوسف او اطرحوه ارضا اي بحيث يحصل الياس من اجتماعه بابيه
ومنها القاؤه في ذل العبودية ومنها انهم ابقوا اباهم في الحزن الدائم والاسف العظيم ومنها اقدامهم
على الكذب وكل ذلك يقدح في العصمة والنبوة اجيب بما تقدم ان ذلك كان قبل النبوة وقرا نافع
وابن كثير وهشام والكسائي بضم التنوين من مبين في الوصل والباقون بالكسر فان وقف القارئ على
مبين وامتحن في الابتداء ابتدا بالضم للجميع وقولهم يخل لكم وجه ابيكم جواب الامر اي يصف لكم
وجه ابيكم فيقبل بكليته عليكم ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا ينازعكم في محبته احد وقولهم وتكونوا
مجزوم بالعطف على يخل او منصوب باضمار ان من بعده اي قتل يوسف او طرحه قوما صالحين
بان تتوبوا الى الله تعالى بعد فعلكم فانه يعف عنكم وقال مقاتل يصلح امركم فيما بينكم وبين ابيكم
قال قائل منهم هو يهوذا وكان احسنهم رايا فيه وهو الذي قال فلن ابرح الارض وقيل روبيل
وكان اكبرهم سنا لا تقتلوا يوسف والقوه اي اطرحوه في غيابة الجب اي في اسفله وظلمته والغيابة
كل موضع ستر شيئا وغيبه عن النظر قال القائل ان انا يوما غيبتني غيابتي فسيروا بسيري
في العشيرة والاهل اراد غيابة حفرته التي يدفن فيها والجب البير الكبيرة التي ليست مطوية سميت

BULAC

جبا لانها قطعت قطعا ولم يحصل فيها شي غير القطع من طي او ما اشبهه وانما ذكر الغيابة مع الجب
دلالة على ان المشير اشار بطرحه في موضع مظلم من الجب لا يلحقه نظر الناظرين قال بعض اهل العلم
انهم عزموا على قتله وعصمهم الله تعالى رحمة بهم ولو فعلوا لهلكوا جميعا اجمعين واختلف
في موضع ذلك الجب فقال قتادة هو ببيت المقدس وقال وهب هو بارض الاردن وقال
مقاتل هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب وقرا نافع بالف بعد اليا والتا على الجمع والباقون
بغير الف على التوحيد يلتقطه اي ياخذه بعض السيارة جمع سيار اي المبالغ في السير وذلك الجب
كان معروفا يرد عليه كثير من المسافرين فاذا اخذوه ذهبوا به الى ناحية اخرى فنستريح منه
ان كنتم فاعلين اي ما اردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ولما اجمعوا على التفريق بين يوسف
وابيه بضرب من الحيل قالوا اعمالا للحيلة في الوصول اليه مستفهمين على وجه التعجب لانه
كان احس منهم الشر فكان يحذرهم عليه يا ابانا ما لك لا تامنا على يوسف والحال انا له
لناصحون اي قايمون بمصلحته وبحفظه تنبيه اتفق القرا على اخفا النون الساكنة عند
النون المتحركة واتفقوا ايضا على ادغامها مع الاشمام ارسله معنا غدا اي الى الصحرا نرتع
اي نشبع في اكل الفواكه ونحوها واصل الرتع اكل البهايم في الخصب في زمن الربيع ويستعار للانسان
اذا اريد به الاكل الكثير ونلعب روي انه قيل لابي عمرو كيف يقولون نلعب وهم انبيا
فقال لم يكونوا يومئذ انبيا وايضا جاز ان يكون المراد به الاقدام على المباحات لاجل انشراح
الصدر كما روي انه صلى الله عليه وسلم قال لجابر فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك وايضا كان لعبهم
الاستباق والانتضال والغرض منه المحاربة مع الكفار والدليل عليه قولهم انا ذهبنا
نستبق وانما سموه لعبا لانه في صورته وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بالنون فيهما والباقون
باليا وسكن العين ابو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وكسرها الباقون في الوصل
ولقنبل وجه اخر وهو ان يثبت اليا في يرتع بعد العين وقفا ووصلا وانا له لحافظون
اي بليغون له في الحفظ حتى نرده اليك سالما قال ابو حيان وانتصب غدا على الظرف وهو ظرف
مستقبل يطلق على اليوم الذي يلي يومك وعلى الزمن المستقبل من غير تقييد واصل
غد غدو فحذفت لامه انتهى ثم ان يعقوب عليه السلام اعتذر لهم بعذرين الاول ما حكاه الله
تعالى عنه بقوله قال اني ليحزنني ان تذهبوا به اي ذهابكم به والحزن هنا الم القلب بفراق المحبوب
لانه كان لا يقدر ان يصبر عنه ساعة وقرا نافع بضم اليا وكسر الزاي والباقون بفتح اليا وضم
الزاي والثاني قوله واخاف ان ياكله الذيب وانتم عنه غافلون بالرتع واللعب او لقلة
اهتمامكم به وكان يعقوب عليه السلام راى في اليوم ان الذيب شد على يوسف فكان يحذره فمن هذا
ذكر ذلك وكانه لقنهم العلة وفي امثال العرب البلا موكل بالمنطق والمراد به الجنس وكانت ارضهم
كثيرة الذياب قالوا مجيبين عن الثاني بما يلين الاب لارساله موكدين لتطييب خاطره دالين
على القسم بلامه لئن اكله الذيب ونحن اي والحال انا عصبة اي جماعة عشرة رجال بمثلهم تعصب
الامور وتكفى الخطوب واجابوا عن القسم بما اغنى عن جواب الشرط بقولهم انا اذا اي اذا كان هذا
لخاسرون اي كاملون في الخسارة لانا اذا ضيعنا اخانا فنحن لما سواه من اموالنا اشد تضييعا
واعرضوا عن جواب الاول لان عقدهم وغيظهم كان بسبب العذر الاول وهو شدة حبه له
فلما سمعوا ذلك المعنى تغافلوا عنه واقله ان يقولوا ما وجه الشح بفراقه يوما والسماح بفراقنا
كل يوم وقرا الذيب ورش والسوسي والكسائي بابدال الهمزة يا وقفا ووصلا وحمزة وقفا لا وصلا

والمقاتلة

والباقون

والبافون بالبر وصلا ووقفا وقوله تعالى فلما ذهبوا به اضمار واختصار تقديره فارسله معهم فلما ذهبوا واجمعوا ان يجعلوه في غيابة الجب اي وعزموا على الغاية فيها على الغاية فيها ولابد من تقدير جواب ولهذا لم يجعلوه فيها وحذف الجواب في القرآن كثير بشرط ان يكون المذكور دليلا عليه وههنا كذلك قال وهب وغيره من اهل السير والاخبار ان اخوة يوسف قالوا له مالك لا تأمنا على يوسف ونحن له ناصحون ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون فقال انه يحزنني ان تذهبوا به واخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون قالوا لئن اكله الذئب ونحن جماعة انا اذا لخاسرون فلما رأوا ان لا سبيل لهم اليه قالوا يا ابانا ما لك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون ارسله معنا غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون قال اني ليحزنني ان تذهبوا به واخاف ان يأكله الذئب وانتم عنه غافلون قالوا لئن اكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون فلما رأى منهم الجد قال ارسله معكم غدا يرتع ويلعب وانا له لحافظون

بعد هذا الفعل الذي فعلوه الا الاعتذار جاؤا ابا هم دون يوسف عشاء في ظلمة الليل ليلتبس امرهم في وجوههم اذا رآهما في ضياء النهار فصد ما جاءوا به من الاعتذار وقد فعل ليتطلب الحاجة في الليل قال الحياني العشاء من ولا تعتذروا بالنهار من ذنب فتنتجلوا في الاعتذار يبكون والبكاء جريان الدمع من العين وآلة تدل على انه لا بد لي على الصدق لاختلاف التصنع ورد ان امرأة حاكمت الى شريح فبكت فقال الشعبي يا ابا امية آمن ان تبكي قال فذا جاءوا ابوهم يبكون وهم ظلمة كذبة لا ينبغي للانسان ان يقضي الا بالحق وعند ذلك فزع يعقوب عليه السلام فقال اهل اصابكم في غنمكم شيء قالوا لا قال فما فعل يوسف قالوا يا ابانا انا ذهبنا نستبق قال الزجاج يسابق بعضنا بعضا نقصد في الرمي ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لا سبق الا في خف او نصل او حافر يعني بالنصل الرمي وقيل بالعدو ليس في ابينا شرع عدوا وتركنا يوسف احالنا عند متاعنا اي ما كان معنا مما نحتاج اليه في ذلك الوقت من ثياب وزاد ونحو ذلك فاكله اي فشت عن افراده ان اكله الذئب وما اي والحال انك مما انت بمؤمن اي بمصدق لنا ولو كنا صادقين عندك لانا متهمنا في هذه القضية لمحبة يوسف عندك فكيف وانت تسيء الظن بنا وقيل لا تصدقنا لانه لا دليل لنا على صدقنا وان كنا صادقين عند الله ولما علموا انه لا يصدقهم بغير امارة جاؤا على قميصه اي يوسف عليه السلام بدم كذب قال الفراء يكذوب فيه الا انه وصفه بالمصدر على تقدير ذي كذب او مكذوب به اطلق عليه المصدر مبالغة لانه غير مطابق للواقع لانهم ادعوا انه دم يوسف عليه السلام والواقع انه دم سخلة ذبحوها ولطخوه بذلك الدم قال القاضي ولعل غيرهم في نزع قميصه عند القاءه في غيابة الجب ان يفعلوا هذا توكيدا لصدقهم اذ بعيد ان يفعلوا ذلك طمعا في نفس القميص ولا بد في المعصية من ان يقترن بها الحذلان فلو حضر قوة مع لطخه بالدم لكان الا يتهم افوى فلما شاهد يعقوب عليه السلام القميص صحيحا علم كذبهم وروي ان يعقوب عليه السلام اخذ القميص منهم والقاه على وجهه وبكا حتى خضب وجهه بدم القميص وقال ما رات كالدم ذئبا احلم من هذا اكل ابني ولم يمزق قميصه بنيه على قميصه تحليم النصب على الظرفية كانه قيل وجاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بامحامل ولا يصح ان تكون حالا متعذمة لان حال المجرور لا تتقدم عليه قال الشعبي قصة يوسف كلها في قميصه وذلك انهم لما القوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على ابيه ولما شهد الشاهد قال ان كان قميصه قد من قبل ولما اتى بقميصه الى يعقوب قال الفي على وجهه ارتد بصيرا ثم ذكر فقال لهم اخوف يوسف لما ذكروا ذلك الكلام واختلجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم قال يعقوب عليه السلام بل سولت لكم انفسكم امرا فعلتموه به واختلفوا في السبب الذي عرف به كذبهم كما ذكرنا من وجوه الاول انه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم والثاني كان عالما بانه حي لانه عليه الصلاة والسلام قال ليوسف وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك فذلك دليل على كذبهم في ذلك القول الثالث انه لما رأى قميصه صحيحا قال اكذبتم لو اكله الذيب لخرق قميصه وقيل انه لما قال ذلك قال بعضهم بل قتلته اللصوص فقال كيف قتلوه وتركوا قميصه وهم الى قميصه احوج منهم الى قتله فلما اختلفت اقوالهم عرف بسبب ذلك كذبهم وقوله فصبر جميل مرفوع بالابتداء لكونه موصوفا وخبره محذوف والتقدير فصبر جميل اولى من الجزع ومنهم من اضمر المبتدا قال الخليل الذي افعله صبر جميل وقال قطرب معناه فصبري صبر جميل وقال الفراء هو صبر جميل وعن الحسن ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقال صبر لا شكوى فيه ممن بث لم يصبر كما قال يعقوب

انما

انما اشكو بثي وحزني الى الله وقال مجاهد فصبر جميل اي من غير جزع وقال الثوري ما رأيت الصبر
الا لاحدث بوجهك ولا بجبينك ولا تزكي نفسك وروي ان يعقوب عليه السلام كان قد سقط حاجبا
وكان يرفعهما بخرقة فقيل له ما هذا فقال لطول الزمان وكثرة الاحزان فاوحى الله تعالى اليه
يا يعقوب بما تشكوني فقال يا رب بخطيئة اخطأتها فاغفرها لي وروي عن عائشة في قصته
الافك انها قالت والله لئن حلفت لا يصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل
يعقوب وولده والله المستعان على ما تصفون فانزل الله تعالى في عذرها ما انزل
وقوله فصبر جميل يدل على ان الصبر على قسمين قد يكون جميلا وقد يكون غير جميل فالصبر
الجميل ان يكتم الم هذا البلاء من الخلق فاستغاثة من شهود نور البلاء يمنعه من الاشتغال
بالشكاية عن البلاء ولذلك قيل المحبة التامة لا تزداد بالوفاء ولا تنقص بالجفاء لانها لو ازدادت
بالوفاء لكان المحبوب هو النصيب والحظ وموصل النصيب لا يكون محبوبا بالذات بل بالعرض فهذا
هو الصبر الجميل واما الصبر لا لله رضا بقضاء الله تعالى بل كان لمقاصد اخر اغراض فذلك الصبر
لا يكون جميلا فان قتل الصبر على قضاء الله تعالى واجب واما الصبر على ظلم الظالمين فغير
واجب بل الواجب ازالته لا سيما في الضرر المتعدي الى الغير فلم صبر يعقوب على ذلك ولم يبالغ في البحث
مع شدة رغبته وحضور يوسف عنده بالقوة وكان من بيت خطير شريف وكان الناس
يعرفونه ويعتقدون فيه اجيب بانه يحتمل ان يكون يعقوب عليه السلام لم يطلع على حقيقة الحال
فلم اجر والله لو بالغ في البحث لربما اقدموا على ايذائه وهم يمكنوه من الطلب والفحص فرأى ان الاصوب
الصبر والسكوت وتفويض الامر بالكلية الى الله تعالى وقال والله المستعان اي المطلوب منه
العون على ما تصفون اي تذكرون من امر يوسف والمعنى ان اقدامكم على الشر لا يكون الا بعون
الله تعالى لان الدواعي النفسانية تدعوه الى الشر والجزع وهي قوية والدواعي الروحانية تدعوه
الى الصبر فكان المحاربة وقعت بين الصفين فلم تحصل اعانة الله لم تحصل الغلبة فقوله
فصبر جميل يجري مجرى قوله اما كان تعبد وقوله والله المستعان على ما تصفون يجري مجرى
قوله واياك نستعين ولما اراد الله تعالى خلاص يوسف من الجب بين سببه بقوله تعالى
وجاءت سيارة وهم القوم المسافرون سموا بذلك لانهم يسيرون في الارض وكانوا رفقة
من مدين يريدون مصر فاخطأوا الطريق فانطلقوا يهيمون على غير طريق فهبطوا على ارض
فيها جب يوسف وكان الجب في قفر بعيد عن العمران لم يكن الا للرعاة ترد اليه ماشيتها فلما
فعذف حسن الغني يوسف فيه فلما نزل الوارد استدلوا جلا فقال تم مالك من في عن الطلب الما فذلك
قوله تعالى فارسلوا واردهم اي الذي يرد الماء ليستقي منه والوارد هو الذي يتقدم الرفقة
الى الماء فيهيئ الارشية والدلاء فادلى اي ارسل دلوه في البئر يقال ادليت الدلو اذا ارسلتها
في البئر ودلوتها اذا اخرجتها والدلو معروف والجمع الدلاء فلما ارسلها تعلق بالحبل يوسف عليه
السلام فلما خرج اذا هو بغلام احسن ما يكون قال صلى الله عليه وسلم اعطي يوسف شطر
الحسن ويقال انه ورث ذلك الحال من جدته سارة وكانت جدته قد اعطيت شدس الحسن
قال من اشتق ذهب يوسف واسمه بشلى الحسن وحكى الثعلبي عن كعب الاحبار قال كان يوسف
حسن الوجه جعد الشعر ضخم العينين مستوي الخلق ابيض اللون غليظ الساعدين والعضدين
والساقين ضخم البطن صغير السرة وكان اذا تبسم رأيت النور من ضواحكه واذا تكلم رأيت
شعاع النور من ثناياه لا يستطيع احد وصفه كان حسنة ضوائها عند الليل وكان يشبه آدم عليه

السلام يوم خلقه الله وصوره قبل ان يصيب الخطيئة فلما راه مالك بن ذعر قال يا بشرى هذا غلام
نادى البشرى بشارة لنفسه كانه قال تعالى فهذا اوانك وعن الاعمش انه قال دعا امراة اسمها
بشرى وعن السدي ان المدلي نادى صاحبه وكان اسمه بشرى فقال يا بشرى كما قرا عاصم وحمزة والكسائي
فانهم قرؤا بحذف اليا بعد الالف والباقون باثبات اليا وقيل ذهب به فلما دنى من اصحابه
صاح بذلك وروي ان جدران البير كانت تبكي على يوسف حين اخرج منها واختلف في ضمير
واسروه الى من يعود وفيه قولان الاول انه عايد الى الوارد واصحابه اخفوا من الرفقة انهم
وجدوه في الجب وذلك انهم قالوا ان قلنا للسيارة التقطناه شاركونا وان قلنا اشتريناه
سالمونا الشركة فالاصوب ان نقول ان اهلا لنا جعلوه بضاعة عندنا على ان نبيعه لهم
بمصر والثاني ونقل عن ابن عباس انه قال واسروه يعني اخوة يوسف اسروا شانه وذلك ان
يهوذا كان ياتيه بالطعام كل يوم فجاه يوما فلم يجده في البير واخبر اخوته فطلبوه فاذا هم بمالك
بن ذعر واصحابه نزول فاتوهم فاذا هم بيوسف فقالوا هذا عبد لنا ابق منا وتابعهم
على ذلك يوسف لانهم توعدوه بالقتل بلسان العبرانية قال الرازي والاول اولى لان قوله
واسروه بضاعة يدل على ان المراد انهم اسروه حال ما حكموا بانه بضاعة وذلك انما يليق بالوارد
لا باخوة يوسف تنبيه البضاعة القطعة من المال تجعل للتجارة من بضعت الشي
اذا قطعته قال الزجاج وبضاعة منصوب على الحال كانه قال واسروه حال ما جعلوه
بضاعة ولما جعل تعالى وقوعه في هذا البلا سببا لوصوله الى مصر ثم تادت وقايعه الى ان
صار ملك مصر وحصل ذلك الذي راه في النوم فكان العمل الذي عمله الاعدا في دفعه عن ذلك
المطلوب صيره تعالى سببا لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال تعالى والله عليم اي بالغ
العلم بما يعملون اي لم يخف عليه ما فعلوه بيوسف وابيهم وشروه اي باعوه اذ قد يطلق
لفظ الشرى على البيع يقال شريت الشي بمعنى بعته وانما حمل هنا الشرى على البيع لان الضمير
في وشروه وفي كانوا فيه من الزاهدين يرجع الى شي واحد وذلك ان اخوته زهدوا فيه فباعوه
وقيل ان الضمير يعود الى مالك بن ذعر واصحابه وعلى هذا يكون لفظ الشرا على بابه
وقال محمد بن اسحاق ربك اعلم اخوته باعوه ام السيارة واختلف في معنى قوله تعالى
بثمن بخس فقال الضحاك اي حرام لان ثمن الحر حرام وسمي الحرام بخسا لانه مبخوس البركة
وقال ابن مسعود اي زيوف وقال عكرمة اي بثمن قليل ويدل لهذا قوله تعالى دراهم معدودة
لانهم كانوا في ذلك الزمان لا يزنون ما كان اقل من اربعين درهما انما كانوا ياخذون
ما دونها عددا فاذا بلغت اربعين وهي اوقية وزنوها واختلفوا في عدد ذلك الدراهم
فقال ابن عباس كانت عشرين درهما فاقتسموها درهمين درهمين وعلى هذا لم ياخذ
اخوه بنيامين شقيقه منها شيا وقال مجاهد كانت اثنين وعشرين درهما
وقال عكرمة اربعين درهما وكانوا اي اخوة يوسف فيه اي يوسف من الزاهدين لانهم لم يعلموا
منزلته عند الله تعالى ومعنى الزاهد قلة الرغبة يقال زهد فلان في كذا اذا لم يرغب فيه
واصله القلة يقال رجل زهيد اذا كان قليل الطمع وقيل كانوا في الثمن من الزاهدين لانه
لم يكن قصدهم تحصيل الثمن وانما كان قصدهم تبعيد يوسف عن ابيه وقيل الضمير في كانوا
للسيارة لانهم التقطوه والملتقط للشي يتهاون به خايف من انتزاعه مستعجل في بيعه
لا جرم باعوه باوكس الاثمان وورد في الاخبار ان مالك بن ذعر انطلق هو واصحابه

بيوسف

بيوسف وتبعهم اخوته يقولون استتر تفز امنه لانه ابق قد هموا به حتى انوا مصر وعرضه مالك
على البيع فاشتراه قطفير او اطفير وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر والملك يومئذ الريان
ابن الوليد رجل من العمالقة وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف وملك بعده قابوس
ابن مصعب فدعاه يوسف الى الاسلام فابى واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة
واقام في منزله ثلاث عشرة سنة واستوزره ريان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة
واتاه الله تعالى العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشر
سنة وقيل كان الملك في ايامه فرعون موسى عاش اربعمائة سنة بدليل قوله تعالى ولقد جاءكم
يوسف من قبل بالبينات ثم قيل فرعون موسى من اولاد فرعون يوسف واشتراه العزيز
بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين ابيضين وقال وهب بن منبه قد مت القيارة بيوسف
مصر فدخلوا به السوق ليعرضوه في البيع فتدافع الناس في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه
ذهبا ووزنه فضة ووزنه مسكا وحريرا وكان وزنه اربعمائة رطل وكان عمر يوسف سبع
عشرة سنة وقيل ثلاث عشرة سنة فابتاعه فطفير ابن عم الملك لهذا الثمن فذلك قوله
تعالى وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته واسمها زليخا وقيل راعيل اكرمي مثواه قال
الرازي واعلم ان شيئا من هذه الروايات لم يدل عليه القرآن ولم يثبت الصافي خبر صحيح
وتفسير كتاب الله تعالى لا يتوقف على شيء من هذه الروايات فالاولى بالعاقل ان يحترز عن
ذكرها اه تنبيه ولكن البغوي ذكرها وتبعه على ذلك جماعة من المفسرين واللام في امرأته متعلقة
بقال لا باشتراه والمثوى موضع الاقامة اي اجعلي منزله ومقامه عندنا كريما اي حسنا
مرضيا بدليل قول يوسف عليه السلام انه ربي احسن مثواي والمراد تفقديه بالاحسان
وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ساكنة في كنفنا قال المحققون
انما العزيز امر امرأته باكرام مثواه دون اكرام نفسه يدل على انه كان ينظر اليه على سبيل الاجلال
والتعظيم وهو كما يقال سلام الله على المجلس العالي والمأمر باكرام مثواه علل ذلك بان قال
عسى ان ينفعنا اي بقوم باصلاح امانتنا او نبيعه بالربح ان اردنا بيعه او نتخذه ولدا
اي نتبناه وكان خصوصا الكسر له ولد قال ابن مسعود افرس الناس ثلاثة العزيز فرأى يوسف
حيث قال لامرأته اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا وابنة شعيب حين قالت لابيها في موسى
استأجره وابو بكر في عمر حين استخلفه وكذلك اي وكما نجيناه من القتل والحبس وعطفنا
عليه قلب العزيز مكنا ليوسف في الارض اي ارض مصر قال البقاعي التي هي كالارض كلها
لكثرة منافعها بالتمكنة فيها لتمكنه من الحكم بالعدل والنبوة وقوله تعالى ولنعلمه من
تأويل الاحاديث اي تعبير الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكنا اي لنمكنه والواو
زائدة والله غالب على امره اي امر الامر الذي يريده لا يمنعه تعالى فعال لما يريد ولا دافع
لقضائه ولا مانع عن حكمه فلو ارضه وسمائه او على امر يوسف اراد اخوته قتله فغلبت
امره عليهم واراد وا ان يلتقطه بعض السيارة ليبتذ رسه اشد فغلب امره فتحاشه
وتعالى وظهر امره واشتهر بينهم باعوه ليكون مملوكا فغلب امره تعالى حتى صار ملكا
وسجد وا بين يديه ثم اراد وا ان يضروا اباهم ويطيبوا قلبه حتى يخلو لهم وجهه فغلب
امره تعالى فاظهره على مكرهم واحتالت عليه امرأة العزيز لتحدعه عن نفسه فغلب امر
تعالى فعصمه حتى لم يهم بسوء بل هرب منه غاية الهرب ثم ابذلت جهدها في اذلاله

افرس

والقاء التهمة عليه ما بي لله تعالى الا اعزازه وبراءته ثم اراد يوسف عليه السلام ذكر النساء في ليلة
فغلبه امره تعالى فانساه ذكره حتى مضى الاجل الذي ضربه الله تعالى لهم وكم بين امر كان في هذه
الغضة وفي غير بقاء يرشد الى انه لا امر لغيره ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ان الامر كله بيد
الله او ان اكثر الناس لا يعلمون ما هو صانع بيوسف وما يريد منه فمن تامل في احوال الدنيا
وعجايبها هو الحاضر عرف ويتيقن ان الامر كله لله وان قضاء الله تعالى غالب ولما بين تعالى ان
اخوته اساءوا اليه وصبر على تلك الشدايد والمحن ومكنه في الارض انبعه الاعلام بتمام النعمة
عليه بقوله تعالى ولما بلغ اشده اي منتهى شبابه وقوته وشدته تقول العرب بلغ فلان اشده
اذا انتهى شبابه وقوته وهذا اللفظ مستعمل في الواحد والجمع يقال بلغ اشده ويبلغوا
اشدهم وهو ثلاث وثلاثون سنة وقال السدي بلغ ثلاثين سنة وقال الضحاك عشرين سنة
وقال الكلبي الاشد ما بين ثماني عشرة الى ثلاثين سنة وقيل اقصاه اثنان وستون سنة
قال الاطباء ان الانسان يحدث في اول الامر ويتزايد كل يوم شيئا فشيئا الى ان ينتهي الى غاية الكمال
ثم ياخذ في التراجع الى ان ينتهي الى العدم والمحاق كالقمر اتيناه حكما اي حكمة وهو العلم المورث للعمل
او حكما بين الناس وعلما اي علم تاويل الاحاديث وقيل المراد بالحكم النبوة والرسالة وتقدم
ان قوله تعالى واوحينا اليه انه وحي حقيقة قال الرازي فلا بعد ان يقال ان ذلك الوحي
اليه في ذلك الوقت لا اجل بعثته الى الخلق بل لاجل تقوية قلبه وازالة الحزن عن صدره
ولاجل ان يبشر انه سيحضر جبريل عليه السلام وكذلك اي ومثل ذلك الجزاء الذي جزيناه به
نجزي المحسنين قال ابن عباس يعني الموحدين وعنه ايضا المهتدين وقال الضحاك يعني
الصابرين على المصايب كما صبر يوسف وعن الحسن من احسن عبادة ربه في شبيبته اتاه الله
الحكمة في كهولته ولما اخبر تعالى ان سبب النعمة عليه احسانه انبعه دليله فقال تعالى وراودته
التي هو في بيتها اي امراة العزيز راودت يوسف عن نفسه لانها لما رات انه في غاية الجمال والحسن
طمعت فيه وقيل انه رجل كان عاجزا عن المراودة فعالجته من اراد يرود اذا جاء وذهب
كان المعنى خادعت عن نفسه ان فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد
ان يخرجه من يده يحتال ان يغلبه عليه ويا خذه منه وهي عبارة عن التحيل لموافقتها اياها
وغلقت الابواب اي اطبقتها وكانت سبعة والتشديد للتكثير او للمبالغة في الاشاق
لان مثل هذا الفعل لا يكون الا في تستر وخفية لا سيما اذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد
وقالت له هيت اي تهيا وتعال وقيل هيت لغة حورانية وقيل لغة قبطية وقيل عربية
الواحدي هيئت لك اشم للفعل يقول هيت وهيه وهيا وهيئا بمعنى واحد وهي لغة اهل الحجاز
وقرا نافع وابن عامر بكسر الهاء والباقون بالفتح وقرا هشام بعد الهاء همزة ساكنة والباقون
بياء ساكنة وقرا ابن كثير بضم التاء وهشام بضم التاء وفتح الهاء والباقون بالفتح قال
لها يوسف عليه السلام معاذ الله اي اعوذ بالله واعتصم به والجا اليه مما تدعوني اليه
انه اي الذي يشتريني ربي اي سيدي احسن مثواي اي اكرم منزلي فلا اخونه في اهله
وقيل انه اي الله ربي احسن مثواي اي اقامني ومن بلا الخاني انه لا يفلح الظالمون
اي ان فعلت هذا الفعل فانا ظالم ولا يفلح الظالمون ولقد همت به وهم بها اي قصدت مخالطته
وقصد مخالطتها والهم بالشر قصده والعزم عليه ومنه الهمام وهو الذي اذا هم بشيء امضاه والمراد
بهمه ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختياري وذلك مما لا يدخل تحت التكليف

الجب هم

بل

بل الحقيق بالمدح والاجر الجزيل من الله تعالى من كف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم
وبهذا قال البعض اهل الحقايق الهم هم ثابت وهو اذا كان معه عزم وعقد ورضى
مثل هم امراة العزيز فالعبد ماخوذ به وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير
اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام والعبد غير ماخوذ به مالم يتكلم او يعمل
كما روى عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم قال لله عز وجل
اذا احدث عبدي بان يعمل حسنة فانا اكتبها حسنة مالم يعملها فاذا عملها فانا اكتبها
له بعشرة امثالها واذا احدث بان يعمل سيئة فانا اغفرها مالم يعملها فاذا عملها فانا
اكتبها له سيئة قال في الكشاف ويجوز ان يريد بقوله وهم بها شارف ان يهم بها كما تقول
الرجل قتلته لو لم اخف الله يريد مشارفة القتل ومشافهته كانه شرع فيه لولا ان رأى
برهان ربه اي الذي اتاه اياه من الحكم والعلم اي لهم بها لكنه كان البرهان حاضرا لديه
بعين قلبه بزيغان رؤيته مع كونه في سن الشباب فلولا المراقبة لتقمر بها لتوفر الداعي غير ان نور الشهود دمغها اضلا
وهذا التقدير هو اللايق بمقامه عليه السلام مع انه الذي يدل عليه اساليب هذه الايات
من جعله من المخلصين والمحشين المصروف عنهم السوء وان استحق حبسا اليما من ذلك مع قيام
التقلع على كذب ما تضمنه مقالها ما جزاء من اراد باهلك سوءا الاية من مطلق الارادة وشمع
ما يتحتم بتقدير ما ذكر بعد لولا في خصوص هذا التركيب من اساليب كلام العرب فانه يجب
ان يكون المقدر بعد كل شرط من معنى ما دل عليه ما قبله وهذا مثل قوله تعالى ان كادت
لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها اي لابدت به وانما صرف عن التكلف مما يعارض ذلك
من تفسير هم يوسف بانه حل التكة وجلس منها مجلس المجامع وبانه حل سراويله وقعد بين
شعبها الاربع وهي مشتغلة على فعلها ومن تفسير البرهان بانه سمع صوتا اياك واياها
فلم يكترث لسماعه ثانيا فلم يعمل به فسمع ثالثا امر عنه فلم يجمع منه حتى مثل له يعقوب
عاضا على انمله وقيل ضرب بيده على صدره فخرجت شهوته من انامله وقيل كل ولد ليعقوب ولد
له اثنا عشر ولدا الا يوسف فانه ولد احد عشر ولدا من اجل ما نقص من شهوته حين هم وقيل
صيح به يا يوسف لا تكن كالطاير كان له ريش فلما زنى فقد الريش وقيل بدت كف فنما
بينها ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم راى
فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم يكترث ثم راى فيها واتقوا يوما ترجعون
فيه الى الله فلم يجمع فنادى الله تعالى الجبار يا ادرك عبدي قبل ان يدرك الخطيئة فاخط جبريل
وهو يقول يا يوسف تعمل عمل السفهاء وانت مكتوب في ديوان الانبياء وقيل راى تمثال العزيز
وقيل قامت المراة الى صنم هناك فستترت منه وقالت استحي ان يراني فقال يوسف استحييت
ممن لا يسمع ولا يبصر ولا استحي من السميع العليم بذات الصدور فلم يقع منه شيء على احد منهم
مع ان هذه الاقوال التي روعت عصم اذا جمعت تنافضت وتكاذبت قال الزمخشري
وبعد او نحوه مما يورده اهل الحشو والجبر الذين دينهم لهجت الله وانبيايه فاحذرهم كل
الحذر ولكن فما اراد بهم ما يودي الى ان يكون نزل الله السورة التي احسن القصص في القرآن العزيز
المبين ليقتدي بقصصهم من بعثه الله فيما ذكروه وانقل العدل والتوحيد ليسوا من هذا لانهم ورثة انبياء
بعد الله بسبيل واطال في رد ذلك وكذا فعل الرازي وقيل وتم بها اي بزجرها وعظها وقيل

بيجن

BULAC

هم بها اي عزما امتناعه منها وقيل هم بها اي خطر لها وقيل هم بضربها ودفعها وقيل هذا كله قبل نبوته وقد ذكر بعضهم ما لا يليق بالعاقل ان يلتفت اليه مثل يوسف مثيل شهوة حتى نباه الله تعالى فالذي عليه محققو ائمتنا ان همها بمقتضى الطبيعة كل من رآه عن حسنه كذلك اي مثل ذلك التثبيت نثبته في كل امر نصرفه عنه السوء اي الهم بالزنا وغيره والفحشاء اي الزنا وغيره وقيل السوء مقدمات الفاحشة من القبلة والنظر بالشهوة والفحشاء هو الزنا فكانه قيل لم نفعل به هذا فقيل انه من عبادنا اي الذين عظمناهم المخلصين اي هو في عبادنا الذين هم خير صرف لاخالص عشق وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام بعد الخاء والباقون بالفتح قال الرازي فورود ه باسم الفاعل دال على كونه اتيا بالطاعات والقربات مع صفة الاخلاص وورود ه باسم المفعول يدل على ان الله تعالى استخلصه واصطفاه لحضرته وعلى كلا اللفظين فانه مراد لا الالفاظ طبعا على كونه غيرها مما اضافوه اليه وهذا دافع قول ابليس لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين شهادة من ابليس ان يوسف عليه السلام بريء من الهم فمن نسبه الى الهم ان كانوا من اتباع دين الله فليعتقدوا شهادة الله على طهارته وان كانوا من اتباع ابليس وجنوده فليعتقدوا شهادة ابليس على طهارته قال ولعلهم يقولون كما في اول الامر تلامذة ابليس الا الاردنا وتحيرنا عليه في التسفاهة كما قال الجوزي وكنت فتى من جند ابليس فارتقى بي الامر حتى صار ابليس من جندي فلو مات فتلي كنت احسن بعدة طريق فسبحان من يحسن بعدي ثم ذكر سبحانه مبالغة في امتناع يوسف بالجد في الهرب دليلا على اخلاصه وانه لم يهم اصلا فقال واستبقا الباب اي وجد المنافقة بغاية الرغبة من كل منهما هذا للهرب منها وهذا لطلبه فكل منهما يجد في السبق فالحقيقة عند الباب الاقصى مع انه كان قد استغلق بقوة الرجولية وقوة الله اعنه الى الغرار الى الله تعالى ولكن عاقه انقطاعها للمكر بكون الابواب كانت مغلقة فكان يشتغل بفتحها فتغلقت بادني ما وصلت اليه من قميصه وهو ما كان من ورائه خوف فوات ما شغله بتغلقها به مع اعراضه هو عنها وهربه منها فتحه فاراد الخروج فمنعته ولم تزل تنازعه حتى قدت اي شقت قميصه وكان القد من دبر اي الناحية الخلف منه وانقطعت منه قطعة فبقيت في يدها والفيا اي وجدا سيدها اي زوجها تغليبا وهو العزيز تقول المراة لبعلها سيدي ولم يقل سيدنا لان ملك يوسف لم يصح فلم يكن سيدا على الحقيقة لدى اي عند الباب حال كونها مع ابن عم المراة فان قيل كيف وجد الباب قد جعد في قوله وغلقت الابواب اجيب بانه اراد الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص فقد روي كعب الاحبار ان يوسف لما هرب جعل مراوغ العقل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب فلما رات المراة بن عمها هابته وخافت التهمة فسابقت يوسف بالقول وقالت لزوجها ما جزاء من اراد باهلك سوءا اي فاحشة زنا او غيره ثم خافت عليه ان يقتل وذلك لشدة حبها له فقالت الا ان يسجن اي يحبس في السجن ويمنع التصرف او عذاب اليم اي مولم بان يضرب بالسياط ونحوها وانما بدات بالسجن قبل العذاب لان المحب لا يشتهي ايلام المحبوب وانما ارادت ان يسجن عندها يوما او يومين ولم ترد السجن الطويل فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال الحبب ان يجعل من المسجونين الا ترى ان فرعون هدد موسى بقوله لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين فلما سمع يوسف عليه السلام مقالتها قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه اي بصدر الغيبة لاستحيائه من مواجهتها بالمكاروه او ضمير خطاب راودتني عن نفسي اي طلبت مني الفاحشة فابيت وفررت منها وذلك ان

يوسف

يوسف عليه السلام ما كان يريد ان يذكر هذا القول ولا يهتك ستر هذا ولكن لما قالت ما قالت ولطخت عرضه احتاج الى ازالة هذه التهمة عن نفسه وصدقه لعمري فيما قال لا يحتاج الى بيان اكثر من الحال الذي كان فيه وهو انهما عند الباب ولو كان الطلب منه لكان الاولى محلها الذي تجلس فيه وهو صدر البيت واشرف موضع فيه وايضا كان عند الهم والعبد لا يمكنه ان يتسلط على مولاه الى هذا الحد وايضا ان المراة رثت نفسها على اكمل الوجوه واما يوسف فما كان عليه اثر من اثار تزيين النفس وكان الحاق هذه الغشة بالمراة اولى ثم انه تعالى اظهر ليوسف عليه السلام دليلا اخر يقوي تلك الدلايل المذكورة ويدل على انه برئ من الذنب وان المراة هي المذنبة وهو قوله تعالى وشهد شاهد من اهلها اي وحكم حاكم من اهل المراة واختلفوا في هذا الشاهد فقال سعيد بن جبير والضحاك كان صبيا في المهد انطقه الله تعالى كرامة ليوسف روى انه صلى الله عليه وسلم قال تكلم في المهد اربعة صغار شاهد يوسف وابن ماشطة بنت فرعون وعيسى بن مريم وصاحب جريج الراهب رواه الامام احمد وفي الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصاحب جريج وصبي كان يرضع امه فمر راكب حسن الهيئة فقالت امه اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني مثله وهذا الاعتبار صار واحتسنه وزاد الثعلبي سادسا وهو يحيى بن زكريا بورود غير معاد لكن ولعل الحصر فيما ذكر في الحديث كان قبل العلم بالزيادة قلت انا قض واوصلهم السيوطي الى احد عشر ونظمهم فقال • تكلم في المهد النبي محمد ويحيى وعيسى والخليل ومريم • وشاهد جريج ثم شاهد يوسف • وطفل على الاخدود ذي الدمية انمى وطفل مر عليه مومس بامة الى ان يقال لها تزني ولا تتكلم • وماشطة في عهد فرعون طفلها وفي زمن الهادي المبارك يختم وقال طائفة عظيمة من المفسرين انه كان لها ابن عم وكان رجلا حكيما وافقوا على ذلك الا انه قال ابن عباس انه كان مع الملك ويدل على هذا قوله فلما سمع العزيز الجلبة من وراء الباب وسمع الهمس الا انا لا ندري ايهما قدام صاحبه ولكن ان كان قميصه قد من قبل اي من قدام فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر اي من خلف فكذبت وهو من الصادقين لانه لو لا ادبار معها واقبالها عليه لما وقع ذلك فعرف بسيدها فاضحة ذلك بلا شهة كما قال تعالى فلما اي سيدها قميصه اي يوسف عليه السلام قد من دبر قال لها انه من كيدكن اي قطعه وقد قطع مصدقة وكذبها موكدا لاجل انكارها انه اي هذا القذف له من كيدكن معشر النساء والكيد طلب الانسان بما يكره ان كيدكن عظيم والعظيم ما ينفق صدور غيره عنه حسا او معنى فان قيل كيف وصف كيد النساء بالعظم مع قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا وهلا كان مكر الرجال اقوى من مكر النساء اجيب بان الانسان ضعيف بالنسبة لخلق ما هو اعظم منه كخلق السموات والارض والجبال وبان كيدهن ادق من كيد الرجال والطف واخفى لان الشيطان علمهن لنقصهن اقدر ومكرهن هذا الباب اعظم من كيد جميع البشر لان لهن من المكر والحيل والكيد في اتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال وهذا الباب ولان كيدهن في هذا الباب يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال ولما ظهر للقوم براءة يوسف عن ذلك الفعل المنكر حكى تعالى انه قال يوسف اي يا يوسف اعرض عن هذا الحديث فلا تذكره لاحد حتى لا يشيع ويشتهر بين الناس ثم التفت الى المراة فقال لها واستغفري لذنبك اي توبي الى الله تعالى مما رميتني به يوسف من الخطيئة وهو بريء منها انك كنت من الخاطئين

اي الاثمين قال ابو بكر الاصم ان ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار وقيل ان القائل
المذكور هو الشاهد فان قيل كيف قال من الخاطئين بلفظ التذكير اجيب بانه قال ذلك تغليبا
للذكور على الاناث او ان المراد انك من نسل الخاطئين فمن ذلك النسل سوى هذا العرق الخبيث
فيك ثم شاع الخبر واشتهر وقال نسوة اي وقال جماعة من النساء وكن خمسا امراة الساقي وامراة
الخباز وامراة صاحب الدواب وامراة صاحب السجن وامراة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المراة
وتانيثه غير حقيقي ولذلك لم يلحق فعله تا التانيث وقوله في المدينة اي مدينة مصر
ظرف لقال اي اشعن الحكاية في مصر او صفة نسوة وقيل هي مدينة عين الشمس امرات العزيز
وانما اضفنها الى زوجها ارادة الاشاعة للخبر لان النفس الى سماع اخبار اولي الاخطار اميل
ويردن قطفير والعزيز الملك بلسان العرب ورسم امرات في هذه السورة بالتا المجرورة
فوقف عليها ابن كثير وابو عمرو والكسائي بالها والباقون بالتا واما الوصل فهو بالتا للجميع
تراود فتاها اي عبدها الكنعاني يقال فتاي وفتاتي اي عبدي وجاريتي عن نفسه اي تطلب
منه الفاحشة وهو يمتنع منها قد شغفها حبا اي شق شغاف قلبها وهو حجابه حتى وصل الى
فوادها وحبا نصب على التمييز وقيل الشغاف جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب قال النابغة
وقد حال هم دون ذلك والح مكان الشغاف تبتغيه الاصابع وقرا نافع وابن كثير وعاصم باظهار دال
قد عند الشين والباقون بالادغام انا لنراها اي نعلم امرها علما هو كالرؤية في ضلال اي خطا مبين
اي بين ظاهر حيث تركت ما يجب على امثالها من العفاف والستر بسبب حبها اياه فلما
سمعت زليخا بمكرهن اي قولهن وانما سمي ذلك مكرا لوجوه الاول ان النسوة انما ذكرت ذلك
الكلام استدعا لرؤية يوسف والنظر الى وجهه لانهن عرفن انهن اذا قلن ذلك عرضت يوسف
عليهن ليتمهد عذرها عندهن الثاني ان زليخا اسرت اليهن حبها ليوسف وطلبت منهن
كتمان هذا السر فلما اظهرن السر كان ذلك مكرا الثالث انهن وقعن في غيبتها والغيبة انما تذكر
على سبيل الخفية فاشبهت المكر ارسلت اليهن تدعوهن لتتم عذرها عندهن قال
وهب اتخذت مادبة ودعت اربعين امراة من اشراف مدينتها فيهن الخمس واعتدت
اي اعدت لهن متكا اي طعاما يقطع بالسكين وهو الاترج وانما سمي الطعام متكا لانه يتكا عنده
قال جميل فظللنا بنعمة واتكانا وشربنا الحلال من قلله والمتكا ما يتكا عليه عند الطعام
والشراب والحديث لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المسرفين ولذلك جا
النهي عنه في الحديث ان ياكل الرجل متكا وقال صلى الله عليه وسلم لا اكل متكا وقيل انها زينت
البيت بالوان الفواكه والاطعمة ووضعت الوسايد ودعت النسوة اللاتي عيرنها بحب
يوسف وآتت اي اعطت كل واحدة منهن سكينا اي لتاكل بها وكان عادتهن ان ياكلن اللحم والفواكه
بالسكين وقالت زليخا ليوسف اخرج عليهن اي النسوة وكان يخاف من مخالفتها فخرج عليهن
يوسف وكانت قد زينته واحتسبته في مكان اخر وقرا ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر التا
في الوصل والباقون بالضم واما الابتدا فجميع القرا يبتدون الهمز بالضم فلما راينه اي النسوة
اكبرنه اي اعظمنه ودهشن عند رؤيته اتفق الاكثرون على انهن انما اكبرنه بحسب الجمال
الفائق والحسن الكامل وكان يوسف قد اعطي شطر الحسن وقال عكرمة كان فضل يوسف
في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وروي انه صلى الله عليه وسلم قال
رايت يوسف ليلة اسري بي الى السما كالقمر ليلة البدر ذكره البغوي بغير سند وقال

اي النبذ

اسحق

اسحاق كان يوسف اذا سار في ازقة مصر تبلا لا وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس من الماء
عليها ويقال انه ورث حسن ادم يوم خلقه الله تعالى قبل ان يخرج من الجنة وقيل ورثه
الجمال من جدته سارة وقيل الكبر بفتح الضاد المعجمة يعني الحيض والها للتشكك يقال كبرت المرأة اذا
حاضت وحقيقته دخلت في الكبر لانها بالحيض تخرج من حد الصغر الى حد الكبر وكان
ابا الطيب اخذ من هذا التفسير فقال رحمت اللئيم واستردا الجمال بترفع فان لحنت حاضت
في الحدور الحوائق وقال المعنى قال الكميت لمارانه الخيل من رأس شاهقة صهلن
وامترن الى المدفقا وقال الزاري انما اكبرنه لانهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة
واثار الخضوع والاخبات وشاهدن فيه شهادة الهيبة وهيبة ملكية وهي عدم
الالتفات الى المطعوم والمنكوح وعدم الاعتداد بهن وكان جمال العظيم مغمورا في
تلك الهيبة فوقع الرعب والمهابة منه في قلوبهن وقطعن ايديهن اي جرحنها بالسكاكين
التي معهن وهن يحسبن انهن يقطعن اللحم ولم يجدن الالم من فرط الدهشة يقال
رفل وهب مائة جماعة منهن وقلن حاش لله اي تنزيها لله ان الرسم بغير الف بعد
الشين وقرأ ابو عمرو في الوصل دون الوقف بالف بعد الشين والباقون بغير الف وقفا
ووصلا ما هذا اي يوسف بشرا واعمال ما عمل ليس في اللغة القدى الحجازية ويدل على هذه
الاية وقوله تعالى ما هن امهاتهم ان اي ما هذا الا ملك كريم اي على الله لما حواه من الحسن
الذي لا يكون عادة في النسمة البشرية فان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة
البالغة من خواص الملائكة قال اي زليخا للنسوة لما رأين يوسف وهشن عند رؤيته
فذلكن اي فهذا هو الذي لمتنني فيه اي في محبته قبل ان تتصوريه حق تصوره ولم تصوره تلك
مما عاينتن لعذرتني ثم انها صرحت بما فعلت فقالت ولقد راودته عن نفسه
فاستعصم اي فامتنع من ذلك الفعل الذي طلبت وانما صرحت بذلك لانها علمت انه
لا حيلة منه علمها منهن وانهن عذلنها بهن مما اصابها عند رؤيته ثم انها قالت ولئن لم يفعل
ما آمره اي وان لم يطاوعني فيما ادعوته اليه ليسجنن اي ليتعاقبن بالحبس وليكونا من الصاغرين
اي الاذلاء المهانين فقال النسوة ليوسف اطع مولاتك فيما دعتك اليه فاختار يوسف
السجن على ما دعت اليه فلذلكن قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه وان كان هذا مما
تشتهيه النفس وذاك مما تكرهه نظرا الى العاقبة فان عاقبة الاول فيها الندم في الدنيا والعقاب
في الاخرة والثاني فيه المدح في الدنيا والثواب الدائم في الاخرة فان قيل ان الدعاء كان
منهن فلم اضافه الهن جميعا اجيب بانهن خوفنه عن مخالفتها ورين له مطاوعتها وقيل
انهن دعونه الى انفسهن قال بعض العلماء لو لم يقل السجن احب الي لم يبتل بالسجن والاولى
بالعبد ان يسأل الله العافية ولذلك ورد في رسول الله صلى الله عليه وسلم على من كان يسأل الصبر
يقوله له سألت الله البلاء فاسأله العافية رواه الترمذي الا اي وان لم تصرف عني
كيدهن اي بما اردن مني بالتثبيت على العصمة اصب اي امل اليهن يقال صبا فلان الى
كذا اذا مال اليه واستحلاه وأكن من الجاهلين اي من السفهاء بارتكاب ما يدعونني
اليه فان الحكيم لا يفعل القبيح وفي ذلك دليل على ان من ارتكب شيئا انما ارتكبه عن جهالة
وغفلة عند ذلك الدعاء ولذا قال تعالى فاستجاب له ربه اي فاجاب الله تعالى دعاءه
الذي تضمنه هذا الثناء الاكرم يعني الفتوح عن التصريح كما اذا اثنى عليك المرء يوما

كفاه من تعرضه النا فصرف عنه كيده عنه اى فتنته بالعصمة حتى وطن نفسه على مشقة السجن
واثرها على اللذة المتضمنة للعصيان انه هو السميع اى لدعا المحبين اليه العليم اى للضمائر
والنيات فيجيب ما صح فيه القصد وطاب منه العزم ثم بدا اى ظهر لهم اى للعزيز واصحابه
من بعد ما رأوا الآيات اى الدلالات على براءة يوسف كشهادة الصبى وقد القميص وقطع النساء ايديهن
واستعصامه عنهن ليسجننه حتى حين ينقطع فيها كلام الناس وذلك ان المرأة قالت
لزوجها ان هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم اني راودته عن نفسه وانا لا اقدر على
اظهار عذري فاما ان يأذن لي فاخرج واعتذر واما ان تحبسه كما حبستني بعندك ذلك ورفع
ذلك الى العزيز ان الاصلح حينئذ حبسه حتى ينقطع عن السنة الناس ذكر هذا الحديث وحتى تقتل
القضية فسجنه تنبيه في فاعل بدا اربعة اوجه احسنها انه ضمير يعود على السجن بفتح
السين اى ظهر لهم حبسه والثاني ان الفاعل ضمير المصدر المفهوم من الفعل وهو بدا اى بدا
لهم ايضا بدا والثالث انه مصدر بدا على اللفظ اى بدا لهم رأى والرابع انه محذوف وليسجننه
قام مقامه اى بدا لهم السجن فحذف واقيم الجملة مقامه وليست الجملة فاعلا لان الجمل لا تكون
كذلك وقيل الحين هنا خمس سنين وقيل تسع سنين وقال مقاتل بن سليمان الحبس يوسف
اثنتي عشرة سنة قال الرازي والصحيح ان هذه المقادير غير معلومة وانما العبرة المعلوم
انه بقي محبوسا مدة طويلة لغرض تعالى واذكر بعد ائمة وعن عكرمة قال قال الرجل وراى
للعزيز تالله لتن تركت هذا العبد يعتذر الى الناس ويفيض عليهم امره فانه كذب في بيته لا يخرج الى الناس
فانه يخرج للناس عذرهم وفضحوا اهلك فامر به فسجن ودخل معه السجن فتيان وهما غلامان
كانا للوليد بن مروان العمليقي ملك مصر اكبرهما صاحب طعامه والاخر شرابه
صاحب سره وانما غضب الملك عليهما لحسبانهما وكان السبب فيه ان جماعة من اشراف مصر اتوا الملك
بالملك واغتيالهم وقتله فصمموا العزم على الفتك به لا على انه بسم الملك في طعامه وشرابه
فاجابا الى ذلك ثم ان الشاقي قدم وترجع عن ذلك وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام فلما حضر
الطعام بين يدي الملك قال الشاقي لا تأكل ايها الملك فان الطعام مسموم فقال الخباز لا تشرب
فان الشراب مسموم فقال الملك للشاقي اشرب فشرب فلم يضره وقال للخباز كل من طعامك فابى
فطرح من ذلك الطعام دابة فهلكت فامر بحبسهما وكان يوسف عليه السلام حين دخل السجن
قال لاهله اني اعبر الاحلام فقال احد الفتيين لصاحبه هلم فلنجرب هذا العبد العبراني فتزيا
له ورويا فقال ترجمتهما ورأيا ايات والله تعالى ما ليجربا يوسف وقال لهما بل كانا رأيا حقيقة
فاخبراه بما رأيا فقص عليهما رؤياهما قال احدهما وهو صاحب شراب الملك اني ارى اعصر خمرا
فان قيل كيف يعقل عصر الخمر اجيب عن ذلك بثلاثة اقوال احدها ان يكون المعنى اعصر عنب
خمرا اى العنب الذي يكون عصيره خمرا فحذف المضاف الثاني اذ العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول اليه
فقال فلان يطبخ دبسا ومعه يطبخ عصيرا الثالث قال ابو صالح ازد وعمان تسمي العنب
الخمر فوقعت هذه اللفظة الاهل مكة فاستطرفوها قال الضحاك نزل القرآن بلسان جميع العرب
وذلك انه قال انه رأى في المنام كأن في بستان واذا فيه شجرة فيها ثلاثة اعناق عليها ثلاثة عناقيد
من عنب فجنيتها وعصرتها بكأس الملك بيدي فسقيته اياه وسقيت الملك فشربه وقال الاخر اني
أراني احمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه وذلك انه قال رأيت في المنام كأني فوق رأسي ثلاث

سلال

سبلا في الجبر والوان الطعام وسباع الطير تهشم منه بنيانا اي اخبرنا بتاويله اي بتفسيره
انا نراك من المحسنين اي في علم التعبير لانه فن غير لم نخطئ كما قاله وعلمني من تاويل
الاحاديث وقيل في امر الدين لانه كان شديد المواظبة على الطاعات من الصوم والصلاة
فانه كان يصوم النهار ويقوم الليل كله ومن كان كذلك فانه يوفق لما يقوله في تعبير الرؤيا وفي سائر
الامور وقيل في حق السر كما في الاصحاب لانه كان يعود مرضاهم ويتفقد حزينهم واذا ضاق
على احدهم وسع عليه واذا احتاج احدهم جمع له شيأ قيل انه لما دخل السجن وجد فوقها اسفل
بلاويه وانقطع رجاويه وطال حزنهم فجعل يسليهم ويقول اصبروا واصبروا وابشروا وتوجروا ويقولون
بارك الله فيك يا فتى ما احسن وجهك وخلقك وحديثك لقد بورك لنا في جوارك فمن
انت يا فتى قال انا يوسف بن صفي الله يعقوب بن نبي الله اسحاق بن خليل الله ابراهيم
فقال له عاملي السجن والله يا فتى لو استطعت خليت سبيلك ولكن سأحسن
جوارك فكن اي بنون السجن شيت وروي ان العتبين لما رايا يوسف قالا لقد
حببناك حين رايناك فقال لهما يوسف انشدكما الله اني لاجتباني فوالله ما احبني احد قط
الا دخل علي من حبه بلا لقد احبتني عمتي فدخل علي بلا ثم احبني ابي فغلبت والحب
واحبتني امراة العزيز فحسبت فلما قضا علية الرويا كره يوسف ان يعبر لهما ما سالاه لما
علم في ذلك من المكروه على احدهما مالك معرضا عن سوالهما اخذا في غير من اظهار المعجزة
في الدعا الى التوحيد لا ياتيكما طعام ترزقانه اي ومنامكما الا نبأتكما بتاويله اي في اليقظة
قبل ان ياتيكما تاويله وقيل اراد به في اليقظة يقول لا ياتيكما طعام ترزقانه من منامكما لكما
تطعمانه الا اتيتكما باويله بقدره ولونه والوقت الذي يصل اليكما قبل ان يصل وايطعام
الكهنة وقيل كلامكم وهذا اشعر عيسى عليه السلام حيث قال وانبئكم بما تاكلون وما تدخرون
في بيوتكم فعلا لهذا فضل العرافين والكهنة من اين لك هذا العلم فقال ما انا بكاهن ولكن
اي هذا التاويل والاخبار بالمغيبات من علمني ربي وفي لك حث على ايمانهم ثم قواه بقوله
اني تركت ملة اي دين قوم لا يؤمنون بالله وهم بالاخرة هم كافرون وكرر لفظهم للتاكيد
لشدة انكارهم للمعاد ولما ادعى يوسف النبوة واظهر المعجزة اظهر انه من اهل بيت النبوة
بقوله واتبعت ملة اباي ابراهيم واسحاق ويعقوب ليسمعوا قوله ويطيعوا امره
فكما يدعوهم الى التوحيد فان الانسان عما ادعى حرفة به وجد لم يستعد لذلك مثله
وايضا فكما ادرجه ابراهيم واسحاق ويعقوب امرا مشهورا في الدنيا فاذا اظهر انه ولدهم
عظموه ونظروا اليه بعين الاجلال فكان انعاده له اتم وتاثيره فيهم بكلامه اكمل فان قيل
انه كان نبيا فكيف قال اتبعت ملة اباي والنبي لا يتبع قلنا يجوز ان يكون مخصصا بشريعة
نفسه اجيب بان مراده التوحيد الذي لا يتغير ولعله كان رسولا من عند الله الا انه كان
يفتي على شريعة ابراهيم عليه السلام وقرا عاصم وحمزة والكسائي بسكون يا اباي
والباقون بالفتح ما كان ما ينبغي لنا معشر الانبيا ان نشرك بالله من شيء لان الله تعالى
طهرهم وطهرا باءه عن الكفر ونظيره قوله تعالى ما كان لله ان يتخذ من ولد وانما قال من شيء لان
اصناف الشرك كثيرة فمنهم من يعبد الاصنام ومنهم من يعبد النار ومنهم من يعبد الكواكب
ومنهم من يعبد الملايكة فقوله من شيء رد على هولا الطوايف واشارة الى الدين الحق وهو انه
لا موجود الا خالق واحد ذلك اي التوحيد من فضل الله علينا بالوحي وعلى الناس

اي سايرهم ببعثنا لارشادهم وتثبيتهم عليه ولكن اكثر الناس اي المبعوث اليهم لا يشكرون
هذه النعمة التي انعم الله تعالى بها عليهم لانهم تركوا عبادته وعبدوا غيره ثم دعاهما الى الايمان فقال
يا صاحبي السجن اي يا صاحبي في السجن فاضافهما الى السجن كما تقول يا سارق الليلة فكما ان
الليلة مسروق فيها غير مسروقة فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب وانما المصحوب
غيره وهو يوسف عليه السلام او يا ساكني السجن كما قال لسكان الجنة اصحاب الجنة
ولسكان النار اصحاب النار ءارباب اي الهة متفرقون اي متباينون من ذهب وفضة
وصفر وحديد وخشب وحجارة وصغير وكبير ومتوسط وغير ذلك وهي مع ذلك لا تضر ولا
تنفع خير اي اعظم في صفة المدح واولى بالطاعة ام الله الواحد اي المتوحد بالالوهية
القهار اي الذي لا يغالب ولا يشاركه في الربوبية غيره خير والاستفهام للتقرير وفي الهمزتين
في ارباب من القراءة ما في انذرتهم وقد مر فان قيل هل يجوز التفاضل بين الاصنام
وبين الله حتى يقال انها خير ام الله اجيب بان ذلك خرج على سبيل الفرض والمعنى لو سلمنا
انه حصل فيها ما يوجب الخير فهي خير ام الله الواحد القهار ثم بين عجز الاصنام فقال
ما تعبدون وانما خاطبهم بلفظ الجمع وقد ابتدا بالتثنية في المخاطبة لانه اراد جميع من في
السجن من المشركين والعبادة خضوع بالقلب في اعلا مراتب الخضوع وبين حقارة معبوداتهم
وسفولها بقوله من دونه اي الله الذي قام البرهان على الهيئة وعلى اختصاصه بذلك
الا اسماء وبين ما يريد واوضحه بقوله سميتموها اي ذوات اوجدتم لها اسماء انتم
سميتموها الهة وارباباً وهي حجارة جماد خالية عن المعنى لا حقيقة لها واباؤكم من قبلكم
سموها كذلك ما انزل الله بها اي بعبادتها من سلطان اي حجة وبرهان ان الحكم اي وما الحكم
الا لله اي المختص بصفات الكمال والحكم فصل الامر بما تدعو اليه الحكمة امر وهو النافذ الامر المطاع
الحكم ان لا تعبدوا الا اياه لانه المستحق للعبادة لا هذه الاسماء التي سميتموها الهة ولما قام
الدليل على هذا الوجه الذي كان جديرا بالاشارة الى فضله اشار اليه باداة البعد تنبيها
على علو مقامه وعظيم شانه فقال ذلك اي الشان الاعظم وهو توحيده وافراده عن خلقه
الدين القيم اي المستقيم الذي لا عوج فيه ولكن اكثر الناس وهم الكفار لا يعلمون ما يصيرون
اليه من العذاب فيشركون ولما قدر يوسف عليه السلام امر التوحيد والنبوة عاد الى الجواب
عن السؤال الذي ذكراه فقال يا صاحبي السجن اي الذي يحصل فيه الانكسار للنفس والرقة
في القلب فتخلص فيه المودة ولما كان في الجواب ما يسوء الخباز ابهم ليجوز كل منهما انه الفائز
فان الجاه الى التعيين كان ذلك عذرا له في الخروج عن الاليق فقال اما احدكما اي وهو صاحب
شراب الملك فيسقي ربه اي سيده خمرا على عادته والعناقيد الثلاثة هي ثلاثة ايام تبقى في السجن
ثم يدعو به الملك فيرده الى منزلته التي كان عليها هذا تاويل رؤياه واما الاخر اي
وهو صاحب طعام الملك فيصلب والسلال الثلاثة ثلاثة ايام ويدعو به الملك
فيصلبه فتاكل الطير من راسه هذا تاويل رؤياه قال ابن مسعود فلما سمعا قول
يوسف عليه السلام قالا ما رأينا شيئا انما كنا نلعب فقال لهما يوسف عليه السلام قضي اي
تم الامر الذي فيه تستفتيان اي تطلبان الافتاء فيه عملا بالفتوة فسالتما عن تاويله
وهو تعبير رؤياكما كذبتما او صدقتما لم اقله عن جهل ولا غلط وقال يوسف عليه السلام
للذي ظن اي علم وتحقق والظن بمعنى العلم لانه قاله عن وحي لقوله قضي الامر ويجوز ان يكون

شيئا

ضمير

ضمير ظن للساقي فهو حينئذ على بابه انه ناج منهما وهو الساقي اذكرني عند ربك اي سيدك ملك
مصر بما رايت مني من معالي الاخلاق وطهارة الشيم الدالة على بعدي مما رميت به والمراد
بالرب هنا غير المراد به في قوله ءارباب متفرقون فنجا الساقي وصلب صاحبه وفق ما قال
لهما يوسف عليه السلام واختلف في ضمير فانساه الشيطان ذكر ربه على قولين احدهما انه
يعود الى الساقي وهو قول جماعة من المفسرين اي فانسا الشيطان الساقي ان يذكر يوسف
عند الملك قالوا لان صرف وسوسة الشيطان الى ذلك الرجل الساقي حتى انساه ذكر يوسف
اولى من صرفها الى يوسف والقول الثاني وعليه اكثر المفسرين انه يرجع الى يوسف
عليه السلام وقال الرازي انه الحق اي ان الشيطان انسا يوسف ذكر ربه تعالى
حتى استعان بمخلوق مثله وتلك غفلة عرضت له عليه السلام فان الاستعانة
بالمخلوق في دفع الظلم جائزة في الشريعة الا ان حسنات الابرار سيئات المقربين فهذا
وان كان جائزا لعامة الخلق الا ان الاولى بالصديقين ان يقطعوا نظرهم عن الاسباب
بالكلية وان لا يشتغلوا الا بمسبب الاسباب فلهذا صار يوسف عليه السلام مواخذا بهذا
القول ولم يواخذه تعالى في تلك القصة البتة بل ذكره باعظم وجوه المدح والثنا فعلم من ذلك
انه عليه السلام كان مبرا مما نسبه الجهال والحشوية اليه فان قيل كيف تمكن الشيطان
من يوسف حتى انساه ذكر ربه اجيب بان ذلك انما كان شغل خاطر واما النسيان الذي هو
عبارة عن ترك الذكر وازالته عن القلب بالكلية فلا يقدر عليه واختلف في قدر البضع في قوله
تعالى فلبث في السجن بضع سنين فقال مجاهد ما بين الثلاث الى التسع وقال ابن عباس
ما دون العشرة قال البغوي واكثر المفسرين على ان البضع في هذه الاية سبع سنين وكان
قد لبث قبله خمس سنين فجملته اثنى عشرة سنة وقال وهب اصاب ايوب البلا
سبع سنين وترك يوسف في السجن سبع سنين وقال مالك بن دينار لما قال يوسف
للساقي اذكرني عند ربك قيل له يا يوسف اتخذت من دوني وكيلا لاطيلن حبسك فبكى
يوسف وقال يا رب انسى قلبي كثرة البلوى فقلت كلمة قال الحسن قال النبي صلى الله عليه
وسلم رحم الله يوسف لولا كلمته التي قالها ما لبث في السجن ما لبث ثم بكى الحسن وقال نحن
اذا نزل بنا بلا فزعنا الى الناس ذكره الثعلبي مرسلا وبغير سند وقال الحسن ايضا
دخل جبريل على يوسف في السجن فلما راه يوسف عرفه فقال له يا اخا المنذرين ما لي اراك
بين الخطايين فقال له جبريل يا طاهرين الطاهرين يقرا عليك السلام رب العالمين ويقول
لك اما استحييت مني استشفعت بالادميين فوعزتي لالبثنك في السجن بضع سنين
قال يوسف وهو في ذلك عني راض قال نعم قال اذا لا ابالي وقال كعب قال جبريل ليوسف
ان الله تعالى يقول لك من خلقك قال الله قال فمن علمك تاويل الرويا قال الله قال
فمن حببك الى ابيك قال الله قال فمن انجاك من كرب البير قال الله قال فمن صرف عنك
السو والفحشا قال الله قال فكيف استشفعت بادمي مثلك قال محمد بن عمر الرازي
في تفسيره والذي جربته من اول عمري الى اخره ان الانسان كلما عول في امر من الامور على غير الله
تعالى صار ذلك سببا للبلا والمحنة والشدة والرزية واذا عول على الله تعالى ولم يرجع الى
احد من الخلق حصل له ذلك المطلوب على احسن الوجوه فهذه التجربة قد استمرت
لي من اول عمري الى هذا الوقت الذي بلغت الى السابع والخمسين فعند هذا استقر قلبي

على انه لا مضايقة للانسان في التوسل على شيء سوى فضل الله تعالى واحسانه والمراد في فرج يوسف عليه السلام رايا على ملك مصر الاكبر الريان بن الوليد رويا عجيبة هائلة كما قال تعالى وقال الملك اني ارى اي رايت عبر بالمضارع حكاية للحال الشديدة منامها الرؤيا من ذلك سبع بقرات سمان اخرجن من نهر يابس والسمن زيادة اللحم البدن من اللحم والشحم وسمان جمع سمنة وجمع سمين ايضا على يقال رجال سمان ونساء سمان كما يقال رجال كرام ونساء كرام يأكلهن اي يبتلعهن سبع اي من البقر عجاف جمع عجفا اي هزال خرجن من ذلك النهر تتبعه جمع عجفاء على عجاف والقياس عجف نحو حمر وخضر حملا له على سمان لانه نقيضه ومن ابهم حمل النظير على النظير والنقيض على النقيض وانا ارى سبع سنبلات خضر اي قد انعقد حبها وانا ارى سبع سنبلات اخر يابسات اي قد ادركت فالوقت الياسات عما الخضر حتى علين عليها واعرضن استغنى عن بيان حالها بما نص من حال البقرات والسنبلة نبات كالقصبة حلية حبوب منتظمة فكانه قيل فكان ماذا فقيل قال الملك بعد ان جمع السحرة والكهنة والمعبرين فيما بينهم الملا اي الاشراف الذين علا العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم افتوني في رؤياي اي اجيبوني بتأويلها ان كنتم للرؤيا تعبرون اي ان كنتم عالمين بعبارة الرويا فاعبروها تنبيه اللام في للرويا تزيد فلا تعلق لها بشيء وزيدت لتعذر المعمول معنوية للعامل كما زيدت اذا كان العامل فرعا كقوله تعالى فعال لما يريد ولانها دخلت على مبنيك الاضرون ومثل ضمن تعبرون معنى ما تتعدى باللام تقديره ان كنتم تنتدبون لعبارة الرويا ومثل متعلقة بمحذوف على انها للبيان كقوله تعالى وكانوا فيه من الزاهدين تقديره اعني فيه وكذلك تقدير اعني للرويا وعلى هذا يكون معمول تعبرون محذوفا وتقدير تعبرونها وفي الاية ما بوجبه حال العلماء من حاجة الملوك اليهم فكانه قيل ما قالوا فقيل قالوا هذه الرويا اضغاث اي اخلاط احلام مختلطة مختلفة مشتبهة والاضغاث جمع ضغث بكسر الضاد واسكان الغين المعجمة وهي قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس والاحلام جمع حلم بضم الحاء واسكان اللام وضده وهو الرويا مقيدوها بالاضغاث وهو ما يكون من الرويا باطلا لكونه من حديث النفس او وسوسة الشيطان لكونها تشبه اخلاط النبات التي لا تنتسب بنبات لان الرويا تارة تكون من الملك وهي الصحيحة وتارة تكون من تخويف الشيطان وتخليطاته وتارة من حديث النفس ثم قالوا وما نحن اي بما حملتنا عليه من التأويل الاحلام اي الساعات الباطلة بعالمين اي بكيفية لها تاويل عندنا وانما التاويل للساعات الصادقة كانه معذرة منهم للعذر والسؤال الملك عن هذه الرويا واعترف الحاضرون بالعجز عن الجواب تذكر ولكن الساقي واقعة يوسف لانه كان يعتقد فيه كونه منجيا له هذا العلم كما قال تعالى وقال الذي نجا منهما اي خلص منهما اي من صاحبي السجن وهو الشرابي والجنس وحلا اما صالحا لما كثير العلم كثير الطاعة وقصصت انا والضمير عليه سنامي فذكرنا وتاويلها فصدق في كل ما ذكر وما اخطأ في حرف فكانت هذه الرويا سببا لخلاص يوسف ولم يتذكر الشرابي الا بعد طول المدة كما قال تعالى وادكر بالذال المهملة اي طلب الذكر بالحفظ وتذكر بها فتعل بعد امة اي وتذكر يوسف بعد جماعة من الزمان مجتمعة اي مدة طويلة والجملة اعترض من وقول القول انا اوبئكم بتاويله فارسلون اي الى يوسف عليه السلام فانه اعلم الناس فارسلوه اليه قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولم يكن السجن بالمدينة فاتاه فقال الساقي المرسل بعد وصوله اليه منادیا له ايها الصديق تخبيبا اليه بيوسف وزاد في التخبيب بقوله ايها الصديق اي المبلغ في الصدق والتصديق لانه

احواله وعرف صدقه في تاويل رؤياه ورؤيا صاحبه وهذا يدل على ان من اراد ان يتعلم
من رجل شيئا فانه يجب عليه ان يعظمه وان يخاطبه بالالفاظ المشعرة بالاجلال ثم انه اعاد
السؤال بعين اللفظ الذي ذكره الملك فقال افتنا اي اذكر لنا الحكم في سبع بقرات سمان اي راهن
الملك ياكلهن سبع من البقر عجاف وفي سبع سنبلات جمع سنبلة وهي مجمع الحب من الزرع
خضر وفي سبع اخر اي من السنابل يابسات اي في رؤيا ذلك ونعم ما فعل فان نفس الرؤيا
قد تختلف بحسب اختلاف الالفاظ كما هو مذكور في ذلك العلم ثم قال لعلي ارجع الى
الناس اي الى الملك وجماعته بفتواك قبل مانع يمنعني لعلهم يعلمون اي بتاويل هذه
الرؤية وقيل بمنزلتك في العلم وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو وابن عامر بفتح الباء والباقون
بالسكون قال يوسف معبرا لتلك الرؤيا اما البقرات السمان والسنبلات الخضر فسبع
سنين مخصبات واما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبة
فذلك قوله تزرعون سبع سنين وهو خبر بمعنى الامر كقوله تعالى والمطلقات يتربصن
والوالدات يرضعن وانما يخرج الامر في صورة الخبر للمبالغة في الايجاب فيجعل كانه وجد
فهو يخبر عنه والدليل على كونه في معنى الامر قوله فذروه في سنبله وقوله دابا نصب على
الحال اي دائبين اي سبع سنين متتابعة على عادتكم في الزراعة والداب العادة وقيل ازرعوا
بجد واجتهاد وهذا على تاويل السبع السمان والسنبلات الخضر وقرا حفص بفتح الهمزة
وسكنها الباقون وابدلها السوسي الفا وقفا ووصلا وحمزة وقفا فقط فما حصدتم
فذروه اي اتركوه في سنبله لئلا يفسد ولا يقع فيه السوس وذلك ابقى له على طول الزمان
الا قليلا مما تاكلون اي ادرسوا قليلا من الحنطة للاكل بقدر الحاجة امرهم بحفظ الاكثر
لوقت الحاجة ايضا وهو وقت السنين المجدبة كما قال ثم ياتي من بعد ذلك اي السبع
المخصبات سبع شداد اي مجدبات صعاب وهي تاويل السبع العجاف والسنبلات
اليابسات ياكلن ما قدمتم لهن اي ياكل اهلهن ما ادخرتم لاجلهن فاسند اليهن على المجاز
تطبيقا بين المعبر وهو ياكلهن سبع عجاف والمعبر به وهو ياكلن ما قدمتم لهن الا
قليلا مما تحصنون اي تحوزون وتدخرون للبذر والاحصان الاحراز وهو ابقاء الشيء
في الحصن بحيث يحفظ ولا يضيع ثم ياتي من بعد ذلك اي السبع المجدبات عام فيه
يغاث الناس اي يمطرون من الغيث وهو المطر وقيل ينقذون من قول العرب استغثت
فلانا فاغاثني وفيه يعصرون من العنب خمرا ومن الزيتون زيتا ومن السمسم دهنا
واراد بذلك كثرة النعم والخير وقال ابو عبيدة ينجون من الكرب والشدة والجدب وقرا
حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب لان الكلام كله مع الخطاب والباقون بالياء على الغيبة
ردا الى الناس ولما رجع الشرابي الى الملك وعرض عليه التعبير الذي ذكره يوسف عليه السلام
استحسنه وقال الملك اي الذي العزيز في خدمته ائتوني به لاسمع ذلك منه واكرمه وهذا
يدل على فضيلة العلم فانه سبحانه وتعالى جعل علمه سببا لخلاصه من المحنة الدنيوية فكيف
لا يكون العلم سببا للخلاص من المحن الاخروية فاتاه الرسول ليأتي به الى الملك فلما جاءه
اي يوسف عليه السلام عن قرب من الزمان الرسول بذلك وهو الساقي وقال له اجب الملك
قال له يوسف ارجع الى ربك اي سيدك الملك ولم يخرج معه حتى يظهر برهانه للملك ولا يراه
بعين النقص ولذلك قال فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن وانما قال يوسف

من ذكر السؤال بعين اللفظ

عليه السلام فسله ما بال النسوة ولم يقل فسله ان يفتش عن حالهن قال الطيبي لان قوله
فسله يحتمل ان يكون بمعنى المسئلة اي اساله عن شانهن وان يكون بمعنى الطلب وهو
ان يفتش عن شانهن فحسن تقييده بلفظ ما التي يسال بها عن حقيقة الشي ليهيجه اي
يحركه للتفتش عن حالهن لان الانسان حريص على تحقيق الشي ويستنكف الى ان ينسب
الى الجهل به بخلاف ما لو قال سله ان يفتش اي اطلب منه فانه لا يبالي بهذا الطلب ولا يلتفت
اليه لا سيما الملوك وانما لم يتعرض لسيدته مع ما صنعت به كرما ومراعاة للادب
وقدم سوال النسوة وفحص حالهن لتظهر براءة ساحته لانه لو خرج في الحال لربما كان يبقى في قلب
الملك من تلك التهمة اثر فلما التمس من الملك ان يفحص عن حال تلك الواقعة دل ذلك على براءته
عن تلك التهمة فبعد خروجه لا يقدر احد ان يلطخه بتلك الرذيلة وان يتوسل بها الى الطعن
فيه وفي ذلك دليل على انه ينبغي للشخص ان يجتهد في نفي التهم ويتقي مواقعها وروي انه صلى
الله عليه وسلم قال لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يقول حين سيل عن البقرات
العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما اجبتهم حتى اشترطت ان يخرجوني ولقد عجبت منه
حيث اتاه الرسول فقال ارجع الى ربك ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لاسرعت
الاجابة وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر ان كان لحليما ذا اناة واصل الحديث
في الصحيحين مختصرا وانما قال صلى الله عليه وسلم ذلك على سبيل التواضع لا انه صلى الله عليه وسلم
كان في الامر منه مبادرة وعجلة لو كان مكان يوسف والتواضع لا يصغر كبيرا ولا يضع رفيعا
ولا يبطل لذي حق حقا لكنه يوجب لصاحبه فضلا ويلبسه جلالة وقدرا وقوله
والله يغفر له مثل هذه المقدمة مشعرة بتعظيم المخاطب وتوقيره وتوقير حرمته
كما تقول لمن تعظمه عفا الله عنك ما صنعت في امري ورضي الله تعالى عنك ما جوابك
عن كلامه وقوله ان كان لحليما ان هي المخففة من الثقيلة والاناة الوقار وقيل هو
اسم من التاني في الامور وقرا ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همز بعدها والباقون
بسكون السين وهمزة مفتوحة بعدها ان ربي اي الله بكيدهن عليم حين قلن اطع مولاتك
وفيه تعظيم كيدهن والاستشهاد بعلم الله تعالى عليه وانه بري مما عيب به والوعيد لهن
على كيدهن وقيل المراد بربي الملك وجعله ربا لنفسه لكونه مربيا له وفيه اشارة الى كون
ذلك الملك عالما بكيدهن ومكرهن ولما قال يوسف عليه السلام ذلك وابى ان يخرج من السجن
قبل تبين الامر رجع الرسول الى الملك فاخبره بما قال عليه السلام فكانه قيل فما فعل
الملك فقيل قال للنسوة بعد ان جمعهن وامراة العزيز معهن ما خطبكن اي ما شانكن
العظيم وقوله تعالى اذ راودتن اي خادعتن يوسف عن نفسه دليل على ان براءته كانت
متحققة عند كل من علم القصة وانما خاطب الملك جميع النسوة بهذا الخطاب والمراد
بذلك امراة العزيز وحدها ليكون استر لها وقيل ان امراة العزيز راودته عن نفسه
وساير النسوة امرته بطاعتها فلذلك خاطبهن فكانه قيل فما قلن قيل قلن حاشى لله
اي عياذا بالملك الاعظم وتنزيها له من هذا الامر هذا ما علمنا عليه اي يوسف عليه السلام
واغرقن في النفي فقلن من سوء اي من خيانة في شي من الاشيا ولما ان يوسف عليه السلام
راعى جانب امراة العزيز حيث قال ما بال النسوة اللاتي قطعن ايديهن فذكرهن ولم يذكر
تلك المراة البتة وعرفت المراة انه انما ترك ذكرها رعاية لحقها وتعظيما لجانبها واخفا الامر

عليها

عليها اراد ت ان تكافيه على هذا الفعل الحسن فلا جرم ارات له العطاء والوطاء فلذلك قالت
امرأة العزيز مصرحة بحقيقة الحال الآن حصحص الحق اي ظهر وتبين انا راودته
اي حاولت بحيلة عن نفسه وانه لمن الصادقين اي العريقين في هذا الوصف في نشأة المراودة التي وبراءة نفسه فقد شهد
لسوة كلهن ببراءته وانه لم يقع منه ما ينسب به شيء من السوء اليه فمن ينسب اليه بعدة ذلك هما
او غيرهما فهو تابع لمجرد الهوى فيما من المخلصين قال الرازي رايت في بعض الكتب ان امرأة جاءت
بزوجها الى القاضي وادعت عليه المهر فامر القاضي بان تكشف عن وجهها حتى يتمكن الشهود
من اقامة الشهادة فقال الزوج لا حاجة لي الى ذلك فاني معترف بصداقها في دعواها فقالت
المرأة لما اكدت على هذا الحد فاشهدوا اني ابرأت زوجي عن كل حق لي عليه ولما رجع الرسول
الى يوسف عليه السلام واخبره بشهادة النسوة ببراءته قال ذلك اي الحاق العظيم في تثبيتي في السجن
الى ان يتبين الحق ليعلم العزيز بغيبي عن خيانته في اهله وانه لا يهدي كيد الخائنين في حال غيبتي
اني لم اخنه اي في اهله والاولى عرضها بالغيب اي والحال ان كلامنا غايب عن صاحبه هذا قول
الاكثرين انه قول يوسف عليه السلام قال المبرد ولا يبعد وصل كلام انسان بكلام اخر اذا
دلت القرينة عليه ومثاله قوله تعالى ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة
اهلها اذلة فهذا كلام بلقيس ثم قال تعالى وكذلك يفعلون وقوله تعالى رب انا انك
جامع الناس ليوم لا ريب فيه كلام الداعي ثم قال تعالى ان الله لا يخلف الميعاد ثم ختم الكلام
بقوله وان الله لا يهدي اي يسدد ويصحح توجه من توجه كيد الخائنين اي ولو كنت خائنا لما
خلصني الله من هذه الورطة العظيمة وحيث خلصني منها ظهر اني كنت بريا عما نسبوني
اليه ومثل انه كلام امرأة العزيز والمعنى اني وان كنت اخلت عليه الدين في حضوره لكني
ما اخلت الرب عليه في غيبته اي لم انقل فيه وفي بالسجن خلاف الحق ثم انها بالغت في تاكيد
هذا القول وقالت وان الله لا يهدي كيد الخائنين يعني اني لما اقدمت على الكيد والمكر
لاجرم افتضحت وانا لما كان بريا عن الذنب لاجرم طهر الله تعالى عنه واعلم ان هذه الآية
على القول الاول دالة على طهارة يوسف عليه السلام من وجوه كثيرة الاول قولها انا راودته
عن نفسه والثاني قولها وانه لمن الصادقين وهو اشارة الى انه صادق في قوله هي راودتني
عن نفسي والثالث قوله ليوسف عليه السلام ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب والحشوية يذكرون
انه لما قال ليوسف هذا الكلام قال جبريل عليه السلام لا حتى هممت قال الرازي وهذا
من رواياتهم الخبيثة وما ملحت هذه الرواية في كتاب تعتمد اي وان اسندها بعضهم
لابن عباس بل يتم تلحق به محمد الموضع سقيا منهم في تخريف طاهر القرآن ورابعها ان قوله ذلك
على قوله ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب مع انه خائن يا عظم وجوه الخيانة اقدام على وقاحة
عظيمة وعلى كذب عظيم من غير ان يتعلق به مصلحة توجه ما والاقدام على مثل هذه الوقاحة
من غير فائدة اصلا لا يليق باحد من العقلاء فكيف يليق استناده الى من هو رسول من سلالة
الانبياء الاصفياء فثبت ان هذه الآية تدل دلالة قاطعة على براءته عما يقوله الجهال والحشوية
واختلفوا في تفسير قوله وما ابرئ نفسي لان ذلك يختلف باختلاف ما قبله لان قوله ذلك
ليعلم اني لم اخنه بالغيب ان كان من كلام يوسف وقد مر انه قول الاكثرين فهذا ايضا كلامه
وان كان من كلام المرأة فهذا ايضا كلامها فعلى الاول قد تمسك به الحشوية وقالوا الله عليه

السلام لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب قال له جبريل ولا حين حللت دكة سراويلك
فعند ذلك قال يوسف عليه السلام وما ابرئ نفسي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ اي بالزنا إِلَّا مَا
رَحِمَ اي عصم رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ اي للهم الذي هممته رَحِيمٌ اي لو فعلته لتاب علي وهذا
ضعيف كما قاله الرازي لما تقدم ان الاية المتقدمة برهان قاطع على برائته عن الذنب وانما قال
ذلك عليه السلام لانه لما قال ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب كان ذلك جاريا مجرى مدح النفس
وتزكيتها وقد قال تعالى ولا تزكوا انفسكم فاستدرك ذلك على نفسه بقوله وما ابرئ نفسي
والمعنى وما ازكي نفسي ان النفس لامارة بالسوء ميالة الى القبائح راغبة في المعصية وعلى الثاني انها
لما قالت ذلك ليعلم اني لم اخنه بالغيب قالت وما ابرئ نفسي عن الخيانة مطلقا واني قد خنته
حين احلت الذنب عليه وقلت ما جزاء من اراد باهلك سوءا الا ان يسجن واودعته الحبس كانها
ارادت الاعتذار مما كان واختلف في قوله وَقَالَ الْمَلِكُ فمنهم من قال هو العزيز ومنهم من قال
هو الريان الذي هو الملك الاكبر قال الرازي وهذا هو الاظهر لوجهين الاول ان قول يوسف
اجعلني على خزائن الارض يدل عليه الثاني قوله استخلصه لنفسي يدل على انه قبل ذلك ما كان
خالصا وهو كان يوسف عليه السلام قبل ذلك خالصا للعزيز فدل هذا على ان هذا الملك
هو الملك الاكبر انتهى وانما صرح به ولم يستغن بضميره كراهية الالباس لما تخلل بينه وبين
جواب امراة العزيز من كلام يوسف عليه السلام ولو كان الكل من كلامها لاستغنى بالضمير
ولم يحتج الى ابرازه ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي اي اجعله خالصا لي دون شريك قال ابن عباس
فاتاه الرسول فقال له الق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جددا وقم الى الملك فدعا له اهل
السجن وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة فاغتسل وتنظف ولبس ثيابا جددا بعد ان دعا لاهل
السجن فقال اللهم اعطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عنهم الاخبار وكتب على باب السجن
هذه منازل البلوى وقبور الاحياء وبيوت الاحزان وتجربة الاصدقاء وشماتة الاعداء
ثم اتى الملك فلما راه غلاما حدثا فقال ايعلم هذا رؤياي ولا يعلمها السحرة والكهنة
ثم اقعده قدامه وقال له لا تخف والبسه طوقا من ذهب وثياب حرير واعطاه دابة مسرجة
مزينة كدابة الملك وروي ان جبريل عليه السلام دخل على يوسف وهو في الحبس وقال قل
اللهم اجعل لي من عندك فرجا ومخرجا وارزقني من حيث لا احتسب فقبل الله تعالى دعاه
واظهر هذا السبب في تخليصه من السجن وروي ان يوسف لما دخل عليه قال اللهم اني اسالك
بخيرك من خيره واعوذ بعزتك وقدرتك من شره ثم سلم عليه بالعربية فقال ما هذا اللسان
قال لسان عمي اسماعيل ثم دعى له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان ابائي قال وهب
كان الملك يتكلم سبعين لغة لم يعرف هذين اللسانين وكان الملك كلما كلمه بلسان اجابه يوسف
وزاد بالعربية والعبرانية فَلَمَّا كَلَّمَهُ اي كلم الملك يوسف وشاهد منه ما شاهد من جلال
النبوة وجميل الوزارة وجلال السيادة ومخايل السعادة اقبل عليه وقال اني احب ان اسمع
منك تاويل رؤياي شفاها فاجابه بذلك الجواب شفاها وشهد قلبه بصحته فعند ذلك
قَالَ لَهُ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ اي ذو مكانة وامانة على امرنا فما ترى ايها الصديق قَالَ
ارى ان تزرع في هذه السنين المخصبة زرعا كثيرا وتبني الخزائن وتجمع فيها الطعام فاذا
جاءت السنون المجدبة بعناء الغلال فيحصل بهذا الطريق مال عظيم فقال الملك ومن لي
بهذا الشغل فقال يوسف اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ جمع خزانة او اراد خزائن الطعام والاموال

والارض

والارض اي ارض مصر اي خزاين ارضك وقال الربيع بن انس اي خرج مصر ودخله روى ابن عباس
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الاية قال رحم الله اخي يوسف لو لم يقل اجعلني
على خزاين الارض لاستعمله من ساعته لكنه لما قال ذلك اخره الله تعالى سنة فاقام في بيته
سنة مع الملك قال الرازي وهذا من العجايب لانه لما تثاقل عند الخروج من السجن سهل الله
تعالى عليه ذلك على احسن الوجوه ولما سارع في ذكر هذا الالتماس اخر الله تعالى ذلك المطلوب
عنه وهذا يدل على ان ترك التصرف والتفويض بالكلية الى الله تعالى اولى ثم قال **اني حفيظ**
عليم اي ذو حفظ وعلم بامرها وقيل كاتب وحاسب فان قيل لم طلب يوسف الامارة والنبي صلى
الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة لا تسال الامارة ولم طلب الامارة من سلطان كافر
ولم لم يصبر مدة ولم اظهر الرغبة في طلبها في الحال ولم طلب امر الخزاين في اول الامر مع ان
هذا يورث نوع تهمة ولم مدح نفسه وقد قال تعالى ولا تزكوا انفسكم ولم ترك الاستثنا
في هذا وقد قال تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشا الله فهذه سبعة
اسيلة اجيب عنها بان الاصل في جواب هذه الاسيلة ان التصرف في امور الخلق كان واجبا
عليه فجاز له ان يتوصل اليه باي طريق كان وانما كان ذلك واجبا عليه لوجوه الاول انه كان
رسولا حقا من الله تعالى الى الخلق والرسول يجب عليه رعاية مصالح الامة بقدر الامكان
والثاني انه علم بالوحي انه سيحصل القحط والضيق الشديد فلعله تعالى امره بان يدبر
في ذلك ويأتي بطريق لاجله يقل ضرر ذلك القحط في حق الخلق والثالث ان السعي في ايصال
النفع الى المستحقين ودفع الضرر عنهم امر مستحسن في العقول فكان مكلفا عليه السلام
برعاية المصالح من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها الا بهذه الطريق وما لا يتم الواجب
الا به فهو واجب وانما مدح نفسه لان الملك وان علم كماله في علوم الدين لكنه ما كان عالما
بانه يفي بهذا الامر وايضا مدح النفس انما يكون مذموما اذا قصد به الشخص التطاول
والتفاخر والتوصل الى غير ما يحل واما غير هذا الوجه فليس بمذموم وقوله تعالى
فلا تزكوا انفسكم المراد منه تزكية حال من لا يعلم كونها متزكية والدليل عليه قوله تعالى بعد
هذه الاية هو اعلم بمن اتقى اما اذا كان الانسان عالما بانه صدق وحق فهذا غير ممنوع منه
وانما ترك الاستثنا لانه لو ذكره لربما اعتقد الملك فيه انه انما ذكره لعلمه بانه لا قدرة له
على ضبط هذه المصلحة كما ينبغي فلهذا المعنى ترك الاستثنا ولما سال يوسف ما تقدم
قال معلما بانه اجيب بتنجيز الله له **وكذلك** اي كانعامنا عليه بالخلاص من السجن **مكنا**
ليوسف في الارض اي ارض مصر **يتبوا** اي ينزل **منها حيث يشا** بعد الضيق والحبس
قال ابن عباس وغيره ولما انقضت السنة من يوم سال الامارة دعاه الملك فتوجه وجعل
خاتم الملك في اصبعه وقلده سيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا بالدر والياقوت
طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرة اذرع عليه ستون فراشا فقال يوسف عليه
السلام اما السرير فاشد به ملكك واما الخاتم فادبر به امرك واما التاج فليس من لباسي
ولا لباس ابائي وامره ان يخرج فخرج لونه كالثلج ووجهه كالقمر يرى للناظرين وجهه
في صفا لونه فانطلق حتى جلس على ذلك السرير ودانت له الملوك ودخل الملك بيته
وفوض اليه امر مصر وعزل قطفير عما كان عليه وجعل يوسف مكانه قاله ابن اسحاق قال
ابن زيد وكان لملك مصر خزاين كثيرة فسلم سلطانه كله اليه وجعل امره وقضاه نافذا
في مملكته ثم مات قطفير بعد ذلك فزوجه الملك امراته فلما دخل عليها قال اليس هذا

BULAG

خير مما كنت تريدين قالت ايها الصديق لا تلمني فاني كنت امراة حسناء ناعمة كما ترى في ملك
ودنيا وكان صاحبي لا ياتي النساء وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيئتك فغلبتني نفسي
فوجدها يوسف عليه السلام عذراء فاصابها فولدت له ذكرين افرائيم وميشا فاقام
العدل بمصر واحبه الرجال والنساء واسلم على يديه الملك وكثير من الناس وباع من اهل
مصر في سني القحط الطعام بالدراهم والدنانير في السنة الاولى ثم بالحلي والجواهر في السنة
الثانية ثم بالدواب في السنة الثالثة ثم بالعبيد والاماء في السنة الرابعة ثم بالضياع
والعقار في السنة الخامسة ثم باولادهم في السنة السادسة ثم برقابهم في السنة
السابعة حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة الا صار عبدا له فقال الناس ما راينا كاليوم ملكا
اجل ولا اعظم من هذا صار كل الخلق عبيدا له فلما سمع ذلك قال اني اشهد الله اني
اعتقت اهل مصر عن اخرهم ورددت عليهم املاكهم وكان لا يبيع احدا ممن يطلب
الطعام اكثر من حمل بعير لئلا يضيق الطعام على الباقين هذا ملخص ما قاله البغوي
والزمخشري وغيرهما قال الرازي والله اعلم بحقيقة الحال وروي ان يوسف عليه السلام
كان لا يشبع من طعام في تلك الايام فقيل له تجوع وبيدك خزائن الارض فقال اخاف ان شبعت
نسيت الجائع وامر يوسف طباخ الملك ان يجعل غداءه نصف النهار اراد بذلك ان يذيق
الملك طعم الجوع ولا ينسى الجائعين قال البغوي فمن ثم جعل الملوك غداءهم نصف النهار قال
الله تعالى نصيب اي نخص برحمتنا من نشاء في الدنيا والاخرة ولا نضيع اجر المحسنين قبل
نوتي اجورهم عاجلا واجلا لان اضاعة الاجر اما ان تكون للعجز او للجهل او للبخل والكل
ممتنع في حق الله تعالى فكانت الاضاعة ممتنعة ولاجر الاخرة خير للذين امنوا وكانوا
يتقون الشرك والفواحش قال الرازي وهذا تنصيص من الله تعالى على ان يوسف كان
في الزمان السابق من المتقين وليس ههنا زمان سابق يحتاج الى بيان انه كان فيه
من المتقين الا ذلك الوقت الذي قال الله تعالى فيه ولقد همت به وهم بها فكان هذا
شهادة من الله تعالى على انه عليه السلام كان في ذلك الوقت من المتقين وايضا قوله
ولا نضيع اجر المحسنين شهادة من الله تعالى على انه من المخلصين فثبت ان الله تعالى شهد
بان يوسف كان من المتقين ومن المحسنين ومن المخلصين والجاهل الحشوي يقول
انه كان من المذنبين ولا شك ان من لم يقبل قول الله تعالى مع هذه التاكيدات
كان من الاخسرين ولما اشتد القحط وعظم البلاء عم ذلك جميع البلاد حتى وصل
الى بلاد الشام وارض كنعان وقصد الناس مصر من كل مكان للميرة فجعل يوسف
لا يعطي احدا اكثر من حمل بعير وان كان عظيما تقسيطا بين الناس وتزاحم الناس عليه
ونزل بال يعقوب ما نزل بالناس من الشدة فبعث بنيه الى مصر للميرة وامسك
بنيامين اخا يوسف لامه وابيه فذلك قوله تعالى وجاء اخوة يوسف وكانوا
عشرة وكان منزلهم بالعرفات من ارض فلسطين بغور الشام وكانوا اهل ابل
وشاء فدعاهم ابوهم يعقوب عليه السلام وقال بلغني ان بمصر ملكا صالحا يبيع
الطعام فتجهزوا اليه واقصدوه لتشتروا منه ما تحتاجون اليه من الطعام وهنا
همزتان مختلفتان من كلمتين فقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بتسهيل الثانية والباقون
بالتخفيف ولما امرهم ابوهم بذلك فخرجوا حتى قدموا مصر فدخلوا عليه فعرفهم
قال ابن عباس باول نظرة نظر اليهم عرفهم وقال الحسن لم يعرفهم حتى تعرفوا اليه

وهم

وهم له منكرون اي لم يعرفوه وذلك لوجوه الاول انه عليه السلام امر حجابه بان يوقفوهم
من البعد وما كان يتكلم معهم الا بواسطة الثاني انهم حين القوه في الجب كان صغيرا
ثم انهم راوه بعد وفور اللحية وكبر الجثة قال ابن عباس وكان بين ان قذفوه في البير
وبين ان دخلوا عليه اربعين سنة فلذلك انكروه وقال عطا انما لم يعرفوه لانه كان
على سرير الملك وكان يرى ملوك مصر عليه ثياب الملك من حرير وفي عنقه طوق
من ذهب ثم ان يوسف امر بانزالهم واكرامهم وكانت عادته ان لا يزيد احدا
عن حمل بعير وكانوا عشرة فاعطاهم عشرة احمال كما قال تعالى فلما جهزهم بجهازهم
اي وفاهم كيلهم والجهاز ما يعد من الامتعة للنقلة كعدد السفر وما يحمل من بلدة
الى اخرى وما تزف به المراة الى زوجها فقالوا ان لنا ابا شيخا كبيرا واخا اخر بقي معه
وذكروا ان اباهم لاجل سنه وشدة حزنه لم يحضر وان اخاهم في خدمة ابيه ولا بد لهما
ايضا من حملين اخرين من الطعام فلما ذكروا ذلك قال يوسف فهذا يدل على ان
حب ابيكم له ازيد من حبه لكم وهذا شي عجيب لانكم انتم مع جمالكم وعقلكم وادبكم
اذا كانت محبة ابيكم لذلك الاخ اكثر من محبته لكم دل ذلك على انه اعجوبة في العقل والادب
فجيبوا به حتى اراه كما قال تعالى حكاية عنه قال ائتوني باخ لكم من ابيكم اي الذي جعلتموه
عنده وقيل انه لما نظر اليهم وكلموه بالعبرانية قال لهم اخبروني من انتم وما امركم
فاني انكرت شانكم قالوا قوم من ارض الشام اصابنا ما اصاب الناس فجينا نمتار
فقال لعلكم جيتم لتنظروا عورة بلادنا قالوا لا والله لسنا بجواسيس انما نحن اخوة
بنو اب واحد وهو شيخ صديق يقال له يعقوب نبي الله تعالى قال وكم كنتم قالوا
كنا اثني عشر فذهب اخ لنا معنا الى البرية فهلك فيها وكان اخينا الى ابينا قال فكم
انتم ههنا قالوا عشرة قال واين الاخر قالوا عند ابينا لانه اخو الذي هلك من امه
وابونا يتسلى به قال فمن يعلم ان الذي تقولون حق قالوا ايها الملك اننا ببلاد لا يعرفنا
فيها احد فقال يوسف فاتوني باخيكم الذي من ابيكم ان كنتم صادقين فانا ارضى بذلك
فقالوا ان ابانا يحزن على فراقه وسنراوده عنه قال فدعوا بعضكم عندي رهينة
حتى تاتوني باخيكم فاقترعوا بينهم فاصابت القرعة شمعون وكان احسنهم رايا
في يوسف فخلفوه عنده ثم قال لهم الا ترون اني اوفي الكيل اي اتمه ولا انجس منه
شيا وقرا نافع بفتح اليا من اني والباقون بالسكون واما اليا من اوفي فجميع القرا يثبتونها
في الوقف لثباتها في الرسم وحذفوها في الوصل لالتقا الساكنين وانا خير المنزلين
اي المضيفين فانه كان قد احسن ضيافتهم مدة اقامتهم عنده قال الرازي وهذا يضعف
قول من يقول من المفسرين انه اتهمهم ونسبهم الى انهم عيون وجواسيس ولو شافههم
بهذا الكلام فلا يليق به ان يقول لهم الا ترون اني اوفي الكيل وانا خير المنزلين وايضا
يبعد من يوسف عليه السلام مع كونه صديقا ان يقول لهم انتم عيون وجواسيس
مع انه يعرف براءتهم عن هذه التهمة لان البهتان لا يليق بحال الصديق ثم قال عليه السلام
فان لم تاتوني به اي باخيكم فلا كيل اي لا ميرة لكم عندي ولم يمنعهم من غيره وقوله
ولا تقربون نهي او عطف على محل فلا كيل اي تحرموا ولا تقربوا مني ولا تدخلوا دياري فجمع
لهم عليه السلام بين الترغيب والترهيب فالترغيب في قوله الاول والترهيب في قوله

BULA

الثانى لانهم كانوا فى نهاية الحاجة الى الطعام وما كان عندهم يحتمله الا عن عنده ومع ذلك لم يخطر ببالهم انه يوسف فكانه قيل فما قالوا فقيل قالوا سنراود اى نوعد لاخلق فيه حتى نصل عليه اباه اى نسكلمه فيه ونعارعه الكلام ونحتاله فيه ونتلطف فى ذلك ولا ندع جهدا وانا لفاعلون اى ما امرتنا به والتزمنا ولما ارعبهم وارهبهم فى شان اخيه قال لفتيته اى غلمانه الكيالين جمع فتى وقرا حفص وحمزة والكسائى بالف بعد الباء المثناة تحت وبعد الالف نون مكسورة والباقون بالياء المثناة تحت بنا مثناة فوق مكسورة اجعلوا بضاعتهم اى التى اتوا بها ثمنا من الميرة وكانه رابهم وعن ابن عباس انها كانت النعال والادم فى رحالهم جمع رحل اى اوعيتهم التى يحملون فيها الطعام لعلهم يعرفونها اى بضاعتهم اذا انقلبوا اليهم رجعوا الى اهلهم وقرئ وعيتهم لعلهم يرجعون اليها واختلف فى السبب الذى من اجله رد يوسف عليه السلام بضاعتهم لارحالهم على اوجه الاول انه اراد ان يكون ذلك المال معونة لهم على سدة الزمان وكان يخاف اللصوص من قطع الطريق فوضع تلك الدراهم فى رحالهم حين يتبعهم بجميعة الى ان يصلوا الى بيوتهم الثانى اراد ان يعرف اباه انه اكرمهم وطلبهم لمزيد الاكرام فلا يثقل على ابيه ارسال اخيه الثالث مقصوده ان يعرفوا انه لا يطلب ذلك الا خ لاجل الايذاء او الظلم والا لطلب زيادة الثمن الرابع اراد ان يحسن اليهم على وجه لا يلحقهم فيه عيب ولا منة الخامس قال الغزالى انهم من شاهدوا بضاعتهم فى رحالهم وقع فى قلوبهم انهم وصفوا تلك البضاعة فى رحالهم على سبيل السهو ولم ابناء واولاد ابناء فيرجعون ليتعرفوا السبب فيه ويردوا الملك الى مالكه السادس ارادوا التوسعة على ابيه لان الزمان كان زمان القحط السابع ارادان اخذ الثمن من الطعام من ابيه ومن اخوته عاشدة حاجتهم الى الطعام لوم الثامن خاف ان لا يكون عند ابيه من المال ما يرجعون به مرة اخرى التاسع انهم متى وجدوا المتاع فوجدوا بضاعتهم فيه علموا ان ذلك كرم من يوسف وسخا فيسعهم ذلك الى العود اليه والحرص على معاملته ولما رجعوا اى اخوة يوسف عليه السلام الى ابيهم قالوا يا ابانا انا قد منع منا على حذف رجل انزل الينا واكرمنا كرامة عظيمة لو كان رجلا من ال يعقوب بما اكرمنا اكرامه فقال يعقوب عليه السلام اذا رجعتم الى ملك مصر فاقرؤه منى السلام وقولوا ان ابانا يدعوك لما اولينتنا ثم قال لهم اين شفعون قالوا ارتفع ملك مصر واخبروه بالقصة وقولهم منع منا الكيل فيه قولان احدهما انهم لما طلبوا الطعام لاخيهم الغايب عند ابيهم منعوا منه والثانى انهم منعوا الكيل فى المستقبل وهو قولهم فما نكتال منا بعد اليوم فلا نكيل لكم شيئا ولا تقربون فلا تدخلون ارضنا ولا تشترون منا شيئا فنكتل فان حمزة والكسائى قرآ بالياء اى يكتل لنفسه وهذا بدل للقول الاول والباقون بالنون اى نكتل نحن واباه وهذا بدل للقول الثانى وانا له لحافظون عن ان ينال مكروه حتى نرده اليك فلما قالوا ليعقوب عليه السلام هذه المقالة قال لهم هل آمنكم اى اجعل منكم الان وفى مستقبل الزمان تامينكم لى فيه مما بصوتى بامينا مستقبلا عليه اى بنيامين الا كما امنتكم اى فى الماضى على اخيه يوسف من قبل فانكم اكدتم غاية التاكيد فلم تحفظوه فكيف نردوه الى والامن اطمينان القلب الى سلامة النفس فانا فى هذا الامن على الله الا الله فالله الحيط علما وقدرة خير حفظا منكم ومن كل احد وفيه التفويض الى الله تعالى والاعتماد عليه فى جميع الامور وقرا حفص وحمزة

والكسائى

والكسائي بفتح الحاء والف بعدها وكسر الفاء والباقون بكسر الحاء وسكون الفاء وهو منصوب
على التمييز في القراءتين ويحتمل الاول النصب على الحال اللازمة وهو ارحم الراحمين
اي ارحم بي من ان يحزنني به بعد مصيبتي باخيه فلا يجمع علي مصيبتين ولما اراد والتربص
ما فعلوه به من الغدر فتحوا امتعتهم اي اوعيتهم التي حملوها من مصر وجدوا بضاعتهم
اي ما كان معهم من ثمنها ردت اليهم والوجدان ظهور الشيء للنفس بحاسة
وما يعني عنها فكانه قيل ما قالوا فقيل قالوا اي لابيهم يا ابانا ما استفهامية اي اي شيء
نبغي اي نريد جميع الغرائب فقاوا وصلا لشبهها في الرسم فكانه قال لهم
ما الخبر فقالوا ابيانا لذلك وتاكيد للسوال في استصحاب اخيهم هذه بضاعتنا ردت
الينا فهل من مزيد على ذلك اكرمنا واحسن مثوانا وباع منا ورحل الينا بضاعتنا عنا ولما كان
التقدير ونرجع لها اليه باحسان فيظهر له نصحنا وصدقنا ونمير اهلنا اي نجلب اليهم الميرة
نرجو عنا اليه والميرة الاطعمة التي تحمل من بلد الى بلد ونحفظ اخانا فلا يصيبه شيء مما نخشى
عليه تاكيد اللوعد نحفظه ونزداد كيل بعير لاخينا ذلك كيل يسير اي سهل على الملك
لتفضله وحرصه على البذل وقيل قصر المدة ليس بسبيل مثلنا ان تطول مدته
بحسب الجبر والتاخير وقيل قليل فابعث اخانا معنا حتى يتبدل ذلك القلة بالكثرة
فكانه قيل ما قال لهم فقيل قال يعقوب عليه السلام لن ارسله اي شيئا من كاينا
معكم اي في اي وقت من الاوقات حتى تؤتون موثقا اي عهدا موكدا من الله قرا ابن كثير بالتاء
الياء بعد النون وقفا ووصلا وابو عمر وبالتاء الياء وصلا لا وقفا وحذفها الباقون
وصلا ووقفا وقوله لتاتنني اي كلكم به من الاتيان وهو مجيء بكل حال والجواب القسم والمعنى
حتى تحلفوا بالله تعالى لتاتنني به الا ان تحاط اي تحصل الاحاطة بمصيبة من
المصائب بكل طاقة تكلفها فاعطوه ما سالوا من عند اخركم كل ذلك زيادة في التوثق لما حصل لهم
من المصيبة بيوسف وان كان الاعتماد في حفظه انما هو على الله تعالى وهذا من باب
اعقلها وتوكل فاجابوه الى ذلك كما قال تعالى فلما آتوه موثقهم بذلك قال الله
على ما نقول نحن وانتم وكيل اي شهيد ورسله معهم بعد ذلك فان قيل لما ارسله
معهم وقد شاهد منهم ما شاهد في يوسف احب بان ذلك لوجوه احدها
انهم كبروا ومالوا الى الخير والصلاح الثاني انه كان شاهد انه ليس بينهم وبين يوسف ما كان
من الحسد والحقد مثل ما كان بينهم وبين يوسف الثالث لعل الله تعالى اوحى اليه
وضمن حفظه وايصاله اليه والرابع ما علم من الخروج الى مصر وكانوا موصوفين بالكمال
والجمال وابناء رجل واحد فلعلهم تابه لا يدخلوا اذا فقد من ابوين من باب واحد
من ابوابها وادخلوا من ابواب متفرقة واختلف في ان يكون مثلا صفة او متعلقة بحذف تقديره
متفرقة ايتمر فاكثيرا وهذا حكم التكليف لبلا يضافوا بالعين فان العين حق وهي من قدر
الله تعالى وقدورد بذلك في الصحيحين وغيرهما عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال العين حق وفي رواية عند احمد تحضرها الشيطان وحسد ابن ادم وفي رواية
لمسلم العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين وفي رواية عن جابر ان العين
لتدخل الجمل القدر والرجل القبر وفي رواية انه صلى الله عليه وسلم كان يعوذ الحسن
والحسين فيقول اعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة

ويقول هكذا كان يعوذ ابراهيم اسمعيل واسحاق صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر
النبيين وعن عبادة بن الصامت قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اول النهار
فوجدته شديد الوجع ثم عدت اليه اخر النهار فرايته معافى فقال ان جبريل عليه السلام
اتاني فرقاني فقال بسم الله ارقيك من كل شيء يؤذيك من كل عين وحاسد الله يشفيك
قال فافقت وفي رواية ان بني جعفر بن ابي طالب كانوا غلمانا بيضا فقالت اسما يا رسول
الله ان العين اليهم سريعة فاسترق لهم من العين فقال لها نعم وفي رواية دخل رسول الله
صلى الله عليه وسلم بيت ام سلمة وعندها صبي يشتكي فقالوا يا رسول الله اصابته
العين فقال اما تسترقون له من العين وعن عائشة رضي الله تعالى عنها كان يؤمر العائن ان
يتوضا ثم يغتسل منه المعين الذي اصيب بالعين ولما خاف يعقوب عليه السلام ان يسبق
من امره هذا الى بعض الاوهام ان الحذر يغني عن القدر نفى ذلك عنه بقوله عليه السلام
وما اغني اي ادفع عنكم بقولي ذلك من الله من شيء قدره عليكم وانما ذلك شفقة ومن
مزيدة للتاكيد واعلم ان الانسان مامور بان يراعي الاسباب المعتبرة في هذا العالم ومامور
بان يجزم بانه لا يحصل الا ما قدره الله تعالى وان الحذر لا يدفع القدر فالانسان مامور بان يحذر
عن الاشياء المهلكة والاغذية الضارة ويسعى في تحصيل المنافع ودفع المضار بقدر الامكان
ومع ذلك يكون جازما بانه لا يصل اليه الا ما قدره الله تعالى ولا يحصل في الوجود الا ما اراد
الله تعالى بقوله عليه السلام لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من ابواب متفرقة اشارة الى
رعاية الاسباب المعتبرة في هذا العالم وقوله وما يغني عنكم من الله من شيء اشارة الى عدم
الالتفات الى الاسباب بل الى التوحيد المحض والبراءة عن كل شيء سوى الله تعالى ولما قصر الامر
كله اليه تعالى وجب رد كل امر اليه وقصر النظر عليه فقال منبها على ذلك عليه اي على الله
وحده الذي ليس الحكم الا له توكلت اي جعلته وكيلي فرضيت بكل ما يفعل وعليه وحده فليتوكل
المتوكلون اي الثابتون في باب التوكل فان ذلك من اعظم الواجبات من فعله فاز ومن
اغفله خاب وقد ثبت بالبرهان انه لا حكم الا لله فلزم القطع بان حصول كل الخيرات
ودفع كل الافات من الله وذلك يوجب انه لا توكل الا على الله تعالى فهذا مقام شريف عال
والشيخ ابو حامد الغزالي اكثر في تقرير هذا المعنى في كتاب التوكل من كتب احياء علوم
الدين فمن اراد الاستقصاء فيه فليطالع ذلك الكتاب ولما قال يعقوب وما اغني
عنكم من الله من شيء صدقه الله تعالى في ذلك فقال ولما دخلوا من حيث امرهم ابوهم
اي متفرقين ما كان اي ذلك التفرق يغني عنهم من الله اي قضائه واغرق في النفي فقال من
شيء اي مما قضاه عليهم كما تقدم من قول يعقوب عليه السلام فسرقوا واخذ
بنيامين يوجدان الصراع في رحله وتضاعفت المصيبة على يعقوب وقوله تعالى الا حاجة
استثناء منقطع اي لكن حاجة في نفس يعقوب وهي الدخول على ما امر به شفقة
عليهم قضاها يعقوب وابرزها من نفسه الى اولاده فعملوا فيها بمراده فاغنى عنهم ذلك
الخلاص من عقوق ابيهم فقط وانه اي يعقوب عليه السلام مع امره لنبيه بذلك
لذو علم اي معرفة بالحكمين حكم التكليف وحكم التقدير واطلاع على الكونين عظيم لما
علمناه بالوحي ونصب الحجج ولذلك قال وما اغني عنكم من الله من شيء ولم يغتر
بتدبيره ولما كان قد يظن ان كل احد يكون كذلك اي يعلم ما علمه نفى ذلك سبحانه

بقوله تعالى

بقوله تعالى ولكن اكثر الناس اي لاجل ما لهم من الاضطرار لا يعلمون اي ليسوا بذوي
علم لما علمنا لاعراضهم عنه واستفراغ قواهم في الاهتمام بما وقع التكليف لهم به من احوال
الدنيا ومغالبة فطرهم القويمة السليمة بردها الى ما تدعوهم اليه الحظوظ والشهوات
حتى لا يكون طب لمخلوق ولما اخبر تعالى عن دخولهم الى البلد اخبر عن دخولهم لحاجتهم
الى يوسف عليه السلام فقال ولما دخلوا اي اخوة يوسف على يوسف في المقدمة
الثانية باخيهم بنيامين قال هذا اخونا فقال احسستم واصبتم وستجدون خير ذلك
عندي ثم انزلهم واكرم مثواهم ثم اضافهم واجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقي بنيامين
واحدا فبكى وقال لو كان اخي يوسف حيا اجلسني معه فقال يوسف لقد صار اخوكم هذا
وحيدا فاجلسه معه على مائدته وجعل يواكله فلما كان الليل امر ان ينزل كل اثنين
منهم بيتا فبقي بنيامين وحده فقال يوسف هذا ينام معي على فراشي كما قال تعالى
آوى اي ضم اليه اخاه فبات معه وجعل يوسف يضمه اليه ويشمه ثم قال له ما اسمك
قال بنيامين قال وما بنيامين قال المشكل وذلك انه لما ولد هلكت امه قال له وما
اسم امك قال راحيل بنت لاوي قال فهل لك من ولد قال نعم عشرة بنين ولما راى تاسفه
لاخ له هلك قال له اتحب ان اكون اخاك بدل اخيك الهالك فقال من يجد اخا مثلك
ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وقال له اني انا
اخوك فلا تبتئس اي لا تحزن بما كانوا يعملون اي بشيء فعلوه بنا فيما مضى فان الله
قد احسن الينا فلا تلتفت الى اعمالهم المنكرة التي اقدموا عليها وقد جمعنا الله تعالى
على خير ولا تعلمهم بشيء من ذلك وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون
بالسكون ومد بعد النون من انا قبل الهمزة المفتوحة نافع والباقون بالقصر
ثم انه ملا لهم اوعيتهم كما ارادوا وكانه في المدة الاولى ابطا في تجهيزهم ليتعرف
اخبارهم في طول المدة من حيث لا يشعرون ولذلك لم يعطف بالفاء واسرع في تجهيزهم
في هذه المدة قصدا الى انفراده باخيه من غير رقيب بالحيلة التي دبرها فلذلك اتت
الفاء في قوله فلما جهزهم اي اعجل جهازهم واحسنه بجهازهم جعل بنفسه او بمن امره
السقاية اي المشربة التي كان يشرب بها في رحل اخيه اي في وعاء طعامه بنيامين كما فعل
ببضاعتهم في المرة الاولى قال ابن عباس كانت من زبرجد وقال ابن اسحاق كانت من فضة
وقيل من ذهب وقال عكرمة كانت مشربة من فضة مرصعة بالجواهر وجعلها يوسف
مكتالا ليلا يكال بغيرها وكان يشرب فيها وقال الرازي وهذا بعيد لان الاناء الذي
يشرب فيه الملك لا يصلح ان يجعل صاعا وقيل كانت الدواب تسقى بها قال وهذا
ايضا بعيد لان الانية التي تسقى الدواب فيها لا تكون كذلك قال والاصوب ان يقال
كان ذلك الاناء شيئا له قيمة اما الى الحد الذي ذكروه فلا والسقاية والصواع واحد
ثم ارتحلوا وامهلهم يوسف حتى انطلقوا ورهبوا منزلا وقيل حتى خرجوا من العمارة
ثم بعث خلفهم من استوثقهم وحبسهم ثم اذن اي اعلن فيهم بالنداء مؤذن قائلا
برفيع صوته وان كانوا في غاية القرب منه بما دل عليه اسقاط الاداة ايتها العير
اي القافلة قال ابو الهيثم كلما سير عليه من الابل والحمير والبغال فهو عير قال وقول
من قال العير الابل خاصة باطل فقوله ايتها العير اي اصحاب العير كقوله يا خيل الله

بالندا

وكيلا قال الفراء كانوا اصحاب ابل وقال مجاهد كانت العير حميرا وقد ورش بالراء
هنا موذن وواو وقفا ووصلا وحمزة في الوقف فقط والباقون بالقصر انكم لسارقون
قفوا حتى ينظر الذي فقد لنا والسرقة اخذ ما ليس له اخذه في خفاء من حرز ومثله فكان فتيل
هل كان هذا النداء بامر يوسف او ملكان بامره فان كان بامره فكيف يليق بيوسف
مع علو منصبه ان يتهمهم افواما وينسبهم الى السرقة كذبا وبهتانا وان كان بغير امره
فهلا اظهر براءتهم عن تلك التهمة اجيب باجوبة الاول انه عليه السلام لما اظهر لاخيه
انه يوسف قال ليست اقارفك قال لا سبيل الى ذلك لا عند ابي حيلة انسبك فيها
الى ما لا يليق بك قال قد صفحت لك وعلى هذا لم يتم قلبه بسبب هذا الكلام لانه
قد رضي به فلا يكون ذنبا الثاني انكم لسارقون يوسف من ابيه الا انهم لما اظهروا هذا
الكلام نهوض من العقارب وفي العقارب نهض منه وحة من الكذب الثالث ان المنادي
انما ذكر ذلك النداء على سبيل الاستفهام وعلى هذا يخرج ان يكون كذبا الرابع ليس في القرآن
ما يدل على انهم قالوا ذلك يا مر يوسف قال الرازي والاقرب ان ظاهر الحال انهم فعلوا
ذلك من انفسهم لانهم لما طلبوا السقاية فلم يجدوها ولم يكن هناك احد غيرهم غلب
على ظنهم انهم الذين اخذوها ولما وصل اليهم الرسول قال لعلكم الم تحسن ضيافتكم ويكرم
مثواكم وتقيم كيلكم وفعلنا بكم ما لم نفعله بغيركم قالوا بلى وما ذاك قالوا بسقاية الملك
فقد بلغها وانا بها علما عظيما وجاء بكم فذلك قوله تعالى قالوا والحال انهم قد افتلوا عليهم
اي على جماعة الملك المنادي وغيره ماذا اي بلا الذي تفقدون مما يمكننا احضاره
والفقد ان ضد الوجود قالوا افقد وكان السقاية اسمان فتارة تؤنث وهنا تذكر
صواع الملك والصواع هو المكيال وهو السقاية المتقدمة تسمو تارة كذا
وتارة كذا وانما اتخذ واهذا الاناء مكيالا لان عزة ما يكال به في ذلك الوقت ولمن
جاء به حمل بعير اي من الطعام والبعير لغة يطلق على الذكر خاصة واطلقه بعضهم
على الناقة ايضا وجعله نظير انسان وهو مما جرى عليه القلم في باب الوصف ويجمع
في القلة على ابعرة وفي الكثرة على بعران وانا به زعيم قال مجاهد الزعيم هو الذي
اذن والزعيم الكفيل وهذه الاية تدل على ان الكفالة كانت صحيحة في شرعهم وقد
حكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله الزعيم غارم واورد من شرعنا
ما ليس بشرع لنا هل يكون شرعا لنا في ذلك خلاف والراجح انه ليس بشرع لنا
فان قيل كيف يصح هذه الكفالة مع ان السارق لا يستحق شيا اجيب بانهم لما كانوا
سراقا في الحقيقة صح ذلك على سبيل رد الضائع فيكون جعالة او ان مثل هذه
الكفالة كانت جائزة عندهم في ذلك الزمان قالوا اي اخوة يوسف تالله التاء حرف
قسم وهي عند الجمهور بدل من واو القسم والواو بدل من الباء هي فرع الفرع فلذلك
ضعفت على التصريف في الاسم فلا تدخل الا على الجلالة الكريمة او الرب مضافا للكعبة
او الرحمن وقول ضعيف لو قلت تا الرحيم لم يجز اي والله لقد علمتم اي بما جربتم من
امانتنا فعل القسم في كتاب سيبويه ما جئنا والكوفيون بالام النفي بالام فقالوا التفسد اي توقع
الفساد في الارض اي ارض مصر ولقد علمتم مؤكدا اي بوجه من الوجوه ما كنا سارقين اي موصوفين
بهذا الوصف قط فان قيل من اين علموا ذلك اجيب بان ذلك يعلم مما رأوا من احوالهم

وقيل

وقيل لانهم ردوا البضاعة التي جعلت في رحالهم قالوا فلو كنا سارقين ما رددناها
وقيل قالوا ذلك لانهم كانوا معروفين بانهم لا يتناولون ما ليس لهم وكانوا اذا دخلوا
مصر كمموا افواه دوابهم كيلا لا تتناول شيئا من حروث الناس قالوا اي اصحاب يوسف
المنادي ومن معه فما جزاؤه اي السارق وقيل الصواع ان كنتم كاذبين في قولكم ما كنا
سارقين ووجد فيكم والجزاء مقابلة العمل بما يستحق عليه من خير او شر قالوا جزاؤه
وثوقا منهم بالبراءة واخبارا بالحكم عندهم جزاؤه من وجد في رحله ولتحققهم البراءة
علقوا الحكم على مجرد الوجدان لا السرقة ثم اكدوا ذلك بقولهم فهو جزاؤه قال ابن عباس
كان ذلك الزمان كل سارق يسرقه فلذلك قالوا ذلك اي ما السارق جزاؤه ان يسلم السارق
بسرقته الى المسروق منه فيسترق سنة وكان ذلك سنة آل يعقوب في حكم السارق
وكان حكم ملك مصر ان يضرب السارق ويغرم ضعفي قيمة المسروق فاراد يوسف ان يحبس
اخاه عنده فرد الحكم اليهم ليتمكن من حبسه عنده على حكمهم كذلك اي الجزاء نجزي الظالمين
بالسرقة قال اصحاب يوسف فلا بد من تفتيش رحالكم فردوهم الى يوسف فامر بتفتيشها
بين يديه فبدأ باوعيتهم ففتشها قبل وعاء اخيه لئلا يتهم فلم يجد فيها شيئا ثم اي بعد
تفتيش اوعيتهم والثاني في ذلك استخرجها اي السقاية او الصواع لانه يذكر ويؤنث
من وعاء اخيه فلما خرج الصاع من وعاء بنيامين نكس اخوته رؤوسهم من الحياء واقبلوا
على بنيامين يلومونه ويقولون له ايش الذي صنعت فضحتنا وسودت وجوهنا
يا ابن راحيل ما زال لنا منكم بلاء حتى اخذت هذا الصاع فقال بنيامين بل بنو راحيل
ما زال لهم منكم بلاء ذهبتم باخي فاهلكتموه في البرية ان الذي وضع هذا الصاع في رحلي
هو الذي وضع البضاعة في رحالكم فاخذ بنيامين رقيقا وقيل ان المنادي واصحابه
هم الذين تولوا تفتيش رحالهم وهم الذين استخرجوا الصواع من رحله فاخذوه
برقبته وردوه الى يوسف تنبيه هنا همزتان مختلفتان من كلمتين قرأ نافع
وابن كثير وابو عمرو بابدال الثانية ياء والباقون بالتحقيق كذلك اي مثل ذلك الكيد
كدنا ليوسف خاصة بان علمناه اياه جزاء لهم على كيدهم بيوسف عليه السلام في الابتداء
وقد قال يعقوب ليوسف فيكيدوا لك كيدا والكيد من الخلق الحيلة ومن الله تعالى
التدبير بالحق فالمراد من هذا الكيد وهو ان الله تعالى القى في قلب اخوته ان حكموا بان جزاء
السارق هو ان يسترق لا جرم لما ظهر الصواع في رحله حكموا عليه بالاسترقاق وصار
ذلك سببا لتمكن يوسف عليه السلام من امساك اخيه عند نفسه ولما كان الكيد يشعر
بالحيلة والخديعة وهو في حق الله تعالى محال حمل على الغاية ونهايته هنا القاء الانسان
من حيث لا يشعر في امر مكروه لا سبيل له الى دفعه فالكيد في حق الله تعالى محال على هذا
المعنى وقيل المراد بالكيد ههنا ان اخوة يوسف سعوا في ابطال امره والله تعالى نصره
وقواه واعلا امره وقوله تعالى ما كان اي يوسف ليأخذ اخاه في دين الملك اي بيان
حكمه للكيد لان جزاءه كان عنده الضرب وتغريم مثلي ما اخذ لا انه يستعبد وقوله تعالى
وقوله تعالى الا ان يشاء الله فيه وجهان احدهما انه استثناء منقطع تقديره ولكن
بمشيئة الله اخذه في دين غير دين الملك وهو دين آل يعقوب ان الاسترقاق جزاء
السارق والثاني انه مفرغ من الاحوال العامة والتقدير ما كان ليأخذه في كل حال

الا في حال التباسه بمشيئة الله اي اذنه في ذلك ولما كان يوسف عليه السلام انما تمكن من ذلك
بعلو درجته وتمكنه ورفعته بعد ما كان فيه عندهم من الصغار كان ذلك محل عجب فقال
تعالى التفاتا الى مقام التكلم نرفع درجات من نشاء اي بالعلم كما رفعنا درجته وكان
الاصل درجاته ولكنه عمم لانه ادل على العظمة فكان اليق بمظهرها وفي هذه الاية دليل
على ان العلم اشرف المقامات واعلا الدرجات لان الله تعالى لما هدى يوسف الى هذه
الحيلة مدحه لاجل ذلك ورفع درجته على اخوته ووصف ابراهيم عليه السلام بقوله
تعالى نرفع درجات من نشاء عند ما حكى عنه دلايل التوحيد والبراءة عن الهية الشمس
والقمر والكواكب وقرا عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء والباقون بغير تنوين
وفوق كل ذي علم عليم قال ابن عباس فوق كل عالم عالم الى ان ينتهي العلم الى الله تعالى
فالله تعالى فوق كل عالم لانه هو الغني بعلمه عن التعليم وفي الاية دليل على ان اخوة يوسف
كانوا علماء وكان يوسف اعلم منهم قال ابن الانباري يجب ان يتهم العالم نفسه ويستشعر
التواضع لربه تعالى ولا يطمع نفسه في العلية في العلوم لانه لا يخلو عالم من عالم فوقه ولما
حصل لاخوة يوسف من اخراج الصواع من رحل بنيامين ما حصل فكانه قيل فاذا كان
فعلهم عند ذلك فقيل قالوا تسلية لانفسهم ودفعا للعار عن خاصتهم ان يسرق ولم يجزموا
بسرقته لعلمهم بامانته وظنهم ان الصواع دس في رحله وهو لا يشعر كما دست بضاعتهم
في رحالهم وكان قد قال لهم ذلك فقد سرق اخ له من قبل اي يوسف وكان غرضهم من ذلك
انا لسنا على طريقته ولا على سيرته وهو واخوه مختصان بهذه الطريقة لانهما من ام
اخرى واختلفوا في السرقة التي نسبوها الى يوسف على اقوال فقال
سفيان ابن عيينة اخذ دجاجة من الطير التي كانت في بيت يعقوب فاعطاها سائلا
وقال مجاهد جاءه سائل فاخذ بيضة من البيت فناولها للسائل وقال وهب كان
يخبا الطعام من مائدة يعقوب للفقراء وقال سعيد بن جبير كان جده ابو امه كافرا يعبد
الوثن وامرته امه ان يسرق تلك الاوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الاوثان
ففعل ذلك فهذا هو السرقة وقال محمد بن اسحاق ان يوسف كان عند عمته ابنة
اسحق وكانت تحبه حبا شديدا فارادت ان تمسكه عند نفسها وكان قد بقي عنها منطقة
لابيها اسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف من تحت ثيابه
وهو صغير لا يشعر ثم قالت انه سرقها وكان حكمهم ان من سرق يسترق فقال يعقوب
ان كان قد فعل ذلك فهو مسلم لك فامسكته عندها حتى ماتت فتوسلت بهذه الحيلة
الى امساكه عند نفسها قال ابن الانباري وليس في هذه الافعال كلها سرقة ولكنها تشبهها
فعيروه بها عند الغضب وقيل انهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوة من الغضب
على يوسف بعد تلك الوقايع وبعد انقضاء المدة الطويلة قال الرازي وهذه الواقعة
تدل على ان قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها اي يظهرها
لهم والضمير للكلمة التي في قوله قال اي في نفسه انتم شر مكانا اي من يوسف واخيه
لسرقتكم اخاكم من ابيكم وظلمكم له وقيل الضمير يرجع الى الكلمة التي قالوها في حقه
وهي قولهم فقد سرق اخ له من قبل وعلى هذا يكون المعنى فاسر يوسف جواب الكلمة
التي قالوها في حقه والله اعلم منكم بما تصفون اي تقولون وانه ليس كما قلتم قال اصحاب

دجاجة

الاخبار

الاخبار والتعبير ان يوسف عليه السلام لما استخرج الصواع من رحل بنيامين نقره
وأدناه الى اذنه ثم قال ان صواعي هذا اخبرني انكم اثنا عشر رجلا لاب واحد وانكم انطلقتم
باخ لكم من ابيكم فبعثموه فقال بنيامين لابيه الملك سل صواعك من جعله في رحلي
ثم نقره وادناه من اذنه فقال ان صواعي يعضبان وهو يقول كيف تسألوني عن
صاحبي وقد رايت مع من كنت قالوا فغضب ويبل لذلك وكان اولاد يعقوب
اذا غضبوا لم يطيقوا وكان رويبل اذا غضب لم يقم لغضبه شيء وكان اذا صاح القت
كل حامل حملها ان سمعت صوته وكان مع هذا اذا مسه احد من ولد يعقوب يمكن
غضبه وكان اقوى الاخوة واشدهم وروي انه قال لاخوته كم عدد الاشواق بمصر
قالوا عشرة فقال اكفوني انتم الاشواق وانا اكفيكم الملك واكفوني انتم الملك
وانا اكفيكم الاشواق ودخلوا على يوسف فقال رويبل لترددن علينا اخانا او لاصيحن
صيحة لا يبقى بمصر امراة حامل الا القت ولدها وقامت كل شعرة في جسده حتى خرجت
من نبات به فقال يوسف لابن له صغير قم الى جنب رويبل فمسكه ويروى خذ بيده فاتني به
فذهب الغلام فمسكه فسكن غضبه فقال لاخوته من مشى منكم قالوا لم يصبك منا احد
فقال رويبل ان هنا بذرا من بذر يعقوب فقال يوسف من يعقوب ويروى انه غضب
ثانيا فقام اليه يوسف فركضه برجله واخذ بتلابيبه فوقع على الارض وقال انتم
يا معشر العبرانيين تظنون ان لا احد اشد منكم فلما صار امرهم الى هذا رأوا ان لا سبيل
لهم الى تخليصه خضعوا وذلوا وقالوا يا ايها العزيز فخاطبوه بما يليق بالاكابر لعلمهم
ان له اي بعد الذي وجد الصواع في رحله ابا شيخا كبيرا اي في سنه وقدره وهو مغرم
به لا يقدر على فراقه ولا يصبر عنه فخذ احدنا مكانه واحسن الينا بارساله اليه
انا نراك اي نعلمك علما هو كالرؤية او بحسب ما راينا من المحسنين اي العريقين في صفة
الاحسان فاجرنا على عادة احسانك فكانه قيل فما اجابهم قيل قال معاذ الله
نصب على المصدر وحذف فعله واضيف الى المفعول اي يعوذ الله معاذا اعظيما
من ان ناخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل سرق متاعنا لانهم لم يفعلوا الصواع
فعل السارق ولم يقع منه قبل ذلك ما يصح الطلاق الوصف عليهم فعلك لكن تقوله
انا اذا اي اخذنا احدا مكانه لظالمون اي عريقون في الظلم فوضعتم فلم تظلمون ما هو
ظلم عندكم ولما ايأسهم بما قال عن الطلاق بنيامين حكى الله تعالى ما اتمروا لهم من الراي
فقال فلما استيأسوا الا يائسا منه

وجوه الجر وهما انها مزيدة فتتعلق الظرف بالفعل بعدها والتقدير ومن قبل هذا
فرطتم اي قصرتم في حق يوسف وشأنه وزيادة ما كثيرة وبه بدا الزمخشري وغيره وقيل
انها مصدرية في محل رفع بالابتدا والخبر هو قوله في يوسف اي وتقصيركم كائن ومستقر
في يوسف والى هذا ذهب الفارسي وقيل غير ذلك ولا طايل بذكره اذ في هذا التقدير
كفاية فلن أبرح اي افارق الارض ارض مصر حتى يأذن لي ابي بالعود اليها او يحكم الله
لي اي بخلاصي وهو خير الحاكمين اي اعدلهم فان قيل هذه الواقعة من اولها الى هنا
تزوير وكذب فكيف يجوز ليوسف عليه السلام ان يعمل مثل هذه الاعمال بابيه ولم يجره
لمكانه وحسن اخاه ايضا عنده مع علمه بشدة وجد ابيه عليه وشدة غمه وحزنه
ما فيه من العقوق وايذا الناس من غير ذنب لا سيما ويعلم انه اذا حبس اخاه عنده
بهذه التهمة فانه يعظم حزن ابيه ويشتد غمه فكيف يليق بالرسول المعصوم المبالغ
في التنزيه الى هذا الحد اجيب باجوبة كثيرة للعلما واحسنها انه انما فعل ذلك
بامر الله تعالى له لا عن امره واما امره الله تعالى بذلك ليزيد بلا بعقوب فيضاعف
له الاجر على البلا ويلحقه بدرجة ابايه والله تعالى اشار لا يعلم احد من خلقه
وهو المتصرف في خلقه بما يشا هو الذي اخفى خبر يوسف عن يعقوب في هذه المدة
مع قرب المسافة لما يريد ان يدبره فيهم والله اعلم باحوال عباده ثم قال كبيرهم
ارجعوا الى ابيكم اي وفي نقولوا له منكرين لحطايكم يا ابانا واكدوا مقالتهم
فانه ينكرها فقولوا له ان ابنك سرق فان قيل كيف تحملوا عليه بانه سرق من غير
بينة وهو فداجاءهم بالجواب الشافي تعالى الذي جعل الصواع في رحل هو
الذي جعل البضاعة في رحلكم اجيب بانهم لما شاهدوا الصواع وقد اخرج من متاعه
علمت على ظاهرهم انه سرق فلذلك نسبوه الى السرقة على ظاهر الامر لا في حقيقة الحال
ويدل على انهم لم يقطعوا عليه بالسرقة قولهم وما شهدنا عليه الا بما علمنا ظاهرا
من رد بضاعتنا الصواع يخرج من وعايه واما قول وضع الصواع في رحلي من وضع
البضاعة في رحلكم والمر واظهر لان هذا كان لما رجعوا بالبضاعة اليهم اعترفوا بانهم
هم الذين وضعوها في رحلهم واما هذا الصواع فان احدا لم يعترف بانه هو الذي
وضع الصواع في رحله فلهذا السبب علق الظاهر انهم انه يسرق فشهدوا وانما على
الظن وما كنا للغيب اي لما غاب عنا حين اعطينا الموثق حافظين ما كنا نعلم ان ابنك
يسرق ويصير امره الى هذا ولو علمنا ذلك ما ذهبنا به معنا وانما قلنا ونحفظ
اخانا مما لنا الى حفظه سبيل وان حقيقة الحال غير معلومة لنا فان الغيب
لا يعلمه الا الله فلعل الصواع دس في رحله ونحن لا نعلم ذلك فقال حيلة ودرء
في ذلك غاب عنا علمها كما صنع فورد بضاعتنا واسئل القرية اي اهلها على حذف المضاف
وهو مجاز مشهور وقيل انه مجاز لكنه من باب اطلاق المحل على الحال التي فيها
وهي مصر كانوا ارسخوا اسمع عما اخبرناك به نخبر ونحن بصدقنا فان الامر قد اشتهر
عندهم وقيل بني قرية من قرى مصر كانوا ارتحلوا منها الى مصر واصحاب العير
اي القافلة وهم قوم من كنعان جيران يعقوب عليه السلام التي اقبلنا فيها
واسوا ر طلب الاخبار باداته من الهمزة وهل وغيرهما والقرية الارض الجامعة لحدود

فاصلة

فاصلة واصابها من قريت الماء جمعته والعير قافلة الحمير من العير بالفتح وهو الحمار هذا
هو الاصل ثم كثر حتى استعمل في غير الحمير ولما كان ذلك جديرا بالانكار لما تحقق من كرم اخيهم
اكدوه بقولهم وانا اي والله لصادقون في قولنا ولما رجعوا الى ابيهم وقالوا له ما قال كبيرهم
فكانه قيل فما قال لهم فقيل قال لهم بل سولت اي زينت تزيينا فيه غي لكم انفسكم امرا
اي حدثتكم بامر ففعلتموه والا فما ادري الملك ان السارق يوخذ بسرقته فصبر جميل اي فامري
صبر جميل او فصبر جميل صبري او اجمل وقدم مثل ذلك في واقعة يوسف الا انه قال فيها
والله المستعان على ما تصفون وقال هنا عسى الله ان ياتيني بهم اي بيوسف وشقيقه
بنيامين والاخ الثالث الذي اقام بمصر جميعا اي فلا يتخلف منهم احد وانما قال يعقوب
عليه السلام هذه المقالة لانه لما طال حزنه واشتد بلاؤه ومحنته علم ان الله سيجعل
له فرجا ومخرجا عن قريب فقال ذلك على سبيل حسن الظن بالله تعالى وتفرس ان هذه الافعال
نشات عن يوسف عليه السلام وان الامر يرجع الى سلامة واجتماع ثم علل ذلك بقوله
انه هو العليم اي البليغ العلم بما خفي عنا من ذلك فيعلم اسبابه الموصل الى المقاصد
الحكيم اي البليغ فيما يريده ويقتضيه ولما ضاق قلب يعقوب عليه السلام بسبب
الكلام الذي سمعه من ابنائه في حق بنيامين تولى اي انصرف بوجهه عنهم لما توالى عليه
من الحزن وقال يا اسفى اي يا اسفى على يوسف اي تعال هذا اوانك والاسف اشد الحزن
والحسرة والالف بدل من يا المتكلم وانما ياسف على يوسف دون اخوته والحادث انما هو
مصيبتهما لان مصيبته كانت قاعدة المصائب والحزن القديم اذا صادفه حزن اخر كان
ذلك اوجع للقلب واعظم لهيجان الحزن الاول كما قال متمم بن نويرة لما راى قبرا جديدا
جدد حزنه على اخيه مالك فقال اتبكي كل قبر رايته لقبر ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت نعم ان الاسى يبعث الاسى فدعني فهذا كله قبر مالك ولانه كان واثقا بحياتهما دون
حياته وفي حديث رواه الطبراني لم تعط امة من الامم انا لله وانا اليه راجعون عند
المصيبة الا امة محمد صلى الله عليه وسلم الا ترى ان يعقوب حين اصابه ما اصاب لم يسترجع
وقال يا اسفا وابيضت عيناه اي انمحق سوادهما وبدل بياضا من الحزن اي من كثرة البكا
عليه وقيل عند غلبة البكا يكثر الماء في العين فتصير العين كانها ابيضت من بياض ذلك
الماء وقيل ضعف بصره حتى صار يدرك ادراكا لطيفا قال مقاتل لم يبصر بهما ست سنين حتى
كشفه الله تعالى بقميص يوسف قيل ان جبريل دخل على يوسف في السجن فقال انه بصر ابيك
ذهب من الحزن عليك فوضع يده على راسه وقال ليت امي لم تلدني ولم اكن حزنا على ابي
فان قيل هذا اظهار للجزع وجار مجرى الشكاية وهو لا يليق بمثل يعقوب عليه السلام
اجيب بانه لم يذكر الا هذه الكلمة ثم عظم بكاؤه ثم امسك لسانه عن النياحة
وذكر ما لا ينبغي ولم يظهر الشكاية مع احد من الخلق ويدل لذلك قوله فهو كظيم
اي مغموم مكروب لا يظهر كربه وقوله انما اشكو بثي وحزني الى الله فكل ذلك يدل على انه
لما عظمت مصيبته وقويت محنته انه صبر وتجرع الغصة وما اظهر الشكاية
به فلا جرم استوجب به المدح العظيم والثنا الجزيل روي ان يوسف عليه السلام
قال لجبريل عليه السلام هل لك علم بيعقوب قال نعم وكيف حزنه قال حزن
سبعين ثكلى وهي التي لها ولد واحد يموت قال فهل له اجر قال نعم اجر مائة شهيد

ولعل امثال ذلك لا تدخل تحت التكليف فانه قال من يملك نفسه عند الشدائد وايضا البكاء مباح
فقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده ابراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول
ما يسخط الرب وانا على فراقك يا ابراهيم لمحزونون رواه الشيخان تنبيه شرف الانسان
بالسان والعين والقلب فبين تعالى ان هذه الثلاثة ان كانت غير نافعة في العرفان للسان
كان مشغولا لا نعقل ولا تسماع العين بالبكاء والبياض والقلب بالغم الشديد الذي يشبه الوعاء
المملوء الذي سد فلا يمكن خروج الماء منه وقد امتاز الغم في وصف ذلك الغم ولما وقع من يعقوب
عليه السلام ذلك كان قايلا يقول فما قاله اولا ده تقتل قالوا له حتى تكون من ذلك تالله تفتؤ
اي لا تفتؤ اي لا تزال تذكر يوسف تفجعا فتفتؤ جواب القسم وهو على حذف لا كقول
الشاعر فقلت يمين الله ابرح قاعدا ولو قطعوا راسي لديك واوصالي وبدل على حذفها انه لو كان
مثبتا لاقترن بلام الابتداء ونون التوكيد معا عند البصريين او احدهما عند الكوفيين
فتفتؤ هنا نافية بمعنى لا تزال كما تقدم وشمت تفتؤ بالواو حتى اي الى ان تكون مريضا
اي مشرفا على الهلاك لكبر سنك ونحوه مصدر يستوي فيه الواحد وغيره او تكون من الهالكين
اي الموتى فان قيل لم حلفوا على ذلك مع انهم لم يعلموا ذلك قطعا اجيب بانهم بنوا الامر على
الظاهر قال اكثر المفسرين قايل هذا الكلام هم اخوة يوسف وقال تعضهم ليس الاخوة بل
الجماعة الذين كانوا في الدار من اولاده ولخدمه ولما قالوا الرد لك فكان قايلا يقول فاذا قال
لهم فقيل قال انما اشكو بثي والبث اشد الحزن سمي بذلك لانه من صعوبته لا يطاق
حمله فيباح به وينشر وحزني مطلقا وان كان سببه خفيفا بقدر الخالق على ازالته الى الله
المحيط بكل شيء علما وقدرة لا الى غيره فهو الذي تنفع الشكوى اليه واعلم من الله ان الملك
الاعلى من اللطف بهذا اهل البيت ما لا تعلمون فيما يتاتى بالفرج من حيث لا احتسب
وفي ذلك اشارة الى انه كان يعلم حياة يوسف ويتوقع رجوعه اليه وذكر في السبب هذا الموضع
امورا احدها ان ملك الموت اتاه فقال له ما املك الموت هل قبضت روح ابني يوسف
قال لا يا نبي الله ثم اشار الى جانب مصر وقال اظنه ههنا ولذلك قال يا بني اذهبوا
فتحسسوا والتحسس طلب الخبر بالحاسة وهو قريب من التجسس بالجيم وقيل
التحسس بالحاء يكون في الخير وبالجيم يكون في الشر ومنه الحابوس وهو الذي يطلب
الكف عن عورة الناس والمعنى تحسسوا اخبارا من اخبار يوسف واخيه اي اطلبوا خبرهما
وتاتيهما انه علم ان رويا يوسف صادقة لان امارات الرشد والكمال ظاهرة في حق يوسف
ورويا بمثله لا تخطى وتاسعها تعالى اوحى اليه انه سيوصله اليه ولكنه تعالى ما عين الوقت
فلهذا بقي في القلق وراسعها قال السدي لما اخبره بنون بسيرة الملك وكمال حاله
وقوله وقفاله طمع في ان يكون هو يوسف وقال بعيد ان يظهره الكفار مثله ثم
تلطف بنسيه وقال لعله ولا تيأسوا اي تقنطوا من روح الله قال ابن عباس من شدة
الله وقال قتادة من فضل الله وقال ابن زيد من فرج الله انه لا ييأس من روح الله
الا القوم الكافرون اي الغريقون في الكفر قال ابن عباس ان المؤمن من الله على خير
يرجو في البلاء ويحمده على الرخاء والكافر على الضد من ذلك فان الياس من رحمة الله لا يحصل
الا اذا اعتقد ان الله العالم غير قادر على الكمال او عنه عالم بجميع المعلومات وليس بكريم
بل هو بخيل وكل واحد من هذه الثلاثة توجب الكفر فاذا كان اليأس لا يحصل الا عند حصول

لعله م

احد

احد هذه الثلاثة وكل واحد منها كفر ثبت ان الياس لا يحصل الا لمن كان كفرا وقرا البزي
بعد اليا من تيئسوا وبعد اليا من لا ييأس بالف وبعدها يا مفتوحة بخلاف عنه والباقون
بهمزة مفتوحة قبلها يا ساكنة ولما قال يعقوب عليه السلام لنبيه ذلك قبلوا منه هذه الوصية
وعادوا الى مصر فلما دخلوا عليه اي على يوسف قالوا يا ايها العزيز وكان العزيز لقب الملك مصر يومئذ
مسنا واهلنا اي من خلفناهم ورانا الضر اي لابسنا ملابسة نحسها وجئنا ببضاعة
وقالوا مزجاة اما لنقصها او لرداءتها او لهما جميعا وقال الحسن البضاعة المزجاة القليلة
واختلفوا في تلك الرداءة فقال ابن عباس كانت دراهم ردية لا تقبل في ثمن الطعام
وقيل متاع الاعراب الصوف والسمن وقيل الاقط وقيل النعال والادم وقيل
ان دراهم مصر كانت ينقش فيها صورة يوسف والدراهم التي جاوا بها ما كان فيها
ذلك فما كانت مقبولة عند الناس ثم سببوا عن هذا الاعتذار لانه اقرب الى رحمة
اهل الكرم قولهم فاوف لنا الكيل اي شفقة علينا بسبب ضعفنا وتصدق
اي تفضل علينا زيادة على الوفا كما عودتنا بفضل نرجوا ثوابه ولما راوا افعاله تدل
على تمسكه بدين الله تعالى عللوا ذلك بقولهم ان الله اي الذي له الكمال كله يجزي
المتصدقين اي وان كانت على غني قوي فكيف اذا كانت على اهل الحاجة والضعف فائدة
سيل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على نبي من الانبيا سوى نبينا عليه
وعليهم الصلاة والسلام قال سفيان الم تسمع قوله وتصدق علينا الاية يريد ان
الصدقة كانت حلالا لهم ولابيهم وروي ان الحسن سمع رجلا يقول اللهم تصدق علي
قال ان الله لا يتصدق وانما يتصدق من يبغي الثواب قل اللهم اعطني وتفضل علي
فان قيل اذا كان ابوهم امرهم ان يتحسسوا من يوسف واخيه فلم عادوا الى الشكوى
اجيب بان المتحسس يتوصل الى مطلوبه بجميع الطرق والاعتراف بالعجز وضموا رقة الحال
وقلة المال وشدة الحاجة وذلك مما يرقق القلب فقالوا نجربه في هذه الامور فان رق
قلبه لنا ذكرنا له المقصود والا سكتنا فقدموا هذه المقدمة قال ابن اسحق ذكر لي
انهم لما كلموه بهذا الكلام ادركته الرقة فارفض دمعه فباح بالذي كان يكتم فلذا قال لهم
هل علمتم مقررا لهم بعد ان استيأسوا به قال البقاعي والظاهر ان هذا كان بغير
ترجمان ما اي قبح الذي فعلتم بيوسف اي اخيكم الذي حلفتم بينه وبين ابيه واخيه
في جعلكم اياه فريدا منه ذليلا بينكم ثم في قولكم له لما وجد الصواع في رحله لا يزال ياتينا
البلا من قبلكم يا بني راحيل وانما قال لهم ذلك تفضحا لهم وتحريضا على التوبة
وشفقة عليهم لما راى من عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا وقيل اعطوه كتاب
يعقوب في تخليص بنيامين وذكروا ما هو فيه من الحزن على فقد يوسف واخيه
فقال لهم ذلك وقوله اذ انتم جاهلون اي فاعلون فعلهم او لانهم كانوا حينئذ صبيانا
طياشين تلويحا الى معرفته فقد روي انه لما قال هذا تبسم وكان في تبسمه امر من الحسن
لا يجهله معه من راه ولو مرة واحدة فعرفوه بذلك فلذلك قالوا ائنك لانت يوسف
استفهام تقرير ولذلك حقق بان واللام عليه وقيل عرفوه بنظره وخلقه حين كلمهم
وقيل رفع التاج عن راسه فراوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضا وكان لسارة
ويعقوب واسحق مثلها وقرا ابن كثير بهمزة مكسورة بعدها نون على الخبر وقرا قالون

وابو عمرو بهمزة مفتوحة بعدها همزة مكسورة مسهلة بينهما الف على الاستفهام وقرا
ورش بغير الف بينهما مع التسهيل في الثانية على الاستفهام ايضا وقرا الباقون بتحقيق
الهمزتين مع الفصل بهشام وجه ثان وقصر المد وقيل انهم لم يعرفوه حتى قالوا انا يوسف
وزادوا تيم بقولهم وهذا اخي بنيامين شفقة علي واما ذكره لهم ليزيدهم ولكن معرفة له
وتثبتا في امر وليتم عليه قوله قد من الله علينا قال ابن عباس بكل خير في الدنيا
والاخرة وقال الحرون بالجمع بيننا بعد التفرقة انه من يتق اي عن المعاصي ويصبر اي على البليات
واذى الناس وقال ابن عباس يتقي الزنا ويصبر على العزوبة وقال مجاهد يتقي المعصية ويصبر
على السجن فان الله لا يضيع اجر المحسنين والمعنى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع
اجرهم فوضع المحسنين موضع المضمر لاشتماله على المتقين وقرا قنبل بابدال الياء
بعد القاف وقفا ووصلا واختلف العربون في ذلك على وجهين احدهما ان ابدال
حرف العلة هو الجزم لغة لبعض العرب وانشدوا عليه قول قيس بن زهير الم يايتك
والانباء تنمي بما لاقت لبون بني زياد وقول الاخر فهجوتني ثم جئت معتذرا
من هجو زبان لم تهجو ولم تدع وقول الاخر اه العجوز غضبت فطلقني
ولا ارضاها ولا املق والثاني انه مرفوع غير مجزوم ومن موصولة والعقل
صلتها فلذلك لم يجزم بحذف لامه وسكن تصبر لتوالي الحركات وان كان كلمتين وقرا البافون
بالحذف وقفا ووصلا ولما ذكر يوسف عليه السلام لاخوته ان الله تعالى من عليه
وانه من يتق ويصبر فانه تعالى لا يضيعهم صدقوه فيه واعترفوا له بالفضل والمزية
ولذلك قالوا مقسمين بقولهم تالله اي الملك الاعظم لقد اثرك اي اختارك الله
علينا بالعلم والعقل والحلم والحسن والملك والتقوى وغير ذلك واحتج بعضهم بهذه
الاية على ان اخوته ما كانوا انبيا لان جميع المناصب التي تكون معاني لمنصب النبوة
كالعدم بالنسبة اليه فلو شاركوه في منصب النبوة لما قالوا ذلك ثم قالوا وان كنا
لخاطئين اي والحال ان شانا انا كنا مذنبين بما فعلنا معك ولذلك اذلنا الله تعالى
لك فكانه قبل ما قال لهم في قدرته وتمكنه مع ما سلف من اهانتهم له فقال
قال لهم قول الكرام اقتدا باخوته من الانبيا والرسل عليهم الصلاة والسلام لا
تثريب اي لا لوم ولا تعنيف ولا اهلاك عليكم اليوم واما خصه بالذكر لانه مظنة
التثريب فاذا انتفى ذلك فيه فما ظنك بما بعده ولما اعقبهم من التثريب
كانوا في مظنة السؤال عن كمال العفو الزيل للعقاب من الله تعالى فاتبعه الجواب
عن ذلك بالدعا لهم بقوله يغفر الله اي الذي لا اله غيره لكم اي ما فرط منكم وعبر
بهذا الدعا بالمضارع ارشادا لهم الى اخلاص التوبة ورفعهم درجة لذلك ورجائهم
بالصفة التي هي سبب الغفران فقال وهو تعالى ارحم الراحمين لجميع العباد لا سيما
التايب فهو جدير بادراك المغفرة ولما رجعا اخوته وقالوا لهما انكما لتدعوانا الى طعام مكرم
لكرامتكم بكثرة وعشتنا ونحن مستحيون لما فرط منا فقال ان اهل مصر ينظرون الي وانا
ملكت فيهم بعين العبودية فيقولون سبحان من بلغ عبدا بعشرين درهما ما بلغ
ولقد شرفت الان بكم وعظمت في العيون حيث علم الناس انكم اخوتي وابن خليل ذي رتبة
ابراهيم عليه السلام ولما افرغ عنهم بعد اجتماع شملهم بابيهم الزمانا يحتونه سال عن ابيه

فقال

فعل ما فعل أبي بعدي قالوا ابيضت عيناه من الحزن فاعطاهم قميصه وقال اذهبوا
بقميصي هذا وهو قميص ابراهيم الذي لبسه حين القي في النار عريانا فاتاه جبريل
بقميص من حرير الجنة فالبسه اياه وكان ذلك عند ابراهيم فلما مات ابراهيم ورثه
اسحاق فلما مات اسحاق ورثه يعقوب فلما شب يوسف جعل يعقوب ذلك
في قصبة من فضة وشد راسها وعلقها في عنقه لما كان يخاف عليه من العين وكان
لا يفارقه فلما القي في البير عريانا جاء جبريل وعلى يوسف ذلك التقويد فاخرج
القميص منه والبسه اياه فعلى الوقت جاء جبريل وقال ارسل ذلك القميص فان فيه
ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا على بعيد الا عوفي فدفع يوسف ذلك القميص الى اخوته
وقال لهم اذا وصلتم الى ابي فالقوه على وجه ابي يات اي يصير بصيرا اي يرد
اليه بصره كما كان ويات الى حال كونه بصيرا وائتوني اي ابي وانتم باهلكم اي مصاحبين
لكم اجمعين لا يتخلف منكم احد فرجعوا بالقميص لهذا القصد وروي ان يهوذا ايضا
هو الذي حمل القميص لما طلوه بالدم فقال لا احمل هذا غيري لاني حملت اخي بنيامين فحملته
وهو حاف من مصر الى كنعان وبينهما ثمانون فرسخا ولما فصلت العير اي خرجت
من عريش مصر وهو اخر بلاد مصر الى اول بلاد الشام قال ابوهم لولده ولكل ومن حوله
من اهله صوكد العلمه انهم يكرون قوله اني لاجد ريح يوسف اوصله اليه الصبا
بانه لما تم ثمانون سنة وثلاثة ايام وثمانية اواكر قال لمن حوله هبت ريح فضعفت
القميص فاصابت رواح الجنة في الدنيا وانفصلت ليعقوب فوجد ريح الجنة فعلم عليه
السلام انه ليس في الدنيا من ريح الجنة الا ما كان من ذلك القميص قال اهل المعاني ان الله
تعالى اوصل اليه ريح يوسف عند انفصال الجنة ومحى وقت الفرج من الكتاب
البعيد ومنع من وصول خبر البشير مع قرب احدى البلدتين من الاخرى في مدة
ثمانين سنة وذلك يدل على ان كل تسهل فهو في زمان المحنة صعب وكل صعب فهو
في زمان الاقبال تسهل وتعني اجد ريح يوسف اشم وعبر عنه بالوجود لانه وجدان
الشيء بحاسة الشم وقوله لولا ان تفندون اي تنسبوني الى الخرف قال ابو بكر
الانباري يقال فند الرجل اذا خرف وتغير عقله وعن الاصمعي اذا كثر كلام الرجل من خرف
فهو مفند قال في الكشاف يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفند لانهم لم تكن رئيسة
وذات راي حتى تعنف لكبرها وقبل التفنيد الافساد يقال فندت فلانا اي افسدت
رايه وردته قال يا صاحبي دعا لومي وتفنيدي فليس ما قلت من امري بمردود ولما
ذكر يعقوب عليه السلام ذلك قالوا اي الحاضرون عنده له تالله انك لفي ضلالك القديم
ليوسف لا تنساه ولا تذهل عنه عما بعد العهد وهو كقولك اخوة يوسف ان ابانا
لفي ضلال مبين وقال مقاتل يعني الضلال هنا الشقاء اي شقاء الدنيا والمعنى انك لفي شقائك
القديم بما تكابد من الاحزان على يوسف وقال الحسن انما خاطبوه بذلك لاعتقادهم
ان يوسف قد مات فكان يعقوب في ولوعه بذكره ذاهبا عن الرشد والصواب ثم
انهم حملوا البشير اما شرع قبل وصولهم بالقميص فلما وزيدت اذ لما كيد مجيء ذلك
الحال وزيادة تمام بعد لما قياس مطرد جاء البشير وصف يهوذا بذلك القميص القاه
اي طرحه البشير على وجهه اي يعقوب وقيل القاه يعقوب على وجه نفسه فارتد اي رجع

بصيرا اي صيره الله تعالى بصيرا كما كان يقال طالت النخلة والله تعالى هو الذي اطالها ولما القى
القميص على وجهه وبشر بحياة يوسف عظم فرحه وانشرح صدره وزالت احزانه فعند ذلك قال
لبنيه الم اقل لكم اني اعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف وان الله يجمع بيننا
قال السهيلي لما جاء البشير الى يعقوب اعطاه في بشارته كلمات كان يرويها عن ابيه عن جده
عليهم السلام وهي يا لطيفا فوق كل لطيف الطف بي في اموري كلها كما احب ورضني في دنياي
واخرتي وروي ان يعقوب قال للبشير كيف تركت يوسف قال تركته ملك مصر قال
يعقوب ما اصنع بالملك على اي دين تركته قال على دين الاسلام قال الان تمت النعمة
فعند ذلك قالوا يا ابانا منادين بالاداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له
من عظيم الوقع استغفر اي اطلب من الله ان يغفر لنا ذنوبنا اي التي اقترفناها
ثم قالوا موكدين تحقيقا للاخلاص في التوبة انا كنا خاطئين اي متعمدين للاثم
بما ارتكبنا في امر يوسف عليه السلام ومن حق المعترف بذنبه ان يصفح عنه ويسال
له المغفرة كما قال صلى الله عليه وسلم ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله
عليه فكانه قيل فما قال لهم فقيل قال لهم سوف استغفر اي اطلب ان يغفر لكم ربي
الذي احسن الي بان يغفر لبيتي حتى لا يفرق بيني وبينهم في دار البقاء والربوبية
ملك هو اتم الملك على الاطلاق وهو ملك الله تعالى وظاهر هذا الكلام انه لم يستغفر
لهم في الحال بل وعدهم بان يستغفر لهم بعد ذلك واختلفوا في سبب هذا المعنى
على وجوه فقال ابن عباس والاكثرون اراد ان يستغفر لهم في وقت السحر لان هذا
الوقت اوفق الاوقات لرجاء الاجابة وفي رواية اخرى له انه اخر الاستغفار
الى ليلة الجمعة لانها اوفق لاوقات الاجابة وقال وهب كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة
في نيف وعشرين سنة وقال طاوس اخر الى السحر من ليلة الجمعة فوافق ليلة عاشورا
وقيل استغفر لهم في الحال وقوله سوف استغفر لكم ربي معناه اني اداوم على هذا
الاستغفار في الزمان المستقبل وقيل قام الى تمام الصلاة في وقت السحر فلما فرغ
رفع يديه وقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لاولادي ما فعلوا
في حق يوسف فاوحى الله تعالى اليه قد غفرت لك ولهم اجمعين وعن الشعبي
قال اسال يوسف ان عفى عنكم استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم كل ذلك تسكينا
لقلوبهم وتصحيحا لرجائهم وروي ان يوسف عليه السلام كان بعث مع البشير
الى يعقوب عليه السلام مائتي راحلة وجهازا كثيرا ليأتوا بيعقوب واهله وولده
فتهيا يعقوب للخروج الى مصر فخرج بهم فلما دنى من مصر كلم يوسف الملك الذي فوقه
فخرج يوسف والملك في اربعة الاف من الجند والعظماء وركب اهل مصر معهما باجمعهم يتلقون
يعقوب وكان يعقوب يمشي وهو يتوكا على يهوذا فنظر الى الخيل والناس فقال يا يهوذا
هذا فرعون مصر قال لا هذا ابنك يوسف فلما دنى كل واحد منهما من صاحبه فذهب
يوسف يبدوه بالسلام فقال له جبريل لا حتى يبدا يعقوب بالسلام فقال يعقوب
السلام عليك يا مذهب الاحزان وقال الثوري لما التقى يعقوب ويوسف عليهما السلام
عانق كل واحد منهما صاحبه وبكى فقال يوسف يا ابت بكيت علي حتى ابيضت عيناك الم
تعلم ان القيامة تجمعنا قال بلى يا بني ولكن خشيت ان يسلب دينك فيحال بيني وبينك

فذلك

هذا لك قوله تعالى فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه قال الحسن اي اباه وامه وكانت حية اكراما لها اما تميزان به وعلى الاب في التشبيه لانه كورة وعن ابن عباس انها خالته ليا وكانت امه قد مات في نفاس بنيامين قال البغوي وفي بعض التفاسير ان الله تعالى احيى امه حتى جاءت مع يعقوب الى مصر فان قيل يا معشر دخولهم عليه قبل مصر اجيبوا بانهم حين استقبلهم نزل بهم في خيمة او بيت هناك فدخلوا عليه وضم اليه ابويه وقال ادخلوا مصر اي البلد المعروف وانما بالشرط للامن لا للدخول فقال لبنيامين انا اخوك فلا تبتئس من جميع ما يصنع بنو بخيتا فرطموه في خفي وخواخيه وعلى ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وخرجوا منها مع موسى والمقاتلون منهم ستمائة الف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الصبيان والشيوخ ولما استقر بهم الدار بدخول مصر رفع ابويه اي اجلسهما معه على العرش اي السرير الرفيع والرفع هو النقل الى العلو وخروا اي سقطوا ابواه واخوته له سجدا اي سجود التحية لا وضع جبهة وكان تحيتهم في ذلك الزمان والتواضع فسمي سجودا كقوله تعالى رأيتهم لي ساجدين فهم سجدوا لله وهم وضعوا الجباه وكانه لكن على طريقة التحية والتعظيم لا على طريقة العبادة وكان ذلك جائزا في الامم السالفة فسخ في هذه الشريعة وروي عن ابن عباس انه قال لصعناه خروا لله سجدا بين يدي يوسف فيكون سجود شكر لله لاجل وجدان يوسف ويدل له قوله تعالى ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا وذلك بشعرانهم صعدوا على السرير ثم سجدوا لله تعالى ولم يأمرهم سجدوا ليوسف لسجدوا له فقيل الصعود على السرير لان ذلك كان

وبالوالدين احسانا وقال إذ أخرجني من السجن ولم يذكر اخراجه من الجب لوجوه اولها
انه قال لاخوته لا تثريب عليكم اليوم ولو ذكر واقعة الجب لكان ذلك تثريبا لهم فكان
اهماله جاريا مجرى الكرم ثانيها انه لما خرج من الجب صار ملكا بل صيروه عبدا واما صار ملكا
بعد اخراجه من السجن فكان هذا الاخراج اقرب من ان يكون انعاما كاملا
ثالثها انه لما خرج من الجب وقع في المضار الحاصلة بسبب تهمة المراودة ولما خرج من السجن
وصل الى ابيه واخوته فكان هذا اقرب الى المنفعة مع ان اللفظ محتمل للجب ايضا
لكن احتمالا اخفى فاما كان يعقوب وولده بارض كنعان وتحول الى بدو قال ابن عباس
ومنها قدم علي يوسف قال يوسف عليه السلام وجاء بكم من البدو اي من طراف بادية فلسطين
وذلك من اكبر النعم كما جاء في الحديث من يرد الله به خيرا ينقله من البادية الى الحاضرة
والبدو ضد الحاضرة وهو من الظهور يقال بدا يبدو اذا سكن في البادية وروي عن عمر اذ ابدونا
جفونا اي تخلقنا باخلاق البدو وبين قال الواحدي البدو وسط من الارض يظهر فيه
الشخص من بعيد واصله من بدا يبدو اذا ظهر ثم سمي باسم المصدر وفي الآية دلالة
على ان فعل العبد خلق لله تعالى لانه اضاف اخراجه من السجن الى الله وبجيئهم من البدو
الى مصر من بعد أن نزغ اي افسد الشيطان بسبب الحسد بيني وبين اخوتي واصل النزغ
دخول في امر لافساد وجاز ان يقال اضافة يوسف النزغ الى الله تعالى والنزغ الى الشيطان
بمقتضى ان فعل الشر ليس من الله كما قال بعض المبتدعة ولو كان منه لاضافه اليه اجيب
بان اضافة هذا الفعل الى الشيطان مجاز لان الفاعل المطلق هو الله تعالى يا الحقيقة
قال تعالى قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فثبت بذلك ان الكل من عند الله
وبقضائه وقدره وليس للشيطان فيه تمذخل الا بالقاء الوسوسة والتخييل لافساد ذات
البين وذلك باقدار الله تعالى اياه على ذلك كما حكى الله تعالى عنه بقوله وما كان لي عليكم من
سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي ولما كان حصول الاجتماع بينه وبين اخوته وابيه
مع الالفة والمحبة وطيب العيش وفراغ البال كان لغاية البعد عن العقول الا انه
تعالى لطيف قال يوسف عليه السلام إن ربي لطيف لما يشاء اي لطيف التدبير اذا ما من ضعف
الا وتعقبه مسكنة ويتسهل بعد ما قال اذا اراد حصول الشيء تسهل اسبابه فحصل وان كان
على غاية البعد عن الحصول إنه هو العليم بوجوه الصلاح والتدبير الحكيم اي
الذي يفعل كل شيء وفقه على وجه يقتضي الحكمة روي ان يوسف طاف بابيه على خزائنه
السلام على خزائنه فلما ادخله خزانة الفراطيس قال يا بني ما اعتك عند ذلك هذه
الغرائب الحسيس وما كتبت الى على ما امرك جبريل بذلك قال امرني جبريل بذلك قال وما تقاله
قال انت افرج حتى اليه فصاح فقال جبريل الله امرني بذلك لعقوبتك واخافة ان تاكله
الذيب قال فهلا خفتني ولاحظ يعقوب الموت وصى يوسف ان يحمله ويدفنه عند
ابيه فقضى نحبه ودفنه ثم عاد الى مصر واقام بعده ثلاثا وعشرين سنة ولما تم
امره وعلم انه لابد من ان تفارق نفسه الى الملك الدائم تقال رب قد آتيتني من الملك
حال يرتفع السامع لشرح حال الرويا من الملك اي بعضه بعد بعضه حتى اتاه وهو ملك مصر
وعلمتني من تاويل الأحاديث طبق ما يعبر بني به واخبرت به انت من التمكين والتعليم
قتل متولك وانه عالك على امره ثم لما اداه بوصف جامع للعلم والحكمة فقال فاطر اي خالق

السموات

السموات والأرض ثم اعلمه بما هو اعلم به منه من انه لا يعوله على غيره في شيء من الاشياء أنت
وليي اي الاقرب الي باطنا وظاهرا في الدنيا والآخرة اي الاولى بي منكم والوكيل بفعل الموليه
الأصلح والاحسن فاحسن بي في الآخرة اعظم ما احسنت بي في الدنيا وعن النبي صلى الله عليه
وسلم حكي عن جبريل عن رب العزة جل وعلا انه قال من شغله ذكري عن مسئلتي اعطيته
افضل ما اعطي السائلين فلهذا المعنى من اراد الدعاء لابد وان يقدم عليه ذكر الثناء على الله
تعالى ههنا يوسف عليه السلام لما اراد ان يذكر الدعا قدم عليه الثنا وهو قوله
رب قد اتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث فاطر السموات والارض ثم ذكر
عقيب الدعا وهو قوله توفني اي اقبض روحي واميتني ثابتا في جميع امور ك حتى اموت
حال كوني مسلما ولما كان اسلم حقيقة من كان غريقا في الاخلاص حسنه بقوله
وألحقني بالصالحين وقطع ما فعله الخليل عليه السلام في قوله الذي خلقني فهو
يهدين ثم ههنا الى قوله رب هب لي حكما ثنا على الله تعالى ثم من قوله قرب لي الى آخر
الكلام دعا فلهذا انما تنبيه اختلف في قوله توفني مسلما لعل يعقوب طلب منه الوفاة لا
فقال قتادة ما علم بهذا الحوف يوسف حتى قبض الله روحه وكثير من المفسرين على هذا
القول وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما تمنى نبي قط الموت قبله وكثير من المفسرين على هذا
لا يجعل الله وفاته على الاسلام وليس فيه ما يدل على انه طلب الوفاة واللفظ صالح
للامرين ولا يبعد في الرجل العاقل اذا اكمل عقله ان يتمنى الموت تعظم رغبته فيه لوجوه
كثيرة منها ان الخطايا والبلغاوان اطنبوا في مدمة الدنيا الا ان حاصل كلامهم يرجع الى ثلاثة
امور احدها ان هذه السعادات سريعة الزوال مشرفة على الفنا والالم الحاصل عند زوالها
اشد من اللذة الحاصلة عند وجدانها وثانيها انها غير خالصة بل هي ممزوجة بالمنغصات
والمكدرات وثالثها ان الاراذل من الخلق يشاركون الافاضل فيها بل ربما كان حصة الاراذل
اعظم بكثير من حصة الافاضل فهذه الجهات الثلاثة منفرة عن هذه اللذات ولما
عرف العاقل انه لا سبيل الى تحصيل هذه اللذات الا مع هذه الجهات الثلاثة المنفرة
لا جرم تمنى الموت ليتخلص عن هذه الآفات ومنها ان هذه اللذات الدنيوية قليلة
وهي ثلاثة انواع لذة الاكل ولذة النكاح ولذة الرياسة ولكل واحد منها عيوب كثيرة
اما لذة الاكل ففيها عيوب احدها ان هذه اللذة ليست لذة فوتها لا يمكن انفاوها
فان الانسان اذا اكل وشبع لم يبق فيه الالتذاذ بالاكل فهذه اللذة صعبة ومع ضعفها غير
باقية وثانيها انها في نفسها خسيسة وان الاكل عبارة عن تطييب ذلك الطعام
بالبزاق المجتمع في الفم والاشك انه شيء منفر ولما يصل الى المعدة تظهر فيه الاستحالة الى
الفساد والنتن والعفونة وذلك ايضا منفر وثالثها ان جميع الحيوانات الخسيسة
مشاركة له فيها ورابعها ان الاكل انما يطيب عند استداد الجوع والجوع نقص وآفة
وخامسها ان الاكل مختص عند العقلا حتى قيل من كانت همته ما يدخل في بطنه
فقيمته ما يخرج من بطنه فهذه اشارة مختصرة الى معايب الاكل واما لذة النكاح فما
ذكرنا الاكل حاصل هنا مع اشياء اخر وهي ان النكاح سبب لحصول الولد وحب الولد يكثر
الاستحواذ فيكثر الحاجات الى المال فتحتاج الانسان بسببها الى الاحتيال في المال
بطرق لا يأمن عاقبتها وربما صارها الكاسبب طلب المال واما لذة الرياسة فعيوبها

BIBLIOTECA

كثيرة منها انه يكون على شرف الزوال في كل حين واوان ومنها انه عند حصولها في الخوف الشديد
من الزوال ومنها انه يكون عند زوالها في الاسف العظيم والحزن الشديد بسبب ذلك الزوال
والعاقل اذا تامل في هذه المعاني علم قطعا انه لا صلاح له في طلب هذه اللذات
فيكون لقاء الله عنده ارجح فيتمنى الموت وعن عمر بن عبد العزيز ان ميمون بن مهران
بات عنده فراه كثير البكاء والمسالة للموت فقال له صنع الله على يديك خيرا كثيرا
احييت سنة وامت بدعة وفي حياتك خير وراحة للمسلمين فقال افلا اكون كالعبد
الصالح لما اقر الله عينيه وجمع له امره قال توفني مسلما والحقني بالصالحين فان قيل
الانبياء عليهم السلام يعلمون انهم يموتون لا محالة على الاسلام فكان هذا الدعاء حاصله
طلب تحصيل الحاصل وانه لا يجوز اجيب بان حال كمال المسلم ان يستسلم لحكم الله
على وجه يستقر قلبه على ذلك الاستسلام ويرضى بقضاء الله وتطمئن النفس وينشرح
الصدر وينفسح القلب في هذا الباب وهذه حال زائدة على الاسلام الذي هو ضد
الكفر والمطلوب ههنا هو الاسلام بهذا المعنى فان قيل ان يوسف عليه السلام
كان من اكابر الانبياء والصلاح اول درجة المومنين فالواصل الى الغاية كيف يليق به
ان يطلب البداية اجيب بان ابن عباس قال يعني بان يلحقه بابائه ابراهيم واسمعيل
واسحق ويعقوب والمعنى الحقني بهم في ثوابهم ودرجاتهم وولد ليوسف عليه السلام
من امراة العزيز ثلاثة اولاد افرائيم وميشا وهو جد يوشع ابن نون ورحمة امراة
ايوب عليهم السلام ولما تاقت نفسه الى الملك المخلد وتمنى الموت فلم يات عليه اسبوع حتى
توفاه الله عز وجل طيبا طاهرا وتشاح الناس في دفنه فطلب اهل كل محلة ان يدفن
في محلتهم رجاء بركته حتى هموا بالقتال فراوا ان يجعلوه في صندوق من مرمر ويدفنوه
في النيل حيث يفترق الماء بمصر ليجري الماء عليه وتصل بركته الى جميعهم قال عكرمة دفن
في الجانب الايمن من النيل فاخصب ذلك الجانب واجدب الجانب الاخر فنقل الى الجانب
الايسر فاخصب ذلك الجانب واجدب الاخر فدفنوه في وسطه وقدروا ذلك بسلسلة
فاخصب الجانبان الى ان اخرجه موسى عليه السلام ودفنه بقرب ابائه بالشام وقد يسر
الله تعالى لي زيارته وزيارة ابائه في عام شرعت في هذا التفسير سنة اربعة وستين
وتسعمائة جمعني الله تعالى واباي واهلي واصحابي معهم في دار كرامته ولما تم الذي كان
من امر يوسف واخوته على الوجه الاحكم والصراط الاقوم من ابتدائه الى انتهائه
قال تعالى مشيرا الى انه دليل كاف في تصحيح نبوته صلى الله عليه بقوله ذلك اي الذي
ذكرت لك يا محمد من قصة يوسف وما جرى له مع اخوته ثم صار الى الملك بعد الرق من انباء
الغيب اي اخبار ما غاب عنك نوحيه اليك اي الذي اخبرناك به من اخبار يوسف
وحي اوحيناه اليك والحال انك ما كنت لديهم اي عند اخوة يوسف عليه السلام اذ
اي حين اجمعوا امرهم اي عزموا على امر واحد وهو القاء يوسف في الجب وهم يمكرون
اي يدبرون الاذى في خيفة بيوسف والمعنى ان هذا ان النبا غيب لانه صلى الله عليه وسلم
ما طالع الكتب ولا تلمذ لاحد وما كانت البلدة بلدة العلماء فاتيانه صلى الله عليه وسلم
بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط من غير مطالعة ولا تعلم ومن
غير ان يقال انه حاضر معهم لا بد وان يكون معجزا وقوله تعالى وما كنت لديهم ذكر على سبيل

التهكم

التهكم بهم لان كل احد يعلم ان محمدا ما كان فقيها ولما سالت قريش واليهود رسول الله صلى الله
عليه وسلم كما نقله ابو حيان عن ابن الانباري عن قصة يوسف عليه السلام فنزلت مشروحة
هذا الشرح الشافي مبينة هذا البيان الوافي فامل صلى الله عليه وسلم ان يكون ذلك
سبب اسلامهم فخالفوا تاميله عزاه الله تعالى بقوله وما اكثر الناس اي اهل مكة
ولو حرصت على ايمانهم بمؤمنين لعنادهم وتصميمهم على الكفر ذلك اشارة الى ما ذكر الله
تعالى في قوله تعالى انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ثم نفى عنه التهمة
بقوله تعالى وما تسألهم عليه اي هذا الكتاب الذي اوحيناه اليك واغرق في النفي فقال
من اجر حتى يكون سؤالك سببا لان يتهموك او يقولوا لولا انزل عليه كنز ليستغني
به عن سؤالنا ثم نفى عن هذا الكتاب كل غرض دنيوي بقوله تعالى ان هو الا ذكر اي عظة
من الله تعالى للعالمين عامة ثم ان الله تعالى اخبر عنهم انهم لم يتاملوا الايات
الدالة على توحيده تعالى بقوله تعالى وكاين اي وكم من اية دالة على وحدانية الله تعالى
في السموات كالنيرين وسائر الكواكب والسحاب وغير ذلك والارض من الجبال
والشجر والدواب وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى يمرون عليها اي يشاهدونها
وهم عنها معرضون اي لا يتفكرون فيها بلا عجب اذا لم يتاملوا في الدلائل على نبوتك
فان العالم مملو من دلائل التوحيد والقدرة والحكمة ثم انهم يمرون عليها ولا يلتفتون
اليها ولما كان ربما قيل كيف يوصفون بالاعراض وهم يعتقدون ان الله تعالى فاعل
تلك الايات بين ان اشراكهم مسقط لذلك بقوله تعالى وما يؤمن اكثرهم بالله حيث يقرون
بانه الخالق الرازق الا وهم مشركون به بعبادة الاصنام قال تعالى ولئن سألتهم
من خلقهم ليقولن الله لكنهم كانوا يثبتون شريكا في العبودية وعن ابن عباس ان هذه
الاية نزلت في تلبية مشركي العرب كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا
هو لك تملكه وما ملك يعنون الاصنام وعنه ايضا ان اهل مكة قالوا الله ربنا وحده
لا شريك له والملائكة بناته فلم يوحدوا بل اشركوا وقال عبدة الاصنام ربنا الله وحده
والاصنام شفعاؤنا عنده وقالت اليهود ربنا الله وحده وعزير ابن الله وقالت النصارى
ربنا الله وحده والمسيح ابن الله وقال عبدة الشمس والقمر ربنا الله وحده وهؤلاء اربابنا
وقال المهاجرون والانصار ربنا الله وحده لا شريك له ولما كان اكثر هؤلاء لا ينقاد الا بالعذاب
قال تعالى افامنوا انكار فيه معنى التوبيخ والتهديد ان تاتيهم في الدنيا غاشية
اي نقمة تغشاهم وتشملهم من عذاب الله اي الذي له الامر كله كما اتى من ذكرنا قصصهم
من الامم او تاتيهم الساعة بغتة اي فجاة وهم عنها في غاية الغفلة وقوله تعالى
وهم لا يشعرون كالتاكيد لقوله بغتة ولما كان صلى الله عليه وسلم مبلغا عن الله تعالى امره
ان يامرهم باتباعه بقوله تعالى قل يا اعلى الخلق واصفاهم واعظمهم نصحا واخلاصا هذه
اي الدعوى الى الله تعالى التي ادعوا اليها سبيلي اي طريقتي التي ادعوا اليها الناس وهي توحيد
الله تعالى ودين الاسلام وسمي الدين سبيلا لانه الطريق المؤدي الى ثواب الجنة ادعوا
الى الله اي الى توحيده والايمان على بصيرة اي حجة واضحة وقوله انا تاكيد للمستتر في ادعو
او على بصيرة لانه حال منه او مبتدا خبره على بصيرة وقوله ومن اتبعني اي ممن امن بي وصدق
بما جاءني عطف عليه لان كل من ذكر الحجة واجاب عن الشبهة فقد دعا بمقدور وسعه

اي بوقت اتيانها قبله

الى الله وهذا يدل على ان الدعا الى الله انما يحسن ويجوز مع هذا الشرط وهو ان يكون على بصيرة
مما يقول ويقين فان لم يكن كذلك فهو محض الغرور وقال صلى الله عليه وسلم العلما امنا
الرسل على عباد الله من حيث يحفظون ما يدعوهم اليه فايدة جميع القرا يثبتون
اليا وقفا ووصلا لثباتها في الرسم وسبحان اي وقل سبحان الله تنزيها له تعالى عما
اشركوا به وما انا من المشركين اي الذين اتخذوا مع الله ضدا وندا ولما قال اهل مكة
للنبي صلى الله عليه وسلم هلا بعث الله ملكا قال تعالى وما ارسلنا من قبلك
الى المكلفين الا رجالا اي مثل ما انك رجل لا ملايكة ولا اناثا كما قاله ابن عباس ولا من الجن
كما قاله الحسن يوحى اليهم بواسطة الملايكة مثل ما يوحى اليك وقرا حفص قبل الواو بالنون
وكسر الها والباقون بالياء وفتح الحا وضم الها من اليهم حمزة على اصله وكسرها الباقون
من اهل القرى اي من اهل الامصار والمدن المبنية بالمدر والحجر ونحوه لا من اهل
البوادي لان اهل الامصار افضل واعلم واكمل واعقل من اهل البوادي ومكة ام القرى
لانها مجمع لجميع الخلايق لما امروا به من حج البيت وكان العرب كلهم ياتونها فكيف
تعجبوا في حقك قال الحسن لم يبعث الله نبيا من البادية لغلظهم وجفايهم ثم هددهم
سبحانه وتعالى بقوله افلم يسيروا اي هولا المشركون المكذبون في الارض فينظروا كيف
كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذبين الرسل والايات فيحذروا تكذيبك ويعتبروا
بهم وبما حل بهم من عذابنا ولما ان الله سبحانه وتعالى نجا المومنين عند نزول
العذاب بالامم الماضية المكذبة وما في الاخرة خير لهم بين ذلك بقوله تعالى
ولدار الاخرة اي ولدار الحال الاخرة او الساعة الاخرة او الحياة الاخرة خير وهي الجنة
للذين اتقوا الله من حياة اهون ما لها الموت وان فرض فيها من المحال انها امتدت
الف عام وكان عيشها كله رغدا من غير الام افلا يعقلون فيستعملون عقولهم
فيتبعون الداعي الى هذا السبيل الاقوم وقرا نافع وابن عامر وعاصم بالتا على الخطاب
لاهل مكة والباقون بالياء على الغيبة لهولا المشركين المكذبين وقوله تعالى حتى اذا
استيأس الرسل غاية محذوف دل عليه الكلام اي لا يغررهم تمادي ايامهم فان
من قبلهم مهلوا حتى ايس الرسل من النصر عليهم في الدنيا وعن ايمانهم لانهماكهم
في الكفر مترفين متمادين فيه من غير وازع وظنوا اي ايقن الرسل انهم قد كذبوا
بالتشديد كما قراه غير حمزة وعاصم والكسائي تكذيبا لا ايمان بعده واما بالتخفيف
كما قراه هولا فالمعنى ان الامم ظنوا ان الرسل اخلفوا ما وعدوا به من النصر جاءهم
نصرنا لهم بخذلان اعدايهم فننجي من نشاء اي النبي والمومنين وقرا ابن عامر وعاصم بنون
مضمومة بعدها جيم مشددة ويا بعد الجيم مفتوحة والباقون بنونين الاولى
مضمومة والثانية ساكنة وتخفيف الجيم وسكون اليا ولا يرد باسنا اي عذابنا عن
القوم المجرمين اي المشركين اذا نزل بهم ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه القصص وحث
على الاعتبار بها بقوله افلم يسيروا اتبعه بان في احاديثهم اعظم عبرة فقال حثا على تاملها
والاستبصار بها لقد كان في قصصهم اي يوسف واخوته او في قصص الرسل عبرة اي عظة
عظيمة لاولي الالباب اي لذوي العقول المبراة من شوايب الكدر يعتبرون بها
الى ما يسعدهم لان من قدر على ما قص من امر يوسف عليه السلام وغيره قادر على ان يعز

محمدا

محمد صلى الله عليه وسلم وبعلى كلمته وينصر على من عاداه كما نبأ من كان كما فعل بيوسف وغيره
ولما كان من اجل العبرة في ذلك القصص خصه بالذكر ان الله تعالى على ذلك بقوله سبحانه
فقال تعالى ما كان حديثا يفترى اى يختلق لانه الذى جاء به من عند الله وهو محمد صلى الله
عليه وسلم لا يصح منه ان يفتريه لانه لم يقرأ الكتب ولم يتلمذ لاحد ولم يخالط العلماء فمن المحال
ان يفترى هذه القصة بحيث تكون مطابقة لما ورد في التوراة من غير تفاوت كما علم
من قوله تعالى ولكن تصديق الذى بين يديه اى من الكتب الالهية المنزلة من السماء
كالتوراة والانجيل ففي ذلك اشارة الى ان هذه القصة وردت على الوجه الموافق
لما في التوراة من ذكر قصة يوسف عليه السلام وزاد على ذلك بكونه تفصيل اى
تبيين لما بنى اى يحتاج اليه من امر الدين اذ هما من امر بنى الاول سند من القرآن توسط
او بغير وسط وقيل المراد تفصيل كل شئ من واقعة يوسف مع ابيه واخوته قال
الواحدى وعلى التفسير الاول جمعا هو من العام الذى اريد به الخاص كقوله تعالى
وجئنى وسعت كل شئ يجوز ان يدخل فيه وقوله واوتيت من كل شئ وهدى من
الضلالة ورحمة لمن اى لهما خص الذكر بهم لقوله تعالى يؤمنون اى يصدقون وخص بعضهم بالذكر
لانهم هم الذين انتفعوا به كقوله تعالى هدى للمتقين فسبحان من انزل هذا القرآن باهرا
وقاضيا بالحق لا ينزال ظاهرا ومبادرا ايضا وذى نبعا للكشاف فمن انكر صلى الله
عليه وسلم قال اعلموا ارقام سورة يوسف فانه اما مسلم لا اظهر علما اهله وما
سلكت بسببه لعون الله عليه سكرات الموت واعطاه القوة ان لا يحسد احدا حديث
موضوع ٭ سورة الرعد مكية الا ولا يزال الذين كفروا الى قوارعهم او مدنية
الا ولو ان قرآنا سيرت به الجبال وهى ثلاث واربع او خمس او ست واربعون اية
وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وحروفها ثلاثة الاف وخمسمائة
وسبعة احرف بسم الله الحق الذى كل ما عداه باطل الرحمن الذى عم بالرحمة والرفقة
لعموم الرحمة الرحيم الذى خص من شاء بما ارضاه عظيم الوهيته المر قال ابن عباس
معناه انا الله اعلم وارى وقال الضحاك رواية عطاء انا الله الملك الرحمن وقد تقدم الكلام
على شئ من اوايل السور في اول سورة البقرة وقد قالون وورش بين بين والباقون بالامالة تلك اى هذه الايات
اى القرآن والاضافة
بمعنى من وقيل المراد بالكتاب السورة الكاملة ووصفت بالكمال من تعريف الكتاب
بال لانه خبر المبتدا اذا عرف بلام الجنس افاد المبالغة وقوله تعالى والذى انزل اليك من ربك
اى القرآن مبتدا خبره الحق اى الموضوع كل شئ منه في موضعه على ما يدعوا اليه الحكمة الواضحة
الذى لا يتخلف شئ منه عن مطابقة الواقع من بعث ولا غيره ولكن اكثر الناس اى مشركى مكة
لا يؤمنون لاخلالهم بالنظر والتامل فيه قال ابن عباس نزلت في مشركى مكة حين قالوا
يا محمد تقول من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بذلك ولما ذكر الله تعالى ان اكثر الناس لا يؤمنون
ذكر عقبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد بامور احدها قوله تعالى الله الذى رفع
السموات بغير عمد اى سوارى جمع عمود كادم وادم او عماد كاهب واهاب والعمود جسم
مستطيل يمنع المرتفع ان يعمل ترونها اى وانتم ترون السماء مرفوعة بغير عمد من تحتها
تسندها ولا من فوقها علاقة تمسكها قالوا العمد منفية بالكلية قال اياس بن معاوية

السما مبنية على الارض مثل القبة ففي ذلك دلالة عظيمة على وحدانية الله تعالى لان هذه
الاجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل ان يكون بقاؤها هناك لاعيانها
ولذاتها فهذا برهان قاهر على وجود الاله القادر القاهر وقيل الضمير راجع الى العمد اي ان لها
عمدا ولكن لا ترونها انتم ومن قال بهذا القول يقول ان عمدها على جبل قاف
وهو جبل من زمرد محيط بالدنيا والسما عليه مثل القبة وهذا قول مجاهد وعكرمة
قال الرازي وهذا التاويل في غاية السقوط لان السموات لما كانت مستقرة على جبل
فاي دلالة تبقى فيها على وجود الاله تنبيه الله مبتدا والذي رفع السموات خبره
ويجوز ان يكون الموصول صفة والخبر يدبر الامر وثانيها قوله تعالى ثم استوى على العرش
بالحفظ والتدبير والقهر والقدرة اي من ان فوق العرش الى ما تحت الثرى في حفظه
وتدبيره وفي الاحتياج اليه وتقدم الكلام على ذلك في سورة الاعراف بما فيه كفاية
وثالثها قوله تعالى وسخر اي ذلل الشمس والقمر لمنافع خلقه مقهور ان يجريان على ما يريد
كل منها يجري في فلكه لاجل مسمى اي الى وقت معلوم وهو وقت فنا الدنيا وزوالها
وعند مجي ذلك الوقت تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك التسيرات كما وصف الله
تعالى ذلك في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت واذا السما انشقت واذا السما
انفطرت وعن ابن عباس للشمس مائة وثمانون منزلا كل يوم لها منزل وذلك يتم
في ستة اشهر ثم انها تعود مرة اخرى الى واحد واحد منها في ستة اشهر مرة اخرى
وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلا فالمراد بقوله تعالى كل يجري لاجل مسمى هذا
وتحقيقه انه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرا الى جهة خاصة بمقدار
خاص من السرعة والبطو وحينئذ يلزم ان يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة
حالة اخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك ثم انه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال يدبر
الامر اي يقضي امر ملكه من الايجاد والاعدام والاحيا والاماتة والاغنا والافقار
ويدخل فيه انزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد وفي ذلك دليل عجيب
على كمال القدرة والرحمة وذلك لان هذا العالم المعلوم من اعلا العرش الى ما تحت
الثرى انواع واجناس لا يحيط بها الا الله عز وجل والدليل المذكور دل على ان
اختصاص كل واحد منها بوضعه وتوضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس الا
من الله تعالى ومن المعلوم ان كل من اشتغل بتدبير شي فانه لا يمكنه تدبير شي اخر
فانه يشغله شان عن شان فالعاقل اذا تامل في هذه الاية علم انه تعالى
يدبر عالم الاجسام وعالم الارواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شان
عن شان ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على انه متعال في ذاته
وصفاته وعلمه وقدرته عن مشابهة المحدثات والممكنات ولما كان هذا بيانا
شافيا لا لبس فيه قال تعالى يفصل اي يبين الايات التي برز الى الوجود تدبيرها
الدالة على وحدانيته وكمال حكمته المشتملة عليها مبتدعاته فيفرقها ويباين
بينها مباينة لا لبس فيها تقريبا لعقولكم وتدريبا لفهومكم لتعلموا انها فعل الواحد
المختار ولما كان هذا التدبير وهذا التفصيل دالا على تمام القدرة وغاية الحكمة
وكان البعث لفصل القضا والحكم بالعدل واظهار العظمة هو محط الحكمة علل ذلك

بقوله

بقوله تعالى لعلكم يا اهل مكة بلقاء ربكم بالبعث بعد الموت توقنون فتعلموا ان من قدر
على خلق هذه الاشيا وتدبيرها على عظمتها وكثرتها قادر على ايجاد الانسان واحيائه
بعد موته يروى ان واحدا قال لعلي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه كيف يحاسب
الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الان دفعة واحدة وكما يسمع نداهم ويجيب دعاهم
الان دفعة واحدة وحاصل الكلام انه تعالى كما قدر على ابقا الاجرام الفلكية والنيرات
الكوكبية في الجو العالي وان كان الخلق عاجزين عنه فكذلك لا يبعد ان يرد الارواح
الى الاجساد وان كان الخلق عاجزين عنه وكما يمكنه ان يدبر من فوق العرش الى ما
تحت الثرى لا يشغله شان عن شان فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله
شان عن شان تنبيه اليقين صفة من صفات العلم وهي فوق العرفان
المعرفة والدراية وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم وزوال الشك ولما ذكر تعالى
الدلايل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته من رفع السما بغير عمد واحوال الشمس
والقمر اردفها بذكر الدلايل الارضية بقوله تعالى وهو الذي مد الارض اي بسطها
طولا وعرضا لتثبت عليها الاقدام وتتقلب عليها الحيوان ولو شا لجعلها
كالجدار او الازج لا يستطاع القرار عليها هذا اذا قلنا ان الارض مسطحة لا كرة
وعند اصحاب الهيئة انها كرة فكيف يقولون بذلك ومد الارض مناف كونها
كرة كما ثبت بالدليل اجيب بان الارض جسم عظيم والكرة اذا كانت في غاية الكبر
كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح كما ان الله تعالى جعل الجبال اوتادا مع ان العالم
من الناس يستقرون عليها فكذلك ههنا ومع هذا فالله تعالى قد اخبر انه مد الارض
ودحاها وانه بسطها وكل ذلك يدل على التسطيح والله تعالى اصدق قيلا وابين دليلا
من اصحاب الهيئة هذا هو الدليل الاول من الدلايل الارضية الثاني قوله
تعالى وجعل اي وخلق فيها اي الارض رواسي اي جبالا ثوابت واحدها راسية اي
ثابتة باقية في حيزها غير منتقلة عن مكانها لا تتحرك فلا يتحرك ما في راسية فيه
وهذا لا بد وان يكون بتخليق القادر الحكيم قال ابن عباس اول جبل وضع على وجه
الارض جبل ابي قبيس ولما غلب على الجبال وضعها بالرواسي صارت الصفة تغني عن الموصوف
فجمعت جمع الاسم كحايط وكاهل قاله ابو حيان الثالث منها قوله تعالى وانهارا
اي وجعل في الارض انهارا جارية لمنافع الخلق والنهر المجرى الواسع من مجاري الما
واصله الاتساع ومنه النهار لاتساع ضيايه الرابع منها قوله تعالى ومن كل الثمرات
وهو متعلق بقوله تعالى جعل فيها اي الارض زوجين اثنين اي وجعل فيها من جميع
انواع الثمار صنفين اثنين سوا الاختلاف اما من حيث الطعم كالحلو والحامض
او اللون كالاسود والابيض او الحجم كالصغير والكبير او الطبيعة كالحار والبارد فان
قيل الزوجان لا بد وان يكونا اثنين فما الفايدة في اثنين اجيب بانه قيل انه تعالى
اول ما خلق العالم وخلق فيه الاشجار خلق من كل نوع من الانواع اثنين فقط فلو
قال تعالى خلق زوجين لم يعلم ان المراد النوع او الشخص فلما قال اثنين علم انه تعالى
اول ما خلق من كل زوجين اثنين لا اقل ولا ازيد فكما ان الناس وان كان فيهم الان
كثرة فابتداوهم من زوجين اثنين بالشخص ادم وحوا فكذا القول في جميع الاشجار

BULAC

والذروع الخامس منها قوله تعالى يغشى اى يغطى الليل بظلمته النهار اى والنهار الليل بضوئه فيعتدل فعلهما على ما قدره الله تعالى لهما فى السير من الزيادة والنقصان وذلك من الحكم النافعة فى الدين والدنيا الظاهرة لكل ذى عقل اذ ما تدبره بعقل واختيار وفكره واقتدار وقرا شعبة وحمزة والكسائى بفتح الغين وتشديد الشين والباقون بسكون الغين وتخفيف الشين ولما ذكر تعالى هذه الادلة النيرة والعقول القاطعة الظاهرة جمعها وناطها بالفكر فقال ان فى ذلك اى الذى وقع التخويف عنه من الايات لآيات اى دلالات لقوم يتفكرون اى يجتهدون فى الفكر فيستدلون بالصنعة على الصانع وبالشبيه على المشبه والتفكر والتدبر صرف القلب فى طلب معانى الاشياء ثم انه تعالى ذكر دليلا ظاهرا جدا على وحدانيته بقوله تعالى وفى الارض اى التى انتم سكانها تشاهدون ما فيها مشاهدة لا تقبل الشك قطع اى بقاع مختلفة متجاورات اى متقاربات يقرب بعضها من بعض واحدة طيبة واخرى سبخة لا تنبت واخرى صالحة للزرع لا للشجر واخرى بالعكس واخرى قليلة الريع واخرى كثيرته مع انتظام الكل فى الارضية وهو من اجل قدرته تعالى وجنات اى بساتين فيها انواع الاشجار من نخيل واعناب وغير ذلك قال تعالى من اعناب وزرع ونخيل صنوان جمع صنو وهى النخلات يجمعها اصل واحد وتتشعب فروعها وغير صنوان اى متفرقات مختلفة الاصول وسمى البستان جنة لانه يستر بالشجار الارض وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص برفع الغين واللام والنون الثانية من صنوان والراء من غير مع التنوين فى الغين واللام والنون وعدم التنوين فى الراء والمكان الملتبس لها بالاب والارض بمنزلة الام وكان الاختلاف مع اتحاد الاب والام اعجب وادل على الانشاء الى الواحد المسبب عن شىء من الاسباب قال شعبة قراءة ابن عامر وعاصم بالياء على التذكير اى للمذكور وقراءة الباقون بالتاء على الخطاب التانيث اى الجنات وما فيها يسقى بماء واحد فتخرج اعضاؤها وثمراتها فى وقت معلوم لا تتاخر عنه ولا تتقدم والمعنى وسقى ما يزرع من حبوب كل عام وقيل فى احد جوهر يسقى به قوام الارواح ونفضل بعضها على بعض فى الاكل اى فى الطعم ما بين حلو وحامض وغير ذلك وفى الشكل والرائحة والمنفعة وغير ذلك وذلك ايضا مما يدل على القادر الحكيم مان اختلافها مع اتحاد الاصول والاسباب لا يكون الا بتخصيص قادر مختار قال مجاهد ذلك لمثل بنى ادم صالحهم وخبيثهم وابيضهم واسودهم من ادم واحد وقال الحسن هذا مثل ضربه الله تعالى للقلوب بنى ادم كانت الارض طيبة واحرة فى لدى يقدره الرحمن فسطحها فصارت قطعا متجاورات فنزل عليها الماء من السما فتخرج هذه زهرتها وشجرها وثمرها وبناتها وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها وكل سقى بماء واحد وكذلك الناس خلقوا من ادم فينزل عليهم من السما تذكرة فترق قلوب قوم فتخشع وتخضع وتقسو قلوب قوم فتلهوا ولا تستمع وقال الحسن والله ما جالس القران احد الا قام من عنده بزيادة او نقصان قال تعالى وننزل من القران ما هو شفاء ورحمة للمومنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا وقرا حمزة والكسائى بالياء لرطائق قوله تعالى يدبر الامر والباقون بالنون وقرا نافع وابن كثير يسقون الكاف والباقون بالرفع ان فى ذلك اى الامر العظيم الذى ذكرناه لآيات اى لدلالات لقوم يتفكرون

اى

اي يستعملون عقولهم بالتفكر والتدبر في الايات الدالة على وحدانيته تعالى ولما ذكر تعالى الدلايل الظاهرة الدالة على معرفة المبدا ذكر بعده ما يدل على المعاد وقوله تعالى وان تعجب اي يا اكرم الخلق من تكذيب الكفار لك بعد اذ كنت عندهم تعرف بالصادق الامين فعجب اي تحقيق بان تتعجب من قولهم اي منكري البعث ءذا كنا ترابا اي بعد الموت ءانا لفي خلق جديد انه خلقا بعد الموت ولم يعلموا ان القادر على انشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على اعادتهم وقيل وان تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع اقرارهم بان الله تعالى خلق السموات والارض وهو يضر وينفع ويمنع ويقدر اوافقدره الله تعالى وما ضرب لهم به الامثال فعجب قولهم ذلك والعجب تغير النفس برؤية المستغرب العادة وقال المتكلمون التعجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك في حق الله تعالى محال لانه تعالى علام الغيوب لا يخفى عليه خافية وقرا ابو عمرو وحمزة والكسائي بادغام الياء في الياء والباقون بالاظهار وتقدم نظير هذا في ءاذا متنا ءانا لمبعوثون هنا قرا قالون بتحقيق الهمزة الاولى وابدالها واوا وتسهيل الثانية وبدخل بينهما الف على الاستفهام وفي الباقين همزتان مكسورة بعدها نون مشددة على الخبر وورش كذلك الا انه لا يدخل بين الهمزتين في ءانا والنقل والثاني على اصله وابن كثير يقرا بالاستفهام فيهما من غير ادخال الف بين الهمزتين مع تحقيق الاولى وتسهيل الثانية فيهما وابو عمرو كذلك مع ادخال الف بينهما وابن عامر في الاولى همزة مكسورة بعدها نون مفتوحة على الخبر وفي الثاني همزة مفتوحة محققة وهمزة مكسورة محققة على الاستفهام وادخل هشام بينهما الفا خلاف عنه والباقون همزتين محققتين الاولى مفتوحة والثانية مكسورة ولا الف بينهما في الموضعين فايئة جملة ما في القران من ذلك احد عشر موضعا في تسع سور والاخر عشر مكررة فبيضير اثنين وعشرين في هذه السورة موضع والثاني والثالث في سورة الاسراء والرابع في المومنون والخامس في النمل والسادس في العنكبوت والسابع في السجدة والثامن والتاسع في الصافات والعاشر في الواقعة والحادي عشر في النازعات واذكر ان شاء الله تعالى في كل سورة من السور المذكورة مذاهبهم في محله اولئك اي الذين جمعوا انواعا من البعد من كل خير الذين كفروا بربهم اي غطوا ما يجب اظهاره بسبب الاستهانة بالذي يجب اخلاصهم ربهم بانواع اللطف فانكروا ايجادهم فبعد انكروا ايجادهم واولئك اي البعد البعيد الاغلال يوم القيامة في اعناقهم بسبب كفرهم والغل طوق من حديد تغتد به في العنق وقيل المراد بالاغلال ذلهم وانقيادهم يوم القيامة كما قال الاسير الذليل بالغل وقيل انهم مقيدون بالضلال الا يرجى حلاصهم واولئك اي الذين لا خسارة اعظم من خسارتهم اصحاب النار هم فيها خالدون اي ثابت خلودهم دايما لا يخرجون منها ولا يموتون ولما كان صلى الله عليه وسلم يعدهم تارة بعذاب يوم القيامة وتارة بعذاب الدنيا والقوم كلما وعدهم بعذاب يوم القيامة انكروا العثمة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الاية الاولى وكلما وعدهم بعذاب الدنيا قالوا له فجينا بهذا العذاب وطلبوا منه اظهاره وانزله على سبيل الطعن واظهار ان الذي يقوله كلام لا اصل له للذل ويستعجلونك اي استهزاء فكذبوا والاستعجال الطلب التعجيل وهو تقديم الشيء قبل وقته الذي يقدر له بالسيئة اي العذاب قبل الحسنة اي الرحمة

كما قبله صح

اليه صح

وذلك ان مشركي مكة كانوا يقولون اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة
من السما او ايتنا بعذاب اليم تنبيه قوله قبل الحسنة فيه وجهان احدهما انه متعلق
بالاستعجال الظرفاله والثاني انه متعلق بمحذوف على انه حال المقدرة من السيئة قاله
ابو البقا وقد اي والحال انه قد خلت من قبلهم المثلات جمع مثلة بفتح الميم وضم المثلثة
كصدقة وصدقات اي عقوبات امثالهم من المكذبين افلا يعتبرون وان ربك لذو
مغفرة للناس على ظلمهم وان لم يترك على ظهرها دابة كما قال تعالى ولو يؤاخذ الله الناس
بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة وقال ابن عباس يعني اياه الله وتجاوز عن المشركين اذا امنوا
وان ربك لشديد العقاب للمصرين على الشرك الذين ماتوا عليه وقال ابن عباس انه لذو
تجاوز عن شركهم وتاخير العذاب عنهم وشديد العقاب اذا عاقب ولما بين سبحانه
وتعالى ان الكفار طعنوا في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بسبب طعنهم في الحشر والنشر
اولا ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول العذاب الاستيصالي
ثانيا ثم طعنوا في نبوته بان طلبوا منه الاتيان بالمعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور في قوله تعالى
ويقول الذين كفروا لولا اي هلا انزل عليه اي محمد صلى الله عليه وسلم اية من ربه اي مثل
عصى موسى وناقة صالح وذلك لانهم انكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا
كتاب مثل سائر الكتب وانى لانسان بتصنيف معين وكتاب معين ان يكون معجزا
مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام وكان صلى الله عليه وسلم راغبا في اجابة مقترحاتهم
لشدة انقاذه الى ايمانهم قال الله تعالى لرسوله انما انت منذر اي ليس عليك غير الانذار
والتخويف وليس عليك اتيان الايات ولكل قوم هاد اي نبي يدعوهم الى ربهم بما يعطيه
من الايات لا باقتراحهم وقرا ابن كثير بالوقف بيا بعد الدال في الوصل
بغير ياء وبتنوين الدال والباقون بغير ياء في الوقف والوصل مع تنوين الدال ولما
سئلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات اخبرهم الله تعالى عن عظم قدرته
وكمال علمه بقوله تعالى الله يعلم ما تحمل كل انثى من ذكر وغيره وواحد ومتعدد وغير
ذلك وما تغيض اي تنقص الارحام من مدة الحمل وما تزداد اي من غير مدة الحمل فتكون سبعة
اشهر وازيد على التسعة عند ابي حنيفة والى اربع عند الشافعي والى خمس عند مالك رضي
الله تعالى عنهم وقيل ان الضحاك ولد لسنتين وهرم بن حيان بقي في بطن امه اربع سنين
ولذلك سمي هرما وقيل ما تنقصه الرحم من الاولاد وتزيد منهم يروى ان شريكا كان رابع
اربعة في بطن امه وقيل من نقصان الولد فيخرج ناقصا او الزيادة تمام خلقه وقيل
ما ينقص بالسقط عن التسعة وما يزاد بالتمام وقيل ما ينقص بظهور دم الحيض وذلك
انه اذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد وتنقص بمقدار خصوص ذلك قال ابن عباس
كلما سال الحيض في وقت الحمل يوما زاد في مدة الحمل يوما لتحصل الخير ويعتدل الامر
والاية تحتمل جميع ذلك اذ لا تنافي في هذه الاقوال ويدل كذلك قوله تعالى وكل شيء
من هذا ومن غيره من الايات المقترحات وغيرها عنده اي في علمه وقدرته بمقدار
في كيفيته وكميته لا يجاوزه ولا ينقص عنه لانه تعالى عالم بكيفية كل شيء وكميته على الوجه
المفصل المبين بنبه قوله تعالى عنده بجواز ان يكون مجرور المحل صفة لشيء
او مرفوعه صفة لكل او منصوبه ظرفا لمقوله بمقدار وظرفا للاستقرار الذي تعلق

يحفظونه ثانيها ان فيه اضمارا اي ذلك الحفظ من امر الله اي مما امر الله تعالى به فحذف الاسم
وابقى خبره وثالثها ان كلمة من معناها الباء والتقدير يحفظونه بامر الله وباعانته وقال
كعب الاحبار لولا ان الله تعالى وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم
لتخطفتكم الجن وقال ابن جريج معنى يحفظونه اي يحفظون عليه الحسنات والسيئات فان
قيل ما الفائدة في تخصيص هؤلاء الملائكة مع بني آدم وتسليطهم عليه اجيب بان الانسان
اذا علم ان الملائكة تحصي عليه اعماله كان الى الحذر من المعاصي اقرب لان من اعتقد ان
جلالة الملائكة في علو مراتبهم فاذا حاول الاقدام على معصية واعتقد انهم يشاهدونها
زجره الحياء منهم عن الاقدام اليها كما يزجره اذا حضر من يعظمه البشر واذا علم ان الملائكة
تحصي عليه تلك الاعمال كان ذلك ايضا رادعا له عنها واذا علم ان الملائكة يكتبونها
كان الردع اكمل ولما دل ذلك على غاية القدرة والعظمة قال تعالى ان الله مع قدرته وعظمته
لا يغير ما بقوم اي لا يسلبهم نعمته حتى يغيروا ما اي الذي بانفسهم من الاحوال الجميلة
بالاحوال القبيحة واذا اراد الله بقوم سوءا اي هلاكا وعذابا فلا مرد له اي لا يقدر احد
لا من العقبات ولا من غيرها ان يرد ما نزل بهم من قضائه وقدره وما لهم اي ان اراد الله
بهم سوءا من دونه اي غير الله من وال يلي امرهم ونصرهم ويمنع العذاب عنهم وقرأ ابن كثير
في الوقف باثبات الياء بعد اللام دون الوصل والباقون بغير ياء بعد اللام وقفا ووصلا
ولما خوف الله تعالى بقوله واذا اراد الله بقوم سوءا اتبعه بذكر آيات تشبه النعم
والاحسان من بعض الوجوه وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه بقوله تعالى
هو الذي يريكم البرق خوفا اي للمسافر من الصواعق وطمعا اي للمقيم في المطر وقيل ان كل شيء يحصل
في الدنيا يحتمل الخير والشر فهو خير بالنسبة الى قوم وشر بالنسبة الى آخرين فكذلك المطر
خير في حق من يحتاج اليه في اوانه شر في حق من يضره ذلك اما بحسب المكان واما بحسب
الزمان والبرق معروف وهو لمعان يظهر من بين السحاب وينشئ اي يخلق السحاب الثقال
اي بالمطر تنبيه خوفا وطمعا مصدران ناصبهما محذوف اي يخافون خوفا ويطمعون
طمعا ويجوز غير ذلك قال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه غربال الماء وهو غيم ينسحب
في السماء وهو اسم جنس جمعي واحده سحابة واكثر المفسرين على ان الرعد في قوله تعالى
ويسبح الرعد بحمده على انه اسم للملك الذي يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه
ولا يرد ذلك عطف الملائكة عليه في قوله تعالى والملائكة اي تسبيحه من خيفته
اي الله تعالى لانه افرد بالذكر تشريفا له كما في قوله تعالى وملائكته ورسله وجبريل
وميكائيل قال ابن عباس اقبلت يهود على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا اخبرنا عن الرعد ما هو
فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث
يشاء الله تعالى قالوا فالصوت الذي يسمع قال زجر السحاب قال ابن الاثير والمخاريق
جمع مخراق وهو في الاصل ثوب يلف ويضرب به الصبيان بعضهم بعضا وهي آلة تزجر
بها الملائكة السحاب وتسوقه وقد جاء تفسير المخراق في حديث آخر وهو سوط من نور
تزجر به الملائكة السحاب وعن ابن عباس انه قال من سمع صوت الرعد فقال سبحان
من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير فان اصابته صاعقة
فعلي ديته وعن عبد الله بن الزبير انه كان اذا سمع صوت الرعد ترك الحديث

وقال

وقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملايكة من خيفته وفي بعض الاخبار يقول الله
تعالى لو ان عبادي اطاعوني لسقيتهم المطر بالليل واطلقت الشمس عليهم بالنهار ولم
اسمعهم صوت الرعد وفي رواية عن بن عباس الرعد ملك موكل بالسحاب يصرفه
الى حيث يومر وانه يحوز الما في نقرة ابهامه وانه يسبح الله تعالى اذا سبح لا يبقى
ملك في السما الا رفع صوته بالتسبيح فعندها ينزل المطر وعن الحسن ان الرعد
خلق من خلق الله ليس بملك وقد اختلفت الروايات في ذلك ففي بعضها
انه ملك موكل بالسحاب وفي بعضها انه ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه
وفي بعضها انه ملك يسوق السحاب بالتسبيح كما يسوق الحادي الابل بحدايه وفي
بعضها انه ملك يسمى به وهذا الذي تسمعون صوته وقد مرت الاشارة الى ذلك
في البقرة وقيل هولا الملايكة اعوان الرعد جعل الله تعالى له اعوانا فهم خايفون
خاضعون طايعون وقيل المراد انهم جميع الملايكة واستظهر وقوله تعالى ويرسل
الصواعق جمع صاعقة وهو العذاب المهلك ينزل من البرق فيحرق من يصيبه فيصيب
بها من يشا فيهلكه وهم يجادلون في الله حيث يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم
والجدال الشديد في الخصومة روي ان عامر بن الطفيل واربد بن ربيعة اخا لبيد
وفدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدين لقتله فاخذه عامر بالمجادلة ودار
اربد من خلفه ليضربه بالسيف فتنبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اللهم
اكفنيهما بما شيت فارسل الله تعالى على اربد صاعقة فقتلته ورمى عامر بغدة فمات
في بيت سلولية فكان يقول غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية فنزلت
وعن الحسن انه قال كان رجل من طواغيت العرب بعث اليه النبي صلى الله عليه وسلم
نفرا يدعونه الى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال لهم اخبروني عن رب
محمد هذا الذي تدعوني اليه مم هو امن ذهب او فضة او حديد او نحاس فاستعظم
القوم مقالته فانصرفوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ما راينا
رجلا اكفر قلبا ولا اعتى على الله منه فقال صلى الله عليه وسلم ارجعوا اليه
فرجعوا اليه فجعل لا يزيدهم على مقالته الاولى وقال اجيب محمدا الى رب
العزة لا اراه ولا اعرفه فانصرفوا وقالوا يا رسول الله ما زادنا على مقالته الاولى
واخبث فقال ارجعوا اليه فرجعوا فبينما هم عنده ينازعونه ويدعونه وهو
يقول هذه المقالة اذ ارتفعت سحابة فكانت فوق روسهم فرعدت
وبرقت ورمت بصاعقة فاحرقت الكافر وهم جلوس فجاوا يسعون ليخبروا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم قوم من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا
احترق صاحبكم فقالوا من اين علمتم فقالوا اوحى الله تعالى الى النبي صلى الله عليه وسلم
ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشا وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال
واختلف المفسرون في قوله تعالى وهو شديد المحال فقال علي شديد الاخذ وقال بن
عباس شديد الحول وقال مجاهد شديد القوة وقال ابو عبيد شديد القوة والمقالة
وفي قوله تعالى له اي الله دعوة الحق فقال علي دعوة الحق التوحيد وقال بن
عباس شهادة ان لا اله الا الله وقال الحسن الحق هو الله تعالى وكل دعا اليه دعوة الحق

بالمجادلة

اليه

والذين يدعون اي وهم الكفار من دونه اي غير الله وهي الاصنام لا يستجيبون اي الاصنام لهم
اي الكفار بشيء مما يطلبونه من نفع او دفع ضر الا اي الا الله سبحانه وتعالى اي الا استجابة
كباسط اي كاستجابة باسط كفيه الى الماء اي على شفير البير يدعوه ليبلغ فاه اي
بارتفاعه من البير اليه وما هو اي الماء ببالغه اي فاه ابدا لانه جماد لا يشعر بدعائه
ولا يقدر على اجابته فكذلك ما هم بمستجيبين لهم ابدا لان اصنامهم كذلك وقيل
شبهوا في قلة فائدة دعائهم لالهتهم بمن اراد ان يغرف الماء بيده ليشربه فبسطهما
ناشرا اصابعه ولم يصل كفاه الى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه ثم انه تعالى عمم
في انه لا يستجاب لهم بقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا في ضلال اي ضياع لا منفعة
فيه لانهم ان دعوا الله لم يجبهم وان دعوا الهتهم لم تستطع اجابتهم وقيل المراد بالدعاء
في الحالين العبادة وقوله تعالى ولله يسجد من في السموات والارض يحتمل ان يراد به
السجود على حقيقته وهو وضع الجبهة وعلى هذا فيكون قوله تعالى طوعا للملائكة
والمؤمنين من الثقلين حالتي الشدة والرخاء وقوله تعالى وكرها للكافرين والمنافقين
الذين اكرهوا على السجود بالسيف وان يراد التعظيم والاعتراف بالعبودية وكل من
في السموات والارض معترف بعبودية الله تعالى كما قال تعالى ولئن سألتهم من
خلقهم ليقولن الله وان يراد به الانقياد والخضوع وترك الامتناع وكل من في السموات
والارض ساجد لله بهذا المعنى لان قدرته ومشيئته نافذة في الكل تنبيه قوله
تعالى طوعا وكرها اما مفعول من اجله واما حال اي طائعين وكارهين واختلف
في تفسير قوله تعالى وظلالهم بالغدو اي البكر والآصال اي العشايا اي تسجد فقال اكثر
المفسرين كل شخص سواء كان مؤمنا ام كافرا وان ظله يسجد لله قال مجاهد ظل المؤمن
يسجد لله وهو طائع وظل الكافر يسجد لله وهو كاره وقال الزجاج في التفسير ان الكافر
يسجد لغير الله وظله يسجد لله قال ابن الانباري ولا يبعد ان يخلق الله تعالى في الظلال
عقولا وافهاما تسجد بها لله وتخشع وقيل المراد من سجود الظلال ميلها من جانب
الى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس وهي
منقادة مسلسلة في طولها وقصرها وميلها من جانب الى جانب وانما خص الغدو
والآصال بالذكر لان الظلال انما تعظم وتكثر في هذين الوقتين تنبيه الغدو جمع
غداة كقنى وقناة والآصال جمع اصل والاصل جمع اصيل وهو ما بين العصر الى غروب
الشمس ولما بين تعالى ان كل من في السموات والارض ساجد لله تعالى عدل الى الرد على عبادة
الاصنام بقوله قل يا اشرف الخلق على الله تعالى لقومك من رب السموات والارض
اي من مالكهما وما فيهما ومدبرهما وخالقهما قل الله اي اجب عنهم بذلك ان لم يقولوه
ولا جواب لهم غيره ولانه البين الذي لا يمكن المراء فيه ولقنهم الجواب به وروي انه لما قال
للمشركين عطفوا عليه وقال اجب انت فامره الله تعالى فاجاب بذلك ثم الزمهم الحجة
على عبادتهم الاصنام بقوله تعالى قل لهم اتخذتم من دونه اي غير الله اولياء اي اصناما
تعبدونها لا يملكون لانفسهم نفعا يجلبونه ولا ضرا يدفعونه فكيف يملكون لكم ذلك
وقرأ ابن كثير وحفص باظهار الذال في اتخذتم عند الباء والباقون بالادغام ثم ضرب
الله تعالى مثلا للمشركين الذين يعبدون الاصنام والمؤمنين الذين يعبدون الله بقوله

تعالى

تعالى قل هل يستوي الأعمى والبصير قال ابن عباس يعني المشرك والمؤمن وإنما مثل الكافر
بالأعمى لأنه لا يهتدي سبيلا كذلك الكافر لا يهتدي سبيلا ثم ألزمهم الحجة على عبادتهم ضرب الله
مثلا للإيمان والكفر بقوله تعالى أم هل تستوي الظلمات أي الكفر والنور أي الإيمان الجواب لا
وقرأ شعبة وحمزة والكسائي يستوي بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التأنيث وأما
اللام من هل هنا فلا تدغم على القراءتين أم جعلوا لله شركاء والهمزة للإنكار وقوله تعالى
خلقوا كخلقه صفة شركاء أي خلقوا سموات وأرضين وشمسا وقمرا وجبالا وبحارا وجنا وإنسا
فتشابه الخلق أي خلق الشركاء بخلق الله عليهم من هذا الوجه فلا يدرون ما خلقه الله وما
خلق آلهتهم فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم وهذا استفهام إنكار أي ليس الأمر
كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق ولما كان من المعلوم قطعا أن جوابهم أن الخلق كله لله
لزمتهم الحجة فقال تعالى قل لهؤلاء المشركين الله خالق كل شيء أي مما يصح أن يكون مخلوقا فهو
من العموم الذي يراد به الخصوص فلا يدخل في ذلك صفات الله تعالى وإذا كان لا خالق غيره
فلا يشاركه في العبادة أحد فوجب أن يتفرد بالإلهية كما قال تعالى وهو الواحد الذي لا يجانسه
شيء وكلما سواه لا يخلو عن مجانس يماثله وأين رتبة من يماثل من رتبة من لا مثل له القهار
الذي كل شيء تحت قهره فيدخل تحت قضائه ومشيئته وإرادته ثم ضرب الله تعالى مثلا للحق
والباطل بقوله أنزل من السماء ماء أي السحاب أو السماء نفسها ماء أي مطرا فسالت أودية أي أنهار
جمع واد وهو الموضع الذي يسيل الماء فيه بكثرة فاتسع فيه واستعمل للماء الجاري فيه وتنكيرها
لأن المطر يأتي على تناوب بين البقاع بقدرها أي بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع غير
ضار أو بمقداره في الصغر والكبر فاحتمل السيل زبدا رابيا أي عاليا عليه هو ما على وجهه
من قذر ونحوه ومما توقدون عليه في النار أي من جواهر الأرض كالذهب والفضة والنحاس
والحديد ابتغاء أي طلب حلية أي زينة أو متاع أي ينتفع به كالأواني إذا أذيب وآلات الحرب
والحرث والمقصود من ذلك بيان منافعها زبد مثله أي مثل زبد السيل وهو خبثه الذي
ينفيه الكير ومن للابتداء أو التبعيض وقرأ حفص وحمزة والكسائي بالياء على الغيبة على
أن الضمير للناس وإضماره للعلم به والباقون بالتاء على الخطاب كذلك أي مثل هذا الضرب
العلي الرتبة المتين السبب يضرب الله أي الذي له الأمر كله الحق والباطل أي مثلهما فإنه
تعالى مثل الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر
الحاجة والمصلحة فينتفع به أنواع المنافع ويمكث في الأرض بأن يثبت بعضه
في منافعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقنى والآبار ومثل الباطل
في قلة نفعه وسرعة زواله بزبد سماء وهو قوله تعالى فأما الزبد أي من السيل
وما وقد عليه من الجواهر فيذهب جفاء قال أبو حيان مضمحلا أي مبتلا شيئا لا منفعة
فيه ولا بقاء له وقال ابن الأنباري متفرقا وانتصابه على الحال وأما ما ينفع الناس من الماء
ومن الجواهر الذي هو مثل الحق فيمكث في الأرض أي يثبت ويبقى لينتفع به أهلها كذلك
أي مثل ذلك الضرب يضرب أي يبين الله أي الذي له الإحاطة الكاملة علما وقدرة الأمثال
فيجعلها في غاية الوضوح وإن كانت في غاية الغموض قال أهل المعاني هذا مثل ضربه
الله تعالى للحق والباطل فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال
فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب

جمع قناة

الزبد يسقى الماء الصافى الذى ينفع وكذلك المصوغ من هذه الجواهر يبقى ويذهب الغلو الذى هو الكدر
وهو ما يبغضه الكبير مما يذاب من جواهر الارض كذلك الحق والباطل وقيل هذا مثل للمؤمن
واعتقاده وانتفاعه بالايمان كمثل الماء الصافى الذى ينتفع به الناس ومثل الكافر
وخبث اعتقاده كمثل الزبد الذى لا ينتفع به البتة ثم انه تعالى لما ذكر الحق والباطل
ذكر ما لاهلهما من الثواب والعقاب فقال **للذين استجابوا لربهم** اى اجابوه الى
ما دعاهم اليه من التوحيد والعدل والنبوة ووقعت الاموات والتزام الشرايع الواردة
على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم **الحسنى** قال ابن عباس الجنة وقال اهل المعانى
الحسنى هى المنفعة العظمى التى للحسن وهى المنفعة الخالصة عن شوايب المضرة الدائمة
الحالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والاجلال ولم يذكر تعالى الزيادة ههنا
لانه تعالى ذكرها فى سورة اخرى وهى قوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة هذا
ما للاهل الحق واما ما لاهل الباطل فهو ما ذكره بقوله تعالى **والذين لم يستجيبوا له**
وهم الكفرة فلهم انواع اربعة من العذاب والعقوبة ما النوع الاول فقوله تعالى
لو ان لهم ما فى الارض جميعا ومثله معه لافتدوا به اى جعلوه فداء انفسهم بعذابه
جهدهم لان المحبوب بالذات لكل انسان هو ذاته وكل ما سواه فهو انما يحب لكونه
وسيلة الى مصالح ذاته فاذا كانت النفس فى الهول والالم والتعب وكان ما لكل ما فى السماوات
عالم الاجسام والارواح فانه يرضى بان يخلصه من النعم لان المحبوب بالعرض لا بد وان
يكون فداء لما كان محبوبا بالذات والكناية فى به عائدة الى ما فى قوله تعالى ما فى الارض
والنوع الثانى من انواع العذاب الذى اعده الله تعالى لهم ما ذكره بقوله تعالى
اولئك لهم سوء الحساب وهو المناقشة فيه وعن النبى صلى الله عليه وسلم من حاسب نفسه
كلمه الا يعذبه منى وانما يوقفون لانهم احبوا الدنيا واعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا
محرومين عن معشوقهم الذى هو الدنيا وبقوا محرومين عن العقبى بسعادة خدمة
المولى والنوع الثالث من عقوباتهم ما ذكر بقوله **ومأواهم** اى مرجعهم **جهنم** وذلك
لانهم كانوا عاملين عن الاشتغال بخدمة المولى عاشقين للدنيا فاذا ماتوا
عادوا بقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شئ يحير بقدره الصبية
فلذلك كان مأواهم جهنم ثم انه تعالى وصف بعد المأوى بقوله تعالى **وبئس المهاد**
اى الفراش والمحصور من الارض محذوف اى جهنم ونزل لام حمزة منزلة اى جهل وقيل
اى جهل **أفمن يعلم انما انزل اليك من ربك الحق** اى يعمل به وفيعل بما فيه وهو حمزة
او عالم كمن هو اعمى اى اعمى البصيرة فلا يؤمن به ولا يعمل فيه وهو ابو جهل قال ابن الخازن
فى تفسيره وحمل الاية على العموم اولى وان كان السبب مخصوصا والمعنى لا يستوى من يبصر
الحق ويتبعه ومن هو لا يبصر الحق ولا يتبعه وانما نسب الكافر والجاهل بالاعمى لان الاعمى
لا يهتدى لرشد **انما يتذكر اولوا الالباب** اى انما يتعظ بهذه الامثال اصحاب العقول الذين يطلبون
من كل صورة معناها ويأخذون من كل قشر لبابها ويعبرون من ظاهر كل حديث
الى سره ولبابه **الذين يوفون بعهد الله** اى ما عاهدوه عليه انفسهم من الاعتراف بربوبيته
حين قالوا بلى وما عهد الله تعالى عليهم فى كتبه **ولا ينقضون الميثاق** اى ما اوثقوه
من المواثيق بينهم وبين الله وبينهم وبين العباد فهو تعميم بعد تخصيص **والذين يصلون**

ما أمر الله به أن يوصل أي من الايمان والرحم وغير ذلك والاكثرون على انه اراد به صلة
الرحم عن ابي سلمة ان عبد الرحمن بن عوف عاد ابا الدردا فقال عبد الرحمن سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه تعالى انا الرحمن وهي الرحم شققت لها اسما من اسمي
فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته او قال بتته وعن عايشة رضي الله تعالى عنها
قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحم متعلقة بالعرش تقول من وصلني
وصله الله ومن قطعني قطعه الله وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال من سره ان يبسط له في رزقه وان ينسا له في اثره فليصل رحمه ومعنى ينسا
يوخر والمراد به تاخير الاجل وفيه قولان احدهما وهو المشهور انه يزاد في عمره زيادة
حقيقية والثاني يبارك له في عمره فكانه قد زيد فيه وعن ابن عمرو بن العاصي قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ليس الواصل بالمكافي ولكن الواصل الذي
اذا انقطعت رحمه وصلها وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاث ياتين يوم
القيامة لها السنة ذلقة الرحم فتقول اي رب قطعت والامانة تقول اي رب تركت
والنعمة تقول اي رب كفرت وعن الفضل بن عياض ان جماعة دخلوا عليه بمكة فقال
من اين انتم فقالوا من خراسان قال اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم واعلموا ان
العبد لو احسن كل الاحسان وكان له دجاجة فاساء اليها لم يكن من المحسنين ويخشون ربهم
اي وعيده عموما والخشية خوف يشوبه تعظيم ويخافون سوء الحساب خصوصا
فيحاسبون انفسهم قبل ان يحاسبوا والذين صبروا اي على طاعة الله تعالى وعن معاصيه
وفي كل ما ينبغي الصبر فيه وقال ابن عباس صبروا على امر الله وقال عطا على المصايب والنوايب
وقيل صبروا عن الشهوات وعن المعاصي ومرجع الكل واحد فان الصبر الحبس وهو
تجرع مرارة منع النفس ما تحب مما لا يجوز فعله ابتغاء اي طلب وجه ربهم اي رضاه
لا طلب غيره من حرز او سمعة او ريا او لغرض من اغراض الدنيا او نحو ذلك واقاموا
الصلاة اي المفروضة وقيل مطلق الصلاة فيدخل فيه الفرض والنفل وانفقوا
مما رزقناهم سرا وعلانية قال الحسن المراد به الزكاة فان لم يتهم بترك الزكاة
فالاولى ان يوديها سرا وان كان يتهم بترك ادايها فالاولى ان يوديها علانية وقيل
المراد بالسر صدقة التطوع وبالعلانية الزكاة وقيل المراد بالسر ما يودي به من
الزكاة بنفسه وبالعلانية ما يدفعه الى الامام ويدرؤن اي يدفعون بالحسنة
السيئة كالجهل بالحلم والاذى بالصبر روي عن ابن عباس قال تدفعون بالصالح
من العمل السيء من العمل وهو معنى قوله تعالى ان الحسنات يذهبن السيئات وقوله
صلى الله عليه وسلم اذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها السر بالسر والعلانية
بالعلانية وعن عقبة بن عامر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان مثل الذي يعمل
السيئات ثم يعمل الحسنات مثل رجل عليه درع ضيق قد خنقه ثم عمل حسنة فانفكت
حلقة ثم عمل حسنة اخرى فانفكت اخرى حتى يخرج الى الارض وقال ابن عباس يدفعون
بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن اذا احرموا اعطوا واذا ظلموا
عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن عمر ليس الواصل من وصل ثم وصل تلك مجازاة
لكن من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى اذا هيجه

قوم اهتاج لكن الحليم من قدر ثم عفا وعن ابن كيسان اذا اذنبوا تابوا وقيل اذا راوا منكرا امروا
بتغييره ويروى ان شقيق البلخي دخل على ابن المبارك منكرا فقال له من اين انت قال من بلخ
فقال وهل تعرف شقيقا قال نعم قال وكيف طريقة اصحابه قال اذا منعوا صبروا وان
اعطوا شكروا قال ابن المبارك طريقة كلانيا هكذا حال شقيق فكيف ينبغي ان يكون الامر
فقال الكاملون هم الذين ان منعوا شكروا وان اعطوا اثروا اولئك اي العالوا الرتبة لهم
عقبى الدار وبينها تعالى بقوله جنات عدن اي اقامة لا انفكاك لها يقال عدن
بالمكان اذا اقام به ثم استانف بيان تمكنهم فيها بقوله تعالى يدخلونها ولما كانت الدار
لا تطيب بدون الاحبة قال تعالى عاطفا على الضمير المرفوع ومن صلح من ابائهم اي الذين كانوا
سببا في ايجادهم فيشمل ذلك الاباء والامهات وان علوا وازواجهم وذرياتهم اي الذين
تسببوا عنهم والمعنى انه يلحق بهم من صلح من اهليهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا
لهم وتعظيما لشانهم ويقال ان من اعظم موجبات سرورهم ان يجتمعوا فيتذكروا
احوالهم في الدنيا ثم يشكروا الله تعالى على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال
تعالى في صفة اهل الجنة انهم يقولون يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني
من المكرمين وفي ذلك دليل على ان الدرجة تعلو بالشفاعة وان الموصوفين
بتلك الصفات تقترن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة
زيادة في انسهم والتقييد بالصلاح دلالة على ان مجرد الانساب لا ينفع وفسر ابن
عباس الصلاح بالتصديق فقال يريد من صدق بما صدقوا وان لم يعمل مثل اعمالهم
قال الرازي قوله وازواجهم ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة ولعل
الاولى من مات عنها او ماتت عنه وما روي عن سودة انها لما هم رسول الله صلى
الله عليه وسلم بطلاقها قالت دعني يا رسول الله احشر في جملة نسائك كالدليل
على ما ذكرنا انتهى وعلى هذا من تزوجت بغيره قيل انها تتخير بينهما ثم زاد تعالى
في ترغيبهم بقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم لان الاكثار من تزاد رسل الملك
اعظم في الفخر واكثر في السرور والعز ولما كان اتيانهم من الاماكن المعتادة مع القدرة
على غيرها ادل على الادب واكرم قال تعالى من كل باب قال ابن عباس لهم خيمة من درة مجوفة
طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها الف باب مصارعها من ذهب يدخلون عليهم من كل
باب يقولون لهم سلام عليكم اي فاضمر القول هنا لدلالة الكلام عليه بما صبرتم
على امر الله والباء للسببية اي بسبب صبركم او البدلية اي بدل ما احتملتم من مشاق الصبر
ومتاعبه فان قيل بم يتعلق قوله بما صبرتم قال الزمخشري بمحذوف تقديره هذا
بما صبرتم وقال البيضاوي متعلق بعليكم او بمحذوف لا بسلام وان الخبر فاصل مع ان
الزمخشري قال ويجوز ان يتعلق بسلام اي نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم وهذا اظهر
ورد الاول بان الممنوع منه انما هو المصدر المؤول بحرف مصدري وفعل والمصدر هنا
ليس كذلك ولما تم ذلك تسبب عنه قوله تعالى فنعم عقبى الدار وهي المسكن في قرار
المهيا بالابنية التي يحتاج اليها والمرافق التي ينتفع بها والعقبى الانتهاء الذي يؤدي
اليه الابتداء من خير او شر والمخصوص بالمدح محذوف اي عقباكم ولما ذكر تعالى صفات
السعداء وذكر ما يترتب عليها من الاحوال الشريفة العالية اتبعها بذكر احوال الاشقيا

وذكر

الثامن والثلاثون

وذكر ما يترتب عليها من الاحوال المخزية المكرية فاتبع الوعد بالوعيد والثواب
بالعقاب ليكون البيان كاملا فقال والذين ينقضون عهد الله اي يعملون بخلاف
موجبه والنقض التفريق الذي ينفي تاليف البنا من بعد ميثاقه اي الذي اوثقه عليهم
من الاقرار والقبول ويقطعون ما اي الذي امر الله به ان يوصل وذلك في مقابلة قوله
تعالى من قبل والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل فجعل من صفات هولا القطع
بالضد من ذلك الوصل والمراد به قطع ما يوجب الله تعالى وصله اي لما له من المحاسن
الجلية والخفية التي هي عين الصلاح ويدخل في ذلك وصل الرسول صلى الله عليه وسلم
بالموالاة والمعاونة ووصل المومنين ووصل الارحام ووصل ساير من له حق ويفسدون
اي يوقعون الفساد في الارض اي في اي جزء كان منها بالظلم وتهييج الفتن والدعا الى غير
دين الله تعالى اولئك اي البعدا البغضا لهم اللعنة اي الطرد والبعد ولهم سوء الدار
والدار لهم هي جهنم وليس فيها الا ما يسوا الصاير اليها ولما حكم تعالى على من نقض عهده
في قبول التوحيد والنبوة بانهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الاخرة فكانه قيل
لو كانوا اعدا الله بما فتح عليهم ابواب النعم واللذات في الدنيا فاجاب الله تعالى بقوله
تعالى الله يبسط الرزق اي يوسعه لمن يشا ويقدر اي يضيقه لمن يشا سوا في ذلك الطايع
والعاصي ولا تعلق لذلك بالكفر والايمان فقد يوجد الكافر موسعا عليه دون المومن
ويوجد المومن موسعا عليه دون الكافر فالدنيا دار امتحان ولما كانت السعة
مظنة الفرح الا عند من وفقه الله تعالى قال تعالى وفرحوا اي كفار مكة فرح بطر
بالحياة الدنيا اي بما نالوه فيها لا فرح سرور بفضل الله وانعامه عليهم ولم يقابلوه
بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الاخرة وما الحياة الدنيا اي بكمالها في الاخرة اي في جنبها
الا متاع اي حقير متلاش يتمتع به ويذهب كعجالة الراكب وهي ما يتعجله من تمرات
او شربة سويق او نحو ذلك ويقول الذين كفروا من اهل مكة لولا اي هلا انزل عليه
على هذا الرسول اية اي علامة بينة من ربه اي المحسن اليه كالعصى واليد لموسى
والناقة لصالح ليهتدي بها فنومن به فامره الله تعالى ان يجيبهم بقوله قل لهولا
المعاندين ان الله يضل من يشا اضلاله فلا تغني عنه الايات شيا وان انزلت كل اية
ويهدي اي يرشد اليه اي الى دينه من اناب اي رجع اليه كابي بكر الصديق وغيره ممن تبعه
من العشرة المشهود لهم بالجنة وغيرهم ولو جعلت اية واخرة فلا تشتغلوا بطلب
الايات ولكن تضرعوا الى الله تعالى في طلب الهدايات وقوله تعالى الذين امنوا
بدل من من اناب او خبر مبتدا محذوف وتطمين اي تسكن قلوبهم بذكر الله اي
انسا به واعتمادا عليه ورجا منه او يذكر رحمته ويغفر له بعد القلق والاضطراب
من خشيته او يذكر دلايله الدالة على وجوده او بالقران الذي هو اقوى المعجزات
وقال بن عباس يريد اذا سمعوا القران خشعت قلوبهم واطمانت فان قيل قد قال
تعالى في سورة الانفال انما المومنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والوجل ضد
الاطمينان فكيف الجمع بين هاتين الايتين اجيب بانهم اذا ذكروا العقاب ولم يامنوا
ان يامنوا ان يقدموا على المعاصي فهناك يحصل الوجل واذا ذكروا وعده
بالثواب والرحمة سكنت قلوبهم الى ذلك وحينيذ حصل الجمع بينهما الا بذكر الله

BULAC

اي الذي له الجلال والاكرام لا بذكر غيره تطمئن اي تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها وقوله
تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات مبتدا خبره طوبى لهم واختلف العلماء في تفسير طوبى فقال
ابن عباس فرح لهم وقرة عين وقال عكرمة نعمى لهم وقال قتادة حسنى لهم وقال النخعي
خير لهم وكرامة وقال سعيد بن جبير طوبى اسم الجنة بالحبشية قال الرازي وهذا
القول ضعيف لانه ليس في القرآن الا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة
العربية ظاهر وعن ابي هريرة وابي الدرداء ان طوبى شجرة في الجنة تظل الجنان كلها وقال
عبيد بن عمير هي شجرة في جنة عدن اصلها في دار النبي صلى الله عليه وسلم وفي كل دار وغرفة
غصن منها لم يخلق الله لونا ولا زهرة الا وفيها منها الا السواد ولم يخلق الله فاكهة
ولا ثمرة الا وفيها منها ينبع من اصلها عينان الكافور والسلسبيل وقال مقاتل
كل ورقة منها تظل امة عليها ملك يسبح الله تعالى بانواع التسبيح وعن ابي سعيد الخدري
ان رجلا سال النبي صلى الله عليه وسلم ما طوبى قال شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة
ثياب اهل الجنة تخرج من اكمامها وعن معاوية بن قرة عن ابيه يرفعه طوبى شجرة
غرسها الله تعالى بيده ونفخ فيها من روحه تنبت الحلي والحلل وان اغصانها
لترى من وراء سور الجنة وفي رواية عن ابي هريرة انه قال ان في الجنة شجرة يقال
لها طوبى يقول الله تعالى لها تفتقي لعبدي عما يشاء فتنفتق له عن فرس مشرجة
بلجامها وهيئتها كما يشاء وتنفتق له عن راحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما يشاء وقيل
طوبى فعلى من الطيب قلبت ياؤه واوا لضمة ما قبلها مصدر لطاب كبشرى
وزلفى ومعنى طوبى لك اصبت خيرا وطيبا وحسن مآب اي حسن المنقلب
كذلك اي مثل ارسال الله الرسل الذي قدمنا الاشارة اليهم في آخر سورة يوسف
وفي غيرها ارسلناك في امة اي جماعة كثيرة قد خلت من قبلها اي تقدمتها امم
طال اذاهم لانبيائهم ومن آمن بهم واستهزاؤهم بهم في عدم الاجابة حتى
كانهم تواصوا بهذا القول بهذا القول فليس ببدع ارسالك اليها لتتلو اي لتقرا
عليهم اي على امتك الذي اوحينا اليك اي القرآن وشرائع الدين وهم اي والحال انهم
يكفرون بالرحمن اي بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء وقال قتادة هذه
الآية مدنية نزلت في صلح الحديبية وذلك ان سهل بن عمرو لما جاء للصلح واتفقوا
على ان يكتبوا كتاب الصلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي اكتب
بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة
الكذاب اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم فهذا معنى قوله وهم يكفرون بالرحمن
اي انهم ينكرونه ويجحدونه قال البغوي والمعروف ان الآية مكية وسبب نزولها
ان ابا جهل سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو في الحجر يدعو يا الله يا رحمن فرجع
الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الله وندعو الها آخر يسمى الرحمن ولا نعرف الرحمن
الا رحمن اليمامة فنزلت هذه الآية ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا
الرحمن ايا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى وروى الضحاك عن ابن عباس انها نزلت
في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن
قال الله تعالى قل لهم يا محمد ان الرحمن الذي انكرتم معرفته هو ربي لا اله الا هو

عليه

عليه توكلت اي اعتمدت عليه في اموري كلها واليه منيب اي مرجعي ومرجعكم وروي
ان اهل مكة قعدوا في فناء الكعبة فاتاهم النبي صلى الله عليه وسلم وعرض الاسلام
عليهم فقالوا له عبد الله بن امية المخزومي سير لنا جبال مكة حتى تنفسح المكان
علينا واجعل لنا فيها انهارا نزرع فيها واحي لنا بعض اموات انسالهم احق ما نقول
ام باطل فقد كان عيسى يحيي الموتى وسخر لنا الريح حتى نركبها الى البلاد فقد كانت
الريح مسخرة لسليمان فلست باهون على ربك من سليمان فنزل قوله تعالى
ولو ان قرانا سيرت به الجبال اي نقلت عن اماكنها او قطعت اي تشققت
به الارض او كلم به الموتى اي لكان هذا القرآن لانه في غاية ما يكون من الصحة
بان يجيبوا وجواب لو محذوف اي لكان هذا القرآن لانه في غاية ما يكون من الصحة
واكتفى بمعرفة السامعين مراده وهذا معنى قوله قتادة قال لو فعل هذا
بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وقيل بتقدير لما امنوا ونقل عن الفراء ان جواب
لو هي الجملة من قوله وهم يكفرون وفي الكلام تقديم وتاخير وما بينهما اعتراض
وتقدير الكلام وهم يكفرون بالرحمن لو ان قرانا سيرت به الجبال كما انه قال
لو سيرت به الجبال او قطعت به الارض او كلم به الموتى لكفروا بالرحمن ولم يؤمنوا
لما سبق من علمنا فيهم فان قيل لم حذفت التاء في قوله تعالى وكلم به الموتى وثبتت
في الفعلين قبله اجيب بانه من باب التغليب لان الموتى يشمل الذكور والمؤنث
بل لله الامر اي القدرة على كل شيء جميعا وهذا اضراب عما تضمنه لو من معنى النفي
اي بل الله قادر على الاتيان بما اقترحوه من الايات لكن الامر لم يتعلق بذلك
لعلمه تعالى بانه لا يليق بحالهم ويؤيد ذلك قوله تعالى افلم ييأس الذين آمنوا
عن ايمانهم مع ما رأوا من احوالهم وذهب اكثرهم الى ان معناه افلم يعلم الذين امنوا
ان اي بانه لو شاء الله اي الذي له صفات الكمال لهدى الناس جميعا الى الايمان
من غير آية ولكنه تعالى لم يشا هداية جميع الخلق ولا يزال الذين كفروا اي جميع الكفار
تصيبهم بما اي بسبب ما صنعوا قارعة اي نازلة وداهية تقرعهم بانواع البلايا
نارة بالجدب ونارة بالسلب ونارة بالقتل ونارة بالاسر وغيره ذلك واختلف في الكفار
على قولين فقيل اراد به جميع الكفار لان الوقائع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار
من ذلك اوجب حصول الغم في قلب الكل وقيل المراد الكفار من اهل مكة فالالف
واللام للعهود السابق ويدل لهذا قول ابن عباس اراد بالقارعة السرايا التي
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها اليهم او تحل اي تنزل انت يا محمد
القارعة قريبا من دارهم اي فتوطن امرهم وقيل معناه او تحل انت يا محمد
بجيشك قريبا من دارهم اي مكة كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله اي بالنصر
وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه بفتح مكة وبالنصر على جميع
الكفار فمن عيسى عليه السلام فيستطرد ذلك لانه لا يبقى على الارض كافر وقيل
اراد به وعد الله بقوم القيامة لان الله يجمعهم فيه فيحاربهم باعمالهم ان الله
لا يخلف الميعاد لاستحالة الكذب في كلامه تعالى ولما كان الكفار يتعالون بهذه الآيات
منه صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى

من تلك الكلمات امر الله تعالى بتسلية له وتصبير الرعاع سفاهة قوله ولقد استهزئ
برسل من قبلك كما استهزئ بك ما مكنت للذين كفروا اى اطلت المدة بتاخير العقوبة
ثم اخذتهم بالعقوبة فكيف كان عقاب اى هو واقع موقعه وكذلك افعل بمن استهزا
بك والاملاء الامهال يقال ملاه من الزمان مرت عليه برهة وامتد كاليمة يملى لها
فى المرعى وهذا استهزاء معناه التعجب وفى ضمنه وعيد شديد لهم وجواب عن
اقتراحهم الايات على رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستهزاء ثم انه تعالى
اورد على المشركين ما يجرى مجرى الحجاج وبما يكون توبيخا لهم وتعجيبا من عقولهم
فقال افمن هو قائم اى رقيب على كل نفس بما كسبت اى عملت من خير وشر وهو
الله تعالى القادر على كل الممكنات العالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات
ولابد لهذا الكلام من جواب فان من موصولة صلتها هو قائم والموصول مرفوع بالابتدا
وخبره محذوف فتقديره كمن ليس بهذه الصفة وهى الاصنام التى لا تنفع ولا تضر
ودل على هذا المحذوف قوله تعالى وجعلوا لله شركاء ونظيره قوله تعالى افمن شرح الله
صدره للاسلام فهو على نور من ربه تقديره كمن قسى قلبه يدل عليه قوله تعالى
فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله وانما حسن حذفه كون الخبر مضادا للمبتدا وقد جا
مبينا كقوله تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق وقوله تعالى قل سموهم فيه تنبيه
على ان هؤلاء الشركا لا يستحقون هذا والمعنى سموهم باسمائهم الحقيقية فانهم اذا اعرفت
حقائقهم انما هى جمادات واعراض لكن مما هو مركز العجز ومحل العقر عرفت ما هم عليه من سخافة
العقول وركاكة الآراء ثم قل لهم ارجعتم عن ذلك الى الاقرار بانهم من جملة عبيده
ام تنبئونه اى تخبرونه بما لا يعلم وعلمه محيط بكل شئ فى الارض من كونها آلهة بيرهان قاطع
ام تسمونهم شركاء بظاهر من القول اى بحجة اقناعية تقال بالفم وكل ما لا يعلم فليس بشئ
وبهذا احتجاج بليغ على اسلوب عجيب ينادى على نفسه بالاعجاز ولما كان التعنت يلبس
بعضهم على شئ من ذلك ببرهان قاطع ولا قول ظاهر يرد عليه قوله تعالى بل زين اى وقع
التزيين بامر من لا يرد امره على يد من كان من شياطين الجن وشياطين الانس
للذين كفروا مكرهم اى امرهم الذى اراد والله ما يراد بالمكر من اظهار شئ وابطان غيره
وذلك انهم اظهروا ان شركاءهم آلهة حقا وهم يعلمون بطلان ذلك وليس لهم فى الباطن
الا تقليد الاباء واظهروا انهم يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ولتشفع لهم وهم لا يعتقدون
بعثا ولا نشورا فصار كل ذلك من فعلهم فعل المكر وصدوا عن السبيل اى طريق الهدى
الذى لا يقال لغيره سبيل فان غيره عدم بل العدم حيرمنه فهم لم يسلكوا السبيل ولا
تركوا غيرهم يسلكه فضلوا واضلوا وليس ذلك بعجب فان الله اضلهم ومن يضلل الله فما
اى الذى له الامر كله بارادة ضلاله له من هاد وقرا ابن كثير بالياء فى الحالين والباقون
بغير ياء فى الحالين والياء قد تحذف فى الوقف دون الوصل والياء دون الكسر ضلالا وضلا وكذلك من واق
وكذا ولا واق ولما اخبر تعالى بذلك الامور المذكورة بين انه جمع لهم بين عذاب
الدنيا وعذاب الاخرة بقوله تعالى لهم عذاب فى الحياة الدنيا بالقتل والاسر
والذم والاهانة واغتنام الاموال واللعن وغير ذلك مما فيه غظم ولعذاب
الاخرة اشق اى اشد فى المشقة بسبب الغم والشدة وكثرة الآلام والدوام

وعدم

وعدم الانقطاع ثم بين تعالى ان احدا لا يقيهم من عذابه بقوله تعالى وما لهم من الله
من واق اى مانع يمنعهم اذا اراد بهم سوءا فى الدنيا ولا فى الاخرة والواقى فاعل
الوقاية وهى الحفظ مجازا فدفع الاذية ولما ذكر تعالى عذاب الكفار فى الدنيا والاخرة
اتبعه بذكر ثواب المتقين بقوله تعالى مثل اى صفة الجنة اى التى هى من صفتها
التى وعد المتقون واختلف فى اعراب ذلك على اقوال الاول قال سيبويه مثل
الجنة مبتدا وخبره محذوف والتقدير فيما قصصنا عليكم مثل الجنة والثانى قال الزجاج مثل
الجنة جنة من صفتها كذا وكذا والثالث مثل الجنة مبتدا وخبره تجرى من تحتها الانهار
كما تقول صفة زيد استمر والرابع الخبر اكلها اى ما كولها دائم لانه الخارج عن العادة فقد
وصف الله تعالى الجنة بثلاثة اوصاف الاول تجرى من تحتها الانهار من تحتها قصورها
واشجارها الانهار والثانى اكلها دائم لا ينقطع ابدا بخلاف جنة الدنيا والثالث المذكور
بقوله تعالى وظلها اى دائم ليس كظل الدنيا لا تنسخه شمس ولا غيرها اذ ليس فيها شمس ولا
ظلمة بل ظل ممدود لا ينقطع ولا يزول ثم انه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات
الثلاثة بين تعالى انها للمتقين بقوله تعالى تلك اى الجنة العالية الاوصاف
عقبى اى اخر امر الذين اتقوا اى الشرك ثم كرر الوعيد للكافرين بقوله تعالى وعقبى
اى منتهى امر الكافرين النار فى الآخرة وفى ذلك ترغيب للمتقين واقناط
للكافرين واختلف فى قوله تعالى والذين اتيناهم الكتاب على قولين الاول انهم
اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والمراد بالكتاب القرآن يفرحون بما انزل اليك
من انواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث فى الاحكام والقصص ومن الاحزاب
اى الجماعات من اليهود والنصارى ومن ينكر بعضه وهذا قول الحسن وقتادة فان قيل
الاحزاب ينكرون كل القرآن اجيب بانهم لا ينكرون كل ما فى القرآن لانه ورد فيه اثبات
الله تعالى واثبات علمه وقدرته وحكمته واقاصيص الانبياء والاحزاب لا ينكرون كل
هذه الاشياء والقول الثانى ان المراد بالكتاب التوراة وبأهله الذين اسلموا من اليهود
والنصارى كعبد الله بن سلام واصحابه ومن اسلم من النصارى وهم ثمانون رجلا
اربعون بنجران وثمانية من اليمن واثنان وثلاثون من ارض الحبشة وقد اجابوا القرآن
لانه امنوا به وصدقوه والاحزاب بقية اهل الكتاب وسائر المشركين وقد كان
ذكر الرحمن قليلا فى القرآن فى الابتداء فلما اسلم عبد الله بن سلام ومن معه
من اهل الكتاب سألوه قالوا ذكر الرحمن مع كثرة ذكره فى التوراة فلما كثر تعالى
ذكره فى القرآن فرحوا به فانزل الله تعالى والذين اتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل
اليك ومن الاحزاب من ينكر بعضه يعنى مشركى مكة حين قيل لهم اسجدوا للرحمن صلى الله
عليه وسلم فى كتاب الصلح بسم الله الرحمن الرحيم قالوا ما نعرف الرحمن الا
اليمامة يعنى مسيلمة فانزل الله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون ثم انه تعالى لما
هدد جميع كفار المشركين فى سورة فيها المبدأ والمعاد وسيلة فى الفاظ قليلة فقال
قل يا اكرم الخلق على الله تعالى انما امرت اى وقع الى امر الجازم الذى لا شك فيه ولا
تقدير فى الامر كله ان اعبد الله اى وحده ولذلك قال ولا اشرك به ستأتى اليه
وحده ادعو والية مآب اى مرجعى للجزاء الى عينه وكذلك كما انزلنا الكتب على الانبيا

الكتارح

بلسانهم كذلك أنزلناه اي القرآن حكما والحكم فصل الامر عن الحق عربيا بلسانك ولسان
قومك وانما سمي القرآن حكما لان فيه جميع التكاليف والحلال والحرام والنقض والابرام فلما كان
سببا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة وروي ان المشركين كانوا يدعون النبي
صلى الله عليه وسلم الى ملة آبائه فوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب
بان يصلي الى قبلتهم بعد ما حوله الله تعالى عنها بقوله تعالى ولئن اتبعت أهواءهم
اي الكفار فيما يدعونك اليه بعد ما جاءك من العلم اي بانك على الحق وان قبلتك هي الكعبة
ما لك من الله من ولي اي ناصر ولا واق اي مانع من عذابه قال ابن عباس
الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد امته ونزل لما عير النبي صلى الله عليه وسلم
الكفار بكثرة النساء ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا اي نساء
ينكحونهن فكان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وسبعمائة سرية ولداود عليه السلام
مائة امرأة وذرية اي اولادا فانت مثلهم كانوا يقولون ايضا لو كان رسولا من عند الله
لكان اي شيء طلبناه منه من المعجزات اتى به فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى وما كان
لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله اي بارادته لان المعجزة الواحدة كافية في ازالة
العذاب والعلة وفي اظهار الحجة والبينة واما الزائد عليها فهو مفوض الى مشية الله
تعالى ان شاء اظهرها وان لم يشأ لم يظهرها لا اعتراض لاحد عليه في ذلك ولما توعدهم صلى
الله عليه وسلم نزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه وتأخر ذلك عنهم قالوا لو كان
نبينا صادقا لما ظهر كذبه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى لكل أجل اي مدة كتاب
اي مكتوب قد اثبت فيه ان امر كذا يكون في وقت كذا من الثواب والعقاب والاحكام
والاتيان بالآيات وغيرها اثباتا ونسخا على ما تقتضيه الحكمة ولما اعترضوا على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا ان محمدا يأمر اصحابه بامر اليوم ثم يأمر بخلافه
غدا وما سبب ذلك الا انه يقوله من تلقاء نفسه فرد الله تعالى عليهم بقوله تعالى
يمحو الله ما يشاء اي يمحوه من الشرائع والاحكام وغيرها بالنسخ فيرفعه ويثبت
ما يشاء اثباته من ذلك بان يقره ويمضي حكمه كقوله تعالى ما ننسخ من آية الى قوله تعالى
الم تعلم ان الله على كل شيء قدير وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم بسكون الثاء وتخفيف
الباء الموحدة والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء الموحدة تنبيه في هذه الآية
قولان احدهما انها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ وهذا مذهب
عمر وابن مسعود وغيرهما قالوا ان الله يمحو من الرزق ويزيد فيه وكذا القول
في الاجل والسعادة والشقاوة والايمان والكفر وروي عن عمر رضي الله تعالى
عنه انه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول اللهم ان كنت كتبتني في اهل
السعادة فاثبتني فيها وان كنت كتبت علي الشقاوة فامحني واثبتني
في اهل السعادة والمغفرة فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك ام الكتاب ومثله
عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وهذا التأويل رواية جابر عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم وفي بعض الآثار ان الرجل يكون قد بقي له من عمره ثلاثون سنة
فيقطع رحمه فيرد الى ثلاثة ايام والرجل يكون قد بقي من عمره ثلاثة ايام فيصل
رحمه فيرد الى ثلاثين سنة وروي ان الله تعالى يقول اي امره في آخر ثلاث ساعات

بتقي

بنقي من الليل فينظر في الساعة الاولى منهن في ام الكتاب الذي لا ينظر فيه احد غيره فيمحوا
ما يشا ويثبت والقول الثاني ان هذه الاية خاصة في بعض الاشيا دون بعض واختلفوا
على هذا القول فقال سعيد بن جبير وقتادة يمحوا الله ما يشا من الشرايع والفرايض
فينسخه ويبدله ويثبت ما يشا منها فلا ينسخه وقال بن عباس يمحوا الله ما يشا
ويثبت الا الرزق والاجل والسعادة والشقاوة واستدل لهذا بما رواه حذيفة
ابن اسيد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا مر بالنطفة ثنتان
واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها
وعظمها ولحمها ثم قال يا رب اذكر ام انثى فيقضي ربك ما يشا ويكتب الملك ثم يقول
الملك يا رب رزقه فيقضي ربك ما يشا ويكتب الملك ثم يقول يا رب اشقي ام سعيد
فيكتبان فيكتب عمله واثره واجله ورزقه ثم تطوى الصحف فلا يزاد ولا ينقص
وقال عطية عن بن عباس هو الرجل الذي يعمل بطاعة الله تعالى فيموت على ضلاله
ثم يرجع لمعصية الله فيموت على ضلاله فهو الذي يمحوا والذي يثبت يعمل الرجل بطاعة
الله فيموت وهو في طاعته فهو الذي يثبت وقال الحسن يمحوا ما يشا اي من جا اجله يذهب
به ويثبت من لم يجي اجله الى اجله وعن سعيد بن جبير قال يمحوا ما يشا من ذنوب العباد
فيغفرها ويثبت ما يشا فلا يغفرها وقال عكرمة يمحوا الله ما يشا من الذنوب بالتوبة
ويثبت بدل الذنوب حسنات كما قال تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وقال
السدي يمحوا الله ما يشا يعني القمر ويثبت ما يشا يعني الشمس بيانه قوله تعالى فمحونا
اية الليل وجعلنا اية النهار مبصرة وقال الربيع هذا في الارواح يقبضها الله تعالى
عند النوم فمن اراد موته امسكه ومن اراد بقاه اثبته ورده الى صاحبه بيانه
قوله تعالى الله يتوفى الانفس الاية وقيل ان الله تعالى يثبت في اول كل سنة
حكمها فاذا مضت السنة محاه واثبت حكما اخر للسنة المستقبلة وقيل يمحوا
الله الدنيا ويثبت الاخرة وقيل ان الحفظة يكتبون جميع اعمال بني ادم واقوالهم
فيمحوا الله من ديوان الحفظة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب وقيل هذا في المحن
والمصايب فهي مثبتة في الكتاب ثم يمحها بالدعا والصدقة وعنده تعالى ام الكتاب
اي اصل الكتب والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الاصل للشي اما ومنه ام الراس
للدماغ وام القرى لمكة وكل مدينة فهي ام لما حولها من القرى فكذلك ام الكتاب
هو الذي يكون اصلا لجميع الكتب وفيه قولان الاول انه اللوح المحفوظ الذي
لا يغير ولا يبدل وجميع حوادث العالم العلوي والسفلي تثبت فيه عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان الله ولا شي ثم خلق الله اللوح واثبت
فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم احوال جميع الخلق الى قيام القيامة والقول
الثاني ان ام الكتاب اصله الذي لا يغير منه شي وهو ما كتب في الازل وقال بن عباس
في رواية عكرمة بينما كتابان كتاب سوى ام الكتاب يمحوا ما يشا منه ويثبت وام
الكتاب لا يغير منه شي وعلى هذا فالكتاب الذي يمحوا منه ويثبت هو الكتاب الذي
تكتبه الملايكة على الخلق وعن بن عباس قال ان لله لوحا محفوظا مسيرته خمسماية
عام من درة بيضا له دفتان من ياقوت لله فيه كل يوم ثلثماية وستون لحظة

BULAC

يمحوا ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وسال بن عباس كعبا عن ام الكتاب فقال علم الله
ما هو خالق وما خلقه ولما كان من مقترحاتهم وطلباتهم استهزاء استعجال السيئة
مما توعدوا به وكانت النفس ربما تمنت وقوع ذلك للبعض واثباته ليؤمن غيره تقريبا
لفصل النزاع قال تعالى وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ يا محمد واكده لتاكيد الاعلام بانه لا حرج عليه
في ضلال من ضل بعد ابلاغه بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ اي من العذاب وانت حي مما تريد
او يريد اصحابك قبل وفاتك فذلك شافيك من اعدائك والوعد الخبر عن خير مضمون
والوعيد الخبر عن شر مضمون والمعنى ههنا عليه وسماه وعيدا لتنزيلهم اياه في طلب
نزوله منزلة الوعد أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ اي قبل ان نريك ذلك فلا لوم عليك ولا عتب فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاغُ اي ليس عليك الا تبليغ الرسالة اليهم وليس عليك ان تجازيهم ولا ان
تاتيهم بالمقترحات والبلاغ اسم اقيم مقام التبليغ واما فيه ادغام نون ان الشرطية
في ما الزائدة وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ اي علينا ان نحاسبهم يوم القيامة فنجازيهم باعمالهم
فلا تحتفل باعراضهم ولا تستعجل بعذابهم تنبيه قال ابو حيان هنا شرطان
لان المعطوف على الشرط شرط فيقدر لكل شرط ما يناسب ان يكون جزاء مرتبا عليه
والتقدير واما نرينك بعض الذي نعدهم فذلك شافيك من اعدائك او ان نتوفينك
قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب وقد مرت الاشارة الى ذلك ولما وعد
تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بانه يريه بعض ما يعده او يتوفاه قبل ذلك بين تعالى
ان اثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت بقوله تعالى أَوَلَمْ يَرَوْا اي كفار مكة
أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ اي نقصد ارض هولاء الكفرة نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا بما يفتح الله تعالى
على المسلمين من ديار الشرك ارضا بعد ارض حوالي ارضهم هذا قول بن عباس وقتادة وجماعة
وقال مجاهد هو خراب الارض وقبض اهلها وعن عكرمة قال هو قبض الناس وعن
الشعبي مثله وقال عطا وجماعة نقصانها موت العلما وذهاب الفقها ويؤيد هذا
ما رواه عمرو بن العاص انه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله لا
يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلما حتى اذا لم يبق عالما
اتخذ الناس رؤساء جهالا فسيلوا فافتوا بغير علم فضلوا واضلوا وقال الحسن قال عبد الله
ابن مسعود عليكم بالعلم قبل ان يقبض وقبضه ذهاب اهله وقال علي انما مثل الفقها
كمثل الاكف اذا قطعت لم تعد وقال سليمان لا تزال الناس بخير ما بقي الاول حتى
يتعلم الاخر فاذا هلك الاول قبل ان يتعلم الاخر هلك الناس وقيل لسعيد بن جبير
ما علامة هلاك الناس قال هلاك علمائهم ثم اثبت تعالى لنفسه امرا كليا فقال
وَاللَّهُ اي الملك الاعلى يَحْكُمُ في خلقه بما يريد لانه لَا مُعَقِّبَ اي راد لان التعقيب رد
الشي بعد فصله لِحُكْمِهِ وقد حكم للاسلام بالاقبال وعلى الكفر بالادبار وذلك كاين لا يمكن
تغييره تنبيه محل جملة لا معقب لحكمه النصب على الحال كانه قيل والله يحكم نافذا حكمه
كما تقول جاني زيد لا عمامة على راسه ولا قلنسوة تريد حاسرا وَهُوَ عز وجل مع تمام القدرة
سَرِيعُ الْحِسَابِ فيحاسبهم عما قليل في الاخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلا في الدنيا
وقال بن عباس يريد سريع الانتقام يعني حسابه للمجازاة بالخير والشر فمجازاة الكفار
بالانتقام منهم ومجازاة المومنين بايصال الثواب اليهم وقد تقدم الكلام في معنى

سريع

سريع الحساب قبل هذا وقوله تعالى وقد مكر الذين من قبلهم اي ان كفار الامم الماضية
قبل مكروا بانبيائهم مثل نمرود مكر بابراهيم وفرعون مكر بموسى واليهود مكروا بعيسى
فيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى فلله المكر جميعا اي ان مكر جميع الماكرين
حاصل بتخليقه وارادته لانه تعالى هو الخالق لجميع اعمال العباد فالمكر لا يضر الا باذنه
ولا يؤثر الا بتقديره فيه امان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم فكانه قيل اذا كان
حدوث المكر من الله وتاثيره في الممكور به من الله وجب ان لا يكون الخوف الا من الله تعالى
لا من احد من المخلوقين وذهب بعض المفسرين الى ان المعنى فلله جزاء المكر وذلك انهم
لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى انه يجازيهم على مكرهم قال الواحدي والاول اظهر
القولين بدليل قوله تعالى يعلم ما تكسب كل نفس يعني ان اكساب العباد معلومة لله تعالى
وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع واذا كان كذلك فلا قدرة لعبد على الفعل والترك فكان
الكل من الله فيجازيهم على اعمالهم وفي ذلك وعيد وتهديد للكفار الماكرين ثم انه تعالى اكد
ذلك التهديد بقوله تعالى وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار اي العاقبة المحمودة في الدار
الاخرة الهم ام للنبي صلى الله عليه وسلم واصحابه وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بالالف
بعد الكاف على الافراد فالكاف مفتوحة والفا مكسورة مخففة والباقون بالالف
بعد الفا على الجمع فالكاف مضمومة والفا مفتوحة مشددة فمن قرا بالافراد اراد الجنس
كقوله تعالى ان الانسان لفي خسر ليوافق قراءة الجمع وقال عطا يريد المستهزئين وهم
خمسة والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون وقال ابن عباس يريد ابا جهل قال الرازي
والاول هو الصواب اي ليوافق قراءة الجمع كما مر ولما تقدم قوله تعالى ويقول الذين
كفروا لولا انزل عليه اية عطف عليه بعد شرح ما استتبعه قوله تعالى ويقول الذين
كفروا لست مرسلا اي لكونك لا تاتي بمقترحاتهم مع انه صلى الله عليه وسلم
لم يقل يوما انه قادر عليها فكانه قيل فما اقول لهم فقال تعالى قل لهم كفى بالله
الذي له الاحاطة الكاملة شهيدا اي بليغ العلم في شهادته بالاطلاع على ما ظهر وما بطن
بيني وبينكم يشهد بتاييد رسالتي وتصحيح مقالتي مما اظهر لي من الاية واوضح من الدلالة
بهذا الكتاب ويشهد بتكذيبكم بادعائكم القدرة على المعارضة وترككم لها عجزا وهذا
اعلى مراتب الشهادة لان الشهادة قول يفيد غلبة الظن بان الامر كما شهد به والمعجزة
فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله واختلف في تفسير قوله
تعالى ومن عنده علم الكتاب فروى العوفي عن ابن عباس انهم علماء اليهود والنصارى
اي ان كل من كان عالما من اليهود بالتوراة ومن النصارى بالانجيل علم ان محمدا مرسل من عند
الله لما يجد من الدلائل الدالة على نبوته فيها شهد بذلك من شهد به وانكره من انكره منهم
والثاني ان المراد شهادة اهل الكتاب من الذين امنوا وهم عبد الله بن سلام وسلمان
الفارسي وتميم الداري وقال الحسن ومجاهد والزجاج وسعيد بن جبير ومن عنده علم
الكتاب هو الله تعالى قال الحسن لا والله لا يعني الا الله والمعنى كفى بالله الذي يستحق
العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح الا هو شهيدا بيني وبينكم وهذا اظهر كما استظهره
البقاعي وان كان عطف الصفة على الموصوف خلاف الاصل اذ يقال شهد بهذا زيد
الفقيه لا زيد والفقيه لانه جائز في الجملة وقيل معناه ان من علم ان القران الذي

BULAC

جئتكم به معجز ظاهر وبرهان باهر لما فيه من الفصاحة والبلاغة والاخبار عن الغيوب
وعن الامم الماضية في علمه بهذه الصفة كان شهيدا بيني وبينكم والله اعلم بمراده وما
رواه البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرا
سورة الرعد اعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون
الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموقنين بعهد الله حديث موضوع
سورة ابراهيم عليه السلام مكية الا قوله تعالى الم تر الى الذين بدلوا الايتين
وهي اثنان وخمسون اية وعدد كلماتها ثمانماية واحدى وثلاثون كلمة وعدد
حروفها ثلاثة الاف واربعماية واربعة وثلاثون حرفا بسم الله الرحمن الرحيم
قوله تعالى الر تقدم الكلام عليها اول يوسف وهود وقوله تعالى كتاب خبر
لمبتدا محذوف اي هذا القران كتاب او الر ان قلنا انها مبتدا والجملة بعده صفة
ويجوز ان يرتفع بالابتدا وخبره الجملة بعده وجاز الابتدا بالنكرة لانها موصوفة
تقديرا تقديره كتاب اي كتاب يعني عظيما من بين الكتب السماوية انزلناه اليك
يا اشرف الخلق عند الله لتخرج الناس اي عامة قومك وغيرهم بدعائك اياهم
من الظلمات اي الكفر وانواع الضلال الى النور اي الايمان والهدى قال الرازي والاية دالة
على ان طرق الكفر والبدع كثيرة وان طريق الحق ليس الا واحدا لانه تعالى قال لتخرج
الناس من الظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الايمان والهدى بالنور وهو لفظ مفرد
وذلك يدل على ان طرق الكفر والجهل كثيرة وان طريق العلم والايمان ليس الا واحدا
تنبيه القائلون بان معرفة الله تعالى لا يمكن تحصيلها الا من تعليم الرسول
احتجوا بهذه الاية وذلك يدل على ان معرفة الله تعالى لا تحصل الا من طريق التعليم
واجيب بان الرسول صلى الله عليه وسلم كالمنبه واما المعرفة فهي انما تحصل من الدليل
وقوله تعالى باذن ربهم متعلق بالاخراج اي بتوفيقه وتسهيله ويبدل من الى النور
الى صراط اي طريق العزيز اي الغالب الحميد اي المحمود على كل حال المستحق لجميع المحامد وفي قوله
الله قرا اتان فقرا نافع وابن عامر برفع الها وصلا وابتدا على انه مبتدا خبره الذي له
ما في السموات وما في الارض اي ملكا وخلقا وقرا الباقون بالجر على انه بدل او عطف بيان
وما بعده صفة تنبيه ذهب جماعة من المحققين الى ان قولنا الله جاري مجرى الاسم
العلم لذات الله سبحانه وتعالى وذهب قوم اخرون الى انه لفظ مشتق قال الرازي
والحق عندنا هو الاول لان الامة لما اجتمعت على ان قولنا لا اله الا الله يوجب
التوحيد المحض علمنا ان قولنا الله جاري مجرى الاسم العلم وقد قال تعالى هل تعلم
له سميا اي هل تعلم من اسمه الله غير الله وذلك يدل على ان قولنا الله اسم لذاته
المخصوصة ولذا استشكل قراءة الجر اذ الترتيب الحسن ان يذكر الاسم ثم يذكر عقبه
الصفات كقوله تعالى هو الله الخالق البارئ المصور واما الخالق الله فلا يحسن واجيب
عن ذلك بانه لا يبعد ان تذكر الصفة اولا ثم يذكر الاسم ثم يذكر الصفة مرة اخرى كما
مررت بالامام الاجل محمد الفقيه وهو بعينه نظير قوله تعالى صراط العزيز الحميد الله
الذي له ما في السموات وما في الارض والاية تفيد حصر ما في السموات وما في الارض

له تعالى

له تعالى لا لغيره وذلك يدل على انه لا مالك الا الله ولا حاكم الا الله وانه تعالى
خالق اعمال العباد لانها حاصلة في السموات والارض فوجب القول بان افعال
العباد له بمعنى كونها مملوكة له والملك عبارة عن القدرة فوجب كونها مقدورة لله
واذا ثبت انها مقدورة لله وجب وقوعها بقدرة الله والا لكان العبد قد منع
الله تعالى من ايقاع مقدوره وذلك محال ثم انه تعالى لما ذكر ذلك عطف على
الكفار بالوعيد فقال وويل للكافرين اي الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة
الذي له ما في السموات وما في الارض وعيد وامن لا يملك شيئا البتة بل هو مملوك
لله لانه من جملة ما في السموات وما في الارض وويل مبتدا وجاز الابتداء به لانه
دعا كسلام عليكم وللكافرين خبره وقوله تعالى من عذاب شديد اي يعذبهم
في الاخرة متعلق بويل ولا يضر الفصل بالخبر ثم وصفهم بقوله تعالى الذين يستحبون
اي يختارون الحياة الدنيا على الاخرة فيؤثرونها عليها ويصدون عن سبيل الله
اي يمنعون الناس عن قبول دين الله ويبغونها اي السبيل عوجا اي معوجة
الاصل ويبغون لها زيغا وميلا فحذف الجار واوصل الفعل الى الضمير اولئك اي
الموصوفون بهذه الصفات في ضلال بعيد اي عن الحق واسناد البعيد الى الضلال
اسناد مجازي لان البعيد اهل الضلال بميلهم عن الباقي الى الفاني ولما ذكر تعالى
في اول السورة كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور كان هذا انعاما
على الرسول من حيث انه فوض اليه هذا المنصب العظيم وانعاما على الخلق من حيث
ارسل اليهم من خلصهم من ظلمات الكفر وارشدهم الى نور الايمان فذكر ما يجري
مجرى تكميل النعمة والاحسان في الوجهين بقوله تعالى وما ارسلنا من رسول
اي في زمن من الازمان الا بلسان اي لغة قومه اما بالنسبة الى الرسول فلانه تعالى
بين ان سائر الانبياء كانوا مبعوثين الى قومهم خاصة واما انت يا محمد فمبعوث
الى عامة البشر وكان هذا الانعام في حقك افضل واكمل واما بالنسبة الى عامة
الخلق فهو انه تعالى ذكر انه ما بعث رسولا الا بلسان ذلك القوم ليبين لهم ما امروا
به فيفهموه عنه بيسر وسرعة لان ذلك اسهل لفهم اسرار تلك الشريعة والوقوف
على حقائقها وابعد عن الغلط والخطا تنبيه تمسك طائفة من اليهود يقال لهم
العيسوية بهذه الاية على ان محمدا لم يرسل لغير العرب من وجهين الاول ان القران
لما كان نازلا بلغة العرب لم يعرف كونه معجزة بسبب ما فيه من الفصاحة الا العرب
وحينئذ لا يكون القران حجة الا عليهم الثاني قالوا ان قوله تعالى وما ارسلنا من رسول
الا بلسان قومه المراد بذلك اللسان لسان العرب وذلك يدل على انه مبعوث
الى العرب فقط ورد عليهم بان المراد بالقوم اهل دعوته والدليل على عموم الدعوة قوله
تعالى يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا بل الى الثقلين لان التحدي كما وقع مع
الانس وقع مع الجن بدليل قوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل
هذا القران لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ثم بين سبحانه وتعالى ان
الاضلال والهداية بمشيئته بقوله تعالى فيضل الله من يشاء اضلاله ويهدي من يشاء
هدايته وانه تعالى هو المضل الهادي وليس على الرسل الا التبليغ والبيان والله تعالى هو

اي بيانا شافيا

الهادي المضل يفعل ما يشاء وهو العزيز في ملكه فلا راد له عن مشيته الحكيم في صنعه
فلا يهدي ولا يضل الا لحكمة ولما بين تعالى انه انما ارسل محمدا عليه الصلاة والسلام الى الناس
ليخرجهم من الظلمات الى النور وذكر كمال انعامه عليه وعلى قومه في ذلك الارسال
وفي تلك البعثة اتبع ذلك بشرح بعثة سائر الانبياء الى اقوامهم وكيفية معاملة
اقوامهم لهم ليكون ذلك تصبيرا له صلى الله عليه وسلم على اذى قومه وارشادا له الى كيفية
مكالمتهم ومعاملتهم فذكر تعالى على العادة المألوفة فتصبص بعض الانبياء عليهم
السلام فبدا بذكر قصة موسى عليه السلام فقال ولقد ارسلنا موسى بآياتنا
اي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر
واظلال الجبل وانزال المن والسلوى وسائر معجزاته ان اخرج قومك اي الكفر والضلال
من الظلمات اي بني اسرائيل من الظلمات اي الكفر والضلال الى النور اي الايمان والهدى
تنبيه يجوز ان تكون ان مصدرية اي بان اخرج والباء في بآياتنا للحال وهذه للتعدية
ويجوز ان تكون مفسرة للرسالة بمعنى اي ويكون المعنى اي اخرج قومك من الظلمات
اي قلنا له اخرج قومك كقوله تعالى وانطلق الملأ منهم ان امشوا وذكرهم بايام الله قال
ابن عباس بنعم الله وقال مقاتل بوقائع الله في الامم السالفة يقال فلان عالم بايام
العرب اي بوقائعهم وفي المثل من سر يوما يره قال الرازي معناه من رأى في يوم
سروره بمصرع غيره رآه غيره في يوم آخر بمصرع نفسه وقال تعالى وتلك الايام نداولها
بين الناس والمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد والترغيب والوعد
ان يذكرهم ما انعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمنوا بالرسل فيما سلف من الايام والترهيب
والوعيد ان يذكرهم باس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل فيما سلف من
الايام مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ليرغبوا في الوعد فيصدقوا
ويحذروا امر الوعيد فيتركوا التكذيب وقيل بايام الله في حق موسى ان يذكر قومه
بايام المحنة والشدة والبلاء حين كانوا تحت ايدي القبط يسومونهم سوء العذاب
فخلصهم الله من ذلك وجعلهم ملوكا بعد ان كانوا مملوكين ان في ذلك اي التذكير
العظيم لآيات على وحدانية الله تعالى وعظمته لكل صبار اي كثير الصبر اي على
الطاعة وعن المعصية شكور اي كثير الشكر للنعم وانما خص الصبور والشكور بالاعتبار
بالآيات وان كان فيها عبرة للكلام لانهم المنتفعون بها دون غيرهم فلهذا خصهم
بالآيات فكانها ليست لغيرهم فهو كقوله تعالى هدى للمتقين فان الانتفاع لا يمكن
حصوله الا لمن يكون صابرا شاكرا اما من لا يكون كذلك فلا ينتفع بها البتة ولما
امر الله تعالى موسى ان يذكرهم بايام الله حكى عنه انه ذكرهم بها بقوله تعالى واذ قال
موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم وقوله اذ انجاكم من آل فرعون ظرف للنعمة
بمعنى الانعام اي اذكروا انعام الله عليكم في ذلك الوقت يسومونكم سوء العذاب
بالاستعباد ويذبحون اي تذبيحا كثيرا ابناءكم اي المولودين ويستحيون اي يستبقون
نساءكم احياء وذلك لقول بعض الكهنة ان مولودا يولد في بني اسرائيل يكون سبب زوال
ملك فرعون فان قيل لم ذكر تعالى في سورة البقرة يذبحون بغير واو وذكره هنا مع الواو
اجيب بانها انما حذفت في سورة البقرة لانه تفسير لقوله يسومونكم سوء العذاب وفي

التفسير

التفسير لا يحسن ذكر الواو وهنا ادخل الواو وفيه انه نوع اخر لانهم كانوا يعذبونهم بانواع
من العذاب عن التذبيح فليس تفسير للعذاب **وفي ذلكم بلاء** اما نعام او ابتلاء **من ربكم عظيم**
لان الانجا لا يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ومنه قوله تعالى ونبلوكم بالشر
والخير فتنة فان قيل بذبح الابناء فيه بلاء وابقاء النساء كيف فيه ابتلاء
اجيب بانهم كانوا يستخدمون ويتركونهن تحت ايديهم كالاماء فكان ذلك ابتلاء
وقوله تعالى **واذ** اي واذكروا **تأذن ربكم** فهو ايضا من كلام موسى عليه السلام وتأذن
بمعنى اذن كتوعد وواعد غير انه ابلغ لما في التفعل من معنى التكلف والمبالغة
لئن شكرتم يا بني اسرائيل نعمتي بالتوحيد والطاعة **لأزيدنكم** نعمة الى نعمة ولاضاعفن لكم
ما اتيتكم فان الشكر قيد الموجود وصيد المفقود والشكر عبارة عن الاعتراف بنعمة
المنعم مع تعظيمه والتوطين النفس على هذه الطريقة ثم تقدير بقي العبد من تلك الحالة
الى ان يصير جنده للمنعم شاغلا له عن الالتفات الى النعمة ولا شك ان منبع السعادات
وعنوان كل الخيرات محبة الله تعالى ومعرفته واما الزيادة في النعمة فهي على قسمين
روحانية وجسمانية فالاولى هي ان الشاكر يكون ابدا في مطالعة انعام الله تعالى
وانواع فضله وكرمه واما الثانية فلان الاستقراء دل على ان كل من كان اشتغاله
بشكر نعم الله اكثر كان وصول نعم الله اليه اكثر فثبت ان الله تعالى اوجب
شكر النعمة حتى يزداد من فضله وكرمه واحسانه ويفعل ذلك باهلينا واحبائنا
ثم انه تعالى لما ذكر ما يستحق به مقابلة بقوله تعالى **ولئن كفرتم** اي جحدتم النعمة بالكفر
والمعصية لاعذبنكم دل عليه **ان عذابي لشديد** اي لمن كفر نعمتي ولا يشكرها ومن عادة اكرم
الاكرمين ان يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد ولما بين موسى عليه السلام ان الاشتغال
بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا والاخرة والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب
الشديد وحصول الافات في الدنيا والاخرة بين بعده ان منافع الشكر ومضار الكفران
لا يعود الا الى صاحب الشكر وصاحب الكفران واما المعبود والمشكور فانه منزه
عن ان ينتفع بالشكر او يتضرر بالكفران فلا جرم قال تعالى **وقال موسى ان تكفروا انتم**
ومن في الارض واكده بقوله تعالى **جميعا** اي من الثقلين وانما ضر ذلك يعود على
انفسكم وحرمتموها الخير كله **فان الله لغني** عن جميع خلقه فلا يزداد بشكر الشاكرين
ولا ينقص بكفر الكافرين **حميد** اي محمود في جميع افعاله لانه منعم متفضل عادل وقوله
تعالى **الم يأتكم** ايها بني اسرائيل **نبأ** اي خبر **الذين من قبلكم قوم نوح** وكانوا اهل الارض
وعاد قوم هود وكانوا اشد الناس ابدانا **وثمود** قوم صالح وكانوا اقوى الناس
على نحت الصخر وبنا القصور يحتمل ان يكون من كلام موسى او كلام مبتدا من الله تعالى لقوم
محمد صلى الله عليه وسلم وهو استبعاد على تقرير وقوله تعالى **وبنا الذين من بعدهم** اي بعد
هؤلاء الامم الثلاثة **لا يعلمهم الا الله** فيه قولان الاول ان يكون المراد لا يعلم كنه مقاديرهم
الا الله لان المذكور في القرآن جملة فاما ذكر العدد والقرون والكيفية والكمية فغير حاصل
والقول الثاني ان المراد ذكر اقوام مما بلغنا اخبارهم اصلا كذا نوا رسلا لم نعرفهم اصلا
ولا يعلمهم الا الله ولذلك كان شعيب اذا قرأ هذه الاية قال كذب النسابون يعني انهم
يزعمون علم الانساب الى ادم وقد نفى الله علمها عن العباد وعن ابن عباس انه قال

بين عدنان واسماعيل ثلاثون ابا لا يعرفون ونظير هذه الاية قوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا
وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا وقوله تعالى منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص
عليك وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال كان في انتسابه لا يجاوز معد بن عدنان بن ادد
وقال تعلمون من انسابكم ما تصلون به ارحامكم وتعلموا من النجوم ما تستدلون به
على الطريق قال الرازي والقول الثاني اقرب ولما جاءتهم اي هولاء الاقوام الذين تقدم ذكرهم
رسلهم بالبينات اي الدلايل الواضحات والمعجزات الباهرات اتوا بامور اولها ما حكاه
الله تعالى عنهم بقوله تعالى فردوا اي الامم ايديهم في افواههم وفي ذلك احتمالات الاول
ان الكفار ردوا ايديهم في افواههم فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا
عليكم الانامل من الغيظ والثاني انهم لما سمعوا كلام الانبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل
السخرية فعند ذلك ردوا ايديهم في افواههم كما يفعل ذلك من غلبة الضحك فيضع
يده على فيه والثالث انهم وضعوا ايديهم على افواههم مشيرين بذلك الى الانبياء
ان كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث والرابع انهم اشاروا بايديهم
الى السنتهم والى ما تكلموا به من قولهم من الكفر كما حكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله تعالى
وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به اي على زعمكم اي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره اقناطا لهم
من التصديق هذا هو الامر الثاني الذي اتوا به وقيل الضمير في ردوا راجع الى الرسل عليهم
السلام وفيه وجهان احدهما ان الكفار اخذوا ايدي الرسل ووضعوها على افواههم
ليسكتوا ويقطعوا الكلام والثاني ان الرسل لما ايسوا عنهم سكتوا ووضعوا ايدي انفسهم
على افواه انفسهم فان من ذكر كلاما عند قوم وانكروه وخافهم بذلك المتكلم ربما وضع يد
نفسه على فم نفسه وغرضه ان يعرفهم انه لا يعود الى ذلك الكلام البتة والامر الثالث
قولهم وانا لفي شك مما اي شيء تدعوننا اليه اي من الدين مريب اي موجب
الريبة او موقع في الريبة والتهمة والريبة قلق النفس وان لا تطمئن الى الامر الذي
تشك فيه فان قيل انهم قالوا اولا انا كفرنا بما ارسلتم فكيف يقولون ثانيا وانا
لفي شك والشك دون الكفر اجيب بانهم لما صرحوا بكفرهم بالرسل كلهم حصل لهم شبه
توجب لهم الشك فقالوا ان لم تدع الجزم واليقين في كفرنا فلا اقل من ان نكون
شاكين مرتابين في صحة نبوتكم وعلى التقديرين فلا سبيل الى الاعتراف بنبوتكم
ولما قال هولاء الكفار للرسل ذلك قالت لهم رسلهم مجيبين افي الله شك اي هل
تشكون في توحيده للدلايل الظاهرة عليه منها قوله تعالى فاطر اي خالق السموات
والارض اي وما فيهما من الانفس والارواح والارزاق وقرا ابو عمرو رسلهم هنا وفيما مر
في جاءتهم رسلهم باسكان السين والباقون بالرفع ولما اقاموا الدليل على وجود الاله
على ذلك ووصفوه بكمال الرحمة بقوله يدعوكم اي الى الايمان ببعثتنا وقولهم
ليغفر لكم اللام متعلقة بيدعو اي لاجل غفران ذنوبكم كقوله دعوت لما نابني مسورا فلبى
فلبى يدي مسور ويجوز ان يكون معدية كقولك دعوتك لزيد والتقدير يدعوكم الى غفران
ذنوبكم وقولهم من ذنوبكم قال السيوطي من زائدة فان الاسلام يغفر به ما قبله
او تبعيضية لاخراج حقوق العباد انتهى اي والمغفور ما بينهم وبين الله تعالى قال
الرازي والعاقل لا يجوز له المصير الى كلمة من كلام الله بانها زائدة من غير ضرورة انتهى

في الله وهو استفهام انكار اي لا شك فيه

وقال

وقال في الكشاف ما علمنا جاء هكذا الا في خطاب الكافرين كقوله واتقوه واطيعون يغفر
لكم من ذنوبكم يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم وقال في خطاب
المؤمنين ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ومغفرة لكل ما يتعلق عليه الاستغفار
وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين ولان لا يسوى بين المغفرة والمعاد انتهى قال
الرازي واما قول الكشاف فهو من باب الظلمات لان هذا التبعيض ان حصل فلا حاجة
الى ذكر هذا الجواب وان لم يحصل كان هذا الكلام فاسدا ويؤخركم اي ولا يفعل بكم فعل
من يتعمدون من الملوك في المعاجلة في الانتقام لان لحلمه تعالى بل يؤخركم الى اجل مسمى اي
الى وقت قدرناه وبينا مقداره يبلغكموه ان انتم امتثلتم به والا اعاجلكم بالهلاك
حسبما ذلكم الوقت ان انتم عاندتم فان قيل ليس قوله تعالى فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون
ساعة ولا يستقدمون فكيف قال ههنا ويؤخركم الى اجل مسمى اجيب بان الاجل
على قسمين معلق ومبرم قالوا اي الامم مجيبين للرسل ان اي ما انتم اي الرسل
الا بشر مثلنا اي لا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا ولو ارسل الله تعالى
الى البشر رسلا لجعلهم من جنس ارفع من البشر زعم القائلين بافضلية وقول الكشاف وهم
الملائكة خلاف على مذهبه تريدون ان تصدونا عما كان يعبد اباؤنا اي ما تريدون
بقولكم هذا الا صدنا عن الهتنا الى زمان اما ونا بعبدونها فاتونا بسلطان مبين
اي بحجة ظاهرة على صدقكم والحاكي الله تعالى عن الكفار شبهتهم في الطعن في النبوة
حكى عن الانبياء عليهم السلام اجوبتهم عنها بقوله تعالى قالت لهم رسلهم ان
نحن اي ما نحن الا بشر مثلكم كما قلتم فسلموا ان الامر كذلك لكنهم بنوا ان النبي لا بد
وان يكون من غير البشرية لامتنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة بقولهم ولكن الله من
اي يتفضل على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة فيصطفي من يشاء من عباده
لهذا المنصب العظيم الشريف كما قال تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالاته وما كان
اي صح واستقام لنا ان نأتيكم بسلطان الا باذن الله اي الا بامره لانا عبيد مربوبون
فليس لنا الاتيان بالآيات والاستبداد به استطاعتنا حتى نأتيكم بما اقترحتموه
وانما هو امر متعلق بمشيئة الله تعالى فلما رخص كل نبي بنوع من الآيات وعلى الله
فليتوكل اي يا من حتم المؤمنون اي يشقوا به فلا يخافن من تخويفكم ولا التفتن
الى تهديدكم فان توكلنا على الله واعتمادنا على فعل الله فان الروح متى كانت مشرقة
بالمعارف الالهية مضيئة باضواء العلم الرباني لا الاحوال الجسمانية وقلما
تقتضي لها ورياضاتي حالتي السراء والضراء فلهذا توكلوا على الله وعولوا على فضله وتطفلوا
اطماعهم عن سواه وعمموا الامر للاستعمار بما يوجب التوكل وقصدوا به انفسهم قصدا
اوليا الاترى قولهم وما لنا الا نتوكل على الله اي اي عذر لنا في ان لا نتوكل عليه
وقد هدانا سبلنا اي وقد عرفنا طريق النجاة وبين لنا الرشد فان من فاز بشرف
العبودية ووصل الى مقام الاخلاص والمكاشفة يفتح عليه ان يرجع في امره من الامور
الى غير الحق وفي هذه الاية دلالة على انه تعالى يعصم اولياءه والمخلصين في عبوديته
عن كيد اعدائهم ومكرهم وقرا ابو عمرو وسكون الباء والباقون بالرفع وكذلك لنسكنهم
سكن ابو عمرو الكسر ورفع الباقون ثم قالوا ولنصبرن على ما اذيتمونا

اطماعهم

فان الصبر مفتاح الفرج ومطلع الخيرات والحق لا بد وان يصير غالبا قاهرا والباطل لا بد
وان يصير مغلوبا مقهورا ثم قالوا وعلى الله فليتوكل المتوكلون فان قيل اي فرق بين
التوكلين اجيب بان الاول لاستحداث التوكل والثاني طلب دوامه اي فليثبت
المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم المسبب عن ايمانهم ولما حكى الله تعالى عن الانبيا
عليهم السلام انهم اكتفوا في دفع شرور اعدائهم بالتوكل عليه والاعتماد على حفظه وحياطته
حكى عن الكفار انهم بالغوا في السفاهة بقوله تعالى وقال الذين كفروا لرسلهم مستعينين
بمن قصروا التجاءهم عليه لنخرجنكم من ارضنا اي التي لنا الآن الغلبة عليها او لتعودن
في ملتنا اي حلفوا ليكونن احد الامرين اما اخراجكم ايها الرسل واما عودكم الى ملتنا
اي ديننا فان قيل قد يفهم هذا بظاهره انهم كانوا على ملتهم قبل ذلك اجيب بان العود
هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار
ولكن عاد ما عدت اراه عاد لا تكلمني ما عاد لفلان مال وقد اجمعت الامة على ان الرسل
من اول الامر انما نشاوا على التوحيد لا يعرفون غيره ويجوز ان يكون الخطاب لكل رسول
ولمن امن معه فغلبوا الجماعات على الواحد قيل او ليعودن في ملتنا الى ما كنتم عليه
قبل ادعاء الرسالة من السكوت عند ذكر معايبه وعدم التعرض له بالطعن والقدح
ولما ذكر الكفار هذا الكلام قال تعالى فاوحى اليهم اي الرسل ربهم وقوله تعالى لنهلكن
الظالمين اي الكافرين حكاية تقتضي اضمار القول او اجرا الايحا مجرى القول لانه ضرب
منه ولنسكننكم الارض اي ارضهم من بعدهم اي بعد هلاكهم ونظيره قوله تعالى واورثنا
القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها وقوله تعالى واورثكم ارضهم
وديارهم قال الزمخشري وعن النبي صلى الله عليه وسلم من اذى جاره ورثه الله داره قال
قال ولقد عاينت هذا في مدة قريبة كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي انا فيها
ويؤذيني فيه فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته فنظرت يوما الى ابنا خالي يترددون
فيها ويامرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثتهم به
وسجدنا شكرا لله ذلك اي النصر وايراث الارض لمن خاف مقامي اي موقفي وهو موقف
الحساب لان ذلك الموقف موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة ونظيره
واما من خاف مقام ربه وقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقيل ذلك لمن خاف
مقامي اي خافني فالمقام مقحم مثل ما يقال سلام على المجلس العالي والمراد السلام
على فلان وخاف وعيد قال ابن عباس اي ما اوعدت من العذاب وهذا يدل
على ان الخوف من الله غير الخوف من وعيده لان العطف يقتضي التغاير وفي تفسير
قوله تعالى واستفتحوا قولان احدهما طلب الفتح اي واستنصروا الله على اعدائهم
وهو كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح والثاني الفتح الحكم والقضا اي واستحكموا
الله وسالوه القضا بينهم وهو ماخوذ من الفتاحة وهي الحكومة كقوله ربنا افتح
بيننا وبين قومنا بالحق فعلى القول الاول المستفتح هم الرسل لانهم استنصروا الله
ودعوا على قومهم بالعذاب لما ايسوا من ايمانهم قال نوح رب لا تذر على الارض
من الكافرين ديارا وقال موسى ربنا اطمس على اموالهم وقال لوط انصرني على القوم
المفسدين وعلى القول الثاني قال الرازي فالاولى ان يكون المستفتح هم الامم

وذلك

وذلك انهم قالوا اللهم ان كان هؤلاء الرسل صادقين فعذبنا ومنه قول كفار قريش اللهم
ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء وكقول اخرين ائتنا بعذاب
الله ان كنت من الصادقين وخاب اي خسر وهلك كل جبار اي متكبر عن طاعة الله وقيل
هو الذي لا يرى فوقه احدا وقيل هو المتعظم في نفسه المتكبر على اقرانه واختلف
في قوله تعالى عنيد فقال مجاهد معاند للحق ومجانبه وقال ابن عباس هو المعرض
عن الحق وقال مقاتل هو المتكبر وقال قتادة هو الذي يابى ان يقول لا اله الا الله
وقيل هو المتعجب بما عنده ولما حكم تعالى على الكافر بالخيبة ووصفه بكونه جبارا عنيدا
وصف كيفية عذابه بامور الاول قوله تعالى من ورائه اي امامه جهنم اي هو صائر
اليها قال ابو عبيدة هو من الاضداد وقال الشاعر عسى الكرب الذي امسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب ويقال ايضا الموت وراء كل احد وقال تعالى وكان وراءهم ملك
ياخذ كل سفينة غصبا اي امامهم وقال ثعلب هو اسم لما توارى عنك سواء كان خلفك
ام قدامك فيصح اطلاق لفظ الورى على خلف وقدام وقال ابن الانباري وراء بمعنى بعد
قال الشاعر وليس وراء الله للخلق مهرب ومعنى الاية على هذا ان الكافر بعد الخيبة يدخل
جهنم الامر الثاني ما ذكره تعالى بقوله تعالى ويسقى اي في جهنم من ماء صديد
وهو ما يسيل من جوف اهل النار مختلطا بالقيح والدم جعل ذلك شراب اهل النار
وقال محمد بن كعب هو ما يسيل من فروج الزناة يسقاه الكافر فان قيل علام عطف ويسقى
اجيب بانه عطف على محذوف تقديره من ورائه جهنم يلقى فيها ما يلقى ويسقى من ماء
صديد يتجرعه اي يبتلعه مرة بعد مرة لمرارته وحرارته ونتنه ولا يكاد يسيغه
اي ولا يقدر على ابتلاعه قال الزمخشري دخل كاد للمبالغة يعني ولا يقارب ان يسيغه
فكيف تكون الاساغة كقوله تعالى لم يكد يراها اي لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها
فان قيل كيف الجمع على هذا الوجه بين يتجرعه ولا يكاد يسيغه اجيب بجوابين احدهما
ان المعنى ولا يسيغ جميعه كانه يجرع البعض وما اساغ الجميع والثاني ان الدليل الذي
ذكر انما دل على وصول بعض ذلك الشراب الى جوف الكافر الا ان ذلك ليس باساغة
لان الاساغة في اللغة اجراء الشراب في الحلق واستطابة المشروب والكافر يتجرع
ذلك الشراب على كراهته ولا يسيغه اي لا يستطيبه ولا يشربه مشربا بمرة واحدة وعلى
هذين الوجهين يصح حمل لا يكاد على نفي المقاربة الامر الثالث ما ذكره تعالى بقوله تعالى
ويأتيه الموت اي اسبابه المقتضية له من انواع العذاب من كل مكان اي من سائر
الجهات وقيل من كل مكان من جسده حتى من اصول شعره وابهام رجله وما هو بميت
فيستريح وقال ابن جريج تتعلق نفسه عند حنجرته فلا يخرج من فيه فيموت ولا يرجع
الى مكان من جوفه فتنفعه الحياة الامر الرابع ما ذكره تعالى بقوله تعالى ومن ورائه
اي ومن بين يديه بعد ذلك العذاب عذاب غليظ اي شديد كل وقت يستقبله
اشد مما قبله وقيل هو الخلود في النار وقيل هو قطع الانفاس وحبسها في الاجساد ولما
ذكر تعالى انواع عذابهم بين بعده ان سائر اعمالهم تصير ضائعة باطلة وذلك هو الخسران
الشديد بقوله تعالى مثل اي صفة الذين كفروا بربهم اعمالهم اي الصالحة كصدقة
وصلة رحم وفك اسير واقراء ضيف وبر والد في عدم الانتفاع بها كرماد اشتدت

به الريح في يوم عاصف اي شديد هبوب الريح فجعلته هنا منثورا لا يقدر عليه كما قال
تعالى لا يقدرون اي الكفار يوم الجزاء مما كسبوا اي عملوا في الدنيا على شيء اي لا يجدون له ثوابا
لفقد شرطه وهو الايمان وقرا نافع الرياح بالجمع والباقون بالافراد وقوله تعالى
ذلك اشارة الى ضلالهم مع حسبانهم انهم محسنون هو الضلال البعيد اي الخسران الكبير
لان اعمالهم ضلت وهلكت فلا يرجى عودها تنبيه في ارتفاع قوله تعالى مثل
اوجه احدها وهو مذهب سيبويه انه مبتدا محذوف الخبر تقديره فيما يتلى عليكم
مثل الذين كفروا وتكون الجملة من قوله تعالى اعمالهم كرماد مستانفة على تقدير
سؤال سائل يقول كيف مثلهم فقيل اعمالهم كرماد الثاني وهو مذهب الفراء التقدير
مثل اعمال الذين كفروا بربهم كرماد فحذف المضاف اعتمادا على ذكره بعد المضاف
اليه وهو قوله تعالى اعمالهم ومثله قوله تعالى ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على
الله وجوههم مسودة المعنى ترى وجوه الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة
الثالث ان يكون التقدير صفة الذين كفروا اعمالهم كرماد كقوله صفة زيد عرضه
مصون وماله مبذول الرابع ان تكون اعمالهم بدلا من قوله مثل الذين كفروا والتقدير
مثل اعمالهم وقوله تعالى كرماد هو الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى الم تر اي تنظر
خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به امته او كل واحد من الكفرة على الالتفات
ان الله خلق السموات على عظمها وارتفاعها والارض على تباعد اقطارها واتساعها
وقوله تعالى بالحق اي بالحكمة والوجه الذي يحق ان يخلق عليه متعلق بخلق وقرا حمزة
والكسائي بالف بعد الخاء وكسر اللام ورفع القاف وخفض الارض والباقون بغير
الف بعد الخاء وفتح اللام والقاف ونصب الارض ان يشا يذهبكم ايها الناس ويات
بدلكم بخلق جديد اطوع لله منكم رتب ذلك على كونه خالق السموات والارض استدلالا
به عليه فان من خلق اصولهم وما يتوقف عليه تخليقهم قدر ان يبدلهم بخلق اخر
ولم يمتنع عليه كما قال تعالى وما ذلك على الله بعزيز اي بممتنع فانه تعالى قادر
بذاته والاختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شانه كان حقيقا ان يؤمن
به ويعبد رجاء ثوابه وخوفا من عقابه يوم الجزاء ولما ذكر تعالى اصناف عذاب
هؤلاء الكفار وذكر عقبه ان اعمالهم تصير محبطة باطلة ذكر كيفية مجادلتهم عند
تمسك اتباعهم بهم وكيفية افتضاحهم عندهم بقوله تعالى وبرزوا اي الخلائق
من قبورهم لله جميعا والتعبير فيه وفيما ياتي بالماضي وان كان معناه الاستقبال
لتحقق وقوعه لان كل ما اخبر الله عنه فهو حق وصدق وان كان معناه الاستقبال
وكائن لا محالة فصار كانه قد حصل ودخل في الموجود ونظيره ونادى اصحاب
الجنة اصحاب النار تنبيه البروز في اللغة الظهور بعد الاستتار
وهو في حق الله تعالى محال فلا بد من تاويل وهو من وجهين الاول انهم كانوا
يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ويظنون ان ذلك خاف على
الله تعالى فاذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند انفسهم وعلموا ان الله
تعالى لا يخفى عليه خافية الثاني انهم خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله تعالى
وحكمه ثم حكى الله تعالى عنهم ان الضعفاء يقولون للرؤساء هل تقدرون

على

على دفع عذاب الله تعالى عنا بقوله تعالى فقال الضعفاء اي الاتباع جمع ضعيف
يريد به ضعفاء الراي للذين استكبروا اي المتبوعين الذين طلبوا الكبر وادعوه
فاستتبعوهم به حتى يكبروا على الرسل وقوله تعالى انا كنا لكم تبعا يصح ان يكون
مصدرا نعت به للمبالغة او على اضمار مضاف وان يكون جمع تابع اي تابعين لكم في تكذيب
الرسل فكنتم سبب ضلالنا وقد جرت عادة الاكابر بالدفع عن اتباعهم المساعدين
لهم على اباطيلهم فهل انتم اي في هذا اليوم مغنون اي دافعون عنا من عذاب
الله اي انتقامه من شيء فان قيل فما الفرق بين من في من عذاب الله وبينه
في من شيء اجيب بان الاولى للتبيين والثانية للتبعيض كانه قيل هل انتم مغنون
عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله ويجوز ان يكونا للتبعيض معا بمعنى هل انتم
مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله وعند هذا حكى الله تعالى عن الذين
استكبروا انهم قالوا لو هدانا الله اي الذي له صفات الكمال لهديناكم اي لو ارشدنا
الله تعالى لارشدناكم ودعوناكم الى الهدى ولكنه لم يهدنا فضللنا وكنتم لنا تبعا
فاضللناكم ولما كان الموجب لقولهم هذا الجزع قالوا سواء علينا اي نحن وانتم
اجزعنا ام صبرنا اي مستويان علينا الجزع والصبر والجزع ابلغ من الحزن لانه
يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه ما لنا من محيص اي منجى ومهرب
مما نحن فيه من العذاب تنبيه يحتمل ان يكون من كلام المتبوعين وان يكون كلام
الفريقين ويؤيد الثاني ما روي انهم يقولون في النار تعالوا نجزع فيجزعون
خمسمائة عام فلا ينفعهم الجزع فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام
فلا ينفعهم الصبر فعند ذلك يقولون ذلك وقال محمد بن كعب القرظي بلغني ان اهل
النار استغاثوا بالخزنة كما قال الله تعالى وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم
يخفف عنا يوما من العذاب فردت الخزنة عليهم اولم تك تاتيكم رسلكم بالبينات
قالوا بلى فردت الخزنة عليهم ادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال فلما يئسوا
مما عند الخزنة نادوا يا مالك ليقض علينا ربك سالوا الموت فلا يجيبهم ثمانين سنة
والسنة ستون وثلثمائة يوم واليوم كالف سنة مما تعدون ثم يجيبهم بقوله انكم
ماكثون فلما ايسوا مما عنده قال بعضهم لبعض ذلك ولما ذكر تعالى المناظرة التي
وقعت بين الرؤساء والاتباع من كفرة الانس اردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان
وبين اتباعه بقوله تعالى وقال الشيطان اي الذي هو اول المتبوعين في الضلال
وراس المضلين المستكبرين لما قضي الامر اي احكم وفرغ منه وادخل اهل الجنة الجنة
واهل النار النار اخذ اهل النار في لوم ابليس وتقريعه وتوبيخه فيقوم فيهم خطيبا
قال مقاتل يوضع له منبر من نار فيجتمع اهل النار اليه يلومونه فيقول لهم ما اخبر الله
تعالى بقوله ان الله وعدكم وعد الحق اي بالبعث والجزاء على الاعمال فصدقكم ووعدتكم
اي ان لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب فاخلفتكم اي الوعد فلم اقل شيئا الا كان زيفا
فاتبعتموني مع كوني عدوكم وتركتم ربكم وهو وليكم تنبيه في الاية اضمار من وجهين الاول
ان التقدير ان الله وعدكم وعد الحق فصدقكم كما تقدم تقديره ووعدتكم فاخلفتكم
وحذف ذلك لدلالة تلك الحالة على صدق ذلك الوعد لانهم كانوا يشاهدونها

المساعدين

وليس وراء العيان بيان ولانه ذكر في وعد الشيطان الاخلاف فدل ذلك على الصدق في وعد
الله الثاني ان قوله ووعدتكم فاخلفتكم الوعد يقتضي مفعولا ثانيا وحذف هذا للعلم
به والتقدير ووعدتكم ان لا جنة ولا نار ولا حشر ولا حساب كما تقرر ولما بين غروره
بين سهولة اغترارهم زيادة في تنديمهم فقال **وما كان لي عليكم من سلطان**
اي سلطان فمن مزيدة اي قوة وقدرة اقهركم على الكفر والمعاصي والجئكم على متابعتي
وقوله **الا ان دعوتكم** استثناء منقطع قال النحويون لان الدعاء ليس من جنس
السلطان فمعناه لكن دعوتكم **فاستجبتم لي** محكمين الشهوات لان النفس تدعوا
الى هذه الاحوال الدنيوية ولا تتصور كيفية السعادات الاخروية والكمالات
النفسانية والله يدعو اليها ويرغب فيها كما قال والاخرة خير وابقى قال الرازي وعندي
انه يمكن ان يقال كلمة الا ههنا استثناء حقيقي لان قدرة الانسان على حمل الغير
على عمل من الاعمال تارة تكون بالقهر والقسر وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه
بالقاء الوساوس اليه فهذا نوع من انواع التسليط انتهى ثم قال لهم **فلا تلوموني**
اي لان ما كان مني الا الدعاء والقاء الوسوسة **ولوموا انفسكم** لانكم سمعتم دلائل
الله تعالى وجاءتكم الرسل فكان من الواجب عليكم ان لا تلتفتوا الي ولا تسمعوا قولي
فلما رجحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم بكم اولى باجابتي ومتابعتي من غير
حجة ولا دليل فان قيل لم قال الشيطان فلا تلوموني وهو ملوم بسبب اقدامه على
تلك الوسوسة الباطلة اجيب بانه اراد لا تلوموني على فعلكم ولوموا انفسكم
عليه لانكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم ثم قال تعالى حكاية عن الشيطان
انه قال **ما انا بمصرخكم** اي بمغيثكم فيما يخصكم من العذاب فاتيكم بما يزيل صراخكم منه
وما انتم بمصرخي اي بمغيثي فيما يخصني منه وقرا ما عدا حمزة بفتح الياء مع التشديد
وقرا حمزة بكسر الياء مع التشديد على الاصل في التقاء الساكنين لان ياء الاعراب ساكنة
وياء المتكلم اصلها السكون فلما التقيا كسرت لالتقاء الساكنين قال البيضاوي وهو
اصل مرفوض في مثله لما فيه من اجتماع يائين وثلاث كسرات مع حركة ياء الاضافة
انتهى فقوله اصل مرفوض اي متروك عند النحاة والا فهو قراءة متواترة عند القراء فيجب
المصير اليها لانها وردت في رب العالمين على لسان سيد المرسلين وقول الفراء ولعلها
من وهم القراء فانه قل من يسلم منهم من الوهم ممنوع فقد قال ابو حيان هي قراءة
متواترة نقلها السلف واقتفى اثارهم فيها الخلف فلا يجوز ان يقال فيها انها خطا
او قبيحة او ردية وقد نقل جماعة من اهل اللغة انها لغة لكن قل استعمالها
ونص قطرب على انها لغة في بني يربوع ونص على انها صواب ابو عمرو بن علا لما سئل
عنها والقاسم ابن معن من رؤساء الكوفيين ثم قال الله تعالى حكاية عن الشيطان انه
قال **اني كفرت بما اشركتمون من قبل** اي كفرت اليوم باشراككم اياي من قبل هذا اليوم
اي في الدنيا كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم ومعنى كفره باشراكهم اياه
تبروه منه واستنكاره له كقوله انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم
روى البغوي بسنده عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث
الشفاعة يقول عيسى ذلكم النبي الامي فياتون فياذن الله لي ان اقوم فيثور مجلسي

من اطيب

من اطيب ريح شمها احد حتى اتى ربي فيشفعني ويجعل في نورا من شعر راسي الى ظفر قدمي
ثم يقول الكفار قد وجد المومنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير
الشيطان هو الذي اضلنا فياتونه فيقولون قد وجد المومنون من يشفع لهم
قم انت فاشفع لنا فانك اضللتنا فيقوم فيثور مجلسه انتن ريح شمها احد ثم يعظم
لهيبهم ويقول عند ذلك ان الله وعدكم وعد الحق الاية قال في الكشاف وقوله
ان الظالمين اي الكافرين لهم عذاب اليم اي مولم من كلام الله تعالى ويحتمل ان يكون
من جملة قول ابليس وانما حكى الله تعالى ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون لطفا
للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول اليه وان
يتصوروا في انفسهم ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا
ما يخلصهم منه وينجيهم ولما بالغ سبحانه وتعالى في شرح احوال الاشقيا من الوجوه
الكثيرة شرح احوال السعدا وما اعد لهم من الثواب العظيم والاجر الجزيل وذلك
ان الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم والمنفعة الخالصة اليها الاشارة
بقوله تعالى وادخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار
وكونها دائمة اشير اليها بقوله تعالى خالدين فيها وهو حال مقدرة والتعظيم حصل
لهم من وجهين احدهما قوله تعالى باذن ربهم لان تلك المنافع انما كانت تفضلا
من الله تعالى وانعاما والثاني قوله تعالى تحيتهم فيها سلام لان بعضهم يحيي بعضا
بهذه الكلمة والملايكة يحيونهم بها كما قال تعالى والملايكة يدخلون عليهم من كل باب سلام
عليكم والرب الرحيم يحييهم ايضا بهذه الكلمة كما قال تعالى سلام قولا من رب رحيم
ويحتمل ان يكون المراد انهم لما دخلوا الجنة سلموا من جميع افات الدنيا وخسرانها
وفنون الامها واسقامها وانواع غمومها وهمومها لان السلام مشتق من السلامة
ولما شرح سبحانه وتعالى احوال الاشقيا واحوال السعدا ذكر مثلا يبين الحال
في حكم هذين القسمين بقوله تعالى الم تر انتظر والخطاب يحتمل ان يكون للنبي صلى الله عليه
وسلم ويدخل معه غيره وان يكون لكل فرد من الناس اي الم تر ايها الانسان كيف ضرب
الله اي المحيط بكل شي علما وقدرة مثلا سيره بحيث يعم نفعه والمثل قول سائر
يشبه فيه حال الثاني بالاول ثم بينه بقوله تعالى كلمة طيبة قال ابن عباس واكثر
المفسرين هي لا اله الا الله كشجرة طيبة قال ابن مسعود وانس هي النخلة وعن ابن عباس
هي شجرة في الجنة وعن ابن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم ان الله
ضرب مثل المومن شجرة فاخبروني ما هي قال عبد الله فوقع الناس في شجر البوادي وكنت
صبيا فوقع في قلبي انها النخلة فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان اقولها وانا
صغير القوم وروي فمنعني مكان عمر فاستحييت فقال لي عمر يا بني لو كنت قلتها
لكانت احب الي من حمر النعم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الا انها النخلة قيل الحكمة
في تشبيه الانسان بالنخلة من بين ساير الاشجار ان النخلة اشبه به من حيث انها
اذا قطع راسها يبست وساير الاشجار يتشعب من جوانبها بعد قطع راسها
وانها تشبه الانسان بحيث انها لا تحتمل الا باللقاح لانها خلقت من فضلة طينة
ادم عليه السلام ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اكرموا عمتكم قيل ومن عمتنا قال النخلة

BULAC

أصلها ثابت أي في الأرض وفرعها أي غصنها في السماء أي في جهة العلو والصعود ولم يرد
المظلة كقولك في الجبل طويل في السماء تريد ارتفاعه وشموخه تؤتي أي تعطي أكلها
أي ثمرها كل حين بإذن ربها أي بإرادته والحين في اللغة الوقت يطلق على القليل
والكثير واختلفوا في مقدار هذا فقال مجاهد الحين هنا سنة كاملة لأن النخلة
تثمر في كل سنة مرة وقال قتادة ستة أشهر يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها
وقال الربيع كل حين يعني كل غدوة وعشية لأن ثمر النخل يؤكل ليلا ونهارا
وصيفا وشتاء فيؤكل منها الجمار والطلع والبلح والخلال والبسر والمنصف والرطب
وبعد ذلك يؤكل التمر اليابس إلى حين الطري الرطب فأكلها دائم في كل وقت قال
العلماء ووجه الحكمة في تمثيل كلمة الإخلاص بالشجرة لأن الإيمان ثابت في قلب المؤمن
كثبوت أصل هذه الشجرة في الأرض وعمله يصعد إلى السماء كما قال تعالى إليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فكذلك فرع هذه عال في السماء وينال بركته
وثوابه كل وقت فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاء
بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها ولأن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء
عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال كذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء تصديق
بالقلب وقول باللسان وعمل بالأبدان ثم نبه تعالى على عظم هذا المثل
ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فيلزم فقال ويضرب الله أي الذي له الإحاطة
الكاملة الأمثال للناس لعلهم يتذكرون أي يتعظون فإن في ضرب الأمثال
زيادة إفهام وتذكير وتصوير معاني العقلية فيحصل الفهم التام والوصول
إلى المطلوب ولما ذكر مثل حال السعداء أتبعه بمثل حال الأعداء فقال ومثل
كلمة خبيثة هي كلمة الكفر كشجرة خبيثة هي الحنظل وقيل الثوم وقيل
الكشوث بمثلثة في آخره قال الجوهري نبت متعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب
بعرق في الأرض قال الشاعر: هو الكشوث لا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر
وقيل شجرة الشوك اجتثت أي استأصلت من فوق الأرض لأن عروقها قريبة منه
ما لها من قرار أي أصل ولا عرق فكذلك الكفر بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات
ولا قوة وعن عبادة أنه قيل لبعض العلماء ما تقول في كلمة خبيثة فقال
ما أعلم لها في الأرض مستقرا ولا في السماء مصعدا إلا أن يلزم عنق صاحبها حتى
يوافي بها القيامة ولما وصف سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة في الآية المتقدمة
أخبر بقوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت أنه تعالى يثبتهم بها
في الحياة الدنيا أي في القبر وقيل قبل الموت وفي الآخرة أي يوم القيامة عند
البعث والحساب وقيل في القبر على القول الثاني ولما وصف الكلمة الخبيثة في الآية
المتقدمة أخبر بقوله تعالى ويضل الله الظالمين أي الكفار أنه تعالى لا يهديهم
بها للجواب الصواب ويفعل الله ما يشاء أي إن شاء هدى وإن شاء أضل لا اعتراض
عليه روي عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المسلم إذا
سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله تعالى
يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وروي عن أنس أن رسول الله صلى

الله

الله عليه وسلم قال ان العبد اذا وضع في القبر وتولى عنه اصحابه انه ليسمع قرع
نعالهم اتاه ملكان فيقصدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل لمحمد
صلى الله عليه وسلم فاما المومن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله فيقال
له انظر الى مقعدك من النار قد ابدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبي صلى
صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا قال قتادة ذكر لنا انه يفسح له في قبره
ثم رجع الى حديث انس قال واما المنافق والكافر فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل
فيقول لا ادري كنت اقول ما يقول الناس فيه فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب
بمطرقة من حديد ضربة بين اذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين وعن ابي
هريرة رضي الله تعالى عنه قال شهدنا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما
فرغ من دفنها وانصرف الناس قال انه الان يسمع خفق نعالكم اتاه منكر ونكير اعينهما
مثل قدور النحاس وانيابهما مثل صياصي البقر واصواتهما مثل الرعد فيجلسانه
فيسالانه ما كان يعبد ومن نبيه فان كان ممن يعبد الله تعالى قال كنت اعبد الله
ونبي محمد صلى الله عليه وسلم جانا بالبينات والهدى فامنا به واتبعناه فذلك قوله
تعالى يثبت الله الذين امنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة فيقال له
على اليقين جيت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى الجنة ويوسع له في حفرته
وان كان من اهل الشك قال لا ادري سمعت الناس يقولون شيا فقلته فيقال
له على الشك جيت وعليه مت وعليه تبعث ثم يفتح له باب الى النار ويسلط عليه
عقارب وتنانين لو نفخ احدهم في الدنيا ما انبتت شيا فتنهشه وتوصر الارض
فتنضم عليه حتى تختلف اضلاعه فيسال الله تعالى الثبات لنا ولوالدينا واحيائنا
في الدنيا والاخرة انه كريم جواد ثم انه تعالى عاد الى وصف الكافرين فقال الم تر
اي تنظر وفي المخاطب ما تقدم الى الذين بدلوا والتبديل جعل الشي مكان غيره نعمة الله
اي التي اسبغها عليهم من كلمة التوحيد ومن جميع النعم الدنيوية وتيسير الرزق
وغير ذلك بان جعلوا مكان شكرها كفرا وهم يدعون انهم اشكر الناس للاحسان واعلاهم
هممًا في الوفا وابعدهم عن الخنا واحلوا اي انزلوا قومهم اي الذين تابعوهم في الكفر باضلالهم
اياهم دار البوار اي الهلاك مع ادعائهم انهم اذب الناس عن الجار فضلا عن الاهل
روى البخاري في التفسير انهم كفار اهل مكة وقوله تعالى جهنم عطف بيان يصلونها
اي يدخلونها وبئس القرار اي المقر وجعلوا لله اي الذي يعلمون انه لا شريك له في خلقهم
ولا رزقهم لان له الكمال كله اندادا اي شركا وقوله تعالى ليضلوا عن سبيله اي
دين الاسلام فيه قرا اتان قرا ابن كثير وابو عمرو بفتح اليا من ضل يضل والباقون
بضم اليا من اضل يضل وليس الضلال ولا الاضلال غرضهم في اتخاذ الانداد لكن لما كان
نتيجته جعل كالغرض ولما حكى الله تعالى عنهم هذه الانواع الثلاثة من الاعمال
القبيحة قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل اي تهديدا لهم فانهم لا يشكون في قولك
وان عاندوا تمتعوا بدنياكم قليلا فان مصيركم اي مرجعكم الى النار في الاخرة ولما امر
الله تعالى الكافرين على سبيل التهديد والوعيد بالتمتع بنعيم الدنيا امر المومنين بترك
التمتع بالدنيا والمبالغة في المجاهدة بالنفس والمال بقوله تعالى قل لعبادي فوضعهم

BULAC

باشرف اوصافهم واضافهم الى ضمير الشريف تحبيبا لهم فيه ثم اتبع هذا الوصف ما يناسبه
من اذعانهم لسيدهم بقوله تعالى الذين آمنوا اي اوجدوا هذا الوصف وقوله تعالى
يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم فيه وجهان احدهما يصح ان يكون جوابا
لامر محذوف تقديره قل لعبادي الذين آمنوا اقيموا الصلاة وانفقوا يقيموا الصلاة
وينفقوا والثاني يصح ان يكون هو امرا مقولا محذوفا منه اللام اي ليقيموا ليصح
تعلق القول بهما وانما حسن ذلك ههنا ولم يحسن في قوله محمد تعد نفسك كل نفس
اذا ما خفت من شيء تبالا اي تتبالى به اي تكترث به لدلالة قل عليه سرا وعلانية
اي ينفقون اموالهم في حال السر والعلانية وقيل المراد بالسر صدقة التطوع
وبالعلانية اخراج الزكاة الواجبة تنبيه في انتصاب سرا وعلانية وجوه
احدها ان يكون على الحال اي ذوي سر وعلانية بمعنى مسرين ومعلنين والثاني على
الظرف اي وقتي سر وعلانية وثالثها على المصدر اي انفاق سر وانفاق علانية ولما
امرهم تعالى باقامة الصلاة والانفاق اشار الى عدم التهاون في ذلك بقوله تعالى
من قبل ان يأتي يوم اي عظيم جدا ليس هو كشيء من الايام التي تعرفونها لا بيع فيه
اي فيشتري المقصر ما يتدارك به تقصيره او يفدي به نفسه ولا خلال اي مخالة
اي صداقة تنفع في ذلك اليوم قال مقاتل انما هو يوم لا بيع فيه ولا شراء ولا مخالة
ولا قرابة فكانه تعالى يقول انفقوا اموالكم في الدنيا حتى تجدوا ثواب ذلك الانفاق
في مثل هذا اليوم الذي لا يحصل منه مبايعة ولا مخالة ونظير هذه الاية قوله
تعالى في سورة البقرة لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة فان قيل كيف نفى تعالى المخالة
في هاتين الايتين مع انه تعالى اثبتها في قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم
لبعض عدو الا المتقين اجيب بان الاية الدالة على نفي المخالة محمولة على نفي
المخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس والاية الدالة على حصول المخالة محمولة
على حصول المخالة الحاصلة بسبب عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى
ولما طال الكلام في وصف احوال السعداء واحوال الاشقياء وكانت العمدة العظمى
والمنزلة الكبرى في حصول السعادات معرفة الله تعالى بذاته وبصفاته
وفي حصول الشقاوة فقدان ذلك ختم احوال الفريقين بقوله تعالى الله اي الملك
الاعلى المحيط بكل شيء ثم اتبعه بالدلائل الدالة على وجوده وكمال علمه وقدرته وذكر
ههنا عشرة انواع من الدلائل اولها قوله تعالى الذي خلق السموات وثانيها
قوله تعالى والارض وهما اكبر خلقا منكم واعظم شانا وثالثها قوله تعالى وانزل
من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم تعيشون به وهو يشمل المطعوم
والملبوس تنبيه الله مبتدا وخبره الذي خلق ورزقا مفعول لاخرج ومن
الثمرات بيان له حال منه ويصح ان يكون المراد بالسماء هنا السحاب اشتقاقا
من السمو والارتفاع وان يكون الجرم المعهود فينزل من السماء الى السحاب
ومن السحاب الى الارض وقد ذكرت ذلك في سورة البقرة وفي غيرها ورابعها
قوله تعالى وسخر لكم الفلك اي السفن لتجري في البحر اي بالركوب والحمل بامره
اي بمشيته وارادته وخامسها قوله تعالى وسخر لكم الانهار اي ذللها لكم تجرونها

حيث

حيث شئتم لان ماء البحر لا ينتفع به في سقي الزروع والثمرات ولا في الشراب فكان ذلك نعمة
من الله تعالى وسادسها وسابعها قوله تعالى وسخر لكم الشمس والقمر حال كونهما دائبين
اي جاريين في فلكيهما لا يفتران في سيرهما وانارتهما وتاثيرهما في انارة الظلمة واصلاح
النبات والحيوان لما اخر الدهر وهو انقضاء عمر الدنيا وذهابها والشمس سلطانها النهار
وبها يعرف فصول السنة وهي افضل من القمر لكثرة نفعها والقمر سلطانه الليل
وبه يعرف انقضاء الشهور وكل ذلك بتسخير الله تعالى وانعامه على عباده وثامنها
وتاسعها قوله تعالى وسخر لكم الليل والنهار يتعاقبان فيكم بالضياء والظلمة والزيادة
والنقصان وذلك من نعم الله تعالى على عباده حيث جعل لهم الليل ليسكنوا فيه والنهار
ليبتغوا فيه من فضله وعاشرها قوله تعالى وآتاكم من كل ما سألتموه اي ما انتم محتاجون
اليه على حسب مصالحكم فانتم سألتموه بالقوة ولما ذكر سبحانه وتعالى بعض ما انعم به على عباده
بين ان العبد عاجز عن حصرها وعدها بقوله تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها
اي لا تحيطوا بها ولا تطيقوا عدها وبلوغ اجرها هذا اذا ارادوا ان يعدوها على
الاجمال واما على التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه الا الله تعالى ان الانسان اي الكافر وقال
ابن عباس يريد ابا جهل لظلوم اي كثير الظلم لنفسه كفار اي كفور لنعم ربه وقيل ظلوم
في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع فان قيل لم قال تعالى هنا ان الانسان
لظلوم كفار وفي النحل ان الله لغفور رحيم اجيب بانه تعالى يقول للعبد اذا حصلت
لك النعم الكثيرة فانت الذي اخذتها وانا الذي اعطيتها فحصل لك عند اخذها وصفان
وهما كونك ظلوما كفارا ولي وصفان عند اعطائها وهما كوني غفورا رحيما والمقصود
كانه يقول ان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت كفارا فانا رحيم اعلم عجزك وتقصيرك
فلا اقابل تقصيرك الا بالتوقير ولا اجازي جفاك الا بالوفاء ونسأل الله حسن العاقبة
والرحمة ولما بين تعالى بالدلائل المتقدمة ان لا معبود الا الله سبحانه وتعالى وانه لا يجوز
عبادة غير الله البتة حكى عن ابراهيم عليه السلام مبالغة في انكار عبادة الاوثان
بقوله تعالى واذ اي واذكر لهم مذكرا بايام الله خبر ابراهيم اذ قال ابراهيم رب اي المحسن
الي باجابة دعائي اجعل هذا البلد اي مكة امنا اي ذا امن وقد اجاب الله تعالى
دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه احد ولا يصاد صيده ولا يختلى
خلاه فان قيل اي فرق بين قوله اجعل هذا بلدا امنا وبين قوله اجعل هذا البلد امنا
اجيب بان المسؤول في الاول ان يجعله من جملة البلاد التي امن اهلها ولا يخافون
وفي الثاني ان يزيل عنها الصفة التي كانت حاصلة لها وهي الخوف ويجعل لها ضد
تلك الصفة وهو الامن كانه قال هو بلد مخوف فاجعله امنا فان قيل كيف اجاب
الله تعالى دعاءه مع ان جماعة من الجبابرة وغيرهم قد اغاروا عليها واخافوا اهلها
اجيب بجوابين احدهما ان ابراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء الكعبة دعا بهذا الدعاء
والمراد منه جعل مكة امنة من الخراب وهذا موجود بحمد الله تعالى فلم يقدر احد على اخراب
مكة فان قيل يرد على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال يخرب الكعبة ذو
السويقتين من الحبشة اجيب بان قوله اجعل هذا البلد يعني الى قرب القيامة وخراب
الدنيا فهو عام مخصوص بقصة ذي السويقتين فلا تعارض بين النصين الجواب الثاني
ان المراد جعل اهلها امنين كقوله تعالى واسئل القرية اي اهلها وهذا الجواب عليه

اكثر المفسرين وعلى هذا فقد اختص اهل مكة بزيادة الامن في بلدهم كما اخبر الله تعالى بقوله
ويتخطف الناس من حولهم واهل مكة امنون من ذلك حتى ان من التجا الى مكة امن على نفسه
وماله وحتى ان الوحوش اذا كانت بخارج الحرم استوحشت واذا كانت داخلة
الحرم استانست لعلمها انه لا يهيجها احد في الحرم وهذا القدر من الامن حاصل لمحمد الله
تعالى بمكة وحرمها واجنبني اي بعدني وبنيّ ان يعبد الاصنام اي اجعلنا
في جانب غير جانب عبادتها فان قيل الانبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فما الفائدة
في قوله اجنبني عن عبادة الاصنام اجيب بانه عليه السلام انما سال ذلك دفعا
لنفسه واهلها والحاجة والمسافة الى فضل الله في كل المطالب وفي ذلك دليل
على ان عصمة الانبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه اياهم فان قيل كان كفار قريش من اتباعه
مع انهم كانوا يعبدون الاصنام فكيف اجيبت دعوته اجيب بان المراد من كان
موجودا في علم الله تعالى او بشهادة ان دعوته كانت مجابة فيهم او ان هذا الدعاء مخصوص
بالمومنين من اولاده والدليل عليه انه قال عليه السلام في آخر الآية فمن تبعني فانه مني
وذلك تخصيص لان من لم يتبعه في عبادته فانه ليس منه ونظير قوله تعالى لنوح انه ليس
من اهلك انه عمل غير صالح والصنم المنحوت على خلقة البشر وما كان منحوتا على غير خلقة
البشر فهو وثن قاله الطبري ولذا قال ابن عيينة فكيف عبدت العرب الاصنام
فقال انما عبد احد من ولد اسمعيل حجرا واحجر بقوله واجنبني وبني ان نعبد الاصنام
انما كانت انصابا حجارة لكل قوم قالوا البيت حجر فحيثما نصبتا حجرا فهو يعبر البيت
فكانوا يدورون بذلك الحجر اي يطوفون به اسابيع ينشدون باكيت
ويضمونه الذوال بضم الدال المشددة وقد تفتح قال الجوهري ذوار بالضم صنم
وقد يفتح فاستحب ان يقال طاف بالبيت وللاصنام ذار بالكيت قال الرازي
وهذا الجواب ليس بقوي لانه عليه السلام لا يجوز ان يريد بهذا الدعاء الاجبار
على الله والجبر بالصنم زيادة ذلك ثم حكى الله تعالى عن ابراهيم انه قال رب انهن
اي الاصنام اضللن كثيرا من الناس بعبادتهم لها تنبيه اتفق اكثر العرف على ان
قوله اضللن مجاز لانها جمادات والجماد لا يعقل شيا البتة الا انه لما حصل
عند عبادتها اضيف اليها كما يقول فتنتهم الدنيا وغرتهم اي افتتنوا بها واغتروا
بسببها ثم قال فمن تبعني على التوحيد فانه مني اي هو جار مجرى بعضي لغرض
اختصاصه بي وقربه مني ومن عصاني اي ولم يتبع ديني فانك غفور رحيم وهذا
صريح في طلب المغفرة والرحمة لا ولكن القضاة واذا ثبت حصول هذه
الشفاعة في حق ابراهيم عليه السلام ثبت حصولها في حق محمد صلى الله عليه وسلم
لانه مامور بالاقتداء به كما قال تعالى واتبع ملة ابراهيم وقيل ان هذا الدعاء كان
قبل ان يعلم ابراهيم ان الله لا يغفر الشرك وقيل انك قادر على ان تغفر وترحمه
بان تنقله عن الكفر الى الاسلام وقيل المراد من هذه المغفرة ان لا يعاجلهم
بالعقاب فلا يمهلهم حتى يتوبوا قال الرازي واعلم ان هذه الاوجه ضعيفة
وارفعها ما تقدم اولا لانه سبحانه وتعالى عد ابراهيم عليه السلام وهذا
الموضع انه طلب من الله تسعة امور الاول طلب من الله نعمة الايمان وهو قوله
رب اجعل هذا البلد امنا والمطلوب الثاني ان يرزقه الله تعالى التوحيد ويصونه

عن الشرك

عن الشرك وهو قوله واجنبني وبني ان نعبد الاصنام والمطلوب الثالث قوله ربنا
اسكنت من ذريتي اي بعض ذريتي او ذرية من ذريتي فحذف المفعول على هذا التوكيد
وهم اسمعيل ومن ولد منه فان اسكانه بمكة من معجزات ابراهيم بوادٍ صفة اخرى لمكة
المشرفة لكونه في فضاء منخفض بين جبال يخرق فيه السيول غير ذي زرع اي لا تكون
فيه شيء من الزروع قط فانه حجر لا ينبت كقوله تعالى وزرنا غير ذي عوج
يعني لا يوجد فيه اعوجاج عند بيتك المحرم المحدث حرمت التعرض له والتهاون به
وجعلت ما حوله حرما لمكانه او لانه لم يزل ممتنعا عن ارتياد كالشيء المحرم الذي
حقه ان يجتنب او لانه محترم عظيم الحرمة لاجل انه بناؤه او لانه حرم على الطوفان
ان يمر به كما سمي عتيقا لانه اعتق منه فلم يستول عليه او لانه امر الصابئين بالتحنف
بحرمته اعلم انهم اشياء كانت تحل لهم من قبل او لانه حرم موضع البيت حين خلق
السموات والارض وحفه بسبعة من الملائكة وهو مثل البيت المعمور الذي بناه ادم
فرفع الى السماء السابعة وروي انها هاجر كانت امة لسارة فوهبتها لابراهيم عليه
السلام فولدت منه اسماعيل فقالت سارة كنت اريد ان يهب الله لي ولدا من خليله
فمنعتنيه وزرقته حاضني وغارت عليهما وقالت لابراهيم بعدما سئمت وناشدته
بالله ان يخرجها من عندها فنقلها الى مكة واسمعيل رضيع حتى وضعها عند البيت
عند دوحة فوق زمزم في اعلى المسجد وليس بمكة يومئذ وليس بها ماء فوضعها
هناك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى ابراهيم منطلقا فتبعته
ام اسمعيل وقالت يا ابراهيم اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه انيس
ولا شيء فقالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت اليها فقالت له آلله امرك بهذا قال نعم
قالت اذا لا يضيعنا ثم رجعت فانطلق ابراهيم حتى اذا كان عند الثنية حيث
لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعى بهؤلاء الدعوات ورفع يديه وقال ربنا
اني اسكنت من ذريتي حتى اذا بلغ يكرون وجعلت ام اسمعيل ترضعه
وتشرب من ذلك الماء حتى اذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت
تنظر اليه تلوى او قالت يتلبط فانطلقت كراهية ان تنظر اليه فوجدت الصفا
اقرب جبل في الارض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى احدا
فلم تر احدا فعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم
فلذلك سعي الناس بينهما فلما اشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت صه
تريد نفسها ثم تسمعت فسمعت ايضا فقالت قد اسمعت ان كان عندك غواث
فاذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه او قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت
تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف
قال النبي صلى الله عليه وسلم يرحم الله ام اسمعيل لو تركت زمزم او قال لو لم تغرف
من الماء كانت زمزم عينا معينا قال فشربت وارضعت ولدها فقال الملك
لا تخافوا الضيعة فان ههنا بيت الله يبني هذا الغلام وابوه وان الله لا يضيع
اهله وكان البيت مرتفعا من الارض كالرابية يأتيه السيل فيأخذ عن يمينه وشماله
فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم او اهل بيت من جرهم مقبلين
من طريق كداء فنزلوا في اسفل مكة فنظروا طائرا فقالوا ان هذا الطائر

ليدور على الماء عند بئر زمزم الوادي وما فيه ما فارسلوا جريا او جريين فاذا هم بالماء فرجعوا
فاخبروهم فاقبلوا وام اسمعيل عند الماء فقالوا اتاذنين لنا ان ننزل عندك قالت نعم
ولكن لا حق لكم في الماء قالوا نعم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فالت
ذلك ام اسمعيل وهي تحب الانس فنزلوا وارسلوا الى اهليهم فنزلوا معهم حتى اذا كان
بها اهل ابيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم حين شب
فلما ادرك زوجوه امراة منهم وماتت ام اسمعيل فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسمعيل
يطالع تركته فلم يجد اسمعيل فسال امراته عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سالها عن
عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن في ضيق وشدة وشكت اليه فقال فاذا جاء زوجك
فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء اسمعيل كانه آنس شيئا
فقال هل جاءكم من احد قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسالنا عنك فاخبرته وسالني
كيف عيشنا فاخبرته اننا في جهد وشدة قال فهل اوصاك بشيء قالت نعم امرني ان
اقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك ابي وقد امرني ان افارقك الحقي
باهلك فطلقها وتزوج منهم اخرى فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ثم اتاهم بعد فلم
يجده فدخل على امراته فسالها عنه فقالت خرج يبتغي لنا ثم سالها عن عيشهم وهيئتهم
فقالت نحن بخير وسعة واثنت على الله عز وجل فقال فما طعامكم قالت اللحم قال
فما شرابكم قالت الماء قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال ابو القاسم صلى الله
عليه وسلم ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه قال فهما لا يرتفع
عليهما احد الا لم يوافق طعامه وشرابه قال فان جاء زوجك فاقرئي عليه السلام
ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء اسمعيل قال هل جاءكم من احد قالت نعم اتانا شيخ
حسن الوجه وتاثنت عليه فسالني عنك فاخبرته فسالني كيف عيشنا فاخبرته اننا
بخير قال فاوصاك بشيء قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويامرك ان تثبت عتبة بابك
قال ذاك ابي وانت العتبة امرني ان امسكك ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد
ذلك وزمزم يعلو ان تحت دوحة فوق بئره فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد
بالولد والولد بالوالد ثم قال يا اسمعيل ان الله امرني بامر قال فاصنع ما امرك ربك
قال وتعينني قال واعينك قال فان الله امرني ان ابني له بيتا ههنا وشار الى اكمة
مرتفعة على ما حولها من الاودية قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل
ياتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام
عليه وهو يبني وهو يقول ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم قال فجعلا يبنيان
حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم قال
ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فمضت السنة والعرب على ذلك حتى بعث
الله محمدا صلى الله عليه وسلم فاخبره بما كان من امر ابراهيم واسمعيل في هذا
البيت حتى ابتدأ بناءه من اين ابتدأ وانتهى الى موضع قبره فكان ذلك مما حفظ
الناس من امر الجاهلية فعمل به حتى اذا بنى البيت وكمل ما اراد الله من شانه
جاءه جبريل عليه السلام فاراه مناسكه وهداه سبيله وعلمه حرمه فقال له ان الله
يامرك ان تبني بيتا ههنا وشار الى اكمة مرتفعة على ما حولها من الاودية قال فعند
ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل ياتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا
ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وهو يقول ربنا تقبل منا
انك انت السميع العليم قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا
تقبل منا انك انت السميع العليم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فمضت
السنة والعرب على ذلك حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فاخبره بما كان من
امر ابراهيم واسمعيل في هذا البيت حتى ابتدأ بناءه من اين ابتدأ وانتهى الى موضع
قبره فكان ذلك مما حفظ الناس من امر الجاهلية فعمل به حتى اذا بنى البيت وكمل ما
اراد الله من شانه جاءه جبريل عليه السلام فاراه مناسكه وهداه سبيله وعلمه حرمه
فقال له ان الله يامرك ان تبني بيتا ههنا وشار الى اكمة مرتفعة على ما حولها من
الاودية قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل اسمعيل ياتي بالحجارة وابراهيم
يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وهو يقول
ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما
يقولان ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم قال ابن عباس قال النبي صلى الله
عليه وسلم فمضت السنة والعرب على ذلك حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم
فاخبره بما كان من امر ابراهيم واسمعيل في هذا البيت حتى ابتدأ بناءه من اين
ابتدأ وانتهى الى موضع قبره فكان ذلك مما حفظ الناس من امر الجاهلية فعمل به
حتى اذا بنى البيت وكمل ما اراد الله من شانه جاءه جبريل عليه السلام فاراه
مناسكه وهداه سبيله وعلمه حرمه فقال له ان الله يامرك ان تبني بيتا ههنا وشار
الى اكمة مرتفعة على ما حولها من الاودية قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت
فجعل اسمعيل ياتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى اذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر
فوضعه له فقام عليه وهو يبني وهو يقول ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم
قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ربنا تقبل منا انك انت
السميع العليم قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم فمضت السنة والعرب
على ذلك حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فاخبره بما كان من امر ابراهيم
واسمعيل في هذا البيت حتى ابتدأ بناءه من اين ابتدأ وانتهى الى موضع قبره فكان
ذلك مما حفظ الناس من امر الجاهلية فعمل به حتى اذا بنى البيت وكمل ما اراد

من تتمة قول ابراهيم عليه السلام يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء
في اي مكان كان والاكثرون على انه قول الله تعالى تصديقا لابراهيم فيما قال كقوله
تعالى وكذلك يفعلون ولفظة من تفيد الاستغراق كانه قيل وما يخفى على الله شيء ما
ولما تم لابراهيم عليه السلام ما دعا به اتبعه الحمد على ما رزقه من النعم بقوله الحمد لله اي
المستجمع لصفات الكمال الذي وهب لي اي اعطاني على الكبر اي وهب لي وانا كبير ايس
عن الولد قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة واظهارا لما فيه من المعجزة اسمعيل
واسحاق ومقدار ذلك السن غير معلوم من القران وانما يرجع فيه الى الروايات فقال
ابن عباس ولد اسمعيل لابراهيم وهو ابن تسع وسبعين سنة وولد له اسحاق وهو ابن
مائة واثنتي عشرة سنة وعن سعيد بن جبير لم يولد لابراهيم عليه السلام الا بعد مائة
وسبع عشرة سنة فان قيل ابراهيم عليه السلام انما ذكر هذا الدعا عندما اسكن اسمعيل
وهاجر امه في ذلك الوادي وفي ذلك الوقت ما ولد اسحق فكيف يمكنه ان يقول
ذلك اجيب بان هذا يقتضي ان ابراهيم انما ذكر هذا الكلام في زمن اخر لا عقب ما تقدم
من الدعا قال الرازي ويمكن ايضا ان يقال انه عليه السلام انما ذكر هذا الدعا بعد كبر اسمعيل
وظهور اسحق وان كان ظاهر الروايات بخلافه انتهى تنبيه قوله على الكبر بمعنى مع كقوله
اني على ما ترين من كبري اعلم من حيث يوكل الكتف وهو في موضع الحال ولما ذكر الدعا على
سبيل الرمز والتعريض لا على وجه الافصاح والتصريح قال ان ربي اي المحسن اني لسميع
الدعاء اي لمجيبه فان قيل الله تعالى يسمع كل دعا اجابه او لم يجبه اجيب بان هذا
من قولك سمع الملك كلامي اذا اعتد به وقبله ومنه سمع الله لمن حمده المطلوب الخامس
قوله رب اجعلني مقيم الصلاة اي معدلا لها مواظبا عليها تنبيه في الاية دليل
على ان افعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام
واجنبني وبني ان نعبد الاصنام فدل على ان ترك المنهيات لا يحصل الا من الله وقوله
رب اجعلني مقيم الصلاة يدل على ان فعل المامورات لا يحصل الا من الله تعالى وذلك تصريح
بان ابراهيم عليه السلام كان مصرا على ان الكل من الله تعالى وقوله ومن ذريتي عطف
على المنصوب في اجعلني اي واجعل بعض ذريتي كذلك لان كلمة من في قوله ومن ذريتي
للتبعيض وانما ذكر هذا التبعيض لانه علم باعلام الله تعالى انه يكون في ذريته
جمع من الكفار وذلك قوله تعالى لا ينال عهدي الظالمين المطلوب السادس انه
عليه السلام لما دعا الله تعالى في المطالب المذكورة دعا الله تعالى دعا الله في ان يقبل
دعاه فقال ربنا وتقبل دعاي قال ابن عباس يريد عبادتي بدليل قوله واعتزلكم
وما تدعون من دون الله وقيل دعاي المذكور المطلوب السابع قوله ربنا اي ايها
المالك لامورنا المدبر لنا اغفر لي فان قيل ان طلب المغفرة انما يكون بعد سابقة
ذنب اجيب بان المقصود من ذلك الالتجا الى الله تعالى وقطع الطمع الا من فضله
وكرمه ورحمته ثم اشرك معه اقرب الناس اليه واحقهم بشكره فقال ولوالدي فان
قيل كيف جاز ان يستغفر لوالديه وكان كافرين اجيب بوجوه الاول ان المنع
منه لا يعلم الا بتوقيف فلعله لم يجد منه منعا وظن كونه جائزا الثاني اراد بوالديه
ادم وحوى الثالث كان ذلك بشرط الاسلام وقال بعضهم كانت امه مومنة ولهذا

خص اباه بالذكر في قوله فلما تبين له انه عدو لله تبرا منه ثم دعا لمن تبعه في الدين من ذريته
وغيرهم بقوله وللمؤمنين اي الفريقين في هذا الوصف يوم يقوم اي يبدو ويظهر
الحساب وقيل اراد يوم يقوم الناس فيه للحساب فاكتفى بذكر الحساب لكونه مفهوما
عند السامع وهذا دعا للمؤمنين بالمغفرة والله تعالى لا يرد دعا خليله ابراهيم عليه
السلام وفيه بشارة عظيمة للمؤمنين بالمغفرة فنسال الله تعالى ان يغفر لنا ولوالدينا
ولمشايخنا ولاحبابنا ولمن نظر في هذا التفسير ودعا لمن كان سببا فيه بالمغفرة
ولما بين تعالى دلائل التوحيد ثم حكى عن ابراهيم عليه السلام انه طلب من الله
ان يصونه عن الشرك وطلب منه ان يوفقه للاعمال الصالحة وان يخصه بالرحمة
والمغفرة في يوم القيامة ذكر بعد ذلك ما يدل على صفة اهل القيامة بقوله تعالى
مخاطبا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون لان
الغفلة معنى يمنع الانسان من الوقوف على حقائق الامور وقيل حقيقة الغفلة
سهو يعتري الانسان من قلة التحفظ والتيقظ وهذا في حق الله تعالى محال والمقصود
من ذلك التنبيه على انه ينتقم للمظلوم من الظالم ففيه وعيد وتهديد للظالم
واعلام له بانه لا يعامله معاملة الغافل عنه بل ينتقم ولا يتركه مغفلا عنه وعن
سفيان بن عيينة فيه تسلية للمظلوم وتهديد للظالم فقيل له من قال هذا فغضب
وقال انما قاله من علمه فان قيل كيف يليق به صلى الله عليه وسلم ان يحسبن الله موصوفا
بالغفلة وهو اعلم الناس به اجيب بوجوه الاول ان المراد به التثبت على ما كان
عليه من انه لا يحسب الله غافلا كقوله ولا تدع مع الله الها اخر والثاني ان المقصود
منه بيان انه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لاجل غفلته عن ذلك الظلم والثالث
ان المراد ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون ولكن معاملة الرقيب
عليهم المحاسب على النقير والقطمير والرابع ان يكون هذا الكلام وان كان خطابا
مع النبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر الا انه يكون في الحقيقة خطابا مع الامة ثم بين تعالى
انه انما يؤخرهم اي عذابهم ليوم موصوف بخمس صفات الصفة الاولى قوله تعالى
تشخص فيه الابصار اي ابصارهم لا تقر مكانها من هول ما ترى في ذلك اليوم الصفة
الثانية قوله تعالى مهطعين اي مسرعين الى الداعي او مقبلين بابصارهم لا يطرفون
هيبة وخوفا وقيل المهطع الخاضع الذليل الساكن الصفة الثالثة قوله تعالى
مقنعي رؤسهم اي رافعيها اذ الاقناع رفع الراس الى فوق فاهل الموقف من صفتهم
انهم رافعوا رؤسهم الى السما وهذا بخلاف المعتاد لان من يتوقع البلا يطرق
بصره الى الارض وقال الحسن وجوه الناس يوم القيامة الى السما لا ينظر احد الى احد
الصفة الرابعة قوله تعالى لا يرتد اليهم طرفهم اي بل تثبت عيونهم شاخصة لا يطرفون
بعيونهم ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للاجفان قد شغلهم
ما بين ايديهم الصفة الخامسة قوله تعالى وافئدتهم اي قلوبهم هوا اي خالية من العقل
لفرط الحيرة والدهشة وقال قتادة خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت في حناجرهم
فلا تخرج من افواههم ولا تعود الى اماكنها تنبيه اختلفوا في وقت حصول هذه
الصفات فقيل انها عند المحاسبة بدليل انه تعالى انما ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك

يقوم

اليوم

اليوم بانه يوم الحساب وقيل انها تحصل عند ما يتميز فريق عن فريق فالسعداء يصيرون الى
الجنة والاشقياء الى النار وقيل تحصل عند اجابة الداعي والقيام من القبور قال الرازي
والاول اولى وانذر الناس يا محمد اي خوفهم يوم القيامة وهو قوله تعالى يوم يأتيهم
العذاب اي الذي تقدم ذكره وهو يشخص ابصارهم وكعهم مهطعين مقنعي رؤسهم
فيقول الذين ظلموا اكفروا ربنا اخرنا اي يا ربنا ردنا الى الدنيا الى اجل قريب اي الى امد واجل
هو الزمان القريب نجب دعوتك اي بالتوحيد ونتدارك ما فرطنا ونتبع الرسل فيما يدعوننا
اليه فيقال لهم توبيخا اولم تكونوا اقسمتم اي حلفتم من قبل في الدنيا ما لكم من زوال
اي التي تقولون من زوال اي ما لكم عنها انتقال ولا بعث ولا نشور كما قال تعالى انه اخبر
واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت وكانوا يقولون لا زوال لنا من هذه
الحياة الى حياة اخرى من هذه الدار الى دار الجزاء لانهم كانوا ينكرون ان ينزلوا
عن حياة الى موت او عن شباب الى هرم او عن غنى الى فقر ثم انه تعالى زادهم توبيخا
اخر بقوله تعالى وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم بالكفر من الامم السابقة
وتبين لكم كيف فعلنا بهم اي وظهر لكم بما تشاهدون في مساكنهم من آثار ما نزل بهم
وما نوا عيدكم من اخبارهم وضربنا اي وبينا لكم الامثال في القرآن ان اعدتم عادت
الى الوبال والخزي والنكال مما علم به انه قادر على الاعادة كما قدر على الابتداء وقادر
على التعذيب الموجل كما يفعل المعلال الحوجل المعجل وذلك في شأن ابليس لعنه الله
ولما ذكر تعالى صفة عقابهم اتبعها بذكر كيفية مكرهم بقوله فقال وقد مكروا مكرهم
اي الشديد العظيم الذي استنزع عوانيه جهدهم واختلفوا في عود الضمير في مكروا على
وجوه الاول انه يعود الى الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا انفسهم لان الضمير
يعود الى اقرب مذكور والثاني الى قوم محمد صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى
ما نذر اي يا محمد الناس وقد مكروا مكرهم وذلك المكر هو الذي ذكر ابهم تعالى
في قوله واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك وعند الله مكرهم
اي مكتوب عند الله فعلهم فهو مجازيهم عليه مكرهم هو اعظم منه وقيل ان مكرهم
لا يزيل امر محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو ثابت كثبوت الجبال وقد حكي عن
علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه في الآية قول اخر وهو انها نزلت في نمرود الجبار
الذي حاج ابراهيم في ربه فقال نمرود ان كان ما يقوله ابراهيم حقا فلا انتهي
حتى اصعد الى السما فاعلم ما فيها ثم امر نسورا فصادها فاخذ لنفسه تابوتا وجعل
له بابا من اعلاه وبابا من اسفله وربط قوائمها الاربع باربعة نسور وكان قد جوعها
ورفع فوق الجوانب الاربعة من التابوت عصيا اربعة وعلق على كل واحدة منها قطعة
لحم ثم انه جلس مع صاحبه في ذلك التابوت فلما ابصرت النسور تلك اللحوم تصاعدت
في جو الهوا وطارت فوقها حتى بعدت في الهوا فقال نمرود لصاحبه افتح الباب الاسفل وانظر
الى الارض كيف نراها فقعل فقال اري الارض مثل اللجة والجبال مثل الدخان قال فطارت
النسور فوقا اخر وارتفعت حتى حالت الريح بينها وبين الطيران فقال نمرود لصاحبه
افتح الباب الاعلى فافتح فاذا السما كهيئتها وفتح الباب الاسفل فاذا الارض سوداء مظلمة
وفقدت اصوات الطاعين فيها فقال عكرمة كان معه في التابوت غلام فدحمل القوس والنشاب

فرمى بسهم فعاد اليه وهم ملطخا بالدم يوم سمكة فقذفت نفسها من بحر في الهواء وقبل ابراهيم اصابه
السهم فقال كيف بهيبة اله السما فنكس تلك العصى التي عاق عليها اللحوم فتشعشعت الشمس وهبطت
الى الارض فسمعت الجبال لحفيق التابوت والسور فقزعت وظنت انه قد حدث حدث من السما
وان القيمة قد قامت وكادت تزول عن اماكنها فذلك قوله تعالى وإن كان مكرهم
اي من القوة والصخامة لتزول منه الجبال قال الرازي ولا حاجة في تأويل الاية الى هذا
فانه لم يجي فيه خبر صحيح معتد انتهى والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرايع
الاسلام المشبهة بها في الرزانة والثبات وقرأ الكسائي بفتح اللام الاولى ورفع
الاخيرة والباقون بكسر الاولى وفتح الثانية والتقدير على القراءة الاولى وإن
كان بحيث انه تزول منه الجبال وقيل إن نافية واللام لتأكيد النفي فلا تحسبن الله
الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد امته مخلف وعده رسله من النصر واعلا
الكلمة واظهار الدين كما قال تعالى انا لننصر رسلنا وقال تعالى كتب الله لاغلبن انا
ورسلي فان قيل هلا قال لمخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثاني على الاول
اجيب بانه تعالى قدم ذلك ليعلم انه لا يخلف الوعد اصلا لقوله تعالى ان الله
لا يخلف الميعاد ثم قال رسله ليدل به على انه تعالى لما لم يخلف وعده احدا وليس
من شانه اخلاف الواعد فكيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته إن الله
اي في الحال او الاكرام عزيز اي غالب لا يقدر ولا يقدر عليه ذو انتقام اي ممن عصاه
وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض تبدل من يوم يأتيهم او ظرف للانتقام والمعنى يوم
تبدل هذه الارض التي نعرفها ارضا اخرى غير هذه المعروفة والسموات عطف
على الارض وتبديل السموات غير التبديل الذي يكون في الذوات
كقولك بدلت الدراهم دنانير ومنه بدلناهم جلودا غيرها وبدلناهم
بحسنتهم حسنتين وفي الاوصاف كقولك بدلت الحلقة خاتما اذا اذبتها وسويتها
خاتما فتنقلب من شكل الى شكل ومنه قوله تعالى فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات
والاية محتملة لكل واحد من هذين المعنيين فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما
في تلك الارض وانما تغير وانشق وما الناس يا ناس الذين عهد تعهد
ولا الدار بالدار التي كنت تعلم فتبدل اوصافها فتسير عن الارض جبالها وتفجر بحارها
وتسوى فلا ترى فيها عوجا ولا امتا وتبدل السما بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف
قمرها وانشقاقها وكونها ابوابا وبدل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس يوم
القيامة على ارض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لاحد اخرجاه في الصحيحين
العفراء بالعين المهملة وهي البيضاء الى الحمرة وتشبيهها بقرصة النقي وهو الخبز
الابيض الجيد الناصع المائل الى الحمرة كان النار مثلت بياض وجهها الى الحمرة وقوله
ليس فيها علم لاحد تعني ليس فيها علامة لاحد لتبدل هيئتها وصفتها وزوال جبالها
وجميع بنايها فلا يبقى فيها اثر يشتدل به وعن ابن مسعود انه قال تبدل الارض بارض
كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وقال علي بن ابي طالب
الارض من فضة والسما من ذهب وقال محمد بن كعب وسعيد بن جبير تبدل
الارض خبزة بيضا يا كل المومن من تحت قدميه وعن الضحاك ارضا من فضة كالصحايف

غير الأرض غيرهم

وعن عائشة

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية
فاين يكون الناس يومئذ يا رسول الله فقال على الصراط اخرجه مسلم وروى ثوبان ان حبرا
من اليهود سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم اين يكون الناس يوم تبدل الارض غير
الارض فالهم في الظلمة دون الحشر قال الرازي واعلم انه لا يبعد ان يقال المراد من تبدل
الارض والسموات هو انه تعالى يجعل الارض جهنم ويجعل السموات الجنة والدليل عليه
قوله تعالى كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وقوله تعالى كلا ان كتاب الفجار لفي سجين
وبرزوا اي خرجوا من قبورهم لله اي لحكمه والوقوف بين يديه تعالى للحساب الواحد
اي الذي لا شريك له القهار اي الذي لا يدافعه شيء عن مراده كما قال تعالى لمن الملك اليوم
لله الواحد القهار ولما وصف نفسه سبحانه وتعالى بكونه قهارا بين عجزهم وذلتهم
بقوله تعالى وترى المجرمين اي الكافرين يومئذ اي يوم القيامة مقرنين ذكر تعالى من صفات
عجزهم وذلهم امورا الصفة الاولى قوله تعالى مقرنين اي مشدودين في الاصفاد جمع صفد
وهو القيد قال الكلبي كل كافر مع شيطان في غل وقال عطاء هو معنى قوله تعالى واذا
واذا النفوس زوجت اي قرنت مقترن نفوس المؤمنين نفوس الحور العين ونفوس
الكافرين بقرنائهم من الشياطين وقيل هو قرن بعض الكفار ببعض فتضم تلك النفوس
السعيدة والارواح الكدرة الظلمانية بعضها الى بعض لكونها متشاكلة متجانسة
وتتنادى ظلمة كل واحدة منها الى الاخرى وقال ابن زيد قرنت ايديهم وارجلهم الى رقابهم
بالغلال الصفة الثانية قوله تعالى سرابيلهم اي قمصهم جمع سربال وهو القميص من قطران
وهو شيء يتحلب من شجر يسمى الابهل فيطبخ ويطلى به الابل الجرب فيحرق الجرب بحرارته
وحدته وقد تفعل حرارته في داخل الجوف ومن شأنه ان يتسارع فيه اشتعال النار
وهو اسود اللون منتن الريح فيطلى به جلود اهل النار حتى يصير ذلك الطلاء كالمرجل
فيحصل بسببه اربعة انواع من العذاب لذع القطران وحرقته واسراع النار اليه
واللون الوحش ونتن الريح وايضا التفاوت بين قطران الدنيا وقطران الاخرة كالتفاوت بين النارين الصفة الثالثة قوله تعالى وتغشى اي تعلو وجوههم النار
وتطيره قوله تعالى افمن يتقي بوجهه سوء العذاب وقوله تعالى ويوم يسحبون في النار
على وجوههم والمكان موضع العلم والجهل هو القلب وموضع الفكر والوهم هو الرأس
واثر هذه الاحوال تظهر في الوجه فلما خص الله تعالى هذين العضوين بظهور اثار
العقاب فيهما فقال في القلب نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة وقال في الوجه
وتغشى وجوههم النار وقوله تعالى ليجزي الله متعلق ببرزوا كل نفس ما كسبت
اي من خير او شر وهذا اولى من قول الواحدي المراد منه انفس الكفار لان ما سبق ذكره
لا يليق ان يكون جزاء اهل الايمان وحساب كل نفس جدير بان يستظل قال
ان الله سريع الحساب اي لا يشغله حساب نفس عن حساب اخرى والانسان عن شأن
وقوله تعالى هذا اشارة الى القرآن الذي يخرج الناس من الظلمات الى النور بمنزلة الحاضر وقيل الى السورة بلاغ اي كاف في غاية الكفاية في الايصال للناس والموعظة
والتحذير وقوله تعالى وليندروا به عطف على محذوف تقديره ليبلغوا وليندروا وليعلموا
وليندروا متعلق ببلاغ وليعلموا اي بما فيه من الحجج على وحدانية الله تعالى انما هو اي الله

ولما كان ما سبق
عطف على محذوف تقديره ليبلغوا

الله واحد فيستدل لوابد لكن على ان الله تعالى واحد لا شريك له وليتذكر بادغام التاء في الاصل
في الذال اي يتعظ اولوا الالباب اي اصحاب العقول الصافية من الاكدار والاوهام
الصحيحة فانه موعظة لمن اتعظ بنبسه ذكر سبحانه وتعالى لهذا البلاغ ثلاث فوايد
مستفادة من قوله تعالى ليدبروا آياته وتالييه والحكمة في انزال الكتب تكميل الرسل
للناس واستكمالهم القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية
التي هي التدرع بلباس التقوى جعلنا الله تعالى من العاملين بها بمحمد واله وفعل ذلك
بوالديا واحبابنا ومن رواه البيضاوي نفعا للمخبر بمن انه صلى الله عليه وسلم قال
من قرأ سورة ابراهيم اعطي من الاجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الاصنام وعدد
من لم يعبد حديث موضوع قال العلامة ابن جماعة في شرح منظومة ابن فرح التي اولها
علم الحديث صحيح فرع من غرايب الحديث بكر واضع الحديث اي والمشهور عدم تكفيره
سورة الحجر مكية بالاجماع وهي تسع وتسعون اية وستمايتان واربع وخمسون كلمة
وعدد حروفها الفان وسبعماية وستون حرفا بسم الله الواحد القهار الرحيم
الذي اشبع نعمه على عباده بدينه فتحير متنعمو وصفه الافكار الرحيم الذي خص اهل ولايته
بنجاتهم من النار واد خلهم دار الابرار وقوم الحر وكر فيه الفتح والامالة اول يونس وقيل بعدها
الا الله اعلم وقدمنا الكلام على اوايل السور في اول سورة البقرة وقوله تعالى تلك
اشارة الى ايات هذه السورة آيات الكتاب اي القرآن والاضافة بمعنى من وقوله تعالى
وقرآن مبين اي مظهر للحق من الباطل عطف تفسير بزيادة صفة وقيل المراد بالكتاب هذه السورة
وكذا القرآن وقيل المراد بالكتاب التوراة والانجيل وبالقرآن هذا الكتاب ثم تعيب
سبحانه وتعالى حال الكفار يوم القيامة بقوله تعالى ربما يود اي يتمنى الذين كفروا
اي اذا عاينوا حالهم وحال المسلمين في ذلك اليوم لو كانوا مسلمين وقيل حين يعاينوا
حال المسلمين عند نزول النار وحلول الوعيد وبسط للتكثير فانه يكثر منهم تمني ذلك
وقيل للتقليل فان هذه الاحوال يدهشهم فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك الا في احيان
قليلة فان قيل لم دخلت رب على المضارع وقد ابوا دخولها الا على الماضي اجيب
بان المترقب في اخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه فكانه قيل ربما ود
وقد اعاصم بتحقيقها ربما والباقون بالتشديد قال ابو حاتم اهل الحجاز يخففون
ربما وتميم وبكر يشددون وهي لما وافي طفيانهم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم
ذرهم اي دعهم عن النهي عما هم عليه والصد عنه بالتذكر والنصيحة وخلهم يأكلوا ويتمتعوا
بدنياهم وتلهيهم شهواتهم والتمتع التلذذ وتعم طلب اللذة حالا بعد حال كالنفوت
فانه طلب الفرجة حالا بعد حال ويلههم الامل اي يشغلهم توقعهم لطول الاعمار
واستقامة الاحوال عن اخراجهم من الشقاوة وعن الاستعداد للمعاد وقد ابو عمرو
في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي برفع الهاء والميم والباقون بكسر الهاء ورفع الميم
واما الوقف فللجميع بكسر الهاء والكلام على الهاء الثانية واما الهاء الاولى فمكسورة
للجميع وقفا ووصلا ولما كان هذا امرا لا يستغل به الا احمق نسب عنه
التهديد بقوله تعالى فسوف يعلمون اي ما يحل بهم بعد ما فاتهم في زمن
التمتع من سوى صنيعهم وهذا قبل الامر بالقتال بقيه في الايه ويدل على ان

ايثار التلذذ والتنعم في الدنيا يودي الى طول الامل وليس ذلك من اخلاق المومنين
وعن بعضهم التمتع في الدنيا من اخلاق الهالكين والاخبار في ذم الامل كثيرة منها
قوله صلى الله عليه وسلم يهرم ابن ادم ويشيب معه اثنتان الحرص على المال
والحرص على العمر وعن علي رضي الله تعالى عنه انما اخشى عليكم اثنتين طول الامل واتباع
الهوى فان طول الامل ينسي الاخرة واتباع الهوى يصد عن الحق ولما هددهم تعالى بانه
التمتع والهاء الامل اتبعه بما يوكد الزجر بقوله تعالى وما اهلكنا من قرية اي من القرى
والمراد اهلها ومن مزيدة الا ولها كتاب معلوم اي اجل مضروب محدود مكتوب في اللوح
المحفوظ لهلاكها تنبيه المستثنى جملة واقعة صفة لقرية والاصل ان لا تدخلها
الواو كقوله تعالى الا لها منذرون وانما توسطت لتاكيد لصوق الصفة بالموصوف
كما يقال في الحال جاني زيد عليه ثوب وجاني وعليه ثوب فايدة رسم كتاب هنا
باثبات الالف ثم بين تعالى الاية السابقة بقوله تعالى ما تسبق واكد الاستغراق
بقوله تعالى من امة وقيل من مزيدة كقولك ما جاني من احد اي احد او هي على اصلها
وبين ان المراد بالكتاب الاجل بقوله تعالى اجلها اي الذي قدرناه لها وما يستاخرون
اي عنه تنبيه انث الامة اولا ثم ذكرها اخرا حملا على اللفظ في الاول وعلى المعنى
في الثاني قال الفقاعي وانما ذكره لئلا يصرفوه الى خطابه صلى الله عليه وسلم تعنتا
وفي الاية دليل على ان كل من مات او قتل ما مات باجله وان من قال يجوز ان يموت
قبل اجله مخطي ولما بالغ تعالى في تهديد الكفار ذكر شبههم في انكار نبوته بقوله تعالى
وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر اي القران في زعمه انك لمجنون انما نسبوه الى الجنون
اما لانهم كانوا يستبعدون كونه رسولا حقا من عند الله لان الرجل اذا سمع كلاما
مستبعدا من غيره فربما قال به جنون واما لانه عليه الصلاة والسلام كان يظهر عليه
عند نزول الوحي حالة شبيهة بالغشي فظنوا انها جنون ويدل عليه قوله تعالى
اولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ثم اتبعوه ما زعموا انه دليل على قولهم فقالوا
لو ما اي هلا تاتينا بالملائكة اي يشهدون بانك رسول من عند الله حقا ان كنت من الصادقين
في ادعائك بالرسالة وان هذا القران من عند الله ولما كان في قولهم امران اجاب الله تعالى
عن قولهم الثاني لانه اقرب بقوله تعالى ما تنزل الملائكة الا بالحق اي الا تنزلا
ملتبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في ان ناتيكم بهم عبادنا يشاهدونهم ويشهدون لكم
بصدق النبي صلى الله عليه وسلم لانكم حينئذ مصدقون عن اضطرار ومثله قوله تعالى
وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقيل الحق الوحي او العذاب وقرا
شعبة بضم التاء مع فتح الزاي ورفع الملائكة وحفص وحمزة والكسائي بنونين الاولى
مضمومة والثانية مفتوحة وكسر الزاي ونصب الملائكة والباقون بالتاء المفتوحة
مع فتح الزاي ورفع الملائكة وشدد التاء البزي في الوصل واما الزاي فهي مشددة
للجميع من يفتح ومن يكسر وما كانوا اي الكفار اذا اي اذ تاتيهم الملائكة منظرين اي
لزال عنهم الامهال وعذبوا في الحال ان لم يومنوا ويصدقوا وكان حينئذ يفوت
ما قضينا به من تاخيرهم واخراج من اردنا ايمانه من اضلالهم ثم اجاب تعالى عن
الاول بقوله تعالى موكدا لتكذيبهم انا نحن بما لنا من العظمة والقدرة نزلنا اي بالتدريج

على لسان جبريل عليه السلام الذكر اي القران وانا له لحافظون اي من التبديل والتحريف
والزيادة والنقصان ونظيره قوله تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا
كثيرا اذ القران العظيم محفوظ من هذه الاشياء كلها لا يقدر احد من جميع الخلق من الجن
والانس ان يزيد فيه او ينقص منه كلمة واحدة او حرفا واحدا وهذا مختص بالقران العظيم
بخلاف ساير الكتب المنزلة فانه قد دخل على بعضها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان
فان قيل فلم اشتغلت الصحابة بجمع القران في المصحف وقد وعد الله تعالى بحفظه
وما حفظه الله تعالى فلا خوف عليه اجيب بان جمعهم القران في المصحف كان
من اسباب حفظ الله تعالى اياه فانه تعالى لما اراد حفظه قيضهم لذلك قال اصحابنا
وفي هذه الاية دلالة قوية على كون البسملة اية من اول كل سورة لان الله تعالى قد وعد
حفظ القران والحفظ لا معنى له الا ان يبقى مصونا عن الزيادة والنقصان فلو لم تكن
البسملة اية من القران لما كان القران مصونا عن التغيير ولما كان محفوظا عن الزيادة ولو جاز
ان يظن بالصحابة انهم زادوا جاز ايضا ان يظن بهم النقصان وذلك يوجب خروج القران
عن كونه حجة وقيل الضمير في له راجع الى محمد صلى الله عليه وسلم والمعنى وانا لمحمد لحافظون
ممن اراد به سوا فهو كقوله تعالى والله يعصمك من الناس ولما ساء الكفار عليه صلى الله عليه
وسلم في الاول وخاطبوه بالسفاهة وقالوا انك لمجنون وكان عادة هولاء الجهال مع جميع
الانبياء هكذا قال سبحانه وتعالى تسلية له على وجه زاد عليهم ولقد ارسلنا من قبلك
اي رسلا فحذف ذكر الرسل لدلالة الارسال عليه وقوله تعالى في شيع اي فرق الاولين
من باب اضافة الصفة الى الموصوف كقوله تعالى حق اليقين سموا شيعا لمتابعة
بعضهم بعضا في الاحوال التي يجمعون عليها في الزمن الواحد والشيع جمع شيعة وهي الفرقة
المجتمعة المتفقة كلمتهم على مذهب وطريقة وقال الفراء الشيعة هم الاتباع وشيعة
الرجل اتباعه وقيل الشيعة من يتقوى بهم الانسان وما ياتيهم عبر بالمضارع على حكاية
الحال الماضية لان ما لا تدخل على مضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب
من الحال والاصل وما كان ياتيهم من رسول اي على اي وجه كان الا كانوا به جبلة وطبعا
يستهزءون كاستهزاء قومك بك فصبروا فاصبر كما صبروا كذلك اي مثل ادخالنا التكذيب
في قلوب هولاء المستهزئين بالرسل نسلكه اي ندخله في قلوب المجرمين لا يؤمنون به اي
بالنبي صلى الله عليه وسلم وقيل بالقران وفي الاية دليل على ان الله تعالى يخلق الباطل في قلوب
الكفار والسلك ادخال الشيء في الشيء كالخيط في المخيط والرمح في المطعون ومنه قوله تعالى
ما سلككم في سقر وقيل الضمير في نسلكه يعود للذكر كما ان الضمير يعود اليه وجملة لا يؤمنون
به حال من ذلك الضمير والمعنى على هذا مثل ذلك السلك نسلك الذكر في قلوب المجرمين
مكذبا غير مؤمن به قال البيضاوي وهذا الاستدلال ضعيف اذ لا يلزم من تعاقب
الضماير توافقها في المرجع اليه انتهى وما اعدت الضمير اليه في ذلك هو ما قاله الخازن
وجرى عليه الجلال السيوطي وقوله تعالى وقد خلت سنة الاولين اي سنة الله فيهم
من تعذيبهم بتكذيبهم انبياءهم وعيد شديد لكفار مكة فانه ينزل بهم مثل ما نزل
بالامم الماضية المكذبة وقال الزجاج قد مضت سنة الله في ان يسلك الكفر والضلال
في قلوبهم قال الرازي وهذا اليق بظاهر اللفظ وقرا ابو عمرو وحمزة والكسائي بادغام تا

اي كفار مكة المستهزئين بك

التانيث

التأنيث في السين والباقون بالاظهار وقوله تعالى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء الاية
هو المراد في سورة الانعام في قوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس الاية اي ان الذين
يقولون لو ما تأتينا بالملائكة فلو انزلنا الملائكة فظلوا فيه اي فظلت الملائكة يعرجون
اي يصعدون في الباب يرونها عيانا لقالوا اي من غلوهم في الكفر انما سكرت ابصارنا
اي سددت عن الابصار بالسحر او من السكر ويدل عليه قراءة ابن كثير بالتخفيف او حيرت
من السكر ويدل عليه قراءة الباقين بالتشديد بل نحن قوم مسحورون اي سحرنا محمد بذلك
كما قالوه عند ظهور غيره من الايات كانشقاق القمر وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم
من القران المعجز الذي لا يستطيع الجن والانس ان يأتوا بمثله وقيل الضمير في يعرجون
للمشركين اي فظل المشركون يصعدون في ذلك الباب فينظرون في ملكوت السموات
وما فيها من العجائب لما امنوا لعنادهم وكفرهم وقالوا انما سحرنا وقرأ الكسائي
بادغام لام بل في النون والباقون بالاظهار ولما اجاب تعالى عن شبهة منكري النبوة
والقول بالنبوة تفرع على القول بالتوحيد ودلائل التوحيد منها سماوية ومنها
ارضية بدأ منها بذكر الدلائل السماوية وقال مفتتحا بحرف التوقع ولقد جعلنا اي بما لنا من العظمة
والقدرة الباهرة في السماء بروجا قال الليث البروج واحدها برج من بروج الفلك
والبروج هي النجوم الكبار ماخوذ من الظهور يقال تبرجت المرأة اذا ظهرت واراد بها
المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيارة وهي اثنا عشر برجا الحمل والثور
والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي
والدلو والحوت وهذه البروج مقسومة على ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها
ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة وبها تتم دورة الفلك وهي منازل
الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب والزهرة ولها الثور والميزان
وعطارد وله الجوزاء والسنبلة والقمر وله السرطان والشمس ولها الاسد والمشتري
وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو وهذه البروج مقسومة على
ثلثمائة وستين درجة لكل برج منها ثلاثون درجة تقطعها الشمس في كل سنة مرة
وبها تتم دورة الفلك ويقطعها القمر في ثمانية وعشرين يوما قال ابن عباس في هذه
الاية تزيد بروج الشمس والقمر يعني منازلهما وقال عطية هي قصور في السماء عليها
الحرس وقال مجاهد هي النجوم العظام قال ابو اسحق يريد نجوم هذه البروج وقرأ
نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار دال قد عند الجيم والباقون بالادغام
وزيناها اي السماء بالشمس والقمر والنجوم والاشكال والهيئات البهية للناظرين
اي المعتبرين المستدلين بها على توحيد خالقها ومبدعها وهو الله الذي اوجد
كل شيء وخلقه وصوره وحفظناها من كل شيطان رجيم اي مرجوم وقيل ملعون
قال ابن عباس كانت الشياطين لا يحجبون عن السموات وكانوا يدخلونها
ويسمعون اخبار الغيوب من الملائكة ويلقونها الى الكهنة فلما ولد عيسى عليه السلام
منعوا من ثلاث سموات ولما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها
فما منهم من احد يريد استراق السمع الا رمي بشهاب فلما منعوا تلك المقاصد ذكروا ذلك
لابليس فقال لقد حدث في الارض حدث فبعثهم ينظرون فوجدوا رسول الله صلى

واسترق السمع

الله عليه وسلم يتلوا القرآن فقالوا والله هذا حدث وقوله تعالى إلا من استرق السمع
بدل من كل شيطان وقيل استثناء منقطع أي لكن من استرق السمع اختلاسه قال
ابن عباس يريد الخطفة اليسيرة وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا يسترقون
السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب كما قال تعالى فأتبعه شهاب مبين وهو شعلة
من نار ساطعة وقد يطلق للكواكب لما فيها من البريق يشبه شهاب النار فلا يخطئ أبدا
فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجبينه ويده حيث يشاء الله ومنهم من
يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي روى أبو هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم إذا قضى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا
لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم
قالوا الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا
بعضه فوق بعض ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة
فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها إلى لسان الساحر أو الكاهن
وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها
مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعها
من السماء فإن قيل إذا جاز أن يسمع الشيطان أخبار الغيوب من الملائكة خرج
الإخبار عن الغيبيات عن كونه معجزا دليلا على الصدق لأن كل غيب يخبر عنه
النبي صلى الله عليه وسلم قام فيه الاحتمال وحينئذ يخرج عن كونه معجزا دليلا
على الصدق أجيب بأنا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا بسائر
المعجزات ثم بعد العلم بنبوته يقطع بأن الله عجز الشياطين عن تلقف
الغيب بهذا الطريق وعند ذلك يصير الإخبار عن الغيب معجزا ولما شرح تعالى
الدلائل السماوية في تقرير التوحيد أتبعها بذكر الدلائل الأرضية وهي أنواع النوع
الأول قوله تعالى والأرض مددناها قال ابن عباس بسطناها على وجه الماء قال
البغوي يقال إنها مسيرة خمسمائة سنة في مثلها دحيت من تحت الكعبة فإن
قيل فهل يدل ذلك على أنها بسيطة أو كرة عظيمة على ما يقوله أرباب الهيئة أجيب
بأن ليس في الآية دلالة على شيء من ذلك لأن الأرض على تقدير كونها كرة فهي في غاية
العظمة والكرة العظيمة ترى كالسطح المستوي وتقدم الكلام على ذلك في سورة
البقرة وسيأتي زيادة على ذلك إن شاء الله تعالى في سورة والنازعات النوع الثاني
قوله تعالى وألقينا فيها رواسي أي جبالا ثوابت واحدها راس والجمع راسية وجمع
الجمع رواسي وهو كقوله تعالى وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم قال ابن عباس لما
بسط الله تعالى الأرض على الماء مالت بأهلها كالسفينة فأرساها الله تعالى
بالجبال الثقال لكيلا تميد بأهلها وقيل إن الله تعالى خلقها لتكون دلالة
للناس على طرف الأرض ونواحيها لأنها كالأعلام فلا تميد الناس عن الجادة المستقيمة
ولا يقعون في الضلال النوع الثالث قوله تعالى وأنبتنا فيها واختلف في عود
ضمير فيها فقيل يعود إلى الأرض لأن أنواع النبات المنتفع به يكون في الأرض وقيل
إلى الجبال لأنها أقرب مذكور ولقوله تعالى من كل شيء موزون وإنما يوزن ما يتولد من الجبال

لأن

والأولى

والاولى عوده لها واختلفوا في المراد بالموزون فقال بن عباس اي معلوم وقال مجاهد
اي مقدر معين تقتضيه حكمته وقال الحسن عني به الشي الموزون كالذهب والفضة
والرصاص والحديد ونحو ذلك مما يستخرج من المعادن والاولى انه جميع ما نبت في الارض
والجبال لان ذلك نوعان احدهما يستخرج من المعادن وجميع ذلك موزون والثاني
النبات فبعضه موزون وبعضه مكيل وهو يرجع الى الوزن لان الصاع والمد
مقدران بالوزن وجعلنا لكم فيها اي انعاما منا وتفضلا عليكم وهي بيا صريحة من غير مد
جمع معيشة وهي ما يعيش به من المطاعم والملابس والمعادن وغيرها وجعلنا لكم من لستم
له برازقين من العبيد والانعام والدواب والطير فانكم تنتفعون بها ولستم لها
برازقين لان رزق جميع الخلق على الله تعالى وبعض الجهال يظنون في اكثر الامر انهم هم
الذين يرزقون العيال والخدم والعبيد وذلك خطا فان الله هو الرزاق
يرزق المخدوم والخادم والمملوك والمالك فلولا انه تعالى خلق الاطعمة والاشربة
واعطى القوة الغاذية والهاضمة والا لم يحصل لاحد رزق فان قيل صنيعه
من مختصة بمن يعقل اجيب بانه تعالى اثبت لجميع الدواب رزقا على الله
حيث قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها
ومستودعها فغلب من يعقل على غيره حكي ان الما قد قل في بعض الاودية والجبال
واشتد الحر قال بعضهم رايت بعض ذلك الوحش رفعت روسها الى السما عند اشتداد
عطشها قال فرايت الغيوم قد اقبلت وامطرت وامتلات بالاودية تنبيه
قيل لا يجوز ان يكون ومن لستم له برازقين مجرورا عطفا على الضمير المجرور في لكم
فانه لا يعطف على الضمير المجرور لا يقال اخذت منك وزيد الا باعادة الخافض
كقوله تعالى واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح والراجح الجواز كما في
قوله تعالى تساءلون به والارحام بالخفض في القراءات السبع وهذا اعظم دليل ولما
بين سبحانه وتعالى انه اثبت لهم كل شي موزون وجعل لهم معايش اشعر بذكر ما هو
السبب لذلك فقال وان من شي اي مما ذكر وغيره من الاشيا الممكنة وهي لا نهاية لها
الا عندنا خزائنه اي قادرون على ايجاده وتكوينه اضعاف ما وجد منه فضرب
الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور وروى جعفر بن محمد عن ابيه عن جده قال
في العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى في البحر والبر والخزائن جمع خزانة وهي اسم
للمكان الذي يخزن فيه للحفظ وقيل اراد مفاتيح الخزائن وقيل المطر لانه سبب
الارزاق والمعاش لبني ادم والوحش والطير والدواب ومعنى عندنا انه في حكمه
تعالى وتصرفه وامره وتدبيره وما ننزله اي من بقاع القدرة الا بقدر معلوم
اي على حسب المصالح وقيل ان لكل ارض حدا ومقدارا من المطر يقال لا ينزل من السما
قطرة مطر الا وقعها ملك يسوقها الى حيث يشا الله ولما تم ما اراد من ايتي السما
والارض وختمه بشمول قدرته لكل شي اتبعه ما ينشا عنهما مما هو بينهما مودعا في خزائن
قدرته بقوله تعالى وارسلنا الرياح جمع ريح وهي جسم لطيف منبث في الجو سريع المر
لواقح اي حوامل لانها تحمل الما الى السحاب فهي لاقحة يقال ناقة لاقحة اذا حملت الولد
وقال بن مسعود يرسل الله تعالى الريح فتحمل الما فتمجه في السحاب ثم تمر به فتدر كما تدر اللقحة

معايش

ثم تمطر وقال عبيد بن عمير يبعث الله تعالى الريح المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله
المؤلفة فتؤلف السحاب بعضه الى بعض فتجعله ركاما ثم يبعث الله تعالى اللواقح تلقح الشجر
وعن ابن عباس قال ما هبت ريح قط الا جثى النبي صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وقال
اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها ريحا وعن عائشة رضي الله تعالى عنها ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كان اذا عصفت الريح قال اللهم اني اسالك خيرها وخير ما فيها
وخير ما ارسلت به واعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما ارسلت به وقرا حمزة
بالافراد والباقون بالجمع فانزلنا اي بعظمتنا بسبب تلك السحاب التي حملتها الرياح
من السماء اي الحقيقة او جهتها او السحاب لان الاسباب المتراقية يسند الشيء تارة
الى القريب منها وتارة الى البعيد ماء وهو جسم مائع تسال به حياة كل حيوان
من شانه الاغتذاء فاسقيناكموه اي جعلناه لكم سقيا يقال سقيته ما يشربه
واسقيته اي مكنته منه ليسقي به ما شئته ومن يريد ونفى سبحانه وتعالى عن غيره
ما اثبته اولا لنفسه بقوله وما انتم له اي لذلك الماء بخازنين اي ليست خزائنه بايديكم
والخزن وضع الشيء في مكان مهيا للحفظ فثبت ان القادر عليه واحد مختار ومن دلائل
التوحيد الاحياء والاماتة كما قال تعالى وانا لنحن نحيي اي لنا هذه الصفة على وجه
العظمة فنحيي بها من نشاء من الحيوان بروح البدن ومن الروح بالمعارف ومن النبات
بالنمو وان كان احدهما حقيقة والاخر مجازا لان الجمع بينهما جائز ونميت اي لنا هذه
الصفة فنبرز بها من عظمتنا ما نشاء ونحن الوارثون اي الارث التام اذا مات
الخلائق الباقون بعد كل شيء كما كنا ولا شيء فليس لاحد تصرف باماتة ولا احياء
فثبت بذلك الوحدانية والفعل بالاختيار فاثبت بهذا كمال قدرته وكانت
اثار القدرة لا تكون محكمة الا بالعلم قال تعالى ولقد علمنا المستقدمين منكم وهو
من قضينا بموته اولا من لدن ادم فيكون في موته كانه يسارع الى التقدم اليه
وان كان هو وكل من اهله مجتهدا بالعلاج في تاخيره ولقد علمنا المستاخرين
اي الذين نمد في اعمارهم فنؤخر موتهم حتى يكونوا كانهم يسابقون الى ذلك وان عالجوا
الموت بشرب سم او غيره او عالجه لهم غيرهم بضربهم بسيف او غيره فعرف بذلك قطعا
ان الفاعل واحد مختار وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اراد بالمستقدمين
الاموات وبالمستاخرين الاحياء وقال عكرمة المستقدمين من خلق الله والمستاخرين
من لم يخلق وقال الحسن المستقدمين في الطاعة والخير والمستاخرين المثبطون
عنه وقيل المستقدمين من القرون الاولى والمستاخرين امة محمد صلى الله عليه
وسلم وقيل المستقدمين في الصفوف والمستاخرين فيها وذلك ان النساء كن يخرجن
الى الجماعة فيقفن خلف الرجال فربما كان من الرجال من في قلبه ريبة فيتاخر
الى اخر صف الرجال ومن النساء من في قلبها ريبة فتتقدم الى اول صف النساء لتقرب
من الرجال فقال النبي صلى الله عليه وسلم خير صفوف الرجال اولها وشرها
اخرها وخير صفوف النساء اخرها وشرها اولها تنبيه في سبب نزول
هذه الاية قولان احدهما ان امراة حسناء كانت تصلي خلف النبي صلى الله عليه وسلم فكان
بعضهم يستقدم حتى يكون في اول صف حتى لا يراها ويتاخر بعضهم حتى يكون في اخر

صف

صف فاذا اربع نظر من تحت ابطه فنزلت والثاني ان النبي صلى الله عليه وسلم حرض
على الصف الاول فاردوهم عليه وقال فقدم بيوتهم قاصية عن المسجد لنبعد لهم ويرنا
ولتشتهر بيوتهم فنزلت **وان ربك هو يحشرهم**
اي المستقدمين والمستاخرين للجزاء وتوسط الضمير للدلالة على الله القادر والمتولي
لحشرهم لاغيره وتصدير الجملة بان لتحقيق الوعد والتنبيه على ان ما سبق من الدلالة
على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الاشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله تعالى
انه حكيم باهر الحكمة بتقن افعاله **عليم** وسع علمه كل شيء ولما استدل سبحانه
وتعالى بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد والاعادة المبتدء منبها على ضعف بالاستدلال
بتخليق الانسان على هذا المطلوب بقوله تعالى **ولقد خلقنا الانسان** قال الرازي
والمفسرون اجمعوا على ان المراد منه ادم عليه السلام ونقل وكنت الشيعة عن محمد
ابن علي الباقر انه قال قد انقضى قبل ادم الذي هو ابونا الف الف ادم او اكثر سمي
انسانا لظهوره وادراك البصر اياه وقيل من النسيان لانه اعهد اليه فنسي **من صلصال**
اي من الطين الشديد اليابس الذي لم تصبه نار اذا نقرته سمعت له صلصلة اي صوتا
وقال ابن عباس هو الطين اذا نضب عنه الماء تشقق فاذا حرك تقعقع وقال مجاهد
هو الطين المنتن واختاره الكسائي وقال الفراء هو طين خلط برمل فصار كالفخار
نقره وقال الرازي قال المفسرون خلق الله تعالى ادم من طين فصوره وتركه في الشمس
اربعين سنة فصار صلصالا لا يدرك احد ما يراد به ولم يرد شيء من الصلصال
الا ان ينفخ فيه الروح **من حمإ** اي طين اسود منتن **مسنون** اي مصور بصورة الادمي
وقال ابن عباس هو التراب المبتل المنتن وقال مجاهد هو المنتن المتغير
قال البغوي وفي بعض الآثار ان الله تعالى خمر طينة ادم وتركه حتى صار متغيرا
اسود ثم خلق منه ادم عليه السلام قال ابن الخازن والجمع بين هذه الاقوال على ما
ذكره بعضهم ان الله تعالى لما اراد خلق ادم عليه السلام قبض قبضة من تراب الارض
واليه الاشارة بقوله تعالى انا مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب
ثم ان ذلك التراب بله بالماء حتى اسود وانتن ريحه وتغير واليه الاشارة
بقوله تعالى من حمإ مسنون ثم ان ذلك الطين الاسود المتغير صوره صورة
انسان اجوف فلما جف وييبس كانت تدخل فيه الريح فيسمع له صلصلة واليه
الاشارة بقوله تعالى من صلصال كالفخار وهو الطين اليابس يخرج في السمس
ثم نفخ فيه الروح فكان بشرا سويا واما ذكر سبحانه وتعالى خلق الانسان ذكر
ما خلقه منه من الجان فقال **والجان** قال ابن عباس هو ابو الجن كما ان ادم عليه
السلام ابو البشر وقال قتادة هو ابليس وقيل الجان ابو الجن وابليس ابو الشياطين
والجن مسلمون وكافرون ويأكلون ويشربون ويحيون ويموتون كبني ادم واما
الشياطين فليس فيهم مسلمون ولا يموتون الا اذا مات ابليس وقال وهب ان
الجن من ولد الجان ليسوا بشيء الا ان الادميين ومن الجن من هو بمنزلة الريح
لا تؤذي ولا تأكل ولا تشرب ومنهم من هو بمنزلة الادميين يأكلون ويشربون
منهم من الجن لاشتراكهم في الاستتار سموا اجنة لتواريهم واستتارهم عن الاعين

من قولهم جن الليل اذا استتر والشيطان هو العاتي المتمرد الكافر والجن منهم المؤمن ومنهم
الكافر وانتصاب الجان بفعل يفسره خلقناه من قبل اي قبل خلق الانسان
من نار السموم اي من ريح حارة تدخل مسام الانسان فتقتله من حدة حرارتها بالنهار
قال الرازي فالريح الحارة فيها نار ولها لفيح كما ورد في الخبر انها من فيح جهنم انتهى ويقال السموم
بالنهار والحرور بالليل وقال الكلبي عن ابي صالح السموم نار لا دخان لها والصواعق منها وهي
نار تكون بين السماء وبين الحجاب فاذا احدث الله امرا خرقت الحجاب فهوت الى ما امرت به
فالهدة التي تسمعون خرق ذلك الحجاب وعن ابن مسعود هذه السموم جزء من سبعين
جزءا من السموم التي خلق منها الجان وتلا هذه الاية وعن الضحاك عن ابن عباس كان ابليس
من حي من الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم وخلقت الجن الذين ذكروا في القران
من مارج من نار واما الملائكة فخلقوا من النور ولما ذكر تعالى حدوث الانسان الاول
واستدل بذكره على وجود الاله القادر المختار ذكر بعده واقعته بقوله تعالى واذ
اي واذكر يا اشرف الخلق قال ربك اي المحسن اليك بتشريف ابيك ادم عليه السلام لتشريفك
للملائكة اني خالق بشرا اي حيوانا كثيفا يباشر ويلاقي والملائكة والجن لا يباشرون
لكطف اجسامهم عن انتشار البشر والبشرة ظاهر الجلد من كل حيوان وقوله تعالى من صلصال
من حما مسنون تقدم تفسيره فاذا سويته اي عدلته واتممته وهيأته لنفخ الروح
تهيئة قريبة من الفعل ونفخت فيه من روحي اي خلقت الحياة فيه وليس ثم نفخ ولا منفوخ
وانما هو تمثيل واضافة الروح اليه تشريفا كما يقال بيت الله وهو ما يصير به الجسم
حيا واشرف منه ما يصير به الروح عالما واشرف منه ما يصير به العالم عاملا خاشعا
وسياتي الكلام على الروح ان شاء الله تعالى في سورة سبحان عند قوله تعالى ويسالونك
عن الروح فقعوا اي اسقطوا له تعظيما حال كونهم ساجدين وتقدم في سورة البقرة
الكلام على من المخاطب بالسجود هل هو كل الملائكة او ملائكة السموات او ملائكة الارض
وهل هو سجود انحناء او غيره فسجد الملائكة وقوله تعالى كلهم اجمعون قال سيبويه
تاكيد بعد تاكيد وسئل المبرد عن ذلك فقال لو قال فسجد الملائكة احتمل ان يكون
سجد بعضهم فلما قال كلهم زال هذا الاحتمال فظهر انهم باسرهم سجدوا ثم عند
هذا بقي احتمال وهو انهم سجدوا دفعة واحدة او سجد كل واحد في وقت اخر فلما
قال اجمعون ظهر ان الكل سجدوا دفعة واحدة قال الزجاج وقول سيبويه اجود
لان اجمعين معرفة فلا تكون حالا وقوله تعالى الا ابليس اجمعوا على ان ابليس كان مامورا
بالسجود لادم واختلفوا في انه هل كان من الملائكة ام لا وقد سبقت هذه المسئلة
على الاستقصاء في سورة البقرة وقوله تعالى ابى ان يكون مع الساجدين اي لادم
استئناف وتقديره ان قائلا قال هل سجد فقيل ابى ذلك واستكبر عنه قال
الله تعالى له يا ابليس ما لك الا تكون اي ان تكون ولا مزيدة اي ما منعك ان تكون
مع الساجدين لادم قال لم اكن لاسجد لبشر جثماني كثيف واللام لتاكيد النفي اي لا يصح
مني وينافي حالي ان اسجد وانا ملك روحاني خلقته من صلصال من حما مسنون
وهو اخس العناصر وخلقتني من نار وهي اشرفها استنقص ادم باعتبار النوع والاصل
وقد سبق الجواب عنه في سورة الاعراف تنبيه قال بعض المتكلمين انه تعالى

اوصل

قال أوصل هذا الخطاب الى ابليس على لسان بعض رسله وضعف بان ابليس قال في الجواب
لم اكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال بقوله خلقته خطاب الحضور لا خطاب الغيبة وظاهره
يقتضي ان الله تعالى تكلم مع ابليس بغير واسطة وان ابليس تكلم مع الله بغير واسطة فكيف
يعقل هذا مع ان مكالمة الله تعالى بغير واسطة من اعظم المناصب واشرف المراتب
فكيف يعقل حصوله لراس الكفرة ورئيسهم واجيب بان مكالمة الله تعالى انما يكون منصبا
عاليا اذا كان على سبيل الاكرام والاعظام فاما اذا كان على سبيل الاهانة والاذلال
فلا قال الله تعالى له فاخرج منها اي من الجنة وقيل من السموات وقيل من زمرة
الملائكة وقد تقدم الكلام على ذلك ايضا في سورة الاعراف فانك رجيم اي مطرود
من الخير والكرامة فان من يطرد يرجم بالحجر او شيطان رجيم بالشهب وهو وعيد يتضمن
الجواب عن شبهته وان عليك اللعنة اي هذا الطرد والابعاد الى يوم الدين
قال ابن عباس يريد يوم الجزاء حيث تجازى العباد باعمالهم مثل قوله تعالى مالك
يوم الدين فان قيل كلمة الى تفيد حصر انتهاء الغاية فهذا يشعر بان اللعن لا يحصل
الا الى يوم القيامة وعند القيامة يزول اللعن اجيب بجوابين الاول ان المراد
التابيد وذكر القيامة ابعد غاية ذكرها الناس في كلامهم كقولهم ما دامت
السموات والارض في التابيد والثاني انه مذموم مدعو عليه باللعن في السموات
والارض الى يوم القيامة من غير ان يعذب فاذا جاء ذلك اليوم عذب عذابا يقترن
اللعن معه فيصير اللعن حينئذ كالزائل بسبب ان شدة العذاب تذهل عنه
ولما جعله الله تعالى رجيما ملعونا الى يوم القيامة فكانه قائلا يقول فماذا قال
فقيل قال رب فاعترف بالعبودية والاحسان اليه فانظرني اي اخرني والانظار
تاخير المحتاج للنظر في امره والفاء متعلقة بمحذوف دل عليه فاخرج منها فانك رجيم
الى يوم يبعثون اي الناس اراد ان يجد فسحة في الاغواء ونجاة من الموت اذ لا موت
بعد وقت البعث قال الله تعالى مجيبا للاول دون الثاني فانك من المنظرين
الى يوم الوقت المعلوم وهو المسمى فيه اجلك عند الله وهو النفخة الاولى وما
يتبعها من موت كل مخلوق لم يكن في دار الخلد فان قيل كيف اجابه الله تعالى الى هذا
الامهال اجيب بانه انما اجابه لذلك زيادة في بلائه وشقائه وعذابه لا لاكرامه
ورفع مرتبته ولما اجيب بذلك كانه قيل فماذا قال فقيل قال رب اي ايها
الموجد والمدبر لي وقوله بما اغويتني اي خيبتني من رحمتك الباء فيه للقسم وما
مصدرية وجواب القسم لازينن اي اقسم باغوائك اياي لازينن لهم في الارض
حب الدنيا ومعاصيك كقوله فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا انه في ذلك الموضع اقسم
بعزة الله وهي من صفات الذات وهنا اقسم باغواء الله وهو من صفات الافعال
والفقهاء قالوا القسم بصفات الذات صحيح واختلفوا في القسم بصفات الافعال
والراجح فيها الصحة لاغوينهم اي بالاضلال عن الطريق الحميدة بالقاء الوسوسة
في قلوبهم ولاحملنهم اجمعين على الغواية وقوله الا عبادك منهم المخلصين قرا ابن كثير
وابو عمرو وابن عامر بكسر اللام اي الذين اخلصوا دينك عن الشوائب وقراءة الباقين بفتحها
اي الذين اخلصهم الله تعالى بالهداية وانما استثنى ابليس المخلصين لانه علم ان كيده

BULAC

لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه قال الرازي والذي حمل على هذا الاستثناء ان لا يصير كاذبا
في دعواه فلما احترز ابليس عن الكذب علمنا ان الكذب في غاية الخساسة تنبيه
قال رويم الاخلاص في العمل هو ان لا يريد صاحبه عنه عوضا من الدارين ولا عوضا من الملكين
وقال الجنيد الاخلاص سر بين العبد وبين الله تعالى لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان
فيفسده ولا هوى فيميله وذكر القشيري وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
سئلت جبريل عليه السلام عن الاخلاص ما هو قال سألت رب العزة عن الاخلاص
ما هو فقال سر استودعته قلب من احب من عبادي ولما ذكر ابليس انه يغوي بني ادم الا من
عصمه الله تعالى بتوفيقه وتضمن هذا الكلام تفويض الامور الى الله تعالى والى ارادته
قال تعالى هذا اي الذي ذكرته من حال المستثنى والمستثنى منه صراط اي طريق علي مستقيم
اي لا انحراف عنه لاني قضيت به وحكمت به عليك وعليهم ولو لم تقل انت ولما قال ابليس
لازينن لهم في الارض الا عبادك منهم المخلصين اوهم هذا ان له سلطانا على عباد الله
غير المخلصين فبين تعالى ان ليس له سلطان على احد من عبيد الله سواء كانوا مخلصين
ام لم يكونوا مخلصين بل من اتبع منهم ابليس باختياره صار تبعا له ولكن حصول تلك
المتابعة ايضا ليس لاجل ابليس واوهم ان له على بعض عباد الله سلطانا فبين تعالى كذبه
وذكر تعالى انه ليس له على احد منهم سلطان ولا قدرة اصلا بقوله تعالى ان عبادي اي المؤمنين
كلهم ليس لك اي بوجه من الوجوه عليهم سلطان اي لتردهم كلهم عما يرضيني ونظير هذه
الاية قوله تعالى حكاية عن ابليس وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم
لي وقال تعالى في اية اخرى ليس له سلطان على الذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون انما
سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون الا من اتبعك اي تبعد منه
ورغبة في اتباعك من الغاوين اي ومات عن غير توبة فاني جعلت لك عليهم
سلطانا بالتزيين والاغواء سئل سفيان بن عيينة عن هذه الاية قال معناه
ليس لك عليهم سلطان تلقيهم في ذنب يضيق عنه عفوي وقيل ان الاضافة
للتشريف فلا تشمل الا المخلص فحينئذ يكون الاستثناء منقطعا وفائدة سوقه
بصورة الاستثناء على تقدير الانقطاع الترغيب في رتبة التشريف بالاضافة اليه
والرجوع عن اتباع العدو الى الاقبال عليه لان ذوي الانفس الابية والهمم العلية
يتنافسون في ذلك المقام ويرونه كما هو الحق اعلى مرام وان جهنم لموعدهم اي
الغاوين وهم ابليس ومن تبعه اجمعين ثم بين تعالى انهم متفاوتون فيها بقوله
تعالى لها اي لجهنم سبعة ابواب اي سبع طبقات قال علي رضي الله تعالى عنه
اتدرون كيف ابواب النار هكذا ووضع احدى يديه على الاخرى اي سبعة ابواب
بعضها فوق بعض وان الله تعالى وضع الجنان على العرض ووضع النيران بعضها
على بعض قال ابن جريج النار سبع دركات اولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير
ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية تنبيه تخصيص العدد لان اهلها سبع فرق وقيل
جعلت سبعة على وفق الاعضاء السبعة من العين والاذن واللسان والبطن والفرج
واليد والرجل لانها مصادر السيئات فكانت مواردها الابواب السبعة ولما كانت
هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النية والنية من اعمال القلب زادت الاعضاء واحدا

فجعلت

جعلت ابواب الجنان ثمانية قال تعالى لها ابواب اى منها منهم اى الغاوين حاصة لايشاركهم
فيه مخلص جزء اى نصيب وقدا سبعة بضم الزاى والباقون باسكان مقسوم اى معلوم
فلكل دركة قوم يستحقونها قال الضحاك فى الدركة الاولى اهل التوحيد الذين ادخلوا النار
يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يخرجون وفى الثانية النصارى وفى الثالثة اليهود وفى
الرابعة الصابئون وفى الخامسة المجوس وفى السادسة اهل الشرك وفى السابعة المنافقون
فذلك قوله تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار وروى عن عمر رضى الله
تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجهنم سبعة ابواب
باب منها لمن سل السيف على امتى او قال على امة محمد والله اعلم شرح الله تعالى احوال
اهل العقاب اتبعه بصفة اهل الثواب بقوله تعالى موكدا لانكار المكذبين
بالبعث ان المتقين اى الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه وتعالى كما قال جمهور
الصحابة والتابعين وهو الصحيح لان المتقى هو الاتى بالتقوى مرة واحدة
كما ان الضارب هو الاتى بالضرب مرة واحدة والقاتل هو الاتى بالقتل مرة واحدة
فكما انه ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضاربا وقاتلا كونه اتيا بجميع انواع
الضرب والقتل ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقيا كونه اتيا بجميع انواع
التقوى لان الاتى بفرد واحد من افراد التقوى يكون اتيا بالتقوى لان كل فرد
فرد من افراد الماهية يجب كونه مشتملا على تلك الماهية فى جنات اى بساتين
قال الرازى انما الجنان اربعة لقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان
ثم قال عز من قائل ومن دونهما جنتان فيكون المجموع اربعة وقوله ولمن خاف مقام ربه
جنتان يوكد ما قلناه لان من خاف الله لا تنفك قلبه من الخوف من الله تعالى وقوله
ولمن خاف مقام ربه يفيد حصول هذا الخوف مرة واحدة وقوله تعالى وعيون
قال الرازى يحتمل ان يكون المراد منها ما ذكره الله تعالى فى قوله مثل الجنة
التى وعد المتقون فيها انهار من ماء غير اسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه
وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى ويحتمل ان يكون المراد من هذه
العيون منابع مغايرة لتلك الانهار فان قيل هل كل واحد من المتقين مختص
بعيونه او تجرى تلك العيون بعضها الى بعض اجيب بان كل واحد من الوجهين
محتمل فيجوز ان يختص كل واحد بعين ينتفع هو بها ومن يختص به من الحور
والولدان ويكون ذلك على قدر حاجاتهم وعلى حسب شهواتهم ويحتمل ان يجرى
من بعضهم الى بعض لانهم يظهر ون نعم الحقد والحسد وقرا نافع وابو عمرو وهشام
وحفص بوصل العين والباقون بالكسر وقرا بكسر التنوين فى الوصل ابو عمرو وابن
ذكوان وعاصم وحمزة والباقون بالضم ولما كان المنزل لا يحسن الا بالسلامة
والانس قال تعالى ادخلوها اى يقال لهم ذلك بسلام اى سالمين من كل افة
مرحبا بكم ومسلما عليكم حال الدخول امنين من ذلك دائما ولما كان الانس لا يكمل الا
بالجنس مع كمال المودة وصفا القلوب نحن الكدر قال تعالى ونزعنا اى ما لنا من العظة
والغدر ما فى صدورهم من غل اى حقد كامن فى القلب ويطلق على الشحناء والعداوة
والبغضاء والحسد فكل هذه الخصال المذمومة داخلة فى الغل لانها كامنة فى القلب

يرقى ان المؤمنين يحبسون على ابواب الجنة فيقتص بعضهم من بعض ثم يؤمر بهم الى
الجنة وقد نقى قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد حالة كونهم اخوانا
اى متصافين حال كونهم على سرر جمع سرير وهو مجلس رفيع موطنا للسرور وهو
مأخوذ منه لانه مجلس سرور فاك بن عباس يريد على سرر من ذهب مكللة
بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين صنعا الى الجابية متقابلين
لا يرى بعضهم قفا بعض وان التقابل المواجهة وهو يقتضي التدابر ولا شك ان
المواجهة اشرف الاحوال وعن مجاهد رضي الله تعالى عنه تدور بهم الاسرة حيث
ما داروا فيكونون في جميع احوالهم متقابلين تنبيه ليس المراد الاخوة
في النسب بل المراد الاخوة في المودة والمحالفة كما قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم
لبعض عدو الا المتقين وعن الجنيد انه قال ما اخلى الاجتماع مع الاصحاب وما
امر الاجتماع مع الاضداد وقوله تعالى لا يمسهم فيها نصب اى اعياء وتعب
وحمد ومشقة استيناف او حال بعد حال او حال من الضمير في متقابلين وقوله
تعالى وما هم منها بمخرجين المراد به كونه خلودا بالدوام ونفيا بالفناء وكما لا
يلحقهم فناء وفوت لا يلحقهم مكاره وما ذكر تعالى اخوال المتقين واخوال غيرهم اتبع
ذلك بقوله تعالى نبئ اى خبرا يا افضل الخلق عبادي اختارهم اجلالا اني انا
اى وحدي الغفور اى للمؤمنين الرحيم بهم وقرأ نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء
من عبادي وانى والباقون بالسكون وامالة الهمزة في بيانها ليدلها الاخوان في الوقف
فقط وكذا الهمزة من نبيهم ونقل عن حمزة كسرها في الوقف فقط وان عذابي اى وحدي
للعصاة هو العذاب الاليم اى المؤلم تنبيه في هذه الاية لطائف الاولى انه
سبحانه ونعالى اضاف العباد الى نفسه وهذا اشريف عظيم الاشكال انه قال
لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم سبحان الذي اسرى بعبده ليلا الثانية انه تعالى
لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التاكيدات بالفاظ ثلاثة اولها قوله تعالى
اني وثانيها انا وثالثها ادخال حرف الالف واللام عليها قوله تعالى الغفور الرحيم
ولما ذكر العذاب لم يقل اني انا المعذب وما وصف نفسه بذلك بل قال وان عذابي
هو العذاب الاليم الثالثة انه امر رسوله ان يبلغ اليهم هذا المعنى فكانه
اشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة والرابع انه لما قال لبني عبادي
كانه عصاه بانا كل من كان معنا فاعبدوني وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع
كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله
تعالى وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول لما ان الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فامسكت منها عنده تسعة وتسعين
وارسل في خلقه رحمة فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييئس
من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يامن من النار وعن
قتادة قال بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لو يعلم العبد قدر عفو الله
ما تورع من حرام ولو يعلم قدر عذاب الله لجمع نفسه الى قتله وعنه صلى الله عليه وسلم انه مر ببعض
من اصحابه وهم يضحكون فقال اتضحكون وقد ذكر الجنة والنار بين ايديكم فمر الى بني عبادي

اني انا الغفور الرحيم

اني انا الغفور الرحيم ولما بالغ تعالى في تقرير النبوة ثم اردفه بذكر دلايل التوحيد
ثم ذكر تعالى عقبه احوال القيامة ووصف الاشقيا والسعدا اتبع ذلك بقصص
الانبيا عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا في العبادة الموجبة للفوز بدرجات
الاوليا ومحذرا عن المعصية الموجبة لاستحقاق دركات الاشقيا وافتتح من ذلك
بقصة ابراهيم عليه السلام فقال تعالى ونبئهم اي خبر يا سيد المرسلين عبادي
عن ضيف ابراهيم وهم ملايكة اثنا عشر او عشرة او ثلاثة منهم جبريل عليهم السلام
وميكايل والضيف هو المنضم الى غيره لطلب المغذي اجيب بان هولا سموا بهذا
الاسم لانهم على صورة الضيف فهو من دلالة التضمن وقيل ايضا ان من يدخل دار
انسان ويلتجا اليه يسمى ضيفا وان لم ياكل اذ دخلوا عليه اي ابراهيم وكان يكنى ابا الضيفان
كان لقصره اربعة ابواب لكيلا يفوته احد فقالوا سلاما اي نسلم عليك سلاما او
سلمت سلاما قال ابراهيم عليه السلام بلسان الحال او المقال انا اي انا ومن عندي
منكم وجلون اي خايفون كان خوفهم لامتناعهم من الاكل او لانهم دخلوا بغير اذن
وبغير وقت والوجل اضطراب النفس لتوقع ما تكره قالوا لا توجل اي لا تخف انا
رسل ربك نبشرك بغلام اي ولد ذكر في غاية القوة ليس كاولاد الشيوخ ضعيفا وقرا
حمزة بفتح النون وسكون البا وضم الشين مخففة والباقون بضم النون وفتح البا
وكسر الشين مشددة عليم اي ذي علم كثير هو اسحاق عليه السلام كما ذكر في هود وتقدم
ذكر القصة هناك باسرها قال ابراهيم عليه السلام ابشرتموني اي بالولد وقوله تعالى
على ان مسني الكبر حال اي مع مسه اياي فان قيل كيف قال فبم اي فباي شي تبشرون
اي بينوا لي ذلك بيانا شافيا مع انهم قد بينوا ما بشروا به وما فايدة هذا الاستفهام
اجيب بانه اراد ان يعرف انه تعالى هل يعطيه الولد مع بقايه على صفة الشيخوخة
او يقلبه شابا ثم يعطيه الولد والسبب في هذا الاستفهام ان العادة جارية بانه
لا يحصل في حالة الشيخوخة التامة وانما يحصل في حال الشباب او انه استفهام تعجب
ويدل لذلك قولهم قالوا بشرناك بالحق قال بن عباس يريدون بما قضاة الله تعالى
والمعنى ان الله تعالى قضى ان يخرج من صلب ابراهيم اسحاق ويخرج من صلب اسحاق
ذرية مثل ما اخرج من صلب ادم في قولهم فلا تكن اي بسبب تبشيرنا من القانطين
اي الايسين نهي لابراهيم عليه السلام عن القنوط ونهي الانسان عن الشي لا يدل
على كونه فاعلا للمنهي عنه كما في قوله تعالى ولا تطع الكافرين والمنافقين ثم حكى
الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام انه قال ومن يقنط اي ييس هذا الياس
من رحمة ربه اي الذي لم يزل احسانه عليه الا الضالون اي المخطيون طريق الاعتقاد
الصحيح في ربهم من تمام القدرة وانه لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة وقرا ابو عمرو
والكسائي بكسر النون والباقون بفتحها ولما تحقق عليه السلام البشرى وراى اتيانهم
مجتمعين على غير الصفة التي ياتي عليها الملك للوحي وكان هو وغيره من العارفين
بالله عالمين بانه ما ينزل الملك الا بالحق كان ذلك سببا لان يسالهم عن امرهم
ليزول وجله كله فلذلك قال عليه السلام فما بغا السبب خطبكم اي شانكم قال
ابو حيان والخطب لا يكاد يقال الا في الامر الشديد انتهى وقال الرماني انه الامر الجليل

BULAC

أيها المرسلون فانكم ما جيتم الا لامر عظيم يكون فصلا بين هلاك وناج قالوا انا ارسلنا
انما ارسلنا العزيز الحليم الذي انت اعرف الناس فخبر هذا الزمان به الى اهلاك قوم اي
ذوي صفة مجرمين اي كافرين وهم قوم لوط وقوله تعالى الا آل لوط فيه وجهان
احدهما انه استثناء متصل على انه مستثنى من الضمير المستكن في مجرمين بمعنى لجرمهم
كلهم الا آل لوط فانهم لم يجرموا ويكون قوله تعالى انا لمنجوهم اجمعين اي لايمانهم
استئناف اخبار بنجاتهم لكونهم لم يجرموا ويكون الارسال حينئذ شاملا للمجرمين
وآل لوط لاهلاك اولئك وانجاء هؤلاء والثاني انه استثناء منقطع لان آل لوط
لم يندرجوا في المجرمين البتة ويكون قوله تعالى انا لمنجوهم اجمعين جريا مجرى جواب
لكن في ايضاله بآل لوط لان المعنى لكن آل لوط منجوهم وقرأ حمزة والكسائي ننجوهم
النون وتخفيف الجيم والباقون بفتح النون وتشديد الجيم وقوله تعالى الا امرأته
استثناء من آل لوط او من ضميرهم على الاول وعلى الثاني لا يكون الا من ضميرهم لاختلاف
الحكمين اللهم الا ان يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقوله تعالى قدرنا قراءة شعبة بتخفيف
الدال والباقون بالتشديد انها لمن الغابرين اي الباقين في العذاب لكفرها فانتبيه
معنى التقدير في اللغة جعل الشيء على مقدار غيره يقال قدر هذا الشيء لهذا اي اجعله
على مقداره وقدر الله تعالى الاقوات اي جعلها على مقدار الكفاية ويفسر التقدير
بالقضاء فيقال قضاء الله تعالى عليه وقدره عليه اي جعله على مقدار ما يكفي في الخير
والشر وقيل بمعنى قدرنا كتبنا وقال الزجاج دبرنا فان قيل لم اسند الملائكة
فعل التقدير الى انفسهم مع انه لله عز وجل اجيب بانهم انما ذكروا هذه العبارة
لما لهم من القرب والاختصاص من الله تعالى كما نقول خاصة الملك دبرنا كذا وامرنا بكذا
والمدبر والآمر هو الملك لا هم وانما يريدون بهذا الكلام اظهار ما لهم من الاختصاص
بذلك الملك وكذا هنا وانما بشر الملائكة عليهم السلام ابراهيم عليه السلام بالولد
واخبروه بانهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين ذهبوا بعد ذلك الى لوط واله وهذه
هي القصة الثانية المذكورة في هذه السورة قال تعالى فلما جاء آل لوط المرسلون
قال انكم قوم منكرون لانهم دخلوا عليه هجما فاستنكرهم وخاف من دخولهم
لاجل شيء يوصلونه اليه او لاجل انهم كانوا شبانا مرد احسان الوجوه فخاف ان يهجم
قومه عليهم بسببهم فقال لهذه الكلمة وقيل ان النكرة ضد المعرفة فمعنى قوله
عليه السلام انكم قوم منكرون اي لا اعرفكم ولا اعرف لكم من اي الاقوام انتم ولاي
غرض دخلتم علي فعند ذلك قالوا اي الملائكة بل جئناك بما كانوا فيه اي بالعذاب الذي
يمترون اي يشكون في نزوله بهم والجاهل يوصف بالشك وان كان مكذبا من جهة
ما يعرض له منه من حيث انه لا يرجع الى نفسه فيما هو عليه ثم اكدوا ما ذكروه بقولهم
وانا لك بالحق اي باليقين الذي لا يشك فيه ثم اكدوا هذا التاكيد بقولهم وانا
لصادقون اي فيما اخبرناك به فاسر باهلك اي اذهب بهم في الليل بقطع من الليل اي
من الليل وقيل بسواد من آخره قال الشاعر افتحي الباب وانظري في النجوم
كم علينا من قطع ليل بهيم كانه طال عليه الليل فخاطب ضجيعته بذلك او كان يخيط وله الليل للوصال
وقرأ نافع وابن كثير بوصل الهمزة فاسر بعد الفاء من السري والباقون بالقطع وهما

بمعنى

يعني وانتم أدبارهم اي وكن على اثارهم لهلك وسر خلفهم وتطلع على احوالهم ولا
يلتفت منكم احد اي ليلا يرى ما نزل بهم من البلاء وقيل جعل لهم تلك الالتفات علامة
لمن ينجو من قوم لوط وامضوا حيث تؤمرون اي الى المكان الذي امركم الله بالمضي اليه
قال ابن عباس هو الشام وقال الفضل حيث يقول لكم جبريل وذلك ان جبريل امرهم
ان يمضوا الى قرية معينة ما عمل اهلها عمل اهل لوط وقيل الى الاردن وقيل الى مصر
تنبيه حيث ههنا على بابها من كونها ظرف مكان لهم ولابهامها تفتقر الى الصفات
من غير واسطة وقضينا اي اوحينا اليه والماضمن وقضينا معنى الايحاء تعدى بالى ومثله
وقضينا الى بني اسرائيل وقوله تعالى ذلك الامر مبتدأ بتفسيره انه دابر هؤلاء مقطوع
اي مستاصلون عن اخرهم حتى لا يبقى منهم احد وقوله تعالى مصبحين حال من هؤلاء
او من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان ابر هؤلاء في معنى مدبري هؤلاء
اي بانهم استيصالهم في الصباح وجاء اهل المدينة اي مدينة سدوم من عمل ابن قوم لوط
وهي بضم السين وسكون الدال المهملة وضم الجيم وحاء مهملة يستبشرون اي باضياف
لوط طمعا فيهم وليس في الاية دليل على المكان الذي جاءوه الان القصة تدل على انهم
جاءوا دار لوط وقيل ان الملائكة لما كانوا في عاية الحسن استبشر بهم حتى وصل الى
قوم لوط وقيل امرأة لوط اخبرتهم بذلك قال الزجاج والجملة قال القوم قال ابن زيد
جاء لوط ثلاثة من الرجال ما رأينا قط اصبح وجها ولا احسن شكلا منهم فذهبوا الى دار لوط
طلبا منهم لاولبك الرجال والاستبشار اظهار السرور ولما وصلوا اليه قال لهم لوط ان
هؤلاء ضيفي اي وحق على الرجل اكرام ضيفه فلا تفضحون فيهم يقال فضحه يفضحه
اذا اظهر من امره ما يلزمه به العار واذا قصد الضيف بسوء كان ذلك اهانة تصاب
المحل ثم اكد ذلك بقوله واتقوا الله في امرهم ولا تخزون اي ولا تخجلون
فيهم بقصد كما ياهم بفعل الفاحشة من الخزاية وهي الحياء او لا تذلون بتسليمهم
من الخزي وهو الهوان قالوا اي قومه في جواب قوله لهم اولم ننهك عن العالمين
اي عن ان تضيف احدا من العالمين وقيل اولم ننهك ان تدخل الغرباء المدينة
فانا نطلب منهم الفاحشة وقيل اولم ننهك ان تمنع بيننا وبينهم فانهم كانوا
يتعرضون لكل احد وكان لوط عليه السلام ينهاهم عنهم بغدر وسعد ثم قال لهم
هؤلاء بناتي اي نساء القوم لان كل امة اولاد نبيها رحالهم بنوه ونساؤهم بناته فكانه
قال لهم هؤلاء بناتي فانكحوهن وخلوا بني فلا تعرضوا لهم ان كنتم فاعلين اي
ما اقول لكم او قضاء الشهوة والكلام في ذلك قد مر الاستقصاء في سورة هود
وقرا نافع بفتح ياء بناتي والباقون بسكونها قاله الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه
وسلم على لسان الملائكة لعمرك اي وحياتك وما اقسم بحياة احد غيره وذلك يدل
على انه اكرم الخلق على الله تعالى انهم لفي سكرتهم اي شدة غفلتهم التي ازالت عقولهم
يعمهون اي يتحيرون وقيل الخطاب للوط عليه السلام قال له الملائكة
ذلك اي فكيف يتقاعون بقولك ويلتفتون الى نصيحتك تنبيه
لعمرك مبتدأ محذوف الخبر وجوبا واشهد وما في خبره جواب القسم وتقديره
لعمرك قسمي او يميني انهم والعمر والعمر بالفتح والضم واحد وهو البقاء الا انهم خصوا القسم

بالمفتوح لايثار الاخف فيه وذلك ان الخلف كثير الدور على السنتهم بلعمري ولعمرك
فأخذتهم الصيحة اي صيحة هائلة مهلكة وهل هي صيحة جبريل عليه السلام قال
الرازي ليس في الاية دلالة على ذلك فان ثبت بدليل قوي قيل به والا ليس في الاية
دليل الا انها جاءتهم صيحة عظيمة مهلكة وقوله تعالى مشرقين اي داخلين
في الشروق وهو بزوغ الشمس حال من مفعول اخذتهم ثم بين سبحانه وتعالى ما تسبب
عن الصيحة متعقبا لها بقوله تعالى فجعلنا اي بما لنا من العظمة والقدرة عاليها
اي مداينهم سافلها بان رفعها جبريل عليه السلام الى السما واسقطها مقلوبة الى الارض
وأمطرنا عليهم اي اهل المدينة التي قلبت المداين لاجلهم حجارة من سجيل اي طين
طبخ بالنار تنبيه دلت الاية الكريمة على ان الله تعالى عذبهم بثلاثة انواع من العذاب
احدها الصيحة الهائلة المنكرة وثانيها انه جعل عاليها سافلها وثالثها انه امطر
عليهم حجارة من سجيل وتقدمت الاشارة الى ذلك في سورة هود إن في ذلك اي المذكور
من هذه الانواع لآيات اي دلالات على وحدانية الله تعالى للمتوسمين اي للناظرين
المعتبرين جمع متوسم وهو الناظر في السمة حتى يعرف حقيقة الشي بسمته وإنها
اي هذه المداين لسبيل اي طريق قريش الى الشام مقيم اي لم يندرس بل يشاهدون ذلك
ويرون اثره فلا يعتبرون ثم قال سبحانه وتعالى مشيرا الى زيادة الحث على الاعتبار
بالتاكيد إن في ذلك اي هذا الامر العظيم لآية اي علامة عظيمة في الدلالة على وحدانيته
تعالى للمؤمنين اي كل من امن بالله وصدق الانبيا والرسل عرف ان ذلك انما كان
لاجل ان الله تعالى انتقم لانبيائه من اوليك الجهال اما الذين لا يؤمنون بالله
فانهم يحملونه على حوادث العالم ووقايعه ثم ذكر تعالى القصة الثالثة وهي قصة
شعيب عليه السلام بقوله تعالى وإن مخففة من الثقيلة اي وانه كان اي جبلة
وطبعا أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب عليه السلام وقد ذكر الله سبحانه وتعالى
قصتهم في سورة الشعرا والايكة الشجرة المتكاثفة وقيل الشجر الملتف وقال ابن
عباس هي شجر المقل وقال الكلبي الايكة الغيضة اي غيضة شجر بقرب مدين لظالمين
اي عريقين في الظلم بتكذيبهم شعيبا عليه السلام فانتقمنا منهم اي بسبب ذلك
قال المفسرون اشتد الحر فيهم اياما ثم اصطدم عليهم المكان نارا فهلكوا عن اخرهم
وقوله تعالى وإنهما فيه قولان الاول المراد قرى لوط والايكة والقول الثاني الضمير
للايكة ومدين لان شعيبا كان مبعوثا اليهما فلما ذكر الايكة دل بذكرها على مدين
فجا ضميرها لبإمام اي طريق مبين اي واضح والامام اسم ما يؤتم به قال الفرا انما
جعل الطريق اماما لانه يؤم ويتبع وقال ابن قتيبة لان المسافر يؤتم به حتى
يصل الى الموضع الذي يريده ثم ذكر تعالى القصة السابعة وهي قصة صالح عليه
السلام بقوله تعالى ولقد كذب أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح عليه السلام وديارهم
بين المدينة الشريفة والشام المرسلين اي كلهم بتكذيب رسولهم كما كذب هؤلا المرسلين
بتكذيبك لان الرسل يشهد بعضهم لبعض بالصدق فمن كذب واحدا منهم فقد كذب
الجميع وهم في اثباته الرسالة بالمعجزة على حد سوا ثم اتبع ذلك قوله تعالى وآتيناهم

بالضاد

اي

اي بما لنا من العظمة والقدرة على يد رسولهم صالح عليه السلام آياتنا اي ايات الكتاب
المنزل على نبيهم او المعجزات كالناقة وكان فيها ايات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظيم
خلقتها وقرب ودادها وغزارة لبنها وانما اضاف الايات اليهم وان كانت
لنبيهم صالح عليه السلام لانه مرسل من ربهم اليهم بهذه الايات وكانوا عنها اي الايات
معرضين اي تاركينها غير ملتفتين اليها لا يتفكرون فيها ثم اخبر تعالى انهم كانوا مثل
هولاء في الامن من العذاب والغفلة بما يراد بهم مع انهم كانوا اشد منهم فقال
وكانوا ينحتون والنحت قلع جز بعد جز من الجسم على سبيل المسح من الجبال التي
تقدم انا جعلناها رواسي بيوتا امنين عليها من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب
الاعداء لوثاقتها لا كبيوتكم التي لا يقاربها على ادنى درجة وقرا ورش وابو عمرو وحفص
برفع البا والباقون بكسرها فاخذتهم الصيحة اي صيحة العذاب مصبحين اي ما دفع
اي وقت الصبح فما اغنى اي ما دفع عنهم الضر والبلا ما كانوا يكسبون اي يعملون من
بنا البيوت الوثيقة واستكثار الاموال والعدد وعن جابر رضي الله تعالى عنه
مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا لا تدخلوا مساكن الذين
ظلموا انفسهم الا ان تكونوا باكين حذرا ان يصيبكم مثل ما اصاب هولاء ثم زجر رسول
الله صلى الله عليه وسلم راحلته فاسرع حتى خلفها ولما ذكر الله تعالى هذه القصص
تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم فانه اذا سمع ان الامم السالفة كانوا يعاملون
انبيا الله بمثل هذه المعاملات سهل تحمل تلك السفاهة عليه قال تعالى وما خلقنا السموات
اي على ما لها من العلو والسعة والارض على ما لها من المنافع والعجايب وما بينهما
من هولاء المشركين المكذبين وعذابهم ومن المياه والرياح والسحاب المسبب عنه النبات
وغير ذلك الا بالحق اي الا خلقا ملتبسا بالحق فيتفكر فيه من وفقه الله تعالى فيعلم النشاة
الاخرة بهذه النشاة الاول وان الساعة القيمة لاتية لا محالة فيجازي الله تعالى كل
احد بعمله ثم انه تعالى لما صبره على اذى قومه رغبة بعد ذلك في الصفح عن سيئاتهم بقوله
تعالى فاصفح الصفح الجميل اي اعرض عنهم اعراضا لا جزع فيه ولا تعجل بالانتقام
منهم وهذا منسوخ باية السيف قال الرازي وهو بعيد لان المقصود من ذلك ان يظهر
الخلق الحسن والعفو والصفح فكيف يصير منسوخا انتهى والاول جرى عليه البغوي
وجماعة من المفسرين ثم علل تعالى هذا الامر بقوله ان ربك اي المحسن اليك الامر لك بهذا
هو اي وحده الخلاق اي المتكرر منه هذا الفعل العليم اي البالغ العلم بكل المعلومات
فليست اقوالهم وافعالهم الا منه سبحانه وتعالى لانه خالقها وقد علمت انه لا يضيع
مثقال ذرة فاعتمد عليه في اخذ حقك فانه نعم المولى ونعم النصير ولما صبره الله تعالى
على اذى قومه وامره ان يصفح الصفح الجميل اتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله
تعالى افضل خلقه بها بقوله تعالى ولقد اتيناك يا افضل الخلق بما لنا من العظمة
والقدرة كما اتينا صالحا ما تقدم سبعا يكون كل سبع منها كفيلا باغلاق باب
من ابواب النيران السبعة وهي ام القران الجامعة لجميع معاني القران التي امرنا
باعادتها في كل ركعة زيادة في حفظها وتبركا بلفظها وتذكرا لمعانيها تخصيصا لها
عن بقية الذكر الذي تكفلنا بحفظه والسبب في وقوع هذا الاسم على الفاتحة لانها سبع

آيات وهذا ما عليه اكثر المفسرين ويروى انه صلى الله عليه وسلم قرأ الفاتحة وقال هي السبع
المثاني رواه ابو هريرة وقيل المراد سبع سور وهي الطوال واختلف في السابعة فقيل
الانفال وبراءة لانهما في حكم سورة ولذلك لم يفصل بينهما باية البسملة وقيل الحواميم
السبع وقيل صحائف وهي الاسباع وقوله تعالى من المثاني صيغة جمع واحدة مثناة
والمثناة كل شيء يثنى اي يجعل اثنين من قولك ثنيت الشيء ثنيا اي قطعته وضممت اليه
اخر ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيها مثاني لانه يثنى بالفخذ والعضد ومثاني الوادي
معاطفه اما تسمية الفاتحة بالمثاني فلوجوه الاول انها تثنى في كل صلاة بمعنى انها
تقرأ في كل ركعة الثاني ان يثنى بما بعدها فيما يقرأ معها الثالث انها قسمت قسمين اثنين
لما روي انه صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين
عبدي نصفين والحديث مشهور وقد ذكرته وفي وجه تسميتها صلاة عند ذكرها الرابع
انها قسمان اثنان ثناء ودعاء وايضا النصف الاول منها حق الربوبية وهو الثناء
والنصف الثاني حق العبودية وهو الدعاء الخامس ان كلماتها مثناة مثل الرحمن الرحيم
اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم واما السور
او الاسباع فلما وقع فيها من تكرير القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك ولما فيها
من الثناء كانها تثنى على الله تعالى بافعاله العظمى وصفاته الحسنى تنبيه من
في من المثاني اما للبيان او للتبعيض اذا اردت بالسبع الفاتحة او الطوال وللبيان
ان اردت الاسباع قال الزمخشري ويجوز ان يكون كتب الله كلها مثاني لانها تثنى
عليه ولما فيها من المواعظ المكررة ويكون القرآن بعضها وقوله تعالى والقرآن العظيم
اي الجامع لجميع معاني الكتب السماوية المتكفل بخيري الدارين مع زيادات لا تحصى فيه اوجه
احدها انه من عطف بعض الصفات على بعض اي الجامع بين هذين النعتين الثاني انه من
عطف العام على الخاص اذ المراد بالسبع اما الفاتحة او الطوال فكانه ذكر مرتين بجهة
الخصوص ثم باندراجه في العموم الثالث ان الواو مقحمة ولما عرف سبحانه وتعالى رسوله
صلى الله عليه وسلم عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين وهو انه اتاه سبعا من
المثاني والقرآن العظيم نهاه عن الرغبة في الدنيا بقوله تعالى لا تمدن عينيك اي
لا تشغل سرك وخاطرك بالالتفات الى ما متعنا به ازواجا منهم اي اصنافا من الكفار
والزوج في اللغة الصنف وقد اوتيت القرآن العظيم الذي فيه غنى عن كل شيء
قال ابو بكر رضي الله تعالى عنه من اوتي القرآن فرأى ان احدا اوتي من الدنيا افضل
مما اوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا وتأول سفيان بن عيينة هذه الآية
بقول النبي صلى الله عليه وسلم ليس منا من لم يتغن بالقرآن اي لم يستغن وقال ابن
عباس ولا تمدن عينيك اي لا تتمنى ما فضلنا به احدا من متاع الدنيا وقيل وافت من
بعض البلاد سبع قوافل ليهود قريظة وللنضير فيها انواع البز والطيب والجوهر
وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها ولانفقناها
في سبيل الله فقال الله تعالى فقال الله تعالى لقد اعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه
القوافل وقرر الواحدي هذا المعنى فقال انما يكون مادا عينيه الى الشيء اذا ادام النظر
نحوه وادامة النظر الى الشيء يدل على استحسانه وتمنيه وكان النبي صلى الله عليه وسلم

السبع

لا ينظر

لا ينظر الى ما يستحسن من متاع الدنيا روي انه نظر الى نعم بني المصطلق وقد عرست في ابوالها
وابعارها فتقنع بثوبه وقرا هذه الاية وقوله عرست في ابوالها وابعارها هو ان
تجف ابعارها وابوالها على افخاذها اذا تركت من العمل ايام الربيع فتكثر شحومها
ولحومها وهي احسن ما تكون وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من فوقكم فهو اجدر ان لا
تزدروا نعمة الله عليكم وقوله تعالى ولا تحزن عليهم نهي له عن الالتفات اليهم ان لم
يؤمنوا فيخلصوا انفسهم من النار ولما نهاه سبحانه وتعالى عن الالتفات الى اولئك الاغنياء
من الكفار امره بالتواضع لفقراء المسلمين بقوله تعالى واخفض جناحك اي الن جانبك
للمؤمنين اي الفريقين في هذا الوصف واصبر نفسك معهم وارفق بهم ولما امر الله تعالى
رسوله صلى الله عليه وسلم بالزهد في الدنيا والتواضع للمؤمنين امره بتبليغ ما ارسل
به اليهم بقوله تعالى وقل اني انا النذير من عذاب الله ان ينزل عليكم ان لم تؤمنوا وقرا
نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون المبين اي البين الانذار وقوله
تعالى كما انزلنا اي العذاب على المقتسمين قال ابن عباس وهم اليهود والنصارى سموا بذلك
لانهم امنوا ببعض القران وكفروا ببعضه فما وافق كتبهم امنوا به وما خالف كتبهم كفروا
به وقال عكرمة انهم اقتسموا سور القران فقال واخر هذه السورة لي وقال اخر هذه
السورة لي وانما فعلوا ذلك استهزاء به وقال مجاهد انهم اقتسموا كتبهم فامن بعضهم
ببعضها وكفر بعضهم ببعضها وقال قتادة اراد بالمقتسمين كفار قريش قال سموا بذلك
لان اقوالهم تقسمت في القران فقال بعضهم انه سحر وزعم بعضهم انه كهانة وزعم
بعضهم انه اساطير الاولين وقال ابن السائب سموا بالمقتسمين لانهم اقتسموا طرق مكة
وذلك ان الوليد بن المغيرة بعث رهطا من اهل مكة قيل ستة عشر وقيل اربعين وقال
انطلقوا فتفرقوا على طرق مكة حيث يمر بكم اهل الموسم فاذا سالوكم عن محمد فليقل
بعضكم انه مجنون وليقل بعضكم انه كاهن وليقل بعضكم انه ساحر وليقل بعضكم انه شاعر
فذهبوا وقعدوا على طرق مكة يقولون ذلك لمن يمر بهم من حجاج العرب وقعد الوليد
ابن المغيرة على باب المسجد الحرام نصبوه حكما فاذا جاؤا سالوا عما قال اولئك فيقول
صدقوا فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقوله تعالى الذين جعلوا القران عضين
نعت للمقتسمين وقال ابن عباس هم اليهود والنصارى جزؤا القران اجزاء فامنوا بما
وافق التوراة وكفروا بالباقي وقال مجاهد قسموا كتاب الله ففرقوه وبددوه وقيل كانوا
يستهزؤن به فيقول بعضهم سورة البقرة لي ويقول بعضهم سورة ال عمران لي وقيل
اقتسموا القران فقال بعضهم سحر وقال بعضهم شعر وقال بعضهم كذب وقال بعضهم
اساطير الاولين وقيل هم اهل الكتاب امنوا ببعض كتبهم وكفروا ببعض على ان القران
ما يقرؤنه من كتبهم فيكون ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه
بالقران وتكذيبهم وقولهم سحر وشعر واساطير بان غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب
نحو فعلهم تنبيه عضين جمع عضة وهي الفرقة والعضين الفرق وتقدم معنى
جعلهم القران كذلك وقيل العضة السحر بلغة قريش يقولون هو عاضه وهي عاضهة
وفي الحديث لعن صلى الله عليه وسلم العاضهة والمستعضهة اي الساحرة والمستحرة

وقيل هو من العضه وهو الكذب والبهتان يقال عضه عضها وعضيهة اي رماه بالبهتان
وقيل جمع عضو ماخوذ من قولهم عضيت الشي اعضه اذا فرقته وجعلته اجزا وذلك
انهم جعلوا القران اعضا مفرقة فقال بعضهم سحر وقال بعضهم اساطير الاولين ثم اقسم
سبحانه وتعالى بنفسه على انه يسال هولا المقتسمين الذين جعلوا القران عضين بقوله
تعالى فوربك لنسالنهم اجمعين عما كانوا يعملون فيكون الضمير عايدا على المقتسمين
لانه الاقرب ويحتمل ان يعود الى جميع المكلفين لان ذكرهم تقدم في قوله تعالى وقل اني
انا النذير المبين اي لجميع الخلق قال جماعة من المفسرين يسالون عن لا اله الا الله وقال
ابو العالية عما كانوا يعبدون وما اذا اجابوا المرسلين فان قيل كيف الجمع بين قوله
تعالى فوربك لنسالنهم اجمعين وبين قوله تعالى فيومئذ لا يسال عن ذنبه انس
ولا جان اجيب بان النفي يصرف الى بعض الاوقات والاثبات الى وقت اخر لان يوم
القيمة يوم طويل وفيه مواقف يسالون في بعضها ولا يسالون في بعض اخر ونظيره
قوله تعالى هذا يوم لا ينطقون وقال في اية اخرى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون
ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فاصدع اي اجهر بعلو وشدة فارقا بين الحق
والباطل وقرا حمزة والكسائي باشمام الصاد الساكنة قبل الدال والباقون بالصاد
الخالصة بما اي بسبب ما تؤمر امر صلى الله عليه وسلم في هذه الاية باظهار الدعوة روي عن
عبد الله بن عبيدة قال كان مستخفيا حتى نزلت هذه الاية فخرج هو واصحابه
واعرض اي اعراض من لا يبالي عن المشركين بالصفح الجميل عن الاذى والاجتهاد في الدعا
ولا تلتفت الى لومهم اياك على اظهار الدعوة قال بعض المفسرين كالبغوي وهذا منسوخ باية
القتال قال الرازي وهو ضعيف لان معنى هذا الاعراض ترك المبالاة بهم فلا يكون
منسوخا ولما كان هذا الصدع في غاية الشدة عليه صلى الله عليه وسلم لكثرة ما يلقى
عليه من الاذى خفف عنه سبحانه وتعالى بقوله معللا له انا اي بما لنا من العظمة
والقدرة كفيناك المستهزئين اي شر الذين هم عريقون في الاستهزا بك وهم خمسة نفر
من روسا قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وايل وعدي بن قيس والاسود بن عبد
المطلب والاسود بن عبد يغوث ثم وصف سبحانه وتعالى الذين يجعلون مع الله الها
اخر وقيل ليس بصفة بل مبتدا ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفا في خبره وهو فسوف
يعلمون اي عاقبة امرهم في الدارين ولما ذكر سبحانه وتعالى ان قومه يسفهون عليه
ولا سيما اوليك المقتسمون قال له تعالى ولقد نعلم اي تحقق وقوع علمنا انك على ما لك
من الحلم وسعة البطن يضيق صدرك اي يوجد ضيقه ويتجدد بما يقولون اي من
من الاستهزا والتكذيب بك وبالقران لان الجبلة البشرية والمزاج الانساني يقتضي
ذلك فعند هذا قال تعالى فسبح ملتبسا بحمد ربك اي نزهه عن صفات النقص
وقال الضحاك قل سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس فصل بامر ربك وكن من الساجدين
اي المصلين روي انه صلى الله عليه وسلم كان اذا حزبه امر فزع الى الصلاة وقد مر معناه
في سورة البقرة تنبيه اختلف الناس كيف صار الاقبال على هذه الطاعات سببا لزوال
ضيق القلب والحزن فقال العارفون المحققون اذا اشتغل الانسان بهذه الانواع
من العبادات يتنور باطنه ويشرق قلبه ويتفسح وينشرح صدره فعند ذلك يعرف

هو لاي بقوله

فذر

قدر الدنيا وحقارتها فلا يلتفت اليها وقال بعض الحكما اذا نزل بالانسان بعض المكاره ففزع
الى الطاعات فكانه يقول يا رب يجب علي عبادتك سوا اعطيتني الخيرات او القيتني في
المكروهات فانا عبدك وبين يديك فافعل بي ما تشا واعبد ربك حتى ياتيك اليقين
قال بن عباس يريد الموت وسمي الموت يقينا لانه امر متيقن وهذا مثل قوله
تعالى في سورة مريم واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وروى البغوي
بسنده عن جبير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اوحى الله الي ان
اجمع المال واكن من التاجرين ولكن اوحى الي ان اسبح بحمد ربك وكن
من الساجدين واعبد ربك حتى ياتيك اليقين فان قيل اي فايدة لهذا التوقيت
مع ان كل احد يعلم انه اذا مات سقطت عنه العبادات اجيب بان المراد
منه واعبد ربك في جميع زمان حياتك فلا تخل لحظة من لحظات الحياة من هذه
العبادات وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى
مصعب بن عمير مقبلا وعليه اهاب كبش قد تنطق به فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم انظروا الى هذا الذي نور الله قلبه لقد رايته بين ابويه يغذوانه
باطيب الطعام والشراب ولقد رايت عليه حلة شراها او قال شريت له بمائتي درهم
فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري
من انه صلى الله عليه وسلم قال من قرا سورة الحجر كان له من الاجر عشر حسنات
بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم حديث موضوع
سورة النحل مكية الا قوله تعالى وان عاقبتم الى اخر السورة وحكى الاصم عن بعضهم
انها كلها مدنية وقال اخرون من اولها الى قوله تعالى كن فيكون مدني وما سواه
مكي عن قتادة بالعكس ويسمى سورة النعم والمقصود من هذه السورة الدلالة
على انه تعالى تام القدرة والعلم فاعل بالاختيار منزه عن شوايب النقص وادل
ما فيها على هذا المعنى امر النحل لما ذكر من شانها في دقة الفهم في ترتيب بيوتها
ورعيها وساير امرها من اختلاف الوان ما يخرج منها من اغسالها وجعله شفا
مع اكلها من الثمار النافعة والضارة وغير ذلك من الامور ووسمها بالنعم واضح
وهي مائة وثمانية وعشرون اية والفان وثمانماية واربعون كلمة وعدد حروفها
سبعة الاف وسبعماية وسبعة احرف بسم الله اي المحيط بدايرة الكمال فما
شا فعل الرحمن اي الذي عمت نعمته جليل خلقه وحقيره صغيره وكبيره الرحيم
اي الذي خص من شا بنعمته النجاة مما يسخط بما يراه وقوله تعالى اتى امر الله
فيه وجهان احدهما انه ماض لفظا مستقبل معنى اذ المراد به يوم القيامة
وانما ابرز به في صورة ما وقع وانقضى تحقيقا له ولصدق المخبر به والثاني انه
على بابه والمراد مقدماته واوايله وهو نصر رسوله صلى الله عليه وسلم اي جا
امر الله ودنا وقرب فانه يقال في الكلام المعتاد انه قد اتى ووقع اجرا لما
يجب وقوعه مجرى الواقع يقال لمن طلب الاعانة وقرب حصولها جاك الغوث
اي اتى امر الله وعدا فلا تستعجلوه وقوعا قبل مجيئه فانه واقع لا محالة
روي انه صلى الله عليه وسلم قال بعثت انا والساعة كهاتين واشار باصبعيه

سورة النحل مكية

السبابة والوسطى قال ابن عباس كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشراط الساعة
ولما مر جبريل باهل السموات مبعوثا الى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا الله اكبر قامت
الساعة وروي انه لما نزل اقتربت الساعة قال الكفار بعضهم لبعض ان هذا اي محمدا
صلى الله عليه وسلم يزعم ان القيمة قد اقتربت فامسكوا عن بعض ما تعملون
حتى ننظر ما هو كاين فلما تاخرت قالوا ما نرى شيا فنزل اقترب للناس حسابهم
فاشفقوا وانتظروا فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيا مما تخوفنا
به فنزل اتى امر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤسهم
وظنوا انها قد اتت حقيقة فنزل فلا تستعجلوه فاطمانوا فكان الكفار
قالوا سلمنا لك يا محمد ما تقول الا انا نعبد هذا الاصنام لتشفع لنا عند الله
فتخلصنا من هذا العذاب المحكوم به فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى سبحانه
تنزيها وتعالى عما يشركون اي تبرا سبحانه وتعالى بالاوصاف الحميدة عن ان يكون له
شريك في ملكه وقرا حمزة والكسائي اتى بالامالة وقرا ورش بالفتح وبين اللفظين والباقون
بالفتح وقرا حمزة والكسائي عما يشركون في الموضعين بالتا على وفق قوله تعالى فلا تستعجلوه
والباقون بالياء على الغيبة على تلوين الخطاب او على ان الخطاب للمومنين اولهم
ولغيرهم ولما اجاب سبحانه وتعالى الكفار عن شبهتهم بقوله تعالى تنزيها لنفسه
عما يشركون فكان الكفار قالوا هب ان الله تعالى قضى على بعض عبيده بالشر وعلى
اخرين بالخير ولكن كيف يمكنك ان تعرف هذه الامور التي لا يعلمها الا الله تعالى وكيف
صرت بحيث تعرف هذه الامور التي لا يعرفها الا الله تعالى وكيف صرت بحيث
تعرف اسرار الله تعالى واحكامه في ملكه وملكوته فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى
ينزل الملائكة قال ابن عباس يريد بالملائكة جبريل وحده قال الواحدي يسمى الواحد
بالجمع اذا كان ذلك الواحد رئيسا وقرا ابن كثير وابو عمرو بتخفيف الزاي والباقون بتشديدها
والمراد بالروح الوحي او القران فان القلوب تحيى به من موت الجهالات وقوله تعالى
من امره على من يشاء من عباده وهم الانبياء ان انذروا اي خوفوا الكافرين بالعذاب
واعلموهم انه اي الشان لا اله الا انا اي لا اله غيري وقوله تعالى فاتقون اي خافوني
رجوع الى مخاطبتهم بما هو المقصود تنبيه في قوله تعالى ان في ان انذروا ثلاثة اوجه
احدها انها المفسرة لان الوحي فيه ضرب من القول والانزال بالروح عبارة عن الوحي
قال تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا الثاني انها المخففة من الثقيلة
واسمها ضمير الشان محذوف الثالث انها المصدرية التي من شانها نصب المضارع
ووصلت بالامر كقولهم كتبت اليه بان قم والاية تدل على ان نزول الوحي بواسطة
الملائكة وان النبوة عطاية ولما وحد سبحانه وتعالى نفسه ذكر الايات الدالة على وحدانيته
من حيث انها تدل على انه تعالى هو الموجد لاصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة
بقوله تعالى خلق السموات اي التي هي السقف المظلل والارض اي التي هي البساط المقل
بالحق اي اوجدهما على مقدار وشكل واوضاع وصفات مختلفة قدرها وخصصها
بحكمته تعالى اي تعاليا فات الوصف عما يشركون به من الاصنام ولما كان خلق السموات الارض
غيبا لتقدمه وكان خلق الانسان على هذه الصفة شهادة فتكون اقوى في الدلالة على وحدانيته

تعالى

تعالى قال تعالى خلق الانسان اى هذا النوع من نطفة اى ادم عليه السلام من مطلق الماء ومن يتفرع
منه بتقدير زوجه حواء من ماء مهين بالدفق الى ان صيره قويا شديدا فاذا هو خصيم
اى شديد الخصومة مبين اى بين نزل ان ابى بن خلف الجمحى وكان ينكر البعث جاء الى
النبى صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال انزعم يا محمد ان الله تعالى يحيى هذا العظم
بعد ما قد رم فنزلت هذه الاية وترك فيها اضافة الى نفسه تعالى قال من يحيى العظام وهى
رميم قاله ابن الحارث فى تفسيره والصحيح ان الاية عامة فى كل ما يتنع منه الخصومة
فى الدنيا ويوم القيامة وحملها على العموم اولى ولما كان اشرف الاجسام الموجودة
فى العالم السفلى بعد الانسان سائر الحيوان واشرفها الانعام ذكرها بقوله تعالى
والانعام اى الارواح الثمانية الضان والمعز والابل والبقر وتنصب بفعل يفسره
خلقها قال الواحدى ثم الكلام عند قوله والانعام خلقها ثم ابتدا فقال لكم فيها
دفء اى ما يدفا به عامة ولكم فيها جمال والتقدير لكم فيها دفء ولكم فيها جمال والملاحظ
تعالى الانعام ذكر لها انواعا من المنافع الاول قوله تعالى لكم فيها دفء
النوع الثانى قوله تعالى ومنافع اى ولكم فيها منافع من نسلها ودرها وركوبها
والحمل عليها وسائر ما ينتفع به من الانعام وانما عبر تعالى عن ذلك بلفظ المنفعة
وهو اللفظ الدال على الوصف الاعم لان الدر والنسل قد ينتفع به فى الاكل
وقد ينتفع به بالبيع بالنقود وقد لا ينتفع به بان يبدل بالثياب وسائر
الضروريات فعبر عن جملة هذه الاقسام بلفظ المنافع لتشاول الكل النوع الثالث
قوله تعالى ومنها تاكلون فان قيل تقديم الظرف يفيد الحصر لان تقديم
الظرف يفيد الاختصاص وقد يوكل من غيرها اجيب بان الاكل من هذه
الانعام هو الذى يعتاده الناس فى معايشهم واما الاكل من غيرها كالدجاج والبط
والاوز وصيد البر والبحر فليس بمعتاد له فى الاغلب واكله يجرى مجرى التفكه به
ثم خرج ومنها تاكلون مخرج الغالب فى الاكل من هذه الانعام فان قيل منفعة
الاكل مقدمة على منفعة اللباس فلم قدمت منفعة اللباس عليه اجيب
بان منفعة اللباس اكثر من منفعة الاكل فلهذا قدمت على الاكل ولكم فيها جمال
اى زينة حين تريحون اى ترد ونها من مراعيها الى مراحها بالعشى وحين تسرحون
اى تخرجونها بالغداة الى المرعى فان الاغنية تتزين بهاذين الوقتين وتجمل
اهلها فى اعين الناظرين اليها فان قيل لم قدمت الاراحة على التسريح اجيب
بان الجمال فى الاراحة اظهر اذا قبلت ملأ البطون حافلة الضروع ثم اوقف
الى الغد بالقرب حاضرة لاهلها فيخرج اليها بها على ما الف سرحها الى المرعى فانها تخرج
جائعة البطون ضامرة الضروع ثم ماخذ فى التعرق والانتشار للرعى فى البرية
فليس فى التسريح جمال كما فى الاراحة النوع الرابع وتحمل اثقالكم الى بلد اى غير بلدكم
اى يردبها السفر اليه لم تكونوا بالغيه اى غير واصلين اليه على غير الابل الا بشق
الانفس اى الا بكلفة ومشقة والشق بكسر الشين نصف الشئ اى لم تكونوا بالغيه
الا بتنقيص قوة النفس وذهاب بعضها وقال ابن عباس ينزل من مكة الى اليمن
والى الشام والى مصر قال الواحدى والمراد كل بلد لو تكلفتم تبلغونه على غير

ابل يشق عليكم وخص بن عباس هذه البلاد لان متاجر اهل مكة كانت الى هذه البلاد
فان قيل المراد من قوله تعالى والانعام خلقها الابل فقط بدليل انه وصفها في اخر الاية
بقوله تعالى وتحمل اثقالكم الى بلد وهذا الوصف لا يليق الا بالابل اجيب
بان المقصود من هذه الايات تعديد منافع الانعام فبعض تلك المنافع
حاصلة في الكل وبعضها مختص بالبعض والدليل عليه ان قوله ولكم فيها جمال
حاصل في الغنم والغنم مثل حصوله في الابل تنبيه احتج منكرو الكرامات
الاولياء بهذه الاية فانها تدل على ان الانسان لا يمكنه الانتقال من بلد الى بلد
الا بشق الانفس وحمل الاثقال على الابل ومثبتو الكرامات يقولون ان
الاولياء قد ينتقلون من بلد الى بلد اخر بعيد في ليلة واحدة من غير تعب
ونحمل مشقة فكان ذلك على خلاف هذه الاية فتكون باطلا واذا ابطل القول
بالكرامات فلا هذه الصورة بطل القول بها وسائر الصور اذا قابل بالفرق
واجاب المثبتون بانا نخصص عموم هذه الاية بالادلة الدالة على وقوع الكرامات
انه بكم اي الموجد لكم والمحسن اليكم لرؤف اي بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه بما
يرضيه وقرا ابو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي بغير الهمز واليا قون بالمد
رحيم اي بليغ الرحمة بسببه وبغير بسبب وقوله تعالى والخيل اي خلقها
وهو اسم جنس لا واحد له من لفظه كالابل والرهط فالبغال اي المتولدة بينها
وبين الحمر والخيل اي للناقة عطف على الانعام اي وخلق هذه الحيوانات
لتركبوها اي لاجل ان تركبوها وفي نصب قوله تعالى وزينة اوجه احدها
انه مفعول بن اجله وانما وصل الفعل الى الاول باللام في قوله تعالى لتركبوها
والى هذا ينفصم لاختلال الشرط في الاول وهو عدم اتحاد الفاعل فان الخالق
هو الله والراكب المخاطبون بخلاف الثاني الثاني انها منصوبة على الحال وصاحب
الحال اما مفعول خلقها واما مفعول لتركبوها فهو مقدر اقيم مقام الحال
الثالث ان ينتصب بتقدير فعل قدره الزمخشري بقوله وجعلها زينة
وقدره بن عطية وغيره بقولهم وخلقها زينة الرابع انها مصدر لفعل محذوف
اي وتتزينون بها زينة تنبيه احتج القائلون وهم بن عباس والحاكم
وابو حنيفة ومالك بتحريم لحوم الخيل بهذه الاية قالوا منفعة الاكل اعظم من منفعة
الركوب فلو كان اكل لحم الخيل جائزا لكان هذا المعنى اولى بالذكر وحيث لم يذكره
تعالى علمنا انه يحرم اكله لان الله تعالى خص الانعام بالاكل حيث قال تعالى ومنها
تاكلون وخص هذه بالركوب فقال لتركبوها فعلمنا انها مخلوقة للركوب لا للاكل
واحتج القائلون باباحة اكل لحم الخيل وهم سعيد بن جبير وعطاء وشريح والحسن والشافعي
بما روي عن اسماء بنت ابي بكر الصديق رضي الله تعالى عنها قالت نحرنا على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم فرسا فاكلناه وفي رواية قالت نحرنا على عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم فرسا ونحن بالمدينة وبما روي عن جابر رضي الله تعالى عنه ان رسول
الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الاهلية واذن في لحوم الخيل وفي رواية اكلنا في زمن
خيبر الخيل وحمر الوحش ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمار الاهلي هذه رواية البخاري

وفي رواية

وفي رواية ابي داود قال ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير وكنا قد اصابنا مخمصة
فنهانا النبي صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل واجابوا عن هذه
الاية بان ذكر الركوب والزينة لا يدل على ان منفعتها مختصة بذلك وانما خص هاتان
المنفعتان بالذكر لانهما معظم المقصود ولهذا سكت عن حمل الاثقال على الخيل مع قوله
تعالى في الانعام وتحمل اثقالكم ولم يلزم من ذلك تحريم حمل الاثقال على الخيل وقال الواحدي
دلت هذه الاية على تحريم اكل هذا الحيوان فكان تحريم اكلها معلوما في مكة لاجل ان هذه
السورة مكية ولو كان الامر كذلك لكان قول عامة المفسرين والمحدثين ان لحوم الحمر الاهلية
حرمت عام خيبر اي وذلك في المدينة باطلا لان التحريم لما كان حاصلا قبل هذا اليوم
لم يكن لتخصيص هذا التحريم بهذه السنة فائدة قال الرازي وهذا جواب حسن متين
وقال ابن الخازن والدليل الصحيح المعتمد عليه في اباحة لحوم الخيل ان السنة مبينة للكتاب
ولما كان نص الاية يقتضي ان الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة كان الاكل
مسكوتا عنه دار الامر فيه على الاباحة والتحريم فوردت السنة باباحة لحوم الخيل وتحريم لحوم
البغال والحمير اخذنا به جمعا بين النصين ولما ذكر سبحانه وتعالى هذه الانواع من الحيوان
ذكر باقيها على سبيل الاجمال بقوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون وذلك لان انواعها واصنافها
واقسامها كثيرة خارجة عن الحد والاحصاء ولو خاض الانسان في شرح عجائب احوالها لكان
المذكور بعد كتبه المجلدات الكثيرة كالقطرة في البحر فكان احسن الاحوال ذكرها على سبيل
الاجمال كما ذكر الله تعالى في هذه الاية وروى عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس انه
قال ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والارضين السبع والبحار
السبعة يدخل فيه جبريل كل سحر ويغتسل فيزداد نورا الى نوره وجمالا الى جماله
ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل نفضة تقع من ريشه كذا وكذا الف ملك يدخل كل يوم
منهم سبعون الفا البيت المعمور وفي الكعبة ايضا سبعون الفا لا يعودون اليه الى ان
تقوم الساعة سبحان من له هذا الملك العظيم قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وفسر
قتادة الاية بالسوس في النبات والدود في الفواكه وفسرها بعضهم بما اعد الله تعالى لاهل
الجنة في الجنة بما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولما شرح الله تعالى
دلايل التوحيد قال تعالى وعلى الله اي الذي له الاحاطة بكل شيء قصد السبيل اي بيان
الطريق المستقيم اي انما ذكرت هذه الدلايل وشرحتها ازاحة للعذر وازالة للعلة ليهلك
من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة والمراد بالسبيل الجنس ولذلك اضاف اليها القصد
وقال ومنها اي السبيل جائر اي حايد عن الاستقامة فان قيل هذه الاية تدل على ان
الله تعالى يجب عليه الارشاد والهداية الى الدين وازاحة العلل والاعذار كما قال به المعتزلة
لانه تعالى قال وعلى الله قصد السبيل وكلمة على للوجوب قال تعالى ولله على الناس حج
البيت اجيب بان المراد على الله بحسب الفضل والكرم ان يبين الدين الحق والمذهب
الصحيح فان قيل لم غير اسلوب الكلام دون وعليه جائر حيث قال في الاول
وعلى الله قصد السبيل وفي الثاني ومنها جائر دون وعليه جائر اجيب بان المقصود
بيان سبيله وتقسيم السبيل الى القصد والجائر انما جاء بالعرض ثم قال تعالى ولو شاء
هدايتكم لهداكم الى قصد السبيل اجمعين فتهتدون اليه باختيار منكم قال الرازي

وتحريم

الاعذار

وهذا يدل على انه تعالى ما شاهد اية الكفار وما اراد منهم الايمان لان كلمة لو تفيد انتفا
الشي لانتفا غيره ولما ذكر تعالى نعمه على عباده بخلق الحيوانات لاجل الانتفاع والزينة عقبه
بذكر انزال المطر فقال لانه من اعظم النعم على عباده فقال هو اي لا غيره مما تدعى فيه الالهية
الذي انزل اي بقدرته الباهرة من السما اما من نفسها او من جهتها او من السحاب كما
هو مشاهد ما اي واحدا يحسبونه بالذوق والبصر لكم منه اي من ذلك الما شراب
اي تشربونه وقد بين تعالى في اية اخرى ان هذه النعمة جليلة فقال وجعلنا من الما كل شي
حي فان قيل ظاهر هذا ان شرابنا ليس الا من المطر اجيب بانه تعالى لم ينف ان يشرب من غيره
وبتقدير الحصر لا يمتنع ان يكون الما العذب تحت الارض من جملة ما المطر يسكن هناك بدليل
قوله تعالى في سورة المومنين وانزلنا من السما ما بقدر فاسكناه في الارض ومنه اي
من الما شجر اي نبت بسببه والشجر هنا كل نبات من الارض حتى الكلا وفي الحديث
لا تاكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعني الكلا فان قيل قال المفسرون في قوله تعالى والنجم
والشجر يسجدان والمراد من النجم ما ينجم من الارض مما ليس له ساق ومن الشجر ما له ساق
اجيب بان عطف الجنس على النوع وبالضد مشهور وايضا فلفظ الشجر يشعر بالاختلاط
يقال تشاجر القوم اذا اختلط اصوات بعضهم ببعض وتشاجرت الرياح اذا اختلطت
وقال تعالى حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومعنى الاختلاط حاصل في العشب والكلا فوجب
اطلاق لفظ الشجر عليه ويصح ان يكون المراد بالشجر هنا ما له ساق لان الابل تقدر على رعي
ورق الاشجار الكبار وحينئذ فاطلاق الشجر على الكلا مجاز وفيه اي الشجر تسيمون اي ترعون
مواشيكم يقال اسمت الماشية اذا خليتها ترعى وسامت هي اذا رعت حيث شاءت
قال الزجاج اخذ ذلك من السومة وهي العلامة لانها تؤثر في الارض برعيها علامات
وقال غيره لانها تعلم الارسال في المرعى ولما ذكر تعالى الحيوانات تفصيلا واجمالا
ذكر في الثمار تفصيلا واجمالا بقوله تعالى ينبت اي الله لكم به اي بذلك الما الزرع
والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات فبدا بذكر الزرع وهو الحب
الذي يقتات به كالحنطة والشعير والارز لان به قوام البدن وثنى بذكر الزيتون
لما فيه من الادم والدهن وبارك فيه وثلث بذكر النخيل لان ثمرها غذا وفاكهة وختم
بذكر الاعناب لانه شبيه النخل في المنفعة من التفكه والاغذية ثم ذكر تعالى ساير الثمار
اجمالا لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده لان الحبة الواحدة تقع
في الطين فاذا مضى عليها مقدار معين من الوقت تغذى في داخل تلك الحبة اجزا
من رطوبة الارض ونداوتها فتنفتح الحبة فينشق اعلاها واسفلها فيخرج من اعلى
تلك الحبة شجرة صاعدة من داخل الارض الى الهوا ومن اسفلها شجرة اخرى غايصة
في قعر الارض وهذه الغايصة هي المسماة بعروق الشجرة ثم ان تلك الشجرة لا تزال
تزداد وتنمو وتقوى ثم يخرج منها الاوراق والازهار والاكمام والثمار ثم ان تلك
الثمرة تشتمل على اجسام مختلفة الطبايع مثل العنب فان قشره وعجمه باردان
يابسان كثيفان ولحمه وماه حار رطب لطيف والى ذلك الاشارة بقوله تعالى ان في ذلك
لاية بينة على ان فاعل ذلك تام القدرة يقدر على الاعادة وانه مختار يفعل
ذلك في الوقت الذي يريده وانما تحصل معرفة ذلك لقوم يتفكرون فيما ذكر من دلايل

قدرته

قدرته ووحدانيته فيؤمنون ثم ذكر سبحانه وتعالى اشياء تدل على انه الفاعل المختار
بقوله تعالى وسخر لكم اي ايها الناس لاصلاح احوالكم الليل للسكن وانتهاء للمعاش
ثم ذكر اية النهار فقال والشمس اي لمنافع اجتلابها ثم اية الليل والقمر لامور علقها به
والنجوم اي الايات نصبها لهاتين الآيتين على التغاير فالعطف بقوله تعالى مسخرات اي بانواع التغاير
لما خلقها له أو صناع دبرها بامره اي بارادته سببا لصلاحكم وصلاح ما به قوامكم دلالة
على وحدانيته تعالى وفعله بالاختيار ولو شاء تعالى لاقام اشياء غيرها او اغنى عن الاسباب
وقرا ابن عامر برفع الاربع وهي الشمس والقمر والنجوم ومسخرات على الابتداء والخبر والباقون
حفص في الاشياء الاخر سن وبنا والنجوم مسخرات لاغير والباقون بالخفض اي بنصبان
بالخفض عطفا على ما قبله في الثلاث الاول وفي الرابع وهو مسخرات على الحال والمذكر
سبحانه وتعالى هذه الاشياء وجعلها مسخرات لمنافع عباده ختم ذلك بقوله تعالى ان في ذلك
اي التسخير العظيم لايات اي لايات كثيرة متعددة عظيمة لقوم يعقلون اي يتدبرون
فيعلمون ان جميع الخلق تحت قدرته وتسخيره لما اراده منهم وقوله تعالى وما ذرأ
اي خلق لكم في الارض عطف على الليل اي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات وقيل انه
او موضع نصب بفعل محذوف اي وخلق لكم هكذا افاده ابو البقاء وكانه استبعد تسلط سخر
على ذلك فقدر فعلا لايقا وقوله تعالى مختلفا حال منه وقوله تعالى الوانه اي في الخلقة
والهيئة والكيفية ما عمل به ان في ذلك لاية لقوم يذكرون اي يتعظون بتنبيه
ختم تعالى الاية الاولى بالتفكر لان فيها يحتاج التامل ونظر وختم الثانية بالعقل
لان ما ذكر فيها تقدم علمه وختم الثالثة بالتذكر لانه نتيجة ما تقدم وجمع الايات
في الثانية دون الاولى والثالثة لان ما يتبين باكثر ولذلك ذكر معها العقل ولما استدل
سبحانه وتعالى على اثبات الاله اولا باجرام السموات والارض وثانيا ببدن الانسان
وثالثا باعجاب خلقة الحيوان ورابعا باعجاب السمات ذكر خامسا عجايب العناصر
وبدا بالاستدلال بعنصر الماء فقوله تعالى وهو اي لاغير وقرا قالون وابو عمرو
والكسائي يسكنون الهاء والباقون بضمها الذي سخر البحر اي ذلله وهيأه لعيش ما فيه
من الحيوان وتكون الجواهر وغير ذلك فقال علما الهيئة ثلاثة ارباع كرة الارض
غايصة في الماء فذلك هو البحر المحيط وجعل ربع هذا الربع الساكون شعبة بحر قال
تعالى والبحر يمده من بعده سبعة ابحر والبحر الذي سخره الله تعالى للناس هو هذه البحار
فمن تسخيرها للخلق ما مر ومنه جعلها بحيث يتمكن الناس من الانتفاع بها
بالركوب وغوص واستخراج ما فيه ذلك فمنافع البحار كثيرة وذكر سبحانه وتعالى منها هنا ثلاثة
منافع الاول قوله تعالى لتاكلوا منه اي بالاصطياد وغيره من لحوم الاسماك لحما طريا
لا يخبث نتنه منه ولا لين وهو ارطب اللحوم فيسرع اليه الفساد فيبادر الى اكله عذبا
وفي ذلك دلالة على كمال قدرته تعالى وذلك ان السمك لو كان كلحم ما نحاف به من قدرة
الله تعالى ما يعرف بالطبع لانه لما خرج من البحر المالح اللحم الطري غاية الغذوبة
علم انه بخلق الله وقدرته لا بحسب الطبع وعلم بذلك ان الله تعالى قادر على اخراج الصيد
من الصيد المنفعة الثانية فقوله تعالى وتستخرجوا منه اي بعد كم في الغوص وما
يتبعه حلية اي اللولو والمرجان كما قال تعالى يخرج منهما اللولو والمرجان تلبسونها

اي نساؤكم ونصف بعضكم فكان اللابس انتم والآنية نساؤكم فالحلي انما هو لاجل الرجال فكان حق ذلك
زينة لهم المنفعة الثالثة قوله تعالى وترى الفلك اي السفن مواخر اي تجري الماء تشق بجريها
فيه مقبلة ومدبرة وذلك انك ترى سفينتين احديهما تقبل والاخرى تدبر بريح واحدة
وقال مجاهد تخر الشق يعني انها اذا جرت يسمع لها صوت وقال الحسن مواخر يعني يملؤه
منا وغاية ليبتغوا عطف على لتاكلوا وما بينهما اعتراض وقيل عطف على علة محذوف تقديره
لتنتفعوا بذلك وليبتغوا من فضله اي من سعة رزقه بركوبها للتجارة وللوصول الى البلد
الشاسعة ولعلكم تشكرون الله على هذه النعم التي انتم عاجزون عنها لولا تسخيره ثم انه
تعالى ذكر بعض النعم التي خلقها الله تعالى في الارض بقوله تعالى وألقى في الارض رواسي
اي جبالا ثوابت أن تميد اي كراهة ان تميل وتضطرب بكم وقيل ليلا يميل بكم والاول اقرب
البصريون والثاني قدرة الكوفيون وقد تقدم مثله لكن من قوله تعالى يبين الله لكم ان
تضلوا روي ان الله تعالى لما خلق الارض فجعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر احد على ظهرها
فاصبح وقد ارست بالجبال لم تدر الملائكة ثم خلقت الجبال وقوله تعالى وأنهارا عطف
على رواسي لان الالقاء بمعنى الخلق الا ترى انه تعالى قال في اية اخرى وجعل فيها رواسي من فوقها
وقال تعالى والجبال اوتادا ولكن لما ذكر تعالى ان الجبال ترتعد لان معظم عيون الانهار
واصولها تكون من الجبال وجعل لكم فيها سبلا اي طرقا فجاج بينها تسلكونها في اسفاركم
والتردد في حوائجكم من بلد الى بلد ومن مكان الى مكان لعلكم تهتدون اي بتلك السبل
الى مقاصدكم والى معرفة الله تعالى فلا تضلون وجعل لكم فيها علامات اي من الجبال
وغيرها جمع علامة تهتدون بها في اسفاركم ولما كانت الدلالة بالنجم اتم الدلالات واعمها
واوضحها لبراءتها عن الالتباس وانتظام عامة مصالح الخلق بها بالانتفاع الى يوم القيامة
ليلا يظن ان المخاطب بعضهم او الامر لا يتعداه فقال وبالنجم هم اي الجنس هم اي اهل الارض
كلهم وأولى الناس بذلك المخاطبين وهم قريش ثم العرب كلها لفرط عنايتهم بالنجوم يهتدون
وقدم الجار تنبيها على ان دلالة غيره بالنسبة اليه قليلة وقيل الراد بالنجم الثريا والفرقدان
وبنات نعش والجدي وقيل الضمير لقريش لانهم كانوا كثيري الاسفار للتجارة مشهورين
بالاهتداء في مسايرهم بالنجوم ولما ذكر سبحانه وتعالى من عجائب قدرته وبديع خلقه
ما ذكر على الترتيب الاحسن والنظم الاكمل وكانت هذه الاشياء المخلوقة المكونة من الايات
المتفرعة كلها والدلائل على كمال قدرة الله ووحدانيته وانه تعالى المتفرد بخلقها جميعها
قال على سبيل الانكار على من ترك عبادته واشتغل بعبادة هذه الاقسام العاجزة
التي لا تبصر ولا تسمع ولا تقدر على شيء أفمن يخلق اي هذه الاشياء الموجودة وغيرها
كمن لا يخلق شيئا من ذلك بل على ايجاد شيء شاكيف يليق بالعاقل ان يشتغل
بعبادة من لا يستحق العبادة ويترك عبادة من يستحقها وهو الله تعالى فان قيل
ذلك الزام للذين عبدوا الاوثان وسموها الهة تشبيها بالله فقد جعلوا غير
الخلق مثل الخالق فكان حق الالزام ان يقال افمن لا يخلق كمن يخلق اجيب بانهم
لما جعلوا غير الله مثل الله تعالى في تسميته باسمه والعبادة له سموا اصنامهم وبنيه
فقد جعلوا لله من جنس المخلوقات وشبهها فانتظم عليهم ذلك بقوله تعالى
افمن يخلق كمن لا يخلق فان قيل من الخلق ان اريد به جميع ما عبد من دون الله كان

وردود من

ورود من واضحا لان العاقل يغلب على غيره فيعبر عن الجميع بمن ولو جئ ايضا بما لجاز وان اريد
به الاصنام فلم جئ بمن اذ هو لاولي العلم اجيب بانهم سموها الهة وعبدوها فاجروها
مجرى اولي العلم الا ترى الى قوله تعالى على اثره والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيا وهم
يخلقون والى قول الشاعر بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي فقلت ومثلي بالبكا جدير
اسرب القطا هل من يعير جناحه لعلي الى من قد هويت اطير فاوقع من على السرب لما عامله
معاملة العقلا وقيل للمشاكلة بينه وبين من يخلق وقيل المعنى ان من يخلق ليس كمن لا يخلق
من اولي العلم فكيف بما لا علم عنده كقوله تعالى الهم ارجل يمشون بها يعني ان الالهة
حالهم منحطة عن حال من لهم ارجل وايد واذان وقلوب لان هولا احيا وهم اموات فكيف
تصح لهم العبادة لا انها لو صحت لهم هذه الاعضا لصح ان يعبدوا ولما كان هذا القدر ظاهرا
غير خاف على احد فلا يحتاج فيه الى تدقيق الفكر والنظر بل مجرد التذكر فيه كفاية لمن فهم وعقل
ختم تعالى ذلك بقوله تعالى افلا تذكرون بما تشاهدونه من ذلك ولو من بعض الوجوه
فتؤمنون تنبيه احتج اهل السنة بهذه الاية على ان العبد غير خالق لافعال
نفسه لانه تعالى ميز نفسه عن الاشيا التي يعبدونها بصفة الخالقية لان الغرض من قوله
تعالى افمن يخلق كمن لا يخلق بيان تميزه عن هذه الاشيا بصفة الخالقية وانه انما استحق
الالهية والمعبودية لكونه تعالى خالقا وهذا يقتضي ان العبد لو كان خالقا لشي لوجب
كونه الها معبودا ولما كان ذلك باطلا علمنا ان العبد لا يقدر على الخلق والايجاد
ولما كانت المقدورات لا تحصر واكثرها نعم على العباد مذكرة لهم بخالقهم قال
ممتنا عليهم باحسانه من غير سبب منهم وان تعدوا كلكم نعمة الله اي انعام الملك
الاعظم الذي لا رب غيره عليكم من صحة البدن وعافية الجسم واعطا النظر الصحيح والعقل
السليم وبطش اليدين ومشي الرجلين الى غير ذلك مما انعم به عليكم وما خلق لكم من ما تحتاجون
اليه من امر الدنيا حتى لو رام احدكم معرفة ادنى نعمة من هذه النعم لعجز عن معرفتها
وحصرها فان شعبها يفوت الحصر لا تحصوها اي لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم
مع كفرها واعراضكم جملة عن منكرها والعبد وان اتعب نفسه في القيام بالطاعات
والعبادات وبالغ في شكر نعم الله تعالى فانه يكون مقصرا لان نعم الله كثيرة واقسامها عظيمة
وعقل الخلق قاصر عن الاحاطة بمباديها فضلا عن غاياتها لكن الطريق الى ذلك ان يشكر
الله تعالى على جميع نعمه مفصلها ومجملها ان الله لغفور اي لتقصيركم في القيام بشكر نعمه
كما يجب عليكم رحيم بكم فوسع عليكم النعم ولم يقطعها عنكم بسبب التقصير والمعاصي وقوله
تعالى والله يعلم ما تسرون وما تعلنون فيه وجهان الاول ان الكفار مع كفرهم كانوا
يرون اشيا وهو ما كانوا يمكرون بالنبي صلى الله عليه وسلم وما يعلنون اي وما يظهرون
من اذاه صلى الله عليه وسلم فاخبر الله تعالى بانه عالم بكل احوالهم سرها وعلانيتها لا يخفى
عليه خافية وان دقت وخفيت والوجه الثاني انه تعالى لما ذكر الاصنام وذكر عجزها
في الاية المتقدمة ذكر في هذه الاية ان الاله الذي يستحق العبادة يجب ان يكون
عالما بكل المعلومات سرها وجهرها وهذه الاصنام ليست كذلك فلا تستحق العبادة
ثم وصف تعالى هذه الاصنام بصفات الاولى مذكورة في قوله تعالى والذين تدعون
اي تعبدون من دون الله اي الاصنام وتعتقدون انها الهة وقرا عاصم بالياء على الغيبة

BULAC

والباقون بالتاء على الخطاب لا يخلقون شيئا وهم يخلقون اي يصورون من الحجارة وغيرها
فان قيل قوله تعالى في الاية المتقدمة افمن يخلق كمن لا يخلق يدل على ان هذه الاصنام لا تخلق شيئا
وهم يخلقون وهذا هو المعنى المذكور في تلك الاية فما فائدة هذا التكرار اجيب بان فائدته
ان المعنى المذكور في الاية المتقدمة انهم لا يخلقون شيئا فقط والمذكور في هذه الاية انهم
لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كغيرهم فكان هذا زيادة في المعنى وهو فائدة التكرار فكانه
تعالى بدا بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم فبين اولا انها لا تخلق شيئا ثم بين ثانيا انها
كما لا تخلق غيرها فهي مخلوقة كغيرها الصفة الثانية قوله تعالى اموات اي جمادات
لا روح لها غير احياء اذ الاله الذي يستحق ان يعبد هو الحي الذي لا يموت فان قيل علم من قوله
اموات انها غير احياء فما الفائدة في ذكره اجيب بان من الاموات ما يعقب موته
حياة كالنطفة التي ينشئها الله تعالى حيوانا واجساد الحيوانات التي تبعث بعد موتها
واما الحجارة فاموات لا يعقب موتها حياة وذلك اعرق في موتها وقيل ذكر للتاكيد لان الكلام
مع الكفار الذين يعبدون الاوثان وهم في نهاية الجهالة والضلالة ومن تكلم مع الجاهل
الغبي فقد يعبر عن المعنى الواحد بالعبارات الكثيرة وغرضه الاعلام لكون المخاطب
في غاية الغباوة في انه لا يفهم المعنى المقصود بالعبارة الواحدة الصفة الثالثة قوله تعالى
وما يشعرون اي الاصنام ايان اي اي وقت يبعثون اي وما تعلم هؤلاء الالهة حتى تبعث
الاحياء تهكما بحالها لان شعور الجماد محال فكيف بشعور ما لا يعلمه حي الا الحي القيوم سبحانه
وتعالى وقيل الضمير راجع للاصنام قال ابن عباس ان الله يبعث الاصنام لها ارواح ومعها
شياطينها فيؤمر بالكل الى النار وقيل المراد بقوله تعالى والذين تدعون من دون
الله الملائكة وكان ناس من الكفار يعبدونهم فقال الله تعالى انهم اموات اي
لا بد لهم من الموت غير احياء اي غير باقية حياتهم وما يشعرون اي لا علم لهم بوقت
بعثهم ولما زيف سبحانه وتعالى طريقة عبدة الاصنام وبين فساد مذهبهم قال تعالى
الهكم اي انها الخلق جميعا المعبود بحق اله اي متصف بالالهية على الاطلاق بالنسبة
الى كل احد وكل زمان وكل مكان واحد لا يقبل التعدد الذي هو مثار النقص بوجه من الوجوه
لان التعدد يستلزم امكان التمانع المستلزم للعجز المستلزم للبعد عن رتبة الالهية
فالذين اي فتسبب عن هذا ان الذين لا يؤمنون بالاخرة اي دار الجزاء ومحل اظهار
الحكم الذي هو ثمرة الملك والعدل الذي هو مدار العظمة قلوبهم منكرة اي حاجزة
للوحدانية وهم اي والحال انهم بسبب انكار ذلك مستكبرون اي متكبرون عن الايمان
بها لا جرم اي حقا ان الله يعلم علما غيبيا ومشاهديا ما يسرون اي يخفون مطلقا
او بالنسبة الى بعض الناس وما يعلنون اي يظهرون فيجازيهم بذلك ولما كان في ذلك
معنى التهديد علل ذلك بقوله تعالى انه اي العالم بالسر والعلن لا يحب المستكبرين
اي على خلقه فما بالك بالمستكبر على التوحيد واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومعنى
عدم محبتهم انه يعاقبهم وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل يا رسول الله ان الرجل
يحب ان يكون ثوبه حسنا قال ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمص الناس ومعنى بطر
الحق انه يتكبر عند سماع الحق فلا يقبله ومعنى غمص الناس استنقاصهم وازدراؤهم ولما

بالغ

بالغ سبحانه وتعالى في دلايل التوحيد واورد الدلايل القاهرة في ابطال مذاهب عبدة الاصنام
قال تعالى عاطفا على قلوبهم منكرة وإذا قيل لهم اي لهولا الذين لا يومنون بالاخرة وقوله
تعالى ما استفهامية وذا موصولة اي ما الذي انزل ربكم على محمد صلى الله عليه وسلم واختلف
في قايل هذا القول فقيل كلام بعضهم لبعض وقيل قول المسلمين لهم وقيل قول المقتسمين
الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سالهم وفود الحاج
عما انزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم قالوا مكابرين في انزال القران هو اساطير
اي اكاذيب الاولين مع عجزهم بعد تحديهم عن معارضته اقصر سورة منه مع علمهم بانهم افصح
الناس وانه لا يكون من احد من الناس متقدم او متاخر قول الا قالوا ابلغ منه فان قيل
هذا كلام متناقض لانه لا يكون منزل من ربهم واسالي اجيب بانهم قالوه على سبيل
السخرية كقولهم ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون واللام في قوله تعالى ليحملوا لام العاقبة
كما في قوله تعالى فالتقطه ال فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وذلك انهم لما وصفوا
القران بكونه اساطير الاولين كان عاقبتهم بذلك ان يحملوا اوزارهم اي ذنوب انفسهم
وانما قال تعالى كاملة لئلا يتوهم انه يكفر عنهم شي بسبب البلايا التي اصابتهم في الدنيا
واعمال البر التي عملوها في الدنيا بل يعاقبون بكل اوزارهم يوم القيامة الذي لا شك فيه
ولا محيص عن اتيانه قال الرازي وهذا يدل على انه تعالى قد يسقط بعض العقاب
عن المومنين اذ لو كان هذا المعنى حاصلا في حق الكل لم يكن لتخصيص هولا الكفار بهذا
التكميل فايدة وليحملوا ايضا من جنس اوزار الجهلة الضعفا الذين يضلونهم في قوله
تعالى بغير علم حال من مفعول يضلونهم اي يضلون من يعلم انهم ضلال او من الفاعل
وانما وصف بالضلال واحتمال الوزر من اضلوه وان لم يعلم لانه كان عليه ان يبحث
وينظر بعقله حتى يميز بين المحق والمبطل وانما حصل للروسا الذين اضلوا غيرهم
وصدوهم عن الايمان مثل اوزار الاتباع لانهم دعوهم الى الضلال فاتبعوهم فاشتركوا
في الاثم وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
من دعى الى هدى كان له من الاجر مثل اجور من تبعه لا ينقص ذلك من اجورهم شيا
ومن دعى الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل اثام من تبعه لا ينقص ذلك من اثامهم
شيا اخرجه مسلم ومعنى الاية والحديث ان الرييس والكبير اذا سن سنة حسنة
او سنة قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله تعالى يعطيهم ثوابه وعقابه
حتى يكون ذلك الثواب والعقاب مساويا لكل ما يستحقه كل واحد من الاتباع
الذين عملوا بسنة الحسنة او القبيحة وليس المراد ان الله تعالى يوصل جميع الثواب
او العقاب الذي استحقه الاتباع الى الروسا ويدل لذلك قوله تعالى ولا تزر وازرة
وزر اخرى وقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى تنبيه قال الواحدي
لفظة من في قوله تعالى ومن اوزار ليست للتبعيض لانها لو كانت لذلك لنقص
عن الاتباع بعض الاوزار وقد قال صلى الله عليه وسلم لا ينقص ذلك من اثامهم شيا
لكنها للجنس كما قدرت ذلك في الاية الكريمة اي ليحملوا من جنس اوزار الاتباع وقيل
انها للتبعيض وجرى عليه البيضاوي تبعا للزمخشري الا ساء اي بيس ما يزرون
اي يحملون حملهم هذا وفي هذا وعيد وتهديد لهم فان قيل ان الله تعالى حكى هذه

الشبهة عن القوم ولم يجب عنها بل اقتصر على محض الوعيد فما السبب في ذلك اجيب بان السبب
فيه انه تعالى بين كون القرآن معجزا بطريقين الاول انه صلى الله عليه وسلم تحداهم تارة بكل
القرآن وثانيا بعشر سور وثالثا بسورة ورابعا بحديث واحد فعجزوا عن المعارضة
وذلك يدل على كونه معجزا الثاني انه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية اخرى وهو قوله
تعالى اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا وابطلها بقوله تعالى قل انزله الذي يعلم
السر في السموات والارض ومعناه ان القرآن يشتمل على الاخبار عن الغيوب
وذلك لا يتاتى الا ممن يكون عالما باسرار السموات والارض ولما ثبت كون القرآن معجزا
بهذين الطريقين وتكرر شرح هذين الطريقين مرارا كثيرة لا جرم اقتصر في هذه الآية على
مجرد الوعيد ولم يذكر ما يجري مجرى الجواب عن هذه الشبهة ثم انه سبحانه وتعالى
بالغ في وصف وعيد هؤلاء الكفار بقوله تعالى قد مكر الذين من قبلهم اي ممن رأوا
آثارهم ودخلوا ديارهم فاتى الله اي امره بنيانهم من القواعد اي من جهة العمد
التي بنوا عليها مكرهم فخر اي سقط عليهم السقف من فوقهم وصار سبب هلاكهم
وقرأ ابو عمرو في الوصل بكسر الهاء والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم والباقون بكسر الهاء
وضم الميم واما الوقف فحمزة بضم الهاء على اصله والباقون بالكسر وأتاهم العذاب من حيث
لا يشعرون اي من جهة لا تخطر ببالهم وهذا على سبيل التمثيل اي التشبيه والتخييل
لافساد ما ابرموه من المكر بالرسل فجعل الله هلاكهم فيما ابرموه كحال قوم بنوا بنيانا
وعمدوه بالاساطين فاتى البنيان من الاساطين بان تضعضعت فسقط عليهم السقف
وهلكوا ونحوه من حفر لاخيه جبا وقع فيه منكبا وقيل هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح
ببابل ليصعد الى السماء قال ابن عباس كان طول الصرح في السماء خمسة آلاف ذراع وقال
كعب كان طوله فرسخين فاهب الله تعالى الريح فالقت راسه في البحر وخر عليهم الباقي
وهم تحته قال البغوي ولما سقط الصرح تلبلبت السن الناس يومئذ من الفزع فتكلموا
بثلاثة وسبعين لسانا فلذلك سميت بابل وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية
فذلك قوله تعالى فاتى الله بنيانهم من القواعد اي اتى امره فخرب بنيانهم من اصولها
فخر عليه وعلى قومه السقف اي اعلى البيوت من فوقهم فهلكوا بنيه قال ابن الخازن
في قول البغوي وكان لسان الناس قبل ذلك بالسريانية نظر لان صالحا عليه السلام كان
قبلهم وكان يتكلم بالعربية وكان اهل اليمن عرب منهم جرهم الذين نشأ اسمعيل بينهم
وتعلم منهم العربية وكان ببابل من العرب قديمة قبل ابراهيم انتهى وقد يقال
انه كان لسان اكثر الناس بالسريانية فلا ينافي ذلك فان قيل ما فائدة قوله تعالى
من فوقهم والسقف من فوقهم اجيب بانهم قد لا يكونون تحته فلما قال تعالى
فخر عليهم السقف من فوقهم دل على انهم كانوا تحته وحينئذ يفيد هذا الكلام لان
الابنية قد تهدمت وهم ماتوا تحتها ولما ذكر تعالى حال المكر في الدنيا ذكر حالهم في الآخرة
بقوله تعالى ثم يوم القيامة يخزيهم اي يذلهم ويهينهم بعذاب النار ويقول لهم الله
تعالى على لسان الملائكة توبيخا اين شركائي اي في زعمكم واعتقادكم الذين كنتم تشاقون
اي تخالفون المؤمنين فيهم اي في شأنهم وقرأ نافع بكسر النون والباقون بفتحها قال
اي يقول الذين اوتوا العلم اي من الانبياء والمؤمنين وقال ابن عباس يريد الملائكة ان الخزي

اي البلا

اي البلا المذل اليوم اي يوم الفصل الذي يكون للفائز فيه الغلبة الدائمة والسوء اي
كما يسوء على الكافرين اي الفريقين من الكفار الذين تكبروا في غير موضع التكبر وفائدة قولهم
اظهار الشماتة وزيادة الاهانة وجعل الاية ان يكون لطفا لمن سمعه تنبيه في الاية
والاشعار ان ماهية الخزي وماهية السوء يوم القيمة مختصة بالكافرين وذلك يبقى
حصول هذه الماهية في حق غيرهم ويؤكد هذا قول موسى عليه السلام انا قد اوحي
الينا ان العذاب على من كذب وتولى ثم انه تعالى وصف عذاب سوء الكفار من وجه
اخر بقوله تعالى الذين تتوفاهم الملائكة اي تقبض ارواحهم ملك الموت واعوانه
وقد اخبرت في هذه الاية وفي الاية الاتية بالتاء في الموضعين على التذكير لان الملائكة
ذكور والباقون بالتاء على التانيث للفظ لان لفظ الجمع مونث ظالمي انفسهم اي بان عرضوا
للعذاب المخلد بكفرهم فالقوا السلم اي استسلموا وانقادوا حين عاينوا الموت قائلين
ما كنا نعمل من سوء اي شرك وعدوان فتقول لهم الملائكة بلى اي بل كنتم تعملون اعظم السوء
ثم علل تكذيبهم بقوله تعالى ان الله عليم بما كنتم تعملون اي فلا فائدة لكم في انكاركم
فيجازيكم به ولما كان هذا الفعل مع هذا العلم مستدعيا لدخولهم قال تعالى فادخلوا اي
ايها الكفرة ابواب جهنم اي ابواب طبقاتها ودركاتها خالدين اي مقدرين الخلود فيها
اي حتمهم لا تخرجون منها وانما قال تعالى ذلك لهم ليكون اعظم في الخزي والغم وقوله تعالى
على ان الكفار بعضهم اشد عذابا من بعض قال تعالى فلبئس مثوى اي ماوى المتكبرين
عن قبول التوحيد وسائر ما اتت به الرسل والباقين تعالى احوال المكذبين ذكر احوال
الصديقين بقوله تعالى وقيل للذين اتقوا اي خافوا عقاب الله ماذا اي اي شيء انزل
ربكم قالوا خيرا اي انزل خيرا وذلك ان اهل الموسم كانوا يبعثون ايام الموسم من
ياتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم فاذا جاء الذين قعدوا على الطرق عمدوا فقالوا
ساحر شاعر كاهن كذاب مجنون ولو لم يلقه خبر لكن يقول السابل اناشرك فاقد
ان رجعت الى قومي دون ان ادخل مكة والقاه فيدخل مكة فيرى اصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم فتخبره وتدله على صدقه وانه نبي مبعوث من الله تعالى فذلك قوله
تعالى وقيل للذين اتقوا الاية فان قيل لم رفع الاول وهو قولهم اساطير الاولين
ونصب الثاني وهو قولهم خيرا اجيب بانه ذكر ذلك للفصل بين جواب الكفر
وجواب الحاذق وذلك انهم لما سالوا الكفار عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم
عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا اساطير الاولين وليس هو من انزال في شيء لانهم
لم يعتقدوا كونه منزلا ولما سالوا المومنين عن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم
لم يتلعثموا وطابقوا الجواب عن السؤال بيانا مكشوفا معقولا للانزال فقالوا خيرا
اي انزل خيرا وتم الكلام عند قوله خيرا فهو وقف تام ثم ابتدا فقوله تعالى للذين
احسنوا في هذه الدنيا حسنة حياة طيبة او ان للذين اتوا بالاعمال الصالحات
الحسنة لهم في الاخرة حسنة مضاعفة من الواحد الى العشرة الى السبعمائة الى اضعاف كثيرة
او انه تعالى بين انه اعترافهم بذلك احسان في هذه الدنيا حسنة اي خير لهم على احسانهم
هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولما كانت هذه الدار سريعة الزوال اخبر عن حالهم في الاخرة
فقال ولدار الاخرة اي الجنة خير اي مما اعد لهم في الجنة خير مما حصل لهم في الدنيا ثم مدحها

BULAC

ومدحهم بقوله تعالى ولنعم دار المتقين اى دار الاخرة فحذف لتقدم ذكرها وقال الحسن
هى الدنيا لان اهل التقوى يتزودون فيها للاخرة وقوله تعالى جنات اى بساتين عدن
اى اقامة خبر مبتدا محذوف ويصح ان يكون المخصوص بالمدح يدخلونها اى تلك الجنات
حالة كونها تجرى من تحتها اى من تحت غرفها الانهار ثم كان سائلا يسال عما فيها من الثمار
وغيرها فاجيب بان لهم فيها ما يشاءون اى ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين مع
زيادات غير ذلك فهذه الاية تدل على حصول كل الخيرات والسعادات فهى ابلغ
من قوله تعالى فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين لان هذين القسمين داخلان
فى قوله تعالى لهم فيها ما يشاءون مع اقسام اخرى وعلى ان الانسان لا يجد كل ما يريده
فى الدنيا لان قوله لهم فيها ما يشاءون يفيد الحصر كذلك اى مثل هذا الجزاء العظيم
يجزى الله اى الذى له الكمال كله المتقين اى الراسخين فى صفة التقوى ثم حث تعالى
ثم حث تعالى على ملازمة التقوى بالتنبيه على ان العبرة بحال الموت فقال الذين
تتوفاهم الملائكة اى تقبض ارواحهم وقوله تعالى طيبين كلمة مختصرة جامعة
للمعانى الكثيرة وذلك لانه يدخل فيه اتيانهم بكل ما امر به واجتنابهم عن كل
ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالاخلاق الفاضلة مبرئين عن الاخلاق
المذمومة ويدخل فيهم كونهم مبرئين عن القلائق الجسمانية متوجهين الى الحضرة القدس
ويدخل فيه انه طاب لهم قبض الارواح وانها لم تقبض الا مع الاتيان بالجنة حتى
صاروا كانهم مشاهدون لها ومن هذا حاله لا يتالم بالموت وانما الغرر على ان
هذا التوفى هو قبض الارواح كما مر وان كان الحسن يقول انه وفاة الحشر واستدل
لذلك بقوله تعالى ادخلوا الجنة لانه لا يقال عند قبض الارواح فى الدنيا ادخلوا الجنة
واجاب الاكثرون بما سبأتى وادعوا ان توفيهم والباقى للطاعة خلافا عنهم بين تعالى ان
الملائكة يقولون لهم عند الموت سلام عليكم فتسلم عليهم وتبلغهم ان السلام من الله
تعالى كما روى ان العبد المؤمن اذا اشرف على الموت جاءه ملك فقال السلام عليك يا ولى
الله الله يقول عليك السلام ويبشره بالجنة ثم بين تعالى ان الملائكة يبشرونهم عند الموت
ويتلقونهم فى الاخرة هذا جواب الاكثرين ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون اى انكم لما
اشتغلتم بالجنة صارت الجنة كانها داركم ومكانكم فيها فيكون المراد بقولهم ادخلوا الجنة اى هى
خالصة لكم كما انكم فيها ولما طعن الكفار فى القرآن بقولهم اساطير الاولين وذكر انواع التهديد
والوعيد ثم اتبعه بذكر الوعد لمن وصف القرآن بكونه خبرا عاد الى بيان ان اولئك الكفار
لا يزجرون عن كفرهم واقوالهم الباطلة وفعالهم السيئة بالتهديد والوعيد ثم ذكر تعالى ما يجرى مجرى
التاكيد لما تقدم من توجيه ذلك الا اذا جاءتهم الملائكة اى اتاهم
امر ربك فقال تعالى هل ينظرون الا ان تاتيهم الملائكة لقبض ارواحهم وقرا حمزة
والكسائى بالياء على التذكير والباقون بالتاء على التانيث وتقدم توجيه ذلك او ياتى
امر ربك اى يوم القيامة وقيل العذاب وقيل انهم طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم ان يترك
الله تعالى ملكا من السماء يشهد على صدقه فى دعوى النبوة فقال تعالى هل ينظرون فى التصديق
بنبوتك الا ان تاتيهم الملائكة شاهدين بذلك وعلى كلا التقديرين فقد قال تعالى كذلك

ايمثل

اي مثل ما فعل هولا الفعل البعيد الشنيع فعل الذين من قبلهم من الامم السالفة كذبوا رسلهم
فاهلكوا وما ظلمهم الله باهلاكهم بغير ذنب ولكن كانوا انفسهم يظلمون بكفرهم
وتكذيبهم للرسل فاستوجبوا ما نزل بهم فاصابهم اي فتسبب عن ظلمهم لانفسهم
اذا اصابهم سيئات اي عقوبات او جزاء سيئات ما عملوا وحاق اي نزل بهم ما كانوا به
يستهزءون تكبرا عن قبول الحق فحاط بهم جزاؤه والحيق لا يستعمل الا في الشر وقرا حاق
حمزة بالامالة والباقون بالفتح وقال الذين اشركوا للنبي صلى الله عليه وسلم استهزاء
وصفا للبعثة والتكليف لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا اباؤنا
لانهم اعتقدوا ان كون الامر كذلك يمنع من جواز بعثة الرسل وهو اعتقاد باطل فلذلك
استحقوا عليه الذم والوعيد ثم قالوا لهم ولا حرمنا من دونه من شيء اي من السوائب
والبحائر والحامي فهو راض به وبمشيئته وحينئذ فلا فائدة في مجيئك وفي ارسالك وهذا
عين ما حكاه الله تعالى عنهم في سورة الانعام في قوله تعالى سيقول الذين اشركوا الاية
قال الله تعالى كذلك كذب الذين من قبلهم اي من تقدم هولا من الكفار من الامم
الماضية كانوا على هذه الطريقة وهذا الفعل الخبيث فانكار بعثة الرسل كان قديما
في الامم الخالية ففي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وكذا في قوله تعالى فهل
على الرسل الا البلاغ اي الابلاغ المبين اي البين فليس عليهم هداية احد انما عليهم تبليغ
ما ارسلوا به الى من ارسلوا اليه ثم بين تعالى ان البعثة امر جرت السنة الالهية في الامم
كلها سببا لهدى من اراد اهتداء وزيادة لضلال من اراد ضلاله كالغذاء الصالح فانه
ينفع المزاج السوي ويقويه ويضر المزاج المنحرف ويعنيه بقوله تعالى ولقد اي والله
لقد بعثنا اي على ما لنا من العظمة التي من اعترض عليها قصم في كل امة من الامم
الذين قبلكم رسولا اي كما بعثنا فيكم محمدا صلى الله عليه وسلم ان اعبدوا الله اي الملك
الاعلى وحده واجتنبوا الطاغوت اي الاوثان ان تعبدوها فمنهم من هدى الله
اي وفقهم للايمان بارشاده ومنهم من حقت اي وجبت عليه الضلالة اي في علم
الله فلم ينفعهم ولم يرد هداهم تنبيه في هذه الاية ابين دليل على ان الهادي هو الله
تعالى لانه المتصرف في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا اعتراض عليه فيما حكم
به لسابق علمه ثم التفت سبحانه وتعالى الى مخاطبتهم اشارة الى انه لم يبق بعد هذا
الدليل القطعي في نظر البصيرة الا الدليل المحسوس للبصر فقال فسيروا اي فان كنتم ايها
المخاطبون في شك من اخبار الرسل فسيروا في الارض اي جنسها فانظروا اي اذا سرتم
ومررتم بديار المكذبين وآثارهم ثم اشار تعالى بالاستفهام الى ان احوالهم مما يجب ان يسئل
عنه للاتعاظ به فقال كيف كان عاقبة اي اخر امر المكذبين اي من عاد ومن بعدهم
الذين تلقيتم اخبارهم عمن قلدتموهم في الكفر من اسلافكم لعلكم تعتبرون ولما كان
من المحقق انه ليس بعد الايصال في الاستدلال الى الامر المحسوس الا العناد اعرض عنهم
ملتفتا الى الروف بهم الشفيق عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال مسليا له ان تحرص
على هداهم فتبطله بغاية جدك واجتهادك وقد اضلهم الله تعالى لا تقدر على ذلك ثم
قال تعالى فان الله لا يهدي من يضل اي من يرد ضلاله وهو معنى بمن حقت عليه الضلالة
وقرا عاصم وحمزة والكسائي بفتح اليا وكسر الدال والباقون بضم اليا وفتح الدال على البنا

وقرا ابو عمرو وعاصم وحمزة بكسر النون في الوصل والباقون بالضم صح

والمضل صح

BULAC

للمفعول قال البيضاوي وهو ابلغ ثم قال تعالى وما لهم اي هؤلاء الذين اضلهم الله وجميع من يضله
من ناصرين اي وليس لهم احد ينصرهم في الدنيا والاخرة عند مجازاته اياهم على الضلالة لينقذوهم
مما يلحقهم عليه من الوبال كما فعل بالمكذبين ممن قبلهم ثم حكى الله تعالى عن هؤلاء القوم
انهم ينكرون الحشر والنشر بقوله تعالى واقسموا بالله جهد ايمانهم اي غاية اجتهادهم فيها
لا يبعث الله من يموت وذلك لانهم قالوا ان الانسان الا هو هذه البنية المخصوصة
فاذا مات وتعرقت اجزاؤه وبلي امتنع عوده بعينه لان الشيء اذا عدم فقد فني ولم
يبق له ذات ولا حقيقة بعد فنائه وعدمه فكذبهم الله تعالى في قولهم بقوله تعالى
بلى اي ليبعثنهم بعد الموت فان لفظة بلى ايجاب لما بعد النفي والجواب عن شبهتهم ان
الله تعالى خلق الانسان اولا وجده من العدم ولم يكن شيئا فالذي اوجده ولم يكن شيئا قادر
على ايجاده بعد اعدامه لان النشاة الثانية اهون من الاولى وقوله تعالى وعدا عليه
حقا منصوبان على المصدر اي وعد ذلك وحقه حقا ولكن اكثر
الناس لا يعلمون اي لا يعلمون لعدم بوصفهم ذلك لانه من عالم الغيب لا يمكن عقولهم الوصول
اليه بغير ارشاد من الله تعالى ولانهم يقتلون اقوال الدعاة الى الله الذين ايدهم بروح
منه لتعنيدهم بما يوصل اليه عقولهم انها قاصرة على عالم الشهادة لا يمكنها الترقي منه
الى عالم الغيب بغير وساطة منه سبحانه وتعالى فلذلك يرى الانسان منهم يابى لكل
استعداد وهو خصيم مبين وقوله تعالى ليبين لهم الذي يختلفون فيه يتعلق بما دل
عليه بلى اي يبعثهم ليبين لهم والضمير لمن يموت وهو عام للمؤمنين والكافرين والذي اختلفوا
فيه هو الحق ويعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين في قولهم لو شاء الله ما عبدنا من دونه
من شيء وفي قولهم لا يبعث الله من يموت ويحتمل ان يتعلق بقوله ولقد بعثنا في كل امة
رسولا اي بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه وانهم كانوا على الضلالة فبطل معتزلة على الله
الكذب ثم بين سبحانه وتعالى تيسر الاعادة عليه بقوله تعالى انما قولنا اي بالنسبة من العظمة
والقدرة لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون اي فيتسبب عن ذلك
القول انه يكون بتيسيره فقوله تعالى قولنا مبتدا وان يقول خبره فيكون كن من كان
التامة التي بمعنى الحدوث والوجود اي اذا اردنا حدوث شيء ليس الا ان نقول له احدث
فيحدث عقب ذلك من غير توقف فان قيل قوله تعالى كن ان كان خطابا مع المعدوم
فهو محال وان كان خطابا مع الموجود كان تحصيل الحاصل وهو محال اجيب بان هذا
تمثيل لنفي الكلام والمخاطبة وخطاب مع الخلق بما يعقلون ليس هو خطاب المعدوم
لان ما اراده فهو كائن عاجلا وعلى ما اراده من الاشراع ولما اراد تعالى خلق الدنيا
والاخرة بما فيهما من السموات والارض وقد رجح البصر لقدرته على ذلك ولكن خاطب تعالى
العباد بما يعقلون وعن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى يشتمني ابن ادم وما ينبغي له ان يشتمني ويكذبني
وما ينبغي له اما شتمه اياي فقوله ان لي ولدا واما تكذيبه فيقول ليس يعيدني كما بدأني
وفي رواية كذبني ابن ادم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه اياي فقوله
لن يعيدني كما بدأني وليس اول الخلق بأهون علي من اعادته واما شتمه اياي فقوله اتخذ الله ولدا
وانا الاحد الصمد الذي لم ألد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد وقرا ابن عامر والكسائي بفتح النون

من يكون

من يكون عطفا على يقول اوجوا بالامر والباقون بالرفع ولما حكى الله تعالى عن الكفار انهم اقسموا
بالله جهد ايمانهم على انكار البعث والقيمة دل ذلك على انهم تمادوا في الغي والجهل والضلال
وفي مثل هذه الحالة لا يبعد اقدامهم على ايذا المسلمين وانزال العقوبة بهم وحينئذ يلزم
على المومنين ان يهاجروا من تلك الديار والمساكن فبين تعالى حكم تلك الهجرة وما لهولا
المهاجرين من الحسنة في الدنيا والاخرة بقوله تعالى والذين هاجروا في الله اي في
حقه ولوجهه لاقامة دينه من بعد ما ظلموا وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
واصحابه رضي الله تعالى عنهم ظلمهم اهل مكة ففروا بدينهم الى الله منهم من هاجر
الى الحبشة ثم الى المدينة فجمع بين الهجرتين ومنهم من هاجر الى المدينة او المحبوسون
المعذبون بمكة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم بلال وصهيب وخباب
وعمار وعابس وابو جندب وسهيل اخذهم المشركون بمكة فاخذوا يعذبونهم ليرجعوا عن
الاسلام الى الكفر فاما بلال فكان اصحابه يخرجونه الى بطحا مكة في شدة الحر ويشدوه
ويجعلوا على صدره الحجارة وهو يقول احد احد فاشتراه منهم ابو بكر رضي الله تعالى عنه
واعتقه واشترى معه ستة نفر اخر واما صهيب فقال انا رجل كبير ان كنت معكم
لم انفعكم وان كنت عليكم لم اضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما راه ابو بكر قال له
ربح البيع يا صهيب وقال له عمر نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه وهو ثنا عظيم
يريد لو لم يخلق الله نارا لاطاعه لنبوئنهم اي لننزلنهم في الدنيا دارا حسنة وهي المدينة
وقيل ليحسنن اليهم في الدنيا بان يفتح لهم مكة ويمكنهم من اهلها الذين ظلموهم واخرجوهم
منها وقيل اراد بالحسنة في الدنيا التوفيق والهداية الى الدين ولاجر الاخرة وهي الجنة
وهي الجنة والنظر الى وجهه الكريم اكبر اي اعظم لو كانوا يعلمون اي الكفار او المتخلفون
عن الهجرة ما للمهاجرين من الكرامة لوافقوهم وقيل انه راجع الى المهاجرين اي لو كانوا
يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبروا وروي ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
كان اذا اعطى الرجل من المهاجرين عطا يقول له خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك
الله به في الدنيا وما ادخر لك في الاخرة افضل ثم يقرا هذه الاية وقوله تعالى الذين
صبروا اي على الشدايد وعلى مفارقة الوطن الذي هو حرم الله وعلى المجاهدة
وبذل الاموال والانفس في سبيل الله محله رفع على هم او نصب على المدح ويجوز ان يكون
تابعا للموصول قبله نعتا او بدلا او بيانا فمحله محله وعلى ربهم يتوكلون اي منقطعين
اليه مفوضين الامر كله اليه تنبيه ذكر الله تعالى في هذه الاية الصبر والتوكل وهما
مبدا السلوك الى الله تعالى ومنتهاه اما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على اعمال البر وساير
الطاعات واحتمال الاذى من الخلق واما التوكل فهو الانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه
الى الحق كما مرت الاشارة اليه فالاول هو مبدا السلوك والثاني هو اخر الطريق ومنتهاه
ونزل لما انكر مشركوا مكة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا الله اعظم واجل ان يكون
رسوله بشرا فهلا بعث ملكا الينا وما ارسلنا من قبلك يا محمد الى الامم من طوايف البشر
الا رجالا لا ملايكة بل ادميين هم في غاية الاقتدار على الصبر والتوكل الذين هما محط الرحال
يوحي اليهم بواسطة الملايكة فعادة الله تعالى جارية مستمرة من اول مبتدا الخلق الى
الان لم يبعث رسولا الا من البشر فاسالوا اهل الذكر اي اهل الكتاب وهم اليهود والنصارى

وانما امرهم الله تعالى بسؤالهم لان كفار مكة كانوا يعتقدون ان اهل الكتاب اهل علم وقد
ارسل اليهم رسلا مثل موسى وعيسى من البشر وكانوا بشرا مثلهم فاذا سالوهم فلا بد ان يخبروهم
ان الرسل الذين ارسلوا اليهم كانوا بشرا فاذا اخبروهم بذلك فربما زالت هذه الشبهة
وقال بن عباس يريد اهل التورية والذكر هو التوراة والدليل عليه قوله تعالى ولقد
كتبنا في الزبور من بعد الذكر يعني التوراة والذكر هو التوراة وقال الزجاج معناه
اسالوا كل من يذكر بعلم وتحقيق ولما كان عندهم احسن من ذلك سماع اخبار الامم
قبلهم اشار اليه بقوله تعالى ان كنتم اي جبلة وطبعا لا تعلمون ذلك فانهم يعلمونه
وانتم الى تصديقهم اقرب من تصديق المومنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى
بالبينات متعلق بمحذوف اي ارسلناهم بالحجج الواضحة وقيل التقدير ان كنتم
لا تعلمون بالبينات والزبر اي الكتب فاسالوا اهل الذكر وقيل انه متعلق بمحذوف
جوابا لسوال مقدر كانه قيل بم ارسلوا قيل ارسلوا بالبينات والزبر وقوله تعالى
وانزلنا اليك الذكر خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والذكر هو القران وانما سمي
ذكرا لانه موعظة وتذكير لتبين للناس كافة اي اعطاك الله تعالى من الفهم الذي
وقعت فيه جميع الخلق واللسان الذي هو اعظم الالسنة وافصحها وقد اوصلك
الله تعالى فيه الى رتبة لم يصل اليها احد ما نزل اي ما وقع تنزيله اليهم من هذا
الشرع المودي الى سعادة الدارين بتبيين المجمل وشرح ما اشكل من علم اصول الدين
الذي راسه التوحيد ومن البعث وغيره فان القران فيه محكم وفيه متشابه
فالمحكم يجب ان يكون مبينا والمتشابه هو المجمل فيطلب بيانه من السنة ولعلهم
يتفكرون فيما انزل اليهم اذا نظروا اساليبه الفائقة ومعانيه العالية الرائقة
فيعتبرون فان قيل هذه الاية تدل على ان المبين لكل التكاليف والاحكام هو النبي
صلى الله عليه وسلم فالقياس ليس بحجة اجيب بانه صلى الله عليه وسلم لما بين ان
القياس حجة فمن رجع في تبيين الاحكام والتكاليف الى القياس كان ذلك في الحقيقة
رجوعا الى بيان النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى افامن الذين مكروا السيئات فيه اضمار
تقديره المكرات السيئات وهم كفار قريش مكروا بالنبي صلى الله عليه وسلم وباصحابه
وبالقران في اذيتهم والمكر عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الاخفاء ثم انه تعالى ذكر
في تهديدهم اربعة امور الاول قوله تعالى ان يخسف الله بهم الارض كما خسف بقارون
واصحابه فاذا هم في بطنها لا يقدرون على نوع تقلب بمتابعة ولا غيرها الثاني قوله
تعالى او ياتيهم العذاب على غير تلك الحال من حيث لا يشعرون به فياتيهم بغتة فيهلكهم
كما فعل بقوم لوط عليه السلام الثالث قوله تعالى او ياخذهم اي الله بعذابه في
حالة تقلبهم ومشاعرهم حاضرة وقواهم مستجمعة وفي تفسير هذا التقلب وجوه
اولها انه تعالى ياخذهم بالعقوبة في اسفارهم فانه تعالى قادر على اهلاكهم في السفر
كما انه قادر على اهلاكهم في الحضر فما هم بمعجزين اي بفائتين العذاب بسبب ضربهم
في البلاد البعيدة بل مدركهم الله تعالى حيث كانوا ثانيها انه تعالى ياخذهم بالليل والنهار
وفي حال اقبالهم وادبارهم وذهابهم ومجيئهم ثالثها انه تعالى ياخذهم في حال ما
يتقلبون في قضايا افكارهم فيحول الله تعالى بينهم وبين اتمام تلك الحيل وحمل لفظ التقلب

على هذا

على هذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى وقلبوا لك الامور فانهم اذا قلبوها فقد تقلبوا فيها
الامر الرابع قوله تعالى أو يأخذهم على تخوف وفي تفسير التخوف قولان الاول التخوف تفعل
من الخوف يقال خفت الشيء وتخوفته والمعنى انه تعالى لا يأخذهم بالعذاب اولا بل يخيفهم
اولا ثم يعذبهم بعده وتلك الاخافة هو انه تعالى يهلك قرية فتخاف التي تليها فيأتيهم
العذاب والثاني التخوف بمعنى التنقص اي انه تعالى ينقص شيئا بعد شيء في انفسهم واموالهم
حتى يهلكوا من تخوفه اذا تنقصه روي ان عمر رضي الله تعالى عنه قال على المنبر ما تقولون
في هذه الاية فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص فقال
عمر هل تعرف العرب ذلك في اشعارها قال نعم قال شاعرنا ابو كبير تخوف اي تنقص
الرحل اي رحل ناقته منها تامكا اي سناما فردا اي متراكما او مرتفعا وهو بسكون الراء كما
تخوف عود النبعة السفن والنبعة بالضم واحدة النبع وهو شجر يتخذ منه السفن والسفن
بفتح السين والفاء ما ينحت به الشيء وهو فاعل تخوف ومفعوله عود فقال عمر عليكم بديوانكم
قالوا وما ديواننا قال شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم ومعنى البيت
ان رحل ناقته ينقص سنامها المتراكم او المرتفع كما ينقص السفن عود النبعة فان ربكم
اي المحسن اليكم باهلاك من يريد وابقاء من يريد وقوله تعالى لرؤف قراه ابو عمرو وشعبة
وحمزة والكسائي بقصر الهمزة والباقون بالمد ومعناه بليغ الرحمة لمن يتوسل اليه
بنوع وسيلة وكذا لمن قاطعه اتم مقاطعة واليه اشار بقوله تعالى رحيم اي حيث
لم يعاجلهم بالعذاب ولما خوف سبحانه وتعالى المشركين بالانواع الاربعة المذكورة من العذاب
اردفه بذكر ما يدل على كمال قدرته في تدبير احوال العالم العلوي والسفلي وتدبير احوال
الارواح والاجسام ليظهر لهم ان مع كمال هذه القدرة القاهرة والقوة الغير المتناهية
لا يعجز عن ايصال العذاب اليهم على احد تلك الاجسام الاربعة بقوله تعالى أولم يروا
قرأ حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب على نسق ما قبله والباقون بالياء على الغيبة
الى ما خلق الله من شيء اي من الاجرام التي لها ظل كشجر وجبل تتفيأ اي تتميل ظلاله
عن اليمين والشمائل جمع شمال اي عن جانبي كل واحد منها وشقيه استعارة من يمين
الانسان وشماله لجانبي الشيء اي ترجع الظلال من جانب الى جانب منقادة لله غير
ممتنعة عليه فيما يسخرها له وقال قتادة والضحاك اما اليمين فاول النهار واما
الشمائل فآخره لان الشمس وقت طلوعها الى وقت انتهائها الى وسط الفلك يقع
الاظلال الى الجانب الغربي فاذا انحدرت الشمس من وسط الفلك الى الجانب الغربي
وقع الاظلال في الجانب الشرقي والاظلال في اول النهار يبتدأ من يمين الفلك على الربع
الغربي من الارض ومن وقت انحدار الشمس من وسط الفلك يبتدأ من شمال
الفلك واقعة على الربع الشرقي من الارض فان قيل ما السبب في ذكر اليمين بلفظ
الواحد والشمائل بصيغة الجمع اجيب بانتفاء الاول انه وحد اليمين والمراد الجمع ولكنه
اقتصر في اللفظ على الواحد كقوله تعالى ويولون الدبر الثاني قال الفراء كانه اذا
وجد ذهب الى واحد من ذوات الاظلال واذا جمع ذهب الى كلها وذلك لان قوله
الى ما خلق الله من شيء لفظه واحد ومعناه الجمع على ما مر فيحتمل كلا الامرين الثالث
ان العرب اذا ذكرت صيغتي جمع عبرت عن احدهما بلفظ الوحدان كقوله تعالى

وجعل الظلمات والنور وقوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم تنبيه الهمزة للاستفهام
وهو استفهام انكار اي قدروا امثال هذه الصنايع فما بالهم لم يتفكروا فيه ليظهر لهم
كمال قدرته وقهره فيخافوا فيه وما موصولة مبهمة بمعنى الذي ومن شيء بيان لها فان قيل
كيف يبين الموصول وهو مبهم بشيء وهو مبهم بل ابهم مما قبله اجيب بان شيئا قد انصح
وظهر بوصفه بالجملة بعده وهي تتفيأ ظلاله وقيل الجملة بيان لما وقوله تعالى سجدا
لله حال من الظلال جمع ساجد كشاهد وشهد وراكع وركع واختلف في المراد من السجود
على قولين احدهما ان المراد منه الاستسلام والانقياد يقال سجد البعير اذا طاطا راسه
ليركب وسجدت النخلة اذا مالت لكثرة الحمل ويقال اسجد للقرد في زمانه
اي اخضع له وقال الشاعر ترى الاكم فيها سجدا للحوافر اي متواضعة والثاني ان هذه
الاظلال واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد فلما كانت الاظلال يشبه
شكلها شكل الساجدين اطلق الله تعالى عليها هذا اللفظ وكان الحسن يقول اما ظلك
فيسجد لربك واما انت فلا تسجد لربك بئس ما صنعت وعن مجاهد ظل الكافر
يصلي وهو لا يصلي وقيل ظل كل شيء يسجد لله سواء كان ذلك ساجدا ام لا قال الرازي
والاول اقرب الى الحقايق العقلية والثاني اقرب الى التشبيهات الظاهرة وقوله
تعالى وهم داخرون اي صاغرون حال ايضا من الظلال فينتصب عنه حالان
وقيل حال من الضمير المستتر في سجدا فهي حال متداخلة فان قيل الظلال ليست
من العقلاء فكيف جاز جمعها بالواو والنون اجيب بانه تعالى لما وصفها بالطاعة
والدخور اشبهت العقلاء بما يعم اصحابها من جماد وحيوان وكان الحيوان اشرف من الجماد
وفي الحكم اليه بخصوصه فقال ولله يسجد ما في السموات وما في الارض وقوله تعالى من دابة
يجوز ان يكون بيانا لما في السموات وما في الارض جميعا على ان في السموات خلقا لله يدبون
فيها كما تدب الاناسي في الارض وان يكون بيانا لما في الارض وحده ويراد بما في السموات الخلق
الذي يقال له الروح وان يكون بيانا لما في الارض ويراد بما في السموات الملائكة وكرر ذكرهم
بقوله تعالى والملائكة خصوصا من بين الساجدين لانهم اطوع الخلق واعبدهم ويجوز
ان يراد بما في السموات ملائكتهن وبقوله تعالى والملائكة ملائكة الارض من الحفظة
وغيرهم فان قيل سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم فكيف
عبر عن النوعين بلفظ واحد اجيب بان المراد بسجود المكلفين طاعتهم وعبادتهم
وبسجود غيرهم انقياده لارادة الله وانها غير ممتنعة عليها وكلا السجودين يجمعهما
معنى الانقياد فلم يختلفا فلذلك جاز ان يعبر عنهما بلفظ واحد فان قيل هلا جيء بمن
دون ما تغليبا للعقلاء من الذوات على غيرهم اجيب بانه لو جيء بمن لم يكن فيه دليل
على التغليب فكان متناولا للعقلاء خاصة فجيء بما هو صالح للعقلاء وغيرهم ارادة العموم
وهم اي الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ثم علل بخصوصهم بقوله تعالى دلالة على انهم
كغيرهم في الوقوف بين الخوف والرجاء يخافون ربهم اي الموجد لهم المدبر لامورهم
المحسن اليهم خوفا مبتدا من فوقهم اشارة الى علو الخوف عليهم وغلبته لهم او ان يرسل
عليهم عذابا من فوقهم او يخافونه وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق
عباده والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون او بيان له وتقرير لان من خاف الله

او ان في جملة ذلك من يعقل فغلب ولما حكم على الظلال صح

وقوله تعالى وانا فوقهم قاهرون صح

لم يستكبر

لم يستكبر عن عبادته ويفعلون ما يؤمرون اي من الطاعة والتدبير وفي ذلك دليل على
ان الملائكة مكلفون مدارون على الامر والنهي والوعد والوعيد كساير المكلفين وانهم
بين الخوف والرجا كما مرت الاشارة اليه وانهم معصومون من الذنوب لان قوله
تعالى وهم لا يستكبرون يدل على انهم منقادون لخالقهم وانهم ما خالفوا في امر
من الامور كما قال تعالى لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون ولما بين تعالى ان كل ما سوى
الله تعالى سوا كان من عالم الارواح ام من عالم الاجساد فهو منقاد خاضع لجلال
الله تعالى وكبريائه اتبعه بالنهي عن الترك وبالامر بان كل ما سواه فهو ملكه وملكه
وانه غني عن الكل بقوله تعالى وقال الله فعبر لاجل تعظيم المقام بالاسم الاعظم الخاص
لا تتخذوا اي لا تكلفوا فطرتكم الاولى السليمة المجبولة على معرفة ان الاله واحد الى ان تاخذ
في اعتقادها الهين اثنين فان قيل انما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد
والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وافراس اربعة لان المعدود عار عن الدلالة
على العدد الخاص فاما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على
العدد فلا حاجة الى ان يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله تعالى الهين
اثنين اجيب باجوبة اولها قال الرازي وهو الاقرب عندي ان الشي اذا كان مستنكرا
مستقبحا فمن اراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك
العبارات سببا لوقوف العقل على ما فيه من القبح والقول بوجود الهين مستقبح
في القول فان احدا من العقلا لم يقل بوجود الهين متساويين في الوجوب والقدم
وصفات الكمال فالمقصود من تكرير اثنين تاكيد التنفير عنه وتوقيف العقل
على ما فيه من القبح الثاني ان قوله تعالى الهين لفظ واحد يدل على امرين ثبوت
الاله وثبوت التعدد فاذا قيل لا تتخذوا الهين لم يعرف من هذا اللفظ ان النهي رفع
عن اثبات الاله او عن اثبات التعدد او عن مجموعهما فلما قال لا تتخذوا الهين اثنين
ظهر ان قوله لا تتخذوا نهي عن اثبات التعدد فقط الثالث في الاية تقديم وتاخير
والتقدير لا تتخذوا اثنين الهين الرابع ان الاسم الحامل لمعنى الافراد او التثنية
دال على شيئين على الجنسية والعدد المخصوص فاذا اريدت الدلالة على ان المعنى
به منهما والذي يساق اليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد
اليه والعناية به الا ترى انك لو قلت انما هو اله ولم تؤكده بواحد لم يحسن
وخيل انك تثبت الالهية لا الوحدانية ثم علل تعالى ذلك النهي بما اقتضاه السياق
من الوحدانية فقال انما هو اي الاله المفهوم من لفظ الهين الذي لا يستحق غيره
ان يطلق عليه هذا الضمير المجازا لانه لا يطلق اطلاقا حقيقيا الا على ما وجوده
من ذاته اله اي يستحق هذا الوصف على الاطلاق واحد لا يمكن ان يثنى بوجه ولا ان
يجر الغناء المطلق عن كل شي واحتياج كل شي اليه ولما دلت الدلايل على انه لا بد
للعالم من اله وثبت ان القول بوجود الهين محال وثبت انه لا اله الا الواحد الاحد
الفرد الصمد قال تعالى بعده فاياي فارهبون اي خافوني دون غيري والرهب
مخافة مع حزن واضطراب وانما نقل الكلام من الغيبة الى خطاب الحضور وهو
من طريقة الالتفات لانه ابلغ في الترهيب من قوله فاياي فارهبون ومن ان يجي

ما قبله على لفظ المتكلم ولما ثبت بالدليل الصحيح والبرهان الواضح ان اله العالم
لا شريك له في الالهية وجب ان يكون جميع المخلوقات عبيده وفي ملكه وتصرفه
وتحت قهره وذلك قوله تعالى وله اي الله واعاد الضمير في قوله على الله الاسم العلم
الجامع لجميع الاسماء الحسنى ما في السموات والارض اي مما نعقد ونذره وغيره فكيف
يتصور ان يكون شيء من ذلك الها وهو يملكه مع كونه محتاجا الى الزمان والمكان
وغيرهما وله الدين اي الطاعة وقوله تعالى واصبا اي دائما حال من الدين والعامل
فيه ما في الظرف من معنى الفعل قال ابن قتيبة ليس من احد بدان لله ويطاع الا
ان انقطع ذلك السبب حال الحياة او بالموت الا الحق سبحانه وتعالى فان طاعته
واجبة ابدا ولانه المنعم على عباده المالك لهم فكانت طاعته واجبة دائما ابدا
وقوله تعالى افغير الله اي الذي له العظمة كلها تتقون استفهام انكار والمعنى انكم
بعد ما عرفتم ان اله العالم واحد وعرفتم ان كل ما سواه محتاج اليه في وقت
دوامه وبقائه فبعد العلم بذلك كيف يعقل ان يكون للانسان رغبة في غير
الله او رهبة من غير الله ولما بين تعالى ان الواجب على العاقل الاتقي غير الله
بين انه يجب عليه ان لا يشكر احدا الا الله بقوله تعالى وما بكم من نعمة اي من نعمة
الاسلام وصحة الابدان وسعة في الارزاق وكل ما اعطاكم من مال او ولد
او جاه فمن الله هو المتفضل على عباده فيجب عليكم شكره على جميع انعامه
لان الشكر انما يجب على النعمة فثبت بهذا ان العاقل يجب عليه ان لا يخاف وان لا
يشكر الا الله تنبيه اختلج اصحابنا بهذه الاية على ان الايمان حصل بخلق الله
فقالوا الايمان نعمة وكل نعمة فمن الله ينتج ان الايمان من الله وايضا النعمة عبارة
عن كل ما يكون منتفعا به واعظم الاشياء في النفع هو الايمان فثبت ان الايمان
نعمة والمسلمون مطبقون على قولهم الحمد لله على نعمة الايمان والنعم اما دينية
واما دنيوية اما النعم الدينية فهي اما معرفة الحق لذاته واما معرفة الخير لاجل
العمل به واما النعم الدنيوية فهي اما نفسانية واما بدنية واما خارجية وكل واحد
من هذه الثلاثة تحت تحته انواع خارجة عن الحصر فقال تعالى وان تعدوا نعمة
الله لا تحصوها وقد مرت الاشارة الى ذلك عند ذكر هذه الاية ولما كان
اخلاصهم له مع ادعائهم الوهية غيره امرا مستبعدا عبر باداة الزاجي والبعد
في قوله تعالى ثم اذا مسكم اي اصابكم الضر بزوال نعمة مما انعم به عليكم وقال ابن عباس
يريد الاسقام والامراض والحاجة فاليه اي الى غير تجئرون اي ترفعون اصواتكم
بالاستغاثة لما ركز في فطركم الاولية السليمة من انه لا ملجأ ولا منجى منه الا اليه
ثم اذا كشف سبحانه ونقال الضر اي الذي مسكم عنكم ونبه على مسارعة الانسان
في الكفران فقال اذا فريق اي جماعة هم اهل فرقة وضلالة منكم اي ايها العباد
بربهم الذي تفرد بالانعام عليهم يشركون اي يعودون الاشراك بعبادة غيره
ليكفروا بما اتيناهم اي من النعم تنبيه في هذه اللام وجهان الاول انها لام
كي فيكون المعنى على هذا انهم انما اشركوا بالله ليجحدوا انعمه عليهم في كشف الضر عنهم
الثاني انها لام العاقبة كما في قوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا

والمعنى

والمعنى عاقبة أمرهم فوكلهم بما ابتلاهم من النعم وكشفنا عنهم الضر والبلاء إلى أن تقال
توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى فتمتعوا أي بما حصل عليكم على عبادة الأصنام وهذا لفظ أمر
والمراد منه التهديد كقوله تعالى قل آمنوا به أو لا تؤمنوا وقوله تعالى لعنا سلطانا فليوجد من
سلطانا فليكفر فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب والباقي تقال بالدلائل
الظاهرة فساد قول أهل الشرك والتشنيع شرح تفاصيل أقوالهم وبين فسادها
بأنواع الأول قوله تعالى ويجعلون أي المشركون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم
من الحرث والأنعام بقولهم هذا لله وهذا لشركائنا تبين الضرر وقوله تعالى لما لا يعلمون
عايد إلى الأصنام أي إن الأصنام لا تعلم شيئا البتة لأنها جماد والجماد لا علم له وقيل
عايد إلى المشركين وتعني لا تعلمون أنهم يسمونها آلهة فيعتذرون فيها بأن
مثل أنها تنفعهم وتشفع لهم وليس الأمر كذلك ثم أقسم سبحانه وتعالى بنفسه
على نفسه أنه يسألهم يوم القيامة بقوله تعالى تالله لتسألن سؤال توبيخ وفيه
التفات من الغيبة إلى الحضور وهو من بديع الكلام وبليغه عما كنتم تفترون
على الله من أنه أمركم بذلك تنبيه في وقت السؤال احتمالان الأول أنه يقع عند
القرب من الموت الثاني أنه يقع في الآخرة قال الرازي وهذا أولى النوع الثاني قوله
تعالى ويجعلون لله البنات ونظيره قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
إناثا كانت خزاعة وكنانة تقول الملائكة بنات الله قال الرازي اعلم أن
العرب إنما أطلقوا لفظ البنات على الملائكة لاستنكارهم عن البنون فاشتهوا لنسبة
الأنثوية إليهم فأطلقوا عليهم البنات قال بعض العلماء وهذا الذي قلته ليس ببعيد فإن الجن
أيضا مستترون عن العيون ولم يطلقوا عليهم لفظ البنات ولما حكى الله تعالى عنهم
هذا القول قال تعالى سبحانه وفيه وجهان الأول أن يكون المراد منه تنزيه
ذاته عن نسبة الولد إليه الثاني تعجب الخلق من هذا الجهل الصريح وهو وصفه
الملائكة بالأنوثة ثم نسبتها بالولد تنزه الله تعالى قال في التفسير معناه معاذ
الله وذلك مقارب للوجه الأول ولما ذكر تعالى ما جعلوا لله مع الغني المطلق
بين ما نسبوا لأنفسهم مع لزوم الحاجة والضعف بقوله تعالى ولهم ما يشتهون
من البنين وقد يكونون أعداءهم ثم إنه تعالى ذكر أن الواحد من هؤلاء المشركين
لما يضاف بالولد البنت لنفسه كيف ينسبه لله تعالى فقال وإذا بشر أحدهم بالأنثى
أي أخبر بولادتها ظل وجهه أي صار أو دام النهار كله مسودا من الكآبة فالحياء من الناس
واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتخجيل كما أن بياض الوجه واستنارته كناية
عن الفرح والسرور وهو كظيم أي مملوء غيظا على المرأة ولأدبها لها بوجه والبشارة
في أصل اللغة الخبر الذي يغير البشرة من حزن وسرور ثم خصص عرف اللغة بالسرور
ولا يكون إلا بالخبر الأول فالمراد بالبشارة هنا الإخبار كما مر وقال الرازي إن الإضافة
على الخبر والشر دخل في التحقيق خلاف المشهور يتوارى أي يستحيي من القوم أي
الرجال الذي هو فيهم من سوء ما بشر به خوفا من التعيير وذلك لأن العرب كانوا في
الجاهلية إذا أقرب المولادة زوجة أحدهم تواري عن القوم إلى أن يعلم ما ولد له فإن
ولد له ذكرا ابتهج وبشر بذلك وظهر وإن كانت أنثى حزن ولم يظهر أيا ما مترددا أما يفعل

بذلك الولد أيمسكه أي يتركه بغير قتل على هون أي هوان وذل أم يدسه في التراب
وذكر الضمير في يمسكه ويدسه نظرا للفظ الولد لكون الانثى ولدا كما علم مما مر قال
ابن ميلق قال المفسرون كانت المرأة اذا ادركها المخاض احتفرت حفرة وجلست
على شفيرها فان وضعت ذكرا اظهرته وظهر السرور على اهله وان وضعت
انثى استأذنت مستولدها ان شاء امسكها على هون وان شاء امر بالقائها في الحفرة
ورد التراب عليها وهي حية لتموت انتهى وعن قيس بن عاصم انه قال يا رسول الله
اني واريت ثمان بنات في الجاهلية فقال له صلى الله عليه وسلم اعتق عن كل واحدة
منهن رقبة فقال يا نبي الله اني ذو ابل قال اهد عن كل واحدة منهن هديا وروي
ان رجلا قال يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما اجد حلاوة الاسلام مذ قد
اسلمت فقد كانت لي في الجاهلية ابنة فامرت امرأتي ان تزينها فاخرجتها
فلما انتهت الى واد فيه بئر بعيد القعر القيتها فيها فقالت يا ابت قتلتني
فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء فقال صلى الله عليه وسلم ما كان في الجاهلية فقد
هدمه الاسلام وما في الاسلام يهدمه الاستغفار وكانوا في الجاهلية مختلفين
في قتل البنات فمنهم من يحفر الحفرة ويدفنها فيها الى ان تموت ومنهم من يرميها
من شاهق جبل ومنهم من يغرقها ومنهم من يذبحها وهم كانوا يفعلون ذلك تارة
للغيرة والحمية خوفا من ان يطمع فيهن غير الاكفاء وتارة خوفا من الفقر وكثرة
العيال ولزوم النفقة وكان الذي منهم يريد ان يحيي ابنته تركها حتى تكبر ثم
يلبسها جبة من صوف او شعر ويجعلها ترعى الابل والغنم في البادية قال الله تعالى
الا ساء أي بئس ما يحكمون حكمهم هذا وذلك لانهم بلغوا في الاستنكاف من البنت
الى اعظم الغايات فاولها انه يسود وجهه وثانيها انه يختفي من القوم من شدة
نفرته عن البنت وثالثها ان الولد محبوب بحسب الطبيعة ثم انه بسبب شدة
نفرته عنها يقدم على قتلها وذلك يدل على ان النفرة عن البنت والاستنكاف
عنها قد بلغ مبلغا لا يزداد عليه فكيف يليق بالعاقل ان يثبت ذلك
لاله العالم المقدس العالي عن مشابهة جميع المخلوقات ونظير هذه الاية قوله تعالى
الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة ضيزى ثم قال تعالى للذين لا يؤمنون بالآخرة
وهم الكفار مثل السوء اي الصفة السوء بمعنى القبيحة وهي قتلهم البنات مع احتياجهم
اليهن للنكاح ولله المثل الاعلى اي الصفة العلى وهو انه لا اله الا هو وانه له
جميع صفات الجلال والكمال من العلم والقدرة والبقاء السرمدي وغير ذلك من
الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه وقال ابن عباس مثل السوء النار والمثل
الاعلى شهادة ان لا اله الا الله فان قيل كيف جاء لله المثل الاعلى مع قوله تعالى
فلا تضربوا لله الامثال اجيب بان المثل الذي يضربه الله تعالى حق وصدق
والذي يذكره غيره باطل وهو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء فلا نظير له الحكيم
الذي لا يوقع شيئا الا في محله ولما حكى تعالى عن القوم عظيم كفرهم وقبيح قولهم
بين انه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة اظهارا للفضل والرحمة والكرم
بقوله تعالى ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم اي بسبب كفرهم ومعاصيهم

ما ترك

ما ترك عليها اى الارض وانما اضمر ذكرها من غير ذكر لدلالة الناس والدابة عليها من دابة
اى ان الله تعالى لو واخذ الناس بظلمهم لاهلك جميع الدواب التى على وجه الارض فان
قيل الناس اسم جنس يشمل الكل فيدخل فى ذلك الانبياء فجوابه ان ذلك على عدم عصمتهم
اجيب بان ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا
فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فالمذكور فى هذه
الاية اما كل العصاة المستحقين العقاب او الذين تقدم ذكرهم من المشركين ومن الذين
اشتد الله البينات او جميع الكفار بدليل قوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين
كفروا وقال قتادة قد فعل الله تعالى ذلك بزمن نوح عليه السلام فاهلك جميع
الدواب التى على وجه الارض الا من كان فى السفينة مع نوح عليه السلام روى ان
ابا هريرة رضى الله تعالى عنه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بئسما
قلت اما سمعت بعير امرئ هزلى من ظلم الظالم وقال ابن مسعود ان الحبل ليعذب
فى جحرها بذنب ابن آدم والجعل بضم الجيم وفتح العين دويبة قاله الجوهرى وقيل فى
معنى الاية ولو يعاجل الله الاباة الظالمين بسبب ظلمهم لانقطع النسل ولم توجد
الابناء ولم يبق فى الارض احد ولكن يؤخرهم اى يمهلهم بفضله وكرمه وحلمه الى اجل مسمى
اى الى انتهاء اجالهم وانقضاء اعمارهم فاذا جاء اجلهم لا يستاخرون ساعة عنه ولا
يستقدمون اى لا يوخرون ساعة من الاجل الذى جعله الله تعالى لهم ولا يتقدمون منه
تنبيه هنا همزتان مفتوحتان من كلمتين قرا قالون والبزى وابو عمرو باسقاط
احدى الهمزتين مع المد والقصر وقراءة ورش وقنبل بتسهيل الثانية وابدال الظاهر وقد
والباقون بتحقيق الهمزتين النوع الثالث من الاقاويل الفاسدة التى كان يذكرها
الكفار وحكاها الله تعالى عنهم بقوله تعالى ويجعلون لله ما يكرهون لانفسهم من البنات
اذ لا ولاد له والاموال والشركاء فى الرياسة ثم وصف الله تعالى جراءتهم مع ذلك بقوله تعالى
وتصف اى تقول السنتهم اى مع ذلك مع انه قوله لا ينبغى ان يتخيله على ما قبل ثم
بينه بقوله تعالى ان لهم الحسنى اى عنده وهو الجهل اعظم والحكم اى الجنة كقوله
تعالى ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ولا جهل اعظم ولا احكم اسوا من ان يقطع
بانه من يجعل له ما يكره ان يجعل له ما يحب فكانه قيل لهم عنده فقيل لا جرم اى لا ظن
ولا تردد فى ان لهم النار اى بدل الطالمين وقيل لا حرم بمعنى حتما وانهم مفرطون
اى متروكون فيها او معذبون اليها وقرا نافع بكسر الراء اى متجاوزون الحد والباقون
بالفتح فان قيل انهم لم يقروا بالبعث فكيف يقولون ان لنا الحسنى عند الله اجيب
بانهم قالوا ان كان محمد صادقا فى البعث فلنا الجنة وقيل انه كان لهم كتب الغرور
جمع يغرون بالبعث والجنة وانهم كانوا يرطبون البعير النفيس على قبر الميت وينتظرونه
الى ان يموت ويقولون ان ذلك الميت اذا حشر فانه يحشر ناقته فتركوبه ثم بين تعالى ان مثل
هذا الصنع الذى يصدر عن مشرك قريش قد صدر عن سائر الامم السالفة من حق الانبياء
المتقدمين بقوله تعالى تالله اى الملك الاعلى لقد ارسلنا اى بما لنا من العظمة رسلا
من الماضين الى امم من قبلك كما ارسلناك الى هولاء فزين لهم الشيطان اى المتمرد
بالغضب المطرود باللعنة اعمالهم الخبيثة من الكفر والتكذيب كما زين لهولاء فضلوا

كما ضلوا فاهلكناهم وهذا يجري مجرى التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم والمراد في الحقيقة هو الله تعالى هذا مذهب اهل السنة واما جعل الشيطان الذي بالقاء الوسوسة في قلوبهم وليس له قدرة على ان يضل احدا او يهدي احدا وانما له الوسوسة فقط فمن اراد الله تعالى سلامته وفقه حتى يقبل وسوسته فهو وليهم اليوم اي في الدنيا وعبر باليوم عن زمانها اي هو وليهم حين كانوا يزينون لهم او يوم القيامة على انه حكاية حال آتية او ماضية اي الاولى لهم غيره وهو عاجز عن نصرتهم فكيف ينصرهم وقيل الضمير لقريش اي مزين الشيطان الكفرة المتقدمين اعمالهم وهو ولي قرينه اليوم بغرهم وبغرهم وقيل يجوز ان يقدر مضاف اي فهو ولي امثالهم والوجه الاول والتنكير للتعظيم اي عذاب عظيم او للتكثير اي انواع كثيرة من العذاب اليم اي مؤلم في الآخرة ثم ذكر تعالى انه تمم هذا الوعيد الشديد فقد اقام الحجة واراح العلة بقوله تعالى وما انزلنا اي مما لنا من العظمة من جهة العلو او من جهتي المستعلي عليك يا اشرف الرسل الكتاب اي القرآن الا لتبين لهم اي الناس الذي اختلفوا فيه من امر الدين مثل التوحيد والشرك واثبات المعاد ونفيه فانه كان فيهم من ينكر البعث ومنهم من يقول به ومنهم عبدة الصنم ومثل تحريم الحلال كالبحيرة والسائبة وتحليلهم اشياء محرمة كالميتة فان قيل اللام في لتبين تدل على ان افعال الله تعالى معللة بالاغراض كقوله تعالى في كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس وقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اجيب بانه لما ثبت بالعقل امتناع التعليل وجب صرفه الى التاويل وقوله تعالى وهدى ورحمة اي واكراما بحجة مقطوفان على محل لتبين لانهما انتصبا على انهما مفعول لهما لانهما فعلا الذي انزل الكتاب فقد حللت اللام على التبين لانه فعل المخاطب لا فعل المنزل وانما ينتصب مفعولا له ما كان فعل ما عمل الفعل المعلل ولما كان ذلك دعا مستلمهم وهم على ضلالهم فتاه بقوله تعالى لقوم يؤمنون وتظير قوله تعالى في اول البقرة هدى للمتقين وانما خص المؤمنين بالذكر من حيث انهم قبلوه وانتفعوا به كما في قوله تعالى انما انت منذر من يخشاها لانه انما انتفع بانذاره هذا القوم فقط ولما انتفى الدليل على ان قلوبهم منكرة مستكبرة وما يتعلق به وختمه بما اجري به القلوب بالايمان والعلم تعقد قوتها بالكفر والجهل وكان المقصود الاعظم من القرآن تقرير اصول اربعة الالهيات والنبوات والمعاد واثبات القضاء والقدر والفعل بالاختيار وكان اجل هذه المقاصد الالهيات شرع في ذكر الوحدانية والعدالة والفعل بالاختيار المستلزم للقدرة على البعث على وجه غير المتقدم ليعلم ان له في ذلك اكثر من الف اسجار واحلى من حبات الانهار فعطف على قوله تعالى والله يعلم ما تسرون وما تعلنون فقوله جامع في الدليل بين العالم العلوي والعالم السفلي والله اي الذي له الامر كله انزل من السماء في الوقت الذي يريده ماء بالمطر والثلج والبرد فاحيى به اي بذلك الماء الارض اي بسائر انواع النبات بعد موتها اي يبسها ان في ذلك المذكور لآية اي عبرة لا لزة واضحة على كمال قدرته تعالى اموال يستمعون اي سماع تدبر وانصاف ونظر لان سماع القلوب هو النافع لا سماع الاذان فمن سمع ايات القرآن بقلبه وتدبرها وتفكر فيها انتفع ومن لم يسمع بقلبه فكانه اصم لم يستمع فلم ينتفع

بالايات .

الثاني والاربعون
من الثاني

بالايات ومن الدلايل المذكورة في هذه الاية الاستدلال بحال بهيمة الانعام على احوال الحيوانات وهو
قوله تعالى وان لكم في الانعام لعبرة اي اعتبارا اذا تفكرتم فيها وعرفتم كما قدرنا وقوله
تعالى نسقيكم مما في بطونه استيناف بيان العبرة وانما ذكر الضمير لان لفظ الانعام
مفرد وضع لافادة الجمع كالرهط والقوم ولامن اللبس والدلالة على قوة المعنى لكونها سورة
النعم وانثه في سورة المومنون للمعنى فان الانعام اسم جمع ولذلك عده سيبويه في باب
ما لا ينصرف في الاسماء المفردة الواردة على افعال كغلو لعدم تقوم اكياش بها تحتية
وشين معجمة ضرب من النبات يعلف دريئتين ومن قال جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن
لبعضها دون جميعها وقرا نافع وابن عامر وشعبة بفتح النون نقول سقيته حتى
روى قال تعالى وسقاهم ربهم شرابا طهورا والباقون بضمها من قولك اسقاه اذا جعل
له شربا اما لقوله تعالى واسقيناكم ماء فراتا ولما كان في موضع العبرة تخليص اللبن
من غيره قدم قوله تعالى من بين فرث وهو الثفل الذي نزل الى الكرش مما اخرج
منه لم يسم فرثا ودم لبنا خالصا ايضا مما خلقه الله وسطا بين الفرث والدم
بكتفائه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي عليه احدهما بلون او رايحة
او طعم روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اذا اكلت البهيمة العلف واستقر في كرشها
طبخته فكان اسفله فرثا واوسطه لبنا واعلاه دما والكبد مسلطة على هذه
الاصناف الثلاثة تقسمها فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع ويبقى الفرث في الكرش
فسبحان الله ما اعظم قدرته والطف حكمته لمن تفكر وتامل وسيل شقيق عن الاخلاص
فقال تمييز العمل من العيوب كتمييز اللبن من بين فرث ودم سائغا للشاربين
اي سهل المرور في الحلق ويقال لم يغص احد باللبن قط بتنبيه قال اهل التحقيق
اعتبار حدوث اللبن كما يدل على وجود الصانع المختار كذلك يدل على الحشر والنشر وذلك
لان هذا العشب الذي ياكله الحيوان انما يتولد من الماء والارض فخالق العالم دبره
تدبيرا اخر فغلب ذلك الدم لبنا ثم دبره تدبيرا اخر حدث منه ذلك اللبن الشفاف الخالص
فهذا الاستقراء يدل على انه تعالى قادر على ان يغلب هذه الاجسام من صفة
الى صفة ومن حالة الى حالة فاذا كان كذلك لم يمتنع ايضا ان يكون قادرا على
ان يقلب اجزاء ابدان الاموات الى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك فهذا
الاعتبار يدل من هذا الوجه على ان البعث والقيامة امر ممكن غير ممتنع
وفي حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقا للتغذية
الطفل مشتمل على حكمة عجيبة يشهد صريح العقل بانها لا تحصل الا بتدبير الفاعل
الحكيم المدبر وبيانه من وجوه الاول انه تعالى خلق في اسفل المعدة منفذا يخرج
منه ثفل الغذاء فاذا تناول الانسان غذاء او شرابا انطبق ذلك المنفذ انطباقا
كليا لا يخرج منه شيء من ذلك الماكول والمشروب الى ان يكمل انهضامه في المعدة ويتجذب
ما صفي منه الى الكبد ويبقى الثفل هناك حينئذ تنفتح ذلك المنفذ وينزل منه
ذلك الثفل وهذا من العجايب التي لا يمكن حصولها الا بتدبير الفاعل الحكيم لانه متى
كانت الحاجة الى خروج ذلك الجسم عن المعدة انفتح فحصول الانطباق تارة والانفتاح
اخرى بحسب الحاجة وبقدر المنفعة مما لا يتاتى الا بتقدير الفاعل الحكيم العالم

امكان

BIBLAC

عند تولد اللبن في الضرع يحدث الله تعالى في حلمة الثدي ثقبا صغيرة ومسامًا
ضيقة وجعلها بحيث اذا اتصل المص والحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها ولما
كانت تلك المسام ضيقة جدا كان لا يخرج منها الا ما كان في غاية الصفا واللطافة
واما الاجزا الكثيفة فانه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى
في الداخل فالحكمة في احداث تلك الثقب الصغيرة والمنافذ الضيقة في راس حلمة
الثدي انها تكون كالمصفاة فكل ما كان لطيفا خرج وكلما كان كثيفا احتبس
في الداخل ولم يخرج فبهذا الطريق يصير اللبن خالصا موافقا لبدن الطفل سائغا
للشاربين الثالث انه تعالى الهم ذلك الطفل الى المص فان الام كما القمت حلمة
الثدي في فم الطفل فذلك الطفل في الحال ياخذ في المص ولولا ان الفاعل المختار الرحيم
الهم ذلك الطفل الصغير ذلك العمل المخصوص والا لم يحصل الانتفاع بتخليق
ذلك اللبن في الثدي وقوله تعالى **ومن ثمرات النخيل والاعناب** متعلق بمحذوف
تقديره نسقيكم من ثمرات النخيل والاعناب اي من عصيرهما وحذف لدلالة نسقيكم
قبل عليه وقوله تعالى **تتخذون منه سكرا** بيان وكشف عن كنه الاسقا قال الواحدي
الاعناب عطف على الثمرات لا على النخيل لانه يصير التقدير ومن ثمرات الاعناب
والعنب نفسه ثمرة اخرى **ورزقا حسنا** كالتمر والزبيب والدبس والخل تنبيه
في تفسير السكر وجوه الاول هو الخمر سميت بالمصدر من سكر سكرا وسكرا نحو رشد رشدا
ورشدا فان قيل الخمر محرمة فكيف ذكرها الله تعالى في معرض الانعام اجيب عن ذلك
بوجهين احدهما ان هذه السورة مكية وتحريم الخمر نزل في سورة المائدة فكان نزول
هذه الاية في الوقت الذي كانت الخمر غير محرمة وممن قال بنسخها النخعي والشعبي الثاني
ان الاية جامعة بين العتاب والمنة فالعتاب بالنسبة الى السكر والمنة بالنسبة
الى رزقا حسنا الوجه الثاني ان السكر هو النبيذ وهو عصير العنب والزبيب والتمر
فاذا طبخ حتى يذهب ثلثاه ثم يترك حتى يشتد وهو حلال عند ابي حنيفة رحمه
الله تعالى لما حد السكر ويحتج بهذه الاية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها
وهذا يقتضي ان يكون السكر شيا غير الخمر وكل من اثبت هذه المغايرة قال انه النبيذ
المطبوخ والوجه الثالث ان السكر هو الطعام قالوا ابو عبيدة واحتج عليه بقول الشاعر
جعلت اعراض الكرام سكرا اي تنقلت باعراضهم بان جعلتها نقلا وتناولتها والنقل
ما ينتقل على الشراب قال البغوي واولى الاقاويل ان قوله تعالى تتخذون منه سكرا
منسوخ انتهى ويدل له قول الحسن ذكر الله نعمته عليهم في الخمر قبل ان يحرمها عليهم وروي
عن ابن عباس قال السكر ما حرم من ثمرها والرزق الحسن ما احل من ثمرها وروي عنه ايضا
السكر الحرام منه والرزق زبيبه وخله وعنبه ومنافعه ثم قال تعالى **ان في ذلك** المذكور
لاية اي دلالة على قدرته تعالى **لقوم يعقلون** اي يستعملون عقولهم بالنظر
والتامل في الايات فيعلمون ان هذه احوال لا يقدر عليها الا الله تعالى فيحتج
بحصولها على وجود الاله القادر الحكيم ولما بين تعالى ان اخراج الالبان واخراج السكر
والرزق الحسن من ثمرات النخيل والاعناب دليل قاطع وبرهان ساطع على ان لهذا
العالم الها قادرا مختارا حكيما ذكر ان اخراج العسل الذي جعله تعالى شفا للناس

من دابته

من دابة ضعيفة وبنى النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على اثبات هذا المقصود بقوله
تعالى وأوحى ربك إلى النحل وحي الهام قال الضحاك الهمها ولم يرسل اليها رسولا والمراد
من الالهام انه تعالى قدر في انفسها هذه الاعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلا
من البشر وبيانه من وجوه الاول ما ذكر الله تعالى بقوله تعالى أن اتخذي اي بان اتخذي
ويجوز ان تكون مفسرة لان في الايحا معنى القول من الجبال بيوتا تاوين اليها
وانما سمي ما تبنيه للتعسل فيه بيتا تشبيها ببيت الانسان فتبنى البيوت المسدسة
من اضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها والعقلا من البشر لا يمكنهم
مثل تلك البيوت الا بالات وانظار دقيقة الثاني انه ثبت في الهندسة ان تلك
البيوت لو كانت مشكلة باشكال سوى المسدسات كان كانت مدورة او مثلثة
او مربعة او غير ذلك من الاشكال فانه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية
ضايعة فاهتدا تلك الحيوانات الضعيفة الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة
من الاعاجيب الثالث ان النحل يحصل بينها واحد كالرييس للبقية وذلك الواحد يكون
اعظم جثة من الباقي ويكون نافذ الحكم على تلك البقية وهم يخدمونه ويحملونه عند
تعبه وذلك ايضا من الاعاجيب الرابع انها اذا نفرت عن وكرها ذهبت مع الجمعية
الى موضع اخر فاذا ارادوا عودها الى وكرها ضربوا الطبول والاتا الموسيقى وبواسطة
تلك الالحان يقدرون على ردها الى اوكارها وهذا ايضا حالة عجيبة فلما امتاز هذا
الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكا والكياسة ليس الا على سبيل الالهام
وهو حالة شبيهة بالوحي والوحي قد ورد في حق الانبيا كقوله وما كان لبشر ان يكلمه
الله الا وحيا وفي حق الاوليا قال تعالى واذ اوحيت الى الحواريين وبمعنى الالهام
في حق البشر قال تعالى واوحينا الى ام موسى وفي حق ساير الحيوانات خاص قال الزجاج
يجوز ان يقال يسمى هذا الحيوان نحلا لان الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج
من بطونها وقال غيره النحل يذكر ويؤنث وهي مؤنثة في لغة الحجاز ولذلك انثها
الله تعالى وكذلك كل جمع ليس بينه وبين واحده الا الها واتخذي من الشجر اي الصالحة
بيوتا واتخذي مما يعرشون اي الناس يبنون لك من الاماكن وذلك ان النحل منه
وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر والكهوف ومنه اهلي وهو الذي ياوي الى
البيوت وتربية الناس عندهم وقد جرت العادة ان الناس يبنون للنحل الاماكن
حتى ياوي اليها وذكر ذلك بحرف التبعيض لانها لا تبنى في كل جبل وكل شجر وكل
ما يعرش من كرم وسقف ولا في كل مكان منها وقرا ابن عامر وشعبة بضم الرا والباقون بكسرها
تنبيه ظاهر قوله تعالى اتخذي امر وقد اختلفوا فيه فمن الناس من يقول لا بعد
ان يكون لهذه الحيوانات عقول ولا بدع ان يتوجه عليها من الله امر ونهي وقال اخرون
بل المراد منه انه تعالى خلق فيها غرايز وطبايع توجب هذه الاحوال وسياتي الكلام
على ذلك ان شا الله تعالى في سورة النمل عند قوله تعالى يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم
ولما كان اهم شي للحيوان بعد الراحة من هم المقبل اكل شي ثنى به فقال ثم كلي من
كل الثمرات اي من كل ثمرة يشتهيها مرها وحلوها وذكر ذلك بحرف التراخي اشارة الى عجيب
الصنع في ذلك وتيسيره لها تنبيه لفظ من هذا للتبعيض او لابتدا الغاية ولما اذن

لها في ذلك كله وكان من المعلوم عادة ان تعاطيه لا يكون الا بمشقة عظيمة في معاناة السير
اليه نبه على خرقه العادة في تيسيره لها بقوله تعالى فاسلكي سبل ربك اي الطرق التي
الهمك الله تعالى ان تسلكيها وتدخلي فيها لاجل طلب الثمار وقوله تعالى ذللا جمع ذلول حال
من السبل اي مسخرة لك فلا تعسر عليك وان توعرت ولا تضلي عن العود فيها وان بعدت
وقيل من الضمير في اسلكي اي منقادة لاربابها حتى انهم ينقلونها من مكان الى مكان اخر
حيث شاؤا وارادوا لا تستعصي عليهم وقوله تعالى يخرج من بطونها فيه عدول عن
خطاب النحل الى خطاب الناس لانه محل الانعام عليهم والمقصود من خلق النحل والهامه
لاجلهم شراب اي عسل مختلف الوانه ما بين ابيض واحمر واصفر وغير ذلك من الوان
العسل وذلك على قدر ما ياكل من الثمار والازهار ويستحيل في بطونها عسلا بقدرة
الله تعالى ثم يخرج من افواهها بسبيل كاللعاب وقال الرازي انه راى في بعض كتب الطب
ان العسل طل من السما ينزل كالترنجبين فيقع على الازهار واوراق الشجر فتجمعه النحل
فياكل بعضه ويدخر بعضه في بيوتها لانفسها ليتغذى به فاذا اجتمع في بيوتها من تلك
الاجزا اللطيفة شي كثير فذلك هو العسل وقال هذا القول اقرب الى العقل
لان طبيعة الترنجبين يقرب من طبيعة العسل وايضا انا نشاهد ان النحل يتغذى
بالعسل واجاب عن قوله تعالى يخرج من بطونها لان كل تجويف في داخل البدن يسمى بطنا
فقوله تعالى يخرج من بطونها اي من افواهها انتهى والاول كما قال ابن الخازن وغيره اظهر
لانا نشاهد ان العسل يوجد فيه طعم تلك الازهار التي ياكلها النحل وكذا توجد
لذتها وريحها وطعمها فيه ايضا ويعضد هذا قول بعض ازواج النبي صلى الله عليه وسلم
له اكلت مغافير قال لا قالت شاهدة الريح التي اجد منك قال سقتني حفصة
شربة عسل قالت خرست نحلة العرفط والعرفط شجر الطلع له صبغ يقال له المغافير
كريهة الرائحة فمعنى خرست نحلة العرفط اكلت ورعت من العرفط الذي له الرائحة الكريهة
فثبت بهذا ان يوجد في طعم العسل ولونه وريحه طعم ما ياكل النحل ولونه وريحه لا ما قاله
الاطبا من انه طل لانه لو كان طلا لكان على لون واحد وقوله كل تجويف في داخل البدن
يسمى بطنا خلاف الظاهر لان لفظ البطن اذا اطلق لم يرد به الا العضو المعروف قيل بطن
الانسان وغيره فيه اي الشراب الذي يخرج من بطون النحل شفا للناس من الاوجاع
كما قاله ابن عباس وابن مسعود اما لبعضها كما دل عليه تنكير شفا واما لكلها بضميمته الى غيره
اذ قل معجون من المعاجين لم يذكر الاطبا فيه العسل او بدونها بنيته وبهذا سقط ما قيل
انه يضر باصحاب الصفرا ويهيج الحرارة ويضر بالشباب المحرورين ويعطش قال ابن مسعود
العسل شفا من كل دا والقران شفا لما في الصدور وفي رواية عنه عليكم بالشفا من القران
والعسل وروى نافع ان ابن عمر ما كانت قرحة ولا شي الا الطخ الموضع بالعسل ويقرا
يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفا للناس وعن ابي سعيد الخدري رضي الله
تعالى عنه قال جا رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان اخي يشتكي بطنه فقال صلى
الله عليه وسلم اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب
فاسقه العسل فقد صدق الله وكذب بطن اخيك فسقاه فشفاه الله فبرا فكانما
انشط من عقال فقوله صلى الله عليه وسلم صدق الله وكذب بطن اخيك يحتمل انه صلى الله

او ارادوا

عليه وسلم

عليه وسلم علم بنور الوحي الالهي ان العسل الذي امره بشربه سيظهر نفعه بعد ذلك فلما لم يظهر
نفعه في الحال قال صدق الله يعني فيما وعد به من ان فيه شفا للناس وكذب بطن اخيك
يعني باستعجالكم للشفا في اول مرة وقال مجاهد الضمير في فيه شفا للناس راجع للقران
لان فيه شفا من امراض الشرك والجهالة والضلالة وهو هدى ورحمة للناس
وعلى هذا تمت قصة تولد العسل من النحل عند قوله تعالى يخرج من بطونها شراب
مختلف الوانه ثم ابتدا وقال فيه شفا للناس اي في هذا القران قال الرازي وهذا
قول ضعيف ويدل عليه وجهان الاول ان الضمير في قوله تعالى فيه شفا للناس
يجب عوده الى اقرب المذكورات وما ذاك الا قوله تعالى شراب مختلف الوانه
واما الحكم بعود هذا الضمير الى القران مع انه غير مذكور فيما سبق فهو غير مناسب
والثاني حديث ابي سعيد الخدري المتقدم ثم انه تعالى ختم الاية بقوله تعالى **ان في ذلك**
اي المذكور **لاية لقوم يتفكرون** اي في اختصاص النحل بتلك الطعوم الدقيقة واللطائف
الخفية مثل بنا البيوت المسدسة وغير ذلك فيعتبرون ويستدلون بما ذكرنا
على وحدانيتنا وقدرتنا وقد كثر في هذه السورة اضافة الايات الى المخاطبين
تارة بالافراد وتارة بالجمع ونوعها تارة بالعقل وتارة بالفكر وتارة بالذكر وتارة
بغيرها ثم انه تعالى لما ايقظهم من رقدتهم ونبههم على عظيم غفلتهم ثنى ببعض ما في
انفسهم من الادلة على ذلك فقال **والله** اي المحيط بكل شي قدرة وعلما **خلقكم** اي اوجدكم من العدم
واخرجكم الى الوجود ولم تكونوا شيا **ثم يتوفاكم** اي عند انقضا اجالكم على اختلاف الاسنان
فلا يقدر الصغير على ان يوخر ولا الكبير على ان يقدم فمنكم من يموت حال قوته **ومنكم من**
يرد الى ارذل العمر اي اخسه من الهرم والخرف قال بعض العلما عمر الانسان له اربع
مراتب سن الطفولية والنمو وهو من اول العمر الى بلوغ ثلاث وثلاثين سنة وهو غاية
سن الشباب وبلوغ الاشد ثم المرتبة الثانية سن الوقوف وهو من ثلاثة وثلاثين سنة
الى اربعين سنة وهو غاية القوة وكمال العقل والمرتبة الثالثة سن الكهولة وهو
من الاربعين الى الستين وهذه المرتبة يشرع الانسان في النقص لكنه يكون نقصا خفيا
لا يظهر ثم المرتبة الرابعة سن الشيخوخة والانحطاط من الستين الى اخر العمر يتبين النقص
ويكون الهرم والخرف قال علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه ارذل العمر خمسة وستون
سنة وقيل ثمانون سنة وقال قتادة تسعون وعن انس رضي الله تعالى عنه قال
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اللهم اني اعوذ بك من العجز والهرم والبخل
واعوذ بك من عذاب القبر وفتنة المحيا والممات وفي رواية عنه كان يقول
اللهم اني اعوذ بك من البخل والكسل وارذل العمر وعذاب القبر وفتنة المحيا والممات
لكيلا يعلم بعد علم شيا اي ليصير الى حالة شبيهة بحال الطفولية في نقصان القوة
والعقل وسوء الفهم تنبيه هل ذلك عام في المسلم والكافر او مختص بالكافر فيه قولان
احدهما انه عام والقول الثاني انه مختص اذ المسلم لا يراد بطول العمر الا كرامة على الله
ولا يقال في حقه انه رد الى ارذل العمر قال الرازي والدليل عليه قوله تعالى ثم رددناه
اسفل سافلين الا الذين امنوا وعملوا الصالحات فبين ان الذين امنوا وعملوا الصالحات
ما ردوا الى اسفل السافلين وقال عكرمة من قرا القران لم يصر بهذه الحالة وقال في قوله

BULAC

تعالى الا الذين امنوا وعملوا الصالحات هم الذين قرأوا القرآن وقال ابن عباس قوله تعالى
ثم رددناه اسفل سافلين يريد الكافرين ثم استثنى المؤمنين فقال الا الذين امنوا
وعملوا الصالحات وهذا يؤيد ما مر ان الله عليم بمقادير اعمارهم قدير يميت
الشاب النشيط ويبقي الهرم الفاني وفي ذلك تنبيه على ان تفاوت احوال الناس ليس
الا بتقدير قادر حكيم ركب ابنيتهم وعدل امزجتهم على قدر معلوم ولو كان مقتضى
الطباع كما يقول الطبايعيون لم يبلغ التفاوت هذا المبلغ ولما ذكر تعالى المفاوتة
في الاعمار المنادية بابطال الطبايع الموجبة للمسابقة الى الاعتبار لاولي الابصار
للخوف كل لحظة من معصية الموت ثنى بالمفاوتة في الارزاق فقال والله اي الذي
له الامر كله فضل بعضكم اي الناس على بعض في الرزق فمنكم غني ومنكم فقير ومنكم
مالك ومنكم مملوك كل ذلك بتقدير العزيز الحكيم فيجعل الضعيف العاجز الجاهل
اغنى من القوي المختال العالم فترى اكيس الناس واكثرهم عقلا يفني عمره في طلب القليل
من الدنيا ولا يتيسر له ذلك وترى اجلف الخلق واقلهم عقلا وفهما تنفتح له ابواب الدنيا
فكل شيء خطر بباله او دار في خياله فانه يحصل له بسهولة ولو كان السبب في ذلك هو جهد
الانسان وعقله لوجب ان يكون الاعقل افضل في هذه الاحوال فلما راينا ان الاعقل
اقل نصيبا وان الاجهل الاخس اوفر نصيبا علمنا ان ذلك بسبب قسمة القسام كما قال تعالى
اهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فاتقوا الله واجملوا
في الطلب واقبلوا بجميع قلوبكم على ما ينفعكم من الاستبصار وانشد سفيان بن عيينة
كم من قوي قوي في تقلبه مهذب الراي عنه الرزق منحرف ومن ضعيف ضعيف
العقل مختلط كانه من خليج البحر يغترف وحكي ان سليمان المهلبي ارسل الى الخليل
احمد بمائة الف درهم فرده الخليل وكتب اليه هذه الابيات ابلغ سليمان اني عنه في سعة
وفي غنى غير اني لست ذا مال تشحى بنفسي اني لا ارى احدا يموت جوعا ولا يبقى على حال
فالعجز عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال والفقر في النفس لا في المال
نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال وقال الشافعي رحمه الله تعالى ومن الدليل
على القضا وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق تنبيه هذا التفاوت ليس مختصا
بالمال بل هو حاصل في الذكا والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم
والاسم الحسن والاسم القبيح وهذا بحر لا ساحل له قال الرازي وقد كتب مصاحبا لبعض
الملوك في بعض الاسفار وكان ذلك الملك كثير المال والجاه فكانت الجنايب الكثيرة تقاد بين
يديه وما كان يمكنه ركوب واحد منها وربما احضرت الاطعمة الشهية والفواكه الكثيرة
العطرة عنده وما كان يمكنه ان يتناول شيئا منها وكان من الفقراء من هو صحيح المزاج
وقوي البنية كامل القوة وما كان يجد ملء بطنه طعاما فذلك الملك وان كان يفضل
هذا الفقير في المال الا ان هذا الفقير كان يفضل على ذلك الملك في الصحة والقوة وهذا
باب واسع اذا اعتبره الانسان عظم تعجبه فيه فنسال الله تعالى ان يغنينا من فضله
وان يرضينا بما قسم لنا انه كريم جواد ثم ضرب الله تعالى مثلا للذين جعلوا لله شركا بقوله
تعالى فما الذين فضلوا اي في الرزق وهم الموالي برادي رزقهم على ما ملكت ايمانهم اي بجاعلي
ما رزقناهم من الاموال وغيرها بينهم وبين مماليكهم فهم اي المماليك والموالي فيه سواء

اي

اي شركا بقول الله تعالى هم لا يرضون ان يكونوا هم ومماليكهم في ما رزقناهم سواء فكيف
يجعلون بعض عبيدي شركاء في ملكي وسلطاني وقيل في معنى الاية ان الموالي والمماليك
الله رازقهم جميعا فهم في رزقه سواء فلا حسن الموالي يردون رازقهم عما ملكتهم من عند
انفسهم بل ذلك رزق الله اجراه على ايدي الموالي للمماليك والمقصود منه بيان ان الرازق
هو الله تعالى للجميع خلقه وان الموالي والمماليك في ذلك الرزق سواء وان المالك لا يرزق
المملوك وانما ذلك رزق قد اجرينه اليهم على ايديهم فالرازق للمالك والمملوك هو الله
تعالى ولما قرر سبحانه وتعالى بهذه الدلائل ربوبيته واظهرها بحيث يعلمها كل عاقل
كان ذلك انعاما عظيما منه على الخلق فعند هذا قال افبنعمة الله في تقرير هذه البيانات
وايضاح هذه البينات يجحدون اي يكفرون وفي ذلك انكار على المشركين حيث جحدوا نعمة
وعبدوا غيره وجعلوا له شركاء يضيفون اليهم بعض ما انعم به عليهم تيسوي بينهم وبينه
في ذلك وقرأ شعبة بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم انه تعالى ذكر نوعا
اخر من اخوال الناس يستدل به على وجود الاله المختار الحكيم وينبههم على انعام الله تعالى
على عبيده بمثل هذه النعم بقوله تعالى والله اي الذي له تمام القدرة وكمال العلم جعل لكم
من انفسكم ازواجا اي من جنسكم لتسكنوا بها ولتكون اولادكم منكم مخلوقة من ضلع ادم
وسائر النساء من نطف الرجال والنساء هو خطاب عام فتخصيصه بادم وحوا فقط خلاف
الدليل والمعنى انه تعالى خلق النساء لتتزوج بهن الذكور ومعنى من انفسكم كقوله تعالى فاقتلوا
انفسكم فسلموا على انفسكم اي بعضكم بعضا ونظيره قوله تعالى ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم
ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة والحفدة جمع حافد وهو المسرع في الخدمة من
المسارعة الى الطاعة ومنه قنوت القانت والبنات تسعى وتحفد اي تسرع الى الطاعة كذلك هذا
اصله في اللغة واختلف فيه اقوال المفسرين فقال بنو مسعود والنخعي الحفدة اختان
الرجل على بناته وعن بني مسعود انهم اصهاره فهو بمعنى الاول وعلى هذا يكون معنى الاية
وجعل لكم من ازواجكم بنين وبنات تزوجوهن فيجعل لكم بسببهن الاختان والاصهار
وقال الحسن وعكرمة والضحاك هم الخدم وقال مجاهد هم الاعوان وكل من اعانك
فهو حفدك وقال عطاء ولد الرجل الذين يعينونه ويخدمونه وقال الكلبي وقاتل
بنوهم الصغار والحفدة اولاد الاولاد الذين يعينون الرجل الذين ليسوا منه اي اولاد
المرأة من زوج الاول قال الرازي هذا لا يدخل الكل فيه لان اللفظ محتمل للكل بحسب
المعنى المشترك قال الرازي هم مختلفون ويجوز ان يراد بالحفدة البنون انفسهم كانه قيل
جعل لكم منهن اولادهم بنون وهم حافدون لكم جامعون بين الامرين انتهى وبقي هنا
قال الشهرزوري ان الحافد ولد الولد من الذكور والاناث فان قيل قال الاطباء اهل الطبيعة
المنى اذا انصبت الى الخصية اليمنى من الذكر ثم انصبت منه الى الجانب الايمن من الرحم كان
الولد ذكرا تاما في الذكورة واذا انصبت من الخصية اليسرى الى الجانب الايسر من الرحم
كان الولد انثى تاما في الانوثة واذا انصبت الى الخصية اليمنى وانصبت الى الجانب
الايسر من الرحم كان ذكرا طبيعة الاناث وان انصبت الى الخصية اليسرى ثم انصبت منها
الى الجانب الايمن من الرحم كان هذا الولد انثى في طبيعة الذكور وحاصل كلامهم ان الذكور
الغالب عليها الحرارة واليبوسة والغالب على الاناث البرودة والرطوبة واهذه العلة

فتعيفة وان ربي الناس من مزاجها في غاية التسخونة وفي الرجال من مزاجه في غاية البرودة
فخالق الذكر والانثى هو الاله القادر الحكيم ولما ذكر تعالى انعامه على عبيده بالمنكوح وما
فيه من المنافع والمصالح ذكر انعامه عليهم بالمطعومات الطيبة فقال ورزقكم
من الطيبات سواء كانت من النبات وهي الثمار والحبوب والاشربة او كانت
من الحيوان والمراد بالطيب المستلذ او الحلال ومن هنا من للتبعيض لان كل
الطيبات في الجنة وما طيبات الدنيا الا انموذج منها واختلف في تفسير قوله
تعالى أفبالباطل يؤمنون فقال ابن عباس يعني بالاصنام وقال مقاتل يعني بالشيطان
وقال عطا تصدقون ان لي شريكا وصاحبة وولدا وبنعمة الله هم يكفرون اي بان
يضيفوها الى غير الله تعالى ويتركوا اضافتها الى الله تعالى وقيل الباطل ما تسول
لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما ونعمة الله ما احل لهم من الطيبات
وتحريم الخبائث فائدة رسمت نعمت هنا بالتاء ووقف عليها بن كثير وابو عمرو
والكسائي بالهاء والباقون بالتاء والكسائي بخلف بالامالة والباقون بالتفخيم
لما شرح تعالى الدلائل على صحة التوحيد واتبعها بذكر اقسام النعم العظيمة اتبعها بالرد على عبدة الاصنام
فقال ويعبدون من دون الله اي غيره ما لا يملك لهم رزقا اي لا يقدرون على عبادة من يملك
جميع الرزق وهو الغني المطلق الذي رزقهم من الطيبات ويعبدون غيره
ثم بين تعالى جهة الرزق بقوله تعالى من السموات والارض اما الرزق الذي يأتي
من جانب السماء فالمطر واما الذي من جانب الارض فالنبات والثمار التي يخرج منها
وقوله تعالى شيئا فيه ثلاثة اوجه احدها انه منصوب على المصدر اي لا يملك لهم
شيئا من الملك الثاني انه بدل من رزقا اي لا يملك لهم شيئا قال ابن عادل وهذا غير
مفيد اذ من المعلوم ان الرزق شيء من الاشياء ويؤكد ذلك ان البدل يأتي لاحد
معنيين البيان او التاكيد وهذا ليس فيه بيان لانه اعم ولا تاكيد الثالث
انه منصوب برزقا على انه اسم مصدر واسم المصدر يعمل عمل المصدر على خلاف في ذلك
ولما كان من لا يملك شيئا قد يكون موصوفا باستطاعة ان يتملك بطريق من الطرق
نفى الله تعالى عنهم ذلك بقوله تعالى ولا يستطيعون اي وليس لهم نوع استطاعة
اصلا فان قيل انه تعالى قال ويعبدون من دون الله ما لا يملك فعبر عن الاصنام
بصيغة ما وهي لغير العاقل ثم جمع بالواو والنون فقال ولا يستطيعون وهو مختص
بمن يعقل اجيب بانه عبر عنها اولا اعتبارا باعتقادهم انها آلهة وفي تفسير قوله
تعالى فلا تضربوا لله الامثال وجهان الاول قال اكثر المفسرين لا تشبهوا الله بخلقه
فانه واحد لا مثل له ولا شبيه ولا شريك من خلقه لان الخلق كلهم عبيده وفي ملكه كيف
يشبه الخالق بالمخلوق والرازق بالمرزوق والقادر بالعاجز الثاني ان عبدة الاوثان
كانوا يقولون ان الله العالم اجل واعظ من ان يعبده الواحد منا بل نحن نعبد الكواكب
ونعبد هذه الاصنام ثم ان هذه الكواكب هي الاصنام عبدها الاله الاكبر الاعظم كما ان
اصاغر الناس يخدمون اكابر حضرة الملك واولياء الاكابر كانوا يخدمون الملك فكذا
ههنا ان الله اي الذي له الامر كله ولا امر لغيره يعلم اي يعلمكم انتم عليه من ضرب الامثال له
وانتم لا تعلمون ذلك وقيل معناه وانتم لا تعلمون ما عليكم من العقاب العظيم

بسبب عبادة الاصنام ولو علموه لتركوا عبادتها ولما ختم تعالى ابطال مذهب عبدة
الاصنام بسلك العلم الذي هو مناط السعادة عنهم اكد ذلك بضرب مثل بقوله تعالى ضرب الله
اي الذي له كمال العلم وتمام القدرة مثلا بالاحرار والعبيد ثم ابدل من مثلا عبدا وقيد بقوله
تعالى مملوكا ليخرج الجن لان العبد يطلق على الحر بالنسبة الى الله تعالى وقيده بقوله
تعالى لا يقدر على شئ ليخرج المكاتب ومن فيه شائبة حرية وهذا مثل شركائهم بقوله
عطف على عبدا فقوله ومن اي وحرا فهي نكرة موصوفة ليطابق عبدا رزقناه مبتدا ورزقا
حسنا اي واسعا طيبا هو يتفق منه دايما وهو معنى قوله تعالى سرا وجهرا اي
يتصرف فيه كيف شاء وهذا مثل الاله وله المثل الاعلى بكتهما انكارا عليهم بقوله تعالى
هل يستوون اي هذان الفريقان الممثل بهما لان المراد الجنس فاذا كان لا يسوغ في عقل
ان يسوى بين مخلوق من احدهما اخرس عاجز والاخر مملوك عاجز فكيف يسوى بين حجر من حجارة
او غيره وبين الله الذي له القدرة التامة على كل شئ وقيل ذلك تمثيل للكافر الجاحد وله
والمومن الموفق فنبه على حال اهل يستوون وقيل لا يستوون وقوله تعالى الحمد لله
قال ابن عباس الحمد لله على ما فعل بآل وليائه وانعم عليهم بالتوحيد وقيل المعنى ان كل الحمد
لله وليس شئ من الحمد للاصنام ولانه لا نعمة لها على احد لانها جماد على اي الحمد لله لا لغيره
فيجب على جميع العباد حمد الله لانه تعالى اهل المحامد والثناء الحسن فكانهم قالوا نحن نعلم ذلك
فقيل بل اكثرهم اي الكفار لا يعلمون لكونهم يسوون به غيره ومن نفى عنه العلم الذي هو اعلى
صفات الكمال كان في عداد الانعام فهم لذلك يشبهون به ما ذكر ويضربون الامثال
الباطلة ويضيفون حكمه الى غيره ثم انه تعالى ضرب لعبدة الاوثان مثلا اخر بقوله تعالى
وضرب الله مثلا ثم ابدل منه رجلين ثم استانف البيان لما اجمل فقال احدهما ابكم وهو
الذي ولد اخرس فكل ابكم اخرس وليس كل اخرس ابكم وروى ثعلب عن ابن الاعرابي الابكم
الذي لا يسمع ولا يبصر ثم وصف الله تعالى هذا الرجل بصفة ثانية بقوله تعالى لا يقدر
على شئ لانه لا يفهم ولا يفهم وفي ذلك اشارة الى العجز التام والنقصان الكامل ثم وصفه
تعالى بصفة ثالثة بقوله تعالى وهو اي ذلك الابكم العاجز كل على مولاه اي ثقل
على من يلي امره وبقوله قال اهل المعاني اصله من الغلظ الذي هو نقيض الحدة تقول كل
السكين اذا غلظت شفرته فلم يقطع وكل اللسان اذا غلظ فلم يقدر على الكلام وكل فلان
عن الامر اذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه ثم وصفه تعالى بصفة رابعة بقوله تعالى اينما يوجهه
اي يرسله ويصرفه ذلك المولى لا يات بخير لانه عاجز لا يحسن ولا يفهم قيل هذا مثل شركائهم
الذين هم عيال وو بال على عبدتهم ثم وبخهم الله تعالى بقوله تعالى هل يستوي هو اي هذا
الموصوف بهذه الصفات الاربع ومن اي ورجل اخر على ضد صفته فهو ناطق قادر عالم فطن
قوي خبير مدرك يسوون يامر عباله من العلم والتدبير بالعدل اي ببذل النصيحة لغيره
وهو في نفسه ظاهر وباطنه عادل اي طريق واضح مستقيم اي عامل فيه بما يامر به قيل هذا
مثال المعبود بالحق الذي يكون لاوليائه جميع المؤن وهو قادر على كل علم وتمام قدرته
وقيل المراد من هذا الابكم عبد لعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان في لك العهد يكره
الاسلام وما كان فيه خير وتوفي ومولاه عثمان كان يامر بالعدل وكان على الدين القويم
والصراط المستقيم وقيل المراد كل عبد موصوف بهذه الصفات المذمومة وكل حر موصوف

بتلك الصفات الحميدة وهذا القول كما قال الرازي اولى من الاول لان وصفه تعالى اياهما بكونهما
رجلين يمنع من حمل ذلك على الوثن وكذلك بالبكم وبالكل وبالتوجه في جهات المنافع وكذلك
وصف الاخر بانه على صراط مستقيم يمنع من حمله على الله تعالى وايضا فالمقصود تشبيه
صورة بصورة في امر من الامور وذلك التشبيه لا يتم الا عند كون احدى الصورتين مغايرة
للاخرى واما القول الثاني فضعيف ايضا لان المقصود ابانة التفرقة بين رجلين
موصوفين بالصفات المذكورة وذلك غير مختص بشخص معين بل انما حصل التفاوت
في الصفات المذكورة فانه يحصل المقصود ثم وصف سبحانه وتعالى نفسه بكمال
العلم بقوله تعالى ولله اي لا لغيره غيب السموات والارض وهو ما غاب فيهما عن العباد بان لم
يكن محسوسا ولم يدل عليه محسوس وقيل الغيب هنا هو قيام الساعة فان علمه غائب
عن اهل السموات والارض ثم وصف سبحانه وتعالى كمال قدرته بقوله تعالى وما امر
الساعة وهو الوقت الذي يكون فيه البعث الا كلمح البصر اي الا كرجع الطرف من اعلى
الحدقة الى اسفلها والمعنى وما امر قيام الساعة في السرعة والسهولة الا كطرف العين
والمراد منه تقرير كمال القدرة ومعنى قوله تعالى او هو اقرب ان لمح البصر عبارة عن انتقال
الجسم المسمى بالطرف من اعلى الحدقة الى اسفلها ولا شك ان الحدقة مؤلفة من اجزاء فلمح البصر
عبارة عن المرور على جملة تلك الاجزاء التي منها تالف الحدقة ولا شك ان تلك الاجزاء كثيرة والزمان
الذي يحصل فيه لمح البصر مركب من آنات متعاقبة والله تعالى قادر على اقامة القيامة
في آن واحد من تلك الآنات فلذلك قال او هو اقرب الا انه لما كان اسرع الاحوال والحوادث
في عقولنا وافكارنا هو لمح البصر لا جرم ذكره ثم قال او هو اقرب تنبيها على ما مر ولا
شبهة في انه ليس المراد طريقة الشك والمراد اذا بل هو اقرب وقال الزجاج المراد
به الابهام على المخاطبين انه تعالى ياتي بالساعة اما تعذر لمح البصر او بما هو اسرع
وقيل معناه ان قيام الساعة وان تراخى فهو عند الله كالشيء الذي يقولون فيه هو
كلمح البصر او هو اقرب مبالغة كقوله تعالى وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون
ان الله اي الملك الاعظم على كل شيء قدير فيقدر على ان يحيي الخلائق دفعة كما قدر على احيائهم
فانه تعالى مهما اراده كان اسرع ما يكون ثم انه تعالى عاد الى الدلائل الدالة على وجود
الصانع المختار فعطف على قوله تعالى والله جعل لكم من انفسكم ازواجا قوله
تعالى والله اي الذي له العظمة كلها اخرجكم بقدرته وعلمه من بطون امهاتكم حال كونكم
عند الاخراج لا تعلمون شيئا من الاشياء قل ولا جل فالذي اخرجكم منها قادر على اخراجكم
من بطون الارض بلا فرق بل بطريق الاولى وقرا حمزة والكسائي بكسر الهمزة والباقون بضمها
وقرا حمزة بكسر الميم والباقون بفتحها ثم عطف على اخرجكم قوله تعالى وجعل لكم السمع
والابصار والافئدة الآت لازالة الجهل الذي وقعت الولادة عليه وفتق مواضعها
وسواها وعدلها وانتم في البطون حيث لا تصل اليه يد ولا يتمكن من مسق شيء
منه باله فالذي قدر على ذلك في البطن ابداعا قادر قادر على اعادته في بطن الارض
بل بطريق الاولى قال البقاعي ولعله تعالى جمعهما اي الابصار والافئدة دون السمع لان
التفاوت فيهما اكثر من التفاوت فيه بما لا يعلمه الا الله والافئدة هي القلوب
التي هيأها تعالى للفهم واصلاح البدن بما اودعها من الحرارة اللطيفة للمعاني الدقيقة

لعلكم تشكرون

لعلكم تشكرون اي لتصبروا بمعارف القلوب التي وهبكموها اذا سمعتم المواعظ وابصرتم
الايات في حال يرجى فيها شكركم لما افاض عليكم من لطائف صنعه بان تفرغوا امالكم من العلم
والقدرة فانه انما انعم عليكم بهذه الحواس لتشكروا بها في شكر من انعم بها عليكم فان قيل
عطف وجعل لكم السمع على اخرجكم يقتضي ان يكون جعل السمع والبصر متاخرا عن الاخراج
من البطون مع ان الامر ليس كذلك اجيب بان حرف الواو لا يوجب الترتيب وايضا
اذا حملنا السمع على الاستماع والابصار على الرؤية زال السؤال عنه انه تعالى ذكر دليلا
اخر على كمال قدرته وحكمته بقوله تعالى الم يروا الى الطير مسخرات اي مذللات للطيران
وخوالقها اي في الهواء بين الخافقين مما لا يقدرون عليه بوجه من الوجوه مع مشاركتهم
لها في السمع والبصر وزيادتكم عليها بالعقول فعلم قطعا انه تعالى خالق الطير خلقة معها يمكنه
الطيران ما يمسكهن في الجو عند الوقوع الا الله اي الملك الاعظم ان جسد الطير جسم ثقيل والجسم
الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقا من غير دعامة تحته ولا علاقة تفوقه وخلق الجو
خلقة تمكن الطير ان فيها والا لما امكن ذلك لانه تعالى اعطى الطير جناحا يبسطه
مرة ويكسره اخرى مثل ما يفعل السابح في الماء وخلق الجو خلقة رقيقة بسهل
خرقه والنفاذ فيه ولولا ذلك لما كان الطيران ممكنا ومع ذلك ما يمسكهن في الجو عند الوقوع
الا الله اي الملك الاعظم فان جسد الطير جسم ثقيل والجسم الثقيل يمتنع بقاؤه في الجو معلقا
من غير دعامة منتخته ولا علاقة فوقه فوجب ان يكون الممسك له في ذلك الجو هو الله تعالى
وقرا ابن عامر وحمزة بالتاء على انه خطاب العامة والباقون بالياء على الغيبة ان في ذلك
المذكور لايات اي دلالات لقوم يؤمنون وخصهم بذلك لانهم هم المنتفعون بها وان كانت
هذه الايات ايات لكل العقلاء ثم ذكر تعالى نوعا اخر من دلائل التوحيد بقوله تعالى
والله اي الذي له الحكمة البالغة جعل لكم من بيوتكم واصل البيت الماوى ليلا ثم اتسع فيه
سكنا اي موضعا تسكنون فيه تنبيه البيوت التي يمكن الانسان فيها على قسمين
احدهما البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي بها يمكن تشييد البيوت
واليها الاشارة بقوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وهذا القسم من البيوت لا يمكن
نقلها بل الانسان ينتقل اليها والقسم الثاني الخيام والفساطيط واليها الاشارة
بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا المتخذة من الادم ويجوز ان يتناول
المتخذة من الوبر والصوف والشعر فانها من حيث انها نابتة على جلودها تعد في عليها
انها من جلودها تستخفونها اي تتخذونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها يوم ظعنكم
اي وقت نزحالكم وعبر بالليوم لان النزحال في اكثر ويوم اقامتكم اي وقت الحضر
او وقت النزول وهذا القسم من البيوت يمكن نقلها ويحتويها من مكان الى مكان وقرا نافع
وابن كثير وابو عمرو بفتح العين والباقون بالسكون واضاف قوله تعالى ومن اصوافها وأوبارها
واشعارها الى ضمير الانعام لانها من جملتها قال المفسرون واهل اللغة الاصواف
للضأن والاوبار للابل والاشعار للمعز اثاثا اي ما يلبس ويفرش ومتاعا اي ما يتجر به وقيل
الاثاث ما يكتسى به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء والمتاع ما ينفرش في المنازل وتزين به
واختلف في معنى قوله تعالى الى حين فقيل الى حين بلى وقيل الى حين الموت وقيل الى حين
بعد حين وقيل الى يوم القيامة تنبيه في نصب اثاثا وجهان احدهما انه منصوب

عطفا على بيوتا اي وجعل لكم من اصوافها اثاثا والثاني انه منصوب على الحال واعلم
ان الانسان اما ان يكون مقيما او مسافرا والمسافر اما ان يكون غنيا يستصحب
معه الخيام او لا فالقسم الاول اشار اليه تعالى بقوله جعل لكم من بيوتكم سكنا واشار
الى القسم الثاني بقوله تعالى وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا واشار الى القسم الثالث
بقوله تعالى والله اي الذي له الجلال والاكرام جعل لكم اي من غير حاجة منه تعالى
مما خلق من شجر وجبال وابنية وغيرها وقوله تعالى ظلالا جمع ظل تتقون به شدة
الحر وقوله تعالى وجعل لكم مع غناه المطلق من الجبال اكنانا جمع كن موضع
تسكنون فيه من الكهوف والبيوت المنحوتة فيها وجعل لكم اي منا منه عليكم
سرابيل جمع سربال قال الزجاج كل ما لبسته فهو سربال من قميص او درع او جوشن
او غيره اي وسواء كان من صوف او كتان او قطن او غير ذلك تقيكم الحر ولم يقل
تعالى والبرد لتقدمها في قوله تعالى لكم فيها دفء وقيل انه اكتفى باحد المتقاطعين
وقيل كان المخاطبون بهذا الكلام العرب وبلادهم حارة فكان حاجتهم الى ما يدفع الحر
فوق حاجتهم الى ما يدفع البرد كما قال تعالى ومن اصوافها واوبارها واشعارها
وسائر انواع الثياب اشرف الا انه تعالى ذكر ذلك النوع لانه كان الفهم بها اشد واعتيادهم
للبسها اكثر ولما كانت السرابيل نوعا واحدا لم يكرر جعل فقال وسرابيل اي دروعا من حديد
وغيرها تقيكم بأسكم اي حربكم اي الطعن والضرب فيها ولما عدد تعالى انواع نعمه قال
كذلك اي كاتمام هذه النعمة المتقدمة يتم نعمته عليكم في الدنيا والدين بالبيان
والهداية لطريق النجاة والمنافع والتنبيه على دقائق ذلك لعلكم يا اهل مكة
تسلمون اي تخلصون لله الربوبية وتعلمون انه لا يقدر على هذه الانعامات
احد سواه وقيل تسلمون من الجراح بلبس الدروع فان تولوا فلم يقبلوا منك واثروا
لذات الدنيا ومتابعة الاباء والمعاداة في الكفر فانما عليك يا افضل الخلق البلاغ
المبين هذا جواب الشرط وفي الحقيقة جواب الشرط محذوف اي فقد تمهد عذري
بعد ما اديت ما وجب عليك من التبليغ فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل
على المسبب وذلك لان تبليغه سبب في عذره فاقيم السبب مقام المسبب وهذا
قبل الامر بالقتال ثم انه تعالى ذمهم بانهم يعرفون نعمة الله اي الملك الاعظم التي تقدم
عد بعضها في هذه السورة وغيرها ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم بها وقال
السدي نعمة الله يعني محمدا صلى الله عليه وسلم انكروه وكذبوه وقيل نعمة الله
هي الاسلام وهو من اعظم النعم التي انعم الله تعالى بها على عباده ثم ان كفار
مكة انكروه وجحدوه واختلف في معنى قوله تعالى واكثرهم الكافرون مع انهم كلهم كانوا
كافرين على وجوه الاول انما قال تعالى واكثرهم لانه كان فيهم من لم تقم عليه الحجة
ممن لم يبلغ حد التكليف او كان ناقص العقل فاراد بالاكثر البالغين الاصحاء الثاني
ان يكون المراد بالكافر الجاحد المعاند وكان فيهم من لم يكن معاندا بل كان جاهلا
بصدق الرسول وما ظهر له كونه نبيا حقا من عند الله الثالث انه ذكر الاكثر
والمراد الجميع لان اكثر الشيء يقوم مقام الكل فذكر الاكثر كذكر الجميع وهذا كقوله
تعالى الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون ولما بين تعالى من حال القوم انهم عرفوا نعمة الله

ثم انكروها

ثم انكروها وذكر ايضا من حالهم ان اكثرهم كافرون اتبعه بالوعيد فذكر حال يوم
القيمة بقوله تعالى ويوم اي وخوفهم يوم او واذكر لهم يوم نبعث بعد البعث
من كل امة شهيدا هو نبيها كما قال تعالى فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا
بك على هؤلاء شهيدا يشهد نبيها لها وعليها يوم القيامة ليحكم تعالى بقوله
اجرا للامر على ما يتعارفون وان كان تعالى غنيا عن شهيد وقوله تعالى ثم لا يؤذن
للذين كفروا فيه وجوه احدها لا يؤذن لهم في الاعتذار كقوله تعالى ولا يؤذن
لهم فيعتذرون ثانيها لا يؤذن لهم في كثرة الكلام ثالثها لا يؤذن لهم
في الرجوع الى دار الدنيا والى التكليف رابعها لا يؤذن لهم في حال شهادة الشهود بل
يسكت اهل الجمع كلهم ليشهد الشهود فان قيل ما معنى ثم هنا اجيب بان معناها انهم
يمنون اي يبتلون بعد شهادة الانبياء عليهم السلام بما هو اعظم منها وانهم يمنعون
الكلام فلا يؤذن لهم في القاء معذرة ولا ادلاء بحجة ولا هم يستعتبون اي لا تزال عتباهم
وهي ما يعتبون عليها ويلامون يقال استعتبت فلانا بمعنى اعتبته اي ازلت
عتباه واذا راى الذين ظلموا اي ظلموا انفسهم بالكفر والمعاصي العذاب اي عذاب جهنم
بعد الموقف وشهادة الشهداء فلا يخفف عنهم ذلك العذاب ولا هم ينظرون اي يمهلون
ولما بين تعالى حاصل امرهم في البعث وما بعده وكان من اهم المهم امرهم في الموقف مع
شركائهم الذين كانوا يترجونهم عطف على ذلك قوله تعالى واذا راى اي بالعين يوم القيامة
الذين اشركوا شركاءهم اي الالهة التي كانوا يدعونها شركاء من الشياطين وغيرها قالوا
ربنا اي يا من احسن الينا وربانا هؤلاء شركاؤنا اضافوهم الى انفسهم لانه لا حقيقة
لشركتهم سوى تسميتهم لها الموجب لضرهم ثم بينوا المراد بقولهم الذين كنا ندعوا
اي نعبدهم من دونك ليقربونا اليك فاكرمنا لاجلهم جريا على منهاجهم في الدنيا
في الجهل والغباوة فخاف الشركاء من عواقب هذا القول والاقرار عليه سطوات
الغضب فالقوا اي الشركاء اليهم اي المشركين القول اي بادروا به حتى كان اسراعه اليهم اسراع
شيء ثقيل يلقى من علو واكدوا قولهم فقالوا انكم لكاذبون في جعلنا شركاء او انكم
عبدتمونا حقيقة وانما عبدتم اهواءكم كقوله تعالى كلا سيكفرون بعبادتهم ولا
يبعد ان تنطق الاصنام بذلك يومئذ في انهم حملوهم على الكفر والزموهم اياه كقوله
وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي والقوا اي الشركاء الى الله اي
الملك الاعلى يومئذ اي يوم القيمة السلم اي الاستسلام لحكمه بعد الاستكبار في الدنيا
وضل اي غاب عنهم اي الكفار ما كانوا يفترون اي من الهتهم تشفع لهم ولما ذكر تعالى
وعيد الذين كفروا اتبعه بوعيد من ضم الى كفره صد الغير عن سبيل الله بقوله تعالى
الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اي صموا مع كفرهم انهم منعوا الناس عن الدخول
في الايمان بالله وبرسوله زدناهم عذابا لصدهم فوق العذاب المستحق بكفرهم
بما كانوا يفسدون اي بكونهم مفسدين بصدهم وقيل زدناهم عذابا بحيات وعقارب
كامثال البخت يستغيثون بالهرب منها الى النار ومنهم من ذكر لكل عقرب ثلثمائة نقرة
في كل نقرة ثلثمائة قلة من سم وقيل عقارب لها انياب كالنخل الطوال ثم كرر سبحانه
وتعالى التحذير من ذلك اليوم على وجه يزيد على ما افهمته الاية السابقة وهو ان

الشهادة تقع على الامم لا لهم ويكون بحضرتهم فقال ويوم اي وخوفهم او واذكر يوم نبعث
اي بما لنا من القدرة في كل امة من الامم والامة عبارة عن القرن والجماعة شهيدا عليهم
قال ابن عباس يريد الانبيا قال المفسرون كل نبي شاهد على امته وهو اعدل شاهد
عليها من انفسهم اي منهم لان كل نبي انما بعث من قومه الذين بعث اليهم ليشهدوا
عليهم بما فعلوا من كفر وايمان وطاعة وعصيان وجئنا بما لنا من العظمة بك يا خير
المرسلين شهيدا على هؤلاء اي الذين بعثناك اليهم وهم اهل الارض واكثرهم ليس
من قومه صلى الله عليه وسلم ولذلك لم تقيد بعثته بشي وقال ابو بكر الاصم
المراد بذلك الشهيد هو انه تعالى ينطق عشرة من اعضا الانسان حتى انها تشهد
عليه وهي الاذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان قال
والدليل عليه انه قال في صفة الشهيد انه من انفسهم وهذه الاعضا لا شك
انها من انفسهم ورد بانه تعالى قال شهيدا عليهم فيجب ان يكون غيرهم
وايضا قال من كل امة فيجب ان يكون ذلك الشهيد من الامة واحاد هذه الاعضا
لا يصح وصفها بانها من الامة ثم بين تعالى انه ازاح علتهم فيما كلفوا به فلا حجة
لهم ولا معذرة بقوله تعالى ونزلنا اي بعظمتنا بحسب التدريج والتنجيم عليك يا خير
خلق الله الكتاب اي القران الجامع للهدى تبيانا اي بيانا بليغا لكل شي فان قيل كيف
كان القران تبيانا لكل شي اجيب بان المعنى من كل شي من امور الدين حيث كان نصا
على بعضها واحالة على السنة حيث امر فيه باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته
وقد قال تعالى وما ينطق عن الهوى وحثا على الاجماع في قوله تعالى ويتبع غير
سبيل المومنين وقد رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لامته اتباع اصحابه
والاقتدا باثارهم وقد اجتهدوا وقاسوا ووطيوا طرق القياس والاجتهاد
فكانت السنة والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة الى تبيان الكتاب فمن ثم
كان تبيانا لكل شي وهدى من الضلالة ورحمة لمن امن به وصدقه وبشرى بالجنة
للمسلمين اي الموحدين خاصة ولما استقصى سبحانه وتعالى في شرح الوعد والوعيد
والرغبة والترهيب اتبعه بقوله تعالى ان الله اي الملك المستجمع لصفات الكمال
يامر بالعدل قال ابن عباس في بعض الروايات العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان
ادا الفرايض وقال في رواية اخرى العدل خلع الانداد والاحسان ان تعبد الله
كانك تراه وان تحب للناس ما تحب لنفسك فان كان مومنا احببت ان يزداد ايمانا
وان كان كافرا احببت ان يصير اخاك في الاسلام وقال في رواية ثالثة العدل
هو التوحيد والاحسان هو الاخلاص فيه وقال اخرون يعني بالعدل في الافعال
والاحسان في الاقوال فلا تفعل الا ما هو عدل ولا تقل الا ما هو احسان واصل
العدل المساواة في كل شي من غير زيادة ولا نقصان فالعدل هو المساواة في المكافاة
ان خيرا فخير وان شرا فشر والاحسان ان تقابل الخير باكثر منه والشر بان تعفو عنه
وعن الشعبي قال عيسى بن مريم انما الاحسان ان تحسن الى من اسا اليك ليس الاحسان
ان تحسن الى من احسن اليك وقيل العدل الانصاف والانصاف اعدل من الاعتراف
للمنعم بانعامه والاحسان ان تحسن الى من اسا اليك وعن محمد بن كعب القرظي قال دعاني

عمر

عمر بن عبد العزيز فقال صف لي العدل فقلت بخ سألت عن امر جسيم كن لصغير الناس
ابا ولكبيرهم ابنا وللمثل منهم اخا وللنساء كذلك وايتاء اي ومن الاحسان ايتاء ذي القربى
اي القرابة القربى والبعدى فيندب ان تصلهم من فضل ما رزقك الله فان لم
يكن لك فضل فدعا حسن وتؤدة وروى ابو سلمة عن ابيه ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم قال ان اعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم ان اهل هذا البيت ليكونوا
تجارا فتنمى اموالهم ويكثر عددهم اذا وصلوا ارحامهم ولما امر تعالى بالمكارم نهى
عن المساوي بقوله تعالى وينهى عن الفحشاء قال بن عباس اي الزنا فانه اقبح احوال
الانسان واشنعها وقال غيره الفحشاء ما قبح من القول والفعل فيدخل فيه الزنا
وغيره من جميع الاقوال والافعال المذمومة والمنكر قال بن عباس يعني الشرك والكفر
وقال غيره المنكر ما لا يعرف في شريعة او سنة والبغي هو الاستيلاء على الناس
والتجبر عليهم قيل ان اعجل المعاصي عقابا البغي ولو ان جبلين بغى احدهما على الاخر
لدك الباغي ونص تعالى على البغي مع دخوله في المنكر اهتماما به كابدا بالفحشاء لذلك
وقال بن قتيبة في هذه الاية العدل استواء السر والعلانية والاحسان ان تكون
سريرته خير من علانيته والفحشاء والمنكر والبغي ان تكون علانيته احسن من سريرته
وقال بعض العلماء ان الله تعالى ذكر من المامورات ثلاثة اشياء ومن المنهيات ثلاثة
اشياء فذكر العدل وهو الانصاف والمساواة في الاقوال والافعال وذكر في مقابلته
الفحشاء وهو ما قبح من الاقوال والافعال وذكر الاحسان وهو ان يعفو عمن ظلمه
ويحسن الى من اسى عليه وذكر في مقابلته المنكر وهو ان ينكر احسان من احسن اليه
وذكر ايتاء ذي القربى والمراد به صلة القرابة والتؤدة اليهم والشفقة عليهم وذكر
في مقابلة البغي وهو ان يتكبر عليهم او يظلمهم حقوقهم ولما كان هذا المذكور من ابلغ
الوعظ نبه عليه بقوله تعالى يعظكم اي يامركم بما يرقق قلوبكم من مصاحبة الثلاثة
الاول وهي العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي
العدل والاحسان وايتاء ذي القربى ومجانبة الثلاثة الاخيرة وهي الفحشاء والمنكر
والبغي لعلكم تذكرون لكي تتعظوا فتعملوا بما فيه رضى الله تعالى وقرا حفص
وحمزة والكسائي بتخفيف الذال والباقون بالتشديد وفيه ادغام التاء في الاصل
في الذال وروى البيهقي في شعب الايمان عن بن مسعود انه قال اعظم اية في كتاب
الله تعالى الله لا اله الا هو الحي القيوم واجمع اية في كتاب الله للخير والشر الاية
التي في النحل ان الله يامر بالعدل والاحسان واكثر اية في كتاب الله تفويضا ومن
يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب واشد اية في كتاب الله رجاء
قل يا عبادي الذين اسرفوا الاية وقال اهل المعاني لما قال الله تعالى في الاية الاولى
ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء بين في هذه الاية المامور به والمنهي عنه على سبيل
الاجمال فما من شيء يحتاج اليه الناس في امر دينهم مما يجب ان يؤتى او يترك الا وقد
اشتملت عليه هذه الاية وعن قتادة ليس من خلق حسن كان من اهل الجاهلية
يعملون به ويعظمونه ويخشونه الا امر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه
بينهم الا نهى الله عنه وعن عكرمة ان النبي صلى الله عليه وسلم قرا على الوليد بن المغيرة

ان الله يامر بالعدل والاحسان الى اخر الاية فقال له يا ابن اخي اعد علي فاعاد فاعجبه فقال له
الوليد والله ان لهذا الكلام لحلاوة وان عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان اسفله لمغدق وما هو بقول
البشر ولما تقررت هذه الجمل التي جمعت بجمعها المامورات والمنهيات مما تضيق عنه الدفاتر
والصدور وتشهد لها المعاند ون من بلغاء العرب انها بلغت من البلاغة مبلغا يحصل
به غاية السرور ذكر بعض تلك الاقسام وبدا بما هو مع جمعه اهم وهو الوفا بالعهد بقوله
تعالى وَاَوْفُوا اي وفقوا الوفا الذي هو لا وفا في الحقيقة غيره بِعَهْدِ اللّٰهِ اي الملك الاعلم الذي
عاهدكم عليه بادلة العقل والنقل من التوحيد والشرع والايمان وغيرها من اصول
الدين وفروعه اِذَا عَاهَدْتُمْ بتقبلكم له باذعانكم لامتثاله وَلَا تَنْقُضُوا الْاَيْمَانَ واحترز
عن اللغو اليمين بقوله تعالى بَعْدَ تَوْكِيدِهَا اي تشديدها فتحنثوا فيها وفي ذلك دليل
على ان المراد بالعهد غير اليمين لانه اعم منه وقرا ابو عمرو بادغام الدال في التا بخلاف عنه
وَالحال انكم قَدْ جَعَلْتُمُ اللّٰهَ اي الذي له العظمة كلها عَلَيْكُمْ كَفِيلًا اي شاهدا ورقيبا
وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الجيم والباقون بالادغام
وعن ابن جبير قال نزلت هذه الاية في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم كان من اسلم بايع
على الاسلام فقال تعالى واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد
توكيدها فلا تحملنكم قلة محمد واصحابه وكثرة المشركين ان تنقضوا البيعة التي بايعتم
على الاسلام اِنَّ اللّٰهَ اي الذي له الاحاطة الكاملة يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ من وفا العهد
ونقضه ثم ضرب الله تعالى لنقض العهد مثلا فقال وَلَا تَكُونُوا اي في نقض العهد كَالَّتِي
نَقَضَتْ غَزْلَهَا اي ما غزلته وهو مصدر بمعنى المغزول مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ اي ابرام واحكام
وقوله تعالى اَنْكَاثًا جمع نكث وهو ما ينقض من الغزل والحبل قال مقاتل هذه
امراة من قريش يقال لها ريطة وقيل لم يظهر وتلقب بجعو وكانت خرقا حمقا لها
وسوسة اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها
فكانت تغزل من الصوف والشعر والوبر وجوارٍ من الغداة الى الظهر ثم امرهن فينقضن
ما غزلن وكان هذا دابها وقال السدي كانت امراة بمكة تسمى خرقا فكانت تغزل فاذا ابرمت
غزلها نقضته وقال مجاهد نقضت حبلها بعد ابرامه اياه وقال قتادة لو سمعتم بامراة
نقضت غزلها من بعد ابرامه لقلتم ما اجهق هذه وهذا مثل ضربه الله لمن نكث عهده
وقال ابن عباس تفتل تفتل تفتل ثم تنقض تفتل تفتل ثم تنقض تَتَّخِذُونَ اَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ خيانة وغدرا انتهى والدخل ما يدخل
في الشيء على سبيل الفساد وقيل الدخل والدغل ان يظهر الرجل الوفا بالعهد ويبطن نقضه
وانما فعلوا ذلك اَنْ اي بسبب ان تَكُونَ اومخافة ان تكون ويكون يجوز ان يكون
ناقصة فيكون اُمَّةٌ اي جماعة فاعلها وان تكون تامة اشتهى وهي مبتدا وَاَرْبٰى
اي اكثر مِنْ اُمَّةٍ خبره والجملة في محل نصب على الحال على الوجه الاول وفي موضع الخبر على الثاني
واربى مما هود من ربى الشيء يربو اذا زاد ويهذه الزيادة قد تكون في العدد وفي القوة وفي الشرف
قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفا ثم يجدون من هو اعز منهم واشرف فينقضون حلف الاولين
ويحالفون هؤلا الذين هم اعز فنهاهم الله تعالى عن ذلك اِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّٰهُ الذي له الملك
كله اي يختبركم بِهٖ اي بما امركم ونهاكم المختبر ليظهر للناس تمسككم بالوفا وانحلاءكم منه
اعتمادا على كثرة انصاركم وقلة انصار من تنقضتم عهده من المومنين او غيرهم مع قدرته

سبحانه وتعالى على ما يريد فيوشك ان يعاقب بالمخالفة فيضعف القوي ويقلل الكثير
وليبينن لكم اي اذا تجلى لفصل القضا يوم القيمة ما كنتم فيه تختلفون اي اذا جازاكم على اعمالكم
بالثواب والعقاب فاحذروا يوم العرض على مالك السموات والارض وان من نوقش الحساب
يهلك ولو شاء الله اي الملك الاعلى الذي لا امر لاحد معه ان يجعلكم امة واحدة لا خلاف بينكم
في اصول الدين وفروعه لجعلكم امة واحدة اي متفقة على امر واحد وهو دين الاسلام ولكن
لم يشا ذلك بل شا اختلافكم فهو تعالى يضل من يشا عدلا منه تعالى لانه تام الملك ولو كان
الذي اضله على احسن الحالات ويهدي بفضله من يشا ولو كان على اخس الاحوال فبذلك
تكونون مختلفين لا يسال عما يفعل سبحانه وتعالى ولتسالن عما كنتم تعملون في الدنيا
فيجازي المحسن باحسانه ويعاقب المسي بعدله تعالى ولما حذر تعالى عن نقض العهد والايمان
مطلقا قال تعالى ولا تتخذوا ايمانكم دخلا اي فسادا ومكرا وخديعة بينكم وليس
المراد منه التحذير عن نقض مطلق الايمان والا لزم التكرار الخالي عن الفائدة في موضع
واحد بل المراد نهي اولئك الاقوام المخاطبين بهذا الخطاب عن نقض ايمان مخصوصة
اقدموا عليها فلهذا المعنى قال المفسرون المراد نهي الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم
عن نقض عهده لان قوله تعالى فتزل اي فيكون ذلك سببا لان تزل قدم هي في غاية
العظمة بعد ثبوتها عند مركزها التي كانت به من دين او دنيا فلا يصير لها قرار فتسقط
عن مرتبتها لا يليق بنقض عهد قبله وانما يليق بنقض عهد رسول الله صلى الله
عليه وسلم على الايمان به وشرايعه تنبيه فتزل منصوب باضمار ان على جواب
النهي وزلل القدم مثل يذكر لكل من وقع في بلاء بعد عافية او سقط في ورطة
بعد سلامة او محنة بعد نعمة وتذوقوا السوء اي العذاب في الدنيا بما اي بسبب ما
صددتم انفسكم ومنعتم غيركم بايمانكم التي اردتم بها الافساد لاخفا الحق عن سبيل
الله اي دينه وذلك لان من نقض العهد سهل على غيره طرق نقض العهد فيستن به
ولكم مع ذلك عذاب عظيم اي ثابت غير منفك اذا متم على ذلك ثم اكد سبحانه وتعالى
هذا التحذير بقوله تعالى ولا تشتروا اي ولا تكلفوا انفسكم لجاجا وتركا للنظر ان تاخذوا
وتستبدلوا بعهد الله اي الذي له الكمال كله ثمنا قليلا اي حطام الدنيا وان كنتم ترونه
كثيرا ثم علل قلته بقوله تعالى انما عند الله اي الذي له الجلال والاكرام من ثواب الدارين
هو خير لكم ولا يعدل عن الخير الى غيره الا لجوج ناقص العقل ثم شرط علم خيريته لكونهم من ذوي
العلم بقوله تعالى ان كنتم تعلمون اي ان كنتم من اهل العلم والتمييز فتعلمون افضل
ما بين العوضين ثم بين ذلك بقوله تعالى ما عندكم اي من متاع الدنيا ولذاتها ينفد
اي يفنى فما حبه منغص العيش اشد ما يكون به اغتباطا بانقطاعه وما عند الله اي الذي
له الامر كله من ثواب الاخرة ونعيم الجنة باق اي دايم روي عن ابي موسى الاشعري ان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من احب دنياه ضر باخراه ومن احب اخرته اضر بدنياه
فاثروا ما يبقى على ما يفنى وقرا ابن كثير باقي في الوقف بالياء والباقون بغير فاء واما
في الوصل فالجميع بالتنوين وليجزين الذين صبروا على الوفا بما يرضيه من الاوامر والنواهي
في السرا والضرا اجرهم اي ثواب صبرهم باحسن ما كانوا يعملون اي بجزا احسن من اعمالهم
او يجزيهم على احسن اعمالهم وذلك لان المومن قد ياتي بالمباحات وبالمندوبات وبالواجبات

ولا شك ان المندوبات والواجبات مما يثاب على فعلها لا على فعل المباحات وقرا ابن
كثير وعاصم بالنون قبل الجيم اي ولنجزين نحن والباقون بالياء اي وليجزين الله ثم انه
تعالى رغب المومنين في الاتيان بكل ما كان من شرايع الاسلام بقوله تعالى من عمل صالحا
من ذكر او انثى وهو مومن اذ لا اعتداد باعمال الكفار في استحقاق الثواب
وانما المتوقع عليها تخفيف العذاب فان قيل من عمل صالحا نعته العموم فما فايدة ذكر ذكر
وانثى اجيب بانه ذكر دفعا للتخصيص باحد الفريقين واختلف في قوله تعالى
فلنحيينه حياة طيبة فقال سعيد بن جبير وعطا هي الرزق الحلال وقال مقاتل
هي العيش في الطاعة وقال الحسن هي القناعة لان عيش المومن في الدنيا وان كان فقيرا
اطيب من عيش الكافر وان كان غنيا لان المومن لما علم ان رزقه من عند الله وذلك بتقديره
وتدبيره تعالى وعرف ان الله تعالى محسن كريم حليم يضع الاشيا في محلها فكان المومن
راضيا بقضا الله وبما قدره له ورزقه اياه وعرف ان مصلحته في ذلك القدر الذي رزقه
فاستراحت نفسه من الكدر والحرص فطاب عيشه بذلك واما الكافر والجاهل بهذه
الاصول الحريص على طلب الرزق فيكون ابدا في حزن وتعب وعنا وحرص وكد في
الدنيا ولا ينال من الرزق الا ما قدر له فظهر بهذا ان عيش المومن القنوع اطيب
من غيره وقال السدي الحياة الطيبة انما تحصل في القبر لان المومن يستريح بالموت
من كد الدنيا وتعبها وقال مجاهد وقتادة هي الجنة لانها حياة بلا موت
وغنا بلا فقر وصحة بلا سقم وملك بلا هلك وسعادة بلا شقا فاثبت بهذا ان
الحياة الطيبة لا تكون الا في الجنة ولا مانع من ان المومن الكامل يحصل جميع ذلك
ثم ان الله تعالى ختم الاية بقوله تعالى ولنجزينهم اجرهم اي في الدنيا والاخرة باحسن ما كانوا
يعملون اي من الطاعة وقد سبق تفسيره ولما قال تعالى ولنجزينهم اجرهم باحسن
ما كانوا يعملون ارشد الى العمل الذي به تخلص اعماله من الوسواس بقوله تعالى
فاذا قرات القران اي اردت قراته فاستعذ اي ان شيت جهرا وان شيت سرا
قال الشافعي رضي الله تعالى عنه والاسرار اولى في الصلاة وفي قول يجهر كما يفعل خارج
الصلاة بالله اي سل الذي له الكمال كله ان يعيذك من الشيطان اي المحترق باللعنة
الرجيم اي المطرود عن الرحمة من ان يصدك بوساوسه عن اتباعه ويدخل في ذلك
جميع المردة من الشياطين لان لهم قدرة على القا الوسوسة في قلوب بني ادم باقدار الله
تعالى على ذلك وقيل المراد ابليس خاصة والاستعاذة بالله هي الاعتصام به والخطاب
للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من امته وظاهر الاية وجوب الاستعاذة
واليه ذهب عطا سوا كانت القراة في الصلاة ام في غيرها واتفق ساير الفقها
على انها سنة في الصلاة وغيرها والصارف لهذا الامر عن الوجوب احاديث كثيرة
منها القراة بدون ذكر تعوذ كحديث البخاري وغيره عن ابي سعيد ابن المعلى رضي الله
تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له ما منعك ان تجيبني قال كنت اصلي
قال الم يقل الله استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم ثم قال لاعلمنك سورة هي اعظم
سورة في القران الحمد لله رب العالمين وفي رواية الموطا انه صلى الله عليه وسلم نادى
ابيا وانه قال له كيف تقرا اذا افتتحت الصلاة قال ابي فقرات الحمد لله رب العالمين

حتى

حتى اتيت على اخرها وظاهر الاية يدل على ان الاستعاذة بعد القراءة واليه ذهب
جماعة من الصحابة والتابعين وهو قول ابي هريرة واليه ذهب مالك وداود الظاهري
قالوا لان قارئ القران يستحق ثوابا عظيما وربما حصل الوسواس في قلب القارئ
هل حصل له ذلك الثواب او لا فاذا استعاذ بعد القراءة اندفعت تلك الوساوس
وبقي الثواب مخلصا والذي ذهب اليه الاكثرون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم
من الائمة وفقهاء الامصار ان الاستعاذة مقدمة على القراءة قالوا ومعنى الاية
اذا اردت ان تقرا القران فاستعذ بالله وتبعهم على ذلك فلهذا قدرت ذلك
في الاية الكريمة ومثل ذلك قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ومثله
من الكلام اذا اكلت فسم اي اذا اردت ان تاكل فقل بسم الله الرحمن الرحيم واذا سافرت
فتاهب اي اذا اردت ان تسافر فتاهب وايضا الوسوسة انما تحصل في اثناء القراءة
فتقديم الاستعاذة على القراءة لتذهب الوسوسة عنه اولى من تاخيرها عن وقت
الحاجة اليها ولما امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من الشيطان
وكان ذلك يوهم ان للشيطان قدرة على التصرف في اتيان الانسان ازال الله تعالى ذلك
الوهم وبين انه لا قدرة له البتة الا على الوسوسة بقوله تعالى انه ليس له سلطان اي
بحيث لا يقدر المسلط عليه على الانفكاك عنه على الذين امنوا اي بتوفيق ربهم لهم
وعلى ربهم وحده يتوكلون اي على اولياء الله المؤمنين به والمتوكلين عليه فانهم لا يقبلون
منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته وعن سفيان الثوري قال ليس
له سلطان على ان يحملهم على ذنب لا يغفر لهم ثم وصل تعالى بذلك ما افهمه من ان
له سلطانا على غيرهم بقوله تعالى انما سلطانه الذي يتمكن به غاية التمكن بامكان الله
الله تعالى له على الذين يتولونه اي يجيبونه ويطيعونه والذين هم به اي بالله مشركون
وقيل الضمير راجع الى الشيطان والمعنى هم بسببه مشركون بالله ولما كان المشركون
اذا نزلت اية فيها شدة ثم نزلت اية ناسخة لها يقولون ان محمدا يسخر باصحابه يامرهم
اليوم بامر وينهاهم عنه غدا ما هو الا مفتر يتقوله من تلقاء نفسه نزل واذا بدلنا
اي بقدرتنا بالنسخ اية سهلة كالعدة باربعة شهور وعشر وقتال الواحد من المسلمين
لاثنين من الكفار او شاقة كتحريم الخمر وايجاب الصلوات الخمس فجعلناها مكان اية
شاقة كالعدة بحول ومصابرة عشرة من الكفار او سهلة كالايات المتضمنة لاباحة
الخمر والتبديل رفع الشيء ووضع غيره مكانه والله اي الذي له الاحاطة الشاملة
اعلم بما ينزل من المصالح بحسب الاوقات والاحوال بنسخ او بغيره قالوا اي الكفار انما
انت يا محمد مفتر اي متقول على الله تامر بشيء ثم يبدو لك فتنهى عنه وهو جواب
اذا والله اعلم بما ينزل اعتراض والمعنى الله اعلم بما ينزل من الناسخ والمنسوخ
والتغليظ والتخفيف اي هو اعلم بجميع ذلك في مصالح العباد وهذا توبيخ
للكفار على قولهم انما انت مفتر اي اذا كان هو اعلم بما ينزل فما بالهم ينسبون محمدا
الى الافتراء لاجل التبديل والنسخ بل اكثرهم وهم الذين يستمرون على الكفر لا يعلمون
حكمة فائدة النسخ والتبديل ولا يميزون الخطا من الصواب فان الله تعالى اعلم
بمصالح العباد كما ان الطبيب يامر المريض بشربة ثم بعد مدة ينهاه عنها ويامره

بضد تلك البشرية ثم امر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالرد عليهم بقوله تعالى قل لمن واجهك
بذلك منهم نزله اي القران بحسب التدريج لاجل اتباع المصالح لاحاطة علم المتكلم به
روح القدس اي جبريل عليه السلام واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كما يقال
حاتم الجود وزيد الخير والمراد الروح المقدس وحاتم الجواد وزيد الخير والمقدس المتطهر
من الماثم من ربك بالحق اي ملتبسا بالحكمة ليثبت الذين امنوا اي ليثبت بالقران
قلوب الذين امنوا فيزدادوا ايمانا ويقينا وهدى اي بيانا واضحا وبشرى للمسلمين اي
المنقادين لحكمه فان قيل ظاهر الاية ان القران لا ينسخ بالسنة لقوله تعالى واذا بدلنا
اية مكان اية اذ مقتضاه ان الاية لا تنسخ الا باخرى اجيب بان هذه الاية دلت على انه
تعالى يبدل اية باية ولا دلالة فيها على انه لا يبدل اية الا باية وايضا فجبريل عليه السلام
ينزل بالسنة كما ينزل بالاية ولما كان المشركون يقولون ان محمدا انما يتعلم هذه
القصص وهذه الاخبار من انسان اخر وهو ادمي مثله وليس هو من عند الله كما يزعم
نزل قوله تعالى ولقد نعلم اي علما مستمرا انهم يقولون انما يعلمه بشر واختلف
في البشر الذي قال المشركون ان النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم منه فقيل هو عبد لبني
عامر بن لوي يقال له يعيش كان يقرا الكتب وقيل عداس غلام عتبة بن ربيعة
وقيل عبد لبني الحضرمي صاحب كتب وكان اسمه جبر وكانت قريش تقول عبد بني
الحضرمي يعلم خديجة وخديجة تعلم محمدا وقيل كان بمكة نصراني اعجمي اللسان اسمه بلعام
ويقال بن ميسرة يتكلم بالرومية وقيل سلمان الفارسي وبالجملة فلا فائدة في تعداد
هذه الاسماء والحاصل ان القوم اتهموه بانه يتعلم هذه الكلمات من غيره ثم انه
يظهرها من نفسه ويزعم انه انما عرفها بالوحي وهو كاذب فيه فاجاب الله تعالى
عنه تكذيبا لهم فيما رموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب بقوله تعالى
لسان الذين يلحدون اي يميلون او يشيرون اليه انه يعلمه اعجمي اي غير لغة العرب
وهو مع ذلك الكن في التادية غير مبين وهذا اي القران لسان عربي مبين اي ذو
بيان وفصاحة فكيف يعلمه اعجمي وروي ان الرجل الذي كانوا يشيرون اليه اسلم
وحسن اسلامه ان الذين لا يؤمنون اي يصدقون كل تصديق معترفين بايات الله
اي الذي له العظمة كلها لا يهديهم الله اي لا يرشدهم ولا يوفقهم للايمان ولهم عذاب
اليم اي مؤلم في الاخرة ثم اخبر الله تعالى ان الكفار هم المفترون بقوله تعالى انما يفتري
الكذب الذين لا يؤمنون بايات الله اي القران بقولهم هذا من قول البشر واولئك
اي البعداء البغضاء هم الكاذبون اي الكاملون في الكذب لان تكذيب ايات الله
اعظم الكذب واولئك هم الكذبة عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء لا يحجبهم عنه
مروة ولا دين ولما ذكر تعالى الذين لا يؤمنون مطلقا اتبعهم صنفا منهم هم اشد كفرا بقوله
تعالى من اي اي مخلوق وقع له انه كفر بالله اي الذي له صفات الكمال بان قال او عمل
ما يدل على الكفر من بعد ايمانه بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم الا من اكره على التلفظ بالكفر
فتلفظ به وقلبه مطمئن بالايمان فلا شيء عليه لان محل الايمان هو القلب روي ان قريشا
اكرهوا عمارا وابويه ياسرا وامه سمية على الارتداد فربطوا سمية بين بعيرين وقالوا
انك اسلمت من اجل الرجال فقتلت وقتل ياسر وهما اول قتيل في الاسلام واعطاهم عمار

بلسانه

الثالث والاربعون

بلسانه ما اراد وامكرها وهو كاره بقلبه فاخبر النبي صلى الله عليه وسلم بانه كفر فقال صلى
الله عليه وسلم كلا ان عمارا امتلا ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه
فجا الى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبكي فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه
ويقول ما لك ان عادوا لك فقل لهم بمثل ما قلت تنبيه في الاية دليل على اباحة التلفظ بالكفر
وان كان الافضل ان يتجنب عنه اعزازا للدين كما فعله ابواه ولما روي ان مسيلمة اخذ رجلين
فقال لاحدهما ما تقول في محمد فقال رسول الله قال فما تقول في قال انت ايضا
فخلاه وقال للاخر ما تقول في محمد فقال رسول الله قال فما تقول في قال انا اصم
فاعاد عليه ثلاثا فاعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اما
الاول فقد اخذ برخصة الله واما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئا له واختلف الائمة
في وقوع الطلاق بالاكراه فقال الشافعي واحمد رحمهما الله تعالى لا يقع طلاق المكره وقال
ابو حنيفة رحمه الله تعالى يقع واستدل الشافعي بقوله تعالى لا اكراه في الدين ولا يمكن ان
يكون المراد نفي ذاته لان ذاته موجودة فوجب حمله على نفي اثاره اي لا اثر له ولا عبرة به
وقال عليه الصلاة والسلام رفع عن امتي الخطا والنسيان وما استكرهوا عليه وقال
ايضا لا طلاق في اغلاق اي اكراه وتمسك ابو حنيفة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له
وهذا قد طلقها واجيب بان الاية مخصوصة بغير ذلك جمعا بين الادلة ولكن من شرح
بالكفر صدرا اي فتحه ووسعه لقبول الكفر واختاره ورضي به فعليهم غضب اي غضب
لم تبين جهة عظيمة لكونه من الله اي الملك الاعظم ولهم اي بظواهرهم وبواطنهم عذاب
عظيم في الاخرة لارتدادهم على اعقابهم ذلك اي الوعيد العظيم بانهم اي بسبب انهم
استحبوا اي احبوا حبا عظيما الحياة الدنيا الكائنة الحاضرة الفانية فاثروها
على الاخرة الباقية الفاخرة لانهم راوا ما فيه المومنين من الضيق والكافرين من السعة
وان الله اي الذي له الغنا المطلق لا يهدي القوم الكافرين اي لا يرشدهم الى الايمان ولا يوفقهم
للعمل اولئك اي البغضا البعدا الذين طبع الله اي الملك الذي لا امر لاحد معه
على قلوبهم اي ختم عليها واستوثق ولما كان التفاوت في السمع نادرا وحده بقوله تعالى
وسمعهم او بمعنى اسماعهم ليناسب قوله تعالى وابصارهم فصاروا بعدم انتفاعهم بهذه
المشاعر كانهم لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون واولئك اي الاباعد من كل خير هم الغافلون
عما يراد بهم من العذاب في الاخرة لا جرم اي لا شك انهم في الاخرة هم الخاسرون
اي اكمل الناس خسارة لان الله تعالى وصفهم بست صفات الاولى انهم استوجبوا
غضب الله تعالى الثانية انهم استوجبوا العذاب الاليم الثالثة انهم استحبوا الحياة
الدنيا على الاخرة الرابعة ان الله تعالى حرمهم عن الهداية الخامسة انه تعالى طبع على
قلوبهم وسمعهم وابصارهم السادسة انه جعلهم من الغافلين عن العذاب الشديد
يوم القيامة اذ كل واحدة من هذه الصفات من اعظم الاحوال المانعة من الفوز
بالخيرات والسعادات ومعلوم انه تعالى انما ادخل الانسان في الدنيا ليكون
كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادات الاخرة فاذا حصلت هذه الموانع
العظيمة عظم خسرانه فلهذا السبب حكم تعالى عليهم بالخسران ولما ذكر تعالى
حال من كفر بالله من بعد ايمانه وحال من اكره على الكفر ذكر بعده حال من هاجر

من قرنه كذا بخط المولف وله عبارة اخرى في الفقه من قرنه بالفاء والراء والقاف بعد ليلا تلتبس هذه بتلك انتهى وراجع تحرير

BULAC

من بعد ما فتن بقوله تعالى ثم إن ربك اي المحسن اليك للذين هاجروا الى المدينة الشريفة
بالولاية والنصر وقوله تعالى من بعد ما فتنوا قراه ابن عامر بفتح الفا والتا
على اسناد الفعل الى الفاعل والباقون بضم الفا وكسر التا على فعل ما لم يسم فاعله
وجه القراة الاولى انه عاد الضمير على المومنين فالمعنى فتنوا انفسهم بما اعطوا المشركين
من القول ظاهرا او انهم لما صبروا على عذاب المشركين فكانهم فتنوا انفسهم وان عاد على
المشركين فهو ظاهر اي فتنوا المومنين لان اولئك المفتونين هم المستضعفون
الذين حملهم اقويا المشركين على الردة والرجوع عن الايمان فبين تعالى انهم هاجروا ثم
جاهدوا وصبروا على الطاعة إن ربك من بعدها اي الفتنة لغفور اي بليغ الاكرام
رحيم فهو يغفر لهم ويرحمهم تنبيه حذف خبر ان الاولى لدلالة خبر الثانية عليه
او يقدر بما مر يوم اي اذكر يوم تأتي كل نفس اي وان عظم جرمها تجادل اي تحاجج عن نفسها
لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة فان قيل ما معنى النفس المضافة الى النفس اجيب
بانه يقال لعين الشي وذاته نفسه وفي نقيضه غيره والنفس الجملة كما هي فالنفس
الاولى هي الجملة الاولى والثانية عينها وذاتها فكانه قيل يوم ياتي كل انسان يجادل
عن ذاته لا يهمه شان غيره كل يقول نفسي نفسي ومعنى المجادلة عنها الاعتذار عنها
كقولهم هولا اضلونا وما كنا مشركين وتوفى كل نفس صالحة او غير صالحة
ما عملت اي جزاه من جنسه وهم لا يظلمون شيا ولما هدد تعالى الكفار بالوعيد الشديد
في الاخرة هددهم ايضا بافات الدنيا وهي الوقوع في الجوع والخوف بقوله تعالى
وضرب الله اي المحيط بكل شي مثلا ويبدل منه قرية هي مكة والمراد اهلها كانت امنة
اي ذات امن يامن به اهلها في زمن الخوف قال تعالى الم يروا انا جعلنا حرما امنا ويتخطف
الناس من حولهم والامن في حكمه كان كذلك لان العرب كان يغير بعضهم على بعض
دون اهل مكة فانهم كانوا اهل حرم الله والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم
والتكريم مطمئنة اي قارة باهلها لا يحتاجون فيها الى نجعة وانتقال بسبب زيادة
الامن بكثرة العدد وقوة المدد وكف الله الناس عنها ووجود ما يحتاج اليه اهلها
فان قيل الاطمينان هو الامن فيلزم التكرار اجيب بان قوله تعالى امنة اشارة الى
الامن وقوله تعالى مطمئنة لا يحتاجون فيها الى نجعة كما مر وقيل اشار تعالى بذلك الى
الصحة لان هوا ذلك البلد كان ملايما لامزجتهم فلذلك اطمانوا اليه واستقروا
قالت العقلا ثلاثة ليس لها نهاية الامن والصحة والكفاية ياتيها اي على سبيل التجدد
والاستمرار رزقها رغدا اي واسعا طيبا من كل مكان بر وبحر بتيسير الله تعالى ولما كانت
السعة تجر الى البطر غالبا نبه تعالى على ذلك بقوله تعالى فكفرت بانعم الله اي الذي
له الكمال كله وانعم جمع نعمة قال الزمخشري على ترك الاعتداد بالتاكيد وادرج
وقال قطرب هي جمع نعم والنعم النعمة يقال هذه ايام نعم وطعم فلا تصوموا وقيل جمع
نعما مثل باسا وابوس فان قيل الانعم جمع قلة فكان تلك القرية كفرت بانواع قليلة
من نعم الله فعذبها الله تعالى فلم لم يقل تعالى كفروا بنعم عظيمة فاستوجبوا العذاب
اجيب بان المقصود التنبيه بالادنى على الاعلى فان كفران النعم القليلة لما اوجب
العذاب فكفران النعم الكثيرة اولى وبان الله تعالى انعم عليهم بالنعمة العظيمة

وهو

وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا به وبالقرآن في ايديهم فاذاقها الله اي الحيط بكل شيء لباس الجوع بعد رغد العيش سبع سنين وقطعت العرب عنهم الميرة بامر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جهدوا واكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة وقيل ان القرية غير مكة لانها ضربت مثلا لمكة ومثل مكة تكون غير مكة والخوف بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم تنبيه استعير الذوق لادراك اثر الضرر واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف واوقع الاذاقة عليه بالنظر الى المستعار له كقوله فبشرهم بعذاب اليم عمر الرداء اذا انتشم ضاحكا علقت لضحكته رقاب المال فانه استعار الرداء للمعروف لانه يصون عرض صاحبه صون الرداء الملقى عليه واضاف البنان العمر الذي هو وصف المعروف والنوال لاوصاف الرداء نظرا الى المستعار له ولو نظر الى المستعار لقال ضاقت في الرداء اي سابغه وتعني البنان اذا ضحك المسول ضحكة ابقن الشايل انه بذلك البشر استغفر ذنبك لها وتعطى بالاخلاف وقد يشطر المستعار كقوله

يا ناز عني رداء عبد عمرو ... رويدك يا اخا عمرو بن بكر

لي الشطر الذي ملكت يميني ... ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للتشفع ثم قال فاعتجر نظرا الى المستعار ولو نظر الى المستعار منه لقال تقلد به لانه رداء وكساهم لباس الجوع والخوف ولقال كشر صافي الرداء اذا انتشم ضاحكا وهذا نهاية ما يقال في الاستعارة وقال بعطية لما باشرهم ذلك صار كاللباس وهذا كقول الاعشى اذا الضجيع ثنى جيدها تثنت عليه فكانت لباسا ومثله قوله تعالى هن لباس لكم وانتم لباس لهن ومثل قول الشاعر وقد لبست بعد الزبير مجاشع لباس التي حاضت ولم تغسل الدما كان العار لما باشرهم والصق بهم كالهم نشوة وقوله تعالى فاذاقها الله نظير قوله تعالى ذق انك انت العزيز الكريم ونظير قول الشاعر ودونك ما جنيت فاحش وذق وقوله تعالى بما كانوا يصنعون يجوز ان تكون ما مصدرية اي بسبب صنعهم او بمعنى الذي والعايد محذوف اي بسبب الذي كانوا يصنعونه والوارد في يصنعون عاين على اهل المقدر قبل قريه نظيره قوله تعالى اوهم قايلون بعد قوله تعالى وكم من قرية اهلكناها والما ذكر تعالى المثل ذكر الممثل له فقال ولقد جاءهم اي اهل هذه القرية رسول منهم من نسبهم يعرفونه باصله ونسبه وهو محمد صلى الله عليه وسلم فكذبوه فاخذهم العذاب قال ابن عباس يعني الجوع الذي كان بمكة وقتل القتل يوم بدر وهم ظالمون اي في حال التباسهم بالظلم كقوله تعالى الذين تتوفاهم الملايكة ظالمي انفسهم نعوذ بالله من مفاجاة النعمة والموت على الغفلة وقرا نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم باظهار الدال عند الحرف والباقون بالادغام ثم قال الله تعالى فكلوا اي ايها المؤمنون مما رزقكم الله قال ابن عباس يريد من الغنايم وقال الكلبي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جهدوا اوقالوا عاد ذئب الرجال فما بال النساء والصبيان وكانت الميرة قد قطعت عنهم بامر النبي صلى الله عليه وسلم فاذن في الحمل اليهم فحمل الطعام اليهم فقال الله تعالى كلوا مما رزقكم الله قال الرازي والعقول ما قال ابن عباس يدل عليه قوله تعالى بعد هذه الاية انما حرم عليكم الميتة تعني انكم لما امنتم ولذكيتم الغنم فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا وهو العفيفة من المكاسب وانزكى الحيوانات وهي الميتة والدم ولما امرهم بتعالى باكل الحلال امرهم بشكر النعمة بقوله تعالى واشكروا نعمة

الله إن كنتم إياه تعبدون أي تطيعون تنبيه رسمت نعمت بالتاء وقرأ ابن كثير وأبو عمرو
بالهاء والباقون بالتاء والكسائي يقف بالإمالة وتقدم تفسير قوله تعالى إنما حرم عليكم
الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن
الله غفور رحيم في سورة البقرة فلا إعادة في تفسير ذلك وقرأ أبو عمرو وعاصم
وحمزة فمن اضطر في الوصل بكسر النون والباقون بالضم تنبيه حصر المحرمات في هذه
الأشياء الأربعة مذكور أيضا في سورة الأنعام عند قوله تعالى قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما
على طاعم يطعمه وفي سورة المائدة في قوله تعالى أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم
وأجمعوا على أنه تعالى المراد بقوله تعالى إلا ما يتلى عليكم هو قوله تعالى في سورة البقرة
حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله وقوله تعالى في المائدة
والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم فهذه
الأشياء داخلة في الميتة ثم قال تعالى وما ذبح على النصب وهو أحد الأشياء الداخلة
تحت قوله تعالى وما أهل به لغير الله فثبت أن هذه السور الأربعة دالة على حصر
المحرمات في هذه الأربعة سورتان مكيتان وسورتان مدنيتان فإن سورة البقرة
مدنية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله بالمدينة فمن أنكر حصر التحريم في هذه الأربعة
إلا ما خصه الإجماع والدلائل العقلية القاطعة كان في محل أن يخشى عليه لأن هذه
السورة دلت على أن حصر المحرمات في هذه الأربعة كان شروعا ثابتا في أول زمان
مكة وآخره وأول زمان المدينة وآخره وأنه تعالى أعاد هذا البيان في هذه السور الأربعة
قطعا للأعذار وإزالة الشبهة ولما حصر تعالى المحرمات في هذه الأربعة بالغ في تأكيد ذلك
الحصر وزيف طريقة الكفار في الزيادة على هذه الأربعة تارة وفي النقصان عنها
أخرى بقوله تعالى ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لما لم
يحله الله ولم يحرمه فإنهم كانوا يحرمون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وكانوا يقولون
ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا فقد زادوا
في المحرمات وزادوا أيضا في المحللات لأنهم حللوا الميتة والدم ولحم الخنزير وما
أهل به لغير الله فبين الله تعالى أن المحرمات هي هذه الأربعة وبين أن الأشياء
التي يقولون هذا حلال وهذا حرام كذب وافتراء على الله تنبيه في انتصاب
الكذب وجهان أحدهما قال الكسائي ما مصدرية والتقدير ولا تقولوا لأجل
وصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام نظيره أن يقال لا تقولوا لكذا وكذا
وكذا فإن قيل حمل الآية على هذا يؤدي إلى التكرار لأن قوله تعالى لتفتروا على الله
الكذب عين ذلك أجيب بأن قوله لما تصف ألسنتكم الكذب ليس فيه بيان أنه كذب
على الله فأعاده ليحصل فيه هذا البيان الزائد ونظائره في القرآن كثيرة وهو
أنه تعالى يذكر كلاما يعيده بعينه مع فائدة زائدة الثاني أن تكون ما موصولة
والتقدير ولا تقولوا للذي تصف ألسنتكم الكذب فيه هذا حلال وهذا حرام
وحذف لفظ فيه لكونه معلوما وقيل اللام في لتفتروا لام العاقبة كما في قوله
تعالى ليكون لهم عدوا وحزنا فإن قيل ما معنى وصف ألسنتهم الكذب أجيب
بأن ذلك من فصيح الكلام وبليغه جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه فإذا

كذا ٢٢

نطقت

نطقت به السنتهم فقد حلت الكذب بجليته وصورته بصورته كقولهم
وجهها يصف الجمال اي هي جميلة وعينها نصف السحر اي هي ساحرة فلما اراد والمبالغة
زاد وصف الوجه بالجمال ووصف العين بالسحر عبر وابدلك ثم انه تعالى اوعد المفترين
بقوله تعالى إن الذين يفترون على الله اي الذي له الملك كله الكذب منكم ومن غيركم
لا يفلحون اي لا يفوزون بخير لان المفترى يفتري لتحصيل مطلوب فنفى تعالى عنه الفلاح
لانه اكمل الفوز بالخير والنجاح ثم بين تعالى انهم فيما هم فيه من نعيم الدنيا ولذاتها عن قرب بقوله
تعالى متاع قليل اي منعهم قليلة تنقطع عن قرب لغاية وان امتد الف عام ولهم
بعد عذاب اليم اي مؤلم في الاخرة والمبين تعالى ما يحل ويحرم لاهل الاسلام انبعه
ببيان ما خص اليهود به من المحرمات بقوله تعالى وعلى الذين هادوا اي اليهود
حرمنا عليهم عقوبة لهم بعد اوبتهم وكذبهم على ربهم ما قصصنا عليك من قبل اجل المرسلين
من نعامة اي ذي سورة الانعام وهو قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر الاية
وما ظلمناهم اي بتحريم ذلك عليهم ولكن كانوا اي دأبا طبعا لهم وخلقا مستمرا انفسهم
يظلمون بالبغي والكفر فضيقنا عليهم معاملة بالعدل وعاملناكم انتم حيث ظلمتم
بالتفضل فاشكروا النعمة واحذروا عواقب التهمة والمبين تعالى هذه النعمة الذين ثنوا
عطف عليه بفتح بيانا لكبر جنايتهم اذ استحلوا بها كل ظالم لكل ظالم وبين عظمتها بحرف الزاي
فقال تعالى ثم إن ربك اي المحسن اليك الذين عملوا السوء وهو بيتوا وكل ما لا ينبغي
فعله فيشمل الكفر وسائر المعاصي بجهالة اي بسببها او متلبسين بها لان الجهل بالله وبتفاصيل
وعدم التدبر في العواقب وكل من عمل سوءا انما يفعله بالجهالة اما الكفر فلان احدا
لا يرضى به مع العلم بكونه كفرا لانه لو لم يعتقد كونه حقا فانه لا يختاره وسائر تضيد
واما المعصية فلان العالم لم يصدر عنه المعصية ما لم تغلب الشهوة عالبة للعقل فثبت
ان كل من عمل سوءا فانما يقدم عليه بسبب الجهالة ثم تابوا من بعد ذلك اي الذنب وكان
عظيما واقتضوا واعلم ما اذن به خالقهم واصلحوا بالاستمرار على ذلك إن ربك اي المحسن اليك
بتسهيل ذينك وتيسيره من بعدها اي التوبة لغفور رحيم اي يبلغ الستر لما عملوا من السوء
رحيم اي يبلغ الرحمة بمحض الاكرام فضلا منه ونعمة ولما ان تمم الله تعالى الى مكارم
الاخلاق وما نهاهم عنه ساوى بينه وبين ما قبل اليه وكان ابراهيم عليه السلام رئيس
الموحدين لاحرم ذكره الله تعالى في اثر هذه السورة ووصفه بسبع صفات الصفة
الاولى قوله تعالى إن ابراهيم كان امة اي في كماله واشتماله على فضائل لا تكاد توجد
الا في امة فنزل اشخاص كثيرة لقول القائل وليس لله بمستنكر اي بجمع العالم
في واحد اي ان يجمع صفاتهم في شخص واحد وقال تعالى هذا هو كان يوسف واخوته والناس كلهم
كانوا كفارا فلهذا المعنى كان وحده امة وكان النبي صلى الله عليه وسلم في زيد بن عمرو
بن نفيل يبعثه الله امة وحده وعن شهر بن حوشب لم تبق الارض الا وفيها اربعة
يدفع الله تعالى بهم عن اهل الارض الا من ابراهيم فانه كان وحده وقيل امة فعلة
بمعنى مفعول كالدخلة والنخبة من امه اذا امه قصدا واقتدى به وان الناس كانوا يأتمون به
للاشتقاق ويقتدون بسيرته كقوله تعالى اني جاعلك للناس اماما وقرأ هشام بن
ابراهيم بالالف بعدها فيهما والباقون بالياء فيهما الصفة الثانية قوله تعالى

BUIAC

قانتا لله اي مطيعا له قايما باوامره الصفة الثالثة قوله تعالى حنيفا اي مايلا عن
الباطل قال ابن عباس انه اول من اختتن واقام مناسك الحج وضحى هذه الصفة الحنيفية
الصفة الرابعة قوله تعالى ولم يك من المشركين اي انه عليه السلام كان من الموحدين
في الصغر والكبر وقد ابطل عبادة الاصنام والكواكب فقوله لا احب الافلين ثم
كسر تلك الاصنام حتى آل الامر الى ان القوم القوه في النار وذكر دليل اثبات
الصانع مع ملك زمانه وهو قوله ربي الذي يحيي ويميت ثم طلب من الله ان يريه
كيف يحيي الله الموتى ليحصل له زيادة الطمانينة قال الرازي ومن وقف
على علم القران علم ان ابراهيم عليه السلام كان غريقا في علم التوحيد الصفة
الخامسة قوله تعالى شاكرا لانعمه فان قيل لفظ الانعم جمع قلة ونعم الله تعالى
على ابراهيم كانت كثيرة فلم قال الله تعالى شاكرا لانعمه اجيب بانه ذكر بلفظ القلة
للتنبيه على انه كان لا يخل بشكر القليلة فكيف بالكثيرة روي انه عليه السلام
كان لا يتغدى الا مع ضيف فلم يجد ذات يوم ضيفا فاخر غداه فاذا هو بقوم
من الملايكة في صورة البشر فدعاهم الى الطعام فخيلوا له ان بهم جذاما فقال
الان وجبت مواكلتكم شكرا لله على انه عافاني بهذا البلا وابتلاكم بهذا البلا
الصفة السادسة قوله تعالى اجتباه اي اصطفاه للنبوة واختاره لخلته
الصفة السابعة قوله تعالى وهداه الى صراط مستقيم اي هداه الى دين الاسلام
لانه الصراط المستقيم والدين القويم ونظيره قوله تعالى وان هذا صراطي مستقيما
فاتبعوه الصفة الثامنة قوله تعالى وآتيناه في الدنيا حسنة قال قتادة
حببه للناس حتى ان ارباب الملل يتولونه ويثنون عليه اما المسلمون واليهود
والنصارى فظاهر واما كفار قريش وساير العرب فلا فخر لهم الا به وتحقيق
القول ان الله تعالى اجاب دعاه في قوله واجعل لي لسان صدق في الاخرين
وقال اخرون هو قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم وعلى ال ابراهيم وقيل
اولادا ابرارا على الكبر الصفة التاسعة قوله تعالى وانه في الاخرة لمن الصالحين
في الجنة فان قيل لم لم يقل تعالى في اعلى مقامات الصالحين اجيب بانه تعالى
حكى عنه انه قال رب هب لي حكما والحقني بالصالحين فقال تعالى هنا وانه
في الاخرة لمن الصالحين تنبيها على انه تعالى اجاب دعاه ثم ان كونه من الصالحين
لا ينفي ان يكون في اعلى مقامات الصالحين فان الله تعالى بين ذلك في اية
اخرى وهي قوله تعالى وتلك حجتنا اتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات
من نشا ولما وصف الله تعالى ابراهيم بهذه الصفات العالية الشريفة امر
نبيه صلى الله عليه وسلم باتباعه مشيرا الى علو مرتبته بحرف التراخي بقوله
تعالى ثم اوحينا اليك يا اشرف الرسل وقيل اتى بثم لتراخي ايامه عن ايام
ابراهيم عليهما الصلاة والسلام ان اتبع ملة ابراهيم في التوحيد والدعوة
اليه بالرفق وايراد الدلايل مرة بعد اخرى والمجادلة مع كل احد على حسب
فهمه ولا بعد في ان يفهم ذلك الهجرة ايضا وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم
مامورا بشريعة ابراهيم الا ما نسخ منها وما لم ينسخ صار شرعا له وقوله تعالى

حنيفا

حنيفا حال من النبي صلى الله عليه وسلم ويصح ان يكون من ابراهيم عليه السلام وقوله
تعالى وما كان من المشركين كرره ردا على زعم اليهود والنصارى انهم على دينه وقوله
تعالى انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه فيه قولان الاول روى الكلبي
عن ابي صالح عن بن عباس انه قال امرهم موسى بالجمعة وقال تفرغوا لله في كل سبعة
ايام يوما واحدا وهو يوم الجمعة ولا تعملوا فيه شيا من اعمالكم فابوا ان يقبلوا ذلك
وقالوا لا نريد الا اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السبت فجعل
عليهم السبت وشدد عليهم فيه ثم جا عيسى عليه السلام ايضا بالجمعة فقالت النصارى
لا نريد ان يكون عيدهم اي اليهود بعد عيدنا فاتخذوا الاحد وروى ابو هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم ان الله كتب يوم الجمعة على من كان قبلكم فاختلفوا فيه وهدانا
الله له فهم لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد فان قيل هل في العقل وجه
يدل على ان الجمعة افضل من السبت والاحد فان اهل الملل اتفقوا على انه تعالى خلق العالم
في ستة ايام وبدا تعالى بالخلق والتكوين في يوم الاحد وتمم في يوم الجمعة وكان يوم السبت
يوم الفراغ فقالت اليهود نحن نوافق ربنا في ترك الاعمال فعينوا يوم السبت لهذا
المعنى وقالت النصارى مبدا الخلق والتكوين يوم الاحد فيجعل هذا اليوم عيدا لنا
فهذان الوجهان معقولان فما وجه جعل يوم الجمعة عيدا اجيب بان يوم الجمعة هو يوم
التمام والكمال وحصول التمام والكمال يوجب الفرح الكامل والسرور فجعل يوم الجمعة يوم
العيد اولى من هذا الوجه القول الثاني اختلافهم في السبت هو انهم احلوا الصيد
فيه تارة وحرموه تارة وكان الواجب عليهم ان يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة وان ربك
اي المحسن اليك بطواعية اصحابك لك ليحكم بينهم اي هولا المختلفين يوم القيامة وهو يوم
اجتماع جميع الخلائق فيما كانوا فيه يختلفون فيحكم للمحقين بالثواب وللمبطلين
بالعقاب ولما امر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم باتباع ابراهيم عليه السلام بين الشي
الذي امره بمتابعته بقوله تعالى ادع اي كل من تمكن دعوته الى سبيل ربك اي المحسن
اليك بتسهيل السبيل الذي اليه واتساعه وهو الاسلام الذي هو الملة الحنيفية بالحكمة
اي المعاملة المحكمة وهو الدليل الموضح المزيل للشبهة والموعظة الحسنة اي بالدعا
الى الله تعالى بالترغيب والترهيب بالخطابات المقنعة والعبارات النافعة
والاولى لدعوى خواص الامة الطالبين للحقايق والثانية لدعوى عوامهم وجادلهم
اي وجادل معاندهم بالتي اي بالمجادلة التي هي احسن كالدعا الى الله بايانه والدعا
الى حججه بالطريقة التي هي احسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير غلط ولا تعسف
فان ذلك انفع في تسكين لهبهم وتبيين شغبهم وقيل المراد بالحكمة القران اي ادعهم
بالقران والموعظة الحسنة الرفق واللين في الدعوة وبالمجادلة التي هي احسن الاعراض
عن اذاهم وعدم التقصير في تبليغ الرسالة والدعا الى الحق وعلى هذا القول قال بعض
علما التفسير هذا منسوخ باية السيف وقيل ان الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة
اقسام القسم الاول العلما الكاملون وهم اصحاب العلوم الصحيحة والبصاير الثاقبة
الذين يطلبون معرفة الاشيا على حقايقها فهولاء هم المشار اليهم بقوله تعالى ادع الى سبيل
ربك بالحكمة اي ادعهم بالحكمة بالدلايل القطعية اليقينية حتى يعلموا الاشيا بحقايقها

BULAC

وينفعوا الناس وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم القسم الثاني اصحاب الفطرة السليمة
والخلقة الاصلية وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ولم ينزلوا الى حضيض النقصان
فهم اوسط الاقسام وهم المشار اليهم بقوله تعالى والموعظة الحسنة اي ادع هولاء بالموعظة
الحسنة القسم الثالث اصحاب جدال وخصام ومعاندة وهولاء هم المشار اليهم بقوله
تعالى وجادلهم بالتي هي احسن اي حتى ينقادوا الى الحق ويرجعون اليه ان ربك اي المحسن
اليك بالتخفيف عنك هو اعلم اي من كل من يتوهم فيه علم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم
بالمهتدين اي فهو سبحانه وتعالى اعلم بالفريقين فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل
والنصيحة اليسيرة ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل وكانك تضرب في حديد بارد فما عليك
الا البلاغ والدعوة واما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فليس ذلك اليك وهذا
قبل الامر بالقتال وذكر في قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به
اقوال احدها وهو قول ابن عباس في رواية عطاء وابي بن كعب والشعبي ان النبي صلى
الله عليه وسلم لما راى عمه حمزة بن عبد المطلب وقد جدعوا انفه واذنه وقطعوا مذاكيره
وبقروا بطنه واخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده فمضغتها ثم استرطبتها
لتاكلها فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال اما انها
لو اكلته لم تدخل النار ابدا حمزة اكرم على الله من ان يدخل شيا من جسده النار فلما نظر رسول
الله صلى الله عليه وسلم اليه نظر الى شي لم ينظر الى شي قط اوجع لقلبه منه فقال النبي صلى
الله عليه وسلم رحمة الله عليك فاني ما علمتك الا فعالا للخيرات وصولا للرحم ولولا حزن
من بعدك عليك لسرني ان ادعك حتى تحشر من افواج شتى اما والله لئن اظفرني الله بهم
لامثلن بسبعين منهم مكانك فنزلت فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عما اراد وكفر
عما اراد عن يمينه فنزلت وقال المسلمون ايضا لما راوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم احد
من تبقير البطون والمثلة السيئة حتى لم يبق احد من قتلى المسلمين الا مثل به الا حنظلة
ابن الراهب فان اباه ابا عامر الراهب كان مع ابي سفيان فتركوا حنظلة لذلك فقال
المسلمون حين راوا ذلك لئن اظفرنا عليهم لنزيدن على صنيعهم ولنمثلن بهم مثلة لم يفعلها
احد من العرب باحد القول الثاني ان هذا كان قبل الامر بالسيف والجهاد حتى كان المسلمون
قد امروا بالقتال مع من يقاتلهم ولا يبتدوا بالقتال وهو قوله تعالى قاتلوا في سبيل
الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا وفي هذه الاية امر الله تعالى ان يعاقبوا بمثل ما يصيبهم
من العقوبة ولا يزيدوا القول الثالث ان المقصود من هذه الاية نهي المظلوم عن
استيفاء الزيادة من الظالم وهذا قول مجاهد والنخعي وابن سيرين قال الرازي وحمل
هذه الاية على قصة لا تعلق لها بما قبلها يوجب حصول سوء الترتيب في كلام الله تعالى وهو
في غاية البعد بل الاصوب عندي ان يقال انه تعالى امر محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق
الى الدين الحق باحدى الطرق الثلاثة وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالطريق الاحسن ثم
ان تلك الدعوة تتضمن امرهم بالرجوع عن دين ابائهم واسلامهم والحكم عليه بالكفر والضلالة
وذلك ما يشوش قلوبهم ويوحش صدورهم ويحمل اكثرهم على قصد ذلك الداعي بالقتل
تارة وبالضرب ثانيا وبالشتم ثالثا ثم ان ذلك الداعي المحق اذا سمع تلك السفاهات لا بد
وان يحمله طبعه على تاديب اولئك السفهاء تارة بالقتل وتارة بالضرب فعند هذا امر

المحقين

المحققين في هذا المقام برعاية العدل والانصاف وترك الزيادة فهذا هو الوجه الصحيح
الذي يجب حمل الاية عليه فان قيل فهل يقدحون فيما روي انه عليه الصلاة والسلام ترك
العفو عن ترك المثلة وكفر عن يمينه بسبب هذه الاية اجيب بانه لا حاجة الى القدح
في تلك الرواية لان تلك الواقعة داخلة تحت عموم هذه الاية فيمكن التمسك في تلك الواقعة
بعموم هذه الاية وذلك لا يوجب سوء الترتيب في كلام الله تعالى تنبيه امر تعالى
برعاية العدل والانصاف في هذه الاية ورتب ذلك على اربع مراتب المرتبة الاولى
قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به اي ان رعيتم في استيفاء القصاص
ما تقطعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه فان استيفاء الزيادة ظلم والظلم ممنوع منه في عدل
الله تعالى ورحمته وفي قوله تعالى وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به دليل على ان
الاولى له ان لا يفعل كما انكماه اقلت لا مريض ان كنت تاكل الفاكهة فكل التفاح كان
معناه ان الاولى بك انه لا تاكله فقد ذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض ان الاولى تركه
المرتبة الثانية الانتقال من التعريض الى التصريح وهو قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير
للصابرين وهذا التصريح بان الاولى تركه لكن الانتقام لان الرحمة افضل من القسوة والانتقام
افضل من الانتقام وقرا الهوز فالوقف وابو عمرو والكسائي بسكون الهاء والباقون بضمها
المرتبة الثالثة وهو الامر الجزم بالترك وهو قوله تعالى واصبر لانه في المرتبة الثانية
ذكر ان الترك خير واولى وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالامر بالصبر وهذا المقام
ولما كان الصبر في هذا المقام شديدا شاقا ذكر بعده ما يسهله فقال تعالى
وما صبرك الا بالله اي لكن الاعظم الذي يشرح لك هذا الشرح الاقوم هذا لكن يسوفيقه
ومعونته وهذا هو السبب الكلي الاصلي في حصول جميع انواع الطاعات فلما ذكر
تعالى هذا السبب الكلي الاصلي ذكر ما بعده ما هو السبب الجزئي القريب فقوله تعالى
ولا تحزن عليهم اي لشدة كفرهم فتبالغ في الحرص الباخع للنفس ولا تك في ضيق
كما نوح اليه مثنون التحقير ثم لكم ونه اي من استمراركم بكم واعبد ربك حتى يأتيك
اليقين وكانك به وقد اتى فاصبر فان الله تعالى معزك ومظهر دينك وقرا ابن كثير بكسر الضاد
والباقون بنصبها تنبيه هذا من الكلام المقلوب لان الضيق صفة والصفة تكون
حاصلة في الموصوف ولا يكون الموصوف حاصلا في الصفة فكان المعنى ولا يكن الضيق
منك الا ان العاقبة في قوله تعالى ولا تك في ضيق هو ان الضيق اذا عظم وقوي حصار
كالشيء المحيط بالانسان من كل الجوانب وصار كالتميص المحيط به فكانت العاقبة في ذكر هذا
اللفظ هذا المعنى المرتبة الرابعة قوله تعالى ان الله اي الجامع لصفات الكمال بلطفه
وعونه مع الذين اتقوا اي وجد منهم الخوف من الله تعالى واجتنبوا المناهي والذين هم
محسنون في اعمالهم والشفقة على خلقه وقد جرى مجرى التهديد لانه في المرتبة
الاولى رغبه في ترك الانتقام على سبيل الرمز وفي الثانية عدل عن الرمز الى التصريح
وصرح قوله تعالى ولئن صبرتم لهو خير للصابرين وفي المرتبة الثالثة امر بالصبر
على سبيل الجزم وفي هذه المرتبة الرابعة كانه ذكر الوعيد على فعل الانتقام
فقال ان الله مع الذين اتقوا عن استيفاء الزيادة والذين هم محسنون في ترك
اصل الانتقام فكانه قال ان اردت ان تكون مع الله فكن من المتقين

BULAC

ومن المحسنين وهذه المعية بالرحمة والفضل والتربية وفي قوله تعالى اتقوا اشارة
الى التعظيم لامر الله وفي قوله تعالى والذين هم محسنون اشارة الى الشفقة على خلق
الله قيل لهرم بن حيان عند قرب وفاته أوص فقال ان الوصية في المال ولا مال لي ولكن
اوصكم بخواتيم سورة النحل بتمامها قال بعضهم ان قوله تعالى وان عاقبتم الى لهو خير
للصابرين منسوخ بآية الشفقتال الرازي وهذا في غاية البعد لان المقصود من هذه
الاية تعليم حسن الادب في كيفية الدعوة الى الله تعالى وترك التعدي وطلب الزيادة
ولا تعلق لهذه الاشياء بآية الشيف وما رواه البيضاوي تبعا للزمخشري من انه
صلى الله عليه وسلم قال من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما انعم عليه في دار
الدنيا وان مات في يوم تلاها او ليلة كان له من الاجر كالذي مات واحسن الوصية
حديث موضوع قال الرازي في آخر هذه السورة يقول مصنف الكتاب الحق عزيز
والطريق بعيد والمركب ضعيف والقرب بعيد والوصل هجر والحقائق مصونة والمعاني
في غيب الغيب مصونة والاسرار فيما وراء اقفال العزة مخزونة وبعد الخلق العقل والنقل
والكمال ليس الا لله ذي الجلال والاكرام سورة الاسراء وتسمى سورة سبحان وبني اسرائيل
مكية الا وان كادوا الآيات الثمان مائة وعشر ايات واحدى عشرة والف وخمسمائة
وثلاث وثلاثون كلمة وعدد حروفها ستة الاف واربعمائة وستون حرفا
بسم الله الملك المالك لجميع الامر الرحمن للكل ما اوجده بمادة الرحيم لمن خصه بالتزام
العمل بما يرضاه وقوله تعالى سبحان اسم بمعنى التسبيح الذي هو التنزيه وقد
يستعمل علما له فينقطع عن الاضافة ويمنع الصرف للعلمية وزيادة الالف والنون قال
الاعشى في هذه عامر الطفيل قد قلت لما جاني فخره سبحان من علقمة الفاخر
اي العجب منه اذ بخروا والعرب تقول سبحان الله من كذا اذا تعجبت منه والشاهد
في سبحان حيث جعله علما على التنزيه لمنع الصرف وعلقمة المذكور صحابي تقدم على
رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شيخ فاسلم وبايع واستعمله عمر بن الخطاب على خيبر ثم
مات به الذي اسرى بعبده هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو اشرف عباده
على الاطلاق واخصهم بالاضافة اليه وقرأ ابو عمرو وحمزة والكسائي اسرى بالامالة
تخفيفا وورش بين بين والباقون بالفتح وقوله تعالى ليلا نصب على الظرفية والاسراء
سير الليل وغايته ذكره الاشارة بتنكيره الى تقليل مدته فكان هذا الامر الجليل وقع
بسير من الليل والى انه عليه الصلاة والسلام لم يحتج في الاسراء والعروج الى سدرة
المنتهى وسماع الكلام من العلي الاعلى الى رياضة بصيام ولا غيره بل كان مهيا لذلك
متاهلا له فاقامه تعالى من الغرش الى العرش من المسجد الحرام اي بعينه وهو الذي يدل
عليه لفظ ظاهر القرآن وروي انه صلى الله عليه وسلم قال بينا انا في المسجد الحرام
في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ اتاني جبريل بالبراق وقيل كان نائما
في الحطيم وقيل في بيت ام هاني بنت ابي طالب قاله البقاعي وهو قول الجمهور
والمراد بالمسجد حينئذ الحرم لانه فناء المسجد الى المسجد الاقصى اي بيت المقدس الذي هو
ابعد المساجد حينئذ وانما سمي المسجد الاعظم مطلقا من مكة المشرفة بينهما
اربعون ليلة فصلى بالانبياء كلهم ابراهيم وموسى وعيسى ومن سواهم اجمعين افضل الصلاة

سورة بني اسرائيل

والسلام

والسلام وراء من اباننا الكبرى ما قدرناه له كما سيأتي في حديث المعراج ورجع الى بين
اظهركم الى المسجد الاقرب بمكة في ذلك الجزء اليسير من الليل وانتم تقربون الجبال الابل
وهذه المسافة شهر اذهابا وشهرا ايابا ثم وصفه تعالى بما يقتضي تعظيمه وانه
اهل للقصد بقوله تعالى الذي باركنا حوله اي بما لنا من العظمة بالمياه والاشجار
وقال مجاهد سماه مباركا لانه مقر الانبياء ومهبط الملائكة والوحي ومنه يحشر الناس
يوم القيامة وموطن العبادات ومعدن الفواكه والازراق والبركات وبارك
تعالى حوله لاجله فما ظنك به نفسه فهو ابلغ من باركنا فيه ثم منه الى السموات العلا الى
سدرة المنتهى الى ما لم يبلغه بشر غيره صلى الله عليه وسلم قال النفاعي ولعل حذف
ذكر المعراج من القرآن هنا لقصور رتبهم من ادراك ادلته لو انكروه بخلاف الاسراء فانه
اقام دليله عليهم بما شاهدوه من الامارات التي وصفها لهم وهم قاطعون بانه صلى
الله عليه وسلم لم يرها قبل ذلك فلما بان صدقه بما ذكر من الامارات اخبر بعد ذلك
من اراد الله تعالى بالمعراج ثم ذكر سبحانه وتعالى الغرض من الاسراء بقوله تعالى
لنريه بعينه وقلبه من آياتنا اي عجايب قدرتنا السماوية والارضية كما اراها
الخليل عليه السلام ملكوت السموات والارض انه اي الله هو السميع لجميع الاقوال البصير
اي العالم باحوال عباده فيكرم ويقرب من شاء منهم وقيل انه اي بعد العهد الذي
اختصصناه بالاسراء هو السميع اي دعاءك البصير بتضرعك او بصيرة بدليل ما اخبر به من الآيات وصدقه من الدلالات حتى تعلم
ما سألوه منه من بيت المقدس ومن امر عير بكم وغيرهما مما هو مشهور في قصة الاسراء
واختلف هل اسري بجسده وروحه او بجسده صلى الله عليه وسلم فعن عائشة رضي الله تعالى عنها
انها كانت تقول ما فقد جسد النبي صلى الله عليه وسلم ولكن الله اسرى بروحه
والاكثرون على انه اسري بجسده في اليقظة وتواترت الاخبار الصحيحة بذلك منها
قوله صلى الله عليه وسلم اوتيت بالبراق وهو دابة ابيض فوق الحمار ودون البغل
يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى اتيت بيت المقدس فربطت
الدابة بالحلقة التي يربط بها الانبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت
فجاءني جبريل باناء من خمر واناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام اصبت
الفطرة قال صلى الله عليه وسلم ثم عرج بي الى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل
من معك قال محمد قيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بادم
فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من انت
فقال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه
ففتح لنا فاذا انا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا ودعوا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء
الثالثة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد
قيل وقد ارسل اليه قال قد ارسل اليه ففتح لنا فاذا انا بيوسف واذا هو
قد اعطي شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل
فقيل من انت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد ارسل اليه قال نعم
اليه ففتح لنا فاذا انا بادريس فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح

سان
اباه

جبريل فقيل من انت فقال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل قد ارسل اليه قال قد
بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بهارون فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا الى السماء السادسة
فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث
اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بموسى فرحب لي ودعا لي بخير ثم عرج بنا
الى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فقيل ومن معك
قال محمد فقيل وقد بعث اليه قال قد بعث اليه ففتح لنا فاذا انا بابراهيم
فاذا هو مسنند الى البيت المعمور وهو البيت الذي يدخله كل يوم سبعون الف ملك ثم لا يعودون
اليه ثم ذهب بي الى سدرة المنتهى فاذا ورقها كاذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال
فلما غشيها من امر الله ما غشي تغيرت فما احد من خلق الله يستطيع ان يصفها
من حسنها فاوحى الله عليه وسلم فاوحى الى عبده ما اوحى وفرض علي في كل يوم وليلة
خمسين صلاة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال ما فرض ربك على امتك قلت
خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فان امتك لا
تطيق ذلك واني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم قال فرجعت الى ربي فقلت اي ربي
خفف عن امتي فحط عني خمسا فرجعت الى موسى فقال ما فعلت فقلت فحط عني خمسا
قال ان امتك لا تطيق ذلك فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك قال فلم ازل
ارجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هن خمس صلوات
في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها
كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فان عملها
كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى موسى فاخبرته فقال ارجع الى ربك
فاسأله التخفيف لامتك فان امتك لا تطيق فقلت قد رجعت الى ربي حتى
استحييت رواه الشيخان وروى انه قال بعد ذلك ولكن ارضى واسلم فلما جاوزت
نادى مناد امضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم ادخلت الجنة واذا فيها
حبايل اللؤلؤ واذا تربتها المسك وروى انه لما وصل الى سدرة المنتهى فاذا اربعة
انهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال اما الباطنان
فنهران في الجنة واما الظاهران فالنيل والفرات ثم رفع الى البيت المعمور ثم اوتي
باناء من خمر واناء من لبن واناء من عسل فاخذت اللبن فقال هي الفطرة التي انت عليها انت
وامتك قال ثم فرضت علي الصلاة خمسين صلاة يوم فرضت فمررت على موسى وساق
الحديث ومنها ما رواه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم رايت ربي عز وجل قال بي ورويا عن ابن عباس ايضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري
به البيت المقدس قال والشجرة الملعونة في القرآن هي شجرة الزقوم ومنها ما رواه
قتادة عن انس بن مالك رضي الله تعالى عنه ان نبي الله صلى الله عليه
وسلم حدث عن ليلة اسري به قال بينا انا في الحطيم وربما قال في الحجر مضطجع ومنهم
من قال بين النائم واليقظان وذكر بين رجلين فاتيت بطست من ذهب ممتلئ
حكمة وايمانا فشق من النحر الى مراق البطن واستخرج قلبي فغسل ثم حشي ثم اعيد
وقال سعيد وهشام ثم غسل البطن بماء زمزم ثم ملئ ايمانا وحكمة ثم اتيت بالبراق

وهو دابة

وهو دابة ابيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته
وساق بقية الحديث ومنها ما روي انه صلى الله عليه وسلم كان نايما في بيت ام هاني
بعد صلاة العشا فاسري به ورجع من ليلته وقص القصة على ام هاني وقال مثل
لي النبيون فصليت بهم وقام ليخرج الى المسجد فتشبثت ام هاني بثوبه فقال ما لك
قالت اخشى ان يكذبك قومك ان اخبرتهم قال وان كذبوني فخرج اليهم وروي انه لما
رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به فكان بذي طوى قال يا جبريل
ان قومي لا يصدقوني قال يصدقك ابو بكر وهو الصديق قال بن عباس وعايشة
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كانت ليلة اسري بي فاصبحت بمكة قطعت
بامري وعرفت ان الناس يكذبوني فروي انه عليه الصلاة والسلام قعد معتزلا حزينا
فمر به ابو جهل فجلس اليه فقال له كالمستهزي هل استفدت من شي قال نعم اسري بي
الليلة قال الى اين قال الى بيت المقدس قال ثم اصبحت بين ظهرانينا قال نعم فقال ابو جهل
يا معشر بني كعب بن لوي هلم فانتفضت المجالس فجاوا حتى جلسوا اليهما قال حدث
قومك ما حدثتني قال نعم اني قد اسري بي الليلة قالوا الى اين قال الى بيت المقدس قالوا
ثم اصبحت بين ظهرانينا قال نعم فمن بين مصفق وواضع يده على راسه تعجبا وانكارا وارتد
ناس ممن كان امن به وسعى رجال الى ابي بكر فقالوا هل لك في صاحبك يزعم انه اسري به
الليلة الى بيت المقدس قال او قد قال قالوا نعم قال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا
تصدقه على ذلك قال اني لاصدقه على ابعد من ذلك اصدقه على خبر السما في غدوة او روحة
فسمي الصديق قال وفي القوم من كان ياتي المسجد الاقصى فقال ما تستطيع ان تنعت لنا المسجد
الاقصى قال نعم قال فذهبت انعت وانعت فما زلت انعت حتى التبس علي قال
فجي بالمسجد وانا انظر اليه حتى وضع دون دار عقيل فنعت المسجد وانا انظر اليه فقال القوم
اما النعت فوالله لقد اصاب ثم قالوا يا محمد اخبرنا عن عيرنا فهو اهم الينا هل لقيت منها
شيا قال نعم مررت على عير بني فلان وهي بالروحا وقد اضلوا بعيرا لهم وهم في طلبه وفي رحالهم
قدح من ما فعطشت فاخذته فشربته ثم وضعته كما كان فاسئلوهم هل وجدوا الما في
القدح حين رجعوا اليه قالوا هذه اية قال ومررت بعير بني فلان وفلان وفلان
راكبان فقودا لهما فنفر بعيرهما مني فرمى بفلان فانكسرت يده فسلوهما عن ذلك
قالوا وهذه اية قالوا فاخبرنا عن عيرنا متى يجي قال مررت بها بالتنعيم قالوا فما عدتها
وما حملها واحمالها ومن فيها فقال هيتها كذا وكذا وفيها فلان وفلان يقدمها
جمل اورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا وهذه اية
ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية وهم يقولون والله لقد قص محمد شيا وبينه حتى
اتوا كدا فجلسوا عليه فجعلوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبونه اذ قال قايل
منهم هذه الشمس والله قد شرقت فقال اخر وهذه والله العير قد اقبلت يقدمها
جمل اورق كما قال محمد ثم لم يومنوا وقالوا ما هذا الا سحر مبين والاورق من الابل
الذي في لونه بياض الى سواد وهو اطيب الابل لحما قاله الجوهري ومنها ما روي عن انس
ابن مالك قال كان ابو ذر يحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فرج سقف بيتي
وانا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ما زمزم وجا بطشت من ذهب

ممتلئ حكمة وايمانا وافرغها في صدري ثم اطبقه ثم اخذ بيدي وعرج بي الى السما فلما جينا
الى السما الدنيا قال جبريل لخازن السما افتح قال ومن هذا قال جبريل قال هل معك احد
قال نعم معي محمد قال فارسل اليه قال نعم ففتح قال فلما علونا السما الدنيا فاذا رجل عن يمينه
اسودة وعن يساره اسودة فاذا نظر قبل يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى فقال
مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قال قلت يا جبريل من هذا قال هذا ادم وهذه الاسودة
عن يمينه وعن شماله فسم بنيه فاهل اليمين منهم اهل الجنة والاسودة التي عن
شماله اهل النار واذا نظر عن يمينه ضحك واذا نظر قبل شماله بكى ثم عرج بي جبريل
حتى اتى السما الثانية فقال لخازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال خازن السما
الدنيا فقال انس بن مالك فذكر انه وجد في السموات ادم وادريس وموسى وعيسى
وابراهيم ولم يبين كيف منازلهم غير انه ذكر انه وجد ادم في السما الدنيا وابراهيم
في السما السادسة قال فلما مر جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بادريس فقال
مرحبا بالاخ الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا قال ادريس قال ثم مررت
بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال قلت من هذا قال هذا موسى قال
ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والاخ الصالح قال فقلت من هذا قال
عيسى قال ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح قال فقلت من هذا
قال هذا ابراهيم قال بن شهاب اخبرني بن حزم ان بن عباس كان يقول كان النبي صلى
الله عليه وسلم ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوا سمع فيه صرير الاقلام وروى معمر
عن قتادة عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم اتي بالبراق ليلة الاسرى به ملجما
مسرجا فاستصعب عليه فقال جبريل ابمحمد تفعل هذا فما ركبك احد اكرم على الله
منه فارفض عرقا وقال بن زيد عن ابيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انتهيت
الى بيت المقدس قال جبريل باصبعه فخرق بها حجرا وشد به البراق وفي رواية انه
جا جبريل بالبراق الى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل وطار البراق به في الهوا
فاحترق به الجو فعطش صلى الله عليه وسلم واحتاج الى الشرب فاتاه جبريل باناين انا لبن
وانا خمر وذلك قبل تحريم الخمر فعرضهما عليه فتناول اللبن فقال له جبريل عليه السلام
اصبت الفطرة اصاب الله بك امتك ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يتاول اللبن بالعلم
فلما وصل الى السما الدنيا استفتح الى ان قال ثم عرج بي الى سدرة المنتهى واخبره جبريل
ان اعمال بني ادم تنتهي الى تلك السدرة وانها مقر الارواح فهي نهاية لما ينزل مما
هو فوقها ونهاية لما يخرج اليها مما هي دونها وبها مقام جبريل عليه السلام فنزل صلى
الله عليه وسلم عن البراق وجي اليه بالرفرف وهو نظير المحفة عندنا فقعد عليه
وسلمه جبريل الى الملك النازل بالرفرف فساله الصحبة ليانس به فقال له لا اقدر
لو خطوت خطوة لاحترقت فما منا الا له مقام معلوم وما اسرى الله بك يا محمد الا ليريك
من اياته فلا تغفل فودعه وانصرف مع ذلك الملك والرفرف والملك يمشي به الى ان ظهر
لمستوى سمع فيه صرير القلم والاقلام في الالواح وهي تكتب ما يجريه الله تعالى
في خلقه وما تنسخه الملائكة من اعمال عباده قال تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم
تعملون ثم زج به في النور زجة فافرده الملك الذي كان معه وتاخر عنه فلم يره معه

فعلم

فعلم ان الرفرف ما تدلى الا لكون البراق له مكان لا يتعداه كجبريل لما بلغ الى المكان الذي لا يتعداه
وقف وكذلك الرفرف لما وصل الى مقام لا يتعداه زج به في النور فغمره النور من جميع نواحيه
واعطي علما لم يكن يعلمه قبل ذلك عن وحي من حيث لا يدري وجهته وعن ابي هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد رايتني وانا في الحجر وقريش تسالني عن
مسراي فسالتني عن اشيا من بيت المقدس لم اثبتها فكربت كربة ما كربت مثلها قط
فرفعه الله لي انظر اليه فما سالوني عن شي الا انبتهم به وقد رايتني في جماعة من الانبيا
فاذا موسى قايم يصلي فاذا رجل جعد كانه من رجال شنوءة واذا عيسى ابن مريم قايم
يصلي اقرب الناس به شبها عروة بن مسعود الثقفي واذا ابراهيم قايم يصلي اشبه الناس به
صاحبكم يعني به نفسه صلى الله عليه وسلم فحانت الصلاة فاممتهم فلما فرغت قال
قايل يا محمد هذا مالك خازن النار فسلم عليه فالتفت اليه فبداني بالسلام وعن جابر
انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لما كذبني قريش قمت الى الحجر فجعل الله لي بيت
المقدس وذكر الحديث وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اتيت موسى ليلة
اسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قايم يصلي في قبره فان قيل كيف راى رسول الله صلى
الله عليه وسلم موسى يصلي في قبره وكيف تصلي الانبيا بعد الموت وهم في دار الاخرة اجيب
بان صلاته صلى الله عليه وسلم بالانبيا عليهم السلام ببيت المقدس يحتمل ان الله تعالى
جمعهم له ليصلي بهم ويعرفون فضله وتقدمه عليهم ثم ان الله تعالى اراه اياهم في السموات
على مراتبهم ليعرف هو مراتبهم وفضلهم واما مروره بموسى وهو قايم يصلي في قبره عند
الكثيب الاحمر فيحتمل انه كان بعد رجوعه من المعراج واما حكم صلاة الانبيا وهم في الدار
الاخرة فهم في حكم الشهدا بل هم افضل منهم وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل
الله امواتا بل احيا فالانبيا بعد الموت اولى واما حكم صلاتهم فيحتمل انها الذكر
والدعا وذلك من اعمال الاخرة قال تعالى دعواهم فيها سبحانك اللهم وورد في الحديث
انهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس ويحتمل ان الله تعالى خصهم بخصايص في الاخرة
كما خصهم في الدنيا بخصايص لم يخص بها غيرهم منها انه صلى الله عليه وسلم اخبر انه
راهم يلبون ويحجون فكذلك الصلاة والله اعلم بحقايق الامور وروي عن شريك
ابن عبد الله قال سمعت انس بن مالك يقول ليلة اسري برسول الله صلى الله عليه
وسلم من مسجد الكعبة انه جاه ثلاثة نفر قبل ان يوحى اليه وهو نايم في المسجد الحرام
فقال اولهم ايهم هو قال اوسطهم هو خيرهم فقال اخرهم خذوا خيرهم وساق حديث
المعراج بقصته قال فاذا هو في السما الدنيا بنهرين يطردان قال هذا النيل والفرات
عنصرهما ثم مضى به في السما فاذا هو بنهر اخر عليه نهر من لولو وزبرجد فضرب بيده
فاذا هو مسك اذفر قال ما هذا يا جبريل قال هو الكوثر الذي خبا لك ربك وذكر في اخر
حديثه انه صلى الله عليه وسلم قال في اخر الحديث ثم علا بي حتى جا سدرة المنتهى
ودنى الجبار رب العزة فتدلى فكان منه كقاب قوسين او ادنى فاوحى اليه وذكرت
عايشة ان الذي دنى فتدلى جبريل عليه السلام وسياتي ان شا الله تعالى الكلام على ذلك
في سورة النجم فان قيل قوله تعالى لنريه من اياتنا يدل على انه تعالى ما اراه الا بعض
الايات لان كلمة من تفيد التبعيض وقال في حق ابراهيم وكذلك نري ابراهيم ملكوت

السموات والارض اي ملكهما فيلزم ان يكون معراج ابراهيم افضل من معراج محمد حبيب
بانه لما اصبغت تلك الايات الى الله تعالى دل على انها افضل مما راه ابراهيم تنبيهات
قال النووي في شرح مسلم قد جاء في رواية شريك فوهم فيه اوهام انكروا عليه العلما
فيها منها قوله وذلك قبل ان يوحى اليه وهو غلط لم يوافق عليه وان الاسراء قبل ما قيل
فيه انه كان بعد مبعثه صلى الله عليه وسلم خمسة عشر شهرا وقال الحربي كان
ليلة سبع وعشرين من ربيع الاخر قبل الهجرة بسنة وقال الزهري كان بعد مبعثه
صلى الله عليه وسلم وقد قدمنا الاستدلال عليه والعجائب وقيل كان الاسراء في رجب
وتعالى رمضان ثم قال النووي واشبه الاقوال قول الزهري وابن اسحق ومما يدل
على انه اسري بجسده صلى الله عليه وسلم قوله تعالى اسرى بعبده ولفظ العبد عبارة
عن مجموع الروح والجسد وقوله صلى الله عليه وسلم اوتيت بالبراق وهو اسم للدابة
التي ركبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به واشتقاقه من البرق
لسرعته او لشدة صفائه وبياضه ولمعانه وتلالؤه قوله والحلقة باسكان اللام ويجوز
فتحها والمراد بربط البراق بالحلقة الاخذ بالاحتياط في الامور وتعاطي الاسباب
وان ذلك لا يقدح في التوكل اذا كان الاعتماد على الله تعالى وقوله جاءني جبريل باناء من خمر
وانا من لبن فاخترت اللبن فيه اختصار والتقدير وقال لي اخترت فاخترت اللبن
وقول جبريل اخترت الفطرة يعني فطرة الاسلام وجعل اللبن علامة للفطرة
الصحيحة السليمة لكونه سهلا طيبا سائغا للشاربين وانه سليم العاقبة بخلاف
الخمر فانها ام الخبائث وجالبة لانواع الشر وقوله ثم عرج بي حتى اتى السماء الدنيا
فاستفتح جبريل فقيل من انت قال جبريل فيه بيان الادب لمن استئذن ان
يقول انا فلان ولا يقول انا فقط فانه مكروه وفيه ان للسماء ابوابا وبوابين وان
عليها حرسا وقوله بواب السماء وقد ارسل اليه وفي الرواية الاخرى وقد بعث اليه
معناه للاستئناس وصعود السماء وليس مراده الاستفهام عن اصل البعثة والرسالة
فان ذلك لا يخفى عليه الى هذه المدة وقوله فاذا انا بآدم وذكر جماعة من الانبيا
فيه استحباب لقاء اهل الفضل والصلاح بالبشر والترحيب والكلام الحسن وان كان
الزائر افضل من المزور وفيه جواز مدح الانسان في وجهه اذا امن عليه من الاعجاب
وغيره من مثاب الفتنة وقوله فاذا انا بابراهيم مستندا ظهره الى البيت
المعمور فيه دليل على جواز الاستناد الى القبلة وتحويل ظهره اليها وقوله ذهب بي
الى السدرة المنتهى هكذا وقع في هذه الرواية بالالف واللام وفي باقي الروايات
السدرة المنتهى قال ابن عباس وغيره من المفسرين سميت بذلك لان علم الملائكة ينتهي
اليها ولم يجاوزها احد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن مسعود سميت بذلك
لكونه ينتهي اليها ما يهبط من فوقها وما يصعد من تحتها من امر الله عز وجل وقوله
واذا ثمرها مثل القلال هو بكسر القاف جمع قلة بضمها وهي الجرة الكبيرة التي تسع
قربتين او اكثر وقوله فرجعت الي فقال النووي معناه رجعت الى الموضع الذي
ناجيته منه اولا فناجيته فيه ثانيا وقوله فلم ازل ارجع بين موسى وبين ربي معناه
بين موضع مناجاة ربي وقوله فعرض علي من كل خمسين صلاة الى قوله فوضع عني خمسا

وفي رواية

وفي رواية شطرها وفي رواية عشرا ليس بين هذه الروايات منافاة لان المراد بالشطر الجزء
وهو الخمس وليس المراد منه التنصيف واما رواية العشر فهي رواية شريك ورواية الخمس
رواية قتادة وهو اثبت من شريك والمراد حط عني خمسا الى اخره ثم قال هي
خمس وهن خمسون يعني خمسين في الاجر والثواب لان الحسنة بعشر امثالها واحتج
العلما بهذا الحديث على جواز نسخ الشي قبل فعله وفي الحديث انه شق صدره ليلة
المعراج وقد شق صدره ايضا في صغره وهو عند حليمة التي كانت ترضعه فالمراد
بالشق الثاني زيادة التطهر لما يراد به من الكرامة ليلة المعراج وقوله اتيت
بطشت من ذهب قد يتوهم المتوهم انه يجوز استعمال انا الذهب لنا وليس الامر كذلك
لان هذا الفعل من فعل الملايكة وهو مباح لهم استعمال الذهب او يكون هذا
كان قبل تحريمه وقوله ممتلي حكمة وايمانا فافرغها في صدري قد يقال الحكمة والايمان
من المعاني والافراغ صفة الاجسام فما معنى ذلك اجيب بانه يحتمل انه جعل في الطشت
شي يحصل به كمال الايمان والحكمة وزيادتهما تسمى ايمانا وحكمة لكونه سببا لها وهذا
من احسن المجاز وقوله في صفة ادم فاذا رجل عن يمينه اسودة وعن يساره اسودة
هو جمع سواد وقد فسره في الحديث بانه نسم بنيه يعني ارواح بنيه فان قيل
ارواح المومنين في السما واما ارواح الكفار فتحت الارض السفلى فكيف يكون في السما
اجيب بانه يحتمل ان ارواح الكفار تعرض على ادم عليه السلام وهو في السما فوافق
وقت عرضها على ادم مرور النبي صلى الله عليه وسلم فاخبر بما راى وقوله اذا نظر عن يمينه
ضحك واذا نظر عن شماله بكى ففيه شفقة الوالد على اولاده وسروره وفرحه
بحسن حال المومن منهم وحزنه على حال الكافر منهم وقوله في ادريس مرحبا بالاخ الصالح
والنبي الصالح وقد اتفق المورخون انه اخنوخ جد نوح فيكون جد النبي صلى الله
عليه وسلم كما ان ابراهيم جده فكان ينبغي ان يقول بالنبي الصالح والابن الصالح كما قال ادم
وابراهيم واجيب بانه قيل ان ادريس المذكور هنا هو الياس وهو من ذرية ابراهيم فليس
هو جد النوح قاله القاضي عياض وقال النووي ليس في هذا الحديث ما يمنع كون ادريس ابا
لنبينا صلى الله عليه وسلم وان قوله الاخ الصالح يحتمل ان يكون قاله تلطفا وتادبا وهو اخ
وان كان ابنا لان الانبيا اخوة والمومنين اخوة انتهى وانما اطلت في بيان ذلك لان الكلام
مع الاحبة يحلو ولولا خوف الملل ما اقتصرت على ذلك فقد قال بعض المفسرين لا اعلم
في الكتاب العزيز سورة تضمنت من خصايصه التي فضل بها كافة الانبيا ما تضمنته
هذه ولكن في هذا القدر كفاية لاولي الالباب ولما ثبت بهذه الخارقة ما اخبر به
صلى الله عليه وسلم عن نفسه المقدسة من عظيم القدرة وما جاء صلى الله عليه وسلم من الايات
البينات في هذا الوقت اليسير اتبعه ما منح في المسير من مصر الى الارض المقدسة
من الايات في مدد طوال جدا موسى عليه الصلاة والسلام الذي كان اعظم الانبيا بركة
على هذه الامة ليلة الاسرا لما ارشد النبي صلى الله عليه وسلم اليه من مراجعة الله تعالى
في تخفيف الصلاة حتى رجعت من خمسين الى خمس مع اجر خمسين فقال وآتينا
اي بعظمتنا موسى الكتاب اي التوراة وجعلناه اي الكتاب بما لنا من العظمة هدى
لبني اسرائيل بالحمل على العدل في التوحيد والاحكام واسرينا بموسى عليه السلام وبقومه

من مصر الى بلاد المسجد الاقصى فاقاموا سايرين اليها اربعين سنة ولم يصلوا ومات كل من خرج
الا التقيين الموفين بالعهد فقد بان الفصل بين الاسرايين كما بان الفصل بين الكتابين
فذكر الاسرا اولا دليل على حذف مثله اولا فالاية من الاحتباك ثم نبه على ان المراد من ذلك
كلمة التوحيد اعتقادا وعبادة بقوله تعالى أَلَّا اي لئلا يَتَّخِذُوا على قراءة ابي عمرو بالياء على الغيبة
وقرا غيره بالتاء على ان لا تتخذوا كقولك كتبت اليه ان افعل كذا مِن دُونِي وَكِيلًا اي ربا
تكلون اليه اموركم وذلك هو التوحيد فلا معراج اعلا ولا درجة اشرف ولا نعمة اعظم
من ان يصير المرء غريقا في بحر التوحيد وان لا يقول في امر من الامور الا على الله تعالى
فان نطق نطق بذكر الله وان تفكر تفكر في دلايل تنزيه الله وان طلب طلب من الله فيكون
كله لله وبالله وقوله تعالى ذُرِّيَّةَ نصب على الاختصاص في قراءة ابي عمرو وعلى النداء عند الباقين
اي يا ذرية مَنْ حَمَلْنَا اي في السفينة بعظمتنا على ظهر ذلك الماء الذي طبق ما تحت اديم
السماء ونبه تعالى على شرفهم وتمام نعمتهم بقوله تعالى مَعَ نُوحٍ ففي ذلك تذكير بانعام
الله تعالى عليهم وانجا ابايهم من الغرق بحملهم مع نوح في السفينة قال قتادة الناس كلهم
ذرية نوح لانه كان معه في السفينة ثلاث بنين سام وحام ويافث فالناس كلهم من ذرية
اوليك قال البقاعي لان الصحيح ان من كان معه من غير ذريته ماتوا ولم يعقبوا ولم يقل
ذرية نوح ليعلم انهم عقب اولاده المومنين لتكون تلك منة اخرى ثم انه تعالى اثنى على نوح
حثا على الاقتدا به في التوحيد كما اقتدى به ابا وهم في ذلك بقوله تعالى إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا
شَكُورًا اي مبالغا في الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما انعم الله تعالى به عليه لما خلق
له روي انه عليه السلام كان اذا اكل قال الحمد لله الذي اطعمني ولو شا اجاعني وفي رواية
انه يسمي اذا اكل ويحمد اذا فرغ واذا شرب قال الحمد لله الذي اسقاني ولو شا اظماني
واذا اكتسى قال الحمد لله الذي كساني ولو شا اعراني واذا احتذى قال الحمد لله حذاني
ولو شا احفاني واذا قضى حاجته قال الحمد لله الذي اخرج عني اذاه في عافية
ولو شا حبسه وفي رواية انه كان يقول الحمد لله الذي اذاقني لذته وابقى منفعته
في جسدي واخرج عني اذاه وفي رواية انه كان اذا اراد الافطار عرض طعامه على من مر به فان وجده
محتاجا آثره به ولما ذكر تعالى انعامه على بني اسرايل بانزال التوراة عليهم وبانه جعل التوراة
هدى لهم بين انهم ما اهتدوا بهداه بل وقعوا في الفساد بقوله تعالى وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ
اي عبدنا يعقوب عليه السلام الذي كان اطوع اهل زمانه وحيا مقطوعا مبتوتا
فِي الْكِتَابِ اي التوراة التي اوصلناها اليهم على لسان موسى عليه السلام وقيل المراد بالكتاب
اللوح المحفوظ لَتُفْسِدُنَّ جواب قسم محذوف ويجوز ان يجري القضا المبتوت مجرى
القسم فيكون لتفسدن جوابا له كانه قال واقسمنا لتفسدن فِي الْأَرْضِ اي ارض الشام قاله
السيوطي وقال الرازي ارض مصر ويوافق الاول قول البقاعي اي المقدسة التي كانها
لشرفها هي الارض مَرَّتَيْنِ اي افسادتين قال في الكشاف اولاهما قتل زكريا عليه السلام
وحبس ارميا حين انذرهم سخط الله تعالى والاخرى قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى بن مريم
وقال البيضاوي الاولى مخالفة احكام التوراة وقتل شعيبا وقتل ارميا وثانيهما
قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليهم السلام وَلَتَعْلُنَّ اي بما صرتم اليه من البطر
لنسيان النعم عُلُوًّا كَبِيرًا بالظلم والتمرد لانه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم فَإِذَا جَاءَ

وعد

وعد اولاهما اي اولى مرتي الفساد وهو الوقت الذي حددنا له الانتقام فيه بعثنا عليكم
عبادا لنا اي لا يدان لكم بهم كما قال تعالى اولي بأس شديد اي اصحاب قوة في الحرب
واختلف فيهم فقال في الكشاف سنحاريب وجنوده وقيل بخت نصر وعن ابن عباس
جالوت قتلوا علماءهم واحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين الفا وقال
البيضاوي بعد عبادا لنا بخت نصر عامل لهراسف على بابل وجنوده وقيل جالوت
الخزري وهو بحا فزاي مفتوحتين فرا نسبة الى الخزر وهو ضيق العين وصغرها
وهو الذي قتله داود او جيل من الناس وذكر الرازي في ذلك قولين الاول ان الله تعالى
سلط عليهم بخت نصر فقتل منهم اربعين الفا ممن يقرا التوراة وذهب بالبقية الى ارض
نفسه فبقوا هناك في الذل الثاني ان الله تعالى القى الرعب من بني اسرائيل في قلوب
المجوس فلما كثرت المعاصي فيهم ازال ذلك الرعب عن قلوب المجوس فقصدوهم وبالغوا
في قتلهم وافنائهم واهلاكهم واخرج ابن ابي حاتم عن عطية قال افسدوا المرة الاولى
فارسل الله عليهم جالوت فقتلهم وافسدوا المرة الثانية فقتلوا يحيى بن زكريا فبعث
الله عليهم بخت نصر وعن ابن مسعود قال كان اول الفساد من قتل زكريا فبعث الله
عليهم ملك القبط وعن علي بن ابي طالب قال الاولى قتل زكريا والاخرى قتل يحيى قاله الرازي
واعلم انه لا يتعلق كثير غرض في معرفة اولئك الاقوام باعيانهم بل المقصود انهم
لما اكثروا في المعاصي سلط الله عليهم اقواما قتلوهم وافنوهم ثم قال الله تعالى فجاسوا
اي ترددوا لطلبكم خلال الديار اي وسطها للقتل والغارة قال البيضاوي فقتلوا كبارهم
وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا المسجد والمعتزلة لما منعوا تسليط الكافر
على ذلك اولوا البعث بالتخلية انتهى وفي ذلك تعريض بالزمخشري فانه قال في كشافه
فان قلت كيف جاز ان يبعث الله الكفرة على ذلك وسلطهم عليهم قلت معناه خلينا
بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم على ان الله عز وعلا اسند بعث الكفرة عليهم الى نفسه
فهو كقوله وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وكان اي ذلك البعث
ووعد العقاب به وعدا مفعولا اي قضاء كائنا لازما لا شك في وقوعه ولا بد ان يفعل
ثم رددنا لكم الكرة اي الدولة والغلبة عليهم حين تبتم من ذنوبكم ورجعتم عن الفساد
في زمن داود بقتله جالوت وذلك بعد مائة سنة وامددناكم باموال تستعينون
بها على قتال عدوكم وبنين تتقوون بهم وجعلناكم اكثر من عدوكم نفيرا اي عشيرة تنفر معكم
عند ارادة القتال وغيره من المهمات والنفير من ينفر مع الرجل من قومه
وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب الى العدو ولما حكى الله تعالى عنهم انهم
لما عصوا سلط الله تعالى عليهم اقواما فصدوهم بالقتل والنهب والسبي ولما تابوا
ازال عنهم تلك المحنة واعاد عليهم الدولة فعند ذلك ظهر انهم ان اطاعوا الله احسنوا
الى انفسهم وان اصروا على المعصية فقد اساؤا الى انفسهم وقد تقرر في العقول
ان الاحسان الى النفس حسن مطلوب وان الاساءة اليها قبيحة فلهذا المعنى قال تعالى
ان احسنتم اي بفعل الطاعة على حسب الامر في الكتاب الداعي الى العدل والاحسان
احسنتم لانفسكم لان ثوابه لها وان اساتم بارتكاب المحرمات والافساد فلها اي
الاساءة فان وبالها عليها قال النحويون وانما قال وان اساتم فلها للتقابل والمعنى فاليها

او فعليها كما مر مع ان حروف الاضافة تقوم بعضها مقام بعض كقوله تعالى يومئذ تحدث اخبارها
بان ربك اوحى لها اي اليها تنبيه قال اهل الاشارات هذه الاية تدل على ان رحمة الله
غالبة على غضبه بدليل انه تعالى لما حكى عنهم الاحسان ذكره مرتين فقال تعالى ان احسنتم احسنتم
لانفسكم ولما حكى عنهم الاساءة اقتصر على ذكرها مرة واحدة فقال تعالى وان اساتم فلها فلولا
ان جانب الرحمة غالب والا لما كان كذلك ثم قال تعالى فاذا جاء وعد الاخرة اي ثانية مرتي الفساد
وهو الوقت الذي حددنا له الانتقام فيه ليسوا اي بعثنا عليكم عبادا لنا ليسوا وجوهكم
اي يجعل اثار المساءة بادية فيها وحذف متعلق اللام لدلالة الاول عليه وقرا الكسائي بعد
اللام بنون مفتوحة على التوحيد والضمير فيه لله والباقون بالياء مفتوحة واما الهمزة
بعد الواو والتي بعد السين فقرا نافع وبن كثير وابو عمرو وحفص بضم الهمزة ومدها والباقون
بفتح الهمزة ولا مد وقوله تعالى وليدخلوا المسجد عطف على ليسوا والمراد بالمسجد الاقصى
الذي سقناكم اليه من مصر في تلك المدد الطوال واعطيناكم بلاده بالتدريج وجعلناه
محل عزكم وامنكم ثم جعلناه محلا لاكرم اشرف خلقنا بالاسراء به اليه وجمع ارواح النبيين
كلهم فيه وصلاته بهم وهذا تعريض تهديد بقريش بانهم ان لم يرجعوا ابدل امنهم في الحرم
خوفا وعزهم ذلا وادخل عليهم جنودا لا قبل لهم بها وقد فعل ذلك عام الفتح لكنه فعل
اكرام لا اهانة بتركة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كما دخلوه اي الاعداء اول مرة
بالسيف ويقهروا جميع جنودكم دفعة واحدة وليتبروا اي يهلكوا ويدمروا مع التقطيع
والتفريق ما علوا اي عليه من ذلك وقيل ما مصدرية اي مدة علوهم تتبيرا اي اهلاكا
قال الزجاج وكل شيء جعلته مكسرا مفتتا فقد تبرته ومنه قيل تبر الزجاج وتبر الذهب
لمكسره ومنه قوله تعالى ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون قال الرازي
وهذه المدة الاخيرة هي اقدامهم على قتل زكريا ويحيى عليهما السلام قال البيضاوي وذلك
بان سلط عليهم الفرس مرة اخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف اسمه جردون وقيل
خردوس قيل دخل صاحب الجيش فذبح قرابينهم اي جمع قربان فوجد دما يغلي فسالهم عنه
فقالوا دم قربان لم يقبل منا فقال ما صدقوك فقتل عليه الوفا منهم فلم يهدا الدم ثم قال
ان لم تصدقوني ما تركت منكم احدا فقالوا دم يحيى فقال لمثل هذا ينتقم ربكم ثم قال
يا يحيى اني خطا بالدمه قد علم ربي وربك ما اصاب قومك من اجلك فاهدا باذن الله
قبل ان لا يبقى احدا منهم فهدا اي سكن وقال الواحدي فبعث الله تعالى عليهم بخت نصر
البابلي المجوسي ابغض خلقه اليه فسبى بني اسرائيل وخرب بيت المقدس قال الرازي
اقول التواريخ تشهد ان بخت نصر كان قبل وقت عيسى ويحيى وزكريا بسنين متطاولة
ومعلوم ان الملك الذي انتقم من اليهود ملك الروم يقال قسطنطين الملك والله اعلم
باحوالهم ولا يتعلق غرض من اغراض تفسير القران بمعرفة اعيان هؤلاء الاقوام انتهى
ولما انقضى ذلك كان كانه قيل هل بقي لهم نصرة على عدوهم فقال تعالى عسى ربكم
ان يرحمكم يا بني اسرائيل بعد انتقامه منكم فترد الدولة اليكم بعد ان اطمعهم فزعهم
بقوله تعالى وان عدتم اي الى المعصية عدنا الى صب البلاء عليكم في الدنيا مرة اخرى قال
القفال وانما حملنا هذه الاية على عذاب الدنيا لقوله تعالى في سورة الاعراف خبرا عن
بني اسرائيل واذ تاذن ربكم ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب

ثم قال

ثم قال وانهم قد عادوا الى فعل ما لا ينبغي وهو التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وكتمان ما ورد
في التوراة والانجيل فعاد الله تعالى عليهم بالتعذيب على ايدي العرب فجرى على بني النضير
وقريظة وبني قينقاع ويهود خيبر ما جرى من القتل والجلاء ثم الباقي منهم مقهورون
بالجزية لا ملك لهم ولا سلطان ثم قال تعالى وجعلنا اي بعد ذلك بعظمتنا جهنم التي تلقى
داخلها بالتهجيم والكراهة للكافرين وذكر الوصف الظاهر موضع الضمير لبيان تعلق
الحكم به على سبيل الرسوخ سوا في ذلك هم وغيرهم وقوله تعالى حصيرا يحتمل ان يكون فعيلا
بمعنى الفاعل اي جعلنا جهنم حاصرا لهم ويحتمل ان يكون بمعنى مفعول اي جعلناها
موضعا محصورا لهم والمعنى ان عذاب الدنيا وان كان شديدا قويا الا انه قد
ينقلب بعض الناس عنه والذي يقع في ذلك العذاب يتخلص منه اما بالموت واما
بطريق اخر واما عذاب الاخرة فانه يكون حاصرا للانسان محيطا به لا رجا في الخلاص
عنه فهولا الاقوام لهم من عذاب الدنيا ما وصفناه ويكون لهم بعد ذلك من عذاب
الاخرة ما يكون محيطا بهم من جميع الجهات ولا يتخلصون منه ابدا ولما بين سبحانه
وتعالى كتاب موسى عليه السلام الذي انزل عليه فيما بين مصر وبيت المقدس في تلك
المدة المتطاولة وجعله هدى لبني اسرائيل صادق الوعد والوعيد بين تعالى كتاب
محمد صلى الله عليه وسلم الذي انزل عليه منه في سبب مسيره اليه في ذلك ووصفه
بثلاثة انواع من الصفات الاولى قوله تعالى ان هذا القران اي الجامع لكل حق والفارق
بين كل ملتبس يهدي للتي اي الى الطريق التي هي اقوم اي اصوب من كل طريق فقوله تعالى للتي
هي اقوم نعت لموصوف محذوف كما تقرر ويصح ان يقدر الملة والشريعة اي يهدي الى الملة
والشريعة التي هي اقوم الملل والشرايع ومثل هذه الكناية كثيرة الاستعمال في القران
كقوله تعالى ادفع بالتي هي احسن وقيل الى الكلمة التي هي اعدل وهي شهادة ان لا اله الا الله
تنبيه لفظ افعل قد جا بمعنى الفاعل كقولنا الله اكبر اي الله كبير وكقولنا الاشج والناقص
اعدلا بني مروان فاقوم يحتمل ان يكون كذلك وان يبقى على ظاهره الصفة الثانية قوله تعالى
ويبشر المؤمنين اي الراسخين في هذا الوصف ولهذا قيدهم بيانا لهم بقوله تعالى
الذين اي يصدقون ايمانهم بانهم يعملون اي على سبيل التجديد والاستمرار والبنا على
العلم الصالحات من التقوى والاحسان ان لهم اجرا كبيرا هو الجنة والنظر الى وجه الله تعالى
وقرا حمزة والكسائي بفتح اليا وسكون البا الموحدة وضم الشين مخففة والباقون بضم اليا
وفتح البا الموحدة وكسر الشين مشددة فان قيل لم قال هنا اجرا كبيرا وفي الكهف اجرا حسنا
اجيب بوقوع ذلك لموافقة الفواصل قبل وبعد في كل منهما وان الذين لا يؤمنون
بالاخرة اعتدنا اي احضرنا وهيئنا لهم عذابا اليما هو النار في الاخرة وهو عطف على ان
لهم اجرا كبيرا والمعنى انه تعالى بشر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب اعدائهم
نظيره قولك بشرت زيدا بانه سيعطى وبان عدوه سيمنع فان قيل كيف يليق لفظ البشارة
بالعذاب اجيب بان هذا مذكور على سبيل التهكم او انه من باب اطلاق احد الضدين على
الاخر كقوله تعالى وجزا سيئة سيئة مثلها او على بشرنا باضمار بخبر فان قيل هذه الاية واردة في شرح
احوال اليهود وهم ما كانوا ينكرون الايمان بالاخرة اجيب بان اكثر اليهود ينكرون
الثواب والعقاب الجسمانية وبان بعضهم قال لن تمسنا النار الا اياما معدودات
فهم بذلك صاروا كالمنكرين للاخرة ولما بين سبحانه وتعالى ان هذا القران يهدي للتي هي اقوم

والانسان قد يقدم على ما لا فائدة له فيه بيّنه بقوله تعالى **ويدع الانسان بالشر** عند ضجره على نفسه واهله وماله **دعاءه** اى مثل دعائه **بالخير** ولو استجيب له فى الشر كما يستجاب له فى الخير لهلك روى انه صلى الله عليه وسلم دفع الى سودة بنت زمعة اسيرا فاقتتل يأوين فى الليل فقالت لمالك قيدى مشكى فرحة فاردت كتافه فهرب فلما اصبح النبى صلى الله عليه وسلم دعى به فأعلم بشانه فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يديها فدعت سودة بأيديها تتوقع ان يقطع الله تعالى يديها فتقدم النبى صلى الله عليه وسلم وقال اللهم انما انا بشر اغضب كما يغضبون فمن دعوت عليه فاجعل دعائى رحمة له وقيل المراد النضر بن الحارث حيث قال اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك الى آخره فاجاب الله تعالى دعاءه فضربت رقبته يوم بدر صبرا وكان بعضهم يقول اللهم عجل لنا بعذاب الله واخرون يقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين وانما فعلوا ذلك للجهل وقلة اعتقادهم بمحمد كما ذكر فيما يقول وقيل المراد ان الانسان قد يبالغ فى الدعاء الذى يعتقد انه خير فيه مع ان ذلك قد يتبعه الشر وضرره وهو يبالغ فى طلبه لجهله بحال ذلك الشى وانما يقدم على مثل هذا الفعل لكونه عجولا لا يتفكر فى عواقب الامور على ما ينبغى عن حقائقها واسرارها كما قال تعالى **وكان الانسان** اى الجنس **عجولا** اى يبادر الى كل ما يخطر بباله ولا ينظر الى عاقبته وقيل المراد آدم عليه السلام لما انتهى الروح الى سرته ذهب لينهض فسقط بتمنى حذفت واو ويدع التى هى لام الفعل خطا فى جميع المصاحف ولا موجب لحذفها لفظا فى العربية لكنها لما كانت لا تظهر فى اللفظ حذفت فى الخط ونظيره قوله تعالى سندع الزبانية ويسئل يمحق الله الموصلين ويوم ينادى المناد مما تقن الذكر قال الفراء لو كان ذلك بالواو والياء لكان صوابا وقال الزجاج قوله هذا يدل على انه سبحانه وتعالى قد عظم هذا القرآن المجيد عن التحريف والتغيير فان اثبات الواو والياء فى اكثر الفاظ القرآن وعدم اثباتها فى هذه المواضع المعدودة يدل على ان هذا القرآن نقل كما سمع وان احدا لم يتصرف فيه بمقدار رأسه وقوة عقله ولما بين تعالى ما وصل من نعم الدين وهو القرآن اتبعه بما وصل اليهم من نعم الدنيا فقال **وجعلنا الليل والنهار آيتين** دالتين على تمام العلم وشمول القدرة اية الليل كالايات المتشابهة واية النهار كالمحكمة فكما ان المقصود من التكليف لا يتم الا بذكر المحكم والمتشابه فذكر الزمانين لا يتيسر الانتفاع به الا بهاتين الايتين **فمحونا** اى بعظمتنا الباهرة **آية الليل** اى طمسنا نورها بالظلام ليسكنوا فيه **فجعلناها** لا يبصر فيها المبصرات كما لا يبصر الكتاب اذا محى **وجعلنا** مما من القدرة **آية النهار مبصرة** اى مبصرا فيها بالضوء فلا تزال هذه الدار الناقصة فى تنقل من نور الى ظلمة ومن ظلمة الى نور كما ان الانسان بحسب التى يدعوه اليها طبعه وتأنيه الداعى اليه عقله من انتقال من نقصان الى كمال ومن كمال الى نقصان كما ان القمر الذى هو انقص من الشمس كذلك قال ابن عباس جعل الله تعالى نور الشمس سبعين جزءا ونور القمر كذلك فمحى من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعلها مع نور الشمس وحكى ان الله تعالى امر جبريل فامر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقى فيه النور وسأل ابن الكواء عليا رضى الله تعالى عنه عن السواد الذى فى القمر فقال هو اثر المحو انتبه المراد من الايتين بقوله من الليل والنهار ما اضافة للبيان اى انه تعالى جعلهما دليلين للخلق على مفاتيح الدين والدنيا اما الدين فلان كل واحد منهما مضاد للاخر مغاير له مع كونهما متعاقبين على الدوام من اقوى الدلائل على انهما غير موجودين بذاتهما بل لا بد لهما من فاعل يقدرهما ويدبرهما

بالمقادير المخصوصة واما في الدنيا فلان مصالح الدنيا لا تتم الا بالليل والنهار فلولا الليل
ما حصل السكون والراحة ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف وقيل الليل والنهار
ظرفان والتقدير وجعلنا ايتين في الليل والنهار والمراد بالايتين هما هذا اما الشمس والقمر
واما تكويرهما على هذا وهذا على هذا ثم ذكر تعالى بعض المنافع المترتبة على ذلك بقوله
تعالى لتبتغوا اي تطلبوا طلبا شديدا فضلا من ربكم اي المحسن اليكم فيهما بصيا هذا تارة
وتارة هذا اخرى ولتعلموا منصل هذا من هذا عدد السنين والحساب لان الحساب يبين على
اربع مراتب الساعات والايام والشهور والسنين بالعدد والسنين والحساب لما دون السنة
وهي الشهور والايام والساعات وتعد هذه المراتب الاربعة لا تحصل الا التكرار كما انهم
رتبوا العدد على اربع مراتب الاحاد والعشرات والميات والالوف وليس تعدها الا التكرار
ولما ذكر تعالى احوال اتيني الليل والنهار ذكر من وجه دليلان قاطعان على التوحيد
ومن وجه اخر نعمتان عظيمتان من الله تعالى على اهل الدنيا وقد ذكر تعالى في ايات
كثيرة منافعهما كقوله تعالى وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وكقوله
تعالى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله وشرح تعالى هاهنا فضل
ما فيهما من وجوه الدلالة على الخالق ومن وجوه النعم العظيمة على الخلق كان ذلك
تفصيلا بعد اجمال وبيانا بعد ابهام فلا جرم قال تعالى وكل شيء اي يحتاج اليه حاجة في فصالكم
ودينكم فصلناه تفصيلا اي بيناه تبيينا وهو كقوله تعالى لما فرطنا في الكتاب
من شيء وقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وقوله تعالى تدمر كل شيء بامر ربها
وانما ذكر تعالى تفصيلا لاجل تاكيد الكلام وتقريره كانه قال فصلناه حقا ولما بين
تعالى انه اوصل الى الخلق اصناف الاشياء النافعة لهم في دينهم ودنياهم مثل اتيني الليل
والنهار وغيرهما كان منعما عليهم بوجود النعم وذلك يقتضي وجوب اشتغالهم
بخدمته وطاعته فلا جرم كل شيء يزيد عرصة القيامة فانه يكون مسئولا عن اعماله
وافعاله كما قال تعالى وكل انسان الزمناه اي بعثنا طائره اي عمله الذي قدرناه
عليه من خير وشر لان العرب كانوا اذا اراد وا الاقدام على شيء اعتبروا احوال الطير وهو انه
يطير بنفسه او يحتاج الى زجره فان طار من مبدئه على يمين الاعمال واراد ان يعرف
ان ذلك العمل يسوقهم الى خير او الى شر اعتبروا احوال الطير وهو انه يطير بنفسه او يحتاج الى
ان يزعجه واذا طار فهو يطير متيامنا او متياسرا او صاعدا الى الجو او غير ذلك من الاحوال
التي كانوا يعتبرونها ويستدلون بكل واحد منها على احوال الخير والشر والسعادة والنحوسة
فلما كثر ذلك منهم سموا نفس الخير والشر بالطير تسمية للشيء باسم لازمه فقوله تعالى وكل
انسان الزمناه طائره في عنقه اي وكل انسان الزمناه عمله في عنقه الذي هو محل التزيين
بالقلادة ونحوها ومحل الشين بالغل ونحوه فان كان عمله خيرا كان كالقلادة
والحلي في العنق وهذا مما يزينه وان كان عمله شرا كان كالغل في عنقه وهو مما يشينه
وقال مجاهد ما من مولود يولد الا وفي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي او سعيد قال
الرازي والتحقيق في هذا الباب ان الله تعالى خلق الخلق وخص كل واحد منهم بمقدار مخصوص
من العقل والفهم والعلم والعمر والرزق والسعادة والشقاوة والانسان لا يمكنه
ان يتجاوز ذلك المقدار بل لا بد وان يصل اليه ذلك المقدار بحسب الكمية

BULAC

والكيفية فتلك الاشيا المقدرة كانها تطير اليه وتصير اليه فبهذا المعنى لا يبعد ان يعبر
عن تلك الاحوال المقدرة بلفظ الطاير فقوله تعالى وكل انسان الزمناه طايره في عنقه كناية
عن ان كل ما قدره الله ومضى في علمه حصوله له فهو لازم له واصل اليه غير منحرف عنه واليه
الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم جف القلم بما هو كاين الى يوم القيامة انتهى ملخصا
ثم قال تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا اي مكتوبا فيه عمله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة
الا احصاها قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك
فاما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذي عن شمالك فيحفظ سياتك
حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك في قبرك حتى يخرج لك يوم القيامة وقوله
تعالى يلقاه منشورا صفتان لكتابا وقرا ابن عامر بضم اليا وفتح اللام وتشديد
القاف على البنا للمفعول من لقيته كذا اي استقبلته به والباقون بفتح اليا وسكون
اللام وتخفيف القاف وامال الالف بعد القاف حمزة والكسائي محضة وورش
بالفتح وبين اللفظين والباقون بالفتح ثم اذا القي كتابه يوم العرض قيل له اقرا كتابك
انت بنفسك كفى بنفسك اليوم الذي تكشف فيه الستور وتظهر جميع الامور عليك
حسيبا اي حاسبا بليغا فانك تعطي القدرة على قراته اميا كنت او قاريا ولا ترى فيه
زيادة ولا نقصان ولا تقدر ان تنكر منه حرفا وان انكرت لسانك شهدت عليك اركانك
فيا لها من قدرة باهرة وقوة قاهرة ونصفة ظاهرة قال الحسن عدل والله
في حقك من جعلك حسيب نفسك وقال السدي يقول الكافر يومئذ انك قضيت
انك لست بظلام للعبيد فاجعلني احاسب نفسي فيقال له اقرا كتابك كفى بنفسك
اليوم عليك حسيبا فان قيل قد تعالى وكفى بنا حاسبين فكيف الجمع في ذلك اجيب
بان المراد بالحسيب هنا الشهيد اي كفى شخصك اليوم شاهدا عليك او ان القيامة مواقف
مختلفة ففي موقف يكل الله تعالى حسابهم الى انفسهم وعلمه محيط بهم وفي اخر يحاسبهم هو
وقوله تعالى من اهتدى فانما يهتدي لنفسه اي لان ثواب اهتدايه له لا ينجي غيره
ومن ضل فانما يضل عليها اي اثمه عليها فلا يدري في ضلاله سواه كما قال الكعبي دلالة
على ان العبد متمكن من الخير والشر وانه غير مجبور على عمل بعينه اصلا لان قوله
تعالى من اهتدى الى اخره انما يليق بالقادر على الفعل المتمكن منه كيف شا واراد
اما المجبور على احد الطرفين الممنوع من الطرف الثاني فهذا لا يليق به هذا مذهب
اهل السنة والجماعة فاتبعه ترشد ثم انه تعالى اعاد تقرير ان كل احد مختص باثر عمل
نفسه بقوله تعالى ولا تزر اي نفس وازرة اي اثمة لا تحمل وزر نفس اخرى بل انما تحمل
وزرها فقط فان قيل ورد ان المظلوم ياخذ من حسنات الظالم فاذا لم يوف
يوخذ من سيات المظلوم ويطرح على الظالم اجيب بان ذلك بعينه فهو
كفعله فان قيل قد ورد ان الميت يعذب ببكا اهله اجيب بان ذلك محمول
على ما اذا اوصى بذلك وكان ذلك الفعل محرما كقول طرفة بن العبد
اذا مت فانعيني بما انا اهله ... وشقي علي الجيب يا ابنة معبد
وعليه حمل الجمهور الاخبار الواردة بتعذيب الميت على ذلك فان قيل ذنب الميت
فيما اذا اوصى الامر بذلك فلا يختلف عذابه بامتثالهم وعدمه اجيب بان الذنب

على السبب

على السبب بعظم بوجود المسبب وشاهده خبر من سن سنة سيئة وقال الشيخ ابو حامد انما ذكر
محمولا على الكافر وغيره من اصحاب الذنوب ثم قال تعالى وما كنا اي على ما لنا من العدل معذبين
احدا حتى نبعث رسولا يبين له ما يجب عليه ممن بلغته دعوته فخالف امره واستكبر عن
اتباعه عذبناه بما يستحقه وهذا امر قد تحقق بارسال الله تعالى لعباده من بعده من الانبيا
الكرام عليهم السلام وجميع الامم قال تعالى ولقد ارسلنا في كل امة رسولا وقال تعالى وان
من امة الا خلا فيها نذير فان دعوتهم الى الله تعالى قد انتشرت وعمت الاقطار واشتهرت
فان قيل الحجة انما قامت عليهم قبل بعثة الرسول لان معهم ادلة العقل التي يعرف الله تعالى وقد
اهملوا النظر وهم متمكنون منه واستوجبوا بها العذاب لاعراضهم النظر فيما منعهم وكفرهم
لو كان لا لاعراضهم الثرايع التي لا سبيل اليها الا بالتوفيق والعمل فلا يصح الا بعد الايمان
اجيب بان بعثة الرسول من جملة التنبيه على النظر والالتفاط من رقدة الغفلة
ليلا يقولوا انا كنا عن هذا غافلين فلما بعثت اليهم رسولا نبههم على النظر في ادلة العقل
وفي الآية دليل على ان لا وجوب قبل الشرع فائدة وحكم الفترات بين نوح
وادريس وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وهي ثلاثة عشر قسما ستة سعداء واربعة
اشقيا وثلاثة تحت المشيئة فاما السعداء فمنهم وحد الله تعالى بنور وجده في قلبه
كقس بن ساعدة فانه كان يقول اه اسيل هل لهذا العالم الا بعرة تدل على البعير وان الاقدام
على المسير وقسم وحد الله تعالى بما تخلى لقلبه من النور الالهي لا يقدر على وصفه وقسم الهمي في نفسه
واطلع من كشفه على منزلة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به في عالم الغيب وقسم اتبع ملة
حق ممن تقدمه وقسم طالع في كتب الانبيا فعرف شرف محمد صلى الله عليه وسلم فامن به وقسم
امن بنبيه الذي ارسل اليه وادرك رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به فله اجران واما
الاشقيا فقسم عطل لا عن نظر بل عن تقليد وقسم عطل بعد ما اثلث لا عن استقصا نظر
وقسم اشرك عن تقليد محض لكنه وقسم علم الحق وعاند واما الذي تحت المشيئة فقسم عطل
فلم يقر بوجود عن نظر قاصر لضعف في مزاجه وقسم اشرك عن نظر اخطا فيه وقسم عطل
بعد ما اثبت عن نظر بلغ فيه اقصى القوة هكذا قسم محيي الدين بن عربي في الباب العاشر
من الفتوحات نقلا لذلك عنه شيخ وقته الشيخ عبد الوهاب الشعراوي ونقل عن السيوطي
ان ابوي النبي صلى الله عليه وسلم لم تبلغهما الدعوة والله تعالى يقول وما كنا معذبين حتى
نبعث رسولا وحكم من لم تبلغه الدعوة انه يموت ناجيا ولا يعذب ويدخل الجنة قال
وهو مذهب لنا لا خلاف فيه بين المحققين من ائمتنا الشافعية في الفقه والاشاعرة
في الاصول وبعض على ذلك الشافعي ونقله عن الاصحاب قال السيوطي وقد ورد في الحديث
ان الله تعالى احيا ابويه حتى آمنا به وعلى ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي
وابو القاسم بن عساكر وابو حفص بن شاهين والسهيلي والقرطبي والطبري وابن المنير
وابن سيد الناس وابن ناصر الدمشقي والصعيدي وغيرهم والاول لنا الاشكال عن ذلك
فان الله تعالى لم يكلفنا بذلك وكل الامر فيه لكن الى الله تعالى ونقول كما قال النووي
لما سئل عن طايفة من عرب تلك الامة فدخلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسالون عما
كانوا يعملون والله اشار تعالى لاعذاب المخالفين فقرر اسبابه وعرف انها بقدره وانه قد
لا يمنع حقوق العذاب بقوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية الحياة الكفية في الدنيا والاخرة

اعفلوا

القينا في قلوب اهلها امتثال اوامرنا والتقيد باتباع رسلنا واذا اردنا أن نهلك قرية في الزمن
المستقبل أمرنا اي بما لنا من القدرة التامة مترفيها اي منعميها الذين لهم الامر والنهي
قال الاكثرون امرهم الله تعالى بالطاعة والخير على لسان رسله ففسقوا فيها اي خرجوا
عن طاعة الله ورسوله وقال صاحب الكشاف ظاهر اللفظ يدل على انه تعالى يامرهم
بالفسق فيفسقون الا ان هذا مجاز ومعناه انه يفتح عليهم ابواب الخيرات
والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على ان ظاهر اللفظ يقتضي
ما ذكرناه ان المامور به انما حذف لان قوله ففسقوا يدل عليه يقال امرته فقام
وامرته فقرا لا يفهم الا ان المامور به قياما وقراءة فكذا هنا لما قال امرنا مترفيها
ففسقوا فيها وجب ان يكون المعنى امرناهم بالفسق ففسقوا لا يقال يشكل هذا
بقولهم امرته فعصاني او خالفني فان هذا لا يفهم منه اني امرته بالمعصية والمخالفة
لانا نقول ان المعصية منافية للامر ومناقضة له فيكون كونها مامورا بها
مخالفا فلهذه الضرورة تركنا هذا الظاهر انتهى قال الرازي ولقايل ان يقول
كما ان قوله امرته فعصاني يدل على ان المامور به شي غير المعصية من حيث ان
المعصية منافية للامر ومناقضة له فكذلك قوله امرته ففسق يدل على ان المامور
به غير الفسق لان الفسق عبارة عن الاتيان بضد المامور به فكونه فسقا ينافي
كونه مامورا به كما ان كونه معصية ينافي كونها مامورا بها فوجب ان يدل
هذا اللفظ على ان المامور به ليس بفسق وهذا الكلام في غاية الظهور ولم ادر لم
اصر صاحب الكشاف على قوله مع ظهور فساده فثبت ان الحق ما ذكرناه
الكل وهو ان المعنى امرناهم بالاعمال الصالحة وهي الايمان والطاعة والقوم خالفوا
ذلك الامر عنادا واقدموا على الفسق فحق عليها القول اي الذي توعدناهم به على لسان
رسولنا فدمرناها تدميرا اي اهلكناها باهلاك اهلها وتخريب ديارها وخص المترفين
بالذكر لان غيرهم يتبعهم ولانهم اسرع الى الحماقة واقدر على الفجور وقيل معناه كثرنا وروى
الطبراني وغيره حديثا خير المال سكة مابورة ومهرة مامورة اي كثيرة النتاج والسكة بكسر
السين وتشديد الكاف الطريقة المصطفة من النخل والمابورة الملقحة قال ذلك الجوهري
وروي ان رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني امرك هذا حقير فقال
صلى الله عليه وسلم انه سيامر اي يستكثر ويستكبر وعن ام المومنين زينب بنت جحش
رضي الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول لا اله الا الله
ويل للعرب من شر ما اقترب فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذه وحلق
بين اصبعيه الابهام والتي يليها قالت زينب قلت يا رسول الله نهلك وفينا
الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث اي الشر وويل يقال لمن وقع في هلكة او اشرف
ان يقع فيها وقوله تعالى وكم اهلكنا اي بما لنا من العظمة وبين مدلول كم بقوله
تعالى من القرون اي المكذبين من بعد نوح كعاد وثمود من الامم الماضية يخوف به كفار
مكة قال عبد الله بن ابي اوفى القرن عشرون ومائة سنة وقيل مائة سنة
روي عن محمد بن القاسم عن عبد الله بن بشر المازني ان النبي صلى الله عليه وسلم وضع
يده على راسه وقال سيعيش هذا الغلام قرنا قال محمد بن القاسم ما زلنا نعده

اللقحة

اري صح

حتى

حتى تمت له مائة سنة ثم مات وقال الكلبي القرن ثمانون سنة وقيل اربعون ثم قال تعالى لنبيه
محمد صلى الله عليه وسلم وكفى بربك اي المحسن اليك بذنوب عباده خبيرا بصيرا اي عالما ببواطنها
وظواهرها فكم من انسان كنتم ترونه من اكابر الصالحين ثم استقرت عاقبته على خلاف ذلك
وكم من شخص ترونه مجتهدا في العبادة فاذا خلا بارز ربه بالعظائم وتقديم الخبر لتقدم
متعلقه ولما تقرر انه سبحانه وتعالى عالم ببواطن عباده وظواهرها قسمهم الى قسمين
الاول قوله تعالى من كان يريد العاجلة اي الدنيا مقصورا عليها همه عجلنا له فيها
اي العاجلة بان تفضلنا عليه من منافعها ما نشاء اي من البسط والتقتير لمن نريد
اي ان نفعل به ذلك فقيد تعالى الامر بقيدين احدهما تقييد المعجل لمشيئته والثاني تقييد
المعجل له بارادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون الا
بعضا منه وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الاخرة
تنبيه لمن نريد بدل بعض من كل عن الضمير في له باعادة العامل تقديره لمن نريد تعجيله
له ويقال ان الاية في المنافقين كانوا يراؤون المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا
مساهمتهم في الغنائم ونحوها وهذا هو المناسب لقوله تعالى ثم جعلنا له جهنم
يصلاها اي في الاخرة مذموما اي مفعولا به الذم مدحورا اي مدفوعا مطرودا
مبعدا وان ذكر البيضاوي بصيغة قيل ثم ذكر تعالى القسم الثاني وشرط فيه ثلاثة شروط الاول
قوله تعالى ومن اراد الاخرة اي اراد بعمله ثواب الاخرة فانه ان لم ينو ذلك لم ينتفع بذلك
العمل لقوله تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى وقوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات
الثاني قوله تعالى وسعى لها سعيها وذلك يقتضي ان يكون ذلك العمل من باب القرب
والطاعات وكثير من الضلال يتقربون بعبادة الاوثان ولهم فيها تاويلات احدها
انهم يقولون اله العالم اجل واعظم من ان يقدر الواحد منا على اظهار عبوديته وخدمته
ولكن غاية قدرتنا ان نشتغل بعبادة بعض المقربين من عباد الله مثل ان يشتغل بعبادة
كوكب او ملك من الملائكة ثم ان الملك او الكوكب يشتغل بعبادة الله تعالى فهؤلاء
يتقربون الى الله تعالى بهذا الطريق وهذه طريقة فاسدة فلا جرم انه لم ينتفع بها ثانيها
انهم قالوا اتخذنا هذه التماثيل على صور الانبياء والاولياء والمراد من عبادتها ان تصير
تلك الانبياء والاولياء شفعاء لنا عند الله وهذا الطريق ايضا فاسد فلا جرم
لم ينتفع بها ثالثها انه تعالى نقل عن الهند انهم يتقربون الى الله بقتل انفسهم
تارة وباحراق انفسهم اخرى وهذه الطريقة ايضا فاسدة فلا جرم لم ينتفع بها
وكذا القول في جميع الفرق المبطلين الذين يتقربون الى الله تعالى بمذاهبهم الباطلة
الثالث قوله تعالى وهو مؤمن لان الشرط في كون اعمال البر مقتضية للثواب هو
الايمان واذا لم يوجد لم يحصل المشروط وعن بعض المتقدمين من لم يكن معه ثلاث لم
ينفعه عمله ايمان ثابت ونية صادقة وعمل مصيب وتلى هذه الاية فالحاصل انها
ان وجدت عند الولي لم تشرفه وان عدمت عنه لم تحقره وانما الشرف وغيره عند الله تعالى
بالاعمال تنبيه كل من اتى بفعل اما ان يقصد به تحصيل خيرات الدنيا واما
ان يقصد به تحصيل خيرات الاخرة واما ان يقصد به مجموعهما واما ان لا يقصد به واحدا منهما
فان قصد به تحصيل الدنيا فقط او تحصيل الاخرة فقط فالله تعالى ذكر حكم هذين القسمين

ثم انه تعالى اخبر عند وجود هذه الشروط بقوله تعالى فاولئك العالوا الرتبة لجمعهم الشرائط الثلاثة كان سعيهم مشكورا
اي مقبولا مثابا عليه بالتضعيف وبعضهم يفتح اليه ابواب الدنيا مع ذلك كداود وسليمان عليهما السلام
ويستعمله فيها بما فيه مرضات الله تعالى وبعضهم يزويها عنه كرامة له لا هوانا به فربما كان الفقر خيرا له
واعون على مراده صح

BULAC

في هذه الاية واما القسم الثالث فينقسم ثلاثة اقسام اما ان يكون طلب الاخرة راجحا او مرجوحا
او يكون الطلبان متعادلين فان كان طلب الاخرة راجحا فهل يكون هذا العمل مقبولا عند الله
فيه رايان احدهما انه غير مقبول لقوله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن الله تعالى انه قال انا اغنى
الاغنيا عن الشرك من عمل عملا اشرك فيه غيري تركته وشركه وايضا طلب رضوان الله تعالى
اما ان يكون سببا مستقلا بكونه باعثا على ذلك الفعل وداعيا اليه واما ان لا يكون فان كان الاول
امتنع ان يكون لغيره مدخل في ذلك البعث والدعا لان الحكم اذا اسند لسبب تام كامل
امتنع ان يكون لغيره مدخل فيه وان كان الثاني فيكون الداعي الى ذلك الفعل هو المجموع وذلك
المجموع ليس هو طلب رضوان الله لان المجموع الحاصل من الشي ومن غيره يجب ان يكون
مغايرا لطلب رضوان الله تعالى فوجب ان لا يكون مقبولا الراي الثاني انه مقبول لان
طلب الاخرة لما كان راجحا على طلب الدنيا تعارض المثل بالمثل فبقي القدر الزايد داعية
خالصة لطلب الاخرة فوجب كونه مقبولا واما اذا كان طلب الدنيا وطلب الاخرة
متعادلين او كان طلب الدنيا راجحا فقد اتفقوا على انه غير مقبول الا انه على كل حال خير
مما اذا كان طلب الدنيا خاليا بالكلية عن طلب الاخرة واما القسم الرابع وهو الاقدام على
الفعل من القادر هل يتوقف على حصول الداعي ام لا فالذين يقولون انه متوقف على
حصول الداعي قالوا هذا القسم ممتنع الحصول والذين قالوا لا يتوقف قالوا هذا الفعل
لا اثر له في الباطن وهو محرم في الظاهر لانه عبث ثم انه تعالى قال كلا اي من الفريقين
مريد الدنيا ومريد الاخرة نمد اي بالعطا ثم ابدل من كلا قوله تعالى هؤلا اي الذين
طلبوا الدنيا نمد وهؤلا اي الذين طلبوا الاخرة نمد من عطا ربك المحسن اليك ان ضيق على مومن
فبالحماية من الدنيا الفانية التي انما هي لهو ولعب وان وسع فبالاستعمال فيها على حسب ما
يرضيه وما كان عطا ربك اي الموجد لك المدبر لامرك محظورا اي ممنوعا في الدنيا عن مومن
ولا كافر بل هو ملء السهل والجبل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والجواهر والثمار
واقوات الناس والبهايم وغير ذلك مما لا يحصيه الا الله تعالى حتى لو اجتمع كل الناس على جمعه
ليلا ونهارا ولم يكن لهم شغل سوى ذلك لاعياهم ولم يقدروا عليه فسبحان الجواد المعطي
المانع ثم انه تعالى امر بالنظر في عطايه هذا على وجه مرغب في الاخرة مزهد في الدنيا بقوله
تعالى انظر اي ايها الانسان او يا محمد كيف فضلنا بعضهم على بعض فاوسعنا على مومن
وقترنا على مومن اخر ووسعنا على كافر وقترنا على كافر اخر وبين سبحانه وتعالى وجه
الحكمة في التفاوت في سورة الزخرف بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة
الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات الاية وقال تعالى في اخر سورة الانعام
ورفع بعضكم فوق بعض درجات تنبيه كيف نصب اما على التشبيه بالظرف واما على
الحال وهي معلقة لانظر بمعنى فكر او ابصر ولما نبه تعالى على ان ما نراه من التفضيل انما
هو بمحض قدرته اخبر على ان ما بعد الموت كذلك بقوله تعالى وللاخرة اكبر اي اعظم
درجات واكبر تفضيلا من درجات الدنيا ومن تفضيلها فان نسبة التفاضل
في درجات الاخرة الى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الاخرة الى الدنيا فاذا كان
الانسان تشتد رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبان تقوى رغبته في طلب الاخرة
اقوى لانها دار المقامة روي ان قوما من الاشراف فمن دونهم اجتمعوا بباب

عمر

عمر رضي الله تعالى عنه فخرج الاذن لبلال وصهيب فشق على ابي سفيان فقال سهيل
ابن عمرو انما اوتينا من قبلنا انهم دعوا ودعينا يعني الى الاسلام فاسرعوا وابطانا
وهذا باب عمر فكيف التفاوت في الاخرة ولما بين تعالى ان الناس فريقان منهم من يريد
بعمله الدنيا فقط وهم اهل العذاب ومنهم من يريد طاعة الله وهم اهل الثواب ثم شرط
في ذلك ثلاثة شروط فصل تلك المجملات وبدا اولا بشرح حقيقة الايمان واشرف
اجزاء الايمان هو التوحيد ونفي الشرك والاضداد بقوله تعالى لا تجعل مع الله اي الذي له
جميع صفات الكمال الها اخر قيل الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره والاولى
انه للانسان فيكون خطابا عاما لكل من يصلح ان يخاطب به فتقعد اي فتسبب عن ذلك
ان تقعد اي تصير في الدنيا قبل الاخرة مذموما مخذولا لان المشرك كاذب والكاذب
يستوجب الذم والخذلان ولانه قد ثبت بالدليل ان لا اله ولا مدبر الا الله تعالى فحينئذ
تكون جميع النعم حاصلة من الله تعالى فمن اشرك بالله فقد اضاف بعض تلك النعم
الى غير الله فاستحق الذم والخذلان تنبيه قال الواحدي قوله تعالى فتقعد انتصب
لانه وقع بعد الفا جوابا للنهي وانتصابه باضمار ان كقولك لا تنقطع عنا فتجفوك
والتقدير لا يكن منك انقطاع فيحصل ان يجفوك فما بعد الفا متعلق بالجملة المتقدمة
بحرف الفا وانما سماه النحويون جوابا لكونه مشابها للجزاء وان الثاني مسبب عن الاول كما
تقرر ولما ذكر تعالى ما هو الركن الاعظم في الايمان اتبعه بذكر ما هو من شعاير الايمان
وشرايعه وذلك انواع الاول ان يشتغل الانسان بعبادة الله تعالى ويتحرز عن عبادة
غيره وهذا هو المراد من قوله تعالى وقضى اي امر ربك اي المحسن اليك وقوله تعالى ان لا
تعبدوا الا اياه اي انت وجميع اهل دعوتك وهم جميع الناس الا اياه فيه وجوب
عبادة الله تعالى والمنع من عبادة غيره لان العبادة عبارة عن الفعل المشتمل
على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا يليق الا بمن له الانعام والافضال على عباده ولا منعم
الا الله فكان هو المستحق للعبادة لا غيره تنبيه روى ميمون عن مهران
عن ابن عباس انه قال في هذه الاية كان الاصل ووصى ربك فالتصقت احدى الواوين
بالصاد فقرئ وقضى ربك ثم قال ولو كان على القضاء ما عصى الله احد قط لان خلاف
قضاء الله ممتنع ولهذا القول كما قال الرازي بعيد جدا اذ لو فتح هذا الباب لارتفع
الامان عن القران وذلك يخرجه عن كونه حجة ولا شك انه طعن عظيم في الدين ويندفع
ما قاله بما فسر قضى به ولما امر تعالى بعبادة نفسه اتبعه بالامر ببر الوالدين بقوله تعالى
وبالوالدين اي واحسنوا اي اوقعوا الاحسان بهما احسانا اي بان تبروهما ليكون الله معكم
فانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون تنبيهان احدهما المناسبة بين الامر بعبادة
الله والامر ببر الوالدين من وجوه الاول ان السبب الحقيقي لوجود الانسان هو
تخليق الله تعالى وايجاده والسبب الظاهر هو الابوان فامر الله تعالى بتعظيم السبب
الحقيقي ثم اتبعه بالامر بتعظيم السبب الظاهري الثاني ان الموجود اما قديم
واما محدث ويجب ان تكون معاملة الانسان مع الموجود القديم بالتعظيم
والعبودية ومع المحدث باظهار الشفقة وهو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم
التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله واحق الخلق بالشفقة الابوان لكثرة

BULAC

انعامهما على الانسان فقوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه اشارة الى التعظيم لامر الله
وقوله تعالى وبالوالدين احسانا اشارة الى الشفقة على خلق الله الثالث ان الاشتغال
بشكر المنعم واجب ثم المنعم الحقيقي هو الخالق سبحانه وتعالى وقد يكون بعض المخلوقين
منعما عليك وشكره ايضا واجب لقوله صلى الله عليه وسلم من لم يشكر الناس لم يشكر
الله وليس لاحد من الخلايق نعمة على الانسان مثل الابوين لان الولد قطعة من الوالدين
قال صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني وايضا شفقة الوالدين على الولد عظيمة
وايصال الخير الى الولد منهما امر طبيعي واحترازهما عن ايصال الضرر اليه امر طبيعي ايضا
فوجب ان يكون نعم الوالدين على الولد كثيرة بل هي اكثر من كل نعمة تصل من الانسان الى انسان
وايضا حال ما يكون الانسان في غاية الضعف ونهاية العجز يكون انعام الابوين في ذلك
الوقت واصلة الى الولد واذا وقع الانعام على هذا الوجه كان موقعه عظيما وايضا
فايصال الخير الى الغير قد يكون لداعية ايصال الخير اليه وايصال الخير الى الولد
ليس لهذا الغرض فكان الانعام فيه اتم واكمل فثبت بهذه الوجوه انه ليس لاحد
من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فلهذا ابدا الله بشكر نعمة الخالق
وهو قوله تعالى وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ثم اردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله
تعالى وبالوالدين احسانا فان قيل الوالدان انما طلبا تحصيل اللذة لانفسهما فلزم
منه دخول الولد في الوجود ودخوله في عالم الافات والمخالفات فاي انعام للابوين
على الولد وحكي ان بعض المتسمين بالحكمة كان يضرب اباه ويقول هو الذي ادخلني في عالم الكون
والفساد وعرضني للموت والفقر والعمى والزمانة وقيل لابي العلا المعري • ماذا
تكتب على قبرك فقال اكتبوا عليه هذا جناية ابي علي وما جنيت على احد • وقال
في ترك التزوج والولد • وتركت فيهم نعمة العدم التي • سبقت نعيم العاجل
ولو انهم ولدوا لعانوا شدة • ترمي بهم في موبقات الاجل • وقيل لاسكندر استاذك
اعظم منة عليك ام والدك فقال الاستاذ اعظم منة لانه تحمل انواع الشدايد عند تعليمي
فاوقعني في نور العلم واما الوالد فانه طلب تحصيل لذة الوقاع لنفسه فاخرجني الى
افات عالم الكون والفساد ومن الكلمات المشهورة المأثورة خير الاباء من علمك اجيب
بانه وان كان له في اول الامر طلب لذة الوقاع الا ان الاهتمام بايصال الخيرات اليه
ودفع الافات عنه من اول دخوله في الوجود الى وقت بلوغه الكبر اليس انه اعظم من جميع
ما يصل اليه من جهات الخيرات والمبرات فسقطت هذه الشبهات التنبيه الثاني
ان لفظ الاية يدل على معان كثيرة كل واحد منها يوجب المبالغة في الاحسان الى الوالدين
منها انه تعالى قال في الاية المتقدمة ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن
فاولئك كان سعيهم مشكورا ثم اردفه بهذه الاية المشتملة على الاعمال التي بواسطتها
يحصل الفوز بسعادة الاخرة وجعل من جملتها البر بالوالدين وذلك يدل على ان هذه
الطاعة من اصول الطاعات التي تفيد سعادة الاخرة ومنها انه تعالى بدا بذكر الامر
بالتوحيد وثنى بطاعة الله وثلث ببر الوالدين وهذه درجة عالية ومبالغة
عظيمة في تعظيم هذه الطاعة ومنها ومنها انه تعالى لم يقل واحسانا بالوالدين بل
قال وبالوالدين احسانا فتقديم ذكرهما يدل على شدة الاهتمام بهما ومنها انه تعالى

قال

قال احسانا بلفظ التنكير والتنكير يدل على التعظيم اي احسانا عظيما كاملا لان احسانهما اليك
قد بلغ الغاية العظيمة فوجب ان يكون احسانك اليهما كذلك ثم على جميع التقديرات لا تحصل
المكافاة لان انعامهما عليك على سبيل الابتدا وفي الامثال المشهورة ان البادي بالبر
لا يكافا ولما كان سبحانه وتعالى عليما بما في الطباع من ملال الولد لهما عند اخذهما في السن
قال تعالى اما موكدا بادخال ما على ان الشرطية لزيادة التقرير للمعنى اهتماما بشان
الوالدين يبلغن عندك الكبر اي كان يضطرا اليك في حالة الضعف والعجز
فلا يكون لهما كافل غيرك فيصيرا عندك في اخر العمر كما كنت عندهما في اول العمر احدهما
او كلاهما وقرا حمزة والكسائي بالف بعد الفين وكسر النون فالالف ضمير الوالدين لتقدم
ذكرهما واحدهما بدل منه واو كلاهما عطف عليه فاعلا او بدلا فان قيل هلا كان كلاهما
توكيدا لا بدلا اجيب بانه معطوف على ما لا يصح ان يكون توكيدا لاثنين فوجب ان يكون
مثله فان قيل لم لا يجوز ان يكون احدهما بدلا وكلاهما توكيدا ويكون ذلك عطفا للتوكيد
على البدل اجيب بان العطف يقتضي المشاركة فجعل احدهما بدلا والاخر توكيدا خلاف
الاصل وقرا الباقون بغير الف وفتح النون والاعراب على هذا ظاهر وجميع القرا
يشددون النون ثم انه تعالى امر الانسان في حق والديه بخمسة اشيا الاول منها
قوله تعالى فلا تقل لهما اف اي لا تتضجر منهما قال الزجاج اف معناه النتن وهذا
قول مجاهد لانه قال معنى قوله ولا تقل لهما اف اي لا تتقذرهما كما انهما كانا لا يتقذران
حين كنت تخزي وتبول وفي رواية اخرى عن مجاهد اذا وجدت منهما رايحة تؤذيك
فلا تقل لهما اف فلقد بالغ سبحانه وتعالى بالتوصية بهما حيث شفع الاحسان اليهما
بتوحيده ونظمهما في سلك القضا بهما معا ثم ضيق الامر في مراعاتهما حتى لم يرخص
في ادنى كلمة من التضجر مع موجبات الضجر ومقتضياته ومع احوال لا تكاد يدخل
صبر الانسان معها في الاستطاعة وقد قال صلى الله عليه وسلم اياكم وعقوق الوالدين
فان الجنة يوجد ريحها من مسيرة الف عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زان
ولا جار ازاره خيلا ان الكبر بالله رب العالمين وسيل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين
فقال ان لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقرا نافع وحفص بالتنوين في الفا مع الكسر وابن
كثير وابن عامر بفتح الفا من غير تنوين والباقون بكسر الفا من غير تنوين الثاني
قوله تعالى ولا تنهرهما اي لا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك يقال نهره وانتهره
اذا استقبله بكلام يزجره قال تعالى واما السايل فلا تنهر فان قيل المنع من التافيف
يدل على المنع من الانتهار بالاولى فما فايدة ذكره اجيب بان المراد بالمنع من التافيف
المنع من اظهار الضجر بالقليل والكثير والمراد من منع الانتهار المنع من اظهار المخالفة
في القول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما الثالث قوله تعالى وقل لهما قولا كريما
اي حسنا جميلا لينا كما يقتضيه حسن الادب معهما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
هو ان يقول يا ابتاه يا اماه وسيل سعيد بن المسيب عن القول الغليظ وعن عطا انه قال
هو ان يتكلم معهما بشرط ان لا يرفع اليهما بصره ولا يشتد اليهما نظره وذلك ان هذين الفعلين
ينافيان القول الكريم فان قيل ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابيه اني اراك وقومك
في ضلال مبين مع انه عليه السلام من اعظم الناس ادبا وحلما وكرما اجيب بان حق الله تعالى

بيان البادي

عن القول الكريم فقال هو قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ

مقدم على حق الابوين فاقدام ابراهيم على ذلك الايذا انما كان تقديما لحق الله تعالى الرابع قوله
تعالى **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** اي لا من اجل امتثال الامر وخوف العار فقط
بل من اجل الرحمة لهما بان لا تزال تذكر نفسك بالاوامر والنواهي وبما تقدم لهما من الاحسان
اليك والمقصود المبالغة في التواضع وهذه استعارة بليغة قال القفال وفي تقريره
وجهان الاول ان الطاير اذا اراد ضم فرخه اليه للتربية خفض له جناحه فلهذا صار
خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكانه قال للولد اكفل والديك بان تضمهما الى نفسك
كما فعلا ذلك بك حال صغرك والثاني ان الطاير اذا اراد الطيران نشر جناحيه ورفعهما
ليرتفع واذا اراد ترك الطيران خفض جناحيه فجعل خفض الجناح كناية عن التواضع
واللين فان قيل كيف اضاف الجناح الى الذل والذل لا جناح له اجيب بوجهين
الاول انه اضيف الجناح الى الذل كما يقال حاتم الجود فكما ان المراد هناك حاتم
الجواد فكذلك هنا المراد اخفض لهما جناحك الذليل الثاني ان مدار الاستعارة
على الخيالات فهنا تخيل للذل جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة
زماما في قوله وغداة ريح قد كنت وقرة اذ اصبحت بيد الشمال زمامها
فاثبت للشمال يدا وللقرة زماما ووضع زمامها في يد الشمال فكذا ههنا ومن طريف
ما يحكى ان ابا تمام لما نظم قوله لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي
جاءه رجل بقصعة وقال له اعطني شيئا من ماء الملام فقال له حتى تاتيني بريشة من جناح
الذل يريد ان هذا مجاز استعارة كذلك وقال بعضهم اراشوا جناحي ثم بلوه بالندا
فلم استطع منهم طيرانا الخامس قوله تعالى **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**
اي لا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقا لها وادع الله ان يرحمهما رحمته الباقية
واجعل ذلك جزا لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك هذا اذا كانا مسلمين فان
كانا كافرين فان الدعا بالرحمة لهما منسوخ في قوله تعالى ما كان للنبي والذين امنوا
ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى بل يدعوا الله تعالى بالهداية والارشاد
فاذا هداهما بعد رحمهما وسيل بعضهم عن بر الوالدين فقال لا يرفع صوتك
عليهما ولا ينظر اليهما شزرا ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن وان يترحم عليهما
ما عاشا ويدعو لهما اذا ماتا ويقوم بخدمة اودّاهما من بعدهما لما ورد عنه صلى
الله عليه وسلم انه قال من ابر البر ان يصل الرجل اهل ود ابيه تنبيه قد ورد في بر
الوالدين احاديث كثيرة منها ما روي عن ابي هريرة انه قال جا رجل الى النبي صلى الله
عليه وسلم فقال يا رسول الله من احسن الناس بصحبتي فقال امك ثم امك ثم اباك
ثم اباك ثم ادناك فادناك ومنها عنه ايضا انه قال سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول رغم انفه رغم انفه رغم انفه قيل من يا رسول الله
قال من ادرك والديه او احدهما ثم لم يدخل الجنة ومنها ما روي عنه ايضا انه قال
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يجزي ولد والده الا ان يجده مملوكا
فيشتريه فيعتقه ومنها ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص انه قال جا
رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستاذنه في الجهاد فقال احي والداك
قال نعم قال ففيهما فجاهد ومنها ما رواه الترمذي انه صلى الله عليه وسلم

قال

قال رضي الرب في رضى الوالدين وسخط الرب في سخط الوالدين ومنها ما روي عن ابي الدرداء انه قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الوالد اوسط ابواب الجنة فحافظ ان شئت
او ضيع ومنها ما روي عن ابن مسعود انه قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم اي العمل
احب الى الله تعالى قال الصلاة على وقتها قلت بم اي قال بر الوالدين قلت بم اي قال
الجهاد في سبيل الله وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال ذلك واصل اليه
ولا شيء انفع لهم من الاستغفار ولو كان شيء افضل منه لامركم به في الابوين ولقد كرر
الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الوصية بالوالدين ومنها ما روي انه صلى الله عليه
وسلم قال رضى الله في رضى الوالدين وسخطه في سخطهما ومنها ما روي عن سعيد
ابن المسيب ان البار لا يموت ميتة سوء ومنها ما روي ان رجلا قال لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ان ابوي بلغا من الكبر اني الي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتهما
قال لا قال فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وانت تفعل ذلك وانت تريد
موتهما ومنها ما رواه ابو هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رغم انف رجل ذكرت
عنده فلم يصل علي ورغم انف رجل اتى عليه شهر رمضان فلم يغفر له ورغم انف رجل
ادرك ابويه الكبر فلم يدخلاه الجنة ومنها ما روي ان رجلا شكى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
اباه وانه ياخذ ماله فدعاه فاذا شيخ يتوكا على عصى فساله فقال انه كان ضعيفا
وانا قوي وفقيرا وانا غني فكنت لا امنعه شيئا من مالي واليوم انا ضعيف وهو قوي وانا فقير
وهو غني ويبخل علي بماله فبكى صلى الله عليه وسلم وقال ما من حجر ولا مدر يسمع الا بكى ثم
قال للولد انت ومالك لابيك وشكى اليه اخر سوء خلق امه فقال لم تكن سيئة الخلق
حين حملتك تسعة اشهر قال انها سيئة الخلق قال لم يكن كذلك حين ارضعتك حولين
قال انها سيئة الخلق قال لم يكن كذلك حين اسهرت لك ليلها واظمات نهارها قال لقد
جازيتها قال ما فعلت قال حججت بها على عنقي قال ما جزيتها وعن ابن عمر انه راى رجلا في الطواف
يحمل امه ويقول اني لها مطية لا تذعر اذا الركاب نفرت لا تنفر ما حملت وارضعتني اكثر
الله ربي ذو الجلال الاكبر تظنني جزيتها يا ابن عمر قال لا ولو زفرة واحدة ولما كان ما ذكر في حق
الوالدين عسر جدا حذر من التهاون به بقوله تعالى ربكم اي المحسن اليكم في الحقيقة
فانه هو الذي عطف عليكم من بر بكم وهو الذي اعانهم على ذلك اعلم اي من كل احد
بما في نفوسكم من قصد البر بهما وغيره فلا يظهر احدكم غير ما يبطن فان ذلك لا ينفعه
ولا ينجيه الا ان يحمل نفسه على ما يكون سببا لرحمتهما ان تكونوا صالحين اي متقين محسنين
في نفس الامر والصلاح استقامة الفعل على ما يدعو الدليل اليه واشار تعالى الى انه
لا يكون ذلك الا بمصالحة النفس وترجيعها كره بعد كره بقوله تعالى فانه كان للاوابين
اي الرجاعين الى الخير مرة اثر مرة بعد جماح انفسهم عنه غفورا اي بالغ الستر بمن وقع
منه تقصير فرجع عنه فانه مغفور له ولما حث تعالى على الاحسان للوالدين بالخصوص
عمم بالامر بالاحسان لكل ذي قرابة رحم وغيره بقوله تعالى وات ذا القربى من جهة
الاب او الام وان بعد حقه والخطاب لكل احد ان يوتى اقاربه حقوقهم من صلة الرحم
والمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمعاضدة ونحو ذلك وقيل ان كانوا محاويج وهو
موسر لزمه الانفاق عليهم عند ابي حنيفة وقال الشافعي لا يلزم الا نفقة الوالد على ولده

والولد على والده فقط وقيل المراد بالقرابة قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآت المسكين
حقه وان لم يكن قريبا وآت ابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن ماله ليكون متقيا محسنا
ولما رغب تعالى في البذل وكانت النفس قلما يكون فعلها قواما بين الافراط والتفريط
اتبع ذلك بقوله تعالى ولا تبذر بتفريق المال سرفا وهو بذله فيما لا ينبغي وقد كانت
الجاهلية تبذر اموالها في الفخر والسمعة وتذكر ذلك في اشعارها فامر الله تعالى بالنفقة
في وجوهها مما يقرب منه ويزلف وفي قوله تعالى تبذيرا تنبيه على ان الارتفاع نحو ساحة
التبذير اولى من الهبوط الى مضيق الشح والتقتير والتبذير بسط اليد في المال
على حسب الهوى وقد سئل بن مسعود عن التبذير فقال انفاق المال في غير حقه
واما الجود فهو اتباع امر الله في حقوق المال وعن مجاهد لو انفق الانسان ماله كله
في الحق ما كان بتبذير ولو انفق مدا في باطل كان تبذيرا وقد انفق بعضهم نفقة
في خير فاكثر فقال له صاحبه لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير وعن عبد الله بن
عمر ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضا فقال ما هذا السرف يا سعد
قال او في الوضوء سرف قال نعم وان كنت على نهر جار ثم نبه تعالى على قبح التبذير
باضافته اياه الى افعال الشياطين بقوله تعالى ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين
اي على طريقتهم او هم اخوانهم واصدقاؤهم لانهم يطيعونهم فيامرونهم به من الاسراف
او هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد ثم انه تعالى بين صفة الشيطان بقوله تعالى
وكان الشيطان اي هذا الجنس البعيد من كل خير المحترق بكل شر لربه اي الذي احسن اليه
بايجاده وتربيته كفورا اي ستورا لما يقدر على ستره من اياته الظاهرة ونعمته الباهرة مع الجحد
فلا ينبغي ان يطاع لانه لا يدعو الا الى مثل فعله قال بعض العلماء خرجت هذه الاية
على وفق عادة العرب وذلك لانهم كانوا يجمعون الاموال بالنهب والغارة ثم كانوا
ينفقونها في الخيلاء والتفاخر وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون اموالهم
ليصدوا الناس عن الاسلام وتوهين اهله واعانة اعدائه فنزلت هذه الاية تنبيها
على قبح افعالهم في هذا الباب وقوله تعالى واما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك
ترجوها نزل في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب وكانوا يسالون النبي صلى الله
عليه وسلم في الاحايين ما يحتاجون اليه ولا يجد فيعرض عنهم حياء منهم ويمسك لانتظار
رزق من الله يرجوه ان ياتيه فيعطيه فقل لهم في حالة الاعراض قولا ميسورا
اي ذا يسر يشرح صدورهم ويبسط رجاءهم لان ذلك اقرب الى طريق المتقين المحسنين
قال ابو حيان وروي انه عليه الصلاة والسلام كان بعد نزول هذه الاية
اذا لم يكن عنده ما يعطي وسئل قال يرزقنا الله واياكم من فضله وقد وقع
هنا الابتغاء موضع الفقد لان فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء
والابتغاء مسببا فوضع المسبب موضع السبب ثم امر تعالى نبيه بما وصف له
عباده المؤمنين في الانفاق في سورة الفرقان بقوله تعالى والذين اذا انفقوا
لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما فقال تعالى ولا تجعل يدك اي بالبخل
مغلولة اي كانها بالمنع مشدودة بالغل الى عنقك اي لا تستطيع مدها اي لا تمسك
عن الانفاق بحيث تضيق على نفسك واهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات والمعنى

لا تجعل

لا تجعل يدك في انقباضها كالمغلولة الممنوعة من الانبساط ولا تبسطها بالبذل كل
البسط فتنذر بحيث لا يبقى في يدك شيء ذكر الحكماء في كتب الاخلاق ان لكل خلق طرفي
افراط وتفريط وهما مذمومان والخلق الفاضل هو العدل والوسط فالبخل
افراط في الامساك والتبذير افراط في الانفاق وهما مذمومان والمعتدل هو الوسط
وعن جابر اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبي فقال يا رسول الله ان امي تستكسيك
درعا اي قميصا ولم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا قميصه فقال للصبي من ساعة
الى ساعة هذا متعلق بمحذوف اي اخر سؤالك من ساعة ليس لنا فيها درع الى ساعة
يظهر لنا فيها درع فعد الينا فذهب الى امه فقالت قل له ان امي تستكسيك الدرع
الذي عليك فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزع قميصه فاعطاه وقعد عريانا
اي في ازار او نحوه فاذن بلال بالصلاة فانتظره فلم يخرج فشغل قلوب اصحابه
فدخل عليه بعضهم فراه عريانا فانزل الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك
ولا تبسطها كل البسط فتعطي جميع ما عندك تنبيه ما ذكرته عن جابر تبعا للكشاف
والبيضاوي والرازي وغيرهم قال الولي العراقي لم اقف عليه وكذا قال الحافظ ابن حجر
وقد يقال من حفظ حجة على من لم يحفظ فتقعد اي توجد كالمقعد ملوما اي بليغ
الرسوخ فيما يلام بسببه عند الله لان ذلك مما نهى عنه عند نفسك وعند الناس
لانه يلوم نفسه واصحابه وايضا يلومونه على تضييع المال بالكلية محسورا اي
منقطعا بك لذهاب ما تقوى به قال القفال شبه حال من انفق كل ماله
بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته لان ذلك المقدار من المال كانه مطية
تحمل الانسان الى اخر الشهر والسنة كما ان ذلك البعير يحمله ويبلغه الى اخر المنزل فاذا
انقطع ذلك البعير بقي في وسط الطريق عاجزا متحيرا فكذلك الانسان اذا انفق مقدار
ما يحتاج اليه في مدة شهر بقي في وسط ذلك الشهر عاجزا متحيرا ومن فعل ذلك لحقه
اللوم من اهله والمحتاجين الى انفاقه عليهم بسبب سوء تدبيره وترك الحزم
في مهمات معاشه ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ان ربك اي المحسن اليك يبسط
الرزق اي يوسعه لمن يشاء البسط له دون غيره ويقدر اي يضيقه سواء اقبض يده ام بسطها
لان الرب هو الذي يربي المربوب ويقوم باصلاح مهماته ورفع درجاته على
مقدار الصلاح في الصواب فيوسع الرزق على البعض ويضيقه على البعض
لان ذلك هو الصلاح قال تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن
ينزل بقدر ما يشاء انه كان بعباده خبيرا اي بالغ البصر بصيرا اي بالغ البصر بما يكون
من كل من القبض والبسط لهم مصلحة او مفسدة فالتفاوت في انه رازق العباد
ليس لاجل بخل بل لاجل رعاية مصلحة او مفسدة لا يعلم بها العبد فسبحان
المتصرف في عباده كيف يشاء ولما اتم سبحانه وتعالى الوصية بالاصول وما تبع
ذلك به اوصاهم بالفروع بقوله تعالى ولا تقتلوا اولادكم فذكرهم بلفظ الواحد
الذي هو داعية الى الحنو والعطف خشية املاق اي فقر موقع لم يقع بعد ثم
وصل بذلك استئنافا قوله تعالى نحن نرزقهم واياكم مقدما ضمير الاولاد لكون
الاملاق مترقبا من الانفاق عليهم ثم علل تعالى ذلك بما هو اعم منه فقال تعالى

سوا

إن قتلهم اي مطلقا لهذا او لغيره كان خطأ اي اثما كبيرا اي عظيما وقرا ابن كثير بفتح الطا
ومد بعدها مدا متصلا وقرا ابن ذكوان بفتح الخا والطا ولا مد بعد الطا والباقون
بكسر الخا وسكون الطا قال الرماني الخطا بكسر ثم سكون لا يكون الا تعمدا الى خلاف
الصواب والخطا اي محركا قد يكون من غير تعمد وانما وجب بر الاولاد لامور
احدها لانهم في غاية الضعف ولا كافل لهم غير الوالدين وانما وجب بر الابوين
مكافاة لما صدر منهما من انواع البر الى الولد الثاني ان امتناع الابا من البر
بالاولاد يقتضي خراب العالم الثالث ان قرابة الولادة قرابة الحزبية
والبعضية وهي من اعظم الموجبات للمحبة فلو لم تحصل المحبة دل ذلك على كونه
غلظ شديد في الروح وقسوة في القلب وذلك من اعظم الاخلاق الذميمة فرغب
الله تعالى في الاحسان الى الاولاد ازالة لهذه الخصلة الذميمة وعبر تعالى بالاولاد
ليشمل الاناث فان العرب كانوا يقتلون البنات لعجز البنات عن الكسب وقدرة
البنين عليه بسبب اقدامهم على النهب والغارة وايضا كانوا يخافون انهن بعد
كبرهن تتعزا كفاوهن فيحتاجون الى انكاحهن من غير الاكفا وفي ذلك عار
شديد فنهاهم الله تعالى عن ذلك فان الموجب للرحمة والشفقة هو كونه
ولدا وهذا المعنى وصف مشترك بين الذكور والاناث وانما ما يخاف من الفقر
في البنات فقد يخاف مثله في الذكور في حال الصغر وقد يخاف ايضا في الفاجرين
من البنين وكما انه سبحانه وتعالى يفتح ابواب الرزق على الذكور فكذلك على الاناث
ولما كان في قتل الاولاد حظ من البخل وفي فعل الزنا داع من الاسراف اتبعه به
فقال تعالى ولا تقربوا الزنا ادنى قرب ولو بفعل شي من مقدماته وانما اتى تعالى
بالقربان تعظيما له لما فيه من المفاسد الجارة الى الفساد القتل بالقتل وتضييع النسب
والتسبب في ايجاد نفس بالباطل وغير ذلك ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله تعالى
موكدا ابلاغا في التنفير عنه لما للنفس من شدة الداعية اليه انه كان فاحشة اي
فعلة ظاهرة القبح زايدته وقد نهاكم الله تعالى عن الفحشا في قوله تعالى ان الله يامر
بالعدل والاحسان وايتا ذي القربى وينهى عن الفحشا وساء اي وبيس الزنا سبيلا
اي طريقا طريقه ثم نهى سبحانه وتعالى عن القتل مطلقا عن التقييد بالاولاد بغير
حق بقوله تعالى ولا تقتلوا النفس التي حرم الله بالاسلام والعهد الا بالحق
وهو المبيح للقتل من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لا يحل دم امرئ مسلم الا
باحدى ثلاث رجل كفر بالله بعد ايمانه او زنا بعد احصانه او قتل نفسا بغير
حق ومثل انتقال المسلم من دين الاسلام الى دين الكفر انتقال كافر من دين الى دين
اخر سوا كان ذلك الدين يقر عليه ام لا ومن ذلك قوله تعالى انما جزا الذين يحاربون
الله ورسوله ان يقتلوا او يصلبوا وقوله تعالى قاتلوا الذين لا يومنون بالله ولا
باليوم الاخر واختلف الفقها في اشيا غير ذلك منها ان تارك الصلاة كسلا
هل يقتل فعند الشافعي يقتل بشروط معلومة وعند ابي حنيفة لا يقتل ومنها
ان عمل اللواط هل يوجب القتل فعند الشافعي يوجب قتل الفاعل كالزاني وعند
ابي حنيفة لا يوجبه ومنها الساحر اذا قال قتلت بسحري فلانا عمدا هل يوجب

القتل

القتل فعند الشافعي يوجبه وعند ابي حنيفة لا يوجب ومنها ان القتل بالمثقل هل
يوجب القصاص فعند الشافعي يوجب وعند ابي حنيفة لا يوجب ومنها الامتناع
من اداء الزكاة هل يوجب القتل اختلفوا فيه في زمان ابي بكر ومنها ان اتيان البهيمة
هل يوجب القتل فعند اكثر الفقهاء لا يوجب وعند قوم يوجبه ولكل ممن ذكر ادلة
يستدل بها رضي الله تعالى عنهم اجمعين ثم قال تعالى ومن قتل مظلوما اي باي ظلم كان
من غير ان يرتكب ما يبيح قتله فقد جعلنا لوليه اي سواء كان قريبا ام سلطانا سلطانا
اي امرا مسلطا وقوله تعالى فلا يسرف في القتل قراه حمزة والكسائي بالتاء على الخطاب
اي ايها الولي والباقون بالياء على الغيبة اي الولي وفسر الاسراف بوجوه بوجوه الاول
ان يقتل القاتل وغير القاتل وذلك ان اولياء المقتول كانوا اذا قتل واحد
من قبيلة شريفة قتلوا خلقا من القبيلة الدنية فنهى الله تعالى وحكم بقتل القاتل
وحده الثاني ان الاسراف هو ان لا يرضى بقتل القاتل فان الجاهلية كانوا يقصدون
اشرف القبائل ثم يقتلون منهم قوما معينين ويتركون القاتل الثالث الاسراف
هو ان لا يكتفي بقتل القاتل بل يقتله ثم يمثل به ويقطع اعضاءه قال القفال
ولا يبعد حمله على الكل لان حمله على هذه المعاني مشتركة في كونها اسرافا واختلف في رجوع
الهاء الى ماذا في قوله تعالى انه كان منصورا فقال مجاهد راجعة الى المقتول في قوله
تعالى ومن قتل مظلوما اي ان المقتول منصور في الدنيا بايجاب القود على قاتله وفي الاخرة
بتكفير خطاياه وايجاب النار لقاتله وقال قتادة راجعة لولي المقتول اي انه
منصور على القاتل باستيفاء القصاص او الدية فليكتف بهذا القدر ولا يطمع في الزيادة
وقيل راجعة الى القاتل الظالم اي ان القاتل يكتفي منه باستيفاء القصاص ولا
يطلب منه زيادة لانه منصور من عند الله تعالى في تحريم طلب الزيادة منه
او انه اذا عوقب في الدنيا بازيد مما فعل يضر في الاخرة وقيل راجعة الى الدم وقيل
الى الحق ولما ذكر الله تعالى النهي عن اتلاف النفوس اتبعه بالنهي عن اتلاف الاموال
لان اعز الاشياء بعد النفوس الاموال واحق الناس بالنهي عن اتلاف اموالهم هو
اليتيم لانه لصغره وضعفه وكمال عجزه يعظم ضرره باتلاف ماله فلهذا السبب
خصهم الله تعالى بالنهي عن اتلاف اموالهم بقوله تعالى ولا تقربوا مال اليتيم
عبر بالقربان الذي هو قبل الاخذ تعظيما للمقام فهو ابلغ من قوله تعالى ولا تاكلوها
اسرافا وبدارا وفي تفسير قوله تعالى الا بالتي هي احسن وجهان الاول بالتصرف
الذي ينميه ويكثره الثاني روى مجاهد عن ابن عباس انه قال اذا احتاج اكل بالمعروف
واذا ايسر قضاه فان لم يوسر فلا شيء عليه والولي يبقى ولايته على اليتيم حتى يبلغ
اشده وهو ايناس الرشد منه بعد بلوغه كما بين تعالى ذلك في اية اخرى وهي قوله تعالى
وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان انستم منه رشدا فادفعوا اليهم اموالهم
ولما نهى سبحانه وتعالى عن ثلاثة اشياء وهي الزنا والقتل واكل مال اليتيم اتبعها
بثلاثة اوامر الاول قوله تعالى واوفوا بالعهد اي اذا عاهدتم الله على فعل المامورات
وترك المنهيات او الناس على فعل او قول جائز وفي تفسير قوله تعالى ان العهد
كان مسئولا وجوه الاول ان المراد ان صاحب العهد كان مسئولا فحذف المضاف واقيم

المضاف اليه مقامه كقوله تعالى واسئل القرية ثانيها ان العهد كان مسؤولا اي مطلوبا
يطلب من المعاهد ان لا يضيعه ويفي ثالثها ان يكون هذا تخييلا كانه يقال للعهد لم نكث
وهلا وفى بكر تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة باي ذنب قتلت وكقوله تعالى عليه السلام
اانت قلت للناس اتخذوني الاية والمخاطبة لعيسى عليه السلام والانكار على غيره الامر الثاني
قوله تعالى واوفوا الكيل اذا كلتم اي لغيركم فان كلتم لانفسكم فلا جناح عليكم ان نقصتم عن
حقكم ولم يفوا الكيل الامر الثالث قوله تعالى وزنوا اي وزنا متلبسا بالقسطاس اي ميزان
العدل الذي هو اقوم الموازين وزاد في تاكيد معناه فقال المستقيم دون شيء من الحيف
تنبيه القسطاس رومي عرب ولا يقدح ذلك في عربية القران لان العجمي اذا استعملته
العرب واجرته مجرى كلامهم في الاعراب والتعريف والتنكير ونحوها صار عربيا وقرا حفص
وحمزة والكسائي بكسر القاف والباقون بضمها ذلك اي الامر العالي الرتبة الذي امرناكم به
من الايفاء بالتمام والكمال خير لكم في الدنيا والاخرة من التطفيف بالكيل او الوزن من حيث
ان الانسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعذاب الشديد في الاخرة وان
ترا اي لكم ان التطفيف واحسن تاويلا اي عاقبة في الدارين اما في الدنيا فلانه اذا اشتهر بالاحتراز
عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب اليه وحصل له الاستغناء في الزمان القليل
وكم راينا من الفقراء اشتهروا عند الناس بالامانة والاحتراز عن الخيانة اقبلت القلوب
عليهم وحصلت الاموال الكثيرة لهم واما في الاخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص
من العقاب الاليم والتاويل وهو تفعيل من الاول وهو الرجوع وافعل التفضيل
هنا لاستعمال النصفة بارخاء العنان اي على تقدير ان يكون في كل منهما خير فهذا الذي
ذكرناه ازيد خير فقط والعاقل لا يرضى لنفسه بالدون ولما شرح الله تعالى الاوامر الثلاثة عادا
النواهي فنهى عن ثلاثة اشياء اولها قوله تعالى ولا تقف اي لا تتبع ايها الانسان
ما ليس لك به علم من قول او فعل وحاصله يرجع الى النهي عن الحكم بما لا يكون معلوما وهو
قضية كلية يندرج تحتها انواع كثيرة واختلف المفسرون فيها فقال ابن عباس
لا تشهد الا بما راته عيناك وسمعته اذناك ووعاه قلبك وقال قتادة لا تقل
سمعت ولم تسمع ورايت ولم تر وعلمت ولم تعلم وقيل المراد النهي عن القذف
وقيل المراد النهي عن الكذب وقيل المراد نهي المشركين عن اعتقاداتهم وتقليد
اسلافهم لان الله تعالى نسبهم في تلك العقائد الى اتباع الهوى فقال تعالى ان هي
الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما انزل الله بها من سلطان ان يتبعون الا الظن
وما تهوى الانفس وقيل القفو هو البهت واصله من القفا كانه تعالى خلفه
وهو في معنى الغيبة قال صلى الله عليه وسلم من قفا مؤمنا بما ليس فيه
حبسه الله في ردغة الخبال رواه الطبراني وغيره وردغة بسكون الدال
وفتحها عصارة اهل النار وقال الكميت ولا ارمي البري بغير ذنب ولا اقفوا
الحواصن ان قفينا بيننا قفينا والحواصن النساء العفائف واللفظ عام يتناول
الكل فلا معنى للتقييد تنبيه يقال قفوت اثر فلان اقفوا قفوا اذا اتبعت
اثره وسميت قافية الشعر قافية لان البيت يقفو البيت وسميت القبيلة
المشهورة بالقافية لانهم يقتفون اثار اقدام الناس ويستدلون بها على احوال

الانسان

الانسان وقال تعالى ثم قفينا على آثارهم برسلنا وسمي القفا قفا لانه مؤخر بدن الانسان
كانه شيء يتبعه ويقفوه فان قيل ان هذه الآية تدل على منع القياس فانه لا يفيد الا الظن
والظن مغاير للعلم اجيب بان ذلك عام دخله التخصيص فان الحكم في الدين بمجرد الظن
جائز باجماع الامة وبان المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند سواء
كان قطعيا ام ظنيا واستعماله بهذا المعنى شايع ذايع وقد استعمل في مسايل كثيرة
منها ان العمل بالفتوى عمل بالظن ومنها ان العمل بالشهادة عمل بالظن ومنها
الاجتهاد في طلب القبلة ولا يفيد الا الظن ومنها قيم المتلفات واروش الجنايات
لا سبيل بها الا بالظن ومنها الفصد والحجامة وساير المعالجات تبنى على الظن
ومنها بعث الحكمين في الشقاق قال تعالى وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما
من اهله وحكما من اهلها وحصول ذلك الشقاق مظنون لا معلوم ومنها الحكم
على الشخص المعين بكونه مؤمنا مظنون وينبني على هذا الظن احكام كثيرة مثل حصول
التوارث ومثل الدفن في مقابر المسلمين ومنها الاعتماد على صداقة الاصدقا
وعداوة الاعدا كلها مظنونة وبنا الامر على تلك الظنون وقال صلى الله عليه
وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر وذلك تصريح بان الظن معتبر فبطل
قول من يقول انه لا يجوز بنا الامر على الظن ثم علل تعالى النهي مخوفا بقوله تعالى
ان السمع والبصر وهما طريقا الادراك والفؤاد الذي هو آلة الادراك ثم هول تعالى الامر
بقوله تعالى كل اولئك هذه الاشيا العظيمة العالية المنافع البديعة التكوين
تنبيه اولا وجميع اسما الاشارة يشار بها للعاقل وغيره كقول الشاعر

ذم المنازل بعد منزلة اللوى • والعيش بعد اولئك الايام •

يجوز في ذم فتح الميم وكسرها وضمها وقوله بعد منزلة اللوى اي بعد مفارقتها
والاضافة في منزلة اللوى للبيان وهو ممدود ولكن قصره هنا للضرورة والعيش عطف
على المنازل والايام صفة لاسم الاشارة وعطف بيان له كان عنه اي بوعد لا خلف فيه
مسؤولا بسؤال يخصه تنبيه ظاهر الآية يدل على ان الجوارح مسؤولة وفيه وجوه الاول
معناه ان صاحب السمع والبصر والفؤاد هو المسؤول لان السؤال لا يصح الا ممن كان
عاقلا وهذه الجوارح ليست كذلك بل العاقل الفاهم هو الانسان فهو كقوله
تعالى واسئل القرية اي اهلها والمعنى انه يقال للانسان لم سمعت ما لم يحل سماعه
ولم نظرت ما لا يحل نظره ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه الثاني ان تقدير
الآية ان اولئك الاقوام كلهم مسؤولون عن السمع والبصر والفؤاد فيقال لهم
استعملتم السمع فيماذا افي الطاعة ام في المعصية وكذا القول في بقية الاعضا
وذلك لان الحواس آلات النفس والنفس كالامير لها والمستعمل لها في مصالحها فان
استعملها في الخيرات استوجب الثواب وان استعملها في المعاصي استحق العقاب
الثالث انه تعالى يخلق الحياة في الاعضا ثم انها تسال لقوله تعالى يوم تشهد عليهم
السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون فكذلك لا يبعد ان يخلق العقل والحياة
والنطق في هذه الاعضا ثم انها تسال روي عن شكل بن حميد قال اتيت النبي صلى
الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا اتعوذ به فاخذ بيدي ثم قال قل اعوذ بك

من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وشر قلبي وشر منيي قال فحفظتها قال سعد المني ماؤه النهي الثاني
قوله تعالى ولا تمش في الارض اي جنسها مرحا اي ذا مرح وهو شدة الفرح والمراد من الاية
النهي عن ان يمشي الانسان مشيا يدل على الكبرياء والعظمة قال الزجاج ولا تمش في الارض
مختالا فخورا ونظيره قوله تعالى في سورة الفرقان وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا
وقال تعالى في سورة لقمان واقصد في مشيك واغضض من صوتك وقال تعالى فيها
ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور ثم علل تعالى النهي عن ذلك بقوله
تعالى انك لن تخرق الارض اي تنقبها حتى يبلغ اخرها بكبرك ولن تبلغ الجبال طولا اي بتطاولك
وهو تهكم بالمختال لان الاختيال حماقة مجردة لا يفيد شيئا ليس في التذلل وفي ذلك اشارة
الى ان العبد ضعيف لا يقدر على خرق ارض ولا وصول الى جبال فهو محاط به من فوقه وتحته
بنوعين من الجمادات وهو اضعف منهما بكثير والضعيف المحصور لا يليق به التكبر فكانه
قيل له تواضع ولا تتكبر فانك خلق ضعيف من خلق الله محصور بين حجارة وتراب
فلا تفعل فعل المقتدر القوي وقيل ذكر ذلك لان من مشى خيلا يمشي مرة على عقبيه
ومرة على صدور قدميه فقيل له انك لن تنقب الارض ان مشيت على عقبيك ولن تبلغ
الجبال طولا ان مشيت على صدور قدميك قال علي رضي الله تعالى عنه كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم اذا مشى تكفا تكفيا كانما ينحط من صبب وروى ابو هريرة قال ما رايت
احسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الشمس تجري من وجهه وما رايت احدا اسرع
في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كانما الارض تطوى له انا لنجد انفسنا وانه
غير مكترث وقوله تعالى كل ذلك اشارة الى ما نهي عنه مما تقدم فان الذي تقدم منهيات
ومامورات وجملة ذلك من قوله تعالى ولا تجعل مع الله الها اخر الى هنا فاولها
ولا تجعل مع الله الها اخر وثانيها وثالثها وقضى ربك وها انا اسردها لك تسهيلا عليك
ان لا تعبدوا الا اياه لاشتماله على تكليفين الامر بعبادة الله والنهي عن عبادة
غيره رابعها وبالوالدين احسانا خامسها فلا تقل لهما اف سادسها ولا تنهرهما سابعها
وقل لهما قولا كريما ثامنها واخفض لهما جناح الذل من الرحمة تاسعها وقل رب
ارحمهما كما ربياني صغيرا عاشرها وات ذا القربى حقه حادي عشرها والمسكين ثاني
عشرها وابن السبيل ثالث عشرها ولا تبذر تبذيرا رابع عشرها فقل لهم قولا
ميسورا خامس عشرها ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك سادس عشرها ولا تبسطها
كل البسط سابع عشرها ولا تقتلوا اولادكم ثامن عشرها ولا تقتلوا النفس تاسع
عشرها ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا عشرونها فلا يسرف في القتل
حادي عشريها واوفوا بالعهد ثاني عشريها واوفوا الكيل ثالث عشريها وزنوا
بالقسطاس المستقيم رابع عشريها ولا تقف ما ليس لك به علم خامس عشريها ولا تمش
في الارض مرحا فكل هذه تكليفات بعضها اوامر وبعضها نواهي فالمنهي عنه هو الذي
قال تعالى فيه كان سيئه عند ربك مكروها اي يبغضه والعاقل لا يفعل ما يكرهه
المحسن اليه وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بفتح الهمزة وبالتاء منونة منصوبة وقرا الباقون
بضم الهمزة والهاء مضمومة من غير تنوين والمعنى على هذا ظاهر اي ان سيئ تلك الاقسام يكون
مكروها واما على القراءة الاولى فسيئة خبر كان وانث حملا على معنى كل ثم قال مكروها

حملا

حملا على لفظها وقال الزمخشري ان السيئة في حكم الاسم بمنزلة الذنب والاسم زال عنه حكم الصفة
خلا اعتبار بتانيثه ولا فرق بين سيئة وسيبا الا ترى انك تقول الزنا سيبة كما تقول السرقة
سيئة فلا يفرق بين اسناده الى مذكر وموئث وفي نضد مكروهها او حداحدها انه خبر فان
لكان الثاني انه بدل من سيئة وضعف بان البدل يا المشتق قليل الثالث انه حال
من الضمير المستتر في عند ربك لوقوعه صفة لسيئة الرابع انه نعت لسيئة واعاد ذكر
لان تانيث موصوفه مجازي وردبان ذلك انما يجوز حيث اسند الى المونث المجازي اما
اذا اسند الى ضميره فلا نحو الشمس طالعة فلا يجوز طالع وقوله تعالى ذلك اشارة الى الاحكام
المتقدمة من الاوامر والنواهي مما اوحى اليك يا اشرف الخلق ربك اي المحسن اليك من الحكمة
التي هي معرفة الحق لذاته والخير للعمل به وانما سميت هذه الامور حكمة لوجوه الاول لحاصلها
يرجع الى الامر بالتوحيد وانواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الاخرة
فما لا في مثل هذه الشريعة لا يكون داعيا الى دين الشيطان بل الفطرة الاصلية تشهد بانه
يكون داعيا الى دين الرحمن الثاني ان هذه الاحكام المذكورة في هذه الايات شرايع واجبة
الرعاية في جميع الاديان والملل ولا تقبل النسخ والابطال فكانت محكمة وحكمة من هذا
الاعتبار الثالث ان الحكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير للعمل به كما مر في الاشارة اليه
والامر بالتوحيد عبارة عن القصد الاول وسائر التكاليف عبارة عن تكميل الخيرات حتى
يواظب عليها ولا ينحرف عنها فثبت ان الاشياء المذكورة في هذه الايات على الحكمة وعن ابن
عباس رضي الله تعالى عنه ان هذه الايات كانت في الواح موسى عليه السلام وجعل
سبحانه وتعالى ما تحتها قوله تعالى لا تجعل مع الله الها اخر وخاتمها قوله تعالى
ولا تجعل مع الله الها اخر تنبيها على ان التوحيد مبدا الامور ومنتهاها وان من قصد
بفعله او ترك غيره ضاع سعيه وانه راس الحكمة وملاكها ورتب عليه ما هو عاقبة
الشرك في قوله تعالى اولا تجعل مع الله اي في الدنيا وثانيته ما هو نتيجة في العقبى
فتقال ملقى اي فيفعل بك في الاخرة في الجحيم جهنم من الاشراع فيه وعدم القدرة
على التدارك فعل من الغي من عال حال كونك ملوما اي تلوم نفسك مدحورا اي مبعدا من رحمة
الله تنبيه ذكره سبحانه وتعالى في الاية الاولى بقوله تعالى مذموما مخذولا وفي هذه
ملوما مدحورا والفرق بين المذموم والملوم هو ان مذكر ان الفعل الذي اقدم عليه قبيح
ومنكر فمعذا معنى كونه مذموما ثم يقال له فعلت هذا الفعل القبيح وما الذي
حملك عليه فهذا هو الملوم فاول الامر بصير مذموما واخر بصير ملوما والفرق
بين المخذول والمدحور هو ان المخذول عبارة عن الضعف يقال خاذلت اعضاؤه
اي ضعفت والمدحور هو المطرود والطرد عبارة عن الاستخفاف والاهانة فكونه
مخذولا عبارة عن ترك اعانته وتفويضه الى نفسه وكونه مدحورا عبارة عن اهانته
فبصير اول الامر مخذولا واخره مدحورا وقوله تعالى افاصفاكم ربكم بالبنين خطاب
للذين قالوا الملايكة بنات الله والهمزة للانكار اي افخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفا
باشرف الاولاد وهم البنون ولم يجعل فيهم نصيبا لنفسه واتخذ من الملايكة اناثا
اي هنا قالنفسه وهذا خلاف ما عليه معتقدكم وعادتكم فان العبيد لا يسمون بالبنات وهن باجود
الاشياء واصفاها من الشوب ويكون لهن ولادها ولهذا قالت الشاة ان كنت لتقولون قولا عظيما

باضافة الاولاد اليه لان اثبات الولد يقتضي كونه تعالى مركبا من الاجزاء والابعاض وذلك
يقدح في كونه قديما واجب الوجود لذاته وايضا فبتقدير ثبوت الولد فقد جعلوا
اشرف القسمين لانفسهم واخس القسمين لله تعالى وهذا جهل عظيم وايضا جعلوا الملائكة
الذين هم من اشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على حمل الارض وقلب اسفلها
على اعلاها اناثا في غاية الرخاوة ولما كان في هذا من البيان ما لا يخفى على انسان
ولم يرجعوا اشار الى ان لهم مثل هذا الاعراض عن امثال هذا البيان فقال تعالى
ولقد صرفنا اي بينا بيانا عظيما بانواع طرق البيان من العبر والحكم والامثال
والاحكام والحجج والاعلام في قوالب الوعد والوعيد والامر والنهي والمحكم والمتشابه الى
غير ذلك في هذا القرآن اي في مواضع منه من الامثال كما قال تعالى ولقد ضربنا للناس
في هذا القرآن من كل مثل قيل لفظة في زائدة كما في قوله تعالى واصلح لي في ذريتي
ورد بان في لا تزاد وما ذكر متاول كما ياتي ان شاء الله تعالى في الاحقاف والتصريف
لغة صرف الشيء من جهة الى اخرى ثم صار كناية عن التبيين قاله ابو حيان وقوله
تعالى ليذكروا متعلق بصرفنا وقرا حمزة والكسائي بسكون الذال ورفع الكاف
من غير تنوين من الذكر الذي هو بمعنى التذكر والباقون بفتح الذال والكاف
مع تشديدهما وما يزيدهم اي التصريف الا نفورا اي تباعدا عن الحق وقلة طمانينة
اليه وعن سفيان كان اذا قراها قال زادني لك خضوعا ما زاد اعداك نفورا ثم قال
تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل اي لهؤلاء المشركين ولا تياس من رجوع بعضهم لو كان معه
آلهة كما تقولون من هذه الاقوال التي لو قالها اعظمكم في حق ادناكم وهو يريد به
حقيقتها لصار ضحكة للعباد اذا لابتغوا اي طلبوا طلبا عظيما الى ذي العرش
اي صاحب السرير الاعظم المحيط الذي من ناله كان منفردا بالتدبير سبيلا اي طريقا
سالكا يتوصلون به اليه ليقهروه ويزيلوا ملكه كما ترون فعل ملوك الدنيا بعضهم
مع بعض او ليتخذوا عنده يدا تقربهم اليه وقرا ابن كثير وابن عامر بالياء على الغيبة
والباقون بالتاء على الخطاب وادغم ابو عمرو الشين من العرش في السين بخلاف عنه
ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه فقال عز من قائل سبحانه تنزه التنزه الاعظم عن كل شائبة
نقص وتعالى اي علا اعلى العلو بصفات الكمال عما يقولون اي من هذه النقائص التي لا
يرضاها لنفسه احد من عقلاء خلقه علوا اي تعاليا كبيرا اي متباعدا غاية البعد
عما يقولون فانه تعالى في اعلا مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته
تنبيه جعل العلو مصدر التعالي ومصدره تعاليا كما قدرته فهو المراد ونظيره قوله
تعالى والله انبتكم من الارض نباتا فان قيل ما الفائدة في وصف ذلك العلو بالكبير اجيب
بان المنافاة بين ذاته وصفاته سبحانه وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والاضداد
والانداد منافاة بلغت في القوة والكمال الى حيث لا تعقل الزيادة عليها لان المنافاة
بين الواجب لذاته والممكن لذاته وبين القديم والمحدث وبين الغني والمحتاج منافاة لا
تعقل الزيادة عليها فلهذا السبب وصف الله تعالى ذلك العلو بالكبير وقرا حمزة والكسائي
بالتاء على الخطاب والباقون بالياء على الغيبة ثم استانف تعالى بيان عظمة هذا
التنزيه مقرونا بالوصف بالكمال فقال تسبح اي توقع التنزيه الاعظم له اي الاله

الاعظم

الاعظم الذي تقدم وصفه بالجلال والاكرام خاصة السموات السبع والارض اي السبع
ومن فيهن من ذوي العقول وان اي وما واغرق في النفي فقال من شيء اي ذي عقل او غيره
الا يسبح بحمده اي يقول سبحان الله وبحمده وقال ابن عباس وان من شيء حي الا يسبح وقال
قتادة يعني الحيوانات والناميات وقال عكرمة الشجرة تسبح والاسطوانة
تسبح وعن المقداد بن عدي التراب يسبح ما لم يبتل فاذا ابتل ترك التسبيح والورقة
تسبح ما دامت على الشجرة فاذا سقطت تركت التسبيح والماء يسبح ما دام جاريا
فاذا ركد ترك التسبيح والثوب يسبح ما دام جديدا فاذا وسخ ترك التسبيح وقال
السيوطي في جواب سؤال عن ذلك قد خصصت اية الاسراء بمتصف وصف الحياة
كرطب الزرع والشجر فيابس مات لا تسبيح منه كذا ما زال عن موضع كالقطع للحجر
وقال ابراهيم النخعي وان من شيء جماد وحي الا يسبح بحمده حتى صرير الباب ونقيض السقف
وقال مجاهد كل الاشياء تسبح لله حيا كان او جمادا وتسبيحها سبحان الله وبحمده
يدل على ذلك ما روي عن ابن مسعود كنا نعد الايات بركة وانتم تعدونها تخويفا كنا
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال صلى الله عليه وسلم اطلبوا فضلة
من ماء فجاؤا باناء فيه ماء قليل فادخل يده صلى الله عليه وسلم في الاناء ثم قال حي على الطهور
المبارك والبركة من الله فلقد رايت الماء ينبع من بين اصابعه صلى الله عليه وسلم ولقد
كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وعن جابر بن سمرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال ان بمكة حجرا كان يسلم علي ليالي بعثت اني لاعرفه الان وعن ابن عمر انه صلى الله عليه
وسلم كان يخطب الى جذع فلما اتخذ له المنبر تحول اليه فحن الجذع فاتاه فمسح يده عليه وفي
رواية فنزل فاحتضنه وسارة بشيء ففي هذه الاحاديث دليل على ان الجماد يتكلم وانه
يسبح وقال بعض اهل المعاني تسبيح السموات والارض والجمادات والحيوانات سوى
العقلاء بلسان الحال حيث تدل على الصانع وقدرته ولطيف حكمته فكانها تنطق
بذلك ويصير لها بمنزلة التسبيح قال البغوي والاول هو المنقول عن السلف وقال
ابن الخازن والقول الاول اصح لما دلت عليه الاحاديث وانه منقول عن السلف قال
البغوي واعلم ان لله تعالى علما في الجمادات لا يقف عليه غيره فينبغي ان يوكل علمه
اليه ولكن لا تفقهون اي تفهمون تسبيحهم اي لانه ليس بلغتكم انه كان حليما غفورا
ولما ذكر سبحانه وتعالى اثبات الالهية اتبعه بذكر تقرير النبوة بقوله تعالى واذا
قرات القران الذي لا يدانيه واعظ ولا يساويه مفهم وهو تبيان لكل شيء جعلنا
اي بما لنا من العظمة بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا اي تحجب
قلوبهم عن فهم ما تقراه عليهم والانتفاع به قال قتادة هو الاكنة والمستور بمعنى
الساتر كقوله تعالى كان وعده ماتيا مفعول بمعنى فاعل وقيل مستورا عن اعين الناس
فلا يرونه وفسره بعضهم بالحجاب عن الاعين الظاهرة كما روي عن سعيد بن جبير
انه لما نزلت تبت يدا ابي لهب جاءت امراة ابي لهب ومعها حجر والنبي مع ابي بكر فلم
تره فقالت لابي بكر اين صاحبك لقد بلغني انه هجاني فقال والله ما ينطق بالشعر
ولا يقوله فرجعت وهي تقول قد كنت جئت بهذا الحجر لارض به راسه فقال ابو بكر
ما راتك يا رسول الله قال لا لم يزل ملك بيني وبينها يسترني وجعلنا اي بما لنا

بيان النخعي

BULAC

من العظمة على قلوبهم أكنة أي أغطية كراهة أن يفقهوه أي يفهموا القرآن حق فهمه
وفي آذانهم وقرا أي شيئا ثقيلا يمنع سماعهم وعن أسماء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
جالسا ومعه أبو بكر إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد الرسول صلى الله عليه وسلم
وهي تقول مذمما أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا فقال أبو بكر يا رسول الله معها
فهر أخشاها عليك فتلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فجاءت وما رأت
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت إني رأيت قريشا قد علمت أني ابنة سيدها وإن
صاحبك هجاني فقال أبو بكر لا ورب هذا البيت ما هجاك وروى ابن عباس أن أبي
سفيان والنضر بن الحارث وأبي جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم
ويسمعون حديثه فقال النضر يوما ما أدري ما يقول محمد غير أني أرى شفتيه تتحركان
بشيء وقال أبو سفيان إني لأرى بعض ما يقوله حقا وقال أبو جهل هو مجنون وقال
أبو لهب هو كاهن وقال حويطب بن عبد العزى هو شاعر فنزلت هذه الآية
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد تلاوة القرآن قرأ قبلها ثلاث آيات
وهي في سورة الكهف وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي النحل أولئك الذين
طبع الله على قلوبهم وفي حم الجاثية أفرأيت من اتخذ إلهه هواه إلى آخر الآية فكان
الله تعالى يحجبه ببركة هذه الآيات عن عيون المشركين وإذا ذكرت ربك أي المحسن إليك
وإليهم في القرآن وحده أي مع الإعراض عن آلهتهم كأن قلت وأنت تتلو القرآن لا إله
إلا الله تنبيه في نصب وحده وجهان أحدهما أنه منصوب على الحال وإن كان معرفة
لفظا لأنه في قوة النكرة إذ هو في معنى منفردا والثاني أنه منصوب على الظرف
ولوا على أدبارهم نفورا أي هربا من استماع التوحيد تنبيه في نفورا وجهان أحدهما
مصدر من غير اللفظ مؤكدا لأن التولي والنفور بمعنى والثاني أنه حال من فاعل ولوا أو هو حينئذ
جمع نافر كقاعد وقعود وشاهد وشهود والضمير في ولوا يعود على الكفار وقيل
يعود إلى الشياطين وإن لم يجر لهم ذكر قال المفسرون إن القوم كانوا عند استماع القرآن
على أقسام منهم من كان يلهو عند استماعه روي أنه عليه الصلاة والسلام كلما قرأ
القرآن قام عن يمينه ويساره إخوان من ولد قصي يصفقون ويصفرون ويخلطون
عليه بالأشعار ومنهم من كان إذا سمع من القرآن ما ليس فيه ذكر الله تعالى بقوا
مبهوتين لا يفهمون منه شيئا ومنهم من إذا سمع آيات فيها ذكر الله تعالى وذم المشركين
ولوا نفورا وتركوا ذلك المجلس ولما كانوا ربما ادعوا السمع والفهم فيشككوا بعض من لم
يرسخ إيمانه أتبعه تعالى بقوله تعالى نحن أعلم أي من كل عالم بما يستمعون أي
يبالغون في الإصغاء والميل لقصد السمع به من الآذان والقلوب أو بسببه
ولأجله من الهزء بك وبالقرآن إذ يستمعون أي يصغون بجهدهم إليك أي إلى قراءتك
وإذ أي وحين هم ذو نجوى أي يتناجون بأن يرفع كل منهما سره إلى صاحبه بعد
إعراضهم عن الاستماع ثم ذكر تعالى ظرف النجوى بقوله تعالى إذ وهو بدل من إذ قبله
يقول الظالمون وبقولهم إن أي ما تتبعون إلا رجلا مسحورا أي مخدوعا مغلوبا على
عقله روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عليا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف
قريش من المشركين ففعل ذلك ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن

ودعاهم

ودعاهم الى التوحيد وقال قولوا لا اله الا الله حتى تطيعكم العرب وتدين بكم العجم فابوا
عليه ذلك وكانوا عند استماعهم من النبي صلى الله عليه وسلم القران والدعوى الى الله
تعالى يقولون ان تتبعون الا رجلا مسحورا فان قيل انهم لم يتبعوا رسول الله صلى
الله عليه وسلم فكيف يصح ان يقولوا ان تتبعون الا رجلا مسحورا اجيب بان معناه
ان اتبعتموه فقد اتبعتم رجلا مسحورا وقرا ابو عمرو وبن ذكوان وعاصم وحمزة
بكسر التنوين في الوصل والباقون بالضم ثم قال تعالى انظر كيف ضربوا اي هولا الضلال
لك الامثال التي هي ابعد شي عن صفتك من قولهم كاهن وساحر وشاعر ومعلم
ومجنون فضلوا عن الحق في جميع ذلك فلا اي فتسبب عن ذلك انهم لا يستطيعون
سبيلا اي وصولا الى طريق الحق ولما جرت عادة القران باثبات التوحيد والنبوة
والمعاد وقدم الدلالة على الاولين وختم باثبات جهلهم في النبوة مع ظهورها
اتبع ذلك امرا جليا في ضلالهم عن السبيل في امر المعاد وقرره غاية التقرير
وحرره اتم تحرير فقال تعالى معجبا منهم وقالوا اي المشركون المنكرون للتوحيد
والنبوة والبعث مع اعترافهم بانا ابتدانا خلقهم ومشاهدتهم في كل وقت انا
نحيي الارض بعد موتها وقولهم ائذا استفهام انكاري كانهم على ثقة من عدم
ما ينكرونه والعامل في اذا فعل من لفظ مبعوثون لا هو فان ما بعد ان
لا يعمل فيما قبلها فالمعنى انبعث اذا كنا اي بجملة اجسامنا كونا لازما عظاما
ورفاتا اي حطاما مكسرا مفتتا او غبارا تنبيه تقرير شبهة هولا الضلال هي
ان الانسان جفت اعضاوه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم واختلطت تلك
الاجزا بسائر اجزا العالم فالاجزا المائية مختلطة بمياه العالم والاجزا الترابية
مختلطة بالتراب والاجزا الهوائية تختلط بالهوا فكيف يعقل اجتماعها باعيانها
مرة اخرى وكيف يعقل عود الحياة اليها باعيانها مرة اخرى هذا تقرير شبهتهم
اجيب عنها بانها لا تتم الا بالقدح في كمال علم الله تعالى وفي كمال قدرته فانه تعالى
قادر على كل الممكنات فهو قادر على اعادة التاليف والتركيب والحياة والعقل
الى تلك الاجزا باعيانها فمن سلم كمال علم الله تعالى وكمال قدرته زالت عنه هذه الشبهة
بالكلية ولما كان كانه قيل فماذا يقال لهم في الجواب فقيل قل لهم يا اشرف الخلق
لا تكونوا رفاتا بل كونوا اصلب التراب حجارة اي هي في غاية اليبس او حديدا
اي زايدا على يبس الحجارة لشدة اتصال الاجزا تنبيه ليس المراد به امر الزام
بل المراد انكم لو كنتم كذلك لما اعجزتم الله تعالى عن الاعادة وذلك كقول القايل
اتطمع في وانا فلان فيقول كن من شيت كن ابن الخليفة فساطلب منك حقي او
خلقا غير ذلك مما يكبر اي يعظم عظمة كبيرة في صدوركم اي مما يكبر عندكم عن قبول الحياة
لكونه ابعد شي منها فان الله تعالى قادر على اعادة الحياة اليها وقال بن عباس ومجاهد
وعكرمة واكثر المفسرين انه الموت فانه ليس في نفس ابن ادم شي اكبر من الموت اي لو كنتم
الموت بعينه لاميتنكم ولابعثنكم وقيل السموات والارض والجبال لانها من اعظم
المخلوقات فسيقولون تماديا في الاستهزا من يعيدنا اذا كنا كذلك قل الذي فطركم
اي ابتدا خلقكم اول مرة ولم تكونوا شيا يعيدكم بالقدرة التي ابتداكم بها فكما لم تعجز

وقال الفرا هو التراب وهو قول مجاهد ويويده
انه قد يكرر في القران ترابا وعظاما ويقال
للتبن المرفت لانه دقاق الزرع ائنا لمبعوثون
حال كوننا مخلوقين خلقا جديدا صح

BULAC

تلك القدرة عن البداية فهي لا تعجز عن الاعادة فسينغضون اي يحركون اليك رؤسهم
تعجبا واستهزاء كما انهم في شدة تعجبهم على غاية البصيرة من العلم بما يقولون
والنغض والانغاض تحريك بارتفاع وانخفاض ويقولون استهزاء متى هو اي البعث
والقيمة قال الرازي واعلم ان هذا السؤال فاسد لانهم حكموا بامتناع الحشر والنشر
بناء على الشبهة التي تقدمت ثم ان الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكنا
في نفسه فقولهم متى هو كلام لا تعلق له بالمبحث فانه لما ثبت بالدليل العقلي
كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بامكانه فاما انه متى يوجد فذاك
لا يمكن اثباته من طريق العقل بل انما يمكن اثباته بالدليل السمعي فالخبر انه تعالى
عن ذلك الوقت المعين عرف والا فلا سبيل الى معرفته لانه تعالى بين في القرآن
انه لا يطلع احدا من الخلق على وقته المعين فقال تعالى ان الله عنده علم الساعة
وقال تعالى انما علمها عند ربي وقال تعالى ان الساعة آتية اكاد اخفيها فلا جرم
قال تعالى قل عسى ان يكون قريبا قال المفسرون عسى من الله واجب وفيه
انه قريب كل آت قريب وانما قال متى وعسى هنا والكناية للمصدر المؤنثة ويروى
بالفتح وبين اللغتين والباقون بالفتح وقوله تعالى يوم يدعوكم بدل من
قريبا والمعنى عسى ان يكون البعث يوم يدعوكم اي بالنفخ الذي يسمعكم وهو
النفخة الاخرة كما قال تعالى يوم ينادي المنادي من مكان قريب روي ان
اسرافيل ينادي ايتها العظام البالية والاجسام البالية واللحوم المتمزقة
والشعور المتفرقة هلموا الى الحساب فتستجيبون اي تجيبون والاستجابة توافق الداعي
فيما دعى اليه وهي الاجابة الا ان الاستجابة تقتضي طلب الموافقة فهي اخص
من الاجابة واختلف في معنى قوله تعالى بحمده فقال ابن عباس يا مرة
وقال سعيد بن جبير يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم
ويقولون سبحانك اللهم وبحمدك فتحمدونه حين لا ينفعهم الحمد وقال قتادة
بمعرفته وطاعته وقال الفعل المعاني تستجيبون بحمده اي تستجيبون حامدين
كما تقول جاء بغضبه اي جاء غضبان وركب الامير بسيفه اي وسيفه معه وقال
الزمخشري بحمده حال منهم اي حامدين وهي مبالغة في انقيادهم للبعث كقولك
لمن يامرون بما يشق عليه فيأبى وهم يمتنع سترى كيف وابن حامد شاكر
يعني انك تحمل عليه وتقسر قسرا اجبه انك تلين لين المستهام الراغب فيه
الحامد عليه وتظنون ان لبثتم الا قليلا اي مع استحابتكم وطول لبثكم
لشدة ما ترون من الهول تحقرون مدة لبثكم في الدنيا وتحسبونها
يوما او بعض يوم وعن قتادة نجا فزعت الدنيا في انفسهم حتى عاينوا الاخرة
وقال الحسن معناه تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا لم تكن وبالاخرة
لم تزل وبهذا يرجع الى استقلال عمر الانسان في الدنيا وقيل المراد استقلال
لبثهم في عرصة القيامة لانه لما كان عاقبة امرهم الدخول في النار استقصروا
امد لبثهم في برزخ القيامة وقرأ نافع وابن كثير وعاصم باظهار الثاء المثلثة عند
التاء المثناة والباقون بالادغام ولما ذكر تعالى الحجة اليقينية في صحة المعاد

وهو قوله تعالى قل الذي فطركم اول مرة قال تعالى قل يا محمد لعبادي اي المؤمنين
لان لفظ العباد في اكثر الروايات القرآن مختص بالمؤمنين قال تعالى فبشر عبادي
الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه وقال تعالى فادخلي في عبادي وادخلي
وقال تعالى عينا يشرب بها عباد الله يقولوا للكفار الذين لا يؤمنون وهم الكلمة
التي هي أحسن ولا يكلفونهم على سفههم بل يقولون لهم يهديكم الله ويقال
هذا أقبل الآن بالقتال وقبل نزلت في عمر بن الخطاب شتمه بعض الكفار فأمره
الله تعالى بالعفو وقيل امر المؤمنين بان يقولوا ويفعلوا الخلة التي هي احسن
وقيل الاحسن قول لا اله الا الله ثم علل تعالى ذلك بقوله تعالى إن الشيطان
اي البعيد من الرحمة المتمرد في اللعنة ينزغ بينهم اي يفسد ويغري بعضهم
على بعض ويوسوس لهم ليقع بينهم المشاجرة والمشاقة واصل النزغ الطعن
وهو غير مقصود من فنوسك ان يأتوا بما لا ينبغي ثم علل هذه العلة
بقوله تعالى إن الشيطان كان اي في قديم الزمان واصل الطبع كونا مجبولا
عليه للانسان عدوا اي بليغ العداوة مبينا اي بين العداوة ثم فسر تعالى
التي هي احسن بما علمهم ربهم من الصفة بقوله تعالى ربكم اعلم بكم فعلى ان قوله
تعالى ان الشيطان الى آخره جملة اعتراضية بين المفسر والمفسر وسكن ابو عمرو
الميم واخفاها عند الياء خلافا عنه وابن عامر ثم استانف تعالى فقال تعالى
إن يشأ يرحمكم اي بهداكم وإن يشأ يعذبكم اي باضلالكم فلا تختفروا
ايها الموحدون المشركين فتقطعوا بانهم من اهل النار فيعيروهم بذلك فانه
يجري على غلظ القلوب بالاقامة لان الخاتمة مجهولة ولا تتجاوزوا فيهم ما امركم الله
به من قول وفعل ثم رفق الله تعالى الخطاب الى اجلال الخلق وراس اهل الشرع ليكون
من دونه اولى بالمعنى فقال تعالى وما ارسلناك اي مع ما لنا من العظمة الغنية
عن كل شيء عليهم وكيلا اي حفيظا وكفيلا تقسرهم على ما يرضي الله وانما ارسلناك
على حسب ما امرتك به بشيرا ونذيرا قدارهم وميزا ضحاياك بمدار النعم وقد
امرك هذا حتى الاذن في القتال وما امرهم بان ينسبوا الاعلمية بهم اليه تعالى
اخبر بما هو اعم من ذلك فاصر الخطاب على اعلم خلقه به بقوله تعالى وربك
اي المحسن اليك بان جعلك اكمل الخلق اعلم بمن في السموات والارض فعلمه
غير مقصور عليكم بل علمه متعلق بجميع الموجودات والمعدومات ومتعلق
بجميع ذات الارض والسموات فيعلم تعالى حال كل احد ويعلم ما يليق به من المفاسد
والمصالح ويعلم اختلاف صورهم واديانهم واخلاقهم وانواعهم وجميع ما هم
عليه سبحانه وتعالى لا يخفى عليه خافية فيفضل بعض الناس بما يعلم على حسب احاطة
علمه وشمول قدرته وبعض النبيين بما يفضل كما قال تعالى ولقد فضلنا بعض
النبيين سواء كانوا رسلا ام لا على بعض بعد ان جعلنا الكل وفضلا للتقوى
كل منهم واختاه فخصصنا كلا منهم بفضيلة كموسى بالكلام وابراهيم بالخلة ومحمد
صلى الله عليه وسلم بالاسراء فلا ينكر احد من العرب او بني اسرائيل او غيرهم تفضيلنا لهذا
النبي الكريم الذي صدرنا السورة بتفضيله على جميع الخلائق وما نفعل ما نشاء بالنا

من القدرة التامة والعلم الشامل وقرا نافع بالهمز والباقون بالياء وورش على اصله بمد على الهمزة
ويوسط ويقصر وآتينا موسى التوراة وداود زبورا وعيسى الانجيل فلم يبعد ايضا ان يؤتى
محمدا القران ولم يبعد ان يفضله على جميع الخلق فان قيل ما السبب في تخصيص داود عليه
السلام بالذكر هنا اجيب باوجه الاول انه تعالى ذكر انه فضل بعض النبيين على بعض
ثم قال وآتينا داود زبورا يعني ان داود اوتي ملكا عظيما ثم انه تعالى لم يذكر ما اتاه
من الملك وذكر ما اتاه من الكتاب تنبيها على ان الفضل الذي ذكره قبل ذلك المراد منه
التفضيل بالعلم والدين لا بالمال الثاني انه تعالى كتب في الزبور ان محمدا خاتم الانبياء وان
امة محمد خير الامم قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي
الصالحون وهم محمد صلى الله عليه وسلم وامته فان قيل هلا عرفه كقوله ولقد كتبنا
في الزبور اجيب بان التنكير هنا يدل على تعظيم حاله لان الزبور عبارة عن المزبور فكان
معناه الكتاب وكان معنى التنكير انه كامل في كونه كتابا ويجوز ان يكون زبور علما
فاذا دخلت عليه ال كقوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور كانت للمح الاصل كعباس
والعباس وفضل والفضل الثالث ان كفار قريش ما كانوا اهل نظر وجدل بل كانوا
بل كانوا يرجعون الى اليهود في استخراج الشبهات واليهود كانوا يقولون انه لا نبي
بعد موسى ولا كتاب بعد التوراة فنقض الله تعالى عليهم كلامهم بانزال الزبور على
داود وروى البخاري في التفسير عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال خفف
على داود القران فكان يامر بدوابه لتسرج فكان يقرا قبل ان يفرغ اي القران قال
البقاعي ومن اعظم المناسبات لتخصيص داود عليه السلام وزبوره بالذكر هنا
ذكر البعث الذي هذا مقامه فيه صريحا وكذا ذكر النار مع خلو التوراة عن ذلك اما
البعث فلا ذكر له فيها اصلا واما النار فلم يذكر شيء ما يدل عليها الا الجحيم في موضع
واحد واما الزبور فذكر فيه النار والهاوية والجحيم في غير موضع انتهى وقرا حمزة
بضم الزاي والباقون بالفتح واختلف في سبب نزول قوله تعالى قل ادعوا الذين
زعمتم انهم الهة من دونه اي من سواه كالملائكة وعزير والمسيح وقرا نافع وابن كثير وابو
عمرو وابن عامر والكسائي بضم اللام من قل وكسرها عاصم وحمزة كل هذا في حال الوصل
واما الابتداء فالجميع ابتدوا بهمزة مضمومة لا يملكون كشف الضر اي البؤس اي الذي من شانه
ان يرض الجسم كله عنكم حتى لا يدعوا شيئا منه ولا تحويلا له الى غيركم فقال ابن عباس انها
نزلت في الذين عبدوا المسيح وعزيرا والملائكة والشمس والقمر والنجوم وقيل ان قوما
عبدوا نفرا من الجن فاسلم النفر من الجن وبقي اولئك القوم متمسكين بعبادتهم
فنزلت فيهم الاية وقيل ان المشركين اصابهم قحط شديد حتى اكلوا الكلاب والجيف
واستغاثوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليدعو لهم فنزل قل للمشركين ادعوا الذين
زعمتم انهم الهة من دونه وليس المراد الاصنام لانه تعالى قال في وصفهم اولئك
الذين يدعون اي يدعونهم الكفار ويتالهونهم يبتغون اي يطلبون طلبا عظيما
الى ربهم اي المحسن اليهم الوسيلة اي المنزلة والدرجة والقربة لاعمالهم الصالحة
وابتغاء الوسيلة الى الله تعالى لا يليق بالاصنام البتة وقرا ابو عمرو في الوسيلة بكسر الهاء
والميم وحمزة والكسائي بضم الهاء والميم وقرا الباقون بكسر الهاء وضم الميم تنبيه اولئك

مبتدا

مبتدأ وخبره يبتغون ويكون الموصول نعتا او بيانا او بدلا والمراد باسم الاشارة الانبيا
والملايكة الذين عبدوا من دون الله والمراد بالواو العباد لهم ويكون العايد على الذين
محذوفا والمعنى اوليك الانبيا الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم يبتغون الى
ربهم الوسيلة ايهم اقرب اي يتسابقون بالاعمال مسابقة من يطلب كل منهم ان يكون اليه
اقرب ولديه افضل ويرجون رحمته رغبة فيما عنده ويخافون عذابه فهم كغيرهم موصوفون
بالعجز والحاجة فكيف يدعونهم الهة وقيل معناه ان الكفار ينظرون ايهم اقرب الى الله
فيتوسلون به ثم علل خوفهم بامر عام بقوله تعالى ان عذاب ربك اي المحسن اليك برفع
انتقام الاستيصال منه عن امتك كان اي كونا لازما له محذورا اي جديرا بان يحذر
لكل احد من ملك مقرب ونبي مرسل فضلا عن غيرهم لما شوهد من اهلاكه للقرون
الماضية ولما قال تعالى ان عذاب ربك كان محذورا بين بقوله تعالى وان اي وما من قرية
الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا ان كل قرية اي
اهلها لا بد وان يرجع حالهم الى احد امرين اما الاهلاك بالموت والاستيصال
واما العذاب بالقتل وانواع البلا وقال مقاتل اما الصالحة فبالموت واما الطالحة
فبالعذاب وقال عبد الله بن مسعود اذا ظهر الزنا والربا في قرية اذن الله تعالى
في هلاكها كان ذلك اي الامر العظيم في الكتاب اي اللوح المحفوظ مسطورا اي مكتوبا
قال عبادة بن الصامت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان اول ما خلق
الله القلم فقال اكتب قال ما اكتب قال القدر ما كان وما هو كاين الى الابد
اخرجه الترمذي ولما كان كفار قريش قد تكرر اقتراحهم للايات وكان صلى الله عليه وسلم
لشدة حرصه على ايمان كل احد يحب ان الله تعالى يجيبهم الى مقترحهم طمعا في ايمانهم
فاجاب الله تعالى بقوله تعالى وما منعنا اي على ما لنا من العظمة التي لا يعجزها
شي ولا يمنعها مانع ان نرسل بالايات اي التي اقترحوها كما حكى الله تعالى عنهم ذلك
في قولهم فاتنا باية كما ارسل الاولون وقال اخرون لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض
ينبوعا الايات وقال سعيد بن جبير انهم قالوا انك تزعم انه كان قبلك انبيا منهم
من سخرت له الريح ومنهم من احيى الموتى فاتنا بشي من هذه المعجزات فكان كانه
لا ايات عندهم سوى ذلك الا علمنا في علم الشهادة بما وقع من ان كذب بها اي المقترحات
الاولون وعلمنا في علم الغيب ان هولا مثل الاولين في ان الشقي منهم لا يومن بالمقترحات
كما لم يومن بغيرها وانه يقول فيها ما قال في غيرها من انها سحر ونحو ذلك والسعيد
لا يحتاج في ايمانه اليها فكم اجبنا امة الى مقترحها فما زاد ذلك اهل الضلالة منهم الا كفرا
فاخذناهم لان سنتنا جرت انا لا نمهل بعد الاجابة الى المقترحات من كذب بها
قال ابن عباس سال اهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ان يجعل لهم الصفا ذهبا وان ينحي
الجبال عنهم ليزرعوا تلك الاراضي فطلب صلى الله عليه وسلم ذلك من الله تعالى
فاوحى الله تعالى اليه ان شيت فعلت ذلك لكن بشرط ان لم يومنوا اهلكتهم فقال صلى
الله عليه وسلم لا اريد ذلك فتفضل الله تعالى برحمة هذه الامة وتشريفها على الامم
السالفة بعدم استيصالها لما يخرج من اصلاب كفرتها من خلص عباده فلهذا
السبب ما اجابهم الله تعالى الى مطلوبهم فقال جل ذكره بل الساعة موعدهم

والساعة ادهى وامر ثم ذكر تعالى من تلك الايات التي اقترحها الاولون ثم كذبوا بها لما ارسلت
اليهم فاهلكوا اما ذكره تعالى بقوله تعالى وآتينا ثمود الناقة حال كونها مبصرة اي
مضيئة بينة حد بنة بان يستبصر بها كل من شاهدها فيستدل بها على صدق قول ذلك
النبي فظلموا بها اي ظلموا انفسهم بتكذيبها وقال بن قتيبة تحدوا بها من الله تعالى
فاهلكناهم فكيف بنا نحن هذا هو الاعلى سبيل الاقتراح والتحكم على الله تعالى وخص تعالى
هذه الاية بالذكر لان اثارها لاهل في بلاد العرب قريبة لمن حدودهم بيصبرها
صادرهم وواردهم ثم قال تعالى وما نرسل بالآيات اي المقترحات وغيرها الا تخويفا
اي للمرسل اليهم بها فان خافوا نجوا والا هلكوا بعذاب الاستئصال من كذب بالايات
المقترحة وبعذاب الاخرة من كذب بغيرها كالمعجزات وايات القرآن فان اكثر من بعث
اليهم موخر الى يوم القيامة فان قيل المقصود الاعظم من اظهار الايات ان يستدل
بها على صدق المدعي فكيف حصر المقصود من اظهارها في التخويف اجيب بانه لما كان
هو الحامل لما طلب العدم من النبي صلى الله عليه وسلم تلك الايات المقترحات واجاب
الله تعالى بان اظهارها لا يبتنى بمصلحة صارذلك بسبب الجراة اولئك الكفار بالطعن فيه
وان يقولوا له لو كنت رسولا حقا من عند الله لاتيت بهذه المعجزات التي اقترحناها
كما اتى به موسى وعيره من الانبياء فعند هذا قوى الله تعالى قلبه وبين له انه ينصره ويؤيده
واذكروا اذ قلنا لك ان ربك اي المتفضل بالاحسان اليك بالرفق بامتك
احاط بالناس علما وقدرة فهم في قبضته وقدرته لا يقدرون على الخروج من مشيته
فلا يقدرون على امر من الامور الا بقضائه وقدره وهو حافظك ومانعك منهم فلا
تهتم باقتراحهم وامض فيما امرك به من تبليغ الرسالة فهو ينصرك ويقويك على
ذلك كما وعدك بقوله تعالى والله يعصمك من الناس وقيل ان المراد بالناس اهل مكة
بمعنى انه يعليهم ويقهرهم روي انه لما نزل اخف الغرنيقان ترجى شفاعتهن تقوم بدر ورسول صلى الله
صلى الله عليه وسلم في العريش مع ابي بكر كان يدعو ويقول اللهم اني اسالك عهدك ووعدك
ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس ويقول تهزم الجمع ويولون الدبر وكان صلى الله
عليه وسلم يقول حين ورد ماء بدر والله كاني انظر الى مصارع القوم وهو يومي الى
الارض ويقول هذا مصرع فلان وهذا مصرع فلان فقد نشاء معت قريش بما اوحي اليه
صلى الله عليه وسلم ثم عطف تعالى على وما نرسل بالايات قوله تعالى وما جعلنا
الرؤيا التي اريناك اي التي شاهدتها ليلة الاسرى الا فتنة اي امتحانا واختبارا للناس
لانه صلى الله عليه وسلم لما ذكر لهم قصة الاسرا كذبوه وكفر به كثير ممن كان قد امن به
وازداد المخلصون ايمانا فلهذا السبب كانت امتحانا وروى البخاري في التفسير عن
ابن عباس انه قال هي رويا عين اريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة اسري به وتقدم
انه قول الاكثرين منهم سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة
وبن جريج وممن قال بعضهم من ان الرويا تدل على الظهار ويا منام ضعيف اذ لا فرق
بين الرؤية والرويا في اللغة يقال رايت بعيني رؤية ورويا فان قيل قال بعض
العلما كانت اسرا ته صلى الله عليه وسلم اربعا وثلاثين مرة واحدة بجسده والباقي
بروحه رويا راها قال وممايدلك على ان الاسرا ليلة فرض الصلاة كانت بالجسم

والشجرة الملعونة في القرآن هي كذلك عند العرب

ما ورد في بعض طرق الحديث انه صلى الله عليه وسلم استوحش لما زج به في النور ولم ير
معه احدا اذ الارواح لا توصف بالوحشة ولا بالاستيحاش قال ومما يدلك على ان الاسرا
كان بجسمه ما وقع له من العطش فان الارواح المجردة لا تعطش ولما كان قد اخبر صلى الله عليه وسلم
ان شجرة الزقوم تنبت في اصل الجحيم وكان ذلك في غاية الغرابة ضمها الى الاسرا في ذلك
بقوله تعالى والشجرة الملعونة في القران لان فيها امتحانا ايضا بل قال بعض المفسرين
هي على التقديم والتاخير والتقدير وما جعلنا الرويا التي اريناك والشجرة الملعونة
في القران الا فتنة للناس واختلف في هذه الشجرة فالاكثرون قالوا انها شجرة الزقوم
المذكورة في قوله تعالى ان شجرة الزقوم طعام الاثيم وكانت الفتنة في ذكر هذه الشجرة
من وجهين الاول ان ابا جهل قال زعم صاحبكم ان نار جهنم تحرق الحجارة حيث قال
وقودها الناس والحجارة ثم يقول في النار شجرة والنار تاكل الشجر فكيف يولد فيها
الشجر والثاني قال ابن الزبعرى ما نعلم الزقوم الا التمر والزبد فتزقموا منه فانزل
الله تعالى حين عجبوا ان يكون في النار شجرة انا جعلناها فتنة للظالمين الايات
وما قدروا الله حق قدره من قال ذلك فان الله قادر على ان يجعل الشجرة من جنس
لا تاكله النار فهذا وبر السمندر وهي دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل
اذا انسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالما لا تعمل فيه النار وترى
النعامة تبلع الجمر وقطع الحديد الجمر كالجمر باحما النار فلا تضرها ثم اقرب من ذلك انه
تعالى جعل في الشجر نارا فما تحرقها قال تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فان قيل
ليس في القران لعن هذه الشجرة اجيب عن ذلك بوجوه الاول المراد لعن الكفار الذين
ياكلونها لان الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة وانما وصفت بلعن اصحابها
على المجاز الثاني ان العرب تقول لكل طعام ضار انه ملعون الثالث ان اللعن
في اللغة الابعاد ولما كانت هذه الشجرة مبعدة عن صفات الخير سميت ملعونة
وقيل ان الشجرة الملعونة في القران هي اليهود لقوله تعالى لعن الذين كفروا وقيل هي
الشيطان وقيل ابو جهل وعن ابن عباس هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب
ولما ذكر سبحانه وتعالى انه يرسل الايات تخويفا قال هنا ايضا ونخوفهم فما يزيدهم
اي الكافرين التخويف الا طغيانا كبيرا اي تجاوزا للحد هو في غاية العظم فبتقدير
ان يظهر الله تعالى لهم المعجزات التي اقترحوها لم يزدادوا بها الا تماديا في الجهل
والعناد واقتضت الحكمة ان لا يظهر الله لهم ما اقترحوه من الايات
والمعجزات فانهم قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر وخوفوا
بعذاب الاخرة وشجرة الزقوم فما اثر فيهم فكيف يخاف قوم هذه حالهم
بارسال ما يقترحون من الايات ولما نازع القوم رسول الله صلى الله عليه وسلم
وعاندوه واقترحوا عليه الاقتراحات الباطلة لامرين الكبر والحسد اما الكبر
فلان تكبرهم كان يمنعهم من الانقياد واما الحسد فلانهم كانوا يحسدونه على
ما اتاه الله من النبوة فبين تعالى ان هذا الكبر والحسد هما اللذان حملا ابليس
على الخروج من الايمان والدخول في الكفر بقوله تعالى واذ اي واذكر اذ قلنا اي بما لنا
من العظمة التي لا يعصى مرادها للملائكة حين خلقنا اباك ادم وفضلناه اسجدوا لادم

بجسمه

ش

اي امتثالا لامري فسجدوا الا ابليس اي ان يسجد لكونه ممن حقت عليه الكلمة ولم ينفعه
ما يعلمه من قدرة الله وعظمته وذلك معنى قوله تعالى قال اي لنا منكرا متكبرا ءاسجد
اي خضوعا لمن خلقت حال كون اصله طينا فكفر بنسبته لنا الى الحور متخيلا انه اكرم من ادم
عليه السلام من حيث ان الفروع ترجع الى الاصول وان النار التي هي اصله اكرم من الطين
الذي هو اصل ادم وذهب عنه ان الطين انفع من النار وعلى تقدير التنزل
فالجواهر كلها من جنس واحد والله تعالى هو الذي اوجدها من العدم تفضل بعضها
على بعض بما يحدث فيها من الاعراض وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في سبع سور وهي
البقرة والاعراف والحجر وهذه السورة والكهف وطه وص والكلام المستقصى فيها
قد تقدم في البقرة ولعل هذه القصة انما كررت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم
فانه كان في محنة عظيمة من قومه واهل زمانه فكانه تعالى يقول الا ترى ان اول
الانبيا هو ادم ثم انه كان في محنة شديدة من ابليس وان الكبر والحسد كل منهما
بلية عظيمة قديمة ومحنة عظيمة للخلق وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو بتحقيق
الاولى وتسهيل الثانية وادخل قالون وابو عمرو بينهما الفا ولم يدخل ورش وابن
كثير بينهما الفا ولورش ايضا ابدال الثانية الفا واذا وقف حمزة سهل الثانية
كقراءة ابن كثير وقرا هشام بلا تحقيق في الثانية والتسهيل وادخال الف بينهما وقرا
الباقون بتحقيقهما بلا ادخال ولما اخبر تعالى بتكبره كان كانه قيل ان هذه
الوقاحة عظيمة واجترا على الجناب الاعلى فهل كان غير هذا فقيل نعم قال ارايتك
اي اخبرني وقرا نافع بتسهيل الهمزة بعد الرا ولورش وجه ثان وهو ان يبدلها
الفا واسقطها الكسائي والباقون بالتحقيق هذا الذي كرمت علي بم كرمته علي
مع ضعفه وقوتي فكانه قيل لقد اتى بالغاية في اساءة الادب فما كان بعد
هذا فقيل قال مقسما لاجل استبعاد ان يجترئ احد هذه الجراة على الملك الاعلى
لئن اخرتني اي ايها الملك الاعلى تاخيرا ممتدا الى يوم القيامة حيا متمكنا وجواب
القسم الموطا له باللام لاحتنكن اي بالاغوا ذريته اي لاستولين عليهم استيلا
من جعل في حنك الدابة الاسفل حبلا يقودها به فلا تابى عليه وقرا نافع
وابو عمرو بزيادة يا عند النون في اخرتني عند الوصل وحذفها في الوقف واثبتها
ابن كثير وقفا ووصلا وحذفها الباقون وصلا ووقفا اتباعا للرسم ولما علم انه لا يقدر على
الجميع قال الا قليلا وهم اولياوك الذين حفظتهم مني كما قال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم
سلطان فان قيل كيف ظن ابليس هذا الظن الصادق بذرية ادم اجيب باوجه
الاول انه سمع الملائكة يقولون اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدما فعرف هذه
الاحوال الثاني انه وسوس الى ادم فلم يجد له عزما فقال الظاهر ان اولاده يكونون مثله
في ضعف العزم الثالث انه عرف انه مركب من قوة بهيمية شهوانية وقوة وهمية
شيطانية وقوة عقلية ملكية وقوة شبعية غضبية وعرف ان بعض تلك القوى
تكون هي المستولية في بعض في اول الخلقة ثم ان القوة العقلية انما تكمل في اخر الامر ومتى
كان كذلك كان ما ذكره ابليس لازما كانه قيل لقد طال عدو الله في الاجترا فما قال له ربه بعد
ذلك فقيل قال ممدا له اذهب اي امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت

له نفسه وتقدم في الحجر انه انما يؤخر الى يوم الوقت المعلوم وهو يوم ينفخ في الصور لا انه يؤخر
الى يوم القيمة كما طلب وقرا ابو عمرو وخلاد والكسائي بادغام الباء الموحدة في الفاء واظهرها
الباقون ولما حكم الله تعالى بشقاوته وشقاوة من اراد طاعته له تسبب عنه قوله تعالى
فمن تبعك منهم اي اولاد ادم عليه السلام فان جهنم اي الطبقة النارية التي ينجيهم داخلها
جزاؤكم اي جزاؤك وجزاء اتباعك تجزون ذلك جزاء موفورا اي مكملا وافيا بما تستحقون
على اعمالكم الخبيثة ولما طلب ابليس اللعين من الله تعالى الامهال الى يوم القيامة لاجل
ان يجيبك ذرية ادم ذكر الله تعالى له اشياء الاول اذهب اي امضي كما مر واني امهلتك
هذه المدة وليس من الذهاب الذي هو ضد المجي الثاني قوله تعالى واستفزز اي استخف
من استطعت منهم ان تستفزه وهم الذين سلطانك عليهم بصوتك قال ابن عباس معناه
بدعائك الى معصية الله وكل داع الى معصية الله فهو من جند ابليس وقيل اراد بصوتك
الغناء واللهو واللعب الثالث قوله تعالى واجلب اي صح عليهم من الجلبة وهي الصياح
بخيلك ورجلك واختلفوا في الخيل والرجل على اقوال الاول روى ابو الضحى عن
ابن عباس انه قال كل راكب او راجل في معصية الله وعلى هذا فخيله ورجله كل من شاركه
في الدعاء الى المعصية الثاني يحتمل ان يكون لابليس جيش من الشياطين بعضهم راكب
وبعضهم راجل الثالث ان المراد منه ضرب المثل كما يقال للرجل المجد في الامر جئت
بالخيل والرجل قال الرازي وهذا اقرب والخيل تقع على الفرسان وقال الزمخشري
هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت في تسلطه على من يغويه بمغوار وقع على قوم فصوت
بهم صوتا يستفزهم من اماكنهم ويقلقلهم عن مراكزهم واجلب عليهم بجنده من خيالة
ورجالة حتى استاصلهم والخيل تقع على الفرسان قال صلى الله عليه وسلم يا خيل الله
اركبي وقد تقع على الافراس خاصة وقرا حفص عن عاصم بكسر الجيم وسكنها الباقون جمع
راجل كصاحب وصحب وراكب وركب ورجل بالكسر والضم لغتان مثل حذر
وحذر وهو مفرد اريد به الجمع الرابع قوله تعالى وشاركهم في الاموال والاولاد
اما المشاركة في الاموال فقال مجاهد هو كل ما اصيب من حرام او انفق في حرام وقال
قتادة هو جعلهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وقال الضحاك هو ما يذبحونه
لالهتهم وقال عكرمة هو تبكيتهم اذان الانعام وقيل هو جعلهم من اموالهم شيئا
لغير الله كقولهم هذا لله وهذا لشركائنا ولا منافاة بين جميع هذه الاقوال
واما المشاركة في الاولاد فقال عطاء عن ابن عباس هو تسمية الاولاد بعبد شمس وعبد
العزى وعبد الحارث وعبد الدار ونحوها وقال الحسن هو انهم هودوا اولادهم
ونصروهم ومجسوهم وروي عن جعفر بن محمد ان الشيطان يقعد على ذكر الرجل
فاذا لم يقل بسم الله اصاب معه امراته وانزل في فرجها كما ينزل الرجل ويقال في جميع
هذه الاقوال ايضا ما تقدم وروي ان رجلا قال لابن عباس ان امراتي
استيقظت وفي فرجها شعلة نار قال ذلك من وطي الجن وفي الاثار ان ابليس
لما خرج الى الارض قال يا رب اخرجتني من الجنة لاجل ادم فسلطني عليه وعلى ذريته
قال انت مسلط قال لا استطيعه الا بك فزدني قال استفزز من استطعت
منهم الاية قال ادم يا رب سلطت ابليس علي وعلى ذريتي واني لا استطيعه الا بك قال
لا يولد لك ولد الا وكلت به من يحفظونه قال زدني قال الحسنة بعشرة امثالها والسيئة

بسلها قال زدني قال التوبة معروضة ما دام الروح في الجسد فقال زدني قال يا عبادي الذين
اسرفوا الاية وفي الخبر ان ابليس قال يا رب بعزتك لا ابرح اغوي عبادك ما دامت ارواحهم
في اجسادهم فقال وبعزتي وجلالي لا ازال اغفر لهم ما استغفروني قال الشعبي
قال قلت لابن عباس قال لا والله ما تركت ذنبا قال ابن طاوس قال ابن عباس لم يذكر عليه اسم قال
فما شرابي قال كل مسكر قال وابن عسكر قال الحمامات قال وابن مجلسي قال الاسواق
قال وما حبائلي قال النساء قال وما اذاني قال المزمار الخامس قوله تعالى وعدهم اي من المواعيد
الباطلة ما يستخفهم ويغرهم من ذلك وعدهم بان لا جنة ولا نار ومن ذلك شفاعة الالهة
والكرامة على الله بالانتساب الشريفة وتسويف التوبة وامثال العاجل على الاجل ونحو
ذلك وقوله تعالى وما يعدهم الشيطان من باب الالتفات واقامة الظاهر
مقام المضمر ولو جرى على سنن الكلام الاول لقال وما يعدهم بالتامين فوق وقوله
تعالى الا غرورا فيه اوجه احدها انه نعت مصدر محذوف وهو نفسه مصدر
في الاصل الا وعدا غرورا الثاني انه مفعول من اجله اي ما يعدهم مما يعدهم من الاماني
الكاذبة الا لاجل الغرور الثالث انه مفعول به على الاتساع اما يعدهم الغرور بنفسه
والغرور ترين الباطل بما يظن انه حق فان قيل كيف ذكر الله تعالى هذه الاشياء ليس
وهو تعالى يقول ان الله لا يامر بالفحشاء اجيب بان هذا على طريق التهديد كقوله
تعالى اعملوا ما شئتم وكقول القايل اعمل ما شئت فسوف ترى وكما يقال احمد
حمدك فسوف ترى ما يناسبك ولما قال تعالى لابليس اما عبادي ليس لك عليهم
اي للذين اعلمهم للاضافة اي فقط هو يحفظ عبوديتي بالتقوى والاحسان ليس لك عليهم
سلطان اي فلا تقدر ان تغويهم وتحملهم على ذنب لا يغفر فاني وفقتهم للتوكل علي
فكفيتهم امرك وكفى بربك اي الموجد لك وكيلا اي حافظا لهم منك ولما ذكر تعالى انه الوكيل
الذي لا كافي في غيره اتبعه تعضيد تعالى له الدالة على ذلك بقوله تعالى ربكم اي المتصرف
فيكم هو الذي يزجي اي يجري لكم الفلك وهي التي تحملكم فيها مع ابيكم نوح عليه السلام
في البحر لتبتغوا اي لتطلبوا من فضله الربح وانواع الامتعة التي لا تكون عندكم
ثم علل ذلك بقوله تعالى انه اي فعل ذلك لكم لانه كان اي ازلا وابدا بكم رحيما حيث
هيا لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من اسبابه تنبيه الخطاب
في قوله تعالى ربكم وفي قوله تعالى انه كان بكم عام في جميع الخلق والمراد من الرحمة
منافع الدنيا ومصالحها واما قوله تعالى واذا مسكم الضر اي الشدة في البحر
خطاب للكفار بدليل قوله تعالى ضل اي غاب عن ذكركم وخواطركم من تدعون
اي تعبدون من الالهة الا اياه وحده فاخلصتم له الدعاء علما منكم انه لا ينجيكم سواه
فلما نجاكم من الغرق واوصلكم بالتدريج الى البر اعرضتم عن الاخلاص له ورجعتم الى الاشراك
وكان الانسان اي هذا النوع كفورا اي جحود النعم بسبب انه عند الشدة يتيقن بفضله
ورحمته وعند الرخاء والراحة يعرض عنه ويتمسك بغيره وقوله تعالى افامنتم ان يخسف
بكم جانب البر للاستفهام والهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره الخوتم من البحر فامنتم تغدر وحلم منه
ان يخسف بكم جانب البر اي فنغيبكم في اي جانب كان منه لان قدرتنا على التغييب
في التراب في جميع الجوانب كقدرتنا على التغييب في الماء على السواء فعلى العاقل ان يستوي
خوفه من الله تعالى في جميع الجوانب او امنتم ان يرسل عليكم من جهة الغوص شامرا من امر
حاصبا اي يمطر عليكم حجارة من السماء كما امطرناها على قوم لوط فان الله تعالى انا ارسلنا

عليهم

عليهم حاصبا وقيل الحاصب الريح ثم لا تجدوا ايها الناس لكم وكيلا ينجيكم من ذلك ولا من غيره
كما لم تجدوا في البحر وكيلا غيره ام امنتم ان جاوزت بكم الغباوة حدها فلم تجوزوا ذلك
ان يعيدكم فيه اي البحر الذي يضطركم الى ذلك فيقسركم عليه وان كرهتم تارة اخرى
بانساب تضطركم الى ان ترجعوا فتركبوه فيرسل عليكم قاصفا من الريح اي ريحا
شديدة لا تمر بشي الا قصفته فتكسر فلككم فيغرقكم في البحر الذي اعدناكم فيه بقدرتنا
بما كفرتم اي بسبب اشراككم وكفرانكم نعمة الانجا ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا اي
مطالبا يطالبنا بما فعلنا بكم تبيعه تارة بمعنى مرة وكرة فهي مصدر ويجمع على تير
وتارات قال الشاعر وانسان عيني يحسر الما تارة فيبدو وتارات يحم فيغرق
وقرا ابن كثير وابو عمرو ان نخسف او نرسل ان نعيدكم فنرسل فنغرقكم جميع هذه
الخمسة بنون العظمة والباقون بيا الغيبة فالقراة الاولى على سبيل الالتفات
من الغايب في قوله تعالى ربكم الى اخره والقراة الثانية على سنن ما تقدم من الغيبة
ثم ان الله تعالى ذكر نعمة اخرى جليلة رفيعة على الانسان وذكر فيها اربعة انواع
النوع الاول قوله تعالى ولقد كرمنا اي بعظمتنا تكريما عظيما بني ادم وحذف متعلق
التكريم فلذا اختلف المفسرون فيه فقال بن عباس كل شي ياكل بفيه الا ابن ادم فانه
ياكل بيديه وعن الرشيد انه احضر طعاما عنده فدعا بالملاعق وعنده ابو يوسف
فقال له جا في تفسير جدك بن عباس قوله تعالى ولقد كرمنا بني ادم وجعلنا لهم
اصابع ياكلون بها فاحضرت الملاعق فردها واكل باصابعه وروي عن بن عباس
ايضا انه قال بالعقل وقال الضحاك بالنطق والتمييز وقيل على ساير الطين بالنمو وعلى
ساير النامي بالحياة وعلى ساير الحيوان بالنطق وقال عطا بتعديل القامة وامتدادها
والدواب منكسة على وجوهها قال بعضهم وينبغي ان يشترط مع هذا شرط وهو
طول القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية والا فالاشجار
اطول قامة من الانسان وقيل الرجال باللحى والنسا بالذوايب وقيل بان يسخر
لهم ساير الاشيا وقيل بان منهم خير امة اخرجت للناس وقيل بحسن الصورة
قال تعالى وصوركم فاحسن صوركم ولما ذكر الله تعالى خلقة الانسان قال فتبارك
الله احسن الخالقين قال الرازي وان شيت فتامل عضوا واحدا من اعضا الانسان
وهي العين فخلق الحدقة سودا ثم احاط بذلك السواد بياض العين ثم احاط بذلك البياض
سواد الاشفار ثم احاط بذلك السواد بياض الاجفان ثم خلق فوق بياض الجفن
سواد الحاجبين ثم خلق فوق ذلك السواد بياض الجبهة ثم خلق فوق بياض الجبهة
سواد الشعر ولكن هذا المثال الواحد انموذجا لك في هذا الباب انتهى واستدل
ايضا لشرف الانسان بان الموجود اما ان يكون ازليا وابديا معا وهو الله تعالى
واما الا يكون ازليا ولا ابديا وهو عالم الدنيا مع كل ما فيه من المعادن والنبات
والحيوان وهذا اخس الاقسام واما ان يكون ازليا ولا يكون ابديا وهذا ممتنع الوجود
لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه واما ان لا يكون ازليا ولكنه يكون ابديا وهو
الانسان والملك ولا شك ان هذا القسم اشرف من القسم الثاني والثالث
وذلك يقتضي كون الانسان اشرف من اكثر المخلوقات النوع الثاني قوله تعالى

وحملناهم في البر على الدواب وغيرها وفي البحر على السفن وغيرها من حملته حملا اذا جعلت
له ما يركبه او حملناهم فيها حتى لم تخسف بهم الارض ولم يغرقهم الما النوع الثالث قوله
تعالى ورزقناهم من الطيبات اي المستلذات من الثمرات والاقوات
وذلك لان الاغذية اما حيوانية واما نباتية وكلا القسمين فان الانسان انما يتغذى
بالطف انواعها واشرف اقسامها بعد التنقية التامة والطبخ الكامل والنضج
البالغ وذلك مما لا يحصل الا للانسان النوع الرابع قوله تعالى وفضلناهم
في انفسهم باحسان الشكل وفي صفاتهم بالعلم المنتج لسعادة الدارين على كثير
ممن خلقنا اي بعظمتنا التي خلقناهم بها واكد الفعل بالمصدر اشارة الى اعراقهم
في الفضيلة فقال تعالى تفضيلا تنبيه ظاهر الاية يدل على فضلهم على كثير من خلقه
لا على الكل وقال قوم فضلوا على جميع الخلق الا على الملائكة وهو قول ابن عباس
واختيار الزجاج على ما رواه الواحدي في بسيطه وقال الكلبي فضلوا على جميع
الخلائق كلهم الا على طائفة من الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت
واشباههم وقال قوم فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم وقد يوضع الاكثر
موضع الكل كقوله تعالى هل انبئكم على من تنزل الشياطين الى قوله تعالى واكثرهم
كاذبون اي كلهم وروى جابر يرفعه قال لما خلق الله تعالى ادم وذريته قالت الملائكة
يا رب خلقتهم ياكلون ويشربون وينكحون فاجعل لهم الدنيا ولنا الاخرة فقال
تعالى لا اجعل من خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان والاولى
كما قاله بعض المفسرين كالبغوي وابن عادل ان يقال عوام الملائكة افضل من عوام
المؤمنين وخواص المؤمنين افضل من خواص الملائكة قال تعالى ان الذين امنوا
وعملوا الصالحات اولئك هم خير البرية وروي عن ابي هريرة قال المؤمن اكرم
على الله من الملائكة عنده رواه البغوي واورده الواحدي في البسيط فان
قيل قال تعالى في اول الاية ولقد كرمنا بني ادم وقال في اخرها وفضلناهم
فلا بد من الفرق بين التكريم والتفضيل والا لزم التكرار اجيب بانه تعالى فضل
الانسان على سائر الحيوانات بامور خلقية طبيعية ذاتية كالعقل والنطق
والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة ثم انه سبحانه وتعالى عرضه بواسطة
العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة والاخلاق الفاضلة ولما ذكر تعالى انواع
كرامات الانسان في الدنيا شرح احوال درجاته في الاخرة بقوله تعالى يوم اي اذكر يوم
ندعوا اي بتلك العظمة كل اناس اي منكم بامامهم الامام في اللغة كل من ائتم به قوم
كانوا على هدى او ضلالة فالنبي امام امته والخليفة امام رعيته والقران امام المسلمين
وامام القوم هو الذي يقتدون به في الصلاة وذكروا في تفسير الامام هنا اقوالا
احدها امامهم نبيهم روي ذلك مرفوعا عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم
فينادي يوم القيامة يا امة ابراهيم يا امة موسى يا امة عيسى يا امة عيسى يا امة
محمد فيقوم اهل الحق الذين اتبعوا الانبيا فياخذون كتبهم بايمانهم ثم ينادي بالاتباع
يا اتباع ثمود يا اتباع فرعون يا اتباع فلان وفلان من رؤسا الضلال واكابر الكفر
الثاني امامهم كتابهم الذي انزل عليهم فينادي في القيامة يا اهل القران يا اهل التوراة

يا اهل الانجيل

يا اهل الانجيل الثالث امامهم كتاب اعمالهم قال تعالى وكل شيء احصيناه في امام
مبين فسمى الله تعالى هذا الكتاب اماما قال الزمخشري ومن بدع التفاسير الامام
جمع ام وان الناس يدعون يوم القيامة بامهاتهم دون ابائهم وان الحكمة فيه رعاية
حق عيسى واظهار شرف الحسن والحسين وان لا تفضح اولاد الزنا قال وليت شعري
ايها ابدع اصحة لفظة ام بها حكمته قال ابن عادل وهو معذور لان اما لا يجمع على امام
هذا قول من لا يعرف الصناعة ولا لغة العرب فمن اوتي اي من المدعوين كتابه
اي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء اولوا البصائر في الدنيا فاولئك يقرؤن كتابهم
ابتهاجا وتبجحا مما يرون فيه من الحسنات ولا يظلمون بنقص حسنة ما من ظالم
ما فتيلا اي شيئا في غاية القلة والحقارة بل يزدادون بحسب اخلاص النيات
وطهارة الاخلاق وزكاء الاعمال تنبيه الفتيل القشرة التي في شق النواة سمي
بذلك لانه اذا رام الانسان اخراجه انفتل وهذا مثل يضرب للشيء الحقير التافه
ومثله القطمير وهو الغلالة التي على ظهر النواة والنقير وهو النقرة التي في ظهر
النواة وروى مجاهد عن ابن عباس قال الفتيل هو الوسخ الذي يفتله الانسان
بين سبابته وابهامه فان قيل لم خص اصحاب اليمين بقراءة كتابهم مع ان اهل
الشمال يقرؤنه اجيب بان اصحاب الشمال اذا طالعوا كتابهم وجدوه مشتملا
على المهلكات العظيمة والقبائح الكاملة فيستولي الخوف على قلوبهم ويثقل
لسانهم فيعجزون عن القراءة الكاملة واما اصحاب اليمين فامرهم على عكس
ذلك لا جرم انهم يقرؤن كتابهم على احسن الوجوه ثم لا يقنعون بقراءتهم
وحدهم بل يقول القارئ لاهل المحشر هاؤم اقرؤا كتابيه جعلنا الله تعالى
وجميع احبابنا منهم ثم قال تعالى ومن كان منهم في هذه اي الدار اعمى اي ضالا
يعمل في الافعال فعل الاعمى في اخذ الاعيان لا يهتدي الى اخذ ما ينفعه وترك
ما يضره ولا يميز بين حسن وقبيح فهو في الاخرة اعمى اي اشد عمى ما كان عليه في هذه الدار
لا ينجح له قصد ولا يهتدي لصواب ولم يقل تعالى اشد عمى كما يقال في الخلق اللازمة
لحالة واحدة مثل العور والحمرة والسواد ونحوها لان هذا مراد به عمى القلب
الذي من شانه التزايد والحدوث في كل لحظة شيئا بعد شيء واضل سبيلا لان هذه الدار
دار الاكتساب والترقي بالاسباب واما تلك فليس فيها شيء من ذلك وقال عكرمة جاء نفر
من اهل اليمن الى ابن عباس فسأله رجل عن هذه الاية فقال اقرأ ما قبلها
فقرأ ربكم الذي يزجي لكم الى قوله تفضيلا فقال ابن عباس من كان اعمى في هذه النعم
التي قد رأى وعاين فهو في الاخرة التي لم يعاين ولم ير اعمى واضل سبيلا وعلى هذا
فالاشارة في قوله هذه الى النعم المذكورة في الايات المتقدمة وحمل بعضهم
العمى الثاني على عمى العين والبصر كما قال تعالى ونحشره يوم القيامة اعمى قال
رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك اتتك اياتنا فنسيتها وكذلك
اليوم تنسى وقال تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وهذا
العمى زيادة في عقوبتهم ولما عدد تعالى في الايات المتقدمة اقسام نعمه على خلقه
واتبعها بذكر درجات الخلق في الاخرة وشرح احوال السعداء اردفه بما يجري مجرى تحذير

السعداء عن الاغترار بوسواس ارباب الضلال والانخداع بكلماتهم المشتملة على المكر والتلبيس
فقال تعالى وان كادوا اي قاربوا في هذه الحياة الدنيا لعماهم في انفسهم عن عصمة الله تعالى
لك ولما كانت ان هي المخففة من الثقيلة اتى باللام الفارقة بينها وبين النافية بقوله تعالى
ليفتنونك اي ليخالطونك مخالطة تميلك الى جهة قصدهم لكثرة خداعهم واختلف في سبب
نزول هذه الآية فروى عطاء عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في وفد ثقيف اتوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم وقالوا نبايعك على ان تعطينا ثلاث خصال قال وما هن
قالوا الا تجبى في الصلاة بفتح الجيم والباء الموحدة المشددة اي لا تنحني فيها ولا تكسر اصنامنا
الا بايدينا وان تمتعنا باللات سنة من غير ان نعبدها فقال النبي صلى الله عليه وسلم
لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود واما ان تكسروا اصنامكم بايديكم فذلك لكم واما الطاغية
يعني اللات والعزى فاني غير ممتعكم بها وفي رواية وحرم وادينا كما حرمت مكة شجرها
وطيرها ووحشها فابى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجبهم فقالوا يا رسول الله
انا نحب ان تسمع العرب انك اعطيتنا ما لم تعط غيرنا فان خشيت ان تقول العرب
اعطيتهم ما لم تعطنا فقل الله امرني بذلك فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فطمع القوم
في سكوته ان نعطيهم ذلك فصاح عليهم عمر وقال اما ترون رسول الله صلى الله
عليه وسلم قد امسك عن الكلام كراهة لما تذكرونه فانزل الله تعالى هذه الآية وقال
سعيد بن جبير كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الاسود فمنعه قريش وقالوا
لا ندعك حتى تلم بالهتنا وتمسها فحدث نفسه ما علي ان افعل ذلك والله يعلم اني لها
لكاره بعد ان يدعوني حتى استلم الحجر فانزل الله تعالى هذه الآية وروي ان قريشا
قالوا له اجعل آية رحمة آية عذاب وآية عذاب آية رحمة حتى نؤمن بك فنزلت
وان كادوا ليفتنونك عن الذي اوحينا اليك من اوامرنا ونواهينا ووعدنا ووعيدنا
لتفترين اي لتتقول علينا غيره اي ما لم نقله واذا اي لو ملت الى ما دعوك اليه لاتخذوك
اي بغاية الرغبة خليلا اي توالوك وصافوك واظهروا للناس انك موافق لهم على كفرهم
راض بشركهم ومن يكن خليل الكفار لم يكن خليل الله تعالى ولكنك ابصرت رشدك
فلزمت امر الله واستمروا على عماهم اتماما لتفضيلنا لك على كل مخلوق ولولا ان ثبتناك
اي على الحق بعصمتنا اياك لقد كدت اي قاربت تركن اي تميل اليهم اي الاعداء شيئا اي ركونا
قليلا لمحبتك في هدايتهم وحرصك على منفعتهم ولكنا عصمناك فمنعناك ان تقرب
من الركون فضلا من ان تركن اليه لان كلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره تقول
لولا زيد لهلك عمرو ومعناه ان وجود زيد منع من حصول الهلاك لعمرو فكذلك ههنا
قوله تعالى ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم معناه لولا حصل تثبيت الله
لمحمد فكان تثبيت الله مانعا من حصول قرب الركون وهذا صريح في انه عليه الصلاة
والسلام ما هم باجابتهم مع قوة الداعي اليها ودليل على ان العصمة بتوفيق الله
وحفظه اذا اي لو قاربت الركون الموصوف اليهم لاذقناك ضعف عذاب الحياة
وضعف عذاب الممات اي مثلي ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة وكان اصل الكلام
عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات ثم حذف الموصوف واقيمت الصفة
مقامه ثم اضيفت كما يضاف موصوفها وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة

وضعف

وضعف الممات عذاب القبر والسبب في تضعيف هذا العذاب ان اقسام نعمة الله تعالى
في حق الانبيا عليهم الصلاة والسلام اكثر فكانت ذنوبهم اعظم فكانت العقوبة المستحقة
عليها اكثر ونظيره قوله تعالى يا نسا النبي من يات منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها
العذاب ضعفين وقيل الضعف من اسما العذاب ثم لا تجد لك اي وان كنت اعظم الخلق
واعلاهم مرتبة وهمة علينا نصيرا اي مانعا يمنعك من عذابنا واختلف في سبب نزول
قوله تعالى وان اي وانهم كادوا اي الاعدا ليستفزونك اي ليزعجونك بمعاداتهم من الارض
ليخرجوك منها فقال بن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة حسدته
اليهود وكرهوا قربه منهم وقالوا يا ابا القاسم ان الانبيا انما بعثوا بالشام وهي بلاد
مقدسة وكانت مسكن ابراهيم فلو خرجت الى الشام امنا بك واتبعناك وقد علمنا
انه لا يمنعك من الخروج الا خوف الروم فان كنت رسول الله فالله يمنعك منهم فعسكر
رسول الله صلى الله عليه وسلم على اميال من المدينة وقيل بذي الحليفة حتى يجتمع اليه
اصحابه ويراه الناس عازما على الخروج الى الشام فيدخلوا في دين الله فنزلت هذه
الاية فرجع وهذا قول الكلبي وعلى هذا فالاية مدنية والمراد بالارض ارض المدينة
وقال قتادة ومجاهد الارض ارض مكة والاية مكية هم المشركون ان يخرجوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم من مكة فكفهم الله تعالى عنه حتى امره بالهجرة فخرج بنفسه
قال بن عادل تبعا للرازي وهذا اليق بالاية لان ما قبلها خبر عن اهل مكة والسورة
مكية وهذا اختيار الزجاج وكثر في التنزيل ذكر الارض والمراد منها مكان مخصوص
كقوله تعالى او ينفوا من الارض اي من مواضعهم وقوله تعالى حكاية عن اخي يوسف
فلن ابرح الارض يعني الارض التي قصدها لطلب الميرة فان قيل قال تعالى وكاين
من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك يعني اهل مكة والمراد اهلها فذكر تعالى
انهم اخرجوه وقال تعالى هنا وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها فكيف
الجمع بينهما على القول الثاني اجيب بانهم هموا باخراجه وهو صلى الله عليه وسلم ما خرج
بسبب اخراجهم وانما خرج بامر الله تعالى وحينئذ فلا تناقض واذا اي واذا اخرجوك
لا يلبثون خلفك اي بعد اخراجك لو اخرجوك لازمنا قليلا وقد كان كذلك على القول
الثاني فانهم اهلكوا ببدر بعد هجرته وعلى القول الاول قتل منهم بني قريظة واجلى
بني النضير بقليل وقرا نافع وبن كثير وابو عمرو وشعبة بفتح الخا وسكون اللام والباقون
بكسر الخا وفتح اللام وبعدها الف قال الشاعر عفت الديار اي اندرست خلافهم
اي خلفهم فكانما بسط الشواطب بينهن حصيرا الشواطب النسا اللاتي يشققن
الجريد ليعمل منه الحصير والشطب سعف النخل الاخضر يصف دروس ديار الاحبة
بعدهم وانها غير مكنوسة كما بسط فيها سعف النخل ولما اخبره تعالى بذلك اعلمه
انه سنة في جميع الرسل بقوله تعالى سنة اي كسنة او سنتنا بك سنة من قد
ارسلنا قبلك اي في الازمان الماضية كلها من رسلنا انما نهلك كل امة اخرجوا
رسولهم من بين اظهرهم فالسنة لله واضافتها الى الرسل لانها من اجلهم ويدل عليه
قوله تعالى ولا تجد لسنتنا تحويلا اي تغييرا ولما قرر تعالى الالهيات والمعاد والنبوات
اردفها بذكر الامر بالطاعة واشرف الطاعات بعد الايمان الصلاة فلذلك قال تعالى

BULAC

أقم الصلاة تفعل جميع اركانها وشرائطها بحيث تصير كانها قائمة بنفسها فانها لب العبادة لما فيها من المناجاة والاعراض عن كل غير وفناء كل سوى بما اشتمل من انوار الحضرة التي اضمحل اليها كل فان وفي ذلك اشارة عظيمة الى ان الصلاة اعظم ناصر على الاعداء الذين يريدون بكم اشد الشر ازالا اولياء ولذلك كان صلى الله عليه وسلم اذا اجزعه امر فزع الى الصلاة ثم عين له الاوقات بقوله تعالى لدلوك الشمس وفي هذه اللام قولان احدهما انها بمعنى بعد اي بعد دلوك الشمس وحسنه قرب تمام فلما تغرقتا كاني وما لكا لطول اجتماع لم يبت ليلة معا والثاني انها على بابها لانها لملتجب بزوال الشمس والدلوك مصدر دلكت الشمس وفيه اقوال احدها انه الزوال وهو قول بن عباس وبن عمر وجابر واكثر التابعين ويدل لذلك قوله صلى الله عليه وسلم اتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقول اهل اللغة معنى الدلوك في كلام العرب الزوال ولذلك قيل للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة والثاني انه الغروب وهو قول بن مسعود ونقله الواحدي في البسيط عن علي رضي الله تعالى عنه وبه قال ابراهيم النخعي والضحاك والسدي وهو اختيار الفراء كما تقول للشمس اذا زالت نصف النهار دالكة تقال لها ايضا اذا غربت دالكة لانها في الحالين زائلة قاله الازهري والثالث انه من الزوال الى الغروب وقال في القاموس دلكت الشمس غربت او اصفرت او مالت او زالت عن كبد السماء فبهذه الاربعة دلالة على الظهر والعصر والمغرب بحسب استعمال المشترك في معانيه اما في الظهر والمغرب فواضح لما مر واما العصر فلان اول وقتها اول اخذ الشمس في الاصفرار وادل دليل على ذلك انه تعالى عبر عنها بالاقامة بوقت العشاء بقوله تعالى الى غسق الليل اي ظلمته وهو وقت صلاة عشاء الاخرة والغاية ايضا هنا داخلة لما سبق وقد اختلفوا على ان المراد من قوله تعالى وقرآن الفجر صلاة الصبح وهو منصوب بفعل على الاغراء اي وعليك بقرآن الفجر وردبان اسماء الافعال لا تعمل مضمرة وقال الفراء انه منصوب بالعطف على الصلاة في قوله تعالى اقم الصلاة والتقدير اقم الصلاة واقم قرآن الفجر وحينئذ تدخل الصلوات الخمس في هذه الاية قال بن عادل والرازي وحمل كلام الله على ما يكون اكثر فائدة اولى انتهى وسميت صلاة الصبح قرانا لاشتمالها عليه وان كانت بقية الصلوات ايضا مشتملة عليه لانه يطول فيها في القراءة مما لا يطول في غيرها فالمقصود من قوله تعالى وقرآن الفجر الحث على طول القراءة فيها اكثر من غيرها لان التخصيص بالذكر يدل على كونه اكمل من غيره ولما كان القيام على المنام يشق علل مرغبا مظهرا غير مضمر لان المقام مقام تعظيم فقال ان قرآن الفجر كان مشهودا اي يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء اخرجه بن ابي حاتم وابو الشيخ عن ابي هريرة وفي رواية عنه عند احمد والنسائي وبن ابي حاتم وابن مردويه وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابي هريرة ايضا مرفوعا يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو اعلم بكم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون واتيناهم وهم يصلون وفي رواية عند احمد والبخاري ومسلم والنسائي وبن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابي هريرة ايضا مرفوعا يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو اعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون تركناهم وهم يصلون واتيناهم وهم يصلون وفي رواية عند احمد والبخاري ومسلم والنسائي وبن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابي هريرة ايضا مرفوعا يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الصبح في

ملكون ملائكة بالليل حاضرة ثم امتدت الصلاة بسبب ترتيل القراءة وتكثير ركعاتها الى
الظلمة وظهر الضوء حضرت ملائكة النهار واما اذا ابتدأ بهذه الصلاة في وقت التنوير فهناك
لم يبق احد من ملائكة الليل فلا يحصل المعنى المذكور في قوله كان مشهودا بدل على ان التغليس
افضل وايضا الانسان اذا شرع في صلاة الصبح من اول هذا الوقت كانت الظلمة القوية
في العالم فاذا امتدت القراءة فتى اتى هذا الوقت ينقلب العالم من الظلمة الى الضوء والظلمة
مناسبة للموت والعدم والضوء مناسب للحياة والوجود فالانسان لما قام من منامه
فكانه انتقل من الموت الى الحياة ومن العدم الى الوجود ومن السكون الى الحركة وهذه الحالة
العجيبة تشهد العقول بانه لا يقدر على هذا التقليب الا الخالق المدبر بالحكمة البالغة
فحينئذ يستنير العقل بنور هذه المعرفة ويتخلص من مرض قلبه فان اكثر الخلق وقعوا في
امراض القلوب وهي حب الدنيا والحرص والحسد والتفاخر والتكاثر وهذه الدنيا مثل دار
المرضى اذا كانت مملوءة من المرضى والاطباء كالاطباء الحاذقين والمريض ربما كان قد قوي مرضه
فلا يعود الى الصحة الا بمعالجات قوية وربما كان المريض جاهلا فلا ينقاد للطبيب ويخالفه
في اكثر الامر الا ان الطبيب اذا كان مشفقا حاذقا فانه يسعى في ازالة ذلك المرض بكل طريق يقدر
عليه وان لم يقدر على ازالته فانه يسعى في تقليله وفي تخفيفه فلما كان مرض الدنيا مستولي على
الخلق ولا علاج له الا بالدعوة الى معرفة الله سبحانه وتعالى وخدمته وطاعته وهذا علاج شاق
على النفوس وقل من يقبله وينقاد له لا جرم ان الانبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض فحملوا
الخلق على الشروع في الطاعة والعبودية من اول وقت القيام من النوم لانه مما ينفع في ازالة
هذا المرض ثم حث سبحانه وتعالى على التهجد لافضليته وارشد نبيه بقوله تعالى ومن الليل
اي وعليكم او وقتم بعض الليل فتهجد اي فاتركوا الهجود للصلاة يقال هجد وتهجد سهر
فهو من الاضداد ومنه قيل لصلاة الليل التهجد لانه في الفتاح والضم في به لمطلق
القران والمراد من الاية قيام الليل لصلاة النافلة فلا يحصل التهجد الا بصلاة تفعل بعد
نوم وكانت فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى امته في الابتداء بقوله تعالى يا ايها
المزمل قم الليل الا قليلا ثم نسخ بالاخر هذا ثم نسخ بالصلوات الخمس وبقي قيام الليل
على الاستحباب بقوله تعالى فاقرءوا ما تيسر منه وبقي الوجوب في حقه صلى الله عليه وسلم
بدليل قوله تعالى نافلة لك اي زيادة لك مختصة بك وروي عن عايشة رضي
الله تعالى عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاث هن علي فريضة وهي سنة لكم
الوتر والسواك وقيام الليل والصحيح ان نسخ في حقه ايضا ودليل النسخ رواه مسلم وقد
وردت احاديث كثيرة في قيام الليل منها ما روي عن المغيرة بن شعبة قام صلى الله
صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له اتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم
من ذنبك وما تاخر قال افلا اكون عبدا شكورا وما روي عن زيد بن خالد الجهني انه
قال لارمقن رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فتوسدت عتبته او فسطاطه
فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم صلى ركعتين طويلتين طويلتين ثم صلى ركعتين
ثم صلى ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم اوتر فذلك ثلاثة
عشر ركعة هذا قيل انه اكثر الوتر وهو احد قولي الشافعي والمرجح عنده ان اكثره احد عشر لما رواه
ابو سلمة انه سال عايشة رضي الله تعالى عنها عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقالت ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على احدى عشرة ركعة اي وقد يصلي اربعا

صلاة ع

فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي اربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم يصلي ثلاثا قالت
عائشة فقلت يا رسول الله اتنام قبل ان توتر فقال يا عائشة ان عيني تنامان ولا ينام
قلبي ومنها ما روي عن انس بن مالك قال كنا نشاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الليل فيصلي
ولا نشاء ان نراه نائما الا رايناه وفي رواية عنه قال كان يصوم الشهر حتى نقول لا يفطر
منه شيا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيا ثم قال تعالى عسى ان يبعثك ربك اي الحسن اليك
مقاما محمودا اتفق المفسرون على ان كلمة عسى من الله واجب قال اهل المعاني لان
لفظة عسى يفيد الاطماع ومن اطمع انسانا في شيء ثم حرمه كان عارا والله اكرم ان يطمع
احدا في شيء ثم لا يعطيه ذلك واما المقام المحمود فقال الواحدي اجمع المفسرون على
انه مقام الشفاعة كما قال صلى الله عليه وسلم في هذه الاية هو المقام الذي اشفع فيه
لامتي وقال حذيفة يجمع الناس في صعيد واحد فلا يتكلم نفس فاول من يدعو محمدا صلى الله
عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس اليك والمهدي من هديت وعبدك
بين يديك وبك واليك لا ملجا ولا منجا منك الا اليك تباركت وتعاليت سبحانك رب
البيت فذلك هذا هو المراد من قوله تعالى عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا ويدل
للاول احاديث منها ما روي عن ابي هريرة انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل
نبي دعوة مستجابة واني اختبات دعوتي شفاعة لامتي وهي نايلة منكم ان شاء الله من مات
لا يشرك بالله شيا ومنها ما روي عن جابر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة اٰت
محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم
القيامة ومنها ما روي عن انس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المومنون يوم
القيامة حتى يهموا بذلك فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيريحنا من مكاننا
فياتون ادم فيقولون انت ادم ابو البشر خلقك الله بيده واسكنك جنته واسجد
لك ملايكته وعلمك اسماء كل شيء اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول
لست هناكم ويذكر خطيئته التي اصاب كلها من الشجرة وقد نهي عنها ولكن ايتوا نوحا
اول نبي بعثه الله الى اهل الارض فياتون نوحا فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته
التي اصاب سؤال ربه بغير علم ولكن ايتوا ابراهيم خليل الرحمن فياتون ابراهيم
فيقول لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن ولكن ايتوا موسى عبدا اتاه الله
التوراة وكلمه وقربه نجيا فياتون موسى فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته
التي اصاب قتله النفس ولكن ايتوا عيسى عبد الله وكلمته قال فياتون عيسى فيقول
لست هناكم ولكن ايتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تاخر
قال فياتوني فاستاذن على ربي فيوذن لي فاذا رايته وقعت ساجدا فيدعني
ما شاء الله ان يدعني فيقول ارفع يا محمد وقل تسمع واشفع تشفع وسل تعطه قال
فارفع راسي فاثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه فيحد لي حدا فاخرجهم من النار وادخلهم
الجنة ثم اعود فاقع ساجدا فيدعني ما شاء الله ان يدعني فيقول ارفع يا محمد وقل تسمع
واشفع تشفع وسل تعطه قال فارفع راسي فاثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه قال
ثم اشفع فيحد لي حدا فاخرجهم من النار وادخلهم الجنة قال فلا ادري في الثالثة او الرابعة
فاقول يا رب ما بقي الا من حبسه القران اي وجب عليه الخلود وعن ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما

دعنهما مقاما محمودا يحمدك فيه الاولون والاخرون وتشرف فيه على جميع الخلايق سل فتعطى
واشفع فتشفع ليس احد الا تحت لوايك والاخبار في الشفاعة كثيرة وفي هذا القدر كفاية
لاولي البصاير جعلنا الله تعالى وجميع احبابنا من اهلها الداخلين تحت شفاعة سيدي
الانبيا والمرسلين امين واختلف اهل التفسير في قوله تعالى وقل رب ادخلني مدخل
صدق واخرجني مخرج صدق فقال بن عباس والحسن ادخلني مدخل صدق المدينة واخرجني
مخرج صدق مكة نزل حين امر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة وقال الضحاك اخرجني مخرج
صدق من مكة امنا من المشركين وادخلني مدخل صدق ظاهرا عليهما بالفتح وقال مجاهد
بالفتح وقال مجاهد ادخلني في امرك الذي ارسلتني به من النبوة مدخل صدق واخرجني
من الدنيا وقد قمت بما وجب علي من حقها مخرج صدق وقيل ادخاله الغار واخراجه منه سالما
وقيل ادخلني مدخل صدق الجنة واخرجني مخرج صدق من مكة وقيل ادخلني في القبر مدخل
صدق ادخالا مرضيا واخرجني منه عند البعث مخرج صدق اخراجا ملقى بالكرامة والجامع
لهذه الاقوال ما جرى عليه البقاعي في تفسيره بقوله في كل مقام تريد ادخالي فيه
حسي ومعنوي دنيا واخرى مدخل صدق يستحق الداخل فيه ان يقال له انت صادق في قولك
وفعلك فان ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها واخرجني من كل ما يخرجني منه مخرج صدق انتهى
والمراد من المدخل والمخرج الادخال والاخراج ومعنى اضافة المدخل والمخرج الى الصدق مدحهما
كانه سال الله تعالى ادخالا حسنا واخراجا حسنا لا يرى فيهما ما يكره ثم سال الله تعالى ان يرزقه
التقوية بالحجة وبالقهر والقدرة فقال واجعل لي من لدنك اي عندك سلطانا نصيرا اي حجة بينة
ظاهرة تنصرني بها على جميع من خالفني وقد اجاب الله تعالى دعاه واعلمه انه يعصمه من الناس بقوله
تعالى والله يعصمك من الناس وقال تعالى الا ان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ليظهره على الدين
كله وقال تعالى ليستخلفنكم في الارض ووعده تعالى لينزعن ملك فارس والروم فيجعله له وعنه
صلى الله عليه وسلم انه استعمل عتاب بن اسيد على اهل مكة وقال انطلق فقد استعملتك على
اهل الله فكان شديدا على المريب لينا على المومن وقال والله لا اعلم متخلفا يتخلف عن الصلاة
الا منافقا فقال اهل مكة يا رسول الله لقد استعملت على اهل الله عتاب بن اسيد اعرابيا جافيا
فقال صلى الله عليه وسلم اني رايت فيما يرى النايم كان عتاب بن اسيد اتى باب الجنة فاخذ
بحلقة الباب فقلقلها قلقالا شديدا حتى فتح له فدخلها فاعز الله الاسلام لنصرة المسلمين
على من يريد ظلمهم فذلك السلطان النصير ثم امره الله تعالى ان يخبر بالاجابة بقوله تعالى وقل اي
لاوليايك واعدايك جاء الحق وهو كل ما امرني به ربي وانزله الي وزهق اي اضمحل وبطل وهلك
الباطل وهو كل ما خالف الحق ثم علل زهوقه بقوله تعالى ان الباطل اي وان ارتفعت له دولة
وصولة كان في نفسه بجبلته وطبعه زهوقا اي لا يبقى بل يزول على اسرع الوجوه قضا قضاه
الله من الازل روى البخاري في التفسير وغيره عن بن مسعود قال دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة
يوم الفتح وحول الكعبة ثلثماية وستون صنما صنم كل قوم بحيالهم فجعل يطعنها بعود في يده
ويقول جاء الحق وزهق الباطل فجعل الصنم ينكب بوجهه وعن بن عباس كانت لقبايل العرب
اصنام يحجون اليها ويخرون لها فشكى البيت الى الله تعالى فقال اي رب الى متى تعبد هذه الاصنام
حولي دونك فاوحى الله تعالى الى البيت اني ساحدث لك نوبة جديدة فاملاك خدودا سجدا
يدفون اليك دفيف النسور ويحنون اليك حنين الطير الى بيضها لهم عجيج حولك بالتلبية

ولما نزلت هذه الاية يوم الفتح قال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم خذ مخصرتك ثم ألقها فجعل يأتي صنما صنما وهو يتكئ بالمخصرة في عينه ويقول جاء الحق وزهق الباطل فسقطت الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعا وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير فقال يا علي ارم به فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره فجعل اهل مكة يتعجبون ويقولون ما رأينا رجلا اسحر من محمد قال الزمخشري وسكانية البيت والوحي اليه تحسيل وتمثيل ولما بين سبحانه وتعالى الالهيات والنبوات والحشر والبعث واثبات القضاء والقدر ثم انعم بالامر بالصلاة وبدء عما مافيها من الاسرار وكان القرآن هو الجامع لجميع ذلك اتبعه ببيان كونه شفاء ورحمة بقوله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين اي ما هو شفاء لقلوبهم ودينهم واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى بنبيه في من هذه ثلاثة اوجه احدها انها للبيان الجنس قاله الزمخشري والبيضاوي وابن عطية وابو البقاء ورد عليهم ابو حيان بان التي للبيان لابد ان يتقدم عليها ما تبينه ولا ان تتقدم عليه وهنا قد وجد تقديمها عليه الثاني انها للتبعيض وانكر الحوفي لانه يلزم ان لا يكون بعضه شفاء واجاب ابو البقاء بان منه ما يشفي من المرض وهذا قد وجد ليل وقليه بعض الصحابة انه سبب الحي الذي لدغ بالفاتحة فشفي فيكون التبعيض بالنسبة للامراض الجسمانية والافهو كله شفاء للابدان وللقلوب من الاعتقادات وغيرها الثالث انها لابتداء الغاية وهو كما قال ابن عادل واضح ومن العجيب لهذا الشفاء لا يزيد الظالمين وهم الذين يضعون الشيء غير موضعه باعراضهم عما يجب فقوله الا خسارا اي نقصانا لانه اذا جاءهم وقامت به الحجة عليهم اعرضوا عنه فكان اعراضهم ذلك زيادة في كفرهم كما ان قبول المؤمنين له وافتاءهم على تدبره زيادة في ايمانهم وفي الدر المنثور عن قتادة قال ما جالس القرآن احد فقام عنه الا بزيادة او بنقصان ثم قرأ هذه الاية ثم انه تعالى ذكر السبب الاصلي في وقوع هؤلاء الجاهلين الضالين في اودية الضلال ومقامات الخزي والنكال وهو حب الدنيا والرغبة في المال والجاه واعتقادهم ان ذلك انما يحصل بسبب جدهم واجتهادهم فقال تعالى واذا انعمنا اي بالمال من الصحة على الانسان اي هذا النوع هو او غيرهم وقال ابن عباس ان الانسان ههنا هو الوليد بن المغيرة قال الرازي وهذا بعيد بل المراد ان نوع الانسان اذا انعمنا عليه اعرض اي عن ذكرنا ودعائنا اذ شان نوع الانسان انه اذا فاز بمقصوده ووصل الى مطلوبه اغتر وصار غافلا عن عبودية الله مصرا على طاعة الله كما قال تعالى ان الانسان ليطغى ان راه استغنى ونأى اي لوى عطفه وبعد نفسه كانه مستغن مستبد بامره ويجوز ان يضمن نأى بنكون كناية عن الاستكبار لانه من عادة المستكبرين ومعنى النأي في اللغة البعد والاعراض عن الشيء ان يوليه عرضه وجنبه وقرأ ابن ذكوان بالف ممدودة بعد النون وتاخير الهمز مثل ناى وفي هذه القراءة تخريجان احدهما انه من ناى ينوا اي نهض والثاني انه مقلوب من نأى فيكون بمعنى قالين عادل ولكن من الممكن عدم القلب فهو اولى وقرأ الباقون بالهمز بعد النون والف بعد الهمز وامال الالف بعد الهمز السوسي وشعبة وخلاد بخلف عنه والكسائي وفتح الباقون واذا مسه الشر اي هذا النوع وان قل كان يؤسا اي شديد اليأس بما عهده من رحمة ربه والحاصل انه ان فاز بالنعمة والدولة اعتز بها ونسي ذكر الله وان بقي في الحرمان عن الدنيا استولى عليه الاسف والحزن ولم يتفرغ لذكر الله فهذا المسكين

محروم

بخلاف عن السوسي وامالها وقرئ يئوسا

محروم ابدا عن ذكر الله ونظيره قوله تعالى فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه
فيقول ربي اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن وكذلك قوله
ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا من حفظه الله
تعالى وشرفه بالاضافة اليه فليس للشيطان عليه سلطان ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه
وسلم قل كل من الشاكر والكافر يعمل على شاكلته اي طريقته التي تشاكل روحه وتشاكل ما
طبعناه عليه من خير او شر فربكم اي فتسبب عن ذلك ان الذي خلقكم وصوركم اعلم من كل
احد بمن هو منكم اهدى سبيلا اي اوضح طريقا واحسن مذهبا واتباعا للحق فيشكر ويصبر
احتسابا فيعطيه الثواب ومن هو منكم اضل سبيلا فيحل له العقاب لانه يعلم ما طبعهم عليه
في اصل الخلقة وغيره تعالى انما يعلم امور الناس في طرائقهم بالتجربة وقد روى الامام احمد
لكن بسند منقطع عن ابي الدرداء رضي الله تعالى عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا
سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا واذا سمعتم برجل تغير عن طبعه فلا تصدقوا فانه
يصير الى ما جبل عليه واختلف في سبب نزول قوله تعالى ويسألونك اي تعنتا وامتحانا
عن الروح فعن عبد الله بن مسعود قال بينما انا امشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو يتوكأ على عسيب معه فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض اسألوه عن الروح
وقال بعضهم لا تسألوه لا يجيء شيء تكرهونه فقال بعضهم لتسألن فقام رجل منهم فقال
يا ابا القاسم ما الروح فسكت فقلت انه يوحى اليه فقمت فلما انجلى عنه قال
ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا قال بعضهم
لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه وقال ابن عباس ان قريشا اجتمعوا فقالوا ان محمدا نشأ فينا
بالصدق والامانة وما اتهمناه بكذب وقد ادعى ما ادعى فابعثوا نفرا الى اليهود بالمدينة
واسألوهم عنه فانهم اهل كتاب فبعثوا جماعة اليهم فقالت اليهود سلوه عن ثلاثة
اشياء وان اجاب عن كلها او لم يجب عن شيء منها فليس بنبي وان اجاب عن اثنين ولم يجب عن واحد
فهو نبي فسلوه عن فتية فقدوا في الزمن الاول ما كان امرهم فانه كان لهم حديث عجيب
وعن رجل بلغ شرق الارض ومغربها وعن الروح فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال اخبركم
بما سألتم غدا ولم يقل ان شاء الله فلبث الوحي قال مجاهد اثنى عشر ليلة وقيل خمسة عشر
يوما وقيل اربعين يوما واهل مكة يقولون وعدنا محمد غدا وقد اصبحنا لا يخبرنا
بشيء حتى حزن صلى الله عليه وسلم من مكث الوحي وشق عليه ما يقوله اهل مكة ثم نزل
جبريل عليه السلام بقوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء الله ونزل
في الفتية ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا ونزل فيمن بلغ
الشرق والغرب ويسألونك عن ذي القرنين ونزل في الروح ويسألونك عن الروح قل
الروح من امر ربي وقول الرازي ومن الناس من طعن في هذه الرواية من وجوه وذكر
من جملة ذلك كيف يليق به ان يقول انا لا اعرف هذه المسئلة مع انها من المسائل المشهورة
المذكورة بين جمهور الخلق غير لائق فان ذلك كان علامة على نبوته قال الزمخشري فبين
لهم القصتين وابهم امر الروح وهو مبهم في التوراة فندموا على سؤالهم انتهى واختلفوا
في الروح الذي وقع السؤال عنه فروي عن ابن عباس انه جبريل عليه السلام وهو قول الحسن
وقتادة وروي عن علي انه قال ملك له سبعون الف وجه لكل وجه سبعون الف لسان

BULAC

يسبح الله تعالى بكلها وقال مجاهد خلق على صورة بني آدم لهم أيد وأرجل ورؤوس وليسوا بملائكة
ولا ناس يأكلون الطعام وقال سعيد بن جبير لم يخلق الله تعالى خلقا أعظم من الروح غير العرش
لو شاء أن يبتلع السموات السبع والأرضين السبع ومن فيهن بلقمة واحدة لفعل صورة
خلقه على صورة الملائكة وصورة وجهه على صورة وجه الآدميين يقوم يوم القيامة على
يمين العرش وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى عند الحجب السبعين وأقرب إلى الله تعالى يوم
القيامة وهو ممن يشفع لأهل التوحيد لولا أن بينه وبين الملائكة سترا من نور لاحترق
أهل السموات من نوره وقيل الروح هو القرآن وقيل المراد منه عيسى فإنه روح الله
تعالى وكلمته ومعناه أنه ليس كما تقوله اليهود ولا كما تقوله النصارى وقال بعضهم هو الروح
المركب في الخلق الذي يحيى به الإنسان قال البغوي وهو الأصح وتكلم فيه قوم فقال
بعضهم هو الدم ألا ترى أن الحيوان إذا مات لا يفوت منه إلا الدم وقال قوم هو نفس
الحيوان بدليل أنه يموت باحتباس النفس وقال قوم هو عرض وقال قوم هو جسم لطيف
وقال بعضهم الروح معنى اجتمع فيه النور والطيب والعلم والعلو والبقاء ألا ترى أنه
إذا كان موجودا يكون الإنسان موصوفا بجميع هذه الصفات وإذا خرج ذهب
الكل قال البغوي وأولى الأقاويل أن يوكل علمه إلى الله عز وجل وهو قول أهل السنة قال
عبد الله بن بريدة إن الله تعالى لم يطلع على الروح ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا بدليل
قوله تعالى قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا أي في جنب علم الله تعالى
تنبيه اختلف من المخاطب بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فقيل هو النبي
صلى الله عليه وسلم وقيل اليهود فإنهم يقولون أوتينا التوراة وفيها العلم الكثير وقيل
عام روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا
الخطاب أم أنت معنا فيه فقال بل نحن وأنتم لم يؤت من العلم إلا قليلا فقالوا ما أعجب شأنك
ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذا فنزلت ولو أن ما في
الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده قال الزمخشري وليس ما قالوه بلازم لأن القلة والكثرة
يدوران مع الإضافة فيوصف الشيء بالقلة مضافا إلى ما فوقه وبالكثرة مضافا إلى ما تحته
والحكمة التي أوتيها العبد خير كثير في نفسها إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة وقيل
كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم معنى الروح ولكن لم يخبر به لأن ترك إخباره كان علما لنبوته
قال البغوي والأول أصح أن الله استأثر بعلمه انتهى وعن أبي يزيد لقد مضى النبي صلى
الله عليه وسلم وما يعلم الروح وقال الرازي قوله تعالى قل الروح من أمر ربي من فعل ربي
وهذا الجواب يدل على أنهم سألوه أن الروح قديمة أو حادثة فقال بل هي حادثة وإنما
حصلت بفعل الله وتكوينه وإيجاده ثم احتج على إحداث الروح بقوله تعالى وما
أوتيتم من العلم إلا قليلا بمعنى أن الأرواح في مبدأ الفطرة تكون خالية عن العلوم
والمعارف ثم تحصل المعارف والعلوم فهي لا تزال تكون في التغير من حال إلى حال وفي
التبديل من نقصان إلى كمال والتغير والتبدل من أمارات الحدوث فقوله قل الروح من أمر
ربي يدل على أنهم سألوه أن الروح هل هي حادثة أو قديمة فأجاب بأنها حادثة واقعة
بتخليق الله تعالى وتكوينه وهو المراد من قوله قل الروح من أمر ربي ثم استدل
على حدوث الأرواح بتغيرها من حال إلى حال وهو المراد بقوله وما أوتيتم من العلم إلا قليلا

فهذا

فهذا ما نقوله في هذا الباب انتهى وهو معنى لطيف ولما بين سبحانه وتعالى انه ما اتاهم
من العلم الا القليل بين انه لو شاء ان ياخذ منهم ذلك القليل ايضا لقدر عليه بقوله تعالى
ولئن شئنا اي ومشيتنا لا يتعاظمها شيء واللام موطئة للقسم واجاب عن القسم بما
اغنى عن جواب الشرط فقال لنذهبن اي بما لنا من العظمة ذهابا محققا بالذي اوحينا
اليك بان يمحو حفظه من القلوب وكتابته من الكتب وهذا وان كان امرا مخالفا للعادة
الا انه تعالى قادر عليه ثم اي بعد الذهاب به لا نجد لك به علينا وكيلا اي لا نجد من يتوكل
عليه في رد شيء منه واعادته مسطورا محفوظا وقوله تعالى الا رحمة من ربك استثناء متصل
لانه مندرج في قوله وكيلا والمعنى اي الا ان يرحمك ربك فيرده عليك او منقطع فيقدر
لكن عند البصريين وبل عند الكوفيين والمعنى ولكن رحمة من ربك او بل رحمة من ربك
بتركه غير مذهوب به وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن قال الرازي وهذا
ينبه على ان لله تعالى على جميع العلماء نوعين من المنة احدهما تسهيل ذلك العلم
عليهم والثاني ابقاء حفظه عليهم فعلى كل ذي علم ان لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام
بشكرهما وهما منة الله تعالى عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ومنته عليه في بقاء
المحفوظ فان قيل كيف يذهب بالقرآن وهو كلام الله تعالى اجيب بان المراد محو ما في
المصاحف واذهاب ما في الصدور وقال عبد الله بن مسعود اقرؤوا القرآن قبل ان
يرفع فانه لا تقوم الساعة حتى يرفع قيل هذه المصاحف ترفع فكيف ما في صدور
الناس قال يسرى عليه ليلا فيرفع ما في صدورهم فيصبحون لا يحفظون شيئا ولا يجدون
في المصاحف شيئا ثم يفيضون في الشعر وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال لا تقوم الساعة
حتى يرتفع القرآن من حيث نزل له دوي تحت العرش كدوي النحل فيقول الرب ما لك فيقول
يا رب اتلى ولا يعمل بي وفي رواية لابن مسعود اول ما تفقدون من دينكم الامانة واخر
ما تفقدون الصلاة ولتصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما
وما فيكم منه شيء فقال رجل كيف ذلك وقد اثبتناه في قلوبنا ومصاحفنا ونعلمه ابناءنا
ونعلمه ابناؤنا ابناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء يرفع المصاحف
وينزع ما في القلوب وقوله تعالى ان فضله كان اي ولم يزل عليك كبيرا فيه قولان
احدهما المراد منه ان فضله كان عليك كبيرا بسبب ابقاء العلم والقرآن عليك ثانيهما المراد
ان فضله كان عليك كبيرا بسبب انه جعلك سيد ولد آدم وختم بك النبيين واعطاك
المقام المحمود وقد انعم عليك ايضا بابقاء العلم والقرآن عليك ونزل حين قال
الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم لو شاء لقلنا مثل هذا القرآن قل اي لهؤلاء البعداء
لئن اجتمعت الانس الذين تعرفونهم وتعرفون ما اوتوا من البلاغة والحكمة والذين
لا تعرفونهم والجن الذين ياتون كهانكم ويعلمونهم ببعض المغيبات عنهم وغيرهم
وترك الملائكة لانهم لا عهد لهم بشيء من التفضل ولانهم كانوا وسائط على ان ياتوا بمثل
هذا القرآن في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى لا ياتون بمثله اي لا يقدرون على ذلك
فالقرآن معجز في النظم والتاليف والاخبار عن الغيوب وهو كلام في اعلا طبقات البلاغة
لا يشبه كلام الخلق ولو كان مخلوقا لاتوا بمثله تنبيه في قوله تعالى لا ياتون بمثله
قولان اظهرهما انه جواب للقسم الموطا له باللام والثاني انه جواب الشرط واعتذروا

BULAC

عن رفعه بان الشرط ماض فهو كقوله وان اتاه خليل اي فقير يوم مسيلة تقول لا غايب
مالي ولا حرم بكسر الرا اي ممنوع وبفتحه اي ولا حرام اي يعطى منه وقال الزمخشري ولولا اللام
الموطية لجاز ان يكون جوابا للشرط كقوله تقول لا غايب مالي ولا حرم لان الشرط وقع ماضيا
وناقشه ابو حيان بان هذا ليس مذهب سيبويه ولا الكوفيين والمبرد لان مذهب سيبويه
في مثله ان النية به التقديم ومذهب الكوفيين والمبرد انه على حذف الفا وهذا مذهب
ثالث قال به بعض الناس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا اي معينا بضم اقوى ما فيه
الى اقوى ما في صاحبه تنبيه قد تقدم في سورة البقرة ان الله تعالى قال فاتوا بسورة
من مثله وقدمنا الكلام على ذلك وفي وجه كون القران معجزا قولان احدهما انه معجز في نفسه
والثاني انه ليس في نفسه معجزا الا انه تعالى لما صرف دواعيهم عن الاتيان بمعارضته وكان الدواعي
متوفرة عن الاتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة يكون نقضا للعادة فيكون
معجزا والقول الاول اظهر ولقد صرفنا اي بينا بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان
للناس في هذا القران من كل مثل اي من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعا في الانفس
وقيل معناه من كل وجه من العبر والاحكام والوعد والوعيد والقصص وغيرها وقيل صفة
لمحذوف اي مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا فابى اكثر الناس وهم من هم في صورة الناس ككفار قريش
وقد سلبوا معانيهم الا كفورا اي جحودا فان قيل كيف جاز فابى اكثر الناس الا كفورا ولم يجز ضربت
الا زيدا اجيب بان ابى متاول بالنفي كانه قيل فلم يرضوا الا كفورا ولما تبين بالدليل اعجاز
القران على وفق دعوى محمد صلى الله عليه وسلم ولزمتهم الحجة وغلبوا اخذوا يتعللون
باقتراح الايات فعل المبهوت المجحود المتعثر في اذيال الحيرة وذكروا من ذلك ستة انواع
من المعجزات اولها قالوا اي كفار قريش ومن والاهم لن نؤمن لك حتى تفجر اي تفجيرا عظيما لنا
من الارض ينبوعا اي عينا لا ينضب ماؤها وقرا عاصم وحمزة والكسائي بفتح التا وسكون الفا
وضم الجيم مخففة والباقون بضم التا وفتح الفا وكسر الجيم مشددة ثانيها قولهم او تكون لك انت وحدك
جنة من نخيل وعنب اي واشجار عنب عبر عنه بالثمرة لان الانتفاع منه بغيرها قليل فتفجر
الانهار الجارية خلالها اي وسطها تفجيرا اي تشقيقا والفجر شق الظلام عن عمود الصبح والفجور
شق جلباب الحيا بما يخرج الى الفساد ثالثها قولهم او تسقط السما اي نفسها كما زعمت فيما
تتوعدنا به علينا كسفا اي قطعا جمع كسفة وهي القطعة وقرا نافع وابن عامر وعاصم بنصب
السين مثل قطعة وقطع وسدرة وسدر والباقون بسكونها مثل دمنة ودمن وسدرة وسدر
وهو نصب على الحال في القراتين جميعا كانه قيل او تسقط السما علينا مقطعة رابعها قولهم
او تاتي معك بالله اي الملك الاعظم والملائكة قبيلا اي اتيانا عيانا ومقابلة تنظر اليه لا يخفى
على احد منا شي منه وقال الضحاك هو جمع قبيلة اي اصناف الملائكة قبيلة قبيلة وقال ابن
هاني كفيلا اي يكفلون بما تقول خامسها قولهم او يكون لك اي خاصا بك بيت من زخرف
اي ذهب كامل الحسن والزينة سادسها قولهم او ترقى اي تصعد في السما درجة درجة ونحن
ننظر اليك صاعدا ولن نؤمن اي نصدق مذعنين لرقيك اي اصلا حتى تنزل وحققوا معنى كونه
من السما بقولهم علينا كتابا ومعنى كونه في رق او نحوه بقولهم نقروه يامرنا فيه باتباعك
روى عكرمة عن ابن عباس ان عقبة وشيبة ابني ربيعة وابا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث
وابا البختري بن هشام وعبد الله بن امية وامية بن خلف والوليد بن المغيرة وابا جهل بن هشام

والعاص

والعاص بن وائل وغيرهما ومنهم ابي الحجاج اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم
لبعض ابعثوا الى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا اليه ان اشراف قومك قد
اجتمعوا لكلمتك فكلموك فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا وهو يظن انه بدا لهم في امره
بدا وكان عليهم حريصا عجب رشدهم حتى جلس اليهم فقالوا يا محمد انا بعثنا اليك لنعذر
فيك وانا والله لا نعلم ان رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت
فيك وانا والله لا نعلم ان رجلا من العرب ادخل على قومه ما ادخلت على قومك لقد شتمت
الآباء وعبت الدين وسفهت الاحلام وشتمت الالهة وفرقت الجماعة فما بقي امر قبيح
الا وقد جئته فيما بيننا وبينك فان كنت جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جعلنا لك
من اموالنا حتى تكون اكثرنا مالا وان كنت تريد الشرف سودناك علينا وان كنت تريد ملكا
ملكناك علينا وان كان هذا الذي بك رأي تراه قد غلب عليك لا نستطع رده بذلنا اموالنا
في طلب الطب لك حتى نبرئك منه او نعذر فيك وكان يسمون التابع من الجن الرئي فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به لطلب اموالكم ولا للشرف عليكم
ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا وانزل علي كتابا وامرني ان اكون لكم بشيرا ونذيرا
فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وان تردوه علي
اصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم فقالوا يا محمد فان كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك وفعلت
انه ليس احد اضيق بلادا ولا اشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك فليسير عنا هذه الجبال
التي قد ضيقت علينا ويبسط لنا بلادنا ويفجر فيها انهارا كانهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى
من آبائنا وليكن منهم قصي بن كلاب فانه كان شيخا صدوقا فنسألهم عما تقول احق هو ام باطل فان صدقوك
صدقناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهذا بعثت فقد بلغتكم ما ارسلت به فان
تقبلوه فهو حظكم وان تردوه اصبر لامر الله قالوا فان لم تفعل فسل لنا ربك ان يبعث ملكا يصدقك
ويسله ان يجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي بالاسواق
وتلتمس المعاش كما نلتمسه فعال صلى الله عليه وسلم ما بعثت بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا
فالوا فاسقط السماء علينا كما زعمت ان ربك ان شاء فعل فقال ذلك الى الله ان شاء فعل بكم ذلك وقال
قائل منهم لن نؤمن لك حتى تاتينا بالله والملائكة قبيلا فلما قالوا ذلك قام رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقام معه عبد الله بن امية وهو ابن عاتكة بنت عبد المطلب وقال له عرض عليك
قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ثم سألوك ان تعجل ما خوفهم به من العذاب فلم تفعل فوالله لا
اومن لك ابدا حتى تتخذ الى السماء سلما ثم ترقى فيه وانا انظر حتى تاتيها وتاتي معك بنسخة منشورة معك
ونفر من الملائكة يشهدون لك بما تقول وايم الله لو فعلت ذلك لظننت ان لا اصدقك فانصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اهله حزينا لما راى من مباعدتهم فانزل الله هذه الآية
وفيها اشارة الى انه ليس من شرط كونه نبيا صادقا تواتر المعجزات الكثيرة ونزولها اذ لو فتح
هذا الباب لزم ان لا ينتهي الامر فيه الى مقطع وكلما اتى النبي بمعجز اقترحوا عليه معجزا اخر ولا
ينتهي الامر فيه الى حد ينقطع عنه عناد المعاندين وتعنت الجاهلين مع انه صلى الله عليه وسلم
اعطي من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر وتفجير العيون
من بين الاصابع وما اشبه ذلك ولما تعنتهم وكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب
عنه امر الله تعالى نبيه بقوله تعالى قل اي لهؤلاء المتعنتين سبحان ربي اي تعجبا
من اقتراحاتهم وتنزيها له عن ان يأتي او يتحكم عليه او يشاركه احد في القدرة وقد ابن كثير وابن عامر

قال بصيغة الماضي والباقون قل بصيغة الامر **قل ما كنت بدعا من الرسل** لا يقدر على غير ما يقدر عليه
البشر رسولا كما كان من قبلي من الرسل وكانوا لا يأتون قومهم الا بما يظهره الله تعالى على ايديهم
بما يلائم حال قومهم ولم يكن امر الآيات اليهم ولا لهم ان يتحكموا على الله حتى يجيء وها هذا
هو الجواب المجمل واما التفصيلي فقد ذكر في ايات اخر كقوله تعالى ولو نزلنا عليك كتابا
في قرطاس فلمسوه بايديهم ولو فتحنا عليهم بابا ونحو ذلك مما امر بما يتضمن انه كاحد من
من الرسل في كونه بشرا اتبعه قوله عطفا على ما مضى او وقالوا **وما منع الناس** اي قريشا ومن
قال بقولهم لما بهم من الاضطراب **أن يؤمنوا** اي لم يبق لهم مانع من الايمان والجملة مفعول
منع **إذ جاءهم الهدى** اي الدليل القاطع على الايمان وهو القرآن وغيره من الادلة وقرا ابو عمرو
وهشام بادغام ذال اذ عند الجيم والباقون بالاظهار وامالة الالف بعد الجيم حمزة وبن ذكوان
بخلفه واذا وقف حمزة على جاءهم سهل الهمزة مع المد والقصر **إلا أن قالوا** وفاعل منع ان قالوا
اي منكرين عليه غاية الانكار متعجبين منه متهكمين **أبعث الله بشرا رسولا** لان الكفار كانوا يقولون
لن نؤمن لك لانك بشر ولو بعث الله رسولا الى الخلق لوجب ان يكون ذلك الرسول من الملائكة
فاجابهم الله تعالى بقوله تعالى **قل** اي لهؤلاء المطرودين عن الرحمة **لو كان في الأرض ملائكة يمشون**
عليها كما لآدميين **مطمئنين** اي مستوطنين فيها كالبشر **لنزلنا عليهم** من بعد من كما فعلنا في تنزيل
جبريل عليه السلام على الانبياء من البشر وحقق الامر بقوله تعالى **من السماء ملكا رسولا** يعلمهم الخير
ويهديهم المراشد لتمكنهم من التلقي منه لمشاكلتهم له بخلاف البشر كما هو مقتضى الحكمة لان رسول
كل جنس ينبغي ان يكون منهم اذ الشيء عن شكله افهم وبه انس واليه احن وله الف الا من فضله
الله تعالى بتغليب روحه على نفسه وتغليب عقله على شهوته فاقتدر بذلك على التلقي من الملك
كالمرسلين ثم اجابهم الله تعالى جوابا اخر بقوله تعالى **قل كفى بالله** اي المحيط بكل شيء قدرة وعلما
شهيدا بيني وبينكم على اني رسوله اليكم باظهار المعجزات على وفق دعواه واني بلغت ما ارسلت
به اليكم وانكم عاندتم ومن شهد الله تعالى على صدقه فهو صادق فعند ذلك يقول الفاضل
بان الرسول يجب ان يكون ملكا لا انسانا تحكم فاسد لا يلتفت اليه نبه شهيدا نصب على الحال
او التمييز ثم انه تعالى ذكر ما هو كالتهديد والوعيد بقوله تعالى **إنه كان بعباده خبيرا بصيرا**
يعلم ظواهرهم وبواطنهم ويعلم من قلوبهم انهم لا يذكرون هذه الشبهات الا لمحض الحسد وحب
الرياسة والاستنكاف من الانقياد للحق ولما تقدم انه تعالى اعلم بالمهتدي والضال عطف عليه
قوله تعالى **ومن يهد الله** بان يخلق الهداية في قلبه **فهو المهتد** لا يمكن احد غيره ان يضله
بتنبيه اثبت نافع وابو عمرو واليا بعد الدال في الوصل دون الوقف وحذفها الباقون وقفا ووصلا **ومن يضلل فلن تجد لهم** اي الضالين **أولياء** يمدونهم من دونه ولا يشفعونهم شيء
اراده الله تعالى غيره ولما كان يوم القيامة يوما يظهر فيه لكل احد ما كان يعلمه نبه على ذلك بقوله
بقوله تعالى **ونحشرهم** بنون العظمة اي نجمعهم بكرة **يوم القيامة** الذي هو محط الحكمة **على وجوههم**
مشوهين عليها اماتة لهم فيها كما لم يذلوها بالسجود لنا قال تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم
او يمشون عليها روى ابو هريرة قيل يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم قال الذي يمشيهم
على اقدامهم قادر على ان يمشيهم على وجوههم قال قتادة الا سلام ان الكفار اراد احمد شد بن التعاقب
بالدنيا ولذاتها وليس لها تعلق بعالم الانوار وحضرة الالهية سبحانه فلما كانت وجوه قلوبهم
وارواحهم متوجهة الى الدنيا لاجرم كان حشرهم على وجوههم واما قوله تعالى **عميا وبكما وصما**

وبزيادة الالف بعد الحاء وكسرها مع ضم الشين وبالياء بعد الشين مع ضم الشين وكسرها

نعد

فقد استشكله شخص على بن عباس فقال اليس قال تعالى ورأى المجرمون النار وقال تعالى
سمعوا لها تغيظا وقال تعالى دعوا هنالك ثبورا وقال تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها
وقال تعالى حكاية عن الكفار والله ربنا ما كنا مشركين فثبت بهذه الآيات انهم يرون ويسمعون
ويتكلمون فكيف قال تعالى ههنا عميا وبكما وصما اجاب بن عباس وتلامذته عنه من وجوه
الاول قال بن عباس عميا لا يرون شيئا يسرهم صما لا يسمعون شيئا يسرهم بكما لا ينطقون
بحجة الثاني قال في رواية عطا عميا عن النظر اي عما جعله الله تعالى لاولائه وبكما عن مخاطبة
الله ومخاطبة الملائكة المقربين صما عن ثنا الله تعالى عليهم الثالث قال مقاتل انه حين يقال
لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون يصيرون عميا بكما صما اما قبل ذلك فهم يرون ويسمعون
وينطقون الرابع انهم يكونون رائين سامعين ناطقين في الموقف ولولا ذلك لما قدروا
على ان يطالعوا كتبهم ولا ان يسمعوا الالزام بحجة الله تعالى عليهم الا انهم اذا اخذوا يذهبون
من الموقف الى النار جعلهم الله تعالى عميا صما بكما قال الرازي والجواب الاول اولى لان الآيات
السابقة تدل على انهم في النار يبصرون ويسمعون ويصيحون ثم بين تعالى مكانهم بقوله تعالى
مأواهم جهنم تسعر عليهم كلما خبت اي اخذ لهبها في السكون عند اكلها لحومهم وجلودهم زدناهم
سعيرا توقدا باعادة الجلود واللحوم ملتهبة مسعرة كانهم لما كذبوا بالاعادة بعد الافنا جزاهم
الله تعالى بان لا يزالوا على الاعادة والافنا وقرا نافع وبن كثير وبن عامر وعاصم باظهار تا التانيث
عند الزاي وادغمها الباقون ثم بين علة تعذيبهم ليرجع منهم من قضى بسعادته بقوله تعالى ذلك
اي العذاب العظيم جزاؤهم بانهم اي اهل الضلالة كفروا بآياتنا القرآنية وغيرها وكانوا كل
يوم يزدادون كفرا وهم عازمون على الدوام على ذلك ما بقوا وقالوا انكارا لقدرتنا ائذا كنا عظاما
ورفاتا ممزقين في الارض ثم كرروا الانكار كانهم على ثقة من امرهم هذا الذي بطلانه اوضح من الشمس
بقولهم ائنا لمبعوثون خلقا جديدا فنحن نريهم جزاء على هذا الانكار المكرر الخلق الجديد
في جلودهم ولحومهم مكررا كل لحظة قال تعالى نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب
ثم اتبعه بقاطع في بيان جهلهم بقوله تعالى اولم يروا اي يعلموا بعيون بصائرهم على ما هو كالرؤية
بعيون ابصارهم لما قام عليه من الدلائل ونادى بصحته من الشواهد الجلائل ان الله الذي خلق
السموات جمعها لما دل على ذلك من الحسن ولما لم تكن الارض مثل ذلك افردها مزيدا الحسن الصالح
للجميع بقوله تعالى والارض على كبر اجرامها وعظم احكامها وقوله تعالى قادر على ان يخلق مثلهم
فيه قولان الاول المعنى قادر على ان يخلقهم ثانيا فعبر عن خلقهم ثانيا بلفظ المثل كما يقوله
المتكلمون ان الاعادة مثل الابتدا الثاني المراد قادر على ان يخلق عبيدا اخرين يوحدونه
ويقرون بكمال حكمته وقدرته ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة وعلى هذا فهو كقوله
تعالى ويأت بخلق جديد وقوله تعالى ويستبدل قوما غيركم قال الواحدي والقول هو
الاول لانه اشبه بما قبله ولما بين الله تعالى بالدليل المذكور ان البعث والقيام امر ممكن
الوجود في نفسه اردفه ببيان ان لوقوعه في الوجود وقتا معلوما عند الله وهو
قوله تعالى وجعل لهم اجلا لا ريب اي لا شك فيه هو الموت او القيامة او القيامة فابى
الظالمون الا كفورا اي بعد هذه الدلائل الظاهرة ابوا الا الكفر والجحود ولما قال الكفار
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فطلبوا اجرا الانهار والعيون في بلدتهم ليكثروا
اموالهم ويتسع عيشهم بين الله تعالى انهم لو ملكوا خزائن رحمة الله لبقوا على بخلهم

وشحهم بقوله تعالى قل اي لهولا المستغيثين لو انتم اي دون غيركم تملكون خزاين عبر بصيغة
منتهى الجموع لان المقام جدير بالمبالغة رحمة ربي اي خزاين رزقه وساير نعمه وذلك غير متناه
اذن لامسكتم اي لوقع منكم الامساك عن الانفاق في بعض الوجوه التي تحتاجونها خشية اي
مخافة عاقبة الانفاق اي الموصل الى الفقر فكان المعنى انكم لو ملكتم من الخير والنعم خزاين
لا نهاية لها لبقيتم على الشح والدناة وهذا مبالغة عظيمة في وصفهم بهذا الشح وقول البيضاوي
تبعا للزمخشري انتم مرفوع بفعل يفسره ما بعده قال الزمخشري تقديره لو تملكون جرى فيه
على مذهب الكوفيين من ان لو يليها الفعل مضمرا كما يليها ظاهرا اذ البصريون يمنعون ايلاء لها
مضمرا الا في شذوذ كقول حاتم لو ذات سوار لطمتني واصل هذا المثل ان امراة غفلا من الحلي
والهيئة لطمت حاتما على نحره الناقة وقال له النسوة انما امرناك بفصدها والفصد عندهم ان يقطع
عرق من عروق الناقة ثم يجمع دمها فيشوى وقيل اصله ان المراة المذكورة لطمت رجلا فقال
لها لو ذات سوار لطمتني لاحتملتها فصار مثلا يضرب لكريم يظلمه الدين ثم استدل على صحة
هذا المفروض بالمشاهد من مضمون قوله وكان اي جبلة وطبعا الانسان اي الذي من شانه
الانس بنفسه فهو لذلك لا يعقل الامور حق عقلها قتورا اي ممسكا بخيلا تنبيه فتح اليا في ربي
نافع وابو عمرو وسكنها الباقون وهم على مراتبهم في المدفان قيل قد يوجد في جنس الانسان من هو
جواد كريم اجيب من وجوه الاول ان الاصل في الانسان البخل لانه خلق محتاجا والمحتاج لا بد
وان يحب ما به يدفع الحاجة وان يمسكه لنفسه الا انه قد يجود به لاسباب من خارج فثبت ان
الاصل في الانسان البخل الثاني ان الانسان انما يبذل لطلب الثنا والحمد وليخرج عن عهدة
الواجب فهو في الحقيقة ما انفق الا لياخذ العوض فهو في الحقيقة بخيل الثالث ان المراد
بهذا الانسان المعهود السابق وهم الذين قالوا لن نومن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا
ولما قدم سبحانه وتعالى ان اكثر الناس جحد الايات لكونه تعالى حكم بضلالهم ومن حكم
بضلاله لا يمكن هداه شرع يسلي نبيه صلى الله عليه وسلم بما انفق لمن قبله من الانبيا
بقوله تعالى ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات اي واضحات واختلف في هذه
الايات فقال بن عباس والضحاك هي العصا واليد البيضا والعقدة التي كانت بلسانه
فحلها وفلق البحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وقال مجاهد وعطا
هي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنون ونقص من الثمرات
وقال البقاعي وهي كما في التوراة العصى ثم الدم ثم الضفادع ثم القمل ثم موت البهايم ثم
البرد الكبار التي انزلها الله تعالى مع النار المضطرمة فكانت تهلك كلما مرت
عليه من نبات وحيوان ثم الجراد ثم الظلمة ثم موت الابكار في الادميين وجميع الحيوان
ثم قال وقد نظمتها ليهون حفظها فقلت • عصى قمل موت البهايم ظلمة • جراد ثم دم
الضفادع والبرد • وموت ذكور الادمي وغيره • من الحي اتاها الذي عز وانفرد • قال
وكانه عد اليد مع العصى اية ولم يفرد اليد لانه ليس فيها ضرر عليهم انتهى وقال البيضاوي
هي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفجار الما من الحجر وانفلاق البحر
ونتق الطور على بني اسرايل وذكر محمد بن كعب القرظي الطمس والبحر بدل السنين ونقص
من الثمرات وقال كان الرجل منهم مع اهله في فراشه وقد صارا حجرين والمراة منهم قايمة
تختبز وقد صارت حجرا وقال بعضهم هي ايات الكتاب وهي احكام يدل عليه ما روي عن صفوان

كما

ابن يهوديا

ان يهوديا قال لصاحبه تعال نسال هذا النبي فقال الاخر لا تقل نبي فانه لو سمع صارت له اربعة
اعين فاتياه فسالاه عن هذه الاية ولقد اتينا موسى تسع ايات بينات فقال لا تشركوا
بالله شيا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تاكلوا الربا ولا تسحروا ولا
تمشوا بالبريء الى سلطان ليقتله ولا تسرقوا ولا تقذفوا المحصنة ولا تفروا من الزحف
وعليكم خاصة اليهود ان لا تعدوا في السبت فقبلوا يده وقالوا نشهد انك نبي قال فما
منعكم ان تتبعوني قالوا ان داود دعا ربه ان لا يزال في ذريته نبي وانا نخاف اذا تبعناك
ان تقتلنا اليهود وقال الدارمي اعلم انه تعالى ذكر في القران اشيا كثيرة من معجزات موسى عليه
السلام احدها انه تعالى ازال العقدة من لسانه قيل في التفسير ذهب اعجم وجا فصيحا
ثانيها انقلاب العصا حية ثالثها تلقفت الحية حبالهم وعصيهم مع كثرتها رابعها اليد
البيضا وخمسة اخرى وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعاشر شق البحر
وهو قوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر والحادي عشر وهو قوله تعالى واذ قلنا اضرب بعصاك
الحجر والثاني عشر اظلال الجبل وهو قوله تعالى واذ نتقنا الجبل فوقهم كانه ظلة والثالث
عشر انزال المن والسلوى عليه وعلى قومه والرابع عشر والخامس عشر قوله تعالى ولقد
اخذنا ال فرعون بالسنين ونقص من الثمرات والسادس عشر الطمسة على قلوبهم
اموالهم حجارة من النخل والدقيق والاطعمة والدراهم والدنانير روي ان عمر بن عبد العزيز
سال محمد بن كعب عن قوله تعالى تسع ايات بينات فذكر محمد بن كعب في جملة التسع حل عقدة
اللسان والطمس فقال عمر بن عبد العزيز هكذا يجب ان يكون الفقيه ثم قال يا غلام اخرج
ذلك الجراب فاخرجه فنفضه فاذا بيض مكسور نصفين وجوز مكسور وفوم وعدس
وحمص كلها حجارة وقوله تعالى فاسال اي يا اعظم خلقنا بني اسرائيل يجوز ان يكون الخطاب للنبي صلى
الله عليه وسلم والمراد غيره وقرا ابن كثير والكسائي بفتح السين ولا همز بعدها والباقون بسكون
السين وهمزة مفتوحة بعدها ويجوز ان يكون الخطاب له خاصة وامره بالسوال ليتبين
كذبهم مع قومهم اي فاسال بني اسرائيل عامة الذين نبهوا قريشا على السوال عن الروح كما في
بعض الروايات وعن اهل الكهف وذي القرنين عن حديث موسى عليه السلام او المومنين
منهم كعبد الله بن سلام واصحابه اذ اي عن ذلك حين جاءهم اي جا اباهم فوقع له من التكذيب
بعد اظهار المعجزات الباهرات ما وقع لك فقال اي فذهب الى فرعون فامره بارسالهم
معه فابى فاظهر له الايات واحدة بعد اخرى فتسبب عن ذلك صدق ما يقتضيه الحال وهو
ان قال له فرعون عتوا واستكبارا اني لاظنك يا موسى مسحورا اي مخدوعا مغلوبا على
عقلك فكل ما ينشا عنك فهو من اثار السحر وهذا كما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ان تتبعون
الا رجلا مسحورا وقال في موضع اخر ساحر فانهم ربما اطلقوا اسم المفعول مريدين اسم الفاعل
مبالغة في انه كالمجبر على الفعل وفي الامر بسوال اليهود تنبيه على ضلالهم ولما لم يومن
فرعون على تواتر تلك الايات وعظمها فكانه قيل فما قال موسى عليه السلام فقيل
قال لفرعون لقد علمت بفتح التا على قراة غير الكسائي وقرا الكسائي بضمها على اخباره عن نفسه
ما انزل هولا اي الايات الا رب السموات والارض اي خالقهما ومدبرهما حالة كون هذه الايات
بصائر اي بينات يبصر بها صدقي واما السحر فانه لا يخفى انه خيال لا حقيقة له ولكنك تعاند
تنبيه قوله تعالى هولا الكلام عليه من جهة الهمزتين كالكلام كالكلام على هولا ان كنتم في البقرة

وقد تقدم الكلام على ذلك ثم حكى الله تعالى ان موسى قال لفرعون وانى اي وان ظننتني يا فرعون
مسحورا لاظنك يا فرعون مثبورا اي ملعونا مطرودا ممنوعا من الخير فاسد العقل فعارضه
موسى بذلك وشتان بين الظنين فان ظن فرعون كذب صرف لعناده لرب العالمين لوضوح
مكابرته للبصائر التي كشف عنها وبها الغطى فهي اوضح من الشمس وظن موسى عليه السلام قريب
الى الصحة واليقين من تظاهر اماراته لان هذه الايات ظاهرة وهذه المعجزات قاهرة ولا يرتاب
العاقل انها من عند الله وفي انه تعالى انما اظهرها لاجل تصديقي وانت تنكرها فلا يحملك
على هذا الانكار الا الحسد والعناد والغي والجهل وحب الدنيا ومن كان كذلك كانت عاقبته
الدمار والثبور فاراد اي فما تسبب عن هذا الذي هو موجب الايمان في العادة الا ان فرعون
اراد ان يستفزهم اي يستخف بموسى وبمن امن معه ويخرجهم فيكونوا كالما اذا سال من قولهم
فز الجرح اذا سال من الارض بالنفي والقتل للتمكن منهم كما اراد هولا ان يستفزوك
من الارض ليخرجوك منها للتمكن مما هم عليه من الكفر والعناد ثم اخذ تعالى يحذرهم
سطواته بما فعل بمن كانوا اكثر منهم واشد بقوله تعالى فاغرقناه اي فتسبب عن ذلك
ان رددنا كيده في نحره كما قال تعالى ولا يحيق المكر السيء الا باهله اراد فرعون ان يخرج موسى من ارض
مصر ليخلص له تلك البلاد والله تعالى اهلك فرعون وجعل تلك الارض خالصة لموسى ولقومه
فادخله البحر حين ادخل بني اسرائيل فانجاهم واغرق فرعون ومن معه جميعا كما جرت به
سنته تعالى فيمن عاند بعد ان راى الخوارق وكفر النعمة وافرط في البغي بعد ظهور الحق فليحذر
هولا مثل ذلك ولا سيما اذا اخرج رسولنا من بين اظهرهم ففي هذه الاية وامثالها بشارة له
صلى الله عليه وسلم في ان الله تعالى ليسلك به في النصرة والتمكن سبيل اخوانه من المرسل عليهم
السلام وقلنا من بعده اي الاغراق لبني اسرائيل الذين كانوا تحت يده اذل من العبيد لتقواهم
واحسانهم اسكنوا الارض اي التي اراد ان يستفزكم منها فاذا جاء اي مجيا محققا وعد الاخرة اي القيمة
بعد ان سكنتم الارض احيانا ودفنتم فيها امواتا جئنا اي بما لنا من العظمة والقدرة بكم
منها لفيفا اي بعثناكم واياهم مختلطين لا حكم لاحد على اخر ولا دفع لاحد عن اخر على غير الحالة
التي كانت في الدنيا ثم ميزنا بعضكم عن بعض ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى
ولقد صرفنا قوله تعالى وبالحق اي من المعاني الثابتة التي لا مرية فيها انزلناه نحن اي
القران فهو ثابت لا يزول كما ان الباطل هو الذاهب الزايل وهذا القران الكريم مشتمل على دلايل
التوحيد وصفات الجلال والاكرام وعلى تعظيم الملايكة وتقرير نبوة الانبيا واثبات الحشر
والنشر والقيامة وكل ذلك مما لا يقبل الزوال ومشتمل ايضا على شريعة باقية لا يتطرق اليها
النقص والتغيير والتحريف وايضا هذا القران تكفل الله تعالى بحفظه عن تحريف الزايغين
وتبديل الجاهلين كما قال تعالى انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون وبالحق لا بغيره نزل
هو ووصل اليهم على لسانك بعد انزاله عليك كما انزلناه سوا غضا طريا محفوظا لم يطرا عليه
طاري فليس فيه شي من تحريف ولا تبديل كما وقع في كتاب اليهود الذين سالهم قومك ثم قال
الله تعالى وما ارسلناك يا افضل الخلق بما لنا من العظمة الا مبشرا للمطيع ونذيرا للعاصي من العقاب
فلا عليك الا التبشير والانذار الا ما يقترحونه عليك من المعجزات فان قبلوا الدين الحق
انتفعوا به والا فليس عليك في كفرهم شي ثم ان الله تعالى اخبر ان الحكمة في انزال القران مفرقا بقوله
تعالى وقرانا اي وفصلنا او انزلنا قرانا فرقناه اي انزلناه منجما في اوقات متطاولة قال سعيد

بن جبير

ابن جبير نزل القرآن كله ليلة القدر من السماء العلى الى السماء السفلى ثم فصل في السنين التي نزل
فيها قال قتادة كان بين اوله واخره عشرون سنة وقيل ثلاث وعشرون سنة والمعنى قطعناه
اية اية وسورة سورة ولم ينزله جملة لتقرأه على الناس اي عامة على مكث اي مهل
وتؤدة ليفهموه ونزلناه من عندنا بما لنا من العظمة تنزيلا بعضه اثر بعض مفرقا بحسب
الوقايع لانه اتقن في فصلها واعون على الفهم لطول التامل لما نزل من نجومه في مدة
ما بين النجمين لغزارة ما فيه من المعاني ثم ان الله تعالى هددهم على لسان نبيه صلى الله عليه
وسلم بقوله تعالى قل لهؤلاء المضلين امنوا به اي القرآن او لا تؤمنوا فالايمان به غير محتاج اليكم
ولا موقوف عليكم لانكم ان امنتم به كان الحظ لكم والا لم تضروا الا انفسكم فاختاروا ما تريدون
فان ايمانكم بالقرآن لا يزيده كمالا وامتناعكم منه لا يورثه نقصانا وقوله تعالى ان الذين
اوتوا العلم من قبله اي قبل انزاله ممن امن من بني اسرائيل تعليل له اي ان لم تؤمنوا به وانتم
اهل جاهلية وشرك فان خيرا منكم وافضل وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلموا ما الوحي وما
الشرايع قد امنوا به وصدقوه وثبت عندهم انه النبي العربي الموعود في كتبهم اذا يتلى عليهم
اي القرآن يخرون للاذقان منهم زيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن سلام قال
الزجاج الذقن مجمع اللحيين وكما يبتدأ الانسان بالخرور الى السجود فاقرب الاشياء من وجهه
الى الارض الذقن وقيل ان الاذقان كناية عن اللحي والانسان اذا بالغ عند السجود في الخضوع
والخشوع ربما مسح لحيته على التراب فان اللحية يبالغ في تنظيفها فاذا عفرها الانسان
بالتراب في معرض المبالغة فقد اتى بغاية التعظيم وقيل ان الانسان اذا استولى عليه
خوف الله تعالى فربما سقط على الارض في معرض السجود كالمغشي عليه فيكون حينئذ خروره
على الذقن فقوله يخرون الى الاذقان كناية عن غاية ولهه وخوفه وخشيته فان قيل
لم قال يخرون للاذقان سجدا ولم يقل يسجدون اجيب بان المقصود من ذكر هذا اللفظ
مسارعتهم الى ذلك حتى كانهم يسقطون فان قيل لم قال يخرون للاذقان ولم يقل
على الاذقان اجيب بان العرب تقول اذا خر الرجل فوقع على وجهه خر للذقن ثم بين
ان ذلك ليس سقوطا اضطراريا من كل جهة بقوله تعالى سجدا اي يفعلون ذلك
لما يعلمون من حقيقته بما اوتوا من العلم السالف وما في قلوبهم من الاذعان والخشية
للرحمن ويقولون اي على وجه التجديد المستمر سبحان ربنا تنزيها له عن خلف الوعد
ان اي انه كان اي كونا لا ينفك وعد ربنا اي المحسن الينا بالايمان وما يتبعه من وجوه العرفان
لمفعولا اي دون خلف ولا بد ان ياتي جميع ما وعد به في الكتب المنزلة وبشر به من بعثه
صلى الله عليه وسلم وانزال الفرقان عليه ومن الثواب والعقاب وهو تعريض بقريش حيث
كانوا يستهزؤن بالوعيد في قولهم او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ونحوه مما معناه
الطعن في قدرة الله القادر على كل شيء وقوله تعالى ويخرون للاذقان يبكون كرره لاختلاف
الحال والسبب فان الاول للشكر عند انجاز الوعد والثاني لما اثر فيهم من مواعظ القرآن
حال كونهم باكين من خشية الله ويزيدهم اي سماع القرآن خشوعا اي خضوعا وتواضعا
ولين قلب ورطوبة عين ولما طالت الكلمات في المناظرة مع المشركين ومنكري النبوات والجواب
عن شبهاتهم اتبعها ببيان كيف يدعون الله ويعظموه وكيف يذكروه في وقت الاشتغال
باداء العبودية فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم ادعوا الله او ادعوا الرحمن

واختلف في سبب نزول هذه الاية فقال بن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات ليلة وهو
ساجد يا الله يا رحمن فسمعه ابو جهل وهم لا يعرفون الرحمن فقال ان محمدا ينهانا ان نعبد الهين
وهو يدعو الها اخر مع الله يقال له الرحمن فانزل الله تعالى هذه الاية اي ان شئتم قولوا يا الله
وان شئتم قولوا يا رحمن وعن بن عباس ان ذكر الرحمن كان في القران قليلا في اول
وعن عايشة رضي الله تعالى عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر بالدعا يقول يا الله
يا رحمن فسمعه اهل مكة فاقبلوا عليه فانزل الله قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن الاية وعن
ابن عباس ان ذكر الرحمن كان في القران قليلا في اول ما انزل وكان الذين قد اسلموا من اليهود يسوءهم
قلة ذلك لكثرته في التوراة كابن سلام وبن يامين وابن صوريا وغيرهم فسالوا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ذلك فنزل قوله تعالى قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن فقال قريش ما بال محمد كان يدعوا
الها واحدا وهو الان يدعوا الهين ما نعرف الرحمن الا صاحب اليمامة فنزل وهم بذكر الرحمن هم كافرون
ونزل ايضا قوله تعالى قالوا وما الرحمن وفرح مومنوا اهل الكتاب وهو قوله تعالى الذين اتيناهم
الكتاب يفرحون بما انزل اليك ومن الاحزاب اي مشركي قريش من ينكر بعضه وعن بن عباس سيل
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله قل ادعوا الله الى اخر الاية فقال رسول الله صلى الله
وسلم هو امان من السرقة فان رجلا من المهاجرين تلاها حين اخذ مضجعه فدخل عليه سارق
فجمع ما في البيت وحمله والرجل ليس بنايم حتى انتهى الى الباب فوجد الباب مردودا فوضع
المكاره يفعل ذلك ثلاث مرات فضحك صاحب الدار ثم قال اني احصنت بيتي فان قيل اذا قال
الرجل ادع زيدا او عمروا فهم منه كون زيد معاندا لعمرو فيوهم كون الله غير الرحمن وحينئذ
يقوى شبه ابي جهل لعنه الله اجيب بان الدعا هنا بمعنى التسمية لا بمعنى النداء والتسمية تتعدى
الى مفعولين يقال دعوته زيدا ثم يترك احدهما استغناء عنه فيقال دعوت زيدا والله والرحمن فالمراد
بهما الاسم لا المسمى واو للتخيير فمعنى الاية ادعوا بسم الله او ادعوا باسم الرحمن اي واذكروه بهذا الاسم او اذكروه
بذلك الاسم فقوله ادعوا الله تنبيه على ما وجب على العباد من الاشتغال بالعبودية
وقوله ادعوا الرحمن تنبيه على ما لزم في كرمه بحكم الوعد من افاضة الرحمة والكرم وايضا
تخصيص هذين الاسمين بالذكر يدل على انهما اشرف من ساير الاسما وتقديم اسم الله على اسم
الرحمن يدل على ان قولنا الله اعظم الاسما وتقدم الكلام على ذلك في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم
والتنوين في قوله تعالى ايا ما تدعوا عوض من المضاف اليه وما صلة للابهام المؤكد والمعنى
ايا تدعوا فهو حسن فوضع موضعه قوله تعالى فله الاسما الحسنى لانه اذا حسنت اسماوه
كلها حسن هذان الاسمان لانهما منها ومعنى كونها احسن الاسما انها مستقلة بمعاني التمجيد
والتقديس والتعظيم وقد قدمنا ذكر الاسما الحسنى في الاعراف عند قوله تعالى ولله الاسما
الحسنى فادعوه بها وبعض الاحاديث الواردة في فضلها فليراجع ووقف حمزة والكساي
على الالف بعد اليا ووقف الباقون على الالف بعد الميم واختلف في تفسير ونزول قوله
تعالى ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها فروي عن بن عباس انه صلى الله عليه وسلم كان يرفع
صوته بالقراة فاذا سمعه المشركون سبوه وسبوا من جاء به فاوحى الله تعالى اليه ولا تجهر
بصلاتك فيسمعه المشركون فيسبون الله عدوا بغير علم ولا تخافت بها فلا يسمع اصحابك
وابتغ بين ذلك سبيلا وروي انه صلى الله عليه وسلم طاف بالليل على دور الصحابة فكان ابو بكر
يخفي صوته بالقراة في صلاته وكان يرفع صوته فلما جا النهار وجا ابو بكر وعمر فقال رسول

الله

الله عليه وسلم لابي بكر لم تخفي صوتك فقال انا جي ربي وقد علم حاجتي وقال لعمر لم ترفع صوتك فقال
ازجر الشيطان واوقظ الوسنان فامر النبي صلى الله عليه وسلم ابا بكر ان يرفع صوته قليلا وعمر
ان يخفض صوته قليلا وقيل معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها وابتغ بين ذلك
سبيلا بان تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار وقيل ان المراد بالصلاة الدعا وهذا
قول عايشة وابي هريرة ومجاهد قالت عايشة هي الدعا وروي هذا مرفوعا ان النبي صلى
الله عليه وسلم قال في هذه الاية انما ذلك في الدعا والمسيلة قال عبد الله بن شداد كان
اعراب من بني تميم اذا سلم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا اللهم ارزقنا مالا وولدا يجهرون
فانزل الله تعالى هذه الاية والمخافتة خفض الصوت والسكون يقال صوت خفيت
اي خفيض ويقال للرجل اذا مات قد خفت اي انقطع كلامه وخفت الزرع اذا ذبل
والمستحب من ذلك التوسط وهو ان يسمع نفسه كما روي عن بن مسعود انه قال ايخافت من لم
يسمع اذنيه وقد مدح الله تعالى المومنين بقوله تعالى والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم
يقتروا وكان بين ذلك قواما فامر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال عز من قايل
ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وبعضهم قال الاية منسوخة
بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية قال الرازي وهو بعيد ولما امر الله تعالى ان لا يذكر
ولا ينادى الا باسمايه الحسنى علم كيفية التحميد بقوله تعالى وقل الحمد لله اي الملك الاعظم ثم ذكر
سبحانه وتعالى من صفات التنزيه والجلال وهي السلوب ثلاثة انواع الاول قوله تعالى الذي
لم يتخذ اي لكونه محيطا بالصفات الحسنى ولدا والسبب فيه وجوه الاول ان الولد هو الشي المتولد
من جزء من اجزاء ذلك الشي فكل من له ولد فهو مركب من الاجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج
والمحتاج لا يقدر على كمال الانعام فلا يستحق كمال الحمد الثاني ان كل من له ولد فانه يمسك جميع النعم
لولده فاذا لم يكن له ولد افاض كل تلك النعم على عبيده الثالث ان الولد هو الذي يقوم مقام
الوالد بعد انقضايه وفنايه فلو كان له ولد لكان منقضيا ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الانعام
في كل الاوقات فوجب ان لا يستحق الحمد على الاطلاق النوع الثاني من الصفات السلبية قوله
تعالى ولم يكن له بوجه من الوجوه شريك في الملك والسبب في اعتبار هذه الصفة انه لو كان له شريك لم
يعرف حينيذ ان هذه النعم والمنافع هل حصلت منه او من شريكه فلا يعرف كونه مستحقا للحمد
والشكر النوع الثالث قوله تعالى ولم يكن له ولي من الذل اي ولي يواليه من اجل مذلة
له يدفعها بموالاته والسبب في اعتباره انه لو جاز عليه ولي يلي امره كان مستوجبا لاعظم انواع
الحمد ومستحقا لاقسام الشكر فنفى عنه ان يكون له ما يشاركه من جنسه ومن غير جنسه اختيارا
او اضطرارا وما يعاونه ويقويه ورتب الحمد عليه للدلالة على انه الذي يستحق جنس الحمد لانه
كامل الذات المتفرد بالايجاد المنعم على الاطلاق وما عداه ناقص مملوك نعمة او منعم عليه
ولذلك عطف عليه قوله تعالى وكبره تكبيرا اي وعظمه تعظيما عن اتخاذ الولد والشريك والذل
وكلما لا يليق به وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على انه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده
في صفاته روى الامام احمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه كان يقول اية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك الى اخر السورة وعن
ابن عباس انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اول من يدعى الى الجنة يوم القيامة
الذين يحمدون الله في السراء والضراء وعن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله

راس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان
افضل الدعا الحمد لله وافضل الذكر لا اله الا الله وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم احب الكلام الى الله تعالى اربع لا اله الا الله والله اكبر وسبحان الله والحمد
لله لا يضرك بايهن بدات اخرجه مسلم وروي ان قول العبد الله اكبر خير من الدنيا وما فيها
وعن عمرو بن شعيب قال كان صلى الله عليه وسلم اذا افصح الغلام من بني عبد المطلب
علمه وقل الحمد لله الاية يقال افصح الصبي في منطقه فهم ما يقول وعن عبد الله بن كعب
قال افتتحت التوراة بفاتحة سورة الانعام وختمت بخاتمة هذه السورة واما ما رواه
البيضاوي تبعا للزمخشري وتبعهما ابن عادل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قرا سورة
بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطارا في الجنة والقنطار الف اوقية
ومايتا اوقية فحديث موضوع ∴ سورة الكهف مكية الا واصبر نفسك الاية وهي مائة
وعشر ايات والف وخمسمائة وسبع وسبعون كلمة وعدد حروفها ستة الاف وثلثمائة
وستون حرفا بسم الله الذي لا كفو له ولا شريك الرحمن الذي اقام عباده على اوضح الطرق
بانزال هذا الكتاب الرحيم بتفضيل من اختصه بالصواب وقوله تعالى الحمد لله تقدم الكلام
عليه مستقصى في اول الفاتحة الذي انزل على عبده الكتاب اي القران رتب تعالى استحقاق
الحمد على انزاله تنبيها على انه اعظم نعمائه وخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالذكر لان انزال القران
نعمة عليه على الخصوص وعلى ساير الناس على العموم اما كونه نعمة عليه فلانه تعالى اطلعه بواسطة
هذا الكتاب الكريم على اسرار علوم التوحيد والتنزيه وصفات الجلال والاكرام واسرار احوال
الملايكة والانبيا واحوال القضا والقدر وتعلق احوال العالم السفلي باحوال العالم العلوي
وتعلق احوال عالم الاخرة بعالم الدنيا وكيفية نزول القضا من عالم الغيب وكيفية ارتباط
عالم الجسمانيات بعالم الروحانيات ولا شك ان ذلك من اعظم النعم واما كون هذا الكتاب
نعمة علينا فلانه مشتمل على التكاليف والاحكام والوعد والوعيد والثواب والعقاب
وبالجملة فهو كتاب كامل في اقصى الدرجات فكل احد ينتفع به بمقدار طاقته وفهمه فوجب
عليه صلى الله عليه وسلم وعلى امته ان يحمدوه على هذه النعم الجزيلة وقال تعالى على عبده لما في كل
من الوصف بالعبودية والاضافة اليه سبحانه وتعالى من الاعلام بتشريفه واشارة الى
انه الذي اسرى به الى حضرات مجده ليريه من اياته ثم انه تعالى وصف الكتاب بوصفين الاول
قوله تعالى ولم يجعل له اي فيه عوجا اي اختلافا وتناقضا كما قال تعالى ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافا كثيرا والجملة حال من الكتاب الوصف الثاني قوله تعالى قيما قال
ابن عباس يريد مستقيما اي معتدلا لا افراط فيه ولا تفريط قال الرازي وهذا عندي مشكل
لانه لا معنى لنفي الاعوجاج الا حصول الاستقامة فتفسير القيم بالمستقيم يوجب التكرار
بل الحق ان المراد من كونه قيما كونه سببا لهداية الخلق وان يجري مجرى من يكون قيما للاطفال
فالارواح البشرية كالاطفال والقران كالقيم المشفق القايم بمصالحهم وقال قبل ذلك ان الشي
يجب ان يكون كاملا في ذاته ثم يكون مكملا لغيره ويجب ان يكون تاما في ذاته ثم يكون فوق التمام
بما ينقص عنه كمال الغير فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا اشارة الى كونه كاملا في ذاته وقوله قيما
اشارة الى كونه مكملا لغيره ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة في صفة الكتاب لا ريب فيه
هدى للمتقين فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث
يجب على العاقل ان لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال

حالهم

حالهم فقوله لا ريب فيه اشارة الى كونه في نفسه بالغا في الصحة وعدم الاخلال الى حيث يجب على
العاقل ان لا يرتاب فيه وقوله هدى للمتقين اشارة الى كونه سببا لهداية الخلق ولكمال حالهم
فقوله تعالى ولم يجعل له عوجا قايم مقام قوله تعالى لا ريب فيه وقوله تعالى قيما قايم
مقام قوله تعالى هدى للمتقين واختلف النحويون في نصب قوله تعالى قيما على اوجه
الاول قال في الكشاف لا يجوز جعله حالا من الكتاب لان قوله تعالى ولم يجعل له عوجا معطوف
على قوله تعالى انزل فهو داخل في خبر الصلة وانه لا يجوز قال ولما بطل هذا وجب ان ينتصب
بمضمر والتقدير ولم يجعل له عوجا جعله قيما لانه تعالى اذا نفى عنه العوج فقد اثبت له الاستقامة
قال فان قلت ما فايدة الجمع بين العوج واثبات الاستقامة وفي احدهما غنى عن الاخر قلت
فايدته التاكيد ورب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من ادنى عوج عند السبر
والتصفح الوجه الثاني انه حال ثانية والجملة المنفية قبله حال ايضا كما مر وتعدد الحال
لذي حال واحد جايز والتقدير انزله غير جاعل له عوجا قيما الوجه الثالث انه حال ايضا
ولكنه بدل من الجملة قبله لانها حال وابدال المفرد من الجملة اذا كانت بتقدير مفرد جايز ولما ذكر
تعالى انه انزل على عبده هذا الكتاب الموصوف بما ذكر اردفه ببيان ما لاجله انزله بقوله
تعالى لينذر اي يخوف الكتاب الكافرين بأسا اي عذابا شديدا من لدنه اي صادرا من عنده
وقرا شعبة باسكان الدال وكسر النون والها وصلة الها بيا والباقون بضم الدال وسكون النون
وضم الها وابن كثير على اصله بضم الها في الوصل بواو ويبشر المؤمنين اي الراسخين في هذا الوصف
الذين يعملون الصالحات وقرا حمزة والكسائي بفتح اليا التحتية وسكون الموحدة وضم الشين
مخففة والباقون بضم التحتية وفتح الموحدة وكسر الشين مشددة الذين يعملون الصالحات
وهي ما امر به خالصا وذلك الشان مفتاح الايمان ان لهم اي بسبب اعمالهم اجرا حسنا
هو الجنة حال كونهم ماكثين فيه ابدا بلا انقطاع اصلا فان الابد زمان لا اخر له وقوله تعالى
وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا معطوف على قوله تعالى لينذر باسا شديدا من لدنه
والمعطوف يجب كونه مغايرا للمعطوف عليه فالاول عام في حق كل كافر والثاني خاص
بمن اثبت لله ولدا وعادة القران جارية اذا ذكر قصة كلية عطف عليها بعض جزياتها تنبيها
على كونه اعظم جزيات ذلك الكلي كقوله تعالى وملايكته ورسله وجبريل وميكال فكذا ههنا
هذا العطف يدل على ان اقبح انواع الكفر اثبات الولد لله تعالى تنبيه الذين اثبتوا لله ولدا
ثلاث طوايف الاولى كفار العرب الذين قالوا الملايكة بنات الله الثانية النصارى الذين قالوا
المسيح بن الله الثالثة اليهود الذين قالوا عزير بن الله ثم انه تعالى انكر على القايلين بذلك من وجهين
الاول قوله تعالى ما لهم به اي القول من علم اي اصلا لانه مما لا يمكن ان تعلق العلم به
لانه لا وجود له ولا يمكن وجوده ثم قرر تعالى هذا المعنى واكده بقوله تعالى ولا لآبائهم الذين
يغتبطون بتقليدهم في الدين حتى في هذا الذي لا يتخيله عاقل ولو اخطاوا في تصرف دنيوي
لم يتبعوهم فيه فان قيل ايجاد الله ولدا محال في نفسه فكيف ما لهم به من علم اجيب بان انتفا
العلم بالشي قد يكون للجهل بالطريق الموصل اليه وقد يكون لانه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم
به ونظيره قوله تعالى ومن يدع مع الله الها اخر لا برهان له الوجه الثاني قوله تعالى كبرت
اي مقالتهم كلمة اي ما اكبرها من كلمة وصور فظاعة اجترايهم على النطق بها بقوله تعالى تخرج من افواههم
اي لم يكفهم خطورها في انفسهم وترددها في صدورهم حتى تلفظوا بها وكان صدورهم بها على وجه

التكرير بما يشير اليه التعبير بالمضارع تنبيه سميت هذه كلمة كما تسمون القصيدة كلمة ثم بين تعالى
ما افهمه الكلام من انه كما انهم لا علم لهم بذلك لا علم لاحد به اصلا لانه لا وجود له فقال تعالى
ان اي ما يقولون الا كذبا اي قولا لا حقيقة له بوجه من الوجوه ولما كان صلى الله عليه وسلم
شديد الحرص على ايمان قومه شفقة عليهم وغيرة على المقام الالهي الذي ملأ قلبه تعظيما
خفض عليه سبحانه وتعالى بقوله تعالى فلعلك باخع اي قاتل نفسك من شدة الغم والوجد
واشار تعالى الى شدة نفرتهم وسرعة مفارقتهم وعظم مباعدتهم بقوله تعالى على آثارهم
اي حين تولوا عن اجابتك ان لم يؤمنوا بهذا الحديث اي القرآن المتجدد تنزيله على حسب التدريج
اسفا منك على ذلك والاسف شدة الحزن والغضب فان قيل ذلك يدل على حدوث القرآن
اجيب بانه محمول على الالفاظ وهي حادثة ثم بين سبحانه وتعالى علة ارشاده الى الاعراض
عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ للبشارة والنذارة بانهم لم يخرجوا عن مراده تعالى وان الايمان
لا يقدر على ادخاله قلوبهم غيره بقوله تعالى انا اي لا نفعل ذلك لانا جعلنا ما على الارض
من الحيوان والنبات والشجر والانهار والمعادن وغير ذلك وقال بعضهم بل المراد الناس فهم زينة
الارض وبالجملة فليس في الارض الا المواليد الثلاثة وهي المعادن والنبات الشامل للشجر والحيوان
واشرف انواع الحيوان الانسان زينة لها اي الارض قيل المراد اهلها اي زينة لاهلها قال الرازي
ولا يمتنع ان يكون ما تحس به الارض زينة لها كما جعل الله السماء مزينة بالكواكب ولما اخبر تعالى
بزينتها اخبر الله تعالى بعلته بقوله تعالى لنبلوهم اي نعاملهم معاملة المختبر ايهم احسن عملا باخلاص
الخدمة لربه فيصير ما كنا نعلمه منهم ظاهرا فان الله تعالى يعلم السر واخفى ليقام به عليهم الحجة
على ما يتعارفونه بينهم بان من اظهر موافقة الامر فيما نال من الزينة حاز المثوبة ومن اجترأ على
مخالفة الامر بما اتاه منها استحق العقوبة فكانه تعالى يقول يا محمد اني خلقت الارض وزينتها
واخرجت منها انواع المنافع والمصالح والمقصود من خلقها بما فيها من المنافع ابتلاء الخلق
بهذه التكاليف ثم انهم يكفرون ويتمردون ومع ذلك فلا اقطع عنهم موارد هذه النعم فانت ايضا
يا محمد لا ينبغي ان تنتهي في الحزن بسبب كفرهم الى ان تترك الاشتغال بدعوتهم الى الدين الحق
ثم انه تعالى لما بين انه انما زين الارض لاجل الامتحان والابتلاء لا لاجل ان يبقى الانسان فيها
متنعما بها ابدا زهد فيها بقوله تعالى وانا لجاعلون ما عليها من جميع تلك الزينة لا يصعب
علينا شيء منه صعيدا اي فتاتا جرزا اي يابسا لا ينبت ونظيره قوله تعالى كل من عليها
فان وقوله تعالى فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا وتخصيص الاهلاك بما
على الارض يوهم بقاء الارض الا ان سائر الآيات على ان الارض ايضا لا تبقى كما قال تعالى يوم تبدل
الارض غير الارض ولما ان القوم تعجبوا في قصة اصحاب الكهف وسألوها للنبي صلى الله عليه
وسلم على سبيل الامتحان قال الله تعالى ام حسبت اي ظننت على ما لك من العقل الرزين والرأي
الرصين ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا على ما لزم من تهويل السائلين من الكفرة
من اليهود والعرب والواقع انهم وان كانوا من العجائب ليسوا بعجب بالنسبة الى كثرة آياتنا فان
من كان قادرا على تخليق السموات والارض كيف يستبعد من قدرته وحفظه ورحمته
حفظ طائفة مدة ثلثمائة سنة واكثر في النوم والكهف الغار الواسع في الجبل واختلف في الرقيم
فقيل هو اسم كلبهم قال امية بن ابي الصلت وليس بها الا الرقيم مجاورا وصيدهم وهو بكسر الصاد
مفعول مجاور اي فناؤهم والقوم في الكهف هجد اي نوم وقيل هو لوح من رصاص رقمت فيه

اسماؤهم

اسماءهم وقصصهم جعل على باب الكهف قال البغوي وهذا اظهر الاقاويل وقيل ان الناس
رفعوا حديثهم نقرا في الجبل وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل
اصحاب الرقيم قوم اخرون غير اصحاب الكهف كانوا ثلاثة يطلبون الكلا ونحوه لاهلهم فاخذهم
المطر فاووا الى كهف فانحطت صخرة وسدت بابه فقال احدهم اذكروا ايكم عمل حسنة لعل الله
يرحمنا ببركته فقال واحد استاجرت اجراء ذات يوم فجاء رجل وسط النهار وعمل في بقيته
مثل عملهم فاعطيته مثل اجرهم فغضب احدهم وترك اجره فوضعته في جانب البيت
فربيت بقرا فاشتريت فصيلة والفصيلة ولد الناقة اذا انفصل عن امه فبلغت ما شاء
الله فرجع الي بعد حين شيخا ضعيفا لا اعرفه وقال لي عندك حقاء وذكر حتى عرفته
فدفعته اليه جميعا اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك ففرج عنا فانصدع الجبل
حتى راوا الضوء والصدع الشق والصداع وجع الراس وقال الاخر كان في فضل واصاب
الناس سنة فجاءتني امراة تطلب مني معروفا فقلت والله ما هو دون نفسك فابت وعادت
ثم رجعت ثلاثا ثم ذكرت لزوجها فقال احبيني له واعيني عيالك فاتت وسلمت الي نفسها
فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت فقلت ما لك قالت اخاف الله تعالى فقلت لها خفت الله
في الشدة ولم اخفه في الرخاء فتركتها واعطيتها ما لم امسها اللهم ان كنت فعلته لوجهك ففرج
عنا فانصدع حتى تعاروا وقال الثالث كان لي ابوان هرمان وكانت لي غنم وكنت اطعمهما
واسقيهما ثم اجمع الى غنمي فحبسني ذات يوم عنهم فلم ارجع حتى امسيت فاتيت اهلي
واخذت محلبي فحلبت فيه ومضيت اليهما فوجدتهما نائمين فكرهت ان اوقظهما فوقفت
حالبا محلبي على يدي حتى انتبها الصبح فسقيتهما اللهم ان كنت فعلت ذلك لوجهك
ففرج عنا ففرج الله تعالى عنهم فخرجوا وقد رفع ذلك النعمان بن بشير وقد قدمنا
سبب نزول قصة اصحاب الكهف عند قوله تعالى ويسالونك عن الروح وذكر محمد
ابن اسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحا فقال كان النضر بن الحارث من شياطين
قريش وكان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصنع له العداوة وكان قد قدم الحيرة
وتعلم بها احاديث رستم واسفنديار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جلس مجلسا
ذكر فيه الله تعالى وحذر قومه ما اصاب من كان قبلهم من الامم وكان النضر يخلفه في مجلسه
اذا قام وقال انا والله يا معشر قريش احسن حديثا منه فهلموا فانا احدثكم باحسن من حديثه
ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم ان قريشا بعثوه وبعثوا معه عقبة بن ابي معيط الى احبار يهود
بالمدينة وقالوا لهما سلاهم عن محمد وصفة فانهم اهل الكتاب الاول وعندهم من العلم ما ليس
عندنا من علم الانبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسالا احبار اليهود عن احوال محمد فقال
لهما احبار اليهود سلوه عن ثلاثة عن فتية ذهبوا في الدهر الاول فان حديثهم عجيب
وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها وسلوه عن الروح وما هي فان اخبركم
فهو نبي والا فهو متقول فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين
محمد واخبراهم بما قالت اليهود فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالوه فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم اخبركم بما سالتم عنه غدا ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيما يذكرون خمس عشرة ليلة لم ينزل عليه وحي وشق عليه ذلك ثم جاء جبريل
من عند الله بسورة اهل الكهف وفيها معاتبة الله تعالى اياه على حزنه عليهم وفيها

خير اولبك الفتية وخير الرجل الطواف ثم بدا بالفتية فقال تعالى اذ اوى واذكر اذ اوى
الفتية وهم اصحاب الكهف المسؤل عنهم جمع فتى وهو الشاب الكامل والشباب امثل الخلق
واهدى للسبيل من الشيوخ الى الكهف خائفين على ايمانهم من قومهم الكفار واختلفوا في سبب
مصيرهم الى الكهف فقال محمد بن اسحاق بن يسار مرج اهل الانجيل وكثرت فيهم الخطايا وطفت
فيهم الملوك حتى عبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وفيهم بقايا عابدين المسيح متمسكين بعبادة
الله تعالى وتوحيده وكان ممن فعل ذلك من ملوكهم ملك من الروم يقال له دقيانوس عبد
الاصنام وذبح للطواغيت وقتل من خالفه وكان ينزل في قرى الروم فلا يترك في قرية نزلها
احدا الا فتنه عن دينه حتى يعبد الاصنام او يقتله ثم نزل مدينة اهل الكهف وهي افسوس
فلما نزلها كبر على اهل الايمان فاستفزهم وهربوا في كل وجه الحديث طائفا من الكفار وامرهم
ان يبتغوهم في اماكنهم ويخرجوهم اليه فيخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان والذبح للطواغيت
فمنهم من يرغب في الحياة ومنهم من يابى ان يعبد غير الله تعالى فيقتل فلما راى ذلك اهل الشدة
في الايمان جعلوا يسلمون انفسهم للعذاب والقتل فيقتلون ويقطعون ثم جعل ما قطع
من اجسامهم على سور المدينة من نواحيها وعلى كل باب من ابوابها حتى عظمت الفتنة فلما
راى ذلك الفتية حزنوا حزنا شديدا فقاموا واشتغلوا بالصلاة والصيام والدعاء
والتسبيح وكانوا من اشراف الروم وكانوا ثمانية نفر بكوا وتضرعوا الى الله تعالى وجعلوا يقولون
ربنا اكشف عن عبادك المومنين هذه الفتنة وارفع عنهم هذا البلاء حتى يعلنوا عبادتك
فبين ما هم على ذلك وقد دخلوا مصلى لهم ادركهم الشرط فوجدوهم سجودا على وجوههم يبكون
ويتضرعون الى الله تعالى فقالوا لهم ما خلفكم عن امر الملك انطلقوا اليه ثم خرجوا فرفعوا امرهم
الى دقيانوس فقالوا ايجمع الناس للذبح لالهتك وصوا الفتية من اهل بيتك يستهزون بك
ويعصون امرك فلما سمع ذلك بعث اليهم فاتى بهم تفيض اعينهم من الدمع مقفرة وجوههم
من التراب فقال لهم ما منعكم ان تشهدوا الذبح لالهتنا التي تعبد في الارض وتجعلوا انفسكم اسوة
لسراة اهل مدينتكم اختاروا اما ان تذبحوا لالهتنا واما ان اقتلكم فقال له كبيرهم واسمه
مكسلمينا ان لنا الها ملا السموات والارض عظمة لن ندعو من دونه الها ابدا له الحمد والتكبير
والتسبيح من انفسنا خالصا ابدا اياه نعبد واياه نخاف فقال النجاء النجاء واما الطواغيت فلن
نعبدها ابدا اصنع بنا ما بدا لك وقال لصاحبه مثل ما قال فلما قالوا ذلك امر الملك
بنزع لباسهم وحلية كانت عليهم من الذهب والفضة وقال سافرغ لكم واخبر لكم ما وعدتكم
من العقوبة ولم يمنعني ان اعجل لكم ذلك الا اني اراكم شبانا احداثا اسنانكم فلا احب ان
اهلككم حتى اجعل لكم اجلا تذكرون فيه وترجعون الى عقولكم ثم امر بهم فاخرجوا من عنده
وانطلق الى مدينة اخرى غربية منهم لبعض اموره فلما راى الفتية خروجه بادروا وقد وطن
وخافوا اذا قدم مدينتهم ان يذكرهم فامروا بينهم ان ياخذ كل واحد منهم نفقة من بيت
ابيه فيتصدقوا منها ويتزودوا بما بقي ثم ينطلقوا الى كهف قريب من المدينة فيكمنون فيه ويعبدون
الله حتى اذا جاء دقيانوس انوه فقاموا بين يديه فيصنع بهم ما شاء فلما قال ذلك بعضهم لبعض
عمد كل فتى منهم الى بيت ابيه فاخذ نفقة فتصدق منها وانطلقوا بما بقي منهم واتبعهم كلب كان
لهم حتى اتوا ذلك الكهف فلبثوا فيه وقال كعب الاحبار مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد
ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون مني لا تخشوا جانبي فاني احب احباء الله عز

عنيد

وجل

وجل فناموا حتى احرسكم وقال بن عباس هربوا ليلا من دقيانوس وكانوا سبعة فمروا براع معه
كلب فتبعهم على دينهم وتبعه كلبه فخرجوا من البلد الى الكهف وهو قريب من البلد قال ابن اسحاق
فلبثوا فيه ليس لهم عمل الا الصلاة والصيام والتسبيح والتحميد ابتغاء وجه الله تعالى وجعلوا
نفقتهم الى فتى منهم يقال له تمليخا فكان يبتاع لهم ارزاقهم من المدينة سرا وكان من احملهم
واجلدهم وكان اذا دخل المدينة يصنع ثيابا كانت عليه حسانا ويأخذ ثيابا كثياب المساكين
الذين يستطعمون فيها ثم يأخذ ورقه وينطلق الى المدينة فيشتري لهم طعاما وشرابا ويتجسس
لهم الخبر هل ذكروا اصحابه بشيء ثم يرجع الى اصحابه فلبثوا في ذلك ما شاء الله تعالى ان يلبثوا
ثم قدم دقيانوس المدينة وامر عظماء اهلها ان يذبحوا للطواغيت ففزع من ذلك اهل الايمان
وكان تمليخا بالمدينة يشتري لاصحابه طعامهم فرجع الى اصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل
واخبرهم ان الجبار قد دخل المدينة وانهم قد ذكروا والتمسوا من عظماء المدينة ففزعوا ووقعوا
سجودا يدعون ويتضرعون ويتعوذون من الفتنة ثم ان تمليخا قال لهم يا اخوتاه ارفعوا
رؤسكم واطعموا وتوكلوا على ربكم فرفعوا رؤسهم واعينهم تفيض من الدمع فطعموا ذلك مع غروب
الشمس ثم جعلوا يتحدثون ويتدارسون ويذكر بعضهم بعضا فبين ما هم كذلك اذ ضرب الله على
اذانهم في الكهف وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف فاصابهم ما اصابهم وهم مؤمنون موقنون
ونفقتهم عند رؤسهم فلما كان من الغد فقدهم دقيانوس فالتمسهم فلم يجدهم فقال لبعض عظماء
المدينة لقد ساءني شان هؤلاء الفتية الذين ذهبوا لقد كانوا ظنوا ان بي غضبا عليهم لجهلهم
ما جهلوا من امري ما كنت لاجهل عليهم ان هم تابوا وعبدوا الهتي فقال عظماء المدينة ما انت
محقق ان ترحم قوما فجرة مردة عصاة فقد كنت اجلت لهم اجلا ولو شاؤا لرجعوا في ذلك الاجل
ولكنهم لم يتوبوا فلما قالوا ذلك غضب غضبا شديدا ثم ارسل الى ابائهم فاتي بهم فسالهم عنهم وقال
اخبروني عن ابنائكم المردة الذين عصوني قالوا له اما نحن فلم نعصك فلم تقتلنا بقوم مردة
قد ذهبوا بانوالنا واهلكوها في اسواق المدينة ثم انطلقوا فارتقوا الى جبل يدعى بنجلوس
فلما قالوا له ذلك خلى سبيلهم وجعل ما يدري ما يصنع بالفتية فالقى الله تعالى في قلبه ان يسد
باب الكهف عليهم واراد الله تعالى ان يكرمهم بذلك ويجعلهم ائمة لامة يستخلف من بعدهم
وان يبين لهم ان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور فامر دقيانوس بالكهف
ان يسد عليهم وقال دعوهم كما هم في الكهف يموتون جوعا وعطشا ويكون كهفهم الذي اختاروه
فيرا لهم وهو يظن انهم ايقاظ يعلمون ما يصنع بهم وقد توفى الله تعالى ارواحهم وفاة النوم
وكلبهم باسط ذراعيه بباب الكهف قد غشيه ما غشيهم يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال
ثم ان رجلين مؤمنين في بيت الملك دقيانوس يكتمان ايمانهما ايتمرا ان يكتبا شان الفتية
وخبرهم في لوحين من رصاص ويجعلا منا في تابوت من نحاس ويجعلا التابوت في البنيان
وقالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة فيعلم من يفتح
عليهم خبرهم حين يقرا الكتاب ففعلا ذلك وبنيا عليه وبقي دقيانوس ما بقي ثم مات
وقومه وقرون بعده كثيرة وقد حكى الله تعالى عنهم انهم لما اووا الكهف فقالوا اي عقب
استقرارهم فيه ربنا اتنا من لدنك اي من عندك رحمة توجب لنا المغفرة والرزق والامن
من عدوك وهيئ لنا من امرنا اي من الامر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رشدا الرشد
والرشد والرشاد نقيض الضلال وفي تفسير اللفظ وجهان الاول التقدير هيئ لنا امرا

دا رشدا اي نصير بسببه راشدين مهتدين الثاني اجعلن امرنا رشدا كله كقولك رايت
منك رشدا ولما اجابهم سبحانه وتعالى عبر عن ذلك بقوله تعالى فضربنا اي عقب هذا
القول وبسببه حجابا على اذانهم يمنع السماع اي انمناهم نومة لا تنبههم الاصوات
الموقظة فحذف المفعول الذي هو الحجاب كما يقال بنى على امراته يريدون بنى عليها القبة
ثم بين تعالى انه انما ضرب على اذانهم في الكهف اي المعهود وهو ظرف مكان وقوله تعالى
سنين ظرف الزمان وقوله تعالى عددا اي ذوات عدد يحتمل التكثير والتقليل فان مدة
لبثهم كبعض يوم عنده كقوله تعالى لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ وقال الزجاج اذا قل
الشي فهم مقدار عدده فلم يحتج الى ان يعد ثم بعثناهم اي ايقظناهم من ذلك النوم لنعلم
اي علم مشاهدة وقد سبق نظير هذه الاية في القران كثيرا منها ما سبق في سورة البقرة الا لنعلم
من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وفي ال عمران ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وقد
نبهنا على ذلك في محاله اي الحزبين اي الفريقين المختلفين في مدة لبثهم احصى لما لبثوا امدا واختلف
في الحزبين المختلفين فقال عطا عن بن عباس المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا
بعد ملك وراى اصحاب الكهف والملوك حزب واصحاب الكهف حزب وقال مجاهد الحزبان
من الفتية ان اصحاب الكهف لما انتبهوا اختلفوا في انهم كم لبثوا ويدل له قوله تعالى قال قايل منهم
كم لبثتم قالوا لبثنا يوما او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فالحزبان هما هذان وكان الذين
قالوا ربكم اعلم بما لبثتم هم الذين علموا ان لبثهم قد تطاول وقال الفرا ان طايفتين من المسلمين
في زمان اصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم تنبيه احصى فعل ماض اي ايهم ضبط امد
الاوقات لبثهم واما من جعله افعل تفضيل فقال في الكشاف ليس بالوجه السديد وذلك
ان بناه من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس ونحو اعدى من الجرب وافلس من ابن المذلق شاذ
والقياس على الشاذ في غير القران ممتنع فكيف به ثم قال الله تعالى نحن اي بما لنا من القدرة
الباهرة نقص عليك يا اشرف الخلق يا اشرف الخلق نبأهم اي خبرهم العظيم قصا ملبسا بالحق
اي الصدق انهم فتية اي شبان امنوا بربهم اي المحسن اليهم الذي تفرد بخلقهم ورزقهم
ثم وصفهم الله تعالى بقوله تعالى وزدناهم بعد ان امنوا هدى بما قذفنا في قلوبهم من المعارف
وربطنا على قلوبهم اي قويناها فصار ما فيها من القوى مجتمعا غير مبدد فكانت حالهم
في الخلوة كحالهم في الخلوة اذ قاموا اي وقت قيامهم بين يدي الجبار دقيانوس من غير مبالاة
به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فقالوا ربنا رب السموات والارض وذلك لانه كان
يدعو الناس الى عبادة الطواغيت فثبت الله تعالى هولا الفتية حتى عصوا ذلك الجبار
واقروا بربوبية الله تعالى وصرحوا بالبراة عن الشرك والانداد بقولهم لن ندعو من دونه
الها لان ما سواه عاجز والله لقد قلنا اذن اي اذا دعونا من دونه غيره شططا اي قولا ذا
بعد عن الحق جدا وقال مجاهد كانوا ابنا عظما مدينتهم فخرجوا فاجتمعوا وراء المدينة من غير
ميعاد فقال رجل منهم هو اكبر القوم اني لاجد في نفسي شيا ما اظن ان احدا يجده قالوا ما نجد قال اجد
في نفسي ان ربي رب السموات والارض فقالوا نحن كذلك في انفسنا فقاموا جميعا فقالوا ربنا رب
السموات والارض وقال عطا قالوا ذلك عند قيامهم من النوم قال الرازي وهو بعيد لان الله
استانف قصتهم بقوله تعالى نحن نقص عليك وقال عبيد بن عمير كان اصحاب الكهف فتيانا
مطوقين مسورين ذوي ذوايب وكان معهم كلب صيدهم فخرجوا في عيد لهم عظيم في زي ومركب
واخرجوا معهم الهتهم التي يعبدونها وقد قذف الله تعالى في قلوب الفتية الايمان وكان

احدهم

احدهم وزير الملك وامنوا واخفى كل واحد ايمانه فقالوا في انفسهم نخرج من بين اظهر هولا القوم
لا يصيبنا عقاب بجرمهم فخرج شاب منهم حتى انتهى الى ظل شجرة فجلس فيه ثم خرج اخر فراه جالسا
وحده فرجى ان يكون على مثل امره من غير ان يظهر ذلك ثم خرج اخر فخرجوا كلهم جميعا فاجتمعوا
فقال بعضهم لبعض ما جمعكم وكل واحد يكتم صاحبه مخافة على نفسه ثم قالوا ليخرج كل فتيين
فيخلوا ثم يفشي كل واحد سره الى صاحبه ففعلوا فاذا هم جميعا على الايمان واذا كهف في الجبل
قريب منهم فقال بعضهم لبعض هولا قومنا وان كانوا اسن منا واقوى واجل في الدنيا اتخذوا
من دونه الهة اشركوهم معه لشبهة واهية لولا اي هلا ياتون عليهم بسلطان اي دليل بين
اي ظاهر مثل ما ياتي نحن على تقرير معبودنا بالادلة الظاهرة فتسبب عن عجزهم عن دليل انهم
اظلم الظالمين فلذلك قالوا فمن اظلم اي لا احد اظلم ممن افترى اي تعمد على الله اي الملك الاعظم
كذبا بنسبة الشريك اليه تعالى ثم قال بعض الفتية لبعض واذ اي وحين اعتزلتموهم اي قومكم
وما يعبدون اي واعتزلتم معبوديهم وقولهم الا الله يجوز ان يكون استثنا متصلا على ما روي
انهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كما كان اهل مكة وان يكون منقطعا وقيل هو كلام معترض
اخبار من الله تعالى عن الفتية انهم لم يعبدوا غير الله فاووا الى الكهف اي الغار الذي في الجبل ينشر
اي يبسط لكم ويوسع عليكم ربكم اي المحسن اليكم من رحمته ما يكفيكم به المهم من امركم في الدين ويهيئ
لكم من امركم الذي من شانه ان يهمكم مرفقا ما ترتفقون به اي تنتفعون وجزمهم بذلك لخلوص يقينهم
وقوة وثوقهم بفضل الله وقرا نافع وبن عامر بفتح الميم وكسر الفا والباقون بكسر الميم وفتح الفا
قال الفرا وهما لغتان واشتقاقهما من الارتفاق وكان الكسائي لا يذكر في مرفق الانسان الذي
في اليد الا كسر الميم وفتح الفا والفرا يجيزه في الامر وفي اليد وقيل هما لغتان الا ان الفتح اقيس
والكسر اكثر والخطاب في قوله تعالى وترى الشمس للنبي صلى الله عليه وسلم او لكل احد وليس المراد ان
من خوطب بهذا يرى هذا المعنى ولكن العادة في المخاطبة تكون على هذا النحو وحقيقته
انك لو رايته على هذه الحالة الصورة اذا طلعت تزاور اي تميل عن كهفهم ذات اليمين اي ناحيته
واذا غربت تقرضهم اي تعدل في سيرها عنهم ذات الشمال فلا يقع شعاعها عليهم فيوذيهم
لان الله تعالى زواها عنهم وقيل ان باب ذلك الكهف كان مفتوحا الى جانب الشمال فاذا طلعت
الشمس كانت على يمين الكهف واذا غربت كانت على شماله وقرا السوسي بامالة الف ترى المنقلبة
بعد الرا في الوصل بخلاف عنه والباقون بالفتح في الوصل وهم على اصولهم في الوقف ابو عمرو
وحمزة والكسائي بالامالة محضة وورش بين اللفظين والباقون بالفتح وقرا نافع وبن
كثير وابو عمرو تزاور بتشديد الزاي وتخفيف الرا مضمومة وبن عامر بسكون الزاي ولا الف
بعدها وتشديد الواو على وزن محمر والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الزاي
والواو لا خلاف في ضم الرا ولما انه تعالى حفظهم من حر الشمس بين انه انعشهم بروح الهوا
والطفهم بسعة الموضع في فضا الغار فقال تعالى وهم في فجوة منه اي في وسط الكهف
ومتسعه ينالهم برد الريح ونسيمها ثم بين تعالى نتيجة هذا الامر الغريب في البنا العجيب
بقوله تعالى ذلك اي المذكور العظيم من ايات الله اي دلايل قدرته من يهد الله اي الذي
له الملك كله يخلق الهداية في قلبه كاصحاب الكهف فهو المهتدي اي زمان كان فلن تجد له مضلا
مغويا ففي ذلك اشارة الى ان اهل الكهف جاهدوا في الله واسلموا له وجوههم فلطف بهم
واعانهم وارشدهم الى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالاية العظيمة وان كل من سلك
طريق المهتدين الراشدين فهو الذي اصاب الفلاح واهتدى الى السعادة وقرا نافع وابو عمرو

BULAC

بزيادة يا بعد الدال في الوصل دون الوقف والباقون بحذفها وقفا ووصلا ومن يضلل
اي يضله الله ولم يرشده كدقيانوس واصحابه فلن تجد له وليا اي معينا مرشدا يرشده للحق ثم
انه تعالى عطف على ما مضى بقية امرهم بقوله تعالى وتحسبهم اي لو رايتهم ايها المخاطب ايقاظا
اي منتبهين لان اعينهم مفتحة للهوى لانه يكون ابقى لها جمع يقظ بكسر القاف وهم رقود اي نيام
جمع راقد قال الزجاج لكثرة تقلبهم يظن انهم ايقاظ والدليل عليه قوله تعالى ونقلبهم اي في
حال نومهم تقلبا كثيرا بحسب ما ينفعهم كما يكون النائم ذات اي في الجهة التي هي صاحبة اليمين
منهم وذات الشمال لينال روح النسيم جميع ابدانهم ولا يتاثر ما يلي الارض منها بطول
المكث تنبيه اختلف في مقدار مدة التقليب فعن ابي هريرة ان لهم في كل عام تقليبتين
وعن مجاهد يمكثون رقودا على ايمانهم تسع سنين ثم يقلبون على شمائلهم فيمكثون رقودا تسع
سنين وقيل لهم تقليبة واحدة في يوم عاشورا قال الرازي وهذه التقديرات لا سبيل للعقل
اليها ولفظ القران لا يدل عليها وما جا فيه خبر صحيح فكيف يعرف انتهى ولهذا قلت بحسب ما
ينفعهم وقال بن عباس فائدة تقليبهم لئلا تاكل الارض لحومهم ولا ثيابهم قال الرازي وهذا عجيب
من ذلك لانه تعالى لما قدر على ان يمسك حياتهم ثلثمائة سنة واكثر فلم لا يقدر على حفظ اجسادهم
ايضا من غير تقليب انتهى وهذا ليس بعجيب لان القدرة صالحة لذلك واكثر لكن بحسب العادة
واما امساك ارواحهم فهو خرق للعادة فلا يقاس عليه وكلبهم باسط ذراعيه اي يديه اي
يلقيهما على الارض مبسوطتين غير مقبوضتين ومنه قوله صلى الله عليه وسلم اعتدلوا السجود
ولا يبسط احدكم ذراعيه انبساط الكلب قال المفسرون كان الكلب قد بسط ذراعيه وجعل
وجهه عليهما تنبيه باسط اسم فاعل ماض وانما عمل على حكاية الحال والكسائي يعمله ويستشهد
بالاية واكثر المفسرين على ان الكلب من جنس الكلاب وروي عن ابن جريج انه كان اسدا ويسمى
الاسد كلبا فان النبي صلى الله عليه وسلم دعا على عتبة بن ابي طالب فقال اللهم سلط عليه كلبا
من كلابك فافترسه الاسد وقال بن عباس كان كلبا اغر واسمه قطمير وعن علي اسمه ريان
واختلف في قوله تعالى بالوصيد فقال بن عباس هو باب الكهف وقيل العتبة قال السدي
والكهف لا يكون له باب ولا عتبة وانما اراد موضع الباب والعتبة وقال الزجاج
الوصيد فنا البيت وفنا الدار قال الشاعر بارض فنا لا يسد وصيدها علي ومعروفي
بها غير منكر وقال مجاهد والضحاك الوصيد الكهف لو اطلعت عليهم بكسر الواو على
اصل التقا الساكنين اي وهم على تلك الحالة لوليت منهم حال وقوع بصرك عليهم فرارا لما
البسهم الله تعالى من الهيبة وجعل لهم من الجلالة تدبيرا منه لما اراد منهم حتى
لا يصل اليهم احد حتى يبلغ الكتاب اجله ولملئت منهم رعبا اي فزعا واختلف
في ذلك الرعب كان لماذا فقال الكلبي لان اعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد ان
يتكلم وهم نيام وقيل من وحشة المكان وقيل لكثرة شعورهم وطول اظفارهم وتقلبهم
من غير حس كالمستيقظ وقيل ان الله تعالى منعهم بالرعب حتى لا يراهم احد وروي عن
سعيد بن جبير عن بن عباس قال غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي
فيه اصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هولا نظرنا اليهم فقال بن عباس قد
منع ذلك من هو خير منك لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا فبعث معاوية ناسا
فقال اذهبوا فانظروا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى عليهم ريحا فاخرجتهم وقرا نافع
وبن كثير بتشديد اللام بعد الميم والباقون بتخفيفها والسوسي بابدال الهمزة يا على اصله وقفا ووصلا

وحمزة

وحمزة في الوقف فقط وقرا ابن عامر والكسائي وعباس بضم العين والباقون بسكونها وكذلك
اي كما فعلنا بهم ما ذكرنا اية بعثناهم اي ايقظناهم من نومهم ليتساءلوا بينهم اي ليسال
بعضهم بعضا عن احوالهم في نومهم ويقظتهم فينتفع فوائدها لهم وما صنع الله تعالى بهم فيزدادوا
يقينا على كمال قدرة الله تعالى ويستبصروا به امر البعث ويشكروا به امر النعمة ويشكروا
ما انعم به عليهم قال قائل منهم مستفهما من اخوانه كم لبثتم ناعين في ذلك الكهف من ليلة او يوم
وهذا يدل على ان هذا القائل استشعر طول لبثهم عما راى من هيئتهم او غير ذلك من الامارات
قالوا لبثنا يوما او بعض يوم لانهم دخلوا الكهف طلوع الشمس وبعثوا اخر النهار فلما راوا
الشمس باقية قالوا او تفضل بعض يوم فلما نظروا الى طول اظفارهم وشعورهم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم
فاحالوا العلم على الله تعالى قال ابن عباس القائل ذلك هو رئيسهم فلما ازداد علم ذلك الى الله
تعالى وعلم ان مثل هذا التغير لا يحصل الا في ايام الطويلة وقد رأوا فيما بين كثير وعامهم باظهار
الثالثة المثلثة عند المساءة والباقون بالادغام ثم لما علموا ان الامر ملتبس لا طريق لهم الى علمه
اخذوا فيما يهمهم وقالوا فابعثوا احدكم بورقكم هذه اي بفضتكم وقرا ابو عمرو وشعبة وحمزة
بسكون الراء والباقون بكسرها والورق اسم للفضة سواء كانت مضروبة ام لا ويدل عليه ما روي
انه عرجه اخذ انفا من ورق وتقال له الرقة وفي الحديث في الرقة ربع العشر الى المدينة التي
خرجتم منها وهي مدينة طرسوس وهذه الاية تدل على ان السعي في اسباب الرزق امر مهم مشروع
وانه لا يبطل التوكل على الله تعالى اذ حقيقة التوكل تهيئة الاسباب واعتقاد ان لا مستتب
للاسباب الا الله تعالى فحمل النفقة وما يصلح المسافر هو راي المتوكلين مع الله دون المتوكلين
على الانفاق عالما في اوعية القوم من النفقات ومنه قول عايشة رضي الله تعالى عنها لمن
سالها عن محرم يشد عليه هميانه اوثق عليك نفقتك وما حكي عن بعض صعاليك العلماء
انه كان يشد يده الجبن الى ان يترزق فحج بيت الله وعلم منه ذلك فكانت مياسير اهل بلده كلما عزم
قوم على حج اتوه فيقدمونه ان يحجوا به والحوا عليه فيعتذر اليهم ويحدد اليهم بذلهم فاذا انفضوا
عنه قال لمن عنده ما لهذا الشغر الا سبابان سد الهميان والتوكل على الرحمن فلينظر ايها
ازكى طعاما قال ابن عباس يريد ما حل من الذبايح لان عامة اهل بلدهم كانوا مجوسا وفيهم نفر
يخفون ايمانهم وقال مجاهد كان ملكهم ظالما فقولهم ايها ازكى طعاما اي ايها ابعد عن الغصب
وكل سبب حرام وقيل ايها الطيب واللذ وقيل ايها ارخص قال الزجاج قولهم ايها رفع
بالابتداء وازكى خبره وطعاما تمييز ولابد هنا من حذف اي اي اهلها ازكى اي احل وقيل
لا حذف والضمير عايد على الاطعمة المدلول عليها من السياق وليات بكم ذلك لاحد برزق منه
للاكل وليتلطف اي وليكن في ستر وكتمان في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يعرف
ولا يشعرن اي ولا يخبرن بكم احدا من اهل المدينة انه اي اهل المدينة ان يظهروا اي يطلعوا عليكم
يرجموكم اي يقتلوكم والرجم بمعنى القتل كثير في القران كقوله ولولا رهطك لرجمناك وقوله
لارجمنك وقوله ان يرجمون وقال الزجاج اي يقتلوكم بالرجم والرجم اخبث انواع القتل
او يعيدوكم في ملتهم ان لم تفعلوا ما امروكم به ولن تفلحوا اذن اي ان رجعتم الى ملتهم ابدا
بل تكونوا اخاسرين قال بعض العلماء ولا خوف على المومن الفار بدينه اعظم من هذين الامرين احدهما فيه هلاك
النفس وهو الرجم الذي هو اخبث انواع القتل والاخر هلاك الدين قال قيل اليس انهم لو اكرهوا
على الكفر حتى اظهروا الكفر لم يكن عليهم مضرة فكيف قالوا ولن تفلحوا اذن ابدا اجيبوا بانهم خافوا
انهم لو بقوا على الكفر مظهرين له فقد يميل بهم ذلك الى الكفر الحقيقي فكان خوفهم بسبب هذا

الاحتمال فان قيل ما النكتة في العدول عن واحدكم الى احدكم وكل ذلك دال على الوحدة
اجيب بان النكتة فيه ان العرب اذا قالوا احد القوم ارادوا به فردا منهم واذا قالوا واحد القوم
ارادوا رئيسهم والمراد في القصة اي واحد كان والقران الكريم انزل بلغتهم فراعى ما راعوا وكذلك اي
ومثل ما فعلنا بهم ذلك الامر العظيم من الربط على قلوبهم والستر والحماية من الطالبين لهم والحفظ
لاجسادهم على ممر الزمان وتعاقب الحدثان وغير ذلك اعثرنا اي اطلعنا غيرهم عليهم يقال
عثرت على كذا علمته واصله ان من كان غافلا عن شيء فعثر به نظر اليه فعرفه فكان العاثر سببا
لحصول العلم فاطلق السبب على المسبب وقوله تعالى ليعلموا متعلق باعثرنا والضمير قيل يعود
على مفعول اعثرنا المحذوف تقديره اعثرنا الناس وقيل يعود الى اهل الكهف وهذا هو
الظاهر ان وعد الله الذي له صفات الكمال بالبعث للروح والجثة معا حق لان قيامهم
بعد نومهم نيفا وثلثمائة سنة مثل من مات ثم بعث قال بعض العارفين علامة اليقظة
بعد النوم علامة البعث بعد الموت ولما كان من الحق ما قد تداخله شك قال تعالى
وان اي وليعلموا ان الساعة اي اتية لا ريب اي لا شك فيها تنبيه اختلف في السبب
الذي به عرف الناس واقعة اصحاب الكهف فقال محمد بن اسحاق انه ملك تلك البلاد
رجل صالح يقال له تندوسيس فلما ملك بقي في ملكه ثمانية وستين سنة فتحزب الناس
في مملكته فكانوا احزابا منهم من يؤمن بالله ويعلم ان الساعة حق ومنهم من يكذب بها
فكبر ذلك على الملك الصالح فبكى وتضرع الى الله تعالى وحزن حزنا شديدا لما راى اهل الباطل
يزيدون ويظهرون على اهل الحق ويقولون لا حياة الا الدنيا وانما تبعث الارواح
ولا تبعث الاجساد وجعل الملك يرسل الى من يظن فيهم خيرا وانهم ائمة في الخلق فلم يقبلوا منه
وجعلوا يكذبون بالساعة حتى كادوا يخرجون الناس عن الحق وملة الحواريين فلما راى
ذلك الملك دخل بيته واغلق بابه عليه ولبس مسحا وجعل تحته رمادا فجلس عليه وذاب
ليله ونهاره زمانا يتضرع الى الله تعالى ويبكي ويقول اي رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث
لهم اية تبين لهم ثم ان الله تعالى الذي يكره هلكة عباده اراد ان يظهر على الفتية اصحاب الكهف
ويبين للناس شانهم ويجعلهم اية وحجة عليهم ليعلموا ان الساعة اتية لا ريب فيها ويستجيب
لعبده تندوسيس ويتم نعمته عليه وان يجمع من كان يتبدد من المؤمنين والقى الله تعالى
في نفس رجل من تلك البلد الذي فيه الكهف ان يهدم ذلك البنيان الذي على فم الكهف
فيبني به حظيرة لغنمه فاستاجر غلامين فجعلا ينزعان تلك الحجارة ويبنيان تلك
الحظيرة حتى نزعا ما على فم الكهف وفتحا باب الكهف اذن الله تعالى ذو القدرة والسلطان
محيي الموتى للفتية ان يجلسوا بين ظهري الكهف فجلسوا فرحين مسفرة وجوههم طيبة
انفسهم فسلم بعضهم على بعض كانما استيقظوا من ساعتهم التي كانوا يستيقظون لها اذا اصبحوا
من ليلتهم ثم قاموا الى الصلاة فصلوا كالذي كانوا يفعلون لا يرى في وجوههم ولا الوانهم
شيء يكرهونه كهيئتهم حتى رقدوا وهم يرون ان ملكهم دقيانوس في طلبهم فلما قضوا صلاتهم
قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم ايتنا بما قال الناس في شاننا عشية امس عند الجبار وهم يظنون
انهم رقدوا كبعض ما كانوا يرقدون وقد تخيل اليهم انهم قد ناموا اطول ما كانوا ينامون حتى
تسالوا بينهم فقال بعضهم لبعض كم لبثتم مناما قالوا لبثنا يوما او بعض يوم ثم قالوا ربكم اعلم
بما لبثتم وكل ذلك في انفسهم يسير فقال لهم تمليخا التمستم بالمدينة وهو يريد ان يؤتى بكم

اليوم

اليوم فتذبحون للطواغيت او يقتلكم فما شأن الله بعد ذلك فعل فقال لهم مكسلمينا يا اخوتاه
اعلموا انكم ملاقوا الله فلا تكفروا بعد ايمانكم اذا انعم عدو الله ثم قال لتليخا انطلق الى المدينة
فتسمع ما يقال لنا بها وما الذي يذكر عندهم فينا فرس رتلطف ولا يشعرن بكر احد واتنا لنا
طعاما واتينا بدوزدنا على الطعام الذي جيئنا به فغدا صحنا جياعا فعل تليخا
كما كان يفعل ووضع ثيابه واخذ الثياب التي كان يتنكر فيها واخذ ورقا من نفقتهم التي
كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس وكانت تخاف الدبغ فانطلق تليخا خارجا فلما مر بباب
الكهف راى الحجارة منزوعة عن باب الكهف فعجب منها ثم مر ولم يبال بها حتى اتى باب المدينة مستخفيا
يصد عن الطريق يخوفا ان يراه احد من اهلها فيعرفه ولا يشعر ان دقيانوس واهله قد هلكوا قبل
ذلك بثلثمائة سنة فلما اتى تليخا باب المدينة رفع رصفا فراى فوق ظهر الباب علامة تكون
لاهل الايمان اذا كان امر الايمان ظاهرا فلما راى عجب وجعل ينظر اليها مستعجبا وينظر يمينا
وشمالا ثم ترك الباب وتحول لباب اخر من ابوابها فراى مثل ذلك فجعل يخيل اليه ان المدينة
ليست التي كان يعرفها وراى ناسا كثيرا احدث ممن لم يكن يراهم قبل ذلك فجعل يمشي ويعجب
ويخيل اليه انه حيران ثم رجع الى الباب الذي اتى منه فجعل ينعجب بينه وبين نفسه ويقول
يا ليت شعري ما هذا اما عشية امس وكان المسلمون يخبثون هذه العلامة ويستخفون
بها واما اليوم فانها ظاهرة لعل احلم ثم يدري انه ليس بنايم فاخذ كسا فجعله على راسه ثم دخل
المدينة فجعل يمشي بين ظهري مشركيها فيسمع ناسا يحلفون باسم عيسى ابن مريم فزاده فرقا وراى
انه حيران فقام مستند اظهره الى جدار من جدر ان المدينة ويقول في نفسه والله ما ادري
ما هذا اما عشية امس فليس على وجه الارض انسان يذكر عيسى بن مريم الا قتل واما اليوم فاسمع
كل انسان يذكر عيسى ولا يخاف ثم قال في نفسه لعل هذه ليست المدينة التي اعرف والله
ما اعلم مدينة بقرب حمد بيتنا فقام كالحيران ثم لقي فتى فقال له ما اسم هذه المدينة يا فتى قال
اسمها افسوس فقال في نفسه لعلي نمت او اصابني سكر فاهلكت ثم انه خاف فقال في نفسه لو عجلت الخروج
منها قبل ان اخرى فيها او يصيبني شر فاهلك ثم انه خاف فقال في نفسه لو عجلت الخروج
من المدينة قبل ان يتطير لي لكان اكيس فمضى حتى اتى الذين يبيعون الطعام فاخرج الورق
التي كانت معه فاعطاها رجلا منهم فقال بعني بهذا الورق طعاما واخذها الرجل فنظر الى
ضرب الورق ونقشها فعجب منها ثم طرحها الى رجل من اصحابه فنظر اليها ثم الى اخر ثم جعلوا ينظرون
بينهم من رجل الى رجل ويتعجبون منها ثم جعلوا يتشاورون بينهم ويتولى بعضهم لبعض
ان هذا اصاب كنزا من كنوز الارض منذ زمان وهو طويل فلما راهم تليخا يتشاورون ورابهم امره
فرق فرقا شديدا وجعل يرتعد ويظن انهم فطنوا به وعرفوه وانهم انما يريدون ان يذهبوا
به الى ملكهم دقيانوس فجعل الناس اخرون يأتونه فينظرون اليه فقال لهذا رجل وهو سكران
الورق فنهم اقضوا علي فقد اخذ ثم ورثي فامسكوها واما طعامكم فلا حاجة لي به فقالوا من انت
يا فتى وما شانك والله لقد وجدت كنزا من كنوز الاولين وانت تريد ان تخفيه انطلق معنا
وارنا وشاركنا فيه نخف عليك ما وجدت وانك ان لم تفعل باتت بك الشلطان فسلمك
اليه فيقتلك فلما سمع قولهم قال قد وقعت في كل شي كنت احذره فقالوا يا فتى انك
والله لا تستطيع ان تكتم ما وجدت فجعل تليخا لا يدري ما يقول لهم وخاف حتى انه لم يرد اليهم جوابا
فلما راوه لا يتكلم اخذوا بكساءه وطرحوه في عنقه وجعلوا يقودونه به في سكك المدينة

BULAC

حتى سمع من فيها فقيل اخذ رجل عنده كنز واجتمع عليه اهل المدينة صغيرهم وكبيرهم فجعلوا ينظرون
اليه ويقولون والله ما هذا الفتى من اهل هذه المدينة وما رايناه قط وما نعرفه فجعل تمليخا ما يدري
ما يقول لهم فلما اجتمع عليه اهل المدينة وكان مستيقنا ان اباه واخوته في المدينة وانه من عظما
اهلها وانهم سياتونه اذا سمعوا به فبينما هو قايم كالحيران ينظر متى ياتيه بعض اهله فيخلصه
من ايديهم اذا اختطفوه وانطلقوا به الى رييسي المدينة ومدبريها الذين يدبران امرها
وهما رجلان صالحان اسم احدهما اريوس واسم الاخر اسطبوس فلما انطلقوا به اليهما ظن تمليخا
انه ينطلق به الى دقيانوس الجبار فجعل يلتفت يمينا وشمالا وجعل الناس يسخرون منه
كما يسخرون من المجنون وجعل تمليخا يبكي ويرفع راسه الى السما وقال اللهم
اله السما واله الارض افرغ اليوم علي صبرا واولج معي روحا منك تويدني به عند هذا
الجبار وجعل يقول في نفسه فرق ما بيني وبين اخوتي يا ليتهم يعلمون ما لقيت ويا
ليتهم ياتون فنقوم جميعا بين يدي هذا الجبار فانا كنا توافقنا على الايمان بالله تعالى
ولا نشرك به شيا ولا نفترق في حياة ولا موت فلما انتهى به الى الرجلين الصالحين وراى
انه لم يذهب به الى دقيانوس افاق وسكن عنه البكا فاخذ اريوس واسطبوس الورق
فنظرا اليه وعجبا منها ثم قال احدهما اين الكنز الذي وجدت يا فتى فقال تمليخا ما وجدت
كنزا ولكن هذا ورق اباي ونقش هذه المدينة وضربها ولكن والله ما ادري ما شاني
وما اقول لكم فقال احدهما مما انت فقال تمليخا اما انا فكنت ارى اني من اهل هذه
المدينة قالوا فمن ابوك ومن يعرفك بها فانباهم باسم ابيه فلم يجدوا احدا يعرفه ولا اباه فقال
له احدهما انت رجل كذاب لا تنبينا بالحق فلم يدر تمليخا ما يقول لهم غير انه نكس بصره الى الارض
فقال بعض من حوله هذا رجل مجنون وقال بعضهم لبعض ليس بمجنون ولكنه يحمق نفسه
عمدا لكي ينفلت منكم فقال له احدهما ونظر اليه نظرا شديدا اتظن انا نرسلك ونصدقك بان
هذا مال ابيك ونقش هذه الورق وضربها اكثر من ثلثماية سنة وانما انت غلام شاب
انظر انك تافكنا وتسخر بنا ونحن شيوخ وشمط كما ترى وحولك سراة هذه المدينة
وولاة امرها وخزاين هذه البلدة بايدينا وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار
واني لاظنني سامر بك فتعذب عذابا شديدا ثم اوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدته
فلما قالا ذلك قال لهم تمليخا انبئوني عن شي اسالكم عنه فان فعلتم صدقتكم عما عندي
قالوا سل لا نكتمك شيا قال ما فعل الملك دقيانوس قالوا ليس نعرف اليوم على وجه الارض
ملكا يسمى دقيانوس ولم يكن الا ملك هلك منذ زمان ودهر طويل وهلكت بعده قرون
كثيرة فقال تمليخا اني اذا لحيران وما هو بمصدقي احد من الناس بما اقول لقد كنا فتية
وان الملك اكرهنا على عبادة الاوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه عشية امس
فنمنا ثم لما انتبهنا خرجت لاشتري طعاما واتجسس الاخبار فاذا انا كما ترون
فانطلقوا معي الى الكهف الذي في جبل بنجلوس اريكم اصحابي فلما سمع اريوس ما يقول
تمليخا قال يا قوم لعل هذه اية من ايات الله جعلها الله تعالى لكم على يدي هذا
الفتى فانطلقوا بنا معه ليرينا اصحابه فانطلق معه اريوس واسطبوس ومعهما
جميع اهل المدينة كبيرهم وصغيرهم نحو اصحاب الكهف لينظروا اليهم فلما راى
الفتية اصحاب الكهف تمليخا قد احتبس عنهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي

كان

كان ياتي فيه ظنوا انه قد اخذ وذهب به الى ملكهم دقيانوس فبينما هم يظنون ذلك
ويتخفونه اذ سمعوا الاصوات وجلبة الخيل مصعدة نحوهم فظنوا انهم رسل الجبار دقيانوس
بعث اليهم ليأتوا بهم فقاموا الى الصلاة وسلم بعضهم على بعض واوصى بعضهم بعضا وقالوا
انطلقوا بنا نات اخانا تمليخا فانه الان بين يدي الجبار وهو ينتظرنا حتى ناتيه فبينما هم
يقولون ذلك وهم جلوس على هذه الحالة اذا هم باريوس واصحابه وقوف على باب الكهف
فسبقهم تمليخا ودخل وهو يبكي فلما راوه يبكي بكوا معه ثم سالوه عن خبره فقص عليهم
الخبر كله فعرفوا انهم كانوا نياما بامر الله ذلك الزمن الطويل وانما اوقظوا ليكونوا اية
للناس وتصديقا للبعث ويعلمون الناس ان الساعة لا ريب فيها ثم دخل على اثر تمليخا
اريوس فراى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم من فضة فقام بباب الكهف ثم دعا رجالا
من عظما اهل المدينة ففتح التابوت عندهم فوجد فيه لوحين من رصاص مكتوب فيهما
مكشليما ومخشلمينا وتمليخا ومطرونس وكشطونس وبيرونس وبدرونس وبيطونس
كانوا فتية هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة ان يفتنهم عن دينهم فدخلوا هذا الكهف
فلما اخبر بمكانهم امر بالكهف فسد عليهم بالحجارة وانا كتبنا شانهم وخبرهم ليعلمه من بعدهم
ان عثر عليهم فلما قراوه عجبوا وحمدوا الله تعالى الذي اراهم اية للبعث فيهم ثم رفعوا
اصواتهم بحمد الله وتسبيحه ثم دخلوا على الفتية الكهف فوجدوهم جلوسا مشرقة وجوههم
لم تبل ثيابهم فخر اريوس واصحابه سجودا وحمدوا الله تعالى الذي اراهم اية من اياته
ثم كلم بعضهم بعضا وانباهم الفتية عن الذي لقوه من ملكهم دقيانوس ثم ان اريوس
واصحابه بعثوا بريدا الى ملكهم الصالح تندوسيس ان عجل لملك تنظر الى اية من ايات الله
جعلها الله تعالى على ملكك وجعلها اية للعالمين ليكون لهم نورا وضيا وتصديقا للبعث واعجل
على فتية بعثهم الله تعالى وكان قد توفاهم منذ اكثر من ثلثماية سنة فلما اتى الملك الخبر قام
ورجع اليه عقله وذهب همه فقال احمدك الله رب السموات والارض واعبدك واسبح
لك فطولت علي ورحمتني فلم يطف النور الذي كنت جعلته لابائي وللعبد الصالح
قسطنطينوس الملك فلما نبي به اهل المدينة ركبوا اليه وساروا معه حتى اتوا مدينة افسوس
فتلقاهم اهل المدينة وساروا معه نحو الكهف فلما صعد الجبل وراى الفتية تندوسيس فرحوا
به وخروا سجدا على وجوههم وقام تندوسيس قدامهم ثم اعتنقهم وبكى وهم جلوس بين يديه
على الارض يسبحون الله تعالى ويحمدونه ثم قالوا له نستودعك الله السلام عليك ورحمة
الله وحفظك الله وحفظ ملكك ونعيذك بالله من شر الانس والجن فبينما الملك قايم
اذ رجعوا الى مضاجعهم فناموا وتوفى الله تعالى انفسهم وقام الملك اليهم فجعل ثيابه
عليهم وامر ان يجعل كل رجل منهم في تابوت من ذهب فلما امسى ونام اتوه في المنام وقالوا
له انا لم نخلق من ذهب ولا فضة ولكن خلقنا من تراب والى التراب نصير فاتركنا كما كنا
في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله منه فامر الملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا
فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب فلم يقدر احد على ان يقدر عليهم
وقيل ان تمليخا لما حمل الى الملك الصالح قال له الملك من انت قال انا رجل من اهل هذه المدينة
وذكر انه خرج امس او من ايام وذكر منزله واقواما لم يعرفهم احد وكان الملك قد سمع ان
فتية فقدوا في الزمان الاول وان اسماهم مكتوبة على لوح في خزانته فدعا باللوح فنظر

في اثرهم فاذا اسمه مكتوب في كراسة الاخرين فقال لملخاهم اصحابي فلما سمع الملك ذلك ركب
ومن معه من القوم فلما اتوا باب الكهف قال لملخا ادعوني حتى ادخل على اصحابي فابشرهم
فانهم ان راوكم معي ازعتموهم فدخل فبشرهم فقبض روحه وارواحهم واعمى على الملك واصحابه
انرهم فلم يهتدوا عليهم ثم وقع التنازع في امرهم بين اهل المدينة كما قال تعالى اذ يتنازعون
بينهم اي اهل المدينة امرهم اي امر الفتية في الباطن وهذا قالوا اي الكفار ابنوا عليهم
بنيانا يسترهم فانهم كانوا على ديننا وقوله ربهم اعلم بهم يجوز ان يكون من كلام الله تعالى
وان يكون من كلام المتنازعين فيهم قال الذين غلبوا على امرهم اي امر الفتية وهم المؤمنون
لنتخذن عليهم اي حولهم مسجدا نصلي فيه ونفعل ذلك على باب الكهف وقيل ان بعضهم قال
الاولى ان يشيد باب الكهف ليلا يدخل احد عليهم ولا يقف على اخوالهم انسان وقال
الاخرون بل الاولى ان يبنى على باب الكهف مسجدا وهذا القول يدل على ان اولئك الاقوام
كانوا عارفين بالله ومعترفين بالعبادة والصلاة وقيل تنازعوا في مقدار مكانهم وقيل
في عددهم واسمائهم تنبيه بنيانا يجوز ان يكون مفعولا به جمع بنيانة وان يكون
مصدرا ولما ذكر اصحاب الكهف عند النبي صلى الله عليه وسلم وقع الاختلاف في عددهم كما قال
تعالى سيقولون اي الخائضون في قصتهم من اهل الكتاب والمؤمنين فقال بعض اهل الكتاب
ثلاثة رابعهم كلبهم اي هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم بانضمامه اليهم ويقولون اي بعضهم خمسة
سادسهم كلبهم فهذان القولان لنصارى نجران وقيل الاول قول اليهود والثاني قول
النصارى فان قيل لم جاءت الاسمية الاستغنائية في الاول والثاني واخبر باثبات الواو في ذلك وحذفها
انه دخل الاخير توكيد لحكم التبس كما تقول قد اكرم وانعم تريد معنى التوقع في الفعلين
جميعا وانت تريد بفعل معنى الاستغبال الذي هو صالح له ولما كان قولهم ذلك بغير علم
كان رجما بالغيب اي ظنا في الغيبة عنهم فهو راجع الى القولين معا ونصب على المفعول
له اي يظنهم ذلك ويقولون اي الموصوفون سبعة وثامنهم كلبهم قال اكثر المفسرين بهذا الاخير
هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى لما حكى قولين ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم
قال بعده قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم الا قليل واتبع القولين الاولين بقوله
تعالى رجما بالغيب وتخصيص الشيء بالوصف يدل على انتفاء الحال فيما عداه فوجب
ان يكون المخصوص بالذكر هو الباطل وهو القولان الاولان وان يكون القول الثالث
صحيحا لما في قوله رجما بالغيب الوجه الثاني ان الواو في قوله تعالى وثامنهم هي الواو التي
تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل الواقعة حالا من المعرفة في نحو قولك
جاءني رجل ومعه اخر فتوكيد الصوق الصفة بالموصوف والدلالة على ان اتصافه بها امر
ثابت مستقر وكانت هذه الواو واللازمة ان الذين كانوا في الكهف كانوا سبعة وثامنهم
كلبهم وقول محمد بن اسحق انهم كانوا ثمانية معروف فكان الله تعالى حكى اختلافهم وعم الكلام
عند قوله ويقولون سبعة ثم حقق هذا القول بقوله تعالى وثامنهم كلبهم والثامن
لا يكون الا بعد السابع وهذه الواو يسمونها واو الثمانية لان العرب تعد فتقول
واحد اثنان ثلاثة اربعة خمسة ستة سبعة وثمانية لان العقد كان عندهم سبعة
كما هو اليوم عندنا عشرة ونظير هذا قوله تعالى ثلاث ايات وهي قوله تعالى والناهون عن المنكر
وقوله تعالى حتى اذا جاءوها وفتحت ابوابها لان ابواب الجنة ثمانية وابواب النار سبعة

وقدم

وقوله تعالى ثيبات وابكارا قال القفال وقولهم واو الثمانية ليس بشيء بدليل قوله تعالى
هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ولم يذكر
الواو في النعت الثامن انتهى وقد يجاب بان ذلك جرى على الغالب الوجه الثالث انه تعالى
قال ما يعلمهم الا قليل وهذا يقتضي انه حصل العلم بعدتهم لذلك القليل وكان ابن عباس
يقول انا اولئك العدد القليل وكان يقول انهم سبعة وثامنهم كلبهم وكان علي رضي الله تعالى
عنه يقول كانوا سبعة قال الرازي واسماؤهم تمليخا مكشلمينيا مشلينيا وهؤلاء الثلاثة
كانوا اصحاب يمين الملك وعن يساره مرنوش وديدنوش وشاذنوش وكان الملك يستشير
هؤلاء الستة يتصرفوا في مهماته والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من ملكهم وروي
عن ابن عباس انه قال هم مكشلمينا وتمليخا ومرطونس ويدنونس ودونواقس وكفشططونس
وهو الراعي واسم كلبهم قطمير واسم مدينتهم افسوس تنبيه في الاية حذف والتقدير سيقولون
هم ثلاثة كما تقدم تقديره فحذف المبتدا لدلالة الكلام عليه وقيل الاقوال الثلاث لاهل
الكتاب والقليل منهم اي ولا علم بذلك الا في قليل منهم واكثرهم على الظن ثم انه تعالى لما ذكر هذه
القصة اتبعها بان نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين عن المرا وعن الاستفتا اما النهي عن المرا
بقوله تعالى فلا تمار اي تجادل فيهم اي في شان الفتية الا مرا اي جدالا ظاهرا اي غير متعمق
فيه وهو ان تقص عليهم ما في القران من غير ان تكذبهم في تعيين ذلك العدد ونظيره قوله
تعالى ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن واما النهي عن الاستفتا فقوله تعالى ولا
تستفت فيهم اي ولا تسال منهم اي من اهل الكتاب اليهود احدا عن قصتهم سوال مسترشد لانه
لما ثبت انه ليس عندهم علم في هذا الباب وجب المنع من استفتائهم وفيما اوحي اليك مندوحة
عن غيره ولا سوال متعنت تريد تفضيح المسول عنه وتزييف ما عنده فانه يخل بمكارم الاخلاق
ولما سال اهل مكة عن خبر اهل الكهف فقال صلى الله عليه وسلم اخبركم به غدا ولم يقل ان شا الله
فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوما وفي رواية اخرى اربعين يوما نزل ولا تقولن لشيء اي لاجل
شيء تعزم عليه اني فاعل ذلك الشيء غدا اي فيما يستقبل من الزمان او لم يرد الغد خاصة
الا ان يشا الله اي الا ملتبسا بمشيئته بان يقول ان شا الله والسبب في ذلك ان الانسان اذا قال
سافعل الفعل الفلاني غدا لم يبعد ان يموت قبل مجي الغد ولم يبعد ايضا لو بقي حيا
ان يعيقه عن ذلك الفعل ساير العوايق فاذا لم يقل ان شا الله صار كاذبا في ذلك الوعد
والكذب منفر لا يليق بالانبيا عليهم الصلاة والسلام فلهذا السبب وجب عليه ان يقول
ان شا الله حتى اذا تعذر عليه الوفا بذلك الموعد لم يصر كاذبا ولم يحصل التنفير تنبيه
قال كثير من الفقها اذا قال الرجل لامراته انت طالق ان شا الله لم يقع الطلاق لانه لما
علق وقوع الطلاق على مشيئة الله تعالى لم يقع الطلاق الا اذا علمنا حصول
المشيئة ومشيئة الله تعالى غيب لا سبيل لنا الى العلم بخصوصها الا اذا علمنا ان متعلق
المشيئة وقع وهو الطلاق وعلى هذا لا نعرف حصول المشيئة الا اذا وقع الطلاق ولا يعرف
وقوع الطلاق الا اذا عرفت المشيئة فيتوقف العلم بكل واحد منهما على الاخر وهو دور فلهذا
لم يقع الطلاق وقيل المراد الا ان يشا الله ان ياذن لك في ذلك القول والمعنى انه ليس لك ان
تخبر عن نفسك بانك تفعل الفعل الفلاني الا اذا اذن لك الله تعالى في ذلك الاخبار
وقد احتج القايلون بان المعدوم شي بهذه الاية لان الشي الذي سيفعله غدا معدوم

في الحال فوجب تسمية المعدوم بانه شيء واجيب بان هذا الاستدلال لا يفيد الا ان المعدوم مسمى
بكونه شيئا وعندنا ان السبب فيه سيصير شيئا يجوز تسميته بكونه شيئا في الحال كما قال تعالى
اتى امر الله والمراد سياتي امر الله واختلف في معنى قوله تعالى واذكر ربك اذا نسيت فقال
ابن عباس ومجاهد والحسن معناه اذا نسيت الاستثناء ثم ذكرت فاستثن وعند هذا اختلفوا
فقال ابن عباس لو لم يحصل التذكر الا بعد مدة طويلة ثم ذكر ان شاء الله كفى في رفع الحنث وعن سعيد
ابن جبير بعد سنة او شهر او اسبوع او يوم وعن طاوس لا يقدر على الاستثناء الا في مجلسه
وعن عطا يستثني على مقدار حلب ناقة غزيرة وعند عامة الفقهاء انه لا اثر له في الكلام ما لم
يكن موصولا واحتج ابن عباس بان قوله تعالى اذا نسيت غير مختص بوقت معين بل هو متناول
لكل الاوقات وظاهره ان الاستثناء لا يجب ان يكون متصلا اما عامة الفقهاء فقالوا لو جوزنا ذلك
للزم ان لا يستقر شيء من العهود والايمان يحكى ان المنصور بلغه ان ابا حنيفة خالف ابن عباس
في الاستثناء المنفصل فاستحضره لينكر عليه فقال له ابو حنيفة هذا يرجع عليك لانك
تاخذ البيعة بالايمان اترضى ان تخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك فاستحسن
المنصور كلامه ورضي عنه واستدل لهم بان الايات الكثيرة دلت على وجوب الوفاء بالعقد
والعهد قال تعالى اوفوا بالعقود وقال تعالى واوفوا بالعهد فاذا اتى بالعقد
او العهد وجب عليه الوفاء بمقتضاه لاجل هذه الايات خالفنا الدليل فيما اذا كان
الاستثناء متصلا لان الاستثناء مع المستثنى منه كالكلام الواحد بدليل ان الاستثناء
وحده لا يفيد شيئا فهو جار مجرى بعض الكلمة الواحدة فجملة الكلام كالكلمة الواحدة المفيدة
فاذا لم يكن متصلا افاد الالتزام التام فوجب الوفاء بذلك الملتزم وقيل ان قوله تعالى
واذكر ربك اذا نسيت كلام مستانف لا تعلق له بما قبله قال عكرمة واذكر ربك اذا غضبت
وقال وهب مكتوب في الانجيل ابن ادم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب وقال الضحاك
والسدي هذا في الصلاة المنسية قال الرازي وتعلق هذا الكلام بما قبله يفيد اتمام
الكلام في هذه القصة وجعله مستانفا يصير الكلام مبتدا منقطعا وذلك لا يجوز
وفي قوله تعالى وقل عسى ان يهدين ربي لاقرب من هذا رشدا وجوه الاول ان يكون قوله ان شاء الله ليس
بحسن تركه وذكره اولى من تركه وهو قوله لاقرب من هذا رشدا المراد منه ذكر هذه الجملة
الثاني انه لما وعدهم بشيء وقال معه ان شاء الله فيقول وعسى ان يهدين ربي لشيء احسن
واكمل مما وعدتكم به الثالث ان قوله عسى ان يهدين ربي لاقرب من هذا رشدا اشارة الى
قصة اصحاب الكهف اي لعل الله يؤتيني من البينات والدلائل على صحة نبوتي وصدقي
في ادعاء النبوة ما هو اعظم في الدلالة واقرب رشدا من قصة اصحاب الكهف وقد فعل
الله تعالى ذلك حين اتاه من قصص الانبياء والاخبار بالغيوب ما هو اعظم من ذلك ثم شرع
تعالى في اية اخر الايات المذكورة في قصة اصحاب الكهف بقوله ولبثوا في كهفهم اي نياما
ثلثمائة اي مدة ثلثمائة سنين قال بعضهم وهذه السنون الثلثمائة عند اهل الكتاب شمسية
وتزيد القمرية عليها تسع سنين وقد ذكرت في قوله تعالى وازدادوا تسعا اي تسع سنين لان
التفاوت بين الشمسية والقمرية في كل مائة سنة ثلاث سنين لان السنة الشمسية تزيد
على السنة القمرية عشرة ايام واحدى وعشرون ساعة وخمس ساعة فالثلثمائة الشمسية
ثلثمائة وتسع قمرية قال الرازي وهذا مشكل لانه لا يصح بالحساب هذا القول ويمكن ان يقال لعلهم

عامة

لما استكملوا ثلثمائة سنة قرب امرهم من الانتباه ثم اتفق ما اوجب بقاءه في النوم بعد ذلك تسع
سنين وقرا حمزة والكسائي بغير تنوين في الوصل والباقون بالتنوين فسنين عطف بيان
لثلثمائة لانه لما قال ولبثوا في كهفهم ثلثمائة لم يعرف انها ايام او شهور او سنون فلما قال
سنين صار هذا بيانا لقوله ثلثمائة فكان ذلك عطف بيان له وقيل هو على التقديم والتاخير
اي لبثوا سنين ثلثمائة واما وجه القراءة الاولى فهو ان الواجب في الاضافتين ان يقال
ثلثمائة سنة الا انه يجوز وضع الجمع موضع الواحد في التمييز كقوله تعالى بالاخسرين اعمالا
وحذف مميز تسع لدلالة ما تقدم عليه اذ لا يقال عندي ثلثمائة درهم وتسعة
الا وانت تعني تسعة دراهم ولو اردت ثيابا ونحوها لم يجز لانه الغاز ثم ان الله تعالى امر نبيه
اذا نازعوه في مدة لبثهم في الكهف بقوله تعالى قل الله اعلم بما لبثوا اي هو اعلم منكم وقد اخبر
بمدة لبثهم وقيل ان اهل الكتاب قالوا ان المدة من حين دخلوا الكهف الى يومنا هذا وهو
اجتماعهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ثلثمائة سنين وازدادوا تسع سنين فرد الله تعالى عليهم ذلك
وقال الله اعلم بما لبثوا يعني بعد قبض ارواحهم الى يومنا هذا لا يعلمه الا الله له غيب
السموات والارض اي ما غاب فيها وخفي من احوال اهلها فالغيب ما يغيب عن ادراكك
والله عز ذكره لا يغيب عن ادراكه شيء فيكون عالما بهذه الواقعة لا محالة وقوله تعالى
ابصر به واسمع كلمة تذكر في التعجب اي ما ابصر الله تعالى بكل موجود وما اسمعه بكل مسموع
ما لهم اي اهل السموات والارض من دونه اي الله من ولي اي ناصر ولا يشرك في حكمه اي قضائه
احدا منهم ولا يجعل له فيه مدخلا لانه غني بذاته عن كل احد وقيل الحكم هنا علم الغيب
اي لا يشرك في علم غيبه احدا وقرا ابن عامر بالمثناة فوق قبل الشين وسكون الكاف على
نهي كل احد عن الاشراك والباقون بالتحتية وضم الكاف تنبيه احتج اصحابنا رحمهم الله
تعالى على صحة القول بالكرامة للاولياء وقد قدمنا معرفة الولي في سورة يونس عند قوله تعالى
الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون فمما يدل على كرامات الاولياء القران والاخبار
والاثار والمعقول اما القران فالمعتمد فيه عندنا ايات الحجة الاولى قصة مريم عليها السلام
وقد شرحناها في سورة ال عمران فلا نعيدها الحجة الثانية قصة اصحاب الكهف وبقاءهم
في النوم سالمين من الافات مدة ثلثمائة سنة وتسع سنين وانه تعالى كان يعصمهم من حر
الشمس ومن الناس من تمسك ايضا في هذه المسالة بقوله تعالى قال الذي عنده علم من الكتاب
انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك على انه غير السيد سليمان والسيد جبريل واما الاخبار
فكثيرة منها ما اخرج في الصحيح عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لم يتكلم
في المهد الا ثلاثة عيسى بن مريم وصبي في زمن جريج وصبي اخر اما عيسى فقد عرفتموه واما جريج
فكان رجلا عابدا في بني اسرائيل وكانت له ام فكان يوما يصلي اذ اشتاقت له امه فقالت
يا جريج فقال يا رب الصلاة خير ام رويتها ثم يصلي فدعته ثانيا فقال مثل ذلك حتى تم ثلاث
مرات وكان يصلي ويدعها فاشتد ذلك على امه فقالت اللهم لا تمته حتى تريه المومسات
وكانت زانية في بني اسرائيل فقالت لهم انا افتن جريجا حتى تزني بي فاتته فلم تقدر على شيء
وكان هناك راع ياوي بالليل الى صومعته فلما اعياها جريج راودت الراعي على نفسها فاتاها
فولدت ثم قالت ولدي هذا من جريج فاتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى
ثم نخس الغلام قال ابو هريرة كاني انظر الى النبي صلى الله عليه وسلم حين قال بيده يا غلام

من ابوك فقال الراعي فقدم القوم على ما كان منهم واعتذروا اليه وقالوا نبني لك صومعتك
من ذهب او فضة فابى عنهم وبناها كما كانت واما الصبي الاخر فان امراة كان معها صبي لها ترضعه
اذ مر بها شاب جميل ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابني مثل هذا فقال الصبي اللهم لا تجعلني
مثله ثم مر بها امراة ذكروا انها سرقت وزنت وعوقبت فقالت
اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فقال الصبي اللهم اجعلني مثلها فقالت له امه في ذلك فقال ان
الراكب جبار من الجبابرة فكرهت ان اكون مثله وان هذه قيل لها زنيت ولم تزن
وقيل لها سرقت ولم تسرق وهي تقول حسبي فاحببت ان اكون مثلها ومنها خبر الغار
وهو مشهور في الصحاح عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم فاواهم المبيت الى غار فدخلوه فانحدرت عليهم
صخرة من الجبل فسدت عليهم باب الغار وقد ذكرت ذلك عند قوله تعالى كانوا من اياتنا
عجبا ومنها قوله صلى الله عليه وسلم رب اشعث اغبر ذي طمرين لا يؤبه به لو اقسم
على الله لابره ولم يفرق بين شيء وشيء فيما يقسم به على الله تعالى ومنها ما روى سعيد بن
المسيب عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها
التفتت البقرة وقالت اني لم اخلق لهذا وانما خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله
فقال النبي صلى الله عليه وسلم امنت بهذا وابو بكر وعمر ومنها ما روي عن ابي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل سمع رعدا وصوتا في السحاب ان اسق حديقة
فلان قال فغدوت الى تلك الحديقة فاذا رجل قائم فيها فقلت له ما اسمك قال فلان
ابن فلان قلت فما تصنع بحديقتك هذه اذا صرمتها قال ولم تسال عن ذلك قلت لاني
سمعت صوتا في السحاب ان اسق حديقة فلان قال اما اذا قلت فاني اجعلها اثلاثا
فاجعل لنفسي ولاهلي ثلثا واجعل للمساكين وابناء السبيل ثلثا وانفق عليها ثلثا
واما الاثار فكثيرة ايضا ولنبدا منها ببعض ما نقل انه ظهر على الخلفاء الراشدين من الكرامات
ثم ببعض ما ظهر على بعض الصحابة اما ابو بكر رضي الله تعالى عنه فمن كراماته انه لما حملت
جنازته الى باب قبر النبي صلى الله عليه وسلم ونودي السلام عليك يا رسول الله هذا ابو بكر
بالباب فاذا الباب قد افتتح واذا هاتف يهتف من القبر ادخلوا الحبيب الى الحبيب
واما عمر رضي الله تعالى عنه فقد ظهرت انواع كثيرة من كراماته النوع الاول ما روي
انه بعث جيشا وامر عليهم رجلا يدعى سارية ابن الحصين فبينما عمر يوم الجمعة يخطب
جعل يصيح في خطبته وهو على المنبر يا سارية الجبل الجبل قال علي بن ابي طالب كتبت
تاريخ تلك الكلمة فلما قدم رسول ذلك الجيش فقال يا امير المؤمنين غدونا يوم الجمعة
في وقت الخطبة فهزمونا فاذا بانسان يصيح يا سارية الجبل فاسندنا الى الجبل فهزم
الله تعالى الكفار وظفرنا بالغنائم العظيمة ببركة ذلك الصوت قال الرازي قلت
سمعت بعض المذكورين قال كان ذلك معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم لانه قال لابي بكر وعمر
انتما مني بمنزلة السمع والبصر فلما كان عمر بمنزلة البصر لمحمد صلى الله عليه وسلم لا جرم قدر
على ان يرى من ذلك البعد العظيم النوع الثاني ما روي ان نيل مصر كان في الجاهلية
يقف في كل سنة مرة واحدة وكان لا يجري حتى يلقى فيه جارية حسناء فلما جاء الاسلام كتب
عمرو بن العاص الى عمر فكتب عمر على خرقة ايها النيل ان كنت تجري بامر الله فاجر وان كنت

انما تجري

انما تجري بامرك لا حاجة بنا اليك فالقيت تلك الخرقة في النيل فجرى ولم يقل بعد ذلك
النوع الثالث لما وقعت الزلزلة في المدينة فضرب عمر الدرة على الارض وقال اسكني باذن
الله فسكنت وما حدثت الزلزلة بالمدينة بعد ذلك الوقت النوع الرابع وقعت
النار في بعض دور المدينة فكتب عمر على خرقة يا نار اسكني باذن الله فالقوها في النار
فانطفت في الحال النوع الخامس ما روي ان رسول ملك الروم جا الى عمر وطلب داره
وظن ان داره مثل قصور الملوك فقالوا ليس له ذلك وانما هو في الصحرا يضرب اللبن فلما ذهب
الى الصحرا راى عمر وضع درته تحت راسه ونام على التراب فتعجب الرسول من ذلك
وقال اهل المشرق والمغرب يخافون هذا الانسان وهو على هذه الصفة ثم قال
في نفسه ان وجدته خاليا فاقتله واخلص الناس منه فلما رفع السيف اخرج الله تعالى
من الارض اسدين فعضداه فخاف والقى السيف من يده وانتبه عمر ولم يره شيا فساله
عن الحال فذكر له الواقعة واسلم قال الرازي واقول هذه الوقايع رويت بالاحاد
وههنا ما هو معلوم بالتواتر وهو انه مع بعده عن زينة الدنيا واحترازه عن
التكلفات والتهويلات ساس الشرق والغرب وغلب الممالك والدول ولو نظرت
في كتب التواريخ علمت انه لم يتفق لاحد من اول عهد ادم الى الان ما تيسر له فانه مع غاية
بعده عن التكلفات كيف قدر على تلك السياسات ولا شك ان هذا من اعظم الكرامات
واما عثمان رضي الله تعالى عنه فاشيا كثيرة منها ما روي عن انس قال سرت في الطريق
فوقعت عيني على امراة ثم دخلت على عثمان فقال ما لي اراكم تدخلون علي واثار
الزنا ظاهرة عليكم فقلت اجا الوحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لا ولكن
فراسة صادقة ومنها انه لما طعن بالسيف فاول قطرة من دمه سقطت وقعت
على المصحف على قوله تعالى فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ومنها ان جهجاه الغفاري
انتزع الفص من يد عثمان كسرها على ركبته فوقعت الاكلة في ركبته واما علي رضي
الله تعالى عنه فاشيا كثيرة ايضا منها ما روي ان واحدا من محبيه سرق وكان
عبدا اسود فاتي به الى علي فقال اسرقت فقال بلى فقطع يده فانصرف من عند علي
فلقيه سلمان الفارسي وابن الكوا فقال ابن الكوا من قطع يدك فقال امير المومنين
ويعسوب المسلمين وختن الرسول وزوج البتول فقال له سلمان قطع يدك وتمدحه
فقال ولم لا امدحه وقد قطع يدي بحق وخلصني من النار فسمع سلمان ذلك فاخبر به عليا
فدعا الاسود ووضع يده على ساعده وغطاه بمنديل ودعا بدعوات فسمعنا صوتا من السما
ارفع الردا عن اليد فرفعناه فاذا اليد قد بريت واما ما روي عن بعض الصحابة
فشي كثير ونذكر منها شيا قليلا منها ما روي محمد بن المنكدر عن سفينة قال ركبت البحر فانكسرت
سفينتي التي كنت فيها وركبت لوحا من الواحها فطرحني اللوح في اخيسة فيها اسد
فخرج الاسد الي يريدني فقلت يا ابا الحارث انا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
فتقدم الاسد ودلني على الطريق ثم همهم فظننت انه يودعني ورجع ومنها ما روي ثابت
عن انس ان اسيد بن حضير ورجلا اخر من الانصار تحدثا عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم في حاجة لهما حتى ذهب من الليل زمان ثم خرجا من عنده وكانت الليلة شديدة
الظلمة وفي يد كل واحد منهما عصية فاضات عصاة احدهما لهما حتى مشيا في ضوئها

فلما افترق بينهما الطريق اضاءت للاخر عصاة فمشى حتى بلغ منزله ومنها ما روي انه قيل
لخالد بن الوليد ان في عسكرك من يشرب الخمر فركب فرسه ليلة فطاف بالعسكر فلقي رجلا على فرس
ومعه خمر فقال ما هذا قال خل فقال خالد اللهم اجعله خلا فذهب الرجل الى اصحابه
فقال اتيتكم بخمر ما شربت العرب مثلها فلما فتحوا فاذا هو خل فقالوا والله ما جئتنا الا بخل
فقال والله هذا دعاء خالد ومنها الواقعة المشهورة وهو ان خالد بن الوليد اكل كفا من السم
على اسم الله وما ضره ومنها ما روي ان ابن عمر كان في بعض اسفاره فلقي جماعة وقفوا على الطريق
من خوف السبع فطرد السبع من طريقهم ثم قال انما تسلط على ابن ادم ما يخافه ولو انه
لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء ومنها ما روي ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث العلاء بن
الحضرمي في غزاة فحال بينهم وبين المطلوب قطعة من البحر فدعا بسم الله الاعظم ومشوا على
الماء وفي كتب الصوفية من هذا الباب روايات متجاوزة عن الحد والحصر فمن اراد فاطالعها
واما الدلايل العقلية على جواز الكرامات فمن وجوه الاول انه صلى الله عليه وسلم قال حاكيا
عن رب العزة من اذى لي وليا فقد بارزته بالمحاربة فجعل ايذاء الولي قايما مقام ايذائه
ويتاكد هذا بالخبر المشهور انه تعالى يقول يوم القيامة يا ابن ادم مرضت فلم تعدني
استسقيتك فما سقيتني استطعمتك فما اطعمتني فيقول يا رب كيف افعل هذا وانت
رب العالمين فيقول ان عبدي فلانا مرض فلم تعده اما علمت انك لو عدته لوجدت ذلك
عندي وكذا في السقي والاطعام فدلت هذه الاخبار على ان اولياء الله يبلغون الى هذه
الدرجات العالية والمراتب الشريفة فاذا جاز ايصال العبد الى هذه الدرجات فاي بعد
ان يعطيه الله تعالى كسرة خبز او جرعة ماء او يسخر له كلبا او دودا الوجه الثاني انه صلى
الله عليه وسلم قال عن رب العزة ما تقرب الي عبد بمثل اداء ما افترض عليه ولا يزال
يتقرب الي بنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت له سمعا وبصرا ولسانا وقلبا ويدا ورجلا
فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يمشي وهذا الخبر يدل على انه لم يبق في سمعهم نصيب لغير
الله تعالى لما قال انا سمعه وبصره وهذا المقام اشرف من تسخير الحية والسبع واعطاء
عنقود من العنب او شربة من الماء فلما اوصل برحمته عبده الى هذه الدرجات العالية فاي بعد في
ان يعطيه رغيفا واحدا او شربة من الماء في مفازة الوجه الثالث لو امتنع اظهار الكرامة لكان
ذلك اما لاجل ان الله تعالى ليس اهلا لان يفعل مثل هذا الفعل او لاجل ان المؤمن ليس اهلا لان
يعطيه الله هذه العطية والاول قدح في قدرة الله تعالى وهو كفر والثاني باطل فان معرفة اسماء
الله تعالى ومحبته وطاعته والمواظبة على ذكر تقديسه وتمجيده وتهليله اشرف من اعطاء
رغيف واحد في مفازة او تسخير حية او اسد فان اعطاه المحبة والذكر والشكر من غير سوال فلان
يعطيه شربة ماء في مفازة اولى فاي بعد فيه واحتج المنكر للكرامات بوجوه الاول ان ظهور
الفعل الخارق للعادة جعله الله تعالى دليلا على النبوة فلو حصل لغير النبي لبطلت هذه
الدلالة الوجه الثاني ان الله تعالى قال وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس
والقول بان الولي ينتقل من بلد الى بلد بعيد لا على هذا الوجه طعن في هذه الاية
وايضا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يصل من مكة الى المدينة الا في ايام كثيرة مع التعب الشديد
فكيف يعقل ان يقال ان الولي ينتقل من بلد نفسه الى الحج في اليوم الواحد الوجه الثالث
ان هذا الولي الذي تظهر عليه الكرامات اذا ادعى على انسان درهما واحدا فهل يطالب

بالبينة

بالبينة ام لا فان طالبناه بها كان عبثا لان ظهور الكرامة عليه يدل على انه لا يكذب ومع قيام
الدليل القاطع كيف يطلب الدليل الظني وان لم يطالب بها فقد تركنا قوله صلى الله عليه وسلم
البينة على المدعي فهذا يدل على ان القول بالكرامة باطل واجيب عن الاول بان الناس اختلفوا
هل يجوز للولي دعوى الولاية فقال قوم من المحققين انه لا يجوز فعلى هذا الفرق بين المعجزة
والكرامة ان المعجزة تكون مسبوقة بدعوى النبوة والكرامة لا تكون مسبوقة بدعوى الولاية
وعلى القول بالجواز الفرق بينهما ان النبي يدعي المعجزة ويقطع بها والولي اذا ادعى الكرامة
لا يقطع بها لان المعجز يجب ظهوره والكرامة لا يجب ظهورها واجيب عن الثاني بان قوله
تعالى وتحمل اثقالكم الى آخره محمول على المعهود المتعارف وكرامات الاولياء احوال نادرة
فتصير كالمستثناة من ذلك العموم المتعارف واجيب عن الثالث بان التمسك
بالامور النادرة لا يعول عليه في الشرع فلا ينافي ذلك قوله صلى الله عليه وسلم البينة على المدعي
ومع هذا فصاحب الكرامة يجب عليه ان يكون خائفا وجلا ولهذا قال المحققون اكثر
ما حصل الانقطاع عن حضرة الله انما وقع في مقام الكرامات فلا جرم ترى المحققين يخافون
من الكرامات كما يخافون من اشد انواع البلاء والذي يدل على ان الاستيناس بالكرامة
قاطع عن الطريق وجوه الاول ان الكرامات اشياء مغايرة للحق سبحانه وتعالى والفرح بالكرامة
فرح بغير الحق والفرح بغير الحق حجاب والمحجوب عن الحق كيف يليق به الفرح والسرور الوجه
الثاني ان من اعتقد في نفسه انه صار مستحقا للكرامة بسبب عمله حصل لعمله وقع عظيم في قلبه
ومن كان لعمله وقع عظيم عنده كان جاهلا اذ لو عرف ربه لعلم ان كل طاعات الخلق في جنب جلاله
تقصير وكل شكر في جنب نعمائه قصور وكل معارفهم وعلومهم فهي في مقابلة عزته حيرة
وجهل وجد في بعض الكتب انه قرئ في مجلس الاستاذ ابي علي الدقاق قوله تعالى اليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه فقال علامة ان الحق رفع عملك ان لا يبقى عندك مرتقى
عملك في نظرك فان بقي عملك في نظرك فهو غير مرفوع وان لم يبق معك عملك في نظرك
فهو مرفوع مقبول الوجه الثالث ان صاحب الكرامة انما وجد الكرامة لاظهار الذل والتضرع
في حضرة الله تعالى فاذا ترفع وتجبر وتكبر بسبب الكرامات فقد بطل ما به وصل الى
الكرامات فهذا طريق يؤدي ثبوته الى عدمه فكان مردودا ولهذا المعنى لما ذكر صلى
الله عليه وسلم مناقب نفسه وفضائلها كان يقول في ذلك في آخر كل واحد منها ولا فخر يعني
لا افخر بهذه الكرامات وانما افخر بالمكرم والمعطي الوجه الرابع انه تعالى وصف عباده
المخلصين ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين قيل رغبا في ثوابنا ورهبا من
عقابنا وقيل رغبا في فضلنا ورهبا من عذابنا وقيل رغبا في وصالنا ورهبا من
عقابنا قال بعض المحققين والاحسن ان يقال رغبا فينا ورهبا عنا وفي هذا القدر
كفاية لاولي الالباب جعلنا الله تعالى واحبابنا من اهل ولايته بمحمد وآله وصحابته
ثم لما دل القرآن على قصة اصحاب الكهف من حيث انها من المغيبات بالاضافة
الى النبي صلى الله عليه وسلم على انه وحي معجز امره ان يداوم درسه ويلازم اصحابه بقوله
تعالى واتل ما اوحي اليك من كتاب ربك اي القرآن واتبع ما فيه واعمل بما فيه لا مبدل لكلماته
اي لا احد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره وبعضهم قال مقتضى هذا ان لا يتطرق النسخ اليه
واجاب بان النسخ في الحقيقة ليس بتبديل لان المنسوخ في وقته الى وقت طريان الناسخ

ثابت

فالناسخ كالمغاير فكيف يكون بتبديل وهذا لا يحتاج اليه مع التفسير المذكور ولن تجد من دونه
اي الله ملتحدا اي ملجأ في البيان والارشاد وقيل انه لم يتبع القران ونزل في عيينة بن حصين
الفزاري لما اتى النبي صلى الله عليه وسلم قبل ان يسلم وعنده جماعة من الفقرا فيهم سلمان وعليه
شملة قد عرق فيها وبيده خوص يشقه ثم ينسجه وقال له اما يوذيك ريح هولا ونحن سادات
مضر واشرافها فان اسلمنا اسلم الناس وما يمنعنا من اتباعك الا هولا اي كما قال قوم نوح
انومن لك واتبعك الارذلون فنحهم حتى نتبعك او اجعل لنا مجلسا ولهم مجلسا واصبر نفسك
اي احبسها وثبتها مع الذين يدعون ربهم ونظير هذه الاية قد سبق في سورة الانعام وهو
قوله تعالى ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ففي تلك الاية نهي الرسول عن طردهم
وفي هذه الاية امره بمجالستهم والمصابرة معهم وفي قوله تعالى بالغداة والعشي وجوه
الاول انهم مواظبون على هذا العمل في كل الاوقات كقول القايل ليس لفلان عمل بالغداة
والعشي الا شتم الناس الثاني المراد صلاة الفجر والعصر الثالث ان المراد ان الغداة وهو الوقت
الذي ينتقل فيه الانسان من النوم الى اليقظة وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من الموت
الى الحياة والعشي هو الوقت الذي ينتقل الانسان فيه من الحياة الى الموت ومن اليقظة
الى النوم والانسان العاقل يكون في هذين الوقتين كثير الذكر لله تعالى عظيم الشكر لالاء
الله ونعمايه وقرا ابن عامر بضم الغين المعجمة وسكون الدال وبعدها واو مفتوحة
والباقون بفتح الغين والدال والف بعدها والرسم في المصحف بالواو هنا وفي سورة الانعام
يريدون بعبادتهم وجهه تعالى اي رضاه وطاعته لا شيا من اعراض الدنيا ولا تعد اي تنصرف عيناك
عنهم الى غيرهم وعبر بالعينين عن صاحبهما فنهى صلى الله عليه وسلم ان يصرف نفسه عنهم لاجل
رغبته في مجالسة الاغنيا لعلهم يومنون وقوله تعالى تريد زينة الحياة الدنيا في موضع
الحال اي انك ان فعلت ذلك لم يكن اقدامك عليه الا لرغبتك في زينة الحياة الدنيا ولما
بالغ تعالى امره في مجالسة الفقرا من المسلمين بالغ في النهي عن الالتفات الى اقوال الاغنيا
والمتكبرين بقوله تعالى ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا اي جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا
اي عيينة بن حصين وقيل امية بن خلف واتبع هواه اي في طلب الشهوات وكان امره
فرطا اي اسرافا وباطلا وهذا يدل على ان اشر احوال الانسان ان يكون قلبه خاليا
عن ذكر الحق ويكون مملوا من الهوى الداعي الى الاشتغال بالخلق لان ذكر الله تعالى نور وذكر
غيره ظلمة لان الوجود طبيعة النور والعدم منبع الظلمة والحق تعالى واجب الوجود
لذاته فكان النور الحق هو الله تعالى وما سواه فهو ممكن الوجود لذاته والامكان طبيعة
عدمه فكان منبع الظلمة فالقلب اذا اشرق فيه ذكر الله فقد حصل فيه النور والضو
والاشراق واذا توجه القلب الى الخلق فقد حصل فيه الظلم والظلمة بل الظلمات فلهذا
السبب اذا اعرض القلب عن الحق واقبل على الخلق فهو الظلمة الخالصة التامة
والاعراض عن الحق هو المراد بقوله تعالى اغفلنا قلبه عن ذكرنا والاقبال على الخلق
هو المراد بقوله تعالى واتبع هواه روى ابو سعيد الخدري قال كنت جالسا في عصابة من ضعفا
المهاجرين وان بعضهم ليستتر ببعض من العري وقارئ يقرا من القران فجا رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقال ما الذي كنتم تصنعون قلنا يا رسول الله كان واحد يقرا من كتاب
الله ونحن نسمع فقال صلى الله عليه وسلم الحمد لله الذي جعل من امتي من امرت ان اصبر

نفسي

نفسي معهم ثم جلس وسطنا وقال ابشروا يا صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيمة
فيدخلون الجنة قبل الاغنيا بمقدار خمسماية سنة ولما امر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم
بان لا يلتفت الى اولئك الاغنيا الذين قالوا ان طردت الفقرا امنا بك قال تعالى بعده وقل الحق
اي وقل لهولا ولغيرهم هذا الذي جيتكم به في امر اهل الكهف وغيرهم من هذا الوجه العربي المعرى
عن العوج الظاهر الاعجاز الباهر الحجج الحق كاينا من ربكم المحسن اليكم في امر اهل الكهف وغيرهم
من صبر نفسي مع المومنين والاعراض عمن سواهم وغير ذلك لا قلتموه في امرهم ويجوز ان يكون
الحق مبتدا وخبره الجار بعده فمن شا اي منكم ومن غيركم فليومن بهذا الذي قصصناه
فيهم وفي غيرهم فهو مقبول مرغوب فيه وان كان فقيرا رزي الهيئة ولم ينفع الا نفسه
ومن شا منكم ومن غيركم فليكفر فهو اهل لان يعرض عنه ولا يلتفت اليه وان كان اغنى الناس
واحسنهم هيئة وان تعاظمت هيئته وهذا لا يقتضي استقلال العبد بفعله كما تقوله
المعتزلة فعن ابن عباس في معنى الاية من يشا الله له الايمان امن ومن يشا له الكفر كفر ونقل
عن علي انه قال هذه الصيغة تهديد ووعيد اي فهي كقوله تعالى اعملوا ما شيتم فان الله
تعالى لا ينتفع بايمان المومنين ولا يستضر بكفر الكافرين بل نفع الايمان يعود على المومن وضرر
الكفر يعود على الكافر كما قال تعالى ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اساتم فلها ولما هدد السامعين
بما حاصله ليختر كل امرء لنفسه ما يجده غدا عند الله اتبعه بذكر الوعيد على الكفر والاعمال
الباطلة وبذكر الوعيد على الايمان والاعمال الصالحة اما الوعيد فقوله تعالى انا اعتدنا
اي هيينا بما لنا من العظمة والقدرة للظالمين اي لمن انف عن قبول الحق لاجل ان الذين
قبلوه فقرا ومساكين وكذا كل من لم يومن نارا وهي الجحيم ثم وصف الله تعالى تلك النار بصفتين
الاولى قوله تعالى احاط بهم كلهم سرادقها اي فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل
هو الحجرة التي تكون حول الفسطاط وقيل حايط من نار والمراد انه لا مخلص لهم منها ولا فرجة
يتفرجون بالنظر الى ما وراها من غير النار بل هي محيطة بهم من كل الجوانب وقيل هو دخان
يغشاهم قبل دخولهم النار يحيط بهم كالسرادق حول الفسطاط الصفة الثانية قوله تعالى
وان يستغيثوا اي يطلبوا الغوث يغاثوا بما ووصف هذا الما بصفتين الاولى قوله تعالى
كالمهل وهو كما في حديث مرفوع دردي الزيت وعن ابن مسعود انه دخل بيت المال
واخرج نفاية كانت فيه واوقد عليها النار حتى تلالات ثم قال هذا هو المهل وقال ابو
عبيدة والاخفش كل شي اذبته من نحاس او ذهب او فضة فهو المهل وقيل انه الصديد
والقيح وقيل انه ضرب من القطران ثم يحتمل ان تكون هذه الاستغاثة لانهم طلبوا ما
للشرب فيعطون هذا المهل قال تعالى تصلى نارا حامية تسقى من عين انية ويحتمل
ان يستغيثوا من حر جهنم فطلبوا ما يصبونه على انفسهم للتبريد فيعطون هذا الما
قال تعالى حكاية عنهم افيضوا علينا من الما وقال تعالى في اية اخرى سرابيلهم من قطران
وتغشى وجوههم النار فاذا استغاثوا من حر جهنم صب عليهم القطران الذي يعم
كل ابدانهم كالقميص والصفة الثانية للما قوله تعالى يشوي الوجوه اي اذا قرب الى الفم
للشرب فكيف بالفم والجوف ثم وصل تعالى بذلك ذمه فقال تعالى بيس الشراب اي ذلك
الما الذي هو كالمهل لان المقصود من شرب الشراب تسكين الحرارة وهذا يبلغ في احراق الاحشا
مبلغا عظيما ثم عطف عليه ذم النار المعدة لهم بقوله تعالى وساءت اي النار وقوله تعالى

BULAC

مرتفقا تمييز منقول من الفاعل اى قبح مرتفقها وهو مقابل لقوله تعالى الاتى فى الجنة
وحسنت مرتفقا والارفاق هو ما ذكر تعالى وعيد المبطلين اردفه بوعد
المحقين فقال ان الذين امنوا ولما كان الايمان هو الاذعان للامر عطف عليه ما يحقق
ذلك بقوله تعالى وعملوا الصالحات ثم عظم جزاءهم بقوله تعالى انا لا نضيع اى بوجه
من الوجوه اجر من احسن عملا وهذه الجملة خبر ان الذين وفيها اقامة الظاهر مقام المضمر
والمعنى اجرهم اى بتضمينه اولئك لهم جنات عدن اى اقامة فكانه قيل
فما لهم فيها فقيل تجرى من تحتهم اى تحت مشارلهم الانهار وذلك لان افضل
المساكن ما كان يجرى فيه الماء كانه قيل ثم ماذا فقيل يحلون فيها وبنى الفعل للمجهول
لان القصد وجود التحلية وهى لغرتها اغنت عن التنبيه فضلا عن الله تعالى
ولما كانت نعم الله لا تحصى نوع منها فقال تعالى مبعضا من اساور جمع اسوره كاحمرة
جمع سوار كما يلبس ذلك ملوك الدنيا من خيار ما فى الكفرة فى بعض الاقاليم كما هو فارس
وقيل من زائدة وقيل للابتداء ومن به قوله تعالى من ذهب للبيان صفة لاساور
وتنكيرها للتعظيم حسا من الاحاطة به وقيل للتبعيض ولما كان اللباس جزء العمل فكان
موجودا عندهم اسند الفعل اليهم فقال ويلبسون ثيابا خضرا لان الخضرة احسن الالوان
واكثرها طراوة ثم وصفها بقوله تعالى من سندس وهو ما رق من الديباج واستبرق
وهو ما غلظ منه جمع بين النوعين للدلالة على ان فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين
وفى اية اخرى بطائنها من استبرق فيكون الغليظ بطانة للرفيق ثم استانف الوصف
عن حال جلوسهم فيها بانه جلوس الملوك المتمكنين من النعيم فقال تعالى متكئين فيها
اى لانهم فى غاية الراحة على الارائك جمع اريكة وهى السرير فى الحجلة وهى بيت يزين
بالثياب والستور للعروس ثم مدح هذا بقوله تعالى نعم الثواب اى الجزاء الجنة
لو لم يكن لها وصف غير ما سمعت فكيف ولها من الاوصاف ما لا يعلمه حق علمه الا الله
تعالى والى ذلك اشار بقوله تعالى وحسنت اى الجنة كلها وبين ذلك بقوله تعالى مرتفقا
اى مقرا ومجلسا ولما افتخر الكفار باموالهم وانصارهم على فقر المسلمين بين الله تعالى ان ذلك
مما لا يوجب الافتخار لاحتمال ان يصير الفقير غنيا والغنى فقيرا وانما الذى يجب الافتخار به
طاعة الله تعالى وعبادته وهى حاصلة للفقراء المؤمنين وبين ذلك بضرب هذا المثل
المذكور بقوله تعالى واضرب لهم اى لهؤلاء الاغنياء المتجبرين الذين يستنكفون على
المؤمنين ويطلبون طردهم لضعفهم وفقرهم مثلا لما اتاهم الله من زينة الحياة
الدنيا واغتروا بها وركنوا اليه ولم يشكروا من اتاهم اياه بل ادام الى الافتخار
والتكبر على من زوى ذلك عنه الرجلين عنى بهما رجلين الى اخر الاية واختلف
فى سبب نزولها فقيل نزلت فى رجلين من اهل مكة من بنى مخزوم احدهما مؤمن وهو ابو سلمة
وكان زوج ام سلمة وقيل رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخر كافر وهو الاسود
عبد الاسد بن عبد يغوث وقيل هذا مثل لعيينة بن حصن واصحابه مع سلمان واصحابه
وقيل هما رجلان من بنى اسرائيل احدهما مؤمن واسمه يهوذا والاخر كافر واسمه قطروس
فقاتل المؤمن واصحابه الكافر واصحابه فظفر المؤمن وقتل الكافر وقال
تعالى لاحدهما جنة والصافات وكانت فضتها عما ما حكى عبد الله بن المبارك عن معمر عن عطا

تمليخا

الخراساني

الخراساني قال كان رجلان مشركين لهما ثمانية الاف دينار وقيل كانا اخوين ورثا من ابيهما ثمانية
الاف دينار فاقتسما فاشترى احدهما ارضا بالف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا قد اشترى
ارضا بالف دينار واني اشتري منك ارضا في الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه بنى
دارا بالف دينار فقال صاحبه اللهم ان فلانا بنى دارا بالف دينار واني اشتريت منك دارا
في الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم تزوج صاحبه امراة فانفق عليها الف دينار فقال هذا
اللهم اني اخطب اليك من نساء الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم ان صاحبه اشترى خدما ومتاعا
بالف دينار فقال هذا اللهم اني اشتريت خدما ومتاعا من الجنة بالف دينار فتصدق بها ثم
اصابته حاجة شديدة فقال لو اتيت صاحبي لعل ينالني منه بمعروف فجلس على طريقه
حتى مر به في حشمه فقام اليه فنظر اليه الاخر فعرفه فقال له فلان قال نعم قال ما شانك
قال اصابتني حاجة بعدك فاتيت لتعينني بخير قال فما فعل مالك وقد اقتسمنا مالا
واخذت شطره فقص عليه قصته فقال وانك لمن المصدقين بهذا اذهب فلا اعطيك
شيا فطرده وروي انه لما اتاه اخذ بيده فجعل يطوف به ويريه اموال نفسه فنزل فيهما
واضرب لهم مثلا رجلين اي اذكر لهم خبر رجلين جعلنا لاحدهما جنتين اي بستانين
يسر ما فيهما من الاشجار من يدخلهما من اعناب لانها من اشجار البلاد الباردة وتصبر على
الحر وهي فاكهة وقوت بالعنب والزبيب والخل وغيرها ثم انه تعالى وصف الجنتين بصفات
الصفة الاولى قوله تعالى وحففناهما اي اطفناهما من جوانبهما بنخل لانها من اشجار البلاد
الحارة وتصبر على البرد وربما منعت عن الاعناب بعض اسباب العاهات وثمرها فاكهة
بالبسر والرطب وقوت بالتمر والخل فكان النخل كالاكليل من وراء العنب تنبيه الحفاف الجانب
وجمعه احفة يقال احف به القوم اي اطافوا بجوانبه الصفة الثانية قوله تعالى وجعلنا
بينهما اي ارضي الجنتين زرعا لبعد شمول الافة للكل لان زمان الزرع ومكانه غير زمان
اثمار الشجر ومكانه وذلك هو العمدة في القوت فكانت الجنتان ارضا جامعة لخير الفواكه
وافضل الاقوات وعمارتهما متواصلة متشابكة لم يتوسطهما ما يقطعهما ويفصل بينهما مع سعة
الاطراف وتباعد الاكناف وحسن الهيئات والاوصاف الصفة الثالثة قوله تعالى كلتا اي كل
واحدة من الجنتين المذكورتين اتت اكلها اي ما يطلب منها ويوكل من ثمر وحب كاملا غير
منسوب شي منهما الى نقص ولا رداة وهو معنى ولم تظلم اي ولم تنقص منه شيا يعهد في ساير
البساتين فان الثمار تتم في عام وتنقص في عام غالبا والظلم النقصان يقول الرجل ظلمني حقي
اي نقصني تنبيه كلا اسم مفرد معرفة يوكد به مذكران معرفان وكلتا اسم مفرد معرفة
يوكد به مونثان معرفتان وانما اذا اضيفا الى المظهر كانا بالالف في الاحوال الثلاثة
كقولك جاني كلا اخويك ورايت كلا اخويك ومررت بكلا اخويك وجاني كلتا اختيك
ورايت كلتا اختيك ومررت بكلتا اختيك واذا اضيفا الى المضمر كانا في الرفع بالالف وفي الجر
والنصب بالياء وبعضهم يقول مع المضمر بالالف في الاحوال الثلاثة ايضا فقوله تعالى
اتت اكلها حمل على اللفظ لان كلتا لفظ مفرد ولو قيل اتباعا على المعنى لجاز الصفة
الرابعة قوله تعالى وفجرنا خلالهما نهرا اي وسطهما وبينهما ومنه قوله تعالى ولاوضعوا
خلالكم ومنه يقال خللت القوم اي دخلت القوم وذلك ليدوم شربهما ويستغنيان عن المطر
عند القحط ويزيد بها فهما الصفة الخامسة قوله تعالى وكان له اي صاحب الجنتين ثمر

شربهما

اي انواع من المال سوى الجنتين قال ابن عباس من ذهب وفضة وغير ذلك من ثمر ماله
اذا كثر وعن مجاهد الذهب والفضة خاصة اي كان مع الجنتين اشياء من الاموال
ليكون متمكنا من العمارة بالاعوان والآلات وجميع ما يريد وقرأ ابو عمرو وعمر هنا وثمرة
الاتي بسكون الميم فيهما بضم الثاء المثلثة وقرأ عاصم بفتح المثلثة والميم فيهما
والباقون بضم المثلثة والميم فيهما ذكر اهل اللغة ان الضم انواع المال من الذهب
والفضة وغيرهما وبالفتح حمل الشجر قال قطرب وكان ابو عمرو بن العلا يقول
الثمر المال والولد وانشد للحارث بن حلزة ولقد ابين معاشر قد ثمروا اما الاولاد
وقال اللبث بغة محلا فذا لكل الاقوام كلهم وما الثمر وامن مال ومن ولد فمالك
اي هذا الكافر لصاحبه اي المسلم المجعول مثلا للفقير المؤمنين وهو اي صاحب الجنتين
يحاوره اي يراجعه الكلام من حار يحور اذا رجع افتخارا عليه وتقبيحا لحاله بالنسبة اليه
والمسلم يحاوره بالوعظ وتقبيح الركون الى الدنيا انا اكثر منك مالا الم ترى من حباتي
وثماري وقرأ نافع بمد الالف بعد النون والباقون بالقصر هذا في الوصل واما الوقف
فبالالف للجميع وبسكن قالون وابو عمرو والكسائي ها وهو وصل الباقون عن رفق ورش
والجماعة ونفرا اي ناسا يفوقون معي في المهمات وينصرون عند الضرورات لان ذلك
لازم لكثرة المال غالبا وترى اكثر الاغنياء من المسلمين وان لم يطلقوا بمثل هذا السنتهم فان
السنة احوالهم ناطقة به مناداة علنية ودخل جنته بصاحبه يطوف به فيها يتفرج
بها وافرد الجنة لارادة الجنس ودلالة ما افاده الكلام من انهما لانضمامهما كالجنة الواحدة
واشارة الى انه لاجتذله عنها الا انه لاحظ له في الآخرة وهو اي والحال انه ظالم لنفسه بالاعتماد
على ماله والاعراض عن ربه ثم استانف ببيان ظلمه بقوله تعالى قال ما اظن ان تبيد اي تنعدم
تفنى الجنة ابدا لطول امله وتمادي غفلته واغتراره بمهله ثم زاد في الطغيان والبطر
بقصر النظر على الحاضر فانكر البعث بقوله وما اظن الساعة قائمة اي كائنة استبعادا
بما هو فيه واخلاده الى الدنيا واعتمادا على ماله وقوله ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها
ان على سبيل الفرض والتقدير وعلى
ما زعم صاحبه ان الساعة ان اتت اي من فقده الجنة منقلبا اي مرجعا
لانه لم يعطى الجنة في الدنيا الا ليعطى في الآخرة افضل منها قال في لكن تطمئن وتعتمد على الله
ادغام نونها في نون لكن اشارة الى انه لا حظ له في الجنتين الا باستغفاره واستهلاله
وان يعده هذا الاستغفار ان يوجه كقوله ان لي عنده للحسنى لا ينافي ما لامرء ولد اما مال
فصاحبه اي المؤمن وهو اي والحال ان ذلك الصاحب يحاوره اي يراجعه منكرا عليه
اكفرت بالذي خلقك من تراب اي خلق اصلك آدم لان خلق اصله سبب في خلقه
فكأنه خلقه خلقا له ثم من نطفة متولدة من اغذية اصلها تراب ثم سواك اي عدلك رجلا
اي كملك انسانا ذكرا بالغا مبلغ الرجال جعل كفره بالبعث كفرا بالله تعالى لانه منشأ الشكوك كما ان قدرة الله تعالى ولذلك
قدمت الانكار على خلقه اياه من التراب فان من قدر على ابداء خلقه من قدر ان يعيده منه
ولما انكر عليه صاحبه اخبر عن اعتقاده بما يضاد اعتقاد صاحبه فقال هو لكن الا اجل انكار
صاحبه مستدركا لاجل كفره لكن انا اقول حركة الهمزة الى النون وحذفت الهمزة

ثم ادغمت النون في مثلها كما قال القائل • وترميني بالطرف اي انت مذنب • وتقلينني
لكن اياك لا اقل • اي لكن انا لا اقليك ولما كان سبحانه وتعالى لا شي اظهر منه ولا شي ابطن
منه اشار الى ذلك جميعا باضماره قبل الذكر فقال هو اي الظاهر اتم ظهور فلا يخفى اصلا
ويجوز ان يكون الضمير للذي خلقك الله اي المحيط بصفات الكمال ربي وحده لم يحسن الي
خلقا ورزقا احد غيره وهذا اعتقادي في الماضي والحال وقرا ابن عامر باثبات
الالف بعد النون وقفا ووصلا لاتباع المرسوم والباقون باثبات الالف وقفا
وحذفها وصلا فان قيل قوله لكنا استدراك لماذا اجيب بانه لقوله اكفرت كانه قال
لاخيه اكفرت بالله لكني مومن موحد كما تقول زيد غايب لكن عمرو حاضر وذكر القفال
في قول المومن ولا اشرك بربي اي المحسن الي في عبادتي احدا وجوها احدها اني لا ارى الفقر
والغنى الا منه فاحمده اذا اعطى واصبر اذا ابتلى ولا اكفر عند ما ينعم علي ولا ارى
كثرة الاموال والاعوان من نفسي وذلك لان الكافر لما اغتر بكثرة المال والجاه فكانه
قد اثبت لله شريكا في اعطا الفقر والغنى وثانيها لعل ذلك الكافر مع كونه منكرا
للبعث كان عابد صنم فبين هذا المومن فساد قوله باثبات الشركا وثالثها ان هذا
الكافر لما عجز الله تعالى عن البعث والحشر فقد جعله مساويا للخلق في هذا العجز
واذا اثبت المساواة فقد اثبت الشريك ثم قال المومن للكافر ولولا اذ اي وهلا
حين دخلت جنتك قلت عند اعجابك بها ما يدل على تفويضك الامر فيها وفي
غيرها الى الله تعالى وهو ما شا الله اي الامر ما شا الله او ما شا الله كاين على ان ما
موصولة او اي شي شا الله كان على انها شرطية والجواب محذوف اقرارا بانها وما فيها
بمشية الله ان شا ابقاها وان شا اهلكها وقرا ابن ذكوان وحمزة بالامالة والباقون
بالفتح واذا وقف حمزة وهشام على شا ابدل الهمزة الفا مع المد والتوسط والقصر واظهر
اذ عند الدال نافع وابن كثير وعاصم والباقون بالادغام وهلا قلت لا قوة الا بالله
اعترافا بالعجز على نفسك والقدرة لله وان ما تيسر لك من عمارتها وتدبير امرها فبمعونة
الله تعالى واقداره انه لا يقوى احد في بدنه ولا في ذلك الا بالله وفي الحديث من اعطي
خيرا من اهل او مال فيقول عند ذلك ما شا الله لا قوة الا بالله لم ير فيه مكروها
ثم ان المومن لما علم الكافر الايمان اجابه عن افتخاره بالمال والنفس فقال ان ترن انا
اقل منك مالا وولدا اي من جهة المال والولد ويحتمل ان يكون انا فصلا وان يكون
تاكيدا للمفعول الاول فعسى ربي المحسن الي ان يوتين من خزاين رزقه وقرا قالون وابو
عمرو باثبات اليا وصلا ووقفا وابن كثير باثباتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف وقفا ووصلا
وقوله تعالى فعسى ربي المحسن الي ان يوتين من خزاين رزقه خيرا من جنتك اما
في الدنيا او في الاخرة لايماني جواب الشرط ويرسل عليها اي جنتك حسبانا جمع حسبانة
اي صواعق من السما فتصبح بعد كونها قرة للعين بما تهتز به من الاشجار والزروع
صعيدا زلقا اي ارضا ملسا باستيصال نباتها واشجارها فلا يثبت فيها نبات ولا
يثبت عليها قدم وقوله او يصبح ماوها غورا اي غايرا في الارض لا تناله الايدي والدلا
مصدر وصف به كالزلق فلن تستطيع انت له اي للما الغاير طلبا يصير بحيث لا يقدر على رده
الى موضعه ثم اخبر الله تعالى انه حقق ما قدره هذا المومن فقال واحيط اي وقعت الاحاطة

BULAC

بالهلاك وبني للمفعول لان النكد حاصل باحاطة الهلاك من غير نظر الى فاعل مخصوص وللدلالة
على سهولته بثمره اي الرجل المشرك كله واستوصل هلاكا ما في السهل منه وما في الجبل وما يصير
منه على البرد والحر وما لا يصير قال بعض المفسرين ان الله تعالى ارسل عليها نارا فاهلكتها
وغار ماؤها فاصبح يقلب كفيه ندما ويضرب احداهما على الاخرى تحسرا فتقلب الكف كناية
عن الندم والتحسر لان النادم يقلب كفيه ظهرا لبطن كما يكنى عن ذلك بعض الكف والسقوط
في اليد لانه في معنى الندم تعديته بعلى كانه قيل فاصبح يندم على ما انفق فيها اي في عمارتها
ونمائها وهي خاوية اي ساقطة على عروشها اي دعائمها التي كانت تحتها فسقطت على الارض
وسقطت هي فوقها وقوله تعالى ويقول عطف على يقلب او حال من ضميره يا للتنبيه ليتني
اي تمنيا لرد ما فاته لحيرته وذهول عقله ودهشته وعدم اعتماده على الله تعالى من غير اشراك
بالاعتماد على الفاني لم اشرك بربي احدا كما قال له صاحبه فندم حيث لم ينفعه الندم على
ما فرط في الماضي لاجل ما فاته على الدنيا لا حرصا على الايمان لحصول الفوز في العقبى لقصور
عقله ووقوفه مع المحسوسات المشاهدة فان قيل هذا الكلام يوهم ان جنته انما هلكت لشوم
شركه وليس مرادا لان انواع البلا اكثرها انما يقع للمؤمنين قال تعالى ولولا ان يكون الناس
امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وقال صلى
الله عليه وسلم خص البلا بالانبيا ثم الاوليا ثم الامثل فالامثل وايضا لما قال يا ليتني لم اشرك
بربي احدا بعد ندم على الشرك ورغب في التوحيد فوجب ان يصير مؤمنا فلم قال تعالى بعده
ولم تكن له فئة اي جماعة من نفره الذين اغتر بهم ولا من غيرهم ينصرونه مما وقع فيه من دون الله
عند هلاكها وما كان هو منتصرا بنفسه بل ليس الامر في ذلك الا لله وحده اجيب عن الاول
بانه لما عظمت حسراته لاجل انه انفق عمره في تحصيل الدنيا وكان معرضا في عمره كله عن طلب الدين
فلما ضاعت الدنيا بالكلية بقي محروما عن الدنيا والدين وعن الثاني فانه انما ندم على الشرك
لاعتقاده انه لو كان موحدا غير مشرك لبقيت عليه جنته فهو انما رغب في ذلك لاجل طلب
الدنيا فلذلك لم يقبل الله توحيده وقرا حمزة والكسائي يكن بالتحتية على التذكير والباقون
بالفوقية على التانيث ولما انتج هذا المثل قطعا انه لا امر لغير الله تعالى المرجو
لنصر اوليائه بعد ذلهم ولاغنائهم بعد فقرهم ولاذلال اعدائه بعد عزهم وكبرهم على
وافقارهم بعد اغنائهم وجدهم وان غيره انما هو كالخيال لا حقيقة له صرح بذلك في قوله
تعالى هنالك اي في مثل هذه الشدائد العظيمة الولاية لله اي الذي له الكمال كله وقرا حمزة
والكسائي بكسر الواو اي الملك والباقون بفتحها اي النصرة وقوله تعالى الحق قراءة ابو عمرو
والكسائي برفع القاف على الاستئناف والقطع تعليلا تنبيها على ان فزعهم في مثل
هذه الازمان اليه دون غيره برهان قاطع على انه الحق وما سواه باطل وان الفخر بالعرض
الزائل من اجهل الجهل وان المؤمنين لا يصيبهم فقرهم ولا يسوغ طردهم لاجله وانه يوشك
ان يعود فقرهم غنى وضعفهم قوة وقراءة الباقون بتخفيفها على الوصف اي الثابت الذي
لا يحول يوما ولا يزول ولا يغفل ساعة ولا ينام ولا ولاية لغيره بوجه هو خير ثوابا
من ثواب غيره لو كان يثيب وخير عقبا اي عاقبة للمؤمنين وقرا عاصم وحمزة والكسائي بسكون
القاف والباقون بضمها ونصب على التمييز ولما تم المثل لدنياهم الخاصة بهم التي انظرتهم
فكانت سبب اشقائهم وهم يحسبون انها عين اسعادهم ضرب لدار الدنيا العامة لجميع الناس

عدي

في قلة

في قلة ثوابها وسرعة فنائها وان من تكبر بها كان اخس منها فقال واضرب اي صير لهم اي لهؤلاء
الكفار المغترين بالعرض الفاني المفتخرين بكثرة الاموال والاولاد وعزة النفر وقوله
تعالى مثل الحياة الدنيا مفعول اول ثم ذكر المثل بقوله تعالى كما وهو المفعول الثاني انزلناه
بعظمتنا وقدرتنا وقال تعالى من السماء تنبيها على بلوغ القدرة في امساكه في العلو وانزاله
في وقت الحاجة فاختلط اي فتعقب وتسبب عن انزاله انه اختلط بنبات الارض
اي التف بسببه حتى خالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه كما قال تعالى فاذا انزلنا عليها
الماء اهتزت وربت وقيل اختلط ذلك الماء بالنبات حتى روي واهتز ونمى وكان حق
اللفظ على هذا التفسير فاختلط بنبات الارض لكن لما كان كل من المختلطين موصوفا
بصفة صاحبه عكس للمبالغة في كثرته ثم اذا انقطع ذلك المطر مدة جف ذلك النبات
فاصبح هشيما اي يابسا متفرقة اجزاؤه تذروه اي تنثره وتفرقه الرياح فتذهب به
والمعنى انه تعالى شبه الدنيا بنبات حسن فيبس فتكسر ففرقته الرياح حتى يصير عما قليل
كانه بقدرة الله تعالى لم يكن وقرا حمزة والكسائي بالتوحيد والباقون بالجمع وكان الله
اي المختص بصفات الكمال على كل شيء من ذلك وغيره انشاء وافناء واعادة مقتدرا
ازلا وابدا بتكوينه اولا وتنميته وسطا وابطاله اخرا فاحوال الدنيا ايضا كذلك
تظهر اولا في غاية الحسن والنضارة ثم تتزايد قليلا قليلا ثم ياخذ في الانحطاط الى ان تنتهي
الى الهلاك والفناء ومثل هذا الشيء ليس للعاقل ان يبتهج به بتنبيه قوله تعالى فاصبح يجوز
ان يكون على بابه فان اكثر ما يطرق من الافات صباحا كقوله تعالى فاصبح يقلب كفيه ويجوز
ان يكون بمعنى صار من غير تقييد بصباح كقول القائل اصبحت لا احمل السلاح ولا املك
راس البعير ان نفرا ولما بين سبحانه وتعالى ان الدنيا سريعة الانقراض والانقضاء مشرفة
على الزوال والبوار والفناء بين بقوله تعالى المال والبنون زينة الحياة الدنيا ادخال هذا
الجزئي تحت ذلك الكلي وينعقد به قياس من الانتاج وهو ان المال والبنون زينة الحياة الدنيا ولما كانت
زينة الحياة الدنيا سريعة الانقضاء والانقراض نتج انتاجا بديهيا ان المال والبنين سريع
الانقضاء والانقراض وما كان كذلك فانه يقبح بالعقل ان يفتخر به او يفرح بسببه او
يقيم له في نظره وزنا وهذا برهان باهر على فساد قول اولئك المشركين الذين افتخروا على
فقراء المؤمنين بكثرة الاموال ثم ذكر تعالى ما يدل على رجحان اولئك الفقراء على اولئك الكفار من الاغنياء فقال
والباقيات الصالحات خير اي من الزينة الفانية لان خيرات الدنيا منقرضة منقضية
وخيرات الاخرة دائمة باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي وهذا معلوم بالضرورة
لا سيما وقد ثبت ان خيرات الدنيا حقيرة خسيسة وان خيرات الاخرة رفيعة شريفة
والمفسرون ذكروا في الباقيات الصالحات اقوالا احدها انها سبحان الله والحمد لله ولا
اله الا الله والله اكبر وزاد بعضهم ولا حول ولا قوة الا بالله وللغزالي في تفسير غير
الزيادة وجه لطيف فقال روي ان من قال سبحان الله حصل له من الثواب عشر
حسنات فاذا قال والحمد لله صارت عشرين فاذا قال ولا اله الا الله صارت ثلاثين
فاذا قال والله اكبر صارت اربعين وتحقيق القول فيه ان مراتب الثواب اعظمها هو
الاستغراق في معرفة الله وفي محبته فاذا قال سبحان الله فقد عرف كونه تعالى
منزها عن كل ما لا ينبغي وحصول هذا العرفان سعادة عظيمة وبهجة كاملة فاذا

الفقراء على اولئك صح

قال مع ذلك الحمد لله فقد اقر بان الحق سبحانه وتعالى مع كونه منزها عن كل ما لا ينبغي فهو
المبتدئ لكل ما ينبغي ولافاضة كل خير وكمال فقد تضاعف درجات المعرفة فلا جرم قلنا
بمضاعفة الثواب فاذا قال مع ذلك لا اله الا الله فقد اقر بان الذي تنزه عن كل ما لا
ينبغي وهو المبتدئ لكل ما ينبغي ليس في الوجود موجود هكذا الا هو الواحد فقد صارت
مراتب المعرفة ثلاثة فلا جرم صارت درجات الثواب ثلاثة فاذا قال والله اكبر
فمعنى انه اكبر واعظم من ان يصل العقل الى كنه كبريائه وجلاله فقد صارت مراتب
المعرفة اربعة فلا جرم صارت درجات الثواب اربعة وعن ابي هريرة قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لان اقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر احب
الي مما طلعت عليه الشمس وعن ابي سعيد انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يا رسول الله قال الملة قيل وما هي
هي يا رسول الله قال التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله ثانيها
انها الصلوات الخمس ثالثها انها الطيب من القول رابعها وهو اعمها واولاها انها
اعمال الخيرات التي تبقى ثمراتها ابد الاباد فيندرج في ذلك الصلوات واعمال الحج
وصيام رمضان وسبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا
قوة الا بالله والكلام الطيب وغير ذلك من كل عمل وقول دعاك لمعرفة الله
ومحبته وخدمته واما ما دعاك من قول او عمل الى الاشتغال باحوال الخلق فهو خارج
الباقي الذي لا يقبل الزوال لا جرم كان الاشتغال بمحبته ومعرفته وطاعته وخدمته
هو الذي يبقى بقاء لا يزول ولما كان اهم ما الى من حصل النفايس لكفايته من يحفظها
له لوقت حاجته قال تعالى عند ربك اي الجليل الواهب العالم بالعواقب وخير
من المال والبنين العاجل والاجل ثوابا وخير من ذلك كله املا اي من جملة ما يرجوه فيها
من الثواب ويرجوه فيها من الامل لان ثوابها الى بقاء واملها كل ساعة في تحقق وعلو
وارتقاء وامل المال والبنين نجان احوج ما يكون اليهما وعن قتادة كلما اريد به وجه
الله تعالى خير ثوابا اي ما يتعلق بها من الثواب وما يتعلق بها من الامل لان صاحبها
تامل في الدنيا ثواب الله ونصيبه في الاخرة ولما بين سبحانه وتعالى خساسة الدنيا
وشرف الاخرة اردفه باحوال يوم القيامة وذكر منها انواعا النوع الاول قوله تعالى
ويوم اي واذكر لهم يوم نسير بايسر امر الجبال عن وجه الارض بعواصف القدرة كما يسير
نبات الارض بعد ان صار هشيما بالرياح كما قال تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي
تمر مر السحاب تنبيه ليس في لفظ الاية ما يدل الى اين تسير قال الرازي ويحتمل ان
يقال ان الله يسيرها الى الموضع الذي يريده ولم يبين ذلك الموضع لخلقه والحق ان المراد
انه تعالى يسيرها الى العدم لقوله تعالى ويسالونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا
فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا ولقوله تعالى وبست الجبال بسا
فكانت هباء منبثا وقرا ابن كثير وابو عمرو وابن عامر بضم التاء الفوقية وفتح الياء التحتية
بعد السين على فعل ما لم يسم فاعله ورفع الجبال باسناد تسير اليها كما في قوله تعالى واذا الجبال
سيرت والباقون بالنون المضمومة وكسر الياء التحتية بعد السين باسناد فعل التسيير الى نفسه
ونصب الجبال لكونه مفعول تسير والمعنى نحن نفعل بها ذلك اعتبارا بقوله تعالى وحشرناهم

والمعنى

عن ذلك لان كلما سوى الحق فهو فان لذاته فكان الاشتغال به مع الانفاق عليه باطلا وسعيا
ضايعا واما الحق لذاته فهو صح

والمعنى واحد لانها اذا سيرت فمسيرها ليس الا الله تعالى النوع الثاني قوله تعالى وترى الارض
بكمالها بارزة لا غار فيها ولا صدع ولا جبل ولا نبت ولا شجرة ولا ظل فبقيت بارزة ظاهرة
ليس عليها ما يسترها وهو المراد من قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا امتا وقيل انها
برزت ما في بطنها وقذفت الموتى المقبورين فيها فاذا هي بارزة الجوف والبطن فحذف
ذكر الجوف كما قال تعالى والقت ما فيها وتخلت وقال تعالى واخرجت الارض اثقالها
النوع الثالث قوله تعالى وحشرناهم اي الخلايق قهرا الى الموقف الذي تنكشف فيه
المخبات وتظهر القبايح والمغيبات ويقع الحساب فيه على النقير والقطمير والناقد
فيه بصير فلم نغادر اي نترك منهم اي الاولين والاخرين احدا لانه لا ذهول ولا عجز ونظيره
قوله تعالى قل ان الاولين والاخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم فان قيل لم جي
بحشرناهم ماضيا بعد تسير وترى اجيب بان ذلك يقال للدلالة على ان حشرهم قبل
التسير وقبل البروز ليعاينوا تلك الاهوال والعظايم كانه قيل وحشرناهم قبل ذلك
ولما ذكر تعالى حشرهم وكان من المعلوم انه للعرض ذكر كيفية ذلك العرض فقال بانيا
الفعل للمفعول على طريقة كلام القادرين ولان المخوف العرض لا كونه من معين وعرضوا
على ربك اي المحسن اليك برفع اوليايك وخفض اعدايك وقوله تعالى صفا حال اي مصطفين
واختلف في تفسيره على وجوه الاول ان تعرض الخلق كلهم صفا واحدا لاتساع الارض ظاهرين
بحيث لا يحجب بعضهم بعضا ثانيها لا يبعد ان يكونوا صفوفا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف
المحيطة بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى صفا صفوفا
كقوله تعالى نخرجكم طفلا اي اطفالا ثالثها المراد بالصف القيام كما في قوله تعالى فاذكروا
اسم الله عليها صواف اي قياما وقيل كل امة صف ويقال لهم لقد جئتمونا كما خلقناكم اول
مرة اي فرادى حفاة عراة غرلا وليس المراد حصول المساواة من كل وجه لانهم خلقوا صغارا
ولا عقل لهم ولا تكليف عليهم بل المراد ما مر ويقال لمنكري البعث بل زعمتم ان اي انا
لن نجعل لكم موعدا اي مكانا ووقتا نجمعكم فيه هذا الجمع فمنجز ما وعدناكم به على السنة
رسلنا فكنتم مع التعزز على المومنين بالاموال والانصار منكرين البعث والقيامة
فالان قد تركتم الاموال والانصار في الدنيا وشاهدتم ان البعث والقيمة حق
وعن بن عباس قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال ايها الناس انكم تحشرون
الى الله حفاة عراة غرلا كما بدانا اول خلق نعيده وعدا علينا ان كنا فاعلين الا وان
اول الخلق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه السلام الا وانه سيجاء برجال من امتي فيوخذ بهم ذات
الشمال فاقول يا رب اصحابي فيقول انك لا تدري ما احدثوا بعدك فاقول كما قال
العبد الصالح وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم الى قوله تعالى العزيز الحكيم قال فيقال
لي انهم لم يزالوا مدبرين على اعقابهم منذ فارقتهم وفي رواية فاقول سحقا سحقا وقوله
غرلا اي قلفا الغرلة القلفة التي تنقطع من جلد الذكر وهو موضع الختان وقوله
سحقا اي بعدا قال بعض العلما المراد بهولا الذين ارتدوا من العرب بعده وعن عايشة رضي
الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الناس حفاة عراة
غرلا فقلت الرجال والنسا جميعا ينظر بعضهم الى بعض قال الامر اشد من ان يهمهم ذلك
زاد النساي في رواية لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه وعن ابي هريرة قال قال رسول

BULAC

الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاث طوايف راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة
على بعير واربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت
معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث اصبحوا وتمسي معهم حيث امسوا ووضع المستعقب
الكتاب المضبوط فيه دقايق الاعمال وجلايلها على وجه بين لا يخفى على قارئ ولا غيره
شيء منه فيوضع كتاب كل انسان في يده اما في اليمين واما في الشمال والمراد الجنس وهو
صحف الاعمال فترى المجرمين مشفقين اي خايفين خوف العقاب من الحق وخوف
الفضيحة من الخلق مما فيه من قبايح اعمالهم وسيء افعالهم واقوالهم ويقولون
عند معاينتهم ما فيه من السيئات وقولهم يا للتنبيه ويلتنا اي هلكنا وهو مصدر
لا فعل له من لفظه كناية على انه لا نديم لهم اذ ذاك الا الهلاك ما لهذا الكتاب
اي اي شيء له حال كونه على غير حال الكتب في الدنيا لا يغادر اي يترك صغيرة ولا كبيرة
من ذنوبنا وقال ابن عباس الصغيرة التبسم والكبيرة القهقهة وقال سعيد بن جبير
الصغيرة اللمم والمسيس والقبل والكبيرة الزنا الا احصاها اي عدها واثبتها
في هذا الكتاب ونظيره قوله تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون
وقوله تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون بينه ادخال التاء في الصغيرة والكبيرة
على تقدير ان المراد الفعلة الصغيرة والكبيرة قال بعض العلماء احتجبوا من الصغاير
قبل الكباير لان الصغاير هي التي جرتهم الى الكباير واحترزوا من الصغاير حذرا
من ان تقعوا في الكباير وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اياكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب مثل قوم نزلوا بطن واد
فجاء هذا بعود وجاء هذا بعود فاطبخوا خبزهم وان محقرات الذنوب لموبقات
ووجدوا ما عملوا حاضرا اي مثبتا في كتابهم ولا يظلم ربك الذي رباك بخلق القران احدا
منهم ولا من غيرهم في كتاب ولا عقاب ولا ثواب بل يجازي الاعداء بما يستحقون تعذيبا
لهم ويجازي اولياءه الذين عادوهم بما يستحقون تنعيما لهم روى الامام احمد
في المسند عن جابر بن عبد الله انه سافر الى عبد الله بن انيس مسيرة شهر فاستاذن
عليه قال فخرج يطا ثوبه فاعتنقني واعتنقته قلت حديث بلغني عنك انك سمعته
من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص فخشيت ان تموت قبل ان اسمعه فقال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله عز وجل الناس او قال العباد
حفاة عراة بهما قلت وما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد
كما يسمعه من قرب انا الملك انا الديان لا ينبغي لاحد من اهل النار ان يدخل النار
وله عند احد من اهل الجنة حق ولا ينبغي لاحد من اهل الجنة ان يدخل الجنة وله عند
احد من اهل النار حق حتى اقصه منه حتى اللطمة قال قلنا كيف وانا ناتي حفاة
عراة بهما قال بالحسنات والسيئات وروى الرازي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال يحاسب الله الناس في القيامة على ملة يوسف وايوب وسليمان فيدعو
المملوك فيقول ما يشغلك عني فيقول خلقتني عبدا لادمي فلم يفرغني فيدعو
يوسف فيقول كان هذا عبدا مثلك فلم يمنعه ذلك ان عبدني فيؤمر به الى النار ثم يدعى
المبتلى فاذا قال شغلتني بالبلاء دعا ايوب فيقول قد ابتليت هذا باشد من بلائك

فلم

يمنعه

فلم يمنعه ذلك من عبادتي ويؤمر به الى النار ثم يؤتى بالملك في الدنيا مع ما آتاه الله تعالى
من الغنى والسعة فيقول ما عملت فيما آتيتك فيقول شغلني الملك عن ذلك فيدعى
سليمان فيقول هذا عبدي آتيته اكثر مما آتيتك فلم يشغله ذلك عن عبادتي
اذهب فلا عذر لك ويؤمر به الى النار وعن معاذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
انه قال لن يزول قدم العبد يوم القيامة حتى يسأل عن اربع عن جسده فيما
ابلاه وعن عمره فيما افناه وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه وعن علمه كيف عمل
فيه ولما كان المقصود من ذكر الآيات المتقدمة الرد على القوم الذين افتخروا باموالهم
واعوانهم على فقراء المسلمين وهذه الآية المذكورة في قوله تعالى واذ اي واذكر اذ
قلنا للملائكة الذين هم اطوع شيء لاوامرنا المقصود من ذكرها عين هذا المعنى وذلك لان
ابليس انما تكبر على آدم لانه افتخر باهله ونسبه وقال خلقتني من نار وخلقته من طين
وانا اشرف منه في الاصل والنسب فكيف اسجد له وكيف اتواضع له وهؤلاء المشركون
عاملوا فقراء المسلمين بمعنى هذه المعاملة فقالوا كيف نجالس هؤلاء الفقراء مع انا اناس
من انساب شريفة وهم من انساب باذلة ونحن اغنياء وهم فقراء ذكر الله تعالى هذه
القصة تنبيها على ان هذه الطريقة هي نفسها طريقة ابليس حين امره الله تعالى في جملة
الملائكة بقوله تعالى اسجدوا لآدم سجودا انحناء لا وضع جبهة تحية له فسجدوا الا
ابليس كان من الجن قيل هم نوع من الملائكة فالاستثناء متصل وقيل هو منقطع
وابليس ابو الجن فله ذرية ذكرت معه بعد والملائكة لا ذرية لهم وكررت هذه القصة
لهذا المقصود المذكور قال البيضاوي وهذا مذهب كل تكرير في القرآن اي انما يكرر لمناسبة
ذلك المحل الذي يذكر فيه ففسق اي خرج بتركه السجود عن امر ربه اي سيده ومالكه المحسن
اليه والفاء للسببية وفيه دليل على ان الملك لا يعصي البتة وانما عصى ابليس لانه كان
جنيا في اصله والكلام المستقصى فيه تقدم في سورة البقرة ثم انه تعالى حذر عن
اتباعه بقوله تعالى افتتخذونه الخطاب لآدم وذريته والهاء هنا وفيما سيأتي لابليس
والهمزة للانكار والتعجب اي ايفسق باستحقاركم فنطرده لاجلكم فيكون ذلك سببا
لان تتخذوه وذريته شركاء لي اولياء لكم من دوني تطيعونهم بدل طاعتي وقوله تعالى
وهم لكم عدو اي اعداء حال ولما كان هذا الفعل اجدر شيء بالذم وصل به قوله تعالى بئس
للظالمين بدلا من الله ابليس وذريته وكان الاصل لكم ولكنه ابرز الضمير ليعلق الفعل
بالوصف لافادة التعميم روى مجاهد عن الشعبي قال اني لقاعد يوما اذ اقبل
جمال فقال اخبروني هل لابليس زوجة قلت ان ذلك لعرس ما شهدته ثم ذكرت قوله
تعالى افتتخذونه وذريته اولياء من دوني فعلمت انه لا يكون ذرية الا من زوجة فقلت
نعم وقال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل انه يدخل ذنبه في دبره فيبيض
فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين قال مجاهد من ذرية ابليس لاقيس
وولهان وهو صاحب الطهارة والصلاة والهفاف ومرة وبه يكنى وزلنبور وهو
صاحب الاسواق يزين اللغو والايمان الكاذبة ومدح السلع وثبر وهو صاحب
المصائب يزين خمش الوجوه ولطم الخدود وشق الجيوب والاعور وهو صاحب الزنا
ينفخ في احليل الرجل وعجز المرأة ومطوس وهو صاحب الاخبار الكاذبة يلقيها في افواه

الناس لا يجدون لها اصلا ولا اسم وهو الذي اذا دخل الرجل بيته ولم يسم الله ولم يذكر الله دخل معه واذا اكل ولم يسم الله اكل معه قال الاعمش ربما دخلت البيت ولم اذكر اسم الله وعن عثمان بن ابي العاص قال قلت يا رسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقرائتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك شيطان يقال له خنزب فاذا احسسته فتعوذ بالله واتفل عن يسارك ثلاثا قال ففعلت ذلك فاذهبه الله تعالى عني وعن ابي بن كعب ان النبي صلى الله عليه وسلم قال ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان فاتقوا وساوس الماء وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابليس يضع فرشه على الماء ثم يبعث سرايا فادناهم منه منزلة اعظمهم فتنة يجي احدهم فيقول فعلت كذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يجي احدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدنيه منه ويقول نعم انت قال الاعمش اراه قال فيلتزمه واختلفوا في عود الضمير في قوله تعالى ما اشهدتهم على وجوه احدها وهو الذي ذهب اليه الاكثرون ان المعنى ما اشهدت الذين اتخذوهم اولياء خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم اي ولا اشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا انفسكم اي احضار ابليس وذريته خلق السموات والارض واحضار بعضهم خلق بعض ليدل على بطلان اعتضادهم في ذلك كما صرح به بقوله تعالى وما كنت متخذ المضلين اي الذين يضلون الناس ووضع الظاهر موضع المضمر اظهارا لاضلالهم وذمالهم عضدا اي اعوانا وثانيها قال الرازي وهو الاقوى عندي ان الضمير عائد الى الكفار الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انا لم نقدر على مجلسك هو ولا الفقراء من عندك فلا تؤمن بك فكانه تعالى قال ما هؤلاء الذين اتوا بهذا الاقتراح الفاسد والتعنت الباطل ما كانوا شركائي في تدبير العالم بدليل انهم ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم ولا اعتضدت بهم في تدبير الدنيا والاخرة بل هم قوم كفار الخلق فلم اقدموا على الاقتراح الفاسد قال والذي يؤكد هذا ان الضمير يجب عوده الى اقرب المذكورات في هذه الاية المذكورة والاقرب هم اولئك الكفار وهو قوله تعالى يلبسون للظالمين بدلا والمراد بالظالمين اولئك الكفار وثالثها ان يكون المراد من قوله تعالى ما اشهدتهم الى اخره كون هؤلاء الكفار جاهلين بما جرى به العلم في الازل من احوال السعادة والشقاوة فكانه قيل لهم السعيد من حكم الله تعالى بسعادته والشقي من حكم الله تعالى بشقاوته في الازل وانتم غافلون عن احوال الازل فانه تعالى قال ما اشهدتهم الى اخره واذا جهلتم هذه الحالة فكيف يمكنكم ان تحكموا لانفسكم بالرفعة والعلو والكمال ولغيركم بالذل والدناءة بل في كل ما صار الامر في الدنيا والاخرة على العكس مما حكمتم به ولما قرر تعالى ان القول الذي قالوه في الافتخار على الفقراء فاسد واف به بالبس عاد بعده الى التهويل باحوال القيامة فقال ويوم للتعظيم واذكرهم يا محمد يوم عطفا على قوله واذ قلنا للملائكة يقول اياس يوم القيامة هؤلاء الكفار كما بهم وقرأ حمزة بالنون والباقون بالياء نادوا شركائي اي ما عبدوني وهي وقبل ابليس وذريته بين تعالى ان لا اضافة لهم اليه بل توبيخ لهم فقال تعالى الذين زعمتم انهم شركائي في شفاعتكم ليشفعوا لكم ليست على حقيقة بل تعالوا حتى اريكم من عندي فدعوهم تمادوا في الجهل والضلال فلم يستجيبوا لهم اي فلم يغيثوهم اصلا لهم واستغاثوا لانفسهم فضلا عن ان يغيثوهم ووجعلنا بينهم اي المشركين والشركاء موبقا

اي واديا من اودية جهنم يهلكون فيه جميعا وهو من وبق بالفتح هلك نقل ابن كثير عن
عبد الله بن عمر انه قال هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين اهل الهدى واهل
الضلال وقال الحسن البصري عداوة اي تؤول بهم الى الهلاك والتلف كقول عمر رضي
الله تعالى عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا اي لا يكن حبك يجر الى الكلف ولا بغضك
يجر الى التلف وقيل الموبق البرزخ البعيد اي وجعلنا بين هولاء الكفار وبين الملائكة
وعيسى برزخا بعيدا يهلك فيه السارى لفرط بعده لانهم في قعر جهنم وهم في اعلا الجنان
ولما قرر سبحانه وتعالى ما لهم مع شركائهم ذكر حالهم في استمرار جهلهم فقال تعالى ورأى
المجرمون اي الفريقون في الاجرام النار من مكان بعيد فظنوا ظنا انهم مواقعوها
اي مخالطوها في تلك الساعة من غير تاخير ومهلة لشدة ما يسمعون من تغيظها
وزفيرها كما قال تعالى اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فان مخالطة
الشي لغيره اذا كانت قوية تامة يقال لها مواقعة ولم اي والحال انهم لم يجدوا عنها
مصرفا اي مكانا ينصرفون اليه لان الملائكة تسوقهم اليها فالموضع موضع التحقق ولكن
ظنهم جريا على عادتهم في الجهل كما قالوا اتخذ الله ولدا بغير علم وما اظن ان تبيد هذه
ابدا وما اظن الساعة قائمة ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين مع قيام الادلة
التي لا شك فيها وقيل الظن هنا بمعنى العلم واليقين ولما افتخر هولاء الكفار على فقراء المسلمين
بكثرة اموالهم واتباعهم وبين الله تعالى الوجوه الكثيرة ان قولهم فاسد وشبههم
باطلة ذكر فيه المثلين المتقدمين ثم قال بعده ولقد صرفنا واظهر نافع وابن كثير
وابن ذكوان وعاصم الدال وادغمها الباقون في هذا القرآن اي القيم الذي لا عوج فيه
مع جمعه للمعاني للناس اي المزلزلين والثابتين وقوله تعالى من كل مثل صفة لمحذوف
اي مثلا من جنس كل مثل ليتعظوا او انا حولنا الكلام وطرقناه في كل وجه من وجوه
المعاني والبسناه من العبارات الرائقة والاساليب المتناسقة ما صار بها في غرابته
كالمثل يقبله كل من سمعه ويضرب به اباط الابل في سائر البلاد بين العباد فتسر به
قلوبهم وتبتهج به السنتهم فلم يقبلوه ولم يتركوا المجادلة الباطلة كما قال تعالى وكان
الانسان اكثر شي يتاتى منه الجدال وميز الاكثرية بقوله تعالى جدلا اي خصومة ولهذا
قيل اراد بالانسان الكافر وقيل الاية على العموم قال ابن الخازن وهو الاصح وكذا قال
البغوي فعن علي رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله تعالى عنها ليلة فقال الا تصليان فقلت
يا رسول الله انفسنا بيد الله فاذا شاء ان يبعثنا بعثنا فانصرف رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين قلت ذلك ولم يرجع الي شيئا ثم سمعته وهو مولى يضرب فخذه
وهو يقول وكان الانسان اكثر شي جدلا وقال ابن عباس اراد النضر بن الحارث وجداله
في القرآن وقال الكلبي اراد به ابن خلف الجمحي ولما بين سبحانه تعالى اعراضهم بين موجبه عندهم
فقال تعالى وما منع الناس اي الذين جادلوا بالباطل الايمان هكذا كان الاصل ولكنه
عبر عن هذا المفعول الثاني بقوله تعالى ان يؤمنوا ليفيد التجديد وذمهم على الترك اذ
اي حين جاءهم الهدى اي القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وعطف على المفعول الثاني
معبرا بمثل ما مضى لما مضى قوله تعالى ويستغفروا ربهم اي لا مانع لهم من الايمان ولا من الاستغفار

قال بعض المحققين والاية دالة على ان لا ينبغي عليهم الصلاة والسلام جادلوهم في الدين لان المجادلة لا تحصل الا من الطرفين صح

والتوبة ولما كان الاستئناف مرتبا على الفاعل فقال إلا أن يأتيهم سنة الأولين
اي الامم الخالية لهم من الايمان والامن الاستئصال والموبخ اي يستأنفهم وبي الاهلاك المقدر عليهم
أو طلب ان يأتيهم العذاب قبلا اي مقابلة وعيانا وهو القتل يوم بدر وقيل عذاب
الاخرة وقرا الكوفيون برفع القاف والباء الموحدة والباقون بكسر القاف وفتح الباء
الموحدة ولما كان ذلك ليس الى الرسول وانما هو الى الله تعالى بين ذلك بقوله تعالى وما نرسل
المرسلين الا مبشرين بالثواب على افعال الطاعة ومنذرين بالعقاب على افعاله المعصية
فمن طلب منهم الطالمون من امهم ما ليس اليهم ويجادل الذين كفروا اي يجدون الحق كلما
اتاهم منذر من قبلنا بالباطل من قولهم ما انتم الا بشر مثلنا لو كنتم صادقين لاتيتم بما نطلب
منكم مع ان ذلك ليس كذلك اذ ليس لاحد غير الله من الامر شيء ليدحضوا اي ليبطلوا الحق هم
اي الحق اي القران والمعجزات المثبتة لصدقهم واتخذوا اياتي اي القران وما انذروا اي
وانذارهم او والذي انذروا به من العقاب هزوا اي استهزاء وقرا حفص بالواو وقفا ووصلا
وحمزة بالواو وقفا لا وصلا وسكن الزاي حمزة ورفعها الباقون وحمزة في الوقف ايضا
النقل ولما حكى الله تعالى عن الكفار احوالهم الخبيثة وصفهم بما يوجب الحذر بقوله
تعالى ومن اظلم اي لا احد اظلم وهو استفهام على سبيل التقرير ممن ذكر بايات ربه المحسن اليه
بها وهي القران فاعرض عنها تاركا للايمان فيما تلك العلامات العجيبة وما يوجب
ذلك الاحسان من الشاكر ونسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي فلم يتعظ ولم يتفكر
تعالى ذلك الاعراض بقوله تعالى إنا جعلنا على قلوبهم اكنة جمع كنان وهو ما يجعل
الانسان فيه على قلبه كل واحد كالجفير أن يفقهوه اي كراهة ان يفقهوه اي يتفهموه
وفي اذانهم وقرا اي ثقلا بهم لا يسمعون حق السمع ولا يقبلون الوعي وان تدعهم
اي تكرر دعاءهم كل وقت إلى الهدى لتجيبهم بما عندك من الحرص والجد على ذلك فلن يهتدوا
أي بسبب ذلك إذا ابدا لان الله تعالى حكم عليهم بالضلال فلا يقع منهم
ايمان ثم قال تعالى وربك مشير لهذا الاسم الى ما اقتضاه الوصف من الاحسان
الغفور اي البليغ المغفرة الذي يستر الذنوب اما بعفوها واما بالحلم عنها الى وقت اخر
ذو الرحمة اي الموصوف بالرحمة الذي يعامل وهو قادر مع موجبات الغضب معاملة
الراحم بالكرم استشهد تعالى على ذلك بقوله تعالى لو يؤاخذهم اي هؤلاء الذين عادوك
وهو على علم انهم لا يؤمنون او يعاملهم معاملة المواخذ بما كسبوا من الذنوب لعجل لهم
العذاب اي في الدنيا بل لهم موعد وهو اما يوم القيامة واما في الدنيا وهو يوم بدر
وسائر ايام الفتح لن يجدوا من دونه اي الموعد موئلا اي ملجا يتحيزون منه فاذا جاء موعدهم
اهلكناهم فنه باول ظلمهم واخره وقوله تعالى تلك مبتدا اي القاصة من عاد وثمود
ومدين وقوم لوط واشكالهم صفته لان اسماء الاشارة توصف باسماء الاجناس
والخبر اهلكناهم والمعنى تلك اصحاب القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا
اي وقتا معلوما لا يتقدمون عنه ساعة ولا يستاخرون وقرا سعلة بفتح
الميم واللام اي لهلاكهم وقرا حفص بفتح الميم وكسر اللام والباقون بضم الميم وفتح اللام

اي لاهلاكهم

اي لاهلاكهم ثم عطف سبحانه وتعالى على قوله تعالى واذ قلنا للملائكة واذ اي واذكر لهم حين
قال موسى لفتاه يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام وانما قال قال فتاه
لانه كان يخدمه ويتبعه وقيل كان ياخذ منه العلم وقيل فتاه عبده وفي الحديث ليقل
احدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وامتي تنبيه اكثر العلما على ان موسى المذكور
في هذه الاية هو موسى بن عمران صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التورية
وعن كعب الاحبار موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وهو قد كان نبيا قبل
موسى بن عمران قال البغوي والاول اصح واحتج له القفال بان الله تعالى لم يذكر في كتابه
موسى الا اراد به صاحب التورية فاطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ولو كان
المراد شخصا اخر يسمى موسى غيره لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز
وازالة الشبهة كما انه لما كان المشهور في العرف عن ابي حنيفة هو الرجل المعنى
فلو ذكرنا هذا الاسم واردنا به رجلا سواه لقيدناه مثل ان نقول قال ابو
حنيفة الدينوري وعن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس ان نوفا البكالي
يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني اسرايل فقال ابن عباس كذب عدو الله
ونوف البكالي هو نوف بن فضالة الحميري الشامي البكالي ويقال انه دمشقي وكانت
امه زوجة كعب الاحبار نقله بن كثير وحجة الدين قالوا موسى هذا غير صاحب التورية
فانه يقال بعد ان انزل عليه التورية وكلمه بلا واسطة وخصه بالمعجزات الباهرة
العظيمة التي لم يتفق مثلها لاكبر اكابر الانبيا يبعد ان يبعثه بعد ذلك الى التعلم
والاستفادة واجيب عنه بانه لا يبعد ان يكون العالم الكامل في كثرة العلوم
يجهل بعض الاشيا فيحتاج في تعلمها الى من هو دونه وهو امر متعارف
روى البخاري حديث ان موسى قام خطيبا في بني اسرايل فسيل اي الناس اعلم قال انا
فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله تعالى اليه ان لي عبدا بمجمع البحرين
هو اعلم منك قال يا رب فكيف لي به قال تاخذ حوتا فتجعله في مكتل فحيث
ما فقدت الحوت فهو ثم فاخذ حوتا فجعله في مكتل ثم قال لا ابرح اي لا ازال اسير
في طلب العبد الذي اعلمني ربي بفضله حتى ابلغ مجمع البحرين اي ملتقى بحر الروم وبحر
فارس ما يلي المشرق قاله قتادة اي المكان الجامع لذلك فالقاه هناك او امضي حقبا
اي دهرا طويلا في بلوغه ان لم اظفر به بمجمع البحرين الذي جعله ربي موعدا لي في لقايه
والحقب قال في القاموس ثمانون سنة او اكثر والدهر والسنة والسنون انتهى
فسارا وتزودا حوتا مشويا في مكتل كما امر به فكانا ياكلان منه الى ان بلغا المجمع كما قال
تعالى فلما بلغا مجمع بينهما اي بين البحرين قال لفتاه اذا فقدت الحوت فاخبرني
وناما واضطرب الحوت في المكتل وخرج فسقط في البحر فلما استيقظا نسيا حوتهما
اي نسي يوشع حمله عند الرحيل ونسي عليه السلام تذكيره وقيل الناسي يوشع فقط
وهو على حذف مضاف اي نسي احدهما كقوله تعالى يخرج منهما اللولو والمرجان فاتخذ
الحوت سبيله في البحر اي جعله مجعل الله سربا اي مثل السرب وهو الشق الطويل
لانفاذ له وذلك ان الله تعالى امسك عن الحوت جري الما فانجاب عنه فبقي كالكوة
لم يلتيم وجمد ما تحته وقد ورد في حديثه في الصحيح ان الله تعالى احياه وامسك

عن موضع جريه في الما فصار طاقا لا يلتئم وكان المجمع كان ممتدا فظن موسى عليه السلام
ان المطلوب امامه او ظن المراد مجمع اخر فسارا فلما جاوزا ذلك المكان بالسير بقيت يومهما
وليلتهما واستمرا الى وقت الغدا من ثاني يوم قال موسى عليه السلام لفتاه اتنا اي احضر
لنا غدانا وهو ما يوكل اول النهار لنتقوى به على ما حصل لنا من الاعنا ولذلك وصل
به قوله لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا اي تعبا ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان
الذي امره الله تعالى به فقوله هذا اشارة الى السفر الذي وقع بعد مجاوزتهما الموعد
او مجمع البحرين ونصبا مفعول بلقينا قال له فتاه ارايت اي ما دهاني وقرا نافع
بتسهيل الهمزة التي هي عين الكلمة ولورش وجه اخر وهو ابدالها حرف مد واسقطها
الكسائي والباقون بالتحقيق اذ اوينا الى الصخرة التي بمجمع البحرين فاني اي بسبب
اني نسيت الحوت اي نسيت ان اذكر لك امره ثم علل عدم ذكره بقوله وما انسانيه
الا الشيطان بوسواسه وقرا حفص بضم الها وامال الالف الكسائي محضة وورش
بين بين وبالفتح والباقون بالفتح وقوله ان اذكره لك في محل نصب على البدل من
ها انسانيه بدل اشتمال اي انساني ذكره واتخذ سبيله اي طريقه الذي ذهب فيه
في البحر عجبا وهو كونه كالسرب معجزة لموسى او الخضر وذكره له الان مانع من ان يكون
للشيطان عليه سلطان على ان هذا الانسا ليس مفوتا للطاعة بل فيه ترقية لهما في
معراج المقامات العالية لوجدان التعب بعد المكان الذي فيه البغية وحفظ الما
منجابا على طول الزمان وغير ذلك من الايات الظاهرة وقوله تعالى انما سلطانه على
الذين يتولونه مبين ان السلطان الحمل على المعاصي وقوله وما انسانيه الا الشيطان
ان اذكره اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه وقد كان في هذه القصة خوارق
منها حياة الحوت ومنها ايجاد ما كان اكل منه ومنها امساك الما عن مدخله وقد
اتفق لنبينا صلى الله عليه وسلم نفسه او اتباعه ببركته مثل ذلك اما اعادة ما اكل
من الحوت المشوي وهو جنبه فقد روى البيهقي في اواخر دلايل النبوة عن اسامة
ابن زيد رضي الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم اتي بشاة مشوية فقال لبعض
اصحابه ناولني ذراعها وكان احب الشاة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها
ثم قال ناولني ذراعا فناوله ثم قال ناولني ذراعا فقال يا رسول الله انما هما ذراعان
وقد ناولتك فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو سكت ما زلت تناولني
ذراعا ما قلت لك ناولني ذراعا فقد اخبر صلى الله عليه وسلم انه لو سكت اوجد الله
تعالى ذراعا ثم ذراعا وهكذا واما حياة الحوت المشوي ففي قصة الشاة المشوية
المسمومة ان ذراعها اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه مسموم فهذا اعظم من عود الحياة
من غير نطق وكذا خبر الجذع وتسليم الحجر وتسبيح الحصا ونحو ذلك اعظم من عود الحياة
الى ما كان حيا وروى البيهقي في الدلايل عن عمرو بن سواد قال قال لي الشافعي ما اعطى
الله تعالى نبيا ما اعطى محمدا صلى الله عليه وسلم فقلت اعطى عيسى عليه السلام
احيا الموتى فقال صلى الله عليه وسلم الجذع الذي كان يخطب الى جنبه حتى هيي له
المنبر وحن الجذع حتى سمع صوته فهذا اكبر من ذلك انتهى وقد ورد اشيا كثيرة
من احيا الموتى له صلى الله عليه وسلم ولبعض امته وروي عن انس رضي الله تعالى

عنه

عنه انه قال كنا في الصفة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتته امراة ومعها ابن لها
فاضاف المراة الى النسا واضاف ابنها الينا فلم يلبث ان اصابه وبا المدينة فمرض اياما
ثم قبض فغمضه النبي صلى الله عليه وسلم وامر بجهازه فلما اردنا ان نغسله قالت ائت
امه فاعلمها فجات حتى جلست عند قدميه فاخذت بهما ثم قالت اللهم اني اسلمت
لك تطوعا وخلعت الاوثان زهدا وهاجرت اليك رغبة اللهم لا تشمت بي عبدة
الاوثان ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحملها قال فوالله ما انقضى كلامها
حتى حرك قدميه والقى الثوب عن وجهه وعاش حتى قبض الله تعالى رسول الله صلى الله
عليه وسلم وحتى هلكت امه واما اية الماء فمرجعها الى صلابته ولا فرق بين جموده بعدم
الالتيام بعد الانخراق وبين جموده وصلابته بالامتناع من الانخراق وقد جهز عمر بن
الخطاب رضي الله تعالى عنه جيشا واستعمل عليه العلا بن الحضرمي فحصل لهم حر شديد
وجهدهم العطش قال بعض الجيش فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين ثم مد
يده وما نرى في السما شيا فوالله ما حط يده حتى بعث الله تعالى ريحا وانشا سحابا
فافرغت حتى ملات الغدر والشعاب فشربنا وسقينا واستقينا ثم اتينا عدونا
وقد جاوزنا خليجا في البحر الى جزيرة فوقف على الخليج وقال يا علي يا عظيم يا حليم يا كريم
ثم قال اجيزوا بسم الله فاجزنا ما ببل الما حوافر دوابنا فاصبنا العدو عليه
فقتلنا واسرنا وسبينا ثم اتينا الخليج فقال مثل مقالته فاجزنا ما بل الما
حوافر دوابنا والاخبار في ذلك كثيرة ولما قال فتاه ذلك كانه قيل فما قال موسى عليه
السلام حينئذ قال له ذلك اي الامر العظيم من فقد الحوت ما كنا نبغي اي نريد من هذا
الامر المغيب عنا فان الله تعالى جعله موعدا في لقا الخضر وقرا نافع وابو عمرو والكسائي
باثبات اليا وصلا لا وقفا وابن كثير يثبتها وصلا ووقفا والباقون بالحذف
فارتدا على اثارهما اي فرجعا في الطريق الذي جا فيه يقصانها قصصا اي يتبعان
اثرهما اتباعا او مقتصين حتى ياتي الصخرة قال البقاعي وهذا يدل على ان الارض
كانت رملا لا علم فيها فالظاهر والله اعلم انه مجمع النيل والملح عند دمياط او رشيد
من بلاد مصر ويويده نقر العصفور في البحر الذي ركب في سفينته للتعدية
كما في الحديث فان الطير لا يشرب من الملح ومن المشهور في بلاد رشيد ان الامر كان عندهم
وان عندهم سمكا ذاهب الشق يقولون انه من نسل تلك السمكة والله اعلم انتهى
وتقدم عن قتادة انه ملتقى بحر فارس والروم وقال محمد بن كعب طنجة وقال
ابي بن كعب افريقية وقيل البحران موسى والخضر لانهما كانا بحري علم قال ابن عادل
وليس في اللفظ ما يدل على تعيين هذين اللفظين فان صح في الخبر الصحيح شي فذاك
والا فالاولى السكوت عنه انتهى ثم استمرا يقصان حتى انتهيا الى موضع فقد
الحوت فوجدا عبدا من عبادنا مضافا الى حضرة عظمتنا قيل كان ملكا من الملائكة
والصحيح الذي جا في التواريخ وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه الخضر واسمه
ايليا بن ملكان وكنيته ابو العباس قيل كان من بني اسرائيل وقيل من ابنا الملوك
الذين تزهدوا وتركوا الدنيا والخضر لقب سمي بذلك لانه جلس على فروة بيضا فاذا
هي تهتز تحته خضرا الفروة قطعة نبات مجتمعة يابسة وقيل سمي خضرا لانه اذا صلى

اخضر ما حوله روي ان موسى عليه السلام راى الخضر مسجى ثوبا فسلم عليه فقال الخضر واني
بارضك السلام قال انا موسى اتيتك تعلمني مما علمت رشدا وفي رواية لقيه مسجى بثوب
مستلقيا على قفاه بعض الثوب تحت راسه وبعضه تحت رجله وفي رواية لقيه وهو يصلي
ويروى لقيه على طنفسة خضراء على كبد البحر فقال موسى ما عرفك هذا وروي ان موسى عليه
السلام لما وصل اليه قال السلام عليك فقال وعليك السلام يا بني بني اسرائيل فقال موسى
ما عرفك هذا فقال الذي بعثك الي وكان الخضر في ايام افريدون وكان على مقدمة ذي
القرنين الاكبر وبقي الى ايام موسى وقيل ان موسى سال ربه اي عبادك احب اليك قال الذي
يذكرني ولا ينساني قال فاي عبادك اقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى فقال
فاي عبادك اعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى ان يصيب كلمة تدله على هدى
او ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك اعلم مني فادللني عليه قال اعلم منك الخضر قال
اين اطلبه قال على الساحل عند الصخرة قال كيف لي به قال تاخذ حوتا في مكتل فحيث
فقدته فهو هناك **آتيناه** بعظمتنا **رحمة من عندنا** اي وحيا ونبوة وكونه نبيا هو قول
الجمهور وقيل انه ليس بنبي قال البغوي عند اكثر اهل العلم اي فعندهم انه ولي **وعلمناه**
من لدنا اي مما لم يجر على قوانين العادات غير انه ليس بمستغرب عند اهل الاصطفا
علما قد تمناه في قلبه بغير واسطة واهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة
العلم اللدني فاذا سعى العبد في الرياضات بتزيين الظاهر بالعبادات وتخلي
النفس عن الاخلاق الرذيلة بتحليها بالاخلاق الجميلة صارت القوى الحسية
والخيالية ضعيفة فاذا ضعفت قويت القوى العقلية واشرقت الانوار الالهية
في جوهرة العقل وحصلت المعارف وكملت العلوم من غير واسطة سعي وطلب في
التفكر والتامل وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية ثم اورد سبحانه وتعالى القصة على
طريق الاستيناف على تقدير سوال سائل عن كل كلام يرشد اليه ما قبله وذلك انه
من المعلوم ان الطالب للشخص اذا لقيه كلمه لكن لا يعرف عين ذلك الكلام فقال لمن
كانه سال عن ذلك **قال له موسى** طالبا منه على سبيل التادب والتلطف باظهار
ذلك في قالب الاستيذان **هل اتبعك** اي اتباعا بليغا حيث توجهت والاتباع
الاتيان بمثل فعل الغير لمجرد كونه اتيا به وبين انه لا يطلب منه غير العلم بقوله
على ان تعلمني اثبت اليا نافع وابو عمرو وصلا لا وقفا وابن كثير وصلا ووقفا والباقون
بالحذف وزاد في التعطف بالاشارة الى انه لا يطلب جميع ما عنده ليطول عليه الزمان
بل جوامع منه يسترشد بها الى باقيه فقال **مما علمت** وبناه للمفعول لعلم المتخاطبين
لكونهما من المخلص بان الفاعل هو الله تعالى وللاشارة الى سهولة كل امر الى الله تعالى
رشدا اي علما يرشدني الى الصواب فيما اقصده وقرا ابو عمرو بفتح الراء والشين
والباقون بضم الراء وسكون الشين ولما اتم موسى عليه السلام العبارة عن السوال
قال له الخضر عليه السلام **انك** يا موسى **لن تستطيع معي صبرا** نفى عنه استطاعة الصبر
معه على وجوه من التاكيد كانها لا تصح ولا تستقيم وفتح اليا من معي صبرا في المواضع
الثلاثة هنا حفص وسكنها الباقون ثم علل عدم الصبر معه واعتذر عنه بقوله
وكيف تصبر يا موسى **على ما لم تحط به خبرا** اي وكيف تصبر على امور وانت نبي ظاهرها

مناكير

منكرو الرجل الصالح لانه لم ير انه يصبر اذا رأى ذلك بل يبادر ويأخذ في الانكار وخبرا مصدر اي
لم تحط اي لم تخبر خبرة تقول علم موسى عليه السلام انه نبي بانه يتواضع لمن هو اعلم منه
ارشادا الى ما ينبغي في طلب العلم رجاء ان يسهل الله له والنفع به ستجدني فلك الوعد باللسان
ثم اخبر تعالى انه قوى تأكيده بالترك بذكر الله تعالى لعلمه بصعوبة الامر على الوجه الذي
تقدم الحث عليه في هذه السورة في قوله تعالى ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غدا الا ان يشاء
الله لعلم انه منهج الانبياء فقال ان شاء الله اي الذي له صفات الكمال صابرا على ما
يجوز الصبر عليه ثم زاد التأكيد بقوله ولا اعصي عطفا بالواو على صابرا ليبيان التمكن في كل من الوصفين
ولا اعصي اي وغير عاص لك أمرا نأمرني به غير مخالف لظاهر امر الله تثبت به ذلك
هذه الآية الكريمة على ان موسى عليه السلام راعى انواعا كثيرة من الادب واللطف عند
ما اراد ان يتعلم من الخضر منها انه جعل نفسه تبعا له بقوله هل اتبعك ومنها انه استأذن
في اتباعه هذه التبعية كأنه قال هل تأذن لي ان اجعل نفسي تبعا لك وهذه مبالغة
عظيمة في التواضع ومنها قوله على ان تعلمني وهذا اقرار منه بجهله وعلى استاذه
بالعلم ومنها قوله مما علمت وصيغة من للتبعيض وطلب منه تعليم بعض ما علم وهذا
ايضا اقرار بالتواضع لانه يقول لا اطلب منك ان تجعلني مساويا لك في العلم بل اطلب
منك ان تعطيني جزءا من اجزاء ما علمت ومنها ان قوله مما علمت اعتراف منه بان الله تعالى
علمه ذلك العلم ومنها قوله رشدا طلب منه الارشاد والهداية ومنها قوله ستجدني
ان شاء الله صابرا ولا اعصي لك امرا ومنها انه ثبت بالاخبار ان الخضر عرف ولا ان موسى
صاحب التوراة وهو الرجل الذي كلمه الله تعالى من غير واسطة وخصه بالمعجزات
القاهرة الباهرة ثم انه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية
الشريفة اتى بهذه الانواع الكثيرة من التواضع وذلك يدل على كونه عليه السلام آتيا
في طلب العلم باعظم ابواب المبالغة في التواضع وهذا هو اللائق به لان كل من كانت
احاطته بالعلوم التي علم انها من الهيبة والسعادة اكثر كان طلبه لها اشد فكان تعظيمه
لارباب العلم اكمل واتم وكل ذلك يدل على ان الواجب على المتعلم اظهار التواضع بكل
الغايات واما المعلم فانه يرى ان له التغليظ على المتعلم ما يفيد نفعا وارشادا
الى الخير فالواجب عليه ذكره فان السكوت عنه يوقع المتعلم في الغرور وذلك ينفر من التعلم
وروي ان موسى لما قال هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا قال له الخضر انك لن تطيق معي
صبرا وبنو اسرائيل يستفتونك فقال لموسى الله امرني بهذا قال له الخضر فان اتبعتني
اي صحبتني ولم يقل اتبعني ولكن جعل الاختيار اليه الا انه شرط عليه شرطا فقال
فلا تسألني عن شيء افعله حتى احدث لك منه ذكرا اي حتى ابدأ لك بوجه
صوابه فاني لا اقدم على شيء الا وهو صواب جاز في نفس الامر وان كان ظاهره غير
ذلك فقبل موسى شرطه رعاية لادب المتعلم من التعالم والتشارط والتراضي على
الشرط مشبه عن ذلك بقوله تعالى فانطلقا اي موسى والخضر عليهما السلام على الساحل
فانتهيا الى موضع احتاجا فيه الى ركوب السفينة فما راعا الا وقد مرت بهما سفينة
بركبان فيها واستمر احدهما راكبا في السفينة التي مرت بهما واجاب الشرط بقوله
خرقها اي اخذ الخضر فاسا فخرق السفينة بان قلع لوحا او لوحين من الواجهها

من جهة البحر لما بلغت اللجة ولم يقترن خرق بالفا لانه لم يكن مسببا عن الركوب ثم
استانف قوله قال اي موسى عليه السلام منكرا لذلك لما في ظاهره من الفساد باتلاف المال
المفضي الى فساد اكبر منه باهلاك النفوس ناسيا لما عقد على نفسه على انه لو لم ينس لم يترك
الانكار كما فعل عند قتل الغلام لان مثل ذلك غير داخل في الوعد لان المستثنى شرعا كالمستثنى
وضعا اخرقتها وبين عذره في الانكار لما في غاية الخرق من الفظاعة فقال لتغرق اهلها
فان خرقها سبب لدخول الما فيها المفضي الى غرق اهلها وقرا حمزة والكسائي بالياء التحتية
مفتوحة وفتح الراء ورفع اللام من اهلها والباقون بالتاء الفوقية مضمومة وكسر الراء
ونصب لام اهلها ثم قال له موسى والله لقد جئت شيئا امرا اي عظيما منكرا قال الخضر
الم اقل انك يا موسى لن تستطيع معي صبرا فذكره بما قال له عند الشرط قال موسى لا تؤاخذني
يا خضر بما نسيت اي غفلت عن التسليم لك وترك الانكار عليك قال ابن عباس انه لم ينس
ولكنه من معاريض الكلام اي وهي التورية بالشي عن الشي وفي المثل ان في المعاريض
لمندوحة عن الكذب اي سعة فكانه نسي شيئا اخر وقيل معناه بما تركت في عهدك
والنسيان الترك وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كانت الاولى من موسى
نسيانا والوسطى شرطا والثالثة عمدا ولا ترهقني من امري عسرا اي لا تكلفني مشقة
يقال ارهقه عسرا وارهقته عسرا اي كلفته ذلك تقول لا تضيق علي امري
ولا تعسر متابعتك علي ويسرها علي بالاغضا وترك المناقشة وعاملني باليسر ولا
تعاملني بالعسر وعسرا مفعول ثان لترهقني من ارهقه كذا اذا حمله اياه وغشاه
به وما في بما نسيت مصدرية او بمعنى الذي والعائد محذوف وروي ان الخضر لما
خرق السفينة لم يدخلها الما وروي ان موسى لما راى ذلك اخذ ثوبه فحشى به الخرق
وروي ان الخضر اخذ قدحا من زجاج ورقع به خرق السفينة فان قيل قول موسى عليه
السلام اخرقتها لتغرق اهلها ان كان صادقا في هذا دل ذلك على صدور ذنب عظيم
من الخضر ان كان نبيا وان كان كاذبا دل ذلك على صدور الذنب من موسى وايضا قد
التزم موسى ان لا يعترض عليه وجرت العهود المذكورة بذلك ثم انه خالف تلك العهود
وذلك ذنب اجيب بان كلا منهما صادق فيما قال موف بحسب ما عنده اما موسى عليه
السلام فانه ما خطر له قط ان يعاهد على ان لا ينهى عما يعتقده منكرا واما الخضر فانه
عقد على ما في نفس الامر ان لا يقدم على منكر فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما
من الغرق والغصب حتى اذا اتيا غلاما قال ابن عباس لم يبلغ الحنث فقتله حين لقيه
كما دلت عليه الفا العاطفة على الشرط قال البغوي في القصة انهما خرجا من البحر يمشيان
فمرا بغلمان يلعبون فاخذ غلاما ظريفا وضيئ الوجه فاضجعه ثم ذبحه بالسكين قال
السدي كان احسنهم وجها كان وجهه يتوقد حسنا قال البغوي وروينا انه اخذ براسه
فاقتلعه بيده وروى عبد الرزاق هذا الخبر واشار باصابعه الثلاث الابهام
والسبابة والوسطى وقلع راسه وروي انه رضخ راسه بالحجارة وقيل ضرب راسه
بالجدار فقتله وكونه لم يبلغ الحنث هو قول الاكثرين وقال الحسن كان رجلا قال
شعيب الجبائي وكان اسمه جيسور وقال الكلبي كان فتى يقطع الطريق وياخذ المتاع ويلتجا
الى ابويه وقال الضحاك كان غلاما يعمل بالفساد وتاذى منه ابواه وعن ابي بن كعب قال قال

رسول

التاسع والاربعون
وهو تمام النصف الاول
من تفسير الامام العالم
العلامة الشيخ محمد
الشربيني الخطيب
نفعنا الله والمسلمين
به وببركته في
الدنيا والاخرة
امين

رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الغلام الذي قتله الخضر طبع كافرا ولو عاش لارهق ابويه
طغيانا وكفرا قال الرازي وليس في القران كيف لقياه هل كان يلعب مع جمع من الغلمان
او كان منفردا وهل كان مسلما او كافرا وهل كان بالغا او صغيرا وكان اسم الغلام بالصغير
اليق وان احتمل الكبر الا ان قوله بغير نفس اليق بالبالغ منه بالصبي لان الصبي لا يقتل وان قتل
قال البقاعي الا ان يكون شرعهم لا يشترط البلوغ وقال ابن عباس ولم يكن نبي الله يقول
اقتلت نفسا بغير نفس الا وهو صبي لم يبلغ قال الرازي ايضا وكيفية قتله هل قتله
بان حز راسه او بان ضرب راسه بالجدار او بطريق اخر فليس في القران ما يدل على شيء من
هذه الاقسام انتهى ثم اجاب الشرط بقوله مشعرا بان شروعه في الانكار في هذه اسرع
قال موسى اقتلت يا خضر نفسا زاكية بغير نفس قتلتها لتكون قتلها لها قودا وقرا
نافع وابن كثير وابو عمرو بالف بعد الزاي وتخفيف اليا التحتية والباقون بغير الف بعد
الزاي وتشديد التحتية قال الكسائي الزاكية والزكية لغتان ومعنى هذا الطهارة
وقال ابو عمرو الزاكية التي لم تذنب والزكية التي اذنبت ثم تابت ثم استانف قوله
لقد اظهر الدال نافع وابن كثير وابن ذكوان وعاصم وادغمها الباقون جئت في قتلك
اياها شيئا وصرح بالانكار في قوله نكرا لانه مباشرة والخرق سبب ولهذا قال بعضهم
النكر اعظم من الامر في القبح لان قتل الغلام اعظم من خرق السفينة لانه يمكن ان لا
يحصل الغرق واما هنا فقد حصل الاتلاف قطعا والنكر ما انكرته العقول
ونفرت منه النفوس فهو ابلغ في القبح من الامر وقيل الامر اعظم لان خرق السفينة
يودي الى اتلاف نفوس كثيرة وهذا القتل ليس الا اتلاف شخص واحد وقرا نافع وابن ذكوان
وشعبة برفع الكاف والباقون بسكونها ولما كانت هذه ثانية قال له الخضر الم اقل
وزاد قوله لك انك يا موسى لن تستطيع معي صبرا وهذا عين ما ذكره في المسئلة الاولى
الا انه ههنا زاد لفظة لك فان قيل لم زادها هنا اجيب بانه زادها مكافحة بالعقاب
على رفض الوصية ووسما بقلة الصبر والثبات لما تكرر منه الاشمئزاز والاستكبار
ولم يرعو بالتذكير اول مرة قال ابن الاثير المكافحة المدافعة والمضاربة والاشمئزاز
من اشمأز الرجل اي انقبض قلبه قال البغوي وفي القصة ان يوشع كان يقول لموسى
يا نبي الله اذكر العهد الذي انت عليه قال موسى حيا منه لما افاق بتذكره ما حصل
من فرط الوجد لامر الله فذكر انه ما تبعه الا بامر الله ان سالتك عن شيء بعدها
اي بعد هذه المدة واعلم بشدة ندمه على الانكار بقوله فلا تصاحبني اي لا تتركني
اتبعك بل فارقني ثم علل ذلك بقوله قد بلغت واشار الى ما وقع منه من الاخلال
بالشرط من اعظم الخوارق التي اضطر اليها فقال من لدني اي من قبلي عذرا باعتراضي
مرتين واحتمالك لي فيهما وقد اخبرني الله بحسن حالك في غزارة علمك وقرا نافع بضم
الدال وتخفيف النون وقرا شعبة كذلك الا انه بضم الدال فتصير ساكنة قريبة
من الضم والباقون بضم الدال وتشديد النون فانطلقا اي موسى والخضر يمشيان لينظر
الخضر امرا ينفذ فيه ما عنده من علمه وورش يغلظ اللام في لفظ انطلقا على اصله
بعد قتل الغلام حتى اذا اتيا اهل قرية قال ابن عباس هي انطاكية وقال ابن
سيرين هي الايلة وهي ابعد ارض الله من السما وعبر عنها بالقرية دون المدينة

BULAC

لانه ادل على اللؤم وقيل برقد وعن ابي هريرة بلدة بالاندلس **استطعما اهلها** اي طلبا من اهل القرية ان يطعموهما وفي الحديث انهما كانا يمشيان على ساحل البحر ولكن القوم يستطعمهم **فابوا ان يضيفوهما** اي ان ينزلوهما ويطعموهما يقال ضافه اذا كان له ضيفا وحقيقته مال اليه من ضاف السهم عن الغرض وضيفه واضافه انزله وجعله ضيفا فان قيل الاستطعام ليس من عادة الكرام وكيف قدم عليه موسى والخضر وقد حكى الله تعالى عن موسى انه قال عند ورود ماء مدين رب اني لما انزلت الي من خير فقير اجيب بان الاقدام الجميع على الاستطعام امر مباح في كل الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد فان قيل لم قال حتى اذا اتيا اهل قرية استطعما اهلها ولم يقل استطعماهم اجيب بان التكرير قد يكون للتاكيد كقول الشاعر

ليبك الغراب عداة بيعت دالية ... كان الغراب مقطع الاوداج

وعن قتادة شر القرى التي لا تضيف الضيف فابرة قال الرازي وفي كتب الحكايات ان اهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه الاية استحيوا وجاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمال من الذهب وقالوا يا رسول الله حبسنا كان بهذا الذهب ان نجعل البانا حتى تضمر الغزاة هذا ما نوا ان يضيفوهما اي اتيناهم لاجل الضيافة حتى يندفع عنا هذا اللوم فما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لتغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله وذلك يوجب القدح في الالهية فعلمنا ان تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية ولما ابوا ان يضيفوهما انصرفا **فوجدا فيها** اي القرية ولم يقل فيهم اذ انا بان المراد وصف القرية بسوء الطبع **جدارا** اي حائطا مائلا مشرفا على السقوط ولذا قال **يريد** استعير لما لا يعقل صفة من يعقل **يريد ان ينقض** اي يسقط وهذا من مجاز كلام العرب لان الجدار لا ارادة له وانما معناه قرب ودنا من السقوط كما تقول العرب دار تنظر الى دار فلان اذا كانت تقابلها فاستعير الارادة للمشارفة كما استعير لها الهم والعزم في قوله **يريد الرمح صدر ابي براء** وتعدل عن مائل الى عقل وقوله **ان هما** بلغ قصد صدري بجمل الزمان بهم بالاحسان وفي البيت الاول دليل استعارة الارادة للمشارفة وفي الثاني دليل استعارة الهم لها وجمل اسم محبوبته يقول ان هما جمع بيني وبينها زمان قصده الاحسان لا الاساءة ونظير ذلك من القرآن قوله تعالى ولما سكت عن موسى الغضب وقوله تعالى ان يقول له كن فيكون وقوله تعالى قالتا اتينا طائعين قال الزمخشري ولقد بلغني ان بعض المحرفين من الكلام الله عن لا يعلم كان يجعل الضمير للمحراب وقيل ان الله تعالى خلق للجدار حياة وارادة كالحيوانات **فاقامه** اي سواه وفي حديث ابي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال الخضر بيده هكذا فاقامه وقال ابن عباس هدمه وقعد يبنيه وقال سعيد بن جبير مسح الجدار بيده فاستقام وذاك من معجزاته وقال السدي بل طينا وجعل يبني الحائط فنشوذ لك على موسى عليه السلام فان قيل الضيافة من المندوبات فتركها لا يقدح وبفرض ذلك عن منكر فكيف يجوز من موسى عليه السلام مع علو منصبه انه غضب عليهم الغضب الشديد الذي لاجله ترك العهد الذي التزمه في قوله ان سالتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني وايضا مثل الغضب لاجل ترك الاكل ليلة واحدة لا يليق بادون الناس فضلا عن كليم الله اجيب بان تلك

الحالة

الحالة كانت حالة افتقار واضطرار الى الطعام فلاجل تلك الضرورة نسي موسى عليه السلام
ما قاله فلا جرم قال موسى لو شئت لتخذت عليه اجرا اي لطلبت على عملك اجرة تصرفها
في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمات وقرا ابن كثير وابو عمرو بتخفيف التا بعد
اللام وكسر الخا واظهر ابن كثير الذال عند التا على اصلها وادغمها ابو عمرو والباقون بتشديد
التا وفتح الخا واظهر حفص الذال على اصله وادغمها الباقون ولما كان كلام موسى هذا
متضمنا للسوال قال له الخضر هذا اي هذا الانكار على ترك الاجر فراق بيني وبينك وقيل
ان موسى عليه السلام لما شرط انه ان سأله بعد ذلك سؤالا اخر حصل الفراق حيث قال
ان سألتك عن شي بعدها فلا تصاحبني فلما ذكر هذا السوال فارقه وهذا فراق بيني
وبينك اي هذا الفراق الموعود فان قيل كيف ساغ اضافة بين الى غير متعدد اجيب
بان مسوغ ذلك تكريره بالعطف بالواو الا ترى انك لو اقتصرت على قولك المال بيني لم يكن
كلاما حتى تقول بيننا او بيني وبين فلان ثم قال له الخضر سانبئك اي ساخبرك يا موسى قبل
فراقي لك بتاويل اي بترجيع ما لم تستطع عليه صبرا لان هذه المسائل الثلاثة مشتركة
في شي واحد وهو ان احكام الانبيا عليهم الصلاة والسلام مبنية على الظواهر كما قال صلى
الله عليه وسلم نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر والخضر ما كانت اموره واحكامه مبنية
على ظواهر الامور بل كانت مبنية على الاسباب الخفية الواقعة في نفس الامر وذلك لان
الظاهر في اموال الناس وفي ارواحهم انه يحرم التصرف فيها والخضر يصرف في اموال الناس
وفي ارواحهم في المسئلة الاولى وفي الثانية من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف فلان الاقدام
على خرق السفينة وقتل الانسان من غير سبب ظاهر يبيح ذلك التصرف محرم والاقدام على اقامة
ذلك الجدار المائل في المسئلة الثالثة تحمل للتعب والمشقة من غير سبب ظاهر ثم اخذ
الخضر في تاويل ذلك مبتدا بالمسئلة الاولى بقوله اما السفينة اي التي احسن الينا اهلها
فخرقتها فكانت لمساكين عشر اخوة خمسة زمنى وخمسة يعملون في البحر اي
يواجرون ويكتسبون واحتج الشافعي رضي الله عنه بهذه الاية على ان حال الفقير
في الحاجة والضرر اشد من حال المسكين لان الله تعالى سماهم مساكين مع انهم كانوا يملكون
تلك السفينة فاردت ان اعيبها اي اجعلها ذات عيب بان تفوت منفعتها بذلك ساعة
من نهار وتكلف اهلها لوحا او لوحين يسدونها بذلك اخف عليهم من تفويتهم منفعتها
بالكلية كما يعلم من قوله وكان وراءهم اي امامهم كقوله تعالى ومن ورائهم برزخ
وقيل خلفهم وكان طريقهم في رجوعهم عليه ملك كان كافرا واسمه الخليدي وقال
محمد بن اسحاق اسمه سولة بن خليد الازدي وقيل اسمه هدد بن بدد ياخذ كل سفينة
اي صالحة وحذف التقييد بذلك للعلم به غصبا من اصحابها ولم يكن عند اصحابها
علم به فاذا مرت به تركها لعيبها فاذا جاوزوه اصلحوها فانتفعوا بها قيل
سدوها بقارورة وقيل بالقار فان قيل قوله تعالى فاردت ان اعيبها مسبب
عن خوف الغصب عليها فكان حقه ان يتاخر عن السبب فلم قدم عليه اجيب
بان النية به التاخير وانما قدم للعناية ولان خوف الغصب ليس هو السبب
وحده ولكن مع كونها للمساكين فلما كان كل من الغصب والمسكنة سببا لفعله قدمها
على الغصب اشارة الى ان اقوى السببين الحاملين على فعله الرافة بالمساكين

ثم شرع في تاويل المسئلة الثانية بقوله وأما الغلام أي الذي قتلته فكان أبواه مؤمنين
التثنية للتغليب يريد اباه وامه فغلب المذكر وهو شايع ومثله القمران قيل
ان ذلك الغلام كان بالغا وكان يقطع الطريق ويقدم على الافعال المنكرة وكان ابواه
يحتاجان الى دفع شر الناس عنه والتعصب له وتكذيب من يرميه بشيء من المنكرات
وكان يصير سببا لوقوعهما في الفسق وربما قاد ذلك الفسق الى الكفر وقيل انه كان صبيا
الا انه علم منه انه لو صار بالغا لحصلت فيه هذه المفاسد وفي الحديث انه طبع
كافرا ولو عاش لارهقهما ذلك كما قال فخشينا أي خفنا والخشية خوف يشوبه تعظيم
أن يرهقهما أي يغشيهما ويلحقهما طغيانا وكفرا أي لمحبتهما له يتبعانه في ذلك فان قيل
هل يجوز الاقدام على قتل الانسان بمثل ذلك اجيب بانه اذا تاكد ذلك بوحي من الله تعالى
جاز وعن ابن عباس ان نجدة الحروري كتب اليه كيف قتله اي كيف قتل الخضر الغلام
وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان فكتب اليه ان علمت من حال الولدان ما علمه
عالم موسى فلك ان تقتل رواه بمعناه مسلم ولما ذكر ما يلزم على تقدير بقائه من الفساد
سبب عنه قوله فأردنا أي بقتله واراحتهما من شره أن يبدلهما ربهما أي المحسن اليهما
باعطائه واخذه قال مطرف فرح به ابواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو بقي كان فيه
هلاكهما فليرض كل امرئ بقضاء الله تعالى فان قضاء الله تعالى للمؤمن فيما يكره خير له
من قضائه فيما يحب ولهذا ابدلهما الله تعالى خيرا منه زكاة أي طهارة وبركة من الذنوب
والاخلاق الردية وصلاحا وتقوى وأقرب رحما أي رحمة وعطفا عليهما وقيل هو من الرحم
والقرابة قال قتادة اي اوصل للرحم وابر بوالديه قال الكلبي ابدلهما الله تعالى جارية
فتزوجها نبي من الانبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه امة من الامم
وعن جعفر بن محمد عن ابيه قال ابدلهما جارية ولدت سبعين نبيا وقال ابن جريج ابدلهما
بغلام مسلم وقرا نافع وابو عمرو ان يبدلهما بفتح الباء الموحدة وتشديد الدال والباقون
بسكون الموحدة وتخفيف الدال وقرا ابن عامر رحما برفع الحاء والباقون بالسكون ثم شرع
في تاويل المسالة الثالثة بقوله وأما الجدار أي الذي اشترت باخذ الاجر عليه فكان
لغلامين ودل على كونهما دون البلوغ بقوله يتيمين وكان اسم احدهما اصرم والاخر
صريم ولما كانت القرية لا تنافي التسمية بالمدينة وكان التعبير بالقرية اولا اليق
عبر بها لانها مشتقة من معنى الجمع فكان اليق بالذم في ترك الضيافة ولما كانت
المدينة بمعنى الاقامة عبر بها فقال في المدينة فكان التفسير بها اليق للاشارة به
الى ان الناس يقيمون فيهم الجدار وهم مقيمون فياخذون الكنز كما قال وكان
تحته كنز لهما فلذلك اقمته احتسابا واختلف في ذلك الكنز فعن ابي الدرداء
ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كان ذهبا وفضة رواه البخاري في تاريخه
والترمذي والحاكم وصححه والذم على كنزهما في قوله تعالى والذين يكنزون الذهب
والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما وما تعلق بهما من الحقوق وعن سعيد بن جبير
قال كان الكنز صحفا فيها علم رواه الحاكم وصححه وعن ابن عباس قال كان لوحا
من ذهب مكتوبا فيه عجبا لمن ايقن بالموت كيف يفرح عجبا لمن ايقن بالقدر
كيف يغضب عجبا لمن ايقن بالرزق كيف يتعب عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل عجبا لمن

كيف

ايقن

اتقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها لا اله الا الله محمد رسول الله
وفي الجانب الآخر مكتوب انا الله لا اله الا انا وحدي لا شريك لي خلقت الخير والشر
فطوبى لمن خلقته للخير واجريته على يديه والويل كل الويل لمن خلقته للشر واجريته
على يديه قال البغوي وهذا قول اكثر اهل التفسير وروي ايضا ذلك مرفوعا
قال الزجاج الكنز اذا اطلق تصرف الى كنز المال ويجوز عند التقييد ان يقال علم وكنز
علم هذا اللوح كان زجاجا مقالها وقيل وكان ابوهما صالحا منه تنبيه على ان السعادة
في ذلك كان لصلاحه فيراعاونزاعي ذريته وكان سباحا واسمه كاسح قال ابن عباس
حفظا بصلاح ابيهما وقيل كان بينهما وبين الاب الصالح سبعة اباء قال محمد بن
المنكدر ان الله تعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته واهل
دويرات حوله فما زالوا في حفظ الله ما دام فيهم قال سعيد بن المسيب اني اصلي فاذكر
ولدي فازيد في صلاتي وعن الحسن انه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما حفظ الله
الغلامين فالله بصلاح ابيهما قال فابي وجدي خير منه قال فقد انبأنا الله انكم قوم خصمون
وذكروا ايضا ان ذلك الاب الصالح كان من الذين يضع الناس الودايع عنده فيردها
اليهم فاراد ربك ان يبلغا اي الغلامان اشدهما اي الحلم وكمال الراي ويستخرجا
كنزهما لينتفعا به وينتفع الصالحين بتنبيه استدلال الارادة في قوله فاردت ان اعيبها
الى نفسه لانه المباشر للتعييب وثانيا في قوله فاردنا الى الله والى نفسه لان التبديل
باهلاك الغلام وايجاد الله تعالى بدله وثالثا في قوله فاراد ربك الى الله وحده
لانه لا مدخل له في بلوغ الغلامين ولان الاول نفسه شر والثالث خير والثاني
ممتزج وانه لما ذكر العيب اضافه الى الارادة تنفيرا ولما ذكر القتل عبر عن نفسه
بلفظ الجمع تنبيها على انه من العظائم في علوم الحكمة فلم يقدم على هذا القتل الا لحكمة عالية
ولما ذكر رحمة مصالح اليتيمين لاجل صلاح ابيهما اضافه الى الله تعالى لان المتكفل بصلاح
الاشياء حقيقة ورعاية حق الاباليس الا الله تعالى ولا اختلاف حال العارف في الالتفات الى الوسايط
فانقيل اليتيمان هل احد منهم عرف حصول الكنز تحت ذلك الجدار ام لا فان كان الاول
امتنع ان يتركوا سقوط ذلك الجدار وان كان الثاني فكيف يمكنهم بعد البلوغ استخراج
ذلك الكنز ومعرفته والانتفاع به واجيب بلعلهما كانا جاهلين بذلك الا انه وصيهما كان
عالما به لان ذلك الوصي غاب واشرف ذلك الجدار على السقوط فلما قرر الخضر
هذه الجوابات قال رحمة من ربك اي انما فعلت هذه الافعال لغرض ان تظهر رحمة
الله لانها باسرها ترجع الى حرف واحد وهو تحمل الضرر الادنى لدفع الضرر الاعلى كما تقرر
وما فعلته اي سياسة ذلك عن امري اي عن اجتهادي ورايي بل عن امر من له الامر وهو
الله تعالى تنبيه احتج من زعم بنبوة الخضر بامور احدها قوله تعالى انبناه رحمة من
عندنا والرحمة هي النبوة قال تعالى وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك
والمراد من هذه الرحمة النبوة قال الرازي ويقابل ان يقول نسلم ان النبوة رحمة
ولكن لا يلزم ان يكون كل رحمة نبوة الثاني قوله تعالى وعلمناه من لدنا علما وهذا
يقتضي ان الله تعالى علمه بلا واسطة تعليم معلم ولا ارشاد مرشد وكل من علمه الله
تعالى لا بواسطة البشر وجب ان يكون نبيا يعلم الامور بالوحي من الله تعالى قال الرازي

وهذا الاسناد لا يصح لان العلوم الضرورية تحصل لكل احد من عند الله وذلك لا يدل على النبوة
الثالث ان موسى عليه السلام قال هل اتبعك على ان تعلمني مما علمت رشدا والنبي لا يتبع غير نبي
في التعلم قال الرازي وهذا ايضا ضعيف لان النبي لا يتبع غير نبي في العلوم التي هو
باعتبارها صار نبيا اما غير تلك العلوم فلا الرابع انه اظهر على موسى التواضع حيث
قال وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا واما موسى فانه اظهر له التواضع حيث قال
ولا اعصي لك امرا وهذا يدل على انه كان فوق موسى ومن لا يكون نبيا لا يكون فوق
نبي قال الرازي وهذا ايضا ضعيف لانه يجوز ان يكون غير النبي فوق النبي في علوم لا تتوقف
نبوته عليها الخامس قوله وما فعلته عن امري وفي المعنى ان فعلته بوحي من الله
وهذا يدل على النبوة قال الرازي وهذا ايضا ضعيف ظاهر السادس ما روي ان
موسى عليه السلام لما وصل اليه قال السلام عليك قال وعليك السلام يا نبي بني اسرائيل
فقال موسى من عرفك هذا قال الذي يعتك بالحق الي وهذا يدل على انه انما عرف ذلك
بالوحي والوحي لا يكون الا مع النبوة قال الرازي ولقائل ان يقول لم لا يجوز ان يكون
ذلك من باب الكرامات والالهامات انتهى والجملة فالجمهور على انه نبي كما مر واختلفوا
هل يوحى اوميت فنقل ان الخضر والياس حيان يلتقيان كل سنة بالموسم قال البغوي
وكان سبب حياته فيما يحكى انه شرب من عين الحياة وذاك ان ذا القرنين داخل الظلمة
ليطلب عين الحياة وكان الخضر على مقدمته فوقع الخضر على العين فنزل فاغتسل
وشرب شكر الله تعالى واحتاط والقرنين الطريق وذهب اخرون الى انه ميت لقوله
تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد وقال النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء الاخرة
ارايتكم ليلتكم هذه فانه على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الارض احد ولو كان
الخضر حيا لكان لا يعيش بعده ولما بين لموسى سر تلك القضايا قال له ذلك اي هذا
التاويل العظيم تأويل ما لم تستطع يا موسى عليه صبرا وحذفنا الاستطاعة هنا
تخفيفا فان استطاع واستطاع بمعنى واحد تنبيه من فوائد هذه القصة ان لا يحب
المرء تعلم ولا يبادر الى انكار ما لا يستحسنه فلعل فيه سرا لا يعرفه وان يداوم على التعلم
وينزل للمعلم ويراعي الادب في المقال وان يتبع الحزم على خرق ويعفو عنه حتى
يتحقق اصراره ثم يهاجر روي ان موسى لما اراد ان يفارق الخضر قال له اوصني قال
لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به ولما فرغ من هذه القصة التي خاصلها
ان طوافا في الارض لطلب العلم عقبها بقصة من طاف الارض لطلب الجهاد وقدم الاولى
اشارة الى علو درجة العلم لانه اساس كل سعادة وقوام كل امر فقال عاطفا على
ويجادل الذين كفروا بالباطل ويسألونك اي اليهود وقيل قريش كرامة يا اشرف الخلق
عن ذي القرنين وذكروا في سبب تسميته بذلك وجوها الاول قال ابو الطفيل
سئل علي رضي الله تعالى عنه عن ذي القرنين اكان نبيا ام ملكا قال لم يكن نبيا ولا ملكا
ولكن كان عبدا صالحا احب الله فاحبه الله تعالى وصلح له فسخر له السحاب فركبها
ومدت له الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء الثاني
مات ثم بعثه الله تعالى ثم امرهم بتقوى الله تعالى وضربوه على قرنه الايمن
فمات ثم بعثه الله تعالى فسمي ذا القرنين فيكم مثله يعني نفسه الثالث انه تقرض في وقته
قرنان من الناس الثالث انه كان في صفحتي راسه من نحاس الرابع كان على راسه

ما يشبه القرنين الخامس كان لتاجه قرنان السادس انه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها
السابع كان له قرنان اي ظفيرتان الثامن ان الله تعالى سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهدي
النور من امامه وتمتد الظلمة من ورائه التاسع انه لقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع
كبشا لانه ينطح اقرانه العاشر انه راى في المنام كانه صعد الفلك وتعلق نظر في الشمس
وقرنيها اي جانبيها فسمي بذلك لهذا السبب الحادي عشر انه كان له قرنان تواريهما العمامة
الثاني عشر انه دخل النور والظلمة وذكروا في اسمه ايضا وجوها الاول اسمه مرزبان
ابن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح الثاني اسمه الاسكندر بن
فيلقوس الرومي اشتهر في كتب التواريخ انه بلغ ملكه اقصى المشرق والمغرب وامعن
حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر وبنى الاسكندرية وسماها باسم نفسه الثالث
شمر بن عمير بن افريقيس الحميري وهو الذي بلغ ملكه مشارق الارض ومغاربها وافتخر به
احد الشعراء من حمير حيث قال

قد كان ذا القرنين قبلي مسلما ... ملكا على الارض غير مفسد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي ... اسباب ملك من كريم سيد

واختلفوا في نبوته مع الاتفاق على ايمانه فقال بعضهم كان نبيا واحتجوا على ذلك
بوجوه الاول قوله تعالى انا مكنا له في الارض وحمل على التمكين في الدنيا والتمكين الكامل
في الدين هو النبوة الثاني قوله تعالى واتيناه من كل شيء سببا وهذا يدل على انه تعالى
اتاه من النبوة سببا الثالث قوله تعالى يا ذا القرنين اما ان تعذب والذي يتكلم
الله معه لا بد ان يكون نبيا ومنهم من قال انه كان عبدا صالحا ملكه الله تعالى الارض
واعطاه الله تعالى الملك والحكمة والبسه الهيبة وقد قالوا ملك الارض مومنان
ذو القرنين وسليمان وكافران نمرود وبخت نصر وكان بعد نمرود ومنهم من قال انه كان
ملكا من الملائكة عن عمر رضي الله تعالى عنه انه سمع رجلا يقول يا ذا القرنين فقال
اللهم غفرا اما رضيتم ان تسموا باسماء الانبياء حتى تسميتم باسماء الملائكة والاكثر على
القول الثاني ويدل له قول علي رضي الله تعالى عنه المتقدم تنبيه قد قدمنا
ان اليهود امروا المشركين ان يسالوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة اصحاب الكهف
وعن قصة ذي القرنين وعن الروح والمراد من قوله تعالى ويسالونك عن ذي القرنين
هو ذلك السؤال ثم قال الله تعالى قل اي لهولاء المتعنتين سأتلوا اي اقص قصا
متتابعا في مستقبل الزمان ان اعلمني الله به عليكم ايها البعداء والضمير في قوله منه
لذي القرنين وقيل لله ذكرا اي خبرا كافيا لكم في تعرف امره جامعا لمجامع ذكره انا مكنا
له في الارض اي مكنا له امره من التصرف فيها مكنة يصل بها الى جميع مسالكها ويظهر
بها على سائر ملوكها واتيناه بعظمتنا من كل شيء يحتاج اليه في ذلك سببا اي وصلة
توصله اليه من العلم والقدرة والالة فاتبع سببا اي سلك طريقا نحو المغرب قال
البقاعي ولعله بدا به لان باب التوبة فيه وقرا نافع وابن كثير وابو عمرو اتبع
في المواضع الثلاثة بتشديد التاء الفوقية ووصل الهمزة قبل الفوقية والباقون بقطع
الهمزة وسكون التاء الفوقية واستمر متبعا له حتى اذا بلغ في ذلك المسير مغرب الشمس
اي موضع غروبها وجدها تغرب في عين حمئة اي ذات حماة وهي الطين الاسود اي بلغ

كانه

موضعا في الغرب لم يبق بعده شيء من العمران وجد الشمس كأنها تغرب في وهدة مظلمة وعروق في العين
رأى العين كما ان المبصر يرى الشمس كأنها تغرب في البحر اذا لم ير الشط وهي في الحقيقة تغيب
وراء البحر والا فهي اكبر من الأرض مرات كثيرة فكيف تغمل وغروبها في عين من عيون الارض قال
البيضاوي ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك اذ لم يكن في محطمح بصره غير الماء ولذلك قال وجدها
تغرب ولم يقل كانت تغرب وقرأ شعبة وحمزة والكسائي تأكف بعد الحاء بالف مفتوحة بعد الميم
عن ابن ذر قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فرأى الشمس حين غابت
فقال اتدري يا ابا ذر اين تغرب هذه قلت الله ورسوله اعلم قال فانها تغرب في عين
حامية وقرأ الباقون بغير الف بعد الحاء وبعد الميم همزة مفتوحة والقول بن عباس
كان عند معاوية فقرأ معاوية في حامية فقال بن عباس لمعاوية لعبد الله
ابن عمر كيف تقرأ قال كما تقرأ امير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار وسأله كيف تجد الشمس
تغرب قال في ماء وطين لذلك تجد في التوراة ووجد عندها اي عند تلك العين على الساحل
المتصل بها قوما اي امة قال بن جرير مدينتها اثنى عشر الف باب لما اضيحت اهلها
لسمعت وجبة الشمس حين تغيب اي تغرب فكان لباسهم جلود الوحش وطعامهم ما يلفظه
البحر وكانوا كفارا فخيره الله تعالى بين ان يعذبهم او يدعوهم الى الايمان كما حكى ذلك بقوله تعالى
قلنا يا ذا القرنين اما بواسطة الملك ان كان نبيا او بواسطة نبي زمانه ان لم يكن او واحيا
في شريعته اما ان تعذب بالقتل على كفرهم واما ان تتخذ اي بغاية جهدك فيهم حسنا بالارشاد
وتعليم الشرائع وفضل خيره بين القتل والاسر وسماه احسانا في مقابلة القتل ويريد
الاول قوله قال اما من ظلم باستمراره على الكفر فسوف نعذبه بوعد لا خلف فيه تغليظا طول الدعاء والترفق وقال
قتادة كان يطيح من كفر به القتل ومن لم يكفر به ترك في العذاب المنكر ثم يرد الى ربه في الاخرة فيعذبه
عذابا نكرا اي شديدا احد في النار وتقدم في نكرا سكونا للكاف وتشديدها وامن من آمن وعمل صالحا
تصديقا لما اخبر به من يصدقه فله في الدارين جزاء الحسنى
اي الجنة وقرأ حفص وحمزة والكسائي بفتح النون وتنوين الرفع على انه مبتدأ وبكسرها والوصل
لالتقاء الساكنين قال الفراء نصب صفته على التفسير اي الجهة الحسنة وقيل منصوبا على الحال
اي فله المثوبة الحسنى مجزيا بها والباقون بضم الهمزة من غير تنوين على الاضافة للبيان قال
المفسرون والمعنى على قراءة النصب فله الحسنى جزاء كما تقول لك هذا الثوب هبة وعلى قراءة
الرفع وجهان الاول فله جزاء الفعلة الحسنى والفعلة الحسنى هي الايمان والعمل الصالح
والثاني فله جزاء المثوبة الحسنى واضافة الموصوف الى الصفة مشهور كقوله ولدار
الاخرة وامال الفا الحسنى حمزة والكسائي بخلف وابو عمرو بين بين وورش بالفتح
والامالة بين بين وسنقول بوعد لا خلف فيه بعد اختياره بالاعمال الصالحة له
اي لاجله من امرنا اي ما امرنا به يسرا اي قولا غير شاق من الصلاة والزكاة
والخراج والجهاد وغيرها وهو ما يطيقه ولا يشق عليه مشتقة كيسرة ثم اتبع ارادة
طلوع مشرق الشمس سببا من جهة الجنوب يوصله الى المشرق واشتمل فيه لا يحول ولا تغلبه
امة من عليها حتى اذا بلغ في مسيره ذلك مطلع الشمس اي الموضع الذي تطلع عليه اولا من
المعمور من الارض ووجدها تطلع على قوم قال الجلال المحلي هم الزنج وقوله تعالى

لم نجعل لهم من دونها اي الشمس سترا فيه قولان الاول انه لا شيء لهم من سقف ولا جبل يمنع
من وقوع شعاع الشمس عليهم لان ارضهم لا تحمل بنا قال الرازي ولهم سروب يغيبون
فيها عند طلوع الشمس ويظهرون عند غروبها فيكونون عند طلوع الشمس يتعذر
عليهم التصرف في المعاش وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش وحالهم
بالضد من احوال سائر الخلق وقال قتادة يكونون في اسراب لهم حتى اذا زالت
الشمس عنهم خرجوا فترعوا كالبهائم والثاني ان معناه لا ثياب لهم ويكونوا
كسائر الحيوانات عراة ابدا في كتب الهيئة ان حال اكثر الزنج كذلك وحال كل من سكن
البلاد القريبة من خط الاستوا كذلك قال الكلبي هم عراة احدهم احدى اذنيه ويلتحف
بالاخرى وقال الزمخشري وعن بعضهم قال خرجت حتى جاوزت الصين فسالت
عن هولاء القوم فقيل بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم واذا احدهم يفرش احدى
اذنيه ويلبس الاخرى فلما قربت طلوع الشمس سمعت صوتا كهيئة الصلصلة فغشي علي
ثم افقت فلما طلعت الشمس فاذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فادخلوني سربا لهم
فلما ارتفع النهار جعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم وعن
مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس اكفر من جميع اهل الارض
وقوله تعالى كذلك فيه وجوه الاول ان معناه كما بلغ مغرب الشمس كذلك يبلغ مطلعها
الثاني ان امره كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة الملك قال البغوي والصحيح
ان معناه كما حكم في القوم الذين هم عند مغرب الشمس كذلك في القوم الذين هم عند
مطلعها وقد احطنا بما لديه اي عند ذي القرنين من الالات والجند وغيرهما خبرا
اي علما تعلق بظواهره وخفاياه والمعنى ان كثرة ذلك بلغت مبلغا لا يحيط به الا علم
اللطيف الخبير ثم ان ذي القرنين لما بلغ المغرب والمشرق اتبع سببا اخر من جهة
الشمال في ارادة ناحية السد مخرج ياجوج وماجوج واستمر اخذا فيه حتى اذا بلغ
في مسيره ذلك بين السدين اي الجبلين وهما جبلان ارمينية واذربيجان وقيل
جبلان في اواخر الشمال في وصل هذا المكان في مقطع بلاد الترك من ورائهما ياجوج
وماجوج قال الرازي والاظهر ان موضع السد في ناحية الشمال سد الاسكندر ما
بينهما كما سياتي وقرا ابن كثير وابو عمرو وحفص بفتح السين والباقون بضمها وهما
لغتان معناهما واحد وقال عكرمة ما كان من صنع بني ادم فهو السد بالفتح وما كان
من صنع الله فهو بالضم وقاله ابو عمرو وقيل بالعكس وجد من دونهما اي بقربهما من الجانب
الذي هو ادنى منهما الى الجهة التي اتى منها ذو القرنين قوما اي امة من الناس لغتهم
في غاية البعد من لغات بقية الناس لبعد بلادهم من بقية البلاد فهم لذلك لا يكادون
اي لا يقربون يفقهون اي يفهمون قولا ممن مع ذي القرنين فهما جيدا كما يفهم غيرهم
لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرا حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف والباقون
بفتحهما وقال ابن عباس لا يفقهون كلام احد ولا يفهم الناس كلامهم واستشكل بقولهم
قالوا يا ذا القرنين واجيب بانه تكلم عنهم مترجم ممن هو مجاورهم ويفهم كلامهم
ان ياجوج وماجوج وهما اسمان اعجميان لقبيلتين فلم ينصرفا وقرا عاصم
بهمزة ساكنة بعد الياء والميم والباقون بالالف فيهما وهما لغتان اصلهما من اجيج

يفرش هم

BULAC

النار وهو ضوؤها وشررها شبهوا به لكثرتهم وشدتهم وهم من اولاد يافث بن نوح عليه
السلام قال الضحاك هم جيل من الترك قال السدي الترك سرية من ياجوج وماجوج
خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة انهم
اثنان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على احدى وعشرين قبيلة وبقيت قبيلة
واحدة فهم الترك سموا الترك لانهم تركوا خارجين قال اهل التواريخ اولاد نوح عليه
السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام ابو العرب والعجم والروم وحام ابو الحبشة
والزنج والنوبة ويافث ابو الترك والخزر والصقالبة وياجوج وماجوج وقال
ابن عباس في رواية عطاء هم عشرة اجزاء وولد ادم كلهم جزء وروي عن حذيفة مرفوعا
ان ياجوج امة وماجوج امة وكل امة اربعمائة الف امة لا يموت الرجل منهم حتى
ينظر الى الف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح وهم من ولد ادم يسيرون الى خراب
الارض وقال هم ثلاثة اصناف صنف منهم امثال الارز شجر بالشام طوله عشرون
ومائة ذراع في السماء وصنف منهم طوله وعرضه سواء عشرون ومائة وهؤلاء لا تقوم لهم
الجبال ولا الحديد وصنف يفترش احد اذنيه ويلتحف بالاخرى لا يمرون بفيل ولا وحش
ولا خنزير الا اكلوه ومن مات منهم اكلوه مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون
انهار المشرق وبحيرة طبرية ومنهم من اثبت لهم مخاليب في اظفارهم واضراس كاضراس
السباع وعن علي رضي الله تعالى عنه انه قال منهم من طوله شبر ومنهم من هو مفرط
في الطول وقال كعب هم نادرة في ولد ادم وذلك ان ادم احتلم ذات يوم وامتزجت
نطفته بالتراب فخلق الله من ذلك الماء ياجوج وماجوج فهم يتصلون بنا من جهة
الاب دون الام وذكر وهب بن منبه ان ذا القرنين كان رجلا من الروم بن عجوز
فلما بلغ كان عبدا صالحا قال الله اني باعثك الى امم مختلفة السنتهم منهم امتان
بينهما طول الارض احديهما عند مغرب الشمس يقال لها ناسك والاخرى عند مطلعها
يقال لها منسك وامتان بينهما عرض الارض احديهما في القطر الايمن يقال لها هاويل
والاخرى في قطر الارض الايسر يقال لها ناويل وامم في وسط الارض منهم الجن والانس
وياجوج وماجوج فقال ذو القرنين باي قوة اكاثرهم وباي لسان اناطقهم قال
الله تعالى اني ساطوقك وابسط لك لسانك واشد عضدك فلا يهولك شيء والبسك
الهيبة فلا يروع لك شيء واسخر لك النور والظلمة واجعلهما من جنودك تهديك
النور من امامك وتحوطك الظلمة من ورائك فانطلق حتى اتى مغرب الشمس
فوجد جمعا وعددا لا يحصيه الا الله تعالى فكاثرهم بالظلمة حتى جمعهم في مكان واحد
فدعاهم الى الله تعالى والى عبادته فمنهم من امن ومنهم من صد عنه فعمد الى الذين
تولوا عنه وادخل عليهم الظلمة فدخلت اجوافهم وبيوتهم فدخلوا في دعوته فجند
من اهل المغرب جندا عظيما وانطلق يقودهم والظلمة تسوقهم حتى اتى هاويل
فعمل فيهم كعمله في ناسك ثم مضى حتى انتهى الى منسك عند مطلع الشمس فعمل فيها
وجند منها جنودا كفعله في الامتين ثم اخذ بناحية الارض اليسرى فاتى ناويل
فعمل فيها كعمله فيما قبلها ثم عمد الى الامم التي وسط الارض فلما كان مما يلي منقطع
الترك نحو المشرق قالت له امة صالحة من الانس يا ذا القرنين ان بين هذين الجبلين

خلقا

خلقا اشباه البهائم اى وهم ياجوج وماجوج مفسدون فى الارض بانواع الفساد
يغترسون الدواب والوحوش والسباع ويأكلون الحيات والعقارب وكل ذى روح
خلق الله فى الارض ويسيئون بزاد خلق كثير يأتيهم فلا شك انهم سيملكون الارض ويظهرون
عليها ويفسدون فيها وقال الكلبى فسادهم انهم كانوا يخرجون ايام الربيع الى ارضهم
فلا يدعون فيها شيأ اخضر الا اكلوه ولا يابسا الا احتملوه وادخلوه ارضهم وقد القوا
منهم اذى شديد او قتالا وقيل فسادهم انهم كانوا يأكلون الناس وقيل معناه انهم
سيفسدون فى الارض بعد خروجهم فهل نجعل لك خرجا اى جعلا من المال وقرأ حمزة
والكسائى بفتح الراء والباقون بسكونها والالف بعدها فقيل بمعنى وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك على ان نجعل فى جميع ما بيننا وبينهم
من الارض التى يمكن ان يوصلهم البنا منها بما ذكر الله تعالى من الكلمة سدا اى حاجزا بين هذين
الجبلين فلا يصلون الينا وقرأ نافع وابن عامر وشعبة برفع السين والباقون بالنصب
قال لهم ذو القرنين ما مكنى فيه ربى اى الحسن الذى مكنونى منه من الاموال والرجال
والتوصل الى جميع الممكن للمملوك خير من خرجكم الذى تريدون بذله كما قال سليمان
عليه السلام فما اتانى الله خير مما اتاكم وقرأ ابن كثير ونافع مكنونى بنونين مكسورة والباقون بنون
واحدة مكسورة مشددة فاعينونى بقوة اى انى لا اريد المال بل اعينونى بابدانكم
وقوتكم وبالالات التى اتقوى بها فى فعل ذلك فانما معى ما به قوة للقتال مما يكون
من اتخاذه لامثال هذا اجعل بينكم اى بين ما تحتضبون به وبينهم ردما اى حاجزا حصينا
موثقا بعضه فوق بعض مع التلاصق والتلاحم وهو اعظم من السد من قولهم ثوب
ردم اذا كان رقاع فوق رقاع فالوا وما تلك القوة قال فعلة وصناع يحسنون
البنا قالوا وما تلك الالات قال ائتونى اى اعطونى زبر الحديد اى قطعه وهو جمع زبرة
كغرفة وغرف قال الخليل الزبرة من الحديد القطعة الضخمة فاتوه وبالحطب حفر له
الاساس حتى بلغ الماء وجعل الاساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد
بينهما على الحطب والفحم حتى اذا ساوى اى بذلك البنا بين الصدفين اى بين جانبى
الجبلين اى سوى بين طرفى الجبلين سميا بذلك لانهما يتصادفان اى يتقابلان من صدفه
صادفت الرجل اى لاقيته وقابلته وقرأ ابن كثير وابو عمرو وابن عامر برفع الصاد والدال
وشعبة برفع الصاد وسكون الدال والباقون بنصب الصاد والدال ثم وضع المنافخ واطلق
النار فى الحطب والفحم وقال للعملة انفخوا فنفخوا حتى اذا جعله نارا اى كالنار
قال ائتونى اى اعطونى افرغ عليه قطرا اى اصب النحاس المذاب على الحديد المحمى فصبه
عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض وصار جبلا صلدا قال الزمخشرى فعل ما بين الجبلين
مائة فرسخ وروى انه عرضه كان خمسين ذراعا وارتفاعه مائتى ذراع وعن قتادة قال
ذكر لنا ان رجلا وفى رواية عن رجل من اهل المدينة قال يا رسول الله قد رايت سد
ياجوج وماجوج قال انعتى لى قال كالبرد المحبر طريقه سوداء وطريقه حمراء وهذه تحفة
عظيمة ان كان نبيا او كرامة ان لم يكن لان هذه الزمرد الكبيرة اذا نفخ عليها حتى صارت كالنار
لم تقدر الحيوان على القرب منها والنفخ عليها لا يكون الا بالقرب منها فكانه تعالى صرف تلك الحرارة
العظيمة عن ابدانهم واثبتها فى النافخين عليها حتى تمكنوا من العمل فيه تنبيها على ان قطرا هو المنازع فى

مفعولة بعد الالف وبعدها نون ردم

وهذه الآية اشهر امثلة النحاة في باب التنازع وبها تمسك البصريون على ان اعمال الثاني
من العاملين المتوجهين نحو معمول واحد اولى اذ لو كان قطرا مفعول آتوني لاضمر مفعول
افرغ حذرا من الالباس ثم قال تعالى فما اي فتسبب عن ذلك انه لما اكمل عمل الردم
واحكمه ما اسطاعوا اي ياجوج وماجوج وغيرهم ان يظهروه اي يعلوا ظهره لعلوه
وملاسته وقرا حمزة بتشديد الطا والباقون بالتخفيف وما استطاعوا له نقبا
اي خرقا لصلابته وسمكه وزيادة التا هنا تدل على ان العلو عليه اصعب من نقبه
لارتفاعه وصلابته والتحام بعضه ببعض حتى صار سبيكة واحدة من حديد ونحاس
في علو الجبل فانهم ولو احتالوا ببنا درج من جانبهم او وضع تراب حتى ظهروا عليه لم ينفعهم
ذلك لانهم لا حيلة لهم على النزول من الجانب الاخر ويؤيده انهم انما يخرجون في اخر
الزمان بنقبه لا بظهوره ولا ينافي نفي الاستطاعة لنقبه ما رواه الامام احمد
والترمذي في التفسير وابن ماجه في الفتن عن ابي رافع عن ابي هريرة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال ان ياجوج وماجوج ليحفرون السد كل يوم حتى اذا
كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعودون
اليه كاشد ما كان حتى اذا بلغت مدتهم واراد الله تعالى ان يبعثهم على الناس حفروا
حتى اذا كانوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا ان شا
الله تعالى فيستثني فيعودون اليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون
على الناس الحديث وفي حديث الصحيحين عن زينب بنت جحش عن النبي صلى الله
عليه وسلم فتح اليوم من ردم ياجوج وماجوج مثل هذا وحلق وحلق رسول
الله صلى الله عليه وسلم ورواه عن ابي هريرة وفيه مثل هذا وعقد تسعين لان
هذا في اخر الزمان ثم كانه قيل فما قال حين فراغه قيل قال هذا اي السد اي
الاقدار عليه رحمة اي نعمة من ربي اي المحسن الي باقداري عليه ومنع الفساد به
فاذا جا وعد ربي بقرب قيام الساعة او بوقت خروجهم جعله دكا اي مدكوكا
مبسوطا روي انهم يخرجون على الناس فيتبعون المياه ويتحصن الناس في حصونهم
منهم فيرمون بسهامهم الى السما فترجع مخضبة بالدما فيقولون قهرنا من في الارض
وعلونا من في السما قسوة وعلوا فيبعث الله تعالى عليهم نغفا في رقابهم وفي رواية
في اذانهم فيهلكون قال صلى الله عليه وسلم فوالذي نفسي بيده ان دواب الارض
لتسمن وتشكر من لحومهم شكرا اخرجه الترمذي قوله قسوة وعلوا اي غلظة وفظاظة
وتكبرا والنغف دود يخرج في انوف الابل والغنم وقوله وتشكر من لحومهم شكرا يقال
تشكر الشاة شكرا حين امتلا ضرعها لبنا والمعنى انها تملي اجسادها لحما وتسمن وعن
النواس بن سمعان قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة
فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طايفة النخل فلما رحنا اليه عرف ذلك فينا فقال
ما شانكم قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى
ظنناه في طايفة النخل فقال غير الدجال اخوفني عليكم ان يخرج وانا فيكم فانا حجيجه
دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم انه
شاب قطط اي شديد الجعودة وقيل حسن الجعودة عينه طافية اي بارزة

وقيل

وقيل المخسوفة كاني اشبهه بعبد العزى بن قطن فمن ادركه منكم فليقرا عليه فواتح سورة
الكهف انه خارج حلة بين الشام والعراق فعاث اي افسد يمينا وعاث شمالا يا عباد الله
فاثبتوا قلنا يا رسول الله وما مكثه في الارض قال اربعون يوما يوم كسنة ويوم كشهر
ويوم كجمعة وساير ايامه كايامكم قلنا يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة ايكفينا فيه
صلاة يوم قال لا اقدروا له قدره اي واليوم الثاني والثالث كذلك وسكت عن ذلك
للعلم به من الاول قلنا يا رسول الله وما اسراعه في الارض قال كالغيث استدبرته
الريح فياتي على القوم فيدعوهم فيومنون به ويستجيبون له فيامر السما فتمطر والارض
فتنبت وتروح عليهم سارحتهم اطول ما كانت ذرا واسبغه ضروعا وامد خواصر ثم
ياتي القوم فيدعوهم فيردون عليه فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بايديهم شي من اموالهم
ويمر بالخربة فيقول لها اخرجي كنزك فيتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ثم يدعو رجلا
ممتلا شابا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه
يضحك فبينما هو كذلك اذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضا شرقي
دمشق بين مهرودتين اي حلتين واضعا كفيه على اجنحة ملكين اذا طاطا راسه قطر
واذا رفعه تحدر منه مثل جمان كاللولو فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه الا مات ونفسه
ينتهي حيث ينتهي طرفه حتى يدركه بباب لد قرية بالشام قريبة من الرملة فيقتله
ثم ياتي عيسى بن مريم قد عصمهم الله تعالى منه فيمسح عن وجوههم ويخبرهم بدرجاتهم في الجنة
فبينما هو كذلك اذا وحي الله تعالى الى عيسى اني قد اخرجت عبادا لي لا يدان لاحد بقتالهم
فحوز عبادي الى الطور ويبعث ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر اوايلهم
على بحيرة طبرية فيشربوا ما فيها ويمر اخرهم فيقول لقد كان بهذه مرة ما ويحصر نبي الله واصحابه
حتى يكون راس الثور لاحدهم خير من ماية دينار لاحدكم اليوم فيرغب نبي الله عيسى
واصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى عليهم النغف وهو بالتحريك دود يكون في انوف
الابل والغنم كما مر واحدتها نغفة فيصبحون فرسا اي قتلا الواحد فريس ثم يهبط نبي
الله تعالى عيسى واصحابه الى الارض فلا يجدون في الارض موضع شبر الا ملاه زهمهم ونتنهم
فيرغب نبي الله عيسى واصحابه الى الله تعالى فيرسل الله تعالى طيرا كاعناق البخت
فيحملهم حيث شا الله تعالى ثم يرسل الله تعالى مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل
الارض حتى يتركها كالزلفة وهي بالتحريك جعل الله زلف مصانع الما ويجمع على المزالف
ايضا اي تصير الارض كانها مصنعة من مصانع الما وقيل كالمراة وقيل الزلفة الروضة
وقيل بالقاف ايضا ثم يقال للارض انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تاكل العصابة
من الرمانة ويستظلون بقحفها ويطاول في الرسل وهو بتحريك الرا والسين ما كان من الابل
والغنم من عشرة الى خمسة وعشرين حتى ان اللقحة من الابل لتكفي الفئام من الناس وهو
مهموز الجماعة الكثيرة واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم
لتكفي الفخذ من الناس فبينما هم كذلك اذ بعث الله تعالى عليهم ريحا طيبة فتاخذهم تحت
اباطهم فتقبض روح كل مومن وكل مسلم وتبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج
الحمر فعليهم تقوم الساعة وكان وعد ربي الذي وعد به في خروج ياجوج وماجوج
واحتراقهم الارض وافسادهم لها قرب قيام الساعة حقا كاينا لا محالة فلذلك اعان

حيث

قوم مر

من رقابهم

تعالى على خدمته هذا اخر حكاية ذي القرنين وفي القصة ان ذا القرنين دخل الظلمة فلما
رجع توفي بشبر زور وذكر بعضهم ان عمره كان نيفا وثلاثين سنة سبحان من يدوم عزه وبقاه
ثم انه تعالى قال عاطفا على ما تقريره فقد بان امر ذي القرنين اي بيان وصدق في
قوله فاذا جاء وعد ربي فانه اذا جاء وعدنا جعلناه بقدرتنا التي نؤتيها ليأجوج
ومأجوج دكا فاخرجناهم على الناس بعد خروج الدجال وتركنا بعضهم اي يأجوج ومأجوج
يومئذ اي حين يخرجون يموج اي يضطرب في بعض كموج البحر او يموج بعض الخلق في بعض
فيضطربون ويختلطون انسهم وجنهم حيارى ويؤيده ونفخ في الصور اي القرن النفخة
الثانية لقوله تعالى فجمعناهم اي الخلائق في مكان واحد يوم القيامة قال البقاعي ويجوز
ان تكون هذه الفاء الفصيحة فيكون المراد النفخة الاولى اي ونفخ فمات الخلائق كلهم فبليت
اجسامهم وتفتتت عظامهم كما كان من تقدمهم ثم نفخ النفخة الثانية فجمعناهم من التراب
بعد تمزقهم وتفرقهم في اقطار الارض بالسيول والرياح وغير ذلك جمعا فامتناهم دفعة
واحدة كلمح البصر وحشرناهم الى الموقف للحساب ثم الثواب او العقاب وعرضنا اي اظهرنا
جهنم يومئذ اي اذا جمعناهم لذلك للكافرين عرضا ظاهرا لهم كل ما فيها من الاهوال
وهم لا يجدون عنها مصرفا ثم وصفهم بما اوجب لهم ذلك بقوله تعالى الذين كانت كونا
كانه جبلة لهم اعينهم وهو بدل من الكافرين في غطاء عن ذكري اي عن القرآن فهم لا يهتدون
به وعما جعلنا على الارض من زينة دليلا على الساعة بافنائه ثم احيائه واعادته
بعد ابدائه وكانوا بما جعلناهم عليه لا يستطيعون سمعا اي لا يقدرون ان يسمعوا من
النبي صلى الله عليه وسلم ما يتلوا عليهم بفضائله فلا يؤمنون به ولما بين تعالى امر الكافرين
انهم اعرضوا عن الذكر وعن استماع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم اتبعه بقوله تعالى
افحسب الذين كفروا ان يتخذوا عبادي من الاحياء كالملائكة وعزير والمسيح والاموات
كالاصنام من دوني وقوله تعالى اولياء اي اربابا مفعول ثان لاتخذوا والمفعول الثاني
لحسب محذوف والمعنى اظنوا ان الاتخاذ المذكور ينفعهم ولا يغضبني ولا اعاقبهم عليه
كلا وقرأ نافع وابو عمرو بفتح الياء والباقون بسكونها وهم على مراتبهم في المد ولما كان
معنى الاستفهام الانكاري ليس الامر كذلك حسن جدا قوله تعالى مؤكدا لاجل انكارهم
انا اعتدنا جهنم التي تقدم انا عرضناها لهم للكافرين هؤلاء وغيرهم نزلا اي هي معدة لهم
كالمنزل المعد للضيف وهذا على سبيل التهكم ونظيره قوله تعالى فبشرهم بعذاب اليم
ثم ذكر تعالى ما فيه تنبيه على جهل القوم فقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم
هل ننبئكم اي اخبركم وادغم الكسائي لام هل في النون والباقون بالاظهار بالاخسرين اعمالا
اي الذين اتعبوا انفسهم في عمل يرجون به فضلا ونوالا فنالوا هلاكا وبوارا واختلفوا
فيهم فقال ابن عباس وسعيد بن ابي وقاص هم اليهود والنصارى وهو قول مجاهد
قال سعيد بن ابي وقاص اما اليهود فكفروا بالنار واما النصارى
فكفروا بالجنة فقالوا لا طعام فيها ولا شراب انتهى قال البقاعي وكذا قال اليهود لان الفريقين
انكروا الحشر الجثماني وخصوه بالروحاني وقيل هم الذين حبسوا انفسهم في الصوامع تنبيه
اعمالا تمييز للاخسرين وجمع عمل وان كان مصدرا لتنوع اعمالهم ثم وصفهم تعالى بضد ما يدعونه
لانفسهم من نجاح السعي واحسان الصنع فقال تعالى الذين ضل اي ضاع وبطل سعيهم في الحياة الدنيا

لكفرهم

لكفرهم تنبيه محل الجر نعتا او بدلا او بيانا او النصب على الذم او الرفع على الخبر المحذوف فانه
جواب السؤال ومعنى خسرانهم ان مثلهم كمن يشتري سلعة يرجوا فيها ربحا فخسر وخاب سعيه كذلك
اعمال هؤلاء الذين اتعبوا انفسهم مع ضلالهم فبطل جدهم واجتهادهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون اي يظنون وقرا ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين والباقون بالكسر انهم يحسنون
صنعا اي عملا يجازون عليه لاعتقادهم انهم على الحق ثم بين تعالى السبب في بطلان سعيهم
بقوله تعالى اولئك اي البعداء البغضاء الذين كفروا بآيات ربهم اي بدلائل توحيده
من القرآن وغيره ولقائه اي رؤيته لانه يقال لقيت فلانا اي رأيته فان قيل اللقاء
عبارة عن الوصول قال الله تعالى فالتقى الماء على امر قد قدر وذلك في حق الله تعالى
محال فوجب حمله على لقاء ثواب الله كما قاله بعض المفسرين اجيب بان لفظ اللقاء وان
كان عبارة عن الوصول الا ان استعماله في الرؤية مجاز ظاهر مشهور والذي يقول ان
المراد به لقاء ثواب الله قال لا يتم الا بالاضمار وحمل اللفظ على المجاز المتعارف المشهور
اولى من حمله على ما يحتاج الى الاضمار قال تعالى فحبطت اي فبسبب جحدهم الدلائل
بطلت اعمالهم فصارت هباء منثورا فلا يثابون عليها وفي قوله تعالى فلا نقيم
لهم يوم القيامة وزنا قولان احدهما ان نزدري بهم وليس لهم عندنا وزن ومقدار
تقول العرب ما لفلان عندي وزن اي قدر لخسته وروى ابو هريرة عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم انه قال انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن
عند الله جناح بعوضة وقال اقرؤا فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا والثاني
لا نقيم لهم ميزانا لان الميزان انما يوضع لاهل الحسنات والسيئات من الموحدين
ليتميز مقدار الطاعات ومقدار السيئات وقال ابو سعيد الخدري يأتي ناس باعمال
يوم القيامة من عندهم في التعظيم كجبال تهامة فاذا وزنوها لم تزن شيئا فذلك
قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ولما كان هذا السياق في الدلالة على ان لهم
جهنم اوضح من الشمس قال تعالى ذلك اي الامر العظيم الذي بيناه من وعيدهم
جزاؤهم ثم بين ذلك الجزاء بقوله تعالى جهنم وصرح بالسببية بقوله تعالى بما كفروا
اي بما اوقعوا التغطية للدلائل واتخذوا آياتي الدالة على وحدانيتنا ورسلي
المؤيدين بالمعجزات الظاهرات هزوا اي مهزوا بهما فلم يكتفوا بالكفر الذي هو طعن
في الالهية حتى ضموا اليه الهزء والذي هو اعظم احتقار ولما بين سبحانه وتعالى ما لاحد
قسمي اهل الجمع تنفيرا عنهم بين ما للآخر على تقدير الجواب لسؤال يقتضيه الحال
ترغيبا في اتباعهم والاقتداء بهم بقوله تعالى ان الذين آمنوا اي باشروا الايمان وعملوا
تصديقا لايمانهم الصالحات من الخصال كانت لهم اي في علم الله قبل ان يخلقوا لبناء اعمالهم
على الاساس جنات اي بساتين الفردوس اي اعلا الجنة واوسطها والاضافة اليه
للبيان روي عن ابي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال
اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه اوسط الجنة واعلا الجنة وفوقه عرش
الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة وقال كعب ليس في الجنان جنة اعلا من جنة الفردوس
فيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وقال قتادة الفردوس ربوة الجنة
واوسطها وافضلها وارفعها وقال كعب الفردوس هو البستان الذي فيه الاعناب

وقال مجاهد هو البستان بالرومية وقال الزجاج هي بالرومية منقول الى لفظ العربية
وقال عكرمة هي الجنة بلسان الحبش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة الاشجار نزلا اي
منزلا كما كان الشعير والاغلال لاوليك نزلا وقوله تعالى خالدين فيها حال مقدرة
لا يبغون اي يريدون ادنى ارادة عنها حولا اي تحويلا الى غيرها قال ابن عباس لا
يريدون ان يتحولوا عنها كما ينتقل الرجل من دار اذا لم توافقه الى دار اخرى ولما ذكر
تعالى في هذه السورة انواع الدلائل والبينات وشرح فيها اقاصيص الاولين نبه على حال
كمال القران بقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قل يا اشرف الخلق للخلق لو كان البحر
اي ماؤه على عظمته عندكم مدادا وهو اسم لما يمد به الشي كالحبر للدواة والسليط للسراج
لكلمات اي لكتب كلمات ربي اي المحسن الي لنفد اي فني مع الضعف فنا لا تدارك له
البحر لانه جسم متناه قبل ان تنفد اي تفنى وتفرغ كلمات ربي لان معلوماته تعالى
غير متناهية والمتناهي لا يفي البتة بغير المتناهي وقرا حمزة والكسائي بالياء التحتية
على التذكير والباقون بالفوقية على التانيث ولما لم يكن احد غيره يقدر على امداد البحر
قال تعالى ولو جئنا بمثله اي بمثل البحر الموجود مددا اي زيادة ومعونة ونظيره قوله
تعالى ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله
واختلف في سبب نزول هذه الاية فقال البغوي وابن عباس قالت اليهود تزعم يا محمد
انا قد اوتينا الحكمة وفي كتابك ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا ثم تقول وما
اوتيتم من العلم الا قليلا فانزل الله تعالى هذه الاية وقال البيضاوي وسبب نزوله
ان اليهود قالوا في كتابكم ومن يوت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا وتقرر وما اوتيتم من العلم
الا قليلا انتهى قال في الكشاف يعني ان ذلك خير كثير ولكنه قطرة من بحر كلمات الله وقيل
لما نزل وما اوتيتم من العلم الا قليلا قالت اليهود اوتينا التورية وفيها علم كل شي فانزل
الله تعالى هذه الاية ولما كانوا ربما قالوا ما لك لا تحدث من هذه الكلمات بكل ما
سالنا عنه قال الله تعالى قل يا خير الخلق لهم انما انا في استبداد بالقدرة على ايجاد
المعدوم والاخبار بالغيب بشر مثلكم اي لا امر لي ولا قدرة الا ما يقدرني ربي عليه ولكن
يوحى الي اي من الله تعالى الذي خصني بالرسالة كالوحي الى الرسل قبلي انما الهكم الذي يجب له ان
يعبد اله واحد لا ينقسم بمجانسة ولا غيرها قادر على ما يريد لا منازع له لم يوخر جواب
ما سالتموني عنه من عجز ولا جهل هذا الذي يعني كل احد علمه واما ما سالتم عنه
في امر الروح والقصتين تعنتا الي فما مر لو جهلتموه ما ضركم جهله فمن اي فتسبب
عن وحدته المستلزمة لقدرته انه من كان يرجوا لقاء ربه اي يخاف المصير اليه وقيل
يامل رؤية ربه والرجا يكون بمعنى الخوف والامل جميعا قال الشاعر

فلا كل ما نرجوا من الخير كاين ولا كل ما نرجوا من الشر واقع

فجمع بين المعنيين فليعمل عملا ولو قليلا صالحا يرتضيه الله ولا يشرك اي وليكن ذلك العمل
مبنيا على الاساس وهو ان لا يشرك ولو بالرياء بعبادة ربه احدا فاذا عمل ذلك جاز فخار
علوم الدنيا والاخرة روي ان جندب بن زهير قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال
اني لاعمل العمل لله فاذا اطلع عليه سرني فقال ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت
تصديقا وروي انه قال لك اجران اجر السر واجر العلانية وذلك اذا قصد ان يقتدى

به وروي انه صلى الله عليه وسلم قال اتقوا الشرك الاصغر قالوا وما الشرك الاصغر قال الريا
وعن ابي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى اني اغنى
الشركا عن الشرك فمن عمل عملا اشرك فيه غيري فانا منه بري هو للذي عمله وعن سعيد
ابن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا جمع الله تبارك وتعالى
الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه
فان الله اغنى الشركا عن الشرك والاية جامعة لخلاصتي العلم والعمل وهما التوحيد
والاخلاص في الطاعة خاتمة روي في فضايل سورة الكهف احاديث
كثيرة منها ما رواه الترمذي وغيره من قراها عند مضجعه كان له نورا يتلالا في
مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملايكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان
مضجعه بمكة كان له نورا يتلالا من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملايكة
يصلون عليه حتى يستيقظ وروى ابو الدردا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حفظ
عشر ايات من اول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوي وعنه عليه السلام
من قرا سورة الكهف من اخرها كانت له نورا من فرقه الى قدمه ولكن الذي رواه الامام احمد
من قرا اول سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قراها كلها كانت له نورا
من الارض الى السما وروى البغوي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من قرا اول سورة
الكهف واخرها كانت له نورا من قدمه الى راسه ومن قراها كلها كانت له نورا من الارض الى السما
فنسال الله تعالى ان ينور قلوبنا وان يغفر زلاتنا ولا يواخذنا بسوا فعالنا وان
يفعل ذلك بنا لدنيانا واولادنا واقاربنا واصحابنا ومشايخنا وجميع اخواننا
ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقد تم تفسير بعض معاني الجزء الثاني
من كلام ربنا العظيم بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه يوم المبارك
سادس عشر شوال من شهور سنة خمس وستين والف على يد مولفه
فقير رحمة ربه القريب محمد الشربيني الخطيب نفع الله تعالى به مولفه
ومن قراه او نقل منه او طالع فيه ولمن كان سببا في تاليفه بالموت
على الاسلام وان يجعله خالصا لوجهه الكريم وان ينفع به
وان يعيننا على اتمامه كما اعاننا على ذلك انه قريب
مجيب الدعوات لا يخيب من سال واعتمد عليه
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم
وكان الفراغ من كتابة هذا الجزء المبارك
ثاني عشر ربيع الثاني من شهور
سنة الف ماية واربعة
وعشرين بعد الالف
من الهجرة النبوية
على صاحبها افضل
الصلاة
والسلام

وكتب من خط المولف وكتبه افقر العباد
واحوجهم اليه محفوظ وتوبل عليه
بعد الكتابة بحسب الطاقة ولله
الحمد والمنة على ذلك

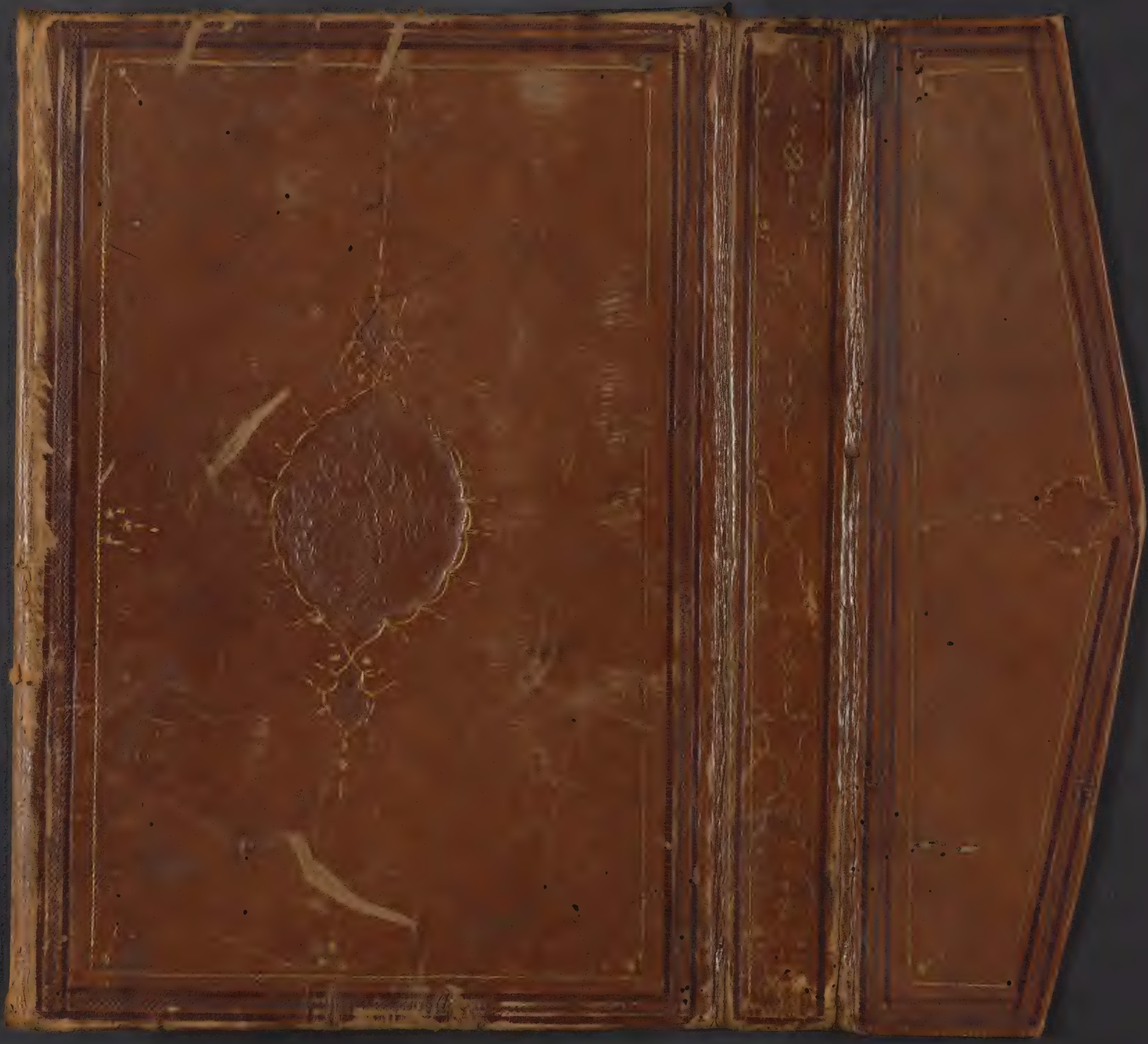

الجزء الثاني من تفسير القرآن للعلم العلامة وحبر الهمام
شيخ الاسلام ملك العلماء الاعلام
محمد الشربيني الخطيب قدس
الله برحمته واسكنه فسيح
جنته وصلى الله
على سيدنا محمد
وعلى آله
وصحبه وسلم

109
35

BULAC

Ms
ARABE
109
LA
Ms
45

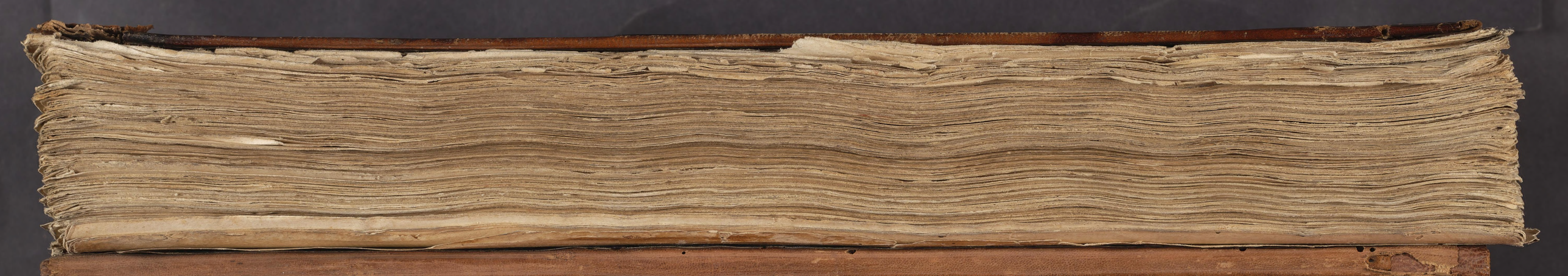

به ورفعه انه صلى الله عليه وسلم قال ألا أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر قال الرياء
وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله تعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي عمله وعن سعيد
ابن فضالة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا جمع الله تبارك وتعالى الناس ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان يشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه منه
فان الله أغنى الشركاء عن الشرك والآية جامعة للخاصتين العلم والعمل وهما التوحيد
والاخلاص في الطاعة خاتمة وفي فضائل سورة الكهف أحاديث
كثيرة منها ما رواه الترمذي وغيره من قرأها عند مضجعه كان له نورا يتلألأ إلى
مضجعه الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان
مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة
يصلون عليه حتى يستيقظ وروى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حفظ
عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال وقال البيضاوي وعنه عليه السلام
من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه وكذا الذي رواه الامام احمد
من قرأ أول سورة الكهف كانت له نورا من فرقه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا
من الأرض الى السماء وروى البغوي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من قرأ أول سورة
الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه الى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض الى
فسبحان الله تعالى ما أشد رأفته ورحمته بعباده المؤمنين
يفعل ذلك بهم لأنه ربهم وإلههم وخالقهم ورازقهم وسيدهم ومولاهم
وأحبهم لا إله إلا الله العلي العظيم وقد تم تفسير بعض معاني الخبر الثاني
من كلام ربنا العظيم بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه يوم السبت المبارك
سادس عشر شوال المكرم سنة خمس وستين ومائتين وألف على يد مولفه
فقير رحمة ربه الغني محمد الشربيني الخطيب بمنه الله تعالى ورحمته
ومن قرأه أو نقله فيه أو طالع فيه وكان كاتبا في تاليه أن يدعو له
على الاتمام وان يجعله خالصا لوجهه الكريم وان ينفع به
وان يعيننا على اتمامه كما اعاننا على ذلك انه قريب
مجيب الدعوات لا يخيب من سأله واعتمد عليه
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
وكان الفراغ من كتابة هذا الخبر المبارك
ثاني عشر ربيع الثاني من شهور
سنة ألف ومائة واربعة
وعشرين بعد الالف
من الهجرة النبوية
على صاحبها أفضل
الصلاة
والسلام

وكتبه من خطه الداثر وكتبه افتقر العباد
واخوفهم اليه محفوظ وتوبل عليه
بعد الكتابة بحسب الطاقة ولله
الحمد والمنة على ذلك